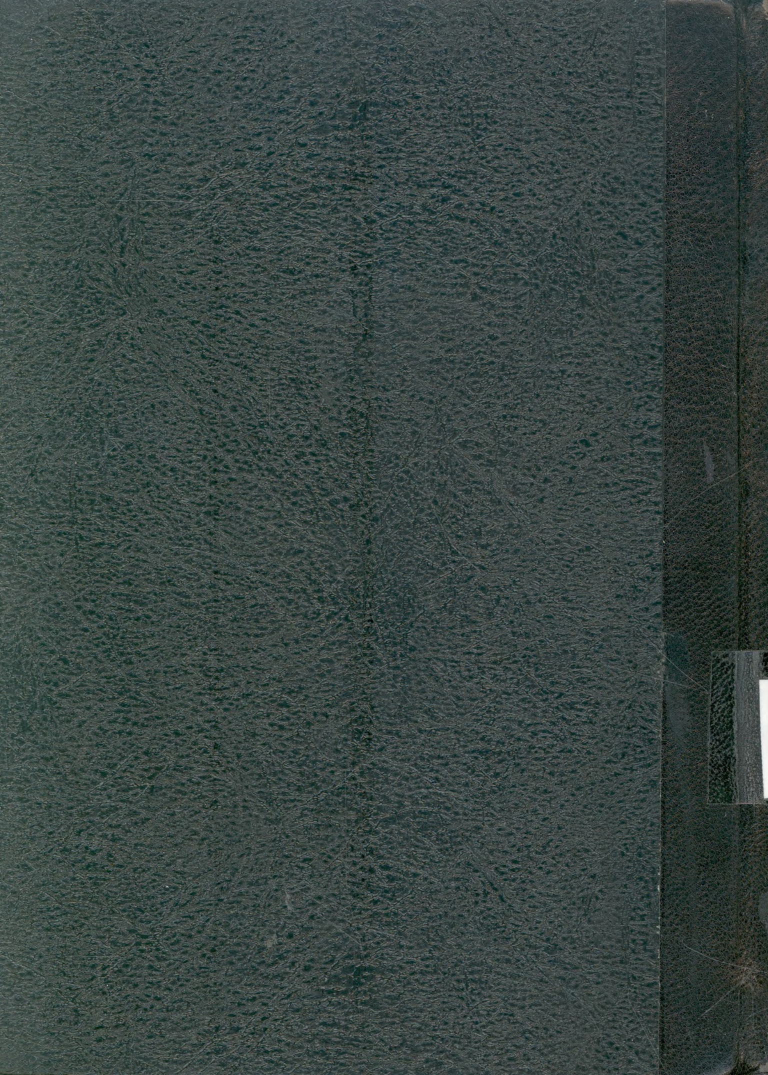


June — December 1936 | يونيو الى دسمبر سنة ١٩٣٦



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد التاسع والثمانون

AL-MUKTATAF

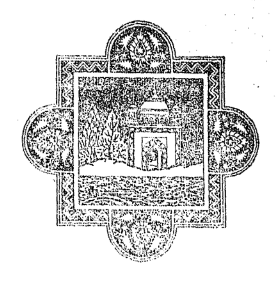
A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

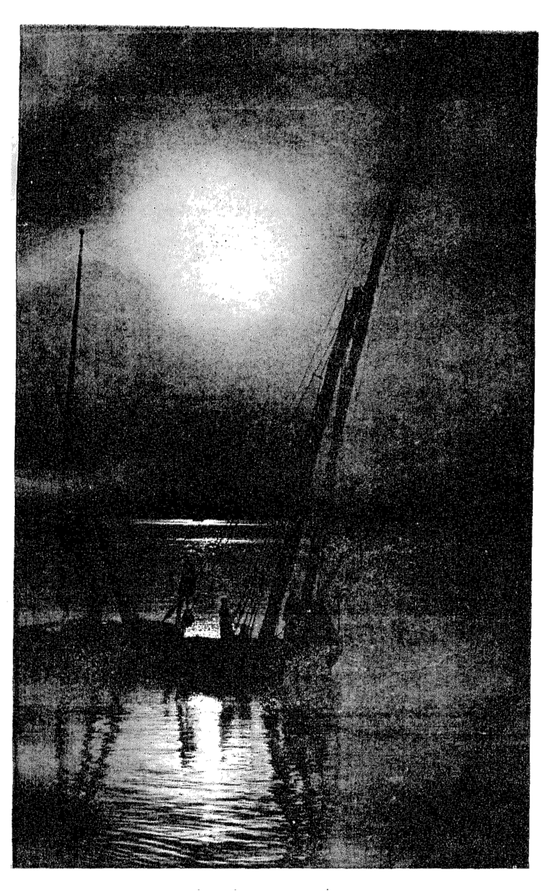
Edited by: FUAD SARRUF

VOL. 89

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد التاسع والثمانين





الغروب على النيل

[تصوير الدكتور احمد موسى]

المقتطف

الجزء الاول من المجلد التسعين

١ يناير سنة ١٩٣٧ — ١٨ شوال سنة ١٣٥٥

العلم في خدمة الانسان

الغدد والحياة

مشاهد رائعة من المباحث الحديثة
في علم المفرزات الداخلية

— ١ —

في سنة ١٤٧٤ باض ديك في مدينة بال فاستولى الهلع على قلب صاحبهِ فانبأ الحكام فحوكم الديك متهماً بالسحر فحكم عليهِ بالاعدام حرقاً. وفي سنة ١٩٢٣ أي بعد انقضاءِ اربعة قرون ونصف قرن على حادثة الديك، اعلن العلاَّمة كرو Crew احد اساتذة جامعة ادنبره ان دجاجة بيوضاً تحوَّلت ديكاً يفرز نُطفاً منوية. ولكن قولهُ هذا لم يحدث حدثاً ما، لان اللثام كان قد أميط خلال نصف القرن الاخير عن طائفة من اسرار الشق Sex في الطيور والمواشي بل وفي الانسان كذلك، بتقدم علم المفرزات الداخلية (اندوكرينولوجي :endocrinology)

وفي الولايات المتحدة الاميركية رجل ناهز الثمانين الآن، يدعى آبل John Jacob Abel عاش خلال هذا الانقلاب بل وكان احد زعمائهِ لانهُ اوَّل من حضَّر خلاصة نقية لاحد هذه المفرزات

ولد آبل في قرية على مقربةٍ من مدينة كليفلند من والدين هاجرا الى الولايات المتحدة الاميركية من فرتمبرج بالمانيا. لم يكن بين اسلافهِ من ناحية ابيهِ او من ناحية امهِ من اشتهر بالعلم، فنشأ فتىً عاديًّا وتلقى العلوم كسائر الفتيان الاميركيين، فلما كان مدركاً غادر الكلية

التي كان يتلقى العلم فيها ليرأس مدرسة انشئت في لابورت بولاية انديانا حيث درّس اللغة اللاتينية وعلمي الطبيعة والكيمياء . ولكنهُ لم يلبث طويلاً هناك ، فانتظم بعد ثلاث سنوات في جامعة مشيغن وتخرج منها وهو في السادسة والعشرين من العمر . وكان في خلال ذلك قد عني بتطبيق الطب على القانون الجنائي فعزم على دراسة الطب والقانون. ولكنهُ اتصل وهو في جامعة جونز هبكنز بالعالم الفسيولوجي نيول مارتن Newell Martin فاستهواهُ البحث في الكيمياء الفسيولوجية

ثم رحل الى اوربا فقضى سبع سنوات يتلقى العلوم من اساطينها—الطب السريريّ والجراحة والباثولوجية وعلم الاعصاب وعلم امراض العيون والكيمياء الحيوية — وفي سنة ١٨٨٨ أحرز رتبة دكتور في الطب M. D. من جامعة ستراسبورج

في خلال هذه السنوات ، تنبّه الى بوادر الانقلاب في علوم الطب . فتذكر قول پراسلسس اذ قال : « ان في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً عن العيون يصنع الأدوية ويصفها ويستعملها بحسب ما تقتضي الحال . ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية وهذا الطبيب لما أجدت مساعي جميع الأطباء ولعجز أي مخلوق على البسيطة عن الحياة » .كان پراسلسس قد أبعد بمباحثهِ علم الكيمياء عن السعي الى تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ،وعن البحث عن اكسير الحياة ، وبيَّن ان الكيمياء هي الطريق السويُّ الى تطبيق حقائق الطب على حاجة الانسان

فأحسَّ آبيل صدق هذه الكلمات ، واقتنع بأن معرفة الطبيعة والكيمياء معرفة صحيحة ، ولا سيما طبيعة السوائل المختلفة في الجسم والانساج والأعضاء ، وكيمياءها ، تساعد على فهم وظائفها وان هذا الفهم يضيف أداة جديدة فعَّالة الى حقيبة الطبيب . أي ان آبيل ، رأى بعين بصيرتهِ في أواخر العقد التاسع من القرن الماضي ، كيف يمكن ان تحوَّل كيمياء الأعشاب والاملاح ، الى الكيمياء الفسيولوجية ، كيمياء الانساج والأعضاء في الجسم الحيّ

وكان آبيل لا يزال في ڤينا ، يتلقى ما يستطيع تلقيهِ من علوم الطب ، إذ هزَّ العالم الاستاذ برون سيكار بتجاربهِ العجيبة . كان برون سيكار خليطاً غريباً من العالم المدقق والخياليّ المثاليّ. ولد في جزيرة على شاطىء افريقية من أم فرنسية وأب أميركي فنظم الشعر وألّف المسرحيات ثم مارس الطب . وذهب الى نيويورك وهو يظن انهُ أخفق ، فتزوج فتاة تمتُّ الى دانيال وبستر الخطيب الأميركي المشهور بنسب ، وتقلد منصب أستاذ الامراض العصبية في جامعة هارڤرد ثم انتقل أستاذاً للفسيولوجيا في كوليج ده فرانس ، فلما بلغ السنة الثانية والسبعين من عمرهِ ، أحسَّ بدبيب الشيخوخة يدبُّ فيهِ ، وكان لهُ رأيٌ بأن مفرزات الخصيتين تعيد نشاط الجسم وتحول دون ما يصيب الانساج من الهرم ، فعزم ان يمتحن بنفسهِ صحة رأيهِ هذا

وفي ٣١ مايو سنة ١٨٨٩ قرَّر امام جمعية علماء الحياة انهُ حقن نفسهُ تحت الجلد بخلاصة

مائية من المفرزات التي تفرزها خصيتا كلب . وقال ان هذا العلاج قد صدَّ أثر الشيخوخة عنهُ فاستعاد نشاطهُ وتوردت وجنتاهُ وتحسنت ذاكرتهُ . أما بحَّاث اليوم فيرجحون ان ما شعر به براون سيكار لم يكن الاَّ وهماً لان التجارب الدقيقة التي جربت في العهد الاخير بالحيوان والانسان لم تثبت ما قال ، ولكن تجربتهُ على كل حال ، كانت مستهلَّ بحث جديد ، صاغ لهُ الاستاذ كلود برنار — وهو العالم الذي احتل منصب أستاذ الفسيولوجيا بعد براون سيكار — كلمةً تستهوي وكانت تلك الكلمة « المفرزات الداخلية internal secretions »

— ٢ —

لما عاد آبيل الى أميركا دعي الى جامعة مشيغن ليكون أستاذاً للصيدلة فيها ، على ان ينفق كلَّ وقته اما في تعليم الموضوع وإما في البحث العلمي . فلما انشئت كلية الطب بجامعة جونز هبكنز سنة ١٨٩٣ انتقل اليها أستاذاً للصيدلة ورئيساً لقسم الكيمياء الفسيولوجية

بدأ آبيل بحثهُ الخاص بتحليل البول فكان أول من فصل الحامض الكرباميك من جسم الانسان

واذ كان يبحث في تركيب المادة الملونة في بشرة الانسان قرأ تجربة طريفة قام بها عالمان من علماء الانكليز اوليفر وشايفر. فعلم من وصف تجربتهما ان خلاصة مائية من الكظرين (شرف) اي الغدتين الادرناليتين ، اذا حقنت في عروق حيوان رفعت ضغط دمه . ثم وردت الانباء بان عالمين بولونيين اثبتا الحقيقة نفسها على حدة . فعزم في الحال ان يواصل البحث حتى يفوز بتحضير المادة التي تفعل هذا الفعل ، نقية من الشوائب

والكظران فصَّان صغيران صفراوان قائمان فوق الكليتين ويبلغ وزن كل منهما في الانسان البالغ اربعة غرامات وكان أول من وصفهما عالم مشرّح ايطالي يدعى برطولوميو اوستاكي وذلك في سنة ١٥٦٣ وكان العلماء يعلمون بعد اكتشافهما ان مقداراً كبيراً من الدم يجوزهما ولكن وظيفتهما ظلَّت سرًّا مغلقاً

اقبل آبيل على عمله وهو يعلم انهُ لا بدَّ لهُ من كميات كبيرة من هذه الغدد للقيام بتجاربه فاختار غدد الغنم لسهولة الحصول على ما يحتاج اليه منها . فكان يتناول هذه الغدد ويصنع منها شرائح رقيقةً ثم يجففها بتعريضها لحرارة درجتها ستون بالمقياس المئوي ثم يذيب المادة الدهنية التي فيها بالايثر فيحصل على مسحوق رمادي اللون يرفع محلولهُ المائي ضغط الدم في الحيوان

وفي سنة ١٨٩٧ تمكن آبيل بمساعدة البرت كروفورد من تحضير خلاصة نقية من الشوائب او تكاد تكون نقية في شكل مركَّب سلفات المونوبنزويل . وهذا المركّب هو اول مركّب حضّر

لمفرزات احدى الغدد الصمّ . وأعلن آبيل ذلك في ٦ مايو ١٨٩٧ لجمعية الاطباء الاميركية . الا ان المادة التي حضَّرها لم تكن المادة الصافية التي ترفع ضغط الدم بل كانت مركَّباً منها . واذ هو ماضٍ في البحث عن طريقه تمكنهُ من تحضير المادة الصافية زاره كيمائي ياباني يدعى جوكيشي تاكامين وذلك في خريف سنة ١٩٠٠ فطلب اليه ان يطلعهُ على طريقته وان يريهُ المركّب الذي يحضرهُ . فأصغى تاكامين بعناية الى شرح آبيل ثم عاد الى معمله الخاص في نيوجرزي وبعد قليل تمكن من عزل المادة الصافية باحداث تعديل يسير في طريقة آبيل فتسنى لهُ ان يحضر البلورات الاولى لهذه المادة ودعاها ادرينالين وشرع يبيعها . وقد تمكن ستولز Stolz بعد انقضاء خمس سنوات على عمل تاكامين من تحضير هذه المادة بالتركيب الصناعي في مصنع للاصباغ بالمانيا فكان عملهُ هذا نهاية تامة لمباحث الفسيولوجيين والصيدليين والكيميائيين الحيويين مدة خمسين سنة

هل ينشط آبيل الى اثبات انهُ سابق لتاكامين ? ذلك ما اجمع اصدقاؤهُ عليه . ولكنهُ أبى كان في وسعه حينئذٍ ان يصيب ثروة وافرة ، لشدّة إقبال الناس على ما كان يعرض في السوق من خلاصات الغدد المختلفة . ولكنهُ رفض أن يسخر المكتشفات العلمية للنفع الخاص . فقال في سنة ١٩١١ انهُ لقي احسن الجزاء عن عمله عند ما قبل الاسم الذي اختاره هو للمادة التي اشتهرت بالادرينالين . ذلك انهُ كان قد اختار لها اسم ايبنفرين (اللفظ من اصل يوناني يعني فوق الكلية) فاعترف بهذا الاسم اعترافاً رسميًّا في قائمة المواد الطبية (فرماكوبيا) الاميركية

واهمّ من هذا كلّه ان الطبّ اصاب في هذه المادة ، عقاراً يمكن القلب الضعيف من المضي في عمله بعد ان يبلغ حالة الاعياء . وحياة الوف من الناس تنقذ كلّ سنة من الموت باستعماله . ثم ان فعلهُ في قبض جدران الاوعية الدموية يحول دون النزف في الانف والاذن والحلق ويقف النزف الحادّ ويمنع التشنج في النزلة الشعبية

لم يقف العلماء في بحث الادرينالين عند هذا الحدّ فاكتشف كنُن (W. B. C. Cannon) سنة ١٩١٠ ان الكظرين تزيدان ما تفرزانه من هذه المادة عند ما يتعرَّض الجسم لانفعال عنيف . فهي مادة البطل والجبان . تؤثر في الاول فيقدم وفي الثاني فيحجم ويفرّ من النزال . وبهذا فسرت العادة القديمة في بعض الشعوب البدائية وهي عادة الجنود ان يأكلوا الكلى قبل القتال . ولكي يتأكد كنن من هذا الرأي امتحنهُ امتحاناً بديعاً في هرّة . اخذ من عروق الهرة وهي ساكنة مطمئنة قليلاً من الدم وحقنهُ في قطعة من عضلة المعدة في ارنب فلم يلاحظ اي تأثير لهُ في قبض العضلة . ثم اتى بكلب شديد النباح وواجه الهرّة به فأخافها وأغضبها ، فاخذ كنن من عروقها وهي منفعلة هذا الانفعال العنيف قليلاً من دمها واعاد تجربتهُ بعضلة الارنب ، فوجد العضلة تنقبض انقباضاً ظاهراً . فثبت ان الادرينالين زاد افرازه في

الدم في حالة الانفعال عند ما دخل الكلب النابح الحجرة . ولكنهُ لم يكتف بهذا . بل أحبّ ان يرى بعينيهِ فعل الادرينالين في عضل الهرة نفسها . فقدم لها غذاءً فيهِ املاح البزموت ، حتى يتمكن من رؤية حركة العضلة بالاشعة السينية . فلما دخل الكلب وهاجت الهرّة رأى انقباض العضلات بعينيهِ ثم حصل على النتيجة نفسها بحقن هرة بمحلول يحتوي على جزء من الادرينالين في ٢٠٠ مليون جزء من الماء

والمعروف الآن ان جزءًا من مليون جزء من الغرام من الادرينالين يرفع ضغط الانسان البالغ عشرة مليمترات

— ٣ —

واذ كان آبيل مكبًّا على البحث في الادرينالين ، اعلن اكتشاف مفرز داخلي آخر . وقد كان هذا الاكتشاف نتيجة البحث عن الاسلوب الذي تعتمد عليهِ الغدة الحلوة (البنكرياس) في افراز عصارتها الهضمية . كان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور احد العلماءِ الذين تصدُّوا لهذا البحث ، فاعتقد ان هناك اسلوبًا عصبيًّا بالغًا من التعقيد درجة تدق معرفتها عن عقل الانسان. ولكن عالمًا يدعى بايلس Bayliss كان في المعمل الفسيولوجي التابع لجامعة لندن وكان لهُ مساعد يدعى ستارلنغ Starling فشرعا في دراسة هذا الموضوع . وكان عملهما الاول ان يقطعا جميع الاعصاب الواصلة الى الغدة الحلوة ومراقبة افرازها ، فدهشا عند ما تبين لهما انها ماضية في الافراز بعد قطع الاعصاب . واذن فالاسلوب ليس عصبيًّا . قال ستارلنغ لبايلس : انهُ كيميائي

ولكن من يأخذ بالرأي اذا لم يستند الى تجربة ؟ فاعدًّا معدات التجربة وشرعا فيها في ١٦ يناير من سنة ١٩٠٢

فثبت لهما من الامتحان ان الخلايا التي تغطي جدار القسم الأول من المعى الصغير تفرز مادة كيميائية تدخل الدم من دون قناة معيّنة تسير فيها وتتصل بالحلوة فتحملها على افراز عصارتها الخاصة بالهضم

فأطلق ستارلنغ على هذه المادة اسمًا انكليزيًّا مركبًا من كلمتين معناها « رسول كيميائي » chemical messenger وصاغ هاردي W. B. Hardy لها اسم Hormone من أصل يوناني معناهُ « أحرّك » أو « أثير » . وقد استعمل هذا اللفظ على وجوه شتى في اللغة العربية . فعرّبهُ بعضهم فقيل « هرمون » و « هرمونات » وترجم بعضهم لفظي ستارلنغ واكتفى أحيانًا باستعمال لفظ «رسول » و «رسل» . واقترح الدكتور محمد شرف بك تخصيص لفظ « توْر » — والجمع « أتوار » ، ومعناهُ الرسول بين القوم . ولعلّ لفظ توْر والجمع أتوار خير ما يستعمل لكلمة

هرمون لان فيهِ معنى الرسول وعدم استعمالهِ لهذا المعنى المألوف يمكننا من تخصيصهِ للمعنى العلمي
والتوْر يطلق الآن على كل مادة كيمائية تفرز في ناحية من نواحي الجسم وتتصل بالدم مباشرةً من دون قناة وتسير فيهِ الى مختلف اطراف الجسم فتؤثر في الجسم تأثيراً عامًّا . فاذا تكلمنا الآن عن الجهاز العصبي في الجسم وجب كذلك ان نتكلم عن الجهاز الكيميائي او التوْري لانهُ من أساليب الطبيعة في محاولتها ربط أعضاء الجسم وتنسيق افعالها

بعد ذلك حضّرت خلاصة قوية من هذا التوْر دعيت « سكريتين » (من secrete اي يفرز) فاستعملها بايلس وغيره في تجربة تجارب أخرى ، فصبّ عليهِ معارضو تشريح الحيوانات للبحث الطبي جام غضبهم وسخريتهم حتى اضطرّ ان يرفع على سيدة قضية قذف ربحها ووهب المال الذي حُكم لهُ بهِ تعويضاً لاحدى الجمعيات الخيرية

ومما يذكر ان هذا التوْر لم يحضر نقيًّا بعد كما حضر الادرينالين ، مع ان بعضهم زعم في سنة ١٩٣٣ انهُ فاز بذلك

— ٤ —

وانقضت على اكتشاف السكريتين اثنتا عشرة سنة قبلما اكتشف توْر آخر . ففي يوم عيد الميلاد من سنة ١٩١٤ أعلن العالم كندل E. C. Kendall اكتشافه للتوْر المعروف باسم ثيروكسين وهو تور الغدة الدرقية

كان البحث عن هذا التوْر طريقاً وعراً مرصوفاً بحطام النظريات المهدّمة . ومع ان ما يوجد منهُ في الجسم في وقت ما لا يزيد على قدر يسير جدًّا ، الاَّ انهُ كافٍ لتمييز الذكيّ عن الابله . والحي النشيط عن الضعيف المتهدّل السائر الى القبر . بدأ كندل بحثهُ في معمل الباثولوجيا في مستشفى سانت لوقا بمدينة نيويورك سنة ١٩١٠ فبزّ وهو شابٌ علماء العالمين القديم والجديد ، ولكنهُ سار الى غرضهِ على اكتاف عشرات من الباحثين بل مئاتهم

وصف احد الاطباء الانكليز قبل مائة وخمسين سنة ثلاثة اعراض مرضية — جحوظ العينين وخفقان القلب وتضخم العنق — تقترن في الظاهر بتضخم الغدة الدرقية القائمة على جانبي الحنجرة والقصبة . ويبلغ متوسط وزن الغدة الدرقية في الانسان البالغ اوقية (ounce) ورؤيتها مستطاعة بمرآة . وكان يعرف المرض الذي يحدث هذه الاعراض باسم « مرض بيزدو » في المانيا وباسم « مرض غريف » في انكلترا . وحوالي سنة ١٨٥٠ درس طبيب انكليزي آخر طائفة من المصابين بالكرتينيسم ومن اعراضه البلادة العقلية فوجد هذه الحالة مقترنة بمرض غددهم الدرقية او حؤولها التام . والمصابون بهذا المرض كانوا معروفين في القرون السابقة

فعرف ان في بلدة بوزيل Bozil وسكانها لا يزيدون على ١٤١٢ نفساً ١٩٠ مصاباً به . بطونهم منتفخة متهدلة وعيونهم باردة جامدة ، وليس في اي عمل يعملونهُ دلالة نشاط او بارقة رجاء . خاب الطب في معالجتهم وماتوا على الغالب قبل بلوغ العاشرة من العمر . وفي سنة ١٨٥٨ بدأ الباحثون يجرّبون هذه التجارب في الحيوانات ليعلموا حقيقة الصلة بين الداء وحالة الغدة الدرقية فوجدوا انهُ اذا سُلّت الغدة من حيوانٍ مات ، فثبت ان هذه الغدة لا ندحة عنها للحياة

ولكن العالِم حذر . والحكم بان ازالة الغدة الدرقية سبب الموت لا يمكن ان يصبح مبرماً حتى تعاد التجربة ، ويتأكد المجرِّب ، انهُ لم يسلّ من جسم الحيوان اي عضوٍ حيوي غير الغدّة الدرقية ، فأعيدت التجارب بالقرود . وعني المجربون بان لا يسلّوا منها الاّ الغدة الدرقية ، فوجدوا ان القرود لم تمت ، ولكنها اصيبت باعراض كاعراض المصابين بضعف هذه الغدّة — وهي اعراض الخزج (شرف) اي «مكسيديما» وهو ينتج عن ضعف هذه الغدّة او نقص افرازها ومن اعراضهِ علاوة على البلادة العقلية كثافة البشرة وجفافها وانخفاض حرارة الجسم وضعف الفعل الجنسي . ثم جرّب طبيب سويسري تجربة من هذا القبيل برجل فوصل الى النتيجة نفسها ولكن الطبيب السويسري عوّض الذي سلّت غدتهُ الدرقية ، باعطائهِ قطعاً من درقيات الغنم وخلاصات منها ، فتحسنت حالتهُ قليلاً ثم توفي ويرجح ان الباعث على وفاتهِ اختلاط الخلاصة التي اعطيها بشوائب

فكانت هذه النتائج ، باعثاً على موالاة البحث والتجربة ، فصنع احد اطباء انكلترا خلاصة من الغدة الدرقية محلولة في الغليسرين وحقن بها امرأة مصابة « بالخزج » فنجت من الموت وعاشت حتى بلغت الرابعة والسبعين من العمر وعند ما توفيت سنة ١٩١٩ كانت قد استنفدت خلاصة الغدد الدرقية في ٨٧٠ خروفاً

ومع ذلك لم يكن احد يدري كيف نجت هذه السيدة من الموت

فكانت الخطوة التالية ان بومان Baumann تمكن من استخلاص مركب يوديّ Iodine من خلاصة الدرقية فأثبت بذلك ان اليود عنصر اساسي في مادة الدرقية الفعّالة . فاعاد اكتشافهُ هذا الى الذهن استعمال الحشائش البحرية في معالجة الجحوظ (الغواتر) من قرون متعدّدة . كان الناس في تلك الايام ، على شواطىء اميركا الجنوبية ، يجمعون حشائش البحار ويجففونها ويستعملونها في علاج الغواتر . ثم ان سكان كولومبيا بجنوب اميركا كانوا يستعملون مياه بعض الينابيع في هذا العلاج ايضاً . وقد ثبت الآن ان في الحشائش المذكورة وفي مياه تلك الينابيع يوداً الاّ ان المركّب الذي حضرهُ بومان كان غير متقن الصنع . فتعيّن على الباحثين ان يسعوا الى تحضير المادة الفعالة في الغدة الدرقية نقية صافية . ومضت السنون والضالة لا تزال ضالةً . وكان

العلماء يعرفون ان هذا القدر الذي تفرزهُ الدرقية يزيد افعال الجسم الحيوية . فاستعملت هذه الحقيقة لقياس قوّة الخلاصات التي تستخرج من الغدة . ولكن القياس لم يكن دقيقاً . واذن فالحاجة تقتضي قياساً ادقّ . وفي سنة ١٩١٢ اكتشف غودرناتش Gudernatsch ان الشراغيف (معلوف) وهي صغار الضفادع اذا غذيت بمقادير يسيرة من خلاصة الدرقية تحولت الى ضفادع تامة النمو تحولاً سريعاً بل بلغ من سرعة هذا التحوُّل انها اصبحت ضفادع تامة النمو وهي لا تزال في حجم الذّبان . ولما كان اول تحوُّل في هذه الضفادع قصر ذيلها ، ولما كانت هذه الناحية من التحوُّل تتبع مقدار الخلاصة التي تغذّى بها ، اتخذ العلماء من سرعة قصر الذيل في الشراغيف مقياساً لقوة خلاصات الدرقية وصفائها

على اكتاف هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم سار كندل الى هدفهِ توًّا ، فاستخلص الثيروكسين نقيًّا صافياً . استعمل في تجاربهِ ثلاثة اطنان من غددٍ درقية غضة استلّت من المواشي الذبيحة فاستخلص منها ٣٥ غراماً من المركّب الصافي . نعم اخطأ كندل اولاً في تقرير تركيب هذه المادة من الوجهة الكيميائية ، ولكن هرنغتن وبارجر توصلا في سنة ١٩٢٧ الى صنع بلوراتها بالتركيب الصناعي . وقد امتحن الثيروكسين الصناعي ، بكل اسلوب من اساليب الامتحان والتجربة بحقنهِ في المصابين بالخزج ومراقبة تأثيرهِ ، فثبت انهُ لا يختلف عن الثيروكسين النقي المستخلص من غدد الغنم والانسان

وكذلك افضى اكتشاف وظيفة الغدة الدرقية واستفراد مادتها الفعّالة وتركيب تلك المادة بالتأليف الصناعي ، الى نصرٍ جديدٍ في كفاح الانسان ضدّ المرض فتغلَّب على الكرتينيسم والمكسيديما والغواتر وغيرها من الحالات المرضية التي ترتدُّ الى خلل في الغدة الدرقية . فبليد العقل (cretin) يصبح بالثيروكسين نشيطهُ ، والمصاب بالخزج يتحوّل بهِ من تهدّلٍ وتراخ وجفاف في البشرة شخصاً جديداً تتقد فيهِ شعلة الحياة ، والمصاب بنشاط الغدة الدرقية التي تفرز في دمهِ من مادتها اكثر مما يجب فتزيد سرعة افعاله الحيوية زيادة غير سوية ، يعود الى السواء بازالة الغدة كلّها او بعضها . والمصاب بالغواتر البسيط فتنتفخ عنقهُ وتجحظ عيناه بعض الجحوظ ، تخف فيهِ هذه الاعراض باضافة املاحٍ فيها يودٌ الى طعامهِ . ولقد استعملت خلاصة الدرقية في علاج الذبحة الفؤادية Angina Pectoris وضعف القلب الناشيء عن الاحتقان فأفادت . بل ان الطبيبين بلومغارت Blumgart وبرلين Berlin من اطباء بوسطن عالجا بعض هؤلاء المصابين بازالة الغدة الدرقية تماماً واعطاء من ازيلت غدتهُ هكذا خلاصتها بحقن ولكن بمقدار ، وفقاً لما يحتاج اليهِ منها

[في العدد القادم يتناول البحث سائر الغدد وأحدث ما يقال فيها]

للشاعر المهندس علي محمود طه

عودة المحارب

أنشودة افريقية

« الى الذين قهروا الحياة بتقديس الموت . . . »

إمرحي يا وحوش في الغابِ حولي واهتفي بالدمِ المكلّلِ نصلي

وارقصي يا نجومُ فوق شعاعاً وانبعي يا جبالُ في الارض ظلّي

واصدحي يا جنادلَ النهر تحيّ بأناشيدِ مائكِ المنهلّ

واحملي يا رياحُ صوتي الى الوادي وضجّي بكل حَزْنٍ وسهل

وارفعي يا رُبى إليّ وأدني زهراتٍ من عشبكِ المخضلّ

ضمّخي من عبيرها ونداها قَدَماً لم تطأكِ يوماً بذلّ

هزأت بالجراح من مخلب الليثِ وأنياب كل أفعى وصِلّ

وانسمي بالغرام يا نسمة الليل وكوني إلى الأحبّةِ رسلي

إنّ في حومةِ القبيلةِ ناراً ضوّأت لي على مضاربِ أهلي

رقصتْ حولها العذارى وغنّتْ بأغاني شبابها المستهلّ

صوتُ إفريقيا ووحيُ صباها ونداء القرون بعدي وقبلي

باسمها الخالدِ امتشقتُ سناني بيدٍ تخفضُ الحظوظ وتُعلي

وشربتُ الجحيمَ من كلّ شمسٍ نارها تُنضجُ الصخورَ وتُبلي

وقهرتُ الحياةَ حتى كأني قَدَرٌ تكتبُ الحتوفُ ويُملي

يا عذارى القبيل انتنّ للمجد على عِفّةٍ صواحبُ بذلِ

حسب روحي الظامي وحسب جراحي رشفةٌ من عيونكنّ النُّجْلِ

وابتساماتكنّ فوق شفاهٍ بمعاني الحياة كم أومأت لي

حين ألقى روحي على باب كوخي وأناغي على ذراعيّ طفلي

وأنامُ الليلَ القصيرَ لأجلو صارمي في سنى الصباح المطلّ

المارستانات العربية

للدكتور سامي حداد
عضو الكلية الجراحية الاميركية وأحد
اساتذة العلوم الجراحية بجامعة بيروت الاميركية(١)

من تصفح تاريخ المارستانات العربية لا يسعهُ الا أن يعترف بانها مظهر باهر من مظاهر الثقافة العربية ومفخرة من مفاخرها . وكان اول ما اتصل العرب بهذا النوع من العمران قبل الاسلام. فان الحرث بن كلده الثقفي زوج خالة النبي العربي الكريم وابنهُ النضر قد رادا البلاد في طلب العلم . فوصلا في ايام كسرى أنو شروان الى جنديسابور من اعمال فارس وتعلما الطب في مارستانها الذي كان يديره نطس اطباء النساطرة[٢١] . ولا شك في ان الكثيرين من العرب الذين جاءوا بعد الحرث وابنه قد حذوا حذوهما. فألموا بادارة المارستانات وفهموا منافعها واغراضها في تخفيف آلام البشرية . فعادوا الى بلادهم واسسوا في اول فرصة سنحت لهم معاهد شبيهة بها

مما يؤسف له انهُ لم يصلنا الا القليل عن وصف هذه المعاهد واساليب ادارتها وغير ذلك من اخبارها التي نتشوق اليوم الى معرفتها . ولكن ما نعرفهُ عنها كاف لينبئنا بان الخلفاء والحكام واولي الامر قد ادركوا ما لهذه المعاهد من الشأن مما دفعهم الى بذل العناية في تشييدها والانفاق عليها بسخاء فائق والسعي في توفير ما يلزم لها لتؤدي الغرض المقصود منها . ففاقت اذ ذاك كل ما سبقها من المعاهد وصارت موضوع اعجاب الكثيرين من الرحالين الذين أفاضوا في مدحها في كتب اسفارهم . وشيّد اكثرها في المدن الكبيرة الآهلة العامرة كمكة والمدينة وبغداد ودمشق وطرابلس وحلب وانطاكية والقاهرة ومدن المغرب والاندلس

وبذلت العناية التامة في انتقاء المواقع الصحية الملائمة . فمن جميل ما ورد في هذا الصدد « أن عضد الدولة لما همّ بانشاء المارستان العضدي ببغداد استشار الرازي في الموضع الذي يجب

---

(١) المقتطف : جرى المؤلف على الطريقة المتبعة بين علماء الغرب في الاسناد فوضع بياناً في آخر رسالته بالمراجع التي اعتمدها ورقماً لكل مرجع ، لكي يتحاشى التكرار في الحواشي ، فالرقم الذي يظهر في المتن يشير الى كتاب معين في بيان المراجع ، وهو بيان سننشره في خاتمة هذا البحث النفيس

ان يبنى فيه . فأمر الرازي بعض غلمانه أن يعلق في كل ناحية من نواحي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغير ولم يسهك (يخنز) فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى فيها المارستان وكان كذلك » اه [٣٢] . « ولما ملك صلاح الدين الايوبي الديار المصرية واستولى على القصر ، كان فيه قاعة بناها العزيز بن المعز في سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) فجعلها صلاح الدين مارستاناً لانهُ كان يقال ان فيها طلسماً يمنع دخول النمل اليها » اه [١٨]

اختلفت انواع المارستانات باختلاف الغاية التي وضعت لها . فان « الوليد بن عبد الملك كان اول من اتخذ مارستاناً في دمشق وذلك سنة ٨٨ هـ . (٧٠٦ م) حين كانت الحاجة ماسة الى انشاء ملاجىء لحبس المجذَّمين فيها ومنعهم أن يخرجوا على الناس . فأقام لهم هذا المأوى وأجرى عليهم الارزاق » . اه [١]

وكان للعرب عناية فائقة بالمجاذيب والزمنى والعجزة والعميان فخصصوا المعاهد بايوائهم . ففي فاس وقف سيدي إبي العباس السبتي للعميان والزمنى وفي مراكش وقف سيدي فرج لايواء المجاذيب والعناية بهم [٦] . فأين الفرق بين معاملة العرب لمن اخنى عليهم الدهر وأوقع بهم الرزايا والمصائب بين معاملة الافرنج في القرون الوسطى لمثلهم . فانهم كانوا يحرقون المجذمين ويذيقون المجانين اصناف العذاب فيلاقون أجلاً عاجلاً

وقد اهتم اولو الامر بمن كانوا يعيشون بعيداً عن العمران والمدن الكبيرة لصعوبة السفر وتعذر وسائل النقل فهيأوا لهم مارستانات نقالة تصل اليهم وتقوم بحاجاتهم . « في ايام عضد الدولة كتب الوزير علي ابن عيسى الى سنان بن ثابت رئيس الاطباء توقيعاً يقول فيه : — « فكرت في من في السواد من اهله . فتقدم ، امدَّ الله في عمرك ، بانفاذ متطببين وخزانة للادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منهُ مدَّة ما تدعو الحاجة اليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون الى غيره » اه [٢٣]

ولم يحرم المسجونون والمجرمون حظ العناية بأجسادهم في ايام محنتهم . فان الوزير علي بن عيسى نفسه كتب الى طبيبه المار ذكره توقيعاً آخر يقول فيه : — « فكرت ، امدَّ الله في عمرك ، في امر من في الحبوس وانهُ لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ان تنالهم الامراض اوهم معوقون عن التصرُّف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي ان تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم وتحمل اليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ويزيحون عللهم » اه [٢٤] وكل ذلك جرى في القرن الثالث الهجري

وكان للجيش الحظ الوافر من هذه الوسائل الطبية . ذكر عن عزيز الدين ابو نصر احمد ابن حامد لما تولى منصب الاستفتاء في أيام مغيث الدنيا والدين محمد « انهُ من جملة مبتدعاته في

الخير جعل للعسكر السلطاني مارستاناً يحمل آلاته وخيمهُ وأدويتهُ والأطباء والمرضى متنا يحتى » اه[١٥] وفي رواية أخرى أربعون جملاً . وقد جعل عزيز الدين الطبيب أبا الحكم المغربي طبيباً على هذا المارستان [٥]

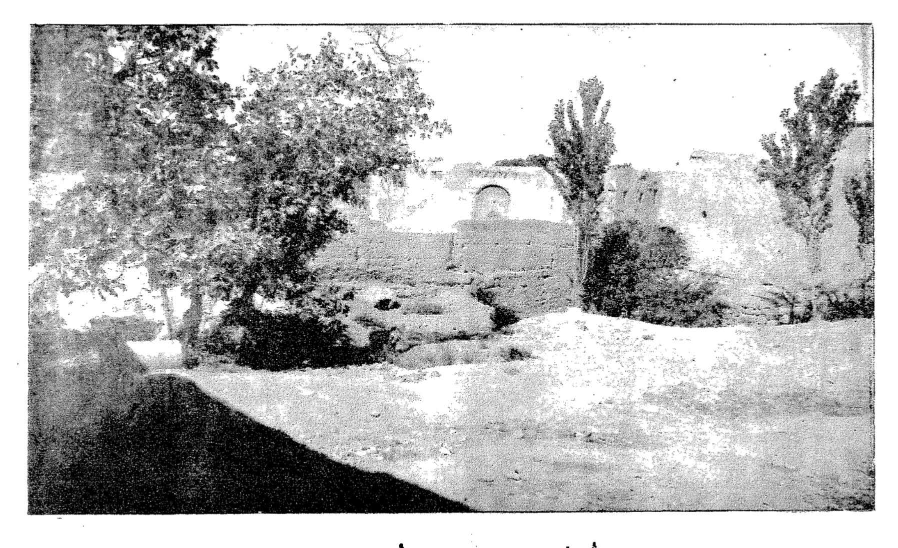
وكانت توجد المستوصفات وخزانات الشرابات والأدوية للاسعافات الاولية والحوادث الفجائية : منها ما أسسهُ احمد بن طولون فانهُ أول من أنشأ مستوصفاً من هذا النوع أقامه في مؤخر الجامع الطولوني . « ووضع فيهِ خزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وجعل عليها خادماً وأقام فيها طبيباً يجلس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة » اه [٨]

اما المارستانات العمومية فشيد بعضها خاصةً لهذا الغرض على أحسن هندسة وترتيب وأوفى اتقان . والبعض الآخر كان في بادىء الأمر قصوراً فخمة تحولت الى ما يوافق حاجات المارستان

ولم يكن يراعى في هذه المارستانات الفرق بين غني وفقير وكبير وصغير وحقير . اذ انها فتحت ابوابها للجميع على السواء ويعامل الجميع فيها أحسن معاملة وبكل ما يمكن من الاعتناء والدقة . ومن الأدلة على ذلك ما ذكره الظاهري حيث قال : — « وفي دمشق مارستان لم يُرَ مثله في الدنيا قط . واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي أني دخلت دمشق في سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م) وكان يصحبني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة . وكان قاصداً الحج في تلك السنة فلما دخل المارستان المذكور ونظر ما فيهِ من المأكل والتحف واللطائف التي لا تحصى قصد اختبار حاله . فتضاعف وأقام بهِ ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردَّد عليهِ ليختبر ضعفه فلما جسَّ نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلو والاشربة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة ايام كتب له ورقة معناها ان الضيف لا يقيم فوق ثلاثة ايام وهذا في غاية الحذاقة والظرافة . وقيل ان المارستان المذكور منذ عمر لم يطفأ فيه النار» . اه[١٤]

وكانت هذه المارستانات كاملة العدة والعدد فيها الاسرة الكاملة الكسى ، الفائقة النظافة . خصصت فيها ابهاء وحجرات بالرجال وغيرها بالنساء وبكلٍّ من الامراض على انواعها. وجرت فيها المياه بغزارة . وأفرد فيها مكان لطبخ الطعام وآخر لاعداد الادوية

ولكلٍّ منها اوقاف دارة ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة . ووضعت تحت مراقبة شديدة لتأمين نفقاتها حتى لا يقع حيف على المرضى الذين يلجأون اليها . ذكر ثابت بن سنان في تاريخه عن والده سنان وكان رئيس المارستان العضدي ما يأتي : — «وكانت النفقة عن المارستان الذي لبدر المعتضدي بالحرم من ريع وقف سجاع ام الخليفة المتوكل على الله وكان الوقف في يد ابي صقر وهب بن محمد الكلوزاني وكان قسط من ريع هذا الوقف يصرف الى بني هاشم وقسط منه ينفق على المارستان . وكان ابو الصقر يعجل على بني هاشم مالهم ويؤخر نفقة المارستان



صورة ما يظنُّ انهُ موقع المارستان الذي بناهُ الوليد بن عبد الملك بدمشق

[تصوير الدكتور سامي حداد]

ويضيقها فكتب والدي الى ابي الحسن علي بن عيسى يشكو اليه هذه الحال ويعرفه ما لحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقام لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجاتهم . فوقع على ظهر رقعته الى ابي الصقر توقيعاً صورته : — أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جداً والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك ويلزمك وما أحسبك تسلم من الاثم فيه وقد حكيت عني في الهاشميين قولاً لست اذكره . وكيف تصرفت الاحوال في زيادة المال او نقصانه ووفوره اوقصوره فلا بدَّ من تعديل الحال فيه بين ان تأخذ منهُ وتجعل المارستان قسطاً بل هو احق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ اليه وعظيم النفع به . فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة المارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد . فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في المارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة واجبني بما يكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حجتك وأعنَ بأمر المارستان فضل عناية ان شاء الله تعالى » . اه [٢٥] فتأمل

وكان منصب ناظر المارستان من أجل المناصب وأعلاها . « وكانت بالديار المصرية عادة النظر فيها من اصحاب السيوف لاكبر الامراء » . [١٩] اه « وبدمشق لنيابة السلطنة وهي من اجل نيابات المملكة وارفعها رتبةً » . اه [٢٠]

وتوفر عدد الخدمة والمشتغلين للمرضى بالمارستان فتأمنت بذلك راحتهم . ومن ادهش ما ذكر انهُ اقيم لبعضها المؤذنون الذين كانوا يحيون لياليهم بالنوبة بتسبيح الله نحو ساعة بصوت رخيم . وأُطلق على هؤلاء لقب « مؤنس الغرباء او المرضى » . فالمريض الذي لا يقدر ان ينام ولا يجد في كل الاحيان من يحيي الليل لاجله كان يشجيه المؤذن بصوته الرخيم في تسبيح الباري تعالى في ساعات الليل الاخيرة [٧]

ومما هو جدير بالذكر ان أكثر هذه المعاهد كانت تشاد بالقرب من مسجد ويقام بجوارها حمام وتكية فكأن اولي الامر ارادوا بذلك ان تكون جميع هذه المعاهد الخيرية متجاورة متلاصقة ليصير من مجموعها وحدة كاملة على مداواة الاجسام والنفوس وضامنة للرقي المدني والديني معاً

وكانت رتبة رئيس الاطباء في المارستان من الدرجة الاولى في مناصب الدولة . وكان لكلٍّ منها رئيس واطباء عديدون وجرَّاح وكحَّال وفاصد وصيدلي . وكان عمل رئيس الاطباء الاشراف على اعمال المارستان وامتحان سائر الاطباء وسمح لكلٍّ منهم ان يعمل في دائرة اختصاصه متى نجح في امتحانه . والاجازات الطبية قديمة العهد في تاريخ الطب العربي . واول ما نجدها في ايام الخليفة المقتدر بالله « الذي جرى في مارستانه في بغداد غلط على رجل

من العامة من بعض الاطباء فمات الرجل . فامر المقتدر بالله وزيره ابراهيم بن محمد بن بطحا ان يمنع سائر المتطببين من التطبيب الا من امتحنهُ سنان بن ثابت وأذن لهُ بذلك وكتب لهُ رقعة بخطهِ بما يطلق لهُ من الصناعة . فسار الاطباء الى سنان وامتحنهم واطلق لكلٍ منهم مايصلح ان يتصرف فيهِ وذلك في سنة ٣١٥ هـ « (٩٢٧ م) . اه[٢٦]. ولنا مثال آخر من هذا النوع في عهد الملك العادل نور الدين زنكي . فانهُ فوض الى ابن ابي خليفة « النظر في امر الكحالين واعتبارهم وان من يصلح منهم لمعالجة امراض العين ورتضيهِ يكتب لهُ خطهُ بما يعرفهُ عنهُ». اه[٢٧]

اما معاينة المرضى ومعالجتهم فكانت تجري في المارستان على الصورة الآتية :—

كانت الاطباء تجلس على دكة وتعاين المرضى في ايام معينة من الاسبوع . فتكتب لمن يستوصف منهم اوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها من المارستان الاشربة والادوية التي يصفونها لهم . اه[٢٨]

« ومن كان بحاجة الى الاستشفاء يسجل اسمهُ في سجل المارستان وتنزع ثيابه ويلبس ثياب المارستان ويوضع في سرير خاص وكل يومٍ يدور الأطباء على المرضى ويتفقدون أحوالهم ويعتبرون أمورهم وبين يديهم المشارفون والقوام لخدمة المرضى فيكتبون لكلٍ منهم ما يلزمهُ من المداواة والتدبير فلا يؤخر عنهُ ولا يتوانى في شيءٍ من ذلك » . اه[٢٩] وكان الدليل على شفاء المريض مقدرته على أكل فرّوج ورغيف خبز فيأمر لهُ بالانصراف ويعطى بدلة ثياب ونفقة تكفيهِ مدّة بعد خروجهِ من المارستان

وكانت في كثير من هذه المارستانات غرفة خاصة فيها مكتبة تحتوي على الكتب الطبية يجلس فيها الرئيس وسائر الاطباء بعد الفراغ من معالجة المرضى ويجلس التلامذة معهم فيتذاكرون في كيفية الاستدلال على الأمراض وجملة ما وصف وكتب للمرضى ثم يبحثون في كثير من الأمراض ومعالجتها .[٣٠] فكانت المارستانات بتوفر هذه الوسائل معاهد علم يتلقن فيها التلامذة العلوم الطبية علماً وعملاً

مارستانات دمشق

ذكر التاريخ انهُ كان بدمشق خمسة مارستانات وربما كان هناك اكثر منها لكن لم يذكر شيئاً عنها الأول مارستان الوليد بن عبد الملك . الثاني المارستان الدقاقي . الثالث المارستان النوري . الرابع المارستان القيمُري . الخامس المارستان الركني

مارستان الوليد بن عبد الملك

اندثرت معالم هذا الأثر . وذهب البعض الى ان موقعه خارج أحد أبواب دمشق المعروف بباب شرقي قرب ما يدعى اليوم « الاعاطلة »ومعالمهُ عبارة عن بناية لبن متداعية ذات غرف

صغيرة جداً قليلة النوافذ معدومة كل الوسائل الصحية ظلّ يحبس فيها المجذومون الى آخر شهر ايلول من سنة ١٩٣٦ م . وقد ادرك اولو الامر عدم ملاءمة هذا الموقع لايواء المرضى فبنوا مؤسسة جديدة خارج دمشق نقلوهم اليها . والاعاطلة اليوم مهجورة . والى ناحيتها الشرقية الجنوبية آثار قديمة هي عبارة عن حائط يبلغ طوله نحواً من خمسة عشر متراً . مبني بحجارة ضخمة عريضة وفيه فتحة باب كبير . وقد طمر التراب هذا الحائط الى منتصف فتحة الابواب . وفي جنوبيه طريق وشماليه ساحة واسعة تبلغ مساحتها نحواً من الف متر مربع فيها بقايا أعمدة رخامية ضخمة . والى الجهة الشمالية من هذه الساحة بستان فسيح الارجاء . فهل هي بقايا هيكل قديم حوّله الوليد الى مارستان . ام الامر غير ذلك ؟ ان البحث لم يصل بنا الى معرفة الحقيقة

المارستان الرقاقي

ذكر هذا المارستان بعدة اسماء هي العتيق والقديم وباب البريد والنوري الصغير . فهل يا ترى هذه الاسماء هي لمارستان واحد ام لاكثر من واحد ؟ فان دقاق بن تتش الذي يظن انهُ منشىء هذا المارستان عاش في القرن الخامس الهجري ولكن ورد ذكر هذا المارستان في حوادث القرن الرابع [١٠] ويذهب العلموي [٢] والعماد [١٦] الى انهُ من عمارة الامويين وان الذي عمره معاوية بن ابي سفيان او ابنهُ يزيد وهذا لا يتفق مع قول المؤرخون الذين سبقوا العماد واتفقوا على ان اول من أسس مارستاناً في دمشق هو الوليد بن عبد الملك [١] ولا يخفى ان الوليد اتى بعد معاوية

اما موقعه فكان غربي الجامع الاموي المشهور تحت المنارة الغربية . الى الجنوب من المراحيض في سوق المسكية ويفصل بينه وبين الجامع سوق القوافين . بقي عامراً الى اوائل القرن التاسع الهجري وقال العماد والعلموي ان اول من خرب معالمه وجعله بيتاً ابو الفضل الاخنائي ، ثم ملكه بعده اخوه برهان الاخنائي ، ثم سكنه الشيخ كمال العجمي ، ثم اتصل بالياس كتخدا عيسى باشا فعمره وغير معالمه . وقد ذكر ابن جبير في رحلته : « وبها (اي بدمشق) مارستان قديم وحديث والقديم هو غربي الجامع المكرم » . اه [١١] وقال ابن ابي اصيبعة في ترجمة رشيد الدين ابن خليفة : « وفي الخامس من المحرم سنة ٦١٥ هـ . استدعاه (اي رشيد الدين) الملك العادل ابو بكر ايوب لما سمع بتحصيله وسيرته وولاه طب المارستانين بدمشق اللذين وقفهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي » . اه [٣١] وفي ترجمة عز الدين السويدي قال : « وخدم ايضاً في المارستان بباب البريد » . اه [٣٢]

اقوى من الزمن

لفيكتور هوجو

منذ مسّت شفتاي كأسك المترع ياحبيبتي
وألقيت بوجهي الشاحب على راحتيك الرفيقتين
واستشفّت روحي أعماق نفسك ، وتفيأتُ
يانع أزهارها وتنسّمتُ نادر عطرها المسجّى
الآن تحت هذي الظلال

اومنذ تلك اللحظة السعيدة التي
تسمّعتُ فيها الى كلماتك الطافحة بأسرار قلبك
ومنذ رفّت شفتاكِ على شفتيّ وحنت عيناك
على عينيّ بين دموعك وابتساماتك

ومنذ أحسستُ على جبهتي تحدُّر لمحةٍ واحدةٍ من شعاع
نجمك الخابي الآن ، واضطرب نهر حياتي لورقة واحدة
ساقطتها عليهِ ازهار أيامكِ

منذ ذلك ياحبيبتي تعاظمتُ الزمن وأنا الآن أهتف
بالساعات المتقلبة العابرة : سيري في طريقك
واسرعي خطاك فلن تدركني الشيخوخة ،
وهرولي الى الوهدة المظلمة بكل ما جمعت من أزهارك الذابلة
فانني احتفظ في قلبي بزهرة لن ينال قطافَها أحد

ان اجنحتك الخافقة قد تصيب كأسيَ المفعم بالحب
ولـكنها لن تكفأه ، فشفتاي نديتان بخمره !
ان في قلبي ناراً لا يستطيع بردك ان يطفئها
وفي نفسي حبّاً فلن تستطيعي قهري على نسيانه !

التعليم الجامعي في مصر

عرض آثار وآمال

— عمل الجامعة : للفيلسوف هوايتهد —

١ — كلية الآداب : للدكتور طه حسين بك

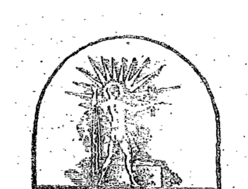
٢ — كلية الحقوق : للدكتور السنهورى

٣ — كلية الهندسة : للدكتور عبد الرحمن الساوى بك

٤ — كلية التجارة : لمحمد حمدى بك

٥ — كلية الزراعة : لمحمد توفيق الحفناوى بك

٦ — جامعة القاهرة الاميركية : للدكتور رسل جولت



يسر المقتطف ان يقدم لقرائه في مفتتح السنة الجديدة هذه الفصول النفيسة بقلم طائفة من اكبر اقطاب التعليم الجامعي في مصر ، وأملنا ان نتمكن في الشهر القادم من أن نستوفي آراء اقطاب المعاهد العالية الأخرى ، ككلية الطب وكلية العلوم ، ومعهد التربية ودار العلوم ، ومدرسة الفنون ودار الكتب الملكية !

عمل الجامعة

تلخيص رأي الفيلسوف هويتهد

لاسماعيل مظهر

نظام الجامعات يكاد يكون نظاماً غربيًّا بحتاً ، اخذ الشرق ينتحله منذ زمان غير بعيد . واذا قضينا بأن نظام الجامعات غربي ، فليس من قصدنا ان نقضي بأن الشرق قد تجرد من فكرة اقامة البحث والدرس العلمي والادبي والفلسفي على معاهد تربي عقول النشء الحديث في أمة من الامم . كذلك لست اريد ان أقول إنّ الشرق قد تجرد من المذاهب المدرسية التي قامت بين جدران معاهد خلال ازمان مديدة . بل اريد ان اقضي بأن فكرة « الجامعة » باعتبارها فكرة « حرة » أحدثت نظاماً جديداً من الدرس واسلوباً حديثاً في البحث الحرّ ، هي من مخترعات العصر الحديث

انحصرت المعرفة في العصور القديمة في التاريخ بين جدران المعابد والهيا كل حيث تفرد الكهان ورؤساء الدين بالعلم دون بقية الناس ، وحرصوا على ان يكون العلم وقفاً عليهم ، فظلّ قاصراً على فئة من الفئات لم يتعدّها . وقد استنشق العلم شيئاً من ريح الحرية في المدنية اليونانية حيث قامت الأكاديميات من حول فلاسفة عظام كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلم يفرقوا بين الناس في تلقي العلم ، بل اوسعوا في افق الدرس العلمي والفلسفي في حين ان ارسطو رغماً عن هذا قد اوصى بأن تكون الفلسفة العليا وقفاً على الخاصة ، وان العامة يكفي فيهم ان يكونوا ملمين ببعض مبادىء المعرفة الماماً اوليًّا

فلما انتشر الدين المسيحي اقتصرت المدارس على المعاهد التي أقامها آباء الكنيسة واقتصر العلم فيها على ما سمي حين ذاك « بالعلم السلمي » المحصور في التفاسير التي فسرت بها الكتب المقدسة وفي المبادىء الغراماطيقية واللغوية التي ساعدت على وضع تلك التفاسير وعلى منطق أرسطو كأساس لضبط العقل عن الخطأ . وعقب ذلك انتشار الدين الاسلامي فاقتصرت معاهده على تدريس

المبادىء التي وضعها الفقهاء في التفسير والحديث والأصول وبقية فروع العلم الثانوية التي كانت تتخذ أساساً للوصول الى التوسع في تلك الأسس العلمية ، كما عرفت في ذلك العهد . وكما تعرف الآن في كثير من معاهد العلم الاسلامي

اما فكرة « الجامعة » باعتبارها معهداً حراً قائماً على فكرة حرة ، فبدأت تتكوّن في اوائل القرن السابع عشر ، عندما بدأ كوبرنيكوس وغاليليو ينشّان مذهبهما العلمي في نظام الكون ، وعندما بدأ جيوردانو برونو يبشر بحرية الفكر

غير ان تحرير الفكر تحريراً حقيقيًّا لم يبدأ الاّ بعد ان تحدّد الاسلوب العلمي الحديث في اواسط القرن التاسع عشر ، وبعد ان ظلّ العراك بين الاوضاع والتقاليد القديمة وبين الفكرة الحديثة ، سجالاً اكثر من قرن ونصف قرن من الزمان . وهذا التمهيد التاريخي ضروري لمن يريد إن يستوعب هذا البحث استيعاباً يستعين بهِ على تفهم حقيقة الفكرة من « الجامعة » ، وقد بدأنا نتخذها اساساً لتقدمنا العلمي

***

ان كثرة الجامعات والتوسع في اختصاصها من الاحداث الظاهرة في الحياة الاجتماعية في هذا العصر. ولقد اشتركت جميع الاقطار في نتيجة هذه الحركة ، وعلى الأخص اميركا التي تمتاز على غيرها من هذه الناحية امتيازاً يوليها الشرف . على ان نماء الجامعات العلمية في عدد الكليات والمعاهد التابعة لها وفي اتساع احجامها وتخالط نظاماتها الداخلية ينطوي على خطر قد يمكن ان يقضي على موارد النفع التي تنتظر منها اذا لم نفهم تمام الفهم حقيقة الوظائف الاولية التي يجب ان تؤديها الجامعات في خدمة الامة

ولا يجب علينا ان نبالغ في جدّة هذه المدارس العملية . فانهُ لم يمرّ عهد من الزمان اقتصرت فيهِ الجامعات على درس المجرّدات الصرفة . فان جامعة « سالرنو » في ايطاليا مثلاً ، وهي أقدم الجامعات الأوربية ، قد وجهت غالب همها الى درس الطب . كذلك نجد في انجلترا ان جامعة كمبردج قد أنشأت كلية سنة ١٣١٦ لغرض خاص ، هو تخريج « كتبة يعينون في خدمة الملك ». وقد خرّجت الجامعات رجالاً درسوا اللاهوت والطب والمحاماة والهندسة . والحاجات العملية في هذا العصر من المهن التي تحتاج الى مقدرة عقلية فائقة ، ولهذا نقدر انها تستحق ان تشغل مكاناً في هذا السباق العملي . اما جدّة هذه الفكرة فتنحصر في ان البرنامج الذي يتسق وحاجات معهد عملي ، واساليب العمل المختلفة فيهِ ، لا تزال في طور التجربة . من هنا اضطر الى الكلام تعميماً لا تخصيصاً ، في المبادىء التي يجب ان تقوم عليها هذه المعاهد

تكوّن الجامعات من معاهد للدرس ، ومعاهد للبحث . اما السبب الاول الذي يسوّغ وجود الجامعات فلست تجده في نقل المعرفة من رأس الاستاذ الى رؤوس الطلبة ، ولا في الفرص التي تهيأ لاعضاء الكليات المختلفة لكي يبحثوا وينقبوا عن الحقائق ان هذين الغرضين من الممكن تحقيقهما في معاهد أقلّ من الجامعات نفقة . فالكتب رخيصة الأثمان ، وطريقة « التلمذة » والدرس معروفة ومنذ اخترعت الطباعة في القرن الخامس عشر ، لم يبق للجامعات ما يسوّغ وجودها ، اذا اقتصرت وظيفتها على مجرد التلقين واعطاء المعلومات . اما الدوافع التي حفزت الامم الى تكوين جامعاتها فقد جدّت بعد ذلك التاريخ ،وقد ازدادت في العصر الحديث قوة

اما المسوّغ الذي تقوم عليه « الجامعة » فينحصر في أنها تحتفظ بالصلة القائمة بين المعرفة و بين ما يتذوق الناس من طعم الحياة اذ تُوَحِّد بين الصغار الذين يتعلمون والكبار الذين يعلمون باعتبار تصوري في الدرس والبحث . ان الجامعات تدلي بمعلومات للمتعلمين بين جدرانها ، ولكنها تدلي بها بطريق يذكي التصوُّر . وفي هذا تنحصر وظيفتها التي يجب ان تقوم بها للجماعة .اما جوُّ القلق والاضطراب الذي يخلقهُ ذلك الاعتبار التصوري، فهو الذي يكيّف المعرفة .هنالك لا تصبح اية حقيقة ما ، مجرد حقيقة عارية عن المعنى . انها تكون حقيقة تلابسها جميع ممكناتها واحتمالاتها. انها لا تَضْحي عبئاً ثقيلاً على الذاكرة . بل تصبح مبدءاً باعثاً على القوة والنشاط ، مثيراً للخيال . تصبح الشاعر الذي يعبر عن احلامنا ، والمهندس الذي يرتب اغراضنا ويرسم غاياتنا . كذلك لا تفرق بين التصور و بين الحقيقة . لان التصور يكون طريقاً لتبيان الحقيقة .إنهُ يستخرج المبادىء العامة التي تنطبق على الحقائق كما هي موجودة ، ثم يلجأ الى استعراض عقلي لكل الاحتمالات المنوعة التي تساير تلك المبادىء

وهذا مما يساعد الباحثين على ان يكوّنوا تصوراً عقليًّا في دنيا جديدة عليهم ، فضلاً عن انهُ يحفظ لهم ما يتذوقون من طعم الحياة ، وما يرضون بهِ من ألوانها الكثيرة ، بما يحفزهم اليهِ من العمل على سد أغراضهم واشباع مطامعهم

ان الشباب قوّة متصورة . فاذا قوي التصوُّر بالتزام النظام ، أمكن في الغالب الاحتفاظ بنشاط التصوُّر مدى الحياة . اما مأساة الحياة الكبرى ، فتنحصر في ان الذين هم أقوياء التصوُّر يكونون قليلي الخبرة ، والذين هم كاملو الخبرة ، يكونون ضعاف التصوُّر . ان الحمقى انما يعتمدون على التصوُّر دون المعرفة . اما الادعياء فيعتمدون على المعرفة دون التصوُّر . لهذا تنحصر وظيفة « الجامعة » في ان ترأب الصدع القائم بين التصوُّر والخبرة

أما النتيجة التي تنتظر من هذا فهي ان يتزوّد الشباب منذ فتوتهم بالخبرة العملية التي يحرزها الشيوخ في شيخوختهم . وبهذا تكون الوظيفة التي تقوم من اجلها الجامعات محصورة في الحصول

على معرفة قائمة على التصور . فاذا لم تقم الجامعة على أساس « التصور » فهي اذن لا شيء ، او على الاقل تكون معدومة النفع

« التصور » مرض معدٍ في حين انهُ لا يمكن ان يقاس بالبوصة والقدم ، ولا يمكن ان يوزن بميزان اداتهُ الرطل او الاقة ، حتى يستطيع ان يجرعهُ اساتذة الكليات لطلبة العلم جرعات سائلة او يفرضونهُ عليهم حقناً تحت الجلد . انهُ ليس شيئاً من هذا . انهُ صفة لا يمكن ان تنقل الى طلبة كلية نشأ اساتذتها بعيدين عن فكرة تشرب العلم من طريق التصور . واني ان قلت بهذا فانما اكرر القول بمشاهدة من اقدم المشاهدات . فمن الني سنة مثّل الاقدمون للعلم بمشعل مضيء ينتقل من يد الى اخرى خلال الاجيال . وما هذا المشعل المضيء الا « التصور » الذي اتكلم فيهِ الآن . إني لاعتقد ان كل ما في النظام الجامعي من فن ينحصر باشادة معاهد يضيئها نور التصور . وهذا لدى الحقيقة مشكلة المشاكل في التعليم الجامعي . فاذا لم نعن بدرس هذه المشكلة ، واذا لم نقم التعليم في الجامعات على هذا الاساس ، فان الجامعات على كثرتها في هذا الزمان ، ستخفق حتماً في الوصول الى النتائج التي ننتظرها منها

إن اتحاد التصور والدرس يحتاج الى بعض التَّبطرية والتحرر من القيود ومن متاعب الحياة، مع قليل من الخبرة المنوعة ، ومعاونة عقول اخرى مشعبة الفكرات كثيرة المعارف . كذلك هو يحتاج الى استهواء التطلع والاعتماد على النفس القائم على الفخر والزهو بما احرزت الجمعية القائمة من تقدم في فروع المعرفة . كما ان التصوُّر لا يمكن ان يحاز دفعة واحدة اولاً وآخراً ثم يحتفظ بهِ في صندوق من الثلج يستولد منهُ كلما دعت الحاجة . فان حياة قائمة على الدرس وعلى التصور ، هي طريقة تعرف منها كيف تعيش ، وليست سلعة من السلع التجارية تباع ثم تشرى ، وتشرى ثم تباع

من الانتفاع بهذه الحالات ومن الاحتفاظ بها في كلية من الكليات التي استكملت كل المعدات الضرورية للتعليم ، تستخلص الوظيفة الحقيقية التي تنشأ من اجلها جامعة من الجامعات ، ولعني بها المعاونة على الدرس من ناحيةٍ والبحث من ناحية اخرى . فانك اذا اردت ان يكون اساتذتك اقوياء التصور ، شجعهم اذن على البحث ، وساعدهم على ان يكوّنوا احساس الدلف العقلي على الصغار الذين يلاموتهم ، في ذلك العهد الذي يكون التصور فيهِ اشد ما يكون يقظة وانتباهاً ، عصر الشباب والفتوّة ، عندما تكون قوى العقل قد اخذت تدلف الى نظام الاكتمال والنضج . دع الباحثين يعبرون عن آرائهم لعقول نشيطة مرنة مندمجة في الدنيا الحافة بهم ، واترك نشأتك في عهد التحصيل العقلي يتوج جهده بالاتصال بعقول ملأتها الخبرة العقلية . ذلك لان التعليم في الواقع ليس الاّ نظاماً يواجه بهِ الانسان خطورة الحياة ، كما ان البحث مخاطرة عقلية ، لهذا وجب ان تكون الجامعات بيوتاً للمخاطرة والاقدام تعاوناً بين الشيب والشباب

١ — كلية الآداب

حديث الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب

وجه مكتب تحرير المقتطف الى الاستاذ الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب السؤالين التاليين

اولاً — ما هو القسط الذي قدمتهُ كلية الآداب لنهضة الفكر في مصر خلال السنوات العشر الماضية ؟

ثانياً — ما هي الصورة المثالية التي تريدونها لكلية الآداب ؟ فتفضل بالجواب التالي

— ١ —

أثرت كلية الآداب في تطور الفكر المصري تأثيراً واضحاً جداً يبدو في ناحيتين هامتين : في طريقة تصور الأشياء والحكم عليها . وفي الحياة العملية ، ذاتها

وفي الانتاج . وعلى الرغم من غرابة هذه الكلمة ، فانها بالنسبة لنا حقيقة واقعة فالطلبة والمتخرجون انتجوا في ميدانهم كمترجمين ومؤلفين وصحفيين ، وكذلك بالطبع انتج اساتذتهم

واريد ان اعرف مدرسة أخرى في الشرق كله ، وصلت في فترة قصيرة الى ما وصلنا اليه . . وقد نكون ، في فترة السنين العشرة الماضية امتصصنا — كما تقول — خير ما في المعاهد السابقة لنا من مقومات .. ولكن اليس «الامتصاص» في ذاته دليلاً على القوة والحياة . .

فان اردت بعض مثل ، على مانحن بسبيله ، فلتعلم أن اللغة العربية مدينة الآن لكلية الآداب باحسن تاريخ عمل حتى الآن للحياة العقلية في القرنين الاول والثاني للهجرة . ولولا ان احمد امين عمل في كلية الآداب ، لما انتج هذا الانتاج الذي عجزت عن تحقيقه القرون الماضية كلها

واوجدت كلية ، الآداب شيئاً اسمهُ التنقيب عن آثار مصرية ، خالصة ، وآثار اغريقية ،

ورومانية ، فهي وحدها التي اوجدت اشتراك المصريين العلمي في علوم الآثار والاجبتيولجي وما قبل التاريخ

وكلية الآداب هي التي اوجدت اول التاليف العلميـة العربيـة في الجغرافيا ، فكتابا حوض النيـل ، وسكان هذا الكوكب من أحسن الآثار التي تجمع بين اللذة العلميـة والادبيـة . واني اتحدى اي مدرسة اشتغلت بالعلوم الجغرافية ووصلت إلى مثل ما وصل اليهِ قسم الجغرافيا عندنا

ويخيل إليّ ايضاً ان كلية الآداب هي اول معهد أظهر في العربية ترجمة ادبية لفوست وهرمان ودورتيه لجيته عن الالمانية مباشرةً ، لا نقلاً عن لغة اخرى . ثم ان كليتنا هي التي انشأت معهد الآثار الاسلامية ، ولم يكن موجوداً قبل الآن ، ولاول مرة في تاريخ مصر أدخلت كليـة الآداب الدراسات القديمة اللاتينية واليونانية لتساهم في الكشف والاستفادة من أعظم حضارتين فكريتين في العالم القديم

ولا يمكن أن ننسى أن كلية الآداب ساهمت مساهمة خطيرة في الحركات الادبية العامة لم تكن لمعهد آخر، فقد احتفلنا بالعيد الالفي للمتنبي ، في اسبوع اقمناه لدراسته دراسة وافية. واكثر من هذا انتجنا كتابين احدهما للدكتور عبد الوهاب عزام ، والثاني لي سيظهر قريباً . ولولا كلية الآداب ما كنت افكر في دراسة المتنبي والكتابة عنهُ

وهناك في خارج الكلية يشترك الاساتذة اشتراكاً جديًّا في الحياة العلمية العامة . . واظنك تعلم ان الذي يقوم بتحقيق كتاب السلوك وطبعه هو الدكتور زيادة احد اساتذة التاريخ .كما ان لمعهدنا قسطاً وافراً في توجيه السياسة التعليمية العامة، بما نقدمه في لجان وزارة المعارف من آراء وما نشترك فيهِ من كتب ومقررات للدراسات الثانوية والخاصة

وكلية الآداب هي التي مثلت مصر في المؤتمرات العلمية المختلفة التي تمس الاداب . فقد مثلنا في مؤتمرات المستشرقين ثلاث مرات تمثيلاً رفع المكانة الأدبية للبلاد كلها . وكذلك اشترك الأستاذان مصطفى عبد الرازق والخولي في مؤتمرات تاريخ الاديان واشترك الاستاذان مصطفى عامر وعوض في مؤتمرات الجغرافيا والسكان

وكلية الآداب هي أول معهد أدخل في روع الحكومة والشبان فائدة الرحلات الى البلاد الشرقية ، فقامت من أساتذتنا وطلابنا رحلات الى الشام والعراق ، وأرسلنا من ينوب عن معهدنا في حفلات الفردوسي بطهران

وهناك أمر خطير جداً لا يعرفهُ الناس تماماً حتى الآن فبعثة الجامعة الى بلاد اليمن مشروع من مشاريع أحد المتخرجين من قسم الجغرافيا الدكتور حزين . وقد وصلت الى نتائج هامة جداً

أولها — الاكتشافات الجيولوجية ذات القيمة الخطيرة . وكذلك الاكتشافات المتعلقة بالحشرات وأنواع النباتات

ثانياً — أحضرت البعثة معها نحو مائة وخمسين نقشاً أثريًّا جديداً سيتخذها أحد أعضاء البعثة موضوعاً لرسالة دكتوراه

ثالثاً — ملأت البعثة (اسطوانات) للهجات جنوب اليمن ، وهو العمل الأول من نوعه في هذه الناحية

وقبل هذا وذاك أظهر أعضاء البعثة انهم على استعداد تام لاقتحام الاخطار ، فقد أدركهم من المرض والآلام ما يدرك عادة المغامرين في سبيل الغايات الكريمة وشعروا جميعاً بلذة هذا الألم لتحقيق أغراضهم العلمية

هذا ما يتصل بالأساتذة . ويمكن ان تراجع في مكتبة الجامعة قائمة الكتب التي أنفقت عليها كلية الآداب وعاونت على ظهورها

وأما ما يتصل بالطلاب والمتخرجين بالنشاط الفكري ، فاترك للمتحدث (وهو من خريجي الكلية) احصاءه ، فهو أعرف به [1] ولا تنسى رسالات الماجستير والدكتوراه ، ولعل كليتنا هي التي عرفت المصريين والشرقيين بالشهنامة ، وقدمتها لهم مطبوعة منقحة

وفي سنة ١٩٣٢ اشتركت كلية الآداب في الحركة العقلية الصرفة حين اخرج عميد كلية

(١) يشير الدكتور طه الى مجهودات الهيئات الجامعية التي تعمل على نشر الثقافة العامة مثل لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ولجنة الجامعيين لنشر العلم ولجنة البردي ومجهودات موفقة لكثير من الطلاب والمتخرجين في التأليف والترجمة والصحافة

الآداب من كليته فنهض الجامعيون نهضتهم الخطيرة للذود عن كرامة الجامعة واستقلالها وقاوموا الحكومة شهراً وضربوا في ذلك أمثالاً لن تنسى . وكان لهذه الثورة تأثير خطير في التفكير الجامعي للشبان

واما الرقي العام للأمة فقد شاركت فيه كليتنا مشاركة واضحة ، فهي التي فتحت ابواب التعليم العام للفتيات ، وفيها الآن ١٨٧ فتاة يشتغلن في جميع اقسام الكلية . كما أنها خطت خطوة أخرى بأن ادخلت ضمن هيئة تدريسها ثلاث سيدات هنّ الآنسة سهير القلماوي (للغة العربية) والسيدة درية فهمي (للغة الفرنسية) والآنسة فاطمة سالم (للدراسات القديمة) وهن يدرّسن الطلاب والطالبات

والنتيجة ان لطلبة كلية الآداب واساتذتها ان يفاخروا بأثر كليتهم في هذه المدة القصيرة ، وان ينتظروا ان تعظم هذه الآثار كلما مضى الزمن ، ولا يحفلوا بما يقول الكاشحون ، فالقافلة تمضي موفقة على الرغم من المصاعب التي تلقاها ، وهي تعتمد على هذه المصاعب لان قيامها شرط اساسي لنجاحها . فهي الامتحان الذي يروّضها ، ويعلمها ، ويمحص رجالها تمحيصاً . وهي لا تريد النجاح السهل انما تريد النجاح العسير الذي يبعث الشجاعة والثقة ، بالنفس والامل في المستقبل ، وما يحقق الرجولة التي تحتاج اليها مصر في هذا العهد الجديد

***

— ٢ —

الذي أرجوه وأعمل لتحقيقه هو ان تؤدي كلية الآداب الى اغراض ثلاثة

الأول — احياء قديمنا المصري والعربي

الثاني — تحقيق الصلة الواضحة القوية ، بيننا وبين الحضارة الغربية

الثالث — اظهار أوربا على ما يجب ان تعرفهُ من استعدادنا الصحيح للحياة الخصبة والمساهمة في ترقية الحضارة الانسانية ومهما تبلغ كلية الآداب من تحقيق هذه الاغراض فلن ترضى ، ولن يرضى رجالها طلاباً ، واساتذة . . لان الرضى آية الخمول والجمود ، وهما أبغض الأشياء اليها

٢ — كلية الحقوق

حديث الدكتور السنهوري

عميد كلية الحقوق

— ١ —

س . اي شأنٍ ينتظر لـكلية الحقوق في تمصير القانون ؟

ج . أعتقد ان كلية الحقوق تستطيع ان يكون لها شأن كبير في تمصير القانون . فأساتذة القانون هم أكثر الناس اتصالاً بالفقه. واذا أريد تمصير القانون تمصيراً يقوم على اساس صحيح ، فلا بد ان يسبق هذا التمصير حركة فقهية ، يرفع لواءها أساتذة القانون ، لينيروا الطريق امام العاملين ، ويكونوا طلائع هذه النهضة المباركة

واول ما يجب ان نفكر فيه لتمصير القانون هو بحث الاساس الذي يقوم عليه هذا التمصير . وينبغي ان نتلمس هذا الاساس فيما يتصل بنا أوثق الاتصال ، في تقاليدنا الماضية وفي تاريخنا القديم . فنحن اذا كنا عيالاً على الفقه اللاتيني في الوقت الحاضر ، فقد كنا أمة فقه قوي الأركان ، أظل امبراطورية ، من أضخم الامبراطوريات التي عرفها العالم ، قروناً عديدة . ولا يزال الفقه الاسلامي حتى اليوم ثابتاً في وجه الزمن ، لم تبل جدته ، ولم تخلق أديمته . فما علينا الا ان نرجع الى تراث اجدادنا ، فننفض التراب من فوقه ، ونقدم الى عالم القانون شيئاً من صنع أيدينا ، يكون حجراً جديداً في البناء الذي تتضافر جهود الأمم على إقامته

وينبغي أن نعرف أن الفقه الاسلامي لا يقل ، في إحكام الصياغة ولا في متانة الاسلوب ، عن الفقه الروماني . وهو يشتمل على نظريات ومبادىء لا تقل في الرقي ولا في مجاراة التطور عن أحدث النظريات القانونية التي يعرفها الغرب في العصر الحاضر

على انهُ ينبغي ايضاً أن نعرف أن هذا الفقه في حاجة الى جهود كبيرة ، حتى نبرزه للناس في ثوبهِ الجديد . وحركة احياء الفقه الاسلامي يجب أن تمرّ في نظري على مرحلتين : (المرحلة الاولى) مرحلة الدراسة والترتيب . وفي هذه المرحلة نتناول كتب الفقهاء في المذاهب المختلفة ، وندرسها دراسة عميقة ، ونرتبها على أسلوب يتفق مع طرائق البحث الفقهي التي اهتدى اليها فقهاء الغرب . (والمرحلة الثانية) مرحلة الاجتهاد والابتكار . وفي هذه المرحلة نخطو خطوة جريئة

بالفقه الاسلامي ، فنفتح باب الاجتهاد الذي أقفل منذ زمن طويل ، لغير ما سبب ، الا ركود الحركة الفكرية في الشرق ، والا هذا الخمول الذي سقط في وهدته العالم العربي

والفقه الاسلامي ، منذ وضعهُ مؤسسوه ، مبني على فكرة الاجتهاد . فاقفال باب الاجتهاد في هذا الفقه انكار صريح للأسس التي بني عليها . وما دام الاجماع مصدراً معترفاً به ، وما دام هذا الاجماع يختلف باختلاف الامة والجيل ، فقد كفل الاجماع للفقه الاسلامي دوام التطور ومجاراة الزمن

ويجب ، قبل ان أنتهي من الاجابة على هـذا السؤال ، أن أزيل وهماً قد يعلق بذهن القارىء . فليس في الرجوع الى الفقه الاسلامي شيء من الرجعية تحسب غير متفقة مع ما نحن في سبيله من الغاء الامتيازات الأجنبية . فقد يظن أن الرجوع الى هذا الفقه يقلق الاجانب ، إذ يعتقدون أننا نريد ان نأخذهم بأحكام تخالف أحكام قوانينهم الغربية . اذ الواقع كما قدمت أن الفقه الاسلامي اذا درس على النحو الذي أشرنا اليه أصبح نظاماً قانونيًّا لا يقل في الخصب وفي المتانة عن أحدث النظم الغربية المعروفة في الوقت الحاضر . ويكون دعامة من دعائم القانون المقارن . ولا أكون مبالغاً اذا قلت ان الدول الغربية نفسها تستمد منهُ أحكاماً قانونية تراها فيه أرقى منها في غيره من النظم الأخرى . ولما كان العلم لا وطن له ، والفقه علم ، فنحن لا نكون مغالين اذا توقعنا للفقه الاسلامي هذا المستقبل الزاهر

— ٢ —

س . هل جاء الوقت الذي يمكن فيه لمعهد العلوم القانونية في مصر أن يساهم في رقي الفقه العالمي اذا لم يكن قد ساهم في ذلك منذ الآن . وما هي المحتملات المنتظرة في هذه الناحية ؟

ج . أعتقد ان الوقت الحاضر صالح للمساهمة في رقي الفقه العالمي . وعلى كلية الحقوق ان تنشط لذلك ، وان تعدَّ لهُ ما استطاعت من عدة . وخير سبيل تسلكه هو الاشتراك في المؤتمرات العلمية ، والتقدم الى هذه المؤتمرات بأبحاث فقهية مبتكرة . وأفضل ان تتناول هذه الابحاث بنوع خاص مسائل من الفقه الاسلامي على النحو الذي قدمت في الاجابة على السؤال الاول

وعندي أنهُ ينبغي ان توثق كلية الحقوق صلاتها العلمية بكليات القانون في العالم العربي . ففي العواصم العربية ، كبغداد ودمشق ، معاهد للقانون تعيش منعزلة احداها عن الاخرى . وواجب على كلية الحقوق بمصر ان تتصل بهذه المعاهد اتصال تعاون ، وان تتبادل معها الاساتذة والطلبة على وجه يكفل للعالم العربي ان يسير في نهضته الفقهية متكاتفاً متسانداً . وأرى ان كسبنا الادبي من التوجه ناحية الشرق العربي لا يقل عما نكسبه من الاتجاه صوب الغرب

٣ — كلية الهندسة

حديث الدكتور عبد الرحمن الساوى بك
وكيل كلية الهندسة

تلقيت بالترحيب أسئلة المقتطف الغراء وأشكر لمجلتكم العريقة في خدمة العلوم حرصها على تتبع تطوّر التعليم الهندسي في مصر ويسرني أن أجيب بالآتي :

— ١ —

فعن السؤال الأول وهو « ما هي أهم الابحاث الهندسية التي يقوم بها معهدكم الآن وهل شارك هذا المعهد في التطوّر الفني للأعمال المصرية خلال السنوات العشر الماضية وما هو مدى هذه المشاركة »

أقول — ان الغرض من كلية الهندسة هو أولاً ترقية العلوم الفنية في مصر وثانياً تكوين مهندسين ومعماريين للمصالح والصناعة فسؤالكم ينصبُّ على ما تمّ من الأعمال في سبيل تحقيق غرض الكلية الاول . والحديث في ذلك يطول لذلك سأكتفي هذه المرة بذكر لمحة عن الابحاث التي قامت بها معامل الكلية وطبقت نتائجها فعلاً في مصر

(١) أبحاث معمل الري — الغرض منها الوصول الى أنسب شكل وأقصر طول لأعمال الري المختلفة من قناطر وخزانات وسحارات وهدارات الخ وذلك بعمل التجارب على نماذج لهذه الأعمال. وقد قام الاستاذ حسين حفني بسلسلة من هذه التجارب وازن فيها بين تصميمات مختلفة لفرش القناطر وقد أثبت انهُ بتعديل في تصميم قناطر نجع حمادي كان يمكن الاكتفاء بفرش طوله ٦٠ متراً بدلاً من ١٠٦ امتار فاجري ذلك التعديل ولا يخفى ان في ذلك وفراً لا يستهان بهِ (ما يربو على المائة الف جنيه) وقد نشرت هذه الأبحاث بجمعية المهندسين الملكية في ابريل سنة ١٩٣٤ وناقشها مهندسو مصلحة الري . ومن بواعث السرور أن نجد نتائجها قد طبقت على التصميمات الجديدة للقناطر ونفذت فعلاً في كثير من الأعمال بعد ذلك التاريخ مثال ذلك قناطر فم الرياح العباسي الجديدة وقنطرة حوض الدلجاوي وغيرها. كذلك قد عدل فرش سد جبل الأولياء بما يتفق ونتيجة هذه الأبحاث

وقد حقق الاستاذ حفني ظاهرة دخول الهواء بالسحارات اذا وجد أمامها هدار وكان مدخلها غير مغمور بالمياه وهذا الهواء قد يسبب ضغطاً ينتج منهُ كسر السحارات وخاصة اذا تسرب اليها الهواء في مقادير كبيرة وزاد ضغطه داخلها عما تتحمله جدرانها

ويقوم معمل الري من حين لآخر باجراء تجارب على نماذج لمختلف الأعمال ليتمكن الطلبة

من معرفة مدى تأثير المياه في قعر المجرى وجوانبه وتأثير منشآت الري في سير المياه ومايتبع ذلك من تيارات مختلفة وفقدان للمنسوب الخ وتقريب تلك الحقائق الى أذهانهم بطريقة عملية

(٢) معمل ابحاث الأساسات وابحاث الخرسانة — الى عهد غير بعيد (منذ عشر سنوات تقريباً) لم يكن لعلم الأساسات ضوابط غير القواعد التجريبية ويرجع الفضل في تركيز هذا العلم على أسس علمية الى جهود الاستاذ ترزاكي الذي أنشأ أول معمل لاختبار تربة الاساسات بجامعة فينا. وقد كانت كلية الهندسة في طليعة الكليات التي أخذت عنهُ وعاونته في هذا السبيل باكتشاف قواعد علمية يمكن تطبيقها على أساسات التربة المصرية. فأنشأت منذ ثلاث سنوات معملاً لهذا الفرض. ولما كان هذا الموضوع لا يمكن حله باجراء أبحاث داخل المعمل فحسب بل لا بدَّ للوصول الى نتائج علمية مع القيام بتجارب على مختلف المباني كبيرها وصغيرها فالبحث يصطدم بعقبة كأداء، فلا المهندسون ولا المقاولون داخل الحكومة أو خارجها براغبين في عمل من شأنه اظهار عيوب هذه المباني بالرغم من التأكيد بأن نتائج هذه الابحاث تحفظ سرية ولا يجوز افشاؤها لغير أصحاب المباني أنفسهم، وبالرغم من ان نتائج هذه الابحاث ذات قيمة عظيمة للمهندس والمقاول

ومع ذلك فقد أمكن مع الوقت تذليل تلك العقبات واصبح المعمل يقوم بتجارب على خمسة وعشرين مبنى من أكبر مباني القاهرة والاسكندرية وغيرها من مدن القطر المصري الكبرى

ففي داخل المعمل تجري تجارب على نماذج من التربة المقام عليها المبنى من شأنها توجيهنا الى حساب مقدار هبوط هذا المبنى وكيفيته كنتيجة لاجهاد التربة وبذلك يمكن التنبؤ بمقدار تأثر البناء بهذا الهبوط أو عدم تأثره كلية بذلك. ثم يراقب المبنى ويقاس تحركه اثناء البناء وبعده وبمقابلة النتائج النظرية بالنتائج الفعلية يتسنى لنا ايجاد قواعد عامة للاساسات في مصر. ويسرني ان أقرر ان هذا المعمل قد وفق في السنوات الثلاث الاخيرة الى ايجاد قواعد هامة في هذا الموضوع

وتعد مصر الآن من الممالك العشر الاولى التي عنيت بمثل تلك الابحاث وقد نال عمل الكلية تقدير هيئة المؤتمر الدولي الاول لميكانيكا التربة وهندسة الاساسات الذي عقد بأمريكا في الصيف الماضي. ومثل الكلية فيه الدكتور سليم حنا رئيس هذا المعمل

(٣) معمل الحرارة — يقوم هذا المعمل بعدة أبحاث في الآلات ذات الاحتراق الداخلي وطرق اختبارها وقد عرضتُ على مؤتمر الميكانيكا الدولي المنعقد في كامبردج سنة ١٩٣٤ نتائج بحثي في هذا الموضوع (ص ١٤٤ من مجموعة أعمال المؤتمر)

وهناك كثير من الأبحاث العلمية التي وان كانت لم يتم تطبيقها بعد الاَّ أن لها قيمتها والكلية حريصة على تشجيعها لأن البحوث العلمية البحتة وان ظهرت في اول عهدها بعيدة كل البعد عن التطبيق العملي لا تلبث ان تصير من اكبر الأسس التي تبنى عليها الاختراعات والأعمال الهندسية

الكبرى والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بذكر بحث مكسويل في نظرية الكهرباء المغناطيسية الموجية وقد ظل هذا البحث لا ينتفع بهِ عدة سنوات ولكنهُ أدى بعد ذلك الى اختراع الراديو وملحقاته من الصناعات التي تعد الآن في مقدمة الأعمال الهندسية . ويدخل في نطاق هذا النوع أبحاث الدكتور رلتن والدكتور كونستابل الأستاذين بالكلية ولعلي أتمكن في فرصة اخرى من ايراد نبذ عن بعضها لقراء مجلتكم الغراء

— ٢ —

عن السؤال الثاني وهو: « يطالب الكثيرون بتمصير الدراسات الهندسية وصبغ بعض نواحيها بصبغة خاصة تلائم ماضينا العملي وحاضرنا الفني فما هو رأيكم في ذلك» ؟

اقول — لقد استقرت الطرق المتبعة في تكوين المهندسين بدليل ان المناهج والنظم المتبعة في جميع الممالك تكاد تكون واحدة ومع ذلك لا يفوت الكلية ان تكون الدراسة بها ملائمة لحاجات البلاد وذلك بتخصيص وقت اكبر وتوجيه عناية اعظم الى الدراسات التي تمتُّ الى تلك الحاجات الخاصة بصلة

اما عن تدريس العلوم بلغة البلاد فهذا غرض سام لم تغفله الكلية وهي دائبة على تنفيذه تدريجيًّا بقدر المستطاع دون طفرة ولا ابطاء

وقد تم ذلك في العلوم التي يسهل وجود مراجع عربية لها او التي لها مصطلحات عربية مثل علوم الري والمساحة والرياضة الابتدائية

وتعنى الكلية بالناحية العملية من الدراسة سواء أكان ذلك في معاملها أم عن طريق الرحلات والزيارات لأهم الأعمال الهندسية ولا يغرب عن البال انهُ ليس من الميسور أن يعنى بهذه الناحية عناية تامة مع عدم تضحية شطر عظيم من الجانب النظري منها الآ اذا اطيلت مدة الدراسة اطالة كبيرة. وفي الكليات يجب ان توفى اولاً دراسة المبادىء النظرية الاساسية ثم يخصص ما يبقى بعد ذلك من الوقت لمتابعة التطبيقات العملية. وعندي ان الخبرة الهندسية تكتسب في ميدان العمل ولا تدرس في الكليات . فيجب الاَّ يتناول الجانب العملي في الجامعات والمدارس الفنية سوى ما كان منهُ مبيناً وموضحاً للمبادىء الأساسية السليمة

وأملي أن يطَّرد تقدم الكلية بعد انضمامها للجامعة ، فما من شك في فوائد التعارف والارتباط وتبادل الثقافة التي يسهل تحقيقها باختلاط طلاب الكليات المختلفة

واعتقد انهُ اذا اقتصر تعليم المهندس على الناحية الفنية فحسب فانهُ يشعر عند ما يمارس الحياة العملية بنقص من الوجهة الثقافية العامة لذلك قد حتّمت بعض الجامعات على طلبة الهندسة ان يحصلوا على بكالوريوس في الآداب قبل منحهم درجتهم في الهندسة لأن التثقيف العام من اكبر العوامل التي تعد الانسان في حياته للاضطلاع بأوفر قسط من المسئوليات

٤ – كلية التجارة

حديث محمد حمدي بك

عميد كلية التجارة

أسئلة المقتطف

(١) ما هي أهم فروع الثقافة التي تقدمها كليتكم لطلابها
(٢) هل هناك صلة بين معهدكم وبين نظائره من المعاهد الغربية
(٣) ما هي مدى المساهمة التي قدمتها كلية التجارة لرفع مستوى الاقتصاد في الامة المصرية
(٤) ما هي الصورة المثالية التي ترجونها لكلية التجارة في عهدها الجامعي الجديد

٭

الاجابة عن السؤال الاول

كان – ولا زال – الغرض الاساسي من انشاء هذا المعهد اعداد فئة من الشبان تصلح في المستقبل لتحمل المسئوليات في تنظيم المشروعات التجارية والاقتصادية في المجتمع المصري وإدارتها . لذلك كانت الثقافة التي تقدمها كلية التجارة لطلابها هي ثقافة عالية عميقة في فرعين من الدراسات : دراسة العلوم التجارية ، ودراسة العلوم الاقتصادية

وقد أخذت الكلية منذ العام الماضي تجري على سنة التخصص في هذين الفرعين ابتداء من السنة الثالثة الدراسية ، وأصبح هناك : (١) قسم العلوم التجارية : وهذا قوامه علم المحاسبة والمراجعة وعلم ادارة الاعمال ، وتشوبه دراسة بعض العلوم الاقتصادية والمالية والقانونية (٢) قسم العلوم الاقتصادية : وهذا قوامه علم الاقتصاد وعلم المالية العامة . وتشوبه دراسة بعض العلوم التجارية والسياسية والقانونية

واليك على سبيل المثال بياناً لبعض المواد التي يشتمل عليها منهج الدراسة في الكلية : علم الاقتصاد من الوجهتين النظرية والتطبيقية – علم المحاسبة – علم الاحصاء – علم تنظيم الاعمال – رياضة تجارية ومالية – جغرافيا اقتصادية – تاريخ اقتصادي – قانون تجاري –

اقتصاد اجتماعي — اقتصاد زراعي — نظام الصناعة الحديثة — اعمال المصارف — بورصات البضائع والاوراق المالية — صناعة وتجارة القطن — التأمين — الاعلان — علم نظريات الحكومة . . . . . . الخ

ولئن كان علم الاقتصاد يدرس ايضاً في مصر في كلية الحقوق كما هي الحال في فرنسا الاَّ ان دراسته في كلية التجارة أوسع وأعمق ، كما انها مدعمة فيها بمجموعة من علوم اخرى تجارية وجغرافية وتاريخية تمت الى علم الاقتصاد بصلات قوية لذلك كانت كلية التجارة هي التي تعتبر بحق المعهد الاقتصادي في مصر ، ومنها وحدها يتخرج الاخصائيون في العلوم الاقتصادية والتجارية

وتعنى كلية التجارة عناية خاصة باللغتين الانجليزية والفرنسية ، فتكثر من عدد حصصهما في سني الدراسة الاربع وتقلل من عدد الطلبة في فصولها الى أدنى حد وتجعل الامتحان فيهما اجباريًّا في كافة السنين ، وفوق هذا فهناك طائفة كبيرة من المواد الفنية تدرس باللغتين الانجليزية والفرنسية

***

الاجابة عن السؤال الثاني

لا شكَّ في ان هناك صلة وثيقة بين كلية التجارة في مصر وبعض المعاهد العلمية التي تناظرها في البلاد الغربية . وهذا ما تنمُّ عليه الحقائق الآتية :

(١) انهُ روعي في تنظيم كلية التجارة في مصر ان تكون على غرار مدرسة العلوم الاقتصادية في لندن ومدرسة العلوم السياسية في باريس ، وذلك مع ملاحظة احوال البيئة المصرية . وكثير من المواد التي تدرس في المعهدين الانجليزي والفرنسي لها مثيل في المعهد المصري

(٢) ان أعضاء هيئة التدريس في المعهد المصري تخرجوا جميعاً من الجامعات الاوربية وقضوا بين جدرانها سنين طويلة وتشبعوا بنظم المعاهد الغربية وطرائق التدريس فيها ونشروا رسائلهم وبحوثهم العلمية الاولى في ظل تلك المعاهد ، كما ان منهم من ظلَّ محتفظاً بصلاته الشخصية ببعض أساتذته الاوربيين السابقين ، فيكاتبهم من وقت لآخر ويستطلع رأيهم في بعض بحوثه العلمية التي يعدها للحصول على درجة أعلى

(٣) ان جميع اعضاء هيئة التدريس في كلية التجارة ينتمون الى بعض الجمعيات الاوربية التي تعنى بشئون التعليم التجاري كالجمعية الدولية للتعليم التجاري ، وهم بوساطة الاجتماعات السنوية التي تعقدها هذه الجمعية والمجلات والنشرات الدورية التي تصدرها يقفون على حركة التعليم التجاري وتطورها في بلدان العالم المختلفة

ان كلية التجارة في مصر قد اخذت منذ العام الماضي توفد بعض مدرسيها في اثناء العطلة ببعثات صيفية الى بعض البلاد الاوربية للوقوف على التطورات الاخيرة في بعض العلوم والفنون كفن الاعلان والبيع والتأمين ، وزيارة المعاهد والشركات الخاصة بذلك

***

الاجابة عن السؤال الثالث

تشعر الهيئة المشرفة على التعليم في كلية التجارة بأن في عنقها رسالة خطيرة يجب ان تؤديها على احسن وجه، هي ايجاد الكفاءة المصرية التي تستطيع ان تتغلغل في دوائر المال والاعمال والشركات فتمصرها بعد ان ظل العنصر المصري مقصيًّا عنها زمناً طويلاً والتي تستطيع ان تفتح للاقتصاد القومي ابواباً جديدة بما تؤسس من مشروعات وتنشيء من شركات . وان كلية التجارة لتفخر اليوم بأن عدداً كبيراً من خريجيها يشغلون مختلف الوظائف الفنية في بنك مصر وشركاته ، وان على عواتقهم يقوم صرح هذه المؤسسة القومية العظيمة . ومثل ذلك يقال عن بنك التسليف وعن المجالس الحسبية أخيراً

وقد كانت الوظائف الحكومية دائماً مغرية خريجي كلية التجارة شأنهم في ذلك شأن خريجي المعاهد الاخرى ، فتوظف منهم في وزارات الحكومة ومصالحها المختلفة عدد كبير ، ومنهم من يتولى الآن أرقى الوظائف والدرجات . ولكن لما ان تكاثر عددهم في العهد الاخير وضاقت بهم سبل التوظف في الحكومة اخذوا يطرقون ابواب الشركات الاجنبية كما كان منتظراً ويلحون في الطرق ، ومن ورائهم ادارة المعهد وبعض الرجال المسؤولين يؤيدونهم ويشدون ازرهم ويوجهون نظر مديري هذه الشركات الى واجبهم نحو ابناء البلد الذين يعملون فيه ، وقد استطاع فريق من الخريجين ان ينفذ الى بعض الوظائف في هذه الشركات ولكن عددهم في الجملة قليل . وهم هنا يرتطمون بعقبتين كبيرتين (الاولى) ان المرتبات التي تعرضها هذه الشركات على الخريجين قليلة لا تتناسب مع درجتهم الجامعية وثقافتهم العالية . (الثانية) ان هذه الشركات تفضل استخدام خريجي المدارس الاجنبية ولاسيما الفرنسية ، وذلك لان امساك الدفاتر في هذه الشركات وأعمالها المختلفة لا تزال باللغة الاجنبية . على انه ليس ثمة شك في ان محصول خريج كلية التجارة في بعض اللغات الاجنبية كبير ولكنهُ لا يضارع في ذلك خريج المدارس الفرنسية الذي يتلقى علومه كلها باللغة الفرنسية والذي تعلمها منذ نعومة اظفاره ويتحدث بها في بيئته الخاصة . وعنده ان الوقت قد حان لكي تعدل هذه الشركات عن مخاطبة المصريين والتعامل معهم بلغة غير لغتهم

القومية مما ليس له مثيل في اي بلد مستقل آخر ، وللحكومة في هذا الميدان مجال واسع للتدخل كما ان شيئاً من الاعلان عن قيمة الدراسة في معهدنا ورقي مستواه العلمي قد يكون كفيلاً باقناع هذه الشركات بان تدفع الى الخريجين اجوراً مقابل ما سوف يؤدونه لها من خدمات جليلة

ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً أنهُ متى تقدّمت السنون واكتسب خريجو كلية التجارة من التجارب قسطاً كافياً — ومعظمهم لا يزال في مستهل حياته العلمية — فسوف يظهر منهم رجال أقوياء يقدمون على انشاء المشروعات الاقتصادية الخطيرة التي تفتقر اليها البلاد ، ويوجهون اقتصادياتها في الاتجاه الصحيح ، ويكونون هم قادة الحركة الاقتصادية في مصر

***

الاجابة عن السؤال الرابع

نرجو لكلية التجارة في عهدها الجامعي اطراد التقدّم والرقي ، وان تكون بحق في الشرق كله أكبر معهد للدراسات التجارية والاقتصادية يرد مناهله من جميع الاقطار الشرقية الشبان الأقوياء الذين يريدون ان يزجوا بأنفسهم في ميادين الاعمال الاقتصادية المنتجة فينافسون ويزاحمون وينجحون

ونرجو من الناحية العلمية ان يخطو المعهد خطوات جديدة في البحث والتأليف واخراج أدق البحوث في الموضوعات التجارية والاقتصادية ، وتنظيم المحاضرات العامة لنشر الثقافة الاقتصادية بين الجمهور

ومن الناحية العملية نرجو ان نزيد الاتصال بين رجال التعليم في هذا المعهد وبين رجال الاعمال البارزين ، فيكون لهؤلاء ممثلون في مجلس الكلية يمدونه بآرائهم العملية فيما يعالج من مسائل وما يرسم من خطط دراسية ، ويوجهون نظره بالاخص الى انواع الدراسات التي تهم في الحياة العملية اكثر من سواها والى الصفات والملكات التي يجب بالاخص تنميتها في طالب التجارة ، وان يتفضلوا من وقت الى آخر بالقاء بعض المحاضرات على طلبة المعهد . ويقابل ذلك من الجهة الاخرى ان يكون من اساتذة المعهد اعضاء في اللجان الفنية التي تؤلف في مختلف الوزارات لمعالجة بعض شئون الاقتصاد القومي ، كما يكون منهم مستشارون فنيون لبعض الشركات ومراقبون لحساباتها واعضاء في مجالس ادارتها ، وبذلك يستطيعون ان يكونوا دائمي الاتصال بالحياة العملية ولكي يشرحوا آراءهم النظرية في ظل التجارب الشخصية والاحوال الاقتصادية المحلية ومن ثمَّ يرتفع مستوى دروسهم ويزيد نفعها لطلابهم

٥ — كلية الزراعة

حديث محمد توفيق الحفناوي بك

عميد كلية الزراعة

— ١ —

كلية الزراعة معهد علمي بدأ صغيراً وساير قوانين النمو على مرور الزمن فتناولتهُ يد الاصلاح والتعمير والتوسع وشملتهُ روح التجديد ولا يزال هذا المعهد متابعاً نموه ولما يبلغ الغرض الذي تتوخاهُ لهُ بعد

ذلك ان أي معهد علمي يبدأ حياته متواضعاً إثر فكرة طارئة أو إحساس عميق بضرورته . فان كان وليد الفكرة الطارئة أو البحث السطحي يغلب فيهِ أن يولد ميتاً . اما ان كان إنشاؤه نتيجة شعور صحيح بأن وجوده لا بدَّ منهُ ليسدَّ نقصاً في احدى نواحي النشاط العام للبلاد فانهُ لا يلبث أن يسوّغ وجوده وأن يقوم كالبنيان الراسخ فوق أساس ثابت الدعائم وأن تدب فيهِ روح الحياة فيكبر بتوالي الأيام ويزيد الاقبال عليهِ والانتهال من مورده

وقد كان هذا شأن معهدنا إذ بدأ كمدرسة زراعية أنشأها المغفور لهُ محمد علي باشا وجلب لها الاخصائيين من الأجانب بقصد إدخال الأساليب الحديثة في الزراعة فواجهت هذه المدرسة حملات قوية من دعاة الرجعية وقد إختفت من الوجود مدَّة وأخيراً غالبت هذه الحملات واستقرَّت بالجيزة متواضعة يقصدها كثيرون من الاجانب لدراسة الزراعة المصرية . على ان هذه المدرسة لم تلبث ان سوّغت وجودها بما صادفت من النجاح في تجاربها الزراعية التي شاركت فيها الجمعية الزراعية وكانت تصدر باسم الهيئتين مجلة شهرية كما ان خريجي المدرسة المذكورة إنتشروا في مختلف الأوساط الزراعية فأفادوا فائدة كبرى

لهذا اتجهت أنظار أولي الامر الى العناية بهذه المدرسة والرقي بمستوى التعليم فيها فكان من ذلك أن أصبحت في سنة ١٩١١ مدرسة عالية

وتابع المعهد بعد ذلك سيره حثيثاً متلمساً وسائل النهوض ولكن لم يحاول خريجوهُ أن يوجهوا أنظارهم الى ما وراء أفق الوظائف والتوظف . ولم يكن في ذلك عيب أو غضاضة بل كان أمراً طبيعيًّا في ذلك الوقت إذ تعددت المصالح الزراعية الحكومية كمصلحة الاملاك ووزارة

الاوقاف وديوان الخاصة الملكية فضلاً عن مصلحة الزراعة نفسها التي أصبحت وزارة منذ سنة ١٩١٣ لما للاعمال التي تقوم بها من الشأن الكبير في خدمة البلاد . وكانت الوظائف الزراعية شاغرة بهذه المصالح تستنفد خريجي المدرسة عاماً بعد عام ، بل كثيراً ما كانت تزيد عن عـــددهم

على أنهُ عقب استقرار الامور بعد الحرب العالمية نشط معهدنا من عقاله ودبت فيهِ روح جديدة تمشياً مع النهضة التي سرت في شرايين الحياة في مصر . وكان من نواحي هذا النشاط إيفاد البعوث للخارج حتى يقوم بالتدريس فيما بعد إخصائيون في مختلف المواد التي تدرس بالمدرسة

وقد عاد كثير من أعضاء هذه البعوث وأخذوا بالتدريس وبالبحث في جميع الفروع الزراعية وقامت المدرسة في الوقت نفسه بالاستعدادات المناسبة لقبول عدد من الطلبة أكبر مما كانت تقبله من قبل فكان ذلك عهد تجديد في التعليم الزراعي العالي إقترن في نفس الوقت بشدة اقبال الاهالي على ادخال أبنائهم المدرسة اذ أحسوا بفائدة التعليم بها

وعلى الرغم من أنهُ لم تنقض عدة اعوام بعد على بعث روح البحث والاستقراء في المدرسة فان ما تمَّ في هذا الصدد يدعو الى الفخر والايمان برسالة هذا المعهد الكريم

وكان بعد ذلك أن خطت المدرسة خطوة أخرى إذ أُلحقت بالجامعة المصرية وأصبحت « كلية الزراعة » في العام الماضي . فكان هذا إقراراً بعظم نفع هذا المعهد وحافزاً لتنشيط البحث العلمي

***

— ٢ —

فرسالة الجامعة هي رسالة البحث عن الحقيقة المجردة من كل غرض أو قصد . والآن يقع على عاتق كلية الزراعة نصيبها من هذا البحث وذلك في حدود مهمتها وهي نشر الثقافة الزراعية في بلد أخذت فيهِ الزراعة المكان الأول منذ اقدم عصور التاريخ

على أن ما قامت بهِ الكلية من الابحاث في الفترة الوجيزة التي ذكرناها لم تغفل فيها الناحية العلمية التطبيقية بل كانت مصلحة المزارع المصري رائدها ويقينها . فقسم الزراعة بالكلية يقوم بعمل تجارب على المحاصيل المختلفة بغرض التوصل لمعرفة أصلح طرق الزراعة أو أنسب مقدار من التقاوي أو أوفق مسافة تزرع فيها النباتات للحصول على أكبر محصول من غلة الارض . كما أنهُ من آن لآخر يجرب كثيراً من المحاصيل التي لم تدخل بعد في عداد المحاصيل المصرية وذلك لمعرفة درجة صلاحها في مصر

ومجاراةً للتوسع الحالي في غرس الحدائق وللرغبة البادية في الأنتفاع بمركز مصر الجغرافي وإتصالها بالأسواق الأوربية كبلاد مُصدّرة لأنواع الفواكه والخضروات المختلفة فأن قسم فلاحة البساتين التابع للكلية يقوم بتجارب عن إدخالها أصناف جديدة من الفاكهة. كما أنهُ يجرّب زراعة بعض النباتات الاقتصادية والطبية لدراسة أوفق الطرق وأحسن المواعيد للزراعة ومقدار صلاحها لمصر.

ولما كانت البلاد تفقد سنويًّا جزءًا من محاصيلها لفتك الأمراض بها فان قسم النبات بالكلية يبحث كثيراً عن ظروف الاصابة التي تسببها بعض الفطريات وقد تمكن فعلاً من تسجيل كثير من الحقائق عن بعضها

وللعلاقة الوثيقة التي للبكتريا بمحاصيل الحقل والحيوانات الزراعية بل وصحة الانسان ايضاً فأن قسم البكتريا يقوم بفحص الالبان المعروضة للبيع في الاسواق ليعين مقدار نظافتها وعدد الميكروبات التي بها ونوع هذه الميكروبات .كما انهُ يبحث عن أنجع الوسائل التي تؤدي الى نظافة اللبن وقد جرّب فعلاً لهذا الغرض طريقة الحليب الميكانيكي

ومن المعروف أن للكيمياء تطبيق واسع في الزراعة ولذا تعددت نواحي دراستها في الكلية فهناك تجارب تقوم على بحث موضوع التسميد وعلاقته بالتربة المصرية . وهناك تجارب اخرى عن مادة النيكوتين التي اتضحت فائدتها في مقاومة الحشرات وامراض النباتات . وهناك تجارب ايضاً عن تحليل بعض المواد التي تستعمل في غذاء الحيوانات لمعرفة قيمتها الغذائية ومقدرة الحيوانات المصرية على تمثيلها

ولما كانت البلاد تستورد سنويًّا مقداراً كبيراً من الجبن وسائر منتجات الألبان رأت الكلية دراسة هذا الموضوع بغرض إدخال عناصر جديدة في صناعة الألبان بمصر ولذا قام قسم الالبان بتجارب عن صناعة بعض أنواع الجبن التي تستورد من الخارج بكثرة مثل الجبن الرومي وصادف نجاحاً في ذلك . على ان القسم المذكور يصنع أنواعاً أخرى من الجبن الاوربي منذ مدّة طويلة وذلك مثل النوع المسمى كوموميير أو القشدير وغيرهما وقد صادف بعض هذه الاصناف إقبالاً في الأوساط المصرية

وهناك كثير من الظروف يصعب فيها تصريف الفواكه والخضروات وتلافياً لما ينشأ عن ذلك من خسائر إهتمت الكلية بدراسة الطرق المختلفة لايجاد منتجات متنوعة وفعلاً قام قسم الصناعات الزراعية ببحث طرق الحفظ والتعبئة وإستخراج الشراب وتقطير الزيوت العطرية

ونظراً لما عليه حالة الحيوانات المصرية من التأخر والخلط فأن قسم تربية الحيوان بالكلية يعمل بجدّ على تحسين هذه الحيوانات ورفع مستوى الانتاج فيها . ولذا وجه الأهتمام الى تكوين

سلالة خاصة بانتاج اللبن من الماشية الدمياطية والى تكوين سلالة نموذجية للعمل من الماشية البلدية والى رفع مستوى الادرار ونسبة الدهن في لبن الجاموس . ويعمل القسم أيضاً على تكوين سلالات ممتازة من الأغنام الاوسيمي ومن انواع الدواجن المختلفة . وقد صادف نجاحاً في ذلك.وسيأتي يوم قريب يمكن لهذا القسم ان يوزع حيوانات جيدة للتربية . كما انهُ وجه عناية خاصة لادخال بعض انواع الماشية الأجنبية المعروفة بجودتها في اللحم واللبن ولا زال يواصل تجاربه فيها حتى يصل الى نتائج ثابتة قد يكون لها أثر في الأنتاج الحيواني في المستقبل

وتعمل الكلية على نشر الابحاث التي تتم دراستها في مختلف الأقسام وذلك في المجلات الزراعية او التي لها علاقة بالابحاث المنشورة.وقد نشرت مجلة الفلاحة التي تصدرها جمعية خريجي الكلية بعض هذه الأبحاث.منها بحث عن زراعة فول السويا . وبحث آخر عن فواكه مستوردة من الخارج.وبحث عن الماشية والعناية بانتاجها.وبحث عن البرسيم كغذاء لماشية اللبن في مصر.وآخر عن تأثير تربية الأقارب في الدجاج . وبحث عن تأثير الفيتامينات في درجة نمو « الـكتاكيت » وغير ذلك من الموضوعات الاخرى

هذا ويسرني أن أنوه بالمجهود الذي يقوم بهِ كثير من أساتذة الكلية فانهم لا يقصرون مهمتهم على التدريس ونشر الابحاث الجزئية فقط بل يقومون ايضاً بحركة تأليف في موضوعات اختصاصهم ولا شكَّ ان هذا عمل لهُ قيمته لانهُ ينقل الثقافة الزراعية من وسط الكلية المحدود الى وسط أوسع وأعم كثيراً وتتبين فائدة هذا العمل اذا عرفنا ان المؤلفات الزراعية التي وضعت باللغة العربية قليلة جدًّا تكاد تعد على الاصابع . وقد صدر فعلاً من هذه المؤلفات كتاب الخضروات،وكتاب الفواكه وانشاء مشاتلها وبساتينها ، وكتاب تاريخ فلاحة البساتين ، وكتاب حدائق الفاكهة ، وكتاب حدائق الازهار، وكتاب الزراعة المصرية، وكتاب النبات، وكتاب تقسيم النباتات،وكتاب علم النبات ، وكتاب الكيمياء الزراعية ، وكتاب المساحة، وكتاب علم الحشرات الاقتصادي، وهناك عدة مؤلفات أخرى على وشك الظهور منها كتاب الوراثة ، وكتاب اصلاح الاراضي الزراعية ، وكتاب الخواص الطبيعية للأراضي الزراعية ، وكتاب مساحة الاراضي المصرية

وكثير من أقسام الكلية التي تهم جمهور المزارعين يفتح أبوابه لهم ويرحب بهم ويتصل باستمرار لمن يرغب الاسترشاد بهِ او زيارته او التمرين به وخصوصاً قسمي الألبان وتربية الحيوان وقد بدأ قسم الصناعات الزراعية يحذو حذوهما أيضاً

وتدعى الكلية للأشتراك في المعارض الزراعية سواءٌ كانت خاصة او عامة وتلبي الدعوة بعرض ما تقدمهُ لهذه المعارض او بحضور التحكيم وتوزيع الجوائز وقد كان للكلية مكان بارز في المعرض الزراعي الصناعي العام سنة ١٩٣١ غير انها رأت ألاَّ تتقدم بمعروضات في معرض سنة

١٩٣٦ رغبة منها في إفساح المجال امام المباريات الشخصية ولذا اقتصرت الكلية على الاشتراك في هيئات التحكيم في المعرض المذكور وقد أقيم في العام الماضي المؤتمر الزراعي المصري الأول فساهم فيه كثير من اساتذة الكلية. على انهُ اذا نظرنا نظرة واسعة الى تنظيم هذا المؤتمر ومباحثه وأعماله نرى أنهُ قام على اكتاف رجال الكلية سواء في ذلك خريجيها الذين يعملون خارجها ومدرسيها الحاليين

هذه هي اعمال الكلية في ماضيها . صفحات نخار ومجد يتلو بعضها البعض

***

— ٣ —

على ان امام الكلية الشيء الكثير قبل ان تتم رسالتها كاملة فليس للعلم حد يقف لديهِ وقد وضعنا نصب أعيننا تقدُّم الزراعة في هذا البلد وسنقوم بنصيبنا كاملاً . وربما قال قائل أن التوسع الحالي في كلية الزراعة أصله ومنشؤه إزدياد عدد الطلبة المتقدمين للدخول فيها ممن لا يجدون محلاً في الكليات الاخرى. وليس أبعد من هذا الفرض عن الحقيقة إذ الواقع أن البلاد تقدر فائدة التعليم الزراعي العالي حق قدره وتضعهُ في مركزه اللائق بهِ رغبة منها في حفظ ثروة البلاد وفي زيادة مواردها وتعدد محاصيلها وليس عندي دليل على صحة ما أقول أقطع وأقوى من ان الحكومة تفكر تفكيراً جديًّا في انشاء كلية ثانية للزراعة بل أنها وعدت فعلاً بذلك في خطاب العرش الاخير

ولقد إزداد عدد الطلبة الذين يتخرجون الآن عاماً بعد عام زيادة تفوق حاجة الوظائف بمراحل كبيرة وعندي أن هذه حركة مباركة لانها ستلقي بخريجي معهدنا الى العمل الحر والى معاركة الحياة العملية ولقد عنيت الحكومة بأمرهم فعلاً وفكرت في مستقبلهم وفي الانتفاع بتعليمهم فوضعت مشروعاً لاقطاعهم اراضيَ يستغلونها بمساعدتها المالية حتى تصبح ملكاً لهم بعد مدة من الزمن وهذا المشروع في حد ذاته محكٌّ كبير لقدرة خريجي الكلية على ابراز معلوماتهم وتبرير وجودهم وتستفيد منهُ الدولة فائدة كبرى بتعمير مناطق لم تكُ عامرة وجباية ضرائب نشعر جميعاً بشدة الحاجة اليها في عهدنا السياسي الجديد كما ان الخريجين سيفيدون منهُ مصدراً لحياتهم من خيرة المصادر المعروفة في البلاد ألا وهو ملكية الاراضي وسيفيدون منهُ أدبيًّا كثيراً من صفات الرجولة كالجلد على مكافحة الحياة حلوها ومرها ووضع الامور في وضعها الصحيح فشتان بين حياة الوظيفة وحياة العمل الحر كما ان الشعب سيفيد منهُ زيادة في ايراد كثير من أفراده وعائلاته وسيجد المزارعون امامهم في الاقطاعيات المشار اليها قدوة حسنة تجمع بين العلم والعمل وتقف امامهم مرآة لروح العصر الحديث روح الانتفاع بجميع عناصر الطبيعة في الزراعة

٦ — جامعة القاهرة الاميركية

حديث الدكتور رسل جولت
عميد كلية الآداب فيها

قد يستغرب القرّاء لاول وهلة ان يفسح المجال لكلمة معهد اهلي صغير ، بين اقوال عمداء كليات الجامعة المصرية العظيمة . ولكن وجه الغرابة يزول اذا تذكرنا ان عمل المعهد التعليمي الاهلي في جميع انحاء العالم ، ليس منافسة معاهد الحكومة بل تكميل عملها . فالمعاهد التعليمية الاهلية لا تستطيع ان تحلّ محل الحكومة في تربية الشعب لان التربية في المقام الاول من شأن الحكومة . حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث تكثر الجامعات والمدارس الاهلية نجد ان معاهد الحكومة هي اساس التربية العامة . الا ان المدرسة الاهلية في العالم قاطبةً ، تقوم بعمل حيوي ، تستمدُّ حيويتهُ من طبيعة تكوينها ، وهو عمل قد يتعذر القيام بهِ في مدارس الحكومات . ففي انكلترا والولايات المتحدة الاميركية نجد جامعات اكسفرد وكمبردج وهارفرد وبايل وكولومبيا تتحمل من تبعات الزعامة التعليمية قسطاً اكبر من كثير من جامعات الدولة

وقد اتجهت جامعة القاهرة الاميركية منذ انشائها الى تحديد خطتها حتى لا تنافس مدارس الحكومة من جهة ، وليكون نوع التربية التي ينالها طلاّبها ذا ميزة خاصة ، ولذلك وضعنا نصب عيوننا ثلاثة اهدافٍ

اولاً — ان نجرب التجارب بأساليب جديدة من التربية ، رأينا فيها فائدة لمصر وللبلدان العربية اللغة في الشرق الادنى

ثانياً — طبع طلاّبها بطابع حرية الفكر وحرية البحث والنقد الانشائي

ثالثاً — طبع طلاّبها بطابع الشخصية الممتازة والخلق العالي

ضروب جديدة من التربية — عنيت المدارس الاهلية في مختلف الاقطار باستحداث اساليب جديدة من التربية وتجربة التجارب بها . والواقع ان مدارس الحكومة يصعب عليها هذا التجريب . لان الحكومة تفضل في الغالب ان تحافظ على الحالة الراهنة . واذا رأت ان تحدث تغييراً كان التغيير بطيئاً ، وهي بطبعها تنفر من التجربة ، ولعلّ أبلغ الامثلة على ذلك ما تمّ في المانيا قبيل الحرب الكبرى . فالمدارس الاهلية ، التي من مستوى المدارس الثانوية ، منحت حرية واسعة النطاق في تجربة اساليب جديدة من التعليم . فأسفرت التجربة عن المدارس اليومية في الريف

وقد عنيت جامعة القاهرة الاميركية بتجربة سلسلة من التجارب ، في كلية الآداب فيها ، تتعلق بمناهج الدراسة ، والتمرين الفردي في معامل البحث ، والدراسة القائمة على مراجعة المؤلفات في المكتبة ، وانشاء حلقات للبحث والمناقشة، وتعيين مستشار من مجلس ادارة الجامعة لكل فصل من الفصول ، والامتحان الرياضي الاجباري ، والتربية الرياضية الاجبارية ، والتعليم الجنسي وغيرها

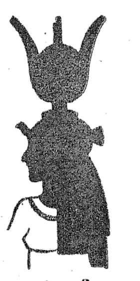
وقد أسفرت هذه التجارب ، عن نتيجة نفخر بها ، وهي على قول طلاّبنا القدماء ومتخرجينا ومفتشي الوزارة ، قد انشأت جوًّا خاصًّا بنا

ولم نكتف بتجربة التجارب بأساليب جديدة من التربية، بل سعينا الى انشاء فصول جديدة تدرس فيها موضوعات تهمُّ ابناء الشرق الادنى خاصة . فللطلاّب الذين يتجهون الى الفوز برتبة بكلوريوس في الفنون والعلوم ، أعددنا برنامجاً في العلوم الاجتماعية ، يشتمل على علم النفس الحديث ، والحضارة المعاصرة ، وعلمي الاجتماع والاقتصاد ، وعلم السياسة ، والنظم السياسية المقابلة ، وتاريخ الشرق الأدنى ، ومشكلاته المعاصرة . بل لعلَّ أهمَّ ما عنيت جامعتنا باستحداثه في هذا الصدد ، قسم الصحافة ، الذي يعدُّ طلاّبهُ اعداداً نظريًّا وعمليًّا للاشتغال بالصحافة العربية ، وذلك لاننا نعتقد ان صحافة أية أمة قوّة من القوى العاملة على تثقيف البلاد ورفع مستواها العقلي . ولما كانت المعاهد العلمية في الولايات المتحدة الاميركية ، قد قطعت شوطاً بعيداً في تنظيم كليات الصحافة كان من الطبيعي ان تقدم جامعتنا على تجربة من هذا القبيل . فالطالب في قسم الصحافة ، يتلقى العلوم العامة في العلم والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والنظم السياسية ، وعلاوة على ذلك يتلقى دروساً نظرية وعملية في تنظيم أعمال الصحف ، وقواعد تحريرها من جميع الوجوه ، ومن بواعث سرورنا أننا ننتظر حضور الدكتور ليل سپنسر عميد كلية الصحافة في جامعة سيراكيوس الاميركية ، في فبراير القادم ليلقي سلسلتين من المحاضرات في موضوعات صحفية ، وليشترك معنا بخبرته الواسعة كصحافي وعميد ، في تنظيم قسمنا الجديد

وقد جرّبت جامعتنا كذلك تجربة جديدة في تربية المعلمين . فمدرسو المدارس التي في القاهرة يستطيعون ، أن يتلقوا في جامعتنا دروساً في فنون التربية والتعليم ، بعد الظهر ، وهذا يعدُّهم عند أتمام الدراسة واجتياز الامتحان للفوز برتبة بكلوريوس في التربية

وهذا القسم يديرهُ أساتذة متضلعون من علوم التربية الحديثة كفلسفة التربية ، وعلم النفس التربيوي ، وادارة الفصول ، والاحصاءات التربيوية ، والتربية المقابلة وغيرها

[البقية في باب مكتبة المقتطف صفحة ١٢٧]



سميراميس

مسرحية

بقلم اديب فرنسا الكبير

بول فاليرى

في ثلاثة فصول. موسيقى «ارتور هونجار» مثلت أولاً على مسرح «الاوبرا» في باريس ١١ مارس سنة ١٩٣٤

ومن يجهل اديب فرنسا الاكبر «بول فاليري» الشاعر الثائر الذي احدثت نظرياته الفنية تحولاً كبيراً في تيارات الادب . فهو عقل قبل كل شيء لا يرى في خضوع الشعر لهذا العقل غضاضة ، وهو مهندس يبني افكاره بناء هندسياً ، فلا تزداد الا روعة ، لا يرى ان عمل الشاعر مقتصر على التعبير عن خلجات فؤاده وخطرات نفسه وانما همه ان يعبر عن الافكار . . . . وترى في شعره عاطفة صافية تنزع الى ما وراء الطبيعة وهولا يأخذ بيدنا ليقفنا ازاء عاطفة انسان فانية ، وانما يرفعنا لنقف ازاء روح الوجود

والذين تلوا «المقبرة البحرية» والزورق الفني يلذ لهم تفكير هذا الشاعر الرمزي الذي يخلقه العقل للعقل . وقد آثرنا ترجمة هذه المسرحية للقراء ليروا لوناً جديداً من الادب الجديد تتعانق فيه الفنون الجميلة كلها من رسم وموسيقى وشعر ولحن تتضافر جميعاً وتتعاون على رفع الانسان الى عالم يخلقه التفكير العميق . وما سميراميس الا قطعة سامية من فلسفة الشرق التي يلتقي فيها كل شيء متآلفاً حتى المتناقضات « خليل هنداوي »

الاشخاص

سميراميس   الأسير   اربعة منجمين

ملوك . اسرى . كهان دير كتو . وصيفات الملكة . جنود . خدم

الزخرفة — زخرفة المكان واردية من فيه تمثل روح الآثار القديمة ، يمازجها شيء من الروعة والزينة الفخمة

بابل

العجلة

زخرفةالفصل : هنالك بهوٌ واسع ، وأبواب صمّاء ، ترى عن الشمال صنماً ضخماً للربّة « ديكرتو » على الهيئة الوحشية . وجهها وجه امرأة وبدنها بدن سمكة . وترى عن اليمين — أزاء الصنم — عرشاً منصوباً على هيئة ديوان تتألف أجزاؤه من أسراب حمائم ذهبية ، وعلى جوانب الصنم منارات ومصابيح مختلفة تُنار في أوقاتها

يرتفع الستار فاذا المشهد مظلم رائع ، واذا بالموسيقى تعزف رويداً رويداً . وهنالك بعض اشخاص من عمال القصر يعملون وقد يتخلل هذا المشهد ضرب من الرقص الايقاعي مدى لحظات قصيرة

دخول الاسرى : تتعالى في خارج المشهد لجبة تمتزج بها اصوات الأبواق ، فيتحرك الاشخاص فجأة ، وتفتح الابواب بشدّة فيدخل الملوك الأسرى مصفدين بالأغلال في سبيل ضيق تحيط بهِ الجنود ، يجثون ويركعون وترى سيماء الخزي عليهم ثم يشمل السكون ويطول الانتظار

دخول الملكة : ها هنا تخلق الموسيقى جوًّا جديداً محفوفاً بالقوة والكبرياء وتبدو الملكة على عجلة خفيفة عليها جثث المحاربين وهاماتهم المبتورة . يجر هذه العجلة ثمانية ملوك اسرى مصفدين بسلاسل من ذهب . تطل سميراميس من قلب عجلتها السوداء ، بيدها مجن ذهبي وعلى كتفيها نشرت حمائم من ذهب اجنحتها . وعلى وجهها خوذة تحجب جله . وهي مستوية على حامية عاجية مبسوطة على هيئة سمكة . تأخذ المُدُق بيدٍ . وبالأخرى تتناول قوسها فتسكن كل حركة بدخولها وتصبح اللحظة لحظة احتفال

الملوك المقهورون : الويل لنا ، الويل لنا

والخزي لآلهتنا الضعفاء !

يا للمجد الخادع !

يا للضحايا المسفوح دمها باطلاً !

— ١ —

تحل حزم الملوك ويـُقدمونهم بغلظة ليتمرغوا على درجات العرش . ويقدم الجنود منقضين على بعض الأسرى حتى يكون من هـذه الاجساد الذليلة بساط مفروش من اليمين الى الشمال والجواري منطرحات حول العرش

— ٢ —

تهبط الملكة من عجلتها في جلال وتتجه نحو عرشها واطئة أجساد الأسرى

— ٣ —

تجرد الجواري الملكة من سلاحها وتكسوها زينتها الملكية وعلى العرش تسطع الانوار ثم تنزل الجاليات الى العرش وهنَّ يؤلفنَ حلقة دائرة فيقدمنَ المرآة والتاج وغيرها ، وخلال ذلك توقع الموسيقى ألحاناً تلائم هذا المشهد . تنتهي سميراميس من زينتها وتقعد كالنائمة وبيدها صولجانها

— ٤ —

الكهان والجنود يرقصون والعبيد يدخلون حاملين أوثان المغلوبين على أمرهم ، على هيئة مسوخ مختلفة لها وجوه حيوانات ، فتلقى أمام الربة « ديكرتو » فتعزف الموسيقى لحناً مفجعاً ، يمتزج ببعض حركات غريبة الشكل ، ثم تشير الملكة فتقطع هذه الأوثان وتحطم تحطيماً

— ٥ —

روّعت هذه اللجبة احد الملوك الأسرى فرفع رأسه ونظر الى هـذا المشهد وجلاً . لمحتهُ الملكة وخفت اليهِ رافعة صولجانها . حدقت في ملامحه فهمَّ إحد الجلاَّدين بقطع عنقه ، فحنت برأسها على ذراعيهِ فسكن جأش الجنود وهي قد سباها جمال الاسير فدغدغت خصائل شعره ورفعت رأسه بها وتأملتهُ طويلاً ثم ألقتهُ يجثو على ركبتيهِ وهي لا تزال قابضة على ناصيتهِ . وأعطت الحراس صولجانها فحملوه راكعين خاشعين . أمرت سميراميس الأسير بأن ينهض وغدائر شعره في يدها . وما زالت تشدُّ بهِ حتى انتحت بهِ ناحية وتركتهُ جامداً كالمعتوه لا يتحرَّك . أخذت تمتحنهُ

بانتباه دقيق ، تجس ذراعيهِ وكتفيهِ وتأمرهُ بأن يدور حولها ذات اليمين وذات الشمال ، وينتهي امتحانها بابتسامة رضا فيها معاني الخشية . فتحل اذ ذاك قيود اسيرها فيقف مكتوف اليدين واجماً ساهماً ، لا يدري ما يُصنع بهِ . وهنا تخمد الانوار وتنطفئ المصابيح ، ويغشى غرفة الملكة ظلام لا يتبيَّن الناظر ما وراءه الاَّ بعناء بينا ساحة المشهد الاول تسطع بضوء خاص . تهوي الملكة برفق وحنان على قدمي أسيرها ، تمرغ وجهها على ركبتيهِ وترنو اليهِ بحب وغرام . وهو قد ذهب عنهُ الخوف وثاب اليهِ هدؤه وأخذ يمر بيده على رأسها وعلى فمهِ ترتسم ضحكة صامتة ، والستار آخذ في الهبوط

وهو ستار شفاف رقيق رسمت على ملاءتهِ المطرزة طيور مختلفة ، ترى عن يساره حراس القصر مدججين بالسلاح وهم يزجون امامهم الملوك المصفدين ، وترى حملة الطعام والشراب والثمار والعطور فوق المجامر يحفون الى حيث انتحى الحبيبان ، وخلال ذلك يقوم الهارجون بضروب من الرقص . ثم يرتعش الستار قليلاً قليلاً ثم ينهتك كأنما النسيم ازاحهُ فيهدأ الهارجون عن رقصهم ويتوارون وراء الاستار

الفصل الثاني

نحن في اعماق الفصل ، وعلى جوانبهِ ستور شفافة مزخرفة ، يرتفع الستار عن جناح من الحدائق المعلقة . . . فيهِ سرير واسع تتعالى مسانده على شكل هرم . . . والليل قد لف الكون ، وفي الجناح شمعدان ضخم يشتعل بالعطور والطيوب وحوله مائدة مشحونة طعاماً وثماراً معلقة بسلاسل غليظة يسهل تناولها

في قلب هذا الليل الطافح حبًّا العابق هوًى ترى الحبيبين على السرير وقد تشابكت منهما الأيدي ، وليس على بدن سميراميس الاَّ حليها . واسيرها يرتدي ثوباً ارجوانيًّا . . . يتعانقان طويلاً

الجوقة : سميراميس ، ايتها الحمامة الحيارة

ها انت ذاهلة في الحب

بدنك عذب بين يدي العقاب الخالد

ونفسك الكبيرة تتهاوى على الملذات

سولو : في قلب الليل
ان نحن الا أنت وأنا .
لا ملك ولا ملكة
في قلب الليل .

في قلب الليل
فلك هو فيّ .
انما نحن شيء واحد
في قلب الليل .

انما نحن شيء واحد
لا ملك ولا ملكة
وفرح واحد
في قلب الليل . . .

— ١ —

يستيقظ الرجل ويتظاهر بالهرب من الملكة فتتبعهُ زحفاً على ركبتيها بين المساند. يسقط ويتظاهر بالنوم فترنو اليهِ بعطف وتلثم عينيهِ وتجعل تلمسهُ لمساً رفيقاً ، وتحنو عليهِ حنوًّا رقيقاً لتوقظهُ

— ٢ —

تتناول زجاجة عطر ترشها عليهِ وتدهن بدنه وتملقهُ ، ثم تتناول ثماراً وكأساً ليأكل ويشرب . تخدمهُ كأمة ، وتلثم يديهِ وقدميهِ . وتبدو كأنها خاضعة لهُ متراخية عنده قد شلّ الحب كل قواها

— ٣ —

ينظر اليها ضاحكاً فرحاً بما ملك ، يبدي قوّة الرجل الذي انتصر . يحدثها ويراها كأنها من سقط المتاع . فيذكر كيف مستهُ أول عهدها بهِ فيعطيها رأسه . فتهزه وتضحك في وجههِ ضحكة وحشية بهيمية ثم تدفعهُ عنها وتشد عليهِ حتى تضعهُ تحت قدميها . وهي خلال ذلك مضطربة مختبطة فيرفع يده يريد أن يهوي عليها . وفجأة

يسود السكون . وسميراميس يتبدل وجهها وترجع الى الوراء وتجمع نفسها كأنها وحش ضارٍ ابدى براثنهُ للوثوب . ابتسم الرجل ابتسامة ازدراء وضحك .والانوار الذهبية استحالت انواراً لها لون الدماء . هزَّ كتفيها وقبض عليها بكلتا يديهِ محاولاً التغلب عليها . فاستجمعت قواها وانتفضت مغضبة وزلقت بين يديهِ كالأفعى وعادت الى وجهها سيماء الحرب فقذفت بهِ بعيداً وطرحتهُ على اسفل السرير حيث تدحرج ذليلاً . وصاحت صيحة اجابها عليها عواء وزئير ، وظهر على الأثر فريق من الحراس والحارسات كانوا يزحفون من احشاء السرير ، ويخرجون من اطواء الطنافس وثنايا الاستار ، فهووا على الرجل وكبلوهُ ، والرجل في حالة اضطراب

توارى الجمع وظهرت الملكة مرتدية غلالةسوداء حاملة بيدها حربة شرعتها نحو ضحيتها ، وغادرت سريرها وشمل الظلام ولا يزال النور يتألق على الستار المرتخي شيئاً فشيئاً ، ولا تزال العين تلمح طائفة من الحراس يحملون جثة الاسير ولهم لحن يوحيه الظفر وخلال ذلك تبدو سميراميس وقد حملت مصباحاً مشتعلاً واخذت تتقدم

الفصل الثالث

يرتفع الستار عن مرصد مشيد على قمة برج أُقيم لرعي الكواكب وعبادتها . فيهِ أربعة وجوه ضخمة هي : « سيد » وهو ثور له وجه انسان . و« نيرجال » وهو اسد له وجه انسان . و« اوستور » وهو انسان . و« نانبيج » له رأس نسر . وكان الوقت قبيل الفجر والنجوم لا تزال تتألق . حتى اذا لمع لامع النهار وقع البصر سريعاً على مشهد فيهِ أنهار وغابات ومدن ودخان

هنالك أربعة منجمين مختلفي الأزياء ، كأنهم في عيد الهي سحري يترنمون بأسماء الآلهة . . . يترنمون وينادون آلهتهم ، ويبدلون أوضاعهم

المنجم الاول : يا روح بعل ، يا ملك الاقطار

الجميع : اذكر

المنجم الثاني : ياروح « سان » يا فتاة الاقطار

الجميع : اذكر

المنجم الثالث : ياروح « ايستار » يا غادة الجحافل

الجميع : اذكر

المنجم الرابع : النهار يشرق . . . والنسر يعود . . . والحمامة تسرع مضرجة بدماء الحب . تعود تستنفد كنوز الحياة . . . ألا ان الحب يورث الموت

الجميع : سميراميس ! أيتها الألوهة ،
سميراميس ، أيتها القادرة ؟
يا قوّة الآلهة ،
يا وردة السماوات ،
ترفقي بي يا سميراميس . . .

(وهنا ينطرحون ثم تدخل سميراميس في اعماق الهيكل ، وهي بردائها الاسود ، ورأسها محجوب بلفق ، وبينا هي تشد هذا اللفق على رأسها تنظر الى السماء نظرة عميقة وتحيي المنجمين ثم تدور على نفسها برفق وترقص رقصة النجوم ثم تقول

سميراميس : أيها الصرح ، يا صرحي ويا سمائي .
يا صرحي الذي رفعتهُ وسمكتهُ .
أيها البرج السامق ، يا صنع يدي
يا زهرة قدرتي المضرجة بدماء الذراري
يا هيكل السماء ، جئت أُرتل مدائحي
ان الحمامة تحلق فوقك ، على علاء النسر
على قمتك أسكر بالكواكب
واستحم بالبرد السماوي الذي ينساب ليل نهار . . .

برد السماء الإلهي يبلل الروح كالسيف
ويخمد الحب في النفس وينقذها من السعادة .

ها هنا لا ذبول ولا حنان فاتر .
والورد ان هو الا ذكرى خالية المعاني
ولكن — هنا — تتجلى القدرة وحدها

أُحييك ياسمائي ، يا هيكل الهياكل الذي من اجله آتي ومن اجله أعود

مغترفة من صدر الآلهة القوة — على ان أحيا وخدي —
ها انا ذا الآن الطاهرة الكاملة .
انني لن اكون — في الحب — شبيهة بالنساء .
انني حطمت الهياكل الغريبة ونثرت بقاياها على الحضيض .
ووطأت بقدمي اجساد الملوك الخافقة .
ومشيت على دماء الذكور الاشداء الضواري .
أنا ! . . .
وفي هذا المكان المهيمن على الأرضين التي يغمرها السبات ،
وعلى النحاس المتراكم ، وعلى اللجبة التي تتيقظ
وعلى حظائر البشرية ، حيث يُولد من يولد ويموت من يموت
اسأل نفسي وأقف مرتابة...هل أنا أشدُّ رعباً من الحياة اومن الموت ؟
انهما شيء واحد في نظر الكواكب

الجميع : في نظر الكواكب

سميراميس : بحكمتي وقوة ساعدي ، بحيلي وشجاعتي ، ومضاء عزمي ،
ورقة جسدي وظلال عيني ، بلغتُ — بقدرتي — القمة المرعبة .
وسلبتُ من الموتى هذا القليل الذي يصونونهُ من المعنى الإلهي
وصببتهُ في قلبي فوق الوجود
تاركة طبائعهم تفيض دناءة !
آه ! كم يلذني ان استروح ريح البغض من هذا المكان العالي.

الجميع : لتكن « استار » معك فتاة الجحافل .

سميراميس : الحب ذاته خضع ليدي القاهرة وجعلتُ منهُ عبداً .

الجميع : هل يعطى الجمال سلاحاً يُصرع بهِ ؟

سميراميس : أراني أرتجف اذ أريد ، وقلبي يتغير ويتحير .
جسدي هو شباك وحبائل ، واللذائذ التي يوزعها هي بنات شؤم وسوء .
لذتي هي وحش ضارٍ ، وفي سريري المطيّب أُحس حرارة الصيد الملكي

منجم : سميراميس جميلة

سميراميس : لقد سكر بلذتي ، وظنّ الحبيب انهُ أصبح سيداً.
ولـكن سميراميس المرأة كانت أدنى منهُ الى الرجال .
وهكذا قدّمتهُ الحمامة مطعماً للنسور.

منجم : سميراميس طاهرة

الجميع : انها قتلت

منجم : سميراميس عظيمة

الجميع : انها قتلت

سميراميس : اعطيت كلاًّ طعامه ، وهبتُ ليلي للبدن ، وبدني للحب ، والحب للموت

الجميع : سميراميس عادلة . . . سميرا . . .

سميراميس : [بحدة] صه أيها الـكاذبون ! اذهبوا وفرّوا وارتعشوا من عيني.
واعلموا ألاّ احد سواي يقدر ان يعطيني مدائح .
[المنجمون ينكصون الى الوراء]
أيها الـكاذبون الخادعون ، ان مجدي يقوم في نفسي وحدها .
وأنتم لا تستطيعون ان تشهدوا منهُ شيئاً
اذهبوا واهربوا
انكم لم تكونوا كهذا اليوم على أُهبة الصلب
فروا من سميراميس التي تعرف ان تتلو في قلوبكم تلاوة أوضح مما تتلونهُ
في النجوم ، وفي سميراميس ! . . .
[يزداد المنجمون خوفاً ويرجعون الى الوراء . . . وخلال ذلك يسطع
الفجر ويكسو الأشياء بحرمتهِ المتوقدة ، ثم تكشف الاشياء تحت نوره
شيئاً فشيئاً]

سميراميس : [بتمهل وغضب]
ان هؤلاء الفلاسفة — من غير عقل —
يتركونني أشعر — عن حمق — بأنني أبذل لهم .
لقد كان أسيري — على الأقل —
مجبولاً من الصفاء الـكامل

سميراميس : وهل أكثر صدقاً وطبيعةً من الاغواء والفتنة يأتيهما من يثق بأنهُ جميل !
وهل اكثر صدقاً وطبيعةً من رجل يعلل نفسه « بأن ملكة تهب نفسها
وجسدها ان هي الاّ امرأة مستعبدة ذليلة » .
لقد كان جميلاً حقّاً ،
كم رقصت من أجله بلذة ، ومن أجلي أيضاً . . .
[تجلس على الافريز ، وصوت بعيد يحمل اليها صدى أغنية بسيطة
لا تدرك كلماتها ، تستغرق الملكة في حلم حزين ثم تأخذ ترقص بهوىً ،
ثم تكفُّ عن رقصها بغتة] .
« سميراميس طاهرة . . . انها قتلت » .
يا نفسي بحقيقتها ، يا سميراميس وحدها !
ما ذا ؟ ان هذا الراعي الذي تفاوح أغنيته بما لا أدري من روح الحب
هل ألّف اغنيته على الملكة ؟
وهل سم الكآبة الناعم المسكوب في هواء الفجر يقدر ان يقودني قسراً
الى الضعف الانساني ؟
لا يا سميراميسي ... يا قادرة على الحياة وحدها معتزلة !
ليس لي شبيه ، ولا أريد حياة ولا موتاً .
[مزامير مبهمة تعلن اليقظة ، والشمس ترسل أشعتها ، تضيء المدينة ،
سقوفها ، ومجاري مياهها اللامعة . سميراميس تلمح نفسها و تقف موقفاً جليلاً]
ها أنت ...
ها قد بدا السيد يختال في مجده .
بدا من يعطي ومن يأخذ ، ومن يولّد ومن يبيد .
يظهر ويضرب ... ويضع كل شيء منسجماً في نظامه ...
يجمع الفضاء والارض والانظار والافكار
سلاماً يا سيد الزمان !
لا اريد سواك مرآةً لي ...
اني أقدم نفسي كاملة الى معرفتك الملتهبة

سميراميس : ولا ترى — في سميراميس لا سرًّا ولا ظلاً من اجلك .

[تكشف عن بدنها وتصبح عارية كما ظهرت في الفصل الثاني]

ايها الاله ... لا اعرف سواك !

يا اله الآلهة ، لا احد غيري وغيرك

أريده بكل قواي...

[ترقى على الافريز]

كم أتروح !

كم أتروح هنا ريح السلطة المطلقة الصافية .

أرى وأتروح — في الاعالي — كل ما صنعت .

الرغبة تتركني والهوان يرفعني .

ان قلبي أوسع حدوداً من مملكة

وليس هنالك صرح — مهما شمخ وتعالى — أستطيع ان أكتشف من علوه حدود نفسي

أريد ان أكون عظيمة حتى يأتي رجال العصور الآتية ويشكوا في وجودي.

أريد ان أكون قوية جميلة حتى يروا فيَّ خليقة رومانية سامية .

أليس المجد الأعظم هو نصيب الآلهة الذين لا يُبصرَون !

سيقولون عن سميراميس — ألاَّ وجود لها — انها آلهية . . .

[تنزل وتمر بجنب الهيكل ، وبحركة من مشيها الفتان تلبث لحظة كأنها في صلاة ثم ترقى درجات الهيكل]

والآن سأنام على حجارة هذا المعبد .

وسأصلي للشمس وهي في حدتها . حتى تحيلني بخاراً ورماداً ، وحتى تنطلق — حرة من نفسي في هذه اللحظة — هذه الحمامة التي غذيتها بكثير من المجد والكبرياء

[وهنا تمددت سميراميس على حجر الهيكل واشتعلت بأفراحها وغدت مشعلاً من النور الباهر طوال لحظة . . . ضباب خفيف يحيط بها ثم يرتفع متوثباً ثم يتمزق . . . عن حمامة تطير ، ولا يزال المعبد الفارغ يسطع في الشمس]

الكيمياء الصناعية [1]

معجزات علمية أغرب من الخيال

بقلم عوض جندي

[عن مجلة العلم العام الاميركية]

﴿ الحرير الصناعي ﴾ ليتخيل القارىء كرة من الخيط، تزن رطلاً واحداً فقط من نسيج رفيع جدًّا. فاذا ما نشرت تلك الكرة، امتدت من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادي قاطعة أميركا من الشرق الى الغرب. فهذه احدى العجائب الكيميائية التي عرضت حديثاً في مدينة كنساس بولاية ميسوري بأميركا، عند اجتماع الكيميائيين، ليقابلوا أعمالهم بعضها ببعض. وهي أحدث ضروب الحرير الصناعي. اذ الثوب الذي يُصنع منهُ، يتاح اخفاؤه في قبضة الكفّ

ولا شك في أن الذين صنعوا الكرة المشار اليها، بالوسائل الكيميائية، قد بزوا دودة الحرير. لأن رفع خيطها، ثلث رفع الحرير الطبيعي. وكان تحسين وسائل تنقية عجينة الخشب، التي تقوم مقام المادة الاولية في الحرير الصناعي، ثم تحسين المحلولات الكيميائية والآلات المستعملة في صنع ذلك الحرير، متحدة بعضها ببعض، كفيلين بخلق تلك الكرة

فغدا المرء يعروه الدهش من مبتدعات الكيمياء الصناعية، كما يؤخذ من مطالعة قصص كتاب الف ليلة وليلة، العربي المشهور. وأصبحت الدار واللباس والمركبة، بل كل ما يحيط بك من اللوازم يستفيد من صناعة الكيميائيين

﴿ السكر من نقيع الذرة ﴾ وتبين لهم أن الماء الذي ينقعُ فيهِ الذرة، عند صنع نشاء الذرة، يتولد فيهِ سُكّر، ذو خاصيتين غريبتين. فيكون حلواً في حالة النقاوة. ولذا شرع بعضهم يجربونهُ في العيادات ليجعلوهُ بديلاً للسكر العادي في غذاء المصابين بالبول السكري. ويصير ذلك النقيع نفسه مادة مفرقعة اقوى من النيتروجليسرين اذا ما عولج بالحامض النيتريك. ولا

---

(١) كتبنا في عجائب الكيمياء الصناعية مقالا بعنوان «فحم حجري من السكر نب» نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٢٩ ومقالا آخر بعنوان « الفضلات الزراعية ومنافعها » في مقتطف مايو سنة ١٩٣٠

يحتاج الى أية مادة كيميائية هامدة عند تحضيره للاستعمال . فالنيتروجليسرين وهو سائل متفجر جداً يحيل بعض المواد الصلصالية ليصلح استعماله كديناميت . ولكنَّ « ديناميت الذرة » صلب بذاته . ويتوقع الخبراء التذرع به الى تكسير الاحجار في محاجرها ، والى حفر الحفريات وشق الانفاق . ويقدر المطلعون انهُ يتسنى الحصول على مليون رطل من السكر كل سنة، كفضالةٍ تتخلف عند صناعة النشاء وذلك بالطريقة الكيميائية الجديدة التي ابتدعها الأستاذ ادوارد بارتو Bartow رئيس الجمعية الأميركية الكيميائية

﴿ بديل الهواء الطبيعي ﴾ وقد بيَّن الدكتور ولرد هرشي الأستاذ بكلية مكفرسن في مكفرسن بولاية كنساس أن جرأة الكيميائيين، لا تحدُّ إذ أذاع أنهُ وُفِّقَ لبديلٍ هوائي أصلح للرئات البشرية من الهواءِ الطبيعي ! !

ولا يخفى على القراءِ ان الهواءَ الذي نستنشقهُ مؤلف من النيتروجين والأوكسيجين ومقادير يسيرة من الهليوم وغيره من الغازات الجوية النادرة ، ولذلك رأى الدكتور هرشي أن يمتحن الغازات الأخرى ليقدر مبلغ صلاحيتها للحياة . فحبس طائفة من الجرذان والأرانب الرومية والسنانير والقردة في حجر زجاجية محكمة الاغلاق وجعل ينشقها غازاتٍ ومزيجات من غازات مختلفة بوساطة أنابيب ، فأدرك أن الهواء الطبيعي التي يأتي في المرتبة الثانية من مراتب الغازات الصالحة للتنفس ! ! إذ استطاعت الحيوانات المشار اليها ، الحياة ، واكتساب القوَّة ، في مزيج غازي مركب من الهليوم والاوكسيجين . فأثبت بذلك ان المرضى بالأمراض التي تسبب صعوبة التنفس هم الأَلى يستفيدون من ذلك الاكتشاف قبل غيرهم

﴿ الصمغ المرن الصناعي ﴾ ولا بدَّ أن المشغوفين بركوب السيارات سيهتمون بمشكلتين خطيرتين ، وهما العجلات والوَقود . وذلك من جراءِ المكتشفات الجديدة إذ وافتنا الأنباء من المانيا بأن علماء الكيمياءِ الصناعية قد تمكنوا من صنع مطّاطٍ صناعي، آخذين مأخذ الأميركيين الذين سبقوهم في ذلك الميدان . ففي مدينة « ديب ووتر پوينت » في ولاية نيوجرسي مصنع لصنع الصمغ المرن (المطّاط) ينتج مليون رطل في السنة . ويقول المحققون إنهُ ذو خصائص يتفوَّق بها على المطّاط الطبيعي تفوقاً عظيماً ، وذلك من عدة وجوه ، وان ذلك المطّاط الصناعي سوف يحل في الحروب محل الطبيعي كله

ومخترع المادة الاساسية لتركيبه هو القس نيوولند (الاستاذ بجامعة نوتردام) J. A. Neuwland وقد نال من أجله وسام Nichols نيكولس وهو من أسمى الجوائز الأميركية لعلم الكيمياء.

وتؤلف المادة الأولية المشار اليها من الاسيتلين العادي وتسمى فينيلاسيتيلين Vinylacetylened

ومما قالهُ الكيمياوي الذي منح الجائزة الى ذلك الأب المخترع عند فوزه « ان ميدان البحث

العلمي لأحوج الى شجاعة أكثر مما تقتضيها ساحة الوغى» وهذا قول لا مرية فيه اذ يعلم الخبراء علم اليقين مبلغ الخطر العظيم الذي يستهدف لهُ كلٌّ من مارس التجارب في مشتقات الاسيتيلين ، وهي مواد دقيقة شديدة التفجر

ومع علم الأب نيوولند بفداحة الخطب فقد خاطر بحياته مرات لا تحصى في قيامهِ بالتمحيص الذي أسفر عن ظفره ، ذلك الظفر المبين

﴿البنزين الصناعي﴾ ومن المواد الجديرة بالذكر في هذا الباب «استخراج البنزين من الفحم الحجري» وقد تمَّ في كل من انكلترا والمانيا، حيث أنشئت لهُ مصانع ضخمة . أما في ولايات أميركا المتحدة فان مسألة مزج البنزين بالكحول ، واتخاذ ذلك المزيج وقوداً للسيارات ، فما برحت مثاراً لمناظرات عنيفة تدور رحاها بين علماء الكيمياء . اذ يقول انصارها انها ستفيد الزراع فوائد مالية عظيمة . وذلك من بيع مقادير كبيرة من محصولات الذرة التي تزيد على حاجتهم اذ يستطاع بالكيمياء ، تحويلها كحولاً . وان مزج الكحول الذي يستقطر من الذرة بتلك الطريقة ، بمقدار كبير من البنزين ، يجعله وقوداً صالحاً للسيارات مثل البنزين الصافي ، هذا اذا لم يفقهُ في الاقتصاد وتوليد القوة الدافعة

وعلى حين تتشعب آراء العلماء الكيميائيين في مبلغ الاستفادة من ذلك المزج المزمع تجربته ، يؤكد خبراء دائرة النماذج في حكومة الولايات الاميركية المتحدة ، ان المزيج نفسه وقود صالح جداً للسيارات ، بشرط واحد فقط وهو اختراع محركات خاصة تلائمهُ كل الملاءمة

وعلى كل حال ستتهيأ الفرصة لاصحاب السيارات وساقتها للحكم بأنفسهم على صلاحيته من عدمها، اذ أنشئ مصنع في مدينة اتشيسن في ولاية كنساس يستقطر كل يوم ١٠٠٠٠ جالون كحول من الذرة ، على ان تستعمل للمزج بالبنزين المعتاد وتصير وقوداً للسيارات يباع بالثمن عينه الذي يباع بهِ البنزين المألوف

﴿مستحلبات الفوتوغرافية﴾ وسينتفع المشتغلون بالتصوير الضوئي بالحادث الاتفاقي الذي حدث من عهد قريب لأربعة شبان من الباحثين في الكيمياء كانوا يحضرون طائفة من المحلولات الفوتوغرافية فدهشوا إذ رأوا ان ورق الطبع المغشى بذلك المحلول ، ولّد لوناً اسود في أجزاء الصورة التي يجب ان تكون بيضاء ، ولوناً ابيض حيث يتوقع ان يكون اسود . فبحثوا الموضوع جيداً ، فتبين لهم انهم قد عثروا على قاعدة لصنع نوع جديد من المواد يصلح المصورين بالضوء، اذ يسهّل التقاط الصور الضوئية التقاطاً مباشراً دون الاحتياج الى استخراج صورة سلبية ، بمثابة خطوة متوسطة . وان ذلك المحلول اللبني « المستحلب » الجديد يصلح ايضاً لاجل الفيلم واللوحات الفوتوغرافية والورق وتم تجليته بأساليب ومحلولات ثابتة

﴿ فلزات جديدة ﴾ وقد تكشفت لعلماء الكيمياء في مختبراتهم ، فلزات جديدة ، حيث استطاع الكيميائيون في معهد ملاون Meilon Institute للمباحث الصناعية في بتسبرج بولاية بنسلفانيا ، صنع شفرات فاخرة لموسى الحلاقة المأمونة . وذلك من مزيج فولاذي اخترع لذلك القصد . اذ خلطوا طائفة من المعادن، بعضها ببعض ، ثم استخرجوا منها خليطاً طنجستانيًّا يحل محل الرصاص في الوقاية من الاشعة القوية التي تنبعث من الراديوم . وهو خليط .ؤلف من الحديد والإليومنيوم والنيكل والكوبلت. ومنهُ تصنع الآن اقوى المغنطيسات الدائمة المغنطة، في العالم وكذلك يستغل منهُ الفولاذ النقي الذي يجمع بين الرونق والقوة لصنع مركبات السكك الحديدية

وبلغ من كثرة تنوع الاخلاط الفولاذية الجديدة المدهشة التي لا ينقطع سيل اختراعها ، ان علماء الكيمياء انفسهم ، يلاقون الصعاب في منافسة بعضهم بعضاً ، ابتغاء السبق في ذلك المضمار

ورغبت المؤسسة الهندسية في مدينة نيويورك ، في حصر الاخلاط الفولاذية والحديدية المشهورة ، الآن دون سواها ، حصراً سهل المنال ، فعينت ١٥٠ رجلاً ليفحصوا جميع الكتب الفنية في العالم ، وينقلوا منها ما يعثرون عليه من ذلك القبيل ، ليضعوا له فهرساً عامًّا .

ويرى المحققون أن ذلك العمل الجليل لم يسبق له نظير في تاريخ العلم . ومن اغرب ما يروى في هذا الصدد أن معلومات علماء الكيمياء في الحديد نفسه ، يسيرة . اذ الحديد النقي يكاد يكون حديث خرافة . وقد ثبت من عهد قريب أن الحديد الذي نعرفهُ ، انما يحمل شبهاً طفيفاً للحديد المحض. وذلك حينما استغل الباحثون بالتجارب انقى انواع الحديد بتسخينها بلهب الهيدروجين فتكشف لهم ان الحديد الذي حصلوا عليه ، لا يصدأ في الاوكسيجين والماء النقيين وان تعرضا لهما شهوراً

﴿ الصبغات الطريفة ﴾ واسفرت مباحث العلماء وتجاربهم في الصبغات عن انواع منها غير مألوفة إذ أعلن الكيميائيون البريطانيون اكتشاف صبغة زرقاء جديدة لتستعمل دهاناً للحيطان والخشب ، ومداداً للطبع . والمعروف الآن ان الالترامارين Ultramarine الذي اكتشف في سنة ١٧٠٤ والازرق البروسي الذي اكتشف في سنة ١٨٢٦ هما الصبغتان اللتان تستغل منهما الصبغة المشار اليها ، وهي لا تحتوي على الصفات المرغوب فيها اي اللمعان والقوة والثبات مهما تعرضت للضوء والحرارة والاحماض والقلويات وغيرها من المواد المذيبة

اما الصبغة الجديدة وهي المسماة «ازرق موناسترال الثابت noastral » فيقال انها تحتوي على المزايا التي يحتاج اليها كل امرىء . وعدا ذلك ، يقال انها افضل الالوان الزرقاء للطباعة الملونة ويستدل مما ذكرناه من الامثلة، على مبلغ فوز علماء الكيمياء وتأثيره في كل فرع من فروع المعيشة

﴿ الاثاثات المنزلية ﴾ ومما احدثهُ أولئك العلماء الكيميائيون من الانقلابات المدهشة ، في البيوت ، التدرج في صنع الاثاثات الخشبية إذ أن الاشياء التي مازالت تصنع دائماً من الخشب أو

المعادن ، ومنها خزائن الراديو واغطية القناني ، غدت تصنع من مواد صناعية تسمى بالعجائن وهذه يركبها الكيميائي في مخباره . وهي في عرف الخبراء ، فاتحة لميدان رحب ، وسيعقبها صنع المنضدات والكراسي والاسرة ، من تلك العجائن المتلألئة التي يسهل الاحتفاظ بها نظيفة ، ويصعب تعرضها للخدش او التشويه . اما في وقتنا الحالي ، فلا يعوق ذيوع استعمال هاتيك المصنوعات العجينية ، غير ارتفاع اثمانها قليلاً عن أشباهها التي تؤخذ من المواد الطبيعية

ويرى ويليم هاينز الخبير النيويوركي الكيميائي انهُ اذا انخفض سعرها قليلاً ، انتشر استعمالها انتشاراً رائعاً

﴿ الزجاج اللين ﴾ والزجاج ايضاً مع شدة الحاجة اليهِ في صنع النوافذ ، وتفوقهُ في ذلك السبيل ، فلهُ منافس جديد ونعني بهِ المواد الشفافة التي من فصيلة العجائن . ومع ان منافعها في البيوت ما زالت موضعاً للجدل ، فقد تجلت بعض مزاياها المرغوب فيها ، ومنها المرونة التي تسمح بثنيها حتى تصير منحنيات تصلح لنوافذ الطائرات . وقد نشأ من التحسينات الكيميائية الحديثة التي قام بها العلماء في الزجاج المستعمل في أواني الطبخ النموذجية التي توضع في الافران ، التمكن من صنع مقالٍ من الزجاج تقاوم الحرارة مقاومة فائقة لاجل الطبخ على رأس الموقد

﴿ الاستغناء عن حرارة البخار ﴾ وشرع الكيميائيون يخترعون طريقة لتحل محل البخار في اجهزة التسخين . واساسها مركب ابيض يعرف باسم ديفنيل diphenyl وهي مادة كيماوية تمتُّ الى عطر الخبيزة الافرنكية الصناعي ، تتحول بخاراً عند درجة ٥٠٠ فرنهيت . ولما كانت تلك المادة تحتفظ بالحرارة اكثر من البخار ويمكن رفع حرارتها الى درجة عظيمة ، دون احداث ضغط خطر ، فقد استعملت هذه المادة الجديدة في كثير من الصناعات

﴿ التبريد المنزلي ﴾ واتجهت عناية المهندسين الكيميائيين ايضاً الى مسألة التبريد المنزلي فاتخذوا مثالج « الثلج الجاف » أي الحامض الكربونيك المجمَّد ، للتبريد في الاقاليم الحارة ، حيث تكون مصانع الثلج نائية عن امكنة الاستهلاك وحيث لا توجد الكهربائية . ولذلك يوضع الثلج الصلب في صندوق داخلي معزول لكيلا يجذب الحرارة جذباً حثيثاً جداً ، والاَّ فدرجة حرارته البالغة ١٠٩ فرنهيت تحت الصفر تجمد محتويات الصندوق جميعها . ثم أن تأثيره الجليدي الذي ينتقل بوساطة زعانف معدنية على الصندوق ، يتسنى تنظيمه ليبقى درجة حرارة المثلجة في الحدود المرغوبة . وللمثالج التي يستخدم فيها ذلك المبرد القابل للتبخر ، منفعة غريبة وهي تكوُّن غاز الحامض الكربونيك في باطن المثلجة الذي يقال انهُ يعيق نمو البكتيريا ويحول دون انتشار روائح الاطعمة

تمدد الكون

منشؤه ومصيره

لنقولا الحداد

المتناهي واللامتناهي

قبل ظهور نسبية اينشطين كان الفلاسفة اذا ساقهم التفكير الى سعة الكون لا يرون بدًّا من الاستسلام الى نظرية اللانهاية فيقولون : الكون مادةً ومساحةً (مكاناً) غير متناهٍ اي انهُ مكان لا نهاية له واجرام سابحة فيهِ لا نهاية لعددها . واذا خطر لواحد ان يذهب الى ان هيولى الكون (مادته) قدراً معيناً قامت الاعتراضات في سبيل خاطره . واذا سئل صاحب هذه النظرية : اين موقع المادة المعينة القدر في فسحة الكون غير المتناهي ، لم يُحرْ جواباً . لانهُ لا يقدر ان يعين موضعاً في رحبة الكون التي لا نهاية لها ما دامت خالية من اي شيء آخر يعتبر كعلامة تقاس من عندها الابعاد . وبناء على هذا العجز عن الجواب حكم الفيلسوف « كنت » بانهُ لا يمكن ان توجد مادة معينة المقدار في رحبة الوجود غير المتناهية . واذن فالهيولى غير متناهية في رحبة الوجود غير المتناهية ايضاً

ولكن العقل البشري يحار في اللامتناهي ، كما انهُ لا يستطيع ان يتصور حدوداً للمتناهي ليس وراءها شيء . فهو بين المتناهي واللامتناهي حيران ما دام يعتمد على التصور فقط . وانما اذا لجأ الى العلم فقد يجد ما ينقذه من الحيرة ، ولا سيما اذا صرف ذهنه عن التصور واعتمد على منطق العلم فقط

بقيت مسألة اللانهاية لغز الوجود الى ان انجلت للعقل البشري « سنة الجاذبية » ودعمها « ناموس النسبية » فاتضح للعقل النير ان الكون ، وان كان غير متناهي المكان ، لا يمكن ان يكون غير متناهي المادة ، بل لا بد ان تكون المادة فيهِ قَدَراً معيناً يشغل فسحة معينة من المكان وبعد هذه الفسحة خلاء غير محدود يصح ان يكون ما يسمونهُ « العدم »

وفحوى برهان اينشطين صاحب نظرية النسبية على هذا القول هو ان الكون اذا كان

مكاناً غير متناهٍ تشغله سُدُمٌ واجرامٌ وشموسٌ وسياراتٌ لا نهاية لعدها وجب بمقتضى ناموس الجاذبية الذي لا مناص من فعله فيها جميعاً ان تتحرك هذه الاجرام في المكان اللامتناهي بسرعات اعظم جدًّا من سرعاتها التي نعرفها الآن بل بسرعات تفوق حد التصوُّر — تتجاوز سرعة النور . وهو امر مستحيل بحسب ناموس النسبية الذي كشف عن ان سرعة النور هي منتهى السرعة في الوجود ، ولا يمكن ان تفوقها سرعة . والجسم الذي يفوقها سرعةً يفنى

بحسب برهان اينشطين هذا (وقد شرحتهُ في كتابي النسبية) يستحيل ان تكون اجرام المادة غير متناهية العدد او المقدار ، بل هي قَدَر معين في رحبة معينة من رحاب المكان غير المتناهي . فالحيز الذي تشغله هذه الاجرام هو ما يسميه علماء اليوم « المكان » Space . واما ما وراءه فخلاء يسمى « العدم »

حيز الكون الهيولي

وهنا يبدر الى ذهن القارىء ان يسأل : اي شكل هندسي يتخذ هذا الحيز الماديّ ؟ أمكعَّبٌ هو ام كرة ام لوح مستطيل مستقيم ذو طول وعرض وسماكة ؟

والجواب بحسب برهان اينشطين انهُ ليس شيئاً من ذلك . وانما هو لوح سميك ولكنهُ غير مستقيم بل هو منحنٍ من جميع جهاته بحيث تلتحم حواشيه بعضها ببعض فيصبح بشكل كرة فارغة تامة الاستدارة (او الكروية) او بيضية الشكل (بشكل البيضة) واينشطين يرجح الشكل البيضي لاعتبارات لا محل لشرحها هنا . واذن فهو بشكل بيضة فارغة والاجرام في قشرتها

ولتسهيل التصور على القارىء فيما يلي من بحثنا نفرض هذا الحيز المادي كرة فارغة الجوف اي ان جوفها خلاء عدم كالخلاء الذي حولها . واجرام المادة سابحة في جلدة هذه الكرة من سُدُم او مجرات كمجرتنا — كلها سائرة متساوقة في اتجاه واحد في جلدة الكرة بقوة الجاذبية المتبادلة بينها

ولما اعلن اينشطين هذه النتائج من بحثه عن حجم الحيز المادي قال ان هذا الحجم بما فيهِ من هيولى (مادة) منذ الازل والى الابد لا يزيد ولا ينقص ولا يضيق ولا يتسع . اي انهُ وعاء (بالشكل الذي تقدم وصفه، جلدة كرة) تتوزع فيهِ المجرات وتتحرك دائرة على محاورها متدحرجة فيهِ باتجاه واحد . وقد حسب الحاسبون عدد ما فيهِ من كهارب وما يقابلها من بروتونات فاذا هي 10^{79} اي واحد الى يمينهِ ٧٩ صفراً فتأمَّل !

ولكن ما ظهر بحث اينشطين هذا حتى ظهر من ارصاد هَبل Hubble في مرصد جبل ويلسون في كاليفورنيا ان المجرّات والسُّدُم تتباعد باستمرار بعضها عن بعض كانها تتشتَّت في الفضاء الخالي . ودرس دي ستر de Sitter ارصاد هَبل درساً دقيقاً وبرهن ان حجم الكون

الذي وصفهُ اينشطين بكونهِ ثابت المقدار اي لا يتسع ولا يضيق انما هو آخذ بالاتساع وغير ثابت على سعة واحدة ، وان كانت المادة التي تشغله لا تزيد ولا تنقص . اي ان الاجرام التي فيهِ تخرج عن حدودهِ التي قرَّرها اينشطين . ولذلك يتضخم حجم الكون كل هنيهة من الزمن

لم يعين دي ستر de Sitter متى ابتدأ حجم الكون هذا يتضخم — لم يقل كم كان نصف قطره (الراديوس Radius) حين ابتدأ يتضخم . بل اقتصر على القول انهُ آخذ بالتضخم . وانما في ذلك الحين نشر العالم البلجيكي الاب لومتر Lemaitre رسالة بهذا البحث برهن فيها ان الكون شرع ينتفخ منذ نشأ . لان كوناً كهذا الذي وصفهُ اينشطين ثابت التوازن لا يمكن ان ينشأ متوازناً ويبقى متوازناً الى الابد . بل لا بد ان يبتدىء كبيراً متقلصاً رويداً او صغيراً متمدداً رويداً . وهذا يقتضي انهُ لم ينشأ كرة فارغة كما وصفهُ اينشطين على حاله الحاضرة بل كان كرة صغيرة جداً كثيفة ، ثم جعلت تنتفخ تدريجاً ، كأنَّ قوة فيها تدفع اجزاءها بعضها عن بعض الى خارج محيطها حتى فرغت من الداخل واصبحت كجلدة كرة مطاط كما هي الآن . ولا تزال تنتفخ كما قال دي ستر

فالكون ابتدأ كما برهن الاب لومتر
وهو الآن كما برهن اينشطين
ومستقبله كما وصف دي ستر

ولما علم اينشطين بارصاد هَبل التي اثارت أفكار دي ستر وفريدمان ولومتر وغيرهم برح الى اميركا لكي يقف على ارصاد هَبل بنفسهِ ويتأكد صحتها . فلما شاهد ماشاهد ودرس ما درس هناك عاد مقتنعاً وغيَّر رأيه في حجم الكون . وجعل يدرس حالة انتفاخهِ ويبحث عن قاعدة رياضية له وان كان قد عزَّ عليهِ وعلى سواه ان يتحقق اصل السبب في هذا الانتفاخ . وانما فرض لناموس جاذبية نيوتن سجية اخرى وهي ان قوة الدفع عن المركز Centrifugal force اقوى من قوة الجذب الى المركز Centripetal force فسمى الزايد في قوة الدفع «الدفع الكوني» Cosmical Repulsion وحسب مقداره فاذا هو قدر ثابت Constant بالنسبة الى نصف قطر الكون مهما تمدَّد

سرعة تشتت المجرات

كان هَبل في مرصد ويلسون اول من اكتشف سنة ١٩٢٩ أن المجرات تبعد عنا بسرعات مختلفة وان ابعدها اسرعها (لسبب ستعلمهُ فيما بعد) . وحتى سنة ١٩٣١ كان قد اكتشف سرعة ٩٠ مجرَّة منها ٨٥ تتباعد عنَّا و ٥ تقترب الينا . على ان اقتراب هذه المجرَّات الخمس يناقض

في الظاهر نظرية انتفاخ حجم الكون التي تقتضي ان جميع المجرات تتباعد بعضها عن بعض . ولكن اقترابها يمكن تعليلهُ بامرين معاً : الاول ان هذه المجرات الخمس اقرب المجرات التسعين الينا . ونحن نرصدها من نظامنا الشمسي ونراعي خط النور اليها من ارضنا لا من مجموع مجرتنا جملةً . فاذا راعينا سرعة نظامنا الشمسي (٢٠٠ الى ٣٠٠ كيلو متر بالثانية) في قرص المجرة كنا نحن نقترب الى تلك المجرات اكثر مما هي تبعد عنا . ولكن لو راعينا خط الرصد من مجرتنا عموماً لا من نظامنا الشمسي خصوصاً لرأينا انها كغيرها تبعد عنا . والثاني ان منطقة مجرتنا واقعة بين منطقة هذه المجرات ومركز الكون . وبحسب ناموس التسارع هي اسرع منها في مجرى العوالم الكونية . فاذا كانت المجرات الخمس الدانية الينا تجري امام مجرتنا فمجرتنا تجري وراءها اسرع منها . ولذلك تظهر لنا مقتربة الينا . والحقيقة ان مجرتنا مسرعة اليها . اذن اقتراب المجرات الخمس من بين التسعين لا ينقض نظرية ان جميع المجرات تتباعد متشتتة كما سنشرحهُ جليًّا فيما بعد

وكان سليفر Slipher من ناحية اخرى يرصد المجرات ايضاً ويستخرج سرعاتها فاستخرج سرعة ٤٠ مجرة ، منها ١٢ مجرة تتباعد بسرعة ٨٠٠ الى ١٨٠٠ كيلومتر بالثانية . وهوماسون Humason في مرصد ويلسون اكتشف سرعات هائلة ، منها سرعة مجرة في خط الجوزاء (جميني Jemini) تتراجع بسرعة ٢٥ الف كيلو متر بالثانية وهي تبعد عنا ١٥٠ مليون سنة نور . ولا ريب ان هناك مجرات اقصى من هذه واعظم سرعةً

واذا جعلنا مجرتنا مركزاً ورسمنا حولها غلافاً كرويًّا على بعد مليون سنة نور عن هذا المركز كان ما اكتشفتهُ الارصاد وراء هذه الكرة ٨٠ مجرة تتباعد تاركة وراءها خلاء لا تحتله مجرات اخرى غيرها بعدها

وقد استخرج هَبل من مجموعة ارصاده للمجرات قانوناً لسرعتها ، وهو ان معدل السرعة ٥٥٠ كيلومتراً في الثانية لكل مليون فرسخ (تعريب persec). والفرسخ ٣،٢٦ سنة نور. اذن المجرة التي على بعد ٣٬٢٦٠٬٠٠٠ سنة نور عن مجرتنا تتباعد عنها بسرعة ٥٥٠ كيلو متراً بالثانية . هذا قانون تقريبي وقد يكون الخطاء فيهِ نحو ٢٠ في المائة . ويزعم آخرون ان معدل السرعة لكل مليون فرسخ يتراوح بين ٥٠٠ والف كيلو متر بالثانية

ثم حسبوا ان تباعد المجرات المستمر على هذا النحو يجعل ابعادها تتضاعف كل ١٣٠٠ مليون سنة نور

كيف ينتفخ حجم الكون

والآن نشرح بقدر الامكان كيفية انتفاخ الكون الناشيء عن تشتت المجرات وتباعدها بعضها عن بعض

لنفرض ان في جلدة الكرة التي تسبح فيها المجرات ملازمة لها قوَّة دافعة تمطها الى الخارج فبالطبع تبقى المجرات فيها ملازمة لها . فماذا نرى بعد امطاطها ؟

لتسهيل التفهم تصور الكرة الكونية بالوناً أبيض من المادة المطاطة كالبالون الذي يلعب بهِ الاحداث وتصوَّر سطحه مرقَّطاً بنقط سود على ابعاد متساوية فيما بينها. ثم تصوَّر انك نفخت هذا البالون الى ان زاد حجمه أي زاد نصف قطره (الراديوس) نحو ربعه أو ثلثه . فماذا ترى ! ترى ان النقط السود قد تباعدت بعضها عن بعض نحو ثلث المسافة فيما بينها ايضاً . وانما تبقى نسبة التباعد بينها واحدة اي متساوية كما كانت قبلاً . ثم ماذا ترى ايضاً ؟

اذا كان بين كل نقطة وأخرى سنتمتر قبل المط فبعده تصبح المسافة بين النقطة الواحدة والنقطة المجاورة لها سنتيمتراً وثلث السنتيمتر فقط وبينها وبين الثالثة سنتيمترين وثلثين ، وبينها وبين الرابعة ٤ سنتيمترات بدل ٣ سنتيمترات وهلمَّ جرًّا

على هذا النحو تصور الكرة الكونية قد انتفخت في مدة معينة ، وبه تفهم كيف ان المجرات كلما كانت بعيدة عنا تراءت لنا اسرع مع ان تباعدها بعضها عن بعض متماثل بالنسبة الى المركز الكوني . ولو كنا في اية مجرة من مجرات الكون لكنا نرى هذه الظاهرة بعينها اي ان المجرة القصوى عنا اسرع ابتعاداً من القربى الينا — بالنسبة لنا ولكن ليس بالنسبة الى مركز الكون

لا يقتصر هذا المط والانتفاخ على حجم الكرة فقط بل يلحق جلدتها ايضاً . اي انها فيما هي تنتفخ ، جلدتها نفسها تسمك على نسبة ثابتة . تبقى نسبة الراديوس الفراغي الداخلي الى الراديوس الخارجي واحدة. هذا ما اكتشفهُ اينشطين ومنهُ استخرج قيمة ثابت الدفع الكوني Cosmical repulsion constant واضاف هذا الثابت الى معادلة الجاذبية النيوتونية

سير الشعاع في محيط الكون

ولكن أحقيقي ان شعاعة نور تصدر من اي جرم تطوف الكون هكذا ؟ ام انها تعبر الفراغ الداخلي من جنب الى جنب متخذة اقرب مسافة (اقليدوسية) ؟

والجواب انها لا تستطيع ان تعبر ذلك الفراغ (بحسب هندسة اقليدوس) لان الجو الجاذبي في جلدة الكرة الكونية التي نحن بصددها اقوى جدًّا منهُ في الفراغ الداخلي . فلا يدعها تعبر الى ذلك الفراغ بل يضطرها ان تسير في الحيز الكوني (الجلدة) متخذة خطًّا منحنياً كانحنائهِ . وقد برهن اينشطين انحناء خط النور في الجو الجاذبي وايدت الارصاد برهانه

وهنا قد يخطر في بال القارىء هذه الفكرة : وهي : ان اشعة النور التي تصدر من اي مكان تطوف حول الكون وتعود بعد ٣٢ الف مليون سنة الى حيث صدرت. فلو استطاع انسان ان يخترع مرصداً قويًّا جدًّا بحيث يمكنهُ ان يتبين بهِ الاشباح عن هذا البعد السحيق لامكنهُ

ان يرى برصده هذا بعد ٣٢ الف مليون سنة (عمر طويل) طيف ظهره . أحقيق هذا التصور ؟

نعم انهُ حقيق اذا كان حجم الكون ثابتاً لا يتسع ولا يضيق كما حسبهُ اينشطين اولاً . ولكن اذا كان الكون ينتفخ كما قال دي ستر ولومتر فالشعاعة لا تعود الى حيث صدرت لان مصدرها انتقل من مكانهِ وابتعد كثيراً . هذا هو رأي العلاَّمة السر ارثر أدينغتون . ولكن لهذا العاجز ملاحظة وضيعة على هذا الرأي ، مع الاحترام الكلي للسر ارثر أدينغتون، تؤيد الخاطر الاول لنفس السبب الذي يستعين بهِ ادينغتون : وهو: نعم ان الكون منتفخ ومصدر الشعاعة منتقل من مكانهِ في الفضاء المطلق ولكنهُ غير منتقل من مكانهِ في الحيز الكوني المنتفخ . نعم ان الطريق الدائري الذي سلك فيهِ النور استطال وابتعد عن مركز الكون . ولكن شعاع النور ما زال ملازماً هذا الطريق بحكم الجو الجاذبي كما تقدم القول . فسيَّان عنده انتفخت دائرة هذا الطريق او تقلصت فهو سائر فيها ملازماً لها في حالة تمدُّدها

وانما يبقى علينا ان نحسب حساب مسير المجرة (التي صدرت منها الشعاعة) في مجرى السُّدُم الكوني المتتابع فهذا المسير لا يغير اتجاه مصدر الشعاعة وانما يبعده عن اقبالها من ورائهِ او يقربهُ الى اقبالها من امامهِ

كيف ابتدأ تمدد الكون وكيف ينتهي

نعود الآن الى كيفية ابتداء تمدد الكون بحسب نظرية لومتر . المفهوم من نظريتهِ التي ايدها بالمعادلات الرياضية المسندة الى المعلومات عن ظاهرات الطبيعة والى الارصاد الفلكية — ان الحيز الكوني ابتدأ تجمعاً كثيفاً جداً حيث تكونت الهيولى فيهِ كهارب وبروتونات وهي تدور دورات محورية ودورات مركزية . اي ان افرادها كانت تدور على محاورها . وجماعات منها تدور على محاور مجموعاتها . ثم لما صارت تتباعد عن المركز بقوة « الدفع الكوني » شرعت الجماعات تدور حول مركزها وكلها تدور حول المركز الاصلي . وما زالت تتباعد حتى اصبح ماحول المركز فراغاً وما زال الفراغ يتسع وقشرتهُ الهيولية تمطُّ الى ان انفجر. فتمزقت جلدتهُ الى مجرات كما تنفجر فقاعة الصابون اذا تماديت في نفخها . ثم استقلت كلٌّ منها عن الاخرى واتسعت الرحاب بينها لتباعدها هي . وانما بقيت قوة الجاذبية بينها كافية لحفظها في غلاف الحيز الكوني . ولا يزال هذا الحيز ينتفخ على هذا النحو برأي لومتر وفريد مان ودي ستر الى ان ينفجر انفجاراً آخر يتضعضع فيهِ توازنه الحالي ، وتتشتت المجرات تشتتاً فوضويًّا وتتشرد في الفضاء اللامتناهي . في هذه الحالة يصبح التباعد بينها أسرع فأسرع الى ان يتجاوز سرعة النور . فلا تعود المجرة الواحدة ترى طيف المجرة الاخرى لان نور هذه لا يدركها

ثم ماذا ؟

في رأي بعضهم ومنهم السر جيمز جينز : حينئذٍ تكون اجرام الكون قد ذابت او قاربت الذوبان بفعل التشعع الذي تنطلق بهِ القوة وتتلاشى الذرات في فوتونات . وحينئذٍ قد تعود ذريرات الهيولى الى تجمع آخر كتجمعها القديم لكي تعيد عملية تكوين الكون ، اما طبق الاصل او على نمط آخر الله اعلم كيف يكون

هل التمدد عام ؟

بقيت نقطة جوهرية قد تلوح في خاطر القارىء المفكر وهي : اذا كان « الدفع الكوني » سنة الوجود كسنة الجاذبية افلا يعمل عمله في المجرات نفسها ثم في الكوكبات العنقودية ثم في النظم الشمسية (ان كان ثمت نظم اخرى غير نظامنا الشمسي) كما يعمل في كرة الكون بجملتها ؟ واذا كان يعمل عمله فيها فلا بد اذن ان تنتفخ احجام المجرات بدورها وتنتفخ احجام الكوكبات وحجم النظام الشمسي ايضاً . وبالاجمال يكون هذا الانتفاخ عامًّا على نسبة واحدة لكل جماعة مادية على قدرها

اجل ان هذه الملاحظة وجيهة جدًّا . ولكن الواقع يناقضها . قد تقول : ارني كيف يناقضها . فاقول : ان هذه النظرية قاتلة نفسها بنفسها لانهُ لو كان الانتفاخ او التمدد عامًّا بنسبة واحدة لكل سديم وكل جرم في كل جماعة مادية على قدرها لما كنا ندركه بتاتاً ولا نحس بهِ ولا نميزه لانهُ حينئذٍ يتمدد المتر الذي نقيس بهِ والذراع والباع والكيلو متر والجزيء والذرة والكهرب والكرة الارضية والشمس والسيارات وبالتالي اجسامنا نفسها تتمدد وعيوننا تتمدد ونظرنا يتمدد الخ فكيف نستطيع ان نميز هذا التمدد اذا لم يبق شيء في الوجود لم يصبهُ هذا التمدد لكي نقيس عليهِ ؟

فكون ارصادنا تدلنا على ان الاجرام تتباعد بعضها عن بعض هو دليل واضح على ان الاجرام والمواد نفسها على اختلاف احجامها لم تتمدد بنسبة تمدد الحيز الذي تتحرك فيهِ . فالمجرات تتمدد اقل من تمدد الحيز الكوني . وكوكباتها Constellations تتمدد اقل منها . والانظمة الاخرى اقل فأقل كلما تجاوزنا الى الاحجام الصغيرة حتى انك تجد بعضها لا تزال في دور التقلص

حاشية — نلفت نظر القارىء الى ان هذا البحث وامثالهِ من المباحث التي يطمح فيها العقل البشري الى استكناه اسرار الوجود لا تعتبر في حكم المؤكد لان المعلومات العلمية والارصاد والاكتشافات التي بنيت عليها ليست حقائق راهنة بل هي تقريبية . وربما تيسر لاهل العلم ان يؤكدوها او ينقحوها او ينقضوها بنظريات اصح منها بما يستجد عندهم من معلومات اقرب الى الحقيقة . وفوق كل ذي علم عليم

شبرا نقولا الحداد

الحضارة الحثية

أقدم آثار آسيا الصغرى وسوريا الشمالية

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

[اشتمل الجانب الاول من هذا المقال التاريخي النفيس على بحث في البعوث الحفرية التي نقبت عن آثار الحضارة الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا من ايام لاروك الفرنسي سنة ١٧٢٢ الى الآن ثم تلت ذلك كلمة في أصل الحثيين وحواضرهم الاربع في آسيا الصغرى وهي كوثر ونازا وزلبا وحاتوشا (راجع مقتطف ديسمبر ١٩٣٦ صفحة ٥٥٤ — ٥٥٩) وفي ما يلي نظرة في فتوحاتهم وفي عاصمتهم كركميش المشهورة : المحرّر]

عكف خلفاء الملك غيتا على اتباع سياسة التوسع في بلاد اللويين الذين دلّت الآثار على رسوخ قدمهم في آسيا الصغرى منذ ٢٥٠٠ سنة ق. م . فاجتاحها الحثيون القدماء في القرن التاسع عشر ق. م. ونخص منهم بالذكر الملك تورهاليا خليفة غيتا الأول وأولاده بازايا وبافا حتلما وقد تبيَّن من حل رموز بعض الكتابات الحثية انهُ كان هنالك مملكة حصينة اسمها توريشا حنداً دوخها ملك حثي يدعى تلابارنا وأخمد فتن الشعوب التي استعبدها فيها فصار اسمهُ بمثابة لقبٍ يطلق على جميع الملوك الحثيين الذين تعاقبوا على العرش من بعده كلقب الاغسطس والقيصر اللذين عند الرومان فتوسعت تخوم المملكة الحثية كثيراً على عهد هذا العاهل البطل ثم حذا حذوه كل من الملكين حاتوشيل الأول ومورسيل الاول فافتتحا سوريا الشمالية وتوغلا فيها وقد كانت حلب في ذلك العهد البعيد عاصمة مملكة مستقلة حصينة فرعاها حاتوشيل الاول رعاية واسعة وأغدق عليها النعم بالنظر الى مركزها الجغرافي ومطامعهِ الاستعمارية في البلاد المجاورة فزهت في أيامه وازدادت ازدهاراً ولكن خليفته مورسيل الاول ما لبث ان ندم على خطة

انتعاش هذه المملكة التي قويت شوكتها وأخذت تطمع في توسيع حدودها مناصبة جيرانها الحثيين العداء فزحف عليها بجيوشه الجرارة ودمرها تدميراً بعد ان أسر مليكها وبعثهُ سجيناً الى عاصمته حاتوشا ثم واصل زحفه على بابل في القرن الثامن عشر. ق.م . وكان ملكها يدعى سامصوديتانا من ملوك السلالة البابلية الاولى التي تحدّر منها حورابي الشهير فاكتسح الملك الحثي مدينة النور في تلك العصور وسلب مغانمها وعكف عنها راجعاً الى عاصمتهِ بكنوزٍ لا تحصى فازدادت حاتوشا منذ ذلك العهد غناءً وعمراناً وأصبحت قاعدة الحثيين الكبرى حتى اضمحلال أثرهم من آسيا الصغرى . وقد عثر في مكتبتها العامرة على لائحة تضم أسماء أحد عشر ملكاً خلفوا الملوك المتقدمي الذكر بيد انهُ لم يتسنَّ لنا بعد ان نقف على أعمالهم الاَّ واحداً يدعى تلابينو عاش في القرن السابع عشر. ق م . فقد اضطرَّ هـذا الملك على ما تخبرنا المخطوطات القديمة ان يقضي معظم عهد ملكه جاداً وراء أقوام همجية انتشروا في شمالي مملكتهِ انتشاراً مخيفاً فأبلى في محاربتهم بلاءً حسناً وقمع فتناً عديدة كانت تثيرها الشعوب المستعبدة طلباً لتحريرها من قيود الاستعمار الحثي . والخلاصة ان عهده كان عهد شؤم وشدَّة وهو يعزو ذلك في اعتراف لهُ الى المأساة التي أحاطت بظروف تسنمه العرش اذ لم يتوصل اليهِ الاَّ بعد ان أباد جميع منافسيهِ ومحى أثرهم ثم ندم على فعلتهِ وخشي عقابها فعفا عن سائر خصومهِ الذين بقوا في قيد الحياة تكفيراً عن سيئاتهِ ونظم مجلساً عالياً للتأمين على خلافة الملك من بعده وفاقاً لقواعد الوراثة الشرعية . وهنا تنقطع عنا اخبار الحثيين ردحاً يقرب من ثلاثة احقاب فاصلة بين سنة ١٦٨٠ وسنة ١٤٥٠ ق.م اذ لم يعثر على أثر يدلنا على حوادثهم في هذا العهد الخالي بين كل المكتشفات المتواصلة الى يومنا فعسى ان تأتينا الحفريات القادمة بما يسد هذا الفراغ . على انهُ يلوح من قرائن الحال حدوث كسوفٍ للسلطة الحثية خلال هذه الفترة وانحدار في صفوفها مما سمح للميتانيين ان يبلغوا ضفاف العاصي وللمصريين ان يغزوا بلاد كنعان من غير ان يصدوا بمقاومة جديرة بالذكر .

بيد انهُ ما عتمت تلك الدولة العظيمة ان استعادت صولتها على عهد تودهاليا الثاني الذي دشن عصور النهضة بفتوحاتهِ الموفقة في أواخر القرن الخامس عشر.ق.م. وكان لهُ في تاريخ المملكة الحثية شأن خطير . ومما ذكر لهُ انهُ استعاد في سنة ١٤٢٠ ق.م مملكة حلبا اي حلب الى حيازة الحثيين بعد ان خرجت عليهم زمناً طويلاً . ثم عقبهُ في الملك حاتوشيل الثاني الذي أحرز انتصارات باهرة في سائر مدن سوريا الشمالية

اما خليفته تودهاليا الثالث فقد مني بانكسارات شديدة حملت ابنه على قتله لانتشال المملكة من وهدة الخراب التي اشرفت عليها فصعد على العرش من بعده الدرغام سوبيلوليوما (١٣٤٧ — ١٣٨٧) ق.م وهو اكبر ملك في سلالة الملوك الحثيين وأعزهم شأناً.وقد وقفنا على معظم الحوادث

الخطيرة التي جرت على عهده بفضل المعاهدات التي عقدها مع الدول المجاورة ودوّنها على الواح خالدة والحروب التي نقش موقع انتصاراته فيها على الانصاب الحجرية ، تلك التي عثر عليها البحاثة الاثري كافينياك واستدل منها على ان هذا الملك توغل في سوريا حتى بلغ اقصى حدودها منتهزاً وقوع الشقاق في صفوف محاربيه ثم استولى على مدينة عيسوى القائمة على ضفة الدجلة الشمالية شرقي ملاطية وتحالف مع مليك علشة الواقعة في شمالي عيسوى وطوق ممالك الحوريين والميتانيين ودانت له بلاد كثيرة نخص منها بالذكر كركميش ثم زحف على بلاد كنعان واجتاح بطريقهِ قطنا فدمرها وحارب جيوش مدينة قادش وامتد نفوذه حتى اوغاريت المعروفة برأس الشمراء قرب اللاذقية التي كانت مستعمرة مصرية في ذلك العهد

بين المصريين والحثيين

وقد جاءت رسائل تل العمارنة شاهدة صراحة على ما بلغ اليهِ هذا الملك العظيم وعلاوةً على ما تقدم ابانت تحريره مقاطعة غربي الفرات من حكم الدولة الميتانية بحنكةٍ ودهاء دون ان يلجأ الى سفك الدماء . وبينما كان يعد عدته للقيام بغارةٍ على مستعمرات مصر في سواحل سورية طرأت اضطرابات خطيرة في اسيا الصغرى بين سنة ١٣٧٨ وسنة ١٣٥٨ق.م اضطرتهُ الى ان يشخص اليها وينثني عن تلك الحملة التي كان ناويها على انهُ ما لبث بعد اخماد تلك الاضطرابات ان عاد الى سورية وقمع حروباً اهلية كانت قائمة في بلاد الميتانيين وتوج على هذه المقاطعة صهره ما تيعوذا ثم اقام احد ابنائه المدعو ياسيل ملكاً على كركميش وآخر ملكاً على حلب فحصَّن بذلك تخوم مملكته من غارات العدو وذاع صيته في مشارق الارض فبلغ مسامع ملكة مصر ارملة الفرعون آي خليفة توتنخ آمون آخر ملوك السلالة الثامنة الذي عاجلتهُ المنية في العام الثاني من ملكه فبعثت تتوسل اليهِ ان يوفد اليها احد ابنائه لتجعله قريناً لها وخاطبتهُ بهذا التعبير « مات زوجي ولم يخلف وارثاً للعرش وقد قيل لي ان اولادكم كثيرون فما ضركم لو بعثتم لي واحداً منهم لاقترن بهِ وآمن من خشية الاضطرار الى الزواج من احد عبيدي . » فلم يرتح سيبلوليوما الى طلبها واوفد احد عماله ليستوثق منها فاردفت تخاطبه برسالة ثانية قائلة : « لم شككتم بحسن طويتنا وظننتم اننا اياكم خادعون . لو كان لي ابن لما تذللت الى الغريب . قلت لكم ان زوجي قد مات ولم يخلف وارثاً للملك فاعطوني واحد من اولادكم الكثيرين لاجعله زوجاً لي وأبوئهُ عرش مصر . ثقوا انني لم اكتب الى احدٍ غيركم . ألعله يحسن لديكم ان اتزوج من احد عبيدي » . فاختار عندئذٍ سيبلوليوما احد ابنائه واوفده اليها ليكون ملكاً على مصر ولكنهُ قبل ان يتسنم ذلك الشبل الحثي عرش الفراعنة حيكت حوله دسيسة اغتيل فيها بيد اثيمة ونادى

حورامحيب بنفسه ملكاً على وادي النيل فصدق عندئذٍ سوء ظن ملك الحثيين وكتب رسالة وصلت مبتورة لا يدينا يشكو فيها من اغتيال ابنه مر الشكوى ويتوعد مصر بالانتقام وكلف ابنه ارنوفنتا الذي كان نائب ملكه ان يأخذ بثأر اخيه وقد تباهى الحثيون عقيب ذلك بأنهم انزلوا بالمصريين عقاباً اليماً على انهُ لم يدم ملك ارنوفنتا طويلاً. فاعتلى العرش اخوه مورسيل الثاني سنة ١٣٤٧ ق.م وكانت الملكة ارملة سيبلوليوما على قيد الحياة تحمل لقب « ام الاله » كما سنراه في سياق الحديث عن انظمة الحثيين وعقائدهم الدينية فلم تمتزج مع كنتها التي ما عتمت ان ماتت مسمومة عام ١٣٤٠ ق.م . فأقصى الملك عندئذ امه عن العرش وعين لها محلاً للاقامة ووفر لها فيه كل صنوف الرفاهية بيد انها لم تلبث ان ماتت هي ايضاً بعد كنتها بقليل فخامر الريب الظنون في ان تكون قتلت قتلاً اذ نرى حاتوشيل الثالث خليفة مورسيل الثاني يستغفر الآلهة عن هذا الاثم ويتنصل منه بزعم انهُ كان صغيراً لا يعي

ويتخلل هذه البرهة نشوب ثورات دموية في الممالك الحثية وقيام الشعوب المغلوبة على ملكها مما اقلق مضاجعه فناضلهم نضال جبابرة وقوي في النتيجة على قمع ثوراتهم وفتنهم وارجعهم الى السكينة وولى احد اولاده على كركميش وابن عمه على حلب ثم انهمك في مطاردة البرابرة الذين غشوا شمالي غربي اسيا الصغرى فدارت بين الطرفين رحى حرب عوان ابلى فيها الجيش الحثي بلاءً مجيداً وبعد وفاة هذا الملك عام ١٣٢٠ ق.م اشتبك الحثيون بحروب عنيفة مع المصريين على عهد مواتلو بن مورسيل الثاني وستي الاول فرعون مصر مما تحوَّلت معهُ سياسة الدولة الحثية تحوُّلاً جديداً فاضطرت الى موالاة الدول المجاورة والتحالف معها بغية التغلب على هؤلاء الاعداء الالداء

وقد نشبت معظم المعارك بين الطرفين في قادش الواقعة جنوبي بحيرة حمص وقد كانت هذه المدينة في حيازة الحثيين بمثابة حصن يصد خطى العدو المصري عن التقدم شمالاً غير ان مواتلو اندحر عندها في سنة ١٣٠٨ ق.م كما تشير الى ذلك مسلة اقامها فرعون مصر قرب البحيرة تذكاراً لانتصاره عليه واكتشفها مسيو بيزار في أثناء حفرياته سنة ١٩٢١ في ذلك الموقع المسمى اليوم تل نبي مند. فترينا نقوش هذه المسلة الفرعون سيتي يتقبل عكاز النصر من الآراميين وقد وقف خلفه الاله سوتخ الاسيوي وآلهة قادش الموالية لمصر . على ان قادش لم تلبث طويلاً في أيدي المصريين بل عادت الى الحثيين على الرغم من انهما كهم في تلك الآونة بالقضاء على الفوضى التي تفشت في سائر مستعمراتهم والخسائر التي منوا بها في شمال مملكتهم

ومما تخبرنا به الكتابات الهيروغليفية ونقوش مصر الخالدة ان رعمسيس الثاني الذي ملك من سنة ١٢٩٨ حتى سنة ١٢٣٢ ق.م خرج في اوائل عهده يتفقد ممتلكاته في سوريا فلما وصل الى

نهر الكلب عند مدخل بيروت التي كانت منتهى حدود البلاد الخاضعة لسلطته نقش ذكرى مروره على صخرة بارزة في الجبل ونظر الى الشمال فتاقت نفسه الى الاستيلاء على سائر السواحل العامرة كجبيل واوغاريت (رأس الشمراء) وغيرها مما كان تحت سطوة النفوذ الحثي فادرك مواتلو مآربه الاستعمارية واستثار حمية مختلف الشعوب القاطنة في الانحاء السورية بما فيها البرابرة والعشائر الرحل الذين كان دأبهم الغزو والسلب وحشد منهم جيشاً لجباً ضمَّ اليه ٣٥٠٠ عربة حربية وكمن لخصمه بالمرصاد وراء حصون قادش فتقدم رعمسيس الى الشمال فاتحاً في طليعة جيوشه السود في ربيع سنة ١٢٩٤ ق.م وبلغ ابواب قادش وبينما كان يتحفّز لاقتحام هذه المدينة خرج عليه الجيش الحثي وباغتهُ مباغتة لانهُ لم يكن يحسب ان يتلقاه الاَّ عند ابواب حلب فالتحم الفريقان بحرب سجال ابيدت فيها مقدمة الجيش المصري عن بكرة ابيها وكادت تقضي على البقية الباقية لو لم ينصرف همُّ البرابرة الى نهب الغنائم التي تركها المصريون وراءهم فانتهز رعمسيس هذه الفرصة الثمينة وجمع فلول جيشه ثم استنجد بالفينيقيين المقيمين في السواحل الموالية له واعاد الكرة على عدوه فانقض عليه كالصاعقة واحرز النصر ببسالةٍ منقطعة النظير فسقطت اشلاء الحثيين بالالوف صرعى في السهول والذين ولوا الادبار غرقوا في مياه العاصي فخلد رعمسيس هذه الموقعة الكبرى بنقشها على جدران الكرنك واعمدة الاقصر حيث يشاهد حصن قادش في جزيرة تحيط بها مياه العاصي وحامية الحثيين على اسواره ويرى يمنةً فرق من الحرس خارجةً من الحصن تهاجم العدو ويسرةً رجال يعنون بانقاذ امير غريق هو مليك حلب ونقش في أسفل تلك المشاهد مواكب فرسان الحثيين واقفين يمنةً ومواكب فرسان المصريين يسرةً كأنهم متأهبون للنزال . ومع اندحار الحثيين ثانيةً بقيت قادش في حيازتهم

وبينما كان مواتلو يستجم قواه لخوض غمار حرب جديدة وافاه اجله سنة ١٢٩٢ ق.م فخلفهُ اورخي تحشوب الذي ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٨٥ ق.م ثم حاتوشيل الثالث. وقد بدأ عاهل الاشوريين سلمنصر الاول (١٢٦٠ — ١٢٨٠) يعلل نفسه على عهد هذا الملك بالبلاد الحثية العامرة بعد ان قويت شوكته وامتد نفوذه الى حدود الدول المجاورة فخشي الحثيون بأسه واتقوا شر الوقوع تحت رحى حرب طاحنة فراحوا يوطدون دعائم السلم ما بينهم وبين مصر ليتفرغوا لمناجزة عدوهم الجديد ففاوضوا رعمسيس بالصلح مفاوضة الند للند وعقدوا معهُ في سنة (١٢٧٨) ق.م معاهدة تحالف استوت فيها شروط الفريقين على قاعدة واحدة وصار فرعون مصر يلقب عدوه اللعين بالامس باحسن الالقاب مثل « يا اخا الشمس » وقد عثر على نسختي هذه المعاهدة المتبادلة بين الملكين الكبيرين فوجدت احداها محفورةً بالخط الحثي على لوح من الفضة وممهورة بطابع الملك حاتوشيل الثالث والاخرى مكتوبة على الآجر باللغة

المصرية مقرونة بترجمتها الى البابلية بتوقيع فرعون مصر وتتلخص بنودها الطويلة في ان الفريقين يتبادلان في سنة ٢١ من ملك رعمسيس الاقرار بعهد السلام بينهما ويتواعدان بمواصلة العلائق الطيبة بين القطرين وبتعيين الحدود بينهما وعدم التنازع عليها وبتأييد منطوق المعاهدات الجارية بين الاسلاف ثم يلتزم كل منهما بضرورة التعاون المشترك لصد غارات العدو المداهمة وتأديب العصاة وطرد الملتجئين من العبيد الهاربين وبوجوب المحافظة المتبادلة على نظام الخلافة في الملك وينزلان في ختامها لعنة الف آلـه مصري والف آخر حثي على كل من يجسر ان يعبث بها ويستمطران الغبطة والبركة على من يتقيد بنصوصها وقد وجد في النسخة الفضية على كل من صفحتيها صورة الملك والملـكة تحميهما الآلهة الحثية [١]. ومما مكن اواصر الصداقة بين الطرفين زواج رعمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل البكر سنة ١٢٦٦ ق.م ودعوته حماه الى زيارة مصر واهدائه تحفاً ثمينة بمقابل ما حملته له عروسه معها ويلوح من رسائل الثناء والشكر التي كانت تبعث بها هذه العروس الى اختها التي كانت ملـكة احدى المقاطعات الحثية انها قضت حياة سعيدة بجوار زوجها المصري وقد قال العالم الاثري الاستاذ موره ان مصر اكبرت نعمة هذا القران وأشادت بذكره ونقشت صور حفلاته على جدران معبد ابي سنبل لاتقائها بذلك غائلة حرب ضروس

العاصمة كركميش

اذا أخذنا بما اكتشف في اعماق اطلال كركميش من الماعون المنحوت من الصوان يرتقي بنا عهد هذه المدينة الى الأزمنة التي قبل التاريخ فيظهر ان شعباً لا يزال مجهولاً اختطها في ذلك العصر الصواني العريق في القدم ثم تنقلت الى ايدي شعوب عـديدة حتى انتهت الى الحثيين في القرن الخامس عشر ق.م كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث عن فتوحاتهم. وقد أخذت هذه المدينة منذ الاحتلال الحثي تتقدَّم سريعاً في معارج الحضارة بالنظر الى موقعها على ملتقى طرق القوافل التجارية حتى تفوَّقت على سائر الحواضر الحثية رقيًّا وعمراناً وأصبحت مع توالي الايام تعد من اكبر العواصم الحثية ومن أهم مراكزهم الحربية في مناجزة الأشوريين لانها كانت على ضفة الفرات بمثابة مفتاح سوريا من جهة المشرق ولذلك بالغ الحثيون في مناعة تحصينها وسموها كركميش بمعنى حصن الاله كميش

وما كاد يسطع نجم هذه العاصمة الجديدة حتى اخذت مملكة حاتوشا القديمة تنحط انحطاطاً عاجلاً الى ان ادركها الفناء في القرن الثاني عشر ق. م كما يؤخذ من بعض الاسانيد الاشورية وتعزى علة اضمحلالها الى الشأو الرفيع الذي بلغتهُ من الرقي والعمران في ايام مجدها مما جعلها مطمح انظار ملوك اشور الاقوياء وقبلة مطامعهم فناصبوها العداء زمناً مديداً وحملوا عليها حملات

(١) راجع مقتطف اكتوبر ١٩٣٦ صفحة ٣٢٨ مقال الدكتور حسن كمال فيه تفصيلات هذه المعاهدة

شعواء لم تقو على مقاومتها طويلاً بسبب خيانة حاميتها التي كان معظمها من عناصر متنافرة تضمر لسادتها البغضاء فلما انتهزت فرصة ضعفهم نكلت بهم وولت الادبار فتفككت عندئذٍ روابط وحدة المملكة وتنازعتها عوامل الشقاق فتخاذلت قواها واستسلمت للغزاة الذين سلبوا كنوز قصورها وقوّضوا اركان معابدها وطمسوا معالمها تحت اطلال الردم

فلما مني الحثيون بهذه الخسائر الفادحة آنست الشعوب الرازحة تحت نير عبوديتهم ضعفاً في كيانهم فثارت عليهم ثورتها الكبري محررة نفسها من نير استعمارهم فتمزق بذلك شمل المملكة الحثية في اسيا الصغري وسرعان ما طغى عليها الاشوريون وساموا من بقي فيها من الحثيين صنوف الذل والعذاب فاضطر هؤلاء أن يهاجروا الى الجنوب ويتحصنوا في مملكتهم الجديدة فازدادت كركميش على اثر هذه الهجرة ازدهاراً

ولعل ذلك كان آخر لمعة لحضارتها الحثية المشرفة على الانطفاء اذ لحق الاشوريون باولئك المهاجرين وتغلغلوا تدريجاً في احشاء المملكة الجديدة قصد الاستيلاء عليها بالسياسة والدهاء بعد ان تغلبوا على معظم البلاد المنتشرة في سائر الانحاء السورية ودليلنا على ذلك ان مصر قد استعرفت في سنة ١١١٠ ق. م الملك الاشوري تغلا تغلا صار الاول سيداً على سوريا وفلسطين وما بين النهرين على ان كركميش ظلت ثابتة القدم في المقاومة شامخة الرأس في الحصار عدة اجيال حتي اذلها اشور ناصربال الثاني في سنة ٨٧٦ ق.م على عهد مليكها سنغارا فسقطت عندئذٍ الدولة الحثية من اعالي المجد الى هاوية الفناء ولم يبقَ من جيوشها الجرارة غير فلول تبعثرت بعد محاولات فاشلة وباد ذكرها من تاريخ الامم

وقد حفظت لنا اطلال كركميش في طياتها اثراً نفيساً من البرونز . يرينا سنغار آخر ملك حثي يقدم لنا ملك اشور القاهر ابنتهُ مع مغانم بلاده وهو منكوس الرأس خضوعاً وخجلاً

فيستنتج مما تقدم ان اولئك الحثيين المتحدرين من العرق الآري قد شغلوا دوراً خطيراً في حضارات الشرق وكانوا على غاية من القوة وحب الاستقلال فهاموا بالحروب ودوخوا شعوب آسيا الصغرى وسوريا الشمالية وشادوا في ديارها مملكة عظيمة ثم قاوموا اقوى دول الأرض على عهدهم وحملوها على خطب ودهم ومفاوضتهم بالسلم مفاوضة الند للند

وعند ما دالت دولتهم في الشمال جنحوا الى التحصن في جنوبي مملكتهم وناجزوا اعداءهم الاقوياء اجيالاً طويلة من غير ان يتطرق اليأس الى قلوبهم فذادوا عن كيانهم حتي الرمق الاخير ثم لما انهارت صروح مملكتهم تركوا وراءهم آثاراً خالدة منها كركميش ذات القلاع المنيعة والابراج الضخمة التي ظلت بعد اندثارهم بقرونٍ شاهداً صراحاً على ما بلغتهُ بفضلهم من الرقي والعمران

— ١٥ —

الكُرُنْب العاديّ

وجاء في بعض المراجع انهُ (الكُرُنْب) و(الكَرَنْب) و(بقلة الانصار)[1] وفي الشام (الملفوف) عشب يعيش سنتين دائم الاخضرار أوراقه لحمية على نوع ما ملتوية أو منحنية الى خلف أو اعلى أو ذات فصوص وتكون ملساء في صغرها تكسوها مادة كالغبار خضراء تضرب الى الزرقة وهذه الاوراق تجتمع في رأس يتفاوت في حجمه بين جوزة الهند العادية الى ما يزيد عرضه عن ياردة وأزهاره صفراء

اسمه العلمي (Brassica oleracea, L. capitata) (براسيقا او لراسيا قپيتاتا)[2] وفصيلته الصليبية (Cruciferae) (كروسيفرية)

وبالانجليزية (garden cabbage; white cabbage; common or drumhead cabbage)

والفرنسية (chou cabus ; chou pommé a feuilles lisses; chou blanc)

وهو شائع في أنحاء المعمورة ومحبوب في مصر يزرعهُ أهلوها كثيراً لاستعمالهِ في الطبخ أو في السلاطة أو في المخللات

وتجود زراعته في الأرض الطميّة المخصبة بكمية وافرة من السماد العضويّ القويّ كالقمامات المتخلفة في المجازر (السلخانات) ومن الدم المجفف الى غير ذلك

---

(١) وفي بعض المراجع انها القرنبيط او القنبيط

(٢) يرجع الفضل في البحث عن الأصل في اشتقاق كلمة براسيقا (Brassica) اسم جنس الكرنب الى العلماء النوابغ وسيوس (Vossius) وراي (Ray) ودالشان (Dalechamp) وغيرهم فهم الذين قالوا بأن ذاك الاسم من اصل (سلتي) هو كلمة برسيق (bresic) بمعنى كرنبة

أما أشهر أصنافه في مصر فثلاثة وهي (البلديّ) و (الأحمر أو الفرنسيّ) [1] و (البطّة)
ومن هذا الأخير صنفان اسمهما بالفرنسية : (chou de Brunswick à pied court)
و (chou Quintal d' Alsace)

وأما الكرنب البريّ واسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L.) (براسيقا اولراسيا)
وبالانجليزية (wild cabbage) والفرنسية (chou sauvage) وهو الذي ينبت بطبيعته على
هضاب الشواطىء البحرية في جنوب انجلترا وجهات مختلفة في شمال أوربا فانهُ يندر وجود
اشباه لهُ في عالم النبات لما قد تولَّد عنهُ من الاصناف الكثيرة التي تختلف عنهُ في أشكالها
وخواصها اختلافاً شديداً لاننا اذا قارناه بالكرنب الأحمر والقرنبيط مثلاً وجدنا
الاختلاف كبيراً فيما بينهُ وبينهما على الرغم من انهُ يعتبر الأصل الذي تولَّدا عنهُ هما وأصناف
أخرى بطرق الفلاحة من قديم الزمن . وهو نبات يعيش سنتين أو يعمر ساقه ثخينة قائمة
ترتفع الى قدم أو قدمين أوراقه خضراء تضرب الى الزرقة السفلى منها كبيرة عريضة قلبية
الشكل حافاتها ذوات فصوص والعليا اصغر منها عديمة الاعناق (جالسة) وليس لهُ رأس
البتة وأزهاره صفراء فاتحة تشبه أزهار الخردل البرّي المعروف في مصر (بالقرلَّة) أو
(بكبَر العِيفْريت) المسمى علميًّا (Brassica Sinapis, Vis.) (براسيقا سينابيس) أو
(Sinapis arvensis, L.) (سينابيس اروِنسيس) وبالانجليزية (wild mustard or charlock)
والفرنسية (moutarde sauvage; moutarde des champs; senevé des champs; sanve; sauve)

القَرْنَبِيط أو القُنَّبِيط

صنف تولَّد ايضاً عن الكرنب البريّ وأهم فارق بينهُ وبين الكرنب على الاطلاق أن
نورتهُ تضخم وتصير رأساً يضرب الى البياض وهو الذي يؤكل منهُ فقط

اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. botrytis cauliflora) (براسيقا أولراسيا بوترِيتيس
قوليفلورا) وبالانجليزية (cauliflower) والفرنسية (chou—fleur)

شائع كالكرنب في انحاء المعمورة وهو من الخضر المرغوب فيها كثيراً في مصر وأوربا
يطهى أو يحفظ ضمن المخللات وتجود زراعته في الارض التي يزرع فيها الكرنب بحيث تخصب
بالمقدار نفسه الذي يسمد به الكرنب

---

(١) ويسمى علمياً في بعض المراجع (Brassica oleracea, L. rubra) (براسيقا او لراسيا روبرا)
وبالانجليزية (red or pickling cabbage) والفرنسية (chou rouge) واكثر استعماله في المخللات
ويطبخ أحياناً

البروكولي

صنف من القرنبيط تضخم نورته وتصير لحمية وهي التي تؤكل فقط كالقرنبيط

اسمـــهُ العلمي (Brassica oleracea, L. botrytis asparagoides) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس اسبرغويديس) أو (Brassica oleracea, L. botrytis pompejana) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس پومپيانا) أو (Brassica oleracea, L. botrytis cymosa) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس سيموزا) وبالانجليزية (brocoli or broccoli)والفرنسية (chou - brocolis)

شائع كالكرنب العادى ويزرع في مصر احياناً ولكنهُ مرغوب فيهِ كثيراً باوربا يستعمل في الطبخ أو يحفظ في المخللات

الكرنب اللفتيّ أو الافرنجيّ

ويقال لهُ في مصر (ابو ركبة) صنف من الكرنب تضخم ساقه وتصير لحمية وهي التي تؤكل منهُ فقط

اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. caulo - rapa) (براسيقا اولراسيا قولورابا) أو (Brassica oleracea, L. gongylodes) (براسيقا اولراسيا غونغيلودس) وبالانجلـــيزية (knol--khol; kohl—rabi; turnip--rooted cabbage) والفرنسية (chou—rave)

شائع كالكرنب وكان لا يستعمل قديماً الاّ علفاً للغنم والبقر باوربا ولكنهُ الآن نظراً الى قيمته الغذائية يفضلونهُ عن اللفت في فرنسا ويعطونهُ علفاً لتسمين الماشية المجترة وبخاصة ماشية الحليب لانهُ يحسّن لبنها وزبدها اذا اكلت منهُ كما وأنهُ من الخضر المرغوبة يزرع في البساتين ويطهى عادةً في الحساء (الشوربة) وطعمه كاللفت تقريباً

وهو من جهة اوراقه صنفان ذو اوراق خضراء وذو اوراق ارجوانية والاول هو المفضل

أما اصنافه المنزرعة في مصر فثلاثة معروفة بالاسماء الفرنسية الآتية :

(chou — rave blanc hâtif de Vienne) و (chou — rave blanc ordinaire) و (chou - rave violet hâtif de Vienne)

الكرنب مجعّد الورق

ويقال لهُ في مصر (الكرنب المخرفش) وهو صنف من الكرنب الاّ أنهُ مجعّد الورق

اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. bullata major) (براسيقا اولراسيا بولاّتا مايور) أو (Brassica oleracea, L. sabauda) (براسيقا اولراسيا سابودا) وبالانجلـــيزية (Savoy cabbage) والفرنسية (chou pommé frisé و chou de Milan; chou de Savoie)

شائع كالكرنب العادي ويزرع كثيراً في اوربا ومصر لاستعماله في الطبخ الى غير ذلك

كُرُنْب بروكسيل

صنف من الكرنب يمتاز بالكرنبات الصغيرة (البراعم) التي تنبت في آباط جميع الاوراق الموجودة على ساقهِ الاصلية وهذه الكرنبات هي التي تطهى وتؤكل

اسمه العلمي (Brassica oleracea, L. bullata gemmifera) (براسيقا او لراسيا بولاّتا غمّيفرا) و (Brassica oleracea, L. sabauda gemmifera) (براسيقا اولراسيا سابودا غمّيفرا) وبالانجليزية (brussels—sprouts) والفرنسية (chou de Bruxelles)

شائع كالكرنب العاديّ ويزرع قليلاً في مصر ولكنهُ مرغوب فيه عند الافرنج

الكُرُنْب الصيني

وهو في لغة الصينيين (پاكشوي) (Pak—choi) و (پيتساي) (Pe—tsai) ويكون أقرب شبهاً الى الهندباء والخس منهُ باصناف الكرنب مع أنهُ كرنب حقيقي أوراقه غير محددة القمة ذات فصوص ريشية مسننة الحافة وأزهاره صفراء

اسمهُ العلمي (Brassica campestris, L. var. chinensis) براسيقا قمپستريس شينسيس) او (Brassica chinensis, L.) (براسيقا شينسيس) او (Brassica sinensis) (براسيقا سينسيس) وبالانجليزية (Chinese cabbage) والفرنسية (chou de Shangton; chou de Chine)

يزرع في الصين موطنه واشتهر زمناً طويلاً في فرنسا وايطاليا وجنوب اوربا وانتشرت زراعته في غير هذه البلاد ما عدا مصر في اوائل القرن العشرين وأهل فرنسا يسلقون اوراقه ويأكلونها . أما في بلاد الانجليز فكثيراً ما تطهى عروق الاوراق فقط وتؤكل كما يؤكل الهليون وقد تصنع من الاوراق سلاطة جيدة بدلاً من الخس والهندباء

الكُرُنْب الاخضر

ويقال لهُ في مصر (المشرشر) صنف تولّد ايضاً عن الكرنب البري

اسمـــهُ العلمي (Brassica oleracea, L. acephala) (براسيقا اولراسيا آسيفالا) او (Brassica oleracea, L. sabellica) (براسيقا او لراسيا سابلّيقا) او (Brassica olercea, L. fimbriata) (براسيقا او لراسيا فمبرياتا) وبالانجليزية (borecole; kale; curly greens) والفرنسية (chou vert)

شائع في اوربا ونادر في مصر واهل فرنسا يعطون اغصانهُ علفاً لماشيتهم

حيوانات مشهورة
وصحة اسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

هي حيوانات مشهورة لكن ترجمتها أو التعبير عنها في غالب الأحيان خطأ وهي قليلة جداً تعد على أصابع اليد فرأيت ان أنشرها هنا مع صحة ترجمتها فانهُ لا يليق بالجرائد اليومية ذكرها على خطإها فالجرائد جعلت لتعليم الناس لا لتضليلهم والآن ابدأ بالسباع وهي ستة فقط وأوردها مختصراً ثم تليها اربعة من سباع الطير

أسد وأسماؤه كثيرة Lion

والعامة في مصر والشام تقول السبع وهو المفترس من الحيوان مطلقاً فالأفضل ان لا يقال السبع الاَّ بمعناها الحقيقي كما في سورة المائدة « وما أكل السبُع » فمعناها هنا المفترس من الحيوان كالاسد والنمر والفهد والذئب وغيرها

بَبْر Tiger

والبعض يقولون نمر هندي وفهد وكله خطأ فجماعة السنما يقولون فهد وهم ليسوا من علماء الحيوان في ما اعلم ويقول غيرهم نمر مخطط واللغة لا تجيزه لأن النمر لا يكون الاّ أنمر اي مرقّط ويكفي ان الببر وارد في كليلة ودمنة لابن المقفع والكلمة سنسكريتية معربة والمعرب كالعربي في حكمهِ فالسيو كلنصو كان لقبه الببر وبعض الجرائد تقول النمر خطاً والكلمة فصيحة فلماذا لا نستعملها

نَمِر ونِمر ونَمر Leopard or Panther

سمي بذلك للنُمر التي فيهِ أي الرُقط والبعض يقولون نمر مرقط فان النمر لا يكون الاَّ أنمر

فكلمة نمر معناها مرقط أو أنمر . وهناك نمر أسود وهو نمر أسود والنُّمر التي فيهِ خفية جداً فيظهر كأنهُ أسود وفي حديقة الجيزة واحد منهُ

فهد Hunting leopard or Chita

وهو سبع بين الكلب والنمر مرقط كالنمر وانما رقطه متفرقة لا تجتمع كالحلق كما في النمر وليس لمخالبهِ أكمام كمخالب النمر فهو بذلك كالكلب

وَشَق Lynx

سبع أملح طويل القوائم قصير الذنب في أعلى أذنيهِ جمّة من الشعر الأسود وهو أكبر من عناق الارض وأصغر من النمر فتّاك سفّاك للدماء ولعلهُ الشيب وقد انقرض من الشام والعراق

عناق الأرض Caracal or Red Lynx

سبع بين القط والكلب أحمر اللون في أعلى أذنيهِ شعرات سود اسمهُ بالفارسية سياه كوش وبالتركية قره قولق ومنهُ اسمهُ الافرنجي ويقال لهُ في السودان أم ريشات لهذه الشعرات السود في أعلى أذنيهِ وهو جميل المنظر جداً يرى واحد منهُ أو أكثر في حديقة الجيزة . وعناق الارض ليس الغرير كما في بعض المؤلفات

سباع الطير أي الجوارح . ذكرت السباع المشهورة وصحة ترجمتها وأنا ذاكر الآن سباع الطير المشهورة وصحة ترجمتها وهي ما يأتي :

عُقاب . مؤنثة تقع على الذكر والأنثى جمعها أعقب وعِقبان وعقابين Eagle

طائر من سباع الطير لا تقع على الجيف الاَّ اذا عضها الجوع قوية المخالب مسرولة اي في ساقيها ريش لها منسر أعقف لُقبت بهِ بالشغواء واللقواء لتعقفه وزيادة اعلاه على أسفله

نَسْر Vulture or Griffon vulture

طائر من سباع الطير لكنهُ ليس من عتاقها يقع على الجيف وقلما يصيد وهو أعظم من العقاب شره نهم رغيب لهُ منسر منعقف في طرفهِ فقط ولا ريش في رأسه وعنقه بل فيهما زغب أبيض قصير وهو عاري الساقين بخلاف العقاب فانها مسرولة الساقين والرجلين . وهو المعروف بالنسر عند العرب من عهد جاهليتهم الى يومنا ويعرف بالنسر عند المتكلمين بالعربية من المغرب الأقصى الى العراق ومن سورية شمالاً الى اليمن جنوباً

ومن دواعي الأسف ان الطائر الاول مترجم في التوراة الانجليزية والفرنسية خطأً وحقه ان يترجم بالكلمة الثانية اي النسر وهو صواب في الترجمة العربية والاصل العبراني وقد جرى الكتاب على هذه الترجمة المغلوطة الى يومنا فقولهم النسور المصرية اي الطائرات خطأ اذا كانوا يريدون بها الكلمة الأولى وحقهم ان يقولوا العقبان المصرية وقولهم فرخ النسر لابن نابليون خطأ وصوابه فرخ العقاب كذلك راية قريش والفرس والرومان والفرنسيس في زمن الامبراطورية وغيرهم فجميع هذه الألفاظ حقها ان تترجم بالعقاب . ويقال وسام العقاب لا وسام النسر وهو وسام مشهور عند الالمان . ثم ان طائرة الملك غازي اسمها العقاب لا النسر، فالملك القرشي لا يمكن ان يسمي طائرته بالنسر. وان قيل ان هذين اللفظين قد ترجما بالنسر والعقاب من قبيل قولنا الخطأ المشهور خيرٌ من الصواب المهجور أقول ان هذا القول لا يقال عن العقاب والنسر لان هذا الطائر الذي نسميه في أيامنا بالعقاب وفي أيام الجاهلية وفي كتب اللغة والطائر الذي نسميه بالنسر وفي أيام الجاهلية وفي كتب اللغة يسميهما الانكليز كما تقدَّم ولا يجوز غير ذلك . هذا وقد أسهبت في في العقاب والنسر في ص ٩٣ و ص ٢٥٩ من معجم الحيوان ومنذ ٢٨ سنة في المقتطف المجلد ٣٤ : ٥٣٧ وما بعدها ويسرني ان بعض المعاجم أصلحت خطأها ولكن بعض معلمي المدارس والجرائد لم تعلم ان تصلحهُ فالعقاب والنسر صحة ترجمتهما كما تقدَّم ولا يجوز غير ذلك . ولعلَّ سبب خطأ هذه الترجمة هو انهُ ليس في اليونانية الاَّ كلمة واحدة يعبر بها عن العقاب والنسر وهي أيتوس فجاءت في الترجمة السبعينية للتعبير عن النسر وجرت على ذلك الترجمة الانجليزية والفرنسية وقد أصلحوها حديثاً في الترجمة الانجليزية المنقحة فان كان الانجليز محافظين على ترجمتهم من زمن الملك جيمس فهل من شروط المعاهدة ان نكون محافظين مثلهم . ولا يخفى ان ابن البيطار لم يخف عليهِ ذلك فترجم الإكتمكت بحجر النسر وحجر العقاب وهو أيتوس باليونانية انظر مادة ١٣٠ و ٦٤١ و ٦٤٢ من الترجمة الفرنسية

كاسر العظام — Bearded vulture or Ossifrage or Lammergeier

ولهُ أسماء أخرى ذكرتها في المقتطف قبلاً وفي معجم الحيوان ص ١٤٣ و ص ٢٥٩

رَخَمة — Egyptian vulture or Pharoah's hen

بالفتح طائر أبقع أصفر المنقار وهو في عرف علماء الحيوان نوع من النسور يعرف في المغرب ومصر والسودان وكتب اللغة بهذا الاسم ، أما في لبنان فيسمونهُ الشوحة وهي الحدأة على الأصح . هذا شيء يسير من سباع الطير وهي أربعة طيور ولا يعسر تعلم صحة ترجمتها

حديث اليمن

رحلة جغرافية عمرانية

لاحمد وصفي زكريا

ساقتني التقادير في مطلع عام ١٩٣٦ الى اليمن . وكان ذهابي اجابةً لطلب جلالة مليكه الامام كي اخدم زراعة بلاده وانظر الى ما يؤدي لصلاحها في ستة اشهر حددها . فذهبتُ وقمتُ في تلك المدة المتناهية في القصر بأقصى ما يمكن ان يؤتى في خدمة الزرع والغرس . منها اني فتحت مدرسةً زراعيةً علمتُ فيها بعض شبانهم اهم نظريات الزراعة الحديثة وعملياتها ، واستجلبت من مشاتل الشام ومصر وايطاليا ووزعت وغرست الوفاً من اشجار الفاكهة والحراج على اختلاف انواعها واصنافها . وكلها مما وجدته نافعاً ومناسباً لحاجة اودية اليمن الاعلى وجباله ومما لا عهد لليمانيين بهِ من قبل، وكتبت ونشرت عدة مجالات ورسائل في اجل الموضوعات الزراعية الحديثة التي تعوزهم وتفيدهم

وقد كنت خلال اعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والانحاء القليلة التي مكنوني من زيارتها اتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والطبيعية والعمرانية وما اليها ، فحصلت على نبذ منها رأيت على قلتها ان انشرها في « المقتطف » . وقد حفزني الى ذلك كون اليمن لا يزال غير معروف في جملته ، لم يكتب عنهُ في الماضي والحاضر كتابات كافية . وما كتب في اللغة العربية خاصةً قلما شمل الابحاث التي عنيت بها . لان اليمن كان وما برح كالموصد في وجوه الغرباء ولا سيما الباحثين منهم ، ولم يتسنَّ جوس دياره والتماس مجاهله الاّ للقليل من الشرقيين والغربيين . ولا يزال مجال البحث والكتابة فيهِ واسعاً يحتاج الى جهود جمة

نبذة جغرافية

﴿ الحدود ﴾ اليمن قطرٌ واسعٌ مستطيل الشكل في الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب . وحدوده الرسمية في يومنا من الشمال بلاد عسير العائدة للمملكة السعودية يفصله عنها

خط يمتد من ميناء ميدي على البحر الأحمر الى شمالي بلدة صعدة متبعاً وادي مخلاف الى حدود نجران ويام الجنوبية [1] وحدوده من الجنوب المحميات التسع المرتبطة بمستعمرة عدن [2] يفصله عنها خط يمتد من الشيخ سعيد تجاه باب المندب الى جنوبي بلاد الحجرية ومادية وقعطبة. ومن الشرق بلاد حضرموت يفصله عنها وادي بيحان وبادية الجوف الممتدة الى الربع الخالي، ومن الغرب البحر الأحمر

وقد سمى اليونان بلاد اليمن بالعربية السعيدة Arabia Felixa وسماها العرب بالخضراء[3]، وذلك لكثرة أشجارها وزروعها ووفرة خيرها وميرها بالقياس الى بقية اقطار الجزيرة العربية القاحلة في الغالب. واليمن في عرف العرب هو الجزء الجنوبي من جزيرتهم، او هو كل ما كان جنوبي الحجاز كما ان الشام هو كل ما كان شمالي الحجاز. وكانوا يجعلون حدوده من البحر الاحمر غرباً الى خليج فارس شرقاً، فيدخلون فيه حضرموت وعمان والربع الخالي ولواء عسير والمحميات التسع وعدن الا ان هذا التحديد كان أعتبارياً في اغلب العصور ولم يتحقق الا قليلاً. لان عمان وحضرموت ان تبعتا اليمن قبل الاسلام في عهد الحميريين لم تتبعاه بعد الاسلام. بل ساد فيهما ولاة مرتبطون بعاصمة الخلافة مباشرةً، او امراء محليون مستقلون. وبلاد عسير كانت بيد بعض الامراء ايضاً وآخر هؤلاء في القرن الماضي آل عايض. وكان اشراف مكة في الشمال وامراء نجد في الشرق وأئمة اليمن في الجنوب يدعون بامتداد نفوذهم الى بعض المناطق او القبائل من عسير ونجران المجاورة لهم. ولما استفحل امر محمد ابن عايض وهاجم تهامة وحاصر الحديدة جردت الدولة العثمانية عليه في سنة ١٢٨٨ ﻫ جيشاً بقيادة رديف باشا فشتت شمله وقضى على امارته وجعل عسير لواء مرتبطاً بولاية اليمن التي تألفت في السنة التالية على اثر استرداد صنعاء بيد احمد مختار باشا الغازي

وظل لواء عسير بأقضيته الستة (ابها ومحايل ورجال المع وقنفدة وبني شهر وغامد وصبيا) تابعاً لصنعاء اولاً ثم لمقرّ السلطنة في استانبول اخيراً، حتى ثار فيه الادارسة عقيب اعلان الدستور العثماني وحاربوا الدولة ثم استقلوا قبيل الحرب العامة ووطدوا استقلالهم بعدها. ولما جلا العثمانيون عن اليمن سنة ١٣٣٧ واستتب الملك فيه للامام يحيى قاتل الادارسة الذين كانوا مدوا ايديهم الى تهامة اليمن واستولوا على الحديدة. وبعد ان اخرجهم في سنة ١٣٤٣ عزم على اخذ عسير — معتبراً اياه من اليمن. ولما شعر الادارسة بعجزهم عن مقاومته التجأوا

---

(١) قلب جزيرة العرب لحافظ وهبة (٢) هي الامارات والمشيخات الكائنة في جنوبي اليمن الاسفل التي دخلت تحت حماية الحكومة البريطانية منذ احتلال عدن سنة ١٨٣٩ (١٢٥٣ ﻫ). وهي لحج والصبيحة، والحواشب والقطيب والعوالق ويافع والضالع والواحدي والعوازل (٣) صفة جزيرة العرب للهمداني

سنة ١٣٤٥ الى عبد العزيز ابن السعود ملك الحجاز ونجد ووضعوا بلادهم تحت حمايته

وظل الامام يحيى يحاول الاستيلاء على عسير وعلى مخلاف نجران المحتمي بالحجاز ونجد من قبل وتفاقم الخلاف من جراء ذلك بينهُ وبين الملك عبد العزيز . ونشبت الحرب في سنة ١٣٥٢ وتقدمت الجيوش السعودية في تهامة اليمن حتى الحديدة وباجل . فاضطر الامام يحيى اذ ذاك للتسليم بالحدود التي ذكرناها في مقدمة مقالنا ، وقضى الامر بانفلات عسير ونجران من اليمن نهائيًّا

﴿ أقسام اليمن قديماً ﴾ كان اليمن قبل الاسلام يقسم الى مخاليف والمخلاف كما قال ياقوت في معجم البلدان بمنزلة الكور والرساتيق ولكل مخلاف اسم يعرف بهِ وهو قبيلة من قبائل اليمن اقامت بهِ وعمرتهُ فغلب عليهِ اسمها . فمن المخاليف التي ذكرها ياقوت ابين ولحج وبيحان وشبوة والمعافر واليحصبيين والعود والسحول ورعين وجيشان ورداع ومآرب وريمة وذمار وغيرها . وكل مخلاف تحتهُ محافد ومدن وقرى

وفي صدر الاسلام قسمت اعمال اليمن على ثلاثة ولاة فوالٍ في الجَنَد [1] ومخاليفها وهو اعظمها ، ووالٍ في صنعاء ومخاليفها وهو اوسطها ، ووالٍ على حضرموت ومخاليفها وهو ادناها. وفي العصور الاسلامية المتوسطة قامت في اليمن وتداولت الحكم دول او الاصح دويلات عديدة كان اكثرها في تهامة وبعضها كائمة الزيدية في الجبال . ودولة الائمة كانت اطولها عمراً . ودخل العثمانيون اليمن في القرن العاشر ، ولكن لم يلبثوا الا قرناً حتى غادروه مرغمين ، وظلوا يتحينون الفرص لاسترداده ، اعتقاداً منهم بان اليمن دعامة الجزيرة العربية وحصن الحجاز الحصين وان بدون الحجاز واليمن من ورائهِ لا يستتب البقاء لخلافتهم الاسلامية . ففي القرن الماضي سنة ١٢٨٨ فتحوا عسير على ما قدمنا ، وفي سنة ١٢٨٩ فتحوا صنعاء ومعظم جبال اليمن وكل تهامة ، فدانت لهم هذه البلاد واسسوا فيها (ولاية اليمن) وما زالوا حتى اخرجتهم نتائج الحرب العامة سنة ١٣٣٧ ، وسنأتي على تفصيل ذلك في النبذة التاريخية

***

﴿ اقسام اليمن في العهد العثماني والعهد الامامي الحاضر ﴾ كان اليمن في عهد العثمانيين يؤلف ولايةً واسعةً تشتمل على لواء عسير الذي تقدم ذكره وألوية صنعاء والحديدة وتعز . وكان كل من هذه الالوية يشتمل على اقضية وهذه على نواح عديدة ، في كل ناحية مئات من القرى والعُزَل (جمع عزلة) . فكان يحكم في الولاية الوالي وفي الالوية المتصرف وفي الاقضية قائم المقام وفي النواحي المدير . وكانت مساحة هذه الالوية والاقضية والنواحي عظيمة وابعادها

---

(١) الجند بليدة قرب تعز . ولعل ولايتها اذ ذاك كانت تشمل التهائم واليمن الاسفل كله

شاسعة تزيد عن امثالها — في بقية ولايات الدولة وتتطلب تقسيمها الى اصغر من ذلك وتكثير عدد الاقسام . وقد اقترح هذا سنة ١٣١٩ الوالي حسين حلمي باشا المشهور بحسن ادارته ولكن لم يلبَّ اقتراحه . ومما يجدر ذكره ان يد العثمانيين لم تصل الى شرقي اليمن الاعلى وشماليه ولا جنوبي اليمن الاسفل فظلت مآرب وصعدة ونجران وشهران وقفلة العذر وماحولها من القبائل العاتية كحاشد وبكيل وارحب وذو حسين وامثالها تحت سلطة الائمة او المشائخ المحليين . وكذلك كان الحال في اراضي المحميات التسع في اليمن الاسفل التابعة لمستعمرة عدن كما تقدم ذكره

***

هذا وقد كان لواء صنعاء (قضاء صنعا) تتبعه نواح اسمها بلاد البستان ، بلاد الروس ، بني بهلول ، بني الحارث ، بني حشيش همدان ، سنحان ، ارحب ، نهم ، خولان ، الحدا . ثم (قضاء حراز) وقاعدته مناخه ونواحيه حراز ومضحق وعرو ومتوح وحجيلة . ثم (قضاء كوكبان) وقاعدته الطويلة ونواحيه كوكبان والحريث وشبام . ثم (قضاء آنس) وقاعدته ضوران ونواحيه آنس وعتمة وجبل شرق وجهران . ثم (قضاء حجة) وقاعدته حجة ونواحيه حجة وبني عوام وشقادرة ومسور وعضار . ثم (قضاء ذمار) وقاعدته ذمار ونواحيه ذمار ومغرب عنس . ثم (قضاء يريم) وليس فيه نواح . ثم (قضاء رداع) وقاعدته رداع ونواحيه رداع وسوادية وجبن . ثم (قضاء عمران) وقاعدته عمران وفيه ناحية عيال سريح . وكان في لواء الحديدة (قضاء الحديدة) ونواحيه الحديدة وجزيرة قمران وجبل برع وحفاش . ثم (قضاء زبيد) وقاعدته زبيد ونواحيه زبيد وحيس ووصاب العالي ووصاب السافل . ثم (قضاء اللحية) وقاعدته اللحية ونواحيه اللحية وزهرة . ثم (قضاء الزيدية) وفيه ناحية بني قيس . ثم (قضاء جبل ريمة) وقاعدته ريمة ونواحيه ريمة والجعفرية وكسمة وسلفية . ثم (قضاء حجور) ونواحيه محايشة وعاهم وخمس وقارة وحرض وعبش . ثم (قضاء بيت الفقيه) وفيه احياء متفرقة من قبيلة الزرانيق . ثم (قضاء باجل) ونواحيه باجل وملحان . وكان في لواء تعز (قضاء تعز) ونواحيه تعز وتربة الفحم وقماعرة ومقبنة وذي شراق . ثم (قضاء إب) ونواحيه إب ومخادر . ثم (قضاء عُدين) ونواحيه عدين وحيش . ثم (قضاء قعطبة) ونواحيه جبل مريس ونادرة وحشا . ثم (قضاء الحجرية) ونواحيه الحجرية وقبيطة وحيش . ثم (قضاء مخا) وليس فيه نواح

وقد ابقى الامام يحيى معظم هذه الاقسام على حالها وأقام عليها حكاماً سماهم (عمال) جمع كلمة «عامل» التي كانت مستعملة في العصور الاسلامية الغابرة . وهؤلاء العمال يمثلون الامام ويماثلونه

بنسبة مصغرة في سلطتهِ ودواعي ابهته . وهم يسيرون على نهج جلالته ونهج تلك العصور في الحكم الاقطاعي المطلق

***

﴿ المساحة والسكان ﴾ لم يتسنَّ لولاة الترك وضباطهم ولا لجوّالة الافرنج وبحاثتهم — وعدد هؤلاءِ كان قليلاً — ان يضبطوا مساحة اليمن السطحية ويعرفوا عدد نفوسه ، ويضعوا خريطةً صحيحة لالويته واقضيته . ذلك لتعذر هذا العمل في الزمن الماضي الطافح بالفتن والحروب واستمرار هذا التعذر في الزمن الحاضر لرغبة الامام بقاء بلاده في نجوة عن الكشف والبحث . وكل المساحات والاعداد التي وضعت والخرائط الانكليزية والتركية التي رسمت وطبعت انما هي اعتبارية سماعية لا يصح الركون اليها الاَّ للاستئناس فحسب . فالترك [1] كانوا يعتبرون ولاية اليمن بألويتها الاربعة التي ذكرناها بين درجات ٢٠ و ٣٠،٢١ من العرض الشمالي و٣٣و٤٣ من الطول الشرقي . وكانوا يقدرون طولهُ من الشمال الى الجنوب ٧٧٥ كيلومتراً وعرضهُ من الغرب الى الشرق ٣٥٠ كيلومتراً . وان مساحة اليمن السطحية تبلغ على التقريب ٢٣٥٠٠٠ كيلو متر مربع

اما عدد نفوس اليمن فقد اختلفت فيهِ الاقوال . فالمعاجم ودوائر المعارف الفرنسية والانكليزية تقدره تارةً بمليون وتارةً بمليونين ونصف . وهذا قليل ، لان اليمن اكثر بلاد الجزيرة العربية عمراناً وسكاناً

والترك [2] يقدرونه تارةً باربعة ملايين وتارةً بثلاثة بما فيهِ لواء عسير . أما اليمانيون [3] فيبالغون الى الخمسة عشر مليوناً . والتقدير التركي الثاني هو الاقرب الى الصحة حتى في يومنا . ذلك لان اليمن لم يحو ولا يمكن أن يحوي اكثر من ثلاثة ملايين ، لقلة أراضيه الزراعية ومرافقه الحيوية كما سوف نذكره ، ولانفصال لواءِ عسير عنهُ ، ولان الحروب والفتن الماضية أهلكت حرثهُ ونسله كثيراً فانقصت قطينه وهذه وان زالت في عهد الامام يحيى الاَّ انه قام مقامها كثرة وفيات الاطفال وتوالي الامراض العادية والسارية بحكم فقدان الاطباء وحرمان وسائل الاستشفاء ناهيك البؤس والشقاء الضاربين أطنابهما

دمشق : [للبحث بقية]

---

(١) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي

(٢) شمس الدين سامي في قاموس الاعلام . وحسين حلمي باشا في لائحته الاصلاحية (٣) عبد الواسع الواسعي في تاريخ اليمن

لوپي ده فيجا

(١٥٦٢ — ١٦٣٥)

احتفلت اسبانيا في العام الماضي ، وشاركتها البلدان الاميركية الاسبانية الثقافة وجميع البلدان التي عرفت الادب الاسباني معرفة درس واطلاع فقط، بانقضاء ثلاثة قرون على وفاة الشاعر والمؤلف الدرامي الاسباني المشهور لوپي ده فيجا Lope de Vega فألقيت المحاضرات عنهُ وعن شعرهِ في اشهر جامعات العالم ومثلت طائفة مختارة من مسرحياتهِ على غير مسرح واحد وفي غير بلاد واحدة

يتباين عدد الروايات المسرحية التي الّفها هذا الشاعر الفذّ في خصبه ووفرة انتاجه، من ١٥٠٠ رواية الى ١٨٠٠ رواية يضاف اليها مئات من الفصول والمقطوعات . بل انك لتقرأ واحداً وعشرين مجلّداً كبير من مجموعة آثارهِ الباقية قبل أن تصل الى المسرحيات . لذلك وصفهُ سرفانتس مؤلف دون كيشوت بقولهِ « فلتة الطبيعة » ولم يكن من النادر ان يوصف بقولهم « لوپي العلوي » اشارة الى لبسهِ المسوح وانتظامهِ في سلك الكهنوت بعد وفاة زوجتهِ الثانية سنة ١٦١٢

كان ده ڤيجا حينئذٍ في أوج مجدهِ الأدبي . ونحن اذ ننظر اليهِ من خلال ثلاثة قرون نعرف ان مكانتهُ الأدبية مقرونة بكتاباتهِ المسرحية . ولكنهُ كان في نظر قومهِ طوداً من الادب تشبهُ مكانتهُ في أسبانيا مكانة ڤولتير في فرنسا في عصره . لقد طوى النسيان قصائده الفروسية والريفية وأناشيدهُ وأغانيهُ ، بعد ان أحاطت اسمهُ في حياتهِ وبعيد مماته بهالة من المجد ، مكّنتهُ في ذلك العصر الاقطاعي من ان يعامل أسيادهُ وأمراءهُ معاملة الندّ للندّ . فدوق سسّا — وكان يغدق عليهِ المال ويحميهِ من سنة ١٦٠٥ الى وقت وفاته — كان صديقه الحميم ، ورسائل لوپي اليهِ تدلُّ على رفع الكلفة بينهما لولا عبارات قليلة هنا وهناك ، كان من المألوف استعمالها في مخاطبة الاشراف

لما وُلد لوبي ده ڤيجا كان قد انقضت سبعون سنة على اكتشاف العالم الجديد . وكانت المستعمرات الاسبانية ممتدَّة في شرق الارض وغربها فكانت امبراطوريتها كالامبراطورية البريطانية في هذا العصر ، لا تغيب عنها الشمس . وكان مقام اسبانيا الدولي في المرتبة العليا . حتى كان الناس من شتى البلدان يفاخرون بمعرفة اللغة الاسبانية والتحدُّث بها . وكذلك تمهَّدت الطريق لظهور شاعر عظيم يتغنى بامجاد هذه الدولة العظيمة وحضارتها ، وكان لوبي ذلك الشاعر

ولد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ وكان والده قد احترف تطريز الاثواب وزركشتها بعدما هبط مدريد من النجود الاسبانية في مقاطعة استوريا ، فكان من صغره فلتة من فلتات الذكاء الانساني . ففي الخامسة من عمره كان يستطيع ان يقرأ اللغة اللاتينية الايطالية ولما كان لا يستطيع الكتابة في هذا السن ، كان يملي اشعارهُ على رفاقهِ في المدرسة ويجزيهم عن تعبهم بجانب من فطوره . فلما اصبح قادراً على استعمال الريشة لرسم الكلمات، انبجس نبع الشعر من صدره فكتب وهو في الحادية عشرة من عمره مسرحيتهُ الاولى وكانت رواية ريفية ثم تبعتها مسرحيتان اخريان وهو في الثانية عشرة من عمره . ثم تلت ذلك مسرحية ذات ثلاثة فصول ، فجرى على ذلك في سائر مسرحياتهِ واصبح تأليف المسرحية من ثلاثة فصول تقليداً تبعهُ الادباء في اوربا حتى اواسط القرن الثامن عشر

ولعلَّ اول ما يخطر للقارىء ان يسأل : لماذا انحصرت عبقرية لوبي ده ڤيجا في حدود بلاده فلم ترسل اشعتها الى ما وراءها . ولماذا انكرت الاجيال التالية عليهِ تلك الشهرة العالمية التي اسبغتها على مواطنهِ سرڤانتس

والواقع ان شهرتهُ لم تنحصر كل الانحصار في حدود بلاده . فقد كان زوَّار مدريد من كبار الاجانب يسعون اليهِ وكان القصَّاد الرسوليون يزورونهُ حاملين بتحيات سيّدهم الاعلى في روما . بل ان البابا اربان الثامن ارسل اليهِ شهادة تحمل لقب دكتور في اللاهوت في سنة ١٦٢٧ . ولكنهُ مع ذلك لم يصب نصيباً من الشهرة العالمية المتجددة الذكر مع كل جيل ، على نحو ما اصاب سرفانتس بكتابهِ دون كيشوت . وليس الباعث على ذلك في رأي النقاد ان ده ڤيجا كان ادنى مقاماً من سرڤانتس في عالم الادب . الاّ ان عبقريتهُ وان كانت من طبقة عبقرية ندّه كانت تختلف عنها .

فسرڤانتس كان فيلسوفاً واقعيّاً فكان النثر القالب الطبيعي الذي تفرغ فيه مآثر عبقريته وأما ده فيجا فكان رجلاً تتقاذفهُ العاطفة العنيفة والانفعال الشديد. يغلي مرجل شعوره غلياناً دائماً وهو يطلب منفذاً فلا يجد منفذاً الاَّ في الشعر الطلق السمح القوي المتدفق. هنا بين سطور قصائده وفي حوار مسرحياته رسم الحب والاسف والحقد والغيرة والامل والطموح . فقد عاش طوال حياته وكأنهُ مجنح محلق في سماءٍ لا تمتُّ الى الحقيقة الواقعة بصلة. فالشعر في كيانه والتنفس كانا توأمين. فمن الطبيعي ان تنحصر شهرة شاعر فذ لهُ من بلاده وأدبها الممتاز سمات الايقاع والرجع الخاص . ذلك ان ترجمة الشعر أصعب بما لا يقاس من ترجمة النثر ، وقراءة الشعر أصعب على النفس من قراءة النثر المتلألىء بدرر الحكمة العالية أو النقد اللاذع والنكتة البارعة

قال مرعيه ما معناه : أن لوپي هو المثل الاتمّ على روح عصره تقاذفت نفسه ضروب من الشعور المتباين من الصوفية الى الفروسية ، ومن الورع الى الغزل ، ومن التهور الى الخفّة . لقد احسَّ في قرارة نفسهِ ، كلَّ ما احسّتهُ النفوس في عصره ، وعاش حياة متقلبة من الحرب الى البيت الى الكنيسة ، لذلك استطاع ان يصور أتم تصوير مهزلة الحياة الانسانية المفجعة ، ويفوق في تصويرها ايًّا آخر من الكتّاب »

مسرحياته وفنه

لم يبق من مآثر عبقريتهِ على مرّ الزمن غير ٤٧٠ مسرحية و ٥٠ مقطعاً . فاذا حاول الباحث ان يصنّفها عجز عن ذلك ، لان تعريف المهازل والمآسي لا ينطبق عليها ولذلك يفضّل الاسبانيون ان يقسموها ثلاثة اقسام اولها قسم المسرحيات التي تعالج موضوعاً منتزعاً من الحياة اليومية واشخاصها من الناس الذين نراهم ونعاشرهم كلَّ يوم. وثانيها مسرحيات اشخاصها ملوك وامراء . وثالثها مسرحيات القديسين

ولكن هذا التقسيم لا يشفي غليلاً ، ولا هو يتناول اعمال ده فيجا من اساسها ، ذلك ان الصفة الغالبة على مسرحياتهِ حوك الدسائس ، ولا سيما ما كان منها خاصًّا بالحبّ . وفيها تبرز ملكاتهُ وبراعتهُ وخيالهُ لان هذا الصنف من مسرحياتهِ كان من بنات خيالهِ . وقد كان غرضهُ أن يبهج الناس ويحرّكهم لا ان يعلمهم ويعظهم . وقد بسط طريقتهُ في قصيدة نظمها سنة ١٦٠٩ عنوانها الفن الجديد لتأليف المهازل او الفن

المسرحي الجديد . ومما قالهُ فيها « تأمرني بان اضع قواعد الفن الدرامي . . . . . ولكنني لم أؤلف الاّ وانا منتهك قواعد هذا الفن . فعندما اريد ان أؤلف مهزلة (كوميديا) اضع جميع القواعد في خزانة واقفلها ثلاثاً واكتب وفقاً للقواعد التي اخترعها اولئك الذين يريدون ان يفوزوا بتصفيق الجماهير . ولما كان الجمهور هو الذي يدفع ثمن هذه السخافات فمن العدل ان نقدم لهُ ما يطلبهُ » . ولكنهُ مع ذلك ، اهتمَّ في فقرات تالية بعد اعرابهِ عن احترامهِ للقدماءِ واعتراضهِ على ذوق المحدثين (في عصرهِ) بوضع قواعد يراها اساسية في الفن المسرحي اهمها :

١ — مزج المضحك بالمحزن ٢ — وحدة العمل اي يجب ان يقلل المؤلف جهدهُ من الحوادث . ٣ — جعل الدرامة في اقصر وقت ممكن . ٤ — جعل الدرامة ثلاثة فصول على ان تكون حوادث كل فصل — اذا امكن — مما يقع في يوم اي جعل الوقت الذي تستغرقهُ حوادث الدرامة ثلاثة ايام . ٥ — ان لا تعرف نهاية الدرامة الاّ في المشهد الاخير . ومن اقوالهِ إخدع المشاهد بالاشارة الى نتائج محتملة هي غير النتيجة الحقيقية . ٦ — ليكن الاسلوب سهلاً على ان يرتفع عندما يتكلم البطل او من كان صاحب مقام في مواقف الارشاد او التحذير

ولو لم يكن لوبي مسرحيًّا مطبوعاً لما أجدتهُ جميع قواعد الدنيا . ففي مسرحيتهِ « الملك خير القضاة » يمزج بريشة ساحرة بين المضحك والمؤسي ، وفي مسرحيتهِ « المحبوب المجهول » يسير في تفصيل حبكة الرواية وكأنهُ من ابرع الكتاب المعاصرين في قصص الجرائم وكشفها . وفي مسرحيتهِ « اكتشاف العالم الجديد » يسيطر بفهمهِ وخيالهِ على موضوع متسع النواحي ، لا يمكن حصرهُ او حصر جزء منهُ في حدود فصول ثلاثة

الملك خير القضاة

موضوع هذه الرواية منتزع من تاريخ اسبانيا . ولكنهُ حوَّل القصة بسحر فنهِ من حكاية ريفية بسيطة يظهر فيها عدل الملوك ، الى مسرحية اخَّاذة فيها حب وشهوة، وفيها توسلٌ وظلم ،ومجون وحكمة ، وفيها فوق كل هذا عدل الملك الفونسو السابع

كان سانشا فلاحاً ينتمي الى امرة قديمة غنية . وكان يحبُّ القير ابنة سيدهِ

الفلاح نونو . فتبادله القير الحب وتسمح له ان يطلب يدها من ابيها . فيوافق هذا على الزواج ، لانهُ يحب الشاب ويعطف عليهِ ويرى فيهِ فضائل الاجتهاد وحب العمل. ولكنهُ يطلب اليهِ ان يذهب الى سيّد المقاطعة دون تلّو ده نيرا . وان يطلب اليهِ من باب الخضوع الاقطاعي ، ان يأذن لهُ في زوج القير

فيذهب سانشا الى ده تلو على رغم منهُ . فاذا السيّد شاب يقطن قصراً فخماً مع شقيقتهِ فليسيانا ولكنهُ غير محبوب ولا محترم من مزارعيهِ . فيوافق السيّد على طلب الفلاح ويمنحهُ الاذن في الحال ، ويعدهُ بانهُ يقدم اليهِ هدية زواج ، مؤلفة من عشرين بقرة ومائة رأس غنم . بل علاوة على ذلك تنازل ووعد بان يشرّف حفلة الزواج في الليلة نفسها. وكان يصحبهُ في زيارتهِ هذه رجل يدعى بيلاج وهو ماجن ابدع المؤلف في تصويره اذ جعل حديثهُ خليطاً من الاقوال الحكيمة والمجون ، السخيف على نحو ما نجد في بعض مسرحيّات شكسبير

تمت معدّات الحفلة واقبل الدون تلو في عربتهِ ولم يبق الاّ ان يصل القسيس لاتمام عقد الزواج . ولكن دون تلو يرى القير ، ففتنهُ جمالها ، فيبتدع عذراً لتأجيل حفلة الزواج الى مساء الغد ، وبعد ما يأوي كلٌّ الى فراشهِ ، يخطف الفتاة القير بواسطة خدم منتمين له

فاذا كان الفصل الثاني ، رأينا الدون تلو في قصره ، وشقيقتهُ منهالة عليهِ باقذع النقد على ما فعل . ثم يقبل الفلاح نونو والفتى سانشا في طلب الفتاة ، فيتصنع دون تلو جهل مكانها . ولكن القير تظهر من وراء ستار ، فيثور غضب السيّد ، فيأمر خدمهُ بطرد الفلاحين ضرباً بالعصي . وعندئذ يعزم سانشا ، بعد اشارة حميه ، على ان يذهب الى الملك الفونسو السابع ، ويطلب منهُ ان يحميهُ من عسف دون تلّو وتحكمهِ . فيذهب اليهِ يصحبهُ بيلاج الماجن ، ويستأذن في الدخول عليهِ فيأذن ، فيعطيهما الملك كتاباً الى دون تلّو فيهِ ما يلي :

عند ما تصل كتابتي هذه اليك تعيد ، من دون مداورة ، الى هذا الفلاح المسكين المرأة التي سلبتهُ إياها . واذكر ان الامراء الصالحين لا يعرفون الاّ وهم بعيدون عن عينيهِ ، وانهُ ليس ثمة أمير لا ينالهُ عقاب الملك مهما يبعد عنهُ . أنا الملك

ولكن دون تلّو ، ما كاد يرى هذا الكتاب ، حتى أرغى وأزبد ، ورفض

ان يطيع، فيعود سانشا الى الملك ويخبره بما كان فيعزم الملك ان يذهب بنفسه لتوقيع العقاب عليه بعد حمله على احترام أوامره

سانشا — انك يا سيدي تبالغ في اكرام حطّتي . ارسل أحد قضاتك لكي يحكم بالعدل في رعاياك

الملك — ان الملك خير القضاة

ثمَّ الاتفاق على ان يمتنع سانشا وبيلاج عن الكشف عن شخصية هذا القاضي فيصل الملك الى مقاطعة دون تلّو متخفيًّا . فيحط رحاله عند نونو والد القير ، فيحسبهُ هذا قاضياً عاديًّا . ويطلب الملك سرًّا الى احد ضباطهُ ان يحضر قسيساً وجلاّداً . ثم يذهب بنفسهِ الى قصر دون تلّو ده نيرا فيقول لاحد خدمهِ

الملك المتكتّم — اعلنوا دون تلّو باني اريد ان اخاطبهُ

الخادم — واذا سألني عمن قال لي ذلك فبماذا اجيب

الملك المتكتّم — انا

الخادم — أليس لك اسم آخر

الملك المتكتّم — كلاّ

فعند ما يرفض دون تلّو ان يستقبلهُ يعلنهُ بانهُ احد قضاة القصر . فيستقبلهُ ويحدثهُ متشامخاً عليهِ ، محتقراً إيّاهُ

دون تلّو — يظهر انك لا تعرف من انا . ان احداً لا يجرؤ على القاء القبض عليَّ ، الاّ اذا كان الملك نفسهُ

الملك المتكتّم — اذن ايها البائس — انا الملك

فتصطك ركبتا دون تلّو ، ويتخاذل امام سيّدهِ ، ولكن الملك يريد العدل فيحتم على دون تلّو ان يمنح القير لقب زوجتهِ وان يترك لها نصف مالهِ ثم يأمر باعدامهِ

فيصيح بيلاج — هذا الملك

ويصيح سانشا — الملك خير القضاة



نضال خفي في اليابان

وتأثيره في توجيه سياستها

الزواج المورغاني

لامين الغريب

قوى الدفاع الاوربية

اقسامها وقوتها وطرق تنظيمها



انزال الجنود من
الطائرات بالمظلات
الواقية في روسيا



الجنود في الميدان
يواجهون الغازات
الحربية بالكمامات
الواقية

نضالٌ خفيٌّ في اليابان

وتأثيرهُ في توجيه سياستها

ان قوات الدفاع في اليابان اشبه ما يكون بدولة داخل دولة . لها اغراضها الخاصة في حلبة السياسة الداخلية والخارجية ، وليس في وسع اية وزارة ان تتجاهلها . ومما يعزّز هذا الموقف التقاليد التي جرى عليها اليابانيون ، والامتيازات الدستورية الممنوحة لقوات الدفاع ، وتوازن القوى السياسية في البلاد

فالضابط الياباني ، وريث الفارس الياباني في العصور الوسطى (الساموراي) يحوطهُ احترام الجمهور وتقديرهُ . ولرؤساءِ اركان الحزب في الجيش والاسطول حق الاتصال اتصالاً مباشراً بالامبراطور ، وهذا في نظرهم اعتاقهم من الخضوع للسلطة البرلمانية . ثم إنَّ من القواعد المرعية الجانب عندهم أن وزير الحربية يجب أن يكون جنرالاً ووزير البحرية اميرالاً ، وهذا يقوي النفوذ العسكري في داخل الوزارة ، لانهُ من المتعذر اقناع ضابط كبير ، من ضباط الجيش أو الاسطول ، بالانتظام وزيراً في وزارة ما ، اذا كان يشتم من طريقة تأليفها رائحة المعارضة ولو معارضة يسيرة لاغراض الجيش والاسطول . وقد تعزَّز هذا الاتجاهُ منذ احتلت اليابان منشوريا سنة ١٩٣١ ومنذ حدثت حوادث الاغتيال في فبراير الماضي التي ذهب ضحيتها فريق من الوزراء

هذه الحوادث كانت مظهراً بارزاً للنضال الدائم بين المتطرفين والمعتدلين في اليابان

بين المتطرفين والمعتدلين

في الناحية الواحدة نجد قوات الدفاع . فالجيش ولاسيما صفوفه المتوسطة وصغار ضباطهِ ، متأثر تأثراً غامضاً بشعور مناقض للرأسمالية ومشبع بروح التطرف الاجتماعي . اما الاسطول فأقل عناية بالمشكلات الاجتماعية ، ولكنهُ متفق مع الجيش على تأليف جبهة واحدة في ما يتعلق بالمناهج الصناعية ولا سيما ماكان منها متصلاً بالخطط العسكرية ، راغباً في تأكيد انفلاتهِ من قيود السيطرة المدنية ، مشدداً في وجوب زيادة الاموال التي تنفق عليهِ من الميزانية العامة . ويؤيد الاسطول والجيش طائفة من الجمعيات المطبوعة بطابع القومية المتطرفة

اما فريق المعتدلين فيشمل كبار ساسة اليابان ، من امثال البرنس سايونجي والكونت ماكينو . والغريب ان شيوخ ساسة اليابان أقرب الى التساهل والحرية والاعتدال من الكهول . والغالب ان الباعث على ذلك ان معظمهم قضى جانباً من حياتهِ في اوربا واميركا ، اذ كانت اليابان دولة ناشئة واذ كانت فلسفة الاحرار غالبة في تلك البلدان سواء في السياسة او في الاقتصاد . ويمكن ان

يضاف الى هؤلاء معظم رجال المال والاعمال وشيوخ السياسة في البرلمان فهؤلاء جميعاً اميل الى الاعتدال في السياسة الخارجية ، والى الاحتفاظ بالحالة الراهنة في الشؤون الاقتصادية

في هذين الفريقين، نجد ممثلي الجيش والاسطول وممثلي فريق رجال المال والاعمال ، أعلاهم صوتاً واقواهم حجّة . في اليابان احرار ولكن ليس فيها حزب احرار. وهناك حزب اشتراكي معتدل ،وهو الحزب الذي زاد عدد مقاعده في الانتخابات التي سبقت حوادث الاغتيال في ٢٦ فبراير، ويقال ان هذا الفوز كان احد البواعث عليها. ولكن نفوذهُ السياسي محدود. وليس هناك ما يدل على ان الشيوعية قوة يعتدّ بها في اليابان بل ان بعض متطرفي الشيوعية قد انقلبوا وطنيين متطرفين في العهد الاخير

مشكلة البترول

بين الجيش والاسطول من ناحية ، وفريق رجال المال والاعمال من جهة اخرى ، مواطن اختلاف . وفي مقدمتها مبلغ ما تستطيع اليابان ان تنفقهُ على تسلّحها . فالمال الذي يخصص لقوى الدفاع اكثر مما يجب في رأي الماليين . ثم ان زعماء الجيش والاسطول ، يبغون تطبيق خطط صناعية معيّنة ، مسوّغها في نظرهم عسكري لا اقتصادي . خذ مثلاً رغبة الاسطول في الحصول على مصادر ثابتة للبترول . فاستعمال البترول ومشتقاته في اليابان زاد بين ١٩٢٣ و ١٩٣٤ زيادة كبيرة حالة ان ما يستخرج من البترول في اليابان وممتلكاتها ظلّ على ما كان . كانت نسبة المستخرج في اليابان الى المستهلك فيها سنة ١٩٢٣ اكثر من ٣٤ في المائة قليلاً ولكنهُ نقص في سنة ١٩٣٤ الى ٨٫٤ في المائة . فاذا نشبت حرب ، اضطرّت اليابان الى استعمال البترول الخارج من ينابيعه في شمال سخالين التابعة لروسيا ، وهذا يقتضي اتفاقاً مع روسيا او اعتداء على تلك المنطقة . ومع ذلك تبقى اليابان في حاجة الى ٨٠ في المائة مما تستهلكهُ من البترول عادةً ، دع عنك زيادة ما يستهلك منهُ في الحرب

وقد عمدت الحكومة الى مشروعات مختلفة لتلافي هذا النقص . فحتمت اولاً على شركات البترول ان تحفظ في مستودعاتها مقداراً من البترول يعدل ما تبيعهُ في خلال ستة اشهر . وجربت تجارب في خلط البترول بالكحول المستخرج من الخشب ، والبحث عن كل بقعة ارض في الامبراطورية اليابانية يحتمل العثور على بترول فيها ، وتشييد مصانع لاستخراج البترول من الفحم على الطريقة الالمانية او الانكليزية او طريقة تشبهها

فمشكلة البترول هذه قد حملت اقطاب الاسطول على توجيه عنايتهم الى اتجاه اليابان جنوباً . ففي جزائر الهند الشرقية الهولندية اغنى منابع البترول في شرق اسيا ، وهي تابعة لمملكة صغيرة بعيدة ، فاذا امتدّ سلطان اليابان الى جنوب المحيط الهادىء ، فمن المحتمل ان تتمكن اليابان من هذه المنابع اذا نشبت حربٌ

اصلاح حالة الفلاح

وهناك عامل آخر . فثمة طائفة غير يسيرة من ضباط الجيش والاسطول ، ولاسيما الشبان منهم تحسب نفسها سند الفلاح الفقير المرهق بالديون المستغَل من ارباب الصناعة والمال . والغالب ان الباعث على اهتمامهم هذا به ، انهُ يرونهُ صالحاً للجندية من ناحية ، ويجمع في شخصهِ من ناحية الفضائل المأثورة ، التي لم تفسدها مظاهر الحياة المدنية . ولذلك تجد في دوائر الجيش والاسطول، اتجاهاً خاصًّا الى اصلاح حالة الفلاّح بمال يؤخذ ضرائب من ساكن المدينة وصاحب المصنع

اما فريق رجال المال والاعمال والاحرار من رجال السياسة ، فلا يعارضون في برنامج تعزيز قوى الدفاع واصلاح حال الفلاّح ، ولكنهم يشيرون ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً من الصراحة، الى العقبات المالية الكبيرة التي تحول دون تحقيق هذه الاغراض

فالنضال بين المتطرفين والمعتدلين ، هو المحور الرئيسي الذي تدور من حولهِ حياة اليابان السياسية . يدور هذا النضال احياناً في الخفاء ومن وراءِ ستار ، ولكنهُ يعنف احياناً ويشتدُّ فيظهر في وضح النهار ، على نحو ما حدث من حوادث الارهاب في ١٥ مايو سنة ١٩٣٢ وفتنة فبراير سنة ١٩٣٦ اذ اغتيل نفر من أكبر رجالات اليابان . ولكن حسم النضال بينهما غير مستطاع ، اذ لا غنى لاحدٍ من الفريقين عن الآخر على الرغم مما بينهما من اختلاف في الرأي . فاذا وقعت ازمة في اليابان تراءى لمن لا يعرف حقيقة احوالها انها مفضية ، ولا ريب الى انتصار حاسم لاحد الفريقين على الآخر ، ولكنها تفضي دائماً الى توازن جديد بينهما

المشكلة المالية

ذلك ان القوى المتناضلة في اليابان تستند بعضها الى بعض ، على الرغم من اختلافها . فبعض الصناعات ولا سيما صناعة الذخيرة والاسلحة وبناءِ السفن تجني ارباحاً طائلة في اعداد المعدّات التي يحتاج اليها الجيش والاسطول . ثم ان بعض البيوتات المالية الكبيرة في اليابان تصيب فائدة كبيرة من استغلال منشوكو . وعلاوة على هذا وذاك ان رجال المال والاعمال في اليابان يدركون قيمة الجيش والاسطول في حماية تجارتهم وتوسيع نطاقها ، على الرغم من تبرّمهم بنفقاتهما الفاحشة. يقابل هذا ان معظم ضباط الجيش والاسطول يسلّمون بأن الرأسماليين ضرورة لاغنى عنها الآن وان اي اضطراب يصيب النظام الياباني الاقتصادي يضعف من مكانة البلاد الحربية

لذلك اتفق الفريقان، بعد فتنة فبراير سنة ١٩٣٦ على ان يسعى قوّاد الجيش والاسطول الى الحد من تطرف صغار الضباط بتطبيق النظام العسكري الدقيق عليهم ، حالة ان أقطاب السلطات

المدنية وممثلي رجال المال والاعمال تعهدوا بان يقيموا لاغراض الجيش والاسطول اكبر وزن في تعيين خططهم السياسية

وليس بالامر الجديد في اليابان ان يتدخَّل اقطاب الدفاع الوطني في تحديد النهج السياسي. لذلك اعترضوا على بعض الذين اختارهم رئيس الوزراء الجديد، كوكي هيروتا، ليكونوا وزراء في وزارته، فتخلى عنهم مسلماً للجيش والاسطول بمطالبهما وفي رأس هذه المطالب تعزيز قوى الدفاع الوطني وتوجيه السياسة الخارجية توجيهاً فعّالاً مستقلاً

اما تعزيز الدفاع الوطني، فيعني زيادة ما يخصص لقوى الدفاع في ميزانية الدولة. بلغ ذلك في سنة ١٩٣٢ نحو ٢٢٨ مليون ين للجيش و٢٢٧ مليون ين للاسطول، وقد اطردت الزيادة في مخصصاتهما حتى بلغت ٥٠٨ ملايين ين للجيش و ٥٥١ مليون ين للاسطول وهذا المبلغ اقل قليلاً من ٤٧ في المائة من دخل الحكومة

ومع ذلك نرى الجيش والاسطول يطلبان المزيد. وقد دفع وزير المالية السابق تاكاهشي، بحياته ثمناً لمعارضته في هذه الزيادة (كان الوزير تاكاهشي احد الذين اغتيلوا في فتنة فبراير ١٩٣٦). وقد اقترحت مقترحات متعددة للفوز بهذا المال. منها تحويل بعض القروض الداخلية على نحو ما فعلت انكلترا وفرنسا واميركا فيوفر الفرق بين الفائدة التي تدفع الآن والفائدة المخفضة في القروض المحوَّلة. ولكن ذلك لا يكفي. ويرجّح الكتاب الماليون، ان الدكتور ابشي بابا وزير المالية الحالي، مضطرٌّ الى فرض ضرائب جديدة من ناحية او عقد قروض لتغطية العجز في الميزانية. وكلاهما محفوف بالخطر. فالضرائب قد تفضي في الغالب الى رفع زيادة نفقات المعيشة فالى المطالبة بزيادة الاجور فالى زيادة نفقات الانتاج، وهذا يسلب اليابان معظم ما كانت تمتاز به في تجارتها الخارجية ومنافسة الدول الأُخرى. اما اصدار قروض لتغطية عجز الميزانية فالمجمع عليه ان الوزير تاكاهاشي ذهب فيه الى ابعد حدٍّ معقول

ولكن قوى الدفاع لا تني عن المطالبة بهذه الزيادة ولا بدَّ من ارضاء اقطابها بأية طريقة من الطرق. وهي تبغي خاصة تعزيز سلاح الطيران والقوى الميكانيكية في الجيش. وتستند في مطالبها هذه الى حشد السوفيت قوة كبيرة حديثة المعدات في الشرق الاقصى. اما الاسطول فيستند الى انتهاء المعاهدات البحرية في المحيط الهادىء وعدم التقيد بقيود بحرية جديدة في تأييد ما يطلبهُ من تعزيز الاسطول

اتجاه الجيش والاسطول

الجيش والاسطول متفقان على هذا. ولكنهما يختلفان من حيث الغرض المباشر الذي يجب ان تتجه اليه سياسة اليابان الآن. فالجيش يريد ان توجّه عناية خاصة الى شرق اسيا على

محاذاة اليابان اي الى شمال الصين . واما الاسطول وزعماؤه فيؤثرون ان تلتفت اليابان الى الجنوب . فهم يوجهون انظار الماليين من اليابانيين الى ان المناطق الاستوائية غنية بمواد الغذاء ، وبالخامات اللازمة للصناعة ، كالبترول والقطن والحديد والقصدير والقنّب وغيرها . وقد صرّح قائد الاسطول الياباني الاميرال سانكيتي تاكاهاشي امام جماعة من ارباب الصناعات في اوساكا بان « تقدم اليابان الاقتصادي يجب ان يتجه الى الجنوب على ان تكون قاعدة هذا التقدم اما جزيرة فورموسا واما الجزائر المشمولة بالانتداب الياباني. فعند ذلك تصبح جزائر غينيا الجديدة وبورنيو وارخبيل سليب في دائرة الاسطول الياباني»

ولاريب في ان البواعث الاقتصادية على التوسع الياباني في الجنوب اقوى منها على التوسع الياباني في شرق اسيا الشمالي . فنصيب اليابان من تجارة الهند البريطانية وجزائر الهند الشرقية الهولندية واستراليا وزيلندا والفيلبين وملايا وسيام قد زاد من ١٨٫٧ في المائة سنة ١٩٢٩ الى ٢٨٫٤ في المائة سنة ١٩٣٤ وذلك لان سكان معظم هذه البلدان فقراء في الغالب ويفضلون بضائع اليابان الرخيصة على غيرها . ثم ان المهاجرين اليابانيين يفضلون الاقاليم الدافئة على الاقاليم الباردة تشهد بذلك احصاءات المهاجرين الى شمال منشوكو والمهاجرين الى الجزائر الاستوائية المشمولة بالانتداب الياباني

ولكن التوسع على برّ اسيا اقل خطراً من التوسع في الجنوب ، من الناحية السياسية. فنشوكو حقيقة دولية ولو لم تعترف بها معظم الدول حتى الآن . وليس ثمة اي دليل ، على ان توسع اليابان في منغوليا ، يلقى مقاومة كبيرة ، ما زال هذا التوسع الى الشمال من نهر الاصفر. اما في الجانب الجنوبي من المحيط الهادىء ، فأي عمل يفضي الى الاعتداء العسكري يقابل ولا ريب بمقاومة عسكرية كبيرة من جانب الدول التي لها مصالح تجارية وسياسية هناك . نعم ان جزائر الهند الشرقية الهولندية لا تقوى على مقاومة اعتداء اليابان ، ولكن المجمع عليه بين الكتّاب السياسيين ، ان اعتداء اليابان على جاوى او بورنيو بمثابة اعتداء على الامبراطورية البريطانية

ولو أن اليابان عقدت ميثاق عدم اعتداء مع روسيا ، لاطلقت يداها في الجنوب . يقابل ذلك انها لو انها وقفت موقفاً مسالماً من انكلترا والولايات المتحدة الاميركية لاطلقت يداها في شرق اسيا الشمالي . ولكنها لم تفعل هذا ولا ذاك . والغالب ان الباعث الاكبر على اخفاق السياسة اليابانية في ذلك ، ان اختيار احد السبيلين يعني تفوق الجيش على الاسطول او الاسطول على الجيش ، وتغلب نفوذه على سياسة البلاد . ومع ان الجيش والاسطول في اليابان متفقان على مطالب معيّنة تهمهما جميعاً الاّ انهُ لا يسهل على زعماء احدهما على ان يسلّم لزعماء الآخر بالانفراد بالسيطرة على مقدّرات البلاد

الزواج المورغاني

أو غير المتكافيء

لامين الغريب

تحت الافرنج كلمة مخصوصة للزواج الذي يعقد بين شخصين غير متكافئين . كأن يكون الرجل نبيلاً عالي الاصل والمرأة حقيرة . فدعوه الزواج المورغاني . نسبةً الى مورغانا الحورية التي تنزلت في عهد الخرافة الوثنية الى الاقتران بواحد من بني البشر . وقد عرفنا لهذه الكلمة مرادفاً مشتقاً عند الاتراك في لقب «داماد» . فقد اعطوه لكل رجل عادي غير « ازرق الدم » يتيسر له أن يصاهر الاسرة السلطانية . اما العرب فلم نجد بعد في كتبهم كلمة تدل على هذا النوع من الزواج . ولا ندري أكان سبب هذا الاهمال عندهم ان ملوكهم لم يزوجوا بناتهم لمن كان دونهم . ام بلغت المساواة عند العرب حداً لم يدع فرقاً بين الاسر . وعلى كل حال احتقر الافرنج هذا الزواج المورغاني أو الدامادي حتى وصفوه بالزواج الاعسر. ودعوه « شبه زواج » او زواجاً «تحت الورد» وأبى جمهور الشعب احترامهُ حتى عومل في الامور العامة غالباً معاملة زواج غير شرعي مع ان الكنيسة المسيحية تباركه لانها وهي دولة روحية ، لا تفرق بين النفوس . ولا ترى للملك امامها اقل ميزة على الرعايا . فهي تعد الاولاد شرعيين لكل زواج تعقده . اما الاشراف انفسهم من الافرنج فلا يسمحون لهؤلاء الاولاد بان يحملوا اسم والدهم العائلي والقابه ، او يرثوا عرشه وثروته واملاكه ، اللهم الا ما تم اتفاق خطي عليه بين الاب والام عند عقد الزواج

ومعلوم ان نطاق الزواج بين الاشراف والنبلاء يضيق احياناً حتى يضطر بعضهم الى الاقتران بأقرب الانسباء . والدم المتغذي من نفسه لا يلبث أن يضعف ويضنى ويفقد خواصه الحيوية . فلم يجدوا بداً من التساهل في امر هذه الزيجات . وعند وقوعها غضوا الطرف عنها تسامحاً مع الطباع البشرية . لكنهم حرموها كل اعتراف رسمي . وجعلوا من يلجأ من الاشراف اليها يخسر في الحال حقوقه الشرعية في العرش أو ما يماثله من الميراث . ومنعوا الاولاد الناتجين منها من أن يتزوجوا بينهم ويعدوا منهم او مثلهم . وكل ذلك لاجل حفظ الدم — في رأيهم — نقياً طاهراً في الاسر النبيلة غير مختلط بقطرة واحدة مريبة

مثال ذلك ان النبيل الصحيح في نظر ابناء بوربون وهبسبرج كان من يستطيع ان يعد ستة عشر جداً من جدوده على الوجهين ، كلهم من ذوي الشرف الصميم . ولما سلم النمسويون بزف الارشيدوقة

ماري لويز الى نبوليون الاول كان ذلك منهم تنزلاً وتضحيةً بتلك الفتاة على هيكل المصلحة السياسية

في عام ١٩١٤ اطلق برنكيب السربي في سراجيفو الرصاص على الارشيدوق فرنز فردينان ولي عهد النمسا وزوجته . فقتلها واشعل الحرب العالمية التي التهمت في الدنيا كلها الاخضر واليابس ومع ان هذه الميتة المروعة ألبست جميع البشر ثوب الحداد في ما بعد ، لم يسمح النمسويون بدفن الارشيدوق القتيل بالحفاوة المعتادة لمثله ، لمحض ان زوجتهُ صوفيا المقتولة معهُ كانت شريكتهُ في الدفن . وهي لا تستحق في نظرهم المظاهر التكريمية التي خصّها القوانين والتقاليد بمن هم في مكانته . فضنوا بذلك عليه كيلا تنال امرأته عن طريقه شيئاً لا تستحقهُ

ولم تكن زوجة الارشيدوق حقيرة بحد ذاتها . لكنها لم تكن من مرتبة سموه الامبراطوري. وقد توصلت بذكائها وحكمتها الى رفع مكانتها في اعين النبلاء النمسويين حتى رقاها صاحب العرش فرنسيس يوسف من رتبة كونتة الى دوقة . وسمح لها بحضور حفلات البلاط الرسمية على ان تتخذ لها مقاماً في صف التشريفات ، بعد كل سيدات الاسرة الهبسبرجية . مع ان مقام زوجها ولي العهد ، لو هي كانت من ذوات الدم المتناهي في الزرقة لخوّلها ، بسبب موت الامبراطورة ، مركز ربة القصر بلا منازع . وكان زوجها عند اقترانه بها قد تخلى عن حقوقه في وراثة العرش. لكن لطافتها وحسن سلوكها ما لبثا ان أعادا اليه ذلك الحق ، على ان يُحرمهُ اولادها في ما بعد

كانت صوفيا هذه كونتة بوهيمية فقيرة من اسرة شوتك ، ولكن متعلمة اديبة تعمل مربية لثمانية اولاد في قصر الارشيدوق فريدريك . فأحبها فرنز فردينان الذي جعلهُ مصرع ابن عمه رودلف في ما يرلنج وارثاً للعرش . وكان قبل رؤيتها يكره الزواج ويرفض الدعوات المتوالية عليه من قصور الملوك لهذا الغرض . واقترن بها متنزلاً بمحض ارادته عن كل حق لهُ في العرش لكنها اجتهدت كثيراً في مراعاة الاصول المرتبة وانتهاز الفرص السانحة دون استعجال الحوادث ولا استبطاء الامور المرهونة باوقاتها . ولما استقبلها اخيراً الامبراطور غليوم الثاني الالماني زوجةً لولي عهد النمسا وصرف النظر عن كل الملحوظات المختصة بها ادرك الناس ان لها في الدوائر العليا معاونين كباراً يشدون ازرها . ويكفي ان بوهيميا باسرها وجدت بمحض الامل في ان تجلس فتاتها يوماً على العرش الامبراطوري عاملاً يستزيدها اخلاصاً لهذا العرش وتعلقاً به

ومن المعلوم ان الامبراطور فرنسيس يوسف لم يسترح طول عمره من تأثير الصدمة الهائلة التي اصابتهُ : مصرع ابنه رودلف الذي كان انسان عينه . فلم يجسر احدٌ على مقاربته في موضوع الخلافة بعد تصريحه مرةً بأن «موضوع الخلافة لا يُطرح للبحث الاّ بعد موتي . ومن عادة الذين لا يجدون مطمعاً في العيش ان يعيشوا طويلاً » . وقد صدق في حدسه فعاش طويلاً

جداً . ولعلهُ كان في قلبهِ يلوم نفسهُ على معارضتهِ لرودلف في هواه ويتمنى لو عاش هذا الولد كما يشاء مقترناً بمحبوبتهِ الوضيعة على ان يلقى هذه النهاية الرائعة ويضيف الى سلسلة بلايا الهبسبرجيين حلقة جديدة

كان رودلف قد اقترن دون محبة بالاميرة ستيفاني ابنة ليوبولد الثاني ملك بلجكا . ولم تستمل هذه العروس بمسلكها عواطف احد من سلالة هبسبرج . ولاسيما زوجها . فقد ضايقتهُ بغيرتها (الصحيحة الاساس) وزادتهُ نفوراً منها ، وابتعاداً عنها ، حتى تحول ميلهُ عنها أخيراً الى بغض شديد لها . وصار يأنف محض رؤيتها ويشمئز من سماع صوتها . فلما رأى الكونتة فتسيرا ابنة احدى الاسر المقبولة في البلاط النمسوي طار لبهُ وعميت عيناهُ الاَّ عنها ، وغرق في بحر حبها الى قمة رأسهِ . وفكر طويلاً في التخلص من امرأتهِ والاقتران بها . وفاوض أباهُ الشيخ في التخلي عن حقوقهِ في العرش . وطلب من قداسة البابا اذناً خاصًّا بالطلاق من ستيفاني فأبى عليهِ الحبر الاعظم ذلك طبعاً . كما وبخهُ أبوهُ على هذه الفكرة السقيمة توبيخاً صارماً . وبعد ذلك ذهبت الكونتة فتسيرا لزيارتهِ في مقر الصيد والقنص في مايرلنج . فلم يخرج احدٌ منهما حيًّا

ومع ان الامبراطور عرف حالاً وقائع الفاجعة التي ظلت طول عهده مكتومة عن العالم لم يتخذ قراراً بحق احد مكتفياً بابعاد الاشخاص المطلعين على تفاصيلها الى اماكن نائية حيث ضمن العرش لهم معاشاً جيداً لقاء الصمت الابدي التام . فلعلّ الامبراطور المفجوع بابنهِ أراد معاونة ولي العهد الجديد في أمرٍ أباهُ على وحيدهِ وثكيلهُ بسببهِ . وكان بالطبع يستغرب يد القضاءِ والقدر التي جعلت بعد هذه الفاجعة الوارث الجديد لعرش النمسا من الصنف الذي فقد نجله الوحيد بسببه

وبالطبع لم يَبُح فرنسيس يوسف لاحد بتحوُّل رأيهِ . لكنهُ على كل حال لان بعد الفاجعة . واذا ذكرنا انهُ كان على صوفيا شوتك ان تتغلب على مطامح ستّين ارشيدوقاً وارشيدوقة يتقدمونها مقاماً ، وعلى اصول تقتضي ارجاع ثلثمئة سنة من الجدود الى الوراء ، وعلى التنزل الرسمي العلني من زوجها عن كل حقوقهِ ، عرفنا اهمية المعمعة التي كان على هذه المرأة ان تخوضها . لكن برنكيب السربي وضع لكل هذه الامور حدًّا في صيف ١٩١٤

***

وفي عام ١٩٠٩ مات ليوبولد الثاني ملك بلجيكا جدّ الملك ليوبولد الثالث الحالي . فانكشف عند موتهِ سر زيجته المورغانية بالبارونة ديفوغان . هذه المرأة المتناهية في الذكاءِ كانت حقيرة الاصل ابنة بواب فقير . اقترنت اولاً بضابط صغير فلم تسعد بزواجها . وعاشت مدة طويلة عيشة غير مرتبة . ومع ذلك تمكنت بدهائها وسحر عينيها من التسلط اخيراً على قلب ليوبولد بعد ما اخشوشن وتصلب . وكان من ادهى رجال عصره في الادارة والسياسة والتجارة .

ولم تقف معهُ عند حد الحب والغرام . بل اجبرتهُ على الاقتران بها بحسب نواميس الكنيسة . فصار اولادها منهُ شرعيين . واستولت بالتالي على جانب كبير من ثروته الواسعة ، مع ان ليوبولد الثاني كان من اشهر المتلاعبين بقلوب النساء في عصره ، وقد انشأ بعض من اجمل النساء واذكاهن علاقات سرية به . وبالطبع طمحت كثيرات منهنَّ الى المقام الذي تفردت البارونة دي‌فوغان بالاستيلاء عليه

والزواج المورغاني يحفظه النبلاء غالباً سريًّا ، تفادياً من الاقاويل الملازمة لهُ والصعوبات الممكن تكديسها في سبيله . على ان هذا التكتم يثير دائماً في اذهان العامة ريباً واشتباهاً بما يخالف القوانين . مع انهُ في واقع الحال ليس خالياً من القداسة الكنسية كما رأيت . لكن الشعب لا يكتفي بذلك بل يتمشى في احترامه على التقاليد والعادات . ودونك دليلاً على ذلك:

عند ما اقترن الغرندوق بولس الروسي بالسيدة بستلكور اسرع القيصر نقولا الثاني الى طرده من روسيا . فعاش مدة طويلة في باريس منفيًّا من بلاده . مع ان نافيهُ المبجَّل نفسهُ كاد في صباه يعقد لنفسه مثل هذا الزواج . فقد ولع جلالتهُ قبل ان صار ذا جلالة براقصة بولندية واستولدها صبيين تعلما على نفقته في مدارس باريس ولم يسمح لهما بدخول روسيا . بينما والدتهما كانت حرة في الدخول والخروج . واخيراً شاد لها قصراً في بطرسبرج سنة ١٩٠٦ اما الكنيسة الارثوذكسية فلم تعترف بتاتاً بذينك الولدين . حال كونها اعترفت بزيجة الغرندوق بولس وعلى الرغم من ذلك ظل الغرندوق بولس مع زواجه المقدس مطروداً من الهيئة الاجتماعية بينما القيصر نقولا مع زواجه غير الشرعي بالراقصة البولندية ظل مبجلاً مطاعاً

ولا بدَّ ان القيصرة اليكس التي ولدت لنقولا الثاني اربع بنات قبلما اتحفتهُ بولد قضت اعواماً طوالاً تتحسر على كون زوجها قد ولد صبيين من سواها وهي لا تلد غير البنات

وقد انتبه القارئ طبعاً الى أن ما حدانا الى طرق موضوع الزواج المورغاني هو طلب ادوارد الثامن ملك انكلترا أن يعقد لهُ زواج كهذا على السيدة واليس ورفيلد مطلقة ارنست سمبسون وزوج آخر قبلهُ . وأن المستر بلدوين رئيس الوزارة قال في مجلس الامة لمؤيدي رأي الملك ان مثل هذا الزواج غير ميسور في القانون البريطاني

وهو ادرى طبعاً بما يوجد ولا يوجد في دائرة القانون . اما نحن فنعلم ان الملك جورج الرابع ، عم الملكة فكتوريا الشهيرة ، وكان يدعى « اول سيد في اوربا » The First Gentleman in Europe اقترن بالسيدة فتز هربرت ، وطلقها واقترن قبل ارتقائه الى العرش بالاميرة كارولين اوف برنسويك . ويؤثر عنها انها هي ايضاً لم تطق معاشرتهُ فعادت الى منزلها في فرنسا ولم تعد الاَّ عند ما لاح لها بارق امل بان تصير ملكة . لكن زوجها كان يمقتها . وقد

حاول تطليقها عبثاً . ولما اقبلت يوم حفلة التتويج الى وستمنستر لتشترك واياهُ في الجلوس على العرش أقفل الباب في وجهها ولم يسمح لها بالدخول. والملك جورج الاول اقترن بالدوقة اوف كندل وهي ذات دمٍ غير ملكي . والملك وليم الثالث اقترن بالكونتة اوغسطا فون هوروك الالمانية

ثم ان جد الملكة ماري الوالدة الحالية البرنس تك ابن ملك ڤرتمبرج اقترن بكونتة هنغارية قراناً ظل عدة اعوام غير معترف بهِ . ثم قبلت بعد ذلك وجعلت دوقة تك وصار ابنها دوقاً واقترن بالاميرة ماري ادلائيد وابنتهما الاميرة ماري هي الملكة الوالدة في انكلترا اليوم

ومما يستحق الذكر في هذا المجال ان الاميرة فكتوريا ابنة شقيق الملك ادوارد السابع احبت السير الكسندر رمزي شقيق ارل دلهوزي الحالي . ولم يكن على الاطلاق كفأً لها . فتخلت عن ألقابها ومقامها واقترنت بهِ ، رافضة يد الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا الذي عاد فاقترن بابنة عمها الاميرة فكتوريا اينا

ثم ان جورج الخامس ملك انكلترا والد الملك الحالي كاد يقعهُ في اوائل صباه حادث يقرب من الزيجات المورغانية . والمصدر الذي نستقي معلوماتنا منهُ لا يفصلها بصراحة بل يكتفي بالاشارة الى ان جدتهُ الملكة فكتوريا كانت وقتئذٍ في قيد الحياة . وللقلوب المتحدرة منها وثاقٌ كان شديداً جدًّا في عهدها . فاستدعتهُ ولم تشدّد عليهِ النكير كما فعل فرنسيس يوسف النمسوي بوحيده . بل ذكرتهُ بلهجة حازمة بسمو مقامه والواجبات التي عليهِ لشخصيتهِ المحترمة اولاً في عيون الناس . ولاولئك الناس ثانياً . ولاجداده العظام وللتاريخ الانكليزي ثالثاً . وارتهُ السهولة في ان يختار لنفسهِ رفيقة حرية بان تجلس يوماً على عرش بريطانيا العظمى . وهكذا ثاب الى الفتى اليافع رشاده ، وسدَّ المنفذ المفتوح في قلبهِ للهيب الباكر المتقد حوله

وكان ايتل فريدريك ثاني ابناء الامبراطور الالماني غليوم الثاني ناوياً ان يقترن باحدى راقصات برلين لولم يتدارك الامر والده ويرسلهُ الى فرقة عسكرية مخيمة في زوبوت على شاطىء البلطيك . فمكث هناك ستة اشهر . ثم ابرق الى والده قائلاً انهُ يتوب عن حب الراقصات جميعاً. ويقترن باية اميرة يختارها جلالتهُ لهُ . وبعد اربعة اسابيع احتفل باكليلهِ سنة ١٩٠٦ على صوفيا شرلوت غرندوقة اولدنبرج . لكنهُ لم يكد يكمل شهر العسل حتى هبت في قرارة قلبهِ عادته الكامنة في البدن ، واحيا ليلة ساهرة لبعض الراقصات لم تحضرها الغرندوقة طبعاً لانها كانت في الطريق عائدة الى بيت ابيها

فاستدعاه غليوم اليهِ سرًّا ، ويقال انهُ ضربهُ ضرباً مبرحاً جعلهُ يهرب من امام ابيه احمر الوجه متهيجاً . وعلى كل اصلح الامبراطور بين الزوجين فتصالحا وعاشا كما يمكن الى ان نشبت الحرب العالمية فانتظم الامير مع اخوتهِ في صفوف الجيش وعملت صوفيا في الصليب الاحمر .

وبعد الحرب تغيرت الاحوال والمراكز فلم يكترث احدهما للآخر وتبادلا تهمة الخيانة الزوجية وانتهى بهما الامر الى الطلاق في ديسمبر ١٩٢٦ وكانت صوفيا هذه اشد الناس ابتهاجاً بسقوط حكم هوهنزولرن لانهُ جعل طلاقها ممكناً من دون اذن الامبراطور. لان غليوم الثاني كان صارماً جدًّا في هذه الامور، صرامةً لان فيهِ بعد سقوطه عن العرش الى حد انهُ أجاز لنفسهِ الزواج بعد قليل من وفاة الامبراطورة التي كان يحبها حبًّا جمًّا

ومن حوادث هذا النوع في المانيا ان الأمير يواكيم البرت البروسي ابن حاكم برنسويك أحبَّ الممثلة صلزر. فدرى أبوهُ بعزمهِ على الاقتران بها. فسجل في وصيتهِ الاخيرة مادة تشرط عليهِ في حالة زواجه بفتاة غير نبيلة ان يتخلى عن قسطهِ من ميراثهِ الكبير. فلكي يبطل الامير يواكيم فعل هذه الوصية أخذ الفتاة الى لندن حيث استأجر نبيلاً نمسويًّا فقيراً يدعى البارون فكتور فون لينبرج فعقد لهُ عليها لقاءَ مبلغ معين من المال. وبعد الاكليل على الاثر افترق العروسان كلٌّ في سبيلهِ فعادت الصبية الى المانيا تطلب من محاكمها الطلاق من زوجها الشرعي النبيل النمسوي بحجة هجره اياها واهماله أمرها. لكن الامبراطور غليوم الثاني درى بالأمر. وكان رضاه بمقتضى قانون أسرة هوهنزولرن الخاص ضروريًّا لجعل الزواج بين أفرادها شرعيًّا — حتى ان كان الاكليل كنسيًّا فرفضَ ذي الجلالة يجرحه ويلغيهِ — فأصدر الامبراطور أمره قُبل اصدار المحكمة حكمها بالطلاق، بنفي البارونة النمسوية فون لينبرج من المانيا بحجة انها أجنبية غير مرغوب فيها. وأرسل في الوقت عينه الامير يواكيم الى احدى المستعمرات الالمانية القصية في افريقيا في مهمة عسكرية

فمضى الامير مكرهاً لكنهُ بعد اثني عشر شهراً من مكاتبات سرية بينهُ وبين حبيبتهِ التي يسمو رضاها في عينهِ على رضى كل الامباطرة ومن جرى مجراهم، فرَّ من مقرّهِ من دون إذن ولحق بها في أوربا. فلم يسع الامبراطور عند ذلك الاَّ طرده من الجيش الالماني ومن المانيا جمعاء مشيراً الى سفرائهِ بالايعاز الى الحكومات الأجنبية كي تمنع منهُ التكريم المعتاد للذين في منزلتهِ ولم يكن هذا الأمر مهمًّا لديهِ، فقد تخلص من حرمان أبيهِ من الميراث العظيم. ونال قسطهُ الوافر من المال المتروك. وعاش مع زوجتهِ المحبوبة خارج المانيا بترف وسعادة، الى ان خلع الشعب عن العرش الالماني ذلك الامبراطور المتحكم في حظهِ. فصار حرًّا مع زوجتهِ التي لا تحمل لقب اميرة بحسب اصول النبلاء المشروعة والمسجلة في تقويم غوتا

ولا شك ان الناس قد رحبت صدورهم اليوم عن ذي قبل واصبحوا لا يشاركون الاسر النبيلة في كل آرائها في الزيجات المورغانية، وادركوا مع الشاعر العربي

ان الفتى من يقول هاءنذا ليس الفتى من يقول كان ابي

قوى الدفاع الاوربية

أقسامها وقواتها وطرق تنظيمها

—٢—

فرنسا

يحق لفرنسا ان تفخر بين الدول الاوربية بأقوى جيش بري في اوربا الغربية وأعظم قوة جوية واكبر مجموعة من الدبابات والمدافع وبأنها شيدت أقوى الاستحكامات على حدودها الشرقية وبنمو صناعة المؤونة والذخيرة عندها وبأنها تحتفظ بقدر كبير جداً من الذهب الاحتياطي وبمعاهدات ومواثيق ومحالفات تربطها بدول صديقة كروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ورومانيا وبريطانيا العظمى

ان الجيش الفرنسي في مقدمة الجيوش الاوربية عدداً وسلاحاً . ومنذ نشرت مجلة « ريفو دي دوموند » مقالها الخطير الذي كتبهُ الماريشال بيتان عملت الحكومة الفرنسية بآرائهِ التي دوّنها في هذا المقال . وكان الماريشال قد دعا فيهِ الى مد أجل خدمة مجندي سنة ١٩٣٥ لان مجندي سنة ١٩٣٦ سيكونون اقل من المطلوب لنقص المواليد في فرنسا اثناء سنة ١٩١٥ وهو النقص الناشيء عن الحرب الكبرى . ويعتقد الماريشال بيتان « ان مجندي سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ و١٩٣٩ سيكونون أقل من المطلوب كذلك لان نقص المواليد في فرنسا استمر حتى نهاية الحرب العظمى . وكان من آرائهِ التي صرح بها ايضاً في مقالتهِ « ان هناك سبيلاً واحداً الى منع الحرب وهو ان نكون أقوياء . وقانون جعل الخدمة العسكرية سنتين هو الاجراء الوحيد الذي يستطيع أن يطمئن الفرنسويين وحلفاءهم ويضعف أماني الخصم ويعزز السلام الاوربي تعزيزاً عظيماً »

وفي منتصف شهر نوفمبر ١٩٣٦ نشرت المجلة المذكورة مقالاً للجنرال « ڤيجان » القائد العام للجيش الفرنسي سابقاً حذّر فيهِ فرنسا من جيش المانيا الذي اصبح الآن من القوة بحيث يستطيع القيام بهجوم فجائي يعقبهُ بحرب طاحنة . ثم قال ان الجيش الفرنسي يجب ان يكون متأهباً لمواجهة تهديدين متوالين ذلك ان فرنسا لا تستطيع حشد قواتها على الحدود لان هذا يشل حركة التعبئة الداخلية كما أنها لا تستطيع تحويل الخدمة الاجبارية الى خدمة تطوعية في الجيش

ورأى الجنرال « ديجاز » ان حل هذا الموقف يتم بالطرق الآتية :

اولاً : ان تكون جنود الحصون والقلاع مستعدة في كل وقت لتعبئة أقصى قوة لحماية الاستحكامات المشيدة

ثانياً : ابقاء وحدات متحركة كبيرة وان تكون ميكانيكية في المناطق الواقعة على الحدود

ثالثاً : ايجاد قوة متحركة من الجنود مكونة من وحدات كبيرة يمكن جمعها متأهبة للعمل في أسرع وقت

ولكي يمكن الوصول الى انشاء هذا النظام يقتضي ان يزاد عدد المجندين من ١٢٠ ألفاً الى ٢٠٠ الف وأن يخفض سن الاقتراع الى حد يسمح بزيادة خمسين الف جندي وتعديل مدة الخدمة حتى يتيسر تحسين التدريب العسكري

هذا هو رأي آخر لاحد قادة فرنسا المبرزين. ولا ندري الى اي حد انتفع بهاتين المشورتين الفنيتين من الناحية الفرنسية الوطنية لمقاومة الخطر

ومع ذلك فان فرنسا لا بد ان تكون مطمئنة ودليل ذلك ماصرح به المسيو دالاديه وزير الدفاع لما وقف يوم ٤ نوفمبر ١٩٣٦ أمام اللجنة الحربية في مجلس النواب يشرح مكانة فرنسا الحربية قائلاً أنهُ يدعو الى الاطمئنان وان موقف المانيا ومقامها الحربيين لا يدعوان الى ارتياح المانيا نفسها وصرَّح بأنها لن تتمكَّن قبل مرور عام من اتمام مشروعات التجنيد . ومع ذلك ففي نيته تجنيد الشباب الفرنسي في سن الثامنة عشرة كما ينوي في الوقت نفسه انشاء معهد للأبحاث العلمية للدفاع عن فرنسا ولم يستطع ان يخفي تقدُّم ادخال الوسائل الميكانيكية الحديثة في الجيش الألماني والتطوُّر السريع في انشاء الطرق والسكك الحديدية في منطقة حوض الرين وهذا مما يشجع الألمان على القيام بمفاجأة سريعة . وعقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تنفق على زيادة وسائل الدفاع البري والجوي والبحري في السنوات الأربع المقبلة مبلغاً يقدر بـ ١٨٢،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

وفي الوقت نفسه نرى المستر لويد جورج السياسي الانجليزي قد ألقى خطاباً سياسيًّا خطيراً قال فيه ان فرنسا أقوى الدول الأوربية في العالم اليوم وانها تنعم بجيش مدرب بلغ عدده خمسة ملايين جندي وان المانيا لا يمكن ان تبلغ مبلغ فرنسا من حيث التدريب العسكري الا بعد سنوات لأن الجندي لا يكون جنديًّا بكل معنى الكلمة الاّ بعد تدريب متقن وعناية كبيرة

ولا ندري صحة هذا الرأي فقد قال بعضهم ان لويد جورج يحاول تسويغ موقف المانيا من سياسة التسليح باظهار فرنسا بمظهر الدولة القوية الخطرة !

والجمهورية الفرنسية لها أملاك واسعة تحتفظ فيها بقوات عديدة من جميع الاسلحة فان لها في الجزائر ومراكش وتونس وافريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية ومدغشقر والصومال الفرنسي وريئيون والهند الفرنسية وخالدونيا الجديدة والهند الصينية وغيانا وغيرها من جزر المحيط الهادي . وكذلك لها في بلدان الانتداب سوريا ولبنان وكامرون قوات مؤلفة من جميع الأسلحة

وتبلغ مساحة فرنسا ٥٥١٦٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٤٢ مليون نسمة وجيشها يبلغ عدده في وقت السلم ٦٤٢٦٨٧٥ من هؤلاء ٢١٣٦٠٠٠ من جنود المستعمرات . ومن السهل عليها ان تعبىء في وقت الحرب ما لا يقل عن أربعة ملايين جندي

والخدمة العسكرية اجبارية في فرنسا . وهي مقسمة الى ١٨ منطقة عسكرية على رأس كل منطقة ضابط برتبة جنرال يتولى قيادة القوات العسكرية للجيش والقوات الاقليمية وهو مسئول عن الاقتراع والتدريب العسكري والتعبئة في منطقته بمساعدة هيئة قيادته ومكاتب تجنيد منطقته ومراكز التعبئة فيها . أما قوات المستعمرات فتتبع كلٌّ منها نظامها الخاص بها . وتتألف العناصر العسكرية العليا للقيادة والادارة الخاصتين بالجيش من الهيئات الآتية :

١ — المجلس الحربي الأعلى ويتألف من وزير الدفاع والحرب رئيساً لهُ ورئيس هيئة اركان الحرب العامة وكيلاً ومارشالات فرنسا وعدد من قواد الفرق الذين في الاستيداع لا يزيد عددهم على الاثني عشر وهؤلاء الاعضاء ينتخبون بقرار رسمي في أول كل عام

٢ — هيئة القيادة العليا برآسة رئيس هيئة اركان الحرب

٣ — هيئة التفتيش العام الدائمة لجميع الأسلحة كالسواري والمشاة والمدفعية والنقل والمهندسين وقوات المستعمرات

٤ — هيئة اركان حرب الجيش برآسة وكيل المجلس الحربي الأعلى

٥ — وزارة الدفاع الوطني والحرب

٦ — ادارة الجغرافيا العسكرية

٧ — عدة لجان ومجالس للبحث في أعمال السكك الحديدية العسكرية والمفرقعات وصناعة الذخائر . . وما أشبه. والتعليم العسكري ليس مركزاً في باريس وحدها بل هو موزع كالجيش في جميع انحاء فرنسا وان كانت أهم معاهده في باريس مانذكره كالآتي :

مدرسة الدراسات العسكرية (Ecole militaire) . المدرسة الحربية العليا .المدرسة الحربية الخاصة بسان سير . مدرسة الفنون العسكرية . مدرسة المهندسين المتقدمين في ڤرساي . مدرسة الادارة الحربية في ڤنسان ومركز تدريب السيارات في فونتنبلو . مدرسة الرياضة البدنية في جوانڤيل .مدرسةالطب العسكري .مدرسة المدفعية في فونتنبلو . مدرسة الدبابات . والمدرسة العليا لصناعة الأسلحة في بوتو . مدرسة المواصلات والاشارة في ڤرساي

وبجانب هذه المعاهد الحربية فهناك في روان وتتر وتور وليون ومارسيليا ونانس والجزائر عدة مدارس فنية أخرى تمد الجيش بالضباط الفنيين وكذلك بعدد ضخم من ضباط الصف

ويمكن تلخيص عدد القوات العسكرية الفرنسية في البيان الآتي

المشاة وتتألف من ١٣٨ آلاياً و٣٨ أورطة مستقلة

الدبابات وتتألف من ١٢ آلاياً و ٥ أورط مستقلة و ٤ بلوكات مستقلة وصنف

الخيالة وتشتمل على ٦٥ آلاياً و ٨ مجموعات مستقلة و ٥ أورط مستقلة و ١٢ بلوكاً

والمدفعية وتشتمل على ٧٩ آلاياً و ٥ مجموعات مستقلة و ١١ أورطة مستقلة وتسعة بلوكات وبطاريات. أما المهندسون فيكونون ١٢ آلاياً وأربع أورط مستقلة

وقوة الطيران الفرنسية من أقوى قوات الدفاع الجوية في أوربا إن لم تكن الدولة الثانية بعد روسيا فعدد الطائرات العسكرية البرية والبحرية في فرنسا ومستعمراتها لا يقل عن ٥٤٠٠ طائرة قتال وتدريب من عدة طرازات وتبلغ قوتها أربعين الف جندي وضابط. وهذه القوة العددية لا تشملها الزيادة الجديدة التي قررتها وزارة الطيران الفرنسية منذ شهرين بمعدل خمسين في المائة وبذلك يصل عدد الطائرات الحربية الى نحو عشرة آلاف طائرة وتحتاج هذه الزيادة الى الف ضابط جديد ولقد أقر مجلس الوزراء الفرنسي تلك الزيادة وصدق على الاعتماد اللازم لها ومقداره خمسون مليوناً من الجنيهات

روسيا

وهذه حليفتها روسيا نشرت فيها حركة التجنيد والتدريب العسكري من بحر البلطيق الى المحيط الهادي بنشاط مدهش ونظام دقيق. ومنذ أسبوعين سمح ستالين للجنرال كليمنت فوروشيلوف قائد الجيش الأحمر باستخدام كل ما يلزم من الوسائل لانشاء أعظم آلة حربية عرفها التاريخ الى اليوم. وصرح الاميرال « أورلوف » في بيان له انه في خلال ثلاث سنوات سيكون لها ٧١٥ غواصة و ٣٠٠ سفينة حربية و١٧٥ سفينة حربية للسواحل و ٥١٠ طائرات للاسطول ومائة بطارية ضد الطائرات ومائة قاعدة بحرية وقد زادت ميزانية أعمال الدفاع الى ١٤٫٨١٥ مليون روبل ذهب

فنرى ان روسيا تستعد استعداداً مدهشاً للحرب المقبلة ويسيطر النفوذ العسكري على جميع المصانع والمعاهد الاقتصادية والمعامل الفنية بحيث تجعلها خاضعة لمصلحة البلاد الحربية في اي وقت. وقد فصل أخيراً مراسل جريدة « الديلي اكسبريس » في وارسوفيا مشروعاً حربيًّا واسع النطاق لأعداد الجيش البري والبحري والجوي في روسيا بغية ان يصبح أعظم آلة حربية كما قلنا. وقد ذكر المراسل ان أساس المشروع خمسة أمور جوهرية

اولاً : بناء سلسلة من الحصون طولها الف ميل على محاذاة حدود روسيا البولشفية من الشرق والغرب على مثال خط ماجينو الفرنسي

ثانياً : مضاعفة عدد قوة الجيش الحاضرة في سنتين حتى يصير ثلاثة ملايين رجل

ثالثاً : زيادة سلاح الجو حتى يصير ثلاثة اضعاف ما هو عليه الآن

رابعاً : انشاء ادارة حربية جديدة تحت اشراف فورشيلوف قومسير اعمال الدفاع

خامساً : نقل مصانع السلاح والذخيرة من اماكن تستهدف فيها الآن لغارات الاعداء الى مقاطعات في داخلية البلاد

ويجب أن لا ننسى ان روسيا تستطيع تعبئة ١٧ مليون جندي في وقت الحرب

ان الجندية في روسيا البولشفية شرف عظيم لا يناله الا الحائزون على قسط من التعليم والذين يبرهنون على صدق وطنيتهم واخلاصهم للنظام السوفيتي . وينص دستور الشعب على ان العمال والفلاحين فقط هم الذين لهم الحق في الدفاع عن اتحاد السوفيت بحمل السلاح اما ابناء الملاك السابقين وشباب الطبقات الثرية من الفلاحين فيعفون من الخدمة العسكرية الاجبارية لان الخدمة العسكرية والدفاع عن اتحاد السوفيت شرف لا يناله ولا يسمو اليه هؤلاء . ولكن اذا نشبت الحرب دعي هؤلاء اي ابناء الملاك والفلاحين الاغنياء الى الصفوف للقيام بالاعمال الثانوية وراء ميادين القتال . والجيش الاحمر ليس بسلاح دفاع فقط بل ان التدريب العسكري الذي يناله رجالهُ ليس هو الناحية الرئيسية فيه مع ما لها من الشأن . ذلك لان الجيش اصبح في نظرهم مدرسة واسعة النطاق تمكنهم من غرس المبادىء الشيوعية في اعماق النفوس وتربية الجيش الاحمر ترتكز على ثلاث نواحٍ هي :

١ — الناحية الحربية بتدريب الجنود على القواعد العسكرية وفهمها وتنفيذها

٢ — الناحية الثقافية بتعليم الاميين قواعد الكتابة والقراءة وتوسيع معارف المتعلمين منهم

٣ — الناحية السياسية بتعليمهم أساليب الحزب الشيوعي وقواعد خططه السياسية والاجتماعية ليكونوا عند عودتهم دعاة لها في المزارع والمصانع والقرى

وروسيا أكبر دول العالم مساحة فهي تبلغ ٢١٫١٧٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها لا يقل عن ١٧٠ مليون نسمة وتحاذي حدودها حدود دول البلطيق وبولنده ورومانيا وتركيا وايران وأفغانستان والصين ومنشوكو ويبلغ عدد الجيش البولشفيكي ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جندي بخلاف القوات الاقليمية ويشرف على الاعداد العسكري في الجمهورية قوميسيرية الدفاع عن الشعب وتتألف من أثنى عشر مصلحة وادارة حربية أهمها هيئة اركان الحرب العامة والقوات الروسية موزعة على احدى عشر منطقة عسكرية

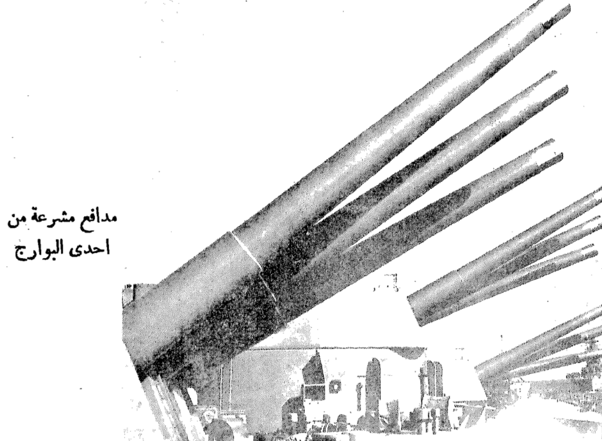
وتشتمل كل منطقة عسكرية من المناطق المذكورة على العناصر الرئيسية الآتية :

هيئة اركان الحرب للمنطقة — الادارة السياسية — قيادة القوات الجوية — ضباط قيادة الاسلحة المختلفة — قائد خدمة التعيينات — قيادة القسم الطبي — قيادة الطب البيطري

وأهم المدارس العسكرية في روسيا هي :



جندي يقيس المسافة بآلة
دقيقة قبل اطلاق المدفع



مدافع مشرعة من
احدى البوارج

١٥ مدرسة للمشاة مدة الدراسة فيها ثلاثة اعوام ونصف

٤ مدارس للخيالة ومدة الدراسة فيها كالمشاة

٤ مدارس للمدفعية ومدة الدراسة فيها اربع سنوات ونصف

مدرستان للمهندسين ومدرستان للاشارة ومدرسة الاسلحة الفنية والمواصلات والطبوغرافيا العسكرية وفرقة الوحدات المدرعة ومدة الدراسة في جميع هذه المدارس اربع سنوات ونصف سنة وهناك ايضاً ١٣ اكاديمية عسكرية للضباط العظام عدد طلبتها ١٦٫٠٠٠ طالب ومدة الدراسة فيها خمسة اعوام وتشتمل بعض الجامعات على كليات للدراسة الحربية كالحقوق والآداب . وعدد هذه الكليات كان ست كليات في عام ١٩٣٦

وبجانب المدارس الخاصة بالجيش مؤسسات أخرى تشرف عليها قوميسيرية الحرب وتقوم بالتدريب العسكري الاجباري للذكور والاناث وتعرف هذه المؤسسة باسم (Osoaviachim) رؤساؤها من الضباط العظام في الجيش الاحمر وهذه المؤسسة تقوم بالآتي :

١ — ترقية المعارف العسكرية بين طبقات العمال الذين أتموا الخدمة العسكرية في الجيش العامل ووحدات المقاطعات

٢ — التدريب العسكري والسياسي للشبان الذين يرغبون في الانتظام في الجيش قبل حلول ميعاد خدمتهم العسكرية والشبان الصالحين للخدمة العسكرية الذين لم يجنّدوا لسبب من الأسباب

٣ — تحسين المعارف العسكرية لتلاميذ المدرسة الحربية

٤ — التدريب العسكري الابتدائي والتمرين الرياضي في المدارس حيث التعليم العسكري غير اجباري

٥ — تعليم الفتيات العاملات المبادىء العسكرية والاعمال الحربية في مؤخرة وحدات الجيش وفي المقدمة

٦ — تدريب قوات الاحتياط السنوي

ولما كانت الحروب الغازية ذات شأن عظيم فقد عهد الى مدرسة الكيمياء العليا في موسكو في تدريب الكيمياويين الحربيين من الوجهة الفنية وقسمت البلاد الى قيادات عسكرية للغازات وقد كان تدريب الجيش الاحمر في استعمال الأسلحة الغازية والوقاية منها يتمّ في مدارس حربية خاصة فتغير هذا النظام أخيراً واستبدل تدريب الجنود في ميادين خاصة على بتمرينات عملية موافقة لعقلية الجنود . والنقطة الجوهرية في الأمر هي ان التمرينات تتمّ بواسطة غازات سامة حقيقية كاطلاق غاز الكلوريد وغاز أدمسيت الأميركي وتسميم بقاع شاسعة « بغاز الخردل »

أما العناية بالدفاع ضد الغازات فقد وضع في أعلى مكان من الاستعداد الحربي ولم يقصر هذا

الدفاع على الدوائر الحربية بل مدَّ الى السكان فوزعت عليهم جهازات واقية من شر الهجمات الغازية وقد قال ڤورشيلوف « لقد توصل علماؤنا الى ايجاد قناع واقٍ من الغازات بلغ حد الكمال وتقرير استعماله في الجيش وسنحتاج الى عدد هائل من هذه القناعات اذ ليس علينا ان نمدَّ بها كل جندي فقط بل وكل عامل وكل فرد من السكان في المناطق الواقعة وراء خط القتال »

ولقد أدخل الروس أسلوباً جديداً في القتال شاهدهُ الملحقون العسكريون للدول اثناء مناورات فريق من الجيش البولشفيكي في اوكرانيا منذ شهرين تقريباً وهو انزال الجنود بأسلحتهم الكاملة بواسطة المظلات الواقية وقد تمكنوا بهذه الوسيلة من إنزال جنود أورطة كاملة بعدادتهم وراء خطوط المدافعين . وليس من شك في أن إدخال هذا النوع من أساليب القتال سيكون لهُ أثر واضح في الحروب المقبلة التي ستشاهدها القارة الاوربية

والطيران الروسي في طليعة القوات الجوية التي يعمل لها حساب كبير . فروسيا تملك خمسة آلاف طائرة وعدد رجالها لا يقل عن خمسين الفاً خلا قوات الجو الاحتياطية

بريطانيا العظمى

قد تكون انجلترا بين الدول الاوربية القليلة التي ما زالت الى اليوم تتبع التجنيد الاختياري في خدمة الجيش والبحرية والطيران . ولذلك يعاني الجيش الانجليزي اليوم مشكلة ينفرد بها بين قوات الدفاع الاوربية وهي مشكلة التجنيد. وقد اهتمَّ القوم ببحث هذه المسألة بحثاً جديًّا بين جدران وزارة الحربية وعلى صفحات الجرائد . واقترحت حلول كثيرة كان منها زيادة المرتبات للجنود وتعديل الزي العسكري وتحسين الحالة في الثكنات وتعليم الجنود بعض الحرف اثناء الخدمة العسكرية ووعدهم بتشغيلهم في صناعاتهم بعد انتهاء خدمتهم العاملة

ان مدة الخدمة العسكرية في الجيش النظامي اثنتا عشرة سنة منها مدة تتراوح بين الثلاثة والتسعة أعوام في الخدمة الفعلية بحسب نوع السلاح (مشاة او خيالة او مدفعية) وقد بلغ الجيش الانجليزي هذا العام العدد الآتي

١٤٧٬٠٣٠ من هؤلاء ١٤٤٬٣٨٣ جنود بريطانيون و٢٦٤٧ جنود المستعمرات والوطنيين وكان في الهند ٥٧٬٥٢٤ . وعلى هذا الاعتبار فان عدد الجيش الانجليزي النظامي هو

٢٠٤٬٥٥٤ ضابطاً وجنديًّا وهو يشتمل على خمس فرق ولواء مشاة ولواء دبابات ولوائين خيالة . وجيش التريتوريال (القوات الاقليمية) وهي اشبه بقوات المليشيا ويتلقى أفراده التدريب العسكري لمدد محدودة في السنة في معسكرات خاصة وعدده ١٨٤٬٢٦٥ وهو يشتمل على ١٤ فرقة مشاة ولوائين خيالة وجيش الاحتياط ويتألف من الجنود الذين انتهت مدة خدمتهم الفعلية

ويستدعون لحمل السلاح عند الحاجة وعددهم ١٢١٬٢٠٠

وجيش الاحتياط الملحق او المكمّل Supplementary وعدده ٢٥٬٢٩٧

وفي البيان التالي مجمل قوات الجيش الانجليزي :

الجيش الانجليزي النظامي	١٤٤٬٣٨٣	القوات الأقليمية	١٨٤٬٢٦٥
قوات الوطنيين في المستعمرات	٢٬٦٤٧	جيش الهند	٥٧٬٥٢٤
الاحتياط	١٢١٬٢٠٠	هيئة اركان الحرب	٩٦٥
الاحتياط الملحق	٢٥،٢٩٨	المجموع	٥٣٧٬٣٩٢
المليشيا	١٬١٠٠		

وكان عدده في العام الماضي ٥١٨٬١٧٤ أي ان الجيش الانجليزي زاد خلال العام ٢٠٬٠٠٠ تقريباً . وقد زادت الاعتمادات الخاصة بالجيش الانجليزي خلال عام ١٩٣٦ مبلغ ٤٬١٧٦٬٠٠٠ جنيه وهذا المبلغ لا يشتمل على ١٬٥٥٠٬٠٠٠ جنيه اقتضتها طوارىء النزاع الايطالي الحبشي فيكون مجموع الاعتمادات لميزانية الجيش الانجليزي قد وصلت اثناء العام المذكور الى ٤٩٬٢٨١٬٠٠٠ مقابل ٤٣٬٥٥٠٬٠٠٠ جنيه في العام السابق

وخلال العامين ١٩٣٧و١٩٣٨ ستتحول معظم وحدات الجيش الانجليزي الى قوات ميكانيكية وقد تمت منشآت قضت بها ضرورة الدفاع عن الامبراطورية في مصر والصين ومالطه وقبرص علاوة على ماسينى خلال الأعوام بعد عقد المعاهدة المصرية الانجليزية . وقد اعتمد مبلغ نصف مليون جنيه للاعمال التمهيدية في قاعدة سنغافورة التي ينتظر ان تكون أهم القواعد البحرية في الامبراطورية البريطانية وستزاد حاميتها ايضاً كما ستزداد في الصين وسيلان والسودان وفلسطين ومالطه وأعمال الدفاع في الجزر البريطانية في نشاط عجيب وأهمها في وولتش وشستر وتقام ثكنات جديدة في بيرهام وادنبرة ووارمنستر . وأعمال الدفاع الجوي في ليشفيلد ووارلي

ويشرف على جميع أعمال الدفاع في الامبراطورية البريطانية مجلس دائم للدفاع الامبراطوري وهو ذو صبغة استشارية محضة ويرأس جلساته رئيس مجلس الوزراء ومن يدعوهم من الوزراء والمستشارين الاخصائيين في المسائل التي سيجري البحث فيها وأهم الذين يدعون لهذا المجلس رئيس مجلس النواب ووزراء المالية والخارجية والمستعمرات وحكومات التاج والهند وأميرال البحرية ووزير الحربية والطيران ورئيس هيئة اركان حرب البحرية ورئيس هيئة اركان حرب الجيش والطيران والسكرتير الدائم لوزارة الخارجية

كما ان هناك ايضاً مجلساً للجيش يرأس أعماله وزير الحربية

والجيش الانجليزي موزع في انحاء بريطانيا وشمال ايرلنده ويبلغ عدد المناطق العسكرية فيها

ستًّا والمستعمرات البريطانية والدول المشمولة بالانتداب الانجليزي ومصر وفي البيان التالي توزيع القوات الانجليزية في العالم : —

جبل طارق	٢٫٦٦٩	عدن	٢١٦
مالطة	٣٫٤٧٩	جزر مورشوس	١١٩
برموده	٤٠٩	سيلان	٣٦٩
جمايكا	٦٦٩	الملايا	٤٫٣٨٦
قبرص	١٩٣	الصين	٧٫٦٢٤
فلسطين	١٫٩٧٠	الهند	٥٧٫٥٢٤
مصر	٩٫٥٩٦	الجزر البريطانية	١١٣٫٤٦٦
السودان	١٫٨٦٥	المجموع	٢٠٤٫٥٥٤

أما التعليم العسكري في بريطانيا العظمى فيقوم على المعاهد الآتية :

١ — اكادمية ساند هرست الملكية لتخريج ضباط المشاة والخيالة ومدة التعليم سنتان

٢ — اكادمية ووليتش الملكية لتخريج ضباط المدفعية والمهندسين

٣ — كلية اركان الحرب في كمبرلي وزميلتها في كويتا بالهند ومدة الدراسة عامان وعدد طلبتها لا يتجاوز المائتين والغرض منها تعليم الضباط المتقدمين لها للدراسات العالية في العلوم العسكرية

٤ — مدرسة الضباط العظام ومقرها الوقتي في «شيرنس» لتعليم البكباشية ومدتها ثلاثة أشهر وتعقد فرق الدراسة ثلاث مرات سنويًّا ويشمل برنامجها التدريب التكتيكي العالي للقوات الكبيرة والتعليم النظري والعملي الخاص بقيادة القوات من جميع الأسلحة

أما قوة الطيران الملكية فتشتمل على ما لا يقل الآن ، عن ٢٫٥٠٠ طائرة من جميع الانواع قاذفات القنابل والمحاربة والتمرين . والقوات الجوية الأنجليزية موزعة بين داخلية انجلترا والسواحل البريطانية والشرق الادنى (شرق الاردن وفلسطين) والعراق والهند وعدن والبحر الابيض المتوسط ومصر والشرق الاقصى ويبلغ عدد رجال القوات الجوية ٣٥٫٠٠٠

ويجري العمل الآن بسرعة عجيبة في سبيل تعزيز السلاح الجوي الأنجليزي ومضاعفة طائراته وعدد رجاله وانشاء احتياطي كبير من الضباط والجنود للانتفاع بهم وقت الحاجة

اما دولة ايرلندة الحرَّة فيزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين قليلاً ومساحتها ٦٩ الف كيلو متر مربَّع وجيشها من احدث الجيوش الاوربية يبلغ عدده اليوم ١١٫٤٥٣ ضابطاً وجنديًّا وللجيش كلياتهُ ومدارسهُ العسكرية ، ولكن قوة الطيران فيهِ صغيرة لا تزيد على ١٨ طائرة قوتها ٥٤١٠ احصنة منها اربعة فقط صالحة للاعمال الحربية [كولونل]

باب الأخبار العلمية

العلامة فرويد

في الثمانين من عمره الحافل

كنا نقول ان لا كرامة لنبيٍّ في وطنه . ولكن امتداد الحياة البشرية بفضل تقدُّم العلوم وتطبيقها فسح المجال امام رواد الأفكار الحق زيادة في حياتهم بوجهٍ عام تمهد لهم السبيل لاعتراف الناس بفضلهم . بل ان الشيخوخة في ميادين الفلسفة والعلم تقترن عادةً بسلطة عجيبة مع ان الفيلسوف او العالم يكون في الغالب قد تخطى السن التي يستطيع فيها ان يضيف شيئاً جديداً الى كنوز المعرفة

الاَّ ان فرويد وقد بلغ الثمانين يشذ عن عن ذلك . ان السنين لم تبل ما في بحثه من جدة ولا ما لا باسمه من سلطان . ان ذكره لا يزال يثير عواصف من النقد والاعجاب في آن . والناس ما برحوا منذ ظهرت نظرياته يوالون فيه ويعادون . وليس تعليل ذلك ببعيد المنال . فالطريق المفروش المنهَّد للباحث في العلوم الطبيعية والكيميائية محرم بعض التحريم على رواد العلوم النفسية والاجتماعية لان الاولين تفضي مكتشفاتهم ومخترعاتهم الى رفع مستوى الحياة ورخائها حالة ان الآخرين لا يستطيعون ان يضيفوا الى ارتقاء الانسان شيئاً يلمس وينظر ويسمع كالسيارة والمصباح الكهربائي ووسائل المخاطبات الكهربائية . وليس ثمة شيء يخشاه الناس ويتجنبونه كالبحث الصريح في شؤون الجنس والضمير . فالناس يقفون من هذه المباحث وكان معتقداتهم الخاصة بهذين الموضوعين اركان ينهض عليها صرح الحضارة، فاذا تبدلت او تحولت انهار ذلك الصرح على رؤوسهم . بل لقد يسري اليهم شيء من الريب اذا علموا ان اساتذة الطب و النفس اكبّوا على دراسة فرويد وكتاباته ولا يبعدان يستنكروا كل سعي من شأنه ان يفضي الى تأثر النظام الجنائي والتعليمي بتعاليمه

كان خصوم فرويد اسرع من اصدقائه الى ادراك ان سر مكانته العالمية في منطوى تعاليمه الخاصة بالاصلاح الاجتماعي والادبي . ان الكشف عن حقائق الطبيعة نتيجة العقول الحرة المدربة على البحث الساعية الى زيادة

سلطة الانسان على الطبيعة وعلى النفس . ولذلك لا يستطيع العلم ان يقف بمعزل عن المشكلات الاجتماعية والنفسية العامة بل ان علم كل عالم ينطوي على تبعة تحمل صاحبه على السعي الى استخدام علمه في سبيل الحرية والتعقل اللذين لا تقدم للعلم من دونهما . وقد كان هم فرويد واتباعه ان يستعملوا مكتشفاتهم في سبيل تحرير الانسان من الاستعباد للكبت والتقاليد والمحرمات . فنظريته النفسية تنطوي على آراء تهدم النزعات التي تقوم عليها النظم الفاشستية كالخضوع لزعيم واحد هو بمثابة شيخ القبيلة في العصور البدائية اذ كان كاهناً ومشرعاً وقائداً في آن . لذلك حظر في المانيا على اي كان ان يكون من اتباع فرويد

الاَّ ان كل هذا لم يحل بين فرويد وحياة هادئة مطمئنة . فمن اقوال الفرنسويين التي صارت مثلاً ان الامة السعيدة لا تاريخ لها ولكن هذا القول اصدق اليوم على العالم المبدع منه على الامم . فقد ولد فرويد سنة ١٨٥٦ في ما يعرف الآن بتشكوسلوفاكيا من والدين يهوديين . ودرس الطب والفسيولوجية في فينا حيث أنشأ عيادة خاصة بالطب النفسي Psychiatry في سنة ١٨٨٦ بعد سنة قضاها في باريس تلميذاً لشاركو . واشترك مع جوزف بروير Breuer في وضع اساليبه الخاص بمعالجة الحالات العصبية حوالي سنة ١٨٩٣ وشرع بعدها في نشر سلسلة من الكتب والرسائل تحتوي على بحوث في العلاج وقواعد لنظرية سيكولوجية جديدة . فلما نشر كتابه (تفسير الاحلام) سنة ١٩٠٠ طار صيته كل مطار واصبح مقدم علماء النفس على اوربا ومنذ نشر كتابه «وراء مبدأ اللذة» سنة ١٩٢٢ اتجه فكره الى النواحي البيولوجية والفلسفية التي تقتضيها نظريته

***

ليس في خلقه ما يستوقف النظر . فهو يرغب عن الجدال مع انهُ اشترك في وقت ما في جدال سيكولوجي عنيف مع العلامتين يونغ وادلر . ولكنهُ الآن وقد ناهز الثمانين يجتنب كل هذا . لقد انقضى الزمن الذي كان تلاميذه ومريدوه يعتبرونهُ معصوماً عن الخطأ وكل مايرجوله محبوه الآن ان لا يشهد وهو على قيد الحياة حريق كتبه في ميدان عام !

ان جانباً كبيراً من علم السيكولوجيا الحديث يرجع الى تعاليمه الخاصة بالدافع الجنسي وتأثيره في الحياة والامراض العصبية وشفائها بالتحليل النفسي . وقد تسربت تعاليمه الى الادب فأصبح غير قليل من القصص التي تكتب وتنشر الآن قائماً على قواعد التحليل النفسي وصلة الحالات النفسية والجسدية والاعمال العامة بالباعث الجنسي وكبته . بل ان طائفة من كتب السير الحديثة قامت على هذا المبدأ ونخص بالذكر منها كتاب «ماري انطوانيت» الذي كتبهُ الكاتب الالماني المبدع ستيفان زفيج

هل يستطيع العلم ان ينقذ الحضارة

رأي السر رتشرد غريغوري

اذا درس عالم من علماء الحشرات وكر نمل ووصف طبائعه دعي بحثه علماً ولكن اذا درس باحث آخر المجتمع الانساني درساً قائماً على النقد وبأسلوب البحث العلمي انكر عليه ان بحثه هذا علم

ان علماء الطبيعة والكيمياء طالما ترددوا في التسليم بأن الاقتصاد والسياسة نظراً وعملاً والتاريخ والاجتماع من العلم . الاّ ان الصوت أخذ يرتفع من دوائر العلم بأن على العلماء الذين مكّنوا الانسان من السيطرة على قوى الطبيعة يجب ان يوجهوه الى استعمال هذه القوى استعمالاً يتفق مع سلامة المجتمع وارتقائه

وقد كتب السر رتشرد غريغوري محرر مجلة نايتشر مقالاً قال فيه ان الواجب يقضي على رجل العلم بأن يبذل كل ما في وسعه لاستعمال القوى التي يمكن منها الناس، استعمالاً نافعاً والاّ فان العالم مصيره حتماً الى كومة من الرماد

ان تأثير العلم في المجتمع بلغ مرتبة يصح عندها ان نقول ان البحث في البيولوجيا الاجتماعية أهم كثيراً من البحث في موضوعات العلوم الطبيعية المحضة كتركيب الذرّة وغيره

ومن بواعث السخرية في الحضارة الحديثة ان تأثر المجتمع بوسائل الانتاج الكثير لم يكن زيادة الرخاء والرفاهة بل زيادة الفاقة والشقاء والانحطاط ببعض اساليب العلم والاختراع الى دركات القتل والتدمير

ولما كان العلم قد وسع من سيطرة الانسان على قوى الطبيعة فعليه ان يتحمل التبعة الناشئة عن ذلك . ولكن المهم ان الاسلوب العلمي الذي استعمل في كشف اسرار الطبيعة والسيطرة على قواها يجب ان يستعمل في دراسة المجتمع والسعي الى حل مشكلاته

ان نظام التوزيع الاقتصادي لا يزال قائماً على قواعد ترتد الى ما قبل العصر العلمي ولا يصلح لهذا العصر الذي اصبحت آيتهُ الكثرة في الانتاج لا القلة

ان في مكنة العلم ان يجهز الامة بكل ما تحتاج اليهِ وفقاً لزيادة عدد الناس ولارتقاع مستوى معيشتهم . ولكن استعمال هذه القوى على خير وجه ليس امراً مقرراً ولا يعرف بداهةً بل يجب ان يكون نتيجة البحث والمعرفة والروح التي يقتضيها الاسلوب العلمي

أحدث انواع الفيتامين

يدعى « سترين » وفوائده

اذا خلا الطعام من فيتامين (C) أصيب آكل ذلك الطعام بمرض يدعى الاسكربوط .

وكانت السفن في قديم الزمان تنقل في مخازنها زجاجات تحتوي على عصير الليمون لان أياماً

وأسابيع كانت تنقضي قبلما ينزل البحارة الى مرفأ يأخذون منهُ طعاماً يحتوي على هذا الفيتامين فيعوضهم العصير مما يحتاجون وهم لا يدرون ما هو تماماً

والظاهر ان ثمار جميع اشجار الموالح تحتوي على هذا الفيتامين . ولكن الفلفل الاحمر المشهور في المجر باسم باريكا اغنى النباتات بهِ . ولذلك عمد اليهِ الاستاذ سانت جورجي احد أساتذة جامعة سيفيد بالمجر فاستخرج منهُ فيتامين [C] نقيًّا صافياً

من اعراض الاسكربوط نزف الدم في اللثة والبشرة . وفي بعض الاحوال لا يقف النزف ولو استعمل حامض خاص بذلك او لو استعمل فيتامين [C] نفسه. ولكن استعمال عصير الليمون او عصير الباريكا لا يخيب في منع النزف. فقرر الاستاذ سانت جورجي انهُ لا بد من وجود شيء آخر في الليمون والباريكا غير فيتامين [C] وعلى ذلك بدأ بحثهُ بمعاونة اربعة من الباحثين فأفضى البحث الى اكتشاف فيتامين جديد وسم بحرف P الفرنجي

استخرج الاستاذ سانت جورجي من مقدار من الليمون يزن ٢٠٠ كيلو غرام ماوزنهُ غرامان من المركب الجديد ولكنهُ خالٍ من اي اثر من فيتامين (C) ودعاهُ باسم « سترين»

وميل البشرة الى النزف مما يمكن قياسه بمضخة تفريغ اي « شفط » وبالتجربة ثبت ان فيتامين (C) لا يؤثر في الاوعية الشعرية من حيث مقاومتها للنزف ولكن الفيتامين الجديد (اي سترين) يزيد مقاومتها . ولذلك لا ينحصر استعماله في الاسكربوط بل في حالة تصاب بها البشرة ببقع حمر ناشئة من ضعف الاوعية الشعرية التي يجري فيها الدم حيث تظهر هذه البقع فيحقن صاحبها بحقن يختلف مقدارها من ٢٠ مليغراما الى ٤٠ مليغراماً من السترين فتزول البقع

جائزة نوبل الكيميائية

الاستاذ دبي وبحث المحلولات

منحت جائزة نوبل الكيميائية عن سنة ١٩٣٦ للاستاذ بيتر دبي Debye مدير معهد القيصر ڤلهلم لعلم الطبيعة ببرلين وأستاذ الطبيعة في جامعة ليبسش . وهو صاحب نظرية مشهورة في علمي الكيمياء والطبيعة، تعرف باسمهِ واسم زميله فيها العالم هكل Hackle وبها يتمكن الكيميائيون من قياس قدرة الايصال الكهربائي في محلول موصل للكهربائية قياساً دقيقاً وبتطبيقها ظهر ان تركيب الماء الجزيئي اقرب الى تركيب الالماس منهُ الى تركيب البخار

ولهُ علاوة على ذلك مباحث دقيقة جدًّا في العوازل insulators الكهربائية قائمة على

فكرة طريفة في توزيع الشحنة الكهربائية في جزيء متعادل

فمعظم الجزيئات تحتوي على قدر متعادل من الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة . ولكن توزيعها في الجزيء ليس متعادلاً بل تميل الى التجمع على رأيه ، في طرفي الجزيء فتغلب السالبة في احدها والموجبة في الآخر . فاذا عرّض سائل فيه جزيئات من هذا القبيل لفعل حقل كهربائي اتجهت الجزيئات الى جهة الطاقة الكهربائية التي توثر فيها ،وهذا يغيّر من خواص ذلك السائل الكهربائية . فالمهندسون من ناحيتهم يهمهم ما يصيب هذه الخواص الكهربائية من التغيُّر وكيف يتم وما بواعثهُ وعلماء الطبيعة المحضة يهمهم كل ما يتعلَّق بتركيب الجزيء الأساسي

ومن مباحثه الاساسية ، طريقة ادق من طريقة اينشتين في معرفة قدرة الجوامد على امتصاص الحرارة . فالمادة الجامدة الواحدة تختلف قدرتها على امتصاص الحرارة باختلاف حرارتها . فاذا كانت باردة جداً ، اي اذا كانت حرارتها بضع مئات من الدرجات تحت الصفر ، قلّت قدرتها على امتصاص الحرارة حتى تكاد تكون معدومة . وطريقة دبي تمكن الباحثين من قياس هذه القدرة ، وهي علاوة على فائدتها العلمية المحضة لها فائدة صناعية ، لم تكن مقصودة بالذات اولاً

زلال البيض لوقف النزف

الهيموفيليا اسم مرض وراثي، اهم اعراضه الميل الى النزف عند ما يصاب صاحبهُ بجرح خارجي او داخلي ، فلا يستطاع وقف النزف ثم يفضي الى الموت . وقد قرأنا في التيمس والمورننغ پوست ان طريقة جديدة لوقف النزف في المصابين بالهيموفيليا قد اكتشفت قوامها استعمال زلال البيض على ما روت جريدة اللانست الطبية

كان احد الباحثين في شفيلد معنيًّا بالبحث في موضوع لا صلة لهُ بالنزف ولا بالهيموفيليا فوجد انهُ اذا اخذ زلال البيض وخلطهُ ببرومور البوتاسيوم ووضعهُ في مستنبت خاص على درجة ٣٧ مئوية مدة ثلاثة ايام ، اصبح في المستطاع استخلاص مادة من هذا الخليط ، اذا اضيفت الى الدم في انبوب من انابيب التجارب خثّرتهُ على طريقة معيّنة

فوجب بعد ذلك تجربة هذه المادة بالناس، فتطوَّع لذلك طائفة منهم ، فجرّبت التجارب بهم ، فأسفرت عن ان حقن هذه المادة تجعل تخثُّر دمهم أسرع مما هو عادة ، وعلاوة على ذلك ثبت ان الحقن بها لا يؤثر أي تأثير ضار

وكانت الخطوة التالية ، امتحان هذه المادة في المصابين بالهيموفيليا ، فظهر أن المدة التي تنقضي قبل التخثر تقصر بعد الحقن بهذه المادة . ولكن من المشهور عند الاطباء ان المدة التي تنقضي قبل التخثر في المصابين بالهيموفيليا

كثيرة التقلب والاختلاف فعمد الباحثون الى تجارب ادق ومنها تجربة باحد المصابين بعد قلع ضرسه . اذ المعروف ان قلع الاضراس في المصابين بالهيموفيليا عمل محفوف بالخطر ، لئلاً يفضي النزف الى الموت . فحقن بعضهم بهذه المادة ثم قلع ضرسه فثبت ان قلع اضراس هؤلاء بعد حقنهم بها ينجيهم من خطر محتّم وموت محتمل

التغلب على ميكروب الستربتو كوكس

ميكروب الستربتو كوكس يغطي جسم الانسان وباطن انفه وحلقه وينفذ اليه عند ما يأنس ضعفاً في موقع منهُ فيحدث التهاب الحلق او «بنت الحمراء» او الحمى القرمزية او حمى النفاس وغيرها من الامراض المميتة

وقد قرأنا الآن في رسالة العلم الاسبوعية ان عالمين اميركيين من علماء جامعة جونز هبكنز استعملا مادة كيماوية في مكافحة هذا الميكروب فأصابت نجاحاً باهراً في ١٧ حادثة من ١٩ حادثة جرباها فيها علاوة على تجارب متعددة في الفئران

وهذه المادة توجد في شكلين اولهما محلول احمر قانٍ يستعمل حقناً تحت الجلد ويعرف باسم بروتوزيل (Prontosil) والآخر قرص من مسحوق ابيض لا طعم له يشبه قرص الاسبيرين ويؤخذ عن طريق الفم . ويدعى بروتيلين Prontylin اي انهما ليسا مادة واحدة ولكنهما مادتان متقاربتان جداً من ناحية التركيب الكيماوي وتصنعان في شركة الاصباغ الالمانية

هاتان المادتان لا تفتكان بميكروبات الستربتوكوكس ولكنهما تضعفان الميكروبات فتصبح لقمة سائغة لكريات الدم البيض فتتغلب عليها . لذلك قال احد مكتشفي هذا العلاج ان استعمال هذه المادة لا يفيد في المصابين الذين اشفوا لان مقدرتهم على مغالبة الميكروبات حتى بعد إضعافها لا تكون كافية للتغلب عليها

*

التربة وعنصر البور

اكتشف في سنة ١٩٣٢ مرض يصيب البنجر فيضعف ويهزل وحار البحاث في سببه الى ان وفقوا اخيراً الى اكتشاف سببه وهو نقص عنصر البور Boron من التربة التي يزرع فيها . فهو من هذا القبيل كمرض الجحوظ (اي الغواتر عند ما تجحظ العينان وتنتفخ الرقبة) الذي يرجع بعض سببه الى نقص عنصر اليود . وقد لوحظ ان المناطق التي يكثر فيها هذا المرض في سويسرا يقل في تربتها وهوائها عنصر اليود هذا . وان الذين يعيشون على شواطيء البحار قلما يصابون به لان في ماء البحر وهوائه اثراً من هذا العنصر الحيوي

السمك والفلور في الماء

عنصر الفلور قريب من عنصر الكلور المستعمل في تعقيم الماء في المدن بعد تصفيته من الشوائب . وهو يستعمل في شركة مياه القاهرة لهذا الغرض ايضاً

وقد يتسرب عنصر الفلور الى الماء . فاذا شرب الاطفال ماء فيهِ قليل من عنصر الفلور اصيبت اسنانهم ببقع غريبة . واذاً فلا بد من امتحان الماء حتى يثبت أن ليس فيهِ اي اثر من آثار الفلور

وقد وجد الدكتور « تف » احد علماء معهد كاليفورنيا التكنولوجي ان السمك الذي يعيش في ماء فيهِ عنصر الفلور ، يصاب اسنانه ببقع شبيهة بالبقع التي تصاب بها اسنان الاطفال. فاذا استطاع ان يربط بين مقدار الفلور الذي في الماء والبقع التي تصيب اسنان السمك فقد يستطاع بعد ذلك الاعتماد على السمك في كشف الفلور بدلاً من الاعتماد على الامتحان الكيمياوي المعقد

*

جدار خلايا النبات وشفوفه

يؤخذ من تجارب اجراها الدكتور لوبيه Lupet في احد المعاهد الاميركية العلمية بمدينة سانت لويس ان جدار خلية البصل يفقد عند انتقالهُ من الحياة الى الموت مقدرتة على عكس الاشعة التي فوق البنفسجي . فالخلايا الحية في صورة مصورة بهذه الاشعة تكون سوداً واما الخلايا الميتة فتكون بيضاً

فدرجة الشفوف لهذه الاشعة في الخلايا يستعمل الآن مقياساً او قاعدة لتشخيص الموت فيها وعليهِ يعتمد هذا الباحث في ناحية من دراسة تركيب المادة الحية من الناحية الطبيعية الكيمياوية

*

الدروع المغضنة

أثبت احد المخترعين الاميركيين ان الالواح الفلزية التي تصنع منها دروع الدبابات والبوارج والطائرات تكون امنع على رصاص البنادق اذ جعلت مغضنة . وقد جرب تجاربه في فيلادلفيا امام خبراء الحربية والبحرية فأطلق الرصاص من مسافة خمسين ذراعاً على لوح من مادة معينة وسمك معين فاخترق الرصاص اللوح . ثم اخذ لوحاً مغضناً من المادة نفسها وكان سمكه اقل قليلاً من الالوح المبسوط وأطلق عليهِ الرصاص من المسافة نفسها فلم يخترقه بل انحرف عن سطوح الغضون. وهذه الغضون ليست مستديرة بل حادة الزوايا وانحراف سطوحها بعضها على بعض ٤٥ درجة فاذا اصابتها رصاصة لم تصبها عمودياً بل تصيبها منحرفة فتنزلق على السطح المنحرف ويضيع معظم فعلها

الضوء الازرق وانحناء النبات

للالوان المختلفة في الضوء تأثير مختلف في سرعة نمو النبات . وقد ظهر حديثاً من تجارب جربها الدكتور كارر من علماء المعهد السمثصوني الاميركي ان بعض هذه الالوان الضوئية اذا وجه الى بذور آخذة في الانتاش حملها على الميل بعضها الى بعض أو على الابتعاد بعضها عن بعض

فقد زرع الدكتور كارر بذوراً من نبات الشوفان ثم عرضها لاضواء مختلفة الالوان فوجد ان البذور المعرضة للضوء الازرق تميل بعضها الى بعض علاوة على ميلها الى جهة الضوء . اما الضوء الاحمر فكان تأثيره على عكس ما تقدم اي ان البذور ابتعدت بعضها عن بعض بتأثيره . ثم ان البذور التي عرضت للضوء البرتقالي فاقت خضرتها خضرة البذور المجاورة لها اي التي لم تعرض لهذا الضوء . والبذور المعرضة للضوء الازرق الخضر اشتدت صفرتها

وقد كانت جذور هذه النباتات على أطولها حيث عرضت البذور للنور الازرق وعلى أقصرها حيث عرضت للنور البرتقالي

*

أدق الانابيب للحقن

تصنع الآن انابيب دقيقة جداً من النيكل لتستعمل في حقن تحت الجلد . وقد بلغ من دقة هذه الانابيب انهُ يمكن ادخالها من سم الخياط (ثقوب الابر)

*

اسراع النمو في النبات وبزوره

في معهد فسيولوجية النبات التابعة لاكاديمية العلوم بمدينة كيف بروسيا عاصمة اوقرانيا عالم كبير يدعى شولودني

هذا العالم اكتشف طريقة تمكنهُ من تعجيل النمو في بذور النبات اذا صحَّت فليس ما يمنع تطبيقها في الزراعة

كان بعض الباحثين في نمو النبات يعلمون انه اذا اعيق انتاش البذور بعدم بلها بلاًّ كافياً او بتعريضها لحرارة اقل من الحرارة اللازمة ثم اذا وضعت هذه البذور في تربة سوية رطوبةً وحرارةً كان افراخها وازهارها واثمارها أسرع من العادة

فخطر للعالم شولودني ان يبحث في تفسير هذه الظاهرة فقال في نفسه لعلَّ جنين البذور وهو يستجمع القوة للانتاش من دون ان تتاح له ، يجمع مقداراً من هرمونات النمو اكبر من المقدار الذي يتاح للجنين الذي ينتش انتاشاً عاديًّا. فأخذ بذوراً جافة وبلّها بسائل يحتوي على هرمون النمو فكانت النتيجة في الشوفان كما توقع على ما اذاعهُ في مجلة نايتشر الانكليزية فقد تأخر انتاش هذه البذور بعد بلها ثم اسرع نموها فأزهرت نحو اثني عشر يوماً قبل بذور اخرى لم تبلَّ الاَّ بالماء

الماء الثقيل والافعال الحيوية

يعلم القراء ان ذرات الايدروجين صنفان وان وزن أحدها ضعف وزن الآخر . والماء الذي تدخل الذرات الثقيلة في تركيبه يعرف بالماء الثقيل . وقد نال الاستاذ يوري الاميركي جائزة نوبل الكيمياوية جزاء لهُ على مكتشفاته في هذا الموضوع

هل الماء الثقيل كالماء العادي في تأثيره في الاحياء ؟ أخذ العالمان كري وتريليس من اساتذة جامعة كولومبيا طائفة من نبات ذي خلية واحدة وقسماها قسمين وضعا أحدهما في ماء ثقيل والآخر في ماء عادي فثبت لهما ان عمل التركيب الضوئي في الأولى (اي الطائفة التي في الماء الثقيل) أبطأ جداً منهُ في الثانية وان النسبة ٤٠ الى ١٠٠

*

قاذفة قنابل جبارة

صنعت في بريطانيا طائرة جبارة من قاذفات القنابل وضعت رسومها وبنيت وامتحنت في اقل من سنة وينتظر ان يصنع كثير على غرارها ولا تزال تفصيلات بنائها سرًّا مكتوماً ولكن مما يعرف عنها ان المسافة بين طرفي جناحيها ١٢٠ قدماً وهي مجهزة بمحركين من طراز برستول بغاسوس قوة كل منهما الف حصان وفيها طوابٍ متحركة وفي الطوابي مدافع تستطيع بتحركها في كل جهة ان تقي كل جزء من اجزاء الطائرة. وفي باطنها رفوف صفت عليها قنابل متفاوتة في حجمها. ومما تمتاز به هذه الطائرة على غيرها من الطائرات انها ليست فضية اللون بل طليت طلاء يجعلها خافية عن البصر عندما تكون محلقة في الفضاء

*

البرد يؤثر في العقل أولاً

جرب السر جوزف باركروفت الاستاذ في جامعة كمبردج تجربة خطرة ولكن بنفسه . ذلك أنهُ دخل غرفة باردة شديدة البرد وخلع ملابسه ولبث فيها حتى كاد يموت برداً. وقد فعل ذلك لكي يراقب تأثير البرد في جسمه وعقله فوجد ان العقل يتأثر اولاً بالبرد فيفقد صفة الاقدام والاحساس بالحياء من تعرض الجسم لانظار الناس وهو مجرد من الملابس

*

مدفع رشاش لقنابل غاز الدمع

من الغازات الحربية غاز يستعمله رجال البوليس في تفريق المظاهرات اوتعقب بعض اللصوص يثير اغشية العين المخاطية فينهمر منها الدمع . وقد صنع من عهد قريب مدفع يطلق قنابل هذا الغاز متوالية اي انهُ على قاعدة المدفع الرشاش ولكن بدلاً من ان تكون قنابله مفرقعات قاتلة تكون محتوية على غاز الدمع الذي يعرقل اعمال الجناة والمجرمين والمتظاهرين من دون ان يضر العيون ضرراً باقي الاثر

مكتبة المقتطف

كتابان في علم النفس

١ — الشخصية : تأليف محمد عطية الابراشي
٢ — خلاصة علم النفس : تأليف احمد فؤاد الاهواني

— ١ —

الاستاذ محمد عطية الابراشي ، خريج جامعتي اكستر ولندن واحد مفتشي وزارة المعارف المصرية ، من الشبان المصريين الذين جمعوا الى نشاط الشباب حكمة الكهول . فهو لا يني عن البحث والتنقيب وكتابة الرسائل وتأليف الكتب ، علاوة على عمله الفني بالوزارة ، لانهُ يحسُّ ان لهُ في الحلبة التي تخصَّص فيها ، رسالة يؤديها . وهذا كتاب « الشخصية » أحدث ما اهداهُ الينا من آثاره

نعم انهُ افرد فصلاً خاصًّا بهذا الموضوع في كتاب « علم النفس » الذي ألَّفهُ بالاشتراك مع الاستاذ حامد عبد القادر . ولكنهُ رأى بعد ذلك ان « موضوعاً كالشخصية يحتاج الى كثير من التفصيل والتمثيل » فوضع هذا الكتاب

منهاج البحث بسط العناصر الخلقية والعقلية والاجتماعية والجسمية ، التي تتألف منها الشخصية وضرب الامثال على ذلك من سير العظماء والحكماء في الشرق والغرب . وهذا البسط يشتمل على نحو النصف الاول من الكتاب . اما النصف الثاني ، فبيان بانواع الشخصية ، كالشخصية العملية التي تمثل في القوّاد ورجال الاعمال ، والشخصية الخلقية او الفكرية وهي التي تبرز في العلماء والفلاسفة ، واوصاف كلّ منهما او الفرق بين النوعين ، وبواعث تعزيزها واضعافهما . والفصل الاخير في اضطراب الشخصية وانقسامها

والكتاب من اولهِ الى آخرهِ ، ممتع لمن يريد مجرّد المطالعة ، ومفيد لمن يريد ان يلقي على شخصيتهِ ضوء العلم الكشاف . ولسنا نظن ان في وسع احدٍ ان يطالع فصلاً من فصولهِ ، الاّ ويرى نفسهُ منساقاً الى تحليل نفسهِ . وان من طالع كيف كان انتصار روزفلت الحاسم في الانتخابات الاخيرة ، مع ما تألب عليهِ من الخصوم ، وكيف عزي ذلك الى تفوق شخصيته وأخذها بألباب الجماهير ، ليدرك ان موضوع الشخصية مما يجب ان نعنى بهِ في عهدنا الجديد ، وان هذا الكتاب اول كتاب طبع على حدة باللغة العربية في هذا الموضوع ، وهو من اجل الكتب فائدة عقلية وعملية

— ٢ —

اجاد الاستاذ احمد فؤاد الاهواني مؤلف «خلاصة علم النفس» في قوله في مفتتح الكتاب « ... والحياة التي نقصدها هي حياة الانسان في صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه، لانهُ لا يعيش منفرداً، ولا يمكن ان يعيش الاَّ في مجتمع يتصل افرادهُ ويتباعدون، تتضارب مصالحهم، وتختلف غاياتهم ويخرجون من هذه المعركة الحامية بما ينشدونهُ من الحياة وهو حفظ الحياة اولاً، ثم السعادة ثانياً

«واذاً لكي تصل الى الاحتفاظ بكيانك، وتوفير السعادة في الحياة يجب ان تدرس الميدان الذي تنزل فيه، لتحقق مطالبك، وتنجح في اغراضك، وهذا الميدان هو افراد المجتمع، الذين ستحتكُّ بهم في اعمالك، وتختلف واياهم في اغراضك، وتحتاج اليهم لمعونتك والعطف عليك، وتسخرهم في تنفيذ غاياتك، ويستغلونك في تنفيذ غاياتهم. ولن تصل الى هذا كلهِ الاَّ بالضوءِ تلقيهِ على سلوك الناس، حتى تتعرَّف سبلهم، وتدرك اغراضهم ... وتلائم بين نفسك وبينهم، و توفق الى الطموح الى المثل الاعلى الذي تنشدهُ في الحياة. والمصباح الذي ينير حجب النفوس، ويزيل ما يغشيها من ظلام كثيف هو علم النفس الحديث ...»

جميع النظريات السيكولوجية، من الاستبطان الى التحليل النفسي، الى الرأي النموذجي الى السلوكي، الى غيرها من الآراءِ والمذاهب، إنما ترمي الى شق طريق تمكننا من الوصول الى غاية واحدة، هي معرفة نفوسنا و نفوس الناس الذين نتصل بهم كلَّ يوم. وقديماً قال احد علماءِ اليونان «إعرف نفسك» ولايزال قولهُ هذا من أبعد الغايات التي يتجهُ اليها الانسان في طلب الحكمة

الفصل الأول من الكتاب تلخيص موفق لموضوع علم النفس وميدانهِ ومناهج البحث فيهِ. واذا لاح للقارىء بعد مطالعة هذا الفصل، ان مناهج البحث مختلفة، ومتناقضة أحياناً، فلأن علم النفس لم يلقِ عنهُ تمائم الخرافات ويعلن استقلالهُ بغرض وأسلوب الاَّ من عهد قريب. وكاتب هذه السطور يذكر الاستاذ وليم مكدوجال احد اعلام البحث النفسي الحديث، عندما وقف في منصة الرآسة في قسم علم النفس بمجمع تقدُّم العلوم البريطاني في تورنتو سنة ١٩٢٤ وأعلن « استقلال علم النفس ». فتلمُّس الطريق أمرٌ لا بدَّ منهُ في علم يتناول أعقد الموضوعات وما يزال في مهدهِ . وبعد ذلك تتوالى فصول الكتاب، متناولة نواحي مختلفة من الحياة العقلية، من الشعور وصلتهِ بالجهاز العصبي، الى الغرائز، الى العادة، الى الارادة، الى التخيل والتصوُّر الى . . الى ... وكل ذلك في تبويب واضح وأسلوب جزل واسناد دقيق

والى الذين طالعوا الطبعة الأولى من هذا الكتاب، نقول ان الطبعة الثانية التي بين أيدينا، أوفى وأتمّ من الأولى، لان المؤلف لم ينِ منذ ظهرت الطبعة الاولى، عن اتمام البحث ومتابعة التقدُّم المطرد في هذا العلم الحيّ السائر الى الامام بخطوات الجبابرة

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

تأليف توفيق الطويل — نشرتها لجنة الجامعيين لنشر العلم — طبعت في دار النشر الحديث
صفحاتها ٣٢٨ صفحة قطع وسط

في تاريخ البشر اخبار حروب ومعارك شبّت نيرانها بين عنصرين من عناصر البشر او بين حضارتين تقومان على فلسفتين متناقضتين من فلسفات الحكم والاجتماع، فكان الفوز النهائيُّ في تلك الحروب او المعارك حدًّا من حدود التاريخ، خذل عنده عنصر وتسوَّد آخر كما في معركة متوروس، او ضعفت مدنية وزهت اخرى كما في معركة ماراثون، او كبتت فكرة وانتصرت اخرى كما في معركتي سراتوغا وجتسبرج في الحرب الاهلية الاميركية

ويذكر كاتب هذه السطور انهُ لما درس التاريخ القديم وكان موضوع الدرس في احد الايام يدور من حول معركة ماراثون، التي فاز فيها اليونان على الفرس، وقف الاستاذ هنيهةً ليمكن في عقولنا نتائج تلك المعركة، التي تحسب من معارك التاريخ الفاصلة فذكر اهم نتائجها وفي مقدمتها اندحار نظام الحكم السائد في الشرق ممثلاً في فارس وخضوعها لعاهل مطلق، امام قواعد الحكم الدمقراطيّ ممثلاً في دويلات اليونان. وقال انهُ لو فاز الفرس في ماراثون لسيطر حكامهم على اليونان، ولما كنا شهدنا في الغالب تلك النهضة الفنية الفكرية التي تحسب وليدة النشاط في الحياة اليونانية الحرَّة

كذلك يقال في معركة متوروس التي هزم فيها هسدروبال اخو هنيبال فكان بدء فوز روما على قرطاجنة في الحروب البونية وسيطرتها على العالم المعروف حينئذٍ. فان الاستاذ برستد المؤرخ الاميركي المشهور يقول في احد كتبهِ التاريخيـة ونظنهُ «العصور القديمة» ان النزاع بين روما وقرطاجنة لم يكن نزاعاً بين مدينتين قويتين، تسعى كلٌّ منهما الى السيطرة على الاخرى والانفراد بالسيادة في البلدان المجاورة للبحر المتوسط، بل كان صراعاً كذلك بين عنصرين كبيرين من عناصر البشر، هما العنصر المعروف بالهندي الاوربي، والعنصر السامي، وما كانت روما وقرطاجنة سوى مقدمتي هذين الجيشين الكبيرين المصطفين للقتال على جانبي البحر المتوسط. وقد روي ان هنيبال صاح عندما رأى رأس اخيهِ هسدروبال يتدحرج امامهُ: قرطاجنة اني اشهد انخذالك

والظاهر ان المؤلف لم يأخذ بحذافير هذا الرأي. فالاستاذ محمد فريد ابو حديد يقول في تقدمتهِ للكتاب: «ويلوح لي ان المؤلف الفاضل لا يذهب مع اصحاب الرأي المتقدم فانهُ وان علم ان قرطاجنة لها رحمٌ بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق في نزاع الاجناس بل نظر نظرة اخرى . . . فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا بل انهُ لينظر الى المثل العليا لروما على انها اقرب الى تمثيل مثل الانسانية عامة»

ثم يقول الاستاذ ابو حديد : « . . . وهو يتحدّث عن حوادث نضال قرطاجنة وروما حديث من يريد ان يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثهِ عظة تنفعنا في حاضرنا ، فهو يريد ان يوجه انظارنا الى ان قرطاجنة قد فنيت لانها كانت جديرة بالفناء ، وان روما قد بقيت ونمت لانها كانت جديرة بالبقاء والنمو . ثم هو يشير لنا وهو يسير في حديثهِ الى الاسرار التي أهّلت كلاً من المدينتين الى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها »

فالكتاب بحث يجمع بين التاريخ والاجتماع والادب على أوفى وجهٍ وجديرٌ بأن يكون من الكتب التي تقرّب التاريخ الى نفوس القرّاء

تاريخ المسألة المصرية

من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٩١٠

ترجمه من الانكليزية الى العربية الاستاذان عبد الحميد العبادي ومحمد بدران . الطبعة الثانية في ٤٣٢ صفحة

عودتنا لجنة التأليف والترجمة والنشر المؤلفة من افضل اساتذتنا العاملين لنشر الثقافة وخير البلد باخلاص وهدوء ووفاء — اخراج الكتب الممتازة المفيدة. ومن أحدث ما أخرجتهُ هذا الكتاب والباب الاول منهُ وعنوانهُ — انتهاب مصر — يذكر الوسائل القاسية والاغراض الملتوية التي اخذت بها انكلترا وفرنسا في معاملة الخديوي اسماعيل اثر عجزه عن توفية اقساط الدين الذي استدانهُ من الماليين الاوربيين وكان هؤلاء الماليون من المساعدين لهُ على التورط في استدانتهِ والاسراف في انفاقهِ — وأدّت الى ارهاق المصريين واغتيال اسماعيل باشا صديق ناظر المالية حينذاك وعزل الخديوي — والباب الثاني منهُ وعنوانهُ احتلال مصر ذكر استمرار الوسائل التحكمية المؤلمة وما ادت اليه من استفزاز النفوس ونشر الدسائس وشبوب الثورة العرابية لمقاومة التدخل الاجنبي ولا نصاف الوطنيين وتصدي الانكليز لاخمادها وتحقيق غرضهم منذ فتح قنال السويس باحتلال مصر . وفي الباب الثالث وعنوانه — ادارة مصر — ذكر الآثار المادية لسياسة كرومر الاقتصادية وضعف الآثار الادبية للادارة الانكليزية — وفي الفصل الرابع ما تلا عهد كرومر من الرجعية في ادارة مصر واخفاق السير الدن غورست المعتمد الانكليزي الذي حل محل اللورد كرومر في قتل الحركة الوطنية الذي كان يتزعمها حينذاك الشهيدان مصطفى كامل ومحمد فريد — ومحاولة مدّ امتياز قنال السويس ورفض الجمعية العمومية المصرية مشروع هذا المدّ

والكتاب مملوء بالحوادث والعبر التي يجب علينا نحن المصريين مداومة دراستها وتذكرها والاستفادة من العظات التي تنطوي عليها ونحتاج اليها في تسديد ادارة حكومتنا ومعاملتنا للاجانب لذلك اود ان يقتنيه كل مصري يعتني بشؤون حكومته ووطنهِ

الالفي

النتائج السياسية للحرب العظمى

ألفه الاستاذ المؤرخ رمزي ميور « Ramsay Muir » وترجمه الى العربية الاستاذ محمد بدران

رمزي ميور في طليعة المؤرخين المعاصرين . بدأ حياته كمحاضر عام ١٩٠٠ وعين استاذاً للتاريخ الحديث في جامعة ليفربول عام ١٩٠٦ ثم انتخب عام ١٩١٣ استاذاً في جامعة مانشستر. ولما انتخب عضواً في البرلمان الانجليزي عن الاحرار عام ١٩٢٣ استقال من الجامعة ثم انتخب رئيساً لاتحاد الاحرار الوطني . وقد اشتهر الاستاذ « رامزي ميور » بالتعمق في ابحاثه التاريخية والسياسية وله عدة مؤلفات نفيسة لا غنى عنها للمؤلف والمؤرخ أهمها « توسع أوربا » (١٩١٧) والتاريخ البريطاني (١٩٢٨) والنتائج السياسية للحرب العظمى . . . الخ الذي نقله اخيراً الاستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية وعنيت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر

والكتاب خلاصة تاريخ العالم في دور من ادوار الانتقال الذي يصفهُ المترجم بأنهُ لا يكاد يختلف عن الفوضى في شيء ثم اضاف اليه المترجم فصلاً من عنده شرح فيه النزاع الصيني والياباني والمسألة الحبشية والحركة النازية وما وقع في البلقان والشرق الادنى من احداث مشكلات ومعاهدات

فهو يصف الروح القومية . تلك الروح التي جعلت الشعوب تشعر بما بينها من روابط اللغة والجنس والتقاليد وأساليب الحياة وتحس « بوحدتها » وتعتز بقوميتها . ويصف المدنية الصناعية واثرها والنزعة الاستعمارية التي تعد من العوامل القوية في تغيير شكل العالم . والروح العسكرية التي أملت على الشعوب اعتقادها ان القوة الحربية هي مصدر القوة والعظمة . ويصف قيام الديموقراطية قبل الحرب الكبرى واخيراً الدعوة الى الحركة الدولية

وعطف المؤلف على التسويات السياسية التي أعقبت الحرب الكبرى ورسمت خريطة جديدة لأوربا وأحدثت التغييرات المعروفة خارج القارة . وتكلم ايضاً عن التطورات الكبرى التي أحدثتها الحرب في شعوب العالم . فقد رأيناها تقضي على سيادة الطبقات الحاكمة القديمة بينما قامت نظم اجتماعية جديدة قللت الفروق الاجتماعية ومنحت الطبقات العاملة حظاً اكبر من الثروة والسلطة . وكانت من نتائج الحرب المحسوسة اقامة ديموقراطيات سياسية تامة في معظم الدول الأوربية . فتغيرت اساليب الحياة وأعيد توزيع الثروة بين الطبقات . كما انقلب النظام الاجتماعي في روسيا من أساسه

لكن هذه التغييرات أعقبت خيبة امل واضطراب مما ادى الى قيام فريق من الزعماء في وجهها كما حدث في ايطاليا وألمانيا والبرتغال وبعض دول البلقان وأقاموا حكومات ديكتاتورية

جديدة على أنقاض الحكومات الديموقراطية . وتكلم المؤلف عن العلاقة الجديدة ، بين اوربا والعالم الاسلامي عقب الحرب فقد وقف نهائيًّا سلطان الدول الاوربية الذي كان آخذاً في الاتساع وقامت دول جديدة على انقاض الحكومات القديمة كما حدث في تركيا وايران والعراق وبلاد العرب . بعضها تكوّن بالفعل وبعضها في دور التكوين . بعضها تام الاستقلال وبعضها تشرف عليه اوربا

وبحث المؤلف جيداً حوادث الهند وقلاقلها وافكار اجناسها المتعددة التي تسود هذه القارة الواسعة وكذلك تكلم عن انقضاء السيادة السحرية القديمة التي كانت تتمتع بها اوربا في بلاد الصين مع نمو الفوضى في انحائها . تلك الفوضى المخربة التي نلقاها في كثير من البلاد خارج اوربا

***

وقد يكون الفصل السادس من هذا الكتاب أنفس ما بحث بعناية وهو الفصل الخاص بتبدل مركز بريطانيا كامبراطورية كبيرة . فليس في العالم كله مجتمع أثرت الحرب في مصائره كما أثرت في بريطانيا وما يتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة في انحاء العالم . وقد كان اهم ما انتجتهُ الحرب ضعف الروابط التي تؤلف بين اعضاء الامبراطورية فأصبحت الاملاك المستقلة تطلب لنفسها حق تعيين سفراء من قبلها لدى الدول الاجنبية كما عينت كل من كندا وارلندا سفيراً لها في واشنطون . وطالبت هذه الاملاك ايضاً بحق عقد معاهدات مستقلة مع الدول الاجنبية فرأينا حكومة جنوب أفريقية تعقد معاهدة مع المانيا اعترفت بها بريطانيا . ونص في معاهدات لوكارنو صراحةً على ان بريطانيا وحدها هي التي ترتبط بالتعهدات المدونة في هذه المعاهدات وان الاملاك المستقلة لا شأن لها بها. وبهذه الطريقة أصبحت الامبراطورية البريطانية بعد الحرب هيئة سياسية مفككة العرى والدول التي تؤلفها تكاد تكون مستقلة لا ترتبط بها الا في خضوعها اسميًّا لتاج واحد

ويرى الجنرال «سمطس» وهو من أعظم ساسة الامبراطورية كلها ان الحركة اللامركزية في الامبراطورية وصلت الى أبعد حد حتى أصبحت انحلالاً حقيقيًّا وهو يدعو الى تقوية الرابطة بين اجزاء الامبراطورية ويجب ان لا يسمح لها بهذا الانحلال التدريجي

والكتاب مكتوب بأسلوب مشوق يغري بمطالعته ومزود بالخرائط التوضيحية فنهنىء المترجم واللجنة ونرجو ان يكون الكتاب مقدمة لغيره ومشجعاً للمؤلفين الذين يكتبون في الشئون السياسية المعاصرة (......)

المآسي التاريخية الكبرى

تأليف حسن الشريف — مطبعة الهلال — صفحاته ٢٨٦ قطع المقتطف

ما أكثر ما يجدهُ الباحث من المآسي والعبر بين جدران القصور وفي زوايا التاريخ ، فاذا انقاد لهُ في وصفها قلم رشيق وعلم واسع ، كان حديثها من أمتع الاحاديث وألذّها وأعظمها فائدة ، يقرأ كالروايات الموضوعة ، مع ان خيال الروائي قد لا يجرؤ على ابتداع مواقف تبلغ في غرابتهِ بعض ما تبلغهُ حقائق التاريخ . ثم انها تلقي ضوءا كشافاً على احوال القصور والملوك والملكات والمقرّبين والمقرّبات وعاداتهم الاجتماعية والخلقية ، فيكشف من الحقائق ما هو جدير بتدبّرنا في سبيل العبرة والعظة

وقد تمّ كلّ هذا للاستاذ حسن الشريف ، فجاءت فصول هذا الكتاب آيةً في بابها . فالفصل يملأُ في الغالب نحو خمسة عشرة صفحة في المتوسط ، فيها من التفصيلات القدر الكافي لفهم الموضوع ، وقد اختارها المؤلف من مطوّلات كثيرة ليست في متناول كلّ قارىء ثم ساقها في اسلوبٍ بارعٍ كلّهُ تشويق وإغراء بمواصلة المطالعة . ففيها اندمج فن المؤرخ بفنّ الروائي

هنا قصة النضال بين ملك انكلترا شارل الاول ونواب شعبهِ ، وهو نضالٌ بين الملكية المطلقة والملكية المقيّدة ، أفضى الى حرب اهلية فالى محاكمة الملك واعدامهِ . فاذا طالع القارىء هذا الفصل ، طابت لهُ المقابلة ، لما وقع حديثاً في انكلترا ، في سبيل الدفاع عن الحقوق التي اكتسبتها الأمة من ملوكها ورسّختها بالممارسة وصانتها بالتقاليد وادرك كيف تتماثل الاغراض وتختلف الاساليب

وهنا قصة المركيزة ده برانفيليه ، وهي السيدة التي سمّمت والدها وشقيقيها وعاشقها في سبيل تحقيق شهواتها . وحبّذا الحال لو ان الاستاذ حسن الشريف اضاف الى ثنايا قصتها ، شيئاً عن نفسيّها الاجرامية كما يكشف عنها علم النفس الحديث ، فانهُ لو فعل لاضاف الى قصة الرواية التاريخية ، فائدة النفوذ الى ناحية من نفس « اكبر مجرمة في التاريخ »

هنا ريشيلو ولويس الرابع عشر وبوربنات وفاي والملكة اورتانس والامبراطورة اوجيني — جميع هؤلاء وغيرهم يروحون ويجيئون في هذه الفصول ، تتقاذفهم الرغبات والشهوات ، في جوّ حافل بالدسائس تدبّر وتحاك خيوطها ، هذا ومقدّرات الامم في ايديهم ، وليس بالنادر ان يكون حادث يسير في امرٍ خاص باعثاً على انقلاب عظيم او ثورةٍ او حرب

ولا ريب عندنا — ونحن في عصر نحتاج فيهِ افراداً وامة الى دراسة التاريخ وتدبّر عبرهِ — ان الاستاذ حسن الشريف قد ادّى خدمة الى الامة في هذه الناحية من حياتها العقلية ، باصدارهِ هذا الكتاب الذي يحبب الجمهور بالمطالعات التاريخية

هدايا دار الهلال

١ — فاروق الاول

من بواعث الفأل والاستبشار ان نستقبل العهد الجديد ، وبين أيدينا كتاب في نشأة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، ودمقراطيته العالية ، وعطفه العظيم ، وذكائه المتوقد ، وتدينه العميق ، ووطنيته الصادقة ، لان ملكاً متصفاً بهذه السجايا الخلقية والعقلية العالية ، خير قدوة لشعب ، ينظر الى المعاهدة التي عقدت وأبرمت أخيراً ، على انها مفتتح لا نهاية ، مفتتح عهدٍ جديدٍ من الكفاح لا من القناعة ، كفاح ضدَّ الضعف والجهل والتواكل ، وفي سبيل الصحة والقوَّة ، والعلم والابتكار ، والاستقلال الاقتصادي نبنيه بمالنا ونشاطنا

ولقد أجاد المؤلف الاستاذ طاهر الطناحي ، في تصوير هذه النواحي العالية ، في حضرة صاحب الجلالة : مرتداً بها الى أصولها من الوراثة والتربية في كنف المغفور لهُ والدهِ العظيم . وأجادت دار الهلال كذلك في اخراج الكتاب، زاهي الرونق طبعاً وتصويراً

٢ — كمال اتاتورك

لا يسع احداً زار تركيا الحديثة ، زيارة بحث ودرس الاَّ ان يعترف بان كمال اتاتورك صاحب الفضل الاول في تجديد معالمها ، واغتصاب استقلالها بحدّ السيف ، وتنظيم حكومتها الجمهورية ، ونافخ روح الحياة في شيبها وشبانها ، ورجالها ونسائها على السواء . ان طابعهُ الشخصيّ في كل مجمع ومدرسة وكل ملجأ ومستشفى . بل في كل مزرعة حديثة تربى فيها فسائل الاشجار ، ومصنع جديد تحاول ان تستغني بهِ تركيا عن ان تكون عيالاً على الغرب

فكيف اتيح لرجل فردٍ ان يتغلب على السوس ينخر في عظام « مريض اوربا » المشفي، ويدحر ما تألب عليهِ من القوى داخل البلاد وخارجها ، وما هي الادوار التي تقلب فيها هذا الرجل من ضابط في الجيش التركي القديم ، الى مقام زعيم من اكبر الزعماء في العصر الحديث؟

انك تجد كلَّ هذا مفصلاً تفصيلاً دقيقاً في كتاب كمال اتاتورك الذي ألَّفهُ الاستاذ محمد محمد توفيق . ان الكتاب قصة رجل وتاريخ امة بعثت بعثاً جديداً . وفيهِ علاوة على ما في التاريخ الحيّ من اغراءٍ وتشويق ، عبر وحكم لمن يعنون بالبناءِ والانشاءِ

٣ — هنري الخامس

نقلنا في عددٍ سابق (دسمبر صفحة ٥٤٤) جانباً من كلمة كتبها الاستاذ سامي الجريديني تقدمة لترجمة هنري الخامس وهي من امهات مسرحيات شكسبير ، فيها جميع المزايا التي اصبح بها امير مسرحيي العالم على الاطلاق — حكم في اقوال الحكماء والمجانين استخلصها عقل نفذ الى اسرار الحياة ، وصور لطبائع الناس رسمها قلم ساحر صادق استشفَّ صاحبهُ ما وراء الظواهر من خفايا

وترجمة شكسبير لاتتاح الاّ لاصحاب الاحاطة والتعمق في فنون ادبهِ واسرار فنّهِ والذين أسمح لهم البيان وانقاد القلم . والاستاذ سامي الجريديني ناقل هذه الرواية ، وغيرها من آثار هذا الشاعر الخالد ، في طليعة هؤلاءِ في لغتنا العربية

علم الآثار

تأليف الاستاذ جاردنر وترجمة الاستاذين محمود حمزة الامين بالمتحف المصري والدكتور زكي محمد حسن الامين بدار الآثار العربية ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط محلى بسبعة وعشرون صورة

هذه هي الرسالة الرابعة من سلسلة المعارف العامة لخلاصة العلم الحديث التي تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، لنشر الثقافة الصحيحة بين جمهور القراء ، والمطالع للكتاب يرى انهُ على صغر حجمه بالقياس الى ما شملهُ من الدراسات قد جاء مستوفياً للفكرة التي وضع من اجلها. فعلم الآثار كما قال المترجمان في الرسالة التي نحن بصددها الآن «استعراض سريع لتاريخ علوم الآثار والنتائج التي توصل اليها المنقبون والآثاريون»

واهم ماجاء في الكتاب وصف شامل لأعمال علم الآثار ، وايضاح دقيق لآثار ما قبل التاريخ ، ودراسة الآثار في بلاد اليونان وغيرها ، ودراسة الاحجار الكريمة ، والسكة ، وعلم الاساطير ، وأحدث المكتشفات الاثرية في القطر المصري ، وبلاد ما بين النهرين ، كما تناول البحث في الكتاب مستقبل علم الآثار وغير ذلك مما يراهُ القارىء مبسوطاً بين دفتيه

وانا نرى لزاماً علينا ، ان نشير هنا الى ضعف الصور الايضاحية الى حد ان بعضها مطموس لافائدة منه لمن يريد التعرف على علم الآثار ويعتمد في الغالب على وضوح الصور وحسن بيانها للتفاصيل والدقائق

كما اننا نشك في ان تكون الصورة رقم ٢٥ للملكة نفرتيتي بحسب ما كتب تحتها تعريفاً لها . وهذا كله نتيجة مباشرة للسرعة التي احاطت باخراج الكتاب. وكم كنانود ان يضيف المترجمان شيئاً اكثر بياناً عن علم الآثار المصرية حتى يكون الكتاب مستوفياً للغرض الذي اخرج من اجله وهو تثقيف الناشىء الشرقي عموماً والمصري خصوصاً . نعم انهما يترجمان ، ولكن هذا — كما نرى — لا يمكن ان يقوم حائلاً دون تحقيق هذه الغاية حتى ولو كانت النية معقودة على وضع مؤلف خاص بالفن المصري . والاّ فلا معنى لتسمية الرسالة بعلم الآثار بينما هي تتناول بافاضة الآثار الاغريقية وحدها

وانا وان كنا قد لاحظنا بان الكتاب لم يلم الالمام العلمي الشامل في اختصار بمميزات الآثار بعضها عن بعض وطوابعها البارزة في كل منها ، الاّ اننا من ناحية اخرى لا يمكن ان تنكر هذا المجهود القيم الذي يذل في كتاب نود ان يكون حلقة في سلسلة طويلة من المعارف العامة التي تعمل اللجنة على نشرها

الدكتور احمد موسى

حديث الدكتور بيارد دودج

[تابع صفحة ٤٠]

وقد أخرجت الجامعة من نحو ثماني سنوات أول مجلة عربية ربعية في التربية وهي « مجلة التربية الحديثة » وخصّصت صفحاتها للبحث العام في التربية الحديثة واقتباس المبادىء النيرة وتطبيقها على مشكلات التربية في الشرق الادنى . فأصبحت هذه المجلة بادارة الدكتور امير بقطر مرجعاً يعترف بفضله في موضوعها في العالم العربي

ولعلّ اشهر الاساليب التي جربناها في التربية العامة ، هي المحاضرات التي ينظمها قسم الخدمة العامة ، كلّ سنة ويشترك فيها عشرات من قادة الرأي والفكر ويحضرها الوف من محبي العلم والادب

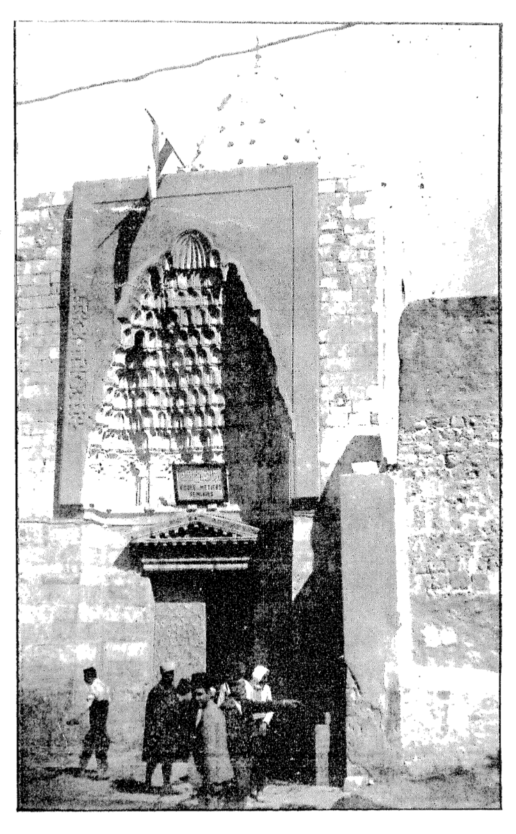
ثانياً — ان المعهد الاهلي في جميع أنحاء العالم مشهور بطبعه طلابهُ بطابع حرية الفكر والبحث والنقد . والتقدُّم في البلدان الدمقراطية ، يستند الى هـذه الحرية . حتى في الولايات المتحدة ، المشهورة بتقاليدها الحرة ، نجد الحرية على أوسعها في المعاهد الاهلية ، بل ان العراقيل التي اعترضت سبيل الحرية ، كانت اقوى في معاهد الدولة منها في المعاهد الخاصة

وقد عني اساتذة جامعتنا بانشاء تقليد الاستقلال الفكري في طلبتنا ولا سيما طلبة الفصول العالية وعلى وجهٍ خاص في العلوم الاجتماعية والفلسفة وآداب النفس والدين ، معتمدين على اساليب تحفز الى البحث والنقد وتكوين الرأي السليم . وقد بلغ من عنايتنا بهذا الاسلوب ان بعض طلبتنا الذين تخرجوا وطلبوا العلوم الفنية في معاهد اخرى لا ينون عن الاعراب لنا عما جنوهُ من الفائدة في ميدان البحث الحرّ . والتقاليد الدمقراطية من أنبل القواعد في الاسلام ، ومصر الآن ، ديناً وسياسةً بلاد دمقراطية . فتربية حرية الفكر والبحث والنقد في طلبتنا ، على ان تفضي هذه الحرية الى الحكم السليم ، من أهم ما يستطيع ان يقوم بهِ معهدنا في هذه البلاد

ثالثاً — ان تربية الشخصية وانماء الملكات والصفات الخلقية العالية من اهم ما تؤديهِ المعاهد الاهلية لطلاّبها . فالفصول الصغيرة ، والاتصال اليومي بين المدرس والطالب ، في حجرة الدراسة وميدان اللعب وبهو الاجتماع ، يجعل من المعهد الاهلي قالباً يفرغ فيهِ خلق الطالب . اما المعاهد التي يبلغ فيها الطلاب بضعة آلاف فقد صرفت النظر عن السعي سعياً خاصًّا الى التكوين الخلقي . وقد ظهر كتاب يدعى الانكليز وانكلترا ، اثبت فيهِ صاحبهُ ان الفساد والارتكاب الفاشيين في حياة انكلترا العامة قبل نحو مائتي سنة ، زالا بفعل التكوين الخلقي العالي في مدارس انكلترا الاهلية . وجامعة القاهرة الاميركية في جميع اقسامها ، تعلّق شأناً عظيماً على ضرورة الاتصاف بالصفات الخلقية العالية . فالاجتماعات الروحية العامة ، والصلات الدمقراطية بين المدرسين والطلاّب ، وتعيين مستشارٍ خاص لكل فصل من الفصول ، ودروس الفلسفة وآداب النفس والديانة — جميع هذه تنشىء جوًّا يمكن ان تغرس فيهِ المبادىء الروحية والخلقية العالية في نفوس التلاميذ

هذه نواحٍ من الغرض العالي الذي تتطلع اليهِ وهذا بعض ما بذلناهُ حتى الآن في هذا السبيل

فهرس الجزء الاول من المجلد التسعين



تصوير الدكتور سامي حداد

مدخل المارستان النوري الكبير في دمشق

(انظر مقال المارستان النوري الكبير صفحة ٢٠٦)

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٧ — ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٥

السماء والارض

تجتمعان في المطياف

المرقب والمطياف يسبران حقيقة الاجرام النائية

ان تاريخ الارض ومصيرها مرتبطان بتاريخ الشمس ومصيرها . هذه حقيقة أدركها الانسان ، أدراكاً عامًّا، منذ أشرق في ذهنه نور الإدراك . ولكن ألوفاً من السنين انقضت قبلما خطر له انهُ قد يجد في ذلك الأتون المحتدم تفسيراً لبعض المشكلات العقلية التي تعضهُ . كيف السبيل الى دراسة بناءِ الشمس ، وهي تبعد عنا ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وقطرها أقل من مليون ميل بقليلاً (٨٦٤٠٠٠ ميل) فحجمها يفوق حجم الارض الف الف مرة ، وحرارتها تتباين من ٦٠٠٠ درجة مئوية على سطحها الى نحو ٤٠ مليون درجة مئوية في باطنها

ليس بالعجيب ، والمصاعب هي ما هي ، ان تظهر أمنية كهذه الامنية ، متعذرة على ذكاء الانسان وحيلته الواسعة . وكأن الفيلسوف أوغست كونت كان يفكر في هذا عند ما قال : « ثمة أمور لا بدَّ للانسان من أن يبقى جاهلاً حقيقتها مثل معرفة تركيب الشمس والاجرام السموية من ناحيتها الكيمياوية » . أن ذلك الفيلسوف الكبير، لم يدرك ، والعلم الحديث لم يزل

في مهدهِ ، ان التنبؤ العلميَّ عمل محفوف بالخطر . ذلك أن الانسان بفضل المرقب والمطياف والمطياف الشمسي المصوّر وغيرها من وسائل البحث الحديث ، جاءَ بالكواكب الى سطح الارض وحلّل بناءها وعرف عناصرها وقاس درجات حرارتها وبردها

في تاريخ هذا البحث الفتّان ، يومان خالدان بينهما نحو قرنين من الزمان . أولهما يوم حلَّ نيوتن الفيلسوف الطبيعي الأشهر ضوء الشمس الى ألوانهِ السبعة . وثانيهما يوم تمكّن كيرشوف الالماني ، من البحث في تركيب الشمس وكأنهُ يبحث في تركيب جسمٍ كيمياويّ في المعمل

كان قد سبق الاكتشاف الذي تمَّ للطبيعي الالماني ، مكتشفات كثيرة مهّدت لهُ السبيل. ففي سنة ١٨٠٢ ، تحوَّل ولستن Wollaston أحد أعضاءِ الجمعية الملكية بلندن من ممارسة الطب الى البحث في الطبيعة والكيمياءِ وبدأ يدرس طيف ضوءِ الشمس جنباً الى جنب مع ضوءِ الشرارات الكهربائية والغازات المضيئة . وكان يمرُّ الضوء المخترق لغاز من الغازات في شق ضيق ، فيفوز بطيفهِ ، أي بالألوان التي يتألف منها . فتبين لهُ ان الضوء الساطع من لهب غاز من الغازات ، يحدث طيفاً تقطّعهُ خطوط لامعة . ثم ثبت لهُ ان لكل غاز خطوطاً يتميز بها وتختلف عن خطوط الآخر ، فبخار الصوديوم يحدث خطًّا لامعاً اصفر اللون ، وبخار البوتاسيوم يحدث خطًّا لامعاً بنفسجيَّ اللون

في هذه الملاحظات ، بدء علمٍ من أشهر العلوم الحديثة وأعظمها فائدة في الفلك والطبيعة والكيمياء ونعني علم الحلّ الطيفي

وما انقضت عشر سنوات او اكثر قليلاً ، على مكتشفات ولستن حتى عني رجل الماني يدعى فرونهوفر Fraunhofer وكان صانع نظارات ولا علم لهُ بمكتشفات ولستن ، بمباحث من هذا القبيل ، فأفضت بهِ مباحثهُ الى اكتشاف ظاهرة جديدة لاحظها ولستن اولاً وهي رؤية مئات من الخطوط السود في طيف الشمس . فصنع خريطة لطيفِ الشمس ، ورسم في مناطقها الملونة المختلفة ، ثلاثمائة واربعاً وعشرين خطًّا اسود ، شاهدها فيها

هوذا اكتشاف ظاهرة كبيرة الشأن ، ولكن فرونهوفر صانع النظارات ، عجز عن فهمها . كان قد جال في خاطرهِ ، ان لهذه الخطوط صلة بطبيعة الضوءِ ، ولكنهُ لم يرَ سبيلاً الى تعليلها. وانقضت اربعون سنة ، وهذا الاكتشاف مطويٌّ . ثم جاءَ انكليزي يدعى ستوكس Stokes

فكشف عن مفتاح لفهم هذه الخطوط فهماً صحيحاً . ذلك انهُ وجد انهُ اذا اخترق ضوء الشمس بخار ملح يدخل الصوديوم في تركيبه ، ظهر في طيف ذلك الضوء خطّان اسودان ، مكان الخطين اللامعين اللذين يظهران في الطيف المتولد من ضوء بخار الصوديوم . اي ان بخار الصوديوم امتصّ من ضوء الشمس اللون الذي يطلقهُ هو ، عند اشتعاله ، فترك محلّ الخطين الاصفرين ، خطين مظلمين . وبذلك فهمت خطوط فرونهوفر السود . واذن يمكن ان يقال ، ان الابخرة التي في الفضاء بين الشمس والباحث تمتص من ضوء الشمس الخطوط الملونة او اللامعة التي تحدثها في الطيف ، تاركةً في الطيف خطوطاً مظلمة

وفي السنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها كتاب داروِن في « اصل الانواع » صنع كيرشوف وهو في معمل بنصن الكيمياوي في هيدلبرج ، آلة جديدة يتبين بها العناصر من مراقبة خطوطها ، وأطلق عليها اسم سبكترسكوب ، اي آلة الطيف وقد ترجمناها بلفظ «مطياف». يؤخذ الضوء — في هذا الجهاز — من اي مصدر متوهج ، فيمرّ في شقٍ ضيق ثم تجمعهُ عدسات خاصة في شعاعة واحدة قبل ان يخترق موشوراً يفرقهُ الى الالوان التي يتألف فيها ، وهذا هو الطيف . والطيف يظهر على لوحة خاصة في المطياف ، حيث دوّن طول الامواج الخاصة بكل لونٍ من الالوان . فيستطيع الباحث ان يقول أرى في طيف هذا الضوء كذا خطوطاً في منطقة اللون الاصفر ، وكذا خطوطاً في منطقة اللون البنفسجي . ثم عمد كيرشوف الى ضوء الشمس فجعلهُ يخترق بخارات عناصر ومواد مختلفة ، قبل حلّه حلاً طيفيًّا ومراقبة الخطوط السود التي تظهر في مناطق الالوان المختلفة ، فأفضى بهِ بحثهُ هذا الى اكتشاف ناموس عام هو الآتي : «ان غازاً متوهجاً يمتص من أشعة الضوء المنطلقة من مصدر حامٍ للضوء تلك الاشعة التي يطلقها هو» فالحديد مثلاً اذا احمي حتى يصبح في حالة بخارية ووضع بين الشمس والمطياف ، امتصّ من ضوء الشمس الذي يخترقهُ الامواجَ التي يطلقها هو ، فاذا حلّ ضوء الشمس بعد ذلك في المطياف ظهرت خطوط مظلمة ، في المنطقة التي تظهر فيه الخطوط اللامعة الخاصة بالحديد

وما كاد يذاع هذا الاكتشاف ، حتى أدرك العلماء مقتضياتهِ . هنا مفتاح ، يفتح لهم المغلق من اسرار السماء ، ويدلّهم على تركيب الابخرة التي تحيط بالشمس . فالسماء والارض التقتا في

معمل كيرشوف بل في مطيافه . وقد بلغ من حماسة العلاَّمة هلمهلتز ان قال : « ان هذا الاكتشاف قد أثار من اعجاب الناس ما لم يثره اكتشاف آخر لانهُ يمكننا من النفوذ الى عوالم كانت ابداً محجَّبةً عنا » . ولا ريب في ان فكر هلمهلتز كان متجهاً ، عند ما فاه بهذا القول ، الى بناء الشمس والكواكب

وكذلك نقضت نبوءة الفيلسوف كونت . ان هذه الخطوط المظلمة في طيف الشمس ، تدلُّ على وجود أبخرة معدنية وغير معدنية فيها . ذلك اننا اذا عرفنا الخطوط الطيفية التي يمتاز بها عنصر من العناصر التي على الارض ، أمكننا بامرار ضوء الشمس في بخار ذلك العنصر ، ان نعرف ، هل هو داخل في تركيب الشمس او لا. ولولا الجدال الذي اثارتهُ نظرية التطوُّر العضوي التي بسطها داروِن في كتابهِ ، لما انصرف اهتمام الناس حينئذٍ عن اكتشاف خطير ، كاكتشاف كيرشوف هذا

ومن ثمَّ اكبَّ كيرشوف على دراسة هذه الخطوط المظلمة عدداً وموقعاً. فبخر الحديد والكلسيوم والمغنزيوم والباريوم والنحاس والسترنتيوم والزنك والصوديوم والنيكل والكروم والكادميوم والمنغنيس وفلزات اخرى في حرارة الضوء القومي وصنع خرائط للخطوط اللامعة في طيفها . ثم قابل ذلك بمواقع الخطوط المظلمة في طيف ضوء الشمس ، متبيّناً المواقع التي تتوافق فيها الخطوط اللامعة بالخطوط المظلمة ، فاستدلَّ من الخطوط اللامعة الخاصة او المميزة لعنصر ما ، على وجود ذلك العنصر في الغلاف الغازي الذي يحيط بالشمس ، وهو متأكد مما يفعل تأكد استاذه بنصن من العناصر التي تدخل في تركيب مركَّب على سطح الارض

وبذلك ولد علم الفلك الطبيعي والكيماوي المعروف الآن باسم Astrophysics فخلب هذا البحث ألباب طائفة كبيرة من العلماء فأقبلوا على دراسة الشمس والنجوم لمعرفة العناصر التي تدخل في تركيبها بالمقابلة مع العناصر الداخلة في تركيب الارض . فلم يعثروا في خلال بحثهم الطويل على عنصر واحدٍ فيها ليس لهُ على الارض ما يقابلهُ ، فأقاموا الدليل على الوحدة المادية الكونية . لأنَّ الانسان وسائر الاشكال الحية والجامدة ومادة الشمس والكواكب والسيارات والمذنبات والعوالم الجزرية في رحاب الكون النائية ، قوامها جميعاً العناصر الكيماوية التي نعرفها

ولكن قبل انقضاء سنة ١٨٦٨ اعلن اكتشاف أثار الخواطر . ذلك ان باحثين ، لاحظا

ظاهرة جديدة ولكنّ كلاًّ منهما لاحظها على حدة . كان احدهما المسيو پيير جول سزار جانسن نجل موسيقي فرنسي ، وكان معنيًّا برصد كسوف كليٍّ في غنتور في بلاد الهندستان . والآخر نورمن لُكْيَر احد كتّاب وزارة الحربية البريطانية حينئذٍ . لاحظ كلٌّ منهما بضعة خطوط لامعة في طيف الشمس . وكان «لكير» أسبقهما الى القول بان هذه الخطوط اللامعة لا تقابل خطوط اي عنصر معروف على الارض . فكان ذلك غريباً ، لانهُ اذا صحَّ، عني ان في الشمس او في اكليلها عناصر ليست على الارض . فأطلق على هذا العنصر اسم هليوم (وهو مشتقٌّ من هليوس وهو لفظ يوناني يعني الشمس) . وقد ظلَّ هذا العنصر مجهولاً على الارض الى منتصف العقد الاخير من القرن الماضي اذ اكتشفهُ رمزي الكيمياوي الانكليزي. ومن العجيب ان سبيلهُ الى اكتشافهِ كان اسلوب الحلّ الطيفي. فقد تبين في طيف مركّب كان يعالجهُ خطوطاً تقع من الطيف حيث الخطوط الخاصة بالهليوم — العنصر الشمسي — فأدرك ان الهليوم موجود على الارض وبالحلّ الكيمياوي تمكن من استفرادهِ وهو الآن من اهم المواد الغازية ولاسيما في البلونات، لانهُ خفيف وغير قابل للالتهاب

وقد كشف حتى الآن نحو ستين عنصراً في الشمس وكلٌّ منها لهُ ما يقابلهُ على الأرض

كانت سنة ١٨٦٨ التي كشف فيها عنصر الهليوم في الشمس ، تاريخاً ذا شأن في دراسة الشمس من ناحيتها الطبيعية لان العلامة جورج اليري هايل وُلد فيها ، وهو أحد نوابغ هذا العلم وباعث الحياة والنشاط فيهِ بمخترعاتهِ ومكتشفاتهِ الباهرة

كان من المتوقع لهذا الفتى ، ان يخلف أباهُ في عملهِ الصناعي الكبير — مدير شركة مصنع للرافعات — ولكنهُ نشأ راغباً في البحث العلمي ، وتبيَّن والدهُ فيهِ هذه الرغبة فأثنى عليهِ وشجعهُ . قيل ان أباهُ رآه يميل الى البحث الميكروسكوبي، في الحيوينات المائية، فقال لهُ انهُ اذا والى دراستهُ بطريقة منظّمة فانهُ يبتاع لهُ مجهراً متقن الصنع قوي العدسات . وكذلك تقلّب الفتى في اتجاههِ العلمي من الحيوينات المائية الى الحفريات القديمة الى التجارب الطبيعية والكيمياوية ، وكان والدهُ في كلٍّ منها مرشداً حكيماً ، يحثّهُ على الاجادة ويشحذ عزمهُ بما يهديهِ اليهِ من أدوات البحث والتجريب . وأخيراً خلب علم الفلك لبّهُ، فأقبل عليهِ بكل ما في عقلهِ وجسمهِ من شغفٍ وقوّة

وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره عند ما ابتنى لهُ والدهُ مرقباً — تلسكوباً — على سطح الدار ، فقرَّر الفتى بعيد ذلك ان ينفق حياتهُ في دراسة الاجرام السموية ، ولكنهُ أدرك من بدء حياتهِ العلمية ادراكاً واضحاً الهدفَ الذي يبغي ان يسير اليهِ . قال: ان رصد الاجرام واحصاءها وتدوينها في الخرائط عملٌ لهُ قيمة عظيمة ، ولكن ما ابغي، هو سلسلة من التجارب تسير بنا خطوة خطوة في ترقية العلم الجديد المعروف بعلم الفلك الطبيعي astrophysics وهو دراسة الاجرام الفلكية بالمطياف spectroscope والمطياف الرسَّام spectrograph. قرأ كتابيْ لكير في الحل الطيفي وطبيعة الشمس وكتاب يونغ في الشمس ، فاذكت مطالعتها حماستهُ فصنع مطيافاً بنفسهِ وجرَّب بهِ تجاربهِ الاولى بطيف اللهب والشرر ثم بطيف الشمس

وكان في جامعة جونز هبكنز الاميركية عالم طبيعي من الطبقة الاولى يدعى رولند (Henry A. Rowland) وكان هذا العالم قد ابتدع طريقة تمكنهُ من تخطيط لوح من الزجاج او المعدن ، خطوطاً دقيقة متلازَّة متوازية حتى تمكن من صنع ٢٤ الف خط متوازية متساوية البعد بعضها عن بعض في ما مساحته بوصة مربعة. فالزجاج المخطط بهذه الطريقة ، أفعل في حل ضوء الشمس الى الالوان المركب منها ، من الموشور الزجاجي . وبهِ استعان رولند على صنع خريطتهِ المشهورة لطيف الشمس ، واليهِ استند هايل في حلّ بعض ألغازها

كانت الشمس في نظر العلماء حينئذ محاطة بطبقات من الغازات الشفافة أعمقها طبقة تعرف باسم « فوتوسفير » اي الطبقة النيِّرة وهي بيضاء الضوء وفوقها طبقة اخرى مضيئة قوامها ابخرة العناصر الثقيلة وتدعى « الطبقة العاكسة » فطبقة ثالثة قوامها ابخرة العناصر الخفيفة كالايدروجين والهليوم والكسيوم عمقها ثمانية آلاف ميل وتدعى « الكروموسفير » اي الطبقة الملوَّنة وخارج هذه طبقة تعرف بالاكليل قوامها غازات لطيفة تعكس الضوء وتفرقهُ وتمتد مسافة ملايين من الاميال . وكان تركيب هذه الطبقات حينئذٍ وكثافتها محجباً بحجب الخفاء

وكان في جامعة برنستن في ذلك الوقت استاذ للفلك يدعى يونغ ، انصرف عن التبشير الى علم الفلك ، فأصبح في طليعة الفلكيين الاميركيين الذين عنوا عناية خاصة بمباحث جانسن ولكير في الحلّ الطيفي . فحجَّ اليهِ هايل الشاب ، ورأى في مرصدهِ مشهداً من مشاهد الطبيعة الرائعة

نعني الالسنة المندلعة من قرص الشمس ، فحزم امرهُ هناك وقرّر ان يصرف بقية حياته في البحث الفلكي

كانت هذه الالسنة تندلع من قرص الشمس بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الثانية وتمتدُّ الى بعد ٤٠٠ الف ميل . فسأل نفسهُ كيف تتكون هذه الالسنة ومن اين تستمدُّ هذه النيران الهائلة الوقود وما تأثيرها في الارض . أسئلة كان العلم لا يملك حينئذٍ الاجوبة الشافية عنها . قال هايل في نفسهِ : « ان هذه البوتقة النارية قد تمهّد لنا السبيل لمشاهدات وتجارب ، لاقبل لنا بمثلها في معاملنا على سطح الارض » حيث يتعذّر علينا الفوز بدرجات عالية من الحرارة والضغط تقارب درجاتهما على سطح الشمس

كان ڤاسيانيوس قد ذكر في سنة ١٧٣٣ انهُ شاهد ألسنة الشمس وهو يرصد كسوفاً كليًّا . ثم وصفها بايلي الأنكليزي وصفاً دقيقاً بعد مشاهدتها في اثناء رصده لكسوف كلي وقع في ٨ يوليو سنة ١٨٤٢ . وكان بايلي هذا سمساراً وفلكيًّا هاوياً . ومع وصفهِ الدقيق لما شاهد عجز عن فهم سرها . فعزاها هو وغيرهُ من علماءِ ذلك العهد الى القمر ، الاّ انّ التدقيق في دراستها في اثناءِ كسوف وقع في سنة ١٨٦٠ أثبت انها تندلع من الشمس لا من القمر

ولكن اذا شاء العلماء ان يفهموا هذه الظاهرة العجيبة ، فلا يسعهم الاكتفاء برصدها ثواني معدودة عند وقوع كسوف كلي ، ولا بدَّ من ابتداع وسيلة تمكنهم من دراستها في كل ساعة من ساعات النهار ، وذلك بحجب الضوء الباهر المنبعث من قرص الشمس . هذه المسألة حيّرت هايل وهو لا يزال طالباً في معهد ماستشوستس التكنولوجي . وكان جانسن قد بحث في الموضوع فتبين في طيفهِ خطوطاً لامعة عرف انها خاصة بأحد الألسنة المندلعة من قرص الشمس ، فصاح اني أستطيع ان ارى هذه الخطوط في غير وقت الكسوف ، وبتغيير موقع مطيافهِ تمكن من تخطيط صورة لسانٍ منها وعرف انهُ في الغالب مكون من الايدروجين لان خط الايدروجين كان أبرزها في طيفهِ . ثم أقبل هجنز على الطريقة نفسها فوسع الشق الذي يدخل منهُ النور فتمكن من رؤية لسانٍ كاملٍ كأنهُ يراهُ من نافذة

ثم حاول يونغ بعد ذلك ان يصوّر احدهذه الالسنة بالمصوّرة الضوئية فكانت الصورة غير واضحة فأهمل التصوير كوسيلة من وسائل البحث في هذه الظاهرة الشمسية . ولكن هايل اكبَّ على البحث

عن طريقة تمكنهُ من هذا التصوير. وكان هدفهُ الفوز بصورة لقرص الشمس والالسنة مندلعة منهُ ، وان يتم لهُ ذلك في رابعة النهار . وكان في احد الايام راكباً مركبة نقلٍ كهربائية في شيكاغو اذ خطرت لهُ طريقة لحل المعضلة التي عضتهُ ، ولكنهُ لم يعلم حينئذٍ ان هذا الخاطر نفسهُ كان قد خطر لغيرهِ من الباحثين وان احداً منهم لم يفز بتحقيقهِ

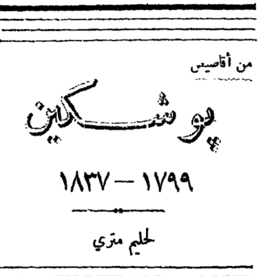
كان الخاطر بسيطاً . قال هايل : اصنع شقاً سعتهُ جزء من مائة جزء من البوصة في قطعة من الورق المقوّى وامسك بهِ بين عينك ومصباح كهربائي فلا ترى الاّ جانباً فقط من السلك المتوهج . فاذا هززت الشق بان لك السلك المتوهج كلهُ . فما نحتاج اليهِ لتصوير الشمس ، جهاز نضعهُ بين الشق المتذبذب والعين يحجب عنا كلّ الضوء الاّ الضوء المنطلق من عنصر واحد

وعلى أساس هذا الخاطر صنع هايل جهازهُ المشهور المعروف باسم مطياف الشمس المصوّر او مصوّرة الطيف الشمسي Spectroheliograph بعد ما لاقى مصاعب لا توصف في صنعهِ فتغلب عليها ببراعتهِ وذكائهِ ومثابرتهِ . وفي ٧ مايو سنة ١٨٩١ تمكن هايل من ان يصور صورة واضحة لاحد ألسنة الشمس في رابعة النهار بجهازهِ هذا

فلما ظهّر الواح التصوير الضوئي وثبتها غلب عليهِ الفرح فأراها لصديقيهِ واستاذيهِ المرتابين يونغ وورولند . فانتفى من ذهنيهما اي شك في دقة الطريقة الجديدة ونجاحها . وكذلك تمّ على يدي هايل وهو في الثالثة والعشرين ، آية من آيات الظفر العلمي في العصر الحديث

بل ان هذا الجهاز كان فاتحة عهد جديد في دراسة الشمس من ناحيتها الطبيعية . وما ذاع نبأهُ حتى دعاهُ السر وليم هجنس Huggins رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني لعرض صوره هذه على اعضاء المجمع . وكان بين الحاضرين العالم الفرنسي هنري الكسندر ديلاندر مدير مرصد الفلك الطبيعي في مودون على مقربة من باريس . وخرج ديلاندر من الاجتماع عائداً الى مرصدهِ حيث والى مباحثهُ فلم تنقض بضعة شهور حتى أيّدت النتائج التي وصل اليها كل ما قالهُ هايل

هوذا الابواب قد تفتحت والشمس قد استسلمت للمطياف والمصوّرة الطيفية ، والعلماء لن يقفوا عند تصوير ألسنتها المندلعة من حواشيها مكتفين بما صنعوا ، بل لا بد من مهاجمة وجهها لكشف ما يخفيهِ من اسرار وراء ذلك الضوء الباهر المنبعث منهُ . وغرائب ما كشفوهُ عليهِ وفيهِ موضوع بحثنا القادم



من أقاصيص

پوشكين

١٧٩٩ — ١٨٣٧

حليم متري

اذا ما بدأت القصة فنحن في بيت « ناريموث » الضابط في حرس القصر يجتمع وطائفة من اصدقائه في ليلة شتوية حيث يلعبون الورق ولقد ظلوا الى الخامسة صباحاً ولما يتناولوا بعد طعام العشاء. فأما الطعام فقد أعد واختلف اللاعبون الى المائدة يلتهمونهُ التهاماً . فاذا ما بدأت « الشمبانيا » تصبُّ في الأقداح فقد حمي بينهم النقاش وطمي وانك لتسمع احدهم يسأل « سورين » عماه ربحه فيقول لهُ « انهُ خسر كالمعتاد . اذ ليس لهُ حظ وسوف يظل هادئاً لا يضطرب على انهُ كثيراً ما يخفق في لعبه » ويقول لهُ احد الضيوف « وما رأيك في هرمان » وهو يعني احد الضباط من فرقة المهندسين « انهُ لم يلمس في حياتهِ ورقة من ورق اللعب . بل لم يراهن . ولكنهُ شغوف بأن يجلس الينا حتى الساعة الخامسة في الصباح ونحن نلعب »

فاجابه هرمان : إن الورق ليشغلني كثيراً على انني لن احتمل ضياع حاجة في سبيل متعة غير محققة

وتحدث تومسكي قائلاً « ان هرمان رجل الماني دأبه الاقتصاد . وهو لا يحملني على شيء من العجب ولكن الشخص الذي لا استطيع ان افهمهُ أو اسبرغوره هو جدتي « الكونتيس حنه فيدوروفنا »

فصاح بهِ الضيوف جميعاً « وكيف كان ذلك » ؟ فأجاب : « لستين عام مضت زارت جدتي وزوجها باريس ولقد أتاح لها جمالها الرائع ان تصبح حديث الناس . فلقد كان بعضهم يتسابقون وراء عربتها لكي يرنوا اليها وليروا « زُهرة روسيا » تلك التي افتتن بحبها « الكردينال ريشيليو » ذلك الوزير العظيم الذي أوشك من فرط هيامهِ بها أن ينتحر . وكانت جدتي تشهد الموائد الخضراء . فخسرت مرة مبلغاً كبيراً لدوق أورليان . ولما عادت الى منزلها أخبرت جدي بذلك وطلبت اليهِ توفية المبلغ . وكان يخشاها ويفرق من سطوتها وبأسها وينزل منها منزلة العبد للسيد . غير انهُ لما سمع بخسارتها الفادحة تجاوز حده وأفهمها في شيء من الرفض أن ما تحمله من اوراق يثبت ان وجودها في تلك الفترة في باريس كلفهما قرابة نصف مليون في مدى

ستة أشهر وان ذلك مما يحمله ايضاً على الرفض البات . فعند ذلك لطمته على صمام أذنه لطمة كادت تصمه . ونامت بمعزل عنه تلك الليلة . وفي الصباح أعادت عليه الطلب فوجدته على الرفض مصرًّا . ولما انقطع أملها من ناحيته أخذت تفكر في الخلاص من ذلك المأزق وتذكرت رجلاً نبيلاً كانت تروى عنهُ احاديث كثيرة هو الكونت سان جرمان وكان معروفاً بحدة الذكاء وكانوا يزعمون انهُ مكتشف «اكسير الحياة» و «حجر الفلاسفة» . ومهما يكن من أمر هذه المزاعم فلقد كان رجلاً خلاب الحديث فتان المؤانسة وجيهاً في كافة المجالس والمجتمعات . وكانت جدتي تعلم انهُ ثري . فأزمعت أن تلتجيء اليهِ واستدعته فأسرع اليها وحدثته عن قسوة زوجها ووحشيته بأفظع عبارة . وطرحت عليهِ اعباء حاجتها الفادحة فأطرق الرجل مليًّا ثم قال : اني قادر على امدادك بالمال ولكن اعلم انك لن تستريحي بعد ذلك حتى تردّيه اليّ فكأني سأخرجك من مأزق لأوقعك في آخر وعلى ذلك فسأطلعك على وسيلة تستردين بها خسارتك عن طريق المقامرة

قالت جدتي : ولكن يا عزيزي الكونت انني لا املك من المال شيئاً . فكيف أقبل على اللعب وانا مفلسة ؟ . فقال سان جرمان « لا حاجة بك الى المال . تفضلي عليّ بالاصغاء »

ثم افضى اليها بسر غريب يتمنى لو يعرفه اي منا أو يشتريه بكل ما يملك من ثروة فذهل السامعون لهذا النبأ واشتدت بهم الرغبة في المعرفة وأشعل تومسكي سيجاراً وشرع يدخن ثم استأنف الحديث قائلاً : « في أمسية ذلك اليوم ذهبت جدتي الى قصر فرساي للمقامرة وافتتح الدوق اورليان اللعب . فاعتذرت جدتي عن توفية دينها له ألطف اعتذار ثم بدأت تلعب ضده فاختارت ثلاث ورقات فلعبتها واحدة تلو الاخرى فربحت الثلاث جميعاً وبذلك استردت جدتي ما كانت قد خسرتهُ في الليلة السابقة مشفوعاً بارباح طائلة »

قال أحد الضيوف «من عجب ان يكون لك جدة كهذه ثم يعييك ان تستخرج منها هذا السر العظيم » . «هذا ضربٌ من المحال . لقد كان لجدتي أربعة بنين أحدهم والدي . ما منهم الا مقامر مغامر ومع ذلك فقد أبت أن تبوح لأيهم بذلك السر على ما فيه لهم من نفع وجدوى . ولكن عمي الكونت ايفان اليتش حدثني الحديث الآتي : وهو ان المرحوم تشابلتسكي الذي مات فقيراً بعد أن خسر الملايين على المائدة الخضراء فقد مرة ثلثمائة الف روبيل فكاد يجن حزناً وغمًّا فرثت له عمتي فأعطتهُ ثلاث ورقات وأمرتهُ ان يلعبها على التوالي وأخذت عليهِ عهد الله وميثاقه ان لا يبوح بالسر وان لا يعاود اللعب بعد ذلك ما عاش . فمضى تشابلتسكي الى خصمه ولاعبه فأخطر على الورقة الأولى خمسين الف روبيل فربحت ثم ضاعف المبلغ على الورقة الثانية فربحت وضاعف على الثالثة فربحت وبذلك استرد فوق ما كان قد خسره : والآن ايها السادة قد آن لنا ان ننصرف فقد آذن الفجر ان يلوح والديك ان يصيح . . . » فشرب الجميع سؤر أقداحهم وتوادعوا ثم افترقوا

— ٢ —

كانت الكونتيس العجوز عمة تومسكي جالسة في غرفة التواليت امام مرآتها ومن حولها ثلاث وصائف يقمنَ بخدمتها . وكانت الكونتيس قد فقدت كل أثر من آثار جمالها الغابر ولكنها لم تفقد عادات شبابها المندثر من التجمل والزينة . وكانت تجلس قرب النافذة وصيفة لها حسناء تشتغل على منسج التطريز . تلك هي « ليزا ڤيتا » التي كانت تسدد نظرها نحو النافذة من حين الى حين ثم ألقت نسيجها وأطلت من النافذة . ولم تكن الا برهة حتى ارتفع لها في اقصى الطريق شبح فتى في زي الضباط المهندسين . فاحمرَّ وجهها خجلاً وتناولت نسيجها واستأنفت عملها على المنسج وفي هذه اللحظة عادت الكونتيس العجوز مستكملة اللباس والزينة . وتحدثت الى ليزا ڤيتا في ان تأمر الخدم باعداد المركبة ليخرجا في نزهة : ولقد قامت الفتاة عن منسجها متثاقلة الخطا كمن به ذهول ووقفت حائرة . فلمحت الكونتيس هذا فقالت: « ليزا ڤيتا . ماذا بك وما خطبك؟ أبك صمم أم ذهول؟ . نادي الخدم ومُري باعداد المركبة في الحال»

انطلقت ليزا ڤيتا بسرعة وفي هذه الاثناء دخل أحد الخدم فقدم للكونتيس بضعة كتب هدية من الامير « بول الكسندروفتش » ودعت الكونتيس وصيفتها لقراءة ما بالكتاب فاذا بدأت ان تقرأ فقدشعرت الكونتيس بأن موضوع الكتاب لا يعنيها لانه سخف ومن سقط المتاع ولقد أنبت الكونتيس وصيفتها لتأخرها في ارتداء ملابسها وعابت عليها تكرارها التأخير عند خروجها

كانت الكونتيس متغيرة المزاج لم يهدأ لها بال . فما كادت « ليزا فيتا » تصل الى غرفتها حتى هبت الكونتيس الى جرس الغرفة تقرعهُ قرعاً مستمراً . فهجم ثلاث وصائف من باب وخادم من باب آخر . وصاحت الكونتيس قائلة « لقد أصبحت في قصري لا أطاع أو يسمع لي قول أو يؤبهُ لي . أين ليزا ڤيتا ؟ ألا خبروها انني قد عيل صبري في انتظارها . . . » وهنا عادت ليزا ڤيتا تحمل معطفها وقبعتها فقالت الكونتيس . لقد طال غيابك يا ليزا ڤيتا . وأراك تكثرين من امر الزينة والتجمّل اكثر مما ينبغي ومن يا ترى تنوين اقتناصه . . ؟ ثم ما رأيك في جوّ اليوم . . ؟ ارى انهُ يوم عاصف فقالت ليزا ڤيتا . كلاَّ يا سيدتي انهُ ليوم هادىء ساكن الريح . وقال ذلك جميع الخدم ايضاً . وقالت الكونتيس : انهُ ليوم قمطرير عبوس. ألا تحسون الريح والبرد القارس. أعروا الخيل من السرج فلا سبيل الى الخروج اليوم . فتألمت الوصيفة ليزاڤيتا لهذه الحياة المليئة بالمتناقضات الاليمة

— ٣ —

قبل وقوع هذه الحوادث بأسبوع كانت ليزا فيتا جالسة الى نافذتها في صباح يوم جميل تطرز على منسجها فحانت منها التفاتة الى الطريق فوقع بصرها على فتى من فرقة الضباط

المهندسين . وكان واقفاً لا يبدي حراكاً يطيل النظر الى نافذتها . فنكست رأسها وأقبلت على عملها . وبعد خمس دقائق أطلت ثانيةً من النافذة فاذا الفتى الضابط لم يبرح مكانهُ ولا يزال موكلاً طرفهُ بالنافذة . ولما لم يكن من شأنها مغازلة الضباط الناظرين الى نافذتها فقد شغلت بعملها في شيء من النشاط ومضت ساعتين كاملتين من دون ان ترفع رأسها . ثم دق جرس الغداء فنهضت وتركت نسيجها . ثم حانت منها التفاتة الى الطريق فاذا الضابط لم يغادر موقفهُ فاشتد عجبها من ذلك. وبعد الغداء عادت الى النافذة وهي تحمل شكّاً وقلقاً ونظرت ولكنها لم تجد للضابط أثراً فصرفت من ذهنها شبحهُ وتناستهُ

وبينا هي تهم بالركوب مع الكونتيس بعد ذلك بيومين أبصرت الضابط نفسهُ خلف باب المركبة متلثماً تتوقد عيناه السوداوان من خلال لثامه فأوجست منهُ خيفة لغير علة واضحة وأخذت محلها من المركبة والرعب يرجف أوصالها . ولما عادت الى المنزل اسرعت الى النافذة فاذا الضابط في موقفه القديم يديم اليها النظر . فارتدت منقبضة وتملكها نوع غريب من الشعور لم تدرك لهُ معنى . ومن ثمَّ فصاعداً لم يمض يوم الاَّ ظهر ذلك الضابط تحت النافذة في الساعة المعهودة فنشأ بين الفتاة وبينه نوع من التعارف الصامت والصحبة الخرساء . فكانت اثناء عملها على المنسج تحس ريحه وتشعر بروحه ثم ترفع رأسها لتنظر اليه وجعلت نظراتها تزداد على مرّ الايام وكان الفتى قد فطن الى هذا فارتاح اليه وكأَنهُ يرسل من عينيه معاني الشكر والغبطة وكانت الفتاة تبصر احمرار وجهه كلما تلاقت الحاظهما . وبعد اسبوع بدأت تبتسم لهُ

ولعل هذا الحديث يفهمنا ان ذلك الفتى هو « هرمان » الذي ورد ذكره في أول هذه القصة وعُرِفَ بأنهُ من فرقة الضباط المهندسين

— ٤ —

كان هرمان ابن رجل الماني استوطن روسيا وتجنس بالجنسية الروسية وكان قد ورث عن أبيه ثروة لا بأس بها . وكان شديد الاقتصاد في النفقة يجتزىء من مرتبه ولا يمس ميراثه وكان جم الحشمة والوقار بعيد المطامح والمطامع لهُ من قوة عزيمته وحزمه اشد رادع وقامع لشهواته فكان من فرط ميله للمقامرة لم يمس ورق اللعب قط . وكانت قصة الورقات الثلاث قد أثرت في نفسه أشد تأثير وأشعلت خياله فجعل يسهر الليالي لا يفكر في غير ذلك ثم بحث عن قصر الكونتيس حتى عرف مكانهُ وأبصر الفتاة ليزا فيتا وهي تطرز على منسجها فأزمع ان يصل اليها مهما كلفه ذلك ليتخذها سلماً للوصول الى سيدتها الكونتيس لكي يعرف سر الورقات الثلاث منها طوعاً او كرهاً ثم كان من امر وقوفه ازاء النافذة ومخالسته النظرات للفتاة وتحديه اياها ما كان

تحدثنا في ان الكونتيس بعد ان امرت باعداد المركبة عادت وامرت ثانياً بفك الخيل

ولكنها ما لبثت ان امرت باعدادها ثانياً . وكذلك لم تكد ليزا ڤيتا تنزع معطفها وقبعتها حتى أُمرت بلبسهما ثانياً وخرجت مع سيدتها للنزهة ولم تكد العربة تبدأ في السير حتى لمست يد ليزا ڤيتا يدٌ أخرى والقت فيها ورقة فأخفتها في قفازها وظلت طول النزهة لا تسمع ولا تعي ولا تفقه . وكلما القت عليها الكونتيس سؤالاً — وما كان اكثر ما تسأل — اجابتها اما بالصمت وإما بما هو شر من الصمت من جواب سخيف خارج عن الموضوع حتى ضجت الكونتيس وانهالت عليها سباً وشتماً

ولما عادت ليزا ڤيتا من النزهة اسرعت الى فض تلك الرقعة التي وصلتها من هرمان . فاذا بها قطعة من عاطفته وهيامه سداها الحشمة ولحمتها الادب . فطربت لهذا الطرب كله على ان سرورها كان مشوباً بنوع من القلق والاضطراب لارتباطها لاول مرة بشاب غريب بعلائق سرية خصوصية وقد كان في شدة جرأة ذلك الشاب ما اخافها وأرهبها فأخذت تعنف نفسها على طيشها وتهورها . ولم تدر ماذا تصنع أتهجر النافذة والجلوس اليها ؟ فتقطع آمال الشاب بهذا الجفاء ؟ أم ترد اليه رسالته فتبئسه أم تجيبه عنها جواب رفض وإباء ؟ وبعد طول الحيرة والتردد حررت له الرقعة الآتية : « لاشك عندي ان غرضك شريف وانك لاتود ان تؤذيني بما يحرجني أو يسيء الى سمعتي غير اني لاأحب أن يكون بدء تعارفنا بهذه الطريقة التي تسلكها »

ولما ظهر هرمان في اليوم الثاني تحت النافذة ألقت بالرقعة على الطريق . فسرعان ما التقطها وذهب بها الى محل حلوى ففض غلافها فألفى داخلها رسالته مردودة والجواب عليها وكان قد توقع ذلك فانقلب الى داره وذهنه مشغول بما كان يدبره من الدسيسة . ولقد أرسل لها فتاة حائكة بعد ثلاثة أيام برسالة منهُ ففضتها وهي ترجو ألا تكون من غريم يطالب بدين . ولقد أحبت أن تنكر الرسالة متجاهلة صاحبها ولما كان هرمان يطلب لقاءها فقد ازعجها وقاحة هذا الطلب وصاحت قائلة ان تلك الرسالة لم تكن لها فقالت لها الفتاة . ولماذا مزقتها إذن ؟ لقد كان ينبغي ان ترديها الى صاحبها . . . فارتبكت ليزا ڤيتا امام هذه الملاحظة الدقيقة وقالت أرجوك ألا تأتيني بأية رسالة أخرى وخبري مرسلك ان هذا عار عليهِ . ولم يكن هرمان بالرجل الذي تصده مثل هذه الصدمة . فأضحت ليزا ڤيتا لا يمر يوم الا أتتها منهُ رسالة مشحونة بآيات الوله والصبابة والاستعطاف فكانت تنم على عزيمتهِ وصلابة ارادته وطمحات خياله الجامح الشرود الذي لا ترده شكيمة أو يثنيه عنان . أما الفتاة فقد وهنت امام هذا السيل الجارف فأذعنت واستكانت ولم تعد تقوى على رد تلك الرسائل . بل جعلت ترتاح اليها وتجد لها حلاوة في سمعها وبدأت تجيبهُ على رسائله وكانت ردودها تزداد على الأيام اطناباً واسهاباً ورقة وغزلاً الى ان القت اليهِ من نافذتها ذات صباح بالرسالة الآتية : « في هذه الليلة ستقام حفلة راقصة في دار السفارة وستشهد الكونتيس هذه الحفلة وسأظل معها هنالك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وسيبقى المنزل خالياً الا من

البواب وهذا دأبه النعاس . فاطرق المنزل الساعة الثانية عشر . فاذا عثر بك أحد في الساحة فاجعل حجتك السؤال عن الكونتيسة وارجع بسلام ولكن من المنتظر ألا يعثر بك أحد فاعمد إلى غرفة الكونتيس تجد بها حاجزاً خلفهُ بابان فافتح الباب الايسر يؤدي بك الى دهليز في اقصاه سلم يفضي الى غرفتي فانتظرني بها »

وفي الساعة الثانية عشر صعد هرمان سدة الباب ودخل الساحة المشرقة بالمصابيح الوضاءة ولم يجد أثراً للحارس فرقى السلم حتى بلغ حجرة الكونتيس التي بها مضجعها . فألفى في احدى زواياه شبه محراب مزداناً بصور القديسين وتماثيل القديسات ينيره مصباح من الذهب الابريز وحول الحجرة نمارق وأرائك عليها وثير الوسائد وقد نصلت اصباغها لتقادم العهد ورقمت عليها يد القدم سطور الوحشة والكآبة وكان على احد الجدران صورتان من صنع المصورة الباريسية المشهورة « ليدا » احداها تمثل رجلاً ربعة بادناً أشقر يناهز الاربعين في حلة عسكرية، خضراء هو «زوج الكونتيس المتوفى» والصورة الاخرى تمثل الكونتيس في صباها. وفي جوانب الغرفة تماثيل شتى من الشبه والخزف والصيني وساعات وصناديق بها حلي وزخارف ومراوح وشتى اصناف من اللعب والتحف

وقف هرمان خلف الحاجز فألفى لدى ظهره سريراً من الحديد وعلى يمينه باب المقصورة الخاصة بالكونتيس وعلى يساره الباب المؤدي الى الدهليز ففتحه فأبصر السلم المفضي الى حجرة الوصيفة ليزا ڤيتا ولكنهُ أغلقهُ ولبث مكانه . مرّ الوقت بطيئاً وكان السكون سائداً وظل هرمان واقفاً مستنداً الى رف الموقد الخامد ودقت الساعة الواحدة ثم نصفاً ثم اثنتين واذ ذاك سمع وقع حوافر وصرير عجلات من أقصى مسافة فاعترته رجفة شديدة وهزة عنيفة وتقدمت المركبة ثم وقفت . وسمع حركات الوصائف بالقصر غاديات رائحات في هرج ومرج . وأشعلت المصابيح وتألقت أضواؤها ودخل حجرة الكونتيس ثلاث وصائف وعلى أثرهنّ الكونتيس وقد اعياها التعب . فتهالكت على كرسي وهي أشبه بالاموات منها بالاحياء . ونظر هرمان من خلال الحاجز فأبصر ليزا ڤيتا عن كثب وقد ولجت الباب الأيسر وصعدت في السلم المؤدي الى حجرتها. فأحسّ نوعاً من الالم والندم على خيانته اياها وغدره بها ولكنهُ ما لبث ان قسى قلبه وكتم صوت ضميره وعاد الى جموده

خلعت الكونتيس ثياب الزينة وارتدت جلباب النوم وجلست الى النافذة بعد ان صرفت الوصائف واطفأت المصابيح الاّ قنديلاً ضئيلاً كامد الشعاع . وكانت الكونتيس مصابة كالعجائز بالارق فلبثت مكانها من النافذة صفراء الوجه والبشرة كانما غمست في حوض من الكركم تتحرك شفتاها وتترجح يمنة ويسرة . وكانت عيناها الكليلتان الثقيلتان تنمان على ذهول وتدله

وكأن اهتزاز جثتها رعدة كهربائية منبعثة من أحشائها . ولكن وجهها المتعب تحرك بغتة فوقف ارتعاش الشفتين وبدت أمارات الحياة في عينها . ماذا جرى ؟ لقد ظهر امامها جل غريب مجهول . . . وقال هرمان لها « لا تخافي لست بمنارك . لقد جئت اسألك حاجة ». فنظرت اليه العجوز في صمت كأنها لم تفهم مقالته وظن هرمان انها مبتلاة بالصمم فأدنى فمه من أذنها وأعاد ما قاله فتمادت العجوز في صمتها

وقال هرمان « ان في مقدورك اسعاد حياتي وترفيه عيشي . ففي استطاعتك ان تسمي لي ثلاث ورقات من ورق اللعب » . وهنا سكت هرمان اذ بدا له ان العجوز بدأت تفهم كلامه وكأنما كانت تعالج سكرة من سكرات الألم أو الموت ثم تعالج نفسها على ان تهيء له جواباً. فقالت له: « لم يكن ذلك الا من باب المزح والفكاهة »

فأجابها هرمان « كلا ان الامر جد لا هزل فيه . اذكري صاحبك تشابلتسكي الذي اقلت عثرته وفرجت غمته وأعنته على استرداد خسارته الا تستطيعين تسمية هذه الورقات. » فتمادت العجوز في سكونها وهنا خر هرمان راكعاً تحت قدميها وقال « لمن تدخرين هذا السر لذريتك واحفادك وقد أغناهم الله عنه بالثروة الطائلة والنعمة الفسيحة. رحماك ايتها الكريمة. واذا كنت تعرفين شعور الحب — حب العاشقة لعشيقها والام لرضيعها والشقيقة لشقيقها. فأني استحلفك بعواطف العاشقة والوالد والشقيقة وبكل ما هو مقدس في الحياة الا ما أجبت دعائي وقضيت حاجتي »

كان ذلك والكونتيس صامتة لا تبس فعند ذلك ثار هرمان وصاح « تباً لك من عجوز شوهاء لأرغمنك على الكلام ارغاماً وأخرج مسدساً من جيبه . فبدت علامات القلق على العجوز فرفعت يديها كأنها تحاول القاء القذيفة واستلقت على ظهرها وبقيت مسلوبة النطق والحركة . فصاح هرمان وقبض على يدها أجيبي اني اسألك المرة الاخيرة . أجيبي ما هي الورقات الثلاث ؟ » فلم تحر جواباً وتأمل هرمان في وجهها فاذا هي جثة لا حراك بها

. . . . .

كانت ليزافيتا جالسة في غرفتها وقد ضمت ذراعيها الحاسرتين على صدرها العاري وقد أرسلت الخادم ألا يعود بعد أن سألتها مراراً عما يمكنها أن تقضيه لها من حاجة وكانت تحمد الله كثيراً لان هرمان لم يحضر واستلقت على مقعد لتراجع ذكرى الحوادث الاخيرة . فلقد انقضت ثلاثة أسابيع عند ما لمحت هرمان من النافذة ثم شرعا يتراسلان . انها لا تذكر انها حدثته لساناً بلسان ولكنها عرفت اسمه من امضائه على الخطاب. وانها لتذكر المصادفة الغريبة ألا وهي ان في تلك الليلة الراقصة وتومسكي يرقص معها بعد ان تنحى عن الرقص مع البرنسيسة بولينا بدأ يذكرها بحبها لهرمان وهي تذكر هذا الحب فيقول تومسكي لها « أن هرمان شخص

رومانتيكي وله وجه كنابليون ونفس كميفستوفيلس ولعلّ ضميره يحمل وزر ثلاث جرائم ..
ولماذا علت وجهك تلك الصفرة ؟ . . .

. . . . . .

بعد فترة دخلت الاميرة بولينا وسيدتان . وتحدثت الاميرة مع ليزافيتا عن تومسكي ثم خرجت ورفيقتاها وتركنَ الفتاة تستعيد كلمات تومسكي شاردة الفكر لا يستقر لها حال أو يهدأ لها شعور . وفيما هي على هذه الحال اذا بالباب يقرع ويدخل منهُ هرمان . فتسأله في شيء من العجب عن امره . فيجيبها انهُ كان في حجرة الكونتيس ولقد تركها وهي جثة بلا روح .. فتقول له . يا لله . ماذا تقول ؟ فجلس هرمان وقال انهُ يخشى ان يكون هو السبب. وأصغت الفتاة الى حديثهِ وفرائصها ترتعد وقص عليها ما كان من امره مع الكونتيس .فعرفت مرماه وتبينت هدفه وفهمت ان تلك الرسائل الغرامية وان هذا الحب لم يكن مصدرها الخير والحب لذاته ولكن مصدرها الجشع وانها لم تكن الاّ آلة صماء في يد سارق أثيم . فذرفت دموع الندم مرة حارة وجعل هرمان ينظر اليها صامتاً وقلبه نهب الوساوس الأليمة

وقالت لبزافيتا . انك لوحش ضارٍ . وبدأ الصبح يتنفس وقامت ليزافيتا فأرشدتهُ الى السلم السري وقد ضغط على يدها الباردة يودعها . ولما انكفأ هرمان في مساء اليوم التالي الى غرفته انطرح على مقعد بها منهوك القوى دون ان ينزع ثيابهُ فاستغرق في النوم ولما أفاق من هجعتهِ كان الليل قد خيّم وألقى القمر اشعته على ارجاء الغرفة . وانهُ لكذلك اذ فتح عليهِ باب الحجرة ودخلت امرأة في ثوب ابيض فدنت منهُ واذا هي الكونتيس قائلة لهُ بصوت ثابت . « لقد جئتك على غير ارادة مني . ولكن امرت ان أجيء فجئت.ستربح اذا لعبت الورقات الثلاث الآتية على التوالي — كل واحدة في ليلة . ثم لا تعيد الكرة والورقات هي ثلاثة وسبعة وآس . . . ولكن لا بد من ان تتزوج من ليزافيتا ايفانوفنا »

لما ماتت الكونتيس كان هرمان ممن ذهبوا لتأدية العزاء في الكنيسة فوقف يتلو الصلاة ويستغفر الله فيما فعلهُ من اثم وما ارتكبهُ من جرم . واخترق الصفوف وأقبل نحو النعش ونظر الى الجثة فاذا الكونتيسة يلوح عليها انها تنظر اليهِ في شيء من السخرية .. فاستولى عليهِ ذعر فارتدّ فزعاً فوقع مغشيًّا عليهِ . اما ليزافيتا فخرجت من الكنيسة وهي تحمل ألماً مبرحاً مرتجفة مهمومة

— ٥ —

كانت هنالك جمعية في موسكو يرأسها شيكالنسكي وهي تضم جبابرة المقامرين وفي ذات ليلة قدم هرمان في صحبة تومسكي . وبدأ تومسكي يقدم هرمان الى شيكالنسكي وانضم هرمان الى جماعة المقامرين ودارت رحى الميسر وانتهى الدور الاول وبدأ شيكالنسكي يوزع الورق . فقال هرمان لهُ اتسمح لي ان آخذ ورقة . فانحنى شيكالنسكي راضياً . وقال هرمان . « اريد

الاشتراك » . وكتب ارقاماً بالطباشير على ظهر ورقة . فقال صاحب البنك « على اي مبلغ يا سيدي معذرة فأنني قصير النظر » . فقال هرمان « على سبعة واربعين الف روبيل اعني كل ما ورثته عن ابي » . وعند سماع هذه الكلمة انتفض جميع المقامرين والمتفرجين ولم يصدقوا نبأه ولبثوا فترة في ذهول ودهشة . وقال تومسكي في نفسه : حقاً لقد تورط هرمان في تفكيره وخولط في عقله . وقال شيكالتسكي : « هذا مبلغ باهظ فلم يسبق ان جازف مقامر باكثر من مائتين وخمسين روبيل دفعة واحدة » فقال هرمان . قد يكون قولك حقاً ولكن أيقبل الرهان على هذا المبلغ ام لا ؟ فانحنى شيكالتسكي قبولاً وقال « اسمح لي مع مزيد ثقتي بتصريح اصدقائي أني لا أقامر الا على النقد الحاضر ولكن محافظة على اللعب اطلب اليك ان تضع المبلغ على ورقتك ». فأخرج هرمان بنكنوتاً اعطاه الى شيكالتسكي وألقى هذا بيده عليه وأرفقه بورقة هرمان وشرع ينثر الورق فظهر على اليمين « تسعة » وعلى اليسار « ثلاثة » فقال هرمان ان ورقته رابحة . فأظهر الجميع عجبهم ودهشتهم وعبس وجه شيكالتسكي غير ان ابتسامته لم تفارق ثغره ودفع له مبلغ ربحه . وفي اليوم الثاني اشترك هرمان في الدور الثاني وبدأ ينثر الورق على رأس ماله وأرباح الامس فظهر على اليمين « عشرة » وعلى اليسار « سبعة » وهي الرابحة فضج المقامرون وبدأ القلق يساور شيكالتسكي وتناول هرمان ارباحه الجديدة وغادر المكان . وفي اليوم الثالث ترك الجميع اماكنهم وأحاطوا بمائدة هرمان وقد وقف ليلعب مع شيكالتسكي وهو على شدة تأثره لم يزل يفتر ثغره عن ابتسامته الطبيعية فتناول كل منهما رزمة من الورق وشرع شيكالتسكي يوزع ورقه ويداه ترتجفان فصاح هرمان بملء فيه « هذا هو الآس ! لقد ربح » فأجابهُ شيكالتسكي في شيء من الهدوء والاحترام . لا يا سيدي . . ان الذي في يدك ليس الآس ولكنهُ « ملكة البستوني » وقد خسرت . فانتفض هرمان ونظر الى الورقة فوجدها « ملكة البستوني . . . . ولكن من الذي غير الورقة . . . تلك لا شك قوة شيطانية . . . وأعاد النظر الى الورقة فاذا بها صورة الكونتيس وهي تبتسم له وتغمز له بعينيها في هزء وسخرية . فصاح وقد ملكه الرعب « الكونتيس العجوز » « الكونتيس العجوز » وشرع شيكالتسكي يجمع ارباحه ولبث هرمان فاقد الحركة برهة من الزمن . . . واستأنف شيكالتسكي اللعب مع المقامرين . اما هرمان فقد جنّ وهو الآن نزيل احدى الملاجيء الخاصة بمرضى العقول لا يعي قولاً أو يفهم أمراً ولسانه دائم الترديد « ثلاثة سبعة . ثلاثة سبعة ... ملكة البستوني . . . . . . »

وزوجت ليزافيتا ايفانوفنا من فتى رشيق ممن كانوا في خدمة الكونتيس وعاشت معه في كنف السعادة ورغد العيش

(١)

قسم الطفيليات

حديث الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

استاذ الطفيليات في كلية الطب

— متى انشىء قسم الطفيليات في كلية الطب ، وما هي دائرة نشاطه ؟

١ — منذ انشاء مدرسة الطب في سنة ١٨٢٧ ، كان موضوع البحث في الطفيليات من أهم ما اشتغل به أساتذتها ، ومن أهم البحوث التي قاموا بها ، والاكتشافات التي عثروا عليها. لان أمراض البلاد الحارة الكثيرة الانتشار في مصر يرجع سبب أغلبها الى الطفيليات . ولكن في السنوات الأولى من تاريخ المدرسة كان البحث في الطفيليات عملاً مشاعاً بين كثير من الاقسام ولم يكن لهُ قسم خاص بالذات . وأهم الاكتشافات في القرن الماضي كان حوالي سنة ١٨٥٠

ففي ذلك التاريخ ، وبالتحديد في سنة ١٨٥١ اكتشف الاستاذ تيودور بلهارس الاستاذ في مدرسة الطب المصرية في ذلك الوقت الديدان المشهورة باسمه والمسببة لمرض البلهارسيا الذي يصيب في الوقت الحاضر ٧٥ ٪ من المصريين . وكذلك اكتشف استاذه الاستاذ جريسنجر الذي كان ناظراً لمدرسة الطب في ذلك العهد اكتشافاً من أعظم ما تمَّ في تاريخ طب البلاد الحارة . اذ انهُ بين لاول مرة علاقة ديدان الانكلستوما بالمرض المعروف بالانيميا المصرية او الرهقان المصري ووجد فيما بعد ان هذا المرض يصيب نصف سكان الكرة الارضية . وكذلك اكتشف بلهارس عدداً كبيراً من الطفيليات لأول مرَّة . وفي السنين الاخيرة من القرن الماضي بدأت أعمال الطفيليات تتركز في قسم التاريخ الطبيعي بمدرسة الطب وكان الاستاذ فيها المرحوم عثمان باشا غالب ولهُ بحوث هامة واكتشافات تعدت دائرة الطب إلى دائرة الزراعة ، فاكتشف دودة القطن وغيرها. وبعد ان ترك عمله في المدرسة لأسباب لا داعي لذكرها أنشىء في مدرسة الطب لاول مرَّة كرسيًّا لعلم الديدان الطفيلية وهو من أقدم الكراسي في العالم في هذا العلم ويرجع تاريخه الى سنة ١٨٩٦ وقد شغله اذ ذاك العالم العالمي المرحوم الاستاذ ارثر لوس الالماني. وإبان قيامه بالعمل اكتشف جملة اكتشافات تعد في الدرجة الأولى في أمراض البلاد الحارة وعلم الطفيليات فهو الذي اكتشف ان عدوى الانكلستوما تصل الى الانسان بطريق الجلد مما كان موضع الدهشة في العالم كله . ووجد فيما بعد ان هذا طريق تتبعهُ كثير من الطفيليات مثل البلهارسيا .وقد الغي هذا الكرسي التاريخي عند اعلان الحرب العالمية نظراً الى جنسية الاستاذ لوس وترك شاغراً يقوم بالتدريس

---

(١) تابع ما نشر في مقتطف يناير ١٩٣٧ عن « معاهد التعلم العالي » في مصر

فيه بين آونة واخرى اشخاص ينتدبون لمدد قصيرة من الجيش البريطاني، ومن وزارة الزراعة. وبعد الحرب ألحق قسم الطفيليات بقسم الباثولوجيا حيناً من الزمن . وبعدئذٍ انتدب له الاستاذ الحالي (الدكتور خليل بك) من الخارج . وبعدئذٍ ضم عند تعيين الدكتور خليل بك استاذاً لعلم الحياة الى هذا القسم اي ان الحالة صارت الى ما كانت عليه ايام المرحوم عثمان باشا غالب . وظل الامر كذلك الى ان انشئت الجامعة وحوّل قسم الحياة الى كلية العلوم، فصار قسم الطفيليات قسماً مستقلاً الى الوقت الحاضر

— ما هي اهم النتائج العلمية لقسم الطفيليات في عهده الجامعي ؟

كان من نتيجة انشاء قسم الطفيليات في العهد الجامعي ان ابتدىء بتدريب عدد من الشبان النابهين في الفروع المختلفة في علم الطفيليات وهي في الوقت الحالي ستة اقسام والسياسة الجامعية ترمي الآن الى وجوب ايجاد باحثين من الاخصائيين في كل قسم منها . وهذه الاقسام هي :

١ — علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة (البروتزوى)
٢ — علم الحشرات الطبية
٣ — الديدان — التريماتودا
٤ — الديدان الشريطية
٥ — الديدان الخيطية
٦ — الفطريات التي تصيب الانسان

وقد قام كل واحد من الاخصائيين في هذه الاقسام المختلفة بعمل ابحاث والميدان واسع جداً في مصر لمجهوداتهم ومجهودات الآخرين . ومن الصعب حصر جميع المؤلفات والرسائل الفنية التي نشرت في العهد الاخير في عجالة مثل هذه فهي تزيد عن ١٦٠ رسالة . واعتقد ان اهم الاكتشافات من وجهة العلاج ومقاومة الامراض المتوطنة في مصر هي ما يلي

١ — علاج البلهارسيا بالمركب الجديد « الفؤادين » الذي كان نتيجة ابحاث مشتركة بين اطباء قسم الطفيليات بكلية الطب ومعهد الابحاث بوزارة الصحة الذي يشرف عليه استاذ الطفيليات ايضاً — والاخصائيين الكيمائيين في معامل باير بالمانيا . وقد استمرت هذه الابحاث عدة سنوات

٢ — ادخال سمك الجمبوزيا الى مصر لمقاومة انتشار الملاريا وهذا السمك موطنه الاصلي اميركا الوسطى . ونقل الى اسبانيا وايطاليا لهذا الغرض . وأمكن ادخاله وتربيته واكثاره في مصر من سنة ١٩٢٦ . ولا يزال مستعملاً وقد أصاب استعماله قسطاً وافراً من النجاح

٣ — اكتشاف البعوض الناقل للملاريا وداء الفيل في مصر وتحديد نوعه واماكن توالده. وبذلك أمكن مقاومته

٤ — اكتشاف تاريخ حياة الدودة التي تصيب الانسان في الامعاء وتسبب نوعاً من الاسهال او الدوسنطاريا اسمها (هتروفيس — هتروفيس) . وقد كانت هذه نتيجة ابحاث مستمرة استغرقت عشر سنوات

٥ — اكتشاف مناطق في القطر المصري موبوءة بالقرحة الشرقية ، (اللشمانيا) وتقرير الطريقة المجدية ، في العلاج

٦ — ادخال علاج الانكلستوما برابع كلورور الكربون في القطر المصري ووضع التعليمات وتقرير الجرعات اللازمة لذلك . .

— هل للعمل في قسم الطفيليات صلة بالمشروعات التي ترمي الى اصلاح حال الفلاح في القرى المصرية ؟

— قد روعي منذ بدء العمل في قسم الطفيليات بكلية الطب في مصر عدم الاقتصار على المسائل النظرية البحتة كما يعمل في بعض المعاهد في البلاد الأخرى . بل انتهزت الفرص في كل وقت للاستفادة من الابحاث العلمية البحتة، وتطبيقها والانتفاع بها، في المعالجة ومنع الامراض وسبب ذلك ان الابحاث وتطبيقها في جميع فروع الطب متيسرة وتدور بكفاءة ممتازة واستعداد عظيم في كثير من الامم الاوربية . والاعتماد في مثل بلادنا هو على الاستفادة من النتائج التي يتوصل الباحثون اليها في الخارج

ولكن الامراض المتوطنة في مصر ليست موضع اهتمام كبير في البلاد الاوربية . ولا ينفق عليها من الاموال كل ما تحتاج اليه . ولا ينشىء لها من المعاهد ما يناسب اثرها في البلاد الحارة . والذي يقوم بمثل هذه الاعمال هي البلاد ذات المستعمرات التي تنتشر فيها بعض هذه الامراض. ولذلك كان من الواجب علينا في مصر أن نقوم بعمل الابحاث اللازمة للتخلص من الامراض المتوطنة في القطر المصري خصوصاً وان للعوامل المحلية تأثيراً عظيماً في انتشارها وتوطنها وأثرها في مقدرة السكان وكفاءتهم العقلية والبدنية . وهذا الواجب لايمكن ان يقوم به إلاّ مصريون يقفون كل حياتهم ومجهوداتهم على هذا العمل . وهو ما نرجو أن نكون قد وفقنا اليه بعض التوفيق في قسم الطفيليات بكلية الطب ومعهد الابحاث في وزارة الصحة

وهذه الابحاث تتطلب نظراً الى طبيعتها التغلغل في القرى ودراسة جميع العوامل المختلفة التي تساعد على انتشارها وتبين طرق الاصلاح . ولذلك ننشر بين وقت وآخر آراءنا في مقاومة هذه الامراض في القرى المصرية ووجه الاصلاح في نفس القرى خصوصاً من وجهة توفير المياه الصالحة للشرب والتخلص من الفضلات . . . الخ لأن هذه هي العوامل ذات الأثر الاول في انتشار امراض الطفيليات

دار الكتب المصرية

حديث الدكتور منصور فهمي بك

مدير دار الكتب

١ — ما هي أهم الاعمال التي تتوجه اليها دار الكتب العامة في مصر ؟

يبدو لي ان أول مهمة لدار الكتب المصرية ان تعمل جهدها لحفظ تاريخ البلاد ، بحفظ جميع الكتب والوثائق الخاصة به ، وكل ما يتصل بمصر وما يمتّ اليها ، وعلى الأخص ما يصلها بتاريخها العربي ، وبما يناسب مقامها الحاضر كزعيمة للعروبة بين اقطارها وباحياء الآداب العربية ونشر موسوعاتها

والمهمة الثانية للدار ان تهيء جوًّا للبحث العلمي الخاص بحياة البلاد الاجتماعية وتاريخها الأدبي لكي يتنسم منهُ شباب الباحثين المصريين

والمهمة الثالثة هي ان تنظم الصلات العلمية بين المحيط الفكري في مصر وبين المحيط الفكري في البلدان الاخرى . فتكون الدار طريق اتصال بين البحاث المصريين ، ونظرائهم من الاجانب

وقد بدأ هذا الاتصال يتحقق ، فان الكثيرين من علماء الغرب والمستشرقين يغشون دار الكتب للتزود بمعلومات شتى في التاريخ واللغة وغيرها ، لانهم يرون في دار الكتب المصرية اغنى مكتبة من نوعها في الشرق كله

وقد شجعنا توالي اقبال هؤلاء العلماء على الدار على ايجاد الترابط الفكري المنشود بين البحاث المصريين ، والاوربيين

وزيادة على ذلك فان مصر تعدُّ من أغنى بلاد العالم بوجود الأجانب فيها، من شتى الاجناس وشتى الطبقات . وهؤلاءِ الاجانب المحليون ، في حاجة الى تثقيف انفسهم بالاقبال على الكتب المختلفة المحفوظة في الدار. ولا شكَّ ، انهُ بتيسير سبيل التثقيف العام لهم في بلادنا ننشيء لهم نوعاً من الوطن الفكري فيشعرون نحونا بشيء من عرفان الجميل . وقد نستغل هذه الحالة ، فننشيء في بلدنا المضياف نوعاً من التآلف والتآخي بين المثقف الاجنبي المحلي ، وبين المثقف المصري ، وفي هذا ما يحقق لنا لوناً من ألوان الترابط الانساني المنشود

وكل ما قدمت يساير مهمة الدار العامة ، وهي نشر أنواع الثقافات بشتى المغريات والاساليب بين المصريين كافة ، وهم يعلمون الآن ، وسيتأكدون غداً ان القراءة الجدية الميسرة هي الجامعة العظمى الخالية من كل قيد الا قيد الرغبة ، وان الرغبة في القراءة الصالحة تخرج مجتمعاً ناضجاً موفور الاحساس بنفسه وبجماعته

ولست أشك ان هذا الاتجاه الذي تتوجه اليه دار الكتب ، يحتاج الى مزيد العناية بالدار نفسها ، فهي محتاجة ، الى بناء يتسق وهذه المهام المتعددة ، ويحتاج الى مال ينفق في سخاء للحصول على الوثائق والكتب وغير ذلك مما يصور حياتنا الفكرية والاجتماعية في ماضي مصر وحاضرها

وأملي وطيد في ان تقدر الامة والحكومة معاً ضرورة هذه العناية الواجبة

***

٢ — يقال ان المتعلمين المصريين اليوم اقل اقبالاً على القراءة الجدية من غيرهم في الامم الاخرى فما هو رأيكم في هذا القول . وما هي أهم الفوارق بين الشباب المثقف الآن ، والشباب المصري الذي كان يعيش قبل ربع قرن ؟

— دلت خبرتي على ان اكثر الشباب المحدثين في مصر، وفي غيرها ، يميلون الى القراءات السهلة البسيطة ، ويغرمون بالمجلات والصحف الماجنة

ولعل بعض اصحاب الصحف انفسهم كانوا عاملاً كبيراً في ذلك لدأبهم على استغلال حب الفكاهة الغريزي في الانسان ومحاولة تحويل الآراء والافكار الى فكاهات . وعلى ذلك قد تعود الشباب الحاضر قلة الصبر عند القراآت العسيرة الجدية

اما في مصر فأظن ان علماءنا وكتابنا لم يوفقوا توفيقاً كبيراً في جذب الجمهور المثقف الى المستوى المنشود من التعمق ، وكم كنت اتمنى ان يكثر عدد الكتاب الذين تتوفر فيهم الدقة في الكتابة ، والثروة في التفكير الشخصي ، وحسن البيان

واني ألاحظ ان كتاب الجيل الماضي الذين قضوا وأذكر على سبيل التمثيل : قاسم امين ، ومحمد عبده ، وفرح انطون ، وشميل ، واليازجي ، وصرّوف ، والبستاني ، وزيدان ، والكواكبي ، واحمد فارس ، والخضري ، وحفني ناصف ، والسيد البكري ، وابراهيم المويلحي ، ومحمد المويلحي ، وحمزة فتح الله ، وحسن توفيق ، وغيرهم رحمهم الله ، كانوا اساتذة لجيل جادٍّ من الشبان ، لم يلههم زخرف الحياة الاجتماعية من سينما ورياضة وحياة سياسية موزعة ، عن التوفر

على القراءة والدرس الجدي ، فنتج عن اساتذية هؤلاء الكتّاب جيل هو الذي يعيش اليوم متجاوزاً مرحلة الشباب وهذا الجيل يشرف على جيل جديد لم يستقر قراره الثقافي بعد ولم يتجه وجهة معقولة . ففريق منهُ يؤمن بالغرب ايماناً شديداً ، وينزع الى التجديد دون احتياط ، وفريق يؤمن بالقديم ويود ان يفنى فيهِ . .

واني أرى ان أولئك ، وهؤلاء .. اي انصار الغرب بكل ما فيهِ ، وانصار القديم بكل ما فيهِ ، يسرفون على انفسهم وعلى من يتصل بهم . فمن العسير ، بل من المستحيل أن تتحول البيئة المصرية الى بيئه اوربية ، تتجاهل ماضيها الثقافي . ومن المستحيل ايضاً ان تعيش مصر في ثقافة القديم الذي طواه الزمن . .

اما ما هو الطريق الذي ينبغي ان يُسلك ، وان يكون قبلة للجيل الجديد ، فهذا ما لا سبيل الى وصفه او تحديده الآن تحديداً دقيقاً . لأن الحالة وحدها هي التي تشقهُ . . . والحاجات الاجتماعية للأمة هي التي تعبّده . على انني ارجو ان يكون للجيل الناشىء من ابنائنا ثقافة تغذيها الطرافة والابتكار القائم على الشعور بالشخصية وعلى النقد الصادق والتقدير الصحيح لكل ما في الثقافتين القديمة والحديثة من شرّ او خير

ثم اني بعد ما قدمت أعود الى دار الكتب وأقول انهُ من حق الخدمات العلمية الخالصة التي تطمع الدار في تحقيقها ان توفر لها ولرجالها الادوات اللازمة ، والجوّ المهيأ باعداد الامكنة التي تصلح لايواء العلماء والباحثين ، وتيسير سبيل البحث لهم

ولا نريد ، اذا ما سرنا شوطاً بعيداً ، في تحقيق هذه الغايات ، ان تكون العاصمة وحدها هي مستقر هذه الجهود التثقيفية ، بل نطمع في ان يسري نشاط الدار الكبرى من القاهرة الى الاقاليم ، فتصل من حياتها حياة في المكتبات الاقليمية تخدم قضية الثقافة العامة ، وتحبب هؤلاء الساكنين بالمدن الصغيرة في القراءة . وقد ييسر هذا توحيد الاشراف على دور الكتب وربط بعضها ببعض

***

وانهُ ليروقني على ذكر نشر المكتبات وحسن الاشراف على مهامها ان أوجه النظر الى ان اتجاه التربية الحديثة في البلاد التي تقدمتنا يشعر بالعناية بأمر التثقيف والتعليم عن طريق المكتبات وأظن انهُ سيكون لهذا السبيل شأنه في المستقبل القريب . ولذلك لا أغالي اذا كنت ألح في طلب العناية بأمر المكتبات عناية تظهر في حسن الاشراف وحسن تخير الكتب وتيسير ما يحدث أثراً صالحاً في القراءة الراقية وهو ما نعمل لهُ الآن بدار الكتب بعناية الله تعالى ومعونة أولي الامر

دار العلوم

حديث صادق جوهر بك
ناظر مدرسة دار العلوم

الاسئلة

١ — نريد معرفة ملخص سريع عن تاريخ دار العلوم العليا منذ نشأتها حتى الآن ، مع بيان عدد طلابها ، ومتخرجيها

٢ — هل اتصل معهدكم بمعاهد الدراسات الشرقية في الشرق والغرب ، وما هو نوع هذا الاتصال

٣ — ما هو سر النضال بين الأزهر والجامعة المصرية ودار العلوم ، وإلامَ ينتهي ؟

٤ — ما هي النتائج العلمية والادبية التي وصل اليها معهدكم خلال دراساته الطويلة ؟

***

تلك هي الأسئلة التي وجهها الينا «المقتطف» ، ونحن نشكر لهُ في شخص محرره عنايته بتدوين تاريخ المعاهد العالية المصرية ، وما أشد حاجة الناس اليها في هذا الوقت ، وهي فكرة حميدة .

ولعلّ أهم الأسئلة بعد السؤال الأول — هو السؤال الرابع ، وما كان أغنانا عن الخوض فيه لبداهته ، لولا رغبة المحرر في انسجام المواد التي سبق نشرها عن المعاهد الاخرى بالمجلة

وها نحن أولاء نذكر شيئاً عن الأسئلة الأربعة

— ١ —

﴿ دار العلوم ﴾ اسم أطلقهُ المرحوم علي مبارك باشا مدير « ديوان المدارس » في عهد المغفور لهُ الخديو اسماعيل باشا سنة ١٨٧١ على المدرج « الانفتياتر » بسراي درب الجماميز الذي كان يحتفل فيه بالامتحانات السنوية أمام سمو الخديوي أو نائبه ترغيباً في طلب العلم وتنشيطاً للمتعلمين إذ ذاك

رأى — رحمهُ الله — أن يشغل هذا المدرّج بقية أيام السنة بالقاء دروس عالية عامة على طلبة الفرق العالية بمدارس الهندسة والحقوق والمساحة

ونظراً لما تجدد من المكاتب الأهلية « المدارس » وحاجتها الى معلمين ذوي كفاية للقيام بوظائفهم — فكّر في تأليف فرقة منتخبة من طلبة الأزهر الشريف يعيَّن لهم مدرسون للتدريس في هذا المكان المسمى « دار العلوم »

ويقال ان الغرض الذي رمى اليه المرحوم علي مبارك باشا من إنشاء دار العلوم والعناية بها ، هو تقريب مسافة الخلف بين معلمي اللغة العربية في المدارس وهم من الازهر الشريف ، وزملائهم من مدرسي الجغرافيا والكيمياء وغيرها

فأراد أن يتزوّد الفريق الأول من العلوم الكونية بما يبعده عن المغالاة والتحرج في العقائد ، وبما يساعده على أداء مهمته ومزاولة عمله على الوجه المرضي ، وقد تمّ لهُ ما أراد

وصار العمل بذلك سنة ١٨٧٢ حيث انتخب من الطلبة اثنين وثلاثين طالباً شكلت المدرسة منهم ومن خمسة من المدرسين كان من بينهم ثلاثة من مشهوري علماء الازهر الشريف . ووضعت المدرسة تحت ملاحظة المرحوم حامد نيازي افندي وكان معاوناً بدار الكتب المجاورة لدار العلوم

وبذلك تكون دار العلوم أول مدرسة مصرية أنشئت لتخريج المعلمين

لم يكن للمدرسة يوم انشائها مكان إلاّ تلك الردهة المدرّجة التي كانت تسمى « دار العلوم » وبقيت بها حتى انقسمت الى فصول دراسية سنة ١٨٧٤ فنقلت الى الجانب الجنوبي من سراي درب الجماميز ثم نقلت من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٣ الى درب الجنينة ثم عادت الى درب الجماميز حتى سنة ١٨٩٧

وفي أول اكتوبر سنة ١٨٩٧ نقلت الى بعض حجرات من الجانب الشمالي بمدرسة المبتديان « الناصرية » وكانت في المكان الذي به المدرسة السنية الآن

وفي سنة ١٩٠٠ شيد لها بناء مخصوص من طبقة واحدة في مكانها الحالي من حي المنيرة وكان تحيط به أراضٍ زراعية وبساتين . فنقلت اليه من أول اكتوبر سنة ١٩٠١ وفي سنة ١٩٠٤ بني عليها طبقة ثانية توسيعاً لنطاق أعمال المدرسة، ولما أنشئت تجهيزيتها سنة ١٩٢٠ احتاج الامر الى توسيع بنائها فأضيف اليه جزء عظيم حوى مطعماً ومطبخاً وثلاثة مدرجات في الجزء الشمالي الشرقي خلفها

وقد بقي اسم « دار العلوم » علماً على تلك المدرسة من وقت افتتاحها حتى اول مارس سنة ١٨٩٥ حيث سميت « مدرسة المعلمين الناصرية » وأسندت إدارتها الى حضرة امين بك « باشا » سامي واستمرت بهذا الاسم حتى سنة ١٩٢٠ وهي السنة التي أنشئت فيها التجهيزية فعاد اليها الاسم القديم « دار العلوم »

وقد أخذت المدرسة تسير في طريق الرقي الطبيعي حتى وصلت الى ما هي عليه الآن ، إذ أصبحت تضم بين جدرانها من الطلاب ٤٥٧ طالباً ومن المدرسين ٣٨ مدرساً ولها ناظر ووكيلٌ وضابطان وكاتبان

وقد بلغ عدد المتخرجين فيها حتى آخر العام الماضي ٢٤٣٥ منهم ١٤٣ تخرجوا في سنة ٣٥ — ٣٦

اما المواد الدراسية فكانت دعامتها العلوم الشرعية والعلوم العربية وفنون الأدب وعلوم التربية مع بعض المواد الضرورية لتثقيف المعلم كالعلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية مضافاً اليها لغة أجنبية « التركية او الفرنسية او الانجليزية » وكان تعليم اللغة الاجنبية أحياناً اختيارياً وآونة إجبارياً . وقدحذفت الرياضة منها بعد انشاء التجهيزية واضيفت اليها اللغات السامية

واما الاساتذة الذين تولوا تدريس المواد المختلفة فكانوا من أشهر اقطاب العلم والادب في مصر، نذكر منهم الفيلسوف الكبير المغفور له الشيخ حسن الطويل والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده والاديب المعروف الشيخ حسين المرصفي واللغوي الشهير الشيخ حمزه فتح اللهوالاستاذ اسماعيل بك رأفت في التاريخ والجغرافيا . الخ الخ . وجمهرة أساتذتها الآن ممن تخرجوا فيها

وقد استمر اختيار طلابها من طلبة الأزهر الشريف بامتحان يعقد لهم عند الدخول ، حتى انشئت تجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٠ لتغذيتها ، وحصلت أول فرقة منها على شهادة الدراسة الثانوية « قسم ثان » سنة ١٩٢٤ فكونت القسم العالي من السنة المكتبية ١٩٢٤ — ١٩٢٥

واستمر العمل على ذلك حتى بدء السنة الدراسية الحاضرة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ حيث أُتيح لحملة الشهادة الثانوية بالجامعة الازهرية ان يلحقوا بها . وذلك بعد الغاء التجهيزية للمرة الاخيرة سنة ١٩٣٥

ومما تجب الاشارة اليه ان فريقاً ممن أتموا الدراسة بمدرسة القضاء الشرعي طلبوا ان يدخلوا امتحان « دار العلوم » للحصول على « المعادلة » في العلوم التي لم يدرسوها فقبل طلبهم وادوا الامتحان سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٦ وما بعدها كما ان كثيراً من طلبة المدرسة المذكورة قد ألحق بالدار بنظام خاص

وفي سنة ١٩٢٤ انشيء بالمدرسة قسم مؤقت من حاملي عالية الازهر الشريف بجانب الاقسام الأخرى بالمدرسة

ومما يجدر ذكره انهُ يوجد الآن بين طلاب المدرسة نحو ٥٠ طالباً من الاقطار الاسلامية المختلفة يعنى بالأشراف عليهم أستاذ من أساتذة الدار

وقد حصل على اجازة التدريس في السنوات الثلاث الأخيرة من هؤلاء الطلبة ٢٦ طالباً منهم عشرة فلسطينيون ، وسوري، وأردني ، وحضرمي ، وسبعة عراقيون ، وسومطريان ، وملايوي، وطرابلسي ، وتونسي ، ومراكشي

هذا وترمع الدار ان تسن للدراسة خطة جديدة تساير النهضة القائمة الآن وترمي الى توسيع افق الطلبة في الثقافة العلمية وتوجيههم في الفرق النهائية الى التخصص في اللغة العربية

وعلوم التربية ، وسيكون أساس هذه الخطة جعل مدة الدراسة خمس سنوات بدلاً من اربع مع العناية بدراسة لغة أجنبية دراسة اجبارية

— ٢ —

قد كان لهذا المعهد اتصال بأشهر معاهد الدراسات الشرقية في اوربا بمن كان يختار من خريجيه لتدريس اللغة العربية في تلك المعاهد نذكر منها جامعات اكسفورد وكمبردج ومانشستر، ومدارس اللغات الشرقية ببرلين ولندن وباريس الخ الخ

وقد اتصل هؤلاء الاساتذة بالمستشرقين هناك وكان من نتائج ذلك ان نقلوا الينا بعض أساليب هؤلاء المستشرقين في مباحثهم ، وبخاصة تأليف الادب العربي وتدريسه

وأول من نقل الى العالم العربي بعض هذه الاساليب المغفور له حسن توفيق العدل أفندي وكان منتدباً لتدريس اللغة العربية بجامعة برلين ، فنقل طريقة الاستاذ بروكلمان في تأليف الأدب العربي عصراً عصراً ، بالطريقة التي يدرس بها الآن ، وله الفضل الاول في سن هذه الطريقة على جميع أساتذة الادب العربي . وهو ايضاً أول من ألف في تاريخ الادب على هذا النحو . وقد درس كتابه في مدرسة دار العلوم ، وسار على سننه استاذ الادب العربي في الدار المرحوم الشيخ محمد المهدي والشيخ احمد علي الاسكندري ومن جاراهما

وكان لاتصال خريجي الدار بالمعاهد الاوربية ، وبكبار المربين في اوربا ، أثر آخر في فنون التربية ، من هؤلاء المرحومون محمد نصار بك ، والشيخ شاويش بك ، وحسن توفيق افندي وغيرهم ، ممن نقلوا الى اللغة العربية كتباً في فنون التربية المختلفة تعتبر أساساً لنهضة هذه العلوم الآن

— ٣ —

اما سر النضال القائم الآن بين دار العلوم والازهر وكلية الآداب بالجامعة المصرية ، فهو ما يظهر لنا في إبان هذه النهضة الحديثة ، من الرغبة في تفوق كل معهد من هذه المعاهد على غيره ، والمزاحمة في الحياة الفكرية والعملية ، مع ما هنالك من ضيق المجال في الحصول على وسائل العيش ، واحتلال المكان الاول في قيادة النهضة الادبية . وهذا النضال نضال شريف ، يبشر بحياة جدية علمية أدبية سيتولاها بلا شك النابغون من خريجي هذه المعاهد

وسينتهي هذا النضال بأن يثبت في الميدان المعهد الجدير بالبقاء ، لمآثره وإنتاجه العقلي ، ورسوخ قدمه ، وطول بلائه في اداء رسالته « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

— ٤ —

لا ينكر أحد ما لدار العلوم من الآثار والانتاج في مناحي الحياة الادبية والعلمية في مصر والشرق العربي ومن أهم ذلك ما يأتي : —

١ — قيام خريجي دار العلوم بأعباء تدريس اللغة العربية وآدابها والعلوم الدينية ونشر الثقافة العربية في معاهد التعليم على اختلاف طبقاتها زهاء ستين عاماً ، فهي التي نهضت بتعليم اللغة قواعدها وأدبها، وهذبت نواحي كثيرة من الكتابة ولغة التخاطب ، وقضت على اللهجات العامية والالفاظ الدخيلة التي كانت مسيطرة على ألسنة الكتّاب والخطباء في كل ناحية من نواحي الحياة العقلية ، وهيأت الكتاب في الصحف اليومية والمجلات الادبية والقضاة والمحامين ورجال السياسة وغيرهم لأن يعبروا عن أغراضهم بعبارات عربية فصيحة او قريبة من الفصيحة ، وثقفت عقول التلاميذ والطلاب حتى اصبحت أحاديثهم العامية معطرة بفصيح الكلام العربي . ولولا أساتذة اللغة العربية الذين بذلوا جهودهم وحياتهم في القيام بهذا الواجب لما وصل آدباؤنا وعلماؤنا وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون منا الى ما وصلوا اليه من اجادة التأليف والترجمة

٢ — قد اشترك خريجو هذه المدرسة في القيام بنشر الثقافة الادبية وتدريس فنون اللغة في المعاهد الكبرى كالجامعة الازهرية والجامعة المصرية ولا يزالون إلى الآن عماد التدريس في هاتين الجامعتين واليهم يرجع في كل ما يحتاج اليه من مساعدة في نشر الثقافة العربية وبخاصة الأدب

٣ — شغل كثير من خريجي دار العلوم المراكز المختلفة في مصالح الحكومة وغيرها ، فكان منهم القضاة الأهليون والمحامون المبرزون في القضاء الاهلي والشرعي والمدرسون لعلوم الشريعة المبتكرون لأساليب التدريس الحديث في الفقه الاسلامي بمعهدي الحقوق والقضاء الشرعي ، ولا ينكر احد فضل المغفور له الشيخ محمد زيد بك استاذ القضاة في المحاكم الاهلية . وكتبه تعدّ في مقدمة المؤلفات الحديثة التي سهلت طرق تدريس الشريعة الاسلامية . كما لا ينكر احد فضل الاساتذة الاجلاء محمد سلامه بك واحمد ابي الفتح بك والشيخ احمد ابراهيم بك في تدريس الشريعة ووضع المؤلفات النفيسة فيها

٤ — أما الانتاج العقلي في المؤلفات والمباحث العلمية والادبية عدا ما تقدم فكثير جدًّا ولهذه الانتاج إحدى خصائص ثلاث

الاولى : أنهُ أول انتاج في اللغة العربية في مواد لم تكن معروفة :

ومن أمثلته : كتب المرحوم حسن توفيق في الادب والتربية

وكتاب المرحوم محمد نصار بك في التربية وعلم النفس

وكتب المرحوم الشيخ شاويش بك في التربية

الثانية : تيسير تناول بعض انواع العلوم بوضعها في اسلوب حديث يلائم روح العصر والحاجة القائمة

ومن أمثلته :

كتب القواعد للمدارس الابتدائية والثانوية للاساتذة حفني بك ناصف ورفقائه . وتعتبر هذه الكتب أول خطوة نحو تيسير تناول القواعد واستساغتها لتلاميذ المدارس وطلابها . وقد تلتها كتب أخرى حديثة قوامها خريجو « دار العلوم »

وكتابا شذا العرف في علم الصرف وزهر الربيع في علوم البلاغة للمرحوم الشيخ احمد الحملاوي

وكتب المنطق والاصول للمرحوم سلطان بك محمد

وللاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري أثر جليل في تفسير القرآن الكريم ، وكتاب في فلسفة الشريعة الاسلامية

وللخضري بك مؤلف قيم في تاريخ التشريع الاسلامي

وكتب الادب العربي للاستاذ الكبير الشيخ احمد الاسكندري وكتب فقه اللغة له أيضاً

وفقه اللغة المصور للاستاذ محمد عبد الجواد من أساتذة الدار

ودار العلوم أول من وضع منهجاً لدراسة فقه اللغة في مصر

الثالثة : وصل النظريات الحديثة بالمذاهب القديمة في بعض العلوم كما فعل المرحوم الشيخ شريف بك في كتابه علم النفس ، وكما فعل الاستاذان احمد عبده خير الدين ومحمد حسنين عبد الرازق في كتب المنطق ، ولهما الفضل في وصل المنطق الحديث بالمنطق القديم

وللدكتور احمد ضيف كتاب « بلاغة العرب في الاندلس » وهو مثال للتفكير الادبي الحديث الناضج . وهو أول من قرن الادب العربي بالادب الغربي في تأليفه وتدريسه

***

أما إذا ذكر الشعر فان « دار العلوم » غنية فيه برجالها . وان من أبنائها من يعتبر في طليعة الشعراء وناشري فنون الشعر قديمها وحديثها ، من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب شاعر البادية والاستاذ علي الجارم بك وكثير غيرهم من أساتذة الدار وطلابها

معهد التربية

حديث امين سامي حسونه بك
ناظر معهد التربية

في الصيف سافرت الى انجلترا للاشتراك في مؤتمر التربية الدولي ، ومشاهدة المباحث المتعددة التي تعمل فيها شعبه المختلفة. وقد عدت من انجلترا وانا مقتنع كل الاقتناع بأن معهد التربية المصري لا يقل في مستواه عن ارقى المعاهد المناظرة له في العالم . وسترى، عندما نبسط نظام معهدنا ، انه يسير في جل نظمه وفق آخر ما وصل اليه علماء التربية في مؤتمرهم الاخير

تنقسم الدراسات في معهدنا الى قسمين : ابتدائي ، وثانوي . ويلحق بالاول منهما الطلاب الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية ، ويلحق بالثاني الطلاب الحاصلون على درجة بكالوريوس في الآداب او العلوم . وليس الحصول على هذه الاجازات العلمية هو الشرط الوحيد للانتظام في المعهد ، بل هنا امتحانان يجتازهما الطالب اولهما الكشف على الصحة العامة كشفاً دقيقاً ، وثانيهما ما نسميه امتحان الهيئة ، تتولى فيه لجنة مكونة من ناظر المعهد ووكيله واستاذ التربية الطبية واستاذ التربية الاجتماعية واحد مدرسي العلوم واحد مدرسي الآداب ، اختبار المستوى الفكري العام للطلبة المتقدمين ، ومحاولة تقدير عنصر الشخصية في كل منهم . ويتسع معهدنا الآن لمائة وسبعين طالباً ، يقضي طلاب القسم الابتدائي ثلاث سنوات قبل تخرجهم ، ويقضي طلاب القسم الثاني سنتين. وقد وجدت في انجلترا ان حاملي شهادة البكالوريوس يقضون عاماً على الاقل في المعهد . اما طلاب القسم الابتدائي فان مرحلة دراستهم تستمر أربعة اعوام . ونحن نرجو ان نصل . اما في اسكتلندا ، فهم هناك يختارون المدرس الثانوي من حائزي اجازة الماجستير على الاقل ، ويمكثون في المعهد عاماً ونصف عام للدرس ويوضعون تحت التمرين مدة نصف سنة

يدخل الطلاب معهدنا ، لا لنحشو أذهانهم بالعلوم النظرية ، والدراسات المعقدة في الكتب، بل لتكوّن منهم رجال اجتماع قبل كل شيء ، يعتمد الفرد في معلوماته على تجاربه ومشاهداته الخاصة ، ليكمل بها ما يقرؤه في الكتب . . فهو يمارس الرياضة البدنية على أوسع نطاق ، يلعب كرة القدم والهوكي وكرة السلة والبادمنتون وألعاب القوى ويسبح ويجدف ويغرم بالألعاب السويدية . ولا تفرض هذه الألعاب على الطلاب فرضاً ، بل يأخذ منها كل طالب ما يوافق تكوينه الجسمي ، اذ الغاية منها القيام بتمرينات علاجية Corrective exercises، تصلح عيوب البدن ،وتقوّم نواحيه الضعيفة . وبعد ظهر الاثنين من كل أسبوع ينقلب المعهد إلى ملعب كبير تجري فيه أنواع التمرينات والمباريات على أحدث الطرق

ثم اننا نعنى عناية كبيرة بالحياة الكشفية فلدينا ١٣٠ جوالاً من ١٧٠ هو عدد طلاب المعهد

وإلى جانب الرياضة البدنية والعناية بها، تمهد للطالب السبيل لتكوين ثقافته الاجتماعية، ولا سيما ما يتعلق منها بالطفولة. فهو يزور مثلاً مستشفى المجاذيب ومراكز رعاية الطفل وإصلاحية الاحداث، ويقف على نظمها ويدوّن مشاهداته وخواطره.. وهو يزور معالم البلاد الصناعية والتاريخية والعمرانية. لاننا لا نجيز أن يقوم مدرس بالتحدث لطلابه عن قنال السويس، وهو لم ير طول حياته قنال السويس، أو يشهد الموانىء والفنارات. ويعمد الطلبة عقب كل رحلة من رحلاتهم إلى الاطلاع — بقدر استطاعتهم — على ما كتب في موضوع رحلتهم من كتب او تقارير، ثم يدونون خلاصة دقيقة لما رأوا وما علموا، وما لاحظوا..

ومن هنا نرى أن «شخصية» المدرس هي أهم ما نعنى بابرازه في طلابنا. ونحن نقوم الآن — مثلاً — بدراسة قانون نظام المدارس الحالي وهو قانون قديم يرجع الى اول هذا القرن، ونصنع دستور المدرسة الحديثة مسترشدين بتجاربنا، وبآخر ما وصلت اليه النظم الاوربية في هذه الناحية. وبعد أن نظهر في طالبنا «شخصية المدرس» التي ذكرنا، نوجه كل قوته إلى حب الطفولة لكي يطبق عليها دراساته في رضى واقبال. فالطفل عندنا مقدم على المادة. والطفل هو الذي يكيف نظرية التربية، لا النظرية هي التي تكيف الطفل. ولهذا فنحن ندرس علم النفس التجريبي دراسة عميقة. ونضيف اليه مادة جديدة هي مقاييس الذكاء. وقد تمكنا خلال السنوات الخمس الماضية من اجراء مباحث ممهدة في هذه الناحية، وطبقناها على آلاف التلاميذ في جميع مراحل الدراسة، وحصلنا بعد مجهود متواصل على مقاييس دقيقة تصلح لكل سن

وكان توزيع التلاميذ في الفصول يجري قديماً بحسب ترتيب الحروف الابجدية فيجلس التلميذ الموهوب بجانب الشاذ، ويجلس الشاذ بجانب الغبي. ويؤدي هذا النظام الى الهبوط بمستوى الدرس الى درجة توافق الضعيف، فتكون النتيجة ان يستهين التلميذ الموهوب اول الامر بدرسه، فيهمل، فيؤذى ويعاقب، فيفقد الثقة بنفسه، وبذا تنطفي لمعة ذكائه

اما الآن، وبعد ان اوجدنا النظم التي تمكن بها من تقسيم الاطفال بحسب استعدادهم العقلي، فقد استطعنا ان نوزعهم طوائف متقاربة تفصل كل واحدة منها عن الأخرى، وتلقن كل طائفة من العلم ما يوافقها

وقد تحدثوا في مصر طويلاً عن الشواذ. والحاً الملحون في وجوب عمل شيء من اجلهم. والحقيقة ان الشذوذ في الاطفال يرجع الى ضعف في العقل، او في الجسم. ومن حق الامة على الدولة ان تعنى بهؤلاء الشواذ. فنظام التعليم الاجباري يقضي بان يتعلم الجميع. ولذا ينبغي ان تكون لدينا مدارس للأعمى والكسيح والأبكم. وان يلقن هؤلاء من العلم ما يوافق حالاتهم، مع العناية المبكرة بتقديم العلاج لهم ان كان في الاستطاعة علاجهم لان كثيراً من هذه الحالات

تستعصي على الطب لاهمالها . هؤلاء هم الشواذ جسماً . اما شواذ الذكاء فينبغي ان يكون لهم نظام خاص لكي يوجهوا توجيهاً نافعاً، صوب الناحية العملية دون الحياة النظرية . وكثيراً، بل غالباً ما تقوى في قليلي الذكاء المقدرة العملية . . فاذا اهمل هؤلاء ولم تستغل قواهم فان شذوذهم ينمو، والشذوذ عادةً هو موطن الاجرام

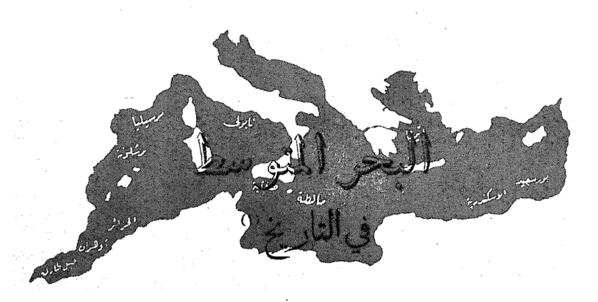
وقد دعانا هذا الاتجاه الى انشاء العيادة السيكولوجية في المعهد، ومهمتها البحث في الطفل من جميع نواحيه، ومعرفة نواحي شذوذه، وهل هي راجعة الى العقل او الحس او الخلق ويبحث القائمون بهذه العيادة مثلاً في بيئة الطفل، فقد تكون لحياته المنزلية تأثير فيه. فتسعى العيادة الى علاج المنزل نفسه . ولهذا أوجدنا في العيادة ثلاث سيدات يعملنَ في القسم الاجتماعي من العيادة. ويقوم القسم الطبي في العيادة بفحص الطفل فحصاً دقيقاً، ومعرفة تاريخ امراضه، وامراض أسرتهِ، فقد ترجع علتهُ الى وراثة من ابيهِ او امهِ، ثم يقوم المدرس بتفقد نزعات الطفل الخلقية، لمعرفة اتجاهه الفكري وتقدير استعداده. وكثيراً ما وجدنا ان شذوذ اطفال يرجع الى شجار منزلي بين الاب والام. او الى وفاة او طلاق أحد الابوين او الى معاملة الخدم، او الى نوع الغذاء او ترتيب المنزل

وفي القسم التجريبي من معهدنا الذي يلحق بهِ الاطفال، وتسمح لنا وزارة المعارف بأن نطبق نظرياتنا عليهم، تتجلى فائدة هذه النظم بقوة ووضوح. وقد اكتملت تجارب العاملين في العيادة السيكولوجية، حتى ليمكن ان نقول أنها تشبهُ في مقدرة رجالها وسيداتها ارقى العيادات العالمية وان كان ينقصها الكثير من الاستعداد العملي

وسأذكر لك على سبيل المثال حالة من الحالات الكثيرة التي تمر علينا في هذا الباب . لأحد كبار المصريين ابن، ظل يتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية ثلاث سنوات متعاقبة وهو يرسب وقد فصل من مدرسته، وأبت المدرسة قبوله بحسب قانون المدارس، فأشير على الأب بارساله إلينا فجاءنا الولد، وفحصناه في عيادتنا، وبعد ان عرفنا السبب في تأخيره، توليناه بالعلاج، ثم تقدم الغلام للامتحان في العام الماضي، فكان أول الناجحين من تلاميذ فصولنا التجريبية

وإذن فمعهدنا يقوم في عمله على الاسس الآتية :

اولاً — العناية بالجسم . ثانياً — العناية بالثقافة العامة . ثالثاً — الرحلات والمشاهدات . رابعاً — المكتبة . خامساً — علوم التربية واهمها علم النفس، والتربية التجريبية ومنها مقاييس الذكاء . والتربية الطبية وتاريخ التربية. وستدخل مادة جديدة هامة في برامجنا وهي التربية المقارنة Comparative Education . وقد تخرَّج في معهدنا حتى الآن ٩٤ مدرساً ثانويًّا، و١٢٢ مدرساً ابتدائيًّا . ولكن مما يؤسف أن المجال في تطبيق دراساتهم لا يزال ضيقاً، لان المدارس تتبع الطرق القديمة . ولكن تبدو قوة متخرجينا في جميع نواحي النشاط الاجتماعي اينما وجدوا



البحر المتوسط في التاريخ (١)

منذ نحو ثلاثين الى اربعين الف سنة كان البحر المتوسط بطائح شاسعة وحزاجاً وبحيرات وبراري . وكانت حيوانات الفرس البرّي والمموث والجاموس تجوسها قطعاناً وارجالاً . وكان انسان الكهف في ذلك العصر — كروماغنون — طويل القامة كبير الدماغ يصيدها بحيلته البارعة ويذبحها بأدوات مصنوعة من الصوّان ، فيصنع من جلودها أردية ، ويتخذ من لحمها غذاء ، ويدوّن انتصاراته عليها في رسوم ينقشها على جدران كهوفه

ثم بعد عشرين الف سنة ، تركت قبائل الازيل وصف حياتها ومعيشتها منقوشة على جدران الكهف المعروف بكهف « ماس دازيل » . كان الجاموس والمموث قد ارتدّا الى الشمال ، فصرفت قبائل الازيل همها الى قنص قطعان الفرس البري المتناقصة وارجال الأيائل ، بالقوس والنشاب . وكانوا يخيطون جلودها بابر من العظم ، ويصيدون السمك في البحيرات والانهار بصنارات من العظم ايضاً ، ويدخنون خلايا النحل لكي يفوزوا بعسلها . وكان انسان البحر المتوسط قد تعلم قبل هذا العهد الملاحة فجعل يطفو على بحيرات مملكته الواسعة ، في زوارق مصنوعة من القصب ومغطاة بالجلود ، وكان قد تعلم اختلاف الفصول فجعل يقنص ويصيد ويبذر في الفصول الملائمة لذلك

ثم من نحو خمسة عشر الف سنة الى اثني عشر الف سنة انشقّ الحائل القائم عند اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) والفاصل بين منطقة البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي ، فتدفقت مياه المحيط شرقاً وغمرت البطائح التي كان المموث يجوسها ، والمراعي التي كان الفرس البرّي يعيش على عشبها . ومضت المياهُ في تدفقها وامتدادها ، حتى وقفت عند جبال الاطلس والسيرانفادا واسناد الالب والبرينيه وسفوح الابنين وسلسلة طورس العظيمة . فنشأت عن ذلك شواطيء اليونان

(١) The Dangerous Sea صدر من نحو شهرين كتاب انكليزي عنوانه « البحر الخطر : او البحر المتوسط ومستقبله » للكاتب السياسي الانكليزي جورج سلوكومب ونشرته دار هتشنصن . وقد استخلصنا هذا المقال من فصله الاول

المسننة ، وقدم ايطاليا . غمرت المياه بلاداً تكثر فيها الآكام في منطقة بحر ايجه فلم يبق من الآكام الاّ قممها وهي جزائر الارخبيل وعجزت عن ان تغمر جبالاً اخرى ممتدة من الغرب الى الشرق فكانت كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة وكريت وقبرص . وكذلك حدّدت هذه الامواه المتدفقة جانباً حدود القارات الثلاث اوربا وافريقية واسيا

وقدر لشواطىء هذا البحر المتوسط بين ثلاثة قارات ان تصبح ، منشأً ومقرًّا لطائفة من اشهر الحضارات في التاريخ المدوَّن ، زهت هنا وعظمت ثم دالت دولاتها ودرست معالمها ، ولم يبق منها الاّ بعض الآثار العجيبة . ان اقدمها متغلغل في جوف الزمان ، بدأت تسفر عنهُ الكتابات المسمارية في الواح اللبن في بلاد الرافدين وأحدثها كأنهُ من بنات الامس الغابر على الرغم من الفي سنة تفصلنا عنهُ

الى شواطىء هذا البحر المتوسط ، توافدت جماعات من الغزاة فأنشأت دولة اثر دولة في مصر ، وامبراطورية اثر امبراطورية في بابل ونينوى . فلما حكم حمورابي في بابل كان الفينيقيون الساميون ، قد رسخوا اقدامهم في صور وصيدا وغيرها من الثغور التجارية العظيمة على سواحل هذا البحر الشرقية . كانت سفنهم بأشرعتها القرمزية ، قد عبرتهُ طولاً وعرضاً . بل كان الفينيقيون قد انشأوا مستعمرات في اسبانيا وبلاد الغال وعلى شاطىء افريقيا الشمالي أسّسوا المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة لامبراطورية قرطاجنة . ثم اجتازوا بأشرعتهم اعمدة هرقل واتجهوا شمالاً محاذين شواطىء اسبانيا وفرنسا الى سواحل بريطانيا . وقبل ان ينقل البحّارة اليونانيون والجنود الرومانيون اصول الحضارة الى سواحل هذا البحر الغربية ، كان الفينيقيون قد باعوا سكان تلك السواحل عطوراً وخموراً وأفاويه ، لقاء نحاس أسبانيا وقصدير كورنوال (مقاطعة بريطانيا الجنوبية)[١]

وليس في التاريخ ، أدلة أقوى على زوال الامبراطوريات ، وعدم استقرار الحضارة ، من الادلة التي يستخرجها الباحث في تاريخ البحر المتوسط . لقد شهدت مياهُ هذا البحر ، الحضارة الايجية العظيمة وقد بلغت ذروتها وأوج مجدها في ميسيني وطروادة وفي كنسوس عاصمة الدولة المينوية في كريت حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ثم جاء اليونان الآريون فدمّروها . وشهدت كذلك مفاخر الحضارة المصرية ترتفع وتنخفض ثم ترتفع وتنخفض ثانية . هوذا طوائف الغزاة من قلب اسيا ، تؤسس في بلاد الرافدين حضارة عظيمة الشأن ثم لا تلبث ان تبلى بطائفة اخرى من الغزاة تغلبها على امرها ، فتدمّر ما بنت ثم تقيم على الانقاض حضارة جديدة . فالامبراطورية الاشورية العظيمة ، امتد سلطانها وعظمت شوكتها حتى استطاعت ان تطرد من مصر غزاتها الاثيوبيين ،

---

(١) حدثنا بعض من اتيحت لنا مباحثتهم في اثناء الصيف الماضي في انكلترا ، ان بعض النباتات الخاصة بمقاطعة كورنوال لا تزال تحمل في ثنايا اسمائها بعض الاصول الفينيقية

ولكن لم تلبث حتى سقطت امام جموع الماديين والفرس. هوذا فجر بركليس وعصره ينبلج على اثينا ولكن اسكندر ذي القرنين يشيد امبراطوريته على انقاض الجمهوريات اليونانية . لقد امتدَّت الامبراطوريات التي أُسست على شواطىء هذا البحر، الى المحيط الاطلنطي غرباً، والمحيط الهندي شرقاً . ان مرافئهُ كثيراً ما ازدحمت بالغنائم والاسلاب من افريقية وآسيا . ومن موانيه المحتشدة ، أقلعت السفن الاولى التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، وشقت الطريق الى العالم الجديد . ان تأثير احدث حضاراته القديمة — اي الحضارة اليونانية والرومانية — لا يزال ماثلاً في علمنا وفننا وقانوننا الى يومنا هذا

ولا ننسى ان شواطىء هذا البحر شهدت قيام اعظم ديانتين في تاريخ العالم ، ديانة السيد المسيح ، وديانة النبي الكريم ، بل كثيراً ما كانت سواحلهُ ميداناً للنزاع بينهما ،وكأن الزمان نفسهُ وقف عن المسير ، منتظراً ما يسفر عنهُ هذا النزاع

***

ان اعظم المعارك البحرية في التاريخ نشبت حتى اوائل القرن العشرين ، في مياه البحر المتوسط او في جوارها . ففي سنة ٤٨٠ ق . م . هزم اسطول زركسيس في خليج سلاميس على ايدي اليونان. وفي السنة التالية أجهز هؤلاء على البقية الباقية منهُ في ميكالي ولم تنقض اربع سنوات حتى تغلب اسطول الاترسكيين على اليونان في صقلية . بل ان النزاع الطويل بين دويلات اليونان وهو المعروف باسم حرب البلوبونيس (٤٧١ — ٤٠٤ ق.م) كان في الغالب نزاعاً غرضهُ انتزاع السيادة البحرية من الاسطول الاثيني . وما اهلَّ نجم الاسكندر ذي القرنين ، وبدأ سيرهُ الظافر شرقاً حتى وجد في مناوأة اساطيل صورٍ وصيداء ، خصماً قوياً اخر زحفهُ على جيوش داريوس الفارسي . فلما بدأ النزاع بين قرطاجنة وروما ، وقد كانتا دولتين بحريتين ، احتشد التاريخ البحري للبحر المتوسط ، بالحوادث الجسام والمعارك الكبيرة . ففي سنة ٣١ ق.م. نشبت اعظم معركة بحرية في العالم القديم هي معركة اكتيوم . وفي المياه نفسها ، عند خليج ليبانتو نشبت اعظم معركة بحرية في العصور المتوسطة (معركة ليبانتو سنة ١٥٧١) وقد ظلّت هذه المعركة البحرية اعظم المعارك البحرية في الثمانية عشر قرناً من التاريخ المسيحي حتى كانت معركة الطرف الاغر في مستهلّ القرن التاسع عشر

فقد تبدَّد حلم نبوليون بانشاء امبراطورية شرقية عظيمة كسحابة صيف ، لانهُ لم يملك أعنة القوَّة البحرية في البحر المتوسط . ان انتصارات الاميرال نلسن الباهرة ، ختمت قرناً كانت فيه مياه هذا البحر، مسرحاً للقرصان. ولم تر مياه البحر المتوسط معركة بحرية بعد ان نشبت معركة نافارين التي غلبت فيها اساطيل تركيا ومصر ، سنة ١٨٢٧ ، الى ان كانت سنة ١٩١٤ اذ افلت الطرادان الالمانيان

غوبين وبرسلو من اساطيل الخلفاء وحاولتا ان تتحدَّى سيادتها عليهِ

ليس في العالم رقعة من الماء تشبه البحر المتوسط او تقاربهُ في عدد الشعوب المتصلة بتاريخهِ. ان فجرهُ ينبلج اليوم، كما كان ينبلج في العصور الغوابر، على العربي واليوناني، اليهودي والمصري، الايطالي والصقلي، الاسباني والتركي والفرنسي. ان الرجال والنساء الذين يعيشون على سواحله يكادون يؤلفون طرازاً خاصًّا من الناس، لاشتراكهم في بيئة واحدة وغذاء متماثل واعمال ومصالح متشابهة، ولاختلاط دمائهم بعضهم ببعض خلال عصور طويلة

***

جذب البحر المتوسط الغزاة اليهِ من فجر التاريخ، القوط والفاندال من الشمال، والهون من الشرق، والغاليين والفرنك والنورس من الغرب والشمال الاقصى. ولولا فترة قصيرة استولى فيها الاثيوبيون على وادي النيل، لقلنا ان الزنوج وحدهم دون سائر الشعوب امتنعوا عن الانقياد لسحرهِ. منذ فجر التاريخ شقت مياهَهُ مجاذيفُ شعوب استقرت في تركيبها وطبيعة بيئتها بواعث الهجرة وحب المغامرة كالفينيقيين واليونان والقرطاجنيين. وقد كان الاتجاه في التجارة والهجرة حتى القرن الماضي، الى الغرب، ولذلك كان مضيق جبل طارق، وهو باب البحار القديم الى المحيط الاطلنطي، هدفاً للمغامرين في ايام اليونان والرومان. فبلدان غال وايبيريا (اسبانيا) وسواحل افريقية من قرطاجنة الى المحيط، اغرت الشعوب المزدحمة في شرق البحر، بخصبها وغناها وسعتها

نعم ان مسالك التجارة والادارة والمواصلات الامبراطورية، اتجهت في امبراطوريتي الاسكندر واغسطس شرقاً وغرباً، ولكن في خلال القرون المظلمة التي تلت سقوط روما وبزنطة، اتجه مركز السيادة في البحر المتوسط الى سواحلهِ الشرقية. فبعد أن اتخذت الامبراطورية العثمانية القسطنطينية (الاستانة: استانبول) عاصمة لها، جعلتها مركزاً، سيرت منهُ الجحافل فاكتسحت مصر وفارس والجزيرة وشمال افريقية الى المحيط الاطلنطي. فأصبحت تونس، وهي قرطاجنة القديمة، والجزائر وطنجة ولايات تابعة للسلاطين. وأصبح البحر بحر قرصان. وحاول الصليبيون بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ان يردُّوا موجة التوسع العثماني المتجهة من الشرق الى الغرب ولكنهم عبثاً حاولوا. ولم ينحصر ضعف الدول المسيحية المفرقة المتعادية في البر، بل شمل البحر كذلك. ففرسان مار يوحنا الاورشليمي، خذلوا امام العثمانيين. واخلوا عكاء ثم رودس. ولم تبق قبرص في ايدي البندقيين الاَّ بعد تسليم البندقية للعثمانيين بكثير مما يطلبون وكذلك كانت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني، قوة بحرية لا تبارى من سواحل

سوريا الى شواطىء اسبانيا . وحاول الامبراطور شارل الخامس ان يخرج القرصان من تونس والجزائر ، فارتدّ خائباً من الجزائر بعد ان اقام في تونس حامية استسلمت للخصم في ملك ابنه فيليب . أما جزيرة مالطة التي تراجع اليها فرسان مار يوحنا الاورشليمي ، فحوصرت حصاراً طويلاً . وكذلك ظلّت سيادة العثمانيين البحرية على البحر المتوسط ، الى أواسط القرن السادس عشر ، عند ما نشبت معركة ليبانتو ، ففازت فيها أساطيل أسبانيا

***

ولو شاءت أسبانيا حينئذٍ او لو عرفت ان تغتنم الفرصة ، لكانت السيادة في البحر المتوسط لها . ولكن امراء البحر الاسبانيين ، كانوا شديدي الانشغال ، بعد معركة ليبانتو ، بحماية السفن المحملة بكنوز جزائر الهند ، والسفن الناقلة للجنود الى هولندة الاسبانية ، والسفن التجارية الآتية من هولندا الى أسبانيا . وشغلهم علاوة على ذلك عزمهم على مناوأة بحارة الملكة اليزابث بعد ان وجدوا البحر مسرحاً لما في نفوسهم من حب المغامرة والتوسع . كذلك حال الاستعداد للحملة العظيمة التي رغب فيليب الثاني ملك أسبانيا في تجريدها على انكلترا ، دون التفاته الى البحر المتوسط . فاستغرقت كلّ تفكيره ، واستنفدت معظم ماله ، فكأنّ البحر الذي يغسل شواطىء أسبانيا وايطاليا ، ويؤمن مواصلاته الى جنوى ونابولي وصقلية كان خارجاً عن نطاق تصوّره الحربي ، او نطاق مطامعه الواسعة . لم يكفه ما ورثهُ عن والده من سيطرة وألقاب وضحّى بثمار الانتصارات التي أحرزها اخوه «الدون جون» في البحر المتوسط ، لانهُ كان يطمح الى السيطرة سيطرة روحية وعسكرية على شمال اوربا

ولكن هزيمة اسطوله في تلك المعركة البحرية العظيمة عند شواطىء هولنده ، في سنة ١٥٨٨ عند ما اشتبك اسطولهُ بأسطول الملكة اليزابث الانكليزية في معركة الارمادا الاسبانية المشهورة ، بدَّد هذا الحلم الجميل . ثم تلا ذلك تدمير البقية الباقية من اسطوله على شواطىء اسكتلندا وارلندا الجافية ، فأصبحت أعظم دولة بحرية في البحر المتوسط في ذلك العهد ، وهي لا تستطيع ان تشقّ عبابهُ بسفنها خشية القرصان ، مع ان ذلك البحر كان في قبضتها لو شاءت

ثم جاء قرنان على هذا البحر ، والسيادة فيه ليست لدولة من الدول . ذلك ان قوّة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت ومعها قوّة البندقية ، وأصبح البحر مسرحاً للقرصان وظلّ كذلك الى خاتمة القرن الثامن عشر ، عند ما ظهر أثر القوّة البحرية الانكليزية في تأمين مواصلاته ، ولكن الاسطول الانكليزي لم تتمّ لهُ السيادة على هذا البحر ، الاّ بعد ما غلب نبوليون على أمره ، وقد ظلّت لهُ هذه السيادة الى عصرنا الحاضر ، ولولا تحدّي ايطاليا لهُ في أواخر سنة ١٩٣٥ لقلنا انها لا تزال لهُ الى يومنا هذا

الكهارب الموجبة

او البوزيترونات

وجائزة نوبل الطبيعية

منحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٦ للاستاذين هس النمسوي واندرسن الأميركي. والسرُّ في الجمع بينهما وتقسيم الجائزة عليهما ان مباحث الأول أفضت بالثاني الى الكشف عن دقيقة من الدقائق الكهربائية الأساسية في الطبيعة ونعني الكهرب الموجب أو البوزيترون. فالأستاذ هس رائد الباحثين في الأشعة الكونية عالجها قبل الحرب الكبرى، ثم توفر عليها بعدها فريق من الباحثين في مقدمتهم العلامتان ملكن وكمطن الاميركيان. وكان اندرسن يساعد ملكن في أحد مباحثه فوقع على صورة تبيّن فيها شيئاً إدّاً، فأدرك مغزاهُ في الحال وتابع البحث فيه الى ان أسفر ذلك الشيء الإدُّ عن الكهرب الموجب

كان السائد حتى سنة ١٩٣٣ عندما اكتشف البوزيترون ان الدقائق الأساسية في المادة أو في تركيب المادة الكهربائي، هي الكهارب وشحنتها سالبة والبروتونات وشحنتها موجبة. وكان الرأي ان شحنة الكهرب تعادل شحنة البروتون ولكن كتلة البروتون تفوق كتلة الكهرب نحو ١٨٠٠ ضعف. وعلى ذلك كانت الذرّة مركّبة من كهارب وبروتونات، فنواة الذرّة قوامها مجموعة من الكهارب والبروتونات في كتلة مركّزة وحولها كهارب متحركة. ثم كشف عن دقيقة أخرى دعيت النترون أي المحايد Neutron وقيل انها مؤلفة من كهرب واحد وبروتون واحد، فشحنة الواحد تبطل فعل الشحنة المقابلة في الآخر لان الاولى سالبة والثانية موجبة، وكذلك يتاح لهذه الدقيقة ان تخترق المواد لانها لا تخضع لفعل المجال الكهربائي

في سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث Bothe وبكر Becker يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم. فكانت الدقائق المسدّدة الى تلك اللوحة تصيب بعض نوى البريليوم فتطلق هذه من تلقاءِ نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ. فظنّ بوث وبكر ان هذا الاشعاع من

قبيل اشعة غمّا التي تخرج من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقوة اختراق . وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو الفرنسي وزوجته (كريمة مدام كوري) بتجارب من قبيل تجارب العالمين الالمانيين فوضعا حوائل من مواد مختلفة بين البريليوم الذي تنطلق منهُ هذه الاشعة وغرفة التأيين (Ionization Chamber وهي اداة تستعمل لقياس قوة الاشعة بعدد ما تحدثهُ في غاز معيَّن من الايونات او الشوارد كما دعيت) فوجدا انهُ اذا كان الحائل من مادة فيها غاز الايدروجين كمادة البرافين زاد عدد الايونات المتولد في غرفة التأيين وهو غير منتظر بل المنتظر أن يحجب هذا الحائل بعض الاشعة الصادرة من معدن البريليوم . ويعلَّل هذا الفعل بان الاشعة الصادرة من البريليوم تصيب بعض ذرَّات الايدروجين في البرافين فتطلق بروتوناتها بسرعة ١٨ الف ميل في الثانية . فحسبا انهُ اذا كانت اشعة البريليوم امواجاً فطاقتها يجب ان تكون ٥٠ مليون « الـكترون فولط »

هنا ظاهرة عجيبة تثير الدهشة لان المواد المشعة لاتطلق دقائق لها طاقة تزيد على ستة ملايين « الـكترون فولط » . اي ان البريليوم يطلق اشعة تفوق طاقتها عشرة اضعاف طاقة الاشعة المسدَّدة اليه . وهذا غريب ! ففرض جوليو وزوجتهُ ان هذه الاشعة المنطلقة من البريليوم امواج ، وانها في قصرها وشدة نفوذها تقع بين اشعة غمّا التي تخرج من الراديوم وبين الاشعة الكونية

وقرأ شدك الانكليزي عن هذه التجارب ، فعمد الى انابيب قديمة من الراديوم كانت قد اهديت اليه بعد ما فقد الراديوم فيها خواصهُ العجيبة ، فاستخرج منها عنصر البولونيوم وهو يختلف عن الراديوم في انهُ لا يطلق الاّ دقائق الفا حالة ان الراديوم يطلق مع دقائق الفا دقائق بيتا واشعة غمّا . وكان يعلم ان طاقة دقائق الفا ٦ ملايين « الـكترون فولط » . وليس معها دقائق اخرى تشوش الانتاج . فاذا كانت هذه الدقائق تستطيع أن تقذف من البريليوم اشعة طاقتها ٥٠ مليون « الـكترون فولط » فهو امام ظاهرة عجيبة جديرة بالبحث حرية بالعناء في سبيل فهمها وتفسيرها

اطلق شدك دقائق الفا من عنصر البولونيوم على البريليوم ، ووضع وراء لوحة البريليوم حائلاً من النتروجين ،فكانت الاشعة المنطلقة من البريليوم على النتروجين عنيفة كلَّ العنف ، قاسها في غرفة التأيين فوجدها تحدث ٣٠ الف ايون . هنا توقف شدك وقال : لو كانت مقذوفات البريليوم التي اصابت النتروجين اشعة من طاقة ٥٠ الف « الـكترون فولط » لما استطاعت ان تحدث هذا العدد من الايونات بحسب القواعد المسلَّم بها . بل لما استطاعت ان تحدث اكثر من ١٠ آلاف ايون . ولـكن اذا فرض ان مقذوفات البريليوم هي دقائق مادية كتلتها ككتلة

البروتون وتسير بسرعة تعدل عُشر سرعة الضوء فاحداثها ٣٠ الف ايون في غرفة التأيين يصبح امراً معقولاً . ثم اذا فرض ان هذه الدقائق متعادلة الكهربائية ولا تتأثر بالجذب فعندئذٍ يمكن تعليل قوة اختراقها للمواد على اوفى وجهٍ

. وكذلك كشف النترون او « المحايد » وكان اللورد رذرفورد قد تنبأ بهِ قبل عشر سنوات

اما الكهرب الموجب فله قصة اخرى . ذلك ان الاستاذ كارل د. اندرسن Anderson كان يبحث في الاشعة الكونية . والاشعة الكونية شديدة النفوذ تخترق لوحاً سمكهُ بضع اقدام من الرصاص . ولكنها تعيي الباحثين فلا يستطيعون درسها مباشرة . ولذلك يعمدون الى فعلها في دقائق الهواءِ . ذلك ان هذه الاشعة تصيب بعض دقائق الهواءِ فتؤيّنها (اي تزيل جانباً منها فيصبح الباقي ولهُ شحنة كهربائية) وفي سنة ١٩٢٩ حاول العالم الروسي سكوبلزن Skobelzyn ان يصوّر مسارات الاشعة في غرفة غائمة [١] وتبعهُ ملكن واندرسن فحسّنا الطريقة واتقناها وصوّرا بها مسارات الاشعة الكونية كما يدل عليها اصطدامها بدقائق الهواءِ في غرفة غائمة . في هذه الصور لاحظ اندرسن عدا مسارات الاشعة الكونية خطوطاً مزدوجة ومنحنية . فاسترعى نظرهُ اولاً ان هذه الخطوط المنحنية لا تكون الاّ ازواجاً . وثانياً ان احدها منحرف الى اليمين والآخر الى اليسار . اي ان احدها سالب والآخر موجب . وتبيّن عند البحث ان الخط السالب المنحني انما هو الكترون . ولكن لم يستطع احد ان يعلّل الخط الموجب . ذلك ان اصغر وحدة للكهربائية الموجبة عرفت حتى ذلك الوقت ، انما كانت البروتون . وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً . فاذا كان الخط الموجب يمثل البروتون فيجب ان يكون انحرافهُ اعظم جدًّا من هذا الخط البادي في الصورة

فقال اندرسن في نفسهِ ، ان البروتون ليس صنو الالكترون بل ان صنوه دقيقة أُخرى أصغر من البروتون كتلتها مثل كتلة الالكترون وشحنتها موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . ودعا هذه الدقيقة البوزيترون . ثم توالت التجارب فأيدت اكتشاف اندرسن واشهرها التجارب التي قام بها بلاكت واوكياليني في كمبردج

وقد اختلف العلماء في تسمية هذه الدقيقة فقال بعضهم ان لفظ بوزيترون قد يشوّش الذهن الاّ اذا تخلينا عن لفظ الكترون وسميناه نغاترون حتى يقابل بوزيترون تماماً . ونحن نستطيع ان نتغلب على هذه الصعوبة فنسميهما الكهرب الموجب (البوزيترون) والكهرب السالب (الالكترون)

---

(١) الغرفة الغائمة طريقة ابتدعها العالم الانكليزي ولسن تمكن الباحثين من تبين مسارات الدقائق التي لا يمكن ان ترى بما تكونه من تطيرات الماء في الطريق الذي تسلكه

مذاهب الفلسفة الرئيسية

لفليمون خوري

الفلسفة عبارة عن اسمى ما وصل اليه العقل البشري من الآراء والافكار في البحث عن حقائق الكون وازاحة الستار عن اسرار الوجود . وانـا اذا التفتنا الى درجة المعارف والعلوم التي استطاع الانسان بلوغها الى اليوم نجد انهُ قد جاء حقًّا بالغرائب المدهشات فما هي هذه الفترة اليسيرة من الزمن منذ فجر تاريخ العلم والفلسفة الى يومنا الحاضر بالقياس الى الادوار التي سوف يمرّ عليها في مستقبل الايام

وفي الفلسفة كما في ايٍّ من العلوم والفنون مذاهب متباينة ان لم تكن متناقضة وقد نشأت فيها المذاهب منذ اول عهد الفلسفة اليونانية وكان اولها ما يتعلق بمادة الكون الاصلية العامة التي ذهب اول فلاسفتهم طاليس الى انها الماء . واعتقدها غيره الهواء . وذهب هرقليط الى ان النار مصدر العناصر . اما امبدوكليس فزعم ان المادة الاصلية لا توجد الاَّ مركبة من العناصر الاربعة معاً وهي التراب والماء والهواء والنار . ثم ما لبث ان أضاف اليها عنصراً آخر الاّ انهُ غير مادي زعم انهُ الحب وهو القوة المحركة الكامنة وراء العناصر المذكورة كلها . وان اضافة هذا العنصر الروحي الى العناصر الاخرى يعد خطوة كبيرة في عالم الفلسفة

ثم كان مذهب التغير والثبوت . وهما موضوع حوار عنيف قام بين المدرسة الايونية صاحبة مذهب التغير والمدرسة الايليائية القائلة بمبدأ الثبوت . وموضوع الحوار هو : هل مبدأ الوجود ثابت او متغير . وكان القول الفصل في ذلك للوسيبوس وديمقراط مؤسسي مذهب الذرات . وقام بعدهم اهل السفسطة والجدل يحاولون هدم حصون المعرفة وتقويض اركانها . وقد كان يخشى كثيراً على دعائم الفلسفة ان تتهدّم لولا ان قام الفيلسوف سقراط يناضل عنها نضالاً شديداً حتى ردّ الخصوم على أعقابهم وشيد مبادىء الفلسفة وعلم الاخلاق على أسس ثابتة ودعائم متينة لا تزال تذكرها لهُ الاجيال بكل اعجاب واطراء . ثم كان مذهب افلاطون العقلي يقابلهُ من

الجهة الثانية مذهب ارسطاطاليس العقلي — المادي . وقد كان افلاطون يزعم ان الوجود الحقيقي هو لعالم العقل او الصور العقلية فقط وما عالم المادة الاّ تابع لا شأن لهُ . فذهب ارسطاطاليس الى ان الصورة والمادة معاً هما شيئان متلازمان لا ينفصلان ولا يستقل احدهما عن الآخر . فعالم المحسوس اي الذي يتركب من الصورة والمادة هو العالم الحقيقي لا العالم العقلي وحدهُ كما زعم افلاطون . هذا ولا يجهل انسان مادار من المناقشات الخطيرة بين الرواقيين والابيقوريين مما لا يزال لهُ صدى كبير واثر بيّن الى يومنا هذا ولكل من هذين المذهبين انصارهُ ومؤيدوه في كل عصر

بيد أن هذه المذاهب جميعها لما كانت لا تستند الى حقائق علمية ثابتة اذ لم يكن حينذاك ما يسمى علماً بالمعنى الصحيح ظلت متقلقلة مضطربة لا يعول عليها . لذلك نرى أن مذاهب الفلسفة لم تتخذ صفة ثابتة راهنة الى ان كان العصر الذي توالت فيهِ الاكتشافات والحقائق العلمية الراسخة وذلك في اواسط القرن السابع عشر فما بعدهُ ومن هذا العهد يبتدىء دور الفلسفة الحديثة او دور التجديد الفلسفي

اما مسائل الفلسفة التي أخذت تشغل عقول ارباب الفلسفة في الدور الحديث فعديدة اهمها مسألة الوجود المطلق . ومادة الكون الاصلية . والعالم الخارجي . ومنشأ العقل وماهيتهُ . ومصدر المعرفة . وحرية الارادة . والقوة الادبية او الضمير وما شاكل . والفلاسفة في هذه المسائل فرق وطوائف فمنهم اصحاب المذهب العقلي (Rationalism) مثل دكارت وليبنتز وسبينوزا وكانت . وهم الذين يقولون ان مصدر المعرفة العقل . يقابلهم من الجانب الآخر اصحاب المذهب الحسي (Sensationalism) وهم الذين يزعمون ان الحس اصل كل معرفة ولا يمكن ان تحصل معرفة الاّ عن طريق الحواس . وقد أدى هذا الاختلاف النظري في اصل المعرفة الى نظريات وآراء متباينة كل التباين في الادوار الفلسفية التالية . وهناك اصحاب المذهب التصوزي (Idealism) اي الذين يقولون ان العالم الحقيقي هو غير العالم الذي تدركهُ الحواس فالحواس لا تدرك الاّ بعض ظواهر المادة واوصافها فقط اما . المادة نفسها فلا سبيل مطلقاً الى معرفتها ومن هؤلاء كانت وهيوم وهملتن وسبنسر وميل وغيرهم . يقابلهم من الجهة الاخرى اصحاب مذهب الشعور او الحس المشترك (Common-sense School) ويذهب هؤلاء الى ان العالم الحقيقي هو ما شهدت بهِ الحواس واتفق عموم البشر عليهِ كما دلت عليهِ البديهة ولا سبيل الى نكرانهِ . وزعيم هذه المدرسة هو الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد وتابعهُ في ذلك الفلاسفة اسوالد وستيورت ومكوش . ومنهم من يرى في القوة سر الوجود بل غاية الوجود وزعيم هذا الرأي هو الفيلسوف نيتشه ولكن اتباعهُ من اهل الفلسفة قليلون . وهنالك من يعتقد ان حقيقة

الاشياء فائدتها العملية — (Pragmatsim)فالفكرة التي تقترن بالنجاح وتؤدي الى المنفعة والخير هي الفكرة الحقيقية ومن هؤلاء نيتشه ووليم جيمس وديوي الفيلسوفان الاميركيان . وديوي هو صاحب التأليف المشهور في « المدرسة والاجتماع » . وهناك مذاهب وآراء متنوعة غير ما ذكر . غير ان الغرض من هذا المقال هو الاشارة الى المذاهب الرئيسية في الفلسفة . على اني سأتناول البحث في اهم هذه المذاهب وأشهرها وهما اللذان يدوران حول هاتين المسألتين أصل المعرفة والعالم الخارجي

١ — مصدر المعرفة

اختلفت آراء الفلاسفة منذ القديم في مصدر المعرفة وهل هو العقل ام الحواس وقد انقسم الفلاسفة في ذلك الى فريقين كبيرين فريق يرى العقل مصدر المعرفة ومبدأها وهم اصحاب المذهب العقلي وفريق يزعم الحواس مبعث المعرفة وسبيل الادراك الوحيد ولا سبيل سواهُ وهؤلاء هم اصحاب المذهب الحسي . ففي مقدمة الفريق الاول الفلاسفة سبينوزا ودكارت وليبنتز وكانت. اما زعماء المذهب الحسي فهم لوك وهبس وهيوم . وانهُ وان كان هذا المذهب يرجع في اصل نشأته الى عهد فلاسفة اليونان فان مؤسسهُ بالفعل وفقاً للحقائق العلمية الراسخة هو الفيلسوف الانكليزي جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) وذلك حين وضع كتابهُ المشهور «الادراك البشري » الذي أحدث حركة عظيمة في عالم الفلسفة . وقد أبان فيه لوك كيفية حصول الادراك بواسطة الحواس فقط . وهو يرد كل نوع من انواع المعرفة الى الحس البسيط المجرد مؤيداً ادلتهُ بالحقائق العلمية السيكولوجية . ولكن لم يكد ينتشر كتابهُ هذا حتى قام عدد من اصحاب المذهب العقلي يفندون آراءه وينقضون الأسس التي شيد عليها نظرياته ومقدماته

ماذا يقول لوك ؟ يقول ان عقل الانسان عند الولادة يكون عبارة عن صفحة نقية خالية من كل أثر الاّ انها قابلة التأثر بأي مؤثر خارجي كان او داخلي . وما العقل الاّ تلك القوة على المقابلة بين الاحساسات المتواردة على الذهن والموازنة بينها او حفظها من حين الى آخر (الذاكرة) ثم انهُ من هذه الخاصية او قابلية الموازنة والمقابلة يتولد الفكر وبواسطة الفكر يستطيع الانسان ان يركب او يحلل ما شاء من تلك الاحساسات المتوالية بغير انقطاع على صفحة الذهن . فكل انواع المعرفة بسيطة كانت ام مركبة تنشأ طبعاً من هذا الاحساس البسيط المجرد . اما ما يدعيه العقليون من وجود اصول اولية في العقل تمكنهُ من ادراك المدركات فانا اذا انعمنا النظر قليلاً نجد ان هذه التي يراها العقليون اصولاً يمكن ردها الى أوليات بسيطة مفردة . فلنأخذ مثلاً قوة التعليل وهي احدى اصول العقليين . كيف تنشأ هذه القوة فينا ؟ انَّا اذا دققنا النظر نجد

انها تعود في الاصل الى مشاهدتنا للحوادث والاشياء الطبيعية مراراً وتكراراً . ولكون هذه الحوادث تتبع سنناً ونواميس ثابتة لاتتغير فالعقل يجرد من تلك الحوادث الفردية قواعد ومبادىء عامة تتناول تلك الاشياء كلها وتصدق عليها جملةً . وهذه القوة على تجريد القواعد العامة تتخيلها فينا قوة على التعليل والاستنتاج وماهي في الحقيقة الاّ نتيجة مشاهدات فردية بسيطة في اول الامر . وعلى هذا النحو يحاول لوك هدم معتقد العقليين في الغرائز والاصول العقلية . فلنرَ ماذا يقول العقليون :

يقول العقليون انهُ لامر حقيقي ان مبادىء المعرفة تبتدىء باحساسات الحواس ولكن ما قيمة هذه الاحساسات والمؤثرات المتوالية على الحواس بغير قاعدة او نظام ان لم يكن هنالك ما يجمع او يفرق بينها ويرد كلاً منها الى الاصل التي وردت عنهُ. وبالجملة يقيم من تلك الاحساسات المضطربة المختلفة وحدة كاملة صحيحة متسقة . وما اشبه العقل واحساسات الحواس في ذلك بالبناء ومواد البناء . ما قيمة هذه المواد المتفرقة المنتثرة ان لم يكن هنالك بنّاء ماهر يتناولها واحدة واحدة ويجمعها بعضها الى بعض ويرصفها رصفاً منتظماً صحيحاً . ان العقل الانساني لايمكن ان يكون تلك الاداة الجامدة التي لاوظيفة لها الاّ اقتبال المؤثرات وانطباعها عليها . بل ان العقل هو تلك القوة الحية الفعالة التي تتناول احساسات الحواس فتبين ماهيتها وتضبط انواعها وتركبها او تحللها وفقاً لمبادىء واصول فطرية فيه غير مكتسبة من الخارج . وان من هذه الاصول او القوى قوة التعليل والتجريد والاستقراء وما شاكل وهذه هي وسائل العقل لحصول المعرفة حتى في أبسط انواعها وبغير ذلك لايمكن حصول اي معرفة او ادراك . وان لكل من اصحاب الرأي الحسّي والعقلي أدلة وبراهين لايتسع المجال لذكرها هنا فمن شاء الوقوف عليها فليراجع مقالتنا في مجلة الكلية (المجلد ١٤ العدد ٦) تحت عنوان « المذهب الحسي ازاء المذهب العقلي » يجد تفصيلاً وافياً بالمراد

٢ — العالم الخارجي والمذهب التصوري

لم تشغل مسألة من المسائل عقول أهل الفلسفة كما شغلتهُ مسألة العالم الخارجي ومدار البحث فيها هو هل هذا الوجود الخارجي الذي تمثلهُ لنا الحواس هو عين الوجود في الخارج وهل الحقيقة التي يستخلصها العقل عن الاشياء بواسطة الحواس تنطبق تماماً على حقيقة هذه الاشياء كما هي في الخارج . ان الفلاسفة في ذلك فريقان فريق يرى ان الوجود هو ما شهدت به الحواس وشاعت معرفتهُ بين عموم البشر وهؤلاء هم فلاسفة الشعور والحس المشترك على ما تقدم . وفريق يرى انهُ يستحيل ادراك الحقيقة بالذات بل بعض ظواهرها ومجاليها اما الحقيقة نفسها فمحجوبة

ابداً عنا وهؤلاء هم المعروفون باصحاب المذهب التصوري . اما رأي الفريق الاول فواضح لا يحتاج الى بيان خاص واما الثاني فلا بد من كلمة توضح وجهة النظر فيه

يعزى منشأ الرأي التصوري في الدور القديم للفيلسوف افلاطون. فقد كان من مبادئه اننا لا نستطيع ادراك الحقيقة بالذات او معرفتها تماماً كما هي في الخارج ولكننا ندرك ما يشبه منها ظلالها وخيالاتها . ولافلاطون في هذا الصدد تمثيل جميل يوضح المراد من المبدإ التصوري انما لا يتسع المجال لذكره هنا . بيد انهُ لما كان الرأي الافلاطوني هذا لا يستند الى اساس علمي او حقيقة سيكولوجية واضحة فان هذا المذهب لم يتخذ دوراً جدياً الاَّ في عهد الفلسفة الحديثة وقد نشأ بنشوء الرأي الحسي كما وضعهُ الفيلسوف لوك وبياناً لذلك نقول :

قد كان من مبادىء لوك انهُ قسم صفات الاشياء الى قسمين الاول الصفات الاصلية المختصة بالمادة والملازمة لها غير قابلة الانفصال عنها وقد سماها الصفات الاولية كالصلابة والامتداد والصورة والحركة والجمود وما شاكل . والثاني الصفات التي ليست مستقرة في الاشياء نفسها بل ما يغلب ان يكون قوى او خاصيات في الصفات الاولية من شأنها احداث هذه التأثيرات في الحواس كالالوان والاصوات واحساسات الذوق وما شاكل . وقد دعاها لوك الصفات الثانوية . فالصفات الاولية هي خاصيات ذاتية مستقرة في نفس الاشياء المادية . اما الثانية فليست سوى ادراكات حسية حاصلة داخل النفس لا اشياء خارجة عنها وبعبارة اخرى ان الاولى مادية خارجية والاخرى نفسية باطنية. وقد تناول هذا المبدأ الفيلسوف بركلي الانكليزي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) فخطا فيه خطوة واسعة وفاجأ العالم بفكرته الغريبة المدهشة التي احدثت دوياً هائلاً في عالم الفلسفة وهي قوله : اذا كان الامر كما يقول لوك ان بعض خاصيات المادة التي يدعوها ثانوية كالالوان والاصوات وغيرها ليست الاَّ مجرد تأثرات عقلية وادراكات نفسية داخلية لا اشياء خارجية في الاشياء ذاتها فماذا يمنع ان تكون بقية الخاصيات كالاشكال والانتقال والحركة والامتداد وغيرها من الصفات الاولية ايضاً ادراكات وصوراً عقلية لا اشياء خارجية كما نتوهم بل نعتقد

ومحصل رأي الفيلسوف بركلي هذا هو ان غاية ما نستطيع ان نجزم به هو توالي الاحساسات على مشاعرنا والتأثيرات التي نعتقد انها ناشئة فينا عن امور واشياء خارجة عنا . اما اذا كان هنالك اشياء خارجية تنشأ عنها هذه الاحساسات فهذا ما لا يمكننا الجزم به اصلاً فقد يجوز ان يكون هنالك اشياء باعثة على الحس وقد لا يكون

وواضح ان رأي بركلي هذا هو نوع من التطرف في المذهب ولكن كان لهُ تأثير عظيم في تعزيز المبدأ الروحي كما هو ظاهر . اما المتعارف عند اصحاب هذا الرأي فهو غير ذلك. ولعل رأي الفيلسوف كانت هو أقربها الى حقيقة المذهب وخلاصتهُ انهُ لا مندوحة لنا من الاعتراف

بوجود الاشياء في الخارج ولكننا لا نستطيع ان ندرك منها سوى بعض ظواهرها فقط (Phenomena) اما حقيقة الاشياء وماهيتها فذلك ما لا نرجو الوصول الى معرفته البتة وذلك لسببين الاول لان القوى العقلية فينا محدودة لا تستطيع ادراك جميع اوصاف المادة وخاصياتها كما يغلب الظن . والثاني لان العقل باضافة بعض الاجزاء العقلية الخاصة فيه كما تقدم كقوة التعليل والتجريد وما شاكل قد يبعدنا عن الحقيقة ويجعلنا نتصور ما لا حقيقة له في الخارج او ما تختلف حقيقتهُ عن الحقيقة الماثلة لاذهاننا . لذلك فان كانت فصل بين الشيء كما يبدو للحواس وبين الشيء في ذاته او حقيقته وقد سمى هذا الاخير الشيء بالذات Thing-in-itself تمييزاً له عن الشيء كما يظهر للحواس . وقال ان غاية ما نستطيعهُ من حيث المعرفة هو ادراك ظواهر الاشياء فقط اما الحقيقة فستظل محجوبة عنا الى الابد

يتضح مما تقدَّم ان المذهب التصوري ليس ما يعتقده البعض من ان الوجود المادي ليس الاَّ مجرد تخيلات وتصورات عقلية كما يشير اليه لفظ هذه الكلمة Idealism او ظواهر لا تستند الى اشياء محسوسة وجودية . بل ان معرفتنا الاشياء تقتصر على هذه الظواهر فقط كما يصورها لنا العقل . اما حقيقة الاشياء وماهيتها فهي ما لا سبيل لنا الى معرفته بأي الوسائل والطرق وهذه الحقيقة قد أقرها معظم فلاسفة القرن التاسع عشر وفي مقدمتهم كونت وسبنسر ومل وغيرهم وقد سمى سبنسر هذه الحقيقة المحجوبة المجهول (Unknowable) اي الذي لا سبيل لمعرفته

وانا لندهش ويأخذنا العجب لدى اطلاعنا على هذه الافكار والمبادىء الغريبة التي يقرها أساطين الفلسفة ويؤيدونها بالأدلة العقلية ، ولكننا اذا تأملنا قليلاً بالمصاعب والأسرار الغامضة التي تحيط بهذه الحقائق ذهب الكثير من عجبنا ودهشتنا . فنحن اذا أخذنا أبسط هذه الاشياء العقلية كالحس مثلاً أفلا نعجب من كيفية حصول ذلك فينا ؟ ان الباعث او المحرك للاحساس مثلاً مهما تقلب وتحوَّل في طريقه الى الدماغ فهو غير الاحساس الناشىء عن ذلك الباعث ولا يمكننا ان نكتشف اي علاقة او شبه علاقة بين المؤثر والاحساس . ففي عمل الإبصار مثلاً ان المؤثر هو حركة موجية في الاثير اما النتيجة فهي رؤية شيء خارجي ذي لون وشكل واضح وفي مكان محدود . فأي علاقة او شبه علاقة بين المحرك والاحساس الذي قام في الدماغ . كذلك ان الفرق بين اللونين الاحمر والأخضر انما هو في عدد الموجات في الثانية اما النتيجة الحسية فهي الفرق الجسيم بين هذين اللونين فهل من يعلل لنا كيفية ذلك تعليلاً فلسفيًّا

لذلك فان منشأ حيرة أهل الفلسفة والعلم هو هذا البون العظيم الكائن منذ الأزل بين العقلي والمادي . بين البواعث او المؤثرات المادية والنتائج العقلية على نحو ما تقدَّم . ففي قضية العالم الخارجي مثلاً يهمنا ان نعلم العلم اليقين هل ادراكنا لهذا العالم والصورة الحاصلة في أذهاننا عنهُ

ينطبق تماماً على الحقيقة الخارجية . ألا يجوز ان تكون هذه الاشياء الخارجية والتي نحسبها أشياء محسوسة خارجة عنا هي في الحل الأخير صوراً عقلية لا حقيقة لها في الخارج او ان تكون الحقيقة الداخلية تختلف عن الخارجية

***

ثم ان مسألتي الزمان والمكان والأسباب والمسببات [1] ألا يمكن ان تكون هاتان من وضع العقل كما زعم الفيلسوف الالماني كانت يخلعهما العقل على أشياء وحوادث هذا الوجود ويستخدمهما كوسائل لربط الحوادث والاشياء الطبيعية بعضها ببعض . وفوق ذلك ما أدرانا ان هذا العالم الذي يبدو لحواسنا ووجداننا كعالم جمال وروعة ونظام تام ليس في الحقيقة الا عالم تشويش واضطراب كما تبدو كسر الزجاج الصغيرة المبعثرة في الكالدسكوب آية في الدقة والاحكام كأجمل ما نقش النقاش او رسم الرسام وما هي في الحقيقة الا كسر مبعثرة متفرقة هنا وهناك

ان هذه وأمثالها هي من عقد المسائل التي جعلت أهل الفلسفة يتفرقون طرقاً ومذاهب حتى يحار العقل في مدى ذلك الاختلاف ومبلغ ذلك التباين في الآراء والافكار . ولا يفوتنا في هذا الصدد اشارة الى المذهب المادي المشهور فهذا يدخل ضمناً تحت المذهب الحسي وأصحابه يعرفون بالفلاسفة الحسيين وقد كانت لهُ السيادة التامة على كافة المذاهب الأخرى طيلة القرن الثامن عشر وهو عصر ڤولتير وذيدرو وروسو وبايلي ولامتري وكافة الانسيكلوبيذيين الافرنسيين وجميعهم من أهل المذهب الحسي وبلغ منتهى الشهرة والسيادة في اواسط القرن التاسع عشر حين وضع بخنر الالماني كتابه في « المادة والقوّة » . الاّ انهُ لم يكتب لهُ ان يعيش طويلاً بعد ذاك . ذلك لان الفكرة الاساسية في المذهب المادي هي الاعتقاد بناموس الضرورة الشامل . اي ان ما هو كائن لا بدَّ ان يكون . فهو كالمبدأ الفلسفي الروحي كلاهما ينافيان حرية الارادة ويجعلان الانسان حكمهُ حكم الاداة اي مجرداً من كل ارادة وحرية — الروحي يجعل الانسان خاضعاً لقوّة روحية فائقة خفية لا يستطيع ادراكها تديرهُ كما تشاء وتصرفهُ على ما تشاء . والمادي يجعلهُ عبداً رقّاً خاضعاً لأحكام الضرورة العمياء . ولما كان الانسان يكره ان يرى نفسهُ عبداً رقّاً لاي قوّة كانت طبيعية او غير طبيعية فهو يرى ان هذين المذهبين لا ينطبقان على الحقيقة الواقعة ولهذا فلم يعد لهما في نظره تلك المكانة التي كانت لهما سابقاً

هذه إشارة وجيزة الى أشهر مذاهب الفلسفة بقدر ما استطعت استخلاصهُ من آراء أهل الفلسفة ونظرياتهم وربما عدت الى تفصيل بعضها في فرصة أخرى

---

(١) لهاتين المسألتين مباحث طويلة في كتب الفلسفة لا مجال لتفصيلها هنا

العلم في خدمة الانسانية

الغدد والحياة

— ٢ —

امرار النموّ والشقّ

ثم جاء بانتنغ بالأنسولين، فرأى فيه ملايين من المصابين بالبول السكري ، مسيحاً جديداً في رداء باحثٍ علمي . وصِف داء « ديابيطس مليتوس » (وهو الاسم العلمي لداء البول السكري) من نحو ألفي سنة بأنهُ « يذيب اللحم فيفرز في البول ». ثم من نحو قرنين ونصف قرن اكتشف أحد الباحثين الالمان انهُ مرتبط بالغدّة الحلوة (البنكرياس) . وانقضى قرنان من الزمان قبلما اكتشف لانغرهانس ان في الحلوة طائفة من الخلايا تختلف عن سائر الخلايا في تلك الغدّة . فدعيت هذه الخلايا باسمهِ اذ أطلق عليها « جزيّرات لانغرهانس » . ولكن عملها ظلّ سرًّا مكتوماً الى ما بعد الحرب الكبرى . وفي سنة ١٨٨٩ عمد منكوفسكي الى التجارب في الحيوانات ، فسلّ حلوات الكلاب فأثبت انها تصاب بالداء السكري الذي يصيب الناس . أخذ مقداراً من بول الكلاب ، التي سلّت غددها الحلوة ، وتركه في وعاء في المعمل ، ولما تبخر السائل كلهُ بقي في قعر الوعاء مادة جامدة بيضاء . فامتحنها أحد مساعديهِ فوجدها حلوة الطعم فثبت لاول مرّة وجود السكر في بول كلاب سلّت غددها الحلوة. ولكن بعضهم يسند الاكتشاف الى نونين Naunin أحد أساتذة الطب في ستراسبورج ورئيس منكوفسكي ، ويروون انهُ لاحظ الذبان يغطّ على بول كلاب سلّت غددها الحلوة، فحاول ان يعرف ما يجذبها، فذاق البول فوجدهُ حلواً

وفي خلال هذه السنين ، كان تشريح جثث المتوفين بالسكري ، قد أسفر عن اكتشاف خاص بجزيّرات لانغرهانس . اذ ثبت ، انها أكثر أجزاء الغدّة الحلوة تنكّساً degeneration فخلص بعض الباحثين الى نتيجة منطقية ، وهي ان خلايا هذه الجزيرات ، تصنع مادة كيميائية تمنع الداء السكري . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأي ان عمد الناس الى عمل خلاصة الغدّة الحلوة بأساليب مختلفة ، لتعطى شرباً وحقناً للمصابين بالسكري ، ولكن هذا الداء ظلّ يلقي يديهِ الثقيلتين على الناس ويسير بهم الى القبر

ولكن تقدم علم الكيمياء مكّن الباحثين من قياس مقادير يسيرة من السكر في الدم قبل ان يتصل عن طريق الكليتين بالبول ، وعلى أساس هذه المقاييس تمكنوا من امتحان الخلاصات التي استخرجت من الغدد الحلوة . ومعرفة قوّتها وفائدتها . واذ كان هذا البحث جارياً على قدم وساق ، عاد جرّاح كنديّ من ميدان الحرب العالمية في فرنسا ، الى بلاده — ذلك الجرّاح كان بانتنغ الذي اكتشف الانسولين [1]

ما كاد بانتنغ يتمّ بحثهُ الذي اسفر عن اكتشاف الانسولين ، حتى منح جائزة نوبل الطبية ومعاشاً سنويّاً من برلمان كندا قيمتهُ ١٥٠٠ جنيه وانعم عليه بلقبه سر . الاّ انهُ لم يكن الوحيد الذي عني بهذا البحث ، لانّ غلاي Gley كان قد ترك في سنة ١٩٠٦ ظرفاً مختوماً في جمعية علوم الاحياء الفرنسية ، وفيه مذكرة وصف فيها خلاصة حضّرها من الغدة الحلوة ، كان من شأنها تخفيف اعراض الداء السكري ، في الكلاب . ولكنهُ لم يتابع بحثهُ . وفي سنة ١٩٠٨ صنع زولزر Zuelzer خلاصة كحولية من حلوات العجول وعالج بها ستة مصابين بالداء السكّري ، ثم اهمل بحثهُ لما اصيب هؤلاء المرضى بحمّى كان من اعراضها الضعف والاعياء العصبي والجوع العظيم وضعف العقل . ونحن نعلم الآن أن الرجل جرّع مصابيه جرعاً من هذه الخلاصة اكبر مما يستطيعون ان يتحمّلوا . حتى الذين يحقنون بالانسولين يصابون بهذه الاعراض ، ان كان مقدار ما يحقنون بهِ منهُ اكبر مما يجب ان يكون . ولذلك قال مكلود قسيم بانتنغ في جائزة نوبل «ولو ان زولزر جرّب تجارب دقيقة بالحيوانات قبل اقدامه على معالجة المصابين من الناس لكان في الامكان الفوز بالانسولين سنة ١٩٠٨ » . وفي سنة ١٩١١ عمد الباحث سكتّ في احد معامل شيكاغو الى ربط قنوات الغدد الحلوة في الكلاب ، واذ كاد غصن النصر يلتوي بين يديهِ ، أخفق في تفسير بعض النتائج التي فاز بها التفسير الصحيح

انها قصة البحث العلمي في جميع العصور — فرصة تتاح لعقل مهيإ لاغتنامها وفهم ما تنطوي عليهِ ، بما اتيح لهُ من حقائق مستجدّة واساليب مستحدثة للبحث والتدقيق

تتبع آيبل رواية الانسولين من معمله في جامعة جونز هبكنز بشغف عظيم ، ولا سيما لانهُ كان يعرف معرفة شخصية جميع الباحثين في هذا الموضوع من ايام لانغرهانس الى يومنا هذا فلما دعاهُ المستر نويز Noyes مدير معامل غايتس الكيميائية بكاليفورنيا ، الى دخول الميدان لبّى الطلب . وكان معهد كارنيجي قد تبرّع بالمال لهذا البحث . فاتجه آيبل من البدء الى غرض عظيم وهو تحضير المادة الفعّالة في الانسولين ، نقية من الشوائب . ولكنه لم ينفرد بالبحث حبّاً بالنصر ، اذا تمّ لهُ ، ان ينسب اليه . بل اختار طائفة من الباحثين الشبان ، بينهم الباحث

[1] وفينا قصة اكتشاف الانسولين في كتابنا « اساطين العلم الحديث » فلتراجع هناك

غيلنغ Geiling وكان لهم بمثابة القائد المرشد ، لا يستكثر على نفسهِ ، وهو الباحث المخضرم ، ان يأخذ بآرائهم حيث يجد الرأي على صواب . وكذلك بعد بحث دام سنوات ، تمكن في نوفمبر سنة ١٩٢٥ من ان يقول ، وقد رأى بلورات دقيقة في قعر إنائهِ ، « هذه البلورات هي بلورات تور الانسولين » وكان وزنها اربعة اعشار الغرام . فامتحنت في الارانب وثبت انها نقية من كل شائبة . ولكنهُ لم يقف عند هذا ، بل مال الى حلّها لمعرفة تركيبها الكيميائي فثبت له ان جزيئها جزيء معقّد التركيب من البروتين وعبارتهُ الكيميائية كما يلي : $C_{45}H_{69}O_{14}N_{11}S, 3H_2O$ (كربون ٤٥ ايدروجين ٦٩ اوكسجين ١٤ نتروجين ١١ كبريت.و٣ ايدروجين ٢ اكسجين)

ومن المعروف الآن ان الانسولين التي يمكن استخلاصه من الغدد الحلوة في البقر والثيران والعجول حتى وبعض الاسماك كذلك

ولكن آبيل لم يخطر لهُ ، مع ما تمَّ على يديهِ ، ان يلقي الانبوب ويطرح الاناء ، ذلك بان الانسولين ، لم يكن عقاراً هيّناً . فهو مركّب غير مستقرّ ، واذا اخذ شرباً فاقد تفعل فيهِ عصارات الجسم ، فتحلّهُ وتفوّت الغاية من أخذهِ . وآبيل يريد ان ينقذ المريض من وخز المحقن ، فقال لعلَّ المريض بالسكّري لا يحتاج الى كل جزيء الانسولين . فاذا عرفنا كيف تتركب الذرَّات في الجزيء فلعلنا نستطيع ان نفصل منها ما لا يحتاج اليهِ في علاج السكّري . وما خطر لهُ هذا الخاطر حتى اشرق وجههُ ، فلم يضيع دقيقة واحدة في تدبير وسائل البحث ، واعداد اساليب التجربة والامتحان ، على الرغم من فخذ مكسورة في حادث اصطدام — ولا يزال آبيل ومساعدوهُ وعشرات من الباحثين في مختبرات تورنتو ولندن وامستردام ووشنطن وهيدلبرج يجدّون في البحث وراء هذه الغاية !

— ٢ —

كان ممن انقذهم الانسولين من الموت ، اميركيٌّ يدعى ايڤانز Evans وكان لهذا الاميركي ولدٌ يدعى هربرت مكلين ايڤانز تخرّج برتبة دكتور في الطب من جامعة جونز هبكنز سنة ١٩٠٨ ورغب في ان ينصرف الى البحث العلمي . فلما علم والدهُ بنيتهِ قطَّب حاجبيهِ ، لانهُ لم يدرك كيف يرتزق الانسان ويثري من البحث العلمي . ولكن لما حلّت عجيبة الانسولين في عروقهِ ، وانقذتهُ من الموت ، آمن وقال « بان هذا الكلام الفارغ لا بأس بهِ » . وكان ايڤانز الشاب قد سأل الاستاذ جاك لوب في ما يتوفر عليهِ من موضوعات البحث فقال لوب « لا ارضى ان تكون كيميائياً عادياً . شُقَّ طريقك ولا تخش ان ترود ميادين ليست من اختصاصك » . وكذلك اخذ ايڤانز يتنقل من البحث في موضوع الى موضوع ، كالنحلة تتنقل في الروض من زهرة الى زهرة . بدأ بصرف عنايتهِ الى التشريح ثم عني بعلم الاجنة ، فلما اعياهُ تقطيع الانساج ، رغب في ان

يتتبع كلَّ خطوة في نشوء الجسم ، فتلقفهُ البحث البيولوجي في دردورهِ وقذفهُ في ميدان الغدد

واذ كان باتنغ يجرب تجاربهُ المشهورة في الكلاب رغبةً منهُ في امتحان الانسولين ، كان ايفانز مكبّاً على الغدة النخمية ، وهي من الغدد الصمّ العجيبة في الجسم . كتلة مستكنة في منخفض داخل الجمجمة عند قاعدتها . عرفها جالينوس وفساليوس وظنّا انها تجهز الجسم بالمخاط ، ثم ظنّ بعضهم ان بين نمو الجسم وعمل هذه الغدة صلة ما. فلما كانت سنة ١٧٨٣ اشترى الطبيب الجرّاح جون هنتر جثة عملاق ارلندي يدعى تشارلز اوبريان بخمسمائة جنيه ، وكشف عن الغدة النخمية فوجدها في حجم البيضة ، مع ان وزنها في الرجل السويّ لا يزيد على نصف غرام . وما انقضى قرن على هذه الحادثة حتى ظهر ان «العملقة» وهي تضخم اليدين والقدمين والانف والشفتين والفكين ، ترتدُّ الى تضخم في الغدة النخمية . وثبت كذلك ان هذه الغدة في الاقزام ، اما انها لم تنمُ نموّاً سويّاً واما انها متنكسة degenerated

وكذلك أقبل ايفانز على الغدّة النخمية وهمّهُ ان يعلم هل تفرز توْراً (هرموناً) يسيطر على النمو او لا ، فصنع خلاصات مائية من الغدد النخمية المستلّة من الثيران . وفي سنة ١٩٢٠ جرّب خلاصاته باعطائها شرباً فلم تسفر عن اي نتيجة ، فعمد الى حقنها في صغار الجرذان. ولمّا تنقضِ عليهِ بضعة شهور حتى اصبحت هذه الجرذان ، عمالقة بالقياس الى الجرذان السويّة . فلما توقف ايفانز عن حقنها بعد فطامها توقف نموّها الشاذ . ثم اخذ طائفة من الجرذان ونزع غددها النخمية فلم تبلغ في نموّها الحجم السويّ ، فحقنها بهذه الخلاصة فعادت سوية ، وعمد باحث يدعى هوغبن في انكلترا الى استعمال خلاصة من هذا القبيل في السمندل المائي ، فوجد ان التحوُّل فيهِ اسرع جدّاً مما يقع في السمادل التي لم تحقن بها

اذا كانت هذه العجائب تتمّ في الحيوان فماذا يحول دون وقوعها في الانسان . أليس تركيب الانوار وفعلها الفسيولوجيّ واحداً بصرف النظر عن الحيوان الذي تستخلصُ منهُ ? أليس الانسولين المستخلص من الغنم كالانسولين المستخرج من الناس والبقر والسمك ?

فلما حضّر ايفانز خلاصة من الغدة النخمية على جانب من النقاء عمد الى تجربتها في فتاة في التاسعة من عمرها . عهد في التجربة الى الدكتور وليم انغلباك احد اطباء نيويورك .كان قد انقضى على الفتاة اربع سنوات وجسمها لا ينمو . ولكن في سنة ١٩٣١ اعلن الدكتور انغلباك ان قامة الفتاة زادت بوصتين وسبعة اعشار البوصة طولاً بعد علاج بهذه الخلاصة دام ثمانية اشهر. وتبع اطباءُ كثيرون هذا الاسلوب من العلاج فاصابوا نجاحاً عظيماً . ومن حوادثهم ان فتىً دون الخامسة عشرة من العمر زادت قامتهُ ثماني بوصات ونصف بوصة في واحد وعشرين شهراً

وما كادت هذه الحقائق تذاع ، حتى اغرق الناس في التصوُّر ايما اغراق . فقالوا ان الناس

بفعل هذه الخلاصة يستطيعون ان يصبحوا مردة جبارة . ولكن ايفانز عالم حذر . فلم يطلق لتصوّرهِ العنان . قال : سمعت بعضهم يقول ان الميكادو يستطيع ان يعدّ قامات جنوده بها اذا شاء ، ولكن حتى الميكادو لا يستطيع ان يدفع ثمن الخلاصات اللازمة لذلك . وقد ينقضي عقد من السنين قبل ان تتمكن من معرفة تركيبها الكيميائي ، وعقد آخر قبل ان تتمكن من تركيبها بالتأليف الكيميائي من قطران الفحم . اننا لا نزال على عتبة الباب »

وحتى كتابة هذه السطور ، لم يستخرج هذا التوْر (الهرمون) — ويدعوهُ بعضهم فيون Phyone — نقيًّا من الخلاصة المستخرجة من الغدة النخمية

قبل ان شرع ايفانز في بحثهِ عن توْر النمو في مفرزات الغدة النخمية ، كان الدكتور كوشنغ Cushing احد جرّاحي جامعة هارفرد ، قد أزال اجزاءً من الغدد النخمية في مائتي كلب . فلاحظ وجوهاً مختلفة من التغير فيها ، غير توقف اجسامها عن النموّ . ذلك ان الكلاب سمنت وفترت حركتها وضمرت اعضاؤها التناسلية . ووجد ايفانز ان الخلاصة التي يحضرها تعيد نموَّ الجرذان سيرتهُ السويّة ، ولكنها عاجزة عن تنبيه الغدة التناسلية فيها . فأناث الجرذان اذا نزعت غددها النخمية وتزاوجت لا تفرز البيض اللازم للتوالد . ولكن اذا ازيلت الغدة قبل التزاوج بساعة واحدة أفرزتها . ان هذه الحقائق تحمل على الظن ان الغدة النخمية تفرز توْراً آخر — غير الفيون توْر النمو — ينبه الأنثى الى افراز البيض

وأقبل على هذا البحث طائفة من الاعلام . فابتدع ستوكارد وتلميذهُ پاپانيقولاوس اسلوباً للبحث يقيسان بهِ مدى النشاط الجنسي في الحيوان ولا سيما الجرذ . وفي سنة ١٩٢٣ ابتكر فيليب سمث مساعد ايفانز في كاليفورنيا طريقة تمكنهُ باستعمال المكرسكوب المشرّح من الوصول الى الغدة النخمية وانتزاعها بشق في حلق الجرذ . فلما انتزع الغدد النخمية من عدة جرذان ثبت لهُ ان نشاطها الجنسي يضعف ، ولكي يثبت ذلك اخذ جرذاً سُلَّت منهُ غدتهُ النخمية وضعف نشاطهُ الجنسي ، وزرع فيهِ تحت الجلد غدة نخمية سُلَّت من جرذ آخر فعاد اليهِ نشاطهُ الجنسي . على ان زرع الغدة لم يكن ضروريًّا ، لان الحقن بخلاصتها كان لهُ نفس التأثير

الاَّ ان اكتشاف هذا التوْر وفعلهُ لا يسند اليهِ لان الباحثين زوندك Zondek وأشليمْ Aschleim الالمانيين تقدماه اربعة اشهر في نشر النتائج التي وصلا اليها في هذا الصدد ، واطلقا لفظ برولان Prolan على هذا التور النخمي المنبه للنشاط الجنسي وعلاوة على ذلك اكتشف زوندك وأشليمْ ان حقن بول الحوامل في الفئران يؤثر تأثير الحقن بخلاصة الغدة النخمية . فأفضى ذلك بهما الى اكتشاف اول امتحان يصحُّ الاعتماد عليهِ للنسأ اي بدءِ الحمل . ذلك ان المرأة التي تريد ان تتأكد من انها حامل او غير حامل لا تستطيع هي ولا يستطيع طبيبها ان

يعرف ذلك الاَّ بعد انقضاء شهر او اكثر . لان انقطاع الحيض لا يمكن ان يؤخذ دليلاً اكيداً على الحمل . ولكن اذا اخذ بول حامل وحقن تحت الجلد في فأرة غير متزوجة ، او ارنبة ، ثم قتلت الفأرة او الارنبة بعد ثمان واربعين ساعة ، وفحصت خلاياها عرف ، من تطوُّر تلك الخلايا او عدم تطوُّرها هل المرأة صاحبة البول حاملٌ او لا . وبهذه الطريقة يمكن تبين النسأ حتى في الاسبوع الثالث ، والاصابة تبلغ ٩٩ في المائة . بل وفي مياه اليابان سمك اذا وضعت في ماء الاناء الذي يسبح فيه قدراً يسيراً من بول حامل ، استطال مسلك مبيضه عشرة اضعافه في خلال اربعة وعشرين ساعة ، فيدل ذلك على النسأ . واذا كانت المرأة غير حامل لم يحدث اي تغير فيه . ويمكن استعماله ثانية للغرض نفسه بعد بضعة اسابيع

وعلى أثر اكتشاف (البرولان) وهو توْر الغدة النخمية الذي لهُ صلة بالجنس ، اكتشف اوسكار ردل الاميركي توْراً ثالثاً في مفرزات هذه الغدة نفسها ذلك انهُ غذى طائفة من الحمام بخلاصة من الغدة النخمية فوجد ان قدرتها على افراز المادة اللبنية زادت زيادة كبيرة. فأطلق ردل على هذا التوْر اسم « برولاكتين » Prolactin أي الملبّن بعد ما ثبت لهُ ان من شأنه توليد اللبن في اثداء حيوانات اخرى بما فيها ذكورها . وقد ذكر من عهد قريب ان هذا التوْر قد يكون خليطاً من توْرين احدهما يختلف عن الآخر في تأثيره الفسيولوجي ، وان الثاني ينبه غريزة الامومة . فدجاجة حقنت به قاقت بعديومين وبدأت تحتضن . ولما حقن انثى جرذ غير متزوجة به ، امتنعت عن التهام فرخي حمام وضعا في جحرها بل عطفت بحنان عظيم عليهما . ولذلك قال بعضهم انهُ لا يبعد ان نرى « حب الام » في زجاجة تباع بدريهمات في دكان عطار

وفي سنة ١٩٣٣ زعم احد الباحثين الفرنسيين انهُ كشف توْراً رابعاً في الغدة النخمية ينبه الغدة الدرقية

— ٣ —

وفي خلال ذلك قرأ باحث يدعى دويزي في المدرسة الطبية بسانت لويس ما كتبهُ زوندك الالماني ، فحمله ذلك على النشاط الى البحث عن توْر المبيض . كان قد سبق لهُ ان اشتغل بالسائل الحويصلي الذي يفرزه المبيضان في انثى الخنزير . فعمد الى المستشفيات التي تكثر فيها الحوامل وجعل يجمع مقادير كبيرة من بولهن ، وقضى ست سنوات يبحث بأساليب منوّعة عن طريقة لاستخلاص تور من هذا البول حتى فاز في نهايتها بالحصول على تور لا يوجد في بول الحوامل الاّ بمقدار واحد في أربعة ملايين وفي ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ أعلن دويزي استفراده لتور المبيض نقياً . فتقدم بضعة اشهر فقط في عمله هذا على عالمين اوربيين هما أودلف بوتناد Butenandt الالماني ولاكور الهولندي Laqueur وقد اختير لهذا التوْر اسم ثيلين theelin وهو مشتق من اللفظ

اليوناني ثيلوس اي انثى . اما تركيبهُ الكيميائي فكما يلي : ك١٨ يد ٢٢ او٢ (C18 H22 O2) وبعد ذلك اتسع نطاق البحث فعثر باحثون متفرقون في المعاهد والمختبرات على الثيلين في مبايض القرد والفرس والغنم والبقر والخنازير والدجاج والسمك ، بل وفي برازها . واستعمل الثيلين في حالات مختلفة من امراض النساء الخاصة ، فأصاب مستعملوه قسطاً وافراً من النجاح

وكان من الطبيعي ان يكون الفوز باكتشاف توّر المبيض منبهاً للبحث عن توّر او اكثر في الخصيتين . بل قبل هذا الاكتشاف كان فريق من اساتذة جامعة شيكاغو بزعامة كوخ F. C. Koch ومعاونة لجنة البحث في شؤون الشق مهتمًّا بالبحث عن هذا التور . فحصل لوموبل Lemuel وماكجي McGee على خصيتي ثور بعد انقضاء دقائق على ذبحه وصنعا منهما خلاصة امتحناها بطريقة طريفة . فقد كان القدماء يعلمون ان ازالة خصيتي الديك تجعل لحمهُ أطرى مما يكون لحم الديك عادة . وكان الديك الذي سلت خصيتاهُ يختلف عن الديك السويّ من وجوهٍ اخرى . فصفات الذكر فيهِ من حب المقارعة والقتال ، تتحوّل فيهِ الى جبن وتراخٍ وميل الى السلام والطمأنينة كأنهُ انثى — فكان قلما يصيح وليس بالنادر ان يعنى بالفراخ عناية الام بها . ثم ان عرفه يضمر حجماً ويكمدُّ لوناً وريشهُ يفقد لمعانهُ

اخذ ماكجي الخلاصة التي صنعها من خصيتي الثور وحقن بها ديكاً مخصيًّا في ابريل ١٩٢٧ ، فكبر عرفهُ الضامر وزها لونهُ المكمدّ وظهرت فيهِ جميع الخواص التي يتصف بها الديك السويّ . وعندئذٍ جعل كوخ وقرينتهُ يصفيان الخلاصة رغبة في الحصول على توّر الخصيتين نقيًّا في شكل بلّورات . واذ كانت هذه التجارب قائمة في شيكاغو ذاع من اوربا في سنة ١٩٣٢ ان تور الذكر قد حضر نقيًّا في شكل بلورات . وكان صاحب هذا السبق بوتنناد الالماني الذي سبقهُ دويزي قليلاً في اكتشاف توّر المبيض . ولكنهُ استخلص التور من سوائل الكليتين في رجل لا من خصيتهِ وحقق عبارتهُ الكيميائية فاذا هي ك١٩ يد ٣٠ او ٢ (C19 H 30 O 2) . ومن اغرب ما ذهب اليهِ انهُ يمكن تحضير توّر الخصية من توّر المبيض بالكيمياء . وفي آخر سنة ١٩٣٤ فاز روزيكا Ruzicka في زوريخ بتركيبهِ بالتأليف الكيميائي من مادة الكوليسترول المستخرجة من دهن صوف الغنم

دعي هذا التوّر اندروستيرون Androsterone وهو ليس بتوّر الخصية . وتوّر الخصية دعي تستوستيرون Testosterone وقد حضّرهُ نقيًّا في شكل بلورات الباحث لا كور في امستردام في يونيو سنة ١٩٣٥ والتوّران لهما عبارة كيميائية واحدة ولكن ترتيب الذرّات في جزيء الواحد يختلف عنهُ في جزيء الآخر . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٥ اذاع روزيكا انهُ ركب التوّر الثاني بالتأليف الكيميائي

نشر الخريطة

قصة الريادة

خلال خمس آلاف سنة

« هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها ...... » الآية

ان تاريخ الريادة ينطوي على قصة من أعجب القصص، قوامها إقدام لا ينثني، ومغامرة لا ترتد أمام الخطر، وشوق الى كشف المجهول. وسواء أكان الباعث على الريادة طلب المجد ام توسيع نطاق العلم ام البحث عن العطور والافاويه ام الرغبة في بقعة أرض يرفع عليها علم امة مستعمرة، فالريادة ردُّ الانسان على ما يحيطهُ بهِ الطبيعة من الالغاز وتوجهه اليهِ من التحدي. ان استجلاء الاسرار التي تنطوي عليها الاشعة الكونية، ونوى الذرات، والتحليق في الجو بغية الوقوف على حقائق الطبقة العليا من الهواء، ومقاساة السغب واللغب والقيظ والقر، حوالي القطبين او في قلب افريقية وصحاري آسية — كلٌّ ذلك من الريادة بأوسع معانيها، وغرض اقطابها واحد وهو ان ينشروا لحقيقة الارض التي نعيش عليها خريطتها المطوية

وهذا كتاب [1] وضعهُ باللغة الانكليزية المستر «لنرد اوثويت» وهو رحَّالة مجرَّب وعالم راسخ في شؤون الجغرافية والانثروپولوجية. ان حماستهُ التي تتسم بها كل صفحة من كتابهِ مقيدة بقيود الحذر العلمي. ولكنهُ في حماستهِ يحوِّل الجغرافية من علم جامد الى علم حي. فاذا نظرت الى سعة نطاق الكتاب زمناً ومكاناً — على الرغم مما افضت اليهِ هذه السعة من اهمال بعض الحقائق الاساسية كسعة الاراضي المكتشفة والمسافات التي قطعتها بعوث الريادة المختلفة — والى كثرة ما جمع من الحقائق المشتتة في فصول وابواب منظمة رأيت فيهِ قصة الريادة من فجر الحضارة الى الآن وكأنها منسابة امامك على شريط من الصور المتحركة

خذ فصلهُ عن البحر المتوسط. على سواحل هذا البحر وفي جوارها قامت الدول القديمة مصر وفينيقية واشور وشمر وعيلام وكريت واليونان. من مصر قامت اقدم بعثة في التاريخ بقصد الريادة وهي بعثة هانو سنة ٢٧٥٠ ق . م . باحثة عن الثروة وما يكفي حب المغامرة في نفوس اصحابها فوصلت الى ما يعرف الآن بالحبشة وعادت بكثير من الذهب والفضة والمر والاخشاب الثمينة . وبعد ما انقضى عليها الفا سنة، اي نحو سنة ٦٠٠ ق . م . اوفد الفرعون نيخو

---

[1] Unrolling the Map : The Story of Eploration by Leonard Outhwaite

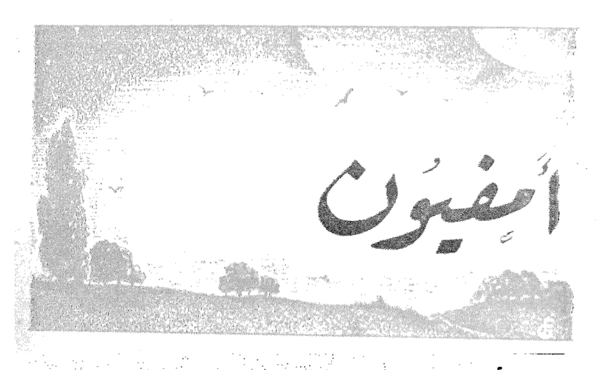
أعجب بعثة استكشافية في التاريخ فاستطاعت ان تسافر حول القارة الافريقية في ذلك العهد البعيد وكان هيرودوتوس لم يصدق ما بلغهُ عنها فاكتفى في ذكرها بفقرة قصيرة من تاريخهِ المشهور. وقد أثبت المستر اوثويت ان وصف الرحلة واتجاهها والثغور التي حطت رحالها فيها تتفق كل الاتفاق وما يعرف الآن عن تيارات المحيطات والرياح السائدة على سواحل افريقية

وكانت الريادة في عهد الاسكندر ذي القرنين ، جزءا من اعماله العسكرية. ولكننا مع ذلك مدينون لهُ بكثير من أقدم ما عرفهُ العالم عن البلقان والشرق الادنى وافغانستان وبعض المناطق في شمال الهند . ويقال انهُ كان يستعدُّ لريادة نهر الكنج عند ما اصيب جيشهُ بما حملهُ على النكوص

اما في العالم الجديد ، فينكر المؤلف الرأي الشائع ان كولمبوس او اميركوس فسبشيوس او مجلان كانوا اول من اكتشف اميركا . ذلك ان مستعمراتٍ من رجال النورس انشئت على برّ اميركا الشمالية في القرن الحادي عشر . قال المؤلف : وفي سنة ١٨٩٨ كان احد المهاجرين السويديين وهو يدعى « اولوف اوهمان » يعمل في حرج قرب بلدة كنستغتن بولاية منسوتا (احدى الولايات المتحدة الاميركية) فعثر بشجيرة معمّرة كانت جذورها قد التفّت حول حجر وعلى هذا الحجر اثنا عشر سطراً من كتابة غريبة . وقضى باحث يدعى « يالمار هولند » عشرين سنة في البحث الدقيق مع خبراء الحراج واللغات وطبقات الارض والآثار حتى أثبت ان هذه الكتابة نقشت لذكرى انشاء مستعمرة من السويديين والنروجيين في منسوتا قبل سنة ١٣٦٢ والمرجح ان البعثة التي انشأت هذه المستعمرة كانت البعثة التي اوفدت من قبل الملك ماغنوس اريكسن في سنة ١٣٥٥ لانقاذ المستعمرين النورس الذين استقروا في جرينلندة من الوثنية . وكانّ الدافع الديني حمل هؤلاء الرجال على التوغل غرباً في فيافي كندا الى ان استقروا في ولايةٍ ، اصبحت بعد خمسة قرون ، عند كثرة هجرة الاوربيين الى اميركا ، مقرّاً لمعظم المهاجرين السكنديناويين ونعني منسوتا

في فصول هذا الكتاب ، تتعاقب الصور الاخاذة — ريادة القارات وفيافيها وصحاريها وقممها والنفوذ الى منابع انهارها والتوغل في حراجها وادغالها واقتحام جمد القطبين سيراً على الاقدام وبالمزالق وعلى أجنحة الطائرات والبلونات ، والتحليق في الجو الى عشرة أميال والغوص في الماءِ الى نصف ميل — هنا جميع الاسماءِ الباهرة في تاريخ الريادة من هانو المصري الى بيرد الاميركي

وكذلك تتوالى الصفحات كما توالت الاعوام والقرون وميامين الروّاد يسيرون بعضهم في أثر بعض يحتقرون المشاق ويهزأون بالعواصف ، يخفقون آناً وينتصرون آونة فعنت لهم الارض ومشوا في مناكبها. ان صفحتهم لمن انصع الصفحات في تاريخ العمران ، بل ان حديث اقدامهم وثباتهم وشوقهم الى كشف المجهول قصيدة بليغة تثير في النفس تلك النزعات العالية التي بها يتمجد الانسان



مسرحية : للاديب الكبير : بول فاليري

مثلت في اوبرا باريس عام ١٩٣١ : حقوق الترجمة والنشر باذن المؤلف

الاشخاص

امفيون ابولون شخص غير منظور الالاهات الاربع الاحلام الشعب

« نقلها : خليل هنداوي »

[يرتفع الستار عن نقب أو خرق واسع في صخرة على ذروة جبل يتهادى نحو السماء والفسحة الخارجة من يمين الصخور وشمالها تغطيها اشجار كثيفة من الكستنا والسنديان . وفي الاعلى تسطع القمة العارية ، وعلى يمين القمة صخور متبلورة وقليل من الثلج يلمع هنا وهناك في الأعالي . وفي وسط المشهد ينبوع يشف ماؤه القاتم ، وحوله تصعد شماريخ مختلفة تمتد بصورة غير منتظمة حتى تسد هذا النقب . وفي هذه النواحي فسحات فارغة . اما السماء فقد سطع منها جانب من المجرة . فيها ذرات مضيئة ونجوم مختلفة الحجم . والفناء المظلم يسيطر هنا وهناك . . . . في هذا المشهد يقع البصر على اشباح ليلية ترقص زمراً زمراً في كل مكان . تختفي ثم تُرى حيث تتكاثف الظلمة المحيطة بها . ثم يدخل من اليمين والشمال رجال ونساء يفتش بعضهم عن بعض ، يتساءلون ويتفاهمون بالاشارة ، ويتوارون وراء الاشجار ، يجنحون الى الراحة ويدخلون في الظلام ، فتسمع الاذن في هذه الهدأة حفيف الكون ، ونغمة غير السانية . وعلى هذه النغمة الواحدة تتعالى أنشودة الينابيع بصوت كصوت الاطفال]

الينابيع : نحن الينابيع ، لنبك الزمن الفاني
بالقطرات المتتالية !
من دموع الثلج تجري كل حياة
وبنا تبكي الأرض باكية حتى البحر .
« يدخل امفيون وتعلن ألحان صادحة عند قدومه. يدخل حاني الظهر »
« وبيده حيوان على هيئة مسخ . يضغط على هذا الحيوان بقدميه ، ويسل »
« مديته ، وبينما يهم بذبحه يسمع :
صوت : لماذا ؟ لماذا ؟
دع الحياة تحيا
واترك الموت بأيدي الخالدين !
« يسمع امفيون هذا الصوت فيطرح مديته ويفر الحيوان سالماً . وبعد »
« تردد قليل يتجه الى مغارة عميقة ، فيخلع الجلد عن ذراعيه ، ويجلس »
« متأملاً في السماء المكوكبة ثم يغرق في الكرى . فتظلم السماء قليلاً قليلاً »
« وعلى بساط الظلام تبدو الاحلام وهي تزور النائم . وبينهما حلمان غارقان »
« بالنجيع يريدان حربه ، فيلتقفهما مسخ ، وتبدو اشخاص عليها خِرَق »
« غريبة . وامفيون غمره الرقاد ، وأخذ يظهر له « الحلم العاشق » بزي »
« راقصة عارية ترتدي رداء طويلاً ، تحنو عليه وتلمسه وتفرح به ، وكلما »
« تحرك منه عضو أجفلت منه طائرة »
وهنا تظهر الإلاهات . . .
إلاهة تخرج من الينبوع وتنادي
« إلاهة » !
وثانية تخرج من صخرة وتنادي
« إلاهة » !
وثالثة ورابعة تنزاح عنهما الغصون وتناديان
« إلاهة » « إلاهة » !
تتعالى هذه الاصوات في زمن واحد ، وصواحب هذه الاصوات يخطرن

في الظل كأنما يضئن ، يجتمعن ويأخذن بعضهن بأيدي بعض

إلاهة ١ : اني لأرى ما لم يكن !

إلاهة ٢ : اعرف ما لا يكون !

إلاهة ٣ : أصنع ما سيكون

إلاهة ٤ : وانا لا شغل لي الا الحب

إلاهة ١ : يا رفيقاتي ! يا أسراب النحل الجميل

لنطع الله ولنقدم انفسنا لهذا الانسان !

« ٢ : ان روحه تخبط في جحيم النعاس

« ٣ : انهُ يتنهد

« ٤ : انهُ يتململ

« ٢ : انهُ يتمنى

« ١ : انهُ يظن بأنهُ يحيا ! . . .

ولكن لنحترز من ان ينجيه الافراط في الألم قبيل الفجر !

هيا الى العمل ، ولكن لنبدد قبل كل شيء هذه الصفوف المشوشة من الأحلام !

[يبدأ قتال بين الاحلام والالاهات ينتهي بطرد الاحلام ، وآخر القتال مع الحلم العاشق .

[وها هنا يشمل الظلام قليلاً قليلاً ، ولا شعاع الاّ شعاع الإلاهات. يسطعن بالنور الازرق وامفيون بنور فضي . والإلاهات يعطفن على « امفيون » الذي لا يزال نائماً ، وهن يرقينهُ بحركات سحرية وكلمات مبهمة]

المهزهزة الساحرة : ايها الرجل النائم

ان الليل يضيء عليك

والسكون قد اوجدتهُ الإلاهات

تجتمع الإلاهات حولهُ حلقة احتفالية ، واحدة على قدميه واخرى على رأسه ، واثنتان حول جسده وقد بسطتا ايديهما وشخصت عيونهما في السماء.

الجميع { ايتها الاخوات الامينات للعبقرية الآلـهية
إن هذا الرقاد الذي مهدتهُ أيدينا
يُسلِم هذا الانسان لله }

الاهة : يا لهُ من سلام قدسي يتألق على هذا الوجه الصافي !

الاهة : انهُ تنعكس عليه ابتسامة اهملتها النجوم

الاهة : هذا الجسد الصافي ، هذا الجسد الساكن شبيه بالمعبد !
بالحجر المقدس .

الاهة : وروحه أضاعت سبل الحياة .

الاهة : انهُ كخالد يجهل نفسه .

الاهة : انهُ — الآن — ليس الاَّ ما سوف يكون !
يصغ الى الهاوية !

[رعد بعيد والالاهات يسجدن]

صوت ابولون: [كأنهُ يصعد من جوف المشهد]
امفيون !

الالاهات : ابولون !

الاصداء : ابولون !

الالاهات : نحييك في جنح الليل العميق يا آلـه النور !
كم يحلو في اعماق الظلمات الاصغاء الى الكلمة القوية . . .

الاهة : يا سبب الشمس ، ان الظلمات تعبدك ،
والضعفاء من الرجال يحلمون في رقادهم بفجر سني يطلع عليهم من يديك .

الاهة : ألا زر هذا الراقد ! وأيقظ فؤاده حتى يصغي شيطانه الخاضع الى صوت
الحكمة القدسية
ابولون !

الاصداء : أ ، بو ، لون ! . . .

الجميع : اضرب يا الـهنا ، اضرب . . . أنر ، وأضيء ،
بصوتك الخالد اضرب هذا الراقد !

كما تسطع الشمس الصافية على ذروة الجبل وتنير القمة الشاهقة السامقة!
اضرب أيها الاله! تعال أيها الاله...

الاصداء : أيها الاله!

[رعد بعيد]

[الإلاهات ساجدات ولمعة غريبة على وجه امفيون]

صوت ابولون: امفيون!

اني انتخبتك من بين البشر كما ينتخب الحب:
وكما تنتخب العاصفة القمة.
اني اصطفيتك...
فيا أيتها النفس العميقة اسمعي وتقبلي ابولون!

[يرتعش امفيون]

الالاهات : ابولون!

الاصداء : ابولون

صوت ابولون : اسمع اني سأكون بك مقرباً للناس، للذرية الفانية.
سأعطيك منشأ النظام
سأنزل عليك في اللحظة النقية الصافية
إذ ذاك ينشأ على وجه الارض فضول معظمة تغمرها الحكمة السماوية
سأأتمنك على ما ابتكره « هرمس »
وسأهبك الآلة العجيبة المذهلة
العود....
امفيون، امفيون!
أيقظ النغمة البكر وانتصر بها.
ستفتش على اوتاره السبل التي تتبعها الآلهة وستجدها.
وعلى هذه السبل المقدسة تقتفي أثرك النفوس.
المادة الجامدة تغدو أسيرة عودك.
خذ العود سلاحاً وحرك الطبيعة

وليولد عودي معبدي !
وليرتجف الصخر باسم الاسم الالهي . . .
واجذب من الضباب هذه الخرائب من القمم !
وقدم لي منذ الفجر معبداً منيراً
ولتكن حوله مدينة كبيرة تبتهل فيهِ بالصلاة .
ولترتفع يداك اليَّ مقدماً لي ما خلقتُ وأبدعتُ
امفيون ! . . .

الإلاهات : ابولون
الاصداء : ابولون

[تتمزق الاصداء . . .]

صوت ابولون : وانتنَّ أيتها الإلاهات الجميلات الأمينات !
أيتها العزيزات التقيات !
ايتها العاقلات !
احيينه واحرسنه !
ولكن اعلمنَ ألاَّ سعادة له ، ولا سعادة تغمره ... انهُ لا يحيا الاّ من أجلي !
اني انتخبته كقمة تنتخبها العاصفة !

[تنهض الالاهات وتقبل يديه وقدميه وجبينه

اصوات من جوق بعيد : امفيون ، كن معجزة
وكن ضحية المعجزة الكبيرة

[يشمل الليل ولا يسمع فيهِ الاَّ اصوات الالآهات اللواتي يتنادينَ في الظلام]

الالآهات : الاهة ! الاهة ! الاهة

[يعود النور قليلاً قليلاً مصبوغاً بألوان الفجر وتتوارى الالآهات فيرى العود عند قدمي « امفيون » ولجبة مبهمة من الطبيعة الحية التي تتيقظ . وهتاف عصافير وهدير مياه . وتكرار نشيد الينابيع]

ا يستيقظ الرجال والنساء ، منهم الذاهب الى صيد ، ومنهم الرائح الى عمل . والنساء منهن الواردة منهل الماء ، والواقفة على الماء تتراءى ، والصغار يلعبون ويتخاصمون . فيضطرب امفيون]

[يتيقظ امفيون وفي خلال هذا المشهد ينسل الاشخاص ، والموسيقى توقع ممثلة حركات « امفيون » يستوي فجأة على مضجعه ويتأمل ثم ينتصب ويمشي بضع خطوات ، يتروح نسيم الفجر ثم يهبط الى الينبوع ويرشف منه طويلاً . يرقص كمن يحرك اعضاءه ، فيقع بصره فجأة على العود يتأمله امفيون مستغرباً ويمسكه]

[يضرب فجأة فيرن وتر من اوتاره رنيناً قوياً يجيب عليه هزيم الرعد وكتلة من الجبل تسقط ولها صوت عظيم ، ينهزم الناس مذعورين . منهم المقبل ومنهم المدبر ، فيرتاع امفيون ويترك العود ، ثم يعود اليه محاولاً القيام بتجربة ثانية .]

[رنة ثانية . تعطي نغمة رقيقة فتهوي اليه بعض الصخور هوياً لطيفاً لا صوت له ، ويطلع عليه عشاق وعاشقات مادين بأذرعهم اليه . وقد عقدوا الايدي وانسلوا رويداً رويداً ، فيضع العود ويتأمله ، وهو جالس على صخرة يكتنفها الماء فيرى وجهه . . . فيعود اليه حلمه قليلا قليلاً ، وتسمع تمتمة مهزهزة الالاهات بفم مطبق ، فينهض امفيون مذعوراً ويحدق في السماء مستنجداً مستغيثاً]

الالاهات من حيث لا تنظر : امفيون !

امفيون : من يناديني ؟

الالاهات : نفسك !

امفيون : لتذكر نفسك

: من يتكلم ؟ أذكر . . . ان صوتاً علوياً ، ان صوتاً لا وجه له يتكلم في جنح الليل

الم اسمع كلمات القضاء ؟

هل اراني اجد سبيل غرائب الظلام ؟

٢ : ايها الصوت القدير !
لقد قيل . . . انهُ تكلم . . .
كما تتكلم الهاوية المنارة
هو الذي يخيل اليّ ان في السكون وتحت النجوم يناجي ذرية الانسان
الشقية ذات الارواح الزائلة !

٣ : انهُ قال . . . السماء التي تتكلم
قالت :
« امفيون !
اني انتخبتك كما ينتخب الحب
اني أصطفيتك كقمة تنتخبها العاصفة . . .
اني اخترتك !
وحبوتك الآلة الغريبة
العود ! . . .
خذ عودك سلاحاً وايقظ النغمة البكر
وليولد عودي معبدي !

٤ : ايتها الآلة الخفية ما اعظم قدرتك !
ايتها الآلة التي تهب الحياة والموت
انت التي تقذ ملاعبها الالهية روح الوجود !
اني اكاد المس اوتارك الذهبية التي شدها الاله
السماء والارض ارتعشتا
واحسست ان الصخر يهتز كأنهُ بدن امرأة مأخوذة !
ورأيتُ
الغضب والحب يولدان في الناس
والغضب والحب يفيضان من بين اناملي ! . . .

٥ : هل جرحت او صدمت او جذبت
جسد الوجود الخفي ؟ وقد يكون ذلك
وهل أثرت — على غير علم مني — في مادة السماوات ؟
وهل لمست الكائن نفسه الذي يواري عنا أسرار الاشياء ؟
ها أنا الآن أقوى من نفسي .
ها أنا أجدني غريباً ومحترماً لنفسي
تائهاً في نفسي ، وسيداً حول نفسي !
ارتعش كالطفل ازاء ما اقدر عليه

٦ : ابولون ، ابولون ، انني سأطيعك
مؤلفاً رسومات على العود
أناملي هي آلهة ،
وقلبي سابق للناس

٧ : سأغير على الصخور المضطربة المشوشة
وفصولي الصافية ستسخر لأثر لا مثيل له ،
خرائب القمم والمسوخ المتدحرجة الهاوية من حنايا عالية !

٨ : مولاي ابولون معي . . .
سأتبع العمل والجمال كفريستين !
ابولون يغمرني ويعزف مع صوتي .
سيأتي هو نفسه ليبني معبده .
والمدينة التي ينبغي ان تظهر لعيون الناس قد شوهدت تلمع وتسطع في مساكن الخالدين على الأبد .

[يأخذ امفيون عوده ويريد السماء ويتأهب للعزف وقد امتلأ صدره حمية ويقيناً ، يضرب على الاوتار ضرباً يسمو فيه الفن سمواً رفيعاً فتهتز الطبيعة وترجع الاصداء صوته ويطفح المشهد بالمذهولين . . . .
ثم يعزف ضرباً من الرقص المقدس ويستوي على قاعدة الصخور من الجهة اليمنى ويصيح :]

امفيون : بك يا ابولون !

[وهنا يبدو فن البناء وهو مما ينبغي فيه التلاؤم بينهُ وبين الموسيقى والاشارات والحركات . والموسيقى هي المعبرة عن حركة الاشخاص والآلات المتحركة . (١) الحان الحجارة — حجارة تزحل وترتفع لبناء المعبد ، والحان الحجارة تبدأ بايقاع ينتظم قليلاً قليلاً]

جوق غير منظور : يا للمعجزة ! يا للغرائب !

الصخر يمشي والارض تخضع لهذا الاله .

أية حياة مروعة تدب في الطبيعة !

كل شيء ينحني ! كل شيء يفتش عن النظام لينتظم

كل شيء يحس أنهُ خاضع لقدر

[البناء يكمل ، واجزاء من العمارات منثورة في احناء الجبال . رسم المعبد يتوطد . . . عمارة صغيرة مؤلفة من عدة راقصات كاسيات ، ثم تظهر الالاهات موشيات بالذهب ، ينتظمن في المعبد كأنهن اعمدة . . . ويرتلن]

الالاهات : يابنات الذهب ! القويات بشرائع السماء . . .

يسقط علينا وينام آله لونه لون الشهد !

[يسطع النور وتشتد الموسيقى . وخلال ذلك يتبدل المشهد ، فالجبل ينتشر عليه البنايات ، وقد غطت الجدران ولمعت السقوف في الشمس والشعب منتشر زمراً زمراً]

جوق الشعب : ايتها الشمس المباركة طلعتها !

ايها اللهب الذي يحمل في السماوات المعرفة والحياة . . .

ايتها الشمس !

ليس ثمة من يقوى على تأمل مصدر قوتك !

ان لمعة الطلعة الالهية — اللمعة التي لا تطاق — تحجب عنا الاله !

اما انت فانظري ايتها الشمس عجائب الانسان :

ها هنا يبدو مالم يصنعهُ احد منذ أشرق وجهك على الوجود !

جوق الشعب: ها هو امفيون ، امفيون الظافر يقدم لك هذه الحجارة الجنية لكي يلتقط اشعتك الصافية .
اقام هذه المساكن المموهة بالذهب ، ونصب لك هذه الجدران العالية .
أيتها الشمس !
تأملي معبدك وأريحي شعاعك المتوقد على شكله البديع !
وليكن جميلاً عذباً بالشعاع المنحدر من الجبين الالهي !
[دعاء وتهليل ، يدعى امفيون الى المعبد]
جوق الشعب : امفيون الجليل تقبل مدائحنا !
كن قائدنا ، وملكنا .
اصعد الى العرش ، واصعد الى المعبد ، يا امفيون ! ...
(يدخل امفيون وقد احاطت به الجماهير وعليه الزينة المنمقة)
(وخلال هذا المهرجان تتقدم الالآهات)
الاهة (١) : العمل انتهى ...
الاهة (٢) : سأتحرى عن معلم ثانٍ
الاهة (٣) : لا يهمنا امره مهما كان !
الاهة (٤) : انني لم اكن الاّ أملاً ... !

يغمرهنّ الظلام وفي اللحظة التي يهم فيها البطل بالصعود الى الهيكل يدنو منه خيال امرأة محجوبة ، يدخل انسلالاً ويسد عليه الطريق بذراعيه المفتوحين على شكل صليب . يهوي على الزينة حجاب . والنور يضعف والموسيقى يخف بأسها . يدور امفيون ولكن الخيال المحجوب يمسكهُ بحنان ويأخذ منه العود الذي انبثقت منه الحانه وتلقيه غير بعيد في الينبوع فيواري امفيون وجهه في حجر هذا الخيال الذي هو : الحب او الموت . وينجذب بها منقاداً مذهولاً ، بينما الموسيقى تعزف لحناً مظلماً عذباً قلبيًّا .)

« الستار »

الحضارة الحثية

نواحيها العقلية

والاجتماعية كما تبدو وتستخلص من آثارها

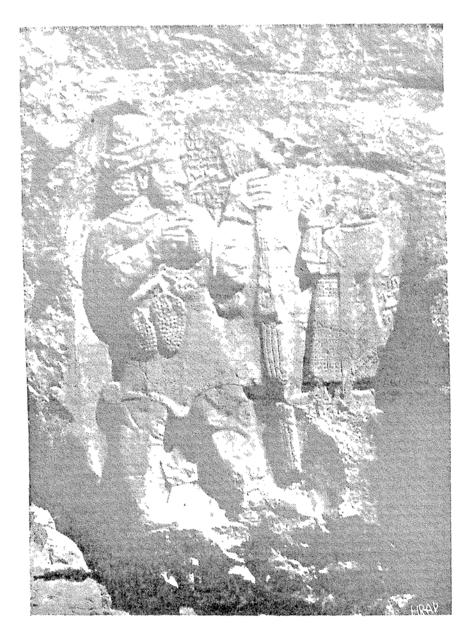
بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

توطئة

بعد ان اتينا على ملخص تاريخ حروب الحثيين وفتوحاتهم يجمل بنا ان ننتقل الى تبيان سائر ما وقفنا عليه من فروع حضاراتهم وتطوراتها وهدفنا في ذلك ان نبين مكانة تلك المملكة العهيدة التي تفوقت على كثير من ممالك الشرق القديمة بمنتجاتها الصناعية والفنية ولغتها وآدابها وشرائعها ومعتقداتها وليس لنا من رائد في هذا الميدان غير مكتشفات العلم التي يصح الركون اليها

ولعل اجلى مظهر اطلعنا عليه من مظاهر تلك الحضارة العهيدة هو ما جاء في رواية استيلاء العاهل اشور ناصربال الثاني على كركميش المنقوشة على حجارة قصوره حيث قال : « في الثالث من شهر نيسان سنة ٨٧٦ ق.م غادرت كالح وعبرت نهر الدجلة قاصداً مدينة كركميش في بلاد الحثيين فاجتزت نهر الفرات على ارماث مكسوة بالجلود ولما اقتربت من كركميش فرضت على سنغارا ملك الحثيين عشرين وزنة من الفضة وحلّي عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتي وزنة من الحديد والقصدير وآلات حديدية ونحاسية كفؤوس وحراب وسنن وماشا كلها من المعدات الحربية واثاث بلاط الملك وغنائمه واشياء كثيرة لا مثيل لها في جودها وجمالها واثاثاً من ابنوس واعراشاً من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وانسجة من صوف ومركبات مرصعة بالعاج وتماثيل من ذهب » . فيدلنا ذلك كلهُ على الاوج الرفيع الذي بلغتهُ الحضارة الحثية في الثراء والعمران ورقي الصناعة مما خلب لب ذلك العاهل الاشوري وحملهُ على الاقرار رغم انفته وكبريائهِ بأنهُ لم يكن قد رأى مثيلاً لها في سائر ممالكه على ان ذلك ليس الاَّ عبارة عن وصف



(ش ٦)

نقش حثي نافر على الصخر يمثل اله النباتات القروي كما فهم من الكتابة : المحفورة قبال وجهه وهو يحمل بعناقيد العنب . وقد أمسك بيده اليمنى سنابل الحنطة ووقف امامه ملك كبير وقفة التضرع والابتهال



(ش ٤)

الكتابة الهيروغليفية الكبيرة المكتشفة في كركميش وهي تعد من ارقى انواع الكتابات الحثية وترتقي الى القرن العاشر ق. م. وهي اليوم في المتحف البريطاني

سوف نلمس حقائقه بدراسة ما اكتشف من آثار تلك الحضارة القديمة وباستقراء نقوشها البارزة في اساطير الاجيال التي اقامتها ونرى بصورها الراسخة في بطون الاحجار طراز معيشة تلك الاقوام في بيوتها ومصانعها ومعابدها ولعلنا نستطيع ان نتتبعها حتى اعماق قبورها

الكتابة

لا مرية ان معظم هذه المعلومات انبثقت من حل رموز الكتابات الحثية فينبغي اذاً ان نجعل هذه الكتابات قطب دراستنا ونوجه اليها اهتمامنا . فبينما نراها في اول طورها كناية عن اشارات مصورة تعرب عن الافكار على شاكلة سائر الكتابات القديمة لا نلبث ان نشاهد الرموز تحل مكان الصور فيدلنا هذا التطور على ازدياد معارف القوم على توالي الايام واتساع حلقة افكارهم. وقد عرفنا للغة الحثية نوعين من الحروف الكتابية الهيروغليفية والمسمارية ونعني بالاولى حروف الكتابة المقدسة التي كانت خاصة بالحفر والزينة فغشت المسلات والانصاب وجدران المعابد والقصور وقد احتفظ الكهان باسرارها فكادت تبقى طلسماً لا يحل وحروفها مؤلفة من اعضاء الجسم كافة ورؤوس بعض الحيوانات والعصافير واشياء شتى على مثال الهيروغليفية المصرية بيد انها غير مقتبسة منها بدليل انها تمثل المتاع المختص بالحثيين كالنعال ذي الرأس المعكوف ورؤوس بعض الحيوانات المحلية وغيرها من العوامل التي تتضافر على اثبات استنباطها في آسيا الصغرى. وقد كانت تكتب طوراً من اليمين الى الشمال وتارةً من الشمال الى اليمين فيعرف مبدأها من شكل اتجاه رؤوس الحيوانات المصورة وهي تقرأ غالباً من أعلى الى أسفل وفي بعض الاحيان من أسفل الى اعلى ويلوح انها تمتّ الى عهدٍ ارقى من تاريخ استعمال الكتابة المسمارية لانها تكاد تصور الاشياء المراد بيانها تصويراً . اما الكتابة المسمارية فحروفها مؤلفة من رؤوس المسامير تشبه علامات الالحان الموسيقية ولكنها اكثر منها تلاصقاً . وقد تيسّر للعالم الأثري هروزني التشكوسلوفاكي ان يهتدي الى حل بعض الغازها الغامضة بالاستنتاج من بعض علامات فيها تدل على معانٍ معينة في سائر اللغات السامرية والبابلية من جهة وبمقابلة بعض نصوص مترجمة من ألواح بوغازكوي باصلها الاكادي وكانت اللغة الاكادية في ذلك العهد بمثابة لغة دولية تدون بها بنود المعاهدات ونصوص الطب والفلك وسائر العلوم

وقد وجدنا الخطوط القديمة كثيرة التعقيد ثم رأيناها تميل الى البساطة شيئاً فشيئاً مع تطور الحضارة وكانت تنقر على الآجر والاحجار الصمّ بارزة وتطرق على الصفائح المعدنية من الوراء فتنتأ من جهتها الاخرى وقد باتت الغازها المغلقة قريبة الحل بفضل جهود العلماء ومساعيهم المثمرة

أحوالهم الاجتماعية

لقد تسنى لنا الوقوف على أغلب تقاليد الحثيين وعاداتهم وطراز معيشتهم بالاقتباس من الصور المنقورة في الصخر وبقراءة تفسير النصوص الكتابية التي توافرت لدينا فتبيّن لنا انهم هاموا منذ فجر نهضتهم بالحروب والفتوحات وكانوا يعنون ايضاً بتربية الماشية ويميلون الى التوسع في الاراضي الخصبة بقصد استغلال ثروتها الزراعية ثم أخذوا يستخرجون المعادن ولا سيما الحديد من مناجم آسيا الصغرى وصار عندهم نقود يتبادلونها في قضاء حاجاتهم وكانوا على الأغلب يحلقون لحاهم أما الملوك وبعض الاعيان فكانوا يتأنقون بارخائها ويرسلون غدائر شعرهم على ظهورهم مضمخة بالطيب وكانوا يميزون عن سائر الشعوب بأنوف قنيٍ. أما ملابسهم فكانت بسيطة. كان الرجال يرتدون قمصاناً قصيرة يشدها زنار عريض الى وسطهم فتكشف عن الركب غير ان الملوك والكهان كانوا يرتدون في بعض الاحيان ألبسة خاصة طويلة الاهداب عريضة مثناة كثيرة الزخرفة وكانوا يحتذون نعالاً طويلة معكوفة الطرف وهي من أخص ميزات لباسهم. اما النساء فكنّ يتأنقن بارتداء أثواب منسوجة من أقمشة رقيقة شفافة تنم من خلال طياتها عن شكل أجسامهنّ وبروز نهودهنّ وكان التزين بالحلى مثل الأساور والعقود والاقراط والأحراز الثمينة شائعاً عندهنّ

وكان للمرأة الحثية شأن كبير في المجتمع فقد شاركت الرجل في أدق أعماله وخاضت الحروب الى جنبه واعتلت العرش وتقبّلت المغانم وأحرزت اسمى الالقاب وكان لها منزلة مكرمة وحقوق ممتازة تغبطها عليها أرقى نساء اليوم. على انهُ لم تكن الى ذلك كله سعيدةً في حياتها الخاصة اذ قلَّ بينهنّ من ليس لها شريكات من الرقيقات في بعلها حيث لم يكن أحب الى الحثيين ذوي الانوف الكبيرة من ان يتسروا ويعاشروا اكبر عدد ممكن من الرقيقات الجميلات الى جانب زوجاتهم الشرعيات حتى اشتهرت بلادهم بكونها مهد التهتك واللذات

وقد كان الملك سيدهم المطلق يستمد سلطانه من الآلهة التي كان يمثلها على الارض فكان مطاعاً لانهُ رأس الديانة والجيش والقضاء وكان يحمل مع التاج وشارات الملك لقب تلابارنا اي الملك الحثي الأعظم كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث. وكان العرش وراثيًّا ومن حق الابن البكر فاذا لم يكن ثمَّ ولد للزوجة الشرعية تبوأه الأدنى من ذوي القربى ويسري هذا الحق على النساء لا سيما اذا كان ولي العهد قاصراً فتنصب الملكة وصية عليهِ وتحمل التاج وتلقب بأم الاله وكان من حقوقها ان تشترك في عقد المعاهدات وقد رأيناها في بعض النقوش الى جانب الملك في الحفلات والطقوس الكبرى

وكان الشعب يغالي في احترام ملكه وينزله من نفسه منزلة الآلهة لاعتقاده يقيناً انهُ صائر

بعد المات الهاً مثل آبائهِ وأجداده فيدفع لهُ ضريبة أرضهِ صاغراً كما ان سكان الاقليم كانوا مكلفين ان يدفعوا علاوةً على ضريبة أراضيهم العائدة الى مليك مقاطعتهم ضريبة سنوية للملك الاعظم وعند ما ينتقل هذا الملك الى حياة الخلود كانت تحد عليهِ رعيته حداداً عظيماً فتمزق ثيابها وتغلق المعابد وتكف عن الافراح والاعراس وتسكب عليهِ دموعاً سخينة اكباراً لمقامهِ وحزناً على فقدانهِ

الديانة

كانت معابد الحثيين تضم عدداً لا يحصى من الآلهة وقد تسنّى لنا ان تتعرّف الى بعضها من الاسماء والنعوت التي كانت تحفر غالباً على اكتاف اصنامها. فقد كان لكل عنصر من عناصر الطبيعة اله يمثله حيث اعتاد الحثيون ان يؤلهوا كل قوة يخشون بأسها على الأرض. فكان عندهم آلهة للنار والهواء والمطر والشمس والذرى والصواعق ولكثير غيرها من عناصر الطبيعة على مثال سائر الديانات الشرقية القديمة ولا سيما ديانات الهند التي تشرّب الحثيون كثيراً من عقائدها الآرية والديانة الشمرية التي اقتبسوا منها معظم طقوس عبادتهم

زد على ذلك انهُ كان من تقاليدهم ان يبقوا على الممالك التي يفتتحونها عقائد سكانها الدينية وعاداتهم المحلية ويضمون آلهتها الى هياكلهم ويراعون حرمة اعيادهم خلافاً لسائر الدول القديمة التي كانت تحمل المغلوبين على انتحال ديانتها. فتجمع لديهم من جراء ذلك مئات من الآلهة حيث كاد تكون لكل مدينة آلـه محلي يعبد فيها بجانب الآلهة الكبرى وكانت تختلف رتبة تلك الآلهة المحلية باختلاف مكانة المدينة التي تنتسب اليها فكانت مثلاً مدينة عارينا الكبرى تحت حماية آلهة الشمس التي تأتي مع زوجها الالـه الاكبر واهب الحياة في طليعة المعبودات ثم يليها سائر طوائف الآلهة بمراتب متتابعة بعضها تلو بعض وقد أرتنا الآثار لكل تلك الآلهة هيئات وصفات خاصة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً

قلنا في ما سبق ان الملك هو رأس الديانة لانهُ يمثل الآلهة على الأرض وهو كاهنها الاكبر يعاونهُ في وظائفهِ الدينية رهط من الكهان بمراتب متفاوتة تقتصر وظائفهم على خدمة الطقوس وقد اطلعنا في لوحٍ على وصف طقوس الاعياد نسردها على علاتها تاركين للقراء ملاحظة وجوه التشابه بينها وبين اصل طقوس بعض الاديان المعاصرة

تؤم الجماعات المعبد يوم العيد فتقام الموائد المقدسة وتتلى الاناشيد وعندما يكتمل عدد المؤمنين يرتدي الملك ثياب العيد الخاصة ويتبرّج بالحلى الطقسية ثم ينتقل من قصره الى الهيكل باحتفال مهيب وعند اجتيازه عتبة فناء المعبد يغسل يديه في حوض الماء المقدس ويحرق البخور حوله ويلج قدس الاقداس مطهراً فيسجد تخشعاً ثم يعتلي اريكته فتتقدم عندئذٍ قرابين اللحوم الذكية وتصف على الموائد المقدسة المغطاة بفوطة بيضاء وتراق فوقها الخمور. فيأخذ محله في صدر المائدة

الكبرى ويجلس الاعيان والكهنة عن يمينه وشماله بعد ان يغسلوا ايديهم ويضعون فوطاً على ركبهم ويأخذون معهُ في تناول الاطعمة المقدسة التي تتخللها بعض رموز دينية وتلاوة بعض التسابيح . فينطبق ذلك كلهُ على طقوس الاديان السامرية والاكادية ويجعلنا نتيقن ان جميع اديان العالم مقتبسة طقوسها بعضها من بعض

اما صلواتهم فقد كانت عبارة عن تضرعات الى الآلهة من اجل طلب التمتع بملاذ هذه الدنيا وشهواتها مع الاشادة بمديحها وهنالك صلاة أشبه بمزامير التوبة تتلى في حال الخطيئة . ويلوح ان السحر والشعوذة كان لهما شأن خطير في معتقدات الحثيين . فقد ثبت انهم كانوا يؤمنون بضروب السحر وتأثير الطلاسم وقد تبطنت عقائدهم الخرافات والاوهام السخيفة . ودليلنا على ذلك ما عثر عليهِ في حفريات بوغاز كوي من اكباد من خزف مغطاة بخطوط وشعوذات من شأنها ان تدفع الشرور والبلايا عن حامليها كما تبين من تفسير لوح وهو ان الوضع عندهم كان يجري على مقعد خاص يأتون بهِ من المعبد عند ما يبدأ المخاض . فاذا تخدش جسم المرأة بخشب ذلك المقعد في اثناء الوضع او كسر المقعد تحتها يفسر ذلك بان المرأة نجسة فيتحتم عليها ان تمر بسلسلة مراسيم شاقة لتطهير نفسها . قس على ذلك شتى انواع المعتقدات التي يستهجنها العقل . وقد أرتنا النقوش البارزة على جدران المعابد رسوم قصص خيالية لها علاقتها بديانتهم مثل الرسم الذي يمثل عراك الاله الاكبر مع حية رقطاء ونقش آخر يجسّم لنا الغواية في رسم امرأة متصفة العري وغير ذلك من النقوش التي سنمر بها عند درس الآثار والفنون الحثية

ولعل اغرب ما في خرافاتهم قصة تتلخص باختفاء الاله تلاپينو عن وجه اليابسة حنقاً وانتقاماً من البشر مما ادى الى اشراف الدنيا باسرها على الهلاك لمحل مزروعاتها والقحط الذي اصابها . فعقدت الآلهة اجتماعاً كبيراً قررت فيهِ ان توفد العقاب للبحث عن اخيهم تلاپينو المختفي فجاب العقاب الفيافي والقفار ورجع صفر اليدين مما حمل الاله الاكبر على ان يتحراه بنفسهِ فخاب مسعاه كذلك وكانت النحلة اعرف المخلوقات بمخبئه فأمرتها الهة الشمس ان تذهب اليهِ وتلدغهُ في يديه ورجليه ففعلت النحلة ما أُمرت بهِ وتأثر تلاپينو بلدغتها فارتدع عن غيهِ وعاد الى الارض فعادت معهُ الحياة الى مجاريها

ويجدر بنا قبل ان نختم موضوع الديانة ان نورد وصف لوقيانوس اليوناني لمعبد ادركه بجوار كركميش في القرن الثاني للميلاد مبني على طراز حثي يساعدنا على معرفة ما كانت عليهِ معابد الحثيين في قديم الزمان . فقد شبههُ بهيكل سليمان في اورشليم وقال انهُ كان مؤلفاً من دار خارجية وهيكل داخلي يحوي قدس الاقداس ويفصله عن باقي المعبد حجاب كثيف على جانبيه عمودان مخروطيان وفي الدار الخارجية مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة الهةٍ ومن



(ش ٨)

حجر بارز النقش الحجم (٩٤ر. × ١٫٢٧ × ٩٣ر. × ١٫٢٧ × متر) اكتشف في قلعة حلب عام ١٩٣٠ ونقل الى متحفها عليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتيهما قرص الشمس داخل هلال وتدل هيأتهما على انهما يحلقان به في اجواز الفضاء وهو من الآثار الحثية التي تغلب عليها تأثير الفن الميتاني

ورائها حوض ماء فسيح كان يسبح فيه السمك المقدس وفي داخل الهيكل قرص للشمس وتماثيل آلهة شتى معظمها على مثال الآلهة المكتشفة في حفريات بوغازكوى منتصبة على اسد او على ظهر ثيران

القوانين

عثر بين الواح بوغاز كوى على مجموعة قوانين ترتقي الى سنة ١٣٥٠ ق . م .مشربة من روح الديانة الحثية فعني بترجمتها العلماء هروزني وزيمرن وفريدرك ولما كانت تضم نحواً من مائتي مادة لم نر بدًّا من الاقتصار على تلخيص المهم منها

فقد قسمت بوجه العامة الى قسمين . قسم يبحث عن حقوق افراد الشعب وفروضه تجاه اوليائه والآخر يتعلق بملكية الاراضي والكروم وهي تعد من القوانين الشديدة ولاسيما ما يتعلق منها بالتأمين على واجبات الرعية تجاه مليكها وممثليه من رجال السلطة كما انها تحظر العبث بحقوق اصحاب الاراضي الزراعية وتعين بعدل العلائق بين ارباب الصناعات وعمالهم

واذا تبسطنا في الحقوق المدنية نرى في المجتمع طبقتين : الاحرار والعبيد ، اما طبقة الاحرار فقد شدد القانون في صيانة حقوقها بخلاف طبقة العبيد التي عبث بحقوقها حتى أُبيح حرمة اعراضها . مثال ذلك اذا تزوج رجل من عبدة او ساكنها لايكلف دفع مال اما اذا عقد خطبته على فتاة حرة فيترتب عليه ان يدفع الى أهلها مهراً حتى اذا نكث بعهده يبقى لها حقًّا مكتسباً. وكانت طريقة الزواج عند الحثيين على نوعين ففي الاول تلتحق المرأة ببعلها وفي الثانية يساكنها وهي في حظيرة اهلها وكان منذ القديم الزواج من الاخوات وبنات العم وبنات الخالات ومن سائر الاقربين محظوراً وفي حال وفاة الزوج يتحتم على اخيه او ابيه ان يقترن بارملته وليس في ذلك القانون نص على الطلاق على انهُ ينهي الوالد عن طرد ولده او ابنته ما لم يتكرر منهما ذنب خطير حتى اذا اختلس الابن اباه لايعد سارقاً . اما الملكية فكانت مصونة بحماية الآلهة تتعهد مراقبتها الكهان وكانت تنقل بحكم الطبع الى الابناء بعد وفاة الآباء وفاقاً لمراسيم تجري في المعبد مقابل أجر زهيد . اما المبايعات وفراغ الملكية من الغير فكانت تستوجب نفقات باهظة وتستلزم تضحية نعاج في الحقل او في بقعة الملك المراد بيعها ولم يكن يستثنى من تكاليف هذه المعاملات غير الكهنة وبعض قيان المعابد . وكان نظام الاقطاعات شائعاً حيث نرى كثيراً من اراضي الخراج يقطعها الجنود وسائر الذين يؤدون خدمة جليلة الى الملك فتجعل لهم غلتها رزقاً يتوارثونهُ على اجيال متعاقبة. ومما يبحث عنهُ القانون الحثي تعيين اجور العمال التي يفهم منها ان الحداد والخزفي والنجار وكل معلم صنعة كان يتقاضى اجرة قدرها عشرة مثاقيل من الفضة اذا كان حرًّا وستة اذا كان عبداً . وقس على ذلك بدل ايجار العقارات والاشياء المعينة وسعر الحاجيات الثمينة مما يضيق بحثنا عن استيعابه

اما فيما يتعلق بقانون الجزاء فقد كانت عقوبات الجرائم من اغرب ما سمعت به اذن فقد كان في القديم يحكم على القاتل ان يقدم لاهل القتيل اربعة رجال عوضاً عن المغدور به اذا كان حرًّا ورجلين فقط اذا كان عبداً ثم استعيض في بعض النصوص المعتدلة بدية من الفضة على انهُ في حال اختفاء الجاني تكون البلدة التي حدثت فيها الجناية مسؤولة بمراضاة اهل القتيل. وكان عقاب الاختطاف والاعتداء على العفاف اشد من ذلك هولاً اذ ليس لهُ من جزاء غير القتل بيد ان الملك كان يمنح العفو في بعض الظروف. اما سارق المواشي فكان يحكم عليهِ بأن يعوض عن سرقته بثلاثين ضعف مثلها وسارق النحل يحبس في مباءةٍ موثق اليدين

***

على ان هذه المواد ما لبثت ان تعدلت وخفت وطأة شدتها عما قبل مع تحوُّل الزمن. اما سائر المواد التي تتعلق بالسلطة والدين مباشرةً فقد حوفظ على شدتها تعزيزاً لهيبة الحكومة التي كانت تمثل السلطة والدين. مثال ذلك: أن سرقة رمحٍ بسيط من باب قصر الملك او معصية امرٍ من اوامره كانت تعرّض صاحبها للموت المحتم مع خراب بيتهِ وكان يذبح سارق الحقول المقدسة التي تخص الكهنة والمعابد ويقدم قرباناً للآلهة تكفيراً عما جنت يداه وكان يحكم على بعض العصاة ببتر عضو من اعضائهم تأديباً لهم كجدع الانف وصلم الاذن وهلم جرًّا

وكان مسموحاً للرجل ان يقتص من زوجتهِ العاهرة وعشيقها بالقتل اذا باغتهما بمخدعه في حالة مشينة. اما اذا ابطأ بالاقتصاص فلا يجوز لهُ أن يتعمد قتلهما. ويسلّم القانون الحثي في بعض الحالات بالأسباب المخففة كما ينص بتطبيق أقصى درجات العقوبة في حالات أُخر خلافاً لسائر القوانين القديمة التي لم تكن تراعي الدقة في ظروف الجرائم الى هذا الحد. مثال ذلك: يحكم بالقتل على الرجل الذي يعتدي على عرض امرأة في جبل منقطع. أما الامرأة فتبرأ ساحتها باعتبار الاعتداء واقعاً عليها عنوةً في محل بعيد عن الاستغاثة ولكنها تتعرض لنفس عقاب المعتدي باعتبارها شريكةً لهُ بالاثم اذا وقع الامر في عقر دارها

***

وصفوة القول ان الحثيين مع شدّة ميلهم الى التهتك كانوا يغارون على عرضهم غيرة قوية ويغالون في احترام قوانينهم لاعتقادهم انها موحى بها اليهم من الالهة ومن ميزات هذه القوانين انها كانت تأمر بالاحسان وتنهى عن المعاصي فيخال المرء عند تلاوتها أن بعض وصايا المسيح قد جاءت من اعماق القرون السحيقة

« في العدد التالي تتمة (الحضارة الحثية) وهي تتناول «الصناعة والتجارة والفنون» »

— ١٦ —

الأُرْجُوَان

وبالفارسية (أرغوان) وفي الشام يقال له (الزَّمْزَرِيق) شجرته ترتفع من ٦ امتار الى ١٠ أوراقها تكون فرادى تتساقط الواحدة منها قلبية الشكل مستديرة كالأُذُن . أزهارها حمراء أرجوانية بهيجة مكتظة في عناقيد تنبثق حتى من الفروع القديمة قبل إنبثاق الأوراق فتبدو الشجرة في مجموعها كأنها إكليل أرجواني وكل زهرة منها على صورة الفراشة . وثمرتها قرن طولهُ من ١٣ سنتيمتراً الى ١٥

اسمها العلمي (Cercis siliquastrum, L.) (كركيس سليكواستروم)[١] وفصيلتها البقلية أو القرنية (Leguminosae) (ليغومينوزية) وبالانجليزية (common Judas—tree; love—tree) والفرنسية (gaînier ou abrre de Judée)

وهي شائعة في جنوب أوربا (الريڤييرا) وفلسطين والشام تزرع للزينة ونظراً للحرافة المقبولة في طعم أزهارها ووفرة هذه الأزهار على الاغصان كثيراً ماتؤكل في اوربا ضمن « السلاطة » وخشب هذه الشجرة جميل تتخللهُ عروق سود وخضر وهو قابل للصقل الجيد

الإِفْسِنْتِين الكبير

عشب معمّر متساقط الورق ورقته مضاعفة التقسيم الريشيّ الثلاثي يكسوها شعر حريري الملمس قصير ورؤوسه الزهرية (نوراته) متدلّية الواحدة منها شبيهة بنصف كرة وزهرته صفراء

---

(١) ثيوفراسطوس هو الذي اطلق اسم كركيس (Kerkis) على هذه الشجرة . قيل انها كانت محبوبة في الازمان القديمة في حدائق بيت المقدس وأن يهوذا الاسخريوطي صلب نفسه عليها

اسمه العلمي (Artemisia Absinthium, L.) (آرتميزيا ابسنثيوم) (١) وفصيلته المركبة وبالانجليزية (common wormwood) والفرنسية (grande absinthe ou aluine)

وهو شائع في اوربا وشمال آسيا ووسطها وشمال افريقية وهو من نباتات الزينة ونافع في الطب مقوياً ومضاداً للتشنج والديدان ومتى استعمل من الظاهر كان حلالاً للاورام ومضاداً للعفن وقيل إن استعماله مفيد في امراض النقرس (داء الملوك) والاسقربوط (داء الحفر) والاستسقاء الى غير ذلك ومع ان الطب الحديث لا يعوّل على تأثيره في هذه الامراض الا نادراً فإن له بعض الفائدة في تقوية المعدة

أما العناصر الفعّالة فيه فهي الابسنثين (absinthin)ومادة زيتية قابلة للتبلور وزيت طيار خاص به . هذا وقد أوصى بعض الباحثين بالامتناع عن زرعه حيثما تربى النحل وقالوا بزرعه منعاً لتفشي الحشرات

الإِفْسنْتِيْن الصغير

عشب قد يرتفع عن الارض متراً متساقط الورق معمّر ورقته ذات شعيرات من وجهها السفلي ريشية مضاعفة وريقاتها على صورة خطوط ورؤوسه الزهرية (نوراته) كرية وزهرته صفراء

اسمهُ العلمي (Artemisia Pontica,L.) (آرتميزيا پونتيقا) من الفصيلة المركبة وبالانجليزية (true Roman wormwood) والفرنسية (petite absinthe ou absinthe pontique)

شائع في وسط أوربا وجنوبها وغرب آسيا وهو من نباتات الزينة أكثر عطرية وأقل مرارة من الإفسنتين الكبير المتقدم

أُذُن الحمار الكبير

وباليونانية (سِمْفِيتُون)(٢) وقد جاء في بعض المعجمات (سنفيتون) وهو عشب معمر خشن أقرب شبهاً بالشجيرة جميل المنظر ولذا يعتبر من نباتات الزينة جذره درنيّ وأوراقه بيضية الشكل الواحدة منها مستطيلة قاعدتها ممتدة الى أسفل وأزهاره بيض

اسمهُ العلمي (Symphytum officinale, L.) (سمفيتوم او فيشينالي) من فصيلة لسان الثور (الشنجارية) (Boraginaceae) (بوراجيناسية) وبالانجليزية (common comfrey or consound) والفرنسية (grande consoude; consoude officinale)

---

(١) قيل ان آرتميس (Artemis) هو من اسماء ديانا (Diana) ربة العفاف في اساطير اليونان وان هذا النبات سمي آرتميزيا نسبة لآرتميس المذكور لما كان ينجم عن استعماله من البلوغ الباكر عند الاناث اما ابسنثيوم (Absinthium) فمعناه غير سار اشتقاقاً من (A) التي تزاد في اول الكلمة اليونانية بمعنى النفي و (psinthos) اليونانية بمعنى سرور وذلك لما في هذا النبات من الطعم المرير

(٢) هذا الاسم مشتق من (سمفيسيس) اليونانية المركبة من كلمتي (سن) حرف جر بمعنى معاً و (فيو) فعل بمعنى ينمو اي النمو معاً او الالتئام وهذا كان السبب في اشتهار ذلك النبات زمناً طويلاً بأنه دواء شاف للجروح

شائع في أوربا وغرب آسيا وفيه مادة غروية (mucilage) ولذا قد يستعاض به في الاستعمال عن الخطمى (الخطمية) (Althaea officinalis) وجذره يستعمل في الطب البيطري على الخصوص كما يستعمل دواء دافعاً للإسهال والبواسير

آذانُ الأَرْنَب

ويقال لهُ في مصر (الحَلَبْلُوب) و (الحِلْوان) كما جاء في معجم النبات لموشلر الالماني عشب سنوي جميل المنظر ورقه بسيطة كاملة الحافة قاعدتها مكتنفة لساقه وزهرته صفراء

اسمه العلمي (Bupleurum rotundifolium, L.) (بوپلوروم روتونديفوليوم) وفصيلته الصيوانية أو الخيمية (Umbelliferae) (اومبليفرية)

وبالانجليزية (throw-wax ; thorow-wax; rthoough-wax; buplever; hare's ear) والفرنسية (buplévre; perce—feuille) شائع في اوربا وشمال افريقة وغرب آسيا وشمال أمريقة وهو ليس مهمًّا اقتصاديًّا

الأُمْنُسُوخ

ويقال لهُ (ذَنَب الخَيْل) عشب معمّر ينمو بطبيعته في البقاع التي يوجد بها مستنقعات على الخصوص نذكر منهُ نوعين وهما :

(١) الهولنديّ : وهو دائم الاخضرار سوقه بسيطة قائمة خشنة جدًّا لتوفر مادة السليكا (الرمل) فيها وتحمل في اطرافها سنابل

اسمهُ العلمي (Equisetum hyemale, L.) (اكيستوم هايمالي) [(١)] وفصيلتهُ الأُمسوخية (Equisetaceae) (اكيستاسية)وبالانجليزية(Dutch — rush) والفرنسية (prêle des tourneurs) شائع في فرنسا وهولندا وبريطانيا ينتفع بسوقه في جلاء الخشب والمعدن وكثيراً ما يستعمله مبيضو النحاس وصانعو الامشاط وكان مرغوباً فيه قديماً لجلاء الأواني الزنكية والخشبية في المطابخ

(٢) الحقليّ:وهو متساقط الاوراق سوقه غير المثمرة (العقيمة)تكون زاحفة على الارض ذات فروع بسيطة خشنة مربّعة الضلوع وسوقه المثمرة ذات اغماد اسطوانية الشكل ذات اسنان اسمهُ العلمي (Equisetum arvense, L.) (اكيستوم اروِنسي) وبالانجليزية (corn — horsetail) والفرنسية (prêle des champs, prêle petite) شائع في اوربا ولا سيما بريطانيا ويكثر في الاراضي المزروعة وهو من الاعشاب الضارة في الاراضي الغِرْيَنيّة (المكونة من الطميّ) العميقة وهي التي تنشأ عن الانهار والبحيرات

---

(١) اشتق اسم (Equisetum) اللاتيني ومعناه شعرة حصان اشتقاقاً لفظياً من كلمتي (equus) اي حصان و (seta) اي شعرة وذلك لوجود فروع دقاق كالشعر في جميع الانواع من هذا النبات

المارستانات العربية

المارستان النوري الكبير بدمشق

للدكتور سامي حداد

عضو الكلية الجراحية الاميركية وأحد
اساتذة العلوم الجراحية بجامعة بيروت الاميركية

يقع في جادة المارستان الى الجهة الشرقية من سوق الحميدية المشهور . ويبعد عن القلعة نحواً من خمسمائة متر تقريباً .

انشأهُ السلطان العادل نور الدين محمود ابو الثنا بن زنكي اق سنقر سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) وهو من أشهر المارستانات العربية ولا تزال ابنيته قائمة . ونور الدين زنكي هو ثاني ملوك الدولة النورية كردي الاصل حكم في العجم والعراق والجزيرة وتسلم زمام الحكم في سوريا بعد قتل والده عماد الدين في سنة ٥٤١هـ(١١٤٦م) وامتد حكمه الى مصر وتوفاه الله سنة ٥٦٩هـ(١١٧٣م)

ندر ان خلد التاريخ لاحد من ملوك الارض ذكراً كالذي خلده لنور الدين . فاليك ما قال فيه ابن الاثير :—« وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا اكثر تحرياً منهُ للعدل واشتهر بزهده وعبادتهِ وعلمهِ وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمهِ من الغنيمة. . . .ولقد شكت اليهِ زوجته الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت لهُ يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً فلما استقلتها قال ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيهِ خازن للمسلمين لا أخونهم فيهِ ولا أخوض نار جهنم لاجلك. اه [٢]

اما سبب بنائهِ المارستان فيرجع الى انهُ « حارب الافرنج في حرب الصليبيين الثانية فوقع في اسره بعض اكابر ملوكهم فقطع على نفسهِ في فدائهِ مالاً عظيماً وشاور أمراءه بذلك فأشار كلٌ بعدم اطلاقهِ لما كان فيهِ من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين الى الفدية بعد ان استخار الله تعالى فأطلقهُ ليلاً . فلما بلغ الفرنجي مأمنهُ مات وبلغ نور الدين خبره فبنى بذلك المال

المارستان ومنعهُ الامراء لانهُ لم يكن عن ارادتهم » اه[٣] [١٣] وتولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق . « وكان في ذلك الزمن طبيب يدعى مؤيد الدين ابو الفضل بن عبد الكريم المهندس بارعاً في علم الهندسة وفن النجارة . فصنع اكثر ابواب المارستان » اه[٣٣] ولا يبعد ان يكون بعض هذه الابواب باقياً لليوم ورمم هذا المارستان مراراً وأضيف الى بنائه واملاكه . ولكن لم تحدث هذه الترميمات تغييراً ذا شأن فيهِ

واول ترميم جرى في ايام الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود بن الملك العادل (احد الملوك الايوبيين) سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧م) . « وتولى الطبيب بدر الدين المظفر ابن القاضي مجد الدين الرآسة على جميع الاطباء والكحالين والجراحين بدمشق وكتب لهُ منشوراً بذلك . فاشترى بدر الدين دوراً كثيرة ملاصقة للمارستان واضافها اليهِ وكبر بها قاعات كانت صغيرة . وبناها احسن بناء وجعل الماء فيها جارياً فاكتمل بها المارستان » اه[٣٤]

والترميم الثاني جرى في ايام الملك المنصور سيف الدين قلاوون ملك مصر الذي اتى الشام اذ كان اميراً سنة ٦٧٥ هـ (١٢٨٦م) فأصابهُ بها قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من المارستان النوري فحفظ ذلك ولما تملك على مصر امر ناظر المارستان بدمشق ان يعيد ترميمهُ . واقيمت في اثناء هذه الترميمات لوحة رخامية تذكارية فوق الباب الداخلي لا تزال الى الآن وهذا ما نقش عليها :

وسع سنة اثنين وثمانين وستمئة

« بسم الله الرحمن الرحيم . والذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون . وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً . وقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم اذا مات ابن آدم انقطع عمله الاَّ من ثلاث . علم ينتفع بهِ ، أو ولد صالح يدعو لهُ ، أو صدقة جارية . والمولى السلطان الغازي في سبيل الله نور الدين ابو الثنا محمود بن زنكي بن اق سنقر قدس الله روحه من جمع الله سبحانه وتعالى لذاتهِ وصف العالمين . ومن شرط وقفه الذي اشهد بهِ على نفسه انهُ وقف على المارستان المعروف بانشائهِ وجعله مقرًّا لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضعفة المسلمين الذين يرجا (يرجى) برؤهم . وهو يستعدي الى الله تعالى من يساعد في تغيير مصارف وقفه واخراجها عما شرطه ويخصا صمه بين يديهِ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ لو ان بينها وبينهُ أمداً بعيداً . وجدد ماكان تهدم من بنيانهِ وبناء أوقافهِ في الايام السلطانية العادلية الصالحية خلّد الله سلطانها بنظر الفقير الى الله تعالى عمر ابن ابي الطيب غفر الله لهُ ولمن أعان من المسلمين على عمارة هذا الوقف المبارك . وكان الفراغ منهُ فجر العشر الاول من ربيع الثاني سنة ٦٨٢ » . اه : والترميم الأخير جرى « في القرن الثامن عشر

على يد حسن باشا التركي المعروف بشوربزي حسن وبقي المارستان عامراً يستقبل المرضى الى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق بانشاء مستشفى الغرباء وجعلت بناية المارستان النوري مدرسة أميرية للبنات » . [٩] اه

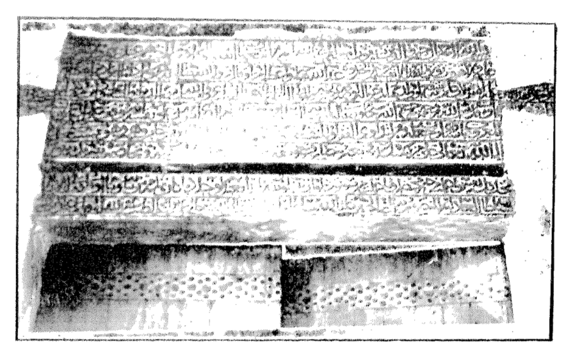
وقد ورد ذكر المارستان القديم والمارستان النوري في رحلة ابن جبير الذي زار دمشق سنة ٥٧٨ هـ وكتب عنهما ما يلي : « وبها (اي بدمشق) مارستانان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومه بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها من الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هـذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر . وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم » . [١٢] اه

واليك وصف المارستان النوري كما هو في حالته الحاضرة : — مدخله واقع في الجهة الجنوبية منه وبارز عن واجهة البناء وهو في غاية الفخامة والعظمة . ويعلو باب المدخل قبة نصفية مزينة بالنقش المقرنص وتحتها عتبة من الطرز اليوناني لعلها مستعارة من أثر يوناني قديم أضيفت الى البناء في أثناء احد الترميات . ومصراعا الباب مصفحان من الجهة الامامية بالحديد المزين بالنقوش الهندسية الجميلة وفي وسط كل منها مقرعة حديد ضخمة تزيد هيئة الباب عظمة . (شكل ٢) والجهة الخلفية مزينة حشواتها الخشبية بنقوش نافرة متقنة الصنع (شكل ٣) والى الجهة الشرقية من هذا الباب من الخارج سبيل ماء جارٍ أضيف في أثناء الترميات التي جرت سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م)

ويفضي الباب الخارجي الى رواق مربع تعلوه قبة مرتكزة من كلٍّ من جانبها الأيمن والأيسر على قبة نصفية وكلها منقوشة نقشاً مقرنصاً . ويقابل الباب الخارجي باب داخلي بحجمه ولا يقل عنه جمالاً واتقاناً (شكل ٤) وفوقه اللوحة الرخامية التي سبق الكلام عنها (شكل ٥)

ويفضي هذا الباب الى مدخل صغير ومنه الى الباحة . والى جانبي هـذا المدخل غرفتان كبيرتان من نوع العقد المصلب الشاهق البناء ومما يستوقف النظر صغر بابي هاتين الغرفتين بالقياس الى سعتهما وعلو سقفيهما. اما الباحة فمساحتها نحو من ٤٠٠ متر مربع والى جانبيها الشرقي والغربي ايوان متوسط بين غرفتين فسيحتين . وقد ازدانت جدران الإيوانين بنقوش هندسية جميلة وفي اثناء الترميم الأخير أقيم حائط أمام الإيوانين فجعل كلاًّ منهما غرفة صغيرة . وفي صدر الباحة إيوان متسع قائم على كلٍّ من جداريه الشرقي والغربي لوحتان رخاميتان منقوش عليها الآيات القرآنية الآتية : —

(١) يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في



تصوير المؤلف ش ٥

اللوحة الرخامية فوق الباب الداخلي للمارستان النوري الكبير



تصوير المؤلف ش ٦

زاوية الديوان الشرقي في المارستان النوري الكبير

(٢) الصدور . يخرج من بطونها شرابٌ مختلف الوانهُ (فيه شفاءٌ للناس)
(٣) فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين
(٤) واذا مرضت فهو يشفين والذي أطمع ان يغفرلي خطيئتي

أطباء المارستان النوري الكبير

ترجم لنا ابن ابي اصيبعة عدداً من الاطباء الذين خدموا المارستان النوري الكبير اليك خلاصة ترجمتهم

(١) اول طبيب عقد نور الدين عليه ادارة المارستان هو ابو علي ابو المجد بن ابي الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي واطلق لهُ جامكية وجراية . وكان ابو الحكم من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والافاضل في صناعة الطب والاماثل في علم الهندسة والنجوم . كان يدور على المرضى في المارستان ويتفقد احوالهم كل يوم . وبعد الفراغ من ذلك يطلع الى القلعة ويتفقد المرضى من اعيان الدولة . ثم يرجع الى المارستان ويجلس في الديوان الكبير وجميعه مفروش وكان نور الدين قد وقف جملة كبيرة من الكتب الطبية وضعت في خزانتين في صدر الديوان الكبير . فيحضر جماعة الاطباء والتلامذة ويقعدون بين يدي ابي الحكم فتجري المباحث الطبية ويقرىء التلامذة وهو لا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب الى داره . وتوفي بدمشق سنة نيف وخمساية هجرية (٣٥)

(٢) الشيخ مهذب الدين ابو الحسن علي بن ابي عبد الله عيسى ابن هبة الله النقاش . مولده ومنشؤه ببغداد عالم بالعربية والادب يتكلم الفارسية . اشتغل بصناعة الطب على امين الدولة هبة الله صاعد بن التلميذ . ثم اتى الى دمشق وذهب الى مصر ثم رجع الى دمشق وخدم فيها الملك العادل نور الدين وخدم ايضاً في المارستان النوري . ولما مات الملك العادل خدم صلاح الدين الايوبي وتوفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) . وكان كثير الاحسان محبًّا للجميل (٣٦)

(٣) موفق الدين ابو نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المطران . كان سيد الحكماء وافر الآلاء جزيل النعماء أميز اهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها . خدم صلاح الدين الايوبي فغمره باحسانه ، واترفه بمننه ، وكان يحترمه ويجله لما قد تحققه من علمه . وكان يغلب على ابن المطران الزهو بنفسه والتكبر . وحدَّث بعض من يعرفه فيما يتعلق بعجبه وادلاله على صلاح الدين انهُ كان معهُ في بعض غزواته وكانت عادة صلاح الدين ان يُنصب لهُ خيمة حمراء وكذلك دهليزها وشقتها . وكان صلاح الدين راكباً يوماً واذا به قد نظر الى خيمة حمراء اللون وكذلك شقتها ومستراحها فبقي متأملاً لها وسأل لمن هي فأخبر انها لابن المطران الطبيب . فقال والله لقد عرفت ان هذا من حماقة ابن المطران وضحك ثم قال ما بنا ألاَّ يعبر احد من الرسل فيعتقد انها لاحد الملوك واذا كان لا بد فيغير مستراحها وأمر به ان يرمى . ولما رُمي صعب ذلك على

ابن المطران وبقي يومين لم يقرب الخدمة فاسترضاه السلطان ووهب له مالاً . وكان موفق الدين كريماً محبًّا لعمل الخير يساعد تلاميذه على تحصيل رزقهم . وخدم المارستان اجلَّ خدمة . وكان معهُ تلميذه مهذب الدين الدخوار الذي تولى رآسة المارستان بعد مدة . وعمران الاسرائيلي الطبيب وابن ابي اصيبعة الكحال وابن حمدان الجرائحي الذي كان يجري العمليات الجراحية على مرأى من التلامذة وابن المطران يتفقد نبض المريض في اثناء العملية . وكان لموفق الدين همة عالية في تحصيل الكتب ولما مات كان في خزائنهِ منها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخهُ . وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها . وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منهُ الجامكية والجراية . ولهُ مؤلفات نفيسة في الطب منها المقالة الناصرية في حفظ الامور الصحية ، وكتاب آداب طب الملوك وغيرها . وقد ادركه الاجل قبل ان يتم كتابه بستان الاطباء وروضة الالباء . ومما يؤسف له جدًّا ان كل كتبه قد فقدت وتوفي سنة ٥٨٧ ه (١١٩١م)(٣٧)

(٤) مؤيد الدين ابو الفضل محمد بن عبد الكريم ابن عبد الرحمن الحارثي المعروف بالمهندس ولد و نشأ بدمشق . كان اول امره نجاراً ونحاتاً وهو الذي نجر ابواب المارستان النوري . وكان يصلح ساعات الجامع الاموي بدمشق وهي من صنع والده . وقد طب للمارستان وكان له منهُ جامكية الى ان توفاه الله سنة ٥٩٩ ه (١٢٠٢م) وله من العمر سبعون سنة (٣٣)

(٥) موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار ابن ابي محمد السلمي . كان كثير الخير محبًّا له مؤثراً للجميل غزير المروءة شديد الشفقة على المرضى وخصوصاً من كان منهم ضعيف الحال يتفقدهم ويعالجهم ويوصل لهم النفقة وما يحتاجون اليهِ من الادوية والاغذية . خدم المارستان الكبير ثم الملك العادل ابا بكر بن ايوب . ويظهر انهُ كان رئيساً لاطباء المارستان الكبير لان مهذب الدين الدخوار خلفهُ في هذه الرياسة كما سنرى . وتوفي سنة ٦٠٤ ه (١٢٠٧م) (٣٨)

(٦) رضي الدين ابو الحجاج يوسف بن حيدره بن الحسن الرحبي تلميذ مهذب الدين النقاش . خدم صلاح الدين الايوبي واخاه الملك العادل ابا بكر بن ايوب وكان ملازماً للقلعة والمارستان ومن أغرب ماذكره عنهُ انهُ قال «السلّم منشار العمر» وحكي عنهُ انهُ قال اني منذ اشتريت هذه القاعة التي انا ساكن فيها اكثر من خمس وعشرين سنة لا اعرف اني طلعت الى الحجرة التي فوقها الاّ وقت استعرضت الدار واشتريتها وما عدت طلعت الى الحجرة بعد ذلك الى يومي هذا وكان في اثناء خدمته في المارستان اكبر الاطباء سنًّا واعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً . وكان أحد الاساتذة الذين ألقوا الدروس على الراغبين في علم الطب بالمارستان ومن معاونيه مهذب الدين الدخوار والحكيم عمران الاسرائيلي وعاش مائة سنة وتوفي سنة ٦١٣ ه (١٢١٦م) (٣٩)

(٧) كمال الدين ابو منصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي . كان كثير الخير وافر المروءة

كريم النفس اشتغل في الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي وبقي سنين يتردد على المارستان يعالج المرضى فيه احتساباً . ثم ألزم بعد ذلك بان قرر له جامكية وجراية وبقي كذلك الى ان توفي سنة ٦١٢ ه (١٢١٥ م) [٤٠]

(٨) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودي . افضل اهل زمانه في العلوم الحكيمة وفي علم الطب سافر من الشام الى بلاد العجم واشتغل هناك بالحكمة على نجيب الدين اسعد الهمداني وقرأ صناعة الطب على رجل من اكابر العلماء واعيانهم في بلاد العجم كان قد اخذ الطب عن تلميذ لابن سهلان عن السيد الايلاقي محمد . وكان ذا همة عالية وفطرة سليمة وذكاء مفرط . له مجلس يدرّس فيه الطب . خدم الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن صلاح الدين واقام عنده بحلب وبعد وفاة غياث الدين اتى الى دمشق وخدم المارستان النوري الى ان توفي سنة ٦٢١ ه (١٢٢٤ م) وله من العمر احدى وخمسون سنة وله كتب كثيرة [٤١]

(٩) مهذب الدين احمد بن الحاجب . مولده بدمشق سافر الى الموصل وعاد الى دمشق واشتغل فيها بالطب فأتقنهُ واشتهر فيه واتقن العلوم الرياضية واعتنى بالادب . له تصانيف جليلة خدم صلاح الدين الايوبي والمارستان النوري الكبير . ثم توجه الى حماه حيث خدم الملك المنصور واقام عنده نحو سنتين وتوفي بالاستسقاء [٤٢]

(١٠) مهذب الدين ابو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار . ولد ونشأ بدمشق واشتهر هو وابوه بالكحالة . واشتغل فيها في بدء امره وخدم المارستان النوري ككحال . واجتهد في تحصيل العلوم ونسخ الكتب وقرأ الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي وموفق الدين المطران وفخر الدين المارديني . خدم الملك العادل ابا بكر بن ايوب بصناعة الطب . وتعين في خدمة العسكر في ايامه . ثم لما مات موفق الدين عبد العزيز عين رئيساً على الاطباء في المارستان الكبير وعين لهُ منهُ جامكية وجراية فخدم المارستان خير خدمة . وكان من معاصريه ممن خدموا في المارستان رشيد الدين الصوري وعمران الاسرائيلي وابن ابي اصيبعة ومهذب الدين ابن الحاجب والشيخ رضي الدين الرحبي

ولما توجه الملك العادل الى مصر اخذه معهُ وولاه رياسة اطباء الديار المصرية بأسرها واطباء الشام ولما استقر ملك الملك المعظم بالشام بعد موت ابيه استدعى مهذب الدين اليه ورسم لهُ ان يقيم فيها وان يخدم المارستان الكبير واطلق لهُ جامكية وجراية . فخدم المارستان خير خدمة . وأسس مدرسة لتعليم الطب في داره فاجتمع اليه خلق كثير من اعيان الاطباء وغيرهم يقرأون عليه الطب وهو يبحث معهم كل في درجة علمه . وكان اذا فرغ من ذلك يصرف بقية نهاره واكثر ليله في الحفظ والدرس والمطالعة . ووقف داره وجعلها مدرسة

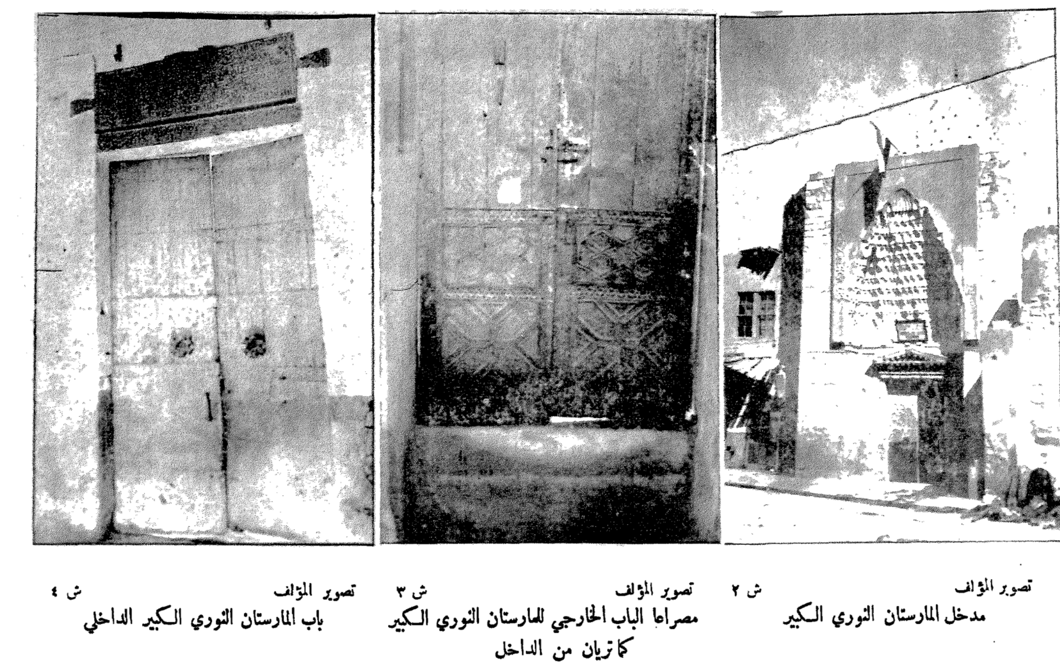
يدرس فيها من بعده صناعة الطب ووقف لها ضياعاً وعدة اماكن يستغل منها ما يصرف في مصالحها وفي جامكية المدارس وجامكية المشتغلين بها ووصى ان يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي وفي سنة ٦٢٨ حضر الحكيم سعد الدين ابراهيم ابن الحكيم موفق الدين عبد العزيز وجماعة من الفقهاء والحكماء وشرع الحكيم شرف الدين بن الرحبي في التدريس بها واستمر على ذلك سنين عدَّة . ولمهذب الدين كتب كثيرة في الطب واللغة وكان شاعراً رقيقاً (٤٣)

(١١) ابو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن ابراهيم بن شجاع السيباني الحانوي ويعرف بابن رقيقة . كان صديقاً حميماً لابن ابي اصيبعة فترجم هذا لهُ ترجمة فائضة . قال فيهِ ذو النفس الفاضلة ، والمروءة الكاملة ، تميز على سائر نظرائهِ واضرابهِ من الحكماء والمتطببين ، ذو الفطرة الفائقة ، والالفاظ الرائقة ، والنظم البليغ ، والشعر البديع . ولد بمدينة حيني سنة ٥٦٤ هـ ونشأ بها وكان طبيباً وكحالاً وجراحاً وتقلب في خدمة عدة ملوك وامراء وفي سنة ٦٣٢ وصل الى دمشق وكان بها الملك الاشراف فاكرمهُ واحترمهُ وامره بان يتردد الى الدور السلطانية بالقلعة وان يواظب على معالجة المرضى بالمارستان الكبير واطلق لهُ جامكية وجراية وبقي يشتغل فيهِ الى ان توفاه الله سنة ٦٣٥ هـ . (١٢٣٧م) ولهُ كتب كثيرة (٤٤)

(١٢) اوحد الدين عمران بن صدقة الاسرائيلي قد مرَّ ذكره. ولد بدمشق سنة ٥٦١ وكان ابوه طبيباً واشتغل على الشيخ رضي الدين الرحبي بصناعة الطب وصار من اكابر المتعينين من اهلها وحظي عند الملوك واعتمدوا عليهِ وقد عين في خدمتهم وحصل من الكتب الطبية وغيرها مالا يكاد يوجد عند غيره . خدم المارستان الكبير في ايام الدخوار وابن ابي اصيبعة وتوفي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) (٤٥)

(١٣) سعد الدين ابو اسحق ابراهيم ابن عبد العزيز بن عبد الجبار بن محمد السلمي . ابن عبد العزيز المار ذكره سابقاً (٥) . ولد بدمشق سنة ٥٨٣ وخدم صناعة الطب في المارستان الكبير ودخل في خدمة جملة من الملوك والامراء وتوفى سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) (٤٦)

(١٤) رشيد الدين علي ابو الحسن بن خليفة بن يونس بن ابي القاسم بن خليفة مولده بحلب سنة ٥٧٩ هـ وهو عم ابن ابي اصيبعة . درس الطب مع اخيهِ بمصر فلازما الشيخ جمال الدين بن ابي الحوافر ، وكان رئيساً للاطباء بمصر ، والشيخ ابا الحجاج يوسف . ثم عاد رشيد الدين ودرس على موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي . ثم انتقل مع والده الى دمشق ولهُ من العمر عشرون سنة فحضر مجلس الاستاذ رضي الدين الرحبي وباشر المرضى في المارستان الكبير في ايام الدخوار وموفق الدين المطران . وعلاوة على طبه كان لغويًّا اديباً فقيهاً يجيد العربية والفارسية والتركية والموسيقى وفي سنة ٦١٥ ولاه الملك العادل ابو بكر ايوب طب المارستانين بدمشق اللذين وقفهما الملك العادل فكان يتردد اليهما والى القلعة وقرر له جامكية



تصوير المؤلف ش ٢
مدخل المارستان النوري الكبير

تصوير المؤلف ش ٣
مصراعا الباب الخارجي للمارستان النوري الكبير
كما تريان من الداخل

تصوير المؤلف ش ٤
باب المارستان النوري الكبير الداخلي

وجراية وجعل له مجلس عام لتدريس صناعة الطب واجتمع بالسيد الامام العالم شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه وألبسهُ خرقة التصوف وذلك في سنة ٦١٥ . ولهُ كتب كثيرة في الطب والادب والحساب وغير ذلك من الفنون(٣١)

(١٥) شرف الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي . ابن رضي الدين الرحبي الذي مرَّ ذكره (٦) . ولد بدمشق سنة ٥٨٣ هـ وحذا حذو أبيهِ واقتفى ماكان يقتفيهِ وهو أشبه بهِ خلقاً وخلقاً . خدم مدَّة في المارستان الكبير وتولى التدريس في المدرسة الدخوارية وكانت وفاته سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨م) (٤٧)

(١٦) جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي . ابن رضي الدين (٦٠) واخو شرف الدين (١٥) . مولده ومنشده بدمشق خدم المارستان الكبير وكان يحب التجارة ويسافر بها في بعض الاوقات الى مصر وتوفي سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨م) (٤٨)

(١٧) بدر الدين بن قاضي بعلبك . نشأ بدمشق وقرأ الطب على الشيخ مهذب الدين الدخوار سافر الى الرقة وخدم في المارستان هناك ثم أتى الى دمشق واستخدمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود بن الملك العادل وكان حظيًّا عنده مكيناً في دولتهِ . ولاه الرياسة على جميع الاطباء والكحالين والجراحين وكتب لهُ منشوراً بذلك سنة ٦٣٧ هـ . فجدد في محاسن الطب ما درس واعاد من الفضائل مادثر وكان محبًّا لفعل الخير . مرَّ بنا انه وسع المارستان النوري ورأسه بموجب منشور من الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل سنة ٦٤٥ هـ وقد قرأ الكتب الفقهية والفنون الادبية وحفظ القرآن حفظاً لامزيد عليهِ ولهُ كتب كثيرة في الطب وسواه(٣٤)

(١٨) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم ابن ابي المحاسن الكلي . والده اندلسي أتى الى دمشق فنشأ شمس الدين بها وقرأ الطب على الدخوار . وحفظ كليات قانون ابن سينا حفظاً متقناً حتى لقب لاجل ذلك بالكلي . خدم الملك الاشرف والمارستان الكبير(٤٩)

(١٩) عز الدين ابو اسحق ابراهيم بن محمود بن السويدي . ولد بدمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) ونشأ بها . درس الطب على الدخوار وبرع بهِ وخدم المارستان النوري الكبير والمارستان الذي بباب الحديد . وتردد الى القلعة وكان يدرس في المدرسة الدخوارية وله جامكية من كل هذه الجهات . وكتب بخطهِ كتباً كثيرة وكان صديقاً لابن ابي اصيبعة (٣٢)

(٢٠) عماد الدين ابو عبد الله محمد بن القاضي الخطيب الدنيسري . ولد بمدينة دنيسر سنة ٦٠٥ هـ واشتغل فيها بالطب وأتى دمشق وخدم المارستان الكبير والاسرة الناصرية اليوسفية بالقلعة وكان شاعراً ولهُ كتب كثيرة (٥٠)

(٢١) ابن العبري (مختصر الدول) معجم سركيس (٤)

حيوانات مشهورة
وصحة اسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

أوردت في الجزء الماضي بعض الحيوانات المشهورة وصحة ترجمتها وها أنا أذكر الآن غيرها مما قد يرد على الكتّاب والمؤلفين وأذكرها اعتباطاً بلا رابط بينها أو رابط قليل ولا أريد بذلك الاّ خدمة العلم واللغة وأصحاب المعاجم الافرنجية واني أرجو منهم ان يقللوا من الحذلقة ما أمكن لئلاّ يضللوا القارىء واني ذاكر الالفاظ الانجليزية دون الالفاظ العلمية أو الفرنسية فهذه لا يعسر العثور عليها لمن أراد

ظبي أو غزال Gazelle

حيوان رشيق من ذوات الظلف مجوّف القرون وهو أنواع كثيرة ذكرت معظمها في معجم الحيوان ص ١١٢ منهُ نوع في جزيرة العرب ونوع آخر في الفيوم جنوباً يعرف كلاهما بالرئم في أيامنا ولم يذكر الظبي بهذا الاسم في التوراة الانجليزية بل باسم آخر على ان اسمهُ المشهور هو هذا وهو عربي. أما الظبي فقد ورد في التوراة العربية بهذا الاسم وترجمته صحيحة

إيّل جمعه أيايل وأيائل Deer or Hart. Male called stag female doe

والأيايل فصيلة من ذوات الظلف لذكورها قرون متشعبة ومصمتة أي لا تجويف فيها كما في قرون الظباء وهي تنسلخ عنها كل عام وينبت غيرها اما أناثها فجمّ اي لا قرون لها . وفي كثير من المعاجم خلط كبير بين الظبي والايّل فيسمون الواحد منهما باسم الآخر والصواب ما ذكر . والظباء على الغالب في البلاد الحارة والأيايل في البلاد الباردة

يحمور Roe, Roebuck, Roe deer

نوع من الايايل لكل من قرنيه ثلاث شعب قصير الذنب احمر اللون آزر أي ابيض العجز أغبر البطن مصفره ينصل قرنيه كالايّل

ولم تذكر المعاجم هذا الايل باسمهِ هذا ولا ذكرت صحة ترجمته وهو وارد في التوراة .

والظباء كثيرة في مصر وسورية وجزيرة العرب واليحمور كان في سورية الجنوبية اي فلسطين الى زمن قريب وهذه الحيوانات الثلاثة مذكورة في التوراة والايل كثير في اناطولية واوربة. واليحمور لا يزال معروفاً في اوربة ولا سيما في حدائقها العامة

جاموس (فارسية معربة) Buffalo

جاموس هندي او اهلي واصله من الهند Buffalo, Indian or Water buffalo

جاموس افريقي Buffalo, African

وهو من جنس آخر خلاف الهندي ومن اشد الحيوانات خطراً على الانسان

جَيهل (هندية معربة وتعريب بوست) Gayal

جُور (هندية معربة وتعريب بوست) Gaur

بَيْسون (تعريب احمد فارس) Bison

بقر دربانية والواحدة بقرة Zebu

قوتاش وقطاس. خُشقاء. كلمة تركي معرب وهو الذي كان الترك يعلقونهُ في اعلامهم Yak

فيقال للواحد منهم باشا ذو ذنب واحد وباشا ذو ذنبين وباشا ذو ثلاثة اذناب وقد بطلت هذه الاذناب الآن والا كانت جميع البقر لا تكفي واذكر اني قرأت في الانجليزية قصة اسمها الباشا ذو الاذناب العديدة وفي الانجليزية جناس في الاذناب فاذا هي ذو القصص العديدة

بيسون اوربي Aurochs or Wisent

بقر جاوة او ثور جاوة وان شئت الحذلقة فقل الزابج Banteng

نلجاي او بقر ازرق والواحدة بقرة Nilgai

بقرة وثور والبقرة تطلق على الذكر والانثى Cow and Ox

بقرة المسك Musk ox

هذه الحيوانات جميعاً من جنسي البقر وهي تتلو الظباء ولا يخفى ان البقر مجوفة القرون كالظباء لا كالايائل وليس في المعاجم كلها من هذه الحيوانات مع صحة ترجمتها الا الجاموس

فُقْمة وفُقَّمة Seal

حيوان من لواحم البحر شبيه بالسمك في الظاهر لكنهُ حيوان لبون ومن ذوات الرئتين والكلمة تعريب فوقي اليونانية وهي شائعة في بيروت فهل تعريب العامة هذا خيرٌ من تعريب الخاصة فالعامة قالوا فقمة والخاصة قالوا فوقي لكنهم صحفوها وكتبوها قوقي في بعض مؤلفاتهم منها مفردات ابن البيطار وغيرها واستعملوها لحيوان آخر كما صحفوا الدنانير القوقية وصوابها الفوقية من ضرب فوقا ملك الروم قبل هرقل . وأرى ان تعريب العامة افضل من تعريب الخاصة.

ومن اسماء هذا الحيوان شيخ البحر والشيخ اليهودي وابو مرينة وليس من هذا الجنس غيره في البحر المتوسط ولا بأس باطلاقهِ على جميع الانواع التي ذكرتها في ص ٢٢٢ من معجم الحيوان مع ان الفقمة هذه ليست الا في البحر المتوسط وليس فيهِ غيرها . قلت ولم يذكر اصحاب المعاجم هذا الحيوان على صحته

اطوم . مَلِصة . زالحة . حَنـفاء Dugong or Halicore

حيوان لبون من بنات الماء او الخَيلان يقال له في ساحل سواكن ناقة البحر وفي الطور اللطوم اي الاطوم وكاد ينقرض اوردته في ص ٨٨ وص ١١٢ من معجم الحيوان . وكلمة أطوم فصيحة أوردها كعب بن زهير في « بانت سعاد » ولم ارَ معجماً كتب اسم هذا الحيوان على صحته ولا سيما في مادة Dugong واظن الاطوم افصحها لذلك قدمتها على الكلمات الاخرى

أما قولي الخيلان فعن الاب انستاس واظنه أخذها عن محيط البستاني وهذا أخذها على ما أظن عن فريتاغ ولم أعثر عليها الا في محيط المحيط فليدافع الاب انستاس عن هذه الكلمة وقد سمعتها منهُ في بغداد . اما بنات الماء فحقها ان تكون بنات البحر لانها ترجمة اسمها الثاني لكن بنات الماء في كتاب قديم ذكره شارح كتاب عجائب الهند . وأظن الذي اراده البستاني في قوله سرنس انها كلمة يونانية معروفة هي اسم امرأة جميلة سميت بها فصيلة هذا الحيوان ولعلها شيرين الحسناء الفارسية وكانت يونانية الاصل في ما أظن

ظَرِبان Ratel

حيوان من اللواحم اي آكلات اللحوم اصغر من السنور اصلم الاذنين مجتمع الرأس طويل الخطم قصير القوائم اسود الظهر ابيض البطن رائحتهُ كريهة جداً . اما احد انواعهِ في السودان فيسمى ابو دجاجة ولصلوص ذكرها فون هوغلن وابو كيم ذكره روبل وهو لا يعول عليهِ في اسماء الحيوان بالعربية وسمعت في حديقة الحيوان ابو كعب

هذا تقريباً وصف ابن سيده . ووصف غيره من اللغويين فراجع ما كتبوه

وكنت قد سميت هذا الحيوان الرتل وآكل العسل في معجم الحيوان ص ١٦٠ فالراتل اعجمية وآكل العسل ترجمة اسمهُ النوعي وابقيت الاسمين الاخيرين الى ان يهتدي احد الناس الى اسمه الحقيقي ولم أدرِ يومئذٍ اني سأهتدي اليهِ وهو الظربان المشهور عند العرب وقد اهتديت اليهِ من قول الميجر تشيزمان كما ذكرت في ص ١٣٣ وارى الآن ان الميجر مصيب في ما قالهُ ومن شاء مناقشتي في ذلك فاني اناقشهُ على شرط ان يرفع الحذلقة

ظَرِبان افريقي منهُ نوع اسمهُ ابو عَفَن وابو المنتن Zoril

ظَربان اميركي Skunk

بقي عليَّ ان اقول ان المعاجم لم تذكر هذه الحيوانات الاربعة فاتذكرها الآن ولكن بلا حذلقة فالظربان قد اتعبني كثيراً وان الميجر تشيزمان سماه باسم السر ارنولد ولسن عدو

العرب وخصم كل امة تطلب استقلالها فاسم هذا الحيوان ظربان ولسن Mellivora wilsoni فهل هذه مصادفة

الحمير وهي كثيرة وقد ذكرتها في الصفحة ٩٨ والصفحة ٢٧٠

حِمار . عَير . اخطب Domestic ass

يسمى الاهلي عَيراً والاخطب لان لهُ جُدَّة على ظهره ويظن انهُ كان قبلاً في جزيرة العرب ثم انقرض . اما الآن فليس من الحُمُر هناك الاَّ الفراء الآتي ذكره

فَراء Syrian wild ass

وهو الفراء المذكور في التوراة والفراء عند العرب وليس للفراء جُدَّة على ظهره

فراء التبت . قولان بالتركية سميتهُ بالفراء لانهُ لا جدة لهُ Kiang

اخدر واخدري Onager

وهو حمار وحشي سريع جداً اما سبب ذكر هذه الحمير بهذه الاسماء دون غيرها فلاسباب يطول شرحها

عتّابي . حمار عتابي Zebra

سمي بذلك لهذه الخطوط السود التي فيهِ وقد بينت ذلك في ص ٢٧٠ وهو الذي يسمى عادةً بحمار الزرد وكلمة عتابي عربية الاصل

قط عتّابي Tabby

اي فيهِ خطوط او توشيم وهذه عربية ومنهُ اسمه بالانجليزية وليس لهذه الحيوانات ذكر في المعاجم الاخرى وان ذكرت فذكرها غلط او تافس في الحذلقة

زَباب والواحدة زبابة Shrew

حيوان من آكلات الحشرات شبيه بالفار في الظاهر ولكنهُ ليس من الفار ولا من رتبته بل يختلف عنهُ في الفصيلة والرتبة

ذكرت الزباب في ص ٧٥ و٢٢٧ من معجم الحيوان ولم يذكرها احد من اصحاب المعاجم على الاطلاق لانها جديدة . وقد سرني ان مجلة مجمع اللغة الملكي اوردتهُ في الجزء الثاني من المجلة ص ١٢٦ لكنها نسبته الى القاموس وصاحب القاموس لم يفعل شيئاً من هذا وكان حقها ان تنسبها لهذا الذي سهر الليالي في تأليف معجمه لا الى القاموس ولا ادري ما يقول المجمع في ذلك

حيّات والواحدة حية للذكر والانثى Serpents or Snakes

وفي سورة طه «فاذا هي حية تسعى» اي ان الحية بهذا المعنى افصح الكلام ولا أدري سبب غرام جرائد بيروت بالافعى ويريدون بها كل حية ضخمة طويلة فيقولون قتلت في القرية الفلانية أفعى طولها يزيد عن خمسة امتار او نحوذلك فالافعى لا تكون خمسة امتار او ما يقرب من هذا

ولكن العامة تقول الحية كما جاء في القرآن الكريم فلماذا لا تقول الجرائد حية . وفي مصر تقول العامة وبعض الادباء كلمة ثعبان كأنها مرادف للحية فغرام أهل مصر بالثعبان كغرام أهل بيروت بالافعى ولا أريد ان يكون جميع أدباء بيروت ومصر من علماء الحيوان بل أريد ان يكونوا كالعامة في استعمال هذه الحيات وبالامس أصلحت كتاباً في الحيات فبقي المؤلف يقول الثعبان بمعنى الحية كلما تغافلت عنه ولم اقدر ان احوله عن ذلك . كذلك في مجمع اللغة الملكي فانهم قالوا في سنة ١٩٣٤ الثعبان وهم يريدون الحية فأصلحت ذلك. اما في هذه السنة فقالوا الحية والحمد لله. فعسى ان جرائد بيروت تقول الحية وتترك الافعى وادباء مصر تقول الحية وتعدل عن الثعبان وسأذكر فيما يلي اسماء بعض الحيات بالانجليزية وما يقابلها بالعربية

افعى Viper or Adder

وقد وردت كثيراً في التوراة وهي حية قصيرة دقيقة العنق عريضة الرأس مفلطحته خبيثة جداً تقتل لساعتها وتعرف بالافعى في كتب اللغة وفي السودان وجزيرة العرب والعراق

حَنَش او حنش اسود Lacertine snake

حية طويلة سوداء سمها قليل ولكنني احذر القارئ من الصل الآتي ذكره فهو حية طويلة سوداء ومن اخبث الحيات

صِل حية خبيثة جداً ربما اشد سماً من الافعى Asp or Cobra

والصل وارد في التوراة بهذا الاسم بالعربية والانجليزية ويظن انه الناشر المصرية ولا بأس بتسمية الناشر الهندية بهذا الاسم ايضاً (انظر معجم الحيوان ص ٢١ و٦٩ فقد ذكرت فيهما الصل والحية الناشر على انواعها) اما سبب تسمية الجاحظ هذه الحية بالافعى الهندية فلانها خبيثة سامة

ثُعبان Culuber, Couleuvre

وفصيلة الثعابين حيات عظيمة سمها قليل وبعضها من أخبث الحيات

وقبل ان اترك البحث في الحيات احذر القارىء من التعرض لها مهما ظن ان سمها قليل لئلا يصيبهُ ما اصاب حاوي عاليه بلبنان منذ خمسين سنة فانهُ حاول القبض على حية سوداء ظنها حنشاً اسود فاذا هو يقبض على اسود آخر هو الذي قال عنه رؤبة

كنت كمن ادخل في جحر يدا   فأخطأ الافعى ولاقى الاسودا

وهنا اخطأ الجاحظ على علو كعبه في العلم والادب واصاب رؤبة كما ذكرت في معجم الحيوان ص ٧٠ ولعل حاوي عاليه قبض على ناشر مصرية او على احد انواعها المعروف بالبرجيل وهو اشد الحيات سماً على ما يقول حواة مصر وهم اخبر الناس بالحيات وسمها. والبرجيل معروف في مصر والشام والعراق وكنت اهرب منه عشرة امتار او اكثر ولو كان الحاوي قابضاً عليه وان لم تصدق فجرب اي جربني انا عندما أهرب من البرجيل اوجرب القبض عليه. اما انا فلا افعل

اوجين اونيل

Eugene Gladstone O'Neill

أوجين أونيل الكاتب الاميركي الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٣٦ من نوابغ رجال الفن والادب المسرحي في أميركا . وهو طويل القامة قوي البنية ذو وجه كالح يدل على الشراسة والعناد . اشتهر بمؤلفاته الدالة على قوّة فنية رائعة وذوق أدبي ممتاز ، ولكنهُ لا يزال تحت تأثير فهم غير تامّ لبعض نواحي الحياة وقساوة في تآليفه المسرحية يخضع لها من وقت لآخر ، ولعلّ لذلك أسباباً تعود الى المغامرات الكثيرة والحياة الجامحة التي عاشها متنقلاً بين بلدٍ وآخر . ولما كان أونيل يفضل حياة الحشمة والتواضع منزوياً متكتماً في شؤونه الخاصة وكانت حياته الأولى حافلة بالمغامرات والأهواء المضطربة فقدكانت شخصيته الغريبة الاطوار باعثاً على تواتر قصص وشوائع مختلفة جعلت اسمه شبه اسطورة في الادب الأميركي

***

كانت الدراما والآداب المسرحية في أميركا — قبل الثورة والاستقلال — ذات ميول واتجاهات استعمارية وصبغة ثورية متأثرة بالثقافة الانكليزية البحتة تتخللها مؤثرات تشف عن الروح التوتونية ، وكانت المؤلفات المسرحية والقصص التمثيلية تقليدية أكثر منها أصيلة

على أن أول من بدأ بتأليف القصص المسرحية في أميركا William Dunlap وهو المعدود أبا الدراما في الولايات المتحدة و Rayall Taylor مؤلف القصة الهزلية The Contrast التي مثلت عام ١٧٨٧ وهي أول قصة مسرحية أظهرت للعالم الشخصية الاميركية باسم Yankee . أما (دنلاب) فقد ألف واقتبس أكثر من ستين قصة مسرحية أهمها André وقدظهرت عام ١٧٩٨ . وهذان المؤلفان (دنلاب وتايلر) هما اللذان سارا بالقصة المسرحية في أميركا سيراً حثيثاً في سبيل التقدّم والارتقاء، حتى بدأت تتحرر تدريجيّاً من المؤثرات الاوربية.وما كاد يبزغ القرن

التاسع عشر حتى كانت الدراما قد افلتت من معظم القيود الاجنبية واصبحت تعتمد على نفسها وجاء William Gilette بمسرحيته (Held by the Enemy) و (Secret Service) فوضع أسس القصة المسرحية في الولايات المتحدة ، وجاء بعده غيره من الكتاب المسرحيين فألفوا القصص التمثيلية خالية من المؤثرات الاجنبية وظهرت القصة التمثيلية مستقلة الاستقلال كلهُ عن المسرحيات الاوروبية مبنىً ومعنىً . وكان هؤلاء المؤلفون الافذاذ الجذوع التي قامت عليها المسرحيات في اميركا ثم أينعت غصونها فاورقت الدراما في العالم الجديد ثم أثمرت بتأليف اونيل — اعظم كاتب مسرحي في اميركا — في الوقت الحاضر

وكما ان الادب الاميركي امتاز في عصرنا الحاضر بتأثيره في المذاهب الطبيعية والنفسية والفلسفية وبتحرره من القيود التي كانت تعرقل سيره فكذلك تأثر الادب المسرحي والدراما بمظاهر الحياة الاميركية الحرة وبالبواعث والمؤثرات نفسها بعد ان امتزجت بالميول والاهواء الخيالية فأبعدتها عن الحقيقة ولكنها القت عليها مسحة من الروعة والبهاء كما يتجلى لنا ذلك في مؤلفات اونيل ذات القوة الجذابة الرائعة

***

ولد اوجين اونيل في مدينة نيويورك في ١٦ اكتوبر ١٨٨٨ من اصل ارلندي وكان ابوه جيمس اونيل ممثلاً شهيراً اشترك في تمثيل دور في رواية « مونت كريستو » فربح في فصل واحد خمسين الف دولار . وقد درس اونيل في عدة مدارس داخلية معظمها كاثوليكي ثم دخل مؤسسة Betts وكان ينتقل من مدرسة الى اخرى الى ان دخل جامعة برنستون وظل فيها سنة واحدة ولكنهُ لم ينجح في الامتحان فغادر المدرسة لخوض معارك الحياة العاصفة . وقد تزوج في سنة ١٩٠٩ ولكنهُ عدّ زواجهُ هذا « خطأً فادحاً » . ثم اشتغل في نيويورك وعمل اعمالاً مختلفة فقضى سنتين بحاراً وسافر الى اميركا الوسطى للبحث عن الذهب ولكنهُ عاد بعد ستة اشهر وقد أصيب بالملاريا . ثم عاون والده في الشركة التي يعمل بها ولم يطل به الامر اكثر من ثلاثة اشهر حتى انسحب من العمل . وكان يطالع في اثناء ذلك مؤلفات جوزيف كونراد وردْيرد كبلنغ وجاك لوندن . وقد ظهر اثر هؤلاء الكتاب في تآليفهِ الاولى . ثم عزم اونيل على ركوب البحر ومجابهة المخاطر والاهوال فسافر

في مركب نرويجي رحل بهِ الى (بونس ايرس) بعد ان قضى في البحر ٦٥ يوماً . وقد احترف حرفاً شتى كانت لهُ خير معين في تأليف مسرحياتهِ فيما بعد وساعدتهُ على تفهم نواحي الحياة المختلفة وزوّدتهُ بمادة لا تنضب لقصصهِ وتآليفهِ . ثم عاد الى نيويورك وقد تطورت شخصيتهُ وطباعهُ فاذا بهِ ثائر على المجتمع يحاربهُ بما اوتي من قوة وعزم . ولما عاد من رحلته الاخيرة الى سوثمبتون (في انكلترا) كان قد ربح من المقامرة ارباحاً طائلة ولكنه فطن الى امره وفكر في سوء العاقبة فركب القطار الى (نيو اورلينز) وهنا وجد نفسه فقيراً معدماً لا يملك شيئاً ، بيد انهُ رأى اباه يمثل دوراً في رواية (مونت كريستو) فطلب منهُ اجرة قطار ليعود الى نيويورك ولكن أباهُ ارادهُ على تمثيل دور في الرواية ذاتها فقام بما عهد اليهِ خير قيام ، وكان هذا بدء دخوله المسرح وباكورة اعماله الفنية التي خلدت اسمهُ كاعظم كاتب مسرحي معاصر في اميركا . وظل يمثل خلال هذه المدة أدواراً مختلفة مجيباً انتقادات أبيهِ بقوله « انهُ من العجيب أن يتمكن من القيام بتمثيل دور ما في رواية مشهورة هي «مونت كريستو» . ثم اشتغل بعد ذلك مخبراً صحفياً مدة ستة اشهر وقد أعجب بهِ رئيسه « لتواضعه وأدبه ولطفه وعينيه الجذابتين وأسلوبه الادبي ! ... » وكان لرئيسه هذا فضل عظيم عليهِ في تشجيعه على الكتابة والتأليف .

***

لم يبدأ اونيل بالكتابة الاَّ بعد ان ساءت صحته واقعده المرض فظل مدة في المصح يشكو داء السل الوبيل وذلك سنة ١٩١٢ هناك تمثل اونيل ما بلاه في الحياة من ضروب المعاناة والتجريب . ويحدثنا انهُ في اثناء اقامته في المصح المذكور عرف هناك لاول مرة قيمة الحياة ووجد الفرصة سانحة امامه لوضع اسس ثابتة لحياته المستقبلة ولاسيما ان حياته كانت تزخر بالتجارب والاعمال وتتراكم في مخيلته بعضها فوق بعض دون اشباع ولا انبعاث . وهنا فكر بماضيه وحاضره وشعر بدافع قوي يحفزه الى كتابة القصص المسرحية وهو ذو الخبرة بالمسرح وحياة التمثيل والفن

دخل المصح وهو شاب عنيد شرس الاخلاق غريب الاطوار مقلقل الافكار لا غاية لهُ في الحياة الاَّ كما تعيش الملايين الكثيرة من الناس حياة كلها تعب وشقاء ..

وآخرها عدم وفناء . ولكنهُ خرج من المصح وهو شخص آخر — رجل ماضي العزيمة لهُ هدف في الحياة يسعى اليهِ . ومنذ ذلك الحين وهو يحيا حياة ملؤها النظام والعمل المجدي النافع . فأكبَّ على تأليف القصص المسرحية وأخرج خلال سنة واربعة اشهر احدى عشرة قطعة تمثيلية ذات فصل واحد وقطعتين طويلتين . وهو يعمل بجهد متواصل في تأليف القصص التمثيلية والروايات المسرحية . وكانت مسرحيته الظمأ (١٩١٤) ذات الفصل الواحد، النبراس الذي أضاء سبيله في عالم الادب والفن

***

كانت الحرب الكبرى الضربة القاضية على المسرح والقصص التمثيلية. فلما استعرت نارها في شهر اغسطس ١٩١٤ انزل الستار على المسرح وساد ظلام الوحشية على معالم الثقافة والفن . والحضارة لا تورق الاَّ في ظلال السلم والظمأ نينة ولا تزدهر الاَّ حيث تمرح العقول والافكار في رياض الحرية وبين خمائل العلم والفن

ولكن الدراما نشطت في نيويورك بعد ذلك السبات العميق واخذت تستعيد ما فقدت من قوة وأثر . ويعود سبب ذلك الى اهتمام سكان تلك المدينة العظيمة بالمسرحيات والتمثيل، بل تعد مدينة نيويورك الآن في الدرجة الاولى بين المدن التي يرتادها هواة الملاهي والمسارح لمشاهدة أروع القصص التمثيلية والقطع الفنية الراقية

وقد ظهر عقب انتهاء الحرب في المانيا مذهب جديد في الفن والتأليف المسرحية. نشأ هذا المذهب الفني من الخور واليأس اللذين استوليا على الشعب الالماني بعد اضمحلال الامبراطورية الالمانية وتهدم الآمال الجرمانية في السيطرة والتوسع : فكاد يُقضَى آنئذ على آمال الشعب وأمانيه وشعر المفكرون وارباب الفن بهذه الكارثة الطارئة، وهم يرون اكثر المؤلفات المسرحية تطغى عليها روح التشاؤم منبعثة مما يختلج في نفوس المؤلفين والكتَّاب من شعور واحساسات دفينة. تظهر مايكنهُ المؤلف وابطال قصصه من آلام نفسية مبرحة وتأثرات عميقة متأججة — فنشأ من ذلك المذهب التعبيري Expressionism يصف نفسية الشعب المتألمة المرهقة بعار الذل والانكسار !

وكان لمسرحيات الكاتب القصصي الالماني Frank Wedekink (١٨٦٤—

١٩١٨) أثر عظيم في تطور المذهب الواقعي في الادب الالماني ، وقد مهدت تآليفه السبل وهيأت الافكار للدرامات الحديثة وكانت هي طليعة « المذهب التعبيري » الذي كان اهم الداعين لهُ والقائمين بهِ Georg Kaiser (المولود في سنة ١٨٧٨) ، و Ernest Toller (المولود في سنة ١٨٩٤) ، على ان هذا المذهب الفني الذي تأثر بهِ « اونيل » غير ثابت الاوضاع ، فهو متقلقل في سيره ، وقد أصبح الآن ضئيل النفوذ خفيف الاثر ، ولا سيما ان كثيراً من مؤلفي المسرحيات (في المانيا) يفضلون العودة الى المذهب الواقعي . يقول المؤلف والنقادة المسرحي الانكليزي « سنت جون ارفن » : « ان الملهى (تياتر) سيبقى في حالة ضعف وانحطاط الى ان تستعيد الانسانية نشاطها وقوتها ، لان الدراما اكثر الفنون تعلقاً وصلةً بالمجتمع وسعادته ».

***

نعود الآن الى اونيل بعد هذا الاستطراد الوجيز عن المذهب التعبيري . فقد قضى سنة في جامعة (هارفرد) ١٩١٤ — ١٩١٥ يدرس الفن والتمثيل . ثم امضى صيف عام ١٩١٦ في مدينة (برنستون) وكان هنا على اتصال وثيق بالممثلين الشباب الذين قام اكثرهم فيما بعد بتمثيل قصصه القصيرة . وكان يطالع كثيراً من المؤلفات المسرحية ولا سيما كتب (ابسن) و (سترندبرغ) و (ودكند) و (نيتشه) . وكان لهؤلاء اثر ظاهر في مؤلفاته الاخيرة . وفي خلال ذلك ذاع صيته وانتشر اسمه على افواه الناس وفي الصحف والمجلات ، فاذا به اشهر مؤلف مسرحي في اميركا ، وفاز ثلاث مرات بجائزة (Pulitzer) . وصدر لهُ في عام ١٩١٨ (In the Zone)

ثم تزوج للمرة الثانية (١٩١٩) فكان سعيداً بزواجهِ هذا اكثر منهُ بزواجه الاول ، حتى اعتبره مواطنوه راجعاً الى حظيرة الانسانية ، ووصفوه بانهُ « مواطن انساني تقريباً » !

وفي سنة ١٩١٩ اخرج مؤلَّفه The Moon of the Caribbees وست مسرحيات عن البحر و ١٩٢٠ « الذهب » و « ما وراء الافق » Beyond the Horizon ومنذ صدر كتابه هذا (ما وراء الافق) وهو يتمتع بلقب اعظم مؤلفي الدراما في اميركا ، بيد انهُ لم يفز بالشهرة العالمية الاَّ بقصته « الامبراطور جونز » ١٩٢١ The Emperor Jones ثم بقصتهِ Anna Christie سنة ١٩٢٢

ولا شك ان سبب نجاحه الفني هو ثباته واخلاصه للغاية التي يعمل من اجلها ورغبته الصادقة في وصف الحياة وصفاً مطابقاً للواقع ، ولكن مما يؤخذ عليه تسرعه في الكتابة وقلة عنايته بموضوع مؤلفاته . وقد كان لحياته الأولى درس مفيد علمه ان ينظر الى طبائع الانسانية الخفية ونفسيتها المستترة والعوامل التي تطرأ على الحياة فتغير مجراها . وهو يصف الحياة كما تتراءى له معتمداً على ما يسيرها من العوامل والقوى النفسية الكامنة في اعماق الانسان. ثم ظهرت له قصص اخرى ذات صبغة صوفية رمزية ، منها : The Hairy Ape اي « الفرد الاشعر » ١٩٢٢ ويدَّعي اصحاب المذهب التعبيري ان هذه القصة تمثل مذهبهم الفني وتعبر عن آرائهم ، ولكن ادعاءهم هذا لا يرتكز على اساس ثابت

وفي سنة ١٩٢٤ صدرت له مجموعة في جزئين تتضمن Desire Under the Elms و Welded, All God's Chillun Wings وفي سنة ١٩٢٥ (ينبوع الحياة) The Fountain وفي سنة ١٩٢٦ The Great God Brown وهذه اكثر مسرحياته تأثراً بالنزعة الصوفية . وله غير ذلك Lazarus Laughed, Marco's millions ١٩٢٧ و Strange Interlude ١٩٢٨ ، وربما كانت هذه القصة اشهر مسرحياته . وفي سنة ١٩٣١ ظهرت له القصة المثلثة Mourning becomes Electra (trilogy)

ان الابداع الفني والصور الغريبة التي اكثر منها اونيل في تآليفه قد وضعت حداً للجاذبية الفنية في مسرحياته التي كان لها الاثر البين في تطور الدراما ولا سيما في اميركا . كما ان بعض مسرحياته مثل « الظمأ » و « القمر في بحر الكاريب » هي صور حقيقية لرحلاته البحرية وحياته الحافلة بالمغامرات

ويعمل « اونيل » الآن ، بعد ان فاز بجائزة نوبل ، على وضع قصة مسرحية عن حياة (نوبل) صاحب الجوائز العالمية المشهورة ، وستعرض فصولها على لوحة السينما ، وربما اختص اونيل نفسه بتمثيل دور نوبل

وما هذه القصص التمثيلية والقطع الفنية الرائعة ، إلاّ قلائد ثمينة في جيد الادب الاميركي وصفحات حية خالدة من حياة اونيل ذات الصور البراقة المتنوعة والمغامرات الجريئة التي تجعله في مصاف اعلام الادب المسرحي في العصور الادبية الزاهرة

حلب فؤاد عينتابي

[المقتطف] تفضل كاتب هذا المقال فوعد بتلخيص احدى مسرحيات اونيل لعدد تالٍ .

منعطفات الجدول

السيدة آمي خير شاعرة، رقيقة العواطف، دقيقة الشعور، ترسم بقلمها مشاعر النفس، وخوالج الفؤاد، فتعبر شعراً، عمّا تكنّهُ جوانحها، وتستلهمهُ روحها الفيّاضة. وقد اصدرت اخيراً ديوان شعر باللغة الفرنسية سمتهُ (Méandros) اي «مُنْعَرجات النهر» او «منعطفات الجدول» اودعتهُ ما فاضت بهِ عواطفها، فرأينا ان ننقل منهُ قطعتين رائعتين من متين قصائدها، ليتذوق ابناء اللغة العربية، آيات قلمها وشاعريتها. وقد صدّر الديوان بالقصيدة التالية وهي من نظم خليل مطران

الحسن كل الحسن في الطبيعه　　انظر الى آيتها البديعـــه
ماذا تقول الزهرة الوديعه ؟

«آماليَ العذبةُ والآلامُ　　ويقظاتُ العيش والاحلامُ»
«من كلّ ما تداول الايامُ»

«أبثّها بنَفَحاتِ طيبي　　الى البعيد والى القريبِ»
«خالصةً من ريبة المريبِ»

«وامنحُ الابصار من رُوائي　　ما فيهِ قرَّةٌ لعين الرّائي»
«بلا مداجاةٍ ولا رياءِ»

«صُنْتَ جمالي وبذلتُ عطري　　وذاك للهِ الكريم شكري»
«فإن يكن شِعْرٌ فهذا شعري»

إلهي

وهاك قصيدتها التي استهلّت بها ديوانها تحت عنوان : «إلهي»

إني لأشكرك ايها الفاطر، انا الامرأة، لكونك حبوتني، بمنحة جليلة القدر، وهي النفسُ، الجديرة بان تؤمن بك، والقلبُ القادرُ على محبتك

من بين الهيئات الالف، التي صوّرتها لي طفولتي عنك، ليس ثمة واحدةٌ، توازي ما في ذلك الانخطاف، فائق الدهشة، الذي يتلاشى فيهِ ذاتي، من النشوة العمياء

إني لأعبدك، ايها الخالق، الذي أجدهُ، حتى في جمال، اقلّ الاوراق، وابحث عنك خلال الكون المختلج الخفّاق

تحت جنح الظلام

أيها الحبيب ، تعالَ تحت ضياء النجوم ، الى رَوْضةِ الحبّ ، فالسكوتُ الآن ، يَعْتزِلها بأستاره ، التي يزيدُها الليلُ كثافةً

فهنا الخَضيلةُ ، حيثُ يَسُود ، الزنبقُ والقَرنفُلُ والليلكُ ، الباعثُ على الاضطرابِ ، وهناك المَرجُ ، حيث الحَوْض محفورٌ ، في المرمر الثمين

نذهبُ بالقرب من المقعدِ الخشبي العتيق ، ذلك المقعد ، الذي يكاد يكونُ أثريًّا ، والذي تحيطُ بهِ الادغالُ ، لنَجدَ ، ونحن نسيرُ بتمهُّلٍ ، الياسمينَ العاطفي ، وزهرتَه المرتعشة

فتقطف لي ، الجلاجلَ الشاحبةَ الواهيةَ ، التي تحرّكها أقلُّ نسمةٍ ، والتي يتضوَّع منها ، أريجٌ مُبهمٌ مُغرٍ ، يُسكرُ رويداً رويداً ...

وعند الفجرِ ، اصنعُ منها عقوداً واكاليلَ ودمالجَ نَضرَةً ، فأتحلّى بها ، من دون ان يرتابَ احدٌ ، لماذا أعجبُ بها

فاقطفها دون تأسفٍ ، اذ عمَّا قليلٍ ، وغداً دون شكٍّ ، تهبُّ نسمةُ هواءٍ ، فتلقي ارضاً هذه الزهور ، التي تحسنُ الموتَ كلُّها ، من دون ان تنتثر اوراقها.

ومثلها ، واأسفاه ! الانخطافُ والنشوةُ ، اذ كلُّ شيءٍ يدركهُ الموتُ ، فحين ينطفئان ، أودُّ ان يكون ذلك ، مثل الياسمينة ، التي تسقطُ دفعةً واحدةً ، دون ان تنتثر

ايها الحبيب ، فلنبْقَ ، لان ثمة ضياءَ النجومِ ، في روضةِ الحبّ ، فالسكوتُ الآن يعزلها بأستاره ، التي يزيدُها الليلُ كثافةً

[نقلها جورجي نيقولاوس]

حبوط العقوبات

ان حبوط العقوبات التي فرضتها جامعة الامم على ايطاليا تثير في الناحية الواحدة مشكلة جامعة الامم نفسها من حيث قواعد تأليفها وحقيقة عملها . وفي الناحية الاخرى مسألة خطيرة تدور حول تأثير الضغط الاقتصادي في التغلّب على القوة العسكرية واركان الخطة التي تفضي الى نجاحه

للقوة ثلاث نواحٍ اساسية ، احداها روحية كانت في الماضي في ايدي الرؤساء الروحيين وتحوّلت في العصر الحديث مذ ضعفت العقائد وفصل في معظم البلدان بين الدين والدولة الى التربية و الدعاية المنظمة . وثانيتها اقتصادية استفحل مقامها في العصور الاخيرة بارتقاء الحضارة الصناعية . فالجيوش تمشي على بطونها والمال والبترول عصب الحرب وقوته المحرّكة . والتاريخ ينبئنا ان الدول البحرية كانت دائماً تصحب عملها الحربي بالضغط الاقتصادي . الاّ ان الضغط الاقتصادي كان حتى السنة الاخيرة ، فرعاً من الضغط العسكري . فلولا ابو قير والطرف الاغر لما تمكنت انكلترا من اغراض الحصر البحري الذي ضربته على نبوليون

إلاّ ان ارتقاء الحضارة الاقتصادية ،أفضى الى توسيع نطاق الضغط الاقتصادي وإلى توجيه نقد عنيف إلى إستعماله . فالحرب كانت في نظر الاقتصاديين الاحرار في انكلترا العدو الاكبر للنظام الصناعي . ولذلك كانوا يرون أنهُ يجب أن تحصر في دائرة المحترفين وان لا تتعدّاها الى التجارة. وكانوا يذهبون كذلك الى وجوب الغاء الحصر البحري وما يتبعهُ من حق الزيارة والتفتيش وحصر المواد الحربية الممنوعة ضمن حدود ضيقة. فالشرّ كلّ الشرّ — عندهم — أن تعاقب عمال في منطقة لانكشير بضرب نطاق على بلدان تصدّر اليها القطن او تستورد منها المنسوجات

فلما كانت الحرب الكبرى سار الضغط الاقتصادي جنباً الى جنب مع العمل الحربي ، ولم يغن الاول عن الثاني . ولكن كلّ هذا لم يصرف الناس عن التفكير في استعمال الضغط الاقتصادي بدلاً من الاعمال الحربية ، بل لمنع الاعمال الحربية. وحجّتهم في ذلك ان الشلل الذي يصيب النظام الصناعي والاقتصادي في امة ما عندما يقع فيها اضراب عام ، دليل على قوة السلاح الاقتصادي . واذن فاذا هدّدت دولة تنوي الاعتداء بتطبيق مقاطعة اقتصادية عامة لها ، كان ذلك التهديد والنية على تنفيذه كافيين لثنيها عن عزمها

ان الفقرة الاولى من المادة السادسة عشرة في عهد جامعة الامم تفصّل ما يتحتم على اعضاء الجامعة من تطبيقه حالاً على الدولة المعتدية كقطع جميع العلاقات التجارية والمالية فتطبيق هذه المادة على ايطاليا كان تجربة توافرت لها ظروف النجاح . فايطاليا من الناحية الاقتصادية ليست من مقام الولايات المتحدة الاميركية او بريطانيا او فرنسا او المانيا . ان مصادر ثروتها

الطبيعية ضئيلة ومتوسط سكانها في الميل المربع من ارضها عالٍ وثروتها يسيرة ومتوسط دخل الفرد من ابنائها لم يبلغ ربع متوسط دخل الانكليزي في سنة ١٩٢٩ . ثم انها معرَّضة كلَّ التعرض للخطر لانها تعتمد في معظم غذائها والمواد الخام اللازمة لصناعتها على ما تستورده من الخارج . وكلُّ ما تحتاج اليهِ في صناعة الاسلحة الحربية كالفحم والنحاس والحديد والقطن والرصاص والصوف والزيت يردها من الخارج . وليس فيها مناجم للنيكل والكروم والبلاتين والتنغستن والقصدير ولا حراج يستخرج المطاط من اشجارها . وعلاوة على ذلك كان ميزانها التجاري في غير مصلحتها فزاد عجزه زيادة مطردة من ١٥٠٠ مليون ليرا في سنة ١٩٣١ الى ٢٤٠٠ مليون ليرا في سنة ١٩٣٣ وبلغ ١٤٠٠ مليون ليرا في الاشهر الستة الاولى من سنة ١٩٣٤ . ومعظم هذا العجز كان يغطى بما تجنيه ايطاليا من السيَّاح ومن مال يرسلهُ ابناؤها المهاجرون. فقد بلغ الاول ١٣٠٠ مليون ليرا سنة ١٩٣٣ والثاني ٩٠٠ مليون ليرا سنة ١٩٣٢

أضف الى ذلك موقعها الجغرافي وامتداد سواحلها حالة ان باب البحر المتوسط من المغرب في قبضة بريطانيا فالسفن التجارية القادمة بحراً من الغرب يجب أن تجتاز مضيق جبل طارق ، والبضائع الواردة من طريق البر يجب ان تجتاز دولاً هي اعضاء في الجامعة . نعم ان جارتيها الصغيرتين سويسرا والنمسا كانتا غير راغبتين في تكديرها ، ولكن هذه الدول لا تستطيع ان تصدر اليها كثيراً من منتجاتها الخاصة فاذا جاءتها بضائع في الخارج عن طريقهما فيجب ان تمرّ هذه البضائع في فرنسا او المانيا ، والاولى عضو في الجامعة ، والثانية لم يكن في وسعها أن تغيظ بعض الدول الكبرى في سبيل دولة (ايطاليا) لم تربطها بها حينئذ اوثق أواصر الودّ

نعم أن الولايات المتحدة واليابان والبرازيل ليست اعضاء في الجامعة . ولكن اليابان لا تستطيع ان تصدر الى ايطاليا موادّ هي في أشد الحاجة اليها . اما الولايات المتحدة فكان في وسعها ان تكفي جميع مطالب ايطاليا اذا اصرّت على صون حقوقها التقليدية كدولة محايدة متأكدة ان بريطانيا لا تحاربها ولو عهدت اليها الجامعة في تنفيذ الحصر البحري على ايطاليا . ولكن الرئيس روزفلت ورجاله ابتكروا صورة جديدة للحياد أودعوها في قانون الحياد وقوامها أن الحكومة تحثّ الاميركيين على الامتناع عن الاتجار مع الدول المتحاربة ، وتمنع على كل حال تصدير بعض المواد الحربية ، وتعلن التجار الاميركيين ان كل اتجار مع الدول المتحاربة انما يحملون تبعتهم ولا ينتظرون من الحكومة أن تصون مصالحهم إذا صودرت أو عطلت من قبل أحد الفريقين المتحاربين أو كليهما . وكلّ ما كانت ايطاليا تستطيع أن تتوقعهُ من الولايات المتحدة أن لا ينقص ما تستوردهُ ايطاليا من اميركا عمّا كانت تستوردهُ قبل نشوب النزاع مع الجامعة . ولو أن دول الجامعة أظهرت رغبتها في التضحية في سبيل السلامة الاجماعية ، لما امتنعت اميركا عن مجاراتها في الغالب.

يقابل ذلك ، ان ايطاليا كانت تعلم ان الحرب ليست حرباً كبيرة ، وان خصمها لم يكن مسلحاً بادوات الحرب الحديثة ، فما تحتاج اليه ايطاليا من المواد التي قد تمنع عنها ليس كبيراً . فخزنت مقادير كبيرة كانت ترى انها وافية بغرضها اذا اقتصرت مقاومة الدول على مقاطعتها دون التدخل تدخلاً حربيًّا في خطتها . فايطاليا في اثناء الحرب الحبشية لم تشعر قط بالحاجة الملحة التي تشعر بها دولة كبيرة اذا كانت في حرب مع دولة كبيرة اخرى

يضاف الى هذا ان الكساد وتكدس البضائع في كثير من الاسواق ، حملا التجار على الرغبة في البيع ولو كانت توفية الثمن غير مؤكدة . اما الحكومات فأبت ان تزيد الكساد السائد بقيود تزيده تفاقماً على الرغم من قبولها ما تفرضهُ الجامعة على الاعضاء في مثل هذه الحالة

ان احد الاغراض التي يتجهُ الضغط الاقتصادي الى تحقيقها منع الحرب ببثّ الجزع في الامة التي تنوي الاعتداء، من مقاطعة دول الجامعة لها . ولكن هذا الغرض لم يمكن تحقيقهُ في ما يتعلق بايطاليا . ذلك ان الجزع لم يساور ايطاليا وقد اثبتت الحوادث صدق حدسها . قد تكون اعتمدت في موقفها الجريء على معالجة الجامعة الضعيفة لمشكلة منشوريا ، وقد تكون أقنعت نفسها بأن حربها في الحبشة ليست الاَّ حرباً استعمارية ولا تهديد فيها لنظام السلامة الاجماعية . على كلّ حال ان سكوت بريطانيا او عدم افصاحها عند ما عقد اجتماع ستريزا ، عمّا تكون خطتها اذا هوجمت الحبشة ، اعتبر في ايطاليا نوعاً من الموافقة الصامتة ، فلما سمع صوت بريطانيا القلقة ، في كلام حازم فاه بهِ وزير خارجيتها السر صموئيل هور يوم ١١ سبتمبر في جنيف ، كان السيف قد سبق العذل او كاد . لان ايطاليا كانت قد شرعت في اعداد حملتها وبلغت في اعدادها شأواً بعيداً . ففي مايو سنة ١٩٣٥ كانت الحملة قد كلفت موسوليني ٦٥٠ مليون ليرا . وكان في مكنتها ان تصنع أسلحتها اذا لم تمنع عنها المواد الخام حالة ان الحبشة كانت لا تملك نقداً تشتريها بهِ ولا معدات ميكانيكية تصنعها بها . فلما استعمل الضغط السياسي البريطاني على المستر ريكت لكي يعيد الى النجاشي امتياز الزيت اثباتاً لتنصُّل الحكومة من هذه الصفقة ، جاءَ العمل في مصلحة ايطاليا لانهُ منع عن النجاشي مالاً كان في اشد الحاجة اليهِ . وعلاوة على ذلك كانت ايطاليا مقتنعة بأن الحكومة الفرنسية مستعدة لتسلم بفرض حماية ايطاليا على الحبشة اذا وقفت ايطاليا في اوربا موقفاً معيناً

فالعقوبات الاقتصادية لم تخفق في منع الحرب لانها لم تجرَّب في حرب بين دولتين متكافئتين ، فالجامعة لم تهدد ايطاليا باخراجها من الجامعة اذا انتهكت العهد . وكان عند ايطاليا ما يحملها على الظن بان الدول المختلفة لن تقترح استعمال القوة العسكرية لصون العهد على نحو ما تنص المادة ١٦

في يوم ٩ اكتوبر سنة ١٩٣٥ قرّر مجلس الجامعة ان ايطاليا دولة معتدية وتلا ذلك قرار فرض العقوبات الاقتصادية عليها في ١٩ اكتوبر ولكن لم يشرع في تطبيق العقوبات الاَّ في ١٨

نوفبر . فالتطبيق لم يكن حالاً ولم يشمل جميع العلاقات التجارية والمالية وهما شرطان تنص عليهما الفقرة الاولى من المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة

وفي يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٥ اقترحت لجنة التنسيق منع جميع الاعمال المالية التي تؤاتي ايطاليا كعقد القروض وفتح الاعتمادات واصدار السندات سواء أكانت الاعمال حكومية ام أهلية فالمقاطعة المالية كانت شديدة ، ولكن شأنها العملي كان يسيراً ، لان حالة ايطاليا المالية كانت قد ساءت قبل ذلك والميل الى عقد قروض لها في أسواق العالم كان ضعيفاً علاوة على ان تجار الصادرات الاجانب كانوا يعانون مصاعب شتى في استيفاء ما لهم عليها حتى بلغ ما لتجار الصادرات البريطانيين عليها في أغسطس سنة ١٩٣٥ مليوني جنيه . فالمقاطعة المالية لم تدخل عنصراً جديداً في حالة ايطاليا المالية ، بل كانت اجمالاً لحالتها المالية الدولية كما كانت عند اقتراحها

وفي يوم ١٩ اكتوبر اقترحت لجنة التنسيق منع الاستيراد من ايطاليا ، مستثنية البضائع التي اتفق على استيرادها منها بعقود حررت قبل ذلك التاريخ . فاتفقت خمسون دولة على قبول هذا الاقتراح ، وبعضها أبدى قليلاً من التحفظ في قبولها . كانت هذه الدول تستورد من ايطاليا معظم ما تصدره ايطاليا (٩٥ر٥ ./. — ٩٦ر٥ ./.) . فقد بلغ متوسط الصادرات في كل من ديسمبر ١٩٣٤ ويناير وفبراير سنة ١٩٣٥ مبلغ اربعة ملايين من الجنيهات فنقص الى ٤٠٠ر٠٠٠ر٢ جنيه في الشهور المتوالية بين اواخر سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . اي ان قدرة ايطاليا الشرائية نقصت بذلك الى خمسيها ونقصت الصادرات من ايطاليا الى انكلترا من ٤٠٠ الف جنيه في يناير سنة ١٩٣٥ الى ١٨٠٠ جنيه في مارس سنة ١٩٣٦ والى فرنسا من نحو ٤٠٠ الف جنيه الى نحو ٣٠ الف جنيه . أما الصادرات الى الولايات المتحدة الاميركية والمانيا والنمسا والمجر فظلت على ما هي أو زادت قليلاً . والصادرات الى سويسرا نقصت بمقدار النصف

وليس في ايطاليا بضائع لا يمكن الحصول عليها في بلاد أخرى . فاذا حذفت كدولة منتجة من سفر الوجود لما خسر العالم شيئاً . ولكن هذه المقاطعة كانت شديدة على الذين يتعاملون معها وليس لهم سبيل الى استيفاء ما لهم عليها الاَّ باستيراد ما تصدره ، فجاء حكم المقاطعة وكأنه « موراتوريوم » لا قبل لهم الاَّ بالاذعان له

ولكن الحكومة الايطالية ، عمدت الى اخراج بعض الذهب المودع في بنكها لتشتري به ما تحتاج اليه ، والى بيع ما يملكه الايطاليون من سندات في الخارج ، كانت قد صادرتها في سنتي ١٩٣٤و١٩٣٥ وعوضتهم منها بسندات ايطالية فائدتها ٥ في المائة . ففي يناير سنة ١٩٣٤ كانت قيمة الذهب في بنك ايطاليا ٧٢ مليون جنيه فهبط الى ٥٢ مليون جنيه في أغسطس من السنة نفسها . ولا يعلم بالضبط مبلغ ما كان منه في البنك عند الشروع في الحملة الحبشية ، ولكن

يقدر ما خرج من البلاد بين نوفمبر سنة ١٩٣٥ ومارس سنة ١٩٣٦ بمبلغ ١٧ مليون جنيه أو أكثر قليلاً . اما قيمة السندات الاجنبية التي صادرتها الحكومة كما تقدَّم فتقدر بأربعين مليون جنيه ولا يعلم مقدار ما بيع منها لشراءِ المواد اللازمة

هذا في ما يتعلق بالصادر من ايطاليا . اما الصادر اليها من الدول المشتركة في العقوبات ، فقسمان قسم يشمل الاسلحة والذخيرة والغاز الحربي والمتفجرات وهذا منع عنها حالاً (١١ اكتوبر) واما الباقي فتأخر منعهُ وبعضهُ لم يمنع مطلقاً. وما منع كان يشتمل على حيوانات النقل والمطاط والبوكسيت والالومنيوم والحديد الخام والنيكل والقصدير وبعض المعادن الخام اللازمة لصناعة الصلب . فكان هذا المنع باعثاً على نقص الوارد الى ايطاليا نقصاً كبيراً . فالواردات اليها من ٣٨ دولة كانت قد بلغت في المتوسط ٥٫١٢٠٫٠٠٠ جنيه كل شهرٍ من نوفمبر ١٩٣٤ الى مارس ١٩٣٥ وبلغت اقصاها في الشهر السابق لفرض العقوبات اذ بلغت ٥٦٠٠٠٠٠ جنيه . فنقص الوارد بعد المنع الى ٢٫٧٨٠٫٠٠٠ جنيه في يناير سنة ١٩٣٦ ثم عادت فزادت الى ٥١٢٠٠٠٠ في مارس سنة ١٩٣٦ . ومن الواردات التي نقصت نقصاً كبيراً الحديد والاخلاط الحديدية فقد بلغ ما استوردتهُ منها في شهر دسمبر سنة ١٩٣٤ نحو ٧٨ الف طن فنقص الى ١٨ الف طن في يناير سنة ١٩٣٦ ثم عاد فارتفع الى ٣٦ الف طن في مارس سنة ١٩٣٦ . ونقص الوارد من بضائع مصنوعة من الحديد والصلب من ٧٣ الف طن في يناير ١٩٣٦ الى ١٥ الف طن في يناير سنة ١٩٣٦ . وقد جاءها معظم البضائع الحديدية الممنوعة من المانيا والنمسا والولايات المتحدة وهي دول لم تشترك في فرض العقوبات

ولم يكن الفحم والبترول والنحاس من المواد الممنوعة . الاَّ ان ايطاليا نقصت ما كانت تستوردهُ من الفحم من ١١٠٠٠٠٠ طن في ديسمبر سنة ١٩٣٤ الى ٦١٧٠٠٠ طن في مارس ١٩٣٦ وقد وقع معظم الخسارة في هذا النقص على انكلترا اذ هبط ما كانت تصدرهُ من الفحم الى ايطاليا من ٤٢٠ الف طن الى صفر . وتليها في الخسارة بولونيا. حالة ان ما كانت تصدرهُ المانيا والبلجيك والولايات المتحدة زاد قليلاً

ومع ان النفط وما يشتقّ منهُ من الزيوت المختلفة لم يكن محظوراً الاَّ ان الصادر منهُ من دول العقوبات الى ايطاليا نقص نقصاً كبيراً . ولكن ايطاليا كانت قد خزنت مقادير كبيرة منها قبل ان تصبح العقوبات نافذة . وتحوَّلت الى الولايات المتحدة في استيراد بعض ما كانت تستوردهُ من رومانيا وروسيا في الغالب . فالولايات المتحدة كانت تصدر الى ايطاليا نحو ٦½ ٪ في المائة مما تحتاج اليه ايطاليا بين سنة ١٩٣١ و١٩٣٤ فزاد ما تصدر الى ١٢½ ٪ في المائة في سنة ١٩٣٥ وارتفع في الاشهر الثلاثة الاخيرة من تلك السنة (وهي شهور الحرب والعقوبات) الى ١٧٫٨ في

المائة . اما النحاس فقد كان جلّ اعتماد ايطاليا على ما تستطيع استيراده من الولايات المتحدة الاميركية اذا امتنعت دول العقوبات عن تصديره اليها

وقد كان وجود هذه الاسواق الحرة واستطاعة ايطاليا ان تبتاع منها ما يمنعهُ عنها الباقون، اكبر باعث على عدم كتابة هذه المواد في قائمة المواد الممنوعة . كان في الامكان ان تتبع دول العقوبات الحظر الاقتصادي برقابة فعَّالة على جميع السفن القادمة الى ايطاليا عند مدخلي البحر المتوسط ، ولكن خطر الالتجاء الى الحرب اذا امتنعت بعض الدول عن الرضوخ لذلك ، علاوة على استفزاز ايطاليا نفسها ، حال دون امتحان هذا الاسلوب من تطبيق العقوبات

وكذلك ترى ان خطة الجامعة في فرض العقوبات الاقتصادية لم تتوافر لها الاحوال المؤاتية. فبعض المواد اللازمة للحرب لم يحظر تصديرها الى ايطاليا كالنفط والفحم والنحاس وعلاوة على ذلك لم تعرقل اعمال الملاحة ولا السياحة ولا ارسال الاموال من المهاجرين الايطاليين . وقد كان موقف ايطاليا من العقوبات لا يحتمل التأويل اذ قالت انّنا نتحمل العقوبات ما زالت لا تعرقل عملنا عرقلة عظيمة الشأن. فاذا فعلت فاننا نحارب . فكان على الجامعة ان تختار، اما ان تناجز ايطاليا تحديها بفرض الحظر على المواد التي لا مندحة عنها لايطاليا في مواصلة الحرب، واما ان تعترف بان استقلال الحبشة غير جدير بحرب عالمية في سبيله . وليس في امكان احد ان يعلم الآن ، هل كانت الحرب العالمية نشبت لو ان الجامعة أقدمت. فالعقوبات لم تحبط بمعنى انها لم تفرض فرضاً تامًّا حتى يمكن ان يقال انها جرّبت ولم تسفر عن الاثر المرتقب. وليس ثمة دليل على ان فرضها يفضي حتماً الى حرب في جميع الاحوال. بل ليمكن ان يقال انهُ لو فرضت وكانت سياسة ايطاليا عملية لما كان اقدامها على محاربة دول الجامعة خير سبيل لها للفوز في حرب الحبشة

يضاف الى هذا ان الحكم على دولة بانها معتدية ثم التوسُّل اليها بالبقاءِ في الجامعة ، كان لا بد ان يفضي الى خذلان أدبي ولو نجح الضغط المادي. ولذلك يعتقد بعض الكتَّاب — ومنهم كاتب هذا المقال وهو الاستاذ بون المحاضر في مدرسة العلوم الاقتصادية بلندن وكان قبلاً استاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة برلين وقد نشرهُ في مجلة الشؤون الخارجية الربعية — ان بقاءَ ايطاليا عضواً في مجلس الجامعة ممتعة بجميع مزايا العضوية حالة كانت تدوس دستور الجامعة، كان مهزلة لم ترَ فيها ايطاليا الاَّ باعثاً من بواعث التشجيع

والنتيجة التي يخلص اليها الاستاذ بون ان العقوبات الاقتصادية لم تطبَّق تطبيقاً فعَّالاً كما كان يجب او يمكن ان تطبَّق ، وانها مع ذلك كانت السلاح الوحيد في يد الجامعة ضدَّ ايطاليا فرفعها قبل عقد السلام بين الجامعة والدولة التي انتهكت دستور الجامعة يدلُّ على ان الذين بأيديهم الحلّ والربط ، اما انهم لم يحسنوا استعمال هذا السلاح وإما لم يجرؤا على حسن إستعماله او كليهما

روسيا وخصومها

تسعة عشر عاماً تمر والحقيقة ضائعة

بقلم حنا خباز

لم يستحكم المراء في موضوع استحكامه في امر النظام السوفياتي وحالة الشعوب الروسية في الوقت الحاضر . فان العلم الحديث ليكاد يحصي عدد الذرات في المجرة ، ويزن اكبر الاجرام ويبين بعدها ، ويصف ما في عالم الجوهر الفرد من الوحدات والفسحات ، فيريك في الدقيقة المادية مجرة ، وفي الجوهر الفرد نظاماً شمسياً . مع ذلك قد عجز العلم والعلماء عن تعيين موقف روسيا ولم يمكن الاتفاق على حقيقة ما هو جارٍ فيها اليوم

امة معاصرة ، تعد ما يزيد عن مائة وخمسين مليوناً ، يشغلون نحو سدس اليابسة ، وهي ألصق بلدان الدنيا بالعالم المتمدن (لانها قسم من اوربا) ، مع ذلك ، قد تضاربت الاقوال في ما هي عليهِ من يسر او عسر ، وشدة او رخاء ، وصعود أو هبوط . فنقرأ المتناقضات عن روسيا ويعسر علينا ان ندرك الموقف الذي ليس فيهِ مراء

فقد كنت اقرأ في صحف الولايات المتحدة في اميركا المقالات الضافية عن سوء الحال في روسيا ،وأن أهاليها في حال فقر أسود ،والمجاعة ضاربة اطنابها في انحائها . واذكر جيداً ان احدى المقالات أكدت ان روسيا لا يمكنها البقاء على هذي الحال الى ما بعد مارس سنة ١٩١٩ وانها مهددة بالفناء والدمار. وليست الغرابة في ذلك تعيين سنة ١٩١٩ . ولكن الغرابة كل الغرابة ، انهُ بعد مرور ١٧ سنة وبعد ذهاب مئات من الكتاب والمحققين الى روسيا ، بل بعثات مدرسية جمعت عشرات من طلاب المدارس الانكليزية وغيرها، عدا القناصل والصحافيين والتجار والسياح ومن اليهم وقد كتبوا ونشروا وتكلموا عما هو جارٍ تحت سماء روسيا — بعد كل ذلك لا نزال نسمع تضارب الاقوال والآراء في حوادثها اليوم كما كنا قبل ثمانية عشرة سنة

لست اشتراكياً بالمعنى الرسمي ، ولا شيوعياً . ولا اقدر ان اقول هل تحتمل مبادىء الشيوعية النقد او لا ، وهل هي على هدى او على ضلال . كل ذلك خارج دائرة موضوعي . فلست محامياً عن الشيوعية ولا خصماً لها . بل انا ناشد الحقيقة ، محايد ، نزيه ، مخلص اريد ان اقرر الواقع كواقع ، لا كما يريد المتحيزون ان يلونوه . بناء على ذلك اروم ان اثبت في ما يلي بعض

ما عثرت عليه في كتاب ظهر حديثاً موضوعه نتائج الحرب العظمى السياسية بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٦ ، وللقارىء الحكم بنفسه لنفسه هل تستحق هذي الاقوال الاحلال محل القبول او النبذ قصيًّا . واليك بعض ما في ذلك الكتاب بالحرف أو بالمعنى . قال : —

صرح ڤيكونت جراي في مجلس اللوردات الانكليزي في ٣ مارس سنة ١٩٢٧ ان حكومة السوڤيات الروسيَّة هي غير قوميَّة . فليست هي روسيَّة بالمعنى الذي فيه حكومة فرنسا فرنسية وحكومة المانيا المانية . ذلك ان تينك الحكومتين والحكومة الانكليزية معهما ، انما ترمي الى ترقية مصالح قومها ، ولا تكترث لمصالح غيرها الاَّ بمقياس تأثيرها فيمصالح قومها الخاصة

انقسم العالم منذ سنة ١٩١٧ الى رأسماليين واشتراكيين . واخذ الانشعاب بينهما يتزايد كل عام . وبينما نرى الشقاق والحروب والازمات مخيمة في اجواء الامم الرأسمالية ، حتى ان ملايين من عمالها هم بدون عمل ، نجد في الوقت نفسه عالم الاشتراكيين في روسيا متمتعاً بالسلام والقوة والنجاح . فالتباين عظيم بين سواد ليل اولئك وبياض نهار هؤلاء

هذا الانقسام العالمي ، الى رأسمالي واشتراكي ، هو من احداث العصر . فقد نجحت الثورة الاشتراكية في روسيا ، وخابت في غيرها من البلدان كالمانيا وايطاليا مثلاً ، فبرزت بهذا التطوُّر مسائل جمة في علاقات الفريقين ، اعربت عن ميول كثيرين في البلدان الرأسمالية نحو الاشتراكية واعربت بالحري عن تحقيق النظام الاشتراكي ، في امة كبيرة ، ذات استقلال تام ، وعلاقات كونية ، وهو امر لم يسبق له نظير في الدنيا ، الاّ في حالات وقتية استثنائية كما في وقت الثورة الفرنسية مثلاً

ساء الرأسماليين نجاح النظام الاشتراكي في روسيا ، فعمدوا الى صد تياره بشتى الوسائل فصمد السوفياتيُّون لهم ، وصدُّوا هجماتهم ، ثم اخذوا يسعون لتأسيس علاقات سلمية ودية مع تلك الامم التي كانت تحاربهم . والسوڤيات يرغبون في السلم ، لان كل سنة سلم وراحة ، تزيدهم قوة وتأصلاً . والروسية حصن الاشتراكيين في الدنيا . فمن مصلحة الانسانية أن تستريح من المشاكل العالمية وتتفرغ لترقية شؤونها ، ونشر مبادئها . فقد حل عندها قانون الجماعات بزعامة العمال ، محل قانون الاقلية من الماليين التي كانت تسود الاكثرية فتستعبدها وتذلها وتسحقها

وقد تسنى للعمال ذلك سنة ١٩١٧ في روسيا . فأحرزوا ذلك الفوز الحاسم بهمة العمال والفلاحين والجنود الحمر . وقبضوا على مقاليد الاحكام ، والفوا قوة لم يسبق لها نظير في تاريخ الاجتماع الانساني . انضوى تحت لوائها جماعات الاتحاد السوفياتي وهم يزيدون عن مائة وسبعين مليوناً (١٧٠،٠٠٠،٠٠٠) في شرقي اوربا . فهبَّ الرأسماليون في المانيا وايطاليا واليابان وانجلترا واميركا يهاجمونهم ، وبذلوا الجهد في قمع الحركة الشيوعية في روسيا . فقاطعوها ، وحاصروها ، وحاربوها سنة ١٩١٨ بقيادة كولشاك ودنكين ويودينتش قوَّاد القيصر المعروفين . وقد صرَّح

لويد جورج ان انكلترا انفقت في هذا السبيل مائة مليون جنيه ولكنها ومن معها قد آبت بالخيبة وأشار لينين الى ذلك سنة ١٩٢١ قال : —

لقد عجز البورجوازيون عن سحقنا ، مع ان قواتهم تبلغ مائة ضعف ما لنا ، وسبب عجزهم هو نشوب الثورة الاشتراكية في كل اصقاع الدنيا . فوضع ذلك حدًّا لاطماع الرأسماليين فينا على ان الحرب الاقتصادية ما زالت . وهي لا تقل عن الحرب المادية خطورة وتأثيراً . يضاف الى ذلك تراث الحكم القيصري الغاشم ، وجهل الامة ، وفقرها المدقع ، وقلة المواد الخام والآلات ، واضطرارنا الى الاعتماد على الموارد الخارجية زد على كل ذلك ويلات الحروب سبع سنين متواصلة ، منها اربع سنين في الحرب الخارجية ، وثلاث في الحرب الاهلية . وفوق الكل نطاق الحصر الذي ضربتهُ علينا دول الغرب . فكان امام النظام الاشتراكي عمل شاق ، هو مجابهة كل ما ذكر من الصعاب ، وهو لا يزال في مهده . ولكنهُ تغلب على الكل وفاز بالبقاء . كل ما ذكر انما كان الخطوة الاولى في حياة الاشتراكية في روسيا . والخطوة الثانية هي التنظيم الاقتصادي الجديد الذي وضع اساسه سنة ١٩١٨ ، وحالت الحرب الاهلية دون تطبيقه الى سنة ١٩٢١ ، ولم يدرك الرأسماليون فضل ذلك النظام حتى تجلّى لهم في مشروع الاعوام الخمسة. فكان اوّل ما نزعت بهِ حكومة السوفيت هو أنها حصرت قواتها الاقتصادية في ايدي العمال . والمراد بتلك القوات البنوك والصناعة والتجارة الخارجية والمصائد ووسائل النقل وتركت للافراد التجارة الصغيرة لتتضاءل امام تيار التجارة القومية العظيم . فتمكنت بذلك من صون جمعيات الزراعة والتجارة ، وحفظت مكانتها في الخافقين

ولما كان غرض الماليين قهر الاشتراكية باستخدام الذرائع المالية وجدت حكومة السوفيات نفسها مضطرة للقيام لصد ذلك التيار الجارف . فأبت اعطاء امتيازات ، لاية شركة اجنبية في اصقاع روسيا . جاء في تقارير السر روبرت هورن الوزير الانكليزي سنة ١٩٢٤ : ان افضل الذرائع لسحق البلشفية هي اختراق بلادها بالانظمة الاقتصادية . وجاء في مذكرات سفير انكلترا في برلين بتاريخ مايو سنة ١٩٢٢ : روسيا في حال الدمار التام . ولا يمكن انشاء تجارة رابحة فيها الا بعد مرور سنين

واشار مستر بلدون بشغل اسواق روسيا بالتجار الالمان علّ المانيا تتمكن بذلك من وفاء ما عليها من اقساط الحرب . وظلت الآمال معلقة بسقوط روسيا اقتصاديًّا ، وخضوعها لشوكة الرأسماليين ، الى سنة ١٩٢٤ . جاء في الاوبزرفر بتاريخ ٢٨ دسمبر سنة ١٩٢٤

لا يمكن استمرار النظام الحالي في روسيا زمناً طويلاً . ومهما يكن من امر الاسم السوفياتي فلا بد من تحوّله رأسماليًّا في خلال بضع سنوات . على ان هذي الآمال قد خابت كما اثبتت ذلك مجلة ايكونومست ، قالت : بعد مضي تسع سنوات لا يزال النظام السوفياتي في روسيا غير ممسوس

لم يبدُ اي دليل على ضعف التجارة القومية في روسيا. وقد تضاءلت التجارة الفردية امامها. فكان عدد العمال في ورش الحكومة سنة ١٩٢٦ نحو ٢٧٠٠٠٠٠ عامل بازاء ٣٦٠٠٠٠ عامل في ورش الافراد. وكانت وسائل النقل جميعها — خطوط المواصلات من شركات بحرية وقطارات حديدية وطائرات — في يد الحكومة

بدأ مشروع الاعوام الخمسة سنة ١٩٢٨. وانتهى سنة ١٩٣٢ بفوز باهر. فاستفز فوز الشيوعية هذا ام الرأسماليين في كل الدنيا. لأنهم رأوا ان روسيا قد بلغت ذروة الصناعة. قال ستالين سنة ١٩٣٣: ان منتجات روسيا بلغت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب، وضعفي ما كانت عليه سنة ١٩٢٨. مع ان منتجات انكلترا بلغت في الوقت الحاضر ٧٥ ٪ ما كانت عليه قبل الحرب (سنة ١٩١٣) و ٨٠ ٪ ما كانت عليه سنة ١٩٢٨ ومثلها تقريباً المانيا والولايات المتحدة الامريكية. وقد أُنشئت مصانع كبيرة في مكنسوجورسك في اورال. ومحطة للكهربائية في دنيبرستروي. ومعامل للعربات في لينتجراد وخاركوف. ومعامل للسيارات في غوركي. ومعامل للكيمياء في موبرسك ابرسينكي. فزاد عدد المعامل عشرة اضعاف ما كانت عليه سنة ١٩١٣. وبلغت معامل الاشتراكيين وحدها ٩٩ ٪ من مجموع المعامل في روسيا. كذلك الانشاءات الزراعية. فقد انشئت ٥٠٠٠ مزرعة، و ٢٠٠٠٠٠ حقل. وزادت الاطيان الزراعية على ٢١ مليون هكتار. وارتفعت اطيان الاشتراكيين من —٣— سنة ١٩٢٨ الى —٧٥— سنة ١٩٣٢ وارتفع دخلها من ٤٤ الى ٩٣ وزادت الاجور ٦٧ ٪. وبلغت الاموال في شركات التأمين ثلاثة اضعاف ما كانت

وفي الوقت نفسه يزعم خصوم روسيا ان العمال مسخرون وان الحكومة عاجزة! امّا عن التقدّم في المعارف فحدث ولا حرج. فقد بلغ التلامذة في المدارس البدائية ٢١٠٠٠٠٠٠ من الجنسين وارتفعت منتجات الصحافة من ٣ الى ٣٦. ومراكز الاسعاف الطبية من ٨٥٨ سنة ١٩٢٨ الى ٥٤٣٠ سنة ١٩٣٣، وارتفع عدد اطبائها من ١٩٠٠٠ الى ٧٦٠٠٠

واليك جدول الانتاج في الممالك العظمى في سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٣

سنة ١٩٢٨	الدول	سنة ١٩٣٣
٧ر٠	فرنسا	٧ر٠
٢ر٤	اليابان	٤ر٧
١١ر٦	المانيا	١١ر٢
٩ر٣	الممالك الانكليزية	١٤ر٩
٤٤ر٨	الولايات المتحدة	٣٤ر٥
٤٠ر٧	روسيا	٣٤ر٥

فأين زعم من يزعم شح الموارد في روسيا ، وانتشار الفاقة والمجاعات وتخييم شبح الموت ؟ فأنت ترى انها على ضد ما يزعمون

أمام هذا البيان الواضح تغيرت لهجة الرأسماليين . وزالت من عالم الوجود الآمال التي عقدوها بفناء روسيا . وحلّت محلها دعاية اخرى ترمي الى اثارة امم الارض ، على « الخطر الروسي» وليس هنالك من خطر ، ليس الاّ فتح العيون وانارة الاذهان . فان روسيا غير طامعة في احد ، وليس لها مطامع استعمارية[1] ، فهي مسالمة نزيهة انسانية . جاء في التيمس الانكليزية بتاريخ سنة ۱۹۳۱ من مقالة افتتاحية بقلم رئيس تحريرها يقول : اذا أراد العالم التخلّص من الشيوعية فعليه بمقاطعة روسيا مقاطعة تامة . لانها متى تمت انشاءاتها الصناعية ، ووراءها مائة وخمسون مليون نفس ، فحينئذ تستعمر منتجاتها اسواق الدنيا : ليتأمل القارىء ما هو سبب تخوّفهم منها . وقد أقر مستر بلدون سنة ۱۹۳۱ ان الصناعة الروسية « خطر على العالم الصناعي »

هذا هو كلام خصوم روسيا . فأين الهلاك والموت الزؤام الذي كان يهددها قبل بضعة اعوام . فترى انهُ ليس عجز روسيا هو الذي أثقل كاهل الرأسماليين ، بل جدارتها ومقدرتها ومزاحمتها الرأسماليين مزاحمة شديدة هي التي تقضّ مضاجعهم ووفرة منتجاتها لا قلتها هي التي تفتّ في عضدهم لذلك أجمعوا على ابادتها ليصفو لهم الجو في التحكّم بأمم الارض فقد ملأوا المشارق والمغارب صياحاً بأن الأمة التي توحد اقتصادياتها أمة عقيمة عاجزة لا تصلح للبقاء . وواقع الحال انها أصلح للبقاء . والاّ فلماذا يخشونها وهي لا تخشاهم ويحاربونها وهي لا تحاربهم ؟ هوذا الدول الصغرى حولها ، لم تطمع بأحدٍ منها ، بل صانتها وعقدت معها عهود عدم الاعتداء[2]

وقالوا ان التسخير ، وعدم دفع الاجور وزيادة ساعات العمل اليومية ، هو السرّ في رخص البضائع الروسيّة ، فالظاهر ان الماليين لم يريدوا ان يميزوا بين استعباد طبقة من الامة قليلة العدد لطوائف العمال جمعاء ، وبين تدريب الأمة عموماً ، دون ما طبقات ، لتعمل في ما هو ملكها الخاص . فالعامل الروسي يعمل في بيته ورزقه ، يعمل ليزيد الثروة القومية التي هو مساهم فيها ، لا ليقوّي عضد ارباب المطامع والجشع الذين يستأثرون بالأموال والعقار . وهب ان روسيا بنت مسعاها على استعباد العامل فما هي النتيجة ؟ . لقد برهنت تواريخ كل الاجيال على ان التسخير شرّ الامور على شؤون الامم الاقتصادية . فليس الحافز للماليين على القيام على روسيا رأفتهم بعمالها ، بل نقمتهم على الذين يحولون دون تمكين مخالبهم من خناقها . فأساس الدعاية ضدها هو حسن ادارتها لا سوء ادارتها ، ونجاح مساعيها الاقتصادية لا حبوطها

(۱) المقتطف : أليست الدعاية للثورة العالمية أشد خطراً من المطامع الاستعمارية أو مثلها على الاقل ؟
(۲) المقتطف : ان عهود عدم الاعتداء لا تنفي ان الثورة العالمية ركن خطة الدولي الثالث

بناء على ذلك هبّ اولئك السادة ، يحملون على الشيوعية حملة شعواء . يسيئون سمعتها ويسلقونها بألسنة حداد ، وهم يحرّقون الأرّم على الذين حالوا دون افتراسهم الحملان . وقد وقع اولئك الغطارسة بين شقي المقص . فاما ان يعرجوا عن مزاعمهم ان الشيوعية في حال الافلاس . وإما ان يعدلوا عن التظلم من مزاحمتها إياهم في أسواق الدنيا . على ان وراء النقيضين ما هو أعمق من ذلك وهو ذعر الرأسماليين من سقوطهم امام الشيوعية لان اساسها اصحّ علمياً، وأثبت نفعاً . وبالامس كان النطاق الصحي مضروباً على الشيوعية خوفاً من افسادها الاخلاق ! واليوم ضرب حولها نطاق الحصر الصناعي يكتنفها . والخلاصة ان المبدأ الرأسمالي أخذ يطأطيء الرأس امام المبدأ الشيوعي . وهو يحاول دفعه بما اوتي من حيلة. بالامس كان الماليون ينادون بجوع الامة الروسية وفقرها ودنوها من الفناء . واليوم الازمة المالية ضاربة في البلاد الرأسمالية في اوربا واميركا . اماً الروسيون فلا خوف عليهم فليس فيهم جائع واحد . ولا عامل ليس لهُ عمل ولا ارملة او مطلقة تبيح عرضها لتعيش

جاء في تقرير مدير بنك انكلترا السنوي سنة ١٩٣١ ما نصه : —

اذا لم يقم هنالك من تدبير في عالم المالية فليس امام انكلترا الاَّ الانحدار تدريجاً الى دركات الفقر والهلاك . وليس انكلترا وحدها بل اوربا بأسرها منحدرة في ذلك المنحدر بسبب مزاحمة روسيا وزيادة منتجاتها يدل على ذلك ملايين العمال بدون عمل في فرنسا والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية . هنا سرّ المسألة وبيان فلسفتها. هذي هي السنة الرابعة من السنين الخمس الثانية ، وهي تبشر بالحياة السعيدة والفوز التام، فليس ثمة مجال لاتهام الشيوعية بالمجاعة والفناء والاضمحلال

﴿ حاشية ﴾ : يقول مقتبس هذي الاقوال ، اذا كانت الاقوال الآنفة كاذبة ، وكانت دعوى خصوم البلشفية صادقة في انها على شفا جرف هار فلماذا يتحد الالمان واليابان ضدها . فان الاقوياء لا يتحدون على الضعيف بل اتحاد الجميع على فرد ، اعترافاً منهم بقوته . ثم لو صح قولهم سنة ١٩١٩ ان روسيا على شفا الهلاك فلماذا لم تهلك الى اليوم بعد ١٨ سنة ؟ ولو انها شريرة فلماذا لم تغز جيرانها الضعفاء بل عاهدتهم معاهدة المسالمة والحب ؟ ولماذا قبلتها كل الدول في عصبة الامم ؟ واذا كانت ضعيفة فلماذا يخشونها ؟ [1]

والمعلوم عندنا ان روسيا اليوم من اقوى دول العالم . والعلم فيها يبلغ الذروة العليا ، وكذا الادب والفلسفة ، وهذي المزايا لا تكون في امة تتضوَّر جوعاً وقد اشرفت على الهلاك ، وهبني قلت هذا الصبح ليل الخ

خزان جبل الاولياء حنا خباز

(١) المقتطف : ثمة فرق بين نجاحها الاقتصادي والصناعي وهذا لا ريب فيه وبين دعايتها الثورية الدولية وهو ما يتصدون له . فاذا لم تغز جيرانها بالسيف فانها تسعى الى غزوتهم بألسنة الدعاة . وبواعث قبولها في عصبة الامم سياسية ولها حديث طويل

قوى الدفاع الاوربية

اقسامها وقواتها وطرق تنظيمها

— ٣ —

الريخ

فاذا انتقلنا الى الكلام عن الجيش الألماني وجدنا قصةً طويلة يمكن ان نبدأ بها في ١٥ مارس من سنة ١٩٣٥ لما صرّح المسيو فلندان رئيس الوزارة الفرنسية في ذلك الحين في مجلسي النواب والشيوخ الفرنسي قائلاً :

« ان الحكومة قررت ان يخدم المجندون سنتين بدلاً من سنة واحدة وأن يستمر ذلك أربع سنوات » وقد علل الوزير الفرنسي هذا القرار بموازنة رقمية بين قوّة فرنسا وقوّة المانيا العسكرية فقال « ان قوّة فرنسا في سنتي ١٩٣٥و١٩٣٦ تكون ٢٠٨ر٣٧٢ في حين ان قوّة المانيا فيهما تكون ٦٠٠و٤٨٠ »

وكان الماريشال بتان وهو أكبر الخبراء العسكريين في فرنسا اليوم أول من نبه الى هذا الامر في مقالة كتبها في « مجلة العالمين » قال فيها ان الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر الذي يهدد فرنسا من ناحية التجنيد هي جعل مدّة الخدمة العسكرية سنتين بدلاً من سنة واحدة

بعد صدور القرار الفرنسي كان الرّد الطبيعي لحكومة الريخ ان قررت من ناحيتها إعادة الخدمة العسكرية الالزامية وزيادة قوات الريخ الحربية الى نصف مليون جندي . ومعنى هذا القرار رفض المانيا رفضاً رسمياً للبقية الباقية من المواد الحربية في معاهدة ڤرساي وهي التي نصت على ان لا يتجاوز عدد الجيش الالماني المائة الف . وكان الهر هتلر قبل اعلان الخدمة الالزامية قد اجتمع بسفراء فرنسا وبريطانيا وبولندة وأطلعهم على عزمهِ وتضمن القرار الخطير الذي أذيع على الأمة الألمانية يوم ١٦ مارس ١٩٣٥ بخصوص العودة الى نظام الخدمة الالزامية كلمة تمهيدية عن البطولة العظيمة التي أبداها الشعب الألماني خلال أربع سنوات ونصف سنة وهي المدّة التي استغرقتها الحرب الكبرى وكيف ان المانيا ألقت سلاحها في نوفمبر من سنة ١٩١٨ ثقةً منها بتأكيدات الرئيس ولسون وقد قابل الشعب الالماني قرار حكومته بأشد مظاهر الحماسة والابتهاج

وأطلق على القانون الجديد اسم « قانون تنظيم الدفاع » واشتمل على ثلاث مواد . فالمادة الأولى نصّت على ان الخدمة في قوى الدفاع تكون على أساس الخدمة العسكرية العامة وجاء في

المادة الثانية ان الجيش في وقت السلم بما في ذلك قوى البوليس التي ستنضم الى الجيش يتألف من ١٢ فيلقاً مكوناً من ٣٦ فرقة . وتقول المادة الثالثة ان وزير الحربية سيقدم فيما بعد الى مجلس الوزراء القوانين التكميلية التي تنظم الخدمة العسكرية العامة ويتكوّن الجيش الالماني بعد تقرير إطالة مدّة الخدمة العسكرية من ٥٥٠٫٠٠٠ جندي وفي استطاعة المانيا زيادة هذا العدد في حالة الحرب الى ستة ملايين محارب بسهولة . ولولا إسراع المصانع الالمانية خلال العام الأخير لكان الجيش الالماني تعوزهُ الاسلحة الحديثة ولكن توجيه العناية التامة الى هذه الناحية مكّنت المانيا من سدّ هذا النقص وسوف لا تنقضي مدة طويلة حتى ينتهي برنامج التسلح الالماني

وزادت قوة الجيش الالماني العام فيلقين جديدين في ٦ اكتوبر ١٩٣٦ وهما الفيلق الحادي عشر في هانوفر والثاني عشر في كوبلنز . وعلى ذلك تحقق تكوين الاثني عشر فيلقاً التي نص عليها قانون تنظيم الدفاع السابق ذكره وينقسم كل فيلق من هذه الفيالق الى ثلاث فرق فيكون الجيش الالماني مكوناً من ٣٦ فرقة . وتتوزع الفيالق العشرة الاصلية على النحو الآتي :

كونجزبرج — ستيتن — برلين — درسدن — ستوتجارت — مونستر في ويستفاليا — ميونيخ — برسلو — كاسيل — هامبورج

وقبل ان نفصل تكوين الجيش الالماني نقول ان الجمهورية الالمانية بعد ان سلخت منها عدة مقاطعات بعد الحرب ضمت الى الدنمارك وبلجيكا وفرنسا وبولندة وبعض دويلات البلطيق وتشكوسلوفاكيا تقدر مساحتها بـ ٤٨٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة وتتصل حدودها بعدة دول اكثرها ليست دولاً صديقة وهذه الدول تشتمل على فرنسا ولوكسمبرج وبلجيكا وهولندة والدنمارك وبولندة ومدينة دنزيج الحرّة وليتوانيا (ميمل) وتشكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة

وتعتمد الدولة الالمانية على الجيش في تحقيق كل آمالها التي تعجز السياسة عنها ولذلك نرى أن كل مرافق الدولة متصلة اتصالاً وثيقاً بأعمال الجيش والطيران والبحرية والجيش الالماني الحديث ما يزال شعاره Über alles اي «فوق الجميع» وهو عنوان المجد القديم ومحط آمال المستقبل

قلنا ان الخدمة العسكرية في المانيا اجبارية لكل الماني والمانية من اصل آرى ولغير الآريين قوانين اخرى خاصة بتجنيدهم وتبدأ الخدمة العسكرية من سن الثامنة عشرة الى الرابعة والخمسين لجميع الذين ادوا الخدمة في فرق العمل الاجبارية وهي بمثابة مراكز للاعداد العسكري للشباب الالماني حيث يتدربون على الاعمال والتمرينات الحربية في معسكرات يسع الواحد منها مائة وثمانين جنديًّا تقريباً وكل ثمانية معسكرات تؤلف مجموعة وكل ثمانيه مجموعات تكون (Gau) وهنالك في المانيا ما لا يقل عن اربعين من هذه التشكيلات التي يبلغ عدد افرادها اليوم

٤٥٠٠٠٠ على الاقل . كما ان فرق الهجوم وفرق الوقاية تمد الجيش الالماني باحتياطي عظيم كاحتياطي القوات المنظمة نفسها تماماً . وفرق الهجوم هذه مقسمة الى ثلاثة أقسام بقيادة الهرهتلر ومساعدة رئيس هيئة اركان حربه

افراد الفرق العاملة وتتفاوت اعمارهم من ١٨ — ٢٥

الاحتياطي الاول وتتفاوت اعمار افرادهم من ٢٥—٤٥

اللاند ستورم لمن يزيد على الخامسة والأربعين

وتبلغ قوات الفرق المذكورة ٦٢٧ اورطة

اما فرق الوقاية فمؤلفة من ٢٠٠٠٠٠ شاب موزعين على عشرة فرق اي ٨٥ اورطة

واذا انتقلنا الى قوات الطيران الالمانية وجدنا مرتبتها الثالثة بين الدول الاوربية وان كانت لم تبدأ في تكوينها الحربي الا بعد الانقلاب النازي منذ اربع سنوات ويكاد يكون من اسرار الدولة ان تبقى الكفاءة الجوية الحديثة في حكومة الريخ مكتومة وان كانت جمعيات الطيران التي تقوم بتعليم الشبان منتشرة في جميع انحاء البلاد ولا يقل عدد الطيارين الذين يمكن الانتفاع بهم وقت الحرب عن خمسين الف فضلاً عن مدارس الطيران في برنسويك وشلايس هيم ودارتموند وستتن وكوبتس —الخ التي تخرج عدداً وافراً من الطيارين كل عام ينتظم كثيرون منهم في الشركات الجوية في اوربا والقارات الاخرى

وفي ألمانيا جمعية للدفاع ضد الغازات الجوية يبلغ عدد أفرادها ستة ملايين عضو واسمها (Deutsche Luftschutzbund) ويبلغ عدد موظفيها ٢٨٠٠٠٠ وعدد متطوعيها ١٠١٠٠٠٠٠ وهناك ما لا يقل عن ٢٢٠٠ مدرسة للدفاع الجوي فيها ١٠٣٠٠ معلم وقد شيدت هذه الجمعية ٢١٥٠٠ ملجأ للوقاية من الغازات . وقد توقعت الجريدة التي نقلنا عنها هذه النبذة ان يبلغ عدد الافراد الذين يتقنون التعليم الفني في هذه المدارس مليونين قريباً

ويبلغ عدد المطارات في انحاء البلاد الالمانية مائتين على الاقل فيما عدا القواعد البحرية المعدة لنزول الطائرات البحرية . اما عدد الطائرات التي تمتلكها الدولة فلا يقل عن ثلاثة آلاف طائرة مختلفة الاطرزة والاغراض موزعة بين الاقسام الستة الجوية في الدولة في كونجزبرج وبرلين ودرسدن ومونستر وميونيخ وكيل

ايطاليا

وهذه ايطاليا حيث بلغ التطور الحربي شأواً كبيراً صارت اليوم نموذجاً للأمة المسلحة (Nation in Arms) . فالسائح القادم الى ايطاليا اليوم بطرق الشمال تعروه الدهشة من الجو العسكري الذي يسود ايطاليا الآن . فالشبان الاشداء بين سن الثانية والعشرين والخامسة

والعشرين اما يجندون في الخدمة العاملة وإما انهم دعوا الى حمل السلاح والانضمام الى آلاياتهم

والواقع ان هؤلاء الشبان تراهم بالملابس العسكرية العادية او القمصان السود او سراويل الميدان الرمادية او ملابس الكتّان ذاهبين او عائدين الى معسكرات التمرين او الثكنات او ميدان المناورات

ونظراً الى الحاجة المتواصلة الى معدات القتال في جميع الاسلحة تقرر الحكومة الايطالية من وقت لآخر زيادة ساعات العمل في مصانع الاسلحة والذخيرة الى متوسط تسعين ساعة في الاسبوع. وقد صرَّح السنيور موسوليني في احدى جلسات مجلس الوزراء منذ شهرين بأن القوميسيرية العامة للمصانع الحربية تراقب ١٢٠٠ مصنع حربي وان تسلح الجيش الايطالي لا يزال سائراً بانتظام وسيبلغ تمامه في المدة المحددة لهُ. اما فيما يختص بالطيران فقد صودق على مبلغ ١٥ مليوناً من الجنيهات خصصت لانشاء حظائر حربية ومدفعية جديدة في وادي نهر بو وعلى طول سواحل البحر الادرياتيكي وتيرانا وفي سردينية وصقلية

وقد كان أهم قانون صدر في عهد حكم الفاشست «قانون إعداد الامة العسكري» الذي أريد بهِ جعل الشعب الايطالي عن بكرة أبيه شعباً عسكريًّا. وأهم مواد هذا القانون:

١ — الرعوية الايطالية والجندية صفتان متلازمتان في ظل النظام الفاشيستي

٢ — التدريب العسكري جزء من برنامج التعليم القومي ويبدأ بمجرد بلوغ الطفل سن الادراك ويستمر بحيث يكون الايطالي على استعداد دائم لحمل السلاح والدفاع عن وطنه

٣ — هذا التدريب العسكري ينقسم الى ثلاثة أقسام:

فالطور الاول التدريب العسكري التمهيدي والغرض منهُ اعداد الايطاليين روحيًّا وجسمانيًّا وعسكريًّا اثناء المدة السابقة لتجنيدهم في الجيش. والطور الثاني تلقين الايطاليين الفنون العسكرية واستكمال التدريب التمهيدي. والطور الثالث تدريب الايطاليين بعد قضاء مدة الخدمة العاملة ليكون احتياطي الدولة على أتم استعداد عند اعلان الحرب. وهذا التدريب اجباري لمدة عشرة أعوام بعد التسريح من الجيش العامل وايطاليا يبلغ عدد سكانها اليوم ٠٠٠ ر ٠٠٩ ر ٤٣ نفس ومساحتها ٠٠٠ ر ٣١٠ كيلو متر مربع واصبحت لها اليوم امبراطورية واسعة الارجاء تمدها بآلاف المجندين الاقوياء

والجيش الايطالي من قوات الدفاع الاوربية الاولى ويبلغ عدده اليوم ٠٠٠ ر ٥٢٨ جندي على الاقل ويصل هذا العدد في وقت الحرب الى أربعة ملايين بكل سهولة ويشرف على أعمال الجيش الايطالي مجلس الجيش وهو هيئة استشارية لوزير الحربية في كل ما يختص بأعمال الدفاع وهذا المجلس مؤلف من وزير الحربية ورئيس هيئة اركان الحرب وجميع قواد

الجيش العاملين وقواد الجيوش وثلاثة من قواد الفيالق او الفرق ينتخبون كل سنة بقرار وزاري وتجدد مدة انتخابهم عند انتهائها

وهناك هيئات ولجان ومجالس يقوم بعضها بتنظيم اعداد الامة إعداداً عسكريًّا وبعضها لتنظيم الانتفاع بمرافق الدولة الاقتصادية كلجنة الدفاع المدنية التابعة لوزارة الزراعة والغابات. والجيش الايطالي مقسم الى ١٣ فيلقاً موزعة في تورين واسكندية وميلان وقيرونه وتريست وبولونيا وفلورنسة وروما وباري ونابولي وأودين وجزيرتي صقليه وسردينية

وأهم الاسلحة التي يشتمل عليها الجيش الايطالي هي المشاة (١١٤ آلايا) والخيالة (١٢ آلاياً) والمدفعية (٦٥ آلاياً) والمهندسين (١٧ آلايا) وسلاح الدبابات وأهم الخدمات الاخرى والمصالح العسكرية هي سلاح الكيمياء الحربي والقسم الطبي وادارة المهمات والثكنات ومصلحة الادارة العسكرية والقسم البيطري وخدمة النقل الميكانيكية وقسم الطبوغرافيا والجغرافيا ومصلحة المحاكم العسكرية والمصانع العسكرية للاسلحة والذخيرة وأهم مؤسساته في « تيرني » وروما وكابوا وغيرها

والقوات غير العسكرية التي يتكون منها قوات تمد الجيش عند الحاجة هي قوات البوليس وعددها تقريباً ١٥٫٠٠٠ وفرق الكاربينري الملكية وعدها ٥٠٠٠٠ والمليشيا الوطنية وهي منضمة كوحدات الجيش تماماً

ومن المعاهد العسكرية في ايطاليا نذكر:

كليتان حربيتان — أكاديمية للمشاة والخيالة — أكاديمية للمدفعية والمهندسين — مدرسة تدريب المشاة — مدرسة تدريب الخيالة — مدرسة تدريب المهندسين والمدفعية — تسع مدارس لضباط الاحتياط — ثلاث مدارس لضباط صف الاحتياط — اربع مدارس مركزية للاسلحة — كلية اركان الحرب — مدرسة المدفعية — مدرسة الطب العسكري وغير ذلك من المدارس الفنية كاللاسلكي والكيمياء والميكانيكا

وقوة ايطاليا الجوية لا يستهان بها والطيارون الايطاليون مشهورون بشجاعتهم وتدريبهم ويعتمد على السلاح الجوي لتحقيق اكثر العمليات الحربية وهو من اكثر القوات الجوية انتظاماً في العالم وضباط الطيران ينقسمون الى ثلاثة اقسام: ضباط الملاحة الجوية وضباط الخدمة وضباط الاخصاء وقد بلغ عدد الفريق الاول خلال العام ١٩٣٥ — ١٫٣٨٨ والفريق الثاني — ٤٠١ والفريق الثالث ١١١ وهناك ايضاً فيلق جوي للمهندسين عدد ضباطه ماءتان ضابط

ولا يقل عدد الطائرات الايطالية عن ٢٥٠٠ طائرة قوتها مليون ونصف مليون حصان وعدد رجالها ٣٠٫٠٠٠ رجل تقريباً

(كولونيل)

باب الأخبار العلمية

العلم في العام الماضي

مختارات من أجل آثار العلماء في سنة ١٩٣٦

العلم والاجتماع

اشتد في العام الماضي اتجاه العلماء الى البحث في تأثير العلم من ناحيته الاجتماعية وكان هذا الاتجاه قد ظهر على أثر الازمة الاقتصادية التي انتابت العالم في العهد الاخير ثم بلغ ذروته في اجتماع مجمع تقدم العلوم البريطاني الذي عقد في مدينة بلاكبول بانكلترا في الاسبوع الثاني من شهر سبتمبر الماضي . وقد نقلنا للقراء في حينه ملخصاً من خطبة الرئيس السر يوشيا ستامب وقد دارت من أولها الى آخرها على هذا الموضوع الخطير ومن اقواله فيها : « أن العالم قلما يعنى بنتائج كشفه واستنباطه مع ان ثمارهما من أقوى العوامل على احداث التحول الاجتماعي . واذا عني بها فعنايته تحصر في الغالب في تعديد الفوائد التي تغدقها مكتشفاته ومخترعاته على الناس . ولا تتعداها الى تبيين ما تحدثهُ من الهزات الاجتماعية يسيرة كانت او قوية . فكان المنطقة التي تحصل فيها الهزات وكيفية اتقائها كانت منطقة حراماً على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن نطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من موضوعه . والحكومات كانت تقف بمعزل عما هو حادث من هذا القبيل الى ان تستفحل النتائج.فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بنتائج عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة للكيان الاجتماعي له . فلما وقع الاصطدام أنكر كل من يهمهُ الامر ان الامر من شأنه »

هبة علمية كبيرة

ومن الحوادث العظيمة الشأن في تاريخ البحث العلمي الهبة السخية التي جاد بها لورد نفيلد صاحب معامل سيارات موريس على جامعة اكسفرد لتشجيع البحث في الطب السريري والهبة بلغت مليونين من الجنيهات او أقل قليلاً . وقد تلقت الجمعية الملكية في لندن هبات كبيرة كذلك لتشجيع البحث العلمي ومن مشروعاتها البحث بحثاً وافياً في علاقة الملاريا بالتغذية في الهند

ومما يتصل بالبحث العلمي وعلاقته بالمجتمع عناية العلماء بموضوع التغذية وتعيين لجنة لهُ ونشر كتب فيهِ لاعلام مثل السر جون اور والدكتور ماكونجل والاستاذ جوليان هكسلي

تطبيق العلم الطبيعي

ولعلَّ اظهر مظهر لتطبيق العلم الطبيعي في السنة الماضية اتساع نطاق التلفزة حتى اصبح في طاقة من يملك جهازاً لاقطاً ان يلقط مما يذاع من محطة مركزية إذاعة منتظمة. والغالب في تاريخ المخترعات التي من هذا القبيل انها عندما تبلغ مرتبة الاستغلال التجاري يطرد فيها التقدم بسرعة عظيمة على نحو ما تم في الاذاعة اللاسلكية من سنة ١٩٢٢ الى الآن

زرع النبات في الماء

ومن هذا القبيل تقدم الاسلوب الجديد في زرع النباتات في الماء. فقد تمكن الاستاذ جريك احد علماء كاليفورنيا من زرع نباتات في ماء لم يضف اليهِ الا المركبات غير العضوية التي يتركب منها جسم النبات فنما النبات وأورق وأثمر. وقد كان النمو في هذه التجارب سريعاً والحصول كثيراً ولا سيما في ما يخص الطاطم. وقد ابتكر الالمان طريقة مماثلة لهذه الطريقة تمكنوا بواسطتها من بذر بذور علف الماشية والحصول على العلف نفسهُ منها في عشرة ايام. ولاريب أن هذه المبتكرات قد تسفر عن انقلاب عظيم الشأن في الزراعة

بلورات الفيروس

ومن المكتشفات الاساسية في علوم الاحياء ما اثبتهُ بعض الباحثين من أن عوامل المرض الخفية المعروفة باسم ڤيروس يمكن الحصول عليها في شكل بلورات. والفيروس الخاص الذي أفضى بهم الى هذا الاكتشاف هو الفيروس الذي يسبب في ورق التبغ (الدخان) داء التبقع. وعليهِ فقد يحسب الفيروس في مرتبة متوسطة بين المادة الحية والجامدة

مائة مليون مجرَّة

وقد حسب الدكتور هبل احد علماء مرصد جبل ولسن باميركا أن في الكون مائة مليون مجرَّة في نطاق قطره ٥٠٠ مليون سنة ضوئية. والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في سنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية. وينتظر ان يتسع هذا النطاق ويزيد عدد المجرات متى تمَّ صنع التلسكوب الكبير الجديد ونصبه

الفيتامين الجديد

ومما أسفر عنهُ العام الماضي في ميدان الكيمياء الحيوية اكتشاف فيتامين جديد رمز بحرف P الفرنجي ودعي سترين وهو يؤثر في مقدرة جدران الاوعية الشعرية على منع الدم من تخللها وهو لذلك يؤثر في النزف ويفيد في منعه وكذلك في مرض تبقع الجلد الناشيء

عن ضعف جدران الاوعية الشعرية في مناطق معينة من الجسم تحت الجلد

وهناك اكتشاف آخر ذو شأن كبير وهو ان الحقن المتوالي بالانوار اي الهرمونات (مفرزات الغدد الصم) ينشيء اجساماً مضادة لها تقاوم فعلها

النجوم المنفجرة

ان الذين يرصدون السماء يرون احياناً وعلى حين فجأة نجماً مشرقاً حيث تعودوا أن يروا نجماً خفيًّا. وبذلك يزعم بعض العلماء انهُ يمكننا أن نفسر النجم المتألق الذي ظهر فجأة في السماء ليلة ميلاد السيد المسيح

وقد أطلق علماء الفلك على هذا الضرب من النجوم اسم النجوم الجديدة (نوفي) والواقع ان هذه النجوم ليست جديدة وانما هي نجوم قديمة انفجرت فاشتد اشراقها

وقد كانت سنة ١٩٣٦ من السنين التي امتازت بكثرة النجوم الجديدة فيها. فقد ظهر ما لا يقل عن خمسة نجوم جديدة من الطبقة الاولى احدها اكتشفهُ باحث في مرصد جبل ولسن في كوكبة العذراء وقيل أنهُ بعيد جداً عن النظام الشمسي حتى ليستغرق نورهُ سبعة ملايين سنة في الوصول الينا مع ان سرعته تبلغ ١٨٦ الف ميل في الثانية

وجميع هذه النجوم حدثت فيها انفجارات كبيرة فأطلقت مقادير عظيمة من الغاز بسرعة ٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠ كيلو متر في الثانية.

ولو أن شمسنا تصرفت على هذا النحو لكفى انفجار واحد فيها ان يمحق الحياة على وجه الارض. وقد لوحظ أن النجم الجديد المعروف باسم «نوفا لاستري» وبعده ٢٦٠٠ سنة ضوئية حصل فيه اربعة انفجارات من هذا القبيل

سديم أحمر

السدم لطخ سحابية من المادة الكونية داخل المجرة وخارجها. والسدم اللولبية او الحلزونية هي خارج المجرة وترى سدماً لبعدها مع أن فيها قدراً كبيراً من النجوم

وقد تم في السنة الماضية اكتشاف أول سديم أحمر اللون في مرصد مكدونالد بجامعة تكساس الاميركية

«طيب»! وما قيمة اكتشاف سديم أحمر؟

للعلماء نظرية في اشراق السدم وهي أنها تشرق بانعكاس الضوء الذي يشعه ما فيها من النجوم. والنجوم باعتبار حرارتها طائفتان عامتان طائفة حمراء وطائفة زرقاء. فالاولى باردة بالقياس الى حرارة النجوم والثانية شديدة الحرارة

فاذا كانت السدم تضيء بالنور المنعكس من النجوم وجب أن تكون هناك سدم زرق وسدم حمر. وقد اكتشف العلماء سدماً زرقاً ولكنهم لم يعثروا قبل السنة الماضية على سدم حمر فالعثور على سديم احمر يؤيد النظرية المتقدمة. ومن هنا قيمته العلمية

أبرد النجوم

تختلف درجة الحرارة على سطوح النجوم من ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتغراد الى ٣٥ الفاً واعلاها ٥٠ الف درجة. ولكن الدكتور هتزلر مدير مرصد يركز بأميركا اكتشف نجوماً لا تزيد حرارتها على الف درجة بميزان سنتغراد . وقد اكتشفها بالتصوير بأشعة الحرارة لا بأشعة الضوء لان هذه النجوم لا تبلغ من الحرارة درجة تجعلها مضيئة

وعلى ذلك فلا يستبعد ان يكون على مقربة من النظام الشمسي نجوم من هذا القبيل لا يراها بالعين او بالمرقب لأنها لا تشع الا أشعة حرارة وهي مما لا تراه العين ولكن يحس به بعض الالواح الفوتغرافية

التغلب على الستربتوكوكس

الستربتوكوكس اسم يطلق على طائفة من الميكروبات تشاهد مجتمعة في سلاسل ومن العلل التي تحدثها هذه الميكروبات التهاب الحلق وبنت الحمرا وحمى النفاس وغيرها . وقد اكتشف في السنة الماضية ان مادة كيماوية تصنع في احد مصانع الاصباغ بالمانيا تدعى بروتنولين تمكن الجسم من مغالبة هذه الميكروبات والتغلب عليها . ويمكن ان يؤخذ البروتنولين اقراصاً كما تؤخذ أقراص الاسبيرين

نعم ان اكتشاف هذه المادة واستعمالها لم يتما في السنة الماضية ولكن التسليم العام بنجاحها وفائدتها حدث في السنة الماضية

ومن قبيل البروتنولين مادة أخرى تدعى البروتوزيل . ويدعى مكتشفهما دوماك والرأي العام ان اكتشافهما من اهم مآثر البحث العلمي الحديث في مقاومة الامراض المعدية

توليد الارانب في الانابيب

في الاجتماع الذي عقدته الجمعيات الاميركية للبيولوجيا التجريبية في ربيع سنة ١٩٣٦ أذاع الدكتور بنكس احد اساتذة جامعة هارفرد انهُ لا حاجة بهِ الى ذكور الارانب في توليد الارانب . ذلك ان الدكتور بنكس أخذ بيضة أرنب ووضعها في أنبوب ولقحها بمحلول مالح لا اكثر ولا أقل . فنمت البيضة وتحولت جنيناً كامل التركيب ثم زرع هذا الجنين في أرنب أنثى وبعد اسبوع قتلت هذه الأرنب لدراسة الجنين المزروع فيها . وفي تجربة أخرى تمكن الدكتور بنكس من تلقيح البيضة بمجرد تعريضها للحرارة

نقل الاعضاء وزرعها

وتجارب الدكتور بنكس تعيد الى الذهن ما تمَّ على أيدي نفر من العلماء في نقلهم أعضاء كاملة وزرعها في حيوانات أخرى وحفظها حية نامية . فالدكتوران ريط وكولنز من أساتذة جامعة بتسبرج نقلا قلباً حيًّا من سمندل وزرعاه في آخر . والدكتور شوند أحد أساتذة مدرسة لويولا الطبية بشيكاغو بتر نخذ جرذ أبيض وزرعها لحماً وعظماً في جرذ آخر . والدكتور وليس أحد أطباء مستشفى الفرد بملبورن باستراليا نقل عظام القوائم الأمامية من جرذ وزرعها في دماغ حيوان آخر . والدكتوران افروسي

ويبدل نزعا عيوناً ومبايض وغيرها من عيون الحشرات وزرعاها في حشرات أخرى غير التي نزعت منها وقد جرى فريق آخر على خطة الدكتور كارل وهي نزع قلب فرخ ووضعه في سائل خاص ومراقبة عمله الحيوي . فأخذ الدكتور أوسجود والدكتور سكونيش نخاع العظم ووضعاه في انبوب من هذا القبيل وراقباه في نموه حتى هاجمهُ الانحلال

تحويل المادة

ان عنصر الراديوم يطلق ثلاثة انواع من الاشعة هي اشعة الفا وبيتا وغما وعندما ينفد اشعاعه يتحول الى رصاص . وهذا الفعل يستغرق الوفاً من السنين . ومن المراتب التي يمر بها الراديوم في هذا التحول مرتبة يعرف فيها براديوم E ولكن العالم ليفنغود احداساتذة جامعة كاليفورنيا تمكن من صنع راديوم E من عنصر البزموت. ذلك انهُ اطلق على عنصر البزموت قنابل ومقذوفات هي نوى الايدروجين الثقيل بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية وبمعدل ١٠٠ الف قذيفة في الثانية فأصابت بعض هذه المقذوفات نوى ذرات البزموت فحولتها الى ذرات راديوم E . وعند امتحان هذه الذرات وجد انها كراديوم E الطبيعي في جميع خصائصها

وبالطريقة نفسها حوَّل لورنس وكورك البلاتين الى ذهب . ولورنس حوَّل الليثيوم الى بريليوم . وبغرام حوّل الصوديوم الى مغنسيوم

وفيات الاعلام

وقد فقد العلم في خلال السنة الماضية طائفة ن اكبر اعلامه في مقدمتهم الاستاذ بافلوف وهو الفسيولوجي الروسي الذي قضى ما يزيد على ثلاثين سنة يجرب التجارب في ما يعرف الآن بالافعال العكسية المحولة وبحثه فيها أساس لمذهب سيكولوجي كبير الشأن يعرف باسم المذهب السلوكي . ومنهم الاستاذ لويد مورغن الانكليزي صاحب الفلسفة العلمية المعروفة باسم « فلسفة البزوغ » ومن اكبر انصارها هويتهد الانكليزي الاميركي والكسندر الانكليزي والجنرال سمطس. ثم توفي لويس بليريو الفرنسي وهو اول من عبر بحر المانش بطائرة سنة ١٩٠٩. والدكتور كانتي وقد كان في مقدمة العاملين على استعمال الفلم السينمائي في البحث العلمي

أما في ميدان الادب العالي فقد مني العالم بوفاة كبلنغ وهوسمن وتشسترتون الانكليز ومكسيم جوركي الروسي وبيراندللو الايطالي

جوائز نوبل

وقد منحت جائزة نوبل الطبية للسر هنري ديل الانكليزي والاستاذ لوفي النمسوي جزاء لهما على ما قاما بهِ من المباحث الطريفة الدقيقة في فهم انتقال الرسائل العصبية في الاعصاب من ناحيتها الكيمياوية. ومنحت جائزة نوبل الطبيعية للاستاذين هس واندرسن لما لأولهما من فضل التقدم في دراسة الاشعة الكونية ولأن دراسة هذه الاشعة أفضت بالثاني الى اكتشاف دقيقة من دقائق المادة الكهربائية الاساسية ونعني الكهرب الموجب «البوزيترون». ومنحت جائزة نوبل الكيمياوية للاستاذ دبي الهولندي الالماني لما قام بهِ من المباحث الاساسية في المحلولات

الماء وعدوى الفيلاريا برشيد

بحث الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك استاذ الطفيليات في كلية الطب ومدير معهد الامراض المتوطنة بحثاً علمياً طبياً دقيقاً في موضوع عدوى الفيلاريا برشيد خلص منهُ الى النتائج التالية :

بما أن عدوى الفيلاريا متوطنة في رشيد ولا أثر لها في القرى والبلدان المجاورة وبما ان آبار المياه المالحة كثيرة في رشيد ولا وجود لها في القرى المجاورة وبما ان بعوضة الكولكس بيبينز كثيرة جداً في هذه الآبار فالنتيجة المحتمة هي ان مصدر البعوضة الناقلة للفيلاريا في رشيد هو تلك الآبار ذات المياه المالحة التي في المنازل

ومن حسن الحظ ان في رشيد الآن مورداً للمياه العذبة المرشحة مما يجعل هذه الآبار لا لزوم لها . والبلدية لها مصلحة ظاهرة في توريد المياه المرشحة الى اكبر عدد ممكن من السكان فضلاً عن أنهُ يؤدي الى تقدم كبير في حفظ الصحة من الامراض المعدية وفي نفس الوقت يجعل من الممكن تخفيض ثمن المياه المرشحة تخفيضاً يساعد على الاقبال على استعمالها

وقد تبين ان مياه الآبار ملوثة جداً حيث اظهرت نتائج الفحص الكيمياوي وجود مقادير كبيرة من تحت النترات والنشادر

وخزانات المياه على الرغم من انها ليست ذات أثر يذكر في توالد البعوض فانها لو أهملت او تركت مكشوفة لتوالد فيها البعوض. وعلاوة على ذلك فان المياه المستعملة بها والتي تؤخذ من النهر مباشرةً ملوثة من المجاري العامة التي تصب في النهر امام رشيد

وعلى ذلك يتبين بجلاء ان الآبار وخزانات المياه في رشيد هي مصدر الخطر وفي الوقت نفسه يمكن الاستغناء عنها. وعليهِ يوصي الدكتور عبد الخالق بك باتخاذ اشد ما يلزم من الوسائل لردم جميع الآبار والخزانات في رشيد ومد انابيب المياه المرشحة الى اكثر المنازل فاذا تمَّ ذلك فالمنتظر ان عدوى الفيلاريا تنقطع تماماً

ومدينة رشيد تتيح فرصة نادرة لمقاومة مرض فظيع باجراء صحي بسيط وهذا الاجراء الصحي نفسه له اثر عظيم جداً في تخفيض الاصابة بالامراض المعدية الاخرى ولا سيما حمى التيفود والدوسنطاريا

اكتشاف عنصر جديد

في الفضاء بين النجوم

جاء من مرصد جبل ولسن في كاليفورنيا انهُ تمَّ للعلماء فيهِ اكتشاف عنصر جديد في الفضاء الذي يكاد يكون فراغاً ، وهذا العنصر الجديد هو عنصر التيتانيوم ولكنهُ في حالة مؤينة أي ان ذراتهُ ليست كاملة كلها ولكن كهاربها مفصولة عن نواها

يسند هذا الاكتشاف الى الدكتور ولتر ادمز مدير المرصد ومساعده الدكتور ثيودور دنهام وقد فازا بهِ اذ كانا يبحثان في الجانب الذي وراء اللون البنفسجي من طيف

نجمة كبيرة تعرف باسم (شي ٢ اوريونيس)
ويقول علماء مرصد جامعة هارفرد انهُ اذا تأيد اكتشاف هذا العنصر في الفضاء الذي بين النجوم فانهُ يكون دليلاً الى معرفة طبيعة هذا الفضاء أهم مما يستخلص من اكتشاف الصوديوم والكلسيوم فيهِ . ويظهر من طيف النجمة المذكورة ان فيها خطوطاً جديدة من عنصر التيتانيوم ومن المرجح ان موالاة البحث في النجوم شديدة الحماوة تسفر عن كشف هذه المادة في الخلاء المحيط بالارض في جميع الجهات

أونامونو فيلسوف سلامنكه

توفي الفيلسوف الاسباني اونامونو مدير جامعة سلامنكة وصاحب الكتب العديدة في الفلسفة والادب العالي . كان في بدء حياته فيلسوفاً ينزع الى الصوفية ولكن حالة بلاده السياسية حملتهُ على النزول الى ميدان الاجتماع فأصبح الصوفي اجتماعيًّا وتحول الفيلسوف سياسيًّا نفي وعزل من منصبه في سبيل الحملات العنيفة التي حملها على الظلم والاستبداد والمفاسد في عهد الملك الفونسو والديكتاتور بريمو ده ريفيرا

في ابريل سنة ١٩٢٥ اصدر الكاتب الاسباني بلاسكو إيبانز كتابه في الجمهورية الاسبانية المرتقبة فأحدث هزة في دوائر الأدب والسياسة وقد ختمهُ بالعبارة التالية : اني انظر الى المستقبل بلا وجل لانه سيقول عني : كان في وسعه ان يظل على الهامش ولكنهُ خاض المعركة على الرغم من اقتناعه بأنهُ لن يربح شيئاً بل يخسر كثيراً . انضم غير متردد الى ميخويل دي او نامونو وادوارد اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ومن دون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين

ان مجرد ذكر اونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطه في سياسة اسبانيا من سنة ١٩٢٤ او قبلها الى حين وفاته

كان اونامونو اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكة الشهيرة يدرس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقابلة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ويصدر الى جانب ذلك الكتب والرسائل في شتى الموضوعات الاَّ انهُ انبرى من عزلتهِ العلمية يعارض ديكتاتورية بريمو ده ريفيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام فتعرض لغضب اولي الشأن فأخرج من وطنه الى المنفى فثار الرأي العام على نفيه وضغط حتى على حكومة دكتاتورية فاخلي سبيله وسمح له بأن يعود الى اسبانيا ولكنهُ رفض ان يعود اليها فذهب الى فرنسا وظل فيها الى ان اعلنت الجمهورية سنة ١٩٣١ فعاد الى وطنه حيث استقبل بأعظم مظاهر الحفاوة

وكان قبيل وفاتهِ قد انضمَّ الى فريق الجنرال فرانكو لما خشيهُ من الفوضى الشيوعية في البلاد ثم اعرض عنهُ لما رآهُ يدخل الى البلاد طوائف من الاجانب لتمكينهِ من النصر

وقد ادركتهُ الوفاة والحيرة تدمي فيهِ قلبهُ الهائم باسبانيا

وحي القلم

لمصطفى صادق الرافعي: جزءان : ٨٠٨ صفحة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٥ — سنة ١٩٣٦

الرافعي كاتب حبيب الى القلب ، تتنازعهُ اليه اسباب كثيرة من اخوة في الله ، ومن صداقة في الحب ، ومن مذهب متفق في الروح ، ومن نية معروفة في الفن ، ومن اعجاب قائم في البيان ومن هنا ومن ثمّ لا أدري من أين تبدأ ولا أين تنتهي . فأنا حين أريد القول في صداقته او في إيمانه او في حبه اوفي بيانه اوفي فنه أجدني كالمهموم اذا ابتدأ له همٌّ تداعت اليه الهموم من كل جانب ، فأضع القلم وارفعهُ وأديره وأتلوى به لأن المعاني تتلوى بي في سبيل مَضَلَّة ، فأراني أتحاشى القول خشية الغلوّ او خوف التقصير . وقد تكلفت شططاً وحملت نفسي على ما لا تطيق وأنا أكتب عن « وحي القلم » ، لئلاَّ اغلو في الرافعيّ فيقال : معجب غلا به اعجابهُ ، او اقصر فيه فيقال : صديق شقيت به أصحابه

كانت سنة ١٣٤١ — سنة ١٩٢٣ — فقرأت للرافعيّ كتابهُ «المساكين» فنازعتني نفسي الى مراسلته لأصل مابيني وبينه ، فكتب اليّ كتاباً رقيقاً كنور الفجر ، ثم مضت الايام ولقيت رجلاً كهلاً قد اشتعل الشيب في رأسه ، خفيفاً قد اخذت منهُ الايام ، صامتاً قد اسكتهُ الفكر ، ثم قيل هذا الرافعي . فيوم ذاك عرفتهُ ، فاذا هذا الكهل شباب مشتعل يتوهج ، واذا هذا الخفيف قوة مستصعبة مستمرة لا تلين ، واذا هذا الصامت لسانٌ عربيٌّ مبين . ثم هو بعدُ صديق أنت من صداقته في مثل الروضة تفيء الى ظلها ، وتستنشي شذاها ، وتصاحبها وتصاحبك فتمسح عن قلبك الحزن بالرضى والفرح ، ما لا تمسح صداقة الناس ممن ترى وتعرف

وهنا سر الرافعي كلهُ ، سره في فكره ، وسره في علمه ، وسره في بيانه ، وسره في فنه . وذاك هو سر المؤمن إذا ارتفعت عن قلبه الحجب ، وسقطت عن عينه الغشاوة ، وارتفع به الايمان عن أشياء الأرض الى أسرار السماء ، فلا تجد الدنيا منهُ ما يحده أو يطغيه أو يلفتهُ ، فهو بصيرة تنفذ ، وقوة تعمل ، واخلاص يجلو ، وجمال يحب . هذا هو سر الأسلوب الذي انفرد به الرافعي

والرافعي كاتب قد استولى على الامد في مادة الكتابة ، فاللغة عنده مادة للتعبير لا مادة للحفظ والاستعمال ، فهو قد قرأها قراءة البصير ليرى الفروق الخفية بين اللفظ ومرادفه

وليعلم حق اللفظ من العبارة ، وحق العبارة من الالفاظ،فيظن بعض من لا قدرة لهُ أن الرافعي يريد الاغراب على الناس في كلامهِ،واستجلاب الغريب من اللغة للتفاصح ، وما بهِ ذلك ، وإنما هي المعاني . . . المعاني عند الرافعي هي التي لها حق اختيار الالفاظ من لغتهِ . وهو لا يأخذ ألفاظهُ من المعاجم وإنما يأخذها من سليقته التي صقلتها المعاجم . وقد أكثر الناس من نقد الرافعي زمناً ووضعوا عليهِ من أوهامهم غشاء آذاهم ولم ينفعهم ، وحجتهم في ذلك هذه اللغة التي أحيا الرافعي مواتها ببيانهِ. وما اللغة ؟ أهي الألفاظ قائمة بالمعاني التي وضعتها لها المعاجم ووقفت عندها ؟ ان هـذه ليست بشيءٍ ، وما هي الا أداة كالسيف . فالسيف على جودتهِ لا يعمل الا اضعف العمل ، فاذا أخذتهُ أنت وجعلت تدرب بهِ وتمرّن ساعدك عليهِ ، وعرفت كيف تجيد الضربة وتصيب المقطع،كان لهُ أقوى العمل ، لأن السر في ساعد منتضيهِ وبصره وحيلتهِ لا في حده وعارضيهِ

واللغة لا تقوم بغير فكرة ، والرافعي قد استولى على أصولها ، بقوة الادراك وشموله وتراميه، وبالقدرة على الابانة عنها باللفظ المتصل الماضي الذي لا ينقطع دونها ، وبسمو الخيال وتراحبه واستطالته . فالرافعي يدمن على الفكرة الواحدة إدمان الفيلسوف الصابر الثابت بين ادارتها وتطبيقها وبسيطها وردها الى أصول مقررة في الحياة ، ثم لا يزال يجمع بينها وبين قرائنها،ويحدد فرق ما بين القرينين ما ظهر من ذلك وما استتر ، ثم يصحح النظر في الاصل الذي يردُّ اليهِ أفكاره تصحيح الحكيم المقرر حتى لا يقع بينها التدابر والاختلاط والفساد . ولا يزال على ذلك يقيد ويطلق ويأخذ ويدع بقانون طبيعي في نفسه ، فلا يترك الفكرة الاّ وقد ولدت لهُ صغاراً من الأفكار فيها من الجمال والسحر والقوة الكامنة ما للطفل الصغير الوديع الجميل ، واذا الفكرة الأولى التي أدمن عليها أمٌّ فيها هيبة الأمومة العاملة المخلصة وحنانها وروعتها ووقارها

وهناك أسرار الفن في بيان الرافعي فنها ادراك الجمال السامي غير المبتذل ، فهو يدرك الجمال في الجميل لانه يعرف أسرار جمالهِ ، ويدرك الجمال في القبيح لانهُ يعرف أسرار قبحهِ . فالجمال عندهُ في السر والجوهر وأصل البناء لا في العرض ، وكذلك الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة وما الى ذلك ، هي كلها عند الرافعي موضوع للاسرار فهو لا يقف عليها وقفة المتثبّت بل يهزها من أصولها ليخرج أسرارها ، فاذا فعل كتب صفة الشيء الحي بكلام حي فيهِ قوة المقاومة والقدرة على البقاء ، وكل الاسباب التي تضمن لهُ الحياة الفنية والبيانية

ثم لا يقف الرافعي عند ذلك بل لكل هذا مكان آخر يصل اليهِ فيصهره ويذيبهُ ثم يرده في صورة فذة ، ذلك هو الاحساس القوي المشبوب . فهو يأخذ الفكرة بلغتها وعقلها وسرها من احساسهِ هو لا من احساس الناس،حتى اذا آمن بها إيماناً لا مطعن فيهِ استعان بايمانه القوي على

انشائها انشاء مبتدعاً خاصاً موسوماً بسمة صاحبه ، تلك السمة التي تسمى « أسلوب الرافعي »

كلُّ ذلك بعض العمل البيانيّ الذي يتدفق من لسان هذا الرجل . وان لهُ خاصّة عجيبة إذا تكلم في الاجتماع العربيّ الاسلاميّ في هذا العصر ما بين خُلُق وعلم وعمل ودين ، هي هذه الروعة المستعلنة المنصبَّة على معانيها كنور الشمس . وسرُّ هذه انهُ يحسُّ ويفكّر وينقد ويبيّن بقوة ثلاثة عشر قرناً من التاريخ الاسلامي ، ويحسُّ باحساسها ، ويدرك أفكارها ، ويعرف أسرار فضائلها ورذائلها ، وأسباب قوتها وضعفها ، وقد أحاط بكثير من أصول القانون الطبيعيّ الذي يجمع ويفرّق ويضبط وينشر ، ويزيد وينقص في هذه الامة الرابضة في قلب الشرق

اما الرافعيّ المحب فهو رجلٌ وحده سام عن الاسفاف، مشرق كالنجم ، صافٍ كانهُ مرآة مجلوّة ، ثم فرحٌ كأنهُ أملٌ يتحقق ، باكٍ كانهُ عضوٌ يقطع ، متألم كأنهُ محارب باسلٌ ينهزم، ثم لايزال على ذلك — الرجلَ الجلد القويَّ الذي لاينكسر ولا يتحطم، ولاتتدنَّى بهِ القوة الغالبة ، قوّة اللذّة الانسانية القَرِمة المتشهّية . لذلك يخلو حبُّ الرافعيّ من الفجور الفني ، وانما يصف الرافعيُّ المحبُّ فجور الرجل والمرأة ليسمو بالرجل الفاجر ويخرجهُ من سلطان لذتهِ ، ويصف فجور المرأة ليهديها ويطهرها وينزهها وينصفها من ظلم الرجل الفاجر . ولهُ على ذلك قدرة قل ان ينالها كاتب ممن نعرف

وأما الرافعي ربيبُ الشّعب، فهو الواصف البليغ الذي يستطيع ان يجمع آلام أمةٍ مظلومة في ألفاظٍ تتألم ، ويؤلف آلام المساكين في كلماتٍ تبكي ، ويحصر سخط المستعبدين من الفقراء في حروفٍ تبكي وتتألم وتتسخط وتتشفى وتبغض وتسخر من هذا الاجتماع الذي استعبدهم وقد ولدتهم امهاتهم احراراً . فهو في هذه «ترجمان القلوب المتحطمة»

واما الرافعي الساخر ، فهو الـكلمة القصيرة التي تبلغ ما لا تبلغهُ الثورات المسلحة . . . .

وأما الرافعي فهو الرافعي الذي لاتعرفه حتى تقرأه وتصبر على ملازمتهِ ، وتعطيه من نفسك لتأخذ من بيانهِ ومن فنهِ ومن بلاغته ومن فكره ومن حكمته . فهو كاتب حكيم قوي فلا يجدر بك ان تأخذ كلامه على النظرة الطائرة كما تقرأ مقالة في صحيفة يومية لتستفيد، بل أقرأه لتحس وتنفذ اليهِ وتهتز معهُ ثم تستفيد

اقرأ «وحي القلم» تجد الرجل الذي حدثناك به، وتجد البيان الغض القويّ المتدفق الذي يثير في نفسك التاريخ اللغوي المكتوب في دمك بالوراثة ، وفي قلبك بالحب ، وفي احساسك بالاهوال النفسية التي تمر بك . فان بيان الرافعي اذا تدبرتهُ وتدبرتهُ أيقظ فيك البيان لأنه بيان حر غير مقلد ، وأوحى اليك بالفكرة المستحكمة والعبارة المجوّدة لأنه بيان سام غير مقيد ، ثم يلهمك القدرة على التفكير والابانة لأنه « وحيُ القلم »

محمود محمد شاكر

فلسفة اللذة والألم

تأليف اسماعيل مظهر — مكتبة النهضة المصرية — صفحاته ٢٥٨ قطع المقتطف

الشقة طويلة بين أرستبس في القرن الرابع قبل الميلاد وبنثام ومِل وآرائهما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وباڤلوف ووطسن في القرن العشرين . والفرق بعيد بين اللذة والمنفعة. ولكن الفيلسوف القوريني كان رأس سلسلة من المفكرين أحدثهم في هذا العصر وطسن السلوكي. واللذة وهي اساس السعادة في نظرهِ تحوَّلت بتوالي القرون الى المنفعة في مذاهب المتأخرين

هذا التطوُّر التاريخي ، من ناحية الاشخاص ومن ناحية الموضوع ، هو محور هذا الكتاب النفيس

في سيل الكتب العربية المتدفق على ادارات الصحف والمجلاَّت ، يجد المنقب طائفة ممتازة من الكتب هي من خير ما أنتجت عقول الغربيين وهي على الغالب اما مترجمة « كسلسلة المعارف الحديثة » و« تراث الاسلام » واما مقتبسة من غير كاتب واحد « كقصة الفلسفة الحديثة » . فاذا وجد كتاباً يمكن ان يقال انهُ أُلف ، وان مؤلفهُ قصرهُ على موضوع بعينهِ من موضوعات العلم او الفلسفة او الادب، تبسط فيهِ ولمَّ ما تفرق من دقائقهِ ، كان ذلك من بواعث غبطتهِ لانهُ دليلٌ على الحيوية والاستقلال الفكري

وقد عرف كاتبُ هذه السطور ، كتابَ اللذة والالم ، عندما كان رسالة صغيرة لا تعدو عشرات الصفحات وتتبع تقدُّم البحث فيهِ ، وما كان لكل خطوة خطاها مؤلفهُ من أثر عميق في نفسهِ ، فهو حين ربط بين قواعد فلسفة اللذة ، فالمنفعة ، وقواعد المذهب السلوكي في علم النفس الحديث، كان أسعد الناس طرًّا . فاذا هو قال انهُ قضى اربعة اعوام في تأليفهِ فصدّقوهُ . واذا قال انهُ طوى ما كتب في درجهِ ثلاثة اعوام اخرى فصدّقوه كذلك ولكن بتحفظ لأنهُ في خلال هذه الاعوام كان يخرج صحائفهُ وينقحها ويضيف اليهِ ويحذف منها ما يبدو لهُ بعد تمحيصٍ دقيق وتأمل عميق

وارسطبس هذا فيلسوف يوناني (٤٣٥ — ٣٥٦ ق . م) منشيء المدرسة الفلسفية المعروفة بالمدرسة القورينية . زار اثينا في حداثتهِ وأغرتهُ شهرة سقراط بالبقاء فيها فتتلمذ لهُ ثم تجوَّل في مدن اليونان واخيراً استقرَّ في قورينة على ساحل شمال افريقية المتاوح لليونان . وقد كانت فلسفتهُ واقعية عملية . فانهُ بناها على مبدأي سقراط في الفضيلة والسعادة وقدم الثاني على الاول وجعلهُ مقياس الحياة ومحكَّها . فالخير في رأيه مايفضي الى أعظم نصيب من اللذة . والغريب في هذا الرجل انهُ ، مع تقديسهِ اللذة كمبدإٍ فلسفي ، امتنع عن الانغماس فيها.

بين ما دعا اليهِ ارسطبس في القرن الرابع قبل الميلاد وما دعا اليهِ هيوم وبنثام ومل في القرون

الحديثة بون شاسع . فأرسطبس طلب السعادة للفرد وجعل اللذة أساسها . اما الفلاسفة الانكليز فقالوا ان السعادة الحقيقية هي سعادة الجماعة او سعادة اكثرها وجعلوا أساسها المنفعة . ولذلك قيل ان شعارهم هو « الخير الاعظم للعدد الاعظم » . وفي ذلك يتم الانتقال الفلسفي والاجتماعي من اللذة الخاصة الانانية ، الى اللذة العامة فالمنفعة العامة او الخير الاعظم للعدد الاعظم

فلما ظهرت نظرية التطور العضوي اتجه الرأي الى ان هدف التطور هو انشاء جسم اجتماعي حيّ نشيط صحيح ، فالقياس لا يمكن ان يكون « الخير الاعظم » او اكبر قسط من المنفعة العامة بل يجب ان يكون « صحة الجسم الاجتماعي »

جميع هذه المسائل وعشرات غيرها مبسوطة في هذا الكتاب أوفى بسط ، في ملابساتها التاريخية والعلمية والفلسفية . ومن يراجع الفصل الذي نقلناهُ عن هذا الكتاب في مقتطف دسمبر الماضي ، يعلم انهُ تحفة فلسفية ثمينة

موسى بن ميمون — حياته ومصنفاته

يحق للاسرائيليين في العالم أجمع وفي الشرق خصوصاً ان يفتخروا بالفيلسوف العلامة والطبيب الشهير موسى بن ميمون الذي نبغ في اوائل القرن الثاني عشر فانهُ كان من اعظم علمائهم وفلاسفتهم في تلك العصور واعترافاً بغزارة علمه ومقامهِ الادبي أقامت جمعية التاريخ الاسرائيلية في القاهرة حفلة شائقة تذكاراً لمرور ٨٠٠ سنة على وفاتهِ في العام المتصرم في دار الاوبرا الملكية اشترك فيها رجال العلم والادب من جميع الملل والنحل . وقد حذت حذوها جميع الاندية الاسرائيلية في جميع اقطار المسكونة لاحياء ذكرى هذا العالم الجليل لما كان لهُ من المكانة والاحترام والاجلال في قلوبهم وما زالت الطائفة الاسرائيلية في القاهرة الى يومنا هذا تقيم حفلة تذكارية كل عام في يوم وفاتهِ في معبده الخاص في حي اليهود المعروف بكنيس يهود المغرب ويزورون ضريحه في طبريا في مثل هذا الوقت من جميع نواحي المعمورة

فصار من حكم الضرورة على كل من يعنى بتاريخ الفلسفة الاسلامية والآداب العربية والعبرية ولا سيما على كل اسرائيلي ان يطلع على تاريخ حياته ونشأته وما عانى من المصائب والنوائب وعلى مؤلفاته في الفلسفة والعلم والدين والطب وقد كان بمصنفاته من علماء اليهود الذين نقلوا مذاهب العرب الفلسفية الى الغربيين بالعبرية ثم الى اللاتينية ومن الذين ساهموا بقسطٍ وافر في عالم العلم عموماً مثل سعديا الفيومي وابن جبيرول وابن عزرا وغيرهم من ابناء جلدته في الاندلس وكان في مقدمة الائمة والاحبار الاسرائيليين الذين وضعوا الشروح الضافية على التوراة والتلمود في عقائد الديانة الاسرائيلية مثل « راشي وملبين » . فأصبحت

مصنفاته قاعدة واساساً في التشريع الاسرائيلي ونبراساً بمعنى الكلمة يستنيرون بها « كالسراج » احد مؤلفاته وكان في آخر حياته رئيساً على الطائفة الاسرائيلية في مصر أفادها بارشادات دينية هامة واصلاحات لازمة في شؤونها

ولما كانت مكاتبنا العربية تكاد تكون خالية من المعلومات والبيانات الوافية التي تليق بمقام هذا الرجل الجليل وتأليفه وبحوثه الفلسفية كما يجب جاء الدكتور اسرائيل ولفنسون ابو ذوئب استاذ اللغات السامية بدار العلوم واتحفنا بكتابه « موسى بن ميمون — حياته ومصنفاته » بعد بحوث دقيقة ومجهودات عظيمة وهو الكتاب الثالث من يراعته من سلسلة كتب في تاريخ اليهود والعرب

تصفحت هذا الكتاب النفيس فوجدته منتهى الارب للبحث في موضوعات كهذه وكنت حائراً في خير الطرق لاستقاء المعلومات اللازمة لي في مباشرتي نشر تاريخ اليهود في مصر وسيرة حياة عظام رجالها ومصادر مراجعها فجاء كتابه لي « دلالة الحائرين » بمعنى الكلمة كاسم احد مؤلفات الميموني الشهير . وسد النقص الذي نحن في حاجة اليه

يقع الكتاب في اربعة ابواب في حياة موسى بن ميمون . في مؤلفاته الدينية . والفلسفية . والطبية . وقد أفاض في الباب الاول عن نشأته واوطانه وسيرة حياته .وأثبت انهُ لم يرتد عن عقيدته يوماً ما . وذكر في الباب الثاني كتبه الدينية في حسبان الميقات وشرع النسيء ورسالة تمهيدية لدرس الفلسفة والمنطق . ثم كتاب الفرائض بالعربية ثم « السراج وتثنية التوراة » المعروف باليد القوية يبحث في التشريع ثم اجابات موسى ووصية موسى وغيرها . ثم لخص في الباب الثالث بحوثاً فلسفية في كتابه الشهير « دلالة الحائرين » الذي كان له شأن هام ورواج رواجاً عظيماً في تلك العصور وهو أشهر من نارٍ على علم ثم استطرد كلامه في الرابع في قيمته الطبية ومصنفاته في الطب بالعربية وتبلغ نحو العشرة منها « فصول موسى » في الطب. وقد قمت بترجمته الى الانكليزية تلبيةً لرغبة الجمعية الميمونية في نيويورك . ثم رسائل في السموم والبواسير وتدبير الصحة وغيرها

ومن طالع هذا الكتاب النفيس بلغته الفصيحة واسلوبه الرائع الآخذ وما ورد فيه من النصوص والادلة يتحقق من المجهود العظيم الذي بذله المؤلف في استقاء بحوثه وجمعها من مصنفات ومراجع متعددة في لغات مختلفة وقد ذكرها جميعاً باسهاب مما يثبت المامه التام بالفلسفة الاسلامية وسعة اطلاعه في الفرنسية والالمانية والانكليزية والعبرية وذكاء ونشاطاً وهمة توجب الاعجاب

الدكتور هلال فارحي

تراث الاسلام

لجنة الجامعيين لنشر العلم — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

أخرجت مطبعة اكسفورد من نحو خمس سنوات كتاباً نفيساً النفاسة كلها في «تراث الاسلام» تولى الاشراف على طبعه العلامتان السر توماس ارنولد رحمهُ الله والاستاذ الفرد غِيُّوم، وعهد في كتابة فصولهِ الى طائفة من اكبر المتوفرين على الدراسات الاسلامية في نواحيها المختلفة فكتب جب في الادب ونيكولسن في التصوف وغيّوم في الفلسفة والفقه وماكس مايرهوف في العلم والطب وكارا ده ڤو في الفلك والرياضة وارنولد في الفن الاسلامي وأثره في التصوير في اوربا وكرامرز في الجغرافية والتجارة وغيرهم في غيرها

وقد اقتنينا هذا الكتاب منذ صدر باللغة الانكليزية، وعوّلنا عليهِ في غير بحث واحدٍ، وكان من بواعث حيرتنا احجام كتابنا ومترجمينا عن نقلهِ الى العربية لا لان ما فيهِ جديد، ولكن لانهُ يدلُّ على ما للمآثر الحضارة الاسلامية من المكانة في نفوس الذين توغلوا في دراستها في الغرب ولانهُ يجمع في فصول منظمة زبدة ما عرف عن تلك المآثر

من أول صفحة فيهِ الى آخر صفحة، اسماءُ اعلامٍ في الطبقة الاولى بين اقطاب الفكر والفن في العالم. واذا اقتصرت على العلوم دون غيرها، وهي ارث مشاع للامم، طالعتك اسماءٌ باهرة مثل الخوارزمي والبتاني والبيروني والكندي والرازي وابن الهيثم والزهراوي وابن البيطار والغافقي. ان كوكبة كهذه الكوكبة من الرجال، مما تباهي بهِ كلُّ امة في كل عصر. اما في الفن والادب والفلسفة والفقه والتجارة والجغرافية، فآثار الحضارة الاسلامية ماثلة امامنا في الخشب والرخام والنحاس والمساجد والقصور والشعر والمصطلحات الشائعة واعلام الأماكن المشهورة

لذلك تلقينا نبأ العزم على نقل هذا الكتاب الى اللغة العربيـة فرحين مستبشرين. وكان لا بدَّ في الاقدام عليهِ من صدور فتية عامرة بالثقة والعزم لان ترجمة هذه الفصول من ادق ما يتعرَّض لهُ ناقل من اللغات الاعجمية الى العربية ولا سيما حيث يعرض المؤلفون لشرح المعاني الدقيقة في الادب والفلسفة. لذلك كانت لجنة الجامعين لنشر العلم من خيرة الجماعات التي تتولى هذا العمل

وقد صدر حتى الآن جزآن من الترجمة العربية، يحتوي اولهما على المقدمة واربعة فصول تتناول اسبانيا والبرتغال. الحروب الصليبية. الادب. الفلسفة والالهيات. ويحتوي ثانيهما على ثلاثة فصول في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة. وقد تولى نقلهُ الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية. والجزآن مطبوعان طبعاً متقناً في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بحوث دستورية

١ — الأنظمة الدستورية والادارية والقضائية المقارنة : تأليف الدكتور عبد السلام ذهني بك والدكتور وايت ابراهيم — مطبعة الاعتماد

٢ — نظرات تاريخية دستورية : تأليف حسن صادق : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الدكتور عبد السلام ذهني بك المستشار والدكتور وايت ابرهيم الأستاذ بكلية الحقوق ، أشهر من أن يعرَّفا . فهما في كل ما يتعلّق بالشؤون القانونية من المراجع التي يعتمد عليها في مصر . وقد صحَّت نيتهما على اصدار مجموعة من الرسائل في الانظمة الدستورية والادارية والقضائية المقارنة . وهذه رسالتهما الأولى وعنوانها « التطوُّرات الدستورية العالمية »

ان نظرة واحدة نلقيها على خريطة اوربا كما كانت قبل الحرب وكما هي الآن تبين لنا مدى التحوُّل الدستوري في ارجائها . فامبراطورية النمسا والمجر ، قامت على انقاضها جمهورية جديدة هي تشكوسلوفاكيا . اما النمسا فجمهورية اسماً ولكنها شبيهة بالدكتاتورية فعلاً . واما المجر فلا تزال مملكة بلا ملك ، ودستورية لا يحترم دستورها كلَّ الاحترام

والامبراطورية الالمانية انشئت جمهورية تعرف بجمهورية ڤيمار ثم تحوَّلت الى دولة يغلب عليها مبدأ الزعامة وهي دكتاتورية يمكن ان توضع وايطاليا في الفريق المعروف بدكتاتوريات اليمين ، حالة ان روسيا توضع في فريق دكتاتوريات اليسار

اما بولونيا التي انشئت بضم ما فرِّق منها على المانيا وروسيا والنمسا قبلاً فقد انشئت جمهورية ، بسط عليها قبلاً المارشال بلسودسكي يد الدكتاتور ، وقد خلفهُ الآن الى حدّ ما المارشال سمجلي ردز

من النادر ان تجد في اوربا بلاداً لم يمسَّها هذا التحول في اساليب الحكم ونظمه . فاسبانيا الملكية تحولت جمهورية سنة ١٩٣١ وتداولتها ايدي احزاب اليسار المعتدلة ثم احزاب الوسط واليمين فأحزاب الجبهة الشعبية الى ان نشبت الحرب الاهلية . واليونان تقلبت من ملكية الى جمهورية الى دكتاتورية الى ملكية مراراً لا يمكن التثبت منها الاَّ بالرجوع الى المؤلفات الخاصة بذلك . والامبراطورية البريطانية اصبحت بقانون وستمنستر جامعة امم ، مقام المملكة المتحدة فيها في ظل التاج لا يختلف عن مقام كندا او استراليا او جنوب افريقية

هذا من حيث نظام الحكم ، اما من حيث قواعد الحكم الدستوري كتمثيل النساء ،والتمثيل النسبي ، والانتخاب المباشر وغير المباشر والاستفتاء وحق حلّ البرلمان وصلة السلطات المختلفة بعضها ببعض وغيرها من الاصول الدستورية ، فقد مسّها التحوُّل قليلاً او كثيراً بعد الحرب وقد عني المؤلفان الفاضلان بتفصيل هذه الشؤون تفصيلاً مقابلاً فأسديا بذلك مأثرة جديدة الى مآثرهما السابقة في تربيتنا السياسية

أما كتاب « نظرات تاريخية دستورية » فيشتمل على بحث في دساتير المانيا والنمسا وتشكوسلوفاكيا . والبحث في دستور المانيا يستغرق نحو نصف الكتاب . ففي أولهِ ملخص جيد للدستور الالماني الذي ظلَّ نافذاً الى ثورة ١٩١٨ ويليه بحث في الحوادث التي سبقت دستور جمهورية ڤيمار الجديد ثم بحث في خصائص هذا الدستور وقواعده . وحبذا الحال لو أضاف المؤلف فصلاً ولو موجزاً عن خصائص نظام الحكم القائم في المانيا الآن حتى يستتبَّ للقارىء فهم التحوُّل من جمهورية ڤيمار الى الريخ الثالث

وما يقال عن المانيا يقال عن النمسا ، فبحث المؤلف وافر في قواعد دستور جمهورية النمسا ولكن منذ وضع هذا الدستور على الرفّ واصبح دلفوس بمثابة الحاكم بأمره ، ونكّل بالاشتراكيين — مع ان «من يتصفح الدستور النمسوي يشعر خلاله بالأثر الاشتراكي لان الاشتراكيين في النمسا كما في غيرها من البلدان كانوا يميلون الى اضعاف السلطة التنفيذية ووضع السلطان في يد مجلس نيابي يمثل ارادة الشعب تمام التمثيل » — واقام الدولة على اساس نقابي اوفاشستي ثم بعد مصرعهِ حذا خلفهُ الدكتور شوشنج حذوهُ

اما دستور تشكوسلوڤاكيا فيختلف عن دستور جمهورية المانيا وجمهورية النمسا ، في انهُ لا يزال نافذاً وقد احاطتهُ رآسة ماساريك بسياج من التقاليد العالية ، وتشكوسلوڤاكيا لا تزال جمهورية حقيقية على الرغم من قيامها عند ملتقى التيارات الاوربية المتناقضة . وامل الاحرار ان تبقى رافعة علم الدمقراطية في اوربا الوسطى والشرقية

***

وليس ثمة ريب في ان الحياة الدستورية النيابية تقتضي من جميع المشتغلين بالشؤون العامة عندنا الاطلاع على خصائص النظم الدستورية والنيابية في البلدان المختلفة وفي هذين الكتابين مرشد لمن يبغي الاطلاع وتمهيد لمن يريد التوسُّع والتوفر

فهرس الجزء الثاني من المجلد التسعين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

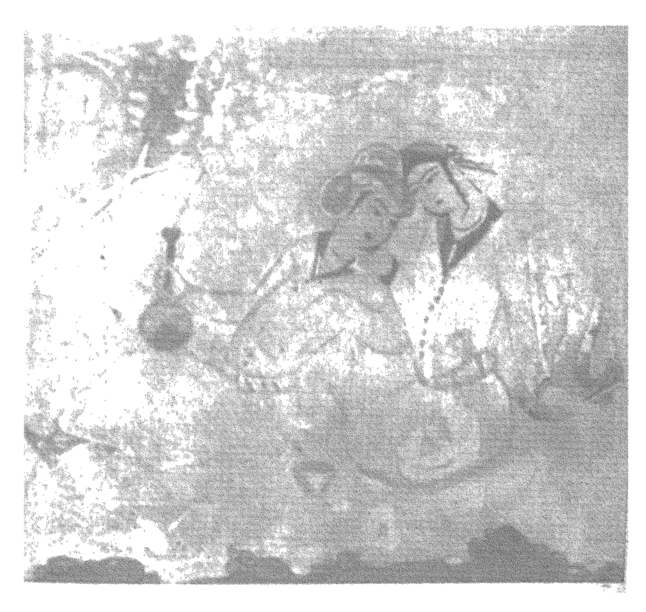
٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ «سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الفكاهة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستوريه « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (لرمسي مكدونالد)
١٥ ماقل السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ م. م العدلة (موريس مترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزءاً (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « بارداليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ازابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

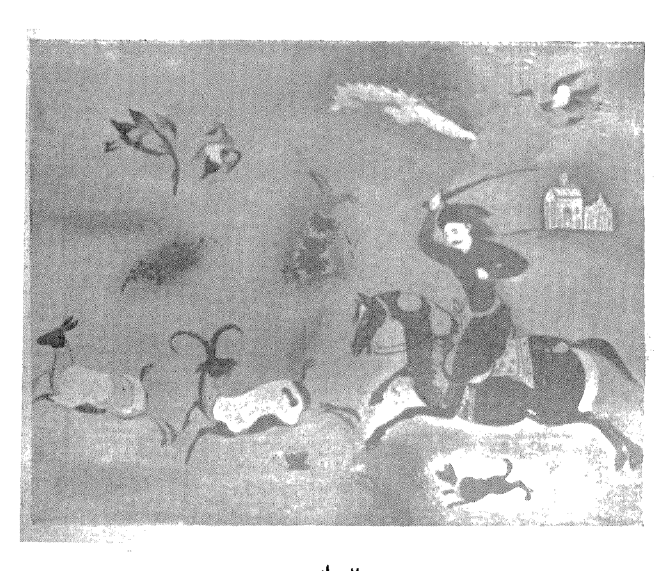
من روائع الفن الايراني

في الصفحات الثلاث التالية لوحات نقلها الفنان سركيس كاتشادوريان عن صور مرسومة ورسوم منقوشة على جدران طائفة من القصور والجسور الفارسية وهي ترتد في تاريخها الى القرن السابع عشر عندما بلغ الفن الفارسي الذروة في عهد الشاه عباس الاكبر (١٥٨٧ — ١٦٢٩) والخدمة التي أداها هذا المصور بعمله هذا هي الاحتفاظ بهذه الآثار الفنية بعد ما امتدت اليها يد البلى



قلوب متحررة

وهي صورة منقوشة على جدار في « قصر عالي قابو » في مدينة اصفهان



الصياد

صورة منقوشة على جدار احد المنازل الارمنية في جلفه
وهي حي من أحياء اصفهان بناه الشاه عباس الكبير وأسكن فيه الأرمن

المخطوبة

وهي صورة منقوشة على جدار
في «قصر عالي قابو» في اصفهان



أنت وأنا

هي احدى طائفة من الصور منقوشة على ركاز جسر
برف باسم جسر «الله وردي خان» وبين اقواسه.
قد كان باني هذا الجسر احد قواد الشاه عباس



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التسعين

١ مارس سنة ١٩٣٧ — ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٥

على ذكر فتوى

تحديد النسل

وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية

أصدر حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ فتوى في هذا الموضوع لخصتها جريدة « المصري » في عددها الصادر في ٢ فبراير في ما يلي : —

« من أرباب العائلات الكبيرة بين المسلمين وغير المسلمين أفراد كثيرون يشعرون بوطأة الأزمة الاقتصادية ويخشون المستقبل ونفقات الأبناء من طعام وشراب وتعليم وقد دفعهم هذا الشعور الى التفكير الطويل في الحذر والحيطة ومن الأموز الجوهرية التي فكّر فيها هؤلاء مسألة تحديد النسل فمن كان عنده ثلاثة من الأولاد مثلاً يلاقي الويل لكي يجعل منهم شباناً صالحين في بناء الوطن ولكن أغلبية هؤلاء جميعاً يعرفون ان لهم ديناً قيماً يريدون التوفيق بين نصوصه وتعاليمه وبين هذه المبادىء القاسية

«والى الآن لم يخط أحد من رجال الاسلام في السنين الأخيرة خطوة تشفي غليل هؤلاء جميعاً وتحدد الموضوع تحديداً واضحاً للأهالي والأطباء . وقد اتصل بنا ان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أصدر في يوم ٢٩ يناير الماضي فتوى خطيرة في هذا الموضوع يفهم منها :

« أولاً — يجوز لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يحول دون حمل زوجته

« ثانياً — يجوز لكل من الزوجين قبل نفخ الروح في الجنين ، وهذا يحتاج الى عدة أسابيع كما قرر الأطباء أن يتخذ من وسائل الادوية (من غير اضرار بصحة الزوجة طبعاً) ما يمنع الحمل عند وجود عذر مقبول كما مثل لهُ وهذا على رأي بعض الفقهاء

« ثالثاً — باجماع الفقهاء لا يجوز عمل او تصرف من شأنهِ اسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيهِ

***

ونحن لا نعرض للموضوع من حيث علاقتهُ بدينٍ من الاديان السموية لان المقتطف مجلة غير دينية، ولا من حيث تطبيقهُ في هذه البلاد او غيرها من البلدان ، لان مشكلة السكان والحث على زيادتهم كما في المانيا وايطاليا او ترك حبلهم على الغارب كما في فرنسا وانكلترا وغيرهما، من الخطط التي تقررها بعض الحكومات متى رأت الحاجة تلجئها الى ذلك . ولكن للموضوع نواحيهُ الصحية والاجتماعية والدولية ، وهي النواحي التي نبغي ان نعالجها بايجاز في هذا المقال ، وليس لنا فيهِ الا جمع شتات الموضوع من مختلف الكتب والمجلات ، جمعاً حاولنا ان نحفظ فيهِ التوازن بين اصحاب الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة

ان الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان فيأخذ على العقل سبيل التفكير المجرَّد . فهي آناً حركات يولدها ويبعثها في سبيل التنفيذ حمية دينية كالصهيونية او شعور بحق مهضومٍ كالثورة الفرنسية او تصورٌ رفيع للمثل الأعلى ينبثُّ في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقهِ غير ملتفتة الى ما ينالها من أذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في أنها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تنجم عن كثرة النسل و تواليهِ يجب اجتنابها ، مع انها في دورها الأخير تحوَّلت تحوُّلاً كبيراً لما نالهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ولكن أساسها العلمي يجب ان لا يغفل حين بسط مبادئها والالمام بسير اقطابها

وفكرة تحديد النسل ، ترتدُّ كفكرة اجتماعية الى مفكري اليونان الأقدمين بل والى ما قبل اليونان! اذ من المعروف ان القبائل التي لا تزال الى عصرنا الحاضر تعيش على البداوة تميل احياناً الى تحديد النسل بوسائل وأساليب فظة همجية اشهرها قتل الجنين او الطفل الوليد . وقد ذكر پرسي سمث في مقال لهُ عن سكان جزيرة هورن في غرب المحيط الهادىء نشر في جورنال الجمعية البولينيزية انهُ ليس من بواعث خجل المرأة هناك ان تقتل وليدها وان هناك غير امرأة واحدة قتلت من ولدها ستةً . ومن وسائلهم سحق الجنين بضغط جسم المرأة حيث الرحم بحجارة ثقيلة. وقد اشار الاستاذ كار صوندرز في مؤلفه « مشكلة السكان » الى ان قبائل بدائية مختلفة تعلم كيف تمنع الحمل وان ولدها قليل ، ولكنهُ لم يبسط الكلام في هذه

الوسائل . والكتب التي تعالج هذا الموضوع وتفصل التقاليد المتبعة في القبائل الهمجية كثيرة .
اما في عهد اليونان فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العظماء الأقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل جميع الأطفال الضعاف البنية رغبةً منهُ في تنشئة شعب قويّ . وأدرك افلاطون وارسطوطاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد ، وخصوصاً من كان منهم في الأسرة الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لاجتنابهِ . ولكن طائف النسيان طاف بهذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف باكثر الآراء التي ابتدعتها عقول اليونان ومخيلاتهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلّت «كثرة النسل» شعاراً لأمم اوربا لان المفكرين حينئذٍ كانوا يرون عظمة كل امة وتفوقها مرتبطين اوثق ارتباط بعدد سكانها ، ولم يشذَّ منهم الاّ اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي اشار اشارات متفرقة في مؤلفاتهِ الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقارهِ . وظلَّ القول بأن قوة الأمة الحربية وتفوقها القومي مرتبطين بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام مونتسكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرها في بلدان اخرى محاولين ان يبعثوا آراء افلاطون وأرسطوطاليس من مدفنها مبينين أن في سرعة ازدياد النسل في أية أمة خطراً على رفاهيتها

ذلك انهُ اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍّ ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . ولكن لا يلبث ازدحام السكان ان يبلغ حدًّا تصبح الزيادة بعدهُ خطراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعهُ . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع لهُ المعامل والمتاجر . فترتع بينهم مبادىء الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً او يتجهون الى التوسع والتبسط بالقوة فتكون الحروب واهوالها . وقد يتعذر تعيين هذا الحدّ الفاصل بين الحالين . لانهُ يختلف باختلاف البلدان وما بلغتهُ من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان يحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس او اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع او اقل

وعلى الرغم من ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحد في احوال معينة فيبلغ عدد السكان عندهُ مبلغاً يمكنهم من التمتع بأرقى وسائل العمران وأعلى مستوًى اقتصادي في معايشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١٣٠ مليوناً — كاهم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن وما نسمع عنهُ من كثرة العمال المتعطلين عن العمل بينهم يرتدُّ الى سوء توزيع الثروة لا الى

شدّة ازدحام البلاد بابنائها . وبلجيكا التي تكاد تغص بسكانها اكثر رخاءً من بلاد فارس . مع ان ٦٥٩ نفساً من سكان الاولى يقطنون في ما مساحتهُ ميل مربع واحد من الارض يقابلهم ١٦ في الثانية

فاذا كانت البلدان المزدحمة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصاديًّا دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عامًّا بازدحامهِ ووجوب توسعهِ . لانهُ لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى العمل وادراك ان نطاق العمل في بلادهِ لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فاذا انتظمت هذه البلدان وامتدّ فوق ربوعها رواق السلام والطمأنينة أدرك أفراد الشعب ان الارض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة جيرانهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

فايطاليا مثلاً لما وجدت نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان بالقياس الى موارد العيش فيها طلبت أرضاً تجعلها منفذاً للملايين من أبنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والاَّ انفجرت» ولعل هذه الفكرة هي أقوى العوامل التي كيفت سياسة ايطاليا الخارجية في السنوات الاخيرة . وما يصدق على ايطاليا من هذا القبيل يصدق على المانيا واليابان

وقد كتب أحد الفلاسفة الاجتماعيين المحدثين كتاباً قال فيهِ ان الاتجاه من البلدان المزدحمة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل في العصور السابقة ظلَّ يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الاب «ملثوس» في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) مبيّناً ان السكان يزدادون زيادة هندسية . وأما المواد الغذائية فلا تزداد الاَّ زيادة حسابية . ولذلك لا بدَّ ان يجيء يوم يبلغ فيهِ سكان الأرض عدداً لا تكفي مواردها لتغذيتهِ . وأودع رأيهُ هذا كتابهُ الذي موضوعهُ «رسالة في مبادىء السكان» . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذيوع المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني بهِ المفكرون والكتّاب فراج في فرنسا وأخذ بمبادئهِ اشرافها وعامّتها ، وذلك لأن وسائل مختلفة كانت قد استنبطت فيها لمنع الحمل وذاعت بين طبقة الأشراف ، ولان عامة الأُمة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالاسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الارض التي يملكها الأب على أبنائهِ ، وهذا يعلل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين . على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا ولذلك أشار الاب ملثوس «بالامتناع عن الزواج» أو «تأخير الزواج» لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً . وجاء بعدهُ فريق النفعيين الذين جعلوا شعارهم «الخير الاكبر للعدد الاكبر» فدعوا الى تحديد النسل . ومع ان مذهب ملثوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد قلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، ظلّت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ، تعترض على قتل ولدها ، في قبيلة جرت على ذلك، كانت امرأة غير فاضلة في عرف أقاربها وجيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تعفي ابنها الضعيف من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطي" . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنهُ الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او ابناء قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انهُ لم يكن من خير إسبارطة ان يكون بين أبنائها ضعاف او هذا كان رأي أقطابها حينئذٍ

ولما ارتقى العمران حل محل قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك أصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . أما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الامتناع عن قتل الاطفال او اجهاض الأمهات ، لان الاول في عرفهم اجرامٌ صريح والثاني علاوة على ما فيهِ من اجرام يعرض الأم للألم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها . أما البراهين التي يوردونها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

يرى بعض الثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى حتى لا تتعرض صحة الأم للخطر. واليك ما تقولهُ سيدة حالتها تمثل ألوف الحالات : « لا أزال في الثانية والعشرين من عمري ولكنني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كل سنة من حين زواجي الى الآن . لن أستريح قط وأشعر ان صحتي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم » . وكتبت أخرى : « أنا اليوم أم ستة أولاد وقد أجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنتا عشرة سنة ولكنهُ مصاب بعاهة منذ ولادتهِ اما أولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه وعليَّ ان آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتيَّ عوراء . لقد حاولت ان أبتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الأصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباهُ في سلام البيت وهناءتهِ» . وهذان المثلان نقلناهما عن مجلة هاربرز الاميركية . وقد أثبت الدكتور ادلفوس نُبُف من أطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الأسر الكبيرة يكونون أضعف المواليد بنية وأكثرهم تعرضاً للاصابة بالسل . وعندهُ ان الام تكون قد أجهدت صحتها في الولادات الأولى فتورث ولدها الأخير — أو أولادها — ارثاً فسيولوجيًّا ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . أضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كلٍّ منهم من دخل رب الاسرة . فتضطر الأسرة ان تسكن في احياء قذرة مزدحمة لا تدخل الشمس بيوتها وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يقي البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل أميركي لهُ الحق في ان يتلقى من والديهِ

جسماً سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه أسباب العناية » . ويضيف الى ذلك احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع ». ويقول الحاخام ستيفن ويز اكبر رجال الدين اليهودي في اميركا : « ان الموقف الديني ازاء الحياة لا يقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهذيبية ما يجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامَّ ، لانهُ يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهذيبهم بما يقتضيه ذلك من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم. وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحياً واجتماعياً ، اما صحياً فلأنَّ الطفل الذي يولد من امٍّ قوية ليس كالطفل الذي تلدهُ امٌّ أنهكتها آلام الحمل والطلق والولادة . واما اجتماعياً فبتوافر وسائل الغذاءِ والكساءِ والتعليم والتهذيب

وهو كذلك يفيد الاجتماع اذ يستطيع المصاب بمرض وراثي ان يكفي ميولهُ في نطاق الزواج الشرعي من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين بامراض يقولون قول المعرّي

هذا جناهُ ابي عليَّ وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية اخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لسكانها ميداناً يعملون فيه ويرتزقون منهُ وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى اصطدام المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها . وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فزدك « لا تستطيع ان تضع ثقتك بالرب وتنام خالي البال اذ سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون « ضبط النفس » لا « تحديد النسل » خير سبيل لمعالجة الحال . على ان هذا، في رأي الفريق الاول متعذر، حتى ولو اتفق الزوجان على تحقيقهِ لان العلم لم يكشف حتى الآن عن وقت معين لا يحدث فيه الحمل الاَّ في اثناءِ الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لا يلد لهما ولد الاَّ مرة كلَّ ثلاث سنوات أفيعقل ان يكون « ضبط النفس » حينئذٍ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة ناشزة الانياب. ومما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب العقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائياً يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرَّها الاطباءِ لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها . الاَّ ان هذا الرأي الاخير مختلف فيهِ بوجهٍ عام

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة أبعث على فساد الآداب الجنسية لانهُ يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يفضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لاكفاء ميولهم

على ان اقوى حجج المقاومين هي أثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات. وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم نقل انها تحملهم على مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء السيكولوجيا قد أثبتوا ان النواهي لا تحمي حمى الفضيلة والآداب . ويجب ان نبحث عن طريقة اخرى كالتربية الصالحة نعلّم بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . أضف الى ذلك ان دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعهِ وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . ويرون ان الزواج الباكر أفضل الطرق لمحاربة هذه الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضها ما تواضع عليهِ الناس قروناً متوالية واحلوه في نفوسهم وعقائدهم في المحل الاقدس. واشهر هؤلاء رتشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس پلايس (١٨٣١) وروبرت وايل اون (١٨٣٢) والدكتور نولتن وجميعهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوههِ الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسديل كتاباً عنوانهُ اصول العلم الاجتماعي بسط فيهِ الملثوسية (نسبة الى الاب ملثوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيهِ وحنة بزانت رائدة الفلسفة الثيوصوفية عصبة لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب لبيعهِ نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فأعاد الدكتور برادلو وحنة بزانت نشر الكتاب وتقدما للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم على الرغم من ميل القاضي للاخذ بأدلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاذاعة التعاليم الملثوسية الجديدة ومن ثم اخذت « العصبة الملثوسية الجديدة » تقوى وتمدُّ آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبة في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع مؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في الهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلاً عن تاريخها في انكلترا لان الاميركيين كانوا اشدوطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . وأشهر القائمات بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت سانجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤

من الشعر التأثري

في جبال بافارية

مَنْ لِقلبي المُشْتاقْ
ما دَرى ما يَشْتاقْ
نازعَتْهُ الأَهــواءْ
وَهْوَ مسلوبُ الرَّجاء

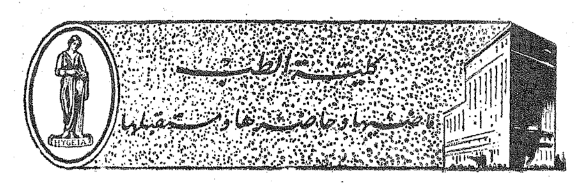
مَن لِهزّات الجَناحْ
جاذبتــهُ الأَرواحْ
ذَكَرَ العصْفَ فَناءْ
بتهاويلِ العنـــاءْ

يا لَشـــوقٍ خفّاقْ
أعْوَزَتْهُ الآفـــاقْ
شفَّ جَنْبي المِسماحْ
مستبدًّا واســتراحْ

يا حنـــينَ العذراءْ
صدَّهُ زُورُ الحياءْ
فروى غُلَّ العناقْ
من ضلوع تُهراقْ

مَن لِقلبي المشتاق

اغسطس ١٩٣٥ — بشر فارس



للدكتور علي ابراهيم باشا
عميد كلية الطب ووكيل الجامعة المصرية ومدير مستشفياتها

١ — الماضي

لعله لا يوجد في كثير من البلدان والجامعات معهد ككلية الطب في مصر مرّت عليه صروف الزمان ما بين رفع وخفض وتردّدت فيه لغات مختلفات ما بين ضاد وغير ضاد . ولا كمثله معهد صمد للحوادث فأدى للوطن والانسانية رسالة صيغت من جوهر العلم في اطار من الاخلاص بل ولا كمثله في مصر معهد توطدت بفضل الله الآن أركانه وثبت بنيانه وقد عمت به على كرّ العشي ومرّ السنين خير التعاليم والتقاليد

كلوت بك ومحمد علي الكبير

من مائة عام واثني عشر عاماً هبط مصر طبيب شاب من أبناء بلدة مونبليه بفرنسا شاءت المقادير أن يجيب دعوة محمد علي جد فاروق الأكبر في أوائل سني حكمه وأن يغامر بمستقبله في مصر بلد الآثار والعجائب التي كانت ذكراها لا تزال حية في قلوب الفرنسيين وأفكارهم بما حمله نابليون وعلماؤه من أوصافها وجمالها

هذا الطبيب الشاب — أنطوان برتلمي كلوت — الذي اشتهر باسم كلوت بك يقف في التاريخ بجانب سيده — على الرغم من قصر هامتيهما — كعملاقين بين الرجال أمكنهما تغيير صفحة الطب في هذه البلاد تغييراً عظيماً بعد أن بلغ الحضيض في عهد المماليك حتى كأنما لم تكن معابدها مصر ومعاهدها المهد الذي فيه نشأ ونما وترعرع أيام طيبة ومنفيس وهليوبوليس واسكندرية والقاهرة في عهد الفراعنة والبطالسة والعرب

جاء كلوت بك مصر والكوليرا تفتك بالألوف في كل عام والطاعون قد سكن الدور من أكواخ وقصور بل وأقام في الثكنات العسكرية التي كانت تعج بجنود الوالي المجيشة لتأسيس ملكه وتوطيد دعائم عرشه . وليس في البلاد غير رهط جاهل من الحلاقين الذين نرى الى اليوم

بقاياهم ، وغير نفر قليل من رجال الطب الاجانب . فكانت مهمة قاسية تلك التي جابهت كلوت بك ان ينظم الخدمة الطبية والصحية في بلاد هذه حالتها وان يحمي الاهلين كما يحمي الفيالق من عدو غير منظور ليس لحرابهم أو مدافعهم بهِ قبل أو سبيل

ولكن سرعان ما بدا لكلوت بك انهُ وان استطاع جلب جهابذة الاطباء من فرنسا وايطاليا لخدمة الوالي وامته وجيشه فان قلة عددهم وجهلهم لغة البلاد واختلاف معتقدهم الديني عن اهلها عوامل تقف حائلاً دون الغرض الذي يبتغيه من تعميم وسائل التطبيب والتصحيح. وان اولئك الاطباء من ابناء الغرب محتاجون الى مساعدين من الاطباء والصيادلة ابناء مصر بل الى ممرضات ومولدات من بناتها

وهكذا وعلى الرغم من دسائس الحاقدين وانتقاد البائسين وقلة ثقة البعض في استعداد المصريين وبفضل تشجيع سيده العبقري العظيم وبعد سنتين اثنتين من حلوله الديار أنشأ في سنة ١٨٢٧ مدرسة لتعليم الطب وألحقها أول الامر بالمستشفى العسكري في أبي زعبل . ومن ثمَّ نقلها بعد ذلك بعشر سنين الى مقرها الباقي الى الآن بجوار قصر العيني . وهو الآخر كان في الزمان السابق خارج المدينة قصراً للولاة الاتراك ثم اختاره اطباء حملة نابليون زماناً داراً لعلاج جرحاهم ومرضاهم

وبفضل مثابرة كلوت بك واخلاصه لوطنه الثاني تمكن من احداث ما كان يعد اعجوبة في ذلك الزمان فجند الطلبة من بين الازهريين يطعمون ويكسون وينامون ويؤجرون من جيب الدولة الجديدة . وتترجم لهم المحاضرات من الفرنسية الى الايطالية فالعربية على لسان عنحوري المترجم السوري الوحيد في ذلك الزمان الذى كان يعرف الايطالية . والشيخ محمد الهراوي الازهري الذي أختير لتهذيب لغة المحاضرات والمؤلفات بل للتدريس أيضاً الى ان أدخل تعليم اللغة الفرنسية لتسهيل مهمة الاساتذة .

وما ان مرت خمس سنوات على انشاء مدرسة الطب حتى صار يخرج منها عدد من الاطباء يكفي المستشفيات والجيش . وفي عشر سنوات بلغ عدد المتخرجين ٤٢ طالباً جازوا بجدارة الامتحانات التي كانت تعقد علنية في ذلك الزمان . حتى لقد شاء كلوت ان يدل على مبلغ نجابتهم فسافر في عام ١٨٣٢ بفرقة من المتخرجين الى باريس حيث نجحوا بتفوق أدهش ممتحنيهم الذين كانوا صفوة اساتذة ذلك العصر كدجنيت ولارى طبيبي نابليون الشهيرين ودوبوترين وبروشيه وسواهم . وظلوا بعد ذلك زماناً في باريس يزيدون من خبرتهم ومعلوماتهم وصاروا طليعة لسواهم من اطباء مصر في القرن الماضي

والى ان مضى محمد علي الى رحمة مولاه بعد ١٨ سنة من تأسيس مدرسة الطب كان قد بلغ عدد الجيل الجديد من الاطباء المصريين نيف و ١٥٠٠ . وكانت قد تمت ترجمة ٥٢ مؤلفاً

طبيًّا من الفرنسية الى العربية تولت اخراجها دار الطباعة في بولاق بالآلاف وانتشرت نسخها في تركيا والجزائر وتونس ومراكش وسوريا وايران . وصارت تعبيراتها اساساً للمؤلفات التي يقرؤها الاطباء الآن في مدارس الطب في استانبول ودمشق وسواها

ولكنهُ ما ان تولى ابراهيم عرش ابيه سنة ١٨٤٨ ففقدته البلاد بعد قليل ثم تولى بعده عباس الأول حتى دخلت مدرسة الطب في عهد جديد كان عهد تقلقل واضطراب اذ كان عباس يمقت الاجانب ولا سيما الفرنسيين وكل ماكان لهم بهِ صلة فاعتزل كلوت بك منصبه في ابريل سنة ١٨٤٩ بعد ربع قرن انشأ خلالهُ غير المدرسة الطبية مدرسة للصيدلة وللمولدات كما أسس المستشفيات في انحاء القطر وأوجد نواة مصلحة الصحة العمومية ومصلحة الكورنتينات وأدخل التطعيم ضد الجدري وتشريح الجثث لتعليم الطلبة وأوجد نظام الحلاقين الصحيين الذي بدأ يختفي الآن

وما ان رحل مؤسس مدرسة الطب العتيد حتى استخدم عباس الاساتذة الالمان ومن حسن الحظ انهُ استقدم اولهم جرينجر سنة ١٨٥٠ وتيودور بلهارس اللذين كانا من خيار العلماء وللأول منهما فضل اكتشاف دودة الانكلستوما كما ان للاخير خاصة اكتشاف الدودة التي تسبب البول الدموي الشهير بين المصريين واطلق عليها اسم (البلهارسيا)

وجاء في النهاية دور جرينجر فسافر مكبوداً سنة ١٨٥٢ وخلفهُ الكسندر ربير الالماني زمناً ولكن سرعان ما ضاق صدر عباس بالالمان فجرب الايطاليين واستقدم رانش ورانزي من فلورنسا سنة ١٨٥٤ . ولكنهُ ما عتم ان مات في نفس ذلك العام وخلفهُ سعيد الذي وجد المدرسة على أسوأ حال من الفوضى فأغلقها وشرد طلبتها ايدي سبا بين فيالق الجهل وفرقه

وظلت مدرسة الطب زائلة عن الوجود بعد ذلك طوال عامين الى ان أسرع كلوت بك الى مصر لانقاذها ونجح بمساعدة رانزي في حمل الوالي على اعادة افتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٥٦ تحت ادارته مرة أخرى . ولكن سوء صحته أبعده ثانياً عن المعهد الذي احبه أكثر من اولاده

وتولى من بعده ادارة المدرسة ثلاثة من بني وطنه واحد الاطباء المصريين الى ان تولى اسماعيل عرش جده سنة ١٨٦٣ فوجدها مرة اخرى على شيء غير قليل من الانحطاط والتقهقر

محمد علي البقلي والخديو اسماعيل

وهنا برز في الميدان محمد علي البقلي باشا الطبيب المصري الشهير فتولى ادارة المدرسة ستة عشر عاماً سويًّا كانت درة في جبين الادارة الوطنية اذ رفع من شأن المدرسة وأصلح أمورها وكان الاساتذة جميعاً من ابناء البلاد ما عدا جاستنل المعروف وكانت لغة التدريس العربية

وفي زمانه ترجمت أنفس المؤلفات الفرنسية الحديثة وصدرت مجلة البحوث الطبية الأسبوعية عدَّة سنين وأرسلت البعثات بانتظام الى الخارج وبرز الأطباء المصريون الى البحث والتحقيق العلمي وبالجملة بلغت المدرسة شأواً عظيماً الى ان شاء سوء حظها للمرَّة الثالثة أن تصاب بلطمة أليمة بتقاعد محمد علي البقلي سنة ١٨٧٩ أثر خصام شخصي بينهُ وبين علي باشا مبارك الشهير فتولى الادارة بعده جلياردو بك وسرعان ما حدثت الثورة العرابية بعد ثلاث سنوات

عيسى حمدي والخديوي توفيق

وفي سنة ١٨٨٣ تولى ادارة المدرسة مصري قدير آخر هو عيسى حمدي باشا الذي يمكن اعتباره المؤسس الثاني لها بعد كلوت بك، ففي عهده سادها النظام واستتب العمل على خير الوجوه. وكان من اساتذتها نفرٌ من كبار الاطباء المصريين مثل عثمان باشا غالب الذي كانت لهُ شهرة عالمية واكتشف دودة القطن ووصف دور حياتها. ودري باشا سيد الجراحين في زمانه. وبفضل عيسى حمدي ونفوذه صار انشاء المباني الجديدة في المدرسة سنة ١٨٨٧ وأنشئت بها غرف للمحاضرات ومعامل للبحث وأخرج الطلبة من المدرسة للمبيت في الخارج. وفي تلك السنة صارت البكالوريا شرطاً للدخول في سلك المدرسة وفرضت المصاريف على الطلبة للتعليم ١٥ جنيهاً في السنة وحُتّم عليهم ان يقدموا رسالة قبل حصولهم على الدرجة الطبية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات للطب وأربع للصيدلة وثلاثاً للمولدات وبالجملة دخلت المدرسة تحت يده الحكيمة في عهد جديد من التقدم والارتقاء لاتزال آثاره باقية الى اليوم وعاونهُ من الاطباء الانجليز بعض اكابرهم كساندويث وملتون الجراح الشهير. ولكن عيسى حمدي اضطرَّ بدوره للاستقالة سنة ١٨٨٩ أثر خلاف بينهُ وبين رئيس الادارة الطبية بعد ست سنوات مجيدة الذكر والأثر

وللمرة الرابعة عادت المدرسة الى الانحطاط في عهد خلفه بباعث المحسوبية في وظائفها الى ان تولى شأنها ابراهيم باشا حسن سنة ١٨٩٣ وقد كان رجلاً فاضلاً ولكن حدث في عهده تنظيم المدرسة على الطرق الانجليزية وزيادة الاساتذة الانجليز وتحويل لغة التعليم الى الانجليزية حتى انفرد بادارتها الدكتور كيتنج من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩

عهد الاحتلال الانجليزي

وكان كيتنج رجلاً حديديًّا في ادارة المدرسة ولكن قساوته الظاهرة ما كانت لتحجب شديد اهتمامه بسمعتها وسمعة خريجيها في كل مقام ومقال. وقد بلغت المدرسة في عهده وعهد

مساعديه من الاساتذة البريطانيين شأواً غير قليل من النظام والدقة ولايزال الكثيرون من خريجي ذلك العهد يذكرون بالخير ملتون ومادن وفرجوسن وفيليبس وسواهم كما يذكرون شمت ولوس من كبار الاساتذة الالمان الذين كان وجودهم في هذا العهد أثراً للصلة القديمة بين هذا المعهد وبلادهم

وفي هذا العهد توثقت الصلة بين مدرسة الطب في مصر والكليات الطبية الملكية في انجلترا ووضع النظام الذي لا يزال قائماً من بعث تلك الكليات لأستاذ زائر في كل عام

وقد اقتصرت المدرسة في هذا العهد على الدراسة الطبية الأولى فلم تدخل عليها درجات الاختصاص العليا التي كان المصريون يلجأون للحصول عليها الى خارج بلادهم

سعد زغلول ومدرسة الطب

وقد حدث في اثناء ذلك العهد تولي زعيم البلاد المغفور له سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٨ فرأى بثاقب بصره زيادة ارسال بعثات التخصص الى الخارج لادخال العنصر المصري في التدريس وبالتالي لادخال العربية لغة للتعليم في مدرسة الطب أسوة بزميلاتها في المدارس العالية . واليه يرجع أول الفضل في اعادة مدرسة الطب سيرتها المصرية الاولى في عهدنا الحديث كما نراه الآن في شخص أغلب اساتذتها ومساعديهم

الحرب العظمى وما بعدها

وساعد على ذلك أنهُ حينما اندلعت ألسنة الحرب العالمية العظمى وانتظم أغلب الاساتذة الاجانب في جيوش بلادهم وقع عبء التدريس على اكتاف المصريين فقاموا بالعمل خير قيام حتى رضي كيتنج ان يجعل منهم رؤساء غير مرؤوسين

وسافر كيتنج سنة ١٩١٩ وعقبهُ رتشاردز الى سنة ١٩٢٤ في سني الثورة المصرية الحرجة وفي ذلك العهد خرج التفكير في انشاء الجامعة المصرية الى حيز العمل وصار أختيار موقع مستشفى فؤاد الأول الجديد في جزيرة الروضة ووضعت سياسة تولي المصريين مناصب الاساتذة نهائيًا في كلية الطب

وجاء من بعده ولسون ثم مادن سنة ١٩٢٦ وفي عهده أعيد تنظيم الكلية على الطرق الحديثة وأدخل في براجها الدراسات العليا وانشئت مدرسة لطب الاسنان ووضع الاساس الذي نهضت به الكلية النهضة العظيمة الحالية . ومات مادن سنة ١٩٢٩ مأسوفاً على خلاله وخصاله . وفي مايو من تلك السنة شاء مجلس ادارة الكلية ان يلقي على كاتب هذه السطور حمل ذلك

العبء الخطير الجليل مترسماً في ذلك خطوات زملائه السالفين مستلهماً السداد من ارواحهم في عهد تاريخي كبير الأثر في حياة هذه البلاد

٢ — الحاضر

مضى القرن الاول من حياة مدرسة الطب وهي كما وصفت تبدو احياناً مشرقة وضاحة الجبين ثم يسترها الغمام ولكن الى حين . ولعمري انه اذا قيست حياة المعاهد بحياة الانسان واذا شبهنا تلك المائة عام بعهد الطفولة ما كان لنا ان نعجب لما ذاقت تلك المدرسة من مرٍّ وحلو لأن للطفولة امراضها وعللها كما لها نشاطها ومرحها وانما لنا ان نقرَّ عيناً ونستريح خاطراً انها أمضت ذلك العهد على ما يرام وصار لنا ان ننتظر لها عمراً مديداً وعيشاً رغيداً في ظل النهضة المصرية الحديثة

ولقد كتب الله لمدرسة الطب بالفعل دخول عهد الشباب مذ صارت في عام ١٩٢٤ كلية بل دعامة هي اقوى دعامات الجامعة المصرية . وكما ينتظر من دم الشباب قد اندفعت فيها روح جديدة ووصلت سراعاً الى آفاق أعلى وأسمى

فهي الآن كلية تضم تحت جناحيها اربعة معاهد كبيرة لدراسة فنون الطب وعلومه . فللطب واحدة ، وللصيدلة اخرى ، وللاسنان مدرسة ، وللتمريض والتوليد رابعة

وصار لا يكتفى بالبكالوريا بل على الطالب ان يتزود من كلية العلوم بقسط علمي ثمين لمدة عام وان يبرز بين اخوانه حتى يصل الى ساحتها الغناء

واستكملت كل مدرسة منهن أهبتها وجمالها . ففي مدرسة الطب تغير الانكماش القديم الى انبساط قضى به تقدم المعارف الطبية فانقسم علم التشريح الى فروع منها علم الاجنة وعلم تقويم الانسان وانقسم علم وظائف الاعضاء الى الكيمياء الحيوية والتشريح المجهري وبرز علم الامصال كفرع قوي من فروع البكتريولوجيا وانقسم علم الطفيليات الى علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة وعلم الديدان وعلم الحشرات وعلم الفطريات . وأدخلت دراسة جديدة لعلم الباثولوجيا الاكلينيكية التي تنير الطريق امام الطبيب بفحص افرازات المريض ودمائه . وظهرت في الجراحة أقسام للعظام وللجهاز البولي وانشىء قسم جديد للصحة العامة شرع هو الآخر يتفرع الى اقسام التغذية والصحة الصناعية والاوبئة وما اليها . هذا فضلاً عما بلغته المدرسة من الشأو في تدريس الامراض الباطنة وامراض العيون

وارسلت الكلية البعثات تلو البعثات بما لم يكن له من قبل مثيل من بين ابنائها النجباء للتخصص في تلك الفروع وسواها فبزّوا رفقاءهم في عقر دارهم وعاد ولا يزال يعود الكثيرون ممتلئين حماسة وملتهبين غيرةً ونشاطاً

وبلغ الحال مثل تلك الحال في مدرسة الصيدلة التي انشىء فيها علم تشخيص العقاقير واتسع نطاق التحليل الكيميائي للادوية والاغذية . واما مدرسة الاسنان فقد سدت فراغاً عظيماً كان محسوساً في هذه البلاد وقضت على عهد كان بالدجاجلة مذموماً

واما مدرسة التمريض والتوليد فصارت طالباتها من ذوات الشهادات المدرسية كالابتدائية والدراسة الثانوية في قسمها الاول وراسبات القسم الثاني وبعدان كانت تضيع سنة كاملة في تعليمهن اللغات والحساب تمهيداً لدخولهن معمعان التعليم الطبي صرن يتلقين فنون التمريض ثلاث سنوات كاملات ثم فن الولادة عاماً آخر والزائرات الصحيات كذلك عاماً آخر والتدليك والكهرباء الطبية سنة ونصف

وصار للكلية غير درجة الطب والجراحة او الصيدلة او الاسنان العادية درجات عليا ودبلومات للاختصاص . فهنالك درجة ماجستير في الجراحة بفروعها وهي : —

١ — الجراحة العامة ٢ — جراحة الاعضاء التناسلية والمجاري البولية ٣ — جراحة العظام ٤ — التوليد وامراض النساء ٥ — جراحة الحنجرة والانف والاذن ٦ — الرمد وجراحة العيون

ودرجة دكتوراه في الطب بأقسامها وهي : ١ — الطب الباطني العام ٢ — امراض الطفولة الاولى وامراض الاطفال — ٣ — طب المناطق الحارة ٤ — الصحة العامة

ودرجة ماجستير في جراحة الاسنان ودرجة ماجستير في الصيدلة ودبلومات خاصة هي :—

١ — دبلوم الصحة العامة ٢ — دبلوم طب المناطق الحارة وصحتها ٣ — دبلوم الرمد ٤ — دبلوم الطب الشرعي ٥ — دبلوم علم الاشعة الطبية

وستنشأ دبلومتان خاصتان للكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية

بل أن هذه السنة نفسها قد رأت انشاء قسمين جديدين كبيرين للتخصص احدهما في الجراحة والآخر في الامراض الباطنة وصارت الفرصة بذلك متاحة لكل طبيب مصري أو غير مصري ان يستزيد من علمه ويستكمل من فنه على احدث طراز ونظام وأن يحصل على تلك الدرجات العالية في نفس وطنه وبلاده

وصار لكل قسم من اقسام الطب من المعامل والمتاحف ما تبزُّ بهِ الكلية سواها من كليات الخارج وهي ثروة عظيمة لا تقوّم بمال ولا عتاد ولا يقاس بها غير المتحف المصري ان كان يقاس معهد احياء بمعهد اموات

اما مستشفى قصر العيني فقد تحول الى دار علاج نظيفة كاملة الادوات والمعدات حتى لتخفى هويته الآن على كلوت بك ذاته وهو الذي ذرعهُ نيفاً وعشرين سنة جيئةً وذهاباً في القرن الماضي ولم يغير قصر العيني من إهابه فحسب بل تغيرت معالمهُ ومعداته الداخلية لراحة المترددين عليهِ من طلبة واطباء ومرضى . وفتحت بهِ اقسام جديدة لفروع الطب الجديدة

وتضاعفت بهِ حجر العمليات وأنشئت مساكن جديدة للنواب وغرف محاضرات غير ما زاد منها في مباني كلية الطب جارته

بل ان الطلبة ذاتهم قد اصابهم التغيير والتبديل فظهرت بينهم الطالبات لدراسة الطب اسوةً بدراسة التمريض والتوليد وأنشيء لهم نادٍ يضم شتاتهم ويقيمون بهِ حفلاتهم وزاد عددهم وتوثقت صلاتهم باساتذتهم

بل ان ذلك التجديد العظيم لم يكن ليشفي سغب النفوس المتعطشة الى التقدم والارتقاء . فصحَّ العزم على انشاء مستشفى جديد ومدرسة جديدة في جزيرة الروضة يشدُّ أزر المعهدين القديمين المجاورين وقد تمَّ بالفعل انشاء جانب كبير من مستشفى فؤاد الاول التعليمي ونقلت اليهِ العيادة الخارجية التي يؤمها نيف واربعة آلاف مريض كل يوم كما نقل اليها منذ بضعة اسابيع ٤٥٠ سريراً للامراض الباطنة . فاذا استكمل صار بهِ الفان من الاسرة غير الالف الباقية في قصر العيني وغير مائتي سرير في مستشفى الاطفال الذي اشترتهُ الحكومة لحساب التعليم ومائتي سرير في مستشفى كتشنر اي ٣٤٠٠ سرير مما ليس له مثال ولا صنو في عالم الشرق وكثير من جهات الغرب جميعاً

على أن عظمة المعاهد العلمية لا يجب ان تقاس بفخامة مبانيها وكثرة اسرتها ونفقاتها وانما هي في الحقيقة بكفاءة رجالها . واذا كنا قد أعددنا للعلم الطبي في مصر داراً شامخة الذرى فيحاء واسعة فأننا لم نكن لننسى ان العلم والبلاد يتطلبان من ذلك الغرس محصولاً يانع الثمرات

ولذا فان تلك المعاهد لم تبنَ للتطبيب والتعليم فحسب، بل كذلك لاجراء المباحث العلمية التي هي مناط التفاخر اذا سوقه قامت . وقد بدىء بالطلاب فجهزت جوائز ثمينة ذهبية ومالية للمبرزين منهم . فهناك مادليات ذهبية بأسم عيسى حمدي باشا للامراض الباطنية وعلم وظائف الاعضاء وأخرى باسم مادن للجراحة الاكلينيكية وباسم فيليبس للطب الباطني الاكلينيكي وجائزة مالية باسم محمد شاهين باشا للتخصص في الصحة العامة ومثلها باسم مظلوم للصيدلة وباسم بحري كذلك. وصندوق آلات جراحية يهديهِ محل كلان الفرنسي في كل عام الى أول الطلاب المتخرجين ومدالية ذهبية في الجراحة باسم علي ابراهيم

وثنينا بالمتخرجين فصار لا يدخل الطالب عداد المدرسين حتى تمضي عليهِ سنوات في الاستزادة من الدرس والتمحيص وحتى ينال أرقى الشهادات كالدكتوراه في الفن الذي يبتغيه وحتى تشهد له اساتذته بالاستعداد والكفاءة وصار لا مطمع لناشيء أن ينال ترقية الا اذا أوتي في يمينهِ عدداً غير قليل من الابحاث الفنية الطريفة التي نشرتها له الجامعة أو المجلات المصرية والاجنبية يشق بها طريقه الى الامام

وجعلت الكلية لا تضن بالاجازات العلمية في الخارج كما لا تضن بارسال البعوث وجعلت تدعو كبار الاساتذة الاجانب في كل شتاء ليحاضروا الاطباء والطلاب في اطرف المواضيع بل اخذت اخيراً في ارسال بعوث من الطلبة ليحضروا اسبوعاً او اسبوعين في احدى الجامعات الخارجية وبدأت بجامعة باريس في الصيف الماضي ليتعارفوا وتتفتح اذهانهم ومخيلاتهم وليعرفوا ان العلم لا دين له ولا وطن ولا لغة وان الذين يقفون حياتهم عليه هم المفلحون

كذلك زادت الصلة بالكليات الطبية الملكية بكثرة وفود الطلاب المصريين للحصول على شهاداتها العالية القيمة . بل لقد تم اتفاقنا مع الكليات الالمانية ان توفد الينا طلاباً للتعلم في بلادنا وان نوفد اليهم مقابل ذلك من اطبائنا من يكونون من طلبة الدراسات العالية ويعرفون اللغة الالمانية

وقد وصلت الامور من التقدم ان كثر في البلاد عدد الاختصاصين وانقضى العهد الذي كان تطبيب العائلات فيه وقفاً على الاجانب يتباهون به ويتفاخرون . وصار الاطباء المصريون علماً على نهضة بلادهم يشرفونها في اي مؤتمر حلوا واي حفل نزلوا

ويعييني العد اذا شئت ذكر النابغين منهم في فروع الطب ونواحيه . اما الابحاث العلمية التي وصل اليها هذا المعهد الجليل في دراساته المتعاقبة الى الآن فما يفخر به اي معهد في اي مكان. واذا كان قد اشترك في بعضها الاساتذة الاجانب في العهود الماضية كاكتشاف الانكلستوما والبلهارسيا ودورة حياتهما فأن الجيل الجديد والحمد لله قد كذب الخطأ الذي طالما اشاعه المغرضون من أن العقل الشرقي قد اصابهُ الخمول والكسل . وهذه ابحاث علمائنا في امراض بلادهم تكشف المكنون وتهتك المستور . فهذا باحث عن اسباب حصوات الحالب وآخر عن داء الفيل وثالث عن مقاومة الطفيليات وآخر عن تضخم الطحال وأمراض القلب وآخر يفحص الاعشاب المصرية والاغذية المصرية والحشرات المصرية وغيره يبحث عن امراض الكبد والشرايين والرمد . وسواهم يفحص دم المصريين وغير ذلك مما لا تحيط به مثل هذه العجالة . ومما يقوم دليلاً على ان المعهد القديم قد أنجب ابناء يسيرون في الطريق مع سواهم من علماء العالمين ولا تضيرهم وعثاء السفر بل يسعدون ويهنأون اذا زادوا حرفاً في قاموس الفن الشريف الذي جعلوا منهُ قوت يومهم وقوت نفوسهم معاً

٣ — المستقبل

قد مضى على كاتب هذه السطور الثماني السنوات الاخيرة وقد امتزجت فيها حياته امتزاجاً شديداً بالمعهد الذي فيهِ ربي ومنهُ خرج واليهِ عاد ليقضي بقية حياته العاملة جندياً ثم قائداً . واكبر أمله الآن ان يرى بعينيهِ تنفيذ الخطة التي رسمها اسلافه الاكرمون والتي اقتضاها

تقدم العلوم الطبية يوماً بعد يوم تقدماً لم يخطر ببال جرّاح ولا جرى على ذهن طبيب

ولكن هناك غير هذا العامل الشخصي اموراً اجل خطراً واكبر قيمة تجعل من الواجب جعل هذا المعهد في صورة مثالية تشرف البلاد

فمصر هي قائدة الشرق تتطلع اليها اعين الاقطار العربية الشقيقة وهي في الوقت نفسه ملتقى القارات القديمة الثلاث يعبر ارضها ومياهها وهواءها المسافرون والتجارة من جانب العالم الى جانبه الآخر . وفيها تمثلت حضارة الفراعنة وحضارة العرب وحضارة اوروبا معاً . وما أحرى وطننا وهذا شأنه ان يكون بلداً نموذجيًّا في اهله ومعاهده ونظمه جميعها

ولقد استيقظت البلاد وحكامها وعلى رأسهم المليك العظيم الراحل فؤاد الأول الى هذه الحقيقة كل التيقظ ، فلم تضن بالمال على دراسة الطب حتى لقد قررت نيفاً ومليونين من الجنيهات لانشاء مستشفى فؤاد الاول وكلية الطب الجديدة وتحسين قصر العيني وكلية الطب القديمة وشراء مستشفى رعاية الاطفال بالمنيرة وقد صرف من ذلك الى الآن مبلغ مليون ومائتي الف من الجنيهات

اما الخطة التي رسمناها للمستقبل فستقضي الى تخصيص قصر العيني لذوي الامراض المستعصية ولأقسام التخصص والى تخصيص مستشفى فؤاد الاول للامراض المعتادة من جراحية وباطنية ونسائية وعيون . وان تقسم كلية الطب الى جزئين احدهما ينقل الى المباني الجديدة ويشمل اقسام البكتريولوجيا والطفيليات وعلم التشريح المرضي وعلم الاقرباذين وهي علوم ذات صلة وثيقة بالمستشفى

اما القسم الباقي فيوزع على مباني الكلية الحالية فيخصص المبنى الشمالي لانشاء معهد للصحة العامة مستكمل لمعامل فحص المياه والاغذية والمتخلفات واجراء التجارب البكتريولوجية والكيميائية ذات الصلة بذلك الفرع الهام من العلوم الطبية

ويخصص المبنى المواجه له في الجنوب الذي يليه لعلم وظائف الاعضاء بفروعه الثلاثة والمبنى الجنوبي الذي يشيد الآن لمدرسة الصيدلة . اما المبنيان الغربيَّان فيخصص احدهما للطب الشرعي في دورين فوق نادي الطلبة ويخصص الآخر بأدواره الثلاثة لعلم التشريح بمتاحفه ومشرحته ومعامله . وسيضاف اليها مبنىً سابع يُؤوي ادارة الكلية وبهواً للاجتماعات والاحتفالات

وهكذا ستجد الاقسام المختلفة جميعاً سبيلاً الى الاتساع بما يؤمل ان يكفيها حقبة طويلة اخرى من السنين وييسر لها سبيل البحث العلمي في هذا العهد الحديث . وتقضي خطتنا المرسومة ان يتسع مستشفى رعاية الاطفال الذي ضمتهُ الجامعة اخيراً الى مستشفياتها التعليمية فيبلغ مائتي سرير . وان نعد مستشفى كتشنر بعد اتفاقنا الاخير مع مجلس ادارته لتعليم طالبات الطب فنون ذلك العلم وان ننشىء في مدرسة الطب الجديدة معهداً كاملاً ينقطع علماؤه للابحاث انقطاعاً ليحلوا الكثير من المعضلات الطبية والصحية التي تجابه الاطباء والبلاد الآن وفي المستقبل

بل اننا لن يستريح لنا خاطر او تطمئن نفوسنا حتى ننشيء بجوار هذه المعاهد كلها معهداً لطب المناطق الحارة . فمن عجب ان طالباً مصريًّا يود التخصص في هذا العلم لا يجد مندوحة عن السفر الى اوربا بينما بلاده ذاتها هي في المناطق الحارة . بل انه لمن العجب ان طالباً انجليزيًّا او فرنسيًّا او المانيًّا او ايطاليًّا يرغب في تلك الدراسة فلا يجد في مصر المدرسة التي تشفي غليله فيحج اليها كما يحج طلابنا الى اوربا للدراسة في الفنون الطبية الراقية بها

ولا شك ان موقع مصر الجغرافي يتيح فرصة نادرة لتلك الدراسة فأنه فضلاً عن المرضى من بحارة السفن القادمة من الشرق الاقصى وركابها وهم الذين يغذون مدارس طب المناطق الحارة في ليفربول وهامبورج ومرسيليا ولندن والجزائر عادة التعليم توجد امراضنا المتوطنة ذاتها من بلهارسيا وانكلستوما وملاريا وداء الفيل والديدان المعوية وتضخم الطحال والبلاجرا وهي من اهم امراض المناطق الحارة

وقد شرعنا بالفعل في الاتصال بأولي الامر في هذا الشأن مؤملين قريباً انشاء معهد لطب المناطق الحارة يحمل اسم الزعيم الراحل الذي كان له فضل تقوية العنصر الوطني في مدرسة الطب من ثلاثين عاماً . ونود ان نرى فيه الطالب المصري بجانب الطالب الانجليزي او السوري او الفرنسي او الالماني او الايطالي في مدرج واحد ومعمل واحد ويحاضرهم الاساتذة المصريون فيما هم فيه ثقة ومرجع

ان هذه الصورة التي ذكرتها لكلية الطب وفروعها كانت في الواقع صورة مثالية خيالية من عدة سنوات ولكنها قد تحققت في كثير من نواحيها . ويبدو المستقبل واضحاً باسماً لاتمام نواحيها الاخرى

فكلية الطب قد دخلت الآن في عهد تاريخي آخر يشبهُ في علو شأنه العهد الذي خلقها فيه كلوت بك خالد الذكر الذي يقف تمثالهُ في ساحتها الى اليوم وفي باب مستشفاها امام تمثال سيده العظيم وعلى وجهيهما دلائل البشر لما يشاهدون

وصار العالم جميعاً ينتظر منها ومن اساتذتها ومساعديها وطلابها شيئاً آخر غير مجرد اتقان حرفة التطبيب . انهُ يتطلب منهم البحث والاستقصاء وشحذ الفكر في اكتشاف اسرار الجسم السليم والجسم العليل

ان الصورة المثالية التي ارجوها لهذا المعهد الجليل في مستقبل ايامه هي ان يصل فيه التخصص الى أرقى نواحيه وان يكون اكبر معهد في الشرق للعلوم الطبية وان تكتظ مراجع المؤلفات والرسائل الطبية باسماء علمائه المصريين وان يخفف آلام الانسانية بفضل اكتشافاته وابحاثه وانهُ بذلك لجدير وعليه لأمين ان شاء الله

مصلحة الآثار

للدكتور سليم بك حسن
وكيل مصلحة الآثار المصرية

١ — ما هو تاريخ اشتغال المصريين بدراسة الآثار في مصر ؟

— بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية ، واتجاه الأنظار الى دراسة الآثار المصرية دراسة جدية أنشيء المتحف المصري سنة ١٨٥٧ بجهود أحد العلماء الفرنسيين «ماريت باشا ». وقد كان من الطبيعي ان يكون من ضمن رجال المتحف والمصلحة في الاقاليم بعض المصريين . وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد ، في مقدمتهم المرحوم احمد باشا كمال ، اذ انهُ قام بعمل كثير من الحفائر العلمية ، ووضع عدَّة مؤلفات نفيسة بالنسبة لذلك العهد . كما كان لهُ مقامهُ المحترم بين معاصريه من العلماء الأجانب

وكان للمرحوم احمد كمال باشا طلبة يدرسون عليه ، وقد نجح في آخر سنة من حياته في حمل الحكومة على انشاء مدرسة عالية لدراسة الآثار المصرية . افتتحت هذه المدرسة فعلاً في أوائل عام ١٩٢٤ ، ولكن القدر وافاه قبل افتتاحها بقليل . وعند انشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ألحق بها قسم للآثار تابع لكلية الآداب ، ضمت اليه المدرسة القديمة ، واختير الاساتذة من بعض المصريين الذين اشتغلوا بهذا الفن ، وعاونهم بعض الاجانب من علماء الآثار

٢ — من هم الأساتذة الأحياء الذين أسسوا دراسة الآثار في مصر ؟

— كان طلبة المرحوم احمد باشا كمال عديدين ، ولكن الذين استمروا جديًّا في الدراسة واتخذوها عملاً لهم هما اثنان الاستاذ محمود حمزة الأمين المساعد للمتحف وأنا . ومن بين زملائنا في ذلك العهد صاحب السعادة احمد باشا عبد الوهاب وزير المالية السابق ، والاستاذ رمسيس شافعي مدير مصنع طرابيش القرش والاستاذ احمد البدري ناظر مدرسة الفيوم الثانوية

٣ — ما هي جهود قسم الآثار والنتائج العلمية التي وصل اليها مدة اشرافكم عليه

— عندما عينت للتدريس في كلية الآداب ، وجدت أن رفع مستوى الدراسات الاثرية لا يتم الا بعمل حفائر علمية لكي تساهم الجامعة بنصيبها بين الجامعات الكبرى ، ولتكون هذا الحفائر مدرسة عملية لتمرين الطلاب فيها . وفي نفس الوقت كان لي مساعدون يعاونونني في الاشراف على هذه الحفائر . وهؤلاء لم يمرنوا التمرين الكافي ، وكثيرون منهم يمكنهم القيام الآن

بأي حفائر علمية ، لا تقل في قيمتها عن قيمة اية حفائر يقوم بها أجنبي . وقد اتمت هنا هذه الحفائر موسمها الثامن وظهرت المؤلفات الخاصة ببعضها

اما هذه الحفائر التي نقوم بها فهي في منطقة اهرام الجيزة ، ولست اريد الاطالة في الحديث عما لهذه المنطقة من الشأن،ولا عن الآثار القيمة التي عثرنا عليها ، او الفوائد العلمية التي اضافتها هذه الحفائر الى العلم . ولكن يكفي ان نذكر ان نتيجة هذه الحفائر قد كشفت كشفاً تاماً عن عصر ملوك الاسرة الرابعة ، وقد وجدنا مقابر الكثيرين من الاسرة المالكة في ذلك العهد ، مع ما احتوته من آثار هامة ، كما ان الحفائر في الموسم الاخير حول ابي الهول ، اتاحت الفرصة لحل كثير من رموزه ، واصبحنا لأول مرة نعرف حقيقته وتاريخه والملوك الذين كانوا يقدمون له احتراماً خاصاً ، ويقيمون المنشآت تمجيداً له

٤ — هل تتفضلون بذكر شيء موجز عن حقيقة أبي الهول ؟

من المحقق ان تمثال أبي الهول يمثل أحد الآلهة وقد صنع في الاسرة الرابعة ، ولم نصل الى اسمه في ذلك العهد ، ولكن الحفائر الاخيرة اماطت اللثام عن الكثير مما يختص به ، فنحن نعرف الآن انه كان يعتبر الـهاً من آلهة الشمس ، اسمه « حور محيس » اي « حورس في الافق » .. ولأول مرة علمنا انه كان له اسم آخر هو الاصل الذي اخذت منه كلمة « ابي الهول » محرفة عن الاصل القديم بار هون

كما كشفنا حوله عن لوحات كثيرة أهمها اللوحة العظيمة التي أقامها الملك امينوفيس الثاني من الاسرة الثامنة عشرة ، جاء فيها انه تولى الملك وهو « في سن الثامنة عشرة وأنه كان قوياً محباً للجياد ، وليس في المملكة من يناظره »كما ذكر أيضاً انه قام برحلة من سقاره الى الهرم وأعجب بتمثال ابي الهول وأمر بانشاء هذه اللوحة مع معبد صغير لتكون بجوار آثار اجداده وقد وجدنا هذه اللوحة مقامة في مكانها كما وجدنا المعبد الذي اشار اليه

٥ — ما هو صدى هذه المكتشفات في الدوائر العلمية الاوربية ؟

— ذكرت لكم ان هذه الحفائر اضافت كثيراً من المعلومات الهامة الى التاريخ المصري ، وعلم الآثار المصرية . ومن الطبيعي أن تكون النتائج التي وصلنا اليها موضع اهتمام علماء الآثار في كل مكان وجميع الذين يفدون منهم يزورونها كما ان المؤلفات العلمية الخاصة بها تعنى بالحصول عليها جميع الهيئات العلمية ، ويسرنا ان نذكر انها كانت موضع تقديرهم ، كما ان اكثر المجلات الخاصة بالآثار أشادت بهذه الحفائر ورحبت بالنتائج التي وصلنا اليها

٦ — ما هي الاسباب التي تحول دون نشر مؤلفات الآثار التي يكتبها مصريون باللغة العربية .. لغة البلاد ؟

— الحقيقة انهُ ليس هناك صعوبة في التأليف باللغة العربية ، ولكن هناك عامل هام لا يمكن اغفاله وهو اننا في مستهل حياتنا العلمية الأثرية وأكثر علماء العالم لا يجيدون اللغة العربية ، فأصبح من الخير ان تنقل لهم أبحاثنا ونتائج مجهوداتنا الى لغاتهم لكي يتحققوا من ان المصريين لا يقلون عنهم في شيء ، وان لهم أبحاثاً تفيدهم ، كما استفدنا نحن وما زلنا نستفيد من ابحاثهم . وهناك امم كثيرة مثل اليابان وروسيا وبولندا يكتب علماؤها بحوثهم العلمية الصميمة باحدى اللغات الثلاث الانكليزية او الفرنسية او الالمانية . . وهذا لا يحول دون وضع هذه المؤلفات باللغة العربية متى توافرت الوسائل اللازمة والظرف المناسب

٧ — ماهي الصورة المثالية التي ترجونها لدراسة الآثار في مصر ؟

— ان ما ارمي اليه هو تعميم دراسة الآثار في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية ، وان ارى المصريين يقومون بالبحث عن تاريخ اجدادهم على صورة تماثل الصورة التي وصل اليها العلماء الاجانب . والتفكير في هذا الموضوع يؤدي الى ان ندرك اننا يعوزنا شيء كثير للوصول الى هذه الغاية . واني اقدم بعض أمثلة أتمنى تحقيقها في القريب العاجل

اولاً — قيام بعض الشبان المصريين الذين درسوا الآثار بحفائر علمية واسعة النطاق ، واني اذكر مع السرور ان بعض هؤلاء الشبان قد بدأ فعلاً بمثل هذه الاعمال

ثانياً — انشاء متاحف محلية في عواصم المديريات ، واذا كانت البلدان المتوسطة في اوربا لها متاحف بها اقسام مصرية تحوي مكتشفات هامة فمن واجب مصر ، وهي مهد هذه الحضارة القديمة ، ان تنشأ فيها متاحف في مختلف الاقاليم تبين اولاً الآثار المكتشفة في هذه الجهة ، كما تحوي ايضاً بعض الآثار المكتشفة في جهات أخرى والتي تزيد عن حاجة المتحف المصري ، ولا يخفى ما في انشاء مثل هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها على الاقل توجه نظر سكان كل مديرية الى تاريخها القديم وتبعث نشاطاً وتنافساً في الاقبال على الحفائر

ثالثاً — ان تهتم وزارة المعارف بتسهيل دراسة التاريخ والآثار في مدارسها بان تعهد الى فنيين بالقاء محاضرات ودروس ، وتنظيم الرحلات ، وحفظ مجموعات كاملة من الصور للآثار المصرية حتى يشاهدها التلاميذ والتلميذات بالفانوس السحري

رابعاً — ان تشجع وزارة المعارف المؤلفين المصريين من الاثريين بنشر ابحاث تهم الشعب المصري ، وتنمي فيه حبه لآثار أجداده بطبع هذه المؤلفات ومنح المكافآت اللازمة . واني أؤكد انهُ في اليوم الذي تقدم فيه وزارة المعارف على ذلك سيتقدم لها اكثر من فرد من المصريين بمؤلفات نفيسة تشرفهم كمصريين ، وتأتي بالفائدة المرجوة للوزارة وللهيئات العلمية وللمصريين جميعاً

الضـــوء

والاحياء الدنيا

تجارب جديدة طريفة

منذ عهدٍ قريب أقام المهندس الأميركي « هين » المختص بالاضاءة ، مأدبة أعدَّ لها كل ما لذَّ وطاب من الاكل والحلوى. ولكنهُ أعدَّ كذلك أساليب خاصة لاضاءة بهو المأدبة ، فبدلاً من الاكتفاء بالمصابيح الكهربائية المألوفة ، أعدَّ مصابيح خاصة لها مصافٍ لونية تحجب من ضوء المصابيح جميع الألوان الا اللونين الأخضر والاحمر على اختلاف درجاتهما . وأقبل المدعوون الى المائدة وهم مرحون جذلون ، ولكنهم ما لبثوا ان فركوا عيونهم ليعلموا أفي يقظة هم أم في منام . فاللحم المشويُّ رماديُّ اللون والكرفس ورديَّةٌ واللبن أحمر كالدم والليمون كالبرتقال والقهوة صفراء باهتة والبسلَّة الخضراء سوداء فاحمة والفول السوداني أرجواني . وكان الطهي على أجود ما يمكن ان يكون ، ولكن هذه الألوان الغريبة أثرت في حواسّ المدعوين ، فمعظمهم لم يقبل على الطعام وبعضهم غادر المائدة قبل نهاية المأدبة وأصيب مدعوّان بقيءٍ عنيف

وقد كانت هذه المأدبة دليلاً على ان تأثير الضوء لا ينحصر في حاسة البصر بل يشمل الحواسّ الأخرى كحواس الذوق والشم واللمس . وليس الغرض من هذا المقال الا بيان بعض ما كشفهُ البحث الحديث عن تأثير الأضواء المختلفة في بعض الحيوانات الدنيا كالميكروبات والهوام والحشرات

تقاس أمواج الضوء بوحدة تعرف باسم « انغسترم Angstrom » . فما هو الانغسترم ؟ خذ قلم رصاصٍ وخُطَّ بهِ خطًّا على ورقة بيضاء . هذا الخط عرضهُ في الغالب مليمتر . فالانغسترم جزءٌ من عشرة ملايين جزءٍ من عرض ذلك الخط — أي من المليمتر . والعين البشرية لا ترى من أمواج الضوء الا ما كانت سعتهُ تتفاوت من ٤٠٠٠ انغسترم الى ٨٠٠٠ انغسترم . فالأمواج التي طولها اكثر ٨٠٠٠ انغسترم لا تحسُّ بها عيوننا لطولها ولكن تحسُّ بها بعض أعصابنا لأنها امواج حرارة . اما الأمواج التي يقل طولها عن ٣٣٠٠ انغسترم فلا تحسُّ بها عيوننا لقصرها وهي تختلف بحسب قصرها من الأشعة التي وراء البنفسجي الى الأشعة السينية بين الأشعة التي وراء البنفسجي والأشعة السينية منطقة من الأمواج يتفاوت طولها من ٣٠٠٠

انغستروم الى ألفين هي موضوع بحث دقيق الآن في غير دائرة واحدة من دوائر البحث العلمي

قد يصحُّ ان توصف هذه الأمواج بأنها امواج أشعة مميتة . ولكن قدرتها على النفوذ من الأجسام يسيرة فهي لا تخترق الجلد ولكنها قد تقرّحهُ . الاّ انها تميت الميكروبات وقتل الميكروبات من ضرورات الجراحة والعلاج . ولذلك عمد « هبن » صاحب المأدبة وصحبهُ من مهندسي الاضاءة الى استنباط مصباح صنعت « شركة وستنهوس للمصابيح » مائة نموذج منهُ وبعث بها الى مائة طبيب ليجربوها في بعض نواحي العلاج . ومما تستعمل لهُ هذه الاشعة قتل الاحياء الدقيقة التي تكون في مواد الغذاء المعدَّة للخزن او للحفظ . ويتوقع هؤلاء المهندسون ان تصبح هذه المصابيح في متناول العامة بعد خمس سنوات

هذا في ما يتعلق بالاشعة التي تقتل الحيوينات المجهرية . ولكن هناك طائفة اخرى من الامواج تستعمل لمكافحة بعض الهوام والحشرات التي تفتك بالمزروعات ليلاً . فينصب لهذه الحشرات شرك اساسهُ مصباح قائم فوق صفيحة من النفط او بقرب ورقة عليها صمغ طريٌّ ، فيجتذب الضوء الحشرات اليها ، فتقع في الصفيحة او تلصق بالورقة

بعض الحشرات يجذبها ضوء تستطيع ان تراهُ ، وبعضها ينفّرها هذا الضوء . وبعضها كالجنادب يبصر بضوء لا يراهُ الانسان . ولكن معظم الحشرات والهوام التي تطير في الليل وتبصر بامواج من الضوء الذي نراهُ ، تهفو في الغالب الى الضوء المزراق . اما اللون الاحمر فلا يجذبها لان عيون الحشرات على ما يظهر لا ترى الاحمر ولا الاخضر . فالمصباح الاحمر يجذب من الحشرات اقلَّ مما يجذبهُ المصباح الابيض اللون ، حالة ان الاصفر والذهبيَّ ينفرانها . وهناك ما يبعث على الظن بان الاشعة التي وراء البنفسجي اشدُّ الاضواء جذباً للحشرات

ثم هناك ناحية اخرى . فالعلاقة بين الحياة وورق النبات الاخضر أوثق وأشهر من ان تحتاج الى تعريف . تتخذ الورقة من الارض والهواء موادَّ تصنع منها بفعل مادتها الخضراء (الكلوروفل) وضوء الشمس اصول غذائنا ووقودنا . وكان الظن اولاً ان البزور لا تنتش والاوراق لا تنمو الاّ بفعل ضوء الشمس . ولكن التجارب الحديثة اثبتت غير ذلك . فقد ظهر ان تعريض اي نبات زهري لضوء كهربائي قوي ساعتين كلَّ يوم يفضي الى ازهار ذلك النبات . وقد اثبت باحث يدعى « فلنت » ان الاصفر والبرتقالي والاحمر هي الالوان الحيوية في حياة النبات ، واما الازرق والبنفسجي وما اليها فألوان الاستكنان او الموت

ثم ان فلنت وجنصن وجدا ان منطقة ضيقة من اللون الاحمر تفعل فعل السمّ في النبات

ان ضيق النطاق يحول دون الاسترسال في هذا الموضوع الفتان ولكن ما تقدّم دليل على ان ميدان البحث الذي تمهده هذه المباحث ميدان لا حدود لهُ

اقفل تلك النافذة

كيف عارضت الدول اولاً في انشاء المحاكم المختلطة

لو شاء الباحث لمضى في بيان هـذا الجشع العثماني الى مدى لا حدَّ لهُ . ففي المحفوظات المصرية الملكية من الحقائق ما يكفي لكتابة فصل أثر فصل على هذا النمط . ولكننا بلغنا نهاية سنة ١٨٧١ وهذا التاريخ يصلح كغيره من التواريخ لانزال الستار على هذا الباب

إلاّ أن القارىء قد يستغرب لماذا شدَّدنا في الفصول السابقة على « الناحية الادبية » من ميزانية أعمال اسماعيل ، وأصررنا على أنهُ إذا بدا للباحث ان طائفة من النفقات التي انفقها لم يكن لها قيمة يقيم لها المالي وزناً خاصًّا، فانها راجحة في ميزان « القواعد الأدبية »، ثم عمدنا بعد كلّ ذلك إلى تخصيص صفحة بعد صفحة رسمنا فيها صورة يغلب عليها حديث الارتكاب وبيَّنا أن الخديو أنفق عشرات الألوف من الجنيهات على سبيل الرشوة . فهذا التناقض الظاهر يحتاج الى قليل من التفسير

ان المفتاح إلى سرّ هذه المشكلة هو القول الصريح بأننا لا نحاول أن نجعل من اسماعيل قديساً . لأنهُ لم يكن كذلك . بل كان ابن بيئته، وكان متصفاً بمساوىء فضائله وفضائل مساوِيه. فكان يوزع المال على السلطان والصدر الأعظم والباشا وصبي المكتب لانهُ كان في حربٍ مع تركيا ، وكانت هذه وسيلتهُ في اقامة الحرب

سبق لنا أن قلنا أن الجنرال ستون ونحو أربعين من الضباط الاميركيين الذين انتظموا في خدمة الخديو بعيد انتهاء الحرب الاهلية الاميركية قيل لهم أنهم انما ينتظمون في خدمته للكفاح في سبيل استقلال مصر . وقد كانت الدعوة الى انتضاء سيوفهم في سبيل الدفاع عن الحرية ، هي المغناطيس الذي جذب هؤلاءِ المحاربين القدماء الى الشرق بعد تسريحهم من الحرب الاهلية . وكان الاختيـار قد وقع عليهم لأن اسماعيل أدرك أنهُ اذا اختار اوربيين ، فكأنهُ منح اوربا رهناً اول على استقلال بلادهِ . قيل انهُ كان قد اعدَّ معداته ليعلن تحديهُ لتركيا اثناء الاحتفال بافتتاح ترعة السويس . وكان قد اتفق مع الملك فكتور عمانوئيل على ان تفهم تركيا من ملك ايطاليا

انها اذا تدخلت في اعلان استقلال مصر فجيش بيدمونت واسطولها يهاجمان بعض البلدان العثمانية النائية . وترامى الى سمع نبوليون الثالث هذا النبأ فعارض اشدّ معارضة . فاضطرّ اسماعيل ان يتخلّى عن خطتهِ لما تبين مقاومة فرنسا . فاباه اوربا على اسماعيل ان يحارب تركيا حمله على الالتجاء الى حرب يقوم فيها المال مقام المدفع

ولا يمكن اقامة الدليل على اقوال قاطعة كهذه اذ ليس ثمة كتاب ازرق في صفحاتهِ مايؤيدها ولكنها قائمة على تأكيدات صادرة من مقام عالٍ لا يمكن ان تقتبس أقوالهُ . ولكن كل شيء يؤيد دقة الحقائق الاساسية التي تستخلص منها . فطموح اسماعيل الى تحرير مصر مما لا يتطرق الريب اليهِ . بل ان اتجاه سياستهِ كلها يؤيد ذلك . وليس ثمة باعث على الشك في قول الكولونيل شاييه لونغ .وقدكانت خبرة الخديو بالجشع العثماني ، مما أثبت لهُ قدرته على اخذ الاستقلال بالسيف اذا سمح لهُ أن يتحدّى السلطان . وكذلك نستطيع أن نفهم وجهة نظرهِ . وهي كما يلي :

« أن أوربا تأبى عليّ باعلان استقلال مصر ومحاربة تركيا اذا اقتضى الأمر في سبيل الحصول عليهِ . وإذن فلأفز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي بالسلاح الوحيد الذي يتاح لي . انني سأشتري ضمائرهم . ان هذه الغاية جديرة بهذا البذل »

ولكن الراجح أن التاريخ الذي ذكر لمهاجمتهِ تركيا كان خاطئاً . فهو لا يتفق مع انتظام الضباط الاميركيين في خدمته . فالتواريخ في عقود خدمتهم أما سابقة قليلاً لتاريخ افتتاح الترعة وأما بعيدهُ . ثم أنهُ لا يتفق مع الحقائق التي بسطها نوبار باشا في الرسالة التالية التي كتبها من باريس في ١٢ مايو سنة ١٨٧٠ : —

« في الحفلة الساهرة التي أقامها السفير الاسباني قال لي لورد ليونز أن لورد كلارندون كان قد علم من نواحٍ مختلفة ما أوصى بهِ الخديو في أميركا من السلاح وأنهُ أمرهُ (لورد ليونز) بأن يحدثني في الموضوع ويحذرني من أن الطريق التي يسلكها سموّهُ طريق وعر ولا يفضي الى شيء طيّب

« ودعيت الى زيارة لورد ليونز في اليوم التالي فذهبت فأعاد عليّ ما كان قد قالهُ وأضاف اليهِ أن ستانتن (القنصل الجنرال البريطاني في القاهرة) قد تلقى أوامر بأن يقابل الخديو . فقلت أنني لا أعلم شيئاً مما يزعم من أمر شراءِ الاسلحة . فأجاب لورد ليونز بأنهُ يعلم كلّ العلم أنني غير مطلع على ذلك ، ولكن ما وصلهُ من الحقائق صريح وقاطع ولا سبيل إلى الشك فيهِ . ثم قال انهُ اذا لم تحل المسألة فقد تسفر عن متاعب وعقد جديدة لا ترغب فيها أوربا . وقال أنهُ من الطبيعي أن الخديو يرغب في أن يكون مستقلاً ، ولكن لما كان سموّهُ ذكيًّا وحكيماً فانهُ يدرك ان هذا التسلّح يثير ريبة الباب العالي ومخاوف الدول[1]

(١) محفوظات عابدين . وثائق الاصلاح القضائي ١٨٧٠ — ١٨٧٥

وفي مذكرة مؤرخة في ١٠ مايو سنة ١٨٧٠ بعث بها نوبار الى القاهرة ولكنها من إملاء فرديناند ديلسبس نقرأ ما يلي :

« قابلت الآن دوق ده جرامون فسألني هل اعلم ما يفعله الخديو الآن . فقلت لا . فبيَّن لي ان حكومة الامبراطور تلقت معلومات عن معاهدة عقدها الخديو مع الولايات المتحدة ارتبط فيها سموه باستخدام نحو خمسين ضابطاً اميركياً ، واوصى بسفن حربية ومواد حربية وطربيدات وانهُ عزم على ان يرفع علم الثورة على السلطان . قال الوزير : انك تفهم الحالة . فان فرنسا على الرغم من صداقتها لخديو مصر ، لا يسعها ان تؤيد هذه الخطة ، وستضطر ان تنحاز الى انكلترا وبقية اوربا . فاذا وقع ما يخشى فان اميركا بعيدة ، والخسارة لا تقع على مصر ولا على الترعة بل على الخديو »(1)

وفي كتاب آخر مؤرخ في ١٨ مايو سنة ١٨٧٠ نجد ما قالهُ اميل اوليفيه رئيس وزراء فرنسا لنوبار : —

« قل لسموهِ باسمي ، كصديق ، ان هذه الاسلحة تثير القلق ، وان الحكومة ولاسيما الامبراطور لا ترغب في عقد عُقد ، وان هذه الاسلحة بدلاً من ان تعزز مكانة الخديو توهنها »(2)

لو عمد الكاتب الى كتابة رسالة في ادب النفس لكان يلوم اسماعيل لانهُ عمد الى السلاح الوحيد المتاح لهُ عندما وقفت اوربا هذا الموقف . فقد كان لا بد لهُ من ان يلين لهذا الضغط السياسي لكنهُ حقن انهراً من الدماء ووفر اكياساً من الذهب بما فعل . فجنت مصر من عملهِ فائدة عظيمة ، وان كان قصر النظر على الناحية الادبية من عملهِ لا يعترف بها . فلو سمح لهُ بان يحارب ، وأحرز الظفر في تلك الحرب ، لكانت النفقة اعظم جداً من الاموال التي فرَّقها ابراهام بك على رجال لم يغوهم بماله بل كانوا جزءاً من اداة حكومية فاسدة

واذا كانت مصر اليوم من اكثر الامم

في أوائل مارس ١٩٣٧ يخرج رئيس تحرير « المقتطف » ترجمة لكتاب بيير كرابيتس القاضي الاميركي في المحاكم المختلطة سابقاً وهو الكتاب الذي وضعه في الخديو « اسماعيل » وردَّ فيه ما وجه الى اسمه من تهم وفرى ، مستنداً الى اقوال المؤرخين والساسة ، محلا بالارقام والجداول ، معتمداً على وثائق رسمية لم تنشر محفوظة في قسم المحفوظات بسراي عابدين . وقد استأذن المترجم مؤلف الكتاب وناشريه في نقله الى العربية ففاز منهم بالرخصة الرسمية .

وهذا المقال الجانب الاكبر من أحد الفصول

(١ و ٢) محفوظات عابدين : وثائق الاصلاح القضائي

رخاء ، فانها مدينة في ذلك لعبقرية كرومر وبعد نظر اسماعيل . اني لن احاول هنا ان اسوغ التأكيد الاول بل اسوقهُ على انهُ قول نهض عليهِ الدليل . اما العامل الاساسي في القول الثاني فهو الاستقرار الذي تمتع بهِ مصر نتيجة للاصلاح القضائي الذي بذل ابراهام في سبيله جهداً عظيماً مشبعاً جشع الوزراء في الاستانة بينما كان نوبار في العواصم الاخرى يحاول اقناع رجال السياسة المجرِّبين

ولا بد من كلمة في طبيعة هذا الاصلاح القضائي . انهُ وليد ما توصف بهِ مصر في القانون الدولي من انها دولة تتمتع الدول الاجنبية فيها بامتيازات خاصة . وهذا يعني ان الاجانب فيها لا يحاكمون بمقتضى القانون المصري فقانونها يشمل المصريين لا الارض المصرية . فالانكليزي كان قبل هذا الاصلاح ، اذا باع بضاعة لبرتغالي فيها ، اوالاسباني اذا باع بضاعة لهولندي ، لا يقيم احدهما قضية في محكمة مصرية استصداراً لحكم يؤيد حقه في استيفاء ماله ، بل كان على الاول ان يقيمها في القنصلية البرتغالية فيرضى بتفسير القنصل للقانون البرتغالي ، والثاني في القنصلية الهولندية فيقبل تفسير القنصل للقانون الهولندي ، وقد لا يفوز باكثر من ذلك

وكلُّ هذا كان من شأنهِ ان يبث الاضطراب في المعاملات التجارية ويحول دون ورود رؤوس الاموال الاجنبية لاستغلالها في البلاد . فالاصلاح القضائي الذي كافح اسماعيل في سبيلهِ كفاح متشبثٍ مُصِرّ ، نصَّ على انشاءِ قضاء مختلط او دولي وعلى اصدار قانون متناسق يطبق في البلاد كأنهُ دولة داخل دولةٍ . وقد لخص لورد كرومر في احدى رسائلهِ اختصاص هذه المحاكم قال :

« ان تفصل في القضايا المدنية والتجارية والنزاعات الناشئة من تملك الارض ، بين الاوربيين (يريد الاجانب) والمصريين او بين الاوربيين (يريد الاجانب) من جنسيات مختلفة او بين الاوربيين (يريد الاجانب) والحكومة المصرية » [1]

لما بدأ احتلال انجلترا مصر كان قد انقضى ست سنوات على انشاءِ المحاكم المختلطة . وكان من اثرها بث روح الاستقرار والضمان في الاعمال حتى اصبحت مصر لا تحتاج الآ الى استقامة السر اكلند بارنغ — كما كان يعرف لورد كرومر حينئذٍ — وصدق قصدهِ وبارع خيالهِ ، لكي تقام خزينتها على اساس سليم . ولولا ذلك العميد (برو قنصل) العظيم لضاعت الثمار الطيبة التي جنيت من الاصلاح القضائي ، ولكن لولا انشاء المحاكم المختلطة وما تبثهُ من روح الثقة ، لانهار الى الارض الهيكل الذي اقامتهُ انكلترا بسعيها الصادق

ثم هنالك عنصر آخر لا يجب الاغضاء عنهُ عند ما يلام اسماعيل على انفاقه مبلغ ٢٨٩ر٤٢١

(١) مصر بعد كرومر : تأليف اللورد لويد : هامش صفحة ١٧ المجلد الاول

جنيهاً على الاقل ، للفوز من تركيا بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وهو منطو في القول المأثور «خيرٌ للذين يسكنون بيوتاً من الزجاج ان لا يقذفوا حجارة». والاورد ملنر الذي وصف الخديو بقوله انهُ « غشاش اصيل » يقيم لنا الدليل على صحة هذا القول المأثور . فهو يقول في كتابه « انجلترا في مصر » : « ولا يمكن ان نصور تصوراً صادقاً مبلغ الفساد الذي كان الوكلاء الدبلوماسيون الاجانب — ولاسيما في عهد اسماعيل — يعمدون اليه في استعمال نفوذهم لينتزعوا من مصر المسكينة الضعيفة مالاً توفية لاوقح المطالب

« لم يكن الغرض الاساسي من الفوز بامتياز ما في تلك الايام استغلال ذلك الامتياز استغلالاً نافعاً ، بل اختراع سبب لاهماله ثم مطالبة الحكومة بتعويض . وعلاوة على ذلك كانت كل خسارة تصيب اي اجنبي ، او اي ضرر يلحق به حتى ولو كان ناشئاً عن حادث هو المسؤول عنهُ ، فرصة تغتنم للمطالبة بتعويض . فاذا سرق ماله وقع اللوم على الحكومة لانها لم تقم الحراس الاكفاء . واذا جنح زورقهُ الى الشاطئ ، لام الحكومة لانها لم تنظف قعر النهر مما تراكم فيه . ويقال ان اسماعيل قال لاحد حشمهِ في خلال مقابلة مع احد الاجانب : اقفل تلك النافذة لانهُ اذا اصيب هذا الكريم بزكام كلفني ذلك ١٠ آلاف جنيه ، وليس في هذا القول اي مبالغة .

« فلما انشئت المحاكم المختلطة ، كانت المبالغ المطلوبة من الحكومة تعدل ٤٠ مليون جنيه . اما ما تمثله هذه المبالغ من الضرر الذي لحق بالمطالبين بها ، فيمكن ان يتبيَّن من ان احدهم كان يطالب بمبلغ ٣٠ مليون فرنك فحكمت لهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه » (١)

ان العبرة التي تستخلص من هذه الفقرة المقتبسة واضحة . فاسماعيل كان واقفاً وظهرهُ الى الجدار . وقد كانت بعض الوزارات الاوربية تؤيد هؤلاء المبتزّين وتحرّضهم على ابتزاز المال من الخديو . وهذا قول فيه معنى التحدّي ، ولكنهُ يستنتج من كلمات اللورد ملنر التي تقدمت . ان الدول لم تأذن لاسماعيل في محاربة تركيا لكي ينتزع منها بسيفه الاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . فكان عليه ان يختار ، فاما ان يدفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك توفية لطلب قدَّرتهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه واما ان يشتري الخلاص من هذه الحالة باشباع جشع الموظفين العثمانيين . فهل من الانصاف ان يلام على سعيه الى حماية نفسه بوسائل مخالفة للتعاليم الادبية حالة ان قبولهُ المحافظة على اساليب الضغط الدبلوماسي الاوربي يعني انتحاراً قومياً . اذا كان ذلك من الانصاف فالمثل اللاتيني السائر « Salus populi suprema lex » اي « سلامة الشعب هي القانون الاعلى » خطأ في خطإ

أما أوربا فمانعت في التخلي عن امتيازاتها ولم تقف من الاصلاح القضائي موقف عطف

(١) كتاب اللورد ملنر «انكلترا في مصر» : الصفحة ٤٤

ورضى . إلاَّ أن معالجة انكلترا الموضوع كان مما يشرّفها . وقد استغرق سعي نوبار شهوراً تحولت الى سنين قبلما فاز من الوزارات الاوربية بالموافقة على انشاء المحاكم المختلطة . وظلت فرنسا تمانع في انشائها بعد موافقة الدول الاخرى ولما أعربت عن رضاها كانت المحاكم قد بدأت عملها فعلا . ان قصة المساعي التي بذلها نوبار من أقصى أوربا الى أقصاها فصل خطير في ملك اسماعيل

كانت القاهرة قد أنبئت في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٧ ان وزارة الخارجية البريطانية « تعترف بضرورة الاصلاح القضائي وتكره مساوىء النظام القائم وتعهدت ببذل معونتها مع الدول على شريطة تعهد الحكومة المصرية بموافقة الدول »[1] . وفي ٨ نوفمبر ١٨٦٧ جاء من المانيا أن المانيا وافقت على مبدإ الاصلاح القضائي على شريطة حلّ مشكلة الضمانات التي تمنح للاجانب حلاً يبعث على الرضى وعلى شريطة تدبير فترة الانتقال وانشاء مدرسة للحقوق لتدريب قضاة المستقبل . ولكن الامور لم تسر هذا السير الحسن في فرنسا فكتب نوبار الى القاهرة في ٥ مارس سنة ١٨٦٩ مايلي :

« أشار عليّ الجنرال فلوري بأنني اذا كنت أرغب في الوصول بالمفاوضات الى خاتمة سريعة تبعث على الرضاء فعليّ أن أطلب مقابلة الامبراطورة وأن أقول لها أن مولاي الجليل قد أمرني بأن أنبئه هل جلالتها تنوي زيارة مصر لحضور الاحتفال بافتتاح ترعة السويس لانهُ اذا كانت تنوي ذلك فهو يرغب في اعداد الاحتفاء بها احتفاء يليق بمقام امبراطورة عظيمة وفاتنة . وقد قال الجنرال ان هذا العمل يبعث على اغتباطها ، وانها هي المسيطرة على لافاليت (المركيز ده لافاليت كان وزير الخارجية حينئذٍ : المؤلف) وانهُ اذا لم تفعل فقد تطول المفاوضات

« أما لورد ليونز الذي قابلتهُ بعد ظهر اليوم فقال لي أن المركيز ده لافاليت حسن الاتجاه ولكنه غير مستعجل لأن مشكلة البلجيك تستغرق معظم وقتهِ . وأنني لمتردد في الاتجاه الى الامبراطورة على نحو ما أشار الجنرال فلوري من دون أن أتلقى تعليمات أولاً من سموكم »[2]

ان حرق البخور على مذبح زهو امرأة ، يلقي ضوءًا على ناحية من خلق اسماعيل . فقد زُعم انهُ انفق عشرات الالوف من الجنيهات في الاحتفاء باصحاب التيجان الذين حضروا حفلة افتتاح الترعة . والراجح ان هذا الزعم صحيح . ولكن كتاب نوبار المؤرخ في ٥ مارس ١٨٦٩ يدل على ان ذلك الانفاق لم يكن جزافاً وان الابهة التي قابلهم بها كانت اسلوباً من اساليب حملته في سبيل الاصلاح القضائي

وعلى كل حال يظهر ان الامبراطورة اعجبت باطراء نوبار عندما اذنت لهُ في مقابلتها . فسارت الامور على ما يرام وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٩ ارسلت البرقية التالية الى القاهرة : —

«عندي من الوزارة ما يثبت لي ان قبول الحكومة الفرنسية اصبح مؤكداً . فلي ان اهنىء سموكم . ولا ريب في ان وفاة مدام لافاليت قد يؤخر صدور البيان الرسمي بضعة ايام»[3]

(١) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٧ (٢ و ٣) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٩

واذ كان نوبار يبذل مساعيهُ في اوربا ، راجع اسماعيل محفوظاته فلاحظ ان احداً لم يفاتح الولايات المتحدة الاميركية في الموضوع فكتب الى نوبار ما يلي :

«عزيزي نوبار : في موضوع الاصلاح القضائي ، لم نفاتح الولايات المتحدة بعد . فيجدر بنا ان نفعل ذلك الآن »[1]

وكذلك كان . والظاهر ان وشنطن كانت قد تلقت أنباء رسمية عما يدور في هذا الصدد . ويقول القاضي برنتن : ولكن من سخرية القدر أن اول نبأ اتصل بحكومة وشنطن عن مشروع الاصلاح ، كان مفرغاً في قالب نداءٍ الى الولايات المتحدة لتستعمل نفوذها لمنع تحقيقه . وكان هذا النداء باسم أمةٍ احد أبنائها اليوم ، عميد المحاكم المختلطة ومقدَّم رجال القانون في مصر . ففي رسالة مؤرخة في ٢٢ دسمبر سنة ١٨٦٧ وموجهة الى وزير خارجية اميركا اعربت حكومة اليونان عن رأيها بأنهُ يبدو لها ان تعديلاً خطيراً كهذا ولا سيما لأنهُ يمسُّ جميع حقوق الأجانب تقريباً في مصر ، يُعدُّ سابقاً لأوانه وان الجهل والتعصب والمفاسد المتأصلة في العناصر الوطنية تحول دون دعوتها لممارسة أعلى وظائف القضاء »[2]

ان المعارضة الناشئة عن وقوف حكومة اليونان هذا الموقف وضعت عراقيل كثيرة في طريق نوبار . ولكنهُ كان قادراً على النهوض بالتبعة الملقاة عليه . فقد كان متصفاً بالتفاؤل وحسن الحيلة والصراحة ، فلم يقنط من طرق أبواب الوزارات في أوربا . ولكن روسيا القياصرة لم تكن جزءاً من أوربا حينئذٍ أكثر من روسيا السوفيت الآن . وكان نظرها الى الواجب يختلف عن نظر لندن . فالذهب كان في نظرها مفتاحاً من مفاتيح التعقل . واذن كان لا بدَّ من الاعتماد على مساعي ابراهام في مفاوضتها . فأرسلت اليه برقية في ١٣ يناير سنة ١٨٧٣ وكان لا يزال في الاستانة فاذا البرقية تنطوي على ما يلي :

« يجدر بك ان تأخذ مبلغ ٨ آلاف جنيه في سندات (القنصليد) وضعها في ظرفٍ واكتب عليه عنوان الجنرال إيجناتيف . ثم اختمهُ بالشمع الأحمر ولكن لا تستعمل ختمك . ثم سلمهُ الظرف وقل لهُ انك تلقيت هذا الظرف بالسفينة الخاصة التي جاءت لتنقل جهاز ابنتي . فاذا سأل عما فيه فقل انك لا تعلم . واجتنب ان يفتح الظرف أمامك حتى يظنّ انك لا تعلم شيئاً عما فيه »[3]

كانت روسيا في تلك الايام نصير الروم الارثوذكس من المسيحيين . وكانت ذا سلطان عظيم في الاستانة . وكانت تطمح الى مدّ نطاق امبراطوريتها الى البوسفور . وكان سفيرها من أعظم السفراء الموفدين الى الباب العالي مقاماً ونفوذاً . فلو عارض في الاصلاح القضائي لتعذر على اسماعيل تحقيق ما يصبو اليه . وقد كان الجنرال إيجناتيف سفير القيصر ولذلك كانت خطة اسماعيل تنطوي

(١) اشتراك اميركا في المحاكم المختلطة تاليف جاسبر برنتن القاضي بالمحاكم المختلطة بالاسكندرية ص ٧٣

(٢) محفوظات عابدين : ملف ابراهام : سنة ١٨٧٣

على كسب عطف هذا السفير . فاقبل ابراهام على عمله بما عرف به من الدقة والنظام . وفي يوم ١٥ يناير انبأ اسماعيل بانهُ سيعالج مسألة الظرف وفقاً لتعليماته ثم يسلمهُ للجنرال إيجناتيف[(١)]

الاّ ان سير الامور كان بطيئاً . ولم يستطع « مراقب » الخديو ان ينبيء مولاهُ باي تقدم نحو الغرض الاّ في ١١ فبراير . قال في رسالة :

« قال لي « البَنكير » كامارا انهُ اذا شئنا ان تنهي مسألة الاصلاح القضائي فعلينا ان نعطيه المال الذي وعد به ، لان التدبير قد تمّ تقريباً بفضل ايجناتيف الذي يطلب عشرين الفاً من الجنيهات . فقلت لهُ : انني وعدتك حقيقة بمبلغ من المال ولكنني فعلت ذلك على شرطين اولهما : ان تأتيني بكتاب من إيجناتيف بان روسيا توافق على جميع الشروط . وثانيهما : أن تنتهي المسألة في خلال شهرين . فذهب كامارا ثم عاد وهو يقول ثق بي عندما أقول لك ان إيجناتيف قد بذل جهده . ولكن المسألة لم تنته بعد . وقد تطول اذا لم يتسلم المبلغ الذي وعد به »[(١)]

وتلقى ابراهام ردًّا من القاهرة في اليوم نفسه ومؤداه انهُ قد خولهُ دفع مبلغ ٨ آلاف جنيه وان الباقي وهو ١٢ الف جنيه يرسل عندما يسلمهُ ايجناتيف كتاباً ينصُّ على أن حكومتهُ خوّلتهُ حق الموافقة على الاصلاح القضائي . فكان ردُّ ابراهام على هذا مؤرخاً في ١٣ فبراير وقد اكّد فيه انهُ سلّم إيجناتيف مبلغ ٨ آلاف جنيه على اساس القواعد التي وصفها الخديو فلما كان اول مارس جعل كامارا يشدّد على ابراهام بوجوب دفع الباقي من المبلغ وهو ١٢ الف جنيه للسفير وأنبأهُ بأن الرسالة الخطيرة التي تنصُّ على الموافقة ستسلم في ذلك المساء . وقد سلمت فعلاً ولكنها كانت كما يصفها المحامون « مبهمة وعامة وغير محدودة » . فلما أبلغت محتوياتها الى الخديو بالبرق أبرق سموّهُ الى ابراهام بتاريخ ٣ مارس :

« لا معنى لهذا الكتاب . ومن بواعث الأسف ان يكون قد تسلم مبلغ ١٢ الف جنيه لانهُ لن يعطينا كتاباً آخر الاّ لقاء مبلغ آخر من المال »[(١)]

وقد كان ابراهام عارفاً بمداخل هذه المعاملات ومخارجها فلم يخدع فأبرق الى مولاهُ بذلك وقد طال الأخذ والردُّ بين ابراهام ووكيل السفير الروسي حتى منتصف شهر مارس اذ فاز ابراهام بكتاب من السفير وافٍ بالغرض فأبرق الى الخديو :

« مولاي الجليل . دفعت مبلغ ١٢ الف جنيه لايجناتيف فكان شديد الاغتباط »

ان سرد هذا القصة الاليمة من قصص الجشع الروسي يبين كيف تغلّب الخديو على احدى العقبات التي هددت مشروع الاصلاح القضائي بالحبوط . وقد كان هناك عقبات اخرى ولكن نوبار تخطاها بمنطق السياسي المحنك ولباقة الدبلوماسي البارع

(١) محفوظات عابدين ملف ابراهام ١٨٧٣

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ١٧ —

إبْرَة آدم الفاخرة

ويقال لها يوقا (Yuca) عند أهل سنت دومنغو وهي شجيرة دائمة الاخضرار ساقها بسيطة أو متفرعة ترتفع مترين . اوراقها كبيرة عديدة متضامة صلبة قائمة لونها أخضر يضرب الى الزرقة كاملة الحافة تماماً طول الواحدة منها متر وعرضها ٨ سنتيمترات مقعرة من وجهها العلوي ولها رأس شائك . وأزهارها مجتمعة في عنقود طوله متران يخرج من وسط الاوراق الواحدة منها بيضاء تضرب الى الخضرة من الداخل ومبقعة باللون الارجواني من الخارج وشكلها كالجرس المتدلى

اسمها العلمي (Yucca Gloriosa, L.) (يوقاغلوريوزا) وفصيلتها الزنبقية (Liliaceae) (الليلياسية) وبالانجليزية (superb Adam's needle; mound lily) والفرنسية (yucca glorieux)

موطنها امريقة الحارة (فرجينيا) وهي ضرب من الزنبق الأبيض مرغوب فيه للزينة جداً في البساتين المصطنعة من الصخور (الجبليات) لشبهها بشجر النخل والانا ناس والصبار ولدوام اخضرارها وهي بطيئة النمو والإزهار ولذا تناسبها البيوت الزجاجية (الصوبات) في غير موطنها الاصلي أما اذا زرعت في العراء فلا تنجح

ابرة الراعي المنسوبة لروبرت (١)

هي عشب سنويّ يرتفع من ١٥ سنتيمتراً الى ٣٠ وورقته ذات ثلاثة فصوص أو خمسة مقسومة تقسيماً ريشيًّا ثلاثيًّا وأزهاره حمراء قرمزية أوراق تويجاتها كاملة الحافة طول الواحدة منها ضعف طول ورقة الكأس التي تكون مضلعة ولها سفاة كالابرة .

اسمهُ العلمي (Geranium Robertianum, L.) (جرانيوم روبرتيانوم)(٢) وفصيلته الجرانية أو فصيلة ابرة الراعي (Geraniaceae) (جرانياسية) وبالانجليزية (herb robert; Scotch geranium) والفرنسية (gèranium robertin; bec de grue; herbe à Robert;)

شائع في اوربا (فرنسا وانجلترا) وآسيا وافريقة الجنوبية ويكثر في الأراضي الزراعية نامياً بطبيعته وقد يزرع احياناً في المواضع التي تظللها الاشجار وعصارته تستعمل دواء قابضاً وعطراً كماء الورد .

إبرة الراعي المُخطَّطة

هي عشب معمر ساقهُ مستديرة غير قائمة ترتفع الى قدم وورقته السفلى ذات خمسة فصوص وكل فص بيضي الشكل محدد الرأس مسنن الحافة جدًّا وأزهاره جميلة وردية تتخللها خطوط أرجوانية .

اسمه العلمي (Geranium striatum, L.) (جرانيوم استرياتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (queen Ann's needle work; striped crane's bill) .

والفرنسية (geranium strié; bec de grue strié) شائع في شمال اوربا وايطاليا وغيرها يزرع للزينة ويبدأ في الإزهار من شهر مايو

إبرة الراعي اللانكشيرية

هي عشب معمر متساقط الأوراق ساقه مفرشة على الارض ذات عقد يرتفع من ١٠

(١) في الشام يطلقون على ما عندهم من انواع هذا النبات اسم (جرنة) و (عتر) و (منقار الكركي)
(٢) اشتق اسم جرانيوم من جرنيون (géranion) عند قدماء اليونانيين اخذاً من جرانوس (géranos) بمعنى كركي وذلك لشبه ثمرة هذا النبات برأس الكركي ومنقاره

سنتيمترات الى ١٥ أوراقه متقابلة الوضع في كل واحدة منها خمسة فصوص غائرة وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون تتخللها خطوط أرجوانية

اسمهُ العلمي (Geranium Lancastriense, With.) (جرانيوم لانقاستريَنسي) أو (Geranium sanguineum lancastriense, Mill.) (جرانيوم سانغوينيوم لانقاستريَنسي) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (Lancashire crane's bill) شائع في انجلترا وفرنسا وغيرهما يزرع للزينة

إبْرَة الراعي القرمزية

هي عشب متساقط الاوراق جميل المنظر ساقه قائمة كثيرة الفروع ترتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه متقابلة الوضع في الواحدة منها خمسة فصوص وكل فص مقسوم الى ثلاثة فصوص صغيرة على هيئة خطوط وأزهاره كبيرة قرمزية تضرب الى اللون الارجوني اي حمراء كالدم

اسمهُ العلمي (Geranium sanguineum, L.) (جرانيوم سانغوينيوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (bloody crane's bill) والفرنسية (géranium sanguin)

شائع في أوربا (فرنسا وانجلترا) وغرب آسيا يزرع للزينة وهو اجمل الانواع يزهر من مايو الى سبتمبر وعصارته تشتمل على حامض العفص واسمها الفرنسي (rouge de géranium) تستعمل في الطب قابضاً

إبْرَة الراعي ذات أوراق شقائق النعمان

هي عشب ساقه كساق الشجيرة يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه السفلى كفيّة ملساء الواحدة منها مقسومة الى خمسة فصوص وكل فص مضاعف التقسيم الريشي والاوراق العليا مقسّمة تقسيماً ثلاثيّاً وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون أو حمراء أرجوانية

اسمهُ العلمي (Geranium anemonaefolium, L.) (جرانيوم أنيمونيفوليوم) أو (Geranium Lowii) (جرانيوم لوياي) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (anemone-leaved crane's bill) شائع في جزيرة مَديْرَة يزرع للزينة ويزهر في الصيف

إِبْرَةُ الراعي المُبَقَّعة

هي عشب متساقط الأوراق معمر جميل المنظر ساقه الأرضية غليظة والهوائية قائمة ذات ضلوع على نوع ما ثنائية الشعب مغطاة بشعر قصير ناعم أوراقه مقسومة الى ثلاثة فصوص أو خمسة مسننة الحافة الجذرية منها ذات عنق طويل جدًّا والعليا متقابلة الوضع عديمة العنق وأزهاره أرجوانية اللون فاتحة تتفاوت في الحجم

اسمه العلمي (Geranium maculatum, L.) (جرانيوم ماكولاتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (spotted crane's bill)

والفرنسية (géraine maculatum)

شائع في امريقة الشمالية وعصارة ساقه الارضية تستعمل في الطب مقوياً للمعدة وقابضاً في حالات النزيف الباطني والخارجي والاسهال

أذن الحمار المتوسط

عشب متساقط الأوراق ترتفع ساقه الى ٢٠ سنتيمتراً أو ٢٥ وله سوق كثيرة الامتداد على سطح الارض أوراقه بيضية الشكل ملساء تقريباً الجذرية منها ذات عنق والعليا تكاد تكون عديمة العنق (جالسة) وأزهاره زرقاء او بيضاء

اسمهُ العلمي (Ajuga reptans, L.) (آجوغا ريبتانس)[١] وفصيلته الشفوية وبالانجليزية (bugle) والفرنسية (bugle rampante; consoude petite) [٢] وهو شائع في اوربا يزرع للزينة ومشهر عند العامة هناك دواء لالتئام الجروح ومبرد وقابض لطيف

---

(١) يؤثر عن الاتينيين أنهم عزوا الى النبات المسمى (ajuga) خاصية ادرار الطمث ولكن الراجح ان هذه الخاصية انما هي للنبات المعروف الآن (بالعرصف) وهو (الكمافيطوس) واسمه العلمي (Ajuga Chamaepitys, Schreb.) وبالانجليزية (yellow bugle or ground pine) والفرنسية (germandrée ivette ou chamaepitys)

(٢) ولتشابه الخواص الطبية بين نباتي اذن الحمار المتوسط وابو خلسا او لسان الثور قد اطلق على الاول منهما اسم (bugle) مصحفا عن (bugula) باللاتينية الذي هو مرادف (ajuga) أما (bugula) فهو مختصر (buglossum) مرادف (anchusa) اسم الجنس لابي خلسا او لسان الثور واسمه العلمي (Anchusa officinalis, L.) وبالانجليزية (common bugloss)

والفرنسية (buglose ou buglosse des boutiques)

مدارس الصحافة

وبواعث انشائها

للدكتور ليل سبنسر
عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوس الاميركية
والاستاذ الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

ان الجامعات الاميركية في طليعة جامعات العالم اهتماماً بالصحافة وتدريسها كفن من الفنون الهامة . وقد دعاها الى ذلك سببان رئيسان هما : (١) قوة الصحافة ومنزلتها الاجتماعية . (٢) حاجة الصحافة والنشر في العصر الآلي الحديث الى دراية فنية ودربة عملية

منذ سنوات قليلة أخرج الاستاذ اوجبرن (Ogburn) بجامعة شيكاغو كتاباً عنوانهُ « التطور الاجتماعي » نبه فيهِ الافكار الى حقيقة جديرة بالتأمل هي ان المعلومات المدخرة عند اي فرد من الناس ترجع في اصلها الى عنصر اجتماعي . اي ان ما لدينا من المعلومات مأخوذ في الأصل عن غيرنا . وان قدراً ضئيلاً من تلك المعلومات مكتسبٌ بالملاحظة الفردية والاستنباط الشخصي المبتكر . وقدرة الرجل العادي على استنباط النتائج الجديدة بنفسهِ من غير الاستعانة بغيره قليلة لا تكاد تذكر . أو بعبارة أخرى ان الأمور الفكرية التي ينتفع بها المرء في هذه الحياة قد اشترك في تكوينها واعدادها افراد عدَّة مجتمعة فنحن نعرف ما نعرفهُ لأنَّنا تعلمناهُ عن الآخرين ، لا لأنَّنا فكرنا فيهِ مستقلين . لقد درس الاستاذ اوجبرن مائة وثمانية واربعين مخترعاً من اعظم المخترعات في العصور الحديثة فلم يجد في واحد منها ابتكاراً مستقلاً تمام الاستقلال بمعنى ان صاحبه انفرد بهِ وحده ولم يعتمد في تكوينهِ على افكار غيره ، بل رأى في كل حالة أن المخترع أو الكاشف كان يستعين بالمعلومات التي كان لغيره الفضل في اعدادها

وهذه الحقيقة نفسها هي التي دعت الاستاذ روس فني Ross Finney بجامعة (منسوتا) الى القول بان التفوق العقلي في المرء ليس نتيجة لجهوده الفردي ولكنهُ أثر من آثار التفكير الجمعي . ثم قال بعد ذلك أن كشف حقائق جديدة تضاف الى الحقائق القديمة عمل شريف جدير بالتقدير ولكنهُ عمل نادر الحدوث . وان الاستقلال الفكري الذي نفخر بهِ احياناً ليس الأَ سراباً خداعاً لا حقيقة له

والواقع ان الآراء التي لدينا وهي التي ننسبها كثيراً الى انفسنا وصلتنا اولاً عن افراد الاسرة والمتصلين بنا. ثم جاءت بعد ذلك عن طريق الصحف والكتب والمجلات . وما نأخذه عن الصحف أوفر وأكثر مما نأخذه عن الكتب والمجلات . ولا شك ان ما تنقله عن الزملاء والاصدقاء وغيرهم مقتبس معظمه من الصحف

فما تعلمونهُ عن الفيضان في اميركا وإضراب العمال هنالك قد جاءكم نبؤه في الصحف . وما تعرفونهُ عن هتلر وموسوليني وستالين نقل جميعه من الصحف . كذلك ما تسمعونه عن الحرب في اسبانيا واعمال ايطاليا في الحبشة والازمة الوزارية في اليابان كل ذلك جاءكم عن طريق الصحف. والاخبار التي تذاع كل يوم بالمذياع جمعتها الصحف ونقلتها الى محطات الاذاعة فقامت بنقلها اليكم . وغاية القول ان الصحافة اصبحت اقوى وسيلة لنشر الانباء والمعلومات المتداولة بين الناس. وهذه المنزلة السامية للصحف في الحياة العصرية هي التي حدت بجامعات اميركا ودفعتها الى العناية بدراسة الصحافة بانشاء مدارس خاصة لتلقين الناشئين من الطلاب والطالبات فنونها والتخصص فيها كسائر المهن الاخرى

ولا يفوتني ان اذكر ان الصحف في اميركا قوية وان الجامعات هنالك قد انشأت مدارس لها اعترافاً بفضلها على المجتمع . وقد سررت كثيراً حين علمت ان الصحف في مصر تتمتع بحريتها ولا اعتبر ذلك امتيازاً لها بل أعده حقاً من حقوقها . وأهنئكم لانكم تنشرون صحفكم هنا في احوال تختلف عن نظائرها في بعض البلاد الاخرى كايطاليا والمانيا وروسيا . اذ لا يستطيع شعب ان يتمتع بالحكم المستقل ما لم تكن صحافته حرة تعبر عن آرائه وطرائقه التي يريدها لحكم نفسه. وتمتعكم في مصر بالحرية الصحفية تراث ثمين يجب عليكم المحافظة عليه . هذا هو السبب الاول الذي اردت ان احدثكم عنه

اما السبب الثاني الذي دعانا الى انشاء مدارس للصحافة في اميركا فراجع الى تعقد الحياة الاجتماعية العصرية وازدياد الوسائل الفنية للنشر والاعلان . فالحياة الفطرية الاولى لم تكن في حاجة الى تعليم رسمي منظم إذ كان الاب والام يتوليان تربية الابناء في المنزل وتعليمهم ما يلزمهم للحياة في مجتمعهم الساذج الصغير . كما هو الحال الآن في القبائل المتوحشة التي يقتصر التعليم فيها على تدريب الابناء على صيد الاسماك والحيوان والدفاع عن النفس وتعليم الفتاة شيئاً يسيراً من الطهي وطحن الحبوب وحياكة الملابس وأمثال ذلك . ولكن لما اتسعت الحياة وتقدم المجتمع اصبحت النظم اكثر تعقيداً وصار التعليم الرسمي ضرورة من ضروريات المعيشة . فالاب والأم لا يستطيعان الآن اعداد ابنائهم وبناتهم لعصرنا هذا. ولعل الكثير منا يذكر ان معرفة المواد الثلاث القديمة وهي القراءة والكتابة والحساب كانت كافية لأعداد الطالب للحياة وعَدّه مهيأً للزعامة

لقد انقضى ذلك الزمان واصبحنا في عصر تشابكت فيه المصالح وتعددت اساليب المعيشة واختلفت وسائل العمل والارتزاق . ولا نبالغ اذا قلنا اننا في عصر لا يستطيع فيه الشاب ان يحصل على القدر اللازم لسعادته من التربية الا بعد ان يصل الى سن الثلاثين. ولقد كان هذا التزاحم على الحياة والميل الى النجاح فيها داعياً الى الاجادة والمهارة في الوسائل التي تكفل الفوز ومن اجل ذلك قال الناس بالتخصص والانقطاع الى بعض فروع العمل والتوفر عليها ليضمن الانسان الاتقان . فبدأ التخصص اولاً في الدين ثم في الطب ثم في الحقوق والهندسة وتبعها غيرها وجاء الآن دور التخصص في الصحافة . ومن الصعب ان نذكر تعليلاً صحيحاً لتأخر التخصص في الصحافة عن غيرها من المهن الاخرى وربما كان سبب ذلك الظن بأن كل فرد يحسن الكتابة وتحريك القلم وصوغ العبارات واعداد الآلات يصلح ان يكون محرراً لصحيفة او مديراً لها

ولكن الحقيقة ان التحرير والنشر يتطلبان تعلماً فنيًّا وثقافة حرة واسعة النواحي

فالصحفي الحديث لا بد له من الالمام التام بالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة واللغات. ولقد رأيت بنفسي خطباً جليلة لقادة عظماء قد نقلها بعض الصحفيين ونشرها في جرائده فنالت السخط والاستهزاء من القراء لا لأن تلك الخطب معيبة او بها نقص او سوء اختيار ولكن لان أولئك الصحفيين لم يكونوا ذوي المام تام بشئون الحياة وعلم واسع يمكنهم من فهم اغراض الخطباء وصوغها بالروح السامي والعبارات اللائقة التي تحدد المعاني وتوضحها وتنقلها الى القارئين كما يريدها أولئك الخطباء . وهذا هو السبب عينه الذي يدعو الى رفع شأن بعض الصحف واسقاط غيرها فمديرو الصحيفة والمشرفون عليها هم الذين بيدهم ان يكتبوا لها الحياة والذيوع او يسوقوا اليها الموت والافلاس

ولا يغيب عنا ان مهمة الصحيفة ليست مقتصرة على الاخبار والمسائل العلمية والادبية التي تتطلب منا نحن معشر الصحفيين خبرة وفهماً ولكن هناك باباً هامًّا من الابواب التي تعتمد عليها الصحف وتستعين بها على الحياة والبقاء ذلك هو باب « الاعلانات » وهو باب ليس اقل شأناً واحتياجاً الى العناية والدراية من سائر الابواب الاخرى فله من الوسائل والاساليب الخاصة ما يدعو القراء الى الالتفات اليه. ولولا تلك الوسائل والاساليب ما اهتم به احد من الناس فيصيب الصحيفة بسبب هذا الاهمال ضرر جسيم — وهذا هو الباعث على ان بعض الناس يقرءون تلك « الاعلانات » في بعض الصحف ولا يجدون باعثاً على قراءتها في صحف اخرى

مما تقدم يتضح لنا ان تحرير الصحيفة والاشراف عليها واظهارها للناس في ثوب لائق يتطلب منا في عصرنا الحديث تخصصاً في فنون الصحافة وانقطاعاً لدراسة وسائلها كما ينقطع بعض الطلاب لدراسة الطب او الحقوق او الهندسة او غير ذلك

العلم في خدمة الانسانية

الغدد والحياة

— ٣ —

الغدد وتجديد الشباب وتعيين الشق

لما اتيح للعلماء توّرا الشق نقيين استطاعوا ان يمتحنوا بهما اقوال الداعين الى تجديد الشباب بالعمليات الشقية sex operations فاستبدل شتيناخ النمسوي بعملية زرع الغدد حقن الثيلين (توّر الانثى) او الاندروستيرون (توّر الذكر) ولكن التبديل لم يسفر حتى الآن عن اي دليل على انهما يعيدان النشاط للعجائز والشيوخ . وفي ذلك قال ستوكراد : « ظنّ شتيناخ وفورونوف خطأً إن تكّس degeneration الغدة الشقية هو الباعث على الشيخوخة . وهذا رأي قائم على وهم . لان تكّسها عرض وليس بسبب . فالثور الخصيّ والجواد الخصيّ والديك الخصيّ لا تفوق في سرعة شيخوختها او بطئها الثيران والجياد والديوك السوية » . ولا يزال فورونوف يبحث في كل قطر من اقطار الدنيا عن اسرار التعمير ولا يزال كثير من الشيوخ يعلّقون بمباحثه أوهى الآمال

ان عزل الثيلين والاندروستيرون والتستوستيرون مكن العلماء من ان يوغلوا في بحث اسرار الشق التي امضّت عقول الناس قروناً طوالاً . بهذه الاتوار تمكنوا من تفسير بعض التجارب الغريبة التي تمت في القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن . ففي سنة ١٨٤٩ عمد باحث يدعى برتولد الى تجارب جربت قبل قرن من الزمان ونوّعها قليلاً واعاد تجربتها وذلك بسلّه خصى الديوك من موضعها الطبيعي وزرعها في الديوك نفسها ولكن تحت جلدها . فلم يظهر على الديوك اي أثر من آثار الخصي . وذلك لان الخصى ظلّت تفرز من موقعها الجديد مفرزاتها الداخلية في الدم وهي المفرزات التي تردّ اليها صفات الذكر الشقية . ثم جاء باحث آخر سنة ١٩٠٠ وجرب تجارب من قبيلها بغدد الاناث الشقية . وفي سنة ١٩١٦ أخذ غوديل Goodale المبيض من دجاجة وزرعه في ديك خصيّ فتحوّل الديك دجاجة في مظهره الخارجي وسلوكه . ذلك ان تور المبيض أفرز في دم الديك فأنشأ فيه الخصائص الانثوية المتصلة به

ثم كشف الدكتور فرانك للي Lillie كشفاً كبير الشأن في هذا الموضوع عند ما شرع في دراسة الخناث . وقد تمَّ له ذلك وهو لا يعلم ان عالمين نمسويين كانا قد سبقاه اليه قبل ست سنوات

تلد بعض المواشي توائم ويكون أحد التوأمين في بعض الاحيان ذكراً والآخر أنثى تتصف بصفات الشقين اي الذكر والانثى وهو ما يعرف عندنا بالخنثى . والخنثى عقيم وأعضاؤها الجنسية غير سوية التركيب. فتناول الدكتور للي في دراسته عشرات من هذه الخناث فوجد ان جهاز الدورة الدموية في كلّ من التوأمين ، لا يكون متصلاً قبل الولادة اتصالاً مباشراً بدورة الام ، بل يكون أحدهما متصلاً بالآخر . وكذلك يدخل نوْر الخصية من الذكر دم الانثى وهي في أدوار نموّها الأولى فيحدث فيها تغيراً في تكوينها يجعلها شبيهة ببعض الشبه بالذكر . وما انقضى على ذلك بضع سنوات حتى تمكّن ساند Sand أحد علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك من انجاز عملية طريفة . ذلك انهُ أخذ ديكاً وزرع فيه مبيضاً ، وانتزع ريش الجانب الأيسر من جسمهِ عند اتمام عملية الزرع ، فلما نما ريش جديد مكان الريش المنتزع كان ريش الانثى وذلك من تأثير مفرزات المبيض . وكذلك أصبح هذا الديك نصف ريشه ريش ذكر والنصف الآخر ريش انثى . وفي سنة ١٩٣٠ أخذت ماري جوهن Juhn الباحثة في جامعة شيكاغو ذكر طائر أسمر الريش وحقنتهُ بالنوْر الشقي من امرأة ، فتحوّل ريشهُ وأصبح كأنهُ أنثى ذلك الطائر

هذه البحوث والتجارب تفسر لنا ما كان يقع للخصيان في قصور السلاطين ، او للفتيان الذين كانوا يخصون للاحتفاظ بصوتهم رفيعاً كصوت النساء (سوپرانو) للترتيل في الكنائس . ثمَّ ان دراسة أنوار الشق كشفت عن بعض الحوادث الغريبة التي وصفها الطبيب النفسي كارل مينجر . فمن الحوادث التي حدثت حادث رجل أُصيب بعد الحرب بمرض النوم . فلما شفي من مرضهِ لاحظ ان شعر عارضيهِ توقف عن النمو . وان صوتهُ اصبح عالي النغمة ، وكبرت ثندوتاه حتى اضطرَّ ان يستأصلهما بعملية جراحية وأصبح كالنساء في ما يستوقف عنايتهُ ويسترعي اهتمامهُ . وكان لما رآهُ هذا الطبيب جالساً في سريره في احد المشافي وهو يطرّز . وتفسير ذلك ان مرضهُ أحدث اضطراباً في غددهِ الشقية فأصبح خنثى . وهذه الظاهرة ظاهرة الخناث كثيرة في النباتات ولكنها مشاهدة في الرجال كذلك . ولعلَّ أشهر حوادثها حادث رجل ثندوتاهُ كثندبي المرأة وسلوكهُ كسلوكها ولكن أعضاءهُ التناسلية اعضاء رجل تام الرجولة ، فالخناث والتجارب المتصلة بهذا الموضوع هي الدليل القائم على تأثير أنوار الشق في تغيير خصائص الاحياء

***

إلاَّ ان تفسير الشق بأنوار الغدد الشقية ليس بالتفسير العلمي الوحيد . بل هناك التفسير

الآخر الذي تقدَّم بهِ العلاَّمة توماس هنت مورغان وهو القائم على عوامل الوراثة المنطوية في الكروموسومات . ثمَّ لما نشأ علم المفرزات الداخلية بيَّن اقطابهُ انَّ هذه المفرزات ولا سيما مفرزات الغدد التناسلية هي العوامل المسيطرة على تعيين شق الوليد (Sex) وهل يكون ذكراً او أنثى . كان رأي ارسطوطاليس انهُ اذا كانت نطفة الذكر غير قوية ، نشأ وليد ناقص وهو الانثى . وظلَّ الناس قروناً متوالية يعتقدون ان مفرزات الخصية اليمنى تولد الذكر حالة ان مفرزات الخصية اليسرى تولد الانثى . واضيفت الى هذه العوامل عوامل اخرى ذكر بينها سن الوالد وغذاء الوالدة والحرارة عند الحمل بل واتجاه الرياح ايضاً . وفي أواخر سنة ١٩٣٣ حاول احد العلماء ان يثبت ان زيادة المادة القلوية مثل مادة بيكربونات الصودا تفضي الى ولادة الذكور حالة ان زيادة المادة الحامضة كالحامض اللبنيك تفضي الى ولادة الاناث

ولا يزال العلماء الى يومنا هذا غير مجمعين على رأي واحد يفسرون بهِ تعيين الشق في المواليد. ولكنهم يقرّرون أن الكروموسومات ومفرزات الغدد الصم المختلفة هي العوامل الرئيسية

ثم هناك تفسير آخر . فالاستاذ للي Lillie يعتقد ان كل خلية تنشأ من تلقيح بيضة بنطفة ذكر تشتمل على خصائص الخنثى وان اضطراباً في الغدد واحوال البيئة التي تتكاثر فيها هذه الخلية ، قد تفضي الى تغلب الذكر على الانثى او الانثى على الذكر

ولهذا الرأي خطرهُ من ناحيتيهِ النظرية والعملية . اما الناحية العملية فيبدو خطرها في ان مربي الحيوانات يهمهم تكثير الابقار والدجاج دون الثيران والديوك . وقد حاول بعضهم ان يسيطر على شق الحيوان فاصاب قسطاً من النجاح . ففي مختبر علم الحيوان بجامعة انديانا تمكن الباحثون من زيادة نسبة الدجاج الى الديوك من ٥٠ : ٥٠ الى ٢٢ ، ٣٥ : ٧٨ ، ٦٤ وذلك بحقن الثيلين في الفراغ الهوائي الذي في اعقاب البيض . ثم وردت انباء من موسكو بانهم تمكنوا من السيطرة على شق الارانب ولكن بطريقة أخرى . وذلك بفصل النطف الذكرية التي تدل كروموسوماتها انها تفضي الى ولادة الاناث . وهذا الفصل تمَّ بطريقة كهربائية . ثم لقّح بها بويضات تلقيحاً صناعيًّا . وكان عدد البويضات الملقحة ٢٠٠ بيضة فكانت النتيجة ١٠٨ اناث . ولكن هذه التجربة وما تلاها لم تسفر عن شيءٍ يصحُّ الاعتماد عليهِ مع ان كولستوف وهو الباحث الروسي الذي قام بهذه التجارب يزعم انهُ في الامكان تطبيقها على المواشي

***

واذ كان ايفانس وزوندك وردل وغيرهم يبحثون في خلاصة الفص الامامي من الغدة النخامية ، اتجه آبيل الى دراسة الفص الخلفي ، وكان قد نفذ الى حصنهِ اولاً في سنة ١٩١٧ وفي سنة ١٩٢٢ استخلص منهُ مادة ترفع ضغط الدم في العروق رفعاً سريعاً . ثم ظهر ان لها

وظائف اخرى . فهي تحدث قبض العضلات في رحم الخنزير حتى ان جزءاً منها في ١٥ الف مليون جزء من الماء يحدث اقصى ما يمكن حدوثه من هذا الانقباض . ففوائده السريرية عظيمة جداً في الطلق والولادة وفي منع النزف

ثم اقبل على البحث في خلاصة الفص الخافي من الغدة النخامية طائفة من الباحثين . فاثبت اوليفر كام ان الخلاصة التي استخلصها آبيل يمكن ان تفصل الى مادتين دعا الاول « بترسين » Pitressin والثانية بيتوسين Pitocin فالاولى ترفع ضغط الدم . والثانية تحدث الانقباض . وقد استخلص حتى الآن ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مادة مختلفة من الفص الخلفي من الغدة النخامية . ولكن آبيل يأبى ان يصوغ لها اسماء لان مباحثه حملته على الاعتقاد بان هذا الفص يفرز مادة واحدة اصلية وان جزيء هذه المادة ينحل وفي خلال انحلاله تتولد المواد المختلفة وكل منها له خواص فسيولوجية يتميز بها . هذا هو رأيه ولكن المباحث الجديدة لا تؤيده

ومن الذين بحثوا في الغدة النخامية رجل يدعى فيليب سمث وقد اثبت انه اذا نزعت النخامية من الجسم افضى نزعها الى ضمور الاعضاء التناسلية وضعف الغدة الدرقية واضطراب افراز الكظرين (الغدتين اللتين فوق الكليتين) . ثم وجد ايفانس ان هناك صلة بين الغدة النخامية واستهلاك السكر في الجسم . فقد تمكن مثلاً من احداث حالة البول السكري في جسم كلب بتغذيته بخلاصتها . ثم ان آخرين بينوا ان الحقن بخلاصة النخامية يهيج فعل الغدة الدرقية، وان نزع الغدد التناسلية يحدث تغيراً في اتوار النخامية . فهذه الاوصاف العجيبة التي تتصف بها الغدة النخامية حملت العلماء على تسميتها « سيدة غدد الجسم » وذهبوا الى انها تسيطر على سائر الغدد وتقيم الميزان بينها

ولما ظهر ان للغدة النخامية اكثر من تور واحد ، ارتد العلماء الى الغدد الاخرى يبحثون لعلهم يجدون بينها غدداً تفرز غير تور واحد كذلك . فثبت ان الكظرين وهما الغدتان اللتان تستخلص منهما مادة الادرينالين يفرزان ايضاً توراً آخر اذا منع عن سيره في الجسم أحدث المنع نتائج خطيرة . ففي سنة ١٨٥٥ وصف الطبيب الانكليزي أدسن Addison حالات متعددة من مرض معين انتهت جميعها بالوفاة . وكان اهم اعراضه ضعفاً في الجهازين العضلي والعصبي والدورة الدموية . ولاح لأدسن من تشريح جثث الموتى ان هذا المرض مرتبط ببعض التصاقات في الكظرين . فلما نشأ علم المفرزات الداخلية حاول بعضهم ان يعالج هذا المرض بخلاصة الغدد فحضرت خلاصة من الكظرين ولكنها عجزت عن شفاء المرضى

وكان رجل يدعى هارتمان يدرس في جامعة بفالو الاميركية وكان قد عرف بالتنغ قبل اشتهاره ، فلما بلغه نبأ الانسولين ، عمد الى البحث في علاقة الكظرين بهذا المرض المنسوب الى

أدسين الانكليزي ولكنهُ قصر بحثهُ على قشرة الكظرين Cortex لانه بدا لهُ ان القشرة دون سائر الغدتين لها صلة بهذا المرض . فاذا اخذ كمية من كظور الابقار وفصل القشرة عن بقية الغدد واستخلص منها مادة فعّالة ، ازال منها كل اثر من آثار الادرينالين وجرّبها في حقن تحت الجلد في هررة نزعت كظورها فظلت حية نشيطة ، تقبل على اللعب والأكل والتزاوج ، بل ان بعضها حمل

وفي شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٧ اعلن هارتمان اكتشافهُ لمادة «الكورتين» (نسبة الى كورتكس اي القشرة) وهي خلاصة فعالة لتوّر تفرزه قشرة الكظرين . واثبت ان نقص هذه المادة في الجسم يفضي الى مرض أدسين . فهل يفضي استعمال هذه المادة الى انقاذ المصابين بهِ ؟ جربت التجربة الاولى في ٨ يوليو سنة ١٩٣٠ في شاب في الرابعة والعشرين من العمر فأطيلت حياتهُ قليلاً ولكن المرض كان قد تمكن منهُ فتوفي بعد ذلك . وسعى هارتمان وغيره من الباحثين الى الحصول على مادة «الكورتين» نقية من كل شائبة فلما جربت في المصابين بمرض ادسن كان تأثيرها عجيباً اذ انقذتهم من موت محتوم . وفي اوائل سنة ١٩٣٤ حضّر كندل (المشهور بتحضير الثيروكسين : (راجع الكلام على الغدة الدرقية في هذه السلسلة) مادة الكورتين بلورات نقية كل النقاوة

ومما استعمل لهُ الكورتين تصلّب الحدقة (غلوكوما) الذي يفضي الى العمى في الشيوخ

وكان من اثر نجاح بانتنغ في موضوع الانسولين ، ان عمد احد مساعديه ويدعى كولب Collip الى البحث في اربع غدد قائمة على جنب الغدة الدرقية (Parathyroid) وكانت قد اكتشفت في سنة ١٨٥٥ شكل كل منها كحبة الفاصوليا وحجمها حجم حبة الحمص وهي زوجان كل زوج منهما على جانب الدرقية . الاَّ ان وظيفتها كانت سرًّا مغلقاً . ولكن ظهر بعد البحث انها اذا اصيبت بمرض افضت اصابتها الى اصابة صاحبها بمرض يعرف باسم «تيتاني» واعراضهُ حركات عصبية في اليدين والقدمين والوجه والقصبة ، تفضي في الغالب الى الموت . ثم اثبت مكَّلم احد علماء جامعة جونز هبكنز ان نزع الغدد المجاورة للدرقية لا تفضي الى مرض «التيتاني» فقط بل الى نقص في مقدار الكلسيوم في الدم . وكذلك تمكن من تحسين حال المصابين بالتيتاني بجرع وافية من املاح الكلسيوم . ثم لاحظ كولب ان التنفس الثقيل اذا استمر افضى الى التيتاني فقرأ هولدين (J. B. S.) عن هذه المشاهدة وحاول ان يمتحنها فامتحنها بنفسهِ فأصيب بالتيتاني بعد تنفس ثقيل دام مدة طويلة ، ولكنهُ أثبت كذلك في تجاربه بنفسهِ انهُ اذا سبق هذا التنفس تناول مقدار من ملح كلوريد الامونيوم لم يصب بسوء بعدهُ

الاَّ ان العلماء لم يكتفوا بمعالجة التيتاني باملاح الكلسيوم على طريقة مكلم بل عمدوا الى

استخلاص المادة الفعالة من الغدد المجاورة للدرقية المنتزعة من الماشية وكان اول من فعل ذلك طبيب ممارس في بلدة فريبولت بولاية منسوتا الاميركية واستخرج إجازة رسمية بصنعها وبيعها ومنحها للمعهد السمنصوني . اي انهُ لم يربح من اكتشافه هذا مليماً واحداً

وكما ان املاح الكلسيوم استعملت اولاً في معالجة التيتاني ، فخلاصة الغدد المجاورة للدرقية تستعمل الآن في معالجة الاحداث المصابين باعراض ناشئة عن نقص الكلسيوم في دمهم

***

ثم هناك سرٌّ غدة اخرى اخذ العلم الحديث يميط اللثام عنهُ رويداً رويداً . ففي سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدة التكفية Thymus ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضوٌ اثريٌّ لا عمل لهُ الآن . الاَّ انها قد تتضخم احياناً فتسدُّ قصبة الطفل فيموت اختناقاً . وهي جسم رخو ورديٌّ اللون قائم فوق القلب يكون وزنهُ عند الولادة نحو ربع اوقية ounce ثم يكبر حتى يبلغ وزنهُ عند البلوغ اوقية كاملة ثم يضمر رويداً رويداً فلا يبقى منهُ الاَّ اثر يسير . وقد ظلَّ عمل هذا الجسم غامضاً حتى اخذ جودرناتش Gudernatsch قطعاً من الغدة التكفية وغذى بها الشراغيف (صغار الضفادع) فنمت نموًّا هائلاً من دون ان تتحوَّل الى ضفادع . وصنع « ردل » خلاصة من تكفية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدته التكفية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سويًّا بعد ان كان يبيض صفار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن رونتري — وقد كان من اعوان آبيل قبلاً — من صنع خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان ففاز بنتائج تبعث على الدهشة . ذلك ان الاجيال المتتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموّها وتبكير نشاطها الجنسي . فلما كان الجيل الرابع والخامس برزت اسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة على ولادتها والمدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية Normal ثمانية ايام . وتفتحت عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين وكان هذا لا يتمّ الاَّ بعد انقضاء اربعة عشر يوماً . كذلك فطمها بعد ثلاثة ايام من ولادتها وبعد ثلاثة ايام اخرى استطاعت ان تسبح . كذلك أسرع نموّ غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادته مع ان السويَّ منها لا يخلف نسلاً قبل انقضاء مدة على ولادته تتفاوت من ٨٠ يوماً الى اربعة اشهر ، فاذا اسرع نموّ الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدَّل بلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر

ان الباب الجديد الذي يفتحهُ كشف هذا التور التكفي ، ولاسيما في تربية المواشي ، لباب سحريٌّ يجفل الانسان عندما يتأمل في ما قد يفضي اليه

والغدَّة الأخيرة من هذه الغدد العجيبة التي أُطلق عليها ضوء العلم الحديث الغدَّة الصنوبرية Pineal وهي مخفية بين ثنايا الدماغ ولكن بعد منالها لم يحل بينها وبين العلماء فقد صنعوا منها خلاصة مائية فثبت انها تؤثر في انشطار البراميسيوم فتزيد تكاثره سرعة. ولما حقنت بها الشراغيف زادت سرعة تحوُّلها الى ضفادع . ثم جرَّبها الدكتور غودرد بالاطفال الذين تأخر نموُّهم الجسماني والعقلي ولكن النتائج التي اسفرت عنها تجاربهُ لا تعدُّ حاسمة حتى الآن . ومن غريب ما يروى عن الفيلسوف ديكارت انهُ حسب الغدَّة الصنوبرية مقرَّ النفس ولكن العلماء لا يزالون في ريب من وظيفتها الحقيقية ولا يدرون هل تفرز ثوْراً خاصًّا بها أو لا

***

لقد أثبت العلم ان الكظرين والغدد الدرقية والمجاورة للدرقية والحلوة والنخامية والتناسلية والكفية والصنوبرية غدد صمٌّ اي انها تفرز مفرزاتها في الدم رأساً بلا قنوات خاصة . وقد أسفر البحث العلمي فيها خلال نصف قرنٍ عن أتوار الاينفرين (الادرينالين) والثيروكسين والانسولين والثيلين والاندروستيرون والكورتين وغيرها مما لا يزال يحضر في خلاصات مختلفة ولم يستفرد بعد او يحضر نقيًّا في شكل بلورات

ان دراسة الغدد الصمّ فتحت الباب الى علمين جديدين لا يزالان في مهدها وهما الطب القائم على مفرزات الغدد الصمّ والطب النفساني القائم على تأثير هذه المفرزات في حياة المرء الذهنية والعاطفية

فقد أقام ستوكارد الدليل على صلة وثيقة بين الغدد والشخصية ذلك ان الذهن والشعور في الانسان من أهم العوامل في خلق الانسان وشخصيته فعلى ذهنه يتوقف الرأي في هل هو أبله او ذكيٌّ او متوسط ، والذكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثهُ الانسان من أسلافهِ . ولكن نمو الدماغ يتوقف الى مدى بعيد على اتوار الغدد الصم . واهم من العقل في تكوين الشخصية انفعال الانسان ومداهُ وكبتهُ لانفعالهِ او استسلامه لهُ . فنحن نحب من الرفاق من كان مرحاً لعوباً وقد نعرض عمن كان مقطباً يغلب فيهِ القتام على النور . والانفعال متصل اوثق الاتصال بالغرائز والغرائز تعتمد اعظم الاعتماد على مفرزات الغدد الصم في طبيعتها وقوتها (راجع مقال « الغدد والشخصية » في مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٢٦٥)

***

اما في علاج الامراض فالصفحات المتقدمة سلسلة متصلة الحلقات من الادلة على ان صحة الغدد اساس لصحة الجسد

من « تاريخ الاسلام السياسي »

السفاح

للدكتور حسن ابراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب

بيعة السفاح

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ وقد أقام الخطبة في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائماً وكان بنو امية يخطبون قعوداً في الناس وقالوا: أحييت السنة يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه في أولى خطبه بفضل آل محمد ، وندّد بالامويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد آل النبي ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب في مدح أهل الكوفة ، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وختم خطبته بقوله « انا السفاح المبّاح » ، مما يشعر في بادىء الرأي بأنه عوّل على سفك دماء كل من يقف في سبيله وفي سبيل دولته

يقول المسعودي[1] عن أبي العباس السفاح أنه كان جميلاً وسيماً ، ويقول صاحب الفخري أنه « كان كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الاخلاق » . وهذا يخالف ما يتبادر إلى الذهن من ان اسم السفاح مرتبط بسفك الدماء ، لافراطه في التمثيل ببني أمية

وقد ناقش الاستاذ نيكلسن[2] لفظ السفاح في كتابه « تاريخ العرب الادبي » فقال : « لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المنّاح . ومع كل فانه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الاولى سمي السفاح لانه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة . والذي أميل اليه أنه إنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح »

ونحن نميل الى الاخذ بأن لفظ السفاح انما اطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة

(١) ج ٢ ص ٢١٥ (٢) Literary History of the Arabs. p. 253.

لما قام بهِ من سفك دماء الامويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المتاح أن يتوعد أهل الكوفة لما اظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الاهواء والميول وغيرهم من اعدائهِ ولا سيما الامويين الذين عوّل على التنكيل بهم لما اقترفوه من آثام وذنوب ، وتبشيره من يقوم بنصرته باغداق العطايا والاموال عليهم

ولما تمت لهُ البيعة تحول السفاح إلى الأنبار غربي نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، وقد أسسها سابق بن هرمز احد ملوك الفرس فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور ثم بنى المنصور في جوارها قصراً فخماً اتخذه دار ملكه ، فسميت هذه المدينة الهاشمية نسبة الى هاشم جد هذه الاسرة

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني امية وقضى على أعقاب الامويين حتى انهُ لم يفلت منهم أحد الاَّ عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الاموية ببلاد الاندلس ، كذلك وجه السفاح همته الى الفتك بمن والوهُ وساعدوه على تأسيس دولته فقتل أبا سلمة الخلال وأعقبهُ بسليمان بن كثير الذي أوصى ابرهيم الامام أبا مسلم بهِ خيراً ، وهمَّ بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته

محاربة قواد الامويين

أقام ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد بواسط ، فأرسل اليهِ أبو سلمة ، الجيوش فحاصرته هناك ، ولما طال الأمر أرسل السفاح أخاه أبا جعفر فحاصره أحد عشر شهراً بلغه في نهايتها خبر مقتل مروان بن محمد فرأى التسليم وفاوض أبا جعفر في الصلح ، وانتهى الأمر باعطائهِ الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتاباً يحمل امضاء الخليفة العباسي ، ولكن هذه الدولة قد قامت على المكر والحيلة ، فانهُ لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة وهذا أول غدر في الدولة العباسية ، وقد أخذ على عبد الملك بن مروان عدم وفائهِ لعمرو بن سعيد بعد ان ولاه عهده لان هذا مناف لأخلاق العرب ، فجاء أول خلفاء بني العباس ، واستهل خلافته بوضع هذه القاعدة التي سار عليها الخلفاء من بعده

القضاء على أعقاب الامويين

ولقد تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم ولم يُبق عليهم . ويخيل الينا أنهُ انما لجأ الى هذه السياسة لما كان من عداء العباسيين لبني أمية منذ أيام الجاهلية . والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر لم يزده الاسلام الاَّ تفاقماً وازدياداً . يضاف الى ذلك ما كان من

تأثير الشعراء ورجال البلاط في اذكاء نيران هذا العداء . وما قام بهِ بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان

يقول المسعودي [١] : ولما أُتي العباسُ برأس مروان ووُضع بين يديهِ سجد فأطال ثم رفع رأسهُ فقال : الحمد لله الذي لم يُبقِ ثأرى قِبَلك وقِبَلَ رهطِكَ ؟ الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ! ثم قال : ما أبالي متى طرقني الموت ، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شِلْو [٢] هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم وتمثل :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ تروني

ثم حول وجههُ الى القبلة فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجههُ وتمثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات لهُ :

أبى قومُنا ان يُنصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما
تُوورِثْنَ من أشياخ صدقٍ تقرّبوا بهنّ الى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هامَ الرجال تَركتها كبَيْض نعام في الوغى متحطّما

كان السفاح جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي . وقد أكرمهُ السفاح ، فدخل عليهِ سديف الشاعر فأنشده :

لا يغرنّك ما ترى من رجالٍ ان تحت الضلوع داءً دويّا
فضعِ السيف وارفعِ السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويّا

فالتفت سليمانُ وقال : قتلتني يا شيخ . ودخل السفاح وأُخذ سليمان فقُتل . ودخل عليهِ شاعر آخر وقد قُدم الطعام وعند السفاح نحو السبعين رجلاً من بني أمية ، فأنشده الشاعر :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وِتْر هاشم فشفوْها بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تُقيلَنَّ عبد شمس عثاراً واقطعنْ كل رَقْلةٍ [٣] وغِراس [٤]
ذُلُّها أظهر التودُّدَ منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدٍ وقتيلاً بجانب المهراس [٥]
والقتيلَ الذي بحرانَ [٦] أضحى ثاوياً بين غُربة وتناسي

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٣ (٢) مفرد أشلاء وهي البقايا (٣) الرقل جمع رقلة وهي النخلة فاتت اليد (٤) فسيل النخل . والفسيلة التي تقطع من الام أو تقلع من الارض فتغرس (٥) ماء بجبل أحد ، قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن (٦) هو ابرهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

أجل! لقد اعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي وما جرّه الامويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت. ولا زالت مأساة ابرهيم الامام عالقة ببال الخليفة العباسي. فماذا كان من امر هؤلاءِ الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي اعادها الى السفاح شعراء دولته؟ امر السفاح بسليمان بن هشام فقُتل، ثم امر بمن كان في داره من امية فضُربوا بالسياط وبَسط النطوع (١) عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً

ولقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني امية فعولوا على استئصال شأفتهم، فتعقّبهم اخوه واعمامه في البصرة والكوفة والشام، ونبشوا قبر معاوية بن ابي سفيان، فلم يجدوا فيهِ الاّ خيطاً مثل الهُباء ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيهِ حُطاماً كأنهُ الرّماد. ولما قتل ابو العباس رجال بني امية، واستصفى اموالهم قال:

بني أُميَّة قد أَفنَيْتُ جَمْعَكُمُ فكيف لي منكم بالأوّلِ الماضي
يُطيِّبُ النَّفسَ ان النار تجمعكم عُوّضتمُوا من لظاها شرَّ مُعْتاض
مُنيتموا لا أَقالَ اللهُ عَثرَتَكم بِلَيْثِ غابٍ الى الأعْداء نَهّاض
ان كان غَيْظي لِفَوْتٍ منكمو فلقد رَضيتُ منكم بما ربي بهِ راضي (٢)

ولم يقف العباسيون عند التمثيل بالموتى. فقد قتلوا الأحياء واستصفوا اموالهم. فليس من عجب اذا انصرف العرب عن العباسيين ودبّ في نفوسهم دبيب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم لموالاة العباسيين لهم، واعتمادهم على ولائهم، فقامت الفتن والثورات في البلاد الأسلامية

قتل أعوانه

وان في قتل ابي سلمة الخلال وزير السفاح الذي كان من اهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية لمثلاً حيّاً على ما قضت بهِ سياسة هذا الخليفة بالخلاص ممن ساعدوه و ناصروه اذ رأى في وجودهم خطراً يهدد كيان دولته الناشئة. وقد يكون من الحسن ان نأتي هنا بترجمة ابي سلمة لنقف على حقيقة الأسباب التي ادت الى اغتياله للتخلص منهُ لما اتهم بهِ من العمل على تحويل الخلافة الى العلويين

كان حفص بن سليمان، ويكنى ابا سلمة الخلال، مولى لبني الحارث بن كعب، وكان من اهل اليسار في الكوفة، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية، كما كان فصيحاً عالماً بالاشعار والسير والجدل والتفسير. وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بُكَيْر بن ماهان كاتب ابرهيم الأمام. فلما حانت وفاة بُكير اوصى الامام بان يعهد الى ابي سلمة بالقيام بامر

(١) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بسط من الاديم (الجلد) (٢) الفخري ص ١٣٥

الدعوة مكانه ، فكتب اليه الامام بذلك ، فأخلص ابو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده في القيام بنصرتها . ولقد اتفق المؤرخون على انه لما سبر احوال بني العباس عزم على العدول عنهم الى اولاد علي بن ابي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة الى العلويين ارسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً وامره ان يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ، فان اجاب ابطل الكتابين الآخرين وان لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فان أجاب ابطل كتاب عمر الاشرف بن علي زين العابدين ، وان لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول الى جعفر الصادق ودفع اليه كتاب ابي سلمة فلم يُقم له وزناً ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال « مالي ولابي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ » ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق . فسأله الرسول عن رد كتاب ابي سلمة فقال له : قد رأيتَ الجواب ! مضى الرسول بعد ذلك الى عبد الله المحض فسُرَّ بالكتاب وركب غداة هذا اليوم الى جعفر الصادق وقال له :

« هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان » فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الفرس او الكثيرين منهم على الأقل لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة »: ومتى صار اهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهتَ إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ! وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك في نصحه ، بل ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله . وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه الا ان رد الكتاب وقال : « أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه » ، ومن هذا كله نرى ان العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول الى الخلافة ، فلم يروا بدًّا من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الاحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها ، ومن هذا لا نعجب اذا فتَّ رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلمة وأدى الى قتله على يد السفاح بعد ان وقف على ما دبره له ولأسرته

ويحكي لنا التاريخ ان السفاح لما بويع بالخلافة استوزر أبا سلمة على كرهٍ منهُ لمكانته من الخراسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبهُ وزير آل محمد الآن هذا كلهُ لم يكن مصدرهُ حسن النية من جانب السفاح ، اذ خاف على نفسه ان هو قتله قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على ان يتم هذا الامر على يد أبي مسلم وكتب اليه مع اخيه المنصور كتاباً يخبره فيه ان ابا سلمة يعمل على تحويل الخلافة الى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب

قتله ، فأرسل ابو مسلم رجالاً من اهـل خراسان فقتلوه وتخلص منهُ السفاح وابو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليهِ مقامهُ ، وبذلك هيأ ابومسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عوَّل السفاح على التخلص منهُ اذ كان شجىً في جسم دولته الاَّ أن منيته حالت دون ذلك حيث مات سنة ١٣٦ بعد ان قضى في الخلافة اربع سنين وستة اشهر

اخلاق السفاح وصفاته

قال الطبري (١) : كان السفاح جعد الشعر طويلاً ابيض أقنى الانف حسن الوجه واللحية

وقال المسعودي (٢) : ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل ابي العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : انما العجب ممن يترك ان يزداد علماً ويختار ان يزداد جهلاً . فقال لهُ ابو بكر الهُذَلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل الى امرأة او جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً . فقال له الهُذَلي : لذلك فضَّلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتَمَ النَّبيين

كان السفاح يشجع الادب والغناء ؟ وكان يُجزل العطاء على الشعراء والمغنين . فقد دخل عليهِ ابو بجيلة الشاعر فسلم عليه . وقال عبدك ياأمير المؤمنين وشاعرك ، افتأذن لي في إنشادك . فقال له السفاح لعنك الله ؟ ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان

أمُسْلِمَ انّي يا ابنَ كل خليفـة ويا فارسَ الهيجا ويا جَبَلَ الارض
شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى وما كلُّ من اولَيتَه نِعمةً يقضي
واحْيَيتَ لي ذكري وما كان خاملاً ولكنَّ بعضَ الذكر أنبه من بعض

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول

لما رأينا استمسكت يداكا كنا أُناسا نرهب الملاكا
ونركبُ الاعجاز والاوراكا من كل شيءٍ ماخلا الاشراكا
فكلما قد قلتُ في سواكا زورٌ وقد كفر هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها اخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنت انت للرجاء ذاكا

فرضي السفاح عنه واجزل له العطاء

(١) ج ٩ ص ١٥٤ (٢) ج ٢ ص ٢١٧

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالطرب له من المغنين : احسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا مطربيه الاّ بصلة من مال او كسوة ويقول : لا يكون سرورُنا مُعجَّلاً ، ومكافأةُ من سرّنا واطربنا مؤجَّلاً . على انهُ سرعان ما احتجب السفاح عن ندمائهِ

وكان السفاح اذا احضر طعامهُ أبسَطَ ما يكون وجهاً فكان ابراهيم بن مخرمة الكندي اذا أراد ان يسألهُ حاجةً أخَّرها حتى يحضرَ طعامهُ ثم يسألهُ . فقال لهُ السفاح يوماً :

يا ابراهيم ! مادعاك الى ان تشغلني عن طعامي بحوائجك ؟ قال يدعوني الى ذلك التماسُ النُّجح لِمَا اسأل . قال ابو العباس : إنك لَحقيقٌ بالسُّؤدد لحسن هذه الفطنة

ويحدثنا المسعودي (١) في كتابه مروج الذهب عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات فبينا هي ذات يوم ، اذ مر بها ابو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً فسألت عنهُ وأرسلت لهُ مولاةً لها تعرض عليهِ ان يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي لهُ : هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك — وكانت تملك كثيراً من المال والحشم والجوهر ، فأتته المولاة وعرضت عليهِ ذلك ، فقال السفاح : انا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليهِ المال ، وأقبل الى اخيها وطلب اليهِ ان يزوجه منها ، فزوجه اياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، واهدى من يلوذ بها مائتي دينار وزفت اليهِ في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً الاّ بمشورتها حتى أفضت الخلافة اليهِ

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا بهِ خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين ! إني فكّرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة . فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري ومعرفة أخبار حالتهنَّ والتمتع بما تشتهي منهنَّ فان منهنَّ يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وان منهنَّ الغضَّة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الاطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه ، قال له ابو العباس : ويحك يا خالد ، ما صك مسامعي والله كلام احسن مما سمعته منك . فأعد عليَّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليهِ خالد أحسن مما ابتدأه ثم انصرف وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منهُ ، فدخلت عليهِ زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً ، قالت إني لا نكركَ يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرههُ ، أو أتاك خبر فارتعت

(١) ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧

لهُ ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، فلم تزل بهِ حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحني وتشتمينه ، وخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت الى خالد من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منهُ عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت الى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين واعجابه بما ألقيته اليهِ ، ولم أشك ان صلته ستأتيني ، فلم ألبث حتى سار إليَّ أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي ، أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عليَّ ، وسألوا عني ، فقلت ها أنذا خالد ، فسبق إليَّ احدهم بهراوة كانت معهُ ، فلما أهوى بها عليَّ وثبت ، فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليَّ واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي اني أوتيت من قبل أم سلمة وطلبني السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم الاَّ بقوم هجموا عليَّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس عليَّ لحم ولا دم فلما وصلت الى الدار اومأ اليَّ بالجلوس ، ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليهِ ستور قد ارخيت ، وحركة خلفها ، فقال : يا خالداً لم أرك منذ ثلاث ؟ قلت كنتُ عليلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منهُ ، فأعده عليَّ . قلت : نعم يا امير المؤمنين . أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضَّرَّة من الضر ، وأن احدهم ما تزوج من النساء اكثر من واحدة الاَّ كان في جهدٍ فقال : ويحك لم يكن هذا في الحديث . قلت : بلى والله يا امير المؤمنين ، واخبرتك ان الثلاثة من النساء كأنهنَّ القدر يغلي عليهنَّ . قال أبو العباس برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ان كنتُ سمعتُ هذا منك في حديثك قال وأخبرتك ان الاربعة من النساء شر صحيح لصاحبهن ، يشيبنهُ ويهرّمنهُ ويسقمنهُ . قال ويلك ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت

قال خالد : بلى والله . قال : ويلك وتكذبني . قال وتريد ان تقتلني يا أمير المؤمنين ؟ قال مر في حديثك . قال : وأخبرتك ان أبكار الجواري رجال ، ولكن لا خصيَّ لهنَّ ، قال خالد ، فسمعت الضحك من وراء السّتر ، قلت . نعم وأخبرتك ايضاً ان بني مخزوم ريحانة قريش ، وانت عندك ريحانة من الرياحين وانت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرها من الاماء . قال خالد : فقيل لي من وراء الستر : صدقت والله ياعماه وبررت بهذا ما حدثت امير المؤمنين ، ولكنه بدَّل وغير ، ونطق عن لسانك فقال له ابو العباس مالك قاتلك الله واخزاك ، وفعل بك وفعل فتركته وخرجت وقد ايقنت بالحياة . قال خالد فما شعرت الاَّ برسل ام سلمة قد ساروا اليَّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام

قطرات ندى

لراجي الراعي

قيل لي : أنت بين سمّ الأفعى ووثبة الأسد فأيّ الموتين تؤثر ؟ فقلت لهم : هاتوا لي براثن الاسد فان فيها الرجولة والصراحة لا غدر الرقطاء الكامن في نابها الحقير

جمعت بين الكتاب والطفل في سرير واحد وجئت بالنفس اسألها أيهما تؤثر فأجابت لساعتها مشيرة الى الكتاب : هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت، اما الطفل فهو رمية القلب الطائش ، هو قطرة دم كثيفة علقت بسهم حاد من سهام «كوبيد» في احدى سكراته ، هو ثمرة الشهوة الزائلة واثر من آثار الجنون

خيّل اليّ ذات مساء ان قريحتي نضبت فهرولت الى الجبل وسجدت امامه قائلاً : انا من ابنائك المعجبين بك ، وهذه قريحتي بين يديك اظنها كبت فأقلها من عثرتها . . فالتفت الجبل الى عقبانهِ وينابيعه وأمرها ان ترافق روحي ثم نظر اليّ نظرة الاب الرحيم وقال : امشي في طريقك ولا تخف فجنودي حرّاسك وعظمتي وغزارتي تخفرانك حيثما حللت فشكرت للجبل وعدت الى القلم والقرطاس فرحاً قرير العين غير خائف من الغد ومن النضوب...

كأني بغصن هذه الشجرة يمتد فوق رأسي ليقف بيني وبين الشمس اللاذعة فلله ما اكرم هذا الغصن ! ما اشد جرأته واوفر مروءته !!..

هذه الشجرة صورة أخذت عني فهذه هي البذور التي تألبت وكوّنتني في

بذورها . . . وهذه هي قوتي في جذعها . . وهذه هي مواليدي في أغصانها . . وهذا هو أملي في اخضرارها . . . وهذا هو يأسي في ذبولها . . وهذه هي مطامعي في قمتها . . . وهذه هي أعصابي في أليافها . . . وهذا هو هديري في أعاصيرها . . . هذه حياتي في مائها . . وهذا موتي في فأسها . . . نعم نعم انا هي وهي انا فاذا شئت ان ترحمني فارحمني في ظلها واذا شئت ان تميتني فالق عليَّ حفنة من ترابها . .

هل انا جنّة ربوتها القلب ونهرها دمي ، ام انا ما تقول : جسد عبد يخضع لروح قاهر . .

انزع هذه الغيوم الباكية من الافق لانزع مني كآبتي ودموعها . .

الفلسفة حبل طويل يتجاذبهُ الكفر والايمان . .

هذه الشمس التي يحجبها وشاح واحد من اوشحة الليل وظلٌّ واحد من ظلال الشجرة ليست بالجبّارة التي تخيّلها . .

في نفسي آلهة وشياطين — في نفسي ابراج بابلية وصراع مستديم — في نفسي الجمال كل الجمال والقبح كل القبح يتنازعان السيادة في وجهي فلا تنظر اليّ فترى أثراً من السماء حتى ترى لساناً مندلعاً من افواه الجحيم ...

لا اريد ان اقيس هذه المسافات والابعاد المعروفة ، وانما أريد أن اعرف أين ينتهي عقلي وأين يبدأ جنوني...أريد ان أقيس المسافة الروحية الفاصلة بين عربدتي ووقاري

بيروت



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

﴿ الوضع الطبغرافي ﴾ يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام : الاول المنخفض ذو البراري والسباسب المنبسطة والاقليم الحار والهواء الرطب ويدعى « تهامة » ويجمع على تهائم ، والثاني المرتفع ذو الاطواد والهضاب الشاخة والاقليم البارد والهواء الجيد ويدعى «قسم النجود» او «قسم الجبال » وهي تتمة جبال السرا ، والثالث المنخفض ايضاً شرقي قسم الجبال، وهو ذو برارٍ وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرةً غناء فاصبحت بعدهم غامرةً قفراء ، ويدعى هذا القسم « الجوف » وهو بمثابة تهامة في الغرب ، واقليمه حار لكن هواءهُ جافٌ وجيد

﴿ وصف تهامة ﴾ تهامة برية عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب من جدة على ساحل البحر الاحمر الى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بالفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و ١٢٠ كيلو متراً وهي تنقسم الى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن . وتهامة اليمن اما غربية وهي التي على البحر الاحمر واما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحديثنا عن الاخيرتين في الاكثر

كانت تهامة في الاصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الاخير. يستدل على ذلك بطبيعة ارضها ووفرة رمالها وكثرة الاحافير والاصداف البحرية التي تظهر في تربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الاحمر وارتفاع سواحله متوالياً على كر الدهور . فالرمال مابرحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف الاَّ على بعد شاسع . حدث هذا الطمر قبل اربعة او خمسة قرون في مرفأ غلافقة وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زبيد ، وكانت زبيد عاصمة تهامة واكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زبيد . وحدث الطمر ايضاً الى حدٍّ كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها الى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والاندثار الآن في اللحية وامثالها من الموانئ الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك

وبسيط تهامة يتموج تموجاً خفيفاً ويحدث قلعات متواضعة وتعترضه اودية حصيّة منحدرة

من انحاء الجبال ، اكثرها جاف في اغلب ايام السنة وبعضها حار ، وتعترضهُ ايضاً كثبان رمال تزداد في بعض الاماكن وتمتد الى مسافات شاسعة وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال بين الحديدة وباجل وحول ميناء غلافقة المندثر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولاسيما حول مرفأ عدن

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع وذو خصب يقوى في بعض الاماكن لاسيما اذا جادتها الامطار وفاضت الاودية المنحدرة من الجبال بالسيول وسقى الزراع حقولهم منها — حينئذٍ ينمو الزرع والغرس نموًّا عظيماً وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن والبطيخ ، والاشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعمبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات وأنجم برية شائكة وغير شائكة تنتسب الى فصائل مختلفة منها العصل الذي يعملون منهُ فحماً والبكار والثمام اللذان يستعملان في بناء العشش والاكواخ . وفيها من الاشجار غير المثمرة السمر والسلم والدوم والعشر والشورى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الاشجار في بعض اماكن تهامة ادغالاً ملتفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية

قال ياقوت : وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم . اه . لا جرم ان تهامة شديدة الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدة في الصيف بين ٣٠–٣٥ ليلاً و٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن ٢٤–٢٥ وانها شديدة الرطوبة تبلغ احياناً درجة الازهاق (٨٠–٩٠) وذلك لقربها من خط الاستواء ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل والمشاة والركبان في تهامة الا ليلاً خوفاً من الرعن ولا يمكن النوم في ليالي الصيف الا على السطوح وفي العراء . وتهب فيها احياناً ريح السموم فتسفي الرمال وتحدث أعاصير ، ولا يلطف الحر الا هبوب الريح الجبلي الشرقي او البحري الغربي

واهل تهامة شافعية المذهب ، نحاف الابدان ، ربعات القامة او اطول ، سمر الوجوه لحر بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي او الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة أدمث خلقاً وألين جانباً وأرفد للغريب وأقرى للضيف من اهل الجبال . لكن الامية اكثر انتشاراً في اهل تهامة منها في اهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك الى ان الشافعية ليسوا كالزيدية ذوي أئمة وسادة يعنون بشؤونهم الروحية والزمنية الى حدٍّ ما . والنفرة بين الشافعية والزيدية ما برحت ملحوظة . وهذه النفرة سياسية وادارية اكثر منها مذهبية ، لو غني بشأنها زالت

وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوتية وصيد الاسماك وبناء الزوارق وبعضهم بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، ولهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل اهل الحديدة وعدن بتجارة الصادر والوارد من اليمن واليهِ . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية الزرع والضرع ، ويعمل امثال اهل زبيد وبيت الفقيه بالصبغ والنسج مما سوف نذكره

وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصبيحة والزرانيق والقحرى وبني صليل والعبسية والجرابحة

وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضرع، وتسكن بيوتاً من الاعشاش . والزرانيق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منعهما . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزبيد ، حاربوا الترك العثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاقين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والادغال الملتفة التي يختبأون بينها . وارادوا ان يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الامام الحالي بقيادة بعض الدسائس الاجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنتهم وأسكت نأمتهم . والقحرى ايضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سردود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر في ما يماثل الزرانيق

وكانت تهامة في اكثر عصور تاريخ اليمن ولاسيما في العصور الاسلامية منفصلةً عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني ايوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر ان هذه — الدول ما استطابت النشأة والمقام في تهامة رغم حرها ووباء هوائها الا لكثرة محاصيلها ووفرة ريع المكوس التي كانت تتقاضاها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وافريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الاقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . الا ان الدول المذكورة لم تكن لتقنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف أئمة الزيدية بسطت ايديها نحو الجبال فملكتها مدة ، ثم أخلتها اذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قووا ورأوا خلو التهائم من الحفظة استولوا عليها ، واذا ضعفوا اضاعوها وحكمها كبراؤها . وظل هذا الاخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائيًّا في عهد الترك الاخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة الامام الحالي سنة ١٣٤٣ بعد ان نازعهُ عليها الادارسة الذين كانوا اصحاب عسير

وثمة في سواحل تهامة على البحر الاحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره الا الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قمران وبريم . فقمران في شمالي الحديدة، كان الترك انشأوا فيها قبل نصف قرن محجراً صحيًّا فحفلت بالسكان منذ ذلك الحين ، ثم احتلها الانكليز عقيب الحرب العامة . وبريم وتدعى ايضاً مينون في مضيق باب المندب، لها مرفأ عميق صالح للبواخر . ورغم حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من اي اثر للماء والخضرة فقد أوجد فيها الانكليز منذ ان احتلوها في الربع الاخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما تحتاج اليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الاحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل اليمن موقع غير مأهول لهُ مكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيه لحكومة اليمن مخفر للجنود ومركز للبرق

وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل ميدي واللحية والصليف

وابن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والخوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزيدية والقطيع والدريهمي والمنيرة والزهرة والضحي والمراوعة وحيس وبيت الفقيه وزبيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير احمد والحسوة وغيرها

واكبر مدن تهامة وأشهر موانيها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافيي العرب انها لم تكن لمضي ثلاثة قرون او أربعة سوى قرية حقيرة يقطنها الصيادون . الا انهُ بعد ان طمرت الرمال مينائي مخا وغلافقة وتعذر على السفن ان ترفأ اليهما سعدت الحديدة بالعمران . وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عددسكانها بثلاثين الفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش او الصومال وفيها قليل من الهنود البانيان والبهرة ومن اليونان والطليان المشتغلين بالتجارة . والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ لهُ خمسة ابواب وعدَّة ابراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بيضاء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وثمة عدة أسواق تغص بحوانيت الباعة والتجار ومستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء واصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبانٍ حكومية ومساجد ، غير ان ساحلها مكشوف ومعرض للانواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها الى خليج الجبانة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووبيء تزداد وطأته بحكم شدَّة الرطوبة ايضاً . وفي خارج سورها احياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة الا قليلٌ من البساتين لفقدان المياه الجارية ولملوحة التربة ، ولذا تأتيها البقول والثمار من القرى والجبال القريبة منها . وماء الشرب يجلب اليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجلات تجرها الجمال . وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب اليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين او ثلاث . و (الزيدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصر من ورق شجر اسمه الدوم يشبه النخل . و «باجل» بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة . وفي جنوبي الحديدة بليدة (المراوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج الفوط والبزوز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيته في اليمن سليطاً ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ . و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثنتي عشرة ساعة . وهي مبنية على تل مرتفع ، وهواؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، دورها من الاجر، ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير ، وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجميلة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر الفاً ، وحولها نخيل كثير . وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زبيد) بنيت في فم وادي زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور

مربع الشكل شيد من الاجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة وجامع باسم بانيه اسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاة الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون الفاً ، ودورها من الاجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة . قال القلقشندي في صبح الاعشى: زبيد مدينة مبنية في مستوٍ من الارض ، عن البحر على أقل من يوم وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها . وقد كانت مشتى ملوك اليمن بني الرسول كما ان تعز كانت مصيفهم . اه . وبعد ان كانت زبيد قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والامراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ وبالتجار والسفار وبدور العلم والعلماء واللغويين حسبك منهم الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط الذي حط رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ ﻫ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب . . . انحطّ شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب ميناء غلافقة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام الى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دور علمها وعلمائها الا أثر ضئيل . وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للاواني الخزفية . وفي اقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر مواني اليمن بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ — ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني التاج في لواء تعز واقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى طمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن الى التحول الى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ ﻫ حينما هاجمها العسيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرةً تندب مجدها الغابر .

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً فدرس اكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمري وغيرهم من جغرافيي العرب، عدن ولحج وأمين والرواغ والشفاق والمندب والحصيب وهي قرية زبيد والقحمة والكدراء والمهجم وعطينة والشرجة والحردة وغيرها . وصف المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر آهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور مبارك على من دخله مثرٍ لمن سكنهُ مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط به جبل بما يدور الى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل اليه الا ان يخاض ذلك اللسان فيصل الى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وعليه

باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل الى الجبل فيهِ خمسة ابواب ، الاّ انها يابسة عابسة لازرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ كثيرة الحريق والوكف

وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التابعة والى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويمتار اهل كل اقليم منها ما يحتاج اليهِ اقليمهم من البضائع . الاّ ان المقيم بها يحتاج الى ما يتبرد بهِ في اليوم مرات من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال النامية اه .

قلت : ما برحت هذه الاوصاف جاريةً في عدن على ما رأيت . الاّ ان حالها قد حسن في الجملة منذ ان احتلها الانكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فحفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة ، والحدائق المغروسة ، والحصون والمنائر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب الذي استجلبوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من اهم نقط المواصلة بين الشرق والغرب ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تتمون منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منهُ بلاد العرب وافريقية الشرقية عامة واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تغشاها بكثرة في غدوها ورواحها بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين الفاً اكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي والفارسي والافرنجي . وعجيبة عدن (الصهاريج) او اسداد الماء وهي من أجمل الاعمال الهندسية في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ انشائها مجهول ، يرجع الى قبل الميلاد بخمسة قرون او عشرة . وكانت هذه الاسداد مردومة عند احتلال الانكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة ١٢٧٢ هـ . وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينتهي مخلاف لحج ، كما ان هذا المخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقيم سلطان هذا المخلاف في بليدة اسمها « الحوطة » تبعد عن عدن نحو عشرين كيلومتراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور السلطان واخوته ومساجد كثيرة . وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي واخوه الامير احمد قد اخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة المفقودتين عند سلاطين وامراء بقية المحميات ، ولهما عناية بالعلم والادب والزرع والغرس . زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدتهُ يحتوي على كثير مما لم اسمع الاّ باسمه من اثمار البلاد الحارة التي جلبت اشجارها من الهند ، كالجوافة والعاط والسيتافل والرامفل والنارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والعنباء والجيالي والمانجو وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة . وللامير احمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١ هـ دعاه « هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن » فيهِ بحث وتحقيق جديران بالثناء والاعجاب ، خاصةً وقد انقطع التحبير والتحرير بين امراء اليمن منذ عهد بني الرسول اصحاب زبيد (٦٢٠ ـ ٨٥٨ هـ)

الى الثلاثين...

لسيد قطب

إلى الثلاثين نُصِّي الركاب حثيثـــة يا ليال
مضى من العمر أغلى اللباب فلست آسي لغال
مضى من العمر ما يستطاب من بهجة أو جمال
مضى كما جاء — عهدُ الشباب عهد المنى والخيال
وضاع في غمرة واضطراب ومرَّ دون احتفال

فأسرعي يا ليال

علام من بعده تمهلين ؟ وأيٌّ غيب نهاب ؟
وما احتفالي بمرّ السنين ؟ من بعد مرّ الشباب ؟
وما الذي يا ليالي يكون بعد اكتهال الرغاب ؟
يكون — واحسرتاه — السكون على ضفاف اليباب ؟
يكون — كالقيد — عقل رزين ! يعطو لشط الصواب !

فيا لسوء المآب

فذلك العقل رمز القيود ونحن شرُّ العُناه
يذودنا عن مراقي الخلود وخير ما في الحياه
والطيش رمز الشباب المَريد يسمو بنا عن مداه
فنحن نرنو لهذا الوجود بفتنة وانتبـــاه
فلا نبالي بصرف الجدود ولا نخاف الغداه

فكلّ يوم حياه

يضاعف اليوم مني المصاب أن لم أعش بالخيال
قضيت — واحسرتاه — الشباب كالكهل في كل حال
يجيش بالنفس سيل الرغاب فلا يمس اعتدالي
ووجهتي في الحياة الصواب ونظرتي للمآل !
عصيت أمر الحياة المجاب فكان رشدي ضلالي !

فاسرعي يا ليال

الحضارة الحثية

نواحيها الصناعية والتجارية

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

التجارة

يؤخذ من مخطوطات الكاپادوك ان الحثيين كانوا منذ اقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الاولى وعلى اتصال وثيق بسائر امم الشرق يتاجرون معها بشتى الاصناف اهمها الاصواف والماشية والمعادن وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم ونقود يتقاضون بها حاجاتهم وكانت تزن قطعة نقدهم الكبرى ستين مثقالاً من الفضة وقد عثر لهم على عقود بيع وشراء وتسليف على بضائع وقروض مقابل رهونات مدونة على الآجرّ واستدل من بعض النصوص على وجود محل في الحواضر الكبرى يدعى كاروم اشبه بالغرف التجارية المعروفة في ايامنا يهتم بتعيين معدل فوائد القروض بين التجار ويعد المرجع الأعلى لحسم الخلافات التجارية وكانت معظم قيودهم تختم بالرصاص وتطبع بطابع الغرفة المذكورة بجانب مهر التاجر المصدَّر عنهُ وكانت وعدأتهم معينة بخمسة ايام عوض اسابيعنا الحالية فتقرأ مثلاً في عقودهم انهُ اتفق على ايفاء القرض الفلاني بعد مرور تسع خمسات اي بعد خمسة واربعين يوماً

وعندما تقدموا في مضمار الحضارة مهروا في تنقية المعادن وصياغتها فصارت تجارتها تدر عليهم ارباحاً طائلة وقد اهتموا بها حتى ملوكهم فأخذوا يطلبون الى فراعنة مصر ارسال سبائك ذهبية ليصوغوا لهم منها حليًّا في معاملهم الملكية مقابل اجر يحسمونهُ من اصل البضاعة . ثم اتقنوا في القرن الحادي عشر صنع الاسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد الذي كانوا يستخرجونه بكثرة من مناجم اسيا الصغرى وجعلوا معامل هذه الصناعات ومحال الصاغة الكبرى ملكاً للدولة واخذوا يتاجرون بمصنوعاتها مع سائر امم الشرق وقد عثر العالم الاثري

المسيو تورو دانجان في حفريات تل برسيب على رسالةٍ لملك حثي جواباً الى ملك غير معروف يقول لهُ فيها : «لقد اوعزت الى معاملي بأن تصنع ما اوصيتم بهِ من اصلح انواع الحديد فعندما يتم عمله سوف ارسله اليكم » وأصحب رسالته خنجراً من الحديد كنموذج وقد كشف التنقيب عن اشياءٍ كثيرة من تلك المصنوعات كاطواق وآلات واسلحة واصنام وتماثيل وتمائم مرصعة بالذهب

وقد كان الامن مستتباً على طرق مواصلاتهم التجارية والثقة موطدة فتقطع قوافلهم المسافات الشاسعة وتقضي فيها اياماً وليالي من غير ان تخشى بأساً ولم تكن طرقهم مستقيمة على شاكلة الطرق الرومانية بل كثيرة الالتواء كشبكة تربط كل البلاد الحثية بعضها ببعض وتدلنا الآثار التي شادوها على قارعة هذه الطرق على اتساع حلقة تجارتهم وبعد مداها في غربي مملكتهم كما انهُ في الجهة الشرقية كانت كركميش منفذهم على الفرات وعقدة مواصلاتهم مع بلاد ما بين النهرين

الصناعات والفنون

لا غرو انهُ لا يمكن ان يبلغ شعب من الشعوب مستواهُ الراقي في الفنون والصناعات ما لم يجتز سلسلة من المراحل الابتدائية . لذلك نشاهد في آثار الحثيين تفاوتاً في درجات رقي فنونهم وصناعاتهم يختلف باختلاف العهود التي ترتدُّ اليها . فيجدر بنا والحالة هذه ان نقسم هذه الفنون والصناعات الى قسمين نطلق على الاول اسم الفن الحثي الأسيوي وعلى الآخر الفن الحثي السوري نظراً الى ما لكل من هذين القسمين من عهودٍ متفاوتة وميزات خاصة . فبينما يكاد يكون الاول مشتقاً من الفن السومري لكثرة وجوه التشابه بينهما نرى على الثاني مسحة من الفن الاشوري تزداد بروزاً مع تقدُّم عهود التاريخ حتى تنفذ منهُ الى الصميم . على أن هذه التأثيرات لم تحلْ دون تكيُّف الفنون والصناعات الحثية وتطبع بطابع خاص جعلناه موضوع بحثنا في خطوطه العامة

﴿ فن العمارة ﴾ فاذا أخذنا بفن العمارة وهو من أهم العوامل في درس مدنية الشعوب دلتنا الآثار الحثية الباقية على عبقرية الشعب الذي شيدها . فقد امتازت عمائر الحثيين باستقامة خطوطها الساذجة وضخامة قواعدها وتوسط ارتفاعها وتناسبه مع امتدادها وتجلت هذه الأوصاف خاصة في الآثار التي اكتشفت في بوغاز كوي وهويوك كما بدت على انقاض قلعة كركميش

ومن أروع تلك الأدلة على قولنا حصون حاتوشا وأبوابها الحجرية التي تنم بضخامتها وصلابة بنائها على ما كانت عليه تلك العاصمة القديمة من القوَّة والمناعة وقد قامت في وسطها قلعتان على ذرى رابيتين تحيط بهما أسوار غليظة يبلغ سمك جدرانها اربعة امتار ونصف متر وهي مبنية بأحجار كبيرة الحجم متراصة تتخللها دعائم على مسافات متوازية تزيدها متانةً ينفذ منها بباب حجري مستطيل الى قباب طويلة مزخرفة الجدران برؤوس اسود بارزة كأنها قائمة على

حراسة الابواب ويخرج من هذه القباب الى فناء داخلي تتفرّع منهُ سائر المشتملات من أبهاء وغرف وهياكل

ومما اكتشف ايضاً في حفريات بوغاز كوي بقايا قصور تيسر معرفة شكلها الهندسي بفضل بقاء جدران طبقتها الاولى فوجدت مبنية بأحجار جسيمة الحجم يتألف داخلها من رواق طويل ينتهي الى فسحة مكسوة بالبلاط تتوسطها بناية كبيرة يلوح من زخارف انقاضها انها كانت معبداً في قلب القصر وتقوم في غرب هذه البناية غرف كثيرة تشرف على الفسحة المذكورة وتمتاز هذه الأبنية الحثية بأسسها العميقة خلافاً للابنية الاشورية التي كانت تقوم على سطح الارض

فيستنتج مما تقدَّم ان الحثيين بالغوا في صلابة بناء عماراتهم الكبيرة التي كانت من الصخر الصلد وحاطوها بكل ضروب التحصين وجهدوا في أن تكون غايةً في المناعة ويظهر انهم بذلوا معظم جهدهم في تشييد قصور الملوك ومعابد الآلهة توخياً لرضاء أربابها

﴿ الحفر والنقش ﴾ وقد اغرق الحثيون في الاستكثار من الحفر والنقش على آثارهم حتى انتشرت نقوشهم في جميع أنحاء الاناضول وسوريا الشمالية على ان فنها لم يكن متجانساً في كل الامكنة على السواء . ففي يازيلي قايه وبوغاز كوي القديمتين تراه أقل رقيًّا مما هو عليهِ في كركميش وزنجيرلي . فبينما كان الحفار الحثي يقصر همه في البدء على اخراج نقوش ناتئة اخذ يعنى على مرور الايام بنحت الاصنام والتقرّب من تصوير الحقيقة ويجهد في محاكاتها فمهر في ضبط اعضاء الجسم وصار لهُ ميزة خاصة بأسلوبه ومبتكراته ثم نحا آخر نحو الرقة وكاد يضاهي في بعض الآثار نقوش المصريين الرائعة

وربما كان من اشهر خصائصه تصوير الحيوانات حيث توصل بها الى محاكاة الشبه بامانة تكاد لا تصدق نخص منها نقوش الأسود التي برع في تمثيلها واكثر من صفوفها على ابواب قلاعه وقصوره ومعابده . فمنها تبدو لك جالسة وقد بطحت ايديها الى الامام كأنها تعبة من طول السهر وقد بانت اعضاء جسمها كافة فتكاد تعد اضلعها ومنها تراها منتصبة كأنها تتحفز للوثوب وقد فتحت اشداقها لتزأر فترتاع من هول مشهدها . وهنالك نقوش كثيرة على جانب عظيم من المهارة تمثل كلاباً تطارد سرب غزلان ومشاهد قنص وصيد قلَّ مثيلها في محاكاة الطبيعة . مثل نقش هويوك الذي ظهر فيهِ وعلٌ يعدو هرباً من نشابة الصياد . وقد اقام الحثيون تمثالاً لابي الهول المصري في عاصمتهم الاسيوية ونقله المكتشفون الى متحف استامبول حيث يشاهد مرمماً من الكسر ذا جسم عتيّ ووجهٍ بشري بفم كبير يحاول الابتسام

اما سائر النقوش فقد تنوعت موضوعاتها الى حدّ لا يحصر وأُتيح لنا ان نتتبع مبدعيها في حفلاتهم وطقوسهم واعمالهم وفي كل امرٍ من امورهم . ففي بوغاز كوي عثر على قاعدتي تمثال من حجر

الجص مزينتين بنقوش تمثل في احداهما رجلاً ملتفاً برداءٍ وفي الاخرى فاتحاً الرداء وهو واقف وقفة تعبد وابتهال امام هيكل يشبه مقعداً كثير الثقوب اكتشف له مثال من الفخار في معابد اشور وتبين ان كثرة ثقوبه تساعد في عرف الاشوريين على ظهور ارواح الاجداد من نوافذها

وقد تعرفنا بفضل نقوش أُخر تغطي صدوغ احد ابواب مدينة حاتوشا الى ملك محارب حليق الذقن يكسوه قميص حريري مشدود تكاد تبرز من تحته عضلات صدره الواسع. اما رأسه فمغطى بخوذةٍ بيضوية الشكل يحتذي موقاً معكوف الانف ويحمل في طيات حزمه العريض خنجراً معوجاً بقبضة مزخرفة وقد امسك بيده اليمنى المقربة من صدره فأساً ذا حدين اما يده اليسرى فتراها مطبقة القبضة دلالة على شدة بأسهِ وهو في وقفةٍ تخاله فيها يتأهب للمشي .

وهنالك نقش آخر يرينا الـه النباتات القروي محملاً بعناقيد العنب وقد امسك بيد عنقوداً كبيراً وفي الاخرى حزمة من سنابل الحنطة كأنهُ يشير بها الى ملك واقف امامه وقفة الخشوع والاحترام .

وفي يازيلي قايه صور اشكال من الطقوس نقشت على سلسلة من صخور جبلية يسترعيك بينها مشهد يمثل مواكب من الآلهة والملوك والملكات وقد وقفوا في صفين متقابلين يتقدمهما اله عظيم على رأسه تاج عال وقد امسك بيده اليمنى قبضة من الاسلحة وأشار باليسرى الى الهة الشمس الواقفة قباله مما فسره العلماء بحفلة زواج احد الملوك وارتقائهِ الى مصاف الآلهة

وفي محلٍّ آخر نرى الهاً شاباً ممسكاً بيده اليمنى شارة الملك وقد لفَّ الاخرى حول عنق اله اصغر رمزاً الى حمايته ويجدر بنا ان نشير ايضاً الى بعض آثار هويوك التي تمثل مشهد تطواف كهنة بألبستهم الرسمية حول ذبيحة مقدمة على هيكل بحضور الملك والملكة . وان ننوّه بمشهد آخر يمثل الآلهة قاعدة في مجلس طرب وقد التف حولها نافخو الابواق وسائر المطربين ولا يفوتنا الى ان نلمح في الختام الى المشاهد الطقسية العديدة التي وجدت في ارسلانانيه وكركميش وفي غيرها مما لا يعد ولا يحصى

﴿ صناعة المعادن ﴾ عرف الحثيون صناعة المعادن من اقدم عصورهم فصاغوا من سبائك التبر حليًّا وأصناماً صغيرة كما عالجوا الحديد وصنعوا منهُ الرقائق المصورة والتماثيل وخلطوا القارصيني بالنحاس وركبوا من مزيجهما الشبه وسكبوا منهُ آنية وكؤوساً ودمى طلوها بالذهب والفضة واذابوا القصدير واستعملوه لبصم اختامهم وصهروا سائر المعادن واستخدموها في صناعاتهم . يشهد لنا بذلك ماخلفوه من شتى الآثار التي وسموها بميسمهم الخاص وقد كثرت فيها تماثيل الآلهة المتطية ظهور حيوانات ومعظمها سليم الذوق ودقيق الصنع

﴿ صناعة الفخار والخزف ﴾ وقد اتقنوا كذلك صناعة الفخار والخزف وتفننوا في منتجاتها

فامتازت مصنوعاتهم باناقة اشكالها وزخرفتها وجمال تلوينها ولاسيما الآنية المكتشفة منها في انحاء سوريا الشمالية حيث تطورت اشكالها العتيقة المبتذلة واخذت تقرب من اشكال الآنية المعدنية فتبسطت اعقابها وصار بعضها بطيناً والبعض الآخر معنقاً وكان الاحمر لونها الغالب الا انهم وسموا معظمها بتعاريج هندسية وغصون اشجار ملونة كادت تضيع لونها الاصلي ثم اخذوا يكيفونها باشكال بعض حيوانات مثل السمك والبط والسلاحف وما شاكلها ويطلونها بالميناء اللامعة فصارت في منتهى الزخرفة كما دلت على ذلك مجموعة آنية تل برسيب المحفوظة في متحف حلب وقد شبه العالم الاثري بوتيه بعضها بالخزف العيلامي الجميل المكتشف في ايران

﴿ الحفر على الاسطوانات ﴾ ومما برع الحثيون في صناعته الحفر على الاسطوانات . فقد عثر لهم على اختام ترتد الى القرن الخامس عشر ق. م على جانب عظيم من دقة الصنع كثيرة الزخرف وقد حفر على بعضها صور آلهة حثية عارية مثل آلهة الخصب وقد نقشت حولها احرف هيروغليفية حثية كما اكتشف في قبور كركميش اسطوانات حثية الفن ولكنها مشبعة بروح اجنبية حيث ترى بعضها مزداناً بنقوش آشورية واخرى بتعاويذ مصرية وتضاوير آلهة وادي النيل، وقد برهنت هذه الآثار على مدى تأثر الحثيين في الامم التي اتصلوا بها

وقد يبقى بحثنا ناقصاً اذا تغاضينا عن ذكر مدى انتشار الفنون الحثية في سائر الاقطار الشرقية وتأثيرها في الحضارات التي ازدهرت من بعدها . فتأييداً لانتشارها نذكر الصنم الحثي الذي عثر عليه في حفريات بابل بين آثار القرن الثاني عشر ق. م وهو يمثل الاله تحشوب بقميصه القصير وسيفه المعوج في خصره وحذائه المعكوف الطرف ولحيته الكثيفة وشعره المسرّح وقد لبس على رأسه تاجاً يعلوه قرنان وأمسك بيده فأساً مهدداً بالبطش والانتقام

كما ان تأثير الفنون الحثية في سائر الفنون القديمة تبدو في كثير من الامور أخصها قواعد الاعمدة اليونانية المزدانة بنقوش وتماثيل حيوانات معروفة بكونها من مبتكرات آسيا الصغرى . وفي خوذة الجندي اليوناني وسائر لباسه الذي يماثل ألبسة الجنود المنقوشة على آثار زنجيرلي وفي تماثيل الآلهة المنتصبة على ظهر حيوانات وفي غيرها من الاساطير الدينية وبعض الصناعات التي تسرّبت من الحثيين الى بحر إيجه فاليونان

وصفوة القول ان اكتشاف الحضارة الحثية قد أبان مصادر كثير من الفنون القديمة وأظهر الأواصر العديدة المتوثقة بين الاقطار الشرقية منذ أقدم الازمنة وأوضح فضل هذه الدولة العريقة التي اذكت شعلة المدنية قبل اربعة آلاف سنة وحملت نبراسها احقاباً طويلة في أحلك ظلمات القرون السحيقة

نفسية الجماهير

لنظمي خليل

اذا اجتمع نفرٌ من الناس لسماع محاضرة، أو مشاهدة قصة تمثيلية فاننا نتبين نوعاً من الشعور قد سرى الى عقول هؤلاء الناس جميعهم وان لم يكن على درجة واحدة في كل واحد منهم . ومصدر هذا الشعور هو الممثل أو الخطيب ومنهُ ينتقل الى جمهور الحاضرين ولكن هذا الشعور ليس بالعميق الراسخ فسرعان ما يتبدَّد ويتلاشى في مشاغل الانسان الكثيرة . وكلما كان الأفراد مهيئين لمثل هذه الإيحاءات كان الامتزاج في عاطفة الجمهور أقوى وأكمل وكان تأثيرها أشد وأبرز . والواقع ان الاستعداد لقبول هذه الإيحاءات يختلف باختلاف الأفراد . وهو في الاطفال والنساء أظهر منهُ في الرجال وفي بعض الشعوب أقوى منهُ في غيرها . وعلى هذا نجد عقل الجماعة مسرحاً لشتى الإيحاءات لا تكاد تظهر سلسلة حتى تعقبها سلسلة أخرى تجرفها في طريقها وتنتزع منها مكانها . ولا يتوقف دوام أثر هذه الايحاءات على كيفية انتشارها بأسهل الطرق ولكن على مقدار ما فيها من صلابة وحدة في العاطفة . لأن هذه الحدة في العاطفة التي تصحب الآراء عادة هي التي تعمل على تثبيتها وتغلغلها في عقول الأفراد . وبهذه الطريقة يسعى كل حزب الى كسب أنصاره بواسطة الخطب الساحرة والكلمات الخلابة التي يتوهمها هؤلاء الأنصار أنها تتفق ورغباتهم . لان الأفراد يسعون دائماً وراء امتيازات خاصة مشتركة بين الجميع ومن أجل ذلك يجتمعون لاعتقادهم أنهم يصيبون مجتمعين أكثر مما يصيبون متفرقين . وعلى هذا يقوى بينهم شعور الزمالة كلما استهدفوا لخطر فيتكاتفون جميعاً على درئه . فالخوف شعور وجداني لهُ فوائده العظيمة في الجمع بين الأفراد وفي تكوين الجماعات وبمقدار بقاء هذا الخوف تكون مدة اتحاد هذه الجماعات والتئام صفوفها

ولم يغفل قادة الشعوب عن هذه الظاهرة السيكولوجية في الجماهير فعملوا جهدهم على استغلالها والانتفاع بها . فاذا نجح القائد مرَّة في ادخال الخوف في قلب الجمهور من أجل خطر — وهمي أو حقيقي — لم يصعب عليه بعد ذلك ان يقبض على زمام هذا الجمهور وأن يوجههُ كيفما يشاء . هذا ما نراهُ في جميع الشعوب فقبل ان تندلع نيران الحرب يكون الرأي العام قد تهيأ لها عن

طريق الصحف والخطباء الذين لا يفتأون يدخلون الرعب في قلوب الناس بما يذيعونهُ عن زيادة تسلح احدى الدول المعادية. لذلك كان أول واجبات الزعيم الشعبي أن يبث الخوف والكراهية وعدم الثقة في نفوس الناس. لقد كشف جوستاف لوبون عن تلك العاطفة — الخوف — التي تحتل المكان الاول في أعمال الانسان فقال « ان روح الجماعة عاجزة عن أي نشاط ذهني فهي بين الاقدام والاحجام وبين هذين القطبين تتذبذب روح الجمهور فهي قد تدنو وتنأى تبعاً لشعور العطف أو الكراهية »

فاذا أدرك الزعيم رغبات شعبه وعمل على تحقيقها استطاع أن يبعث فيه روحاً قوية قد تدفعهُ الى التضحية. ويكفي ان يذكره بهذه الكلمات الشرف — الدين — الوطن فيثير فيه أهواءه الدفينة وميوله القوية وسلوك الجماعة يعتمد قبل كل شيء على سلوك الافراد الذين تتألف منهم هذه الجماعة. وتصرف الفرد يخضع للجنس والسن والبيئة ولكنهُ يعتمد في النهاية على السلالة أو بوجه عام على العوامل الوراثية. وما دام الأمر كذلك فقد كان المنتظر ان يختلف سلوك الجماعات الفردية النزعة Individualistic Masacs عن سلوك الجماعات الاجتماعية النزعة Collectivistic masses وسنرى هل هذا صحيح أو غير صحيح. واذا شبهنا المجتمع الانساني بجهاز عضوي ونظرنا اليه من الوجهة البيولوجية أمكننا أن نتعرف على طبيعة الجماعة وتفسيتها وما ينتج عنها من تصرفات. وكما يختلف الافراد في التكوين الجسمي كذلك الحال في الجماعات ففي الانسان نجد كل خلية تكتسب عناصر الوراثة من كلا الوالدين، ونشاط الخلية يتأثر دائماً بالعناصر التي ورثتها. كذلك الحال في الجماعة فان تكوين الكتلة البشرية يخضع دائماً لتصرفات الفرد وعلى ذلك نجد أن هناك شبهاً قوياً بل تطابقاً محكماً بين خلايا الانسان الواحد وبين الناس في المجتمع

هذا من الناحية البيولوجية أما اذا نظرنا الى المجتمع من الناحية النفسية — السيكولوجية — فاننا لا نجد اختلافاً كبيراً بين الانسان والجماعة الاَّ أن الخلايا في الانسان أسرع اتصالاً بعضها ببعض من اندماج الافراد في الجماعة ففي الاول رباط مادي لا نجد مثيله في الاخير ولكن هذا الرباط يستبدل في الكتلة البشرية بما يسمى انتقال المشاعر أو الايحاء

ولست أميل هنا الى الدخول في موضوع عويص بالبحث في طبيعة انتقال هذا الشعور فقد تكون الحركات المتوافقة للخلايا ناتجة من انتقال نوع من أنواع الشعور. ومهما يكن فان في الجماعات البشرية دوافع قوية متصلة تنتقل من فرد الى آخر كتلك التي نجدها في خلايا الجسم البشري. وكما يحدث ان الخلايا التي في الانسان تؤثر في حركات غيرها كذلك الحال في الكتل البشرية فاننا نجد صدى التأثير هو الذي ينتقل من شخص الى آخر. ويمكننا أن نستنتج من هذا ان حالة التأثير في الجماعة هي مجموع تأثير الافراد غير أن السلالة والسن والجنس والنمو في الافراد وغيرها من مؤثرات البيئة تجعل « التفاعل » في الجماعة غيره في الافراد إذ أننا نجد في الجماعة كما في حياة الافراد العقلية دوافع شتى تتصارع وتتناضل. هذه الدوافع هي التي تتسلط

على حركات الجماعات كما تتسلط على حركات الافراد وهي دوافع غريزية خالصة

ولكن هذه الدوافع وحدها لا تكفي لتكوين كتلة نفسية متماسكة تحيا حياة اجتماعية متماثلة اذ لا بد أن يكون بين الافراد شيء من التجانس العقلي . دع رجلاً يقوم بين مائة من الناس ينعى على الامة ضعفها وتفككها فسرعان ما يلتف حوله هؤلاء المائة ولكن اذا كان هؤلاء المائة من أجناس وشعوب مختلفة فانهم سرعان ما ينصرفون عن الخطيب لان كلامه لا يعنيهم في قليل أو كثير

وعلى ذلك يجب أن يكون هناك بعض التشابه في التكوين العقلي أو ما يسمى بالتجانس العقلي في الجماعة . وكلما زادت درجة التجانس في الكتلة البشرية كان التكوين النفسي للجماعة أيسر وكانت مظاهر الحياة الاجتماعية فيها أظهر وأوضح

فاذا أتيح لجماعة متجانسة شخص يثير فيها الحماسة والعمل فان شعور هذه الجماعة لا يلبث أن يتحد وقد يمر بعقل كل واحد منهم في تلك اللحظة كل العمليات العقلية التي شاعت في ذلك الجو الجديد ويصبح من السهل اقناعهم وتوجيههم الى حيث يريد الزعيم بل قد يكون اقناعهم أسهل من اقناع الفرد لأن أعمال كل عضو في الجماعة غير أعمال الشخص الذي يواجه الموقف كفرد مستقل . فالفرد في الجماعة لاهمّ له إلا أن يمجد قوة الجماعة ولكن الجماعة لن تحاول أن تبقي على كيانه أو أن تحافظ على حريته فهو في هذه الحالة يصبح فرداً في الجماعة يفقد فيها شعوره الشخصي وادراكه لذاته كشخصية تميزه . وعلاوة على ذلك فانهُ باندماجه في الجماعة يفقد كثيراً من المسئولية الشخصية إذ يشعر أن مشاعر غريبة قد غمرتهُ وقوى أخرى خارجية قد جرفتهُ في هذا الطريق الجديد وهو عاجز عن أن يقف أمام تيارها . لذلك يكون من اليسير جدًّا على الزعيم أن يتلاعب بتلك الجماهير التي أسلمتهُ قيادها يوجهها كيفما يشاء . فهي تسير وراءه بعاطفتها لا بعقلها تسمع كلماته فتفتح لها قلوبها وترى اشاراته فتسارع الى الاستجابة لها فتندفع في فورة العاطفة وحرارة التأثر فترتكب من أعمال الطيش والتدمير ما يثير عجب جميع الناس الذين لم تمسهم نيران الثورة ولم تستجب قلوبهم لنداء العصيان . ولكن ليس لنا أن نعجب لأمر هذه الجماهير التي طاشت أو لتلك العقول التي ضلت فان هذه الظاهرة النفسية وان بدت لنا غريبة شاذة هي نتيجة طبيعية لتلك الثورة الجامحة . فاذا وقفنا على الصفات النفسية للجمهور ما هالنا أمره . فالجمهور ساذج عاطفي الى حدٍّ كبير ، كثير الاندفاع قليل الثبات ، متطرف في كل شيء . قابل للايحاء ، مستهتر في تحكمه ، متسرع في حكمه فهو شبيه بالطفل المتروك أو الهمجي غير المكبوح وقد يكون في بعض الحالات أقرب الى الوحش الضاري منهُ الى الانسان العادي . اذا فهمنا هذه الحقائق الأولية في نظريات نفسية الجماعات ما رمينا الجماهير الساذجة التي تفقد عقلها في الازمات النفسية العنيفة بالانحطاط الخلقي والثقافي ووقفنا على تلك الحقيقة المهمة وهي ان الجمهور لا يصحبه اي شيء من الشعور الخلقي والعقلي الذي يصحب أعمال الافراد الذين يكونونها

وقد يخطىء كثير من الناس فيعزون أعمال التلف والتخريب الى الرعاع المستهترين والواقع أن جميع الافراد سواء المهذب المثقف أو السوقي الأمي يكونون في حالة عقلية واحدة في تلك الثورات النفسية الشاذة . اذ الكل يتبع نداء الغريزة ، ويندفع بتأثير الايحاء

لقد فهم شكسبير عقلية الجماهير فهماً دقيقاً فلا تخلو قصة من قصصه التمثيلية الكثيرة من الاشارة اليها والتعرض لها . وأقوى مثال على هذا ما جاء في مسرحيته الرائعة « يوليوس قيصر» من موقف الشعب الروماني بعد قتل قيصر . فقد نجح بروتس زعيم المتآمرين في اقناع الشعب بضرورة قتل قيصر لانقاذ روما حتى أن الشعب اعتبر القتلة أبطالاً جديرين بالخلود . فلما جاء « مارك انتوني » وجد نفوساً حانقة على قيصر وأتباعه فلم يشأ أن يهاجم القتلة أو أن يسيء الى قصدهم بل عمد الى استمالة الجمهور اليه بأن حدثهُ عن أعمال قيصر وكيف ان قيصر قد بنى لهم مجداً خالداً وشاد لهم امبراطورية عظيمة دون أن يكسب لنفسه شيئاً

فسرعان ما انقلب ذلك الجمهور الحانق الساخط على قيصر واتباعه الى جمهور ثائر على القتلة المجرمين فاندفع في فورة العاطفة يطالب بدم قيصر البريء . وهنا يورد شكسبير حادثة طريفة قد تكون حقيقة تاريخية ثابتة وقد لا تكون ولكنها على اي الحالات حادثة يمكن ان يقدم عليها جمهور في مثل تلك الثورة الجامحة والهياج العاطفي العنيف . خرج الشعب الروماني جموعاً متدفعة يبحث عن القتلة فصادف في طريقه رجلاً فسأله عن اسمه فأجاب الرجل « سنا » فلم يكد الجمهور الثائر يسمع هذا الاسم حتى انقض على الرجل يريد الفتك به لانه كان يبحث عن احد الاشخاص المتآمرين يدعى « سنا » وعبثاً حاول ذلك المسكين ان يقنع الجمهور انه « [illegible] » الشاعر لا سنا «المتآمر» . هذه الحادثة البسيطة وان لم تكن حقيقة تاريخية ترسم صورة واضحة لنفسية الشعب الثائر الذي لا يعرف الاّ الانتقام والتدمير سواء كان هذا التدمير يتصل بالسبب الحقيقي الذي من أجله يثور أو لا يتصل . وتعليل هذا أمر يسير فالجمهور في حالة هياجه كالفرد في ثورة غضبه فكما ان الفرد يخرج به الغضب أحياناً عن دائرة التعقل فيتلف ويدمر كل ما يلقاه أمامه وقد يبكي او يضرب نفسه ان أعوزه ذلك. كذلك الجمهور يدفعه حنقه وجنونه الى قلب كل ما يراهُ أمامه وهذه ظاهرة نفسية طبيعية فهو في تلك الحالة ثائر مضطرب فيريد ان يرى كل شيء حولهُ ثائراً مضطرباً أي انهُ يريد أن ينفّس عن نفسه بخلق الجو الملائم لطبيعته الثائرة . ومن الخطل ان نأخذ مثل هذا الجمهور بالشدة والعنف فاننا ان فعلنا ذلك نزيد النار اشتعالاً . فكم من شخصيات عظيمة ذهبت ضحية الثورات الجامحة لأنها لم تفهم نفسيات الجماهير. وما اكثر الذين كان يرجى منهم مستقبل عظيم فجرفهم الجمهور في طريقه لأنهم تصدوا لهُ

والواقف على تاريخ قادة الشعوب يدرك تماماً أن هؤلاء القادة لم يكونوا اذكى الناس أو اكفأهم ولكنهم كانوا أجرأهم وأكثرهم صبراً وأعرفهم بنفسية شعوبهم

الرتب العسكرية

في مصر والعراق

للفريق امين المعلوف

كثر البحث في هذه الأيام في توحيد الرتب العسكرية في اللغة العربية فرأيت ان اكتب شيئاً عما أعرفهُ عن الرتب العسكرية في العراق. وقد كانت في أيامي كما يأتي من أدناها الى أعلاها وسأذكر الاسماء المصرية ثم العراقية ثم الانجليزية والفرنسية

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
نفر	جندي	Private	Simple soldat
وكيل أونباشي	جندي اول	Lance corporal	—
اونباشي	نائب عريف	Corporal	Caporal
جاويش	عريف	Sergeant	Serjent
باشجاويش	رأس العرفاء	Sergeant major	—
صول	نائب ضابط	Warrant officer	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم في مصر صف الضباط وفي العراق ضباط الصف. ثم الضباط وهم من ملازم ثانٍ الى مشير فجميعهم ضباط

ملازم ثانٍ	ملازم ثان	Second Lieutenant	Lieutenant
ملازم اول	ملازم اول	First Lieutenant	—
يوزباشي	رئيس	Captain	Capitain
صاغ	رئيس اول	Second captain	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم ضباط اعوان والواحد عون

بكباشي	مقدم	Major	Commandant
قائمقام	عقيد	Lieut. Colonel	—
ميرالاي	زعيم	Colonel	Colonel

هؤلاء الثلاثة يقال لهم في مصر ضباط عظام وفي العراق قادة والواحد قائد

لواء	أمير لواء	Brigadier general	Général de brigade
فريق	فريق	Major General	Général de Division
—	عميد	Full General	Général d'une armée
مشير	مشير	Field Marshal	Maréchal

وأحياناً يسمى المشير في العراق العميد . هؤلاء الاربعة يسمون في مصر ضباط كرام وفي العراق أمراء فيقال تحية الامراء اذا كان لهم تحية خاصة

ثم ان الرتب العسكرية العراقية وضعت اولاً في الحجاز . ثم عدّلت في دمشق ثم في العراق عدلها الفريق جعفر باشا العسكري وكان وزيراً للدفاع وعاونته في بعضها. وكان رحمه الله يتقن لغات كثيرة فمن اللغات الشرقية العربية والتركية والكردية والفارسية والافغانية وقليلاً من الروسية ومن اللغات الاوربية الفرنسية والالمانية وتعلم أخيراً الانكليزية وأتقنها. قلت انهُ عدل الرتب العسكرية في العراق وقد اقترحت عليه يوماً كلمة عميد للكولونل لان كلمة كولونل أصلها من كلمة عمود فلما عرضها على جلالة الملك قال العميد كثيرة للكولونل أي الزعيم فاجعلها لاكبر رتبة في الجيش وهكذا كان . أما العقيد فكلمة شائعة في الشام والعراق يقولونها لزعيم القوم في يوم القتال وأظن أصلها من «عقد لهُ لواء» . وأما المقدَّم فرتبة كبيرة كانت في زمن المماليك ثم في لبنان وهم يطلقونها على من هو دون الامير. ولعلّ بعض اخواننا المصريين لا تروقهم لان المقدَّم عندهم هو رئيس الفعلة او العمال ولكن المقدَّم كانت ولا تزال عند العرب رتبة كبيرة . ولعلَّ بعضهم يفضلون ترجمة الكلمة الفرنسية وهي القائد ولكن القائد لا تصلح لها فقد يكون القائد ملازماً او يوزباشياً او أمير لواء . بقيت مسألة أخرى وهي الخوف من استعمال الافرنج للرتب العسكرية بلفظها العربي وكتابتها بحروف لاتينية كما يستعملون في أيامنا الكلمات الآتية وهي Ferik, Lewa, Miralai, Bimbashi, Yousbashi

كأن هذه الرتب خصصت لنا نحن المشارقة . قلت لو عرفنا كيف نحفظ كرامتنا وترجمنا هذه الكلمات لما وقع ذلك . او لو اننا امتنعنا نحن انفسنا عن كتابتها بحروف لاتينية ولو ان البكباشي او الميرالاي او اللواء عند ما يكتب اسمه بالافرنجية على بطاقته يكتب General أو Colonel أو Major لما حصل ذلك . او لو سألني واحد ما هي رتبتك في الجيش وكان كلامهُ معي بالانكليزية فقلت مثلاً أنا Captain فقال هذه الرتبة ليست عندكم بل عند الانجليز والفرنسيين لقلت لهُ ماذا كانت رتبة ابراهيم باشا الكبير وماذا رأيك في قيادته لاجاب He was a great General وهل الرتب العسكرية مككاً لكم.وعندي ان أحسن وسيلة لاتقاء ذلك ان يصدر البرلمان قراراً ويترجم هذه الرتب بالانجليزية والفرنسية وينشر قراره بصفة رسمية فلا تعود الجرائد الفرنسية والانكليزية تكتب اسم الفريق فلان باشا Ferik so & so ولكن General so & so والمسألة بسيطة جداً . اني لا أحب التعرض للسياسة ولن أفعل ولكن لا أرى وسيلة لحفظ كرامتنا في هذا الصدد الاَّ هذه

ملخص رأيين في

المستعمرات

من الناحية الاقتصادية

١ — للدكتور شاخت
في مجلة « الشؤون الخارجية »

ان بلدان اوربا الشرقية بلدان زراعية على الغالب ، فالسوق الالمانية في نظرها لها المقام الاول . ذلك ان المانيا تستورد الآن ١٤ في المائة من صادرات بولونيا ، و١٦ في المائة من صادرات تشكوسلوفاكيا و١٧ في المائة من صادرات النمسا و٣٠ في المائة من صادرات المجر و٤٩ في المائة من صادرات بلغاريا و٢٠ في المائة من صادرات رومانيا و٣٦ في المائة من صادرات يوغوسلافيا و٤٥ في المائة من صادرات اليونان و٦٤ في المائة من صادرات تركيا . فزوال السوق الالمانية يفضي الى أسوإ الآثار في حياة هذه البلدان الاقتصادية والاجتماعية . ثم ان السوق الالمانية لا تقل شأناً عما تقدم في نظر البلدان السكنديناوية . فالرخاء في اوربا لا يمكن ان يقوم الا على أساس من الرخاء في المانيا

في عصر الإقبال الذي كان يسود الامم قبيل الحرب الكبرى . لم يكن لموضوع المستعمرات والمواد الخام من الشأن ما لهُ الآن . وهذا القول يصدق على المانيا صدقهُ على غيرها . فقد بلغت اموال المانيا المثمرة في الخارج قبل الحرب ٢٤٠٠ مليون جنيه فكانت تستعمل الفوائد التي تجنيها من هذا المال في شراء المواد الخام التي تحتاج اليها حيث تشاء . وكانت الاسواق التي تباع فيها هذه المواد حرّة مطلقة من القيود . وكان من النادر ان ترى موارد المواد الخام خاضعة لاحتكار فعلي تمارسهُ شركات دولية ضخمة قوية . وكانت المعاهدات التجارية البعيدة الآجال تضمن حرية التجارة الدولية . وكان نقد جميع الامم الكبيرة على اساس الذهب فكان الذهب قاعدة صالحة للتبادل وكانت المهاجرة الى البلدان الجديدة ومنها مطلقة من القيود ، وينظر اليها بعين العطف والتشجيع

جميع هذه القواعد الاولية والاساسية في التجارة الدولية والمعاملة بين الامم قد زالت . فالقيود الدقيقة مفروضة على الهجرة ، والذهب قد حذف من سفر النقد في معظم البلدان ، والمعاهدات التجارية تعقد لمدى قصير ، والحواجز والحصص وما اليها تثقل التجارة الدولية وتقف سدوداً في وجه تياراتها . وعلاوة على ذلك لقد اخذ من المانيا المال الذي كان مثمراً لها في الخارج

والبلدان التي فيها موارد المواد الخام خاضعة كالتجارة لقيود دقيقة . وقد رأينا نتيجة هذه الخطة في السنوات الاخيرة . فقد نقصت تجارة العالم الى نحو ثلث ما كانت عليهِ وضعفت الثقة الدولية حتى كادت تزول ، وتحطّم نظام الاعتماد المالي الدولي لانهُ قائم على الثقة

فلما ضعفت التجارة الدولية ونقص مقدارها ، عمدت البلدان الكبيرة الى استغلال موارد الثروة التي فيها ، وكثيراً ما ترى المانيا من هذه الناحية بالانطواء على نفسها ولكن الذين يرمون المانيا بذلك ينسون ان فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا سبقتها الى ذلك . فالاكتفاء الذاتي (autarchy) في ميدان الاقتصاد يتمّ من تلقاءِ نفسهِ ، في البلدان التي تحتوي على مصادر لمعظم المواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة ، والتي تتمتع بنظام نقدي واحد يسهل التعامل والتبادل بين اجزائها . نخفض قيمة الجنيه ما كان ليسفر عن النجاح الذي أسفر عنهُ ، لو لم تقتف بلدان الدومنيون في ذلك اثر انكلترا . وفرنسا لولا تطبيق لنظام نقدي واحد عليها وعلى مستعمراتها ، لما استطاعت ان تجني من هذه المستعمرات اكبر قدرٍ من الفائدة

ولئلاَّ يتهم الدكتور شاخت بالقاء الكلام على عواهنهِ بقولهِ ان الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية سارتا في طريق الاكتفاء الذاتي (اوتاركي) أورد أرقاماً أثبت بها ان نصيب بلدان الدومنيون والمستعمرات والمحميَّات من صادرات بريطانيا العظمى في الاثنتي عشرة السنة الاخيرة زاد من ٤١ في المائة الى ٤٩ في المائة وزاد نصيب بريطانيا مما تستوردهُ منها من ٣١ الى ٤٢ في المائة . وزاد ما تستوردهُ فرنسا من مستعمراتها في العشر السنوات الاخيرة من ١٠ في المائة الى ٢٦ في المائة وزادت صادرات فرنسا الى مستعمراتها من ١٤ في المائة الى ٣٢ في المائة . اما الولايات المتحدة الاميركية وروسيا فاتساع مساحتيهما وغنى اراضيهما بالموارد الاقتصادية المختلفة يجعلانهما في غنى تقريباً عن التجارة الدولية

يقابل هـذه الدول الاربع ، دول كثيرة السكان محدودة الاراضي . ولما كانت اراضيها لا تنطوي الاّ على موارد يسيرة للمواد التي تحتاج اليها ، فهي شديدة الاعتماد على التبادل الدولي في الحصول على معظم ما تحتاج اليهِ

وكأن رجال السياسة اكتشفوا مؤخراً فقط ان الامبراطورية البريطانية تشمل ربع اليابسة على سطح الكرة الارضية ، وتنتج نصف محصول العالم من الصوف والمطاط ، وربع محصولهِ من الفحم ، وثلث محصولهِ من النحاس وكلَّ محصولهِ تقريباً من القصدير . وقد القي بيان في مجلس اللوردات من عهد قريب ظهر منهُ ان الامبراطورية البريطانية ، غنية الموارد بثماني عشرة مادة من خمس وعشرين مادة لازمة للأمم الصناعية الكبيرة ، وان محصولها من مادتين أخريين لا بأس بهِ ، وانها في حاجة الى استيراد ما تستهلكهُ من خمس مواد اخرى فقط

يقابل هذا ان المانيا غنية الموارد بأربع من هذه المواد فقط ، ومحصولها من مادتين أخريين لا بأس بهِ وانها تعتمد على الاستيراد في ما تحتاج اليهِ من بقية المواد وهي تسع عشرة مادة . قال الخطيب في مجلس اللوردات : ولسنا نعجب والحالة هي ما هي ان في المانيا واليابان وايطاليا قلقاً. نعم ان بريطانيا من اكثر الامم تعلقاً باهداب السلام ولكن الباعث على ذلك انها تملك كل ما تحتاج اليهِ . ومما يستوقف النظر بوجهٍ خاص في كلام هذا الخطيب ما بين حب السلام والسيطرة على موارد المواد الخام من صلة . وقد كان على حق ٍعندما قال ان الامة المبتوتة الصلة بموارد المواد الضرورية مصدر من مصادر القلق في العالم

الاَّ ان حالة المانيا تختلف عن حالة اليابان او حالة ايطاليا . فعلى الرغم من جامعة الامم ، اكتسحت اليابان منشوريا وضمت ايطاليا بلاد الحبشة اليها . وصار في الامكان ان نقول ان اليابان وايطاليا انتقلتا من صف الامم القلقة لقلة مواردها الى صف الامم الراضية بما تملك . اما المانيا ، فهي الدولة الكبيرة الوحيدة التي لا تزال غير راضية عن حالها . ولذلك ستبقى المانيا ، على الرغم من حبّها للسلام ، مصدراً من مصادر القلق العالمي ، ما زال موضوع المستعمرات وموارد المواد الخام من دون حلٍ يرضيها

ففي سنة ١٩٢٩ عند ما كانت الدول لا تزال سخية في فتح الاعتمادات المالية لالمانيا وعقد القروض، وعند ما كان الذهب لا يزال قاعدة للمعاملات التجارية الدولية ، انفقت المانيا في استيراد ما تحتاج اليهِ ١٫١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه منها ٨٨٠ مليون جنيه انفقت في استيراد مواد الغذاءِ والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . ولكن مبلغ وارداتها هبط في سنة ١٩٣٥ الى ٣٣٦ مليون جنيه منها ٢٨٠ مليون جنيه في استيراد مواد الغذاءِ والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . وهذا يدلُّك على ثقل القيود التي قيد بها انتاج المانيا الصناعي . فقد انفقت المانيا في سنة ١٩٣٥ مبلغ ١٦٠ مليون جنيه على شراءِ المواد الخام وبضائع غير تامة الصنع ، وهو اقل جداً مما تحتاج اليهِ صناعتها للمحافظة على مستوى معيشة شعبها . فالفجر الوردي الذي انبلج على اثر تقرير مشروع دوز عندما انهالت الاموال على المانيا من الخارج ، قد تحوَّل الى قتام الواقع عند ما امسك المتمولون ايديهم دونها. فمن السخرية اذاً قول من يقول ان المانيا تستطيع ان تبتاع كل ما تحتاج اليهِ من دون ان يكون لها مستعمرات . انها لا تستطيع ذلك لانها لا تملك من المال خارج بلادها ما يكفيها لذلك وهي لا تملك هذا المال لان الدول الاخرى لا تستهلك من مصنوعاتها الاَّ قدراً يسيراً

ففي هذه الحالة ، يزول العجب الذي يستولي على الكتّاب ورجال السياسة ، عند ما يقرأُون ان المانيا تحاول ان تصنع المواد الخام التي تحتاج اليها في بلادها بوسائل صناعية . اننا نعلم انهُ اذا اصبنا النجاح في صنع بعض المواد التي نستعيض بها المواد التي كنا نستوردها ، فذلك يكلفنا كثيراً.

واذن لا بدَّ من ان الانصراف عن مبدإ الاكتفاء الذاتي لانهُ يفضي الى انخفاض في مستوى المعيشة في بلادنا . ولكننا لسنا مخيَّرين في ذلك ، ما زالت الاحوال السياسية تحول دون نشاطنا الاستعماري. ولن يستتبَّ السلام في اوربا حتى تحل هذه المشكلة

ولا يسعني في هذا المقام الآن اقول ان مبدأ الاكتفاء الذاتي لا يصحُّ ان يكون هدفاً تحدى اليهِ الركائب . انهُ مناقض لقواعد الحضارة . فالاكتفاء الذاتي يعني العزلة . والنقص في التعامل الاقتصادي يفضي الى نقص في التعامل الذهني . وكذلك تندثر وسائل التبادل العلمي والفني والثقافي . فالحياة الاقتصادية القائمة على مبدإ الاكتفاء الذاتي تفضي الى اكتفاء ذاتي في الحياة العقلية . والعالم لا يرتقي الاَّ بالتبادل

***

وهناك فريق من الكتاب والمفكرين يذهب الى ان العودة الى التبادل الاقتصادي الحر يزيد حصة المانيا منهُ وتصبح كذلك قادرة على شراءِ ما تحتاج اليهِ من المواد الخام . وسبيلهم الى هذه العودة خفض الحواجز الجمركية والغاء نظام الحصص وتشجيع التجارة الدولية الحرَّة . وكل مفكّر يوافق على هذا الرأي ، ولكن العبرة في التنفيذ . والحائل الاكبر دون التنفيذ ، انَّ قوة البلاد الاقتصادية ، اصبحت في هذا العصر العامل الاساسي في تقرير ما لها من مقام سياسي . فامتلاك موارد المواد الخام اصبح في عهدنا مسألة سياسية ، بعد ان كان قبلاً مسألة اقتصادية

وكذلك اصبح تغيير قاعدة النقد وسيلة تستعمل للضغط السياسي . فالناس تظن ان منع المواد الخام او اباحتها يفضي الى التأثير في حالة خصم او صديق على التوالي . وقد رأينا تطبيق هذا الرأي في فرض العقوبات على ايطاليا . ورأينا كذلك ان كل امة شريفة لا تخضع مختارة لذلك إذ يستحيل عليها ان تسلّم بالعيش وهي رهن رحمة الدول الاخرى

ومما يقال في هذا الصدد ان المستعمرات بوجهٍ عام ، ومستعمرات المانيا السابقة بوجهٍ خاص لا قيمة لها من الناحية الاقتصادية . فاذا صحَّ ذلك فلماذا تحتفظ بها الامم الاخرى ؟ ومن الخطإِ ان يشير الباحث الى ان مستعمرات المانيا السابقة لم تكن ذات شأن في حياة المانيا الاقتصادية قبل الحرب ، لان التجارة الحرة كانت واسعة النطاق حينئذٍ والمانيا كانت تستطيع ان تفوز بمعظم ما تحتاج اليهِ من اسواق العالم المختلفة . فلم تكن في حاجة في استغلال مستعمراتها استغلالاً تامًّا . ومع ان مستعمرات المانيا كانت وليدة العصر الحديث ، من العقد التاسع في القرن الماضي الى مطلع الحرب الكبرى ، الاَّ انها انجزت فيها من الاعمال والمنشآت ، اكثر مما أُنجز على ايدي امم اخرى خلال قرنين من الزمان في بعض مستعمراتها

٢ — للمستر كيلنغ
في مجلة « الكونتمبورري »

اذا صرفنا النظر عن البواعث السياسية وجدنا ان البلدان التي تطالب بمستعمرات تبني مطالبتها على حاجتها اليها من الناحية الاقتصادية لانها تجد فيها موارد للمواد الخام واسواقاً للمصنوعات ومنافذ لازدحام السكان . وهي حجة تبدو مقنعة ولكن هل تؤيدها الحقائق ؟

اما في ما يتعلق بالمواد الخام ، فكلمة المستعمرات بوجه عام تعني المناطق المباحة للاستعمار اي المناطق التي ليست دولاً ذات سيادة او مستقلة استقلالاً ذاتياً كبلدان الدومنيون والهند في الامبراطورية البريطانية . فالمستعمرات بهذا التحديد مصدر ضئيل جداً من مصادر المواد الخام. ولعل المواد المهمة الضرورية للصناعة ، الصادرة من مستعمرات هي المطاط (وهو يكاد يكون احتكاراً استعمارياً) والقصدير . حتى اذا اضفنا الى ما تقدم المواد التي لا تصدر المستعمرات منها اكثر من ٢٠ في المائة من محصولها العالمي لما اضفنا الا النحاس والفصفات والفناديوم والشاي وجوز النارجيل . اي ان المستعمرات لا تصدر الا أربع مواد أو خمساً ليست كلها في مقدمة ما تحتاج اليه الامم الصناعية . وهذا القول يصدق بوجه خاص على المستعمرات الافريقية . فما يصدر من افريقية كلها من المواد الخام الصناعية والغذائية اقل من ٤ في المائة من محصولها العالمي . فمستعمرات المانيا السابقة كانت لا تصدّر الى المانيا الا مقداراً يقل عن واحد في المائة مما تستورده المانيا من المواد الخام

أما المواد الخام الاساسية في الصناعة والغذاء كالفحم والحديد والنفط والقطن والنحاس والقمح واللحم والالبان فتصدر جميعها من بلدان مستقلة ذات سيادة لا من المستعمرات . ويمكن ان يقال بوجه عام ان المصادر الرئيسية لمواد الصناعة والغذاء الاساسية هي الولايات المتحدة الاميركية واتحاد روسيا السوفيتية والامبراطورية البريطانية . فمن الخطأ القول بان اعادة توزيع المستعمرات يسد النقص في ما تحتاج اليه البلدان المطالبة بها من المواد الخام للصناعة والغذاء

ولكن اذا سلمنا جدلاً بانهُ يسدّ هذا النقص فهل للسيادة السياسية فائدة اقتصادية ؟ ان الرد المألوف على هذا السؤال هو ان السيادة السياسية ، ذات شأن بلا شك في اثناء الحرب . ولكن المستعمرات لا تجدي نفعاً اذا كانت الدولة صاحبة السيادة لا تملك من القوة البحرية ما يمكنها من ابقاء مسالك البحار مفتوحة لسفنها . فلننظر في أثر السيادة السياسية من الناحية الاقتصادية في ابان السلم ، فهل للدولة المستعمرة امتياز اقتصادي على سائر الدول في البلدان الخاضعة لها ؟

ليس ثمة ريب في ان هناك بعض امتيازات . واولها قائم على الرسوم الجمركية التفضيلية التي تفرض على الصادر من المستعمرة . فهذه الرسوم تفرض في بعض البلدان التي لم تبلغ شأواً اقتصادياً بعيداً كوسيلة لزيادة ايرادها . ولا يجوز توجيه النقد اليها من هذه الناحية . ولكن

بعض المستعمرات تفرض « ضرائب التصدير » لا بقصد زيادة ايراد البلاد ، بل بقصد تفضيل بلاد على اخرى من البلدان التي تستورد محصولاتها . وفي مقدمة البلدان التي تعمد الى هذه الوسيلة في مستعمراتها فرنسا والبرتوغال . الا أن رسوم التصدير التفضيلية في مستعمرات البرتوغال معتدلة في الغالب حالة انها في المستعمرات الفرنسية عالية جداً الا اذا كانت المواد المصدرة ذاهبة الى فرنسا نفسها . اما في الامبراطورية البريطانية فليس ثمة رسوم تفضيلية الا على ركاز القصدير . فما يفرض عليهِ عند تصديرهِ من ملايا او نيجيريا عالٍ جداً الا اذا كان مرسلاً الى انكلترا او احد اجزاء الامبراطورية

ولا ريب في ان « التفضيل » على هذا المنوال غير مرغوب فيهِ من الناحية العالمية وخطره حيث يكون الاحتكار . ولكنهُ لا يعرقل قدرة اي امة من الامم على شراء ما تريده في اسواق العالم الاخرى ، اذ لا تعرف مادة واحدة ، في البلدان التي تعتمد على هذه الوسيلة محتكرة فيها احتكاراً تامًّا . حتى ركاز القصدير المشار اليهِ لا يستخرج منهُ من مناجم ملايا ونيجيريا الا ٤٠ في المائة من المحصول العالمي . والباقي يستخرج من مناجم في بلدان اخرى لا تفرض رسوم التصدير التفضيلية

وهناك نوع آخر من التفضيل ينجم عن شركات المنتجين الكبيرة التي تنشيء ما يشبه احتكاراً ثم تتحكم في الاسعار على نحو ما فعلت في المطاط والنحاس ، فكانت النتيجة ، ان تحكمها ورفع الاسعار افضيا الى زراعة اشجار المطاط في بلدان اخرى ، واستغلال مناجم نحاس كانت مهملة . ويظهر ان الشركات والحكومات قد افادت عبرة من حوادث الماضي فخُتِمت (فيما يتعلق بالقصدير والمطاط) تمثيل البلدان المستهلكة الرئيسية في المجالس الاستشارية للشركات او الحكومات . وينتظر ان يشمل هذا النظام مواد اخرى منعاً للتحكم . وعلاوة على ذلك ان الشركات التي تتحكم بالاسعار لا تفرق بين دولة وأخرى تفضيلاً وتمييزاً فجميع الدول المستهلكة في نظرها سواء

الا ان ما تقدم يؤثر فقط في ما تشتريه الدول من المواد الخام الصادرة من المستعمرات . ولكن الدول المطالبة بالمستعمرات تطالب بها لانها تريد ان تستغلها . والردُّ الغالب على هذا الطلب ان الدول المطالبة لا تملك من رؤوس الاموال ما يكفي لهذا الاستغلال . وهذا يصدق بوجه خاص على المانيا . لان اليابان وايطاليا صدَّرتا قدراً من المال لاستغلاله . فلليابان مال مثمر في الصين ومنشوكو وجزائر الهند الشرقية الهولندية وملايا البريطانية . ولايطاليا مصالح مالية في نفط رومانيا والعراق وفي بعض بلدان اميركا الجنوبية

ولكن لنسلّم جدلاً هنا ايضاً بأن البلدان المطالبة بالمستعمرات تملك قدراً كافياً من المال لتصديره وتثميره . فهل ثمة عقبة ما تحول دون تثميره في المستعمرات الخاضعة لدول أخرى ؟ ليس في مستعمرات بريطانيا وهولندة على الاقل ما يبعث على الشكوى . ففي ملايا البريطانية مناجم حديد ومنغنيس تملكها اليابان، ومزارع مطاط يملكها الايطاليون ، واليابانيون ، وغيرهم.

وللشركات الاميركية نصيب كبير من السيطرة على مناجم المنغنيس في الشاطيء الذهبي ومناجم البوكسيت في غانة البريطانية . والمادة الوحيدة في الامبراطورية البريطانية التي يقصر استغلالها على البريطانيين هي النفط . ولكن النفط في المستعمرات الهولندية ليس محصوراً في أحد بوجهٍ خاص . والاميركيون يسيطرون على قسط وافر من منتجات النفط في جزائر الهند الشرقية الهولندية . والامثلة على ذلك متعددة

الاّ ان مشكلة المواد الخام ، هي في المقام الاول مشكلة توفية الثمن ولا سيما عندما يوفى الثمن بنقدأجنبي . اذ لاريب في الفائدة التي تجنى ، عند ما تكون المواد الخام في منطقة تستعمل نفس النقد الذي تستعمله الامة التي تستوردها ولذلك رميت الدول المستعمرة بسيطرة غير مباشرة على المواد الخام بواسطة اقامة الحواجز الجمركية حول المستعمرات. فيمنع ذلك ابتياع هذه المستعمرات لبضائع أمم أُخرى ، فتعجز هذه الامم عن توفية ثمن ما تشتريه منها بثمن ما تصدره اليها . وكذلك يقع التفضيل من طريقة عرقلة أساليب التسديد

وهذه عقبة كبيرة اذا ثبت ان المستعمرات اسواق كبيرة ، وان هذا التفضيل واقع حقًّا . والواقع ان سياسة الباب المفتوح في نصف مستعمرات العالم مضمونة بمعاهدات دولية أي ان المستعمرات التي تشملها هذه المعاهدات لا يسعها ان تقيم حواجز جمركية تفضل بها دولة على اخرى من دول الجامعة . ولم تستثن اليابان ولا المانيا من ذلك . وهذه المعاهدات تشمل جميع بلدان الانتداب من طبقة A و B وكل حوض الكنغو بما فيه شرق افريقية البريطاني وافريقية الاستوائية الفرنسية ، وغرب افريقية البرتوغالية والسودان وروديزيا الشمالية . أما في مراكش فسياسة الباب المفتوح كانت جزءاً من التسوية الدولية التي عقدت بعد ازمة ١٩٠٦ في مؤتمر الجزيرة . الاّ ان سياسة الباب المفتوح أُلغيت خارج هذه المناطق . حتى هولندا وبريطانيا المشهورتين بنفورهما من سياسة الحواجز والتفضيل التجاري، عمدتا اليها خارج المناطق التي لا تشملها معاهدات الباب المفتوح . ومع ذلك فان جميع المستعمرات في العالم لاتبتاع اكثرمن ١٠ في المائة من مجموع الصادرات العالمية

فمشكلة «النقد الاجنبي» الذي لا بدَّ منهُ للدول المتبرمة في شرائها ما تحتاج اليه من المواد الخام ليست مسألة استعمارية ، تحلّ بتوزيع المستعمرات من جديد . انها مسألة تمتُّ الى انتعاش التجارة العالمية ، اولاً ، والى بعض العوامل السياسية ثانياً . حتى انتعاش التجارة العالمية وحده لا يكفي ، ما زالت الصين تقاطع اليابان ، واليهود في مختلف بلدان العالم يقاطعون صادرات المانيا ، ومصانع السلاح والذخيرة تلح في الحصول على مقادير كبيرة بل استثنائية من المواد اللازمة لها. اما موضوع المستعمرات من حيث هي منافذ للسكان فلهُ بحث آخر

لواء الاسكندرونة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

﴿خليج الاسكندرونة﴾ هو الخليج الوحيد على الساحل السوري ذو القيمة الاقتصادية والحربية البارزة ، ويبلغ طوله نحو ستين كيلومتراً وعرضه دون الاربعين وعمقه ٣٧ متراً ، والمسافة بينه من مدينة الاسكندرونة وبين مدينة جرابلس على نهر الفرات لا تتجاوز مائة ميل في حين ان المسافة بين بيروت وبين مدينة (ابو كمال) على الفرات ايضاً تربي على ثلاثمائة وخمسين ميلاً وهذا يدلنا على ما لهذا الخليج من الشأن الاقتصادي في مستقبل الايام بالنظر الى انهُ يحوي الميناء الطبيعي على البحر المتوسط الابيض ليس لشمال سورية فقط بل له وللقسم الشمالي من العراق ايضاً . وان نظرة واحدة على المصور الجغرافي تقنع المرء بان هذا الخليج هو الملجأ الطبيعي للاساطيل يحميها من عواصف البحر واخطار الغواصات ويزوّدها بمعظم ما تحتاج اليه

﴿لواء الاسكندرونة﴾ يتألف لواء الاسكندرونة من الاقضية الثلاثة الآتية (١) الاسكندرونة (٢) قرق خان (٣) انطاكية . ويهمني ان اوجه نظركم الى ان الكتب والاحصائيات التي وضعت قبل هذه الازمة وما فيها من اغراض في التحريف والتبديل ومخالفة الواقع نصت على ان الترك في اللواء هم اقلية . فقد جاء « في الجولة الأثرية » للاستاذ وصفي زكريا ص ٥٦ وقد طبعت سنة ١٩٣٤ ان الترك مع التركمان يؤلفون من خمسة وثلاثين الى اربعين في المائة من مجموع السكان ، وفي الاحصاء الرسمي الذي صدر في حلب سنة ١٩٣٢ كان عدد السكان في اللواء كما يأتي بالتقريب ٢٠٠٠٠ من العرب السنيين و ٥٥٠٠٠ من العرب النصيرية و ٢٥٠٠٠ من العرب المسيحيين و ٤٤٠ من اليهود و ١٣٥٥٠ من الارمن و ٢٠٠٠ من الكرد و ١٠٠٠ من الشركس و ٧٠ ، ٠٠٠ من الترك . وجاء في الملحق رقم ٣ من البيان الذي اصدرتهُ اخيراً لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مجموع عدد السكان في اللواء ٢١٩ ، ٠٨٠ منهم ٨٥ ، ٢٤٢ من الترك و ١١٠ ، ١٠٣ من العرب و ٢٤ ، ٩١١ من الارمن و ٥٨١٧ من سائر العناصر فيكون الترك بنسبة ٣٨ ، ٩٠ في المائة والعرب ٥٧ ، ٠٧ والارمن ١١ ، ٣٧ وسائر العناصر ٢ ، ٦٦

وقد طبقت السلطة الفرنسية على هذا اللواء المعاهدة التي عقدتها مع الترك في اليوم العشرين

---

(١) نص المحاضرة التي القاها في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة في مساء يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

من اكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩٢١ وهي معاهدة انقره فكان مستقلاً في معارفه وزراعته واشغاله العامة وكان المتصرف فيه مربوطاً بمندوب المفوض السامي وكانت اللغات الرسمية فيه العربية والتركية والفرنسية . ومما هو حري بالتدوين ان الدولة المنتدبة غيّرت في حدوده الجغرافية وتقاسيمه السياسية بالنسبة الى منطقة حلب تغييراً يضم اليه اكبر عدد من الترك ممكن ويخرج منهُ اكبر عدد من العرب ومع ذلك فقد أتت النسبة المئوية كما تقدم ، وفي (الجولة الاثرية) ان النصيرية يقطنون في الاسكندرونة والساحل الممتد منها الى بليدة عرسوس وفي نفس انطاكية والجبال الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الارمن في جبل موسى واعضاده الممتدة حتى ساحل البحر وفي ناحية كسب وفي بليدة قرق خان، ويقطن الشركس في قرى حران والريحانية وهم من سهل العمق ويقطن الترك وكذلك التركمان — وهم الذين نزلوا تلك الانحاء في زمن الدولتين النورية والصلاحية — في جبل اللكام واعضاده الممتدة شمال الاسكندرونة وشرقها وفي بعض سهل العمق وفي الجبل الاحمر واعضاده الممتدة الى جنوب عرسوس وكسريك ويقطن الكرد في حرة اللجة شمال السهل المذكور .

ووجد ان الامية في لواء الاسكندرونة ٥١ في المائة بينا هي في لبنان ٤٢ وفي دمشق ٥٥ وفي حلب ٦٣ وربما استفادت هذه المنطقة من نهر العاصي فائدة كلية من مائه لاجل الري ومن قوته لاجل تحريك الآلات وتوليد الكهربائية . فقد وجد أن تفريغه الادنى بالقرب من انطاكية في سنة ١٩٣٢ ثلاثين متراً مكعباً في الثانية في حين لا يتجاوز هذا التفريغ في نهر بردى اكثر من اربعة امتار ، ووجد انهُ ينحدر انحداراً كليًّا بالقرب من انطاكية قد يزود البلاد بقوة تبلغ الوف الاحصنة ، ويوجد معدن الكروم في الاسكندرونة والذهب بمقادير ضئيلة في مسيل نهر بالقرب من انطاكية ، والنحاس بمقادير قليلة وفلز المنغنيز الجيد في جبل اللكام او امانوس .

الشهادة بسوريَّة هذا اللواء قبل ان تخلق قضية الاختلاف عليه بين الترك والعرب : قال نابليون ان الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن اسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية ، وقال شيخ الربوة وهو من علماء القرون الوسطى حد الشام من ملطية الى العريش وعرضه الاعرض من منبج الى طرسوس . وعدّ ياقوت الحموي من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وآذنه (اضنه) وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك . وقال ابن حوقل المتوفى في القرن الرابع للهجرة في كتابه (المسالك والممالك) « ان انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق » وجاء في المعلمة البريطانية في طبعتها التاسعة « ان الاسكندرونة تقع على اقصى الساحل السوري الشمالي حيث يؤلف هذا الساحل مع ساحل أسيا الصغرى او الاناضول زاوية . . . . . وهذه المدينة هي ميناء حلب وتكون بطبيعة الحال ميناء سكة حديد تمتد على نهر الفرات » . وجاء في دائرة

المعارف الاسلامية «ان الاسكندرونة او اسكندرية العرب — كما جاء في مخطوطات الاصطخري وابن حوقل — هي ميناء حلب على البحر الابيض المتوسط وانها كانت في عهد العرب تابعة لجند قنسرين — حلب (اي منطقتهما الحربية بحسب تقاسيم تلك الايام العسكرية) وانها هجرت في زمن ابي الفداء ولكنها استعادت بعد ذلك شأنها باعتبارها ميناء لمدينة حلب التي كانت آخذة في الانتعاش» . وقال استاذنا المرحوم شارلي بورتر ان سورية يحدها شمالاً اسيا الصغرى . وقال (بيدكر) ان حد الشام من طوروس الى مصر . وجعل (اليزه ركلو) العالم الفرنسي الجغرافي المشهور حد الشام من جبال اللكام الى طورسينا . وقال (فيتال غينه) ان الفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية على عهد الدولة العثمانية كانت تسمى البلاد التي تحدها جبال طورس شمالاً وصحراء سينا جنوباً «عربستان» او بلاد العرب . وجاء في بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان صديقنا العلامة المرحوم الاستاذ هوجارث عميد جامعة اكسفورد قال «اذا اخذنا سورية كقطر يحده البحر وصحراء الحماد وجبال طورس وصحراء سينا تكوّن لدينا منبسط جغرافي متناسق بحدود طبيعية صريحة وهي وحدة في مظهرها الخارجي . . . . وان مكانة الاسكندرونة ناشئة عن علاقتها مع ممر بيلان ، وهو باب سورية في عهد التواريخ — الذي هو عبارة عن مدخل هين الى سهول سورية الشمالية التي كانت انطاكية وحلب عاصمة لها منذ القدم وكذلك فان الاسكندرونة هي المرفأ المهم لسورية الشمالية . . . . . وان الخصائص الجغرافية التي تتمتع بها انطاكية تجعل منها عاصمة سورية فاليها يتجه الطريقان المباشران من البحر الابيض المتوسط الى الداخل الخ»

﴿الشعوب السامية ولواء الاسكندرونة﴾ ذكر المؤرخان اليونانيان (هيرودتس) و(زينوفون) ان (ميرياندروس) وهي مدينة كانت قريبة من الاسكندرونة كان يقطنها فريق من الفينيقيين ابناء عم العرب ، وجاء في كتاب «مجمل التاريخ» للاستاذ (كوك) ان السلالة السامية — وهي تشمل الارمن والبابليين والاشوريين والعرب والفينيقيين والعبرانيين والموآبيين تسكن المنطقة التي تحدها فيما يحدها من الشمال جبال طوروس . وفي بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مباحث علم اصل البشر التي قامت بها مخابر الجامعة الاميركية في بيروت والتي اجريت في امستردام واكسفورد دلت على ان سكان الجبال في مناطق الاسكندرونة وانطاكية لا يختلفون في شيء عن سكان جبال سورية ولبنان وبلاد العرب الجنوبية ، ولدينا نص تاريخي على ان الملكة زنوبيا التدمرية (الزباء) دخلت انطاكية فاتحة في سنة ٢٦٦ للمسيح وان صورتها نقشت على سكة هذه المدينة ولدينا نصوص اخرى على اتصال العرب بتلك الانحاء منذ القديم . فقد جاء في التاريخ ان عربان البادية هاجموا ضاحية انطاكية في سنة ٤٩٤ للمسيح ، وفي مدينة (الرها) في الشمال كان بيت

(الاغبر) يسيطر على القبائل العربية في شمال سورية ، وبعد ما فتح ابو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف عليه الروم بقيادة ميناس اعظم رجالهم بعد هرقل فالتقى الجيشان في الحاضر فقتل ميناس ومن معهُ فاما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم احد. واما اهل الحاضر فارسلوا الى خالد انهم « عرب » وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم

ومما هو حري بالتدوين ويدل على نوع الشعوب التي كانت تقطن تلك الانحاء وانها سلالات سامية ان ابا عبيدة ابن الجراح لما وصل الى جبل اللكام (امنوس) وهو الجبل الذي يبتدىء من البحر في منطقة الاسكندرونة صالح سكانه (الجراجمة) وهم اصل الموارنة في لبنان — وكانوا يومئذٍ بين بياس وبوقا — على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام — والمسالح جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة

ومن النصوص الدالة على ارتباط هذه المنطقة بسورية ارتباطاً وثيقاً خاصًّا ان السلوقيين كانوا يسمون انطاكية (انطاكية سورية) ليفرقوا بينها وبين المدن اليونانية الاخرى التي تشاطرها هذا الاسم ، ودُعي ممر (بيلان) او ممر (ايسوس) في الوثائق التاريخية (باب سورية)

ولهذه المنطقة شأن عظيم في تاريخ النصرانية فقد دخل هذا الدين انطاكية في سنة ٢٣ للميلاد ومن هذه المدينة انتشر التبشير به في الانحاء وفيها نشأت الخلافات الدينية المذهبية. وفي العهد الروماني ظهر فيها رجل من رجال النصرانية كان لهُ شأن كبير وهو يوحنا فم الذهب الذي اشتهر بصلاحه وطلاقة لسانه ومواعظه التي كان يلقيها على اهل انطاكية الى ان نفي ومات في طريقه الى المنفى ، وكانت انطاكية في سالف العصور مقرًّا لجميع البطاركة وهي لا تزال الى الآن مقرًّا لبطاركة الشرقيين ويطلق عليهم اسم بطارق انطاكية وسائر المشرق والنصرانية هي ابنة سورية والنصارى فيها من صميم السوريين

﴿الوجهة الاقتصادية﴾ تتجلى الوحدة الاقتصادية بين هذا اللواء وحلب بان عاصمة الحمدانيين هي السوق الطبيعية لمنتجات هذا اللواء من خضر واثمار وحرير وفحم نباتي واسماك ، وقرى هذا اللواء وما لها من مناظر خلابة ومياه عذبة وهواء نقي هي المصطاف الطبيعي للحلبيين ، والقسم الاعظم من التجارة الخارجية التي تمر بالاسكندرونة هي اما ان تكون واردة من حلب او صادرة اليها. ودلت الاحصائيات بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٣٣ على ان ٢١ في المائة من مجموع ما دخل مرافىء سورية الاربعة — وهي بيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة — من صادرات وواردات (وبضائع النقل « ترانزيت » داخلة في ذلك) هو من اسكلة الاسكندرونة

﴿النصيرية﴾ هي طائفة العلويين المنتشرة في هذا اللواء وفي الجهات المجاورة له وتسمى النصيرية نسبةً لنصير غلامُ امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وقد انتشر في الكتب التي كتبت عنهم قديماً انهم يؤلهون علي بن ابي طالب ويعتقدون ان مسكنه السحاب حتى اذا مرت بهم سحب قالوا السلام عليك يا ابا الحسن. ويقولون ان الرعد صوته والبرق ضحكه ، وان سلمان الفارسي رسوله ويحبون ابن ملجم قاتله ويقولون انه خلص اللاهوت من الناسوت . وفي بعض الكتب ان كلمة « عمس » المختزلة من علي ومحمد وسلمان هي كلمة المرور بينهم ، وهم يخفون عقائدهم عن غيرهم ويعظمون الخمر ويرون انها من النور. لاجرم انهم يعظمون شجرة العنب ويتجنبون قلعها، ولكن جاء في المجلد السادس من خطط الشام للاستاذ كرد علي ان صاحب « تاريخ العلويين » قال انهم ليس لهم ديانة خاصة بل هم مسلمون شيعيون جعفريون يعتقدون ان الائمة الاثني عشر معصومون من الخطأ وان قول الامام دلالة قطعية وهو لا يمكنهُ ان يخالف القرآن او الحديث ولا يحق لاحد ان يؤول القرآن سوى اهل البيت ، وهم ينتسبون الى طريقة تدعى الجنبلانية وهذه الطريقة هي التي ادت الى افتراقهم عن بقية الاثنى عشرية . وهم فيما بينهم قد تفرقوا الى عشائر وأفخاذ ترجع كلها الى اربعة اصول كبيرة هي الخياطون والحدادون والكلبية والمتاورة

وقد افتى غير واحد من رجال الدين المتأخرين بصحة اسلامهم استناداً الى ما جاء في الحديث « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو منا » والى آيات واحاديث اخرى وفتاوى وردت في كتب الفقهاء المتقدمين

﴿الاسكندرونه﴾ وتقع الاسكندرونة على الطرف الشرقي من الساحل الجنوبي وعلى القرب منها والى الشمال تقع (بياس) حيث تبتدىء الحدود بين تركيا وسورية ، وقدر لي ان زرت الاسكندرونة في سنة ١٩١٢ لما كنت ذاهباً في الجيش العثماني الى حرب البلقان فألفيتها مدينة ذات مناظر خلابة تحيط بها رواب زمردية من جبال الاكام وهي واقعة في منبسط من الارض ويبلغ عدد سكانها في الاحصاء الحديث زهاء خمسة عشر الفاً فيهم العرب والترك والارمن ، وهؤلاء لجأوا اليها بعد الاضطهادات التي ذاقوها في بلاد الترك ، والعرب سنيون وعلويون ومسيحيون من الروم الارثوذكس غالباً . وذكر الذين زاروها في الآونة الاخيرة ان مبانيها مثل سائر مباني المدن الشرقية الناهضة المصطدمة بالمدنية الحديثة منها القديم المرقع والمتداعي والاكواخ التي يقطنها الفلاحون في الجهة الغربية. ومنها الجديد الذي لا يختلف عن مباني بيروت لا بحجره ولا بالآجر الاحمر — القرميد — الذي يكسو سطوحه . وكذلك الحال في طرقاتها وشوارعها فمنها الضيق المعوج ومنها المستقيم المعبد العريض ولها مرفأ صغير في جهتها الشرقية وبالقرب منهُ المكس والمعامل والمستودعات التي بنتها شركتا النفط وعرق السوس

ولما زرتها لم يكن قد تمَّ بعد فرع سكة الحديد الذي يربطها بحلب وهو فرع يمتد منها الى قلعة عجيبة على رأس هضبة تدعى (طوپراق قلعة)

أطللنا على المدينة من ممر (بيلان) او ممر ايسوس وهو الذي دعاه الأقدمون (باب سورية) ومشينا في طريق منحدرة فوجدنا المستنقعات تحيط بهذه المدينة وهـذا سر وباء الملاريا او البرداء التي تفتك بأهليها في أيام القيظ والخريف ، ويبلغ الحر فيها مع الرطوبة في الصيف درجة الاشباع لوقوف جبل اللكام سدًّا من ورائها حتى اذا اصطدم هواء البحر بهذه الجبال تجمعت فيه الابخرة وتكثفت بحيث تحجب قرص الشمس

وأذكر أنني أكلت فيها سمكاً من المرجان مقلوًّا لم أستطب سمكاً مثله وقد اشتريتهُ من طاهٍ يحمل مقلاته ويبيعهُ في الشوارع

بنا هذه المدينة (انتيغون) أحد خلفاء الاسكندر في سنة ٣٣٣ قبل المسيح تخليداً للنصر العظيم الذي أحرزه هذا الملك الجبار على دارا ملك الفرس في معركة (ايسوس) ، ولما فتحها المسلمون في زمن ابي عبيدة بن الجراح وجدوها خراباً يباباً فلم يرد لها ذكر في فتوحاتهم لكنها استعادت سؤددها بالتدريج حتى ان السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد بنت فيها حصناً او صرحاً ربما كان نفس الصرح الذي رممهُ ووسعهُ احمد بن ابي داوود الايادي في زمن الخليفة الواثق وظلّت هذه المدينة ممرًّا للغزاة من المسلمين والروم الى ان استولى عليها الصليبيون فعادت الى الخراب وأصبحت ملجأً للصوص من البر والبحر الى ان طلب التجار الافرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية في القرن العاشر للهجرة ان تجعلها فرضة حلب فأجابتهم الى طلبهم ، وكان لها شأن قبل فتح قنال السويس لان الانكليز اتخذوها اقرب محطة للهند بطريق البحر المتوسط وقد تستعيد هذا الشأن اذا كثرت وتنوعت الطرق التي توصلها بالداخل وفي سنة ١٢٤٨ جاءها ابرهيم باشا المصري بجيوشه وأنشأ فيها مصنعاً للسفن يأتيه بالاخشاب اللازمة لهُ من جبل اللكام. وفي سنة ١٢٩٥ جعلتها الدولة العثمانية قضاء تابعاً لولاية حلب

***

﴿انطاكية﴾ : شادها سلوقوس نيكاتور احد خلفاء الاسكندر الثلاثة في سنة ثلاثمائة قبل المسيح ودعاها باسم والده . ثم استولى عليها الرومانيون فابتدأ حكمهم فيها في سنة ٦٤ ق . م . وتربع على كرسي الولاية فيها اكابرهم « الجولة الاثرية ص ٥٢ » امثال بومبيوس ويوليوس قيصر وانطونيوس : جاء هذا اليها في سنة ٣٨ ق . م . ومعهُ زوجه كليوبترة ، وفي التاريخ ان جوليا دومنا السيدة السورية الحمصية زوجة الامبراطور سبتيموس سفيروس كان لها فضل عظيم على

مدينة انطاكية حين اجبرت ابنها كراكلا المولود في حمص على ان يرد الى هذه المدينة ما سلخهُ والده الامبراطور عنها من الامتيازات . وفي اواخر القرن الرابع للمسيح دخلت انطاكية في قبضة البيزنطيين. وفي سنة ٦٣٨ فتحها المسلمون على يد ابي عبيدة بن الجراح ،

وفي كتاب « الاعلام » للاستاذ خيرالدين الزركلي «ان حبيباً الفهري وهو ابو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي دخل دمشق مع ابي عبيدة فولاهُ ابو عبيدة انطاكية وقد توفى سنة ٤٢ هـ » . ورأت انطاكية الرخاء وتقدمت تقدماً كبيراً في زمن الامويين

وفي اواخر القرن الخامس للهجرة فتحها الصليبيون . ولكن في سنة ٦٦٦ هـ افتتحها عنوة الملك الظاهر بيبرس بعد معركة من اشد المعارك هولاً على السكان ، ثم جاء الفتح العثماني فبقيت في قبضة العثمانيين الى اواخر الحرب العالمية ، ومن المهم ان يذكر القراء ان الاهلين فيها وفي سائر انحاء اللواء استقبلوا الجيش العربي استقبال الفاتح المنقذ وايدوهُ في اعماله . وانطاكية مذكورة في التاريخ دائماً بالزلازل التي كانت تنتابها كالزلزلة العظيمة التي اصابتها سنة ١٨٢٢ . وكان عدد سكانها في زمن ثيودوسيوس مائتي الف ولكنهم كانوا في سنة ١٨٣٥ خمسة آلاف وستمائة يضاف اليهم ستة آلاف جندي مصري بقيادة ابراهيم باشا ويبلغ عددهم اليوم خمسة وثلاثين الفاً . وقد جلب الى هذه المدينة ماء (دفنة) في انابيب حديدية وانيرت بالكهرباء وفيها اربعة وعشرون مسجداً واربع كنائس وكنيس واحد لليهود . وصادراتها الصابون وفيالج الحرير والصوف والحبوب وزيت الزيتون والسمك والقطن والقطران. وفيها صناعات متنوعة للغزل والدباغة والنسج والخشب وفاكهتها من اجود فاكهة. وذكر لي صديق من اهلها ان اربع خوخات — دراقنات — من خوخها تزن اقة كاملة ، وهذه المحصولات لا تباع في اسواق حلب فقط بل ان فاكهة انطاكية تزاحم فاكهة الشام في اسواق بيروت ايضاً. واذا صحت الاخبار التي تناقلها البرق اخيراً وأفاضت في ذكرها الصحف من ان في هذا اللواء ينابيع للنفط بالقرب من الاسكندرونة متصلة في جوف الارض بينابيع الموصل فسيكون لهذه الينابيع شأن خطير في مصير هذا الجزء من بلادنا العزيزة

***

لقد آمنت بالحق قبل ان أؤمن بالوطن ولو لم اعلم ان هذا اللواء جزء من سورية العربية لايتجزأ ما تنزلت للوقوف هنا أرهق أسماعكم الحساسة وأُضيع أوقاتكم الثمينة بالدفاع عنهُ فالحق اولاً ، والوطن ثانياً ، ومن لا يؤمن بالحق لا يؤمن بالوطن

حديقة المقتطف

بوشكين

أمير شعراء روسيا

لحليم متري

اوجين اونيل

من مسرحياته « فصل معترض »

لفؤاد عيتاني

*



قيصر صادر

صاحب الرسالة النفيسة في «الحضارة الحثية» التي نشرنا خاتمتها في هذا الجزء



بوشكين

« أمير شعراء روسيا »

لحليم متري

عصر الشاعر

غزا نابليون روسيا عام ١٨١٢ واعتبر المؤرخون غزوته اكبر ظاهرة في تاريخ روسيا الحديث الى ان وقع الانقلاب الشيوعي . ولقد أثار توغل الجيش الفرنسي في روسيا الشعور القومي بل كان سبباً مباشراً للثورة النفسية الفكرية بل لتلك الزوبعة السياسية الخطيرة التي غامت فيها سحائب الخصومة واتقدت في نفس الشعب السلافي المجيد الحمية الوطنية . فاشترك الفرد والجماعة في غاية واحدة نبيلة هي دفع المعتدي للاحتفاظ باستقلال الوطن . ولقد أتيح لقادة الجيش كما أتيح لقادة الجماهير ان يضطروا العاهل العظيم « نابليون » الى الارتداد عن روسيا بعدما عانت جيوشه شتى المصاعب وبعد ان احتمل الجندي الفرنسي ألم الجوع في شتاء قارص البرد شديد الزوابع الثلجية . أما « موسكو » فقد أحرقها أهلها وأما نابليون فقد رجع الى باريس لا يلوي على شيء . .

ولقد كان الشباب في روسيا يتطلع الى « باريس » حيث انبثق فجر الفلسفة الحديثة والافكار الاجتماعية الجديدة . ولقد كان الشباب يميل بحكم مظهره آنئذٍ الى تلك الاريستوقراطية المحافظة بل الى تلك المظاهر الخاصة بالبلاط الروسي

استطاع الأدب ان يكون مظهراً عظيماً من مظاهر الحياة الاجتماعية بل كان الأدب خصباً منتجاً ووديعة مقدسة بين أيدي الشباب . ولقد نشأت في هذا العصر تلك الخصومة الخالدة بين المحافظين على آداب القرون الوسطى ونزعاتها المختلفة وبين اصحاب الجديد ممن يرون الحياة كما هي لا يعيشون على الماضي ولا يتخذون من القديم معبوداً . ولعل الشاعر «جريبوميدوف» يتحدث في شيء من السخرية في قصته الرائعة التي عنوانها « الهم من الذكاء » « Woe from Wit » عن هذه الخصومة الادبية

ولقد تألفت جماعة من شباب روسيا وبعضهم من الحرس القيصري ينادون بحرية الفلاح والدستور . على انهُ لم يمض ديسمبر سنة ١٨٢٥ حتى شنق منهم خمسة من بينهم الشاعر المعروف «ريليف» وعرفوا بالديسمبريين فكان ذلك صدمة قوية هزت الادب واصابتهُ في الصميم سددها الى الديمقراطية القيصر « نيقولا الاول »

كان الأدب في اوربا إبان تلك الثورة الاجتماعية في روسيا بالغاً شأواً عظيماً بل كان نبراساً يضيء ظلمات ذلك العهد الذي تمثل فيه الطغيان بصورة من هذه الصور « الاقطاعية » البالية . وطبيعي ان تنتقل الفلسفة في شتى مناحيها والادب في مختلف صوره الى روسيا حيث هذا الروح الأدبي الناشيء في ساحة الجهاد. وهنالك نشطت الدعاية للتفكير الحديث وللأخذ بأسباب الرقي العقلي . وبلغ الشعر في هذا العهد مكانة رفيعة بل قد بلغ كماله المرموق في امير شعراء روسيا الشاعر العبقري « الكسندر سيرجفتش پوشكين » الموصوف بالمتنبي

وُلد «پوشكين » في موسكو في ٧ يونيو وفي رواية اخرى في ٢٥ مايو سنة ١٧٩٩ وكان أبوه نبيلاً وأمهُ تمت الى ابراهام هانيبال الزنجي الأفريقي الذي قربهُ بطرس الاكبر فورث منهُ شعرهُ الجعد ومزاجه الحادّ . تلقى علومه في مدرسة تساركو سيلو على مقربة من بطرسبرج وكان يكثر من الاطلاع في مكتبة أبيه الزاخرة بالمؤلفات الفرنسية . كان يجيد عدة لغات يطلع على آثارها ويكلف بما احتوتهُ من آثار علمية وأدبية . وعرف عن اخلاقه الاستهتار والسخرية والاسراف . ولقد حوى شعره كثيراً من هذه السخرية التي تميز بها طبيعة بعض الشعراء

نشرت قصائده الأولى عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٠ نشرت قصتهُ الشعرية البليغة « رسلان ولودميلا » وفي السنة نفسها عين في منصب في « بيسرابيا » بجنوب روسيا انقاذاً لهُ من النفي الى سيبيريا وكان الباعث على نفيه قصيدة في «الحرية » اذاعها مخطوطة. ولقد أتيح لهُ وهو في القوقاز ان يستوحي روعة تلك البلاد . فكتب « سجين القوقاز» وهي قصة شعرية تصف غرام فتاة شركسية بضابط روسي. وفي عام ١٨٢٤ عاد الى قرية أبيه في « بوسكوف » بعد ان نظم قصيدة رائعة في البحر عند مغادرته اودسا . وهنالك قضى سنتين كتب فيهما أدعى مخلفاته الادبية للخلود ومن بينها ذكريات حياته التي أودعها الشعر كما كتب قصته الطريفة « أوجين

أونيجين» وانك لتلمس في بداءة هذه القصة الروح الشعري الذي تأثره پوشكين كما تستطيع ان تلمس في يسر وسهولة «روح» الشاعر الانجليزي بيرون. ولقد كان « بيرون » عـوذجاً رفيعاً تمثله الشاعر في مناحي شعره بل كان الصخرة البارزة التي قام عليها نبوغ الشاعر « پوشكين » . لم يتأثر پوشكين في بيرون نزعته الرومانطيقية بل كانت « الواقعية » هدفه الأسمى . ولعلك واجد أثر هـذا في « كونت نولين » بل في «أوجين أونيجين» فهي وحي روسيا في نفس الشاعر وما استطاع ان يعثر عليه فيها من مثل صادقة هي الحياة الواقعة نفسها . بل انها لتشبه في كثير تلك الحياة التي كان الشاعر نفسه يحياها والتي يصور فيها الاجتماع الروسي بأجلى بيان . ولقد كتب مأساته الكبيرة « بوريس جودينوف » عام ١٨٢٥ وبعدها بعام واحد انعم عليه القيصر بالعفو العام . وعين مؤرخاً للقصر عقب أن تزوج « نتاليا جونشاروفا » عام ١٨٣١. ولقد كتب يومئذٍ تاريخاً لثورة « پوكاشيف » . كما كتب قصة «ملكة البستوني» عام ١٨٣٣ وقد نشرنا ملخصها في مقتطف فبراير الماضي . وكذلك كتب «ابنة القبطان عام ١٨٣٦ » . ثم بارز « هيكرين دانتيس » في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧ وكان هذا الرجل عديله ولكنهُ أثار غيرة پوشكين بما وجههُ الى زوجتهِ من العناية . الاّ ان دائرة المعارف البريطانية تنكر ان بواعث هذه الغيرة كان لها ما يؤيدها . وأسفرت المبارزة عن جرح پوشكين جرحاً بالغاً فتوفي بعد يومين متأثراً بهِ

الشاعر

كان پوشكين محبًّا للجماعة لاينقطع عن المجالس الأدبية يكلف كلفاً شديداً بالمرأة وقصص حبهِ قبل زواجه اشبه ما تكون بالاساطير الآن . والمرأة ما برحت صورة من صور تفكيره وخيالاً لايبرح مخيلة الشاعر . بل هي ما برحت مصدراً من مصادر الوحي الفني الذي لا ينضب لهُ معين

جهد پوشكين في ان يجعل شعره مثلاً رفيعاً لطبيعة التأليف بين الحقائق . كان رجلاً بعيد النظر تتصل شاعريته بهذه المعاني العميقة التي يوحي بها الأدب ولا عجب فقد قال عنهُ «جوجول» «ان پوشكين لظاهرة غريبة بل انهُ تلك الظاهرة الفريدة للروح الروسي ». وقال عنهُ دوستويوفسكي «ان النبوة لتتمثل في شاعريته». وحقـًا لقد

عرف ان ينفذ الى الوجدان الانساني . وان كان قد استلهم الفن الاوروبي الشعري الاَّ ان طابعه الروسي لم يفارق خواطره التي تتصل بقلبه الكبير . كل شيء في حياة الشاعر لهُ منحاه الشعري ولعل الشاعر نفسه وحدة تلك القصيدة الكبيرة . قصيدة الكون والحياة . وشعر پوشكين نسيجه العاطفة الانسانية بل العاطفة الالهية والخيال والذوق . ان بطرس الاكبر قد اضطلع بجهود مضنية في سبيل الاصلاح الاجتماعي واما پوشكين فقد وصل الينا في هذا الجيل لتقرير الوجدان واثبات الروح الانساني . وان قصائده لمصباح قوي ينير ظلمات النفس ويحمل للحياة الاجتماعية والعقلية رسالة الفكر الموهوب وإذن پوشكين نبي مكرم . . . »

إستمد پوشكين شاعريته من معينين . الاول اقطاب الادب الاوروبي لا سيما الكتّاب الفرنسيين الذين هيمنوا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر . والثاني الثقافة الانجليزية التي قامت على « بيرون » « وشاكسبير » «وسكوت» . واما وحي « شاكسبير » فأنت تستطيع ان تجده في قصة « بوريس جودينوف » تلك الدرة الثمينة في الشعر المرسل . ولعل ما فيها يشبه من وجوه كثيرة قصة شاكسبير « الاوقات العسيرة » . ففي « بوريس جودينوف » تحس تهديد دمتريوس لموسكو وعلى رأسها بوريس المظنون انهُ قاتل « تسارنتش ». ولقد عالج پوشكين تلك القصة لتطابق تاريخ « كارامزن » وهي تبين مدى العذاب النفسي الذي يثقل حياة المغتصب الظالم وخطر يوم الدينونة الذي يقترب منهُ . أما قصته « الغجر » « The Gipsies » فيتمثل في بطلها اليكو « Aleko » جماع النظرة الاجتماعية في النفوس الانسانية المسكينة التي يضمها الشعب الروسي . وان هؤلاء الفقراء الذين ينتقلون من بلد ليرتحلوا الى آخر نشأوا أحراراً لا يتقيدون بهذه القيود المدنية ولا يعرفون شيئاً عن اوضاع الحياة التي تفرض على المجموع . انهم بعيدون عن كل تهذيب أو تعليم الاَّ تلك الثقافة البدائية التي يتوارثونها . وهذا پوشكين بلسان «اليكو» ينادي الكبرياء ليسخر منها فيقول ألا فلتشيحي وجهك عنا ايتها المتغطرسة . فقد خلقنا ابطالاً لا نحفل بقانون . وانما لا نبتغي ان نعذب أو نعاقب انساناً . ولعل المعنى المقصود انهم كالنهر السيال يصادف السهل الدهاس فيجري ويجيء على المكان الصخري ليرتطم به وأنهم اصحاب دماثة خلق وعزة نفس لا ينزعون الى مهانة

أو يقبلون ضيماً . ولقد رثى « پوشكين » طبقة الاشراف بهذا التنديد الذي نطق به « اليكو » ويقول پوشكين عنهم « ما أسخف هذه النفوس التي تخرج الى هذا الوجود لتقضي بضعة اعوام فتضيع نصفها في تقدير منازلهم من نفوس الغير . انها لخسة الرياء». وليس «اليكو» الا فتى ترك حياة المدن ونزح الى طائفة من هؤلاء «الغجر» فكان ضيف الشؤم عليهم — وهو على حد تعبير « دوستويوفسكي » ممن تزيد بهم الحاجة واختتمت حياتهم بالاخفاق واستوعبهم الادب الروسي الحديث

كان پوشكين من دعاة الاشتراكية وهذه خواطره تنساب فيها صوفيته الانسانية وعطفه الكريم بل تلك هي هواتفه الخالدة التي تنادي بتحقيق «النفسية الروسية» التي تضمن للفرد حريته ومتعته امام ما يمكنهُ ان يأتيه من خير للجماعة . والنفسية الروسية قائمة على التجديد في أساليب الاجتماع حتى تمهّد الحياة للانسان فرصة من السعادة المنشودة . هي تسعى جهدها نحو الحرية في اقصى حدودها واعمق معانيها . لا يجب ان يحتمل الشعب « الكبرياء المزيفة » التي يتصف بها رجال الدين أو اصحاب السلطة انما يجب ان يأخذ بلباب الدين وهو التسامح والتقوى وان يعمل الحكام لخير الشعوب . ولقد كان پوشكين قطباً من اقطاب الشعر الغنائي وقد اعترف ملحق التيمس الادبي ان ترجمتهُ متعذرة لان الوحدة بين معانيهِ وشعوره وأسلوبهِ لا تنفصم الا ويضيع سرُّ الجو الذي تخلقهُ نيرانهُ المتناسقة

وهاك مقطوعته الصغيرة « احببتك » ففيها يقول

«انني أغرمت بك وهاكِ اعترافي التيه بين يديك الآن . ان ذكريات حبك لما تزل تلهبني ولست احب ان تنتهي بك الى شيء من الألم . فأنا لن أرجو لك مفاجأة أخرى . لقد انطفأ سراج املي وعقد لساني ولكن قلبي يفيض بهذا الحب الذي تعتز بهِ نفسي . فيه استوى رأي الحسود والطيب . اني لاستمد حبك من فيض القلب فياحبذا لو تسعدين بعاطفة كعاطفتي »

ولقد اكبر العالم شاعرية پوشكين لما فيها من روعة وروح . انها عيون ثرة للقلوب المتعطشة للجمال والحق ، بل هي انجيل الرحمة . وان خواطره لتصدر عن قلبه الغني الى المجتمع الروسي كالورد النضير يجلو الندى في بهجة الصباح او كالنرجس الغض اذ يبكي في ظلال المساء

من مسرحيات « اوجين او نيل »　　　　حائز جائزة نوبل الادبية ١٩٣٦

فصل معترض

Strange Interlude

« اما الانسان فضعيف بائس ، وألعوبة
في ايدي القدر ، ولكنه يشقى ويتألم بمهابة
وجلال ! »　　　　سدني دارك

يقول « تشارلز لام » : « الملهى ألذ تسلية » ، ولا بأس ان يضحك الانسان ويسر ويمتع نفسه بمسرات الحياة ولهوها ، على أن يكون في ذلك معتدلاً حكيماً . ويرى « برنارد شو » أن الملهى يجب ان يكون « معملاً للتفكير وحانياً ومنهجاً للوجدان ، ومظهراً للسلوك الاجتماعي ودرعاً واقية من البلاهة واليأس ، ومعبداً لارتقاء الانسان » ويقول في موضع آخر : « إن الملهى مكان لا يرتاده الانسان إلاّ لينسى نفسه ، حيث يكون قد جُذِبَ اهتمامه وأُثيرَتْ عواطفه الى أقصى درجات الاستعداد والنشاط ، وتلاشى وعيه »

ولقد كانت المسرحيات عند قدماء الاغريق من اسمى انواع الادب وفنونه ، تعنى بالمسائل الاساسية الهامة التي تشغل حياة الانسان ، فكانت صوراً لفلسفتهم ومظهراً لآرائهم في الحياة ، وهي التراث الخالد الذي أبقوه اثراً حيًّا في الادب العالمي ، كمسرحيات صفوقلس واسكيلس ويوريبيدس . وما تبقى منهُ ليس الا جزءاً ضئيلاً من تفكير ذلك الشعب العريق وأثراً نفيساً من عبقريته التي بقيت على مرّ العصور ، فكانت أساساً لمدنية اوربا وثقافتها العقلية

ولعلّ اروع مظهر من مظاهر الدراما الحديثة ان المؤلفين المسرحيين يعملون ما في استطاعتهم للتعبير عن خفايا النفس الانسانية ومراميها ، واظهار الافكار على ملامح الوجه قبل النطق بها . وهم يسعون بواسطة « الملهى » — المسرح — ليس للتعبير عن حقائق الحياة الظاهرية فحسب ، بل ولبيان المشاعر والافكار الخفية التي هي العامل القوي في حياتنا

العملية . وهم يبغون بذلك النفوذ الى ما وراء هذه الحياة العادية التي نحياها للوصول الى اعماق النفس الانسانية والارتشاف من مصادر الفكر الصافي والينابيع المجهولة المتدفقة نوراً وفكراً سامياً . وبعد فهذه رسالة « اونيل » التي يعمل من اجلها — بواسطة شخصيات مسرحياته — لاظهار العالمَيْن المختلفين اللذين يحيا بهما الانسان — العالم الظاهر ، عالم الحقيقة والواقع ، و — العالم الخفي — الذي يتستر وراء الانسان، عالم الاحلام والافكار المنبعثة كما يبدو ذلك في مسرحيته Strange Interlude

فكيف اذن حاز « اونيل » هذه الشهرة العالمية وامتاز على اقرانه وزملائه بمسرحياته الرائعة ؟

أَلمْ يكن — كما قال (كلود برتون) :— « فريداً ممتازاً بقصصه حين رسم لمعاصريه صوراً حقيقية متنوعة لحياة الشعب الاميركي ، وصفحات ملونة من آماله وامانيه ، واذواقه وعاداته ، وآلامه وشقائه ، مما لم يتسنَّ لمؤلف مسرحي قبله عرض هذه الصور المختلفة على المسرح بقوة وصدق وجاذبية ؟ ! »

***

نصل الآن الى نقطة هامة في تطور شخصية اونيل الادبية ، بعد تنقله بين المذاهب الفنية المختلفة ، فاذا بنا عند مسرحيته الفريدة (فصل معترض) Strange Interlude . وهي قصة «امرأة واربعة رجال» وتطورها في نواحي الحياة المتقلبة ، وهي مسرحية طويلة ذات تسعة فصول ويستغرق تمثيلها خمس ساعات . جرت وقائعها في اميركا وتمتد خمساً وعشرين سنة . وتظهر هذه المسرحية مُعَبِّرَةً بالاحاديث النفسية الداخلية لكل شخص من اشخاص القصة على حدة ، وذلك بعد ان يقول كل شخص دوره في القصة بصوت عال ، يلتفت جانباً ويقول وكأنهُ يناجي نفسهُ ما يدور في نفسهِ . ومن ميزاتها انها تزخر بالقوة والحياة ،فنشعر بها كأننا امام امر واقع . فهي تؤثر في المشاهدين والمستمعين تأثيراً قويًّا ، حتى ليشعر هؤلاء حين انتهائها انهم امام قصة حقيقية تمثل وتجري وقائعها في الحياة وليس على المسرح

تحلل لنا هذهِ المسرحية ، وهي مأساة متشابكة الحلقات ، نفسية امرأة معذبة بائسة . فهي قصة حياتها وحبها ومغامراتها . وخلاصتها : ان (نينا) Nina وهي ابنة

أستاذ من (نيو اكلند) في اميركا ، خُطِبَت الى طيار اميركي اسمه (غوردون) Gordon قُتِل في الحرب الكبرى . وكان قد نصحهُ ابوها ان لايتزوج من (نينا) قبل عودته سالماً من ساحة الحرب ، خوفاً على ابنته ان تبقى ارملة فيما اذا لم يعد زوجها . وكذلك ذهب (غوردون) وحارب في فرنسا ، ولكنه لم يعد كألوف مثله ، فحنقت الفتاة على ابيها حنقاً عظيماً ، لانهُ مانع من زواجها بمن تحب ، وقضى على آمالها وهي تحلم بحبيبها وخطيبها المفقود !

يرفع الستار في الفصل الاول عن بيت الاستاذ حيث نجد (تشارلز مارسدن) Charles Marsden وهو قصصي مشهور وصديق للعائلة من زمن طويل . عاد من اوربا ، وهو أعزب متعلق بأمهِ ومخلص لها الاخلاص كله ، وهو يحب (نينا) ويتودد اليها بيد انهُ لأسباب نفسية ، لم يصرّح لها بحبه ، فهو حيٌّ خجول ، ذو شخصية عجيبة ، نكاد نراه في كل فصل من فصول المسرحية ، يحوم حول المأساة ، وكأنهُ يشعر بها ، ولكنهُ يحجم عن الولوج في هذا المأزق . فهو في بيئة مشبعة بالمؤامرات والحقد والشحناء .

ثم ان (نينا) تصاب بحالات عصبية شديدة وعلى وشك ان تفقدها عقلها . وهي تعلن حنقها الشديد وتنفر من أبيها الذي قضى على احلامها فتقرر الانتظام ممرضةً في احد المستشفيات لمواساة الجنود العائدين من ساحات القتال ، و توقف نفسها على خدمة الجرحى ذكرى لحبيبها المفقود (غوردون) !

وأما في (الفصل الثاني) فاننا لا نزال في بيت الاستاذ ، وهو الآن مريض ينازع سكرات الموت ، وحولهُ (تشارلز مارسدن) صديق العائلة يعتني بهِ بانتظار (نينا) . تدخل (نينا) بيت أبيها ومعها الدكتور (ند دارل) Ned Darrell احد أطباء المستشفى ، و (سام ايفنز) Sam Evans ، وهو شاب معجب بها ويحوم حولها

اما الدكتور (دارل) فهو بعيد عن تأثير العاطفة الجنسية ، ولا يهتم بالنساء كثيراً ، ولكنهُ شديد الكراهية لتشارلز مارسدن ويبغضهُ بغضاً شديداً . فهل تكون (نينا) سبباً لذلك ؟! . . .

(نينا) مريضة النفس واهنة ، منهوكة القوى ، حزينة يائسة . تنتابها أوجاع مقلقة ، فيشير عليها الدكتور (دارل) بالزواج لتضع حداً لآلامها النفسية المبرحة .

وحينما تسأله (نينا) تمّسن تتزوج ، يوصيها بصديقها الشاب (سام ايفنز) فتقبل نصيحته ويتزوجا

تمر على هذه الحادثة سنة ، تزور بعدها (نينا) وزوجها بيتَ حماتها (ام سام ايفنز) ، فتفشي هذه لها سرًّا عائليًّا ، وهو ان في العائلة مرضاً وراثيًّا عُضالاً ، قضى على ابي سام وجده وأبيهِ بالموت في مستشفى المجانين ، وتطلب الى نينا ان لا يكون لها أولاد . ولكن هذا الانذار يأتي متأخراً ، وأم (سام) قاسية القلب وتريد ان لا يكون لابنها أولاد ! وأمانينا فهي على العكس من ذلك ، تحب ان تكون سعيدة وان يكون زوجها مغتبطاً بها ، فاذن يجب ان يكون لها ولد ولو كان من شخص آخر ! ؟

يمضي الزمن ، والوقت يمر بسرعة . خرجت (نينا) من المستشفى والولد لم يولد بعد ، وزوجها (سام) قلق الخاطر مضطرب البال ، يشعر بالكآبة واليأس ، فقد تغيرت طباعه واضطربت حياته ، وخبت من نفسهِ جذوة النشاط ، فلم يعد قادراً على العمل وكتابة الاعلانات (في المحل الذي يعمل فيهِ) فينذره اصحاب المحل ويهددونه بالطرد اذا لم يعُدْ الى الاهتمام بعمله . ومع ان (نينا) بدأت تشعر الآن بنفور من زوجها (سام) ، الاّ انهُ لا يزال له في قلبها بعض الحب ، فهي تريده (ان يكون سعيداً)، وتشعر انها بعملها هذا انها ترضي روح خطيبها الاول (غوردون) وهي ما زالت عالقة بحبه ، وان كان هو قد صار رميماً تحت التراب ! . . .

فكيف العمل اذن ؟ .. واخيراً تفتق لها الحيلة مخرجاً صعباً من هذا المأزق . فهي تصرح بكل شيءٍ للدكتور (دارل) وتقنعهُ ان يكون هو اباً لولدها الذي تريده وتحلم بهِ ! اما الدكتور فيقبل اقتراحها بطيبة خاطر — ولكن كعالم فقط ، لا تهمهُ الاّ حقائق العلم المجردة ! — اما انهُ يشعر حقيقةً بحب وجاذبية نحو (نينا) فهذا مما لا شك فيهِ ! !

ثم ترجوه (نينا) ان يطلع سام على القصة كما هي وان يشدد عليهِ بطلب الطلاق منها ، بيدَ ان (دارل) وهو على وشك ان يعمل بما طلبت منهُ (نينا) يتريث قليلاً ، اذ تتراءى له مغبة هذا الامر وما سيؤول اليهِ حال سام فيما اذا عرف الحقيقة ، ولذا يغتنم فرصة غياب (نينا) وخروجها من الغرفة فيخبر سام انهُ سيكون أباً عن قريب ،

ويترك رسالة (لنينا) يعلمها بعزمه على السفر الى اوربا

تمر سنة على هذه الحادثة ، فيجد سام عملاً ويصبح رجلاً نشيطاً مجداً عاملاً ولا سيما بعد ان رزق ولداً ، فأصبح يفخر بحياته العائلية وعمله النافع ، قليل الاهتمام بالحوادث العامة . ولكن (دارل) يعود فجأة ، فيخبرها (تشارلز) عن (دارل) ويعلمها بشؤونه واعماله ، و(نينا) لا تزال تحبهُ ، واما هو فقد خمدت عاطفته نحوها

ويلي ذلك مشهد رائع مؤثر ، ربما كان اجمل ما في القصة ، حيث تجتمع (نينا) واصدقاؤها الثلاثة ، يتحدثون بصراحة والطفل (غوردون) في الطبقة العليا من المنزل يشرف عليهم . ويتحتم على (دارل) أن لا يعترف بأن (غوردون) ابنه ، لذلك نراه يبتعد عن هؤلاءِ ويذهب في مهمة الى (پورتوريكو) للاشتغال ببعض المسائل العلمية هناك

وتمضي عشر سنوات يتقدم خلالها (سام) ويتخذ له مقرًّا في(بارك افنيو) وهو لا يتميز عن غيره من رجال الاعمال في اميركا ، بوجهه الاحمر المورد ، واعتداده بنفسه وشموخ انفه !

ثم يعود دارل ويجتمع بنينا والولد (غوردون) الذي يكره عمه (!) الدكتور (ند دارل) كرهاً شديداً ، ولكنهُ لا يعرف سبب ذلك البغض والنفور ، وفي الوقت نفسه يحب أباه (!) سام . . . وأما (نينا) الشقية البائسة ، المعذبة المتألمة ، فتعيش في جوٍ حافل بالاكاذيب والدسائس والخداع ، وتسعى لاكتساب ود (دارل) ليعود اليها . وفي خلال ذلك يرى (غوردون) الصغير أمهُ تعانق(دارل) فتثور العواطف في نفسه ويأتي بالسفينة الصغيرة التي أهداها اليه دارل ويلقيها على قدميه فتتحطم ، ويعلمُ الاثنين انهُ سيخبر اباه (!) سام بما شاهد منهما .

نصل الآن الى الفصل الذي قبل الاخير وقد جرت حوادثه بعد بضع سنوات ، على اليخت الذي يخص (سام) فنرى (غوردون) وهو يقوم بدور في المسابقات المائية مختاراً من قبل (الجامعة) التي يدرس فيها ، وهو خطيب الآنسة (مادلين) وهي الآن في اليخت مع (سام) و (نينا) و (دارل) و (تشارلز) يشاهدون المسابقات التي يشترك فيها (غوردون) . (دارل) و (تشارلز) يلاحظان بدقة كل حركة تصدر من (نينا) . انها تفكر في (مادلين) — خطيبة ابنها غوردون —

لانها ستتزوج منه وتحرمها من ابنها ، وهو رمز لحبها واخلاصها لحبيبها الاول الطيار (غوردون). ولذلك فهي تعزم على ان تُعْلِمَ الفتاة (مادلين) بالمرض الوراثي المتأصل في اسرة (ايفنز) لتحول بينها وبين الزواج من ابنها ، بيد ان (تشارلز) وقد لاحظ عليها ذلك ، وفهم ما عزمت على عمله وقوله ، يتدخل في الوقت اللازم ويمنعها من الكلام

انتهى السباق ، واذا بغوردون هو السابق ، فتستولى عندئذ على سام غمرة شديدة من الهياج والفرح فيقع مغشياً عليه ، وتنسى (نينا) في تلك اللحظة نفسها وهمومها ، فتبكي منتحبة فوق سام

واخيراً فنحن في حديقة منزل (ايفنز) في (لونغ ايلند) ، واذا بسام قد مات وجاءت (مادلين) وخطيبها (غوردون) بالطيارة لمشاهدة (نينا) . ويشاء القدر ان يعود (دارل) فجأة من مقرّ عمله في (پورتو ريكو) ، و (تشارلز) موجود كالمعتاد (في هيجة الزحام !)

نشاهد الآن منظراً مؤثراً حيث يعلن (غوردون) كل ما بنفسه من حقد وضغينة نحو (دارل) — ابيه — ثم يهجم عليه فيلطمهُ . عندئذ تصرخ (نينا) وتقول

— غوردون ! . . . ماذا فعلت ؟ انك تضرب اباك . . .

فيلتفت غوردون الى امهِ متعجباً ويقول

— هذا ما كان يشعر به ابي لو كان حيًّا . أَو ليس العم دارل خير اصدقائهِ ؟ !

اما السر فلا يزال خفيًّا مكتوماً . . . .

ويسافر بعد ذلك بالطيارة (غوردون) وخطيبتُهُ (مادلين) . وتمر الطيارة محلقة فوق الحديقة فتتذكر (نينا) حبيبها الأول (غوردون) الطيار . الذي كان لهُ في نفسها اعمق الاثر ، وكانت لهُ دائماً مخلصةً وفيةً ، فيصرخ (دارل) ويمتزج صراخه بهدير الطيارة قائلاً : « إِنَّكَ ابني يا غوردون! » ثم يتوارى عن الانظار وتبقى (نينا) مع (تشارلز) وقد ماتت عاطفتها وخبت الى الابد جذوة حبها ! اما تشارلز فلم يخفق قلبه يوماً للحب . وتمنى (نينا) من (تشارلز) وهو الوحيد الذي بامكانه الآن ، ان يُسبغَ عليها نعمة الحياة الهنية والعيشة الرضية !

تلخيص وتعليق : فؤاد عنتابي

مكتبة المقتطف

مع المتنبي

بحث للدكتور طه حسين بك في جزئين عدد صفحاتهما ٧١٦ من القطع المتوسط
نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

كانت الذكرى الألفية لوفاة المتنبي حافزاً قويًّا لدراسة هذا الشاعر دراسات جديدة تتفق وروح هذا العصر فهبّ أبناء العربية في مختلف البقاع والامصار يحيون هذه الذكرى ويميطون اللثام عن سر عظمة المتنبي . وكان ان أرصدت هذه المجلة لأول مرّة في تاريخها عدداً خاصًّا تولى اخراجه كاتب واحد هو الاستاذ محمود شاكر . وقام على أثره كتّاب آخرون يحللون هذه الشخصية الفذة . وكان آخر ما صدر كتاب الدكتور طه حسين بك . وقد قسم بحثه الى خمسة كتب . فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه حداثة المتنبي وشبابه وبدأه بالكلام في نسب الشاعر غير انهُ لم ينتهِ الى قرار في هذا الموضوع كما خلص الأستاذ شاكر من بحثهِ الى قرار في صلة نسب المتنبي بالعلويين . ثم تكلم الدكتور عن الحياة الاسلامية عند مولد الشاعر فلخص ذلك البحث النفيس الذي عقدهُ عن هذا العصر في كتابهِ « ذكرى أبي العلاء » ثم انتهى منهُ الى الكلام في طفولة المتنبي فخالف فيهِ مفسري دخول المتنبي مدرسة من مدارس العلويين في ما فسروا بهِ ذلك . وعنده « ان الارستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة لم يكونوا يرسلون ابناءهم في طور الصبا الى المدارس العامة وانما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين فاذا شبوا خلّوا بينهم وبين الاختلاف الى مجالس العلم في الاندية والمساجد الجامعة . انما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم الى هذه المكاتب والمدارس » . وان اختلاف المتنبي الى مدرسة من هذه المدارس لا يدل عنده على امتياز خاص وانما يدل على الاتجاه الديني الذي وجه اليهِ الصبي . وقد تناول بالتحقيق الخصال الثلاث التي ظهرت في شعر المتنبي الذي قالهُ في صباه وهو يختلف الى المكتب كما تناول بالدرس والتحليل شعر المتنبي في طرابلس وفي اللاذقية واستعرض ما قالهُ من الشعر الحاد العنيف الذي انتهى بهِ الى السجن في حمص وما قالهُ بعد خروجه منهُ .

واما الكتاب الثاني فتناول فيهِ حياة المتنبي من خلال شعره في ظل الامراء من الاوراجي حتى ابي العشائر كما تناول في الكتاب الثالث حياة هذا الشاعر في ظل سيف الدولة . وهذه الفترة من حياة المتنبي هي « خير أعوامه وأخصبها وأغناها وأكثرها حظًّا من الانتاج المختلف المتنوع » وقد وجد الشاعر في سيف الدولة وملكه تأييداً لنزعته القومية وما كان يشتهي من نفوذ عربي قوي وصادف عنده بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة فلاءم بين نفسه وبين هذه البيئة . وقد حلل الدكتور شعر المتنبي في سيف الدولة ومرثياتهِ لاقاربه وخاصته ووصف حروبهِ

يخالف صديقنا شاكراً فيما استنبطه من غرام الشاعر بخولة اخت سيف الدولة من خلال مرثيته فيها ورد الدكتور قوة هذه القصيدة الى الحنين المتصل بين الشاعر وسيف الدولة بعد ان فارقهُ وانهُ لا يفهم من هذه القصيدة الاَّ ان الفقيدة كانت تبر بالشاعر وتحسن اليهِ عن بعد كما كانت تحسن الى غيره من القصاد وأهل الادب . وقد انتهى في هذا الكتاب الى آخر حياة المتنبي في ظل أميره فصور لنا مالاقاه الشاعر أخيراً في هذه البيئة من مكائد ودسائس فرحل عنها ليبدأ حياة جديدة في ظل كافور ولم يكن الشاعر يقدر خدعة كافور حين استدعاه اليهِ فاستجاب دعوته تحثه اطماع واماني مالبثت ان ذهبت مع الرياح وكان لما لقيه من خيبة الأمل اثر قوي في شعره ظهر فيما تناول بهِ كافوراً وبيئتهُ المصرية بلاذع القول ومر السخرية . وقد تناول المؤلف كل ذلك بالبحث والتحقيق في كتابه الرابع

اما الكتاب الخامس فقد مثل فيه حياة المتنبي الاخيرة بعد فراره من كافور حتى لقي حتفه وقد انتهى فيه المؤلف الى رأي خاص او خاطرٍ ألحَّ عليه — كما يقول — هو ان المتنبي لم يذهب ضحية القصيدة البائية الفاحشة ولا ضحية جشع في ماله او متاعه وانما أدى موته الى القرامطة والى العرب ثمن خيانته التي اقترفها في الكوفة وسجلها في نفسهِ في شيراز وعاد وفي نفسهِ ان يمعن فيها ويباهي بها ويملأ الارض اذا انتهى الى بغداد

هذه نظرة سريعة في هذا الكتاب النفيس ولولا علمنا انهُ أُلف والدكتور مصطاف في اوربا وهو بعيد عن المراجع لكنا طالبناهُ بذكر المؤلفين المحدثين والمتقدمين عند نقد آرائهم بدلاً من اسنادها اليهم اجمالاً وتعميماً ولعله يفعل ذلك في طبعة تالية ان شاء الله . . .

مجلة الشرق

الشرق تبدأ عامها العاشر فما أجمل هذه الذكرى !

قبل عشرة أعوام كانت الشعلة الادبية المتقدة في اميركا الشمالية توشك ان تخمد ولم تكن لتجد لازهارها طاقة تجمعها ولا لانفاسها نافخ يردّها الى التوهج. ولكن مشيئة الله التي أبت الاَّ ان تتم نور هذه الشعلة قيضت لها الاستاذ موسى كريّم صاحب « مجلة الشرق » فحملها بيديهِ الى اميركا الجنوبية والتف حوله ادباء العربية هناك — في البرازيل — ففتح واياهم افقاً جديداً تطلع اليهِ العالم العربي وما لبثنا ان سمعنا في حديقتهِ هذه الانغام القدسية التي ما تزال ترنح الشرق بعذب غنائها وخرجت لنا من آثار الشرق ملحمة فوزي ، وأعاصير القروي ، وعبقر شفيق ، ونفثات فرحات ، واغاريد العصبة التي تنشر لواء العربية هناك

وانا نتنهز هذه الفرصة السعيدة فنهنىء هذه المجلة الراقية الحانية على الأدب بعامها العاشر الذي درجت اليهِ في ثوبها القشيب المتجدد ، وأنا لنرجو أن نعود الى درس أثر هذه المجلة في الصحافة العربية التي انشئت بعد ذلك في ربوع المهجر

الصيرفي

شعراء مصر
وبيئاتهم في الجيل الماضي

تأليف الاستاذ العقاد — صفحاته ٢٠٢ قطع وسط — يطلب من مكتبة النهضة المصرية

من أظهر سمات أدبنا الحديث تلك الدراسات الحافلة المستفيضة التي تتناول الشعر والنثر في العصور المختلفة والرجوع بفنونها الى البيئات التي نبتت فيها وتفرعت عنها واستمدت ألوانها وصورها من ثقافاتها الموروثة والمكتسبة

ولم تعد الكتابة مقتصرة على ترجمات متضاربة لحياة هؤلاء الشعراء والكتاب ولم يعد النقد الأدبي محصوراً في عرض شامل لا تاجهم الفني ومقابلته بمن سبقوهم والرجوع بالمعاني والأخيلة إلى معاني القدماء وأخيلة المعاصرين لهم بالطريقة التي سلكوها في شعر المتنبي وأبي العلاء والبحتري. ولكن النقد الأدبي قد سما الى أفق آخر من التحليل الدقيق والاستقراء العميق وفيما أخرجت المطابع أخيراً من الدراسات الادبية شواهد على الاحاطة الواسعة بكل مايتصل بالادب من الزمان والمكان وما يحيط بحياته من احوال اجتماعية وملابسات سياسية وأثر انعكاس كل عصر في نفس شاعره او انعكاس حياة الشاعر في العصر الذي عاش فيه . ومن أجل ذلك قرأنا عن ابن الرومي والمتنبي وغيرهما شيئاً جديداً لم يعن القدماء به ولم يشغلوا بالاشارة اليه او التحدث عنهُ على بعد أثره في تكوين مذاهبهم الادبية وتحديد اتجاهاتهم وخلق صورهم واستلهام معانيهم

على أنك لا تقع في الدراسات الجديدة على ما يتناول شعراء عصر واحد كما تقرأ في الأدب الانكليزي مثلاً عن العصر الفكتوري أو شعراء القرن التاسع في فرنسا . لهذا كان كتاب الاستاذ العقاد عن شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي عملاً أدبياً لا بدَّ منهُ ولا غنى عنهُ لأدبنا الجديد ، ومن الواضح أن أديباً كبيراً كالأستاذ العقاد توفر على دراسة الأدب العربيّ في عصوره المختلفة وأحاط بمذاهب النقد الغربية لا بدَّ وان يكون لهُ رأي ناضج في الشعر مستمدة نتائجهُ من مقدمات صحيحة ، محصها التأمل الطويل وصقلها الدرس العميق ، وهذّبها الذوق العالي ، وأملاها الحس المرهف ،وهي صفات احلّت الاستاذ العقاد مكانة مرموقة في ادبنا الحديث كشاعر وكاتب وناقد . على ان هذه الخصائص وان اجتمعت لأديب فأنها لا تصرفهُ عن النظرة من خلال مزاجه الخاص الى كل لون من ألوان الفنّ والادب وان هيأت له ما لا يتاح لغيره من نفاذ النظرة وعمقها واتساعها .وانك لتقرأ في كتابه عن شوقي فتلمس شواهد ذلك كله .ولعلَّ فصولهُ في حافظ ابراهيم والبكري وعبد المطلب واسماعيل صبري وعبد الله فكري وعلي الليثي وعثمان جلال والبارودي والتيمورية من أعلى الفصول الأدبية قيمة واقوها بحثاً واسلوباً

المحفوظات الملكية في مصر

وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) للدكتور أسد رستم

عصر محمد علي زاخر بالفتوح والحوادث والانقلابات والمؤامرات التي لا يخلو منها عصر زاهر في تاريخ أية أمة . وليس هناك شك في ان يكون المرجع الوحيد لكل هذه الامور الى تلك الشخصية النادرة العبقرية العظيمة — شخصية محمد علي

في النصف الثاني من القرن الماضي عنى الكتاب والمؤرخون الاوربيون بدراسة التاريخ المصري والعثماني المعاصر ، لكن في معظم الاحوال كانت كتاباتهم لا تخلو من روح التحيز التي تتعاون مع مآرب الدول التي ينتمون اليها لتحقيق اغراضها السياسية . ويخيل اليَّ انهُ باستثناء كتاب « الامبراطورية المصرية تحت حكم محمد علي » للاستاذ المؤرخ محمد صبري وكتاب « المسألة المصرية منذ حكم محمد علي » للاستاذ شفيق غربال فاننا لا نجد ابحاثاً اخرى في هذا الموضوع الهام للمؤلفين المصريين او السوريين

أخيراً كان الدكتور أسد رستم « استاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الاميركية ببيروت » موفقاً كل التوفيق في دراساته العميقة التي بدأها منذ أعوام باحثاً منقباً عن كل ما يتعلق بالحكم المصري في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) وذلك بعد انتهائه من مؤلفاته النفيسة « فتوح ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى » وعمله الفاخر « مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ الشام تحت حكم محمد علي » . وكان طبيعيًّا للاستاذ ان يعتمد في تحقيق ابحاثه التاريخية على مجموعة المحفوظات المصرية في قصر عابدين التي تمَّ تنسيقها وتنظيمها بعناية الراحل العظيم المغفور لهُ الملك فؤاد الاول . وأصبحت اليوم أهم مرجع يأخذ عنهُ مؤرخ العصر الحديث لان هذه الذخيرة التاريخية الثمينة كانت الى عهد غير بعيد مبعثرة او مكدسة في زكائب ملقاة بين جدران الدفترخانة.

والغرض الرئيسي الذي من أجله وضع الدكتور أسد رستم رسالتهُ النفيسة عن « المحفوظات الملكية لمصر وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١—١٨٤١) » هو ان يجعل في متناول من يدرس التاريخ المصري المعاصر فكرة وقتية عن وجهة النظر المصرية لاهم الحوادث فيما بين العامين ١٨٣١ و ١٨٣٣ في الشرق الادنى ومن المحتمل ان يكون من نتائجها ان تثير بعض النقد العلمي والجدل المفيد فيكشف الستار عن الحقيقة وبذلك تكون هذه الرسالة قد أدت واجبها

تناول المؤلف الفاضل في رسالته وبعبارة أوفى في كتابهِ النفيس الكلام على المحفوظات الملكية ومختلف مشتملاتها في الشؤون العسكرية والبحرية والادارية وأوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية وأعمال الجاسوسية واوراق الاعداء المصادرة وأهم الحوادث اليومية

ثم يلي البحث الاصلي للمؤلف وهو الحملة المصرية في سوريا وأسبابها « الرسمية » كموقف عبد الله باشا والي عكا وتجديد الامبراطورية العثمانية واسبابها غير الرئيسية (غير المباشرة) التي لخصها المؤلف في المقاصد غير الطيبة للباب العالي واستقلال مصر ونقص موارد (عدم كفايتها) وادي النيل وطبيعة مصر وسوريا كوحدة جغرافية مستقلة النواحي الوطنية للنزاع

وقد تناول المؤلف ايضاً تحليل جميع هذه الأسباب على ضوء الوثائق الرسمية فوصل الى عدة نتائج منها ان محمد علي في نزاعه مع السلطان محمود كان يحارب للمحافظة على ثروته ومنصبه ومقامه كما حاربهُ ايضاً للمحافظة على حياته

وذكر الدكتور رستم انهُ كان من اسباب النزاع بين مصر وتركيا عوامل جغرافية ومثلها اقتصادية تلك العوامل التي جعلت سوريا ميداناً للخصومة بين محمد علي والسلطان محمود . فان مصر على الرغم من خصبها لم تسد حاجة محمد علي الى الخشب فكان عليهِ ان يستورد معظم مايحتاج اليهِ من الوقود والاخشاب التي يحتاج اليها في اعمال الحرب والسلم فاضطر ان يحذو حذو تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني في العصور القديمة وابن طولون في العصور المتوسطة اي ان يبحث عن الاخشاب التي يحتاج اليها في سوريا وبلاد القرم . وخير مقياس نقيس بهِ ماكان لخشب سوريا وكيليكيا من المقام لدى محمد علي هو مقدار ما قطعه الجنود من أشجار الحراج المختلفة بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ فما كاد ابراهيم باشا يصل الى اطنة حتى أصدر اوامر مشددة لبناء طرق تصل بين الحراج والبحر حتى يسهل نقل الاشجار منها الى مصر . كذلك قطعت اشجار اخرى من غابة ارز لبنان وارسلت الى معامل الذخيرة والسلاح في مصر . اما المعادن فلم يكن رجال محمد علي موفقين في البحث عنها

كذلك كان محمد علي في حاجة شديدة الى الرجال الذين يعتمد عليهم في حروبهِ . فان مصر التي لم يزد عدد سكانها عن الأربعة الملايين حينئذٍ لم تستطع ان تقدم لهُ الجند الأشداء وهو في حاجة الى جحافلهم سواء لزرع الارض او لخوض غمار المعارك . فان الجيوش العديدة التي جندها من رجال مصر وخسائره في حروبهِ في بلاد العرب والسودان والمورة قلل من اليد العاملة في مختلف اعماله الزراعية والصناعية كذلك عدم فلاحه في التجنيد السوداني جعله يتطلع الى سوريا وسكانها الشديدي المراس الكثيري العدد . ونحن لاندهش اذا رأينا محمد علي يعتمد عليهم في جيوشه وهو القائل :

« من جبال لبنان أجند جنودي فأدرب منهم جيشاً كبيراً ولا أقف بهِ إلاّ على ضفاف دجلة والفرات »

الواقع ان المؤرخ العالم الدكتور رستم يستحق منا كل شكر ونرجو لهُ التوفيق المتواصل وحبذا الحال لو ظهرت هذه الرسالة النفيسة باللغة العربية

عبد الرحمن زكي

قواعد النقد الادبي

تأليف لاسل آبركرومبي أستاذ الادب الانكليزي بجامعة لندن وتعريب الدكتور محمد عوض محمد
الاستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية . نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

لهذا الكتاب مكانة خاصة يحتلها في تاريخ أدبنا الحديث فهو أول حجر في أساس نقده ، وما أحوج أدبنا الى قواعد جديدة في النقد

وقد بدأ المؤلف مقدمته بالحديث عن الخطوة الأولى في تاريخ النقد وهي التي بدأها سقراط عند ما دعا الشعراء أن يخبروهُ عما عَنَوهُ بشعرهم ، ثم بيّن ان دولة الأدب تحتلها ملكات ثلاث : الانتاج ، والتذوُّق ، والنقد . وان من فوائد هذه الملكة الأخيرة تمكين من رزق القدرة على الانتاج الأدبي من استخدام مقدرته بذكاء واستغلالها على أحسن وجه وأكمله . وكذلك من رزق المقدرة على تذوُّق الأدب فان استمتاعه يصبح مبنيًّا على أساس من الفهم وحسن التخير

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه المؤلف بشيء من البحث العقلي فن الأدب انتهى بهِ الى سرد أهم قواعد نظرية الأدب ، وأنهُ فنٌّ رمزي بواسطة اللغة الى إيصال التجارب التي لها قيمة في ذاتها والتي يمكن تذوُّقها لذاتها وان وظيفته هي ان يكسبنا قوّة الخيال التي نتصوَّر بها التجارب ذات المغزى العميق

وأما الفصل الثالث فقد أفردهُ المؤلف لكتاب أرسطو في الشعر شارحاً فيهِ نظريته في الشعر عامة لأن أرسطو كاد يلم فيها بجميع المسائل التي تولدت منها القواعد التي لا بدَّ للنقد منها مع تبيان أوجه الخلاف بينهُ وبين أفلاطون . ثم تكلم في الفصل الرابع عن اصحاب النظريات الذين ثبت ان قضاياهم ذات فائدة في النقد بادئاً بهوراس الذي يعتبره أكبر اسم في تاريخ النقد بعد أرسطو وقد كانت قصيدته « فن الشعر » سبباً في نشر آراء أرسطو في كل أدب أوربي. وانتهى من ذلك بعد عرض لبعض رجال النقد ولبعض المذاهب المختلفة في الادب الى رأي « منزوني » المعبّر باقواله عن المثل العليا للنقد الحر والهادي الى الطريق القويم للنقد الصحيح بكافة أنواعهِ . ثم ختم المؤلف كتابه بالنظر في رأي منزوني

هذه نظرة سريعة ألقيتها على هذا الأثر الطيّب الذي أتحف بهِ الدكتور عوض لغته وأبناءها وهو دائماً لا يضنُّ عليها بنقل نفائس الآثار اليها. ففاوست وهرمن ودوروثيه درّتان في تاج الأدب العربي الحديث. ولعله يتحفنا بعد ذلك بنقل كتاب الاستاذ لاسل « الشعر : موسيقاه ومعناه » بعد تطبيق نظرياتهِ على الشعر العربي وهو خير من يستطيع ذلك

حسن كامل الصيرفي

دياطاسرون طيطيانوس

حضرة الاب ا . س . مرمرجي الدومنكاني

Diatessaron de Tatien

ان كل من عني بدرس كتب الاناجيل المقدسة ، وبنقد ترجماتها واوضاعها ، وبجمع الاناجيل الاربعة لتكمل بعضها بعضاً ويتكوَّن منها انجيل واحد يبين سياق الحوادث بأجلى مظاهرها ، يعرف ما هو « الدياطاسرون » ومن هو طيطيانوس

فالدياطاسرون هي كلمة يونانية معناها « اخذاً عن الاناجيل الاربعة » اعني مجموعة الاناجيل الاربعة. وهذه المجموعة اصلها يوناني — سرياني كتبها طيطيانوس اولاً باللغة اليونانية التي كان يجيدها ثم ترجمها الى السريانية وذلك في اواسط الجيل الثاني للمسيح . ومن بعده نقلها الى العربية ابو الفرج عبد الله ابن الطيب في الجيل الحادي عشر

اما طيطيانوس فهو رجل اشوري من شمالي العراق ومن اصل رفيع ، درس الآداب اليونانية والرومانية وطاف في بلاد اليونان وايطاليا ، وساعد القديس يوستينوس الفيلسوف السوري في عمله ، وخلفهُ في تعليمه ، ثم عاد الى بلاد اشور حيث كانت اللغة السريانية هي السائدة فجمع الاناجيل الاربعة في واحد وكتبها باللغة اليونانية اولاً ثم ترجم ذلك الى السريانية خدمةً لاهل وطنه . فان البلاد العراقية لم تكن تعرف اللغة اليونانية ولم يكن لدى المسيحيين فيها اناجيل مترجمة الى السريانية . فيكون طيطيانوس قد خدم بلاده ومواطنيه خدمة جليلة

وانتشر كتاب طيطيانوس في بلاد الاشوريين وكان المسيحيون السريانيون يقرأُونهُ في الكنائس وقت الصلاة ويستعملونهُ للقراءة في بيوتهم كما يشهد بذلك المؤرخ الشهير اوسابيوس

وانجيل طيطيانوس الرباعي هذا هو عظيم الاهمية من الوجهة التاريخية والكتابية لانهُ مأْخوذ عن الاصل اليوناني وهكذا يثبت الترجمات اليونانية اللاحقة التي بين ايدينا واقدمها يعود الى الجيل الرابع فقط . فماذا عمل حضرة الاب مرمرجي الدومنكاني يا ترى

ان حضرة الاب مرمرجي هو « احد اساتذة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس » ، وهو من تلك الرهبنة الدومنكانية الجليلة الشهيرة بمباحثها العلمية ولا سيما بكل ما يختص بالكتاب المقدس ومتفرعاته، من المباحث التاريخية والجغرافية والاثرية والتفسيرية . ويظهر من كتابه الضخم الذي يقع في ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير بما فيه المقدمة والذيل ، انهُ رجل ضليع في العلوم الكتابية . فانهُ اخذ انجيل طيطيانوس الرباعي السرياني ، وقابله مع الترجمة العربية ، وصحح النص العربي من الاغلاط النحوية الكثيرة التي تشوههُ ، وعاد فترجمهُ الى اللغة

الفرنسية ، وهي الترجمة الفرنسية الاولى للدياطاسرون الجليل الاثر ، وعارض تلك الترجمة بالترجمات السريانية القديمة،وذيله في حواشيه بانجيلية رباعية سريانية ، وأضاف الى ذلك كله اربعة روامز خارج النص . فجاء سفراً نفيساً وحلقة كريمة في سلسلة المؤلفات الكتابية العلمية

ونجح حضرة الاب مرمرجي في مقدمته نجاحاً كبيراً اذ شرح لنا من هو طيطيانوس وما هو انجيله الرباعي . ثم اكبَّ على درس النص العربي وأخذ يبحث فيه وينتقده ويُصحّحهُ ويظهر معايب الترجمة العربية بمقابلتها مع النص الاصلي السرياني ويعطي لذلك امثلة عديدة جداً . وكل هذا بترتيب محكم ورجوعٍ الى الآيات وارقامها واصل الانجيل الذي اخذت عنهُ

فجاء كتابهُ تحفة ثمينة خدم بها العلوم الكتابية واللغتين العربية والفرنسية معاً خدمةً جلّى

الارشمندريت مشيل عساف

هتلر وستالين

أسس الأستاذان محمد صبيح عبد القادر ومحمد عبد الرحيم عنبر داراً للثقافة العامة ، والغرض من هذا المشروع هو رفع المستوى الثقافي العام للمتعلمين المصريين وغيرهم من قراء العربية في اقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العقلي العام في شتى شؤون المعرفة ، وتقدم لهم مبسطات العلوم والآداب في اسلوب مقبول

وكانت باكورة هذه الدار ان اخرج أحد مؤسسيها الاستاذ محمد صبيح عبد القادر كتابين أحدهما عن هتلر والآخر عن ستالين فشرح في الأول الحركة النازية وكيف بدأت وتكلم عن حياة مؤسسها وما لاقاه اعضاؤها من اضطهاد وسجن ومحاربة اعداء الفكرة لهم بشتى الطرق والوسائل واخيراً تغلب على كل الصعوبات واصبح زعيم الامة ورئيس الحكومة وقضى على الماركسية في بلاده وانقذ المانيا وعمل على احيائها وانهاضها

وشرح في الكتاب الثاني الشيوعية والاشتراكية وذكر فصلاً مطولاً عن حياة نبي الشيوعيين وهو كارل ماركس واقتبس بعض فقرات من خطبة خطبها صديقه انجلس على قبره « وهو ان ماركس اكتشف قانون التطور في تاريخ البشرية ويعني بهذا القانون ان الدوافع المادية للانسان هي التي تكيف عقائده ونوع حكومته واسلوب تفكيره واما النظرة المادية من جانب ماركس فهي ابغض ما يصدمك في فلسفته لانهُ يحارب الشر بالشر ويحارب المادية بالمادية » . ثم لخص حياة ستالين ومولده وثقافته وتعشقه لمبادىء كارل ماركس وجهاده الكبير واصدار جريدته «برافدا» وسجنه ونفيه اكثر من مرة الى اصقاع سيبريا وتكلم عن لينين وخوفه في آخر ايامه من ستالين وبغضه له حتى كان يعمل على اخراجه من سلطته وكره ستالين لتروتسكي ونفيه من البلاد وختم كتابه بفصل ممتع عن الحياة في روسيا

فهرس الجزء الثالث من المجلد التسعين



رابطة الإصلاح الاجتماعي



مكانة الطفل في المجتمع

لسعادة احمد نجيب الهلالي بك

لمحة تاريخية في تنشئة الطفل

لاحمد فهمي العمروسي بك

اجرام الاحداث في مصر

للدكتور محمد عبد المنعم رياض

الاطفال الشواذ

لامين سامي حسونه بك

الاطفال ذوو العاهات

للسيدة زاهية مرزوق

الطفل وأوقات الفراغ

ليعقوب فام



سعادة الأستاذ الكبير احمد نجيب الهلالى بك
الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة
ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

تقدمة

هذه مجموعة المحاضرات التى ألقيت فى الجلسات الثلاث لمؤتمر الطفل الذى عقدته « رابطة الاصلاح الاجتماعى » وقد استمع اليها من وسعتهم دار « الاتحاد النسائى » من صفوة الجمهور ، بين طلبة ناهضين ، وشباب مثقف ، وسيدات فضليات ، وشيوخ يؤمنون بفكرة الاصلاح — فرغب الينا الكثيرون منهم أن نعمل على نشرها ، تيسيراً لقراءتها وتعميماً لفائدتها

وها نحن أولاء نلبى تلك الرغبة الكريمة ، فى نشر المحاضرات ، شاكرين « للمقتطف » الاغر ترحيبه بها ، وافساح صدره لها

وأكبر ما نأمل ان تلقى من عناية القارىء بالاستفادة منها ، قدر ما لقيت من عناية أصحابها باعدادها ؟

السكرتير العام

سيد مصطفى

مكانة الطفل في المجتمع

كلمة سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الهلالي بك

الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة ،
ورئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

سيداتي — سادتي: أحييكم أزكى وأطيب تحية وأشكر لكم ما أوليتموني من شرف كبير بافتتاح هذا المؤتمر . فكل مؤتمر للاصلاح الاجتماعي عيد أشهده بفرح مجدد. لقد نهضت البلاد لمصالح شتى ومضت قدماً في السياسة والاقتصاد والعمران . ولكن حالتنا الاجتماعية بقيت ضعيفة متقلبة ، كما بقيت جميع المشروعات والتدابير الاجتماعية مجرد آمال وأحلام كسراب الضياء فوق رمال الصحراء

والمتأمل في أحوال الأمم الاخرى يرى أن البرامج الاجتماعية هي التي خلقت البرامج السياسية وأن الاحزاب السياسية إنما قامت على أساس الاصلاحات الاجتماعية . ولكن الوضع السياسي في مصر عكس ترتيب الوجود . فانصرفنا الى القضية السياسية وتفرغنا لها حتى كدنا نتخلى عن كل قضية سواها. نعم جرينا في السياسة شوطاً بعيداً ، أما في الميدان الاجتماعي فقد بقيت أقدامنا حيث كانت . ولئن كان لنا في الماضي عذر نحتج به فلا عذر لنا بعد اليوم

***

أيها السادة :

أساس الاصلاح الاجتماعي التعاون والتكافل . فالجهود الفردية في هذا الميدان قليلة البركة بطيئة الحركة ، تكاد لا تجدي نفعاً ولا ترد على البلاد خيراً

والمشاهد أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات في الماديات وفي الروحانيات . فالأعمال المادية العظيمة في حاجة إلى الشركات . ومصالح المهن والايدي العاملة في حاجة الى النقابات . وأعمال الخير والاصلاح في حاجة الى الجماعات . وإذا كنا نرتاح لتأليف الشركات والنقابات ونجد فيها دليلاً على حياة البلاد فما لا شك فيه أن جماعات الاصلاح أدعى للغبطة والارتياح لتجردها عن كل نزعة فردية او غاية شخصية . وهذه المؤتمرات التي تعقدونها ان كانت اليوم مؤتمرات صغيرة تؤمها فئة قليلة فستكون غداً باذن الله مؤتمرات كبيرة تمثل طوائف البلاد كلها . وسيكتب الله لكم في سجل الحسنات أنكم كنتم طلائع الاصلاح وحوارييه . وأنتم إذ تعقدون مؤتمر الطفل تعالجون موضوعاً خطيراً ذا أثر كبير في حياة البلاد الصحية والاقتصادية والسياسية والحربية، فضلاً عن نواحيه الانسانية والاجتماعية. ومن المسلم به عند رجال الحرب والسياسة والاجتماع أن قوّة كل أمة تتوقف على زيادة عدد السكان وزيادة موارد المعيشة ، أو كما يقول العرب كثرة العيال وسعة الحال . ونمو السكان لا يكون إلا من طريق العناية بالطفل

وإذا كان كثير من علماء النبات والحيوان يؤكدون أن بعض النباتات تخصب وتزدهر بالهواء والنور والشمس ، فاذا زادت العناية بها رقيت في الحياة درجة درجة حتى تدب فيها الروح الحيوانية فما أولى نابتة الوطن بمثل هذه العناية ، وما أعظم الفرق بين جيل ضعيف مهمل جامد الحال على اول درج الحيـاة ، وجيل شديد قوي نام بلغ أعلى الدرج وورد ماء الشباب والحياة فحظي منهُ بكأس روية

وها أنتم أولاء ترون حالة الأطفال في بلادنا ، فسواد الأمة يجهلون تمام الجهل كيفية تدبير الطفل وطرق تمريضـه وتغذيته وتنميته وتقويتـه ووقايتـه عوامل العلل والضعف . والأطفال الذين يسلمون من الموت يحيون حياة ناقصة من حيث الجسم والحيوية ومن حيث العقل والروح . وكل أمة تهمل شأن الاطفال الى هذا الحد تنتحر انتحاراً قوميًّا وتكون عرضة للضعف والإقواء

وأما الأغنياء فيعتقدون أنهم يحلون قضية الأطفال بمجرد ألحاقهم بالمدارس وأنهم إذ يكلون أبناءهم الى المربين الرسميين يتحللون من كل تبعـة . وهم في ذلك مخطئون . فصحة الأطفـال

وتربية الاطفال لاتكون إلاّ في البيت وصفاء الطبع وجمال الأدب وطيب الخلق لا تكتسب إلاّ في البيت ذلك لأن الابوين أقدر على الالتفات للجزئيات وعلى معرفة أحوال الطفل وطبعه ومزاجه . ولأن البيت وإن كان مجتمعاً خاصًّا هو أصل المجتمعات كلها . والعادات والأخلاق التي تكتسب فيه أصل العادات والاخلاق كلها . وأثر المنزل في الطفل أشد وأبقى من جميع المؤثرات الأخرى . أما التربية المدرسية فهي تربية تابعة أو تربية تكميلية تكمل ما يستمده الطفل من حياته المنزلية وإن كان لها أثر في تشكيل الاخلاق وتكوين العقول والطباع

وتربية الاطفال في حاجة الى تعاون العلم والطب والاخلاق والقانون ، وهيهات أن يتيسر للسواد الاعظم تدبير الأطفال من غير معونة الحكومة وجماعات الاصلاح من طريق التشريع والبذل والدعاية

فالدعاية والإرشاد فريضة على كل مصري قادر . ذلك لان الطفل ليس ملكاً خالصاً لأبيه حتى يصحّ أن يقع كل العبء عليه . هو يغذيه ويربيه حتى إذا كبر انفصل عن أبيه . وأصبح ملكاً للوطن بحكم الواقع وبحكم القانون . فمن حق الوالد على الوطن أن يعينه بالرأي والتدبير . ومن المسلم به في أصول الشرائع أن الآباء كلما كانوا غير قادرين على تربية أبنائهم اشتد واجب الحكومة في أن تقوم مقامهم

***

فاذا أراد الوطن أن يخرج من اطفاله رجالاً ونساء صالحين للكفاح الفردي وللكفاح القومي وجب على الحكومة وعلى الطبقات المستنيرة أن توفر للآباء والامهات جميع العوامل والمؤثرات التي تجعل من الاطفال رجالاً كاملين صالحين للنهوض بالتكاليف الخاصة والعامة . وما من أمة عظيمة الاّ سلكت هذا السبيل، وتمكنت من التغلب على الفقر والجهل من طريق العناية بالأطفال وتربيتهم التربية الحقة التي تضمن لهم أجساماً سليمة وأخلاقاً متينة وأنفساً قوية

***

ومن دواعي الغبطة أن يتطوع فريق من كبار العلماء والإخصائيين والمفكرين ليبسطوا لنا آراءهم في قضية الطفل، ويؤدوا بذلك ديناً وطنيًّا وحقًّا إنسانيًّا . فالله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر مايبذلون لبلادهم من غيرة وإخلاص ووفاء

لمحة تاريخية فى تنشئة الطفل

لاحمد فهمى العمروسى بك

ناظر مدرسة المعلمين العليا ومعهد التربية سابقاً

سيداتي سادتي :

خلق الله الكائنات الحية وأودعها غرائز تكفل لها الحياة والبقاء وهذه الغرائز على تعدد مظاهرها لا تخرج عن ثلاثة أنواع. الأول غرائز غايتها حفظ الشخص. والثاني غرائز غايتها حفظ النوع. والثالث غرائز اجتماعية مثل التعاون على العمل في فصائل النمل وتجمع الطيور الرحالة وطيرانها أسرابا في اشكال مثلثة

والذي يعنينا منها الليلة غريزة حفظ النوع في الانسان وهي التي تبعثه على حب ولده وتحفزه الى العمل على حفظ حياته وإسعاده جهد الطاقة ولا يكون ذلك الا بتعهده وتنشئته أرقى تنشئة وأخذه من الحداثة بأهدى أساليب التربية والتهذيب

يحدثنا التاريخ أن الفرس والمصريين واليهود كانوا يعنون بتربية الاطفال مسترشدين في ذلك بتعاليم مذاهبهم الدينية . اما في أثينا وروما فكان الأمر على الضد من ذلك اذ كانت حياة الطفل محتقرة وحريته ممتهنة فان الطفل المهمل كان لقاطة من اللقاطات يمتلكه من يأخذه من المارة . وكانت الكنائس تأخذ منهم عدداً وافراً لاستخدامهم في شئونها المختلفة . وظل استعباد الاطفال المهملين جائزاً الى أواخر عهد الدولة الرومانية

على انهُ منذ القرن الرابع الميلادي أنشأ الغربيون ملاجيء للأطفال ولكنهم للأسف خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيء فحشدوا الاطفال والمرضى والفقراء في صعيد واحد . وقد نشأ بلاشك عن اختلاط هذه العناصر المتباينة من الاضرار بالطفل مالا يتصوره العقل لذلك فصلوا بعضها عن بعض واختص كل منها بعنايته عنصراً من تلك العناصر وها نحن أولاء نرى بين ظهرانينا ملاجيء « ڤان سان دي پول » مثلاً قد وقفت جهودها على تربية اللقطاء

اما حماية الاطفال حماية قانونية فلم تظهر في اوروبا الا في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ، واول قانون فرنسي نص على وجوب حماية الاطفال وتقسيمهم الى مهملين وذوي عاهات وأيتام ولقطاء ومجرمين احداث وعمال قصر يعملون في المصانع والمعامل لم يصدر الا حوالي سنة ١٨٧٤

ينبئنا تاريخ الادب انهُ لم يخل عصر من تلك العصور الغابرة مع ذلك من كتّاب وشعراء دفعهم الحنان الأبوي ألى الاهتمام بالاطفال ومراقبة أطوارهم وأحوالهم عن كثب فدرسوا طباعهم وترجموا عن عواطفهم. نذكر من أقدمهم الكاتب اليوناني « فلوطرخس » الذي عاش في منتصف القرن الأول الميلادي ، فانهُ بعث الى صديق له بكتاب ذائع الصيت في عالم الأدب — عقب موت ابنته الوحيدة — يصف فيهِ رقة شعورها وصفاً مؤثراً اذ يقول :

« انها كانت تتوسل الى مرضعتها ان تمنح ثديها لا للأطفال الذين كانوا يلعبون معها فحسب ، بل للدمى التي كانت تلهو بها وتهش لرؤيتها وتجلسها على مائدتها وتغدق عليها أرق عبارات الملاطفة وأعذبها، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان »

اما في الشرق فنكتفي بذكر أبيات شهيرة لحطان بن المعلى يصف فيها عطفه على بنانه وهي :

« لولا بنيات كزغب القطا يقرنَ من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض »

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الكتّاب والشعراء قد ازداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ حدًّا لا يستهان بهِ في القرن الثامن عشر عندما ذاعت تعاليم « روسو » وفلسفته في تربية الطفل

ولم يكد ينبلج القرن التاسع عشر حتى توجهت افكار الناس جميعاً الى الطفل وأصبحت كل أسرة في السهر على أبنائها كالزارع اليقظ النشيط الذي يتعهد غرسه بالحرث والسقي ليأتي في الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد

وقد صدَّر الكاتب الفرنسي « فيليكس توما » كتابهُ « التربية في الأسرة وجنايات الآباء على الابناء » بديباجة استهلها بقوله « بينما ممالك كثيرة تنحطُّ وتدول إذ بالقرن التاسع

عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانهِ وأخذت قدمها تترسخ فيهِ يوماً فيوماً تلك هي دولة الطفل

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ما تقدمهُ من القرون بأنهُ عصر الطفل فالشعراء في فرنسا من عهد « فيكتور هيجو » الى اليوم اهتموا جد الاهتمام وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة وميوله المتغيرة وراقبوا نشأتهُ تدريجيًّا من عالم الظلمة والخفاء الى عالم النور والجلاء ، وقد حذا حذوهم في ذلك الكتاب والفلاسفة والعلماء والاطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل يراقبون حركاتهِ وإشاراتهِ وابتساماتهِ ويدوّنون تجاربهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل تختلف كلَّ الاختلاف عن الصورة التي صورها لهُ علماء القرون السابقة والتي كان للخيال والمبالغة فيها أثرٌ كبير

ولكنا مع ذلك ما زلنا مقصرين في واجب الطفل غامطين حقوقه الطبيعية. أليس من حق الطفل ان يولد صحيح البدن سليم العقل. نعم ولكن أيان لهُ ذلك ومعظم الناس لا يقدمون على الزواج إلاَّ بعد أن يسرفوا في الملاهي والملذات حتى تختل بنائهم وتفسد عقولهم فينسلوا ذرية ضعافاً تشكو مدى الحياة الآلام والامراض التي ورثوها عن آبائهم دون أن يكون لهم أي ذنب فيها

« وذنب جره سفهاء قوم وحل بغير جارمهِ العقاب »

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالامر اهتماماً عظيماً وحرمت عقد قران رجل بامرأة إلاَّ إذا أثبت كلاهما طبيًّا انهُ معافى من الامراض الفتاكة المزمنة حرصاً على سلامة النسل وحفظه من الامراض العقلية والعاهات الخلقية

يقول أفلاطون : « إنك اذا محضت الناس النصح في هذا الصدد فكأنك تخاطب صمًّا لا يسمعون لانهم ينقادون الى الميول والاهواء دون الاصغاء الى نداء العقل وهدى التفكير»

أليس من حق الطفل على أمهِ أن تتجنب — في أثناء الحمل — كل ما من شأنهِ أن يضر بصحتهِ حسًّا ومعنىً ؟ إذ ما من عمل تأتيهِ او فكر يمر بخاطرها الاَّ وله اثره في حياة الجنين

لقد كان توماس جونز أحد زعماء الحركة الفكرية في انجلترا في القرن السابع عشر يشكو ميله الى العزلة عن الناس والخوف منهم ويعزوهما الى انزعاج امه عند اقتراب الاسطول الاسباني من شواطيء انجلترا وكان ذاك جنيناً في بطنها

ألا يجب على الام في هذا الظرف العجيب الذي تغرس فيه بذور الغرائز والاستعدادات والميول في نفس الطفل أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة شيئاً ، فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للاقارب والأباعد ولا تسرف في غشيان دور السينما والتمثيل ولا تبالغ في التأنق والتجمل إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين في مضجعه ؟

أليس من حقوق الطفل ان يعنى الوالدان بتربيته في المنزل تربية بدنية خلقية ؟

وانما قلت تربية بدنية خلقية لأن التربية العقلية تجيء بعدها فالعقل لا يظهر الاّ في سن متقدمة

لذلك كان توماس ارنولد مربي انجلترا الحديثة يقول ان التعجيل بالاطفال الى طلب العلم وحشد قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها قد يودي بنضاضتهم ونضارتهم ويخمد فيهم غريزة البديهة وملكة الابتكار . ولن يلاقي الاطفال في حياتهم الأولى وبالاً شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم

وفي هذا قال عروة بن الزبير منذ ثلاثة عشر قرناً لولده : « يابنيّ العبوا فان المروءة لا تكون الاّ بعد اللعب »

والمروءة هي القيام بما فوق الواجب كنصرة العدل ونجدة المستغيث وحماية الضعيف

ولا يقصد الانجليز من الرياضة البدنية ، التي بلغت عندهم شأواً بعيداً وجعلت منهم أمة عظيمة ، الى تقوية الاجسام فحسب، بل تقوية الأخلاق وتقويم الطباع كما قصد اليه عروة بن الزبير

ولقد خطت فرنسا خطوة جديدة في سبيل العناية بالأطفال وتوسيع نطاق حقوقهم فأصدرت في سنة ١٩١٢ قانوناً يقضي تشكيل محاكم خاصة لمحاكمة الاطفال على قواعد جديدة ونمط حديثة أرشدهم اليها العلم بعقليات الاطفال والالمام بنفسياتهم

ولا بدّ ان نسمع قريباً أنهم أنشأوا وزارة للطفل منفصلة عن وزارة المعارف دون ان تتعارض معها وتفرغ لشئون الاطفال خاصة وتتعاون الاسرة والمدارس والمصانع والمعامل والسجون على القيام بهذه المهمة الشاقة وتمدهم بما قد يستجد من افكار . ويستنبط من آراء وأساليب من علم النفس الحديث . ولا عجب فالاطفال هم رأس مال الدولة والدعامة التي يقوم عليها مستقبلها

اجرام الاحداث فى مصر

للدكتور محمد عبد المنعم رياض

مسائل الاحداث من أهم ما يجب ان يشتغل به الباحثون في اصلاح المجتمع المصري ، بل قد تكون أهم هذه المسائل ، لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بكيان الأسرة ، وهي الدعامة الأولى في بناء الوطن ، لذلك يجب ان لا يقصر اهتمامنا على رجال الجيل الحاضر بل يجب ان نضع نصب عيننا رعاية الجيل المستقبل ، واني لا أكون مغالياً اذا قلت ان البلاد التي تنشد التقدم يجب ان تهتم برجال الغد أكثر من اهتمامها برجال اليوم ، وما رجال الغد الا الاحداث الصغار ، فكل حياة تنقذ من الردى انما هي حياة فرد تحتاج الأمة الى سواعده وعقله فيما تبذله من جهد لتتبوء مركزها اللائق بين الأمم . وما التزاحم بين الدول الا تزاحم بين الأفراد ، فكلما كانت أفراد الأمة أقوى صحة وأقوم خلقاً وأغزر علماً ، كلما استطاعت ان تخوض غمار التزاحم وتخرج فائزة مهوبة الجانب . والأمم الكبيرة التي وصلت الى ذروة المجد ما أقامت مجدها الا على اكتاف بنيها ، ولم يصل بنوها الى الدرجة التي تؤهلهم ليساهموا في تشييد البناء الا لأن طفولتهم قد حفظت ، فخرجوا منها رجالا يقدسون وطنهم ويقومون بواجبهم نحوها ، ولا أقصد بني الوطن الذكور فحسب بل ان للاناث نصيباً كبيراً في خدمة البلاد قد يفوق نصيب الذكور أحياناً ، فالمرأة تستطيع ان تساهم في اقامة صرح الوطن كما يساهم الرجل حتى لو بقيت في دائرتها الطبيعية دائرة الزوجية المخلصة والأمومة الحقة ، بل قد يكون بقاؤها في هذه الدائرة أدعى لتفرغها لمهمة من أخطر المهمات هي ان تبث في ولدها وزوجها وأهل بيتها روح الوطنية والاقدام وتكيفهم بما يتفق وحاجات البلاد ، وعلى الأقل تخفف عنهم الكثير من متاعب الحياة فيستطيعون التفرغ لأداء ما عليهم على أكمل وجه — لم يكذب بسمارك وجلادستون عند ما قالا ان كل ما وصلا اليه من مجد كان يرجع لزوجتيهما ، ولم يبالغ لامارتين عند ما قال ان كل عمل مجيد أساسه المرأة ، بل ان روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاسبق اعتبرها حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية وقال انها أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل

فالعناية بالاحداث بنين وبنات هي اذن اول ما يجب ان يبدأ بهِ كل اصلاح اجتماعي، وبلادنا احوج ما تكون لهذه العناية، اذ يكفي ان نلقي نظرة على شوارع المدن الكبرى لنجد حالة محزنة تدل على اننا نهتم بارض الطرق وحجارتها اكثر مما نهتم بتلك الارواح البريئة التي تجول في ارجائها وتفترش أديمها، فصغار المتسولين والمتشردين وباعة الاشياء التافهة وجامعو اعقاب السجائر يملأون الشوارع والطرقات بملابس قذرة مهلهلة لا تكاد تقيهم قر الشتاء او لفح الشمس، وهناك عصابات تستغل هؤلاءِ الاطفال اسوأ استغلال فتحرضهم على التسول بل على الاجرام. واني لأذكر انهُ قد اكتشف من مدة قريبة امر عصابة منظمة تقذف بهؤلاءِ الصغار في الشوارع لجمع اعقاب السجائر ثم تتولى بيع تبغها، وقد وجد البوليس ان لهذه العصابة سجلات تبين ما يجمعهُ كل طفل وترصد حساب العصابة من ايراد ونفقة كأنها شركة منظمة من شركات الاستغلال ولكنهُ للاسف استغلال للطفولة ولنفوس بريئة كان يمكن ان تدرب على العمل الشريف المجدي — هذه حالة يجب ان لا نغمض العين عنها بل يجب ان نبادي باصلاحها اسوةً بالبلاد الاخرى التي سارت شوطاً بعيداً في سبيل هذا الاصلاح

***

قد يكون من المدهش ان نعلم ان مصر كانت في طليعة البلدان التي اهتمت بانقاذ الاحداث من وهدة الاجرام والتشرد — فقد بدأ الاهتمام بهم في سنة ١٨٨٣ عند وضع اول قانون للعقوبات فنص على معاملة الاحداث المجرمين معاملة خاصة، وفي سنة ١٩٠٤ عند تعديل قانون العقوبات أفرد باب للاحداث المجرمين تقرر فيهِ امكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية بدلاً من السجون العادية، وهذا الباب وان كان صغيراً لا يزيد عن بضعة مواد الاَّ انهُ يظهر بدء العناية بامر الاحداث وباصلاحهم. ثم انشئت في سنة ١٩٠٥ محكمة خاصة لمحاكمة الاحداث في القاهرة والاسكندرية حتى لا يختلطوا بالكبار من المجرمين، وكان اول قاضٍ لمحكمة الاحداث بالقاهرة عبد الخالق ثروت باشا رحمة الله عليهِ، فكان يبحث قضاياهم بعناية خاصة ويضع تقارير وافية بما يراه. وقد ذكر ضمن ما لاحظهُ ان قانون سنة ١٩٠٤ قد اقتصر على معالجة الاحداث المجرمين ولكنهُ لم يتناول نوعاً آخر شديد الخطر وهو تشرد الاحداث، واقترح انشاء مدارس صناعية لايواء المتشردين من الاحداث ووضع قانون بشأنهم. وفعلاً صدر قانون في سنة ١٩٠٨ لمعالجة الاحداث المتشردين وامكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية لتقويمهم وابعادهم عن وسط التشرد الذين يعيشون فيهِ — كل هذا تمَّ في اوائل القرن الحالي وهو بدء طيب كان يجب ان يتبع باهتمام مطرد، ولكن على الضد لم تلبث تلك العناية ان فترت بعد ذلك، فالتشريع القديم الذي سبقت به مصر طائفة من البلدان منها فرنسا

- لان هذه لم تنظم محاكم خاصة بالاحداث الاّ في سنة ١٩١٢ — هو التشريع الذي لا يزال قائماً الى الآن . والمحكمتان اللتان انشئتا في سنة ١٩٠٥ لمحاكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية هما المحكمتان الوحيدتان في القطر المصري. بل قد يلوح لي ان نظامهما بدأ يعود الى نظام المحاكم العادي مع انهُ قصد بانشاء محكمة خاصة للاحداث أن تكون هيئة شبه عائلية بعيدة عن نظم المحاكم فلا رجال بوليس ولا منصة عالية ولا جمهور نظارة ، حتى لا يتعود الطفل مثل هذه المناظر . وقد يجد فيها لذة تحبب له التردد على دور القضاء ويخيل لهُ عقله الناشىء انهُ اتى عملاً عظيماً أقام له رجال الحكومة واجتمع لهُ بسببهِ جمهور كبير. فمحاكمة الاحداث في البلاد الاجنبية تتمُّ امام قاض واحد يجلس في حجرة بسيطة ومعهُ مساعد او مساعدة ويبحث مع الطفل كأنهُ والده . بل ان بعض ولايات اميركا عينت للقضاء في مسائل الاحداث سيدات لأنهن أعلم بطرق معالجة الطفل وادعى لطمأنينتهِ وتعرف مواضع الضعف او النقص التي تحتاج الى العلاج من الرجال، بل اكثر من هذا تشترط بعض الدول في قضاء الاحداث التخصص في دراسة طباع الاطفال وتضم اليهم اخصائيين في هذا النوع من الدراسة، ففي ايطاليا صدر تشريع في سنة ١٩٣٣ يقضي بأن يعاون قاضي الاحداث عددٌ من الرجال والسيدات يجمعون له معلومات وافية عن نشأة الطفل وبيئته حتى يستطيع ان يقرر جميع الظروف المحيطة بهِ وتجري المحاكمة في جلسة خاصة لا يدخلها الجمهور ولا أثر فيها لمظاهر السلطة. بل ذهب التشريع الايطالي الى أبعد من ذلك فاشترط تخصيص هيئة من المحامين للدفاع عن الاحداث فلا يتولى الدفاع عنهم الاّ من كان اخصائيًّا في امور معالجتهم وهناك في دائرة كل محكمة قائمة باسماء هؤلاء الاخصائيين يختارون من بين الاشخاص الذين اعدّتهم دراستهم او جهوداتهم الاجتماعية لاداء هذه الرسالة الخطيرة الخاصة باصلاح الاحداث

***

هذا في الخارج اما في مصر فلم نخط حتى الآن خطوة جدية في هذا السبيل فنظام الاحداث عندنا لا يزال في حاجة الى عناية كبيرة سواء من الوجهة القضائية او الاجتماعية. فمن الوجهة القضائية يحاكم الاحداث في مصر والاسكندرية امام المحاكم العادية. بل ان في مصر والاسكندرية اللتين فيهما محكمتان خاصتان تستأنف قضايا الاحداث امام محاكم الجنح المستأنفة فيقف الحدث في قفص واحد مع المجرمين العتاة او المزورين او المتجرين بالمخدرات . ثم ليس في بلادنا اصلاحيات كافية، اذ ليس عندنا الاّ اصلاحية الجيزة وقد اصبحت خاصة بالمتشردين واصلاحية اخرى زراعية في المرج للمجرمين واصلاحية صغيرة للبنات مجرمات ومتشردات بجوار اصلاحية الجيزة وهذه الاصلاحيات قليلة جداً لا تفي بحاجة البلاد . وكثيراً ما يوقف ارسال الاحداث

اليها لازدحامها بمن فيها. وليس هناك محل للمقابلة بيننا وبين البلاد الاخرى في هذا الشأن فاكثر هذه البلاد ملأى بالاصلاحيات وهي في الواقع مدارس صناعية او زراعية مهمتها اصلاح المجرمين او المتشردين الاحداث وابعادهم عن طريق الاجرام وترغيبهم في الدروس وسلوك سبيل قويم بوسائل حديثة مشوقة تجعلهم يقبلون على هذه المدارس بمحض ارادتهم

كذلك من الوجهة الاجتماعية امامنا مجال واسع للاصلاح فالعدد الاكبر من الاحداث يدفعون الى الاجرام او التشرد بتحريض اشخاص لا يلحقهم اي عقاب مع انهم هم المجرمون الحقيقيون. واكثر التشريعات الحديثة تقضي بعقابهم باشد العقوبات. ومن المدهش ان اكثر هؤلاء المحرضين هم من أقرب الناس للاحداث كآبائهم او أولياء امورهم. وكثيرون منهم لا يستحقون تلك النعمة الجليلة نعمة الابوة فيسيئون استعمال سلطتهم على الاطفال ويشجعونهم على الاجرام او التشرد او على الاقل يكونون اسوأ قدوة لهم او يهملونهم ويتركونهم بلا ملجأ يتجولون في الشوارع ويتضورون جوعاً. واني لاذكر عندما كنت في وقت ما وكيلاً لنيابة الاحداث ان جاءتني ام حكم عليها بالحبس مراراً لسرقات وطلبت مني ان انزع ابنتها وهي طفلة في السابعة، من حضانتها لانها تخشى ان تشب البنت على سلوك امها، ولم اجد في التشريع ما يساعد على نزع هذه البنت فلجأت الى الطريق الاداري حيث استطعت الحاق البنت بأحد الملاجيء

لهذا يجب ان نتلافى نقص التشريع المصري في هذه الناحية بوضع نظام يكفل انقاذ الطفل من اسرته اذا كانت الاسرة هي سبب فساده، ومثل هذا النظام متبع في كثير من البلاد الاخرى بل قد وصلت العناية بالاحداث في تلك البلاد ان اصبح القوم هناك يهتمون بتقصي اسباب الشذوذ في الاطفال الذين يتضح انهم غير عاديين في سلوكهم او تفكيرهم باعتبار ان هذا الشذوذ قد يؤدي الى الاجرام او يجعلهم غير صالحين لخدمة المجتمع. وهناك دور خاصة تقوم بفحص هذه الحالات طبيًّا ونفسيًّا وتتابع كل حالة بما تستحق من عناية. وقد قرأت لاحد الاطباء القائمين بادارة مستشفى من هذا النوع في نيويورك اسمه الدكتور وليام لا نجفورد انهُ وجد حالات كثيرة ظهر فيها من الضروري معالجة حالة والدي الطفل قبل الطفل ذاته او معالجة ما تحفل بهِ حياة الاسرة ذاتها من اشكالات هي السبب الاصلي لشذوذ الطفل او انحرافه عن الطريق السوي

***

بقيت مسألة تدل على انهُ حتى في وسيلة الاصلاح الوحيدة التي نلتجيء اليها في مصر وهي وجود اصلاحية للاحداث لا نزال بعيدين عن الغاية المنشودة. فالأحداث الذين يتخرجون من الاصلاحية يتركون وشأنهم في هذا البحر الخضم من دون أية عناية. بل قد لا يجدون عملاً يرتزقون

منهُ من نوع العمل الذي دربوا عليهِ في الاصلاحية ، فلا تبقى أمامهم الا العودة الى الاجرام او التشرّد مرّة أخرى، كأن الأمر ساقية تدور في مكان واحد . حتى انهُ لو روجعت سوابق كثير من المجرمين المعتادي الاجرام الذين في اصلاحية الرجال لثبت انهم دخلوا في حداثتهم إصلاحية الاحداث. ولا علاج لهذه الحالة الا بانشاء نظام لرعاية الاطفال بعد خروجهم من الاصلاحية ، واعتقد انهُ قد بدىء في وضع مثل هذا النظام بانشاء مؤسسة صناعية يشتغل فيها الاحداث المتخرجون من الاصلاحية ويا حبذا لو قرن ذلك بانشاء جمعية تتولى رعايتهم في هذه المؤسسة او خارجها

***

هذه بعض المسائل التي يجدها الباحث في مشكلات الاحداث — وغيرها كثير لا يمكن الالمام بهِ في مثل هذا المقام. على انه يكفي ان نشير الى ما لمسائل الاطفال من شأنٍ كبير فأثرها يمس المجتمع في ادق نواحيه. ولهذا نجد ان مشكلات الاحداث لاقت ولا تزال تلاقي عناية تامة في اكثر البلاد المتمدنة بل ان كثيراً من المؤتمرات الدولية تعقد دوريًّا لبحثها وتقرر أوفى وسائل الاصلاح والمعالجة التي يجب اتباعها وأقرب مؤتمر دولي عقد في هذا الشأن هو الذي عقد في بروكسل سنة ١٩٣٥ وكان أهم ما تعرض له المسائل الآتية

١ — تخويل السلطة لقاضي الاحداث او لهيئة خاصة لتشرف على استعمال الوالدين لسلطتهم بحيث تستطيع الحد منها عند اللزوم

٢ — العناية بالاطفال في القرى (وهذا موضوع يهم مصر جدًّا للحالة السائدة في القرى المصرية والعمل على تعضيد حركة عودة الاطفال الى الاقامة في قراهم مع العمل على جعلها وافية بما يحتاج اليهِ الطفل من عناية)

٣ — معاملة المجرمين الاحداث معاملة خاصة أساسها وضع الحدث تحت ملاحظة طبية ونفسية وبيولوجية ، وتعاون المدرس والمربي النفساني والطبيب على معالجة الحدث المجرم ، على ان يكون العلاج فرديًّا اي يعامل كل طفل بما يتفق وحالته. وقد يكون من الطريف ان نعلم ان هذا المؤتمر قرر ان يستعان في تدبير المال اللازم لتنفيذ مقترحاته بضرائب تفرض على غير المتزوجين او على الذين لم تنجب زواجهم اطفالاً ، أي ان يشترك العزاب والمحرومون من الاطفال في تربية اطفال الامة الذين تعوزهم العناية الابوية الاصلية

فاذا كان من فوائد هذا المؤتمر الحالي ان يوجه النظر الى مشكلات الطفولة ويرشد الى حلها او ينبه الى بعض وجوه الاصلاح في هذه الناحية الهامة لأدى بذلك أكبر رسالة اجتماعية لبلادنا في الوقت الحاضر

الاطفال الشواذ

للامين سامي حسونة بك
ناظر معهد التربية

١ — التربية الحديثة تعتبر الطفل من المادة الدراسية وهي في ذلك تخالف ما درجنا عليه من العناية بالدروس المدرسية وحشو أدمغة التلاميذ بشتى المعارف دون نظر الى الطفل نفسه . فقد كان همنا ولا يزال مناهج الدراسة وشغل اليوم المدرسي بالدرس والتحصيل . اما المدرسة الحديثة فتجعل الطفل نفسه مادة الدراسة فتتناول وظيفتها نمو الطفل جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا ولذلك اشترك في اعداد وسائل التربية للطفل اخصائيون في هذه النواحي منهم الطبيب والسيكولوجي والمعلم وخبير الشؤون الاجتماعية وهؤلاء جميعاً يتعاونون في هذه الوظيفة السامية ومن ذلك نشأت العيادات الطبية السيكولوجية واتسع عملها واصبحت جزءًا متمماً لعمل المدرسة للعلاج والارشاد

٢ — ولما كان التعليم قد صار الزاميًّا في جميع الدول المتمدينة ومجانيًّا في مرحلة التعليم الاولي أو الابتدائي وفي المرحلة التالية ايضاً في كثير منها بحكم ان الانفاق على التعليم قد صار من خير الوسائل لاستثمار مال الدولة. ولما كان الاطفال لم يولدوا جميعاً كاملين ذوي استعداد واحد فقد تعاون هؤلاء الاخصائيون في ايجاد التعليم الملائم لكل فئة وبرز السيكولوجي في الميدان واخذ يعمل مع الطبيب والمعلم والخبير الاجتماعي وقسموا الاطفال الى فئات ثلاث الموهوبين والعاديين والشواذ. فالموهوبون هم الاذكياء ولهؤلاء تعليم يلائم ذكاءهم ويكون منهم القادة والزعماء والبارزون في جميع الاعمال . والعاديون وهم الاغلبية ولهم تعليمهم الخاص ايضاً . واما الشواذ فهم المرضى والبائسون . وشذوذ هؤلاء اما جسمي واما حسي أو عقلي ويتفرع منهُ الشذوذ الخلقي . وذوو الشذوذ الجسمي يجب ان تكون لهم مدارس خاصة وتعليم خاص يعدهم للحياة العملية ويجب ان تهيأ لهم اسباب السعادة في مرحلة التعليم وان يعالجوا علاجاً يحسّن حالتهم بقدر الامكان . والسبب في عزلهم في مدارس خاصة ان لا يشعروا بالنقص والعزلة اذا وجد في مدارس العاديين ولان اساليب تعليمهم وعلاجهم تختلف عن اساليب وتعليم العاديين وعلاجهم . ومن هؤلاء الصم والبكم والعميان والمصابون بقصر البصر والابترون والمقعدون والبرص والمرهفون ذوو العلل الصدرية والقلبية ولهؤلاء الاخيرين مدارس تسمى مدارس الهواء الطلق

وهنا اقف قليلاً لازيل سوء الفهم الشائع بمصر عن مدارس الهواء الطلق فمنذ حين طلبت الوزارة للمدارس ان تعنى بالتعليم في الهواء الطلق واخذ كل مدرس ينتقل بتلاميذه الى حوش المدرسة يعلمهم

في الهواء الطلق سواء أكان الجو صافياً نظيفاً ام شديد الحرارة ام ذا رياح محملة بالأتربة . ومرت الايام ونام المشروع وخبت الحماسة له. وفي الايام الاخيرة قرأنا في احدى جرائد الصباح اليومية ان بعضهم تقدم لوزير المعارف بمشروع يقضي بانشاء مائة مدرسة من مدارس الهواء الطلق في الارياف تقوم كل مدرسة على قطعة ارض مساحتها فدان ويحيط بسور من الاسلاك الشائكة ويبنى الاساس بالحجر ويكمل البناء باستعمال الطوب النيء للاقتصاد طبعاً — وكل هذا للاسف خلط في خلط ولا يقوم على دراسة او معرفة الحاجة الى هذه المدارس . فمدارس الهواء الطلق لا يقصد منها مجرد التعليم في الهواء الطلق ولا يقصد منها ان تكون لجميع التلاميذ وان كان من المسلم انها تكون خيراً من المنازل المستأجرة لمدارسنا . وانما المقصود ان تكون للمرهفين وهؤلاء يحتاجون لتعليم خاص ليس فيه ارهاق و علاج جسمي خاص والعاب رياضية خاصة وغذاء خاص وراحة في أسرة اثناء النهار وخصوصاً بعد الغداء ويقوم بالاشراف عليهم مدرسات وممرضات يكونون تحت اشراف الطبيب باستمرار ويحسن ان تكون مدارسهم داخلية لضمان العلاج والاشراف على التمريض ومن ينقه من الاطفال ينقل الى المدارس الاخرى العادية على ان يلاحظ في ذلك أن الاطفال المسلولين فعلاً يجب فصلهم في مدارس خاصة بهم حذر العدوى وتسمى المصحات. والعجيب في الاقتراح انهُ سيجعل المائة المدرسة في الريف مع ان المدن هي المحتاجة الى هذه المدارس حيث يكثر المرهفون واطفالنا في الريف والحمد لله يمرحون في الشمس والهواء الطلق طول النهار

٣ — نأتي الآن للشذوذ العقلي . وقبل ان نتكلم عنهُ يحسن ان نقول أن علم النفس التجريبي قد تقدم تقدماً كبيراً في العشرين السنة الاخيرة فاصبح من الميسور قياس الذكاء والقدرات العقلية ومعرفة الموهوبين والعاديين وناقصي الذكاء بواسطة مقاييس مقننة يعتمد عليها كل الاعتماد . وقد صار لهذه المقاييس شأن هام لا في تدبير اساليب التعليم فحسب بل في حل كثير من المسائل التعليمية .ومن بينها مشكلة الامتحانات فعلى اساس هذه المقاييس يوزع التلاميذ في الفصول المختلفة بالمدرسة وتهيأ الدراسة المناسبة لكل فئة.ومن نقص ذكاؤهم عن مستوى خاص (٧٥ ./ من الذكاء العادي) عادةً تنشأ لهم مدارس خاصة تسمى مدارس الشواذ عقليًا وتكون الدراسة فيها عمليًا وفردية لكل طفل بحسب استعداده وقدرته وتؤهل للعيش الهنيء والرضا بالحياة

٤ — والنقص في الذكاء والتأخر في الدراسة قد يكون ناشئاً عن امراض جسمية كالزوائد الانفية واضطراب افرازات بعض الغدد الصم او الامراض المتوطنة او الامراض الوراثية او اصابة مخية او مرض قديم من امراض الطفولة كدسوتاريا حادة او حمى التيفود وكل هذه يعالجها الطبيب. وهنا تبرز فائدة تعاون الطبيب مع المدرسة وفائدة العناية بصحة الطفل. وقد يكون السبب ناشئاً من اضطراب البيئة او فقر الاسرة وسوء المسكن او التغذية او ادمان احد

الابوين او سوء معاملة المدرس . وهنا تبرز فائدة الخبير بالشئون الاجتماعية واتصال المدرسة بالمنزل . وقد تدهشون لو علمتم ان كثيراً من الأطفال الأذكياء يذهبون ضحية الاضطراب العائلي او ضحية نظامنا المدرسي

ويتصل بالشذوذ العقلي شذوذ آخر يمكن ان نسميهُ بالشذوذ الخلقي وأقول يتصل بهِ لأن الشذوذ الخلقي يؤثر في العقل وفي قدرة التحصيل . وأسوأ انواع هذا الشذوذ ما يصل الى درجة الاجرام عند الاحداث ولذلك أنشئت لهم اصلاحيات الاحداث لا ليسجنوا فيها بل لاصلاحهم وعلاجهم وعلى هذا يجب ان تكون الاصلاحيات في يد مربين مصلحين وتحت اشراف عيادة سيكولوجية . وقد صار من الميسور علاج الشذوذ البسيط عند الاطفال كالكذب والسرقة والشراسة والخوف وما شاكل ذلك بارشاد العيادات السيكولوجية وباتصال المدرسة بالبيت وازالة أسباب هـذا الشذوذ

والآن يجب ان اقول كلمة عن الشواذ بمصر وأين هم وواجب وزارة المعارف نحوهم . لا جدال ان الشذوذ بأنواعهِ موجود بمصر ويجب ان تنشأ للشذوذ الجسمي مدارس على ميزانية التعليم العام وان يعد المدرسون بهذه المدارس اعداداً خاصًّا

أما الشذوذ العقلي فيكفي فيهِ ان نوزع التلاميذ في جميع المدارس على حسب مقاييس الذكاء ثم نسير في تعليم كل فئة على قدر استعدادها وان نفصل من يقل ذكاؤهم عن ٧٥ ٪ في مدارس خاصة تقوم فيها الدراسة على أساس الحس والمشاهدة والتوجيه المهني

ان نظام توزيع التلاميذ في الفصول بمدارسنا نظام عتيق قائم على اعتبار جميع التلاميذ سواء في قدرتهم العقلية وذكائهم . ومن أجل ذلك لا تدهشكم كثرة الرسوب والاخفاق في الامتحانات وكثرة المطرودين من المدارس الاميرية وقلة نسبة النجاح في المدارس الحرة . فالتلميذ الذي يتكرر رسوبه يطرد وينتظم بمدرسة اهليـة ويخفق فيهـا ايضاً لاننا لم نعطه التعليم الملائم لذكائهِ . بل استعجلناه فزل وفقدناه . لا تتهموا المدارس الحرة بتهمة انحطاط التعليم فيها بل لوموا النظام والاساليب

٦ — لقد خرَّج المعهد عدداً لا بأس بهِ من الشبان ذوي الاستعداد الحسن لمجاراة نزعات التربية الحديثة وكل واحد منهم قادر على اجراء مقاييس الذكاء وتوزيع التلاميذ على مقتضاها ويجب الانتفاع بهم في هذا الامر وفي توجيه التعليم توجيهاً يلائم كل فئة ويجب أن يمنحوا شيئاً من حرية التصرف وان يقوم العمل بالمدرسة على المرونة وحل المشكلات كلاًّ منها على حدة لا التقيد باللوائح والمنشورات والعمل من اجل النتائج والامتحانات

٧ — اذا آمنا وصدقنا ان الطفل هو مادة الدراسة الحقيقية وان المواد الدراسية يجب ان

تصاغ على قدر استعداد الاطفال. واذا آمنا بأن التعليم هو اعداد للحياة السعيدة وان مرحلة التعليم هي جزء من الحياة ولذلك يجب ان نعمل على جعلها سعيدة ايضاً لا مرهقة منفرة، اذا آمنا بكل ذلك فقد آن الاوان ونحن في مستهل عهد يتطلب التجديد والنهوض ان نحاسب انفسنا بانفسنا وان نسأل مثل هذه الاسئلة

١ — هل المدرسة المصرية بيئة صالحة لنمو الطفل جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا

٢ — هل التلميذ في نظر المدرسة المصرية اهم من المواد الدراسية ام همنا الاول هو الدرس والتحصيل والنجاح في الامتحانات

٣ — هل هناك تعاون بين المدرسة والبيت

٤ — هل نحن مدركون ان انفاق المال على التعليم من احسن وسائل الاستثمار في الدولة

٥ — اذا كانت الميزانية لا تسمح بالتوسع وانشاء مدارس خاصة للشواذ فهل فكرنا في التجديد والتنويع في المدارس الحالية بدلاً من انشاء مدارس جديدة على غرار المدارس الحالية وهلاّ فكرنا في انشاء بعض المدارس الحديثة في حدود الميزانية بالغاء بعض المدارس الحالية

٦ — هل تعليم البنت بحالتها الراهنة تعليم مستقيم يعد المرأة حقًّا لرسالتها المقدسة وهي الامومة

٧ — هل التعليم عامة بحالته الراهنة يهيء جوًّا من السعادة في المدرسة ويعد للحياة السعيدة المستقبل بتوجيه كل طفل توجيهاً يلائم استعداده وقدرته

٨ — هل المباني المدرسية الحالية صالحة لنمو اطفالنا وهل اجورها الباهظة تدفع لصالح الاطفال ام لصالح الملاك. وهل هذه الاجور تعادل الارباح المعقولة لجانب من المال اذا وظف في بناء مدارس على الطراز الصحي الحديث واقول الطراز الصحي الحديث ولا اقول الطراز ذي الابهة والفخامة لان المدرسة الحديثة هي المدرسة الصحية البسيطة التنسيق الواسعة الساحات والملاعب

٩ — ثم هلاّ ترون معي بعد هذا البيان ان المدرسة المصرية بحالتها الراهنة لا تعالج الشذوذ فحسب بل تخلقهُ خلقاً من غير قصد

لقد اضطلعت وزارة المعارف وحدها بأمر التعليم والتربية وقيدتنا بأغلال من القوانين واللوائح والمنشورات ومن الكتب والادوات المدرسية ايضاً ولم تترك لنا نحن المعلمين شيئاً من الحرية والتصرف والابتكار فمن حقنا ان نسأل هذه الاسئلة وامثالها لاننا أدرى بحاجات الطفل في مراحل نموه المختلفة

ان مصر استقلت وهذا أوان النهوض والتجديد !!

الاطفال ذوو العاهات

للسيدة زاهية مرزوق

المفتشة بوزارة المعارف العمومية

إن موضوعي اليوم لمن أهم الموضوعات الاجتماعية وأخطرها ولا سيما في مصر ، حيث تقع العين في كل مكان وزمان على عشرات من الاطفال ذوي العاهات ، منتشرين في الشوارع والطرقات يستدرون عطف الجمهور على ما اصابهم من ظلم الحياة

***

سادتي : إن ما شجعني على الوقوف امامكم اليوم هو شعوري بامكان استثارة شعوركم ، نحو تلك الطفولة البريئة المعذبة التي نبذها المجتمع واشمأز منها وهضم حقها وانقلب حرباً عليها ، لا لذنب جنت ولا لجريمة ارتكبت ، إلاّ إذعانها لحكم الطبيعة القاسية ، ووجودها في تلك الحياة لتذوق صنوف الذل والبؤس والشقاء

ان مشكلة العاهات في مصر تخطو خطوات واسعة في سبيل الخطورة والتعقيد ، فقد أثبت التعداد الاخير ان في مصر ما يقرب من نصف مليون شخص ذي عاهة . منهم ١٠٩ آلاف أعمى ، و ٢٦٦ الف أعور ومحدود البصر ، و ٢١ الف أصم وأبكم . والباقون ذوو عاهات اخرى لم اتمكن من حصرها ، تشمل ضعيف العقل ، والمقعد ، والابتر ، والاعرج ، والاشل وغير اولئك . وعلى العموم فان إحصاء العاهات جميعها يسفر عما يقرب من ٣ ٪ من سكان القطر المصري

ولقد أحسنت الحكومة المصرية صنعاً عندما سنت قانون منع التسول ، ولكن هيهات لها أن تمنع ذلك التيار الجارف ، اذ ليست العبرة بالقوانين وانما العبرة بالعمل

وفي رأيي ان ما يقوم به الافراد والجماعات من تفهم أسباب التشرد والعمل على تلافيه لهو أجدى من الف قانون

ويجب ألاّ نأخذ على هؤلاء الشواذ تسولهم ، فطبيعة حب البقاء تدفعهم الى طلب الرزق والعيش ، وانما يجب أن نأخذ على أنفسنا تركهم يتسولون لاعتقادهم أنهم اجسام بشرية مهملة عديمة النفع لاسبيل لها في الحياة الا أن تعيش متطفلة على الغير ، ويجب ان نعتني بتعليمهم وتثقيفهم حتى تنير لهم طرق الحياة ، فيخف عن المجتمع هذا الحمل الثقيل ، ومن يدري فربما ظهر منهم النوابغ والقادة والمفكرون

ولا يمكن أن تعد الامة عادلة إلاّ اذا اعطت كل فرد من أفرادها من دون استثناء حقه كاملاً في التمتع بالثقافة والتعليم. فكما ان للطفل الشاذ الحق في أن يأكل ويشرب وينام فكذلك لهُ الحق في ان يتعلم ويتثقف ويساهم في بناء حضارة أمته ومستقبلها

وللطفل الحق في ان يخرج الى تلك الحياة صحيح الجسم قوي البنية متمتعاً بحقوق الطفولة . فيجب ان نعطيهُ العناية الصحية والتعليمية والخلقية من يوم ولادتهِ الى يوم ولوجهِ حياة الكفاح. وإن تعذر ذلك او كانت الوراثة حائلة دون تنفيذه فيجب ان نرحم الطفل ونرحم أنفسنا ونمنع تكوينه . وإن ما سنته المانيا من منع هذا النسل المشوه لخطوة جريئة تستحق الشكر والثناء

وربما يدهشكم أيها السادة اذا علمتم ان ٩٥ ٪ من العمى في مصر كان يمكن تلافيه والوقاية منهُ . فكم من أطفال أصابهم العمى دون ذنب ، وكم منهم على وشك اللحاق باخوانهم ، وما ذلك الاَّ لاهمال الأم وجهلها أو لعدم ملاءمة البيئة او عدم الاعتناء بطرق التعليم الخاصة وغير ذلك . وفي مصر نجد ان في كل الف شخص ٨ عميان و١٨ من ضعاف البصر او على وشك العمى، وبعبارة أخرى فان عدد اصابات العين ٢٦ اصابة لكل الف شخص، وهذه نسبة لا يستهان بها

وأما من جهة الصمم والبكم فهما أخف وطأة وأقل خطراً . ومن الغريب أننا لا نجد بين المتسولين ومحترفي الشحاذة من هو مصاب بالصمم او البكم الاّ نادراً جداً . وربما كان ذلك ناجماً من عدم ظهور تلك العاهة أمام عين الجمهور فلا يتمكن المصاب بها من استثارة العطف عليه

وأما ضعف العقل فهذا على ما أظن لا يمكن إحصاؤه حتى الآن لعدم استعمال اختبارات الذكاء على الاطفال عامة. فما نجده في الاحصاء العام انما هو تعداد الاطفال البلهاء فقط ، وأنتم تعلمون أن ضعف العقل درجات . ولا ننتظر من ضعاف العقول ان يدركوا جميع القوانين والأصول الاجتماعية فتركهم كذلك في المجتمع انما يزيد مشكلة الاجرام وهدم القوانين الاجتماعية خطورة وتعقيداً . وكثيراً ما تستعمل هذه الفئة كآلة في أيدي المجرمين الأذكياء لقضاء مآربهم الدنيئة

***

وهناك طائفة أخرى من ذوي العاهات هي نتيجة المدنية والحضارة ، فلا يمر يوم الاّ ونسمع بحوادث الترام والسيارات فيذهب الأطفال والرجال ضحيتها، اما الى الموت وإما الى عالم العاهات. وكم من أطفال حرموا لذة الجري واللعب فأصبحوا مقعدين، وكم منهم أصبحوا بتراً وكم منهم فقدوا حاسة أو عضواً من أعضائهم

ولو أمكن عمل تعداد صحيح لهذه الفئة لهالكم أيها السادة تضخم النسبة . ان هذه الحال يجب ألاّ تستمر . فكم منكم لديه أولاد يخاف عليهم ويخشى غائلة تلك الحوادث. فيجب علينا إزاء

ذلك ان نهب لنحافظ على نشء المستقبل الذي نحن أحوج ما نكون الى صحة بدنه وخلوه من العاهات . ويجب ان نحافظ على الغني والفقير منهُ ونصد عنهُ مكاره المدنية وآلاتها

وليس من بلد الا وفيه الآن حركة واسعة النطاق لحفظ النشء ضد الحوادث والأهوال وفي سبيل ذلك يتضامن الشعب مع الحكومة لسلامة الاطفال . ولقد سمعت بانجلترا في الصيف الماضي وزير المواصلات يتحدث بنفسه الى الاطفال خاصة في هذا الموضوع ويذيع عليهم راجياً ان يسمعوا نصيحتهُ الأبوية ويتبعوا التعليمات والارشادات المعطاة لهم في المدرسة عن كيفية عبور الشوارع وإرشادات البوليس وغير ذلك مما يضمن لهم السلامة العامة

***

وكثيراً ما نجد الاطفال في مصر يتخذون الترام وسيلتهم الوحيدة للهو والتسلية ، أو يلعبون في الشوارع العامة معرضين انفسهم للأخطار . وما ذلك الا لمجرد حبهم الطبيعي للعب والتسلية . وهم في الحقيقة يجب ألاَّ يلاموا على ذلك وإنما يجب ان نلوم انفسنا على عدم انشاء المحلات اللائقة والكافية لاشباع ميلهم الطبيعي للعب . اذاً فيجب على الحكومة ان تضع نصب عينها انشاء ملاعب الاطفال وتزويدها بما يجب من الألعاب المسلية البريئة التي تلذ للاطفال وتجدد نشاطهم . وكثيراً ما نجد في البلاد الاوربية والاميركية هذه الملاعب مزودة بجميع اللُّعَب ، منظمة أحسن تنظيم وبها اخصائيون لادارة الالعاب وارشاد الاطفال

يجب علينا ان نفكر جديًّا في مشكلة الاطفال ذوي العاهات ، ويجب علينا ألاَّ نتركهم في الشوارع يهيمون . بل يجب أن ننشيء لهم المعاهد العلمية الصحيحة التي فيها يجد الطفل ما يحتاج اليه من التربية والتعليم والتوجيه الخلقي والعملي الصحيح الذي يعده ويمكنهُ من تذوق لذة الكفاح في الحياة. ولو اتسع الوقت لذكرت لكم المدهشات التي يراها الانسان عند زيارة هذه المعاهد في اوروبا واميركا ، فتجد الشخص الذي يقرأ بلسانه ، او يكتب ويرسم برجليه ، وغير ذلك مما يدلنا على قوة استغلال كل ما يمكن استغلاله من أعضاء المرء ليعوض نفسهُ جانباً مما فقده بفقدان الأعضاء الاصلية

ولا أطيل الحديث ايها السادة، ولكني متأكدة أن في وسع كل فرد منا رفع مستوى أمته في ناحية من النواحي ، وهذا ليس بالمساعدة في إعطاء الشحاذين والمتسولين القروش والملاليم ، ولكن بنشر الدعاية او بمطالبة الحكومة بإنشاء ملاعب للاطفال في كل قسم او بجمع التبرعات للجمعيات الخيرية، او تفهم الاطفال تفهماً صحيحاً يخفف عبء المشاكل الاجتماعية التي نجدها في المنازل المصرية

الطفل وأوقات الفراغ

ليعقوب فام

يقصد بأوقات الفراغ تلك الفترة الزمنية التي تعقب النشاط المدرسي ، فالطفل يذهب الى المدرسة في الساعة الثامنة مثلاً ويخرج منها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ثم يستذكر دروسه ساعتين او ثلاثاً ، وينام بعض الوقت وينفق البعض الآخر في الاكل ولوازم الحياة الضرورية وما تبقى بعد هذا يعتبر وقت فراغ في حياة الطفل

واول شيء نلاحظهُ في مصر انهُ ليس للطفل فراغ بالمعنى الذي نفهمهُ لان معظم ساعات النهار تنفق في الدروس والمدرسة ومايتصل بهما عن قرب او بعد ، ومجموع ما يصرفهُ في هذا يقرب من ستين ساعة في الاسبوع وهذا بالطبع كثير على صبي ما بين العاشرة والسادسة عشرة، وقد حرّم على المصانع في الغرب ان تشغل العمال البالغين اكثر من ٤٨ ساعة في الاسبوع وبعض الامم جعلها اربعين ساعة فما بالك وهؤلاء اطفال يفعة يحتاجون الى الحرية لينموا نمواً يتعذر من دونها

لقد غالينا في مسألة التعلم مغالاة جعلتهُ عبئاً ثقيلاً على الناشئة ، ولا سيما والتعلم في مصر من الاعمال الشاقة المرهقة التي تنوء بها قوى الاطفال البدنية والعقلية ، وعوضاً عن ان تكون المدرسة امتيازاً للاطفال اصبحت تكليفاً لهم، وحرام ان ينوء اطفالنا بتكاليف الحياة وهم في مستهل حياتهم

الواقع ان التعليم عملية تتم في نطاق النشاط العادي ومن غير حاجة الى هذا الارهاق . يستطيع الطفل ان يتعلم ما يشاء وما يراد لهُ عن طريق اللعب والنشاط الحر الذي ينبعث عن دوافعه النفسية ، ولست اعرف طفلاً واحداً خرج من اسرة حديثة راقية من دون ان يكون قد تعلم مبادىء القراءة واللغة او بعض اللغات ، والحساب والجغرافيا وما اشبه . وذلك عن طريق اللعب والنشاط الحر دون ارهاق او تكليف ثقيل ، فاذا كان هذا مستطاعاً في بعض الحالات فلماذا لا يكون مستطاعاً في جميع الحالات ؟ لا بل لماذا لا يتعلم الاطفال عن هذا الطريق — طريق اللعب والنشاط الحر — كل ما يزعمون ان يتعلموه ؟ ولماذا لا تستنبط المدرسة طرقاً متعددة متباينة تجعل التعليم في حكم اللعب عوضاً عن ان يكون في حكم الاشغال الشاقة ؟

يخطىء من يظن ان الحياة مؤسسة على المعارف والمعلومات او الحقائق المستقلة التي تتعلمها في المدرسة او في غير المدرسة . اننا بالطبع لا ننكر ان الحقائق نافعة للحياة ، بل خيرٌ لي ان اعرف

الجهات الاربع الاصلية ، وينفعني ان اعرف الشرق والغرب والشمال والجنوب ، حتى لا اضل الطريق الى هذا المكان او ذاك ، وحتى استطيع التفاهم مع الناس فيدلوني على مكان حديقة الحيوانات دون ان يكلفوا انفسهم الذهاب معي ، وخيرٌ لي ولك ان يكون في استطاعتنا تمييز الالوان حتى نستطيع ان نتفاهم مع الناس ، هذا حق ، ولكنهُ حق من الجهة الاخرى ان هذه المعارف والحقائق ليست اساسية للحياة ، فالفرد يستطيع ان يعيش وينشط دون ان تكون له هذه الحقائق. والدليل على ذلك ان الجالسين في هذا البهو قد يختلفون فيما بينهم على تحديد هذه الجهات . وهذا يحدث عادةً عند ما ينتقل المرء الى بلد غريب ، أما الألوان فأمرها مشهور معروف لأن اختلاط الالوان مرض منتشر الى حدٍّ ما وهو ما يسمونه Colour Blindness وهو مرض يصعب اكتشافه في الفرد المصاب بهِ ، وعلى كل حال ماذا يفيد الأعمى من الالوان !

الغاية من هذا الكلام ان الحياة لا تتوقف على معلومات مفردة متباينة يجمعها الفرد في المدرسة او في غير المدرسة عن طريق التلقين ، وانما ما ينفع الحياة هو الاختبار ، الحياة والعيش من يوم الى يوم ، الأخذ والعطاء بين أفراد الناس ، الاحساس المباشر بمؤثرات الحياة حولنا ، وهذه جميعاً لا يحصل عليها الطفل من الجلوس في حجرة الدرس ، وانما ينالها من معاركة الكون الطبيعي حوله ، ومن اتصاله اتصالاً مباشراً بالاحياء وبالنظم الاجتماعية

في المدرسة يحصل الطفل على معلومات وحقائق قد تنفعهُ في حياتهِ العادية وقد لا تنفعهُ ، وانما يجمعها على كل حال ، وفي خارج جدران حجرة الدرس يخضع لمؤثرات الحياة ، ويستجيب لهذه المؤثرات بنشاط ينبعث عن دوافعه النفسية ، ونشاطه هذا هو في الواقع الأساس الذي تقوم عليهِ حياته في مجموعها . في المدرسة نعرف ، وفي خارج المدرسة نعيش ، ونحن هنا نطلب العيش للطفل لأن غرامنا في هذا البلد بجمع المعلومات المبعثرة المتناثرة قد طغى على تقديرنا للحياة والعيش . لقد اصبحنا نرغم أطفالنا على اهمال الحياة والعيش من أجل فتات الحياة ، من أجل بعض المعلومات والمعارف التي لا تسمن ولا تغني من جوع

اذا كان الأمر كذلك فحياة الطفل تتوقف الى حدٍّ كبير على نشاطه خارج حجرة التدريس ، او على أوقات فراغه ، ونوع النشاط الذي يقوم بهِ من تلقاء نفسه من دون ارغام أو ضرورة خارجية ، هذه الفترة هي التي تكوّن الطفل وتكيف حياتهِ من جميع جهاتها ، وتنمي ملكاته النفسية والبدنية ! وماذا نطلب نحن الآن هذا ؟ ماذا نريد غير تكييف حياة الطفل وتنمية ملكاته ؟

لا نقصد من كلمة « الفراغ » الوقت الضائع لغير غاية أو قصد ، الذي نراه يتناثر من بين أصابع الناس بالدقائق والساعات ، فهذا وقت لا ينفع الحياة بحال من الاحوال ، وانما يقتطع منها

لغير سبب الا الكسل والاهمال ، وهذا هو الحال مع كثير من الشبان والرجال الذين ينفقون ما يقرب من خمس أعمارهم في شرب عدد من فناجين القهوة على قوارع الطرقات. انما نقصد بأوقات الفراغ تلك التي يقضيها الصبي في نشاط حر من تلقاء نفسه منبعث عن الدوافع الطبيعية للحياة كاللعب مثلاً

اللعب ميدان فسيح من ميادين الحياة تنشط فيه لأغراض تتوخاها الحياة بنفسها ، انهُ ضرورة من ضرورات الحياة كالغذاء والتنفس سواء بسواء مع فارق بسيط بينهما ، وهو ان الضرر الناشيء عن حرمان الطفل من اللعب ضرر مؤجل تظهر آثاره بعد سنين كثيرة ، بينما الضرر الذي ينتج عن حرمانه من الغذاء حرماناً باتّاً ضرر عاجل تظهر آثاره في أيام معدودات

نريد ان نثبت هذه الحقيقة في ذهن الجمهور المصري وهي ان الحياة تتوقف على نوع النشاط الذي تقوم به ، فلا ينفع الحياة شيء سوى ما تقوم بهِ هذه الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، الحياة كوحدة كاملة والحياة في اعضائها المتعددة، وبعبارة اخرى لا ينفع الرئة مثلاً الا ما تقوم بهِ هي نفسها ، اذا ما انتفخت وتقلصت في هواء نقي ، فالرئة لا تصبح قوية بحال الا اذا نشطت ، والا اذا كان نشاطها منظماً مستمراً ، وعندما يضعف نشاطها تضعف هي ، ثم اذا انقطع نشاطها انقطعت بها سبل الحياة

هذا هو شأن الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، نريد ان يكون طفلك عداءً ، مهد السبل لقدميهِ لتنشط ، دعهُ يجري ويعدو ، ولا نستطيع ان نرى سبيلاً غير هذه لمثل هـذه الغاية ، فأرجو ان تسمحوا لي ان اكرر هـذه الحقيقة مرة اخرى وهي ان الحياة لا تقوم بحال من الاحوال الا على ضروب النشاط الذي تضطلع بهِ الحياة

١ — اذا كان الامر كذلك دعونا نعود الى موضوع اللعب، لنرى مقدار صلاحه كميدان لنشاط الفرد، ولا اظن احداً هنا ينازعنا في ان اللعب بانواعهِ ميدان صالح لتنمية الجسم في مجموعه ، ولتقوية اعضائه كل على حـدة . هذه حقيقة مفروغ منها ، اذا كنا نريد اطفالنا على ان يكونوا اصحاء البدن اقوياء البنية معتدلي القامة على جانب وافر من النشاط ، فما علينا الا ان نمكنهم من أخذ حاجتهم من اللعب

٢ — ولكن الناحية المادية من اللعب ليست هي كل ما يناله الفرد من هذا الضرب من النشاط ، فقد استقرَّ في ذهن البعض من قديم الزمان انه نشاط مادي بدني صرف ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لان علماء التربية مجمعون على انهُ نشاط عقلي اجتماعي ايضاً ، فالارتباط بين البدن والعقل امرٌ مفروغ منهُ ، هذه المادة التي تنطوي عليها جمجمة الرأس والتي يتم فيها النشاط العقلي هي مادة بلا شك، شأنها كشأن جميع المواد تتغذى وتتكيف وتنمو وتنشط كباقي الاعضاء، سواء بسواء وحظ هذه المادة من النشاط الذي ينبعث من اللعب حظٌ وافر غزيرٌ ، فهي بحكم مركزها

تهيمن على كل انواع النشاط ، ولا يمكن ان يتمّ نشاطٌ ما في أي جزء من اجزاء الجسم دون ان يمر هذا النشاط اولاً بتلافيف المخ او ما يتصل بهِ كالحبل الشوكي ذهاباً واياباً فكل حركة يأتيها الانسان طوعاً لا بد وان تمر بهِ

٣ — قلنا ان اللعب ليس نشاطاً ماديًّا صرفاً ، والآن نقول انهُ نشاط يشمل جميع مناحي الحياة من عقلية واجتماعية وبدنية والفرق بين اللعب والعمل في رأينا هو ان الاول منهما ينبعث من دوافع نفسية ، بينما العمل منشأه الدوافع الخارجية ، فالنجار الذي يفضل شيئاً آخر على النجارة ومع ذلك يشتغل بها لإقامة اود حياتهِ وحياة عياله انما هو يشتغل ، ولكن الطالب الذي يمارس النجارة للتسلية فهو يلعب ، وهذا الضرب من النشاط لهُ اثره في اخلاقه وتكوينهِ ، وهكذا الحال في جميع مرافق الحياة ، فقد يكون الامر الواحد لعباً وعملاً شاقًّا في نفس الوقت

والناس قد اصطلحت على ان تترك اللعب لاوقات الفراغ ، او بمعنى آخر يلعب الانسان اذا لم يكن مكلفاً من جهة ما القيام بعمل معين ، وفي آخر الامر يصبح اللعب نوعاً من العمل يهواه الفرد ويضطلع به اجابة لميولهِ الخاصة ومشاعره النفسية

ونحن ندعو في التربية الى الاكثار من هذا الضرب من النشاط فان عليهِ يتوقف مصير الفرد ، نريد من الامة المصرية ان تراعي ميول الاطفال عندما تسن لهم مناهج التعليم حتى لا يصبح العلم اشغالاً شاقة يدفع عليها الاطفال قسراً وهم صاغرون

تحاول وزارة المعارف ان تدخل هذه الروح — روح اللعب — الى حجرات الدرس ، فان نجحت في هذا خدمت اطفال هذا البلد ، وان عجزت دونهُ ، ستبقى مشكلة التعليم قائمة في مصر





٩ مارس ١٨٣٧ — ١٧ نوفمبر ١٨٣٨

امير اللواء مصطفى مختار بك مدير المجلس العالي ومدير المدارس

ويصح ان يقال انهُ أول ناظر للمعارف المصرية في عهد الاسرة العلوية



الجزء الرابع من المجلد التسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٧ ١٨ محرم سنة ١٣٥٦

اين تبدأ الحياة

بحث في دقائقها الصغرى

في مقدمة المعضلات التي يواجهها العلماء ، معضلة طبيعة الحياة

لهذه المعضلة نواح كثيرة تستوقف انظار الباحثين وتستحث هممهم ، كالامراض المستعصية وبرئها ، وتحسين النسل ، ووسائل تجديد الشباب والتعمير ، وغيرها ، ولكنها جميعاً مما لا يمكن ان يحلّ على الوجه الأتم الا اذا حلت تلك المعضلة الاساسية ، معضلة طبيعة الحياة

قد يكشف العلماء حقائق جديدة تميط اللثام قليلاً عن هذه الطبيعة ، ككشفهم ان القطران يسبب انواعاً خاصة من السرطان ، او ان الاشعاع يفتك بالنوامي السرطانية ، ولكن النفوذ الى اعماق السر متعذر الا اذا فهمت الحياة من حيث علاقتها بدقائق المادة وما ينطوي فيها من النظام والطاقة

قال الانسكلوبيذيون الفرنسيون في القرن التاسع عشر ، ان الحياة هي ما يقاوم الموت. ولكن ما هو الموت ؟

ليس ثمة صفة واحدة من الصفات التي يسندها العلماء الى الاجسام الحية ، لا يمكن ان تستند كذلك الى الجوامد . فالجسم الحي يتكاثر وكذلك بلورة الملح والشب . والشرغوف الذي جم ذنبه ينمي ذنباً آخر ، وكذلك الذرة التي اقتطع جزء منها تستكمل نفسها بالجذب . والاميبا تستجيب لحوافز خارجية ، وكذلك جزيئات الغاز المؤين ، تستجيب لحوافز خارجية عند ما

يكون الغاز في مجال مغنطيسي او كهربائي. الانسان والبراميسيوم يتنفسان، ولكن من الميكروبات ما يعيش من دون تنفس ، ومن الجوامد ما يتناول الاكسجين ويطلق ثاني اكسيد الكربون

فليس ثمة مقياس واحد يمكن ان نقيس به الحياة في جميع الاجسام. جسم ذنب جرذ والجرذ يبقى حياً . او سلّ قلبه وضعه في محلول خاص ، يبقى ذلك القلب حياً شهوراً ، وقد يبقى حياً سنين لا نعرف مداها . بل خذ قطعة من نسيج القلب ، كما فعل العلامة كارل بقطعة من نسيج قلب الفرخ وهو جنين ، وضعه في المحلول المغذي الموافق ، تبقى تلك القطعة حية وهي مفصولة عن القلب

واذا فحص هذا النسيج بالمجهر ظهر انه مؤلف من وحدات كل وحدة منها تشبه كتلة صغيرة من الهلام وهي الخلايا . كل خلية من هذه الخلايا ، حية ، وثمة ما يبعث على الاعتقاد ، بانه في الامكان ، ان نبقي الخلية منها حية على حدة ، كما ابقينا قطعة من نسيج القلب ، اذا كان لنا من الوسائل الدقيقة ما يمكننا من تناول خلية واحدة على حدة . وليس ثمة ريب في ان الخلايا تستطيع ان تعيش مفردة ، لان هنالك انواعاً عديدة من النبات والحيوان قوام الفرد منها خلية واحدة ، تقوم بجميع ما يحتاج اليه الجسم ليبقى حياً . وخلايا النسج المختلفة ليست الا خلايا تخصصت في عمل معين

واذن نستطيع ان نقول ان الاجسام الحية المركبة ، يمكن ان تجزأ الى اعضاء فتحيا الاعضاء كل منها على حدة ، وان الاعضاء يمكن ان تجزأ الى الانساج التي تتألف منها، فتحيا الانساج كل منها على حدة ، وان الانساج يمكن ان تجزأ الى الخلايا فتحيا كل خلية منها على حدة . فهل الخلية هي الحد الادنى للحياة ؟ هل يمكن ان نجزىء الخلية ، وان تحيى هذه الاجزاء كل منها على حدة ؟ اما هل يفضي بنا تشريح الخلايا ، الى جزء فيها ، فيه ترتكز الحياة ومنه تنبثق شعلتها ؟

***

راقب خلية حية على شريحة مجهر قوي ، فترى امامك عالماً آيته التحول الدائم . تجد داخل الغشاء الذي يحيط بالخلية ويعرف بجدارها ، الجبلة (البروتوبلاسمة) دائمة الحركة . ومع ذلك تجد فيها مناطق واجزاء ، يختلف بعضها عن بعض وتختلف جميعاً عن سائر الجبلة في تركيبها المستقر ، فنقول ان الخلية قوامها هذه الاجزاء المختصة من المادة الحية الاساسية

ففي مركز هذه الكتلة الهلامية ، او على مقربة من المركز ، نجد جسماً كروياً ، يبدو كأنه اكثف قواماً من المادة التي تحيط به . هذا الجسم الكروي المركزي يعرف باسم « النواة » والمادة التي تحيط به داخل الجدار تعرف باسم « سيتوبلاسمة »

في امكانك ان تخز جدار الخلية ، من دون ان تقتلها . بل وفي امكانك ان تزيل جانباً كبيراً من السيتوبلاسمة من دون ان تسلب الخلية شعلة الحياة . واغرب من هذا ان ماتنزعه من السيتوبلاسمة يعوض. ذلك ان الخلية قادرة كالشرغوف الذي ينمي ذيله المجموم ،ان تصنع ما تسلبه من السيتوبلاسمة. ولكن اذا آذيت النواة ، كانت النتيجة غير ماتقدم . فهذه الكتلة

المركزية شديدة الاحساس ، بادية المقتل ، لاتستطيع ان تزيل جزءاً منها ، وان تبقيها حية وتستطيع ان تكشف عما للنواة من الشأن الخطير في حياة الخلية، بتجربة بعض التجارب بالخلايا المختصة بالتناسل . وهي على ما تعلم نوعان خلايا الانثى وخلايا الذكر . وقد اثبت بعض الباحثين من سنوات ، انه اذا اخذت بيضة(اي خلية الانثى التناسلية) الرتسا او التوتياء وعالجتها بمحلول مالح ، او وخزتها بابرة ، تحركت كأنها لقحت بخلية الذكر وولدت رتسا جديدة . وفي امكانك ان تأخذ هذه البيضة وتشطرها شطرين بحيث تكون النواة كاملة في احد الشطرين ، ثم تعالج الشطر الذي يحتوي على النواة كما تقدم فيلد ، واما الثاني فيبقى عقيماً. وفي بيض اناث بعض الحيوانات تكون النواة صغيرة جداً بالقياس الى كتلة البيضة فاذا نزعت النواة ، بقيت البيضة وهي تكاد تكون كاملة ولكنها عاجزة عن التوليد

والتلقيح يتم عادة باختراق خلية الذكر خلية الانثى ، ومن ثم تتصل خلية الذكر بنواة خلية الانثى، فتتحدان او تندمجان، وخلية الذكر صغيرة جداً لاتزيد على بضعة اجزاء من مئات الاجزاء من البيضة ، والفحص يثبت انها تكاد تكون كلها نواة لها رأس هو النواة ، وذيل دقيق جداً هو مادة السيتوبلاسمة

ولكن خلية الذكر على صغرها تحمل مزايا الوالد التي يرثها الولد . افلا تستطيع ان تحمل كذلك شعلة الحياة الى احدى تلك البويضات التي نزعت منها النواة ، واصبحت عقيماً على ما تقدم

***

لقد جربت هذه التجربة ، واسفرت عن نتيجة عجيبة . فقد اخذت قطعة من سيتوبلاسمة بيضة لا اثر فيها للنواة، ثم جيء بخلية ذكر من نوعها ، فدخلت خلية الذكر تلك السيتوبلاسمة فاندمجت فيها ، وكأنها نقلت اليها مادة النواة المفقودة ، لانها بعد ذلك الاندماج ، تحركت فيها الحياة ، فانقسمت وتكاثرت وتولد من تكاثرها فرد جديد من افراد نوعها

فالنواة اذن هي الربان في سفينة الحياة . اما حجم النواة ، وما حشك فيها من عوامل الحياة ، فقد وصفه الدكتور ملر (احد اساتيذ جامعة تكساس وهو من كشف تأثير اشعة اكس في احداث التحولات الفجائية التي يقوم عليها التطور) قال : اذا جمعت الخلايا الذكرية التي تولد الجيل المقبل من الناس شغلت حيزاً بقدر نصف قرص من الاسبرين . ولكن العدد المقابل من البويضات (خلايا الانثى التناسلية) يشغل علبة او ابريقاً يتسع لعشرين كوبة من الماء . ولما كانت النواة هي العنصر الفعال في البيضة ، فلنا ان نقول ان نوى البويضات لا تشغل حيزاً اكبر من الحيز الذي تشغله الخلايا الذكرية . واذن فالمادة التي تنبثق منها الحياة في الفي مليون نفس ، يمكن ان تحشك في مدى قرص واحد من الاسبرين

والواقع انه من أشق الامور ان يصدق الانسان ان في هذا الحيز الضيق تجتمع العوامل الوراثية التي تبدو في الفي مليون من الناس في خصائص اجسامهم وعقولهم . ان هذه الخلايا الدقيقة من أعقد الاجسام بناء في الكون ، وللباحث ان يطلع على بعض هذا التعقيد ، بعرضها على شريحة المجهر ، واستعمال بعض الاصباغ المؤاتية . بهذه الاصباغ نستطيع ان

تبين في النواة اجساماً عصوية الشكل او هي كسلسلةٍ حلقاتها من المقانق (السجق) . هذه الاجسام تعرف باسم « كروموسومات » وقد ترجمت بلفظ الصبغيات في المجمع الملكي للغة العربية . وهي توجد في الخلايا التناسلية وجودها في سائر خلايا الجسم . وهي في جميع الخلايا في نوع واحد من الحيوان على مثال واحد ونمط واحد في شكلها وعددها

فخلايا نبات الذرة تجد في نواتها عشرين صبغياً . وخلايا الزنبق اربعة وعشرين . وخلايا الضفدع ستة وعشرين . وخلايا الانسان ثمانية وأربعين . وخلايا الفرس ستين

وقد حاول أحد الكتاب المبسطين للعلم — جورج غراي وعن فصل له في هاربرز لخصنا هذا المقال — ان يبحث عن عدد الصبغيات في خلايا الفيل والبال ، وهما اكبر الحيوانات المعروفة الآن جرماً ، فلم يعثر عليها كأن احداً لم يتناولهما بالبحث من هذا القبيل

ومما يدلك على قرابة الانسان لبعض القردة ان عدد الصبغيات في خلايا قردة آسية وافريقية كعددها في خلايا الانسان . وأما قردة اميركا الجنوبية فأبعد صلة بالانسان وعدد الصبغيات في خلاياها يبلغ أربعة وخمسين

***

ولعل البحث الذي أثبت علاقة هذه الاجسام العضوية بالوراثة ، من أجل البحوث العلمية التي تمت في عصرنا وأدقها . وقد كان رائدها الاستاذ توماس هنت مورغن الاميركي

حصرت هذه البحوث في ذباب الفاكهة (درسوفيلا ميلانوغاستر) لانها سريعة التناسل ويمكن تربيتها وتتبع نسلها في احوال مؤاتية لدقة التجارب العلمية . وكانت الطريقة ، ان يفحص الاستاذ مورغن ومعاونوه ، هذا الذباب جيلا بعد جيل ، لعله يرى فيه صفة جسمية جديدة من قبيل التحول الفجائي mutation ، ثم يحاول ان يربط بين هذه الصفة ، وبين ما يحدث في صبغيات الخلية التناسلية من تغير

فعينا ذبابة الدروسوفيلا ، حمراوان في الاحوال السوية. ولكن قد تولد ذبابة بيضاء العينين احياناً . فلما ولدت ذبابة بيضاء العينين في اقفاص البحث الخاصة ، راقب الباحثون الصبغيات التي في خلاياها التناسلية فظهر لهم فيها تغيير خاص في منطقة معينة. وعلى مثال ذلك بحثوا تسع صفات جديدة حدثت في الاجنحة ، وربطوا بينها وبين ما يحدث في الصبغيات من تغيير .

وقد تأيدت هذه المباحث ، من نحو عشر سنوات ، عندما اكتشف الاستاذ ملر ، ان الاشعة السينية تؤثر في الخلايا الوراثية ، فتزيد عدد التحولات الفجائية (Mutations) التي تصاب بها ذبابة الدروسوفيلا . فثبت بهذا الاسلوب من البحث ، انه حيث تصيب الاشعة السينية عقدة من عقد الصبغي ، يحدث تحول في الصفة المرتبطة بها بحسب بحث مورغن

الا ان بحث الاستاذ ملر اثبت ، ان اصابة الصبغي بالاشعة السينية ، قد تسفر عن تأثير ضار او تأثير مفيد . ففي بعض الحالات ، نسف جزء من الصبغي نسفاً . وفي حالات اخرى ، لصق جانب من هذا الجزء المنسوف بصبغي آخر . وفي حالات اخرى انشطر الصبغي شطرين فلصق احدهما بصبغي والآخر بآخر . وكذلك نشأت في نواة

الخلايا ، تركيبات صبغية جديدة ، ظهر اثرها في صفات الذباب وتركيبها
هذه التجارب تؤيد ما كان ظنًّا حتى الآن . وهو ان الصبغيات مؤلفة من حبيبات تدعى عوامل الوراثة genes اي ان الصبغيات ليست أجساماً لا تتجزأ بل هي تشبه سبحة القسيس لم يتمكن احد حتى الآن من رؤية احد هذه العوامل . حتى اقوى المجاهر لا تستطيع تبينها . ولكن فرضها ، واتساق هذا الفرض مع الحقائق التجريبية المختلفة ، لا يقل قيمة عن فرض الذرات لتفسير تفاعل المادة الكيميائي
فعوامل الوراثة genes هي ذرات الوراثة كما ان المقادير او «الكونتات» هي ذرات الطاقة
واحدث التجارب تدل على ان اصابة بعض العوامل الوراثية باذى قد يسفر عن اضرار جسيمة بل قد يفضي الى الموت. وهذا يحملنا على الظن ان عملها في نواة الخلية ليس السيطرة على الوراثة فقط ، بل والسيطرة على الحياة نفسها كذلك . اما وقد ظهرت صلتها بالحياة فصار ترجمة genes بعوامل الوراثة لا تفي فرأينا ان نسميها جريثيمة تصغير جرثومة وجريثيمات للجمع

***

يعود الفخر في كشف هذه الحقيقة الى المستر دميريك Demeree احد علماء الوراثة والتناسل في معهد كارنيجي بوشنطن. فقد انقضت عليه سنوات وهو يراقب تأثير التحولات الفجائية mutations في قدرة ذباب الفاكهة على اخلاف النسل . واستوقف نظره بوجه خاص تجارب قام بها الباحث باترسن في جامعة تكساس . ذلك ان هذا الباحث بحث تسعة وخمسين تحولا فجائياً تقع في ثلاث مناطق معينة في الصبغيات ، فوجد ان واحداً وخمسين منها مميتة . اي ان البيضة الملقحة التي اصيبت صبغياتها بهذه التحولات ، تتدرج قليلا في سبيل النمو ثم تموت
فالجريثيمات genes التي اصيبت بأشعة اكس كانت اصابتها مميتة
واتبع دميريك هذا البحث ، بدراسة دقيقة في خلايا اجسام الذباب ، اي انه لم يحصر بحثه في خلاياها التناسلية . فوجد ان خلايا الجسم ، اسوة بالخلايا التناسلية تعجز عن المضي في النمو اذا اصيبت تلك المناطق في صبغياتها التي أصيبت في تجارب باترسن . وكذلك ثبت ان هذه الخلايات تموت ، حالة ان الخلايا التي حولها ظلت حية نامية متكاثرة
وبعد بحث طويل اشترك فيها التجريب البارع ، والاستنتاج المنطقي ، وصل دميريك الى نتيجة خطيرة ، وهي ان الوفاة يمكن اسنادها الى اصابة بعض الجريثيمات فقط ولا يبعد ان تكون ناشئة عن اصابة جريثيمة واحدة
فما هو حجم هذه الجريثيمة ؟ من يدري ؟ ولا سبيل الآن الى معرفة حجمها الا بالبحث عن عدد الجريثيمات في الصبغي ، ثم قسمة المادة التي يتألف منها الصبغي على عدد الجريثيمات ، لمعرفة وزن الجريثيمة الواحدة
اما عدد الجريثيمات في الصبغي الواحد فيظن انه يقابل عدد العقد التي في الصبغي .

وبالمقابلة بين عدد العقد في الصبغي الواحد وعدد التحولات الفجائية التي عرف ما يقابلها من التغير في عقده ، ظهر ان عدد الجريثيات في خلية ذباب الفاكهة يبلغ ثلاثة آلاف

وقد استنبط المستر باينتر Painter احد الباحثين في جامعة تكساس ، طريقة جديدة لتقدير عدد الجريثيات ، ذلك ان ذبابة الفاكهة لها غدد لعابية قرب شدقها ، وهذه الغدد قوامها خلايا كبيرة الحجم ، بل ان حجم هذه الخلايا يفوق أضعافاً حجم خلايا الجسم السوية والصبغيات فيها تفوق في حجمها مائة وخمسين ضعفاً حجم الصبغيات في الخلايا السوية

وقد كانت هذه الحقيقة معروفة من سنوات ، ولكن يظهر انّ أحداً من علماء الوراثة لم يخطر له ان يبحث في هذه الخلايا عن طريقة الى سر الصبغي وما يحدث فيه من التحول . ولكن الدكتور باينتر فطن الى ذلك سنة ١٩٣٢ فوجد ، انه اذا لونت هذه الخلايا بطريقة خاصة وأضيئت بأسلوب خاص ، ظهرت الصبغيات الضخمة ، وكأنها سلاسل ، مؤلفة من مناطق مستعرضة ، متفاوتة الحجم ، ولكل منطقة نموذج خاص

فالمنطقة في الصبغي ليست بالجريثيمة ولكنها خاصة بها فكأنها منزلها . واذن نستطيع معرفة عدد الجريثيات باحصاء عدد هذه المناطق في الصبغي الواحد

هذه المناطق من اصغر الاشياء التي وقع عليها البصر باقوى المجاهر . ولذلك فالخطأ في احصائها محتمل بل مرجح . فقد احصيت هذه المناطق في سنة ١٩٣٢ فبلغ عددها ٢٧٠٠ ولكن من عهد قريب استنبط الباحث كلفن بردجز أسلوباً للتلوين والاضاءة فقال ان عددها يبلغ ٥٠٠٠ وقد يظهر انها اكثر من ذلك بتقدم أساليب تبينها . وقد قال باينتر قريباً انها لا يبعد ان تبلغ عشرة آلاف ، ولكنه قال ذلك على سبيل التخمين والحزر . اما ملر فيقول انه ليس هناك ما يمنع ان تكون اكثر من ذلك

ولكن لنلتزم خطة الحذر والتحفظ ولنقل انها خمسة آلاف بحسب احصاء بردجز . فاذا كان في خلية ذبابة الفاكهة خمسة آلاف جريثيمة . فكتلة الواحدة تبلغ جزءاً من خمسة آلاف جزء من مجموع كتلة الصبغيات في الخلية . وكتلة الصبغيات لا تزيد على ١/١٠٠٠٠ من كتلة الخلية المتوسطة . فالجريثيمة لا تزيد على ٥/١٠٠٠٠٠٠٠٠ من الخلية . وكذلك يبدو لنا اننا امام تركيب صغير دقيق معقد ، لا يبلغ في كتلته اكثر من خمسة اجزاء من مائة مليون جزء من الخلية ، ومع ذلك فان ازالته تفضي حتماً الى الموت

فما هو تركيب ، هذه الكتلة الصغيرة ، التي لا مندحة عنها للحياة ؟

يرد دمريك على ذلك بتصوير الجريثيمة في صورة دقيقة عضوية . ولعلها جزيء عضوي كبير . والمشاهدة تؤيد هذا التصوير . فبعض الجريثيات ، كبعض الجزيئات العضوية الكبيرة غير مستقر التركيب فيتغير من شكل وتركيب يحدثان الاجنحة السوية ، الى شكل وتركيب آخرين ، يسببان اجنحة قصيرة او مشوهة . وهذا التغير يمكن ان يفسر اذا فرضنا ان الجريثيمة جزيء عضوي فقد بعض ذراته المتصلة به اتصالاً واهناً ، ثم يعود بعد هنيهة ليسترد الجزء المفقود . وثمة دليل آخر مستمد من دراسة انشطار الخلايا فعندما تنشطر الخلية شطرين ،

لاتنشطر الجريثيات بل تتضاعف عدداً بنمو جريثيات جديدة محاذية للقديمة فتبقى الطائفة القديمة في شطر وتنتقل الطائفة الجديدة الى الشطر الثاني

وهذا الاسلوب ، متسق ، في رأي العلماء ، مع القول بان الجريثيمة جزيء عضوي كبير

واذا كانت الجريثيمة جزيئاً فرداً فيجب ان يكون جزيئاً ضخماً وليست الجزيئات العضوية الضخمة بالشيء الغريب بل ان علماء الكيمياء يعرفون عشرات منها . فجزيء بعض المواد البروتينية ، قوامه الوف من ذرات — ولعل اشهر مثل على ذلك جزيء زلال البيض . ولكن هذه الجزيئات معقدة التركيب الى ابعد حد ومن المتعذر تمثيل تركيبها في صفحة من هذه الصفحات

وقد اقترح الدكتور دميرك على سبيل التمثيل جزيئاً عضوياً صغيراً مما تتسع صفحة مجلة له ، ودل على تركيبه ، وقال ان الجريثيمة ، اذا كانت جزيئاً عضوياً ، فهي على مثال هذا الجزيء ولكنه اكبر واشد تعقيداً

اما المادة التي اختار جزيئها لضربه مثلا فتعرف باسم « الحامض التيمونوكلايك » (thymo-nucleic) وهي احدى المواد التي تتولد من انحلال بروتين النواة

ان جزيء هذا الحامض يشتمل على ٥٩ ذرة ايدروجين و ٤٣ ذرة كربون و ٣٢ ذرة اكسجين و ١٥ ذرة نتروجين و ٤ ذرات فصفور — ومجموعها ١٥٣ ذرة

وهذه الذرات مرتبة في مجموعات مختلفة والمجموعات منظومة في صورة متسقة. والمركب غير مستقر فيفقد احدى هذه المجموعات كاملة ثم يستردها او يفقد ذرة من احدى المجموعات نفسها ، وهذا الفقد يغيره ويغير تأثيره الكيمائي والحيوي كذلك

***

قلنا ان جزيء هذا الحامض يشتمل على ٥٩ ذرة ايدروجين واربع ذرات فصفور . فاذا اصيب هذا الجزيء بفوتون من الاشعة السينية ، وكان من تأثير الاصابة افلات ذرة ايدروجين ، يكون الجزيء قد فقد في مجموعه جزءاً من ٥٩ من مقدار الايدروجين الذي فيه. ولكن اذا افضت الاصابة بفوتون الاشعة السينية الى اطلاق ذرة فصفور كان مايخسره الجزيء ربع ما فيه من الفصفور . وقد تكون هذه الخسارة مما لا يعوض لجسامتها . وعلى ذلك فازالة ذرة واحدة من الجزيء قد تكون بحيث يتعذر تعويضها ، واذا تعذر ذلك وقفت الخلية عن النمو اي يدركها الموت

وكذلك ترتسم صورة المادة الحية في ضوء هذه الحقائق الجديدة ، صورة تجعل اعظم الشأن لذرة واحدة من ذرات المادة . اسلب من الجريثيمة تلك الذرة تفقد الجريثيمة استقرارها وتنحل. وانزع الجريثيمة من الصبغي يقف نمو الخلية . فاذا وقف نمو الخلايا وقف التناسل واشرفت الحياة على ختامها

منطقة السدود

ومستقبل الري في مصر (1)

لحسين سري باشا

وكيل وزارة الاشغال

لعلي لا أجد غرابة اذا ما تحدثت اليكم ، أن أتناول دائماً موضوع نهر النيل (٢) ومياهه التي تجري بين جانبيه . فانها تخترق واديه ، فتغدق في طريقها الحياة كاملة على ارض مصر ، ويجري الخير فياضاً على من يستظلون بسمائها ، حتى أصبح هذا النهر العظيم علماً على بلدنا السعيد ، بل ورمزاً لوجوده فقلنا ، وكان ذلك منا عرفاناً بجميله وشعوراً بخيراته « إن مصر هبة النيل ونعمته »

مصادر النيل

يستمد نهر النيل مياهه من المصادر الاربعة الآتية : (١) النيل الابيض . (٢) نهر السوباط . (٣) النيل الازرق . (٤) نهر العطبرة

ويستقل النيل الازرق ونهر العطبره بامداد النيل الرئيسي بالجانب الاعظم من مياهه مدة الفيضان . وهما بما يحملانه من المواد ، سر خصوبة أرض مصر ، والعامل في تجديد قوتها بما يرسب فيها من الطمي كل عام . إلا أنه على الرغم مما لهذين النهرين من الاثر الواضح في خصب الاراضي المصرية ، فان فائدة نهر العطبرة تقتصر على مدة الفيضان فقط ، وذلك لانقطاع أمداده للنيل في شهر ديسمبر من كل عام ، حيث يصبح بعد هذا التاريخ عبارة عن سلسلة من المستنقعات لا اتصال بينها . ويستمر على هذه الحال حتى موسم الفيضان التالي . كذلك يقل إيراد النيل الازرق في مدة الصيف كثيراً ، فلا يزيد مقدار ما يمد به النيل عن ٢٠ ٪ من الايراد الصيفي ، وقد يصل في بعض شهور الصيف الى ٥ ٪ من مجموع الايراد . اي ان إمداد النيل الازرق يكاد يكون منعدماً في هذه الشهور

---

(١) ملخص محاضرة نشرت في الكتاب السابع الذي اصدره المجمع المصري للثقافة العلمية

(٢) يجدر ان تقرن مطالعتها بمطالعة الري في مقتطف يونيو سنة ١٩٣٤ ص ٦٦٦ — ٦٧٧



ممر من الممرات الخشبية التي أقامها مصلحة الري لاختراق نبات البردي لمعرفة حركة المياه وهي تفيض على جانبي بحر الجبل في داخل منطقة السدود

وتنطبق هذه الظاهرة الطبيعية ايضاً على نهر السوباط ، إذ انهُ يمد النيل بمقادير وفيرة من المياه مدة الفيضان ، ثم يتناقص إيراده بعد ذلك حتى يقل كثيراً في شهور الصيف ، بل انهُ يكاد يجف طول هذه الفترة في بعض السنين

أما النيل الابيض فانهُ يمد النهر بالجانب الاكبر من مياهه مدة الصيف . لذلك كان العامل الاول في الري المستديم بمصر ، وعليه يتوقف نمو الزراعة الصيفية ، وهي الحجر الاول في أساس ثروة البلاد ورخائها . ولذلك بقي ذلك النهر متجه انظار رجال الري في كل عهد ، فمضوا يتعرفون مقدار مياهه ، ويزنونها بالقياس الى حاجة الارض في موسم الزراعة الصيفية

ويستمد النيل الابيض مياهه من بحر الجبل وبحر الغزال . والاخير منهما قليل الفائدة ، ولا يزيد مقدار أمداده للنهر على ١٠ ./ٍ من مجموع الايراد ، بل انهُ قد يكون مصدر خسارة في بعض السنين ولذلك فإن إيراد النيل الابيض مدة الصيف ، يتوقف على مقدار المياه التي تأتي اليه من بحر الجبل

فمن الطبيعي — وهذا ما لمياه بحر الجبل من الشأن — أن نوجه جانباً كبيراً من اهتمامنا الى تعرف مقاديرها والعوامل التي تؤثر فيها وهي في طريقها الينا . وكان مظهر هذا الاهتمام ان قامت وزارة الأشغال منذ زمن طويل بدراسة مجرى النهر في تلك الانحاء . ولما تبين لها ان مقادير كبيرة من المياه تضيع سدى في جزء من بحر الجبل معروف « بمنطقة السدود » بدأت تفكر فيما يمكن لها عمله ، لتلافى به ضياعها ، وتعمل على توفيرها لتنتفع بها مصر في التوسع المنتظر في ارضها الزراعية

ولقد أسفرت الدراسة المستمرّة حتى وقتنا هذا عن عدة حلول ، ورأيت من جانبي ان اقوم برحلة الى هذه الجهات لأتمكن من دراسة هذه الحلول ، في مواطنها وتقرير أيها أنسب لتحقيق الغاية التي نرمي اليها . وهذه هي الرحلة التي اخترت ان اصفها

بدء الرحلة

في الساعة السادسة من صباح يوم ٢١ ديسمبر الماضي بارحت القاهرة على متن احدى طيارات شركة المواصلات الأمبراطورية ميمماً الخرطوم

وكانت الطيارة التي اقلتنا تسير خلال رحلتها بسرعة متوسطها حوالي ١٦٠ كيلو متراً وعلى ارتفاع من سطح الأرض يتفاوت بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر وتتبع في طريقها خطوطاً مستقيمة في معظم الأوقات ، وتبعد عن مجرى النيل بضعة كيلو مترات . وقد هبطت بنا للتزود بالبنزين ثلاث مرات . الأولى في الأقصر والثانية في حلفا والثالثة في كريمة ، احدى مدن مديرية حلفا . وبعد رحلة استغرقت ثلاث عشرة ساعة ، وصلنا الخرطوم في الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه

وحوالي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، وعلى نفس الطائرة ، بارحت الخرطوم بعد ان قضيت ليلي بها قاصداً — وبصحبتي مدير مكتبي — مدينة الملاكال ، وهي مركز تفتيش اعالي النيل التابع لمصلحة الري المصرية . فوصلناها الساعة الحادية عشرة صباحاً ، اي بعد ان تركنا الخرطوم بأربع ساعات فقط . على ان تلك الساعات القلائل التي قطعنا فيها هذه المسافة الطويلة ، وهي حوالي ٨٥٠ كيلو متراً ، لتجعلني اذكر بالحمد ما اكتسبناه من الطيران . فمن توفير في الوقت الى راحة في السفر وبعد عن مشقاته . ويكفي ان اذكر ان المرحلة بين الخرطوم والملاكال تقطع عادة في النيل — وهو الطريق الوحيد بين هذين البلدين — فيما لا يقل عن ثلاثة ايام وثلاث ليال ، تسير فيها الباخرة بلا انقطاع . هذا الى بضعة ايام أخرى ، يضطر المسافر الى قضائها في الخرطوم بعد وصوله اليها ، انتظاراً لميعاد قيام الباخرة منها

ولما ان وصلت مدينة الملاكال توجهت ومعي رجال الري الى مستعمرة مصلحة الري المصرية هناك ، وهي تضم مكاتب الموظفين ومساكنهم ، وتكون الجزء الأكبر من المدينة . وهذه المساكن مقامة على شكل هندسي انيق وسط حدائق منسقة ، وهي مزودة بالمياه المرشحة وتضاء ليلاً بالكهرباء ولم تعنَ مصلحة الري بجعل المستعمرة على هذا الشكل ، الا اعداد سبل الراحة لموظفيها في تلك الانحاء ، حتى تعوض عليهم بعضاً من متاعبهم التي يتحملونها في القيام بأعمالهم المضنية . ونظراً الى كثرة هطول الامطار ، رصفت طرقات المستعمرة وحفرت على جوانبها قنوات لحمل مياه المطر الى النيل . وهذه القنوات مكسوة بالأحجار عند تقاطع كل منها بغيره

ومن وراء مستعمرة الرى ، قرية الاهالي ، وهي مجموعة من أكواخ مستديرة الشكل ، تسمى « تُكَل » وتشاد من جدائل القش ، ثم تطلى بالطين ، ولها سقوف من القش ايضاً مخروطية الشكل تمنع تجمع مياه المطر فوق هذه الاكواخ

وبين ضفتي النيل أمام المستعمرة ، يرسو جانب من البواخر والمهمات العائمة ، التي أعدتها مصلحة الرى لانتقال مهندسيها من جهة الى أخرى للقيام بأعمالهم . وكذلك عدد آخر من بواخر حكومة السودان . والبواخر هي سبيل النقل الوحيدة في تلك الانحاء ، اذ ليست هناك طرق زراعية أو خطوط حديدية تصل بين الاماكن المختلفة . ولهذا السبب اتجهت الانظار نحو العناية بشؤون الملاحة ، وقامت مصلحة الرى المصرية من جانبها بتضييق مجرى النهر أمام الملاكال بانشاء جسر عمودي على الضفة الغربية للنيل ، لتضمن بذلك وجود مجرى ملاحي صالح تجاه المدينة ، يمكن لبواخرها ان تمخر عبابه في اي وقت من غير صعوبة او مشقة . وصيانة لهذا الجسر من تأثير العوامل الطبيعية ، غرست على جوانبه أشجار « السيسبان » فنجحت نجاحاً كبيراً ، اذ عملت على تماسك أجزائه وابقائه في مأمن من فعل الامطار ومياه الفيضانات المتعاقبة

طبائع القبائل

وعند وصولي الى مدينة الملاكال ، كان اخص ما استوقف نظري اهل هذا القسم الجنوبي من السودان . أولئك أبناء الطبيعة ، يعيشون في كنفها على فطرتهم فلم يتقدموا خطوة واحدة نحو أبسط مبادىء المدنية ، بل تراهم يسيرون عراة الاجسام تماماً ، ولا يرتبطون في معاملاتهم بتلك النظم التي نعرفها ، وانما بقواعد أملتها عليهم بساطة طبيعتهم . ويتكون الاهالي في هذه المنطقة من قبائل مختلفة أخصها بالذكر « الشيلوك » و « الدنكا » و « النوير »

فقبائل « الشيلوك » تعيش في الجزء الاوسط من مديرية اعالي النيل ، وهم عمالقة ضخام الاجسام ، لكنهم ضعاف وجلودهم لامعة براقة وشعورهم مرسلة تنمو ثم يعقصونها ويصففونها في اشكال مختلفة غريبة . ولقد شاهدت عليهم أمارات الكسل التام في مظاهرهم وحركاتهم . وعلمت أن لهم أميراً يحكمهم ، ويقدمون له أتم الخضوع

وهم يعيشون في قرى متعددة السكان داخل أكواخ من القش والطين . ولا عمل لهم سوى رعي الاغنام وصيد السمك والحيوانات وماشيتهم هي أداة التعامل ، فلا يذبحون مطلقاً . ومما بلغني عن معتقداتهم وعاداتهم ان لهم ديناً هو خليط من الوثنية وعبادة الاجداد والارواح . وانهم يكثرون من اقامة حفلات الرقص ، كل منها لغاية خاصة . فبعضها تقرباً من الآلهة لاستنزال المطر ، وبعضها للحرب او الموت او الدين او غير ذلك

اما قبائل « الدنكا » فيقطنون الجزء القبلي من مديرية اعالي النيل ، وهم طوال الاجسام ويسيرون عراة ، الا المتزوجات من النساء ، فانهن يسترن عوراتهن بجلدين : أحدهما من الامام والآخر من الخلف . والجميع ، رجالاً ونساء ، يتزينون بالخرز والودع . وضخامة العقد الذي يلبسهُ الرجل — كما علمت — دليل على جاهه وثروته . وقد بلغني عن حياتهم ان رعي القطعان هو كل شيء لديهم ، وأهمها البقر الذي يتفاءلون به ويقدسونه ، فيظل الرجال في حراسته يغنون له ، ويرقصون أمامه ، حتى لا يمرض او يقل نسله

ومما يتعرض له صغارهم قسوة تجريح جباههم ، ليحملوا بذلك شعار قبيلتهم . كما أنهم يدفعون وهم في مقتبل العمر الى الغابة ليقتتلوا مع الوحوش الضارية والافاعي ، حتى اذا ما نالوا شرف قتلها وهم فرادى ، أهلهم ذلك للدخول في عداد الرجال

ولهم في معاملاتهم واحوالهم الاجتماعية قواعد عرفية يخضعون لها . وتطبق هذه القواعد مجالس تجمع اكبر الأشخاص سناً في كل قرية او عشيرة . والى هذه المجالس يحتكم الافراد في جميع مسائلهم ، حتى ما كان منها مختصاً بأمورهم العائلية

واما قبائل « النوير » فيشبهون « الدنكا » في اجسامهم ولهجتهم ، ولو انهم أضعف بنية

وأفتح لوناً وهم مشتتون جماعات صغيرة في بحر الغزال وبحر الجبل . وتراهم يلطخون اجسامهم ووجوههم بالرماد ، ليتقوا بذلك لدغ الناموس ، ويتركون شعورهم منفوشة إلاّ النساء فانهنّ يكوّرنها على أشكال مختلفة

وقبائل «النوير» معروفة بالغدر والقسوة وبميلها الشديد الى الغارات . وقد كانوا وقت زيارتي لهذه الانحاء ، يقتتلون مع قبائل الدنكا غربي بحر الجبل بالقرب من بلدة « تومبى » الواقعة شمال مدينة مَنْجَلا . كذلك فهمت من بعض من قابلتهم من رجال الحكومة المحلية هناك ، ان هذه القبائل تعتقد في روح عليا خلقت الدنيا وسيطرت عليها ، ولهم في الحياة الآخرة فكرة مبهمة . وان من عاداتهم في الموت رش المقابر بعد دفن الموتى باللبن ، كما انهم يضعون بجوار الجثة بعض ما كان يشتهيه الفقيد في حياته كغليون التدخين أو غيره ، ليتسلى بهِ حتى يصل الى عالم الأرواح

طبيعة البلاد

وبعد ان أقمنا في الملاكال يوماً وبعض يوم ، غادرناها على ظهر باخرة من بواخر مصلحة الري فأخذت تشق بنا عباب النيل الأبيض متجهة نحو الجنوب . وهو نهر متسع المجرى تنحدر مياهه بين جانبيه في سرعة قليلة ، لذلك كان أقرب الى البحيرات منهُ الى الانهر ، وكنا نرى على جانبيه أرضاً منبسطة يكسوها العشب في غزارة تبدو بها كأنها بساط أخضر لا يعترضه الاّ أشجار منثورة طوراً ، ومجموعة طوراً آخر . ويفصل هذه السهول عن مجرى النهر أخاديد تملأها المياه في بعض فصول السنة . وبقي هذا المنظر ثابتاً حتى بلغنا بلدة التوفيقية على الجانب الأيسر للنيل ، وهي التي كانت مقرًّا للمكتشف المعروف السير « صموئيل بيكر » فأصبحت خراباً واطلالاً بالية . ثم واصلنا المسير فررنا بمصب نهر السوباط ، ومن هناك انحرف مجرى النهر بزاوية قائمة نحو الغرب ، لكنهُ بقي باتساع مجراه وقلة انحدار مياهه ، وبالسهول المترامية على جانبيه ، والتي كنا نرى فوقها تلول النمل تقيمها بنفسها من التراب بارتفاع قد يصل الى مترين او ثلاثة أمتار لتتخذ منها مأوى يقيها شر عادية الطوارىء الجوية . وعلى جانبي النيل الابيض ، جنوبي مصب نهر السوباط عدة مجار للمياه تعرف « بالخيران » وأهمها خور « لولى » وهو يقع الى يسار النهر ويسير موازياً لهُ في مسافة تبلغ حوالي ٥٠ كيلو متراً ، ويتصل بهِ في بعض المواقع

وبعد رحلة في النيل الابيض استغرقت ست ساعات من ملاكال ، وصلنا الى مصب بحر الزراف وهناك اتخذنا طريقنا وسط هذا المجرى وهو في مبدئهِ خفيف المنحنيات محدّد الجوانب ،

يبلغ عرضه حوالي ثلاثين متراً . وعلى جانبيه تسمو حشائش كثيفة تعرف « بأم الصُوف ».
ويرى الداخل اليه ، على الضفة الغربية ، أشجاراً كثيفة تمتد مسافات كبيرة على طول المجرى .
اما الضفة الشرقية فخالية من الاشجار ، ولا يوجد غير الوادي وهو مكسو بالحشائش وقد برز في
وسطها، وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات من المصب ، عدة تلال حجرية تعرف بجبل الزراف.
وما ان توغلنا جنوباً ، حتى رأينا على الجانبين غابات كثيفة من اشجار متوسطة الارتفاع . تسكنها
كثير من الحيوانات الضارية

وبعد ان قطعنا وسط بحر الزراف مسافة ٤٢ كيلو متراً من مصبه ، رسونا بباخرتنا ،
وسلكنا طريقاً بالبر انشأته فرقة من مهندسينا المصريين خلال الغابة القائمة على الجانب الشرقي
للنهر . وقد بلغنا المكان الذي يعمل فيه هؤلاء المهندسون بعد ان سرنا حوالي ٧٥ كيلو متراً ،
وهناك شاهدنا اعمالهم التي يقومون بها من مسح المنطقة الواقعة الى الشرق من بحر الزراف ،
وفحص طبيعة تربتها بواسطة اعمال الجس، ليجمعوا بذلك البيانات اللازمة لبحث احد المشروعات التي
يتناولها تفكيرنا للقيام بتنفيذه في منطقة السدود . وتعترض اعمال المهندسين في هذه الغابات
صعوبات متعددة ، اهمها طرق المواصلات . ولذلك كان اول ما يعنون به شق الطرق خلالها .
ولما كان هطول الأمطار وكثرة المستنقعات يجعلان استخدام العمال صعباً فانهم يعمدون الى
استعمال آلات ميكانيكية من النوع الحديث تعرف بالجرارات ، يمكن بواسطتها تمهيد طريق طوله
كيلو متران في اليوم الواحد . وانه ليسرني في هذا المقام ان اسجل لمهندسينا المصريين تأديتهم
لأعمالهم في دقة بالغة ، متحملين مشاق وصعوبات مضنية في هذه الأماكن التي تنعدم فيها
وسائل المعيشة ، والتي يندر فيها الانسان وتكثر الحيوانات المفترسة

عدنا بعد مشاهدتنا لاعمال المهندسين الى النهر ثانية ، فواصلنا السير فيه ، وقد بقي مجراه على
حالته السابقة . الا اننا بعد ان توغلنا حوالي عشرين كيلو متراً اخرى ، اخذ النهر يلتوي في
منحنيات حادة . وكلما امعنا في السير ازدادت المنحنيات حدة . كذلك كان اتساعه يزيد آونة
ويقل اخرى ، وعلى جانبيه بدأنا نرى نبات البردي ينمو بكثرة وسط حشائش ام الصوف .
ومن بعده بدت غابة خلابة المنظر من اشجار الدوم على البر الايسر ، وبقي البر الايمن مغطى
بالحشائش دون الشجر، حتى اذا ماسرنا مسافة أخرى، اخذت غابات الدوم تبدو لنا على الجانبين
وسط المستنقعات التي بدأت في الظهور . ثم عادت هذه الأشجار فاختفت ، ورأينا الوادي يغطيه
نبات البردي ثانية ، حتى اذ ماوصلنا عند كيلو ١٧٥ ، بدأت المستنقعات تنتشر على جانبي النهر ،
وكانت تزداد كلما اتجهنا جنوباً . كذلك بدأت الخيران من هذا الموقع تتعدد على الجانبين ،
بعضها يأخذ من مياه النهر ، والبعض الآخر يصب فيه

ولقد واصلنا المسير في بحر الزراف حتى شاهدنا الجسرين اللذين اقامتهما مصلحة الري ، احدهما في سنة ١٩١٠ بالبر الايمن عند الكيلو ١٨١ ، والآخر في سنة ١٩١٣ بالبر الايمن عند الكيلو ٢٦٦ كتجربة لمعرفة صلاح التربة في هذه المناطق لاقامة الجسور . وقد لاحظت انهُ لم يكن للعوامل الطبيعية أثر يذكر فيهما على الرغم من انقضاء هذه المدة الطويلة على بدء انشائهما، مما يجعلني أميل الى الاعتقاد بأنهُ اذا ما اتجهت النية الى اقامة جسور للنهر في هذه المناطق ، لتمنع طغيان المياه على الجانبين ، فربما أمكن صيانة هذه الجسور بتكاليف معقولة

وعند الكيلو ٢٧٠ من بحر الزراف ، رأينا هذا النهر قد اقترب كثيراً من بحر الجبل بحيث أصبحت المسافة بينهما لاتتجاوز الاربعة كيلو مترات ، وفي هذا الموقع انشأت وزارة الاشغال في سنتي ١٩١٠ و ١٩١٣ قطعين يصلان بين مجرى النهرين ، ابتغاء تحويل جزء من مياه بحر الجبل الى بحر الزراف ، حتى يتفادى مرورها وسط منطقة السدود الواقعة شمالي القطعين ، فيقل بذلك الضائع منها في الطريق . وقد مررنا بمصب القطع الشمالي منهما ، ثم اتجهنا الى القطع الجنوبي فاخترقناه الى بحر الجبل ، حيث سرنا فيه قليلاً الى ان بلغنا المكان الذي تقوم فيه مصلحة الري ببعض بحوثها على جوانب احدى البرك التي يخترقها النهر ، لمعرفة مدى مقاومة تربة هذه المناطق لتسرب المياه من خلالها ، وبالتالي مقدار الاعتماد عليها في اقامة الجسور ، اذا ما استقر الرأي على انشاء جسور للنهر وسط منطقة السدود . وتتلخص هذه البحوث في اقامه احواض من الطين الذي يؤخذ من هذه المنطقة كما هو ، مشوباً بالأعشاب والبردي وذلك بوساطة الكراكات الميكانيكية ، ويفرغ ما بداخلها من الماء ثم تترك على هذه الحالة مدة من الزمن يرصد بعدها مقدار ارتفاع المياه التي تسربت الى الحوض ، وكذلك مقدار ما تبخر منها ، فيمكن بهذه المعلومات تقدير مقدار المياه التي رشحت من النهر الى داخل الحوض . وقد شاهدنا بعض هذه الأحواض التي اقيمت من قبل ، وبعضاً آخر مما يقام في الوقت الحاضر استكمالاً لهذا البحث

ولمعرفة حركة المياه ، وهي تفيض على جانبي النهر وسط منطقة السدود ، أقامت مصلحة الري ممرات من الخشب على شكل جسور تخترق البردي ، وتمتد الى مسافة نحو كيلو متر . وعلى مسافات مختلفة من امتدادها وضعت مقاييس يمكن بها معرفة اتجاه حركة المياه . وكذلك حوض من الصاج يملأ بالماء لتقدير درجة التبخر في هذه المواقع . وبعد ان زرنا ممراً من هذه الممرات ، اتجهنا في بحر الجبل جنوباً فمررنا ببركة غابة « شامبي » عند كيلو ٤٠٦ من مصب بحر الجبل ، وتقع في الجهة الغربية منها المدينة المعروفة بهذا الاسم

وجنوبي بلدة « شامبي » أخذ مجرى بحر الجبل يقل في اتساعه احياناً ويزيد أخرى ،

كذلك كان يسير في منحنيات حادة جداً تخترقها الباخرة وتسير عدة كيلو مترات ، فلا تكون بعد هذه الرحلة قد قطعت سوى أمتار معدودة على خط مستقيم من طول المجرى . وعلى سبيل المثال أقول انهُ بعد ان سرنا في أحد هذه المنحنيات نحو أربعة كيلو مترات وجدنا أننا قد عدنا الى المكان الذي بدأنا المسير منهُ فلم نبعد عنه الا نحو ثلاثين متراً فقط

وبعد ما فصّل المحاضر دقائق الرحلة بحراً وبرّاً وهو وصف حافل بالحقائق الجغرافية والطبوغرافية والبيولوجية انتقل الى بحث منطقة السدود فقال : عند بلدة «بور» حيث تأخذ الأراضي الجافة في التضاؤل والابتعاد عن مجرى النهر بالجهة الشرقية منهُ ، كما تأخذ البرك والمستنقعات في الظهور والانتشار كلما سرنا نحو الشمال . ونستمر كذلك نحو ١٢٥ كيلو متراً ، تبدأ بعدها المستنقعات في الانتشار على الجانبين حتى مدينة « شامبي » وعندها تبتدىء منطقة السدود الحقيقية ، بعرض يختلف من ١٠ كيلومترات الى ٥٠ كيلو متراً ، ومساحة تتفاوت بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ كيلومتر مربع ، تبعاً لمقادير المياه الواردة اليها ، فتزداد بزيادتها ، وتنقص بنقصانها . ويسير النهر في هذه المنطقة متعرجاً بعرض يتراوح بين ٦٠ و١٢٠ متراً . وعلى طول مسافة تبلغ نحو ٤٠٠ كيلومتر ، لا يرى المار بها غير صفحة واسعة من الماء ، كستها مساحات مترامية الأطراف من الحشائش والاعشاب ، فيخيل اليه انهُ يسير وسط زراعات خضراء بشكل منتظم ولون واحد تتخللها بين آونة وأخرى برك متباينة الحجم ، تبدو كأنها قطع الفضة قد نثرت على بساط من سندس ، وتربطها سلاسل عاجية ، هي الخيران التي لم تجد الحشائش سبيلاً الى النمو فيها . هنا يروقه هذا المنظر لغرابته واتساعه وضخامته ، لكنهُ اذا استمر في طريقه فانه يظل يشق المنطقة يوماً بعد يوم من دون ان يقع بصره الا على منظر متجانس لا يتغير ، فلا يلبث ان ينقلب اعجابه به الى شعور بالسآمة والملل

وفي منطقة السدود تنبت الحشائش بكثرة وسط المستنقعات ، وأظهرها نبات البردي الذي ينمو في عمق من الماء يتفاوت بين ثلث متر ومتر ، وارتفاعه بين أربعة أمتار وستة . كذلك تنبت في بعض المواقع حشائش اخرى تعرف « بأم الصُوف » ونوع آخر يسمى «غاب الفيل» وهو قريب الشبه من الغاب البلدي المعروف بمصر . وهذه الاعشاب جميعها لم تدرس دراسة فنية في هذه المنطقة لمعرفة طبيعتها وخواصها والعوامل التي تدعو الى كثرة نموها في هذه المنطقة

تلك هي منطقة السدود . يسير بحر الجبل خلالها في مجرى يكاد يكون محدداً في بعض مواقعه مدة الصيف ، وتجاوره على مسافات متباعدة من طوله برك يصلها بمجراه خيران متعددة تختلف سعتها من عشرة أمتار الى مائة متر فأكثر ، وتشاهد المياه منبثة خلالها ، وهي تتسرب من النهر او اليه وفقاً لانخفاض المياه او ارتفاعها في المواقع المختلفة . واذا ما انقضت

فترة الصيف ، وبدأت مياه النهر في الارتفاع ، فانها تفيض على جانبيه حين تمر هذا الوادي الفسيح ، وعند ذلك يتسع سطحها ، فتفقد جانباً كبيراً من مقاديرها لما يضيع منها في ملء البرك وفي تسرب الارض والتبخر . وهذا التبخر ، يساعد على زيادته وجود البردي والنباتات الاخرى حيث دلت البحوث التي أجريت هناك ، على ان مقادير المياه التي تضيع بالتبخر من سطح مغطى بالحشائش ، اعظم قدراً مما يضيع لو كان سطح الماء مكشوفاً وخالياً من الاعشاب

ولقد قامت مصلحة الري منذ سنة ١٩٠٦ حتى الآن برصد مقادير المياه التي يأتي بها بحر الجبل الى هذه المناطق ، والمقادير الاخرى التي تصل منها الى النيل الابيض ، ثم استخرجت من ذلك مقدار ما يضيع منها في منطقة السدود ، فظهر انها مقادير كبيرة ، إذ بلغ متوسطها السنوي نحو ١٤٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة . وقد بلغ اقصى ما يضيع في هذه المنطقة حوالي ٤٠٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة ، ولم يحدث ان قل هذا القدر في اي من السنين المنحطة الايراد عن ٧٥٠٠ مليون متر مكعب

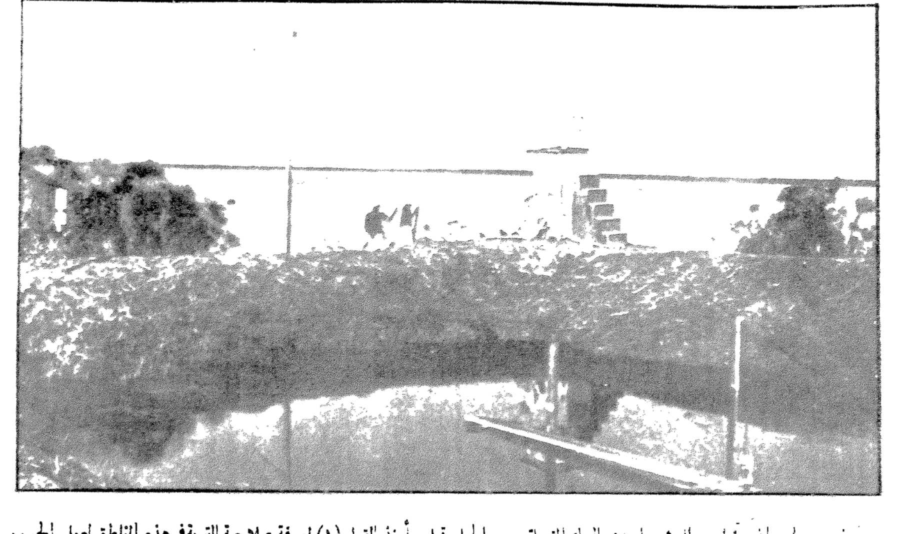
ومن ذلك تتبين فداحة الخسارة في هذه المياه ، وهي التي ستكون مصر في اشد الحاجة اليها في المستقبل ، ولذلك لا بد من التفكير في العمل على تلافي ضياعها وتوفيرها ، كي ينتفع بها في موسم الزراعة الصيفية

وقد يقال ان مصر في حاضرها لا تعوزها الحاجة الى هذه المقادير الضائعة ، بعد ان قامت وزارة الاشغال بتعلية خزان اسوان المرة الثانية ، وأوشكت ان تتم انشاء خزان جبل الاولياء . الا انه امام ما نشاهده من الزيادة المستمرة في عدد السكان ، وما يتطلبه ذلك من زيادة التوسع في المساحات الزراعية ، نعتقد ان مصر لا تلبث بعد تمام الانتفاع بمياه الخزانين ان تصير في اشد الحاجة الى مقادير اضافية من المياه لتستخدمها في كل خطوة من خطوات التوسع في المستقبل البعيد . ولذلك وجب ان يمتد تفكيرها من الآن الى المشروعات التي من شأنها توفير المياه لتكون معدة للتنفيذ والانتفاع بها في الوقت المناسب

الري والبحيرات الاستوائية

تبلغ احتياجات مصر من المياه الصيفية ، بعد استكمال نموها الزراعي ، نحو ٢٥ ملياراً من الأمتار المكعبة ، لديها الآن من هذا القدر ما يأتي :

٥	مليارات :	سعة خزان اسوان بعد تعليته الثانية
٢	«	مقدار ما يمكن الانتفاع به بالحجز في خزان جبل الاولياء
٩	«	متوسط ايراد النهر الطبيعي في فترة الصيف
١٦	ملياراً :	المجموع



حوض من احواض تجارب الرشح باحدى البرك المتصلة ببحر الجبل قبلي بأخذ القطع (١) لمعرفة صلاحية التربة في هذه المناطق لعمل الجسور

فاذا اضيف الى ذلك ١,٢٥ مليار مقدار نصيب مصر في مياه خزان بحيرة تسانا بعد اتمامه ، كان مقدار المياه التي يمكن الحصول عليها ١٧,٢٥ ملياراً فقط ، ويبقى بعد ذلك حوالي ثمانية مليارات لا بدمن تدبيرها للوفاءبجميع الاحتياجات في المستقبل . وليس للبلاد ان تتطلع في تحقيق هذه الغاية الا الىالبحيرات الاستوائية ، حيث يمكن أن تجعل منها مستودعاً فسيحاً تخزن فيه مقادير وافرة من المياه لتنتفع بها في استكمال حاجات الزراعة ، كلما ازداد التوسع في الأراضي الزراعية .

ولقد كانت بحيرة « البرت » اولى البحيرات التي اتجهت اليها انظار رجال الري لتحقيق هذه الفكرة ، ولذلك تناولوها بالبحث والدراسة وانتهوا الى امكان تحويلها الى خزان يدخر فيه في متوسط السنين ما يربي على ١٢,٥ مليار من الامتار المكعبة ، اي ما يعادل مرتين ونصف ما يمكن لخزان اسوان ان يحجزه بعد تعليته الثانية . ولا شك أننا مهما بذلنا من الجهود لزيادة ايراد هذه البحيرة مدة الصيف ، فان مقادير وافرة من مياهها سوف تتبدد عند اجتيازها منطقة السدود اذا بقي النهر على حالته الحاضرة ، ولم نقم باجراء تعديلات فيه ، من شأنها ان تمنع ضياع المياه في هذه المنطقة

ولهذه الاسباب قامت وزارة الاشغال منذ زمن بعيد بالتفكير فيما يمكن لها عمله من المشروعات لتحقيق هذه الغاية ، وأسفرت دراستها عن اقتراح مشروعين يمكن الاخذ بأحدها بعد أن يتم بحثهما لمعرفة مدى صلاحية كل منهما من الناحية الفنية ، ومقدار تكاليفه حتى يمكن المفاضلة بينهما

ويقضي الأول من هذين المشروعين باقامة جسور لبحر الجبل وسط منطقة السدود ابتداء من مدينة « بور » لتمنع طغيان مياهه على شاطئيه . وقد دلت البحوث التي قامت بها مصلحة الري حتى الآن بصدد هذا المشروع ، على انهُ يمكن اعتبار تربة هذه المناطق مانعة لتسرب المياه من خلالها ، مما يجعلني أميل الى الاعتقاد بأنهُ يمكن الاعتماد عليها في إقامة الجسور

***

أما المشروع الثاني فيقضي بانشاء تحويلة للنهر إلى الشرق من بحر الزراف خارج منطقة السدود لتصل بين مجرى بحر الجبل والنيل الابيض فتمر بها مقادير المياه اللازمة لمصر في حاضرها ومستقبلها ، بعد اقامة خزانات أعالي النيل ، وذلك مع ترك مجرى بحر الجبل الحالي ليمر فيه ذلك المقدار من المياه الذي يكفي الملاحة النهرية ، والتي لا يفيض الا الجانب اليسير منها ، على جانبي النهر ويدخل منطقة السدود الحقيقية

ولقد تمت دراسة مشروع آخر يقضي بتحويل بحر الجبل عند بلدة « الجميزة » جنوبي

مدينة « بور » الى مجرى جديد يسير الى الشرق يصله بمجرى يسمى « فيفنو » ومنهُ يسير في نهر بيبور احد فروع نهر السوباط ثم في نهر السوباط فني النيل الابيض . ولكن لما ظهر ان نفقات هذا المشروع قد تبلغ نحو الثمانية ملايين من الجنيهات ، بينما لا تزيد مقادير المياه التي يوفرها على مليار ونصف مليار من الامتار المكعبة فقط ، اتجه الرأي الى دراسة مشروع آخر يقضي بانشاء هذه التحويلة بحيث تمر في الارض المرتفعة شرقي منطقة السدود مباشرة وعلى مقربة الى ان تتصل ببحر « الزراف » عند كيلو ١٩٠ تقريباً ، وتسير فيهِ حتى مصبه في النيل الابيض

***

هذه هي المشروعات التي اقترحت لمنع ضياع المياه في منطقة السدود . ولاشك أن تنفيذ مشروع منها ، سوف يترتب عليهِ زيادة مقادير المياه التي ترد الى مصر من المناطق الاستوائية ، لا في فترة الصيف وحدها ، وانما في جميع فصول السنة بما فيها مدة الفيضان . فاذا ما جاء فيضان عال ، فان توفير المياه التي كانت تضيع في منطقة السدود ، سيكون مبعث خطر على سلامة مصر ، إذ لا بد أن تعمل هذه المقادير على زيادة ارتفاع مياه الفيضان في حدود الاراضي المصرية عند ما يبلغ اقصى ارتفاعه . وهذه هي الصعوبة التي تتعرض لها المشروعات التي نبغي القيام بها في منطقة السدود

ولما كانت هذه المنطقة تعتبر في الوقت الحاضر كمصرف تتسرب اليهِ مقادير وافرة من مياه الفيضان وتتبدد فيهِ ، فكل مشروع يقترح لزيادة مقادير المياه الصيفية لمصر ، يجب أن تتوفر فيهِ في الوقت نفسه من الوسائل ما يسمح باستمرار منطقة السدود في أداء وظيفتها المشار اليها وقت الفيضانات العالية . وذلك بانشاء قنطرة في قناة السدود يمكن بواسطتها اطلاق ما يزيد عن الحاجة من مياه بحر الجبل مدة الفيضان الى المستنقعات الممتدة على جانبيه

فاذا ما تم مشروع منطقة السدود ، فانه يمكن لنا القيام بعد ذلك بانشاء خزان بحيرة «البرت» ونكون بتنفيذ هذين المشروعين قد عملنا على منع ضياع المياه في تلك المناطق ، ثم تخزين مقادير اضافية من المياه في بحيرة « البرت » لتنتفع بها مصر في زيادة التوسع في اراضيها الزراعية ، كما نكون قد قمنا بتنفيذ مشروعين من أهم المشروعات التي تتطلع اليها مصر للوفاء بحاجة أهلها في كل وقت ، بل والعمل على زيادة ثروتها وتوفير أسباب الرفاهية لها

تأثير الشمس

في شؤون الناس

هل تؤثر الشمس في الغدد والاخلاق ؟

من المقابلات التي تستوقف النظر ، موافقة فترات الرخاء والاقبال في اعمال الناس ، لكثرة ظهور الكلف على وجه الشمس . ففي سنة ١٩٢٨ عندما كان الاقبال على أعظمه ، كانت الكلف على اكثرها عدداً واشدها نشاطاً . وفي السنة الماضية اي سنة ١٩٣٦ اذ لاحت تباشير الانتعاش بعد سنوات الازمة العالمية القائمة ، كان عدد الكلف الشمسية آخذاً في الاقتراب من ذروته العليا . يقابل هذا ان الازمة بلغت اشدها في سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ عندما كانت كلف الشمس على اقلها

وليست هذه المقابلة بفريدة في بابها . بل ان الدكتور هارلن ستتسن Stetson الاستاذ بمعهد ماستشوستس التكنولوجي ، يقول على ما جاء في مجلة « خلاصة العلم » ان البحث في التاريخ الحديث من هذه الناحية يسفر عن ان خمساً من الازمات السبع العظيمة التي ابتلي بها العالم في الخمسين السنة الاخيرة وافقت في تطورها كثرة الكلف وقلتها على النحو المتقدم فهل هذه الموافقة مجرد اتفاق ام في جعبة العلم ما يفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

الجو والحالة النفسية

هل خطر لك ان تسأل نفسك لماذا تحس في بعض الايام بأنك نشيط طموح مغتبط لانك حي ثم لماذا تحس في أيام اخرى بتعب وفتور وتراخ وثبوط في الهمة ؟ أيمكن ان يسند ذلك الى حالة الجو ؟ أيمكن ان نلوم الهواء ؟

عرف العلماء من عهد بعيد ان كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسه تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات او شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما اشبه . ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق من التأثير في الشؤون الحيوية لأن العلماء لم يتمكنوا الا من عهد قريب ، من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية

فالايونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيه او اشعة اكس او مقذوفات الراديوم . حتى شعلة من النار في موقد متأجج تؤين الهواء الى حد ما اي تولد فيه هذه الدقائق المكهربة أي الايونات

ثم هناك اجهزة خاصة تمكن العلماء من ان يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة أو الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي

على هذا النمط وجد الاستاذ دسور Dessauer في جامعة فرنكفورت ان المرضى الذين يتعرضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والاعياء والدوار والصداع . فلما ازيلت الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحل محله شعور الانشراح والنشاط

وقد جرت التجارب في ضغط الدم وتأثرها بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة او الدقائق السالبة فيه فظهر ان وجود الاولى يزيد ضغط الدم فينشأ عن ذلك انزعاج عام وان وجود الثانية يخفف ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هنالك ما هو اعجب مما تقدم ذلك ان استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى اسابيع افضى الى تحسين الحال في ثمانين في المائة من اصابات ضغط الدم . ولاريب انك ايها القارىء قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون به من تقارب حالة الجو قبل حدوثه . فهل لهذا الشعور وهو اشبه ما يكون بالتنبؤ بالطقس اساس علمي ؟

لقد اثبت الاستاذ دسور ان الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلا عند استنشاقهم هواء كثرت فيه الدقائق المكهربة (الايونات) ومعروف عند علماء احوال الجو ان العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء فيصعد الى سطح الارض هواء كان محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت ان الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة. ولعل وجود هذه الايونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة

ثم ان الهواء يحتوي على ايونات كبيرة وايونات صغيرة وقد اكتشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الايونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والايونات الصغيرة تكثر قبل الشروق . ولعل هذا الفرق بين الليل والنهار اهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرها الفسيولوجي في جسم الانسان

الكلف اعاصير مغنطيسية

فلننظر الآن في الادلة التي يسوقها العلماء لتأييد القول بان الكلف يصحبها تغير مغنطيسي وكهربائي في جو الارض، وفي مقدار ضوء الشمس ونوع ذلك الضوء، اي في ما يقال ، عن تأثير الكلف في حياة الانسان على سطح هذه الكرة الارضية . ولنذكر ان اشعة الشمس قد تؤثر تأثيراً مباشراً في نمو غذائنا ونوعه وعن طريقه تؤثره في غددنا واخلاقنا

يعرف قراء المقتطف ان الكلف الشمسية تبلغ اكثرها ثم تتدرج نقصاً فتبلغ اقلها في فترات متعاقبة طول الفترة منها احدى عشرة سنة وربع سنة . فعندما تكون الكلف على اكثرها، يكون جو الشمس اشد ما يكون اضطراباً ، وصفة هذا الاضطراب عواصف عظيمة اذا قيست بها العواصف التي تقع في المناطق الاستوائية على سطح الارض صح على العواصف الارضية ذلك الوصف الأعجمي « عاصفة في فنجان ». والعواصف التي تحدث في جو الشمس عندما تكون الكلف على اكثرها ، مؤلفة من غاز الايدروجين وبخار الكلسيوم وغيره من العناصر وتدور دوراناً رحوياً عنيفاً في اتجاه عقارب الساعة او ضده اي انها زوابع او اعاصير تصحبها تيارات قوية في جو الشمس

في مركز هذه المناطق المضطربة من سطح الشمس ، تنخفض الحرارة انخفاضاً يكفي لنقص اشراقها فتبدو قاتمة عند رصدها بالمرقب ، فسميت كلفاً لأنها تشوب وجه الشمس كما تشوب الكلف وجه الحسناء وقد عرفت منذ صنع المرقب في القرن السابع عشر

والكلف من الظاهرات الشمسية التي استرعت انتباه الانسان قديماً وأمضت عقله في فهمها وتفسيرها . فقد جاء في بعض كتب الصين ان كلفاً رؤيت بالعين المجردة سنة ٣٠١ ب . م وفي القرن السابع عشر عني بها غليليو فرصدها ورسمها وقد قادته رؤيتها الى القول بان الشمس جسم متغير منكراً بذلك القول السائد حينئذ وهو ان الشمس جسم منزه عن التغير والتحول . وقد كتب غليليو حينئذ الى احد اصدقائه : « يلوح لي ان هذا الكشف سيكون جنازة القول بثبوت السماوات »

وقد كان غليليو عالماً حقاً فرصد هذه الكلف وراقب حركتها وانتقالها على وجه الشمس ولكنه لم يتمكن من فهم طبيعتها وأسبابها . الا ان بعض الباحثين ذهب الى ان الكلف أجسام جامدة مظلمة تدور حول الشمس فتحجب ضياءها الباهر عندما تتوسط بين الشمس والراصد . أي انها من قبيل كسوف الشمس بتوسط القمر بيننا وبينها . وتصورها فريق آخر سحباً من الدخان الكثيف منطلقة من براكين على سطح الشمس . وقال فريق ثالث انها غيوم في جو الشمس . ومن أغرب ماقاله بعضهم في هذا الصدد ان الكلف ليست الا قنن جبال على سطح الشمس تنكشف حيناً فنراها ثم تغمرها مادة الشمس المصهورة فتحجب عن الانظار. حتى ان السر وليم هرشل الفلكي العظيم ذهب مذهباً غريباً في تعليلها اذ قال ان الكلف ماتراه من جسم الشمس البارد عندما ينفرج الجو المحيط به قليلا في بعض الاحوال الخاصة . وقد كان يعتقد ان الشمس جسم بارد مخفي وراء غلاف من الغازات فكتب انه يحق له اعتماداً على المبادىء الفلكية أن يقول أن الشمس عالم صالح للسكنى

وقد كان هايل الاميركي احد علماء العصر الحديث الذين استهواهم البحث في هذه الكلف مع انها تبدو في ظاهرها خارجة عن نطاق العلم . ولكن كارل بيرسن قال : حيث تجد اقل امل في الوصول الى معرفة فثمة مجال للعلم . وكان هايل على هذا الرأي . فعمد

الى جهازه الجديد — المصوّرة الطيفية الشمسية — والى باحث شاب كان قد انضم اليه يدعى « فردينان اليرمن » فصور الشمس به الوف الصور وكان ذلك في مرصد يركيس حيث كان هايل مديراً له

كان هايل قد صور وجه الشمس في ١٢ يناير سنة ١٨٩٢ فتبين في الصورة ألسنة مندلعة من غاز الايدروجين وبقعاً شعثاً لامعة من بخار الكلسيوم . ولكن هذه البقع بدت وكأنها تحت السطح لا عليه اي انها كانت اقرب الى الطبقة الاولى التي يتألف منها غلاف الشمس فدعاها « فلوكيولي » وهو لفظ لاتيني يعني بقعاً مشعثة ككتلة من الزغب او الندف ثم انه رأى في الصورة نفسها بقعاً قاتمة هي البقع التي يطلق عليها اسم « الكلف » فسأل هايل نفسه : « هل بين البقع الشعث اللامعة والكلف علاقة ما ؟ »

اخذ الصور المتعددة التي صورت في مرصد يركيس فرأى فيها تفصيلات لم يرها قبلا ثم صور طائفة أخرى من الصور بمرصد جبل ولسن فتبين ان الكلف والندف وجهان لاعاصير او زوابع كهربائية مغنطيسية تثور في الغازات التي في طبقات الشمس العالية . وقد رصدت هذه الكلف رصداً منتظماً خلال الثلاثة القرون المنقضية ، وعينت مواعيد كثرتها وقلتها ، فكشف طول دورها ، وقد دونت الدورات العشرون الاخيرة منها تدويناً علمياً

ان اشد العلماء تحفظاً متفقون على ان اخص وجوه التغيير في نطاق الارض المغنطيسي ، توافق مرتبةً مرتبةً دورة الكلف الشمسية . والارصاد المدونة في خلال القرنين الماضيين تؤيد ذلك . ولكن العلماء لم يعثروا على تعليل هذه الظاهرة الا في مستهل القرن العشرين

مغنطيسية الشمس والارض

ففي سنة ١٩٠٨ ثبت للعلامة هايل ان كلف الشمس مراكز لمناطق مغنطيسية عظيمة مغنطيسيتها اقوى جداً من مجال الارض المغنطيسي . وظل المفتاح الثاني الى حل هذا اللغز مطوياً الى ان تقدمت الاذاعة اللاسلكية . ففي بدء العهد اللاسلكي كان الرأي ان الامواج اللاسلكية تسير في خطوط مستقيمة فلا يمكن ان تلتقط على مسافات بعيدة عن محطات الاذاعة لان تحدب سطح الارض يحول دون ذلك . ولكن مركوني اثبت بتجربته البديعة التي قام بها سنة ١٩٠١ ان تحدب الارض لا يحول دون التقاط الامواج اللاسلكية المذاعة من اوربا بأجهزة قائمة على سواحل اميركا

وعندئذ عمد العلماء الى محاولة تفسير ذلك . فقال العالم كنيلي الاستاذ بجامعة هارفرد انه يعتقد ان في مناطق الجو العالية طبقة من الهواء مؤينة اي تكثر فيها الايونات او الشوارد بفعل اشعاع الشمس ، وانها لذلك تصلح ان تكون بمثابة عاكس يرد الى سطح الارض الامواج اللاسلكية المنطلقة في الفضاء . والظاهر ان العالم الانكليزي هيفيسيد خطر له الخاطر نفسه على حدة واعلن رأيه بعيد ما اعلنه الاستاذ كنيلي . ولذلك تدعى هذه الطبقة في عرف المهندسين اللاسلكيين باسم طبقة كنيلي هيفيسيد

وقد اكتشفت طبقة ثانية وثالثة من هذا القبيل فوق طبقة كنيلي هيفيسيد وبها تفسر الاصداء اللاسلكية . فاذا جمعنا بين ما يعرف عن الناحية المغنطيسية من طبيعة كلف الشمس ، وما يعرف عن كهربة جو الارض في طبقاته العالية ، تمهد لنا السبيل لفهم الاضطرابات المغنطيسية في جو الأرض وكيف تتبع في سيرها اضطراب جو الشمس . وقد اثبت العالم النرويجي الدكتور ستورمر ان الاضواء الباهرة الملونة التي تظهر في المناطق الشمالية من الارض وتعرف باسم الشفق القطبي الشمالي يمكن تفسيرها بدخول كثير من الدقائق المكهربة جو الارض عند حدوث الشفق

ثم عني الدكتور أبت Abbot احد علماء المعهد السمثصوني الاميركي بقياس قوة اشعاع الشمس سنين متوالية ، في اميركا وغيرها من البلدان كشيلي وجنوب افريقية معتمداً على اجهزة دقيقة كل الدقة فتبين له ان مقدار الحرارة الذي يتصل بالارض من اشعاع الشمس يقل قلة ظاهرة عندما تكون كلف الشمس على اقلها . وان هذه القلة لا تلاحظ في مكان دون آخر بل في جميع الامكنة التي انشئت فيها محطات لهذا الغرض . ويقابل هذا ان مقدار الحرارة المتصل بالارض من اشعاع الشمس يزيد عندما تكون الكلف على اكثرها وأشدها نشاطاً ، ويتفاوت مقدار الحرارة بين القلة والزيادة من ٣ الى ٤ في المائة

ومن أعجب ما يتصل بهذا الموضوع مبيناً علاقة كلف الشمس بالفصول الجافة والماطرة على سطح الارض بحث قام به الدكتور دوغلاس في جامعة اريزونا الاميركية . فقد قضى الدكتور دوغلاس حياته في دراسة الحلقات البادية في قطوع جذوع الاشجار . ولا يخفى ان كل حلقة منها تمثل مدى نمو الشجرة خلال سنة واحدة . فوجد ان هذه الحلقات غير متساوية في ثخاناتها فصنع جدولاً بها وقابل بينها وبين الجداول التي دونت فيها الظواهر الجوية فوجد من دراسة ألوف الاشجار بهذه الطريقة ان سنوات الجفاف والمطر في الجانب الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة الاميركية ، تسير وفقاً لدورة الكلف الشمسية . فكأن تلك الاشجار النامية في أميركا كانت صفحة من صفحات الطبيعة دونت فيها دورة الكلف قبل ان يستنبط المرقب

وقد كانت الموافقة بين ثخانة الحلقات ورقتها من ناحية وكثرة الكلف وقلتها من ناحية أخرى ، تامة من عصرنا الى أواخر القرن السابع عشر . ولكن التوافق زال في السنين السابقة لذلك مدى قرن تقريباً اي ان توالي الحلقات واختلاف ثخانتها لم يوافق موافقة دقيقة ما هو معروف عن دورة الكلف الشمسية ومدتها المعروفة بوجه عام . فمال دوغلاس الى الظن بان نظريته غير صحيحة . ولكن في سنة ١٩٢٢ كتب اليه الاستاذ موندر الى بانه كشفت مدونات فلكية ثبت منها ان الكلف كانت قليلة جداً في الفترة الواقعة بين ١٦٤٥ و ١٧١٥ فعاد دوغلاس الى تطبيق نظريته على حلقات الاشجار فوجد فيها ما يؤيدها

ومع ان الاستاذ دوغلاس يربط بين ثخانة الحلقات وجفاف الجو او رطوبته فلا يستبعد ان تكون هنالك عوامل اخرى تؤثر في نمو الاشجار او قلة نموها تتسق مع الجفاف او الرطوبة

كالتفاوت في مقدار اشعاع الشمس ونسبة ما فيه من الحرارة والاشعة التي فوق البنفسجي وغيرها من عوامل النمو.

فالشجرة يمكن ان تحسب نموذجاً عضوياً لتأثير الشمس في الاحياء على سطح الارض

تجارب طريفة

هذا الموضوع ، اي تأثير الاشعة المختلفة في نمو النباتات ، من الموضوعات التي يعنى بها الآن عشرات من العلماء في معاهد مختلفة كالمعهد السمثصوني بوشنطن ، ومؤسسة مايو في مدينة روتشستر (ولاية مينسوتا) ومعهد بويس طمسن للبحث النباتي في ضاحية يونكرز بنيويورك ، وقد جربت تجارب منوعة غرضها ان يكشف كيف تستجيب النباتات في اثناء نموها لامواج مختلفة من الاشعاع . فقد ظهر مثلا ان تعريض بزور الخس لضوء الشمس قبل بذرها ضروري لا نتاشها اما التفاح فيمكن انضاجه بزيادة قوة ما يوجه اليه من الاشعة التي فوق البنفسجي ، وعلاوة على تبكير نضجه تكتسب قشرته بريقاً ورديا جميلا

اما تأثير الاشعة التي فوق البنفسجي في الوقاية من الكساح وعلاجه ، فاشهر من ان نتبسط فيه في هذا المقام . ولا يبعد ان يكشف البحث لنا عن صلة وثيقة بين قوام ضوء الشمس المتصل بالارض والفيتامين (د) المقاوم للكساح في بعض النباتات . ومما يرجح هذا الرأي ان النباتات التي لا قيمة لها في مكافحة الكساح تكتسب هذه الصفة بتعريضها للاشعة التي فوق البنفسجي . ثم ان تعريض بعض النباتات للاشعة التي فوق البنفسجي مدة لا تزيد على دقيقتين ينشأ عنها زيادة في مقدار الرماد والكلسيوم والفصفور في اوراقها

ولكن طائفة كبيرة من النباتات لا تتأثر بالاشعة على المنوال المتقدم . فالكرنب وهو نبات لا فائدة منه في مقاومة الكساح لا يتولد فيه الفيتامين المقاوم للكساح بتعريضه للاشعة التي فوق البنفسجي . يقابل هذا ان نوعاً من البرسيم الاميركي الذي ينمو في الحقول يتصف بهذه الصفة ولكنه اذا نما في حظائر مظلمة كان خالياً منها

ولا يستبعد ان يكون للاشعة التي فوق البنفسجي — وقد قيست قياساً دقيقاً وظهر انها تختلف باختلاف الكلف على وجه الشمس — تأثير يسير في المحاصيل . فهل يتاح لنا في المستقبل ان نعرف القيمة الغذائيه والصحية في المحاصيل التي نزرعها ونجنيها ، وكيف تختلف باختلاف العوامل الطبيعية ؟ ثم اننا لا نعلم شيئاً الآن عن العلاقة بين قوام ضوء الشمس من الاشعة المختلفة ، والفيتامينات المنوعة اللازمة لصحتنا وهناءتنا

وما يمكن ان يقال الآن ان علماء الطب قد بدأوا يستشفون صلة بين الفيتامينات التي نتناولها وسلوكنا الفسيولوجي . ولا يبعد ان يكشف في المستقبل القريب او البعيد ان الغدد الصم ، وهي الغدد التي يرتبط بها جانب كبير من حالاتنا النفسية ، تتأثر بالفيتامين الذي في غذائنا ، او الاشعة الشديدة النفوذ التي تصيب الجسم . ومن يدري ، فقد نكتشف في يوم مقبل ، ان نفسية الناس ، ينتابها التفاؤل والتشاؤم ، والاشراق والقتام ، والقوة والخور ، وفقاً لوجوهٍ من التحول في جوّنا ، ترجع في اصلها الى حالة الشمس



التعليم المختلط

للدكتور رسل جولت
عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة الاميركية

موضوع التعليم المختلط من افضل الموضوعات للمناظرات العامة . ان سعة نطاقه وكثرة ما يمكن ان يقال فيه تأييداً لوجهيه ، تجعلانه كذلك . حتى في بلدان الغرب ، حيث احرزت النساء أعظم انتصاراتهن ، لا يزال موضوع التعليم المختلط ، مثاراً للجدل والنقاش . وفي الولايات المتحدة الاميركية التي فاقت غيرها من الامم في الاخذ بهذا النظام ، ما زلنا نرى جماعات كبيرة ، تسلم بمساواة النساء للرجال مساواة كاملة ، ولكنها مع ذلك لا تزال متمسكة بوجوب تعليم الجنسين كل على حدة

ويمكن ان يقال بوجه عام ان التعليم المختلط في الغرب ، بلغ اوسعه نطاقاً في البلدان الشمالية او الانجلوسكسونية ، وأضيقه نطاقاً في بلدان الجنوب او البلدان اللاتينية . ولعل للاقليم اثراً في انتشار التعليم المختلط . حتى في البلدان الانجلوسكسونية ، لم تأخذ انكلترا بالتعليم المختلط في مرحلة التعليم الثانوي ، مدى ما اخذت به الولايات المتحدة الاميركية . اما ايطاليا وفرنسا فغير راضيتين عنه . واما روسيا ففي غمار نظام تعليمي جديد وقد جعلت التعلم مختلطاً في جميع مراتبه

ان في وسع الباحث ان يخرج من تجريب الغرب لهذا الضرب من التعليم بحقائق وقواعد ، قد تكون اذاعتها مجدية في معالجة هذه المشكلة التي تعنى بها مصر الآن

اعدت المرأة من فجر التاريخ الانساني ، لتكون والدة الجنس . فكان لهذه المهمة التي القيت اليها ، اثراً لامفر منه في حياتها . فقد كانت مرتبطة ببيتها وجيرته المباشرة حالة ان الرجل وقع عليه عبء الصيد والقنص والكفاح لتدبير القوت وحفظ الكيان . وبارتقاء الاجتماع الانساني ، زادت مهامها داخل البيت ، كاعداد الطعام واللباس علاوة على حمل الاطفال وتربيتهم . وكذلك حددت وظيفة المرأة البيولوجية نوع عملها في البيت . ولكن كر الاعوام والقرون ، وتأصل العادة والتقليد ، اسبغا على عمل المرأة هذا ، سمة القانون المنزل ، بدلا من ان يحسب نتيجة للاحوال الاجتماعية التي نشأ فيها ومنها . وقد روي عن زوج

يوناني في ايام سقراط القول التالي وجهه الى زوجته : ان الآلهة قد سوت طبيعة المرأة بحيث تقوم بعملها وتنهض بتبعاتها داخل البيت وسوت طبيعة الرجل ليقوم بعمله وينهض بتبعاته خارجه

فليس بالمستغرب اذاً ان يهمل تعليم الفتيات ، حتى بعد ان نظم تعليم الصبيان في المجتمع . بل كان من الطبيعي ان يظن ان الفتاة في الاجتماع البشري البدائي تستطيع ان تتعلم كل ما هي في حاجة اليه ، وهي في دارها

فمن الناحية التاريخية ، نظم نصيب الدولة في شؤون التعليم لاجل الصبيان اولا . اما تنظيم نصيب الدولة في تعليم البنات ، فقد جاء متأخراً ، بعد ان ظل زمناً من شأن البيت والكنيسة . فكان النتيجة ، ان انشئت اولا مدارس وكليات للصبيان والشبان فقط . في الولايات المتحدة الاميركية ظل تعليم البنات في بعض المدارس ، غير مسلم به ، حتى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر . وفي المانيا لم يسمح لهن بالانتظام في الجامعات حتى سنة ١٨٩٥ وعندئذ اذن لهن في سماع المحاضرات فقط اذا سمح بذلك الاساتذة . ولم تنشأ كليات للبنات في جامعة كمبردج الا سنة ١٨٧٢ وظلت جامعة اكسفرد تأبى منح الرتب العلمية لهن حتى سنة ١٩٢٠

فلما اعترف للبنات في بعض البلدان ، بأنه يحق لهن ان ينلن نصيباً من التعليم الذي تهيمن عليه الحكومة ، ظهر ان المعاهد الوحيدة القائمة هي معاهد لتعليم الصبيان والشبان ، فكانت المطالبة باتاحة فرص التعليم للبنت ، وكأنها مطالبة بالتعليم المختلط . فاما ان تنتظم الفتاة في احدى مدارس الذكور واما ان تسد في وجهها سبل التعليم . وكانت نتيجة المطالبة ، بتعليم الفتاة ، ان فتيات كثيرات ، انتظمن في النظام المدرسي الحكومي ، في مراتبه المختلفة

والادوار التي اجتازتها مشكلة تعليم الفتاة في الغرب ، تجتازها مشكلة تعليم الفتاة المصرية الآن

ولما كانت معظم البلدان التي أخذت بجانب من التعليم المختلط ، او به كاملا ، قد فصل بين الدين والدولة ، في النظم السياسية ، فالتعليم المختلط في هذه البلدان ليس خاضعاً بوجه من الوجوه ، لمقتضيات التعاليم الدينية ونواهيها . فليس في أوربا او اميركا ، مرب واحد يحاول ان يقيم الحجة ، على وجوب فصل الاناث عن الذكور في التعليم ، لان النواهي الدينية تقضي بذلك . ولكن يقابل هذا ان فريقاً من المربين في الغرب ، يعترض على التعليم المختلط ويقيم أدلته على ما يلاقيه من المصاعب الادارية والعملية . ويواجه هؤلاء فريق آخر يؤيد نظم التعليم المختلط لما يجنى منه من الفوائد الاجتماعية والاقتصادية

ليس ثمة ريب في ان الولايات المتحدة الاميركية ، أكثر الامم أخذاً بنظام التعليم المختلط . فالاميركيون يؤمنون به كل الايمان ، ولذلك تجدهم اخذوا به في جميع مراتب التعليم الاولي والابتدائي والثانوي والعالي بما فيه تعليم الحرف والصناعات والفنون . ومع ذلك لا تزال بعض الجامعات الاميركية العظيمة ، كجامعات يايل وهارفرد وبرنستن مقتصرة على الشبان فقط ، حالة ان طائفة من أهم الكليات الاميركية ككليات فسار وبرن مور وسمث مقتصرة على الشابات فقط . الا ان جميع جامعات الدولة ، في الولايات الثماني والاربعين اخذت بنظام التعليم المختلط ما عدا واحدة منها

وفي مقدمة الادلة التي يوردها المعترضون على التعليم المختلط في اميركا (١) ان تعليم البنات والشبان معاً يجعل من المتعذر على القائمين بشؤون التعليم، ان يفرقوا تفريقاً طبيعياً بين دروس الجنسين، وفقاً لاستعداد كل منهما وحاجاته. فهذا الدليل قائم على ان التعليم ليس مجرد تدريب عقلي يصلح للفتيان كما يصلح للفتيات بقدر واحد، ولكن التعليم في نظرهم اعداد الافراد بما يلزم لهم من الآراء ووجوه التمرين والدربة للقيام بما يطلب منهم في المجتمع. فهذا الرأي يفرض ان ما تحتاج اليه الفتيات من الناحية الاجتماعية، غير ما يحتاج اليه الفتيان. (٢) ويقول المعترضون في اميركا على التعليم المختلط، ان الجنسين يجب ان يفصلا في دور المراهقة حتى يستطيع كل جنس ان ينمي على حدة الصفات التي يتميز بها والتي ركبتها الطبيعة فيه. فالتعليم المختلط في مرتبة التعليم الثانوي قد يحول بوجه عام دون اكتمال الخصائص الانثوية في الفتاة وصفات الرجولة في الشاب. ولما كانت الفتيات اسرع الى البلوغ من الصبيان فمن الواضح ان الصبيان في اميركا لا يرغبون ان ينافسوا البنات في مرتبة التعليم الثانوي، لان البنات يفقنهم نشاطاً عقلياً وثقة بالنفس. ومما يزيد في هذا الشعور ان البحث الاستقرائي اثبت بعض الشيء ان البنات في هذه المرحلة من مراحل التعليم، يقبلن على اعمالهن المدرسية بهمة تفوق همة الصبيان، ولعل ذلك ناشيء عن رغبتهن في اثبات جدارتهن بمساواة الجنسين، فيبذلن من الجهد في دروسهن ما يجعل الامتياز المدرسي معقوداً بلوائهن على الغالب. وهذا بحكم الطبع يغزز في الصبيان شعورهم بتفوق البنات عليهم وقد يفضي الى تأثير نفسي يصعب استئصاله في ما بعد

اما حجج المؤيدين للتعليم المختلط في أميركا، فأهمها (أولا) ان التعليم المختلط في جميع مراحله — الا في المدن الكبيرة — أدعى الى الوفر والاقتصاد. (ثانياً) من شأنه بث الروح الدمقراطية والمساواة بين الجنسين (ثالثاً) انه يعزز روح المنافسة الشريفة والتعاون بين الجنسين، وهي روح لا بد من تعزيزها لمواجهة مشكلات الحياة بعد عهد الدراسة. (رابعاً) انه يبدد في رفق الاوهام التي تحيط علاقة الجنسين احدهما بالآخر، وتقيم هذه العلاقة على اساس خال من الكلفة وهو ما تقتضيه احوال المجتمع الحديث في الاعمال والحياة الاجتماعية. هذا ما يمكن ان يقال بوجه عام عن آراء المؤيدين للتعليم المختلط والمعارضين فيه

ولكن التعليم المختلط في معاهد التعليم العالي، لا يحتمل جدلا في نظر الفريقين. ذلك انه من المتعذر انشاء جامعات خاصة بالشبان واخرى خاصة بالشابات، لان مهمة انشاء الجامعة والانفاق على اعدادها وجمع طائفة من الاساتذة الممتازين ليس بالعمل السهل، علاوة على كثرة نفقاته. فقد جاء في دائرة معارف التربية ما يلي: «اما في ما يتعلق بالتعليم الجامعي، فمن الواضح ان ابواب المعاهد العالية تفتح للنساء عند ما تشتد مطالبتهن بذلك لأن التعليم المختلط هو السبيل الوحيد لاتاحة هذه الفرص للنساء. ان نفقات التعليم الجامعي تجعل انشاء جامعات خاصة بالنساء امراً متعذراً تقريباً»

الصحافة وأثرها

في النهضات القومية

محاضرة الدكتور سبنسر

عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوز بأميركا والاستاذ
الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

سيداتي سادتي : تشيد الامم الحديثة مجدها على دعائم خمس هي — زعامة دينية رشيدة وقادة محنكون في شئون التربية واساطين في فنون المال وقضاء عادل وصحافة نزيهة . لقد ذكرت الدين في مقدمتها لانه اساس الخلق المتين ومن بغير الخلق المتين يتسنى له ان يحكم الشعب واية امة كسرت شوكة الاخلاق فيها تستطيع ان تحافظ على كرامتها ومجدها بين الامم الاخرى . يحدثنا التاريخ القديم ان مصر بذت امم العالم يوم كان الدين فيها قوياً ثم تدهورت من سماء عليائها حين انهارت اركانه وتهدمت دعائمه . اما قادة التربية فلا غنى عنهم لنقل تراث امتهم العقلي من السلف الى الخلف وهم اذا قصروا في مهمتهم اسرعت شعوب اخرى فنشرت في بلادهم مدارسها واساليب التربية فيها وفرضت عليهم ثقافتها ومدنيتها فتنقطع حينئذ الصلة بين حاضر الامة وماضيها

ولرجال المال المحنكين والمصارف المالية اعظم شأن في ازدهار التجارة وانماء الصناعة والقيام بالمشروعات الاقتصادية التي تقف على نجاحها سعادة الامة المادية والامة التي لا تستطيع تسيير اموالها وتدعيم سياستها الاقتصادية هي امة ضعيفة يعاني اهلها شظف العيش ومذلة الفقر والهوان

وما احوجنا الى قضاء عادل يفقه التشريع ويطبق القوانين تطبيقاً يضمن العدالة لجميع افراد الشعب على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم فلا يرهب رجاله القوة ولا يعمي المال بصائرهم وانما يضعون القانون فوق نزعاتهم الشخصية بل فوق كل اعتبار آخر وبذلك تتضاعف ثقة الشعب في نزاهة حكومته والخطر كل الخطر في ضعف ثقة امة بحكومتها . اما الصحافة النزيهة فمهمتها عظيمة ومسئوليتها خطيرة فهي تضع امام الوطنيين صورة جلية من حقائق الحكم وما ينبغي ان يكون عليه اتجاههم نحو هذه الحقائق وتوضح المسائل القومية العامة ومدى اتفاقها او تعارضها مع الرغبات الخاصة للشعب افراداً او جماعات وتبين مدى تأثر المشكلات الداخلية وارتباطها بالحركات العالمية

ان مكانة الصحافة في بناء النهضة القومية لاي بلد ترتكز على مسؤولية مزدوجة : مسؤولية

الامة ومسؤولية الصحافة نفسها. فسؤولية الامة نحو الصحافة هي ضمان الحرية لها لنشر جميع الاخبار من كل نوع يهم المجتمع الوقوف عليه سواء في ذلك الاخبار المحلية او القومية او الدولية تنشرها دون قيد ولا شرط وما من شك في ان اي تحديد حرية النشر يضعف من ثقة الامة في الصحافة والحكومة معاً — الصحافة الناشرة والحكومة المقيدة . وقد لا يظهر الاثر في هذه الثقة بعد عام او جيل ولكنها اخيراً لابد ان تنهار وتتهدم . اقول اخيراً لاني اتحدث هذا المساء عن النهضات القومية وهي لا تمتد الى شهور وسنين فقط بل الى قرون. فالامم العظيمة تضع خطتها وترسم سياستها مقدماً لعدة اجيال . اما ما يسمونهُ اليوم بمشروع الخمس السنوات فهو خيط واه في نسيج تقدم الامة

وقد قال ابراهام لنكلن قولاً مأثوراً أصبح مثلاً في الولايات المتحدة الاميركية وهو « قد تستطيع ان تخدع بعض افراد الشعب طول الزمن وتستطيع ان تخدع جميع الشعب ردحاً من الزمن ولكنك لن تستطيع ان تخدع كل الشعب طول الزمن » . فانهُ لابد ان يأتي وقت يعرف فيه الشعب أن الصحافة لا تنشر من الاخبار الا ما يرضي الحكومة او ما تخدم به طبقة خاصة من طبقات الشعب او حزباً معيناً او مذهباً خاصًّا وعندئذٍ تنهار قوة هذه الصحيفة كعامل في بناء النهضة القومية . واني اكرر قولي واحذر من ان تقف الصحيفة جهودها على خدمة طبقة خاصة او حزب معين او مذهب خاص لان حرية الصحافة قد تبيحها الحكومة ولكن يقيدها الشعب . فان الصحافة التي يتعرض محرروها لسخط العامة وتتعرض دورها لمهاجمتهم لانها تنشر مقالات او اخباراً قد تتعارض مع رغبات ذلك الحزب او هذا المذهب فانها لا تعد من الصحافة الحرة ولكنها تعد مغلولة مقيدة

قال الرئيس ولسن ان اخبار اليوم هي غذاء الرأي العام وهذا الغذاء ضروري لجميع طبقات المجتمع لنماء عقولهم واعداد مكانهم فوق صرح النهضة القومية ومصدر هذا الغذاء هو الصحافة الاسبوعية واليومية فان الاخبار التي ينشرها المذياع هي بعض ما تنشرها تلك الصحافة. فمن الواجب ان يقدم الغذاء كاملاً نقيًّا . ان الصحافة التي تعتمد على هيئات خاصة وتتقيد برغباتها لا تستطيع آداء مهمتها في النهضات القومية . واذا ما منحت الصحافة حريتها كاملة وجب عليها ان تبذل كل جهودها في سبيل خدمة الهيئة الاجتماعية والامة خدمة حقة تكافىء ما هيىء لها من مسالك معبدة . واخص واجباتها هي خدمة الجمهور الذي يقرأ اخبارها وموالاة جهودها لمصلحته

وكما ان اخص واجبات رجال القضاء خدمة العدالة وعلى اساسها يفصلون في جميع القضايا فأهم واجبات الصحافة اسعاد المجتمع وعلى قدر ما تبذله من جهود في هذا الشأن تقدر منزلتها وقيمتها وعلى هذا يجب ان تعتبر الصحافة نفسها معهداً للخدمة العامة

وغير خاف ان كثيراً من المحررين قد لايتسنى لهم الوصول الى المثل الاعلى الذي تتطلبه الصحافة ولكن ذلك لن يقلل من مسئولياتهم نحو المجتمع فان في كل مهنة رجالا قد لا تفخر بهم حرفتهم وليس ذلك في صناعة دون الاخرى بل في كل طبقة حتى في رجال الدين انفسهم وفي رجال القضاء والتربية . ولا أتردد ان اقول ان في خدمة الحكومة رجالاً لا يهمهم شيء اكثر من تناول مرتباتهم . وهنالك فرق بين المحرر وبين غيره من الناس . لان خطأ المحرر مشهور ظاهر للعيان . وقد قيل ان رجال الدين اذا اخطأوا يستغفرون الله فيغفر لهم والمحامي قد يستعين بمنطقه وجداله للتخلص من خطأ وقع فيه . وكذلك المدرس والطبيب ففي قدرة كل منهم ان يعمل من الحيل ما يستر به خطأه . ولكن المحرر اذا اخطأ ظهر خطؤه واضحاً امام الناس وثبت في نفوسهم . فالمحرر مهما اوتي من اللباقة وحاول ان يستر خطأه او يرأب صدعه يستحيل عليه ان يخدع القارئين

ومهمة الصحافة في النهضة القومية ان تتناول توضيح شئون الامة لنفسها كي تتخذ خطة قومية حيالها ثم هي تقوم باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى ثم تظهر حقيقة الامم الاخرى امام الشعب الذي تقوم على خدمته . وقد يكون التوضيح بطريقة مباشرة فتسجل الحوادث الهامة يوميًّا ولن تقف جهود الصحفي على هذا التسجيل فحسب بل يجب ان يوضح بقلمه علاقة الحوادث بعضها ببعض . اكثر صحفنا يؤدي خدمة جليلة بتسجيل الحوادث المحلية وتوضيحها للشعب فبفضل الصحافة والمذياع الذي يستقي اخباره من الصحافة يوقف الشعب على كل ما يحدث في امته . وها هي مصر اليوم في نهضتها القومية مدينة بشعلة حماستها الوطنية التي تبهر بصر كل زائر لبلادكم مدينة للصحافة التي لم تأل جهداً في اذاعة الاخبار لانارة الرأي العام واثارة الحماسة الوطنية الى درجة لم تعرف من قبل . ويقلل من فضل الصحافة التي تنعكس على مرآتها صفحة الشعب للحكومة والحكومة للشعب عيب واحد وهو ان من يريد الوقوف على دقائق الأمور لا تكفيه صحيفة واحدة ولكنهُ في حاجة الى قراءة صحف عدة وهذا كما نعلم يحتاج الى تعديل في الصحافة ليكتفي القارىء بصحيفة واحدة . والصحافة متهمة اليوم بكثير من العيوب منها اثارة الرأي العام وعدم الدقة في كشف الحقائق والمغالاة في نشر حوادث الاجرام غير ان النقد الذي يوجه اليها بحق ناشيء عن حزبية اكثرها وما تفرضه هذه الحزبية من أثر في رواية الاخبار وكتابة المقالات وكل ما تنشره من الشئون السياسية . من المشاهد ان الصحف التي توالي الحكومة لا تظهر أي خطأ في أعمالها فجميع أخبارها تحبيذ لسياستها وكل مقالاتها مدح واطراء لها . ومن جهة أخرى نجد الصحف المعارضة للحكومة لا ترى شيئاً حسناً في كل ما تقوم بهِ الحكومة فجميع اخبارها السياسية موجهة ضدها وكل مقالاتها حملات منظمة عليها . هذه الحملات العدائية وما تنطوي عليه من تجريح غير عادل للزعماء السياسيين نتيجتان : —

الأولى انهُ قد يأنف كثير من ذوي العقول الفذة والمقدرة النادرة عن الاشتغال بالمسائل العامة وخدمتها فان هؤلاء السادة لا يتحملون الهجوم اليومي على أشخاصهم والتدخل في كل كبيرة وصغيرة من شئون حياتهم بل والخوض في أخص حياة أسرهم والتعريض بها أمام جمهور قد يكون مريضاً. نحن نعرف رجالاً ممتازين كانوا يودون ان يقفوا حياتهم على خدمة وطنهم ولكن مغالاة الجرائد في مناصبتهم العداء حالت دون تحقيق أمنيتهم. وهنالك عيب أكثر خطراً وهو محاولة هدم ثقة الشعب التي يوليها زعامته الوطنية وحكومته النيابية. فكم من حرب ضروس شنتها الصحافة المعارضة على رجال الحكم وكان من نتائجها اضعاف ثقة الشعب في زعمائه حتى ليعتقد رجل الشارع ان كل هم رجال الحكم انما هو الاستيلاء على مرتباتهم في آخر كل شهر واستغلال مناصبهم لكسب شخصي لا يقره القانون

لقد أنشأتُ عدَّة جرائد صغيرة في أوقات مختلفة وكان مبدئي في تحريرها ان تكون مستقلة عن جميع الاحزاب فكنت امتدح الرجال وأشد أزرهم لمجرد نزاهتهم وقويم مبدئهم وليس لانتمائهم لاي حزب مهما كان لونه. واني حين كنت أخوض معركة انتخابية اخفق فيها من أعاضده — ومن الحق ان اقرر اني طالما خسرت في هذا السبيل — فاني كنت أحذر جرائدي من مهاجمة ذلك الموظف المنتخب الذي كنت أعارض في انتخابه مالم يأت عملاً لا يقره القانون وتتوافر لديَّ أدلة لا تقبل الشك في انهُ اذا قدم للمحاكمة تثبت ادانته. هذه الخطة تؤلف بين ابناء الامة وتوحد صفوفهم واذا ما اتحدت امة حول رجال الحكم فيها فانه لن يسهل على احد ان ينال منها او يتعجل الحوادث او يدعي الذبوع بنتائج ما قد تقوم به السلطة الادارية او التنفيذية من اعمال

ان الصحافة في مجموعها تحسن اداء واجبها عند توضيح علاقة المسائل الدولية بالمسائل الوطنية وما يتصل منها باعمال جمهور قارئيها غير انهُ كثيراً ما تنشر الجرائد اخباراً لاقيمة لها مما يحدث في الممالك الاخرى فياحبذا لو وجهت جهودها الى الاتجاهات والعوامل الاساسية الوثيقة الاتصال والشديدة التأثير في احوال الامة او المجتمع. اما عمل الصحافة باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى فما يزال يفتقر الى كثير من العناية ولست اقصد بذلك صحافة بلد خاص بل صحافة العالم اجمع — وهنا يجمل بي ان اقرر ان صحافة بريطانيا العظمى قد تقدمت مثيلاتها في العالم في توضيح حقيقة شعبها لشعوب الممالك الاخرى. نعم نعتوا الجرائد الانكليزية بانها «جرائد دعاية» فحسب ولكن هـذه تسمية لاتنطبق على الواقع فانها صحافة وطنية سامية استطاعت ان تنشر للعالم اسمى ما في البلاد البريطانية من مثل عليا وافكار ناضجة

لو سئلت عن الخدمات الجليلة التي تستطيع الصحافة الامريكية ان تؤديها في بناء مجدها القومي لقلت بلا تردد ان اعظم مجهود لها يؤتي اطيب الثمر يجب ان يوجه الى حمل مصر الحديثة

معروفة للعالم بحقيقتها . واني لا استطيع ان احكم على مدى معرفة الدول الاجنبية غير الولايات المتحدة الاميركية للبلاد المصرية لاني لم اعش طويلاً خارج بلادي اما عن الشعب الاميركي فإن مصر الغابرة او مصر كما كانت ، معروفة حق المعرفة ، غير إن مصر الحديثة او مصر كما هي اليوم ، فمعرفة القوم بها ضئيلة . لمصر شهرة عظيمة لمجدها الغابر اما مجدها الحاضر فاني اخشى ألا يكون كذلك. لقد جعلت مصر اليوم نفسها مسرحاً ومرآة لامسها، اما يومها فاصبح مجهولاً لم تعره العناية حتى يضح للعالم رونقه الجديد

فالرجل العادي والمرأة العادية في اميركا لا يعرفان عن مصر سوى انها بلاد الاهرام وابي الهول وقبور الفراعنة ينحدر فيها نهر نحو الشمال فيغمر الارض سنويًّا بمائه متجهاً الى البحر

وعلى هذا فمصر مملكة تستهوي السائح بضعة ايام يجول في ربوعها ويطوف في ارجائها ليعود وجيبه عامرة بالجعارين والتمائم وعلى حقيبة سفره بطاقة النزل دليلاً على انهُ زار الارض التي هرب منها بنو اسرائيل. فالاميركي العادي لا يعلم ان مصر بلاد لا مطر بها في بعض المناطق يسودها الجو المعتدل جل العام — وهو يجهل انها تنتج اجود انواع القطن ذي الشعرة الطويلة الممتاز في العالم — وهو لا يعرف فواكهكم وخضركم التي لا مثيل لها والتي تبدو لكم شيئاً عاديًّا — وهو لا يدرك ان مصر خير منتجع لقضاء العطلات وانها انسب مكان لاقامة ملعب عالمي في الشتاء. فالاميركي الذي لا يعرف هذه المحاسن لا يزور مصر في الشتاء ويؤثر ان يذهب الى انجلترا او جنوب فرنسا وايطاليا او اسبانيا. واني شخصيًّا لآسف على انني عشت نصف قرن قبل ان ازور مصر لاول مرة . فاذا استطاعت صحافة البلاد ان تجعل من اهم اغراضها تبيان المكانة الممتازة التي تتبوأها مصر الآن وما لها من مجد وحضارة رائعة واذا استطاعت ان تصور كل ذلك امام العالم تصويراً بارعاً فانها اذن تساهم باوفر نصيب في النهوض بهذه البلاد

واخيراً اود ان ابين لكم ان مقام الصحافة السامي انما يرتكز على ثلاثة اركان

اولاً — توجيه الرأي العام وذلك بالتعبير عن رغباته . ثانياً — عرض التطورات العالمية على الشعب خصوصاً ما كان لهُ اثر مباشر في الاحوال المحلية قد يستفحل بمرور السنين . ثالثاً — عرض صورة لافراد الامة وشعبها وحاصلاتها امام العالم

فاذا اردتم ان يكون في الامة شعب مستنير فلا بد ان يلم افراد هذا الشعب بالمشكلات الهامة واغراض السياسة . واذا كان لا بد من زعامة رشيدة فواجب السلطات التنفيذية ان تتعرف حاجيات الجماهير وتأثيرات التطورات الدولية في المملكة. واذا كان للمملكة ان تنعم بالرفاهية والرخاء فيجب ان يصور شعبها بالمظهر اللائق بهِ امام اعين العالم لتتجه اليها الانظار وهذا المسلك يتيح الفرصة للصحافة لتأدية رسالتها في النهوض بالامة



عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

— ١ —

لجبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

دنا موسم الحج عام ٢٣ للهجرة وكان موسماً حافلاً ، فقد كانت خلافة عمر بن الخطاب وكان العرب قد اخضعوا الفرس والروم وغلبوهم على ممتلكاتهم في العراق وفارس وفي الشام ومصر . وكان قد تحدر الى الحجاز سيل كبير من سبي هذه الاقطار فرِّق في أهليه وأخذ يقوم لهم في مختلف الاعمال وشرعت وفود الحجاج تؤم بيت الله الحرام قادمة من بلدانها المختلفة يتقدمهم عمال عمر عليها . وكان من سنّته فيما يروون ان يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة فيحاسبهم ويناقشهم في سياستهم ويفسح لرعاياهم مجالاً لشكايتهم

وانسلخت ايام الحج بهدوء وسلام فنفر الناس الى اوطانهم وغادروا مكة الاّ من آثر البقاء فيها للتبرك بمشاهدها او العيش في حماها ، وعاد عمر الى المدينة مقر خلافته مع من يممها من عماله واتباعه وغيرهم من ذوي الحاجات وشهر ذي الحجة لم ينسلخ بعد

وكانت ليلة السادس والعشرين من الشهر نفسه . القمر في اواخره ولم يبق له الاّ ايام اربعة حتى يولد من جديد وقد وافقت ليلة الرابع من تشرين الثاني فكانت ليلة من ليالي قلب الخريف الثقيلة المظلمة ، وقد رقدت يثرب مدينة النبي في هدوء ذلك الظلام واجمة ساكنة غير عالمة بما خبأه لها من الامر صبح ذلك الليل

هو ذا الفجر يتنفس فينعش طيب انفاسه ما حول المدينة من ربى واودية ثم هو ذا هو يتحرك فيبرز أُحُد ويظهر العقيق وتدب الحياة في ساحات طيبة فينتفض المصلي والبلاط والبقيع ، وقد نهض الخليفة عمر باكراً الى الصلاة كعادته وأخذ الناس يتهافتون متزاحمين الى مسجد النبي فوكل بالصفوف رجالاً حتى اذا استوت تقدم هو فكبر

ودخل في هؤلاء الناس رجل فارسي ، مولى للمغيرة بن شعبة ، لعله لم ينم تلك الليلة ، او لعله كان يرقب مثل تلك الليلة المظلمة لينفذ في فجرها جريمته النكراء ، فاستوى في الصف الاول ، ملفع الرأس ، متنكراً ، وقد اتخذ خنجراً طويلاً له رأسان مقبضه في وسطه ، وهو ذا هو يبدر من صفه ، والخنجر بيده ، حتى يصل الى الخليفة عمر ، فيطعنهُ ، فيقع عمر وينادي وهو يعالج الموت بابن عوف ان يتقدم الناس بالصلاة

مات الفاروق وذاع النبأ في المدينة فاستسلمت الى حزن عميق ، وانها لفي حزنها وصوت النعي بمقتل شيخ قريش يتردد في كل بيت من بيوتها لينقله الركبان الى سائر انحاء الجزيرة والعالم العربي ، اذا بصوت البشير في بيت صحابي اسمهُ عبد الله ابن ابي ربيعة يؤذن بولادة صبي لهُ . قالوا فسمي الصبي باسم الخليفة المقتول وكنى كنيته . وذكر هذا الاتفاق لبعضهم فيما بعد فقال : « أي حق رُفع وأي باطل وُضع . »

واذا نميت هذا الصبي الى قبيل فالعرق كريم هو من قريش وما أدراك ما قريش . قريش فخر العرب ، واذا نسبتهُ الى عشيرة فالنسب شريف ، مخزوم ريحانة قريش ، بل هو من أشرف فروع مخزوم — بني المغيرة — واليهم كان يحب ان ينتسب

قفي فانظري أسماء هل تعرفينهُ أهذا المغيريُّ الذي كان يذكرُ

وعزّ المغيرة في قريش كلها فكان سيدها وأنجب أولاداً نبغ منهم ثلاثة : هشام والوليد وأبو ربيعة . اما هشام فقد عز كأبيهِ حتى لقب برب مكة وضرب بيأسهِ المثل وتغنى بمجده الشعراء حتى اذا مات أخذت قريش تؤرخ بوفاتهِ وفيهِ قيل :

وأصبح بطن مكة مقشعرًّا كأن الأرض ليس بها هشامُ

وأما الوليد فقد ساد حتى لقب بالوحيد وزعموا انهُ أمّر وهو صغير على الأكابر من رجال قريش وحكم في عكاظ وأدرك محمداً نبيًّا فأنكر عليهِ رسالته وقال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها . فأنزل فيهِ : « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وأنزل فيهِ مرة أخرى : « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت لهُ مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت لهُ تمهيداً ثم يطمع أن أزيدَ كلاَّ انهُ كان لآياتنا عنيداً » . وأما ابو ربيعة فكان فارس بني المغيرة قاتل يوم عكاظ برمحين فيما يزعمون فسمي ذا الرمحين وقد قال في هؤلاء الثلاثة الشاعر متغنياً بمجدهم :

وبلّغ ان بلغت بنا هشاما وذا الرمحين بلّغ والوليدا
أولئك ان يكن في الناس جودٌ فان لديهم حسباً وجودا
هم خير المعاشر من قريشٍ وأوراها اذا قدحوا زنودا

وخلف هشامٌ أبا جهل فكان من اشد خصوم النبي هو وابنه عكرمة . فلما وفد الأخير على النبي بعد فتح مكة داخلاً في الاسلام استبشر محمد بقدومه ووثب فيما قال الطبري قائماً على رجليهِ فرحاً بعكرمة وقال : مرحباً بالراكب المهاجر . وقال ابن ابي الحديد : « لم يقم رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وآله لرجل داخل عليهِ من الناس شريف ولا مشروف الا عكرمة وهو بعد مشرك ولم يسلم »

وكان من ابناء الوليد عمارة وخالد ، والاخير معروفٌ في جاهليته مشهورٌ في اسلامه. وكان من ابناء ابي ربيعة عبد الله والد هذا الصبي الذي تركناه يتقلب في مهده على فراش وثير في بيت عز وشرف ومنعة وسيام وجود

وبلغ عبد الله من الغنى في جاهليته بحيث زعم الرواة انهُ كان يكسو الكعبة من ماله سنة وتكسوها قريش كلها سنة اخرى

وكأن هؤلاء المخزوميين قد عز عليهم ان يقوم النبي من غير مخزوم فناهضهُ اكثرهم واستمر عبد الله في خصومته النبي حتى فتح مكة فاسلم. ومنهُ استسلف النبي ليلة حنين مالاً اعاده اليهِ بعد رجوعه. ثم عينهُ على الجند ومخاليفها في اليمن وبقي عاملاً عليها خلافة ابي بكر وعمر ، وقد كان وافداً مع الحج عام قتل عمر وكان من الذين استشيروا — غير الستة — في امر الذي يخلف عمر ، وبقي فيما يظهر عاملاً لعثمان طول خلافته ، حتى اذا حوصر عثمان يوم الدار وفد عبد الله من اليمن لنصرته ، فسقط عن راحلته ومات وصبينا عمر لم يتم الثانية عشرة من عمره. ولهذا فلا نرى في كل المصادر التي بين ايدينا خبراً عن اتصال عمر بوالده. ويظهر ان اخا عمر الحارث وُكّلَ في امر عمر بعد موت ابيهما

اما أم عمر واسمها مجد فقد كانت يمنية من لخم زعموا انها سبية ولعلهم أخطأوا في هذا. وهناك ما يدعو الى ان يضل الرواة في مثل هذا الامر . ولقد اتصل عمر بأخواله في لحج وزارهم اكثر من مرة. ويخيل اليَّ ان والد عمر قد زوَّج من مجد اثناء ولايته على الجند ومهما يكن من الامر فقد زعم الرواة ان الغزل اتى عمر من اليمن من ناحية أُمهِ حيث يقال «غزل يماني ودل حجازي»

وكان لعمر اخوة احدهم الحارث الذي ذكرنا. وكان من ام حبشية وقد ساهم في سياسة ذلك العصر فكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على العراق او بعض مدنه لبضع سنوات. وقد قال فيهِ عبد الملك بن مروان خصمه : ان أُمَّـا ولدتهُ لمنجبة . وكان لعمر اخ آخر اسمهُ عبد الرحمن زوِّج من بنت ابي بكر ام كلثوم بعد موت زوجها طلحة وهي اخت عائشة ام المؤمنين واخت أسماء ذات النطاقين والدة عبد الله بن الزبير وهذا يفسر لنا اتصال عمر بآل الزبير ، وبعائشة بنت طلحة ابنة امرأة اخيه

ولقد زوّج عمر من غير واحدة ورزق اولاداً ذكرت الاخبار منهم اثنين صبيّاً وبنتاً. اما الصبي فهو جوان وقد نشأ رجلاً صالحاً ضرب بصدقه المثل. واما البنت فقد زوجت من محمد ابن مصعب بن الزبير

﴿ نشأته ﴾ : كم يكابد الباحث في تاريخ رجال القرون الاولى من العناء اذا حاول درس نشأة هؤلاء الناس وحياتهم ايام صباهم. ويظهر ان القدماء قلما كانوا يعنون في الالتفات الى هذه الامور فلم يكن من همهم شأن الصبي حتى ينبغ او يشتهر بفن او حرب او شعر او حتى يلي او يملك وقلما عنوا ايضاً كما يعنى مؤرخونا اليوم بتدوين سير الرجال في كتب خاصة . فاكثر اخبار رجال التاريخ العربي قد انتثرت بين طيات شتى الكتب. فترى اخباراً عن شعراء في كتب الحيوان وأخرى عن رجال الحرب والسياسة في كتب الأدب . غير ان عمر نال من عناية هؤلاء القدماء شيئاً ليس باليسير. فقد كتبت عنهُ فيما يظهر كتب خاصة قصرت على اخباره . قال ابن النديم : إن عمر كان من الذين عشقوا وألف في اخبارهم وروى ان لابن بسام الشاعر من الكتب كتاب اخبار عمر بن ابي ربيعة . وقال : ولم ارَ في معناه ابلغ منهُ. وروى ايضاً ان للزبير بن بكار كتاباً في اخبار ابن ابي ربيعة ، وذكر ابن خلكان ايضاً ان لابن بسام المذكور في التصانيف اخبار عمر ابن ابي ربيعة. وزعم انهُ لم يستقص احدٌ في بابهِ ابلغ منهُ . ولكن مع الاسف قد ضاعت كل هذه الكتب. ولولا ان ابا الفرج الاصبهاني قد التفت الى عمر فأفرد له في « أغانيه » قدراً لم يفرده لشاعر آخر او ملك او امير لكانت حياة ابن ابي ربيعة وبعض اخبار حبه في عالم الخفاء ، ويجب ان لا ننسى ان عمر قد خلف لنا ديواناً من الشعر غير ان هذا الديوان على كبره غير تام. ويظهر لي ان اكثر شعر عمر قد ضاع . ولهذا كله فانا لا نزال نجهل اخبار نشأة عمر الاولى فكيف قضى صباه ؟ واين ؟ ومن اين اتاه الشعر ؟ وكيف نهج هذا النهج ؟ كلها امور يصعب درسها

واري ان كثيراً من نواحي حياتهِ في طفولتهِ وصباه سيظل مغمضاً مبهماً حتى يقيض الله لاحد النشر على بعض هذه الكتب التي ذكرنا — ان كان فيها ما ينقع غلة — او على الاقل على ما ضاع من شعره .

﴿ أين نشأ ﴾ : والراجح انهُ نشأ في المدينة عاصمة الحجاز زمنذاك ومقر الخلافة ، دون ان يفوتهُ التردد إلى مكة موطن آبائه ، وكانت المدينة آنذاك في عصرها الذهبي تنعم في لين العيش ، مالٌ عظيم وغنى وافر وشباب انقطعوا عن السياسة وانصرفوا الى اللهو وجوارٍ بالالوف وزّعن في بيوت سراة القوم فنشرنَ فيها كثيراً من حضارة اقوامهم ذوي المدنية من فرس وروم مع ما يتبع هذه الحضارة من ضروب اللهو والوان العبث . ففشا الغناء وعقدت له حفلات عامة

وخاصة ، وكان عمر من أسبق المترددين اليها. ويُسّر اختلاط الشباب بالجواري وغيرهن ففشا العبث . وكان في المدينة وادٍ بهيج هو العقيق متنزه اهل اللهو في ذلك العصر ، فكانوا اذا سال يهرعون اليه رجالاً ونساءً ويعقدون حول ضفافه حلقات الانس والطرب ويلتمس بعضهم المغنين فيسمعونهم من عذب اصواتهم وينزوي آخرون تحت نخيله يلهون ويعبثون

***

تلك نعمة تفردت بها المدينة بين سائر مدن الحجاز ولم تكن لتحظى بها الا اذا سال العقيق ولهذا لم يفت هؤلاء الناس الذين كاد يخلو قطرهم من الماء والخضرة ان ينعموا بهذا الحظ النادر ، فكان العقيق يجذب اليه الجماهير فينتشرون على ارضه يتمتعون بهذا الجمال الذي يحيط بهم كلّ في طوره توحد بينهم البهجة والسرور والدعة وهم في صعيد واحد لا تسمع منهُ سوى أصوات المغنين وأنات المحبين ونجوى العاشقين فيبدو العقيق في روعته ليلتذاك كبقعة من الجنان خلت من الآلام ونامت على أطيب الانغام وهنئت بأحلى الاحلام . وتفتش عن عمر فتراه في كل مكان ، فهو تارة في حلقة غناء يستمع الى بعض المغنين والمغنيات وطوراً في مجلس أُنس يحدث الغانيات الفاتنات وحيناً آخر في موكب صديقه عبد الله بن جعفر ينتقل بين تلك الحلقات

وتسمع مع خرير المياه في ذلك الوادي وهمسات النخيل وهبوب النسيم أحاديث وأدباً وظرفاً تنبئك عن كل العقيق . وتبحث عن عمر فتراه واسطة عقد هذه المحادثات وظريف هذه المجتمعات وشاعر هذه الحلقات

ويدنو موسم الصيف وترحل عائلات السراة من المدينة ومكة الى الطائف فيرحل عمر الى الطائف يصيف مع المصيفات . إنهُ امرؤ فتن وكلف بالجمال فهو يتبعهُ انى وجده . ويدنو موسم الحج فترى عمر أسبق الناس اليه وهو يرى الحج — على تعبير الدكتور طه حسين — معرضاً اسلاميًّا للجمال وها هو ذا يتقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقي العراقيات فيما بينهُ وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات والشاميات الى الكديد . وينقسم قلب عمر بين اليمنيات والشاميات والعراقيات فلا يترك هذه حتى يتعلق باخرى ولا يعود من تشييع تلك حتى يودع اخرى يتحدث مع هذه ويتودد الى تلك ويتحسر لفراق هاتيك ويمر الوقت سراعاً فيتلهف عمر على كل لحظة تفوت لم يتمتع بها بهذا الجمال ولم يهنأ بها بهذا الحب فيصرخ من اعماق قلبه :

ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا كلَّ يومين حجةً واعتمارا

ثم يعود الى نفسه وقد غمرتها تلك الروعة ، واذا بها تذوب شعراً جيداً ينثره عمر وراء

الغانيات فينتشر في مواكبهن وركبانهن ويصل قبلهن الى ديارهن . وهو في بعض هذا الشعر يحاول ان يتعزى ويتأسى فلا يرى ما يعبر بهِ عن عزائهِ ويرد اللوم على عاذله سوى لقاء الحبيب في الموسم القادم :

فقلت له ما من عزاءٍ ولا أسى بمسلٍ فؤادي عن هواها فأقصرِ
وما من لقاءٍ يرتجى بعد هذه لنا ولهم دون التفاف المجمرِ
فهاتِ دواءً للذي بي من الجوى والاً فدعني من ملامك واعذرِ

***

﴿ هيئته ﴾ : ليس من شك في أن عمر كان جميلاً . ولعل هذا الجمال كان من العوامل التي دفعت النساء الى حبهِ فجعلتهُ معجباً بنفسهِ حتى زعم البغدادي أن عمر كان يتغزل بنفسه لحسنهِ وجماله . ولكن هذا الحسن لم يوصف لنا كما وصف هو حسن اللواتي تغزل بهن فقد كان يكتفي بالافتخار بهِ . ويذكر أن النساء كن يطرينَ جماله ويلهجنَ بهِ ويتشوقن الى صاحبه حتى نعته بعضهن — فيما زعم — بالقمر

وكان عمر — فيما يظهر — طويلاً رأتهُ احدى أميرات بني أمية في نفر من قومهِ وهم جلوس يتحدثون وذكرت أنهُ فرعهم طولاً وجهرهم جمالاً

وكان أسمر اللون شاحبه ناحل الجسم في اكثر الاحيان ولعل مصدر هذا هو السهر والسمر والتعرُّض لبرد الليل وحر الهاجرة في سراه وتهجُّره . يلتفت الى هندامه وهيئته فيلبس أبهى الحلل ويتزين بأحسن الوشي ويتطيب بأعطر الطيب حتى قيل فيهِ انهُ كان من أعطر الناس وأحسنهم هيئةً ، وربما بلغ بهِ حبه للزينة أن خضب نجائبه التي يركبها بالحناء وكساها القطوع والديباج . وكان لهُ جواد وضع في عنقه طوق ذهب له غلام خاص يسوسهُ

وكانت له مشية خاصة فضحتهُ ذات يوم وقد تنكر فعرفتهُ فتاته الثريا فيها . وكان في وجهه أو بالاحرى في فمه علامة فارقة لا ندري تماماً الوقت الذي ظهرت فيهِ وهي اسوداد الثنيتين العُلْـيَيَين ويزعم بعضهم أن الثريا إحدى حبيباته ضربتهُ في مداعبة بظاهر كفها وكانت النساء تتختم في أصابعهن العشر فاصابت الخواتم ثنيته وكادت أن تقلعها وخاف أن تسقطا فقدم البصرة في العراق فعولجتا له وثبّتتا وسودتا . وكانتا في فمه من أعمق الذكريات

﴿ بعض نواحي خلقه ﴾ : لقد اتفق اكثر القدماء والمحدثين ان عمر شاعر تملكه الدل والتيه . ولعل مصدر ذلك هو الاصل الكريم الذي تحدر منهُ والجمال الذي منحهُ والشعر الذي أوتيه . أو لعل النساء كما يزعم البعض هن اللواتي افتتن بهِ وتنافسن فيهِ واستبقنَ الى مودتهِ

وتهالكهن عليهِ فاضطره هذا الى شيءٍ من الدل والغرور. ولقد حدث عن نفسهِ فقال: لقد كنت وانا شاب أُعشق ولا أعشق. وقال من شعر يصف فيهِ مجلساً لصاحباتهِ ويذكرانه موضوع حديثهن أوله:

« هيج القلب مغان وصير »

للتي قالت لأتراب لها — قطف فيهن انس وخفر
قد خلونا فتمنين بنا — اذ خلونا اليوم نبدي ما نسر
فعرفن الشوق في مقلتها — وحباب الشوق يبديهِ النظر
قلن يسترضينها مُنيتنا — لو اتانا اليوم في سر عمر
بينما يذكرنني أبصرنني — دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم — قد عرفناه وهل يخفى القمر

رُوي ان ابن ابي عتيق لما سمع أبيات عمر هذه قال انت لم تنسب بها انما نسبت بنفسك انما كان ينبغي أن تقول قلت لها فقالت لي فوضعت خدي فوطئت عليهِ

وقد تصدت لهُ فتاة جريئة فقالت لهُ: لا اكون من نسائك اللاتي تزعم ان حبك تيمهن.

ولهُ يصف حب صاحبة لهُ:

وانها حلفت بالله جاهدة — وما اهلّ لهُ الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شيءٍ تسرّ به — وأعجب العين الاّ فوقهُ عمرُ

ولهُ يدل بجماله ويذكر صبابة حبيبته، وخوفها عليهِ من العين:

اخشى عليهِ العين ان بصرت بهِ — وترى صبابتنا بهِ فتهابه

بل قد غلا في دله وتيهه وتشوفه حتى زعم ان بعض الفتيات كن يكابدن عناء السفر ليلاقينه في الحج

اومت بعينيها من الهودج — لولاك هذا العام لم احجج
انت الى مكة اخرجتني — ولو تركت الحج لم اخرج

ارأيت الى اي حد كان تيهه ودله وغروره. أرأيت كيف انهُ يرى ان النساء كن يعشقنهُ فهو مناهن وحديثهن وغايتهن في الحج: ماذا اقول، ان له بيتاً من الشعر غلا فيهِ حتى جعل نفسه موضع الانبياء عند حبيبته:

واذا ما عثرت في مرطها نهضت باسمي وقالت يا عمر

ولعل اظهر ميزة في خلقه بعد تيهه ودله الحاحه والحافه في كثير من الامور التي كان يحاولها أو يسعى لنيلها فهو يجدُّ وراء غرضه حتى يناله ويلح في طلب حاجته حتى يدركها . ولقد يبدو لاول وهلة ان هذه الظاهرة من خلقه لا تتفق مع تيهه ودله والواقع انها اقرب ما يكون الى هذا الدل. بل لعلها أثر من آثاره، فهو اذ طاب حبيباً فامتنع عليه ابت عليه نفسه التائهة ان يخذل في سعيه فلا يزال وراء حبيبته ملحفاً ملحًّا حتى يوقعها في شر الحبه ، وهناك يعاوده تيهه فيفخر في أنهُ أخضع هذه المتمنعة لسلطان حبه وقد جاء دوره ليدل ويتيه

***

ويندر ان نرى قصة من قصص حبه خلت من هذا الالحاح وراء التي أحبها . ذلك كان شأنهُ مع امرأة ابي الاسود الدؤلي وغيرها من النساء اللواتي كان يصادفهن في الحج . وقد رأى مرة كلثم بنت سعد المخزومية فهواها وراسلها فلم تجبهُ فأخذ يرسل لها الرسل ويلح عليها في الحب فتنكرت لرسله واخذت تضربهم وتأخذ عليهم العهود ألاّ يعودوا وظل يبعث الرسل وظلت تكيد لهم حتى تحاموها . ولم يمل عمر ولم يتحامَ ولم يرجع عن طلبه بل ابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن اليها وكساها وآنسها وعرفها خبره وقال إن اوصلت لي رقعة الى كلثم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت . ووفقت هذه الجارية في رسالتها وكان جواب كلثم « ما زال عمر حتى ظفر ببغيته » . وكان يعترض مواكب الحجاج ليسأل عن هذه وتلك وما يزال يلح ويحرص على التقرب منهن حتى تعقد بينهُ وبينهن روابط الحب

وهناك ناحية أخرى في ميوله غلبت صبغتها في اخبار حبه وشعره وهي ميله للتحدث والسمر مع السيدات ولطفه وحسن معشره . ولا أظن الادب العربي عرف صديقاً للمرأة سميراً لها اعظم من عمر . وكانت النساء جد معجبات بظرفه وحديثه يتشوقنَ اليه ويتمنينَ لقياه ويذكرنَ حلو سمره وأنس مجلسه

ومع ان عمر عرف عند البعض بالشاعر الفاسق فاني ارى في كثير من قصص حبه عفة لم يخالطها إثم . وقد اقتصرت وقائعه مع الكثيرات على مجلس أنس وطيب سمر ولذة حديث وهو القائل :

فاجتنينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمرك جاني

النشوء الخالق

قطعة من فلسفة برغسن

لحنا خباز

ولد هنري برغسن في باريس سنة ١٨٥٩ . فهو اليوم مناهز للثمانين من عمره وكان في صباه دارساً مجيداً بدا عليه من مخايل النجابة والذكاء ما أهّله للفوز بجميع جوائز المدرسة . ولكنهُ تخصص في درس الطبيعيات والرياضيات . فأوقفتهُ مواهبهُ الخارقة ، وجهاً لوجه ، امام الميتافيزيكا الكامنة وراء كل العلوم . فعرج على درس الفلسفة . ولذلك دخل « ايكول نورمال سوبريير » او مدرسة العلوم العليا سنة ١٨٧٨ . وتخرّج منها سنة ١٨٨١ فتعيّن للحال معلماً للفلسفة في كوليج رولان . وانتقل سنة ١٨٩٨ الى كرسي الفلسفة في « كوليج دي فرنس » . وظلّ في ذلك المنصب حتى استقال عنهُ مؤخراً

مؤلفاته

اصدر برغسن سنة ١٨٨١ اوّل مؤلّفاته وهو كتاب « الزمان وحرية الارادة » . وسنة ١٨٩٦ اعقد مؤلفاته ، وهو كتاب « المادّة والذاكرة » . وسنة ١٩٠٧ آية فنّه ، وهو كتاب « النشوء الخالق » . وقد جعله هذا الكتاب بين عشيّةٍ وضحاها نبراس الفلسفة وزعيم اساطينها فهو الفيلسوف الاوحد في فرنسا بعد « ديكارت » ، وفي كل اوربا بعد « كنت » . واصدر في سنة ١٩٣٥ آخر مؤلفاته . وهو كتاب « اصلا الديانة والاخلاق »

كان برغسن في اول نشأته سبنسريًّا صميماً . يقبل نظرية النشوء وهي محور الفلسفة المركّبة ، التي بسطها سبنسر في مؤلفاته الضخمة . على انهُ كان كلما اعاد قراءة تلك المؤلفات يتّقد حماسةً وحدّةً في قضايا ثلاث

الاولى : في المادة والحياة . الثانية : في الجسد والعقل . الثالثة : في الحتمية والحرية

كانت تجارب « بستور » البكتريولوجية قد قضت على نظرية التولّد الذاتي . وبعد مرور مائة سنة ، اجريت في غضونها الوف من التجارب ، لم يتقدّم الماديون خطوة واحدة في حلّ معضلة « اصل الحياة » . ومع ان الدماغ والعقل مترابطان لم يزل نوع الترابط بينهما سرًّا غامضاً

فبرز هنري برغسن في وسط العجاج المنعقد في جو اوربا بين الآراء المتناحرة . وكان ثائراً على الآراء الحتمية المادّية . وخلاصة فلسفته : « ليس هذا الكون نظام يقينية كاملاً » معرفتنا إياه ناقصة ، بل هو صيرورة او استمرار ، ومهمّة الفلسفة الرئيسية ان تعمل ما يقصر عنهُ العلم ، وهو ادراك معنى الحياة » . فمبدأ الحياة ، ذلك النبع الفياض الذي يدفع ويُغري ويطور حركة الحياة بلا انقطاع ، ذلك المبدأ — elan vital — قد انشأ العقل ليتعرف عالم المادة العديمة الحياة

لست اجهل ان فلسفة برغسن اوسع من ان تجمع شواردها مقالة واحدة . ولا سيما بقلم رجل لم يدخل الفلسفة من أبوابها . على اني أورد في ما يلي ملخص قطعة من كتابهِ « النشوء الخالق » ، عنوانها « معنى النشوء » The meaning of evolution وردت في ص ٢٦٤—٢٨٦ من ذلك الكتاب . ولو ترجمت بحروفها الى اللغة العربية لشغلت ما لا يقل عن عشرين صفحة من مجلة المقتطف . واليك خلاصتها مع التبسيط والتوضيح تقريباً لمتناول غير الاختصاصيين

***

ان محرّك الحياة الاصلي في حاجة الى الخلق او الابداع . تعترضهُ في سبيلهِ المادّة . لكنهُ يتحكّم بها ، ويبثّ فيها اعظم قدر ممكن من الحرية . وكيف ذلك ؟

الجواب : يمكن وصف الحيوان الراقي وصفاً عامًّا ، بأنهُ حاصل على الأعصاب المحرّكة المتكفلة بأفعال الهضم والدوران والتنفس والتمثيل . ووظيفة هذي الأجهزة تنقية الجسم العضوي وترميم ما تهدّم من خلاياهُ ، ووقاية المجموع العصبي ، وإمدادهُ بالنشاط الذي ينفقهُ الجسم في الحركة . وتتوقف زيادة تركيب الاجسام العضوية على ضرورة تركيب المجموع العصبي . والترابط بين أقسام الجسم العضوي ، يجعل العضو الواحد متأثراً بما يحدث للعضو الآخر . فيستمر التركيب فيهِ الى ما لا نهاية لهُ . وحفظ الجسم منوط بالمجموع العصبي فهو القوة الوازعة في مملكة الحيوان

ويقوم تقدُّم المجموع العصبي بارتقاء العملية الاوتوماتيقية ، والعملية الاختيارية . تمدُّ أولاها الثانية بآلة ملائمة . ففي الجسم العضوي محركات جمة ، في النخاعين الشوكي والفقاري ، تتوقّع الاشارة للانطلاق في العمل الملائم . وهي تستخدم الارادة في بعض الاحيان لتعيين وقت الانطلاق ، واختيار منهج الميكانيكا . وكلما زاد عدد الميكانيكات في الجسم العضوي زاد الدماغ ارتقاءً . وذلك الارتقاء هو زيادة الضبط والتنوُّع والفاعلية والاستقلال . فالجسم العضوي بهذا الاعتبار كآلةٍ تعدّل ذاتها في كل فعل جديد ، كأنها مصنوعة من المطّاط . وقد وجدت هذي الصفة في « الاميبا » (أدنى طوائف الحيوان) قبل نشوء المجموع العصبي . وعملها حينذاك كعمل الجنين ، مستغنية عن التركيب الذي في أعلى طوائف الاحياء . اذ لا حاجة هنالك الى عناصر مساعدة ، تتحوّل محركات ، عملها توزيع النشاط

تتألف اعمال الحياة في أدنى طوائف الحيوان وفي أرقاها، من نوعين من الافعال رئيسين ،وهما ١— احراز مدد الطاقة ٢—انفاق ذلك المدَد بواسطة مادة لدنة في جهات لا تُرى ومصدر تلك الطاقة الطعام الذي تمَّ هضمه . والطعام المهضوم نوع من المتفجرات ، التي تنتظر الشرارة لاطلاق ما فيها من النشاط . وأصل الطاقة الاول هو الشمس ، تناولها منها النبات وذخرها في أجزائهِ . ثم تناولها الحيوان من النبات . تختزَن تلك الطاقة في الاجسام العضوية كما تُختزَن المياه في الاحواض ، والكهربائية في البطاريات . وكل ذرَّة من الكربون تمثل قدراً من الماء ، او حبلاً من المطاط ، يربطهُ بالاوكسجين الذي في الحامض الكربونيك . وهذا النشاط المخزون مستعد للانطلاق لدى كل سانحة . فكل حياة ، نباتيَّة او حيوانيَّة ، هي كناية عن جهدٍ يراد بهِ جمع النشاط ثم اطلاقه . ذلك ما يرغب المحرك في المادة في اتمامه . ولا ريب في فوزه لو ان قوَّته غير محدودة، او أن وافاه المدد من الخارج. على ان ذلك المحرّك محدود القوَّة ، فيستحيل ان يتغلَّب على جميع العقبات . وان قوَّتهُ عرضة للمقاومة والتمزُّق والتقهقر . ونشوء العضويات هو عبارة عن صدّ ذلك النزاع . واوَّل مشاهد ذلك الحادث ،هو عالما النبات والحيوان ، المتبادلا التعاون دون سابق اتفاق بينهما (خلافاً للنظرية الحتمية) . لان النبات يجمع الطاقة لا لاجل الحيوان ، بل لاجل ذاتهِ . ولكنهُ في واقع الامر ، ينفق القليل مما ذخره على ذاتهِ . ويحتفظ بالكثير الذي يتناوله الحيوان . ولا تمكن موازنة قوَّتي الخزن والانفاق في الجسم العضوي فيرجح الخزن في بعضها ، والانفاق في البعض الآخر ، دون تدخل قوة خارجية . بل يتم ذلك الفعل بالميل المزدوج الموروث من المحرك الاصلي

من هنا كان انشعاب النشوءِ في فرعين اصيلين ، هما النبات والحيوان وكلٌّ من هذين الفرعين يتصرَّف كأنَّ حركة الحياة تنتهي عنده ، لا انها مجتازة فيه ، فبذاته يُعنى لا بغيره ، ولاجلها يحيا ويعمل لا لكائن آخر. لذلك اصطدم التنازع في عالم البيولوجيا (على ما هو مرسوم في تفكير شوبنهور ونظرية دارون) . وليس المحرك الاصلي المسؤول عن ذلك التنازع

ليس من الضروري توقف الحياة على الكربون . انما الضروري خزن الطاقة الواردة من الشمس .ومن الممكن ان يتم ذلك بغير ما ألِفناهُ من الصور. وعليهِ فقد تكون الحياة في الكواكب في غير مجراها في سيَّارنا هذا . ومن الخطأ الفاضح حصر الحياة في الكرة الارضيةْ . وليس من الضروري حصر الحياة في الاجسام العُضويّة . فان جمع الطاقة وانفاقها غير محصور في اختبارنا. فان الحياة سيكولوجيةٌ في جوهرها ونظامها .فهي غير فضائية كالمادة (اي انها لا تشغل حيِّزاً) فان المادة والفعل مسبوكان في قالب الفضاء . ففي الفضاء وحدة وجمع . فالوحدة هي النقطة الهندسية ، والجمع هو النقط متجاورة (وخلاصة تفكير دمقريطوس ان المادة والفضاء هما كل ما في

الوجود) . اما طبيعة النفس فليست كذلك . « فأنا » — سيكولوجيًّا — وحدة في جمع ، وجمع في وحدة . فالجمعية والفردية مظهرا شخصيتي . هذي هي الحياة عامةً فهي كالشعر واحداً في معناه ، متعدداً في ابياته وكلماته وحروفه . وهنالك توازن بين الفردية والجمعية . فاذا برز ميل في الحياة الى الفردية قابله ميل الى الجمعية . واذا برز ميل الى الجمعية ، قابلهُ ميل الى الفردية . أعني انهُ متى نشأت في الحياة جمعية مالت الى الانشعاب فينقسم الواحد الى فروع ، كما في النبات ، وفي الهيئة الاجتماعية حيث نرى الحزب الواحد ، او المذهب الواحد ، قد انشعب الى احزاب او فروع . فتنشىء الهيئة الاجتماعية فرديات تحت جمعيها ، وجمعيات فوق فرديها . فالمديرية مثلاً جمعية بالمقابلة مع المراكز ، وفردية بالقياس الى الدولة . وهذي في دورها فردية بالقياس الى البشرية وجمعية بالمقابلة مع المديريات

والفرع في الشجرة جمعية باعتبار الاوراق ، وفردية باعتبار الاصل . وفي الخلايا الجسم العضوي جمعية بالنسبة الى الذرات التي تؤلفها ، وفردية بالنسبة الى الجسم الذي تؤلفهُ

في اصل الحياة شعور خافٍ ، تؤلف شذراته المتراجعة المادَّة . اما الشذرات المستمرة في وجهتها دون تراجع فتؤلف العقل . فالحياة صاروخ ، ينام ويستيقظ . فينام حيث قضي على الحياة بالاوتوماتيقية . ويستيقظ حيث يمكن الاختيار والعمل الحر . ويتناسب ذلك الاختيار في الحيوانات الدنيا مع المحرك الاصلي . اما في الانسان فيتناسب مع المجموع العصبي ، الذي فيهِ المحرّك والحساس . فالكائن الحي مركز عمل فيهِ قدر من الامكان داخل الى الدنيا . يتفاوت ذلك القدر في الافراد وفي الانواع . وهو يبدو في حركات الاعصاب كأنهُ صادر من الدماغ . وهنالك نسبة بين درجة التعقد والتركيب في المجموع العصبي وبين درجة الاختيار والمقدرة على الادراك والعمل . والحقيقة ان الشعور الكوني المتصل بالنفس هو غير صادر من الدماغ (اراد بالشعور الكوني هنا غير الشعور الشخصي الذي ينحصر في الفرد الواحد من العضويات . ففي فلسفة برغسن يشبه الشعور الكوني سحابة تملأ الفضاء . وقد تقسّم ذلك الشعور ، كما تتقسم السحابة فكانت اقسامه نقطاً هي الشعور الشخصي)

ولكن ذلك الشعور الشخصي ، المفصول من الشعور الكوني يطابق الدماغ مطابقة ماء النهر مجراه . مع ان الماء ليس من المجرى . ولا هذا من ذاك . فلا يجوز الحكم على الانسان والحيوان بوحدة العقل . لان الفرق بينهما هو بالكيف لا بالكم فقط . والمشابهة الدماغيّة بينهما هي دون ما توهَّم كثيراً . (هنا معارضة صريحة للمذهب المادي ، والفكرة الموحدة عالم الحيوان والانسان) . الانسان ابداعي ، والشعور فيهِ غير محدود . اما الحيوان فهو عبد الميكانيكا ولكن الانسان سيد الميكانيكا . ومرجع ذلك في الانسان اللغة والهيئة الاجتماعية . تدخر الافكار

والجهود فيهما فيُصَّان بهما الانسان من نوم النبات . فتركيب الدماغ والهيئة الاجتماعية علاقات خارجية لسموّ الانسان عن الحيوان. بهذا الاعتبار يكون الانسان غرض النشوء. والحياة تيّار في المادة ينتزع منها ما امكنهُ . وواضح ان الطبيعة ليست لاجل الانسان . وهو مشتبك في التنازع ضمن دائرة الطبيعة ، كغيرهِ من الاحياء . فليس الانسان ميزان النشوء ، بل هو نهاية احد خطوطهِ. (لا يرى برغسن ان النشوء سار في خطوط لاحصر لها ، وليس في خطٍ واحد صاعد من المادّة الى الانسان . لا . بل ان المبدأ الاصلي ، او المحرك الاصلي انشعب الى شعاب ، وشعابه الى شعاب . وقد انقرض بعض تلك الخطوط وظلّ في استمراره البعض الآخر . ومن تلك الخطوط في العالم الحيواني خط الفقاريات وخط الحشرات . فرأس الخط الفقاري هو الانسان ورأس الحشرات طوائف النحل والنمل . فاحفظ ذلك)

***

الحياة امواج متراكزة فاذا صدها صاد صادمتهُ كموجةٍ . فما عجز من تلك الموجة ، وقف او تقهقر . وما تغلب على الحاجز فاز بالحرية . من الاول النبات والحيوان . ومن الثاني الانسان . وفيهِ وحدهُ وَاصَلَ الشعور الكوني تقدمه . هذا هو معنى النشوء . (اي النشوء الخالق)

وقد جمع الانسان العقل الى البديهة . وهما طرفا الشعور المنشعبان عنهُ . فالبديهة في شعبة الحياة — او في قالب الحياة . والعقل في شعبة المادة او في قالبها . والانسان السامي (السبرمان) هو ما تساوى فيهِ العقل والبديهة ، وبلغا اسمى ارتفاع . تلك الانسانية فوقنا بمراحل . وقد يوصلنا اليها نشوء آخر (غير نشوئنا الحالي الذي شغل مليون سنة في نقل الانسان من الحيوانية الى منزلته الحاضرة) . اما في حالتنا الحاضرة فالبديهة ضحية على مذبح العقل . وقد ضحى بها الشعور ليتمكن من الفوز على المادة ، وعلى ذاتهِ . فتشكل هو بشكل عقل . وظلت البديهة حولهُ كسحابة حول بؤرة منيرة . تلك السحابة قائمة ، لكنها تنير حين تكون الانسانية مهددة

والبديهة ضالة الفيلسوف المنشودة . وكلما تقدمت الفلسفة ادركت ان البديهة عقل العقل فهي من العقل كالعقل من الغريزة . فهي حياة الحياة . وقد فصل العقل عنها على نحو تكوين المادة

على هذي الصورة تدخلنا الفلسفة دائرة الحياة الروحية وترينا علاقة النفس بالجسد

لقد اصاب اصحاب النفس باصغائهم الى صوت الضمير . ولكن هنالك العقل ينادي بالعلة والمعلول

واصابوا بايمانهم باليقينية . ولكن هنالك العلم يريهم اتحاد العقل والدماغ المتبادل ، كلٌّ اخاه

واصابوا في تمييزهم الانسان عن الحيوان . ولكن هنالك البيولوجيا تريهم تاريخ نشوء الانواع نشوءًا تدريجيًّا . ولكن اذا كان ثمة نفوس فمن اين اتت ! وكيف اتصلت بالجسد تلك مسألة لاتجاب « ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من امر ربي... »

مهمة الحكومة

في التربية (١)

لعلي حسن الهاكع

اتقدم بجزيل الشكر لهذه الهيئة الكريمة التي دعتني لالقي من فوق منبرها بحثا في « مهمة الحكومة في التربية » وفي الحق انها بهذه الدعوة الى الكلام عن مهمة الحكومة في التربية انما تعهد الي في الكلام عن مهمة الحكومة في كل شيء

ولما كان موقف التربية المصرية بالغاً مبلغه من الشأن لم اتردد ولم اتخاذل عن التزام الصراحة في التشخيص والجرأة في العلاج . واني لواثق بأن رجال الحكم والنفوذ سواء أفي وزارة المعارف كانوا أم في الحكومة سوف يتقبلون هذه الصراحة بفسحة في الصدر ، وهم اول من يعلم انني اتكلم عن نظام ومبادىء لا عن افراد ، كما اعلم عن كثير منهم انهم يشكون ويصبون الى العلاج مهما بلغ من مرارة

لم تأت كلمة التربية عفواً ، وانما قصدت بالذات . فما برحت الحكومة والرأي العام يسميانا معلمين ، ولا زالت مهنتنا تسمى تعليماً ، بل وما فتئت الادارة الحكومية التي اختصت بالمهمة تسمى وزارة المعارف . حقاً ان لكل شيء من اسمه نصيباً ، فالعملية منسجمة مع التسمية المألوفة ، اذ لا يزال الرأي العام مع الاسف متأثراً بالمهمة المحدودة التي تعارفنا عليها بأن عملنا ينحصر في نقل المعلومات . وان المدرسة ليست الا خزائن للمعارف وان التعليم الثانوي مثلا لا يفضل الابتدائي الا بمقدار الزيادة في قناطير المعلومات التي تفرغ في ادمغة النشء ، وان مهارة المعلم انما هي مهارة في الكيل والتفريغ

نعم لا تزال هذه المهمة الاصيلة في بناء أشرف عنصر خلقه الله واعداد ارقى عوامل الانتاج وهو الانسان ، لا تزال في مصر متخذة هذه الصورة الضئيلة حتى لدى بعض الخاصة ، اذ لا يفهم من العمل العام الذي لا اكذب واقول اننا نقوم به ، بل الذي كان يجب ان نقوم به ، الا انه تلقين للمعلومات . اما تربية الخلق ، اما تعهد الفكر والجسم ، اما الاعداد للحياة الاقتصادية والاجتماعية وما فيها من جهاد وتعاون ، فبعيد عن التصور . والى هذا الادراك المحدود لصورة المشكلة ومداها يرجع ذلك الموقف البارد العديم الاكتراث الذي

---

(١) محاضرة القيت في يهو بورت في جامعة القاهرة الاميركية بدعوة من قسم الخدمة العامة

يلزمه الرأي العام امام مشكلة المشكلات المصرية ، وهي التربية ! وصدقوني ان المقالات ومختلف البحوث التي تعج بها الصحف والمطبوعات لا تقرأ على انها بحث في أمر خطير بل على انها مقالات أدبية لها لذتها فحسب

كم ضرب الباحثون في تيه المشكلات الجمة التي تئن منها البلاد وكم خيل الى البعض انه قد وضع يده على موضع الداء ، وكم يئس البعض الآخر من اتساع جبهة المشاكل وشديد وطأتها فوزع تبعاتها على نواحي الحياة ثم نفض يده منها . ولكن النظرة الهادئة البالغة الى الاعماق تستطيع ان تتبع العلل الى أصل واحد ومشكلة واحدة أساسية واليكم استعراضاً بسيطاً

تشكو البلاد من تفكك التماسك القومي بتشقق الاهالي طبقات عديمة الالتحام وبتصدعها الى ثقافات متباعدة في المنشأ والروح حتى فقدت القومية طابعها الموحد وأصبح المرء عاجزاً عن الاهتداء الى المصري النقي الذي تتمثل فيه خصائصه الحقة ، وتشكو من انهيار الخلق الذي جعل من الفرد مخلوقاً غضاً ضعيف القوة والحيلة ، ومن الجماعات قطعاناً يعوزها التماسك الروحي . فالأسرة لا أبقت على شرقيتها الطاهرة وتقاليدها ، ولا بلغت العصرية الغربية وفضائلها . وتصرخ الامة من عطلة المتعلمين الذين فقدوا صلتهم بالحياة العملية ووقفوا بشهاداتهم الورقية صفاً صفاً متحسرين على جهود بذلوا في سبيلها شبابهم وأموال أهلهم وآمال ذويهم . وتتحسر الخيرات المدفونة في باطن الارض والتي على سطحها وفي سمائها ومياهها على انزوائها وهي تفتقد عبثاً الهمة التي تستغلها . والحياة القروية تحتضر في الهوة التي تزداد اتساعاً وتفصلها عن المدينة ونعيمها . والحكومة تئن من بيروقراطية تخضع الجوهر للشكل وتجر وراءها اسرافاً وتعقيداً نحن في حاجة الى القضاء عليهما لتدبر المطالب القائمة بعد ان نعمنا بالاستقلال . ثم هناك فوق كل ذلك تخبط في العلاج بين الاصابة والخطأ ، فلا سياسة ثابتة تجابه المشكلات ، ولا مبادىء مقررة راسخة تضيء لبحثها طريقاً سوياً مستقراً . انها كلمة واحدة لا تجمع هذه المشكلات فحسب ، بل فيها سحر الشفاء . هي الداء وهي الدواء — هي التربية . هي التربية التي تدعم التماسك القومي وتقوم ببناء الشخصية القوية العصرية ، التي تجالد الصعاب بعزيمة جبارة ، هي التربية المسئولة عن عطلة المتعلمين اذ لم تعدهم الا لحياة مرسومة ضئيلة ، هي التربية التي حجبت انظار حاصلاتها الانسانية عن خيرات البلاد المقبورة ، هي التربية المسئولة عن اهمال القرى باغفالها تحبيب الحياة الزراعية المصرية النقية ، وأخيراً هي التربية التي خلقت البيروقراطية لان ربيبها المسكين لا يستطيع التصرف في أمر من الامور فيعمل كالآلة . هي التربية المسئولة عن كل شيء . واذا كان للتربية هذا الاثر البليغ ، وهذا السلطان المتحكم ، واذا كانت التربية على رأس التبعات التي وضعت في اعناق ولاة الامور اولاً وعناصر التربية وما اكثرها ثانياً ، فقد آن الاوان لان يقدر كبارنا وقادة الرأي فينا هذا المدى والسلطان وكفى به انه اعداد الامة المقبلة وبناؤها

جميل بل واجب مقدس علينا ان نعنى بقوة الدفاع ونبحث في تدبير الموارد المالية واستغلال الثروات الطبيعية وتدبير العمل للعاطلين وترقية المهن والحرف ، وحسن ان يدبج الكتاب

مئات المقالات ويصدر الباحثون عشرات التقارير التي لم تبق على ناحية الا وتناولتها بالبحث والعلاج . ولكن من السهل ان ندرك عبث ذلك كله ان لم يصل الى التربية وهي اصل كل مشكلة . فحرام ان تعوزنا الهمة والوسائل ونحن امة ناهضة متوثبة الى الحياة المثلى . القت امورها الى حكومة هي محل ثقتها وعلى رأسها ملك شاب يفيض همة وغيرة . فجدير بالحكومة وهي تنعم بهذه الثقة والمنعة ان تولي مشكلة المشكلات المصرية التي تتحكم في كل عنصر من عناصر الموقف عناية خاصة تفوق عنايتها بسائر مهامها ولتقبل على الامر في حماسة فلا تبخل بالوقت ولا بالمال . وكفى تقديراً للتربية ان يعلن كبار رجال السيف عن خطرها . فيقول عزيز باشا المصري في محاضرته عن واجبنا الحربي بعد المعاهدة وعلى هذا المنبر : « لذلك اقول لكم ولحكومة اليوم ولحكومات المستقبل الجيش والمعارف هما كل شيء . . . . . حافظوا عليهما ولو شئتم التقصير في شيء فليكن في اي شيء الا الجيش والمعارف »

موضوع المحاضرة « مهمة الحكومة في التربية » ومعنى ذلك انها ليست محاضرة فنية في التربية بقدر ما هي محاضرة في سياسة التربية . لذلك يقتضي الامر الا اتعرض لمختلف الامور الفنية التربيبة الا بقدر ما يتصل بالسياسة العامة للدولة و بمشكلات البلاد القائمة ولذلك وجب ان ابدأ بمقام التربية بين مهام الدولة في ضوء سلطة الحكومة عامة ثم ببيان تاريخي عن تطور نظام التعليم الحالي في مصر ونصيب الحكومة فيه، ثم ببيان مشكلاتها الحالية ولاسيما المركزية والبيروقراطية من ناحية واعداد المربي من ناحية اخرى . ثم اختتم الموضوع برسم خطة عملية للاصلاح

﴿ التربية بين مهام الدولة ﴾ يحدد مقام التربية وخطره بين مهام الحكومة اعتباران سياسيان لا يتصلان مطلقاً بما تعارفنا عليه من الاعتبارات المألوفة كالديموقراطية او الدكتاتورية والاستبداد ولا من حيث الملكية والجمهورية ولا الوضع الدستوري او البرلماني انما من حيث توزيع السلطة بصفة عامة . اما اولهما فمدى سلطان الحكومة وتحديده موقفها من حرية الفرد ، وثانيهما مكانة التربية في حد ذاتها بين الواجبات القومية وتحديد نصيبها بين مختلف المهام . اما شأن التربية من الناحية السياسية فيقول كاندل في تحديده « ان نصيب الامور السياسية والاجتماعية في الانظمة التربيبة يطغى كثيراً على نصيب النظريات البسيكولوجية والفلسفات التربيبة التي تحاول ان تتناول الفرد كشخصية منعزلة »

واما عن شأن التربية في حد ذاتها ومكانتها بين مهام الدولة ففيما سبق من القول في المقدمة وفيما سيتلوه ما يغني عن الاسهاب والافاضة . واما عن مدى سلطان الحكومة وتحديده امام الفرد اي الشعب وهو ما يتصل اتم الاتصال بالناحية الاولى فذلك يتوقف على سياسة الدولة المحلية وتحديدها بين المذاهب السياسية في الحكم . وهناك ميدانان لهذا التحديد فالميدان الاول سلطان الحكومة على الفرد والثاني توزيع السلطة بين الهيئة المركزية من جهة والسلطات الفرعية والاقليمية من جهة اخرى . ولن تجد بلدين يتماثلان في سياستيهما في ايٍّ من الميدانين لان هذا التحديد انما يرجع الى ارتقاء الدولة السياسي بكل ما في تاريخها وجغرافيتها من حوادث وعوامل ، انما لا بأس بذكر طرفي كل ميدان على وجه التقريب

اذ لن تخرج كل دولة من وضعها الخاص بين كل طرفين

ففي الميدان الاول اي ميدان سلطة الحكومة على الفرد تجد مبدأ الانفرادية او individualism يشغل طرفاً وهو مبدأ كان يسيطر على البلاد الديموقراطية في القرن الماضي ولاسيما في البلاد الصناعية والتجارية ويتفق مع روح المنافسة الاقتصادية المطلقة والحرية الفردية اذ يقصر مهمة الحكومة على صيانة الامن والدفاع عن البلاد ولا يجعل للتربية شأناً قومياً ، كما يتفق مع الروح الانكليزية التي تقدس الحرية الشخصية اعتماداً على وطنية الفرد ونضوجه الاجتماعي الا انه يتجاهل العطف والانسانية . ثم تجد في الطرف الآخر مبدأ السيطرة الواسعة على الفرد ويتزعمه في القديم كثير من فلاسفة اليونان الذين ينزعون الى الطوبية واشهرهم افلاطون وفي الازمنة الحديثة الاشتراكية التي اخذت تتغلغل في جميع الأنظمة الحديثة ، والتي تبلغ مبلغها المتطرف في الشيوعية وهي تذهب الى حد السيطرة المطلقة على كل ما يختص بالفرد حتى في انتاج الثروة وملكيتها وتوزيعها

وامام التطور الاقتصادي والاجتماعي الحديث الذي من مظاهره انقلاب الحياة كلها وبألوانها انقلاباً يكاد يتم احياناً بسرعة البرق مما يعرض الحياة القومية لاكبر الاخطار ان تركت طليقة من التوجيه والاشراف في ضوء سياسة قومية ، وامام موقف الانفرادية الجامد الذي يترك العامل فريسة لمعاملة لاتعتبره الا آلة من الآلات الانتاجية ، فلا اعتبار لذاته ولا لحساسيته والمه حتى بدأ المجتمع يتمخض عن ثورات تهدده بشر وبيل — امام ذلك كله أخذت جميع الانظمة تتحول شيئاً فشيئاً حتى في انكلترا نحو الطرف الثاني . اخذت تخرج من مذهبها الانفرادي الى تدخل الحكومة في الاعمال العامة كالصحة والمواصلات والانتاج، وكانت التربية على رأس هذه الامور . واصبح الآن نصيب الحكومات في توجيه الحياة امراً مقرراً مهما تعددت الوانها ، ان ملكية او جمهورية ، ان دكتاتورية او ديموقراطية

اما في الميدان الثاني اي توزيع سلطة الحكومة بين السلطة الرئيسية من جهة والسلطات المحلية والاقليمية من جهة اخرى ، فكلما امعنت الحكومة في الاخذ بمبدأ رجوع كل الاعمال الى السلطة المركزية اي الوزارة او الادارة الرئيسية ، كلما كان ذلك امعاناً في الاخذ بمبدأ «المركزية» . وبالعكس يكون من «اللامركزية» او ان شئت فسمها بالمحلية او الاقليمية ترك حرية العمل الى حد كبير للهيئات الفرعية والموظفين المحليين غير مقيدين الا بالنظام العام وقوانينه والسياسة القومية . وتتجه السياسة الحديثة في تطورها صوب المبدأ الاخير الذي يبلغ حد التطرف في الولايات المتحدة الاميركية

والخلاصة انه اصبح من المقرر ان تمد الحكومة سلطانها الى توجيه وتنظيم امور لم تكن في القديم بين مهامها بعد ان اصبح خطراً قومياً تركها معلقة في يد الافراد والطوائف بأنانيتها المنعزلة وشهواتها . وان التربية يجب ان يكون لها نصيب شامل لم تحظ به في المجتمعات القديمة بعد ان ثبت انها الناحية الايجابية الانشائية بين مهام الحكومة اذ هي البناء الاساسي الذي اذا استقام وبلغ الكمال لاغنى في آخر الامر عن مهامها الاخرى التي يظهرها شذوذ

المجتمع الحالي بمظهر العمل الاساسي للحكومة. بل اقول غير هياب لو استقامت امور التربية حتى بلغت مثلها الاعلى الذي يحلم به الطوبيون لاستغنى المجتمع عن القضاء وعن الشرطة وعن معظم مظاهر السلطة التنفيذية المحلية. ولم يكذب جيزو اذ قال «من فتح مدرسة اغلق سجناً» واليكم افلاطون في طوبيته التي يصوغها خياله المبدع في كتابه الجمهورية جعل التربية على رأس امور الدولة، وألقى بالحكم الى ايدي رجالها جعل وزير التربية كبيراً لزملائه وأتبع الاطفال للدولة وجعل التعليم اجبارياً. وكذلك ارسطو لم يبخل عليها بمكانتها وان لم يسم بها كافلاطون. ويقول نابليون «ان التربية اهم المسائل السياسية» فاذا تطلعنا الى المستقبل وجدنا الاستاذ Jacks الانكليزي يقول «ان المربي سوف يكون اكبر واهم موظف في الدولة المقبلة»

﴿ بيان تاريخي ﴾ والآن نترك هذه المقدمة التي اثارت لنا قيمة التربية الحكومية ونرجع الى الوراء قليلاً لنوجه نظرة مجملة الى تطور المهمة في مصر لنصل منها الى الحاضر. وبذلك نلمس المشكلة بتتبع بذورها المتأصلة في الماضي

كان التعليم في مصر الى ما قبل العصر الحديث دينياً بمعنى الكلمة، فكان الازهر كعبة العلوم والمعارف تحيط به هالة من المعاهد والمكاتب متصلة بثقافته الدينية. وكان يتفق مع مطالب الحياة القائمة. ثم ظفرت البلاد بقيادة الزعيم الاكبر محمد علي الذي رأى بنظره الثاقب ان مستقبلها يتوقف على تجديد كل شيء فجعل التعليم على رأس نواحي النهضة التي قام بها، ادخل الى البلاد النظام الفرنسي الذي لا تزال اسسه متحكمة في جميع نواحي الحكم ومهد لحركته السنون القليلة التي اشعلت فيها الحملة الفرنسية قبساً من مشاعل المدنية الغربية. ثم اتى اسماعيل العظيم فمكن من النظام الذي بدأه جده ومن فرنسيته، ثم — وهنا المفاجأة الطريفة — اتى الاحتلال الانكليزي نفسه، فزاد في تمكين ذلك النظام الفرنسي الذي يتميز بمركزيته وبيروقراطيته، وبطبائعها من توحيد وسهولة في التنظيم والتنفيذ. ولما كان النظام الفرنسي وقتئذ احدث نظام، وفي امة تشغل حضارتها اعلى مقام فقد كان لمحمد علي ولاسماعيل من بعده ما يسوغ لهما هذا الاجراء وهما في صدد تجديد امة وحكومة باسرع السبل فكان لا بد من نقل النظام الفرنسي المعدود وقتئذ اكمل نظام بدل الاخذ بالتطور البطيء. وفعلاً طبق على جميع النواحي لا التعليم وحده حتى اصبح القانون والنظام الاداري والمالي والقضائي والحربي فرنسياً ومنقولاً نقلاً عن امة غربية. وكما اتى هذا النقل باسرع النتائج الا انه حمل في طياته بذور عيوبه ومضاره التي سنفصلها، مما أثر ابلغ الاثر في مشكلاتنا الحالية التي لا يقتصر على الشكوى منها عملية التربية بل جميع نواحي الحياة

وكان سكوت الانجليز على هذه السياسة المركزية ظاهرة غريبة لمناقضتها لنزعتهم اللامركزية الاقليمية. فكان تصرف لورد كرومر المسؤول عن السياسة الانكليزية امراً مستغرباً لا يفسره الا احترامهم للامر الواقع وكراهيتهم للتجديد والتغيير بدون مسوغ فضلاً عن الحاجة العاجلة الى الموظفين الآليين. ولذلك لم يدخلوا على نظام التعليم الفرنسي الا اقحام اللغة الانجليزية وتشكيل مجالس المديريات التي تحولت مدارسها غير الاولية مع الزمن الى طبعة من

مدارس الوزارة واخيراً ضمت اليها ، وكان لسوء حظ مصر ان لورد كرومر اختار للاشراف على التعليم معلماً ايقوسياً هو المستر دنلوب كان على الرغم من جده ونزاهته عديم الكفاية ضئيل الادراك ينزع الى السيطرة القاسية والتدقيق السخيف مع العناد الصلب والصراحة الايكوسية وما اتيت بهذه الصفات من عندي بل اني اقتبستها من اقوال الانجليز والاميركيين امثال السير فالنتين تشيرول وجورج يونج واللورد جورج لويد المعروف ولا تنسوا الدكتور مكلانهان مدير الجامعة الاميركية والدكتور جولت عميد كلية الآداب والعلوم بها . فكان من سوء حظ مصر ان يعهد بالتعليم الى رجل هذه صفاته ونزعاته

وجد دنلوب نظاما مركزاً بيروقراطياً يلائم نزعته فزاده تمكيناً . وما أبدع الدكتور جولت اذ يقول ان التعليم في مصر شأن النظام الفرنسي فرنسيته outfrenched the systemFrench

ومن الاسف أن الانقلاب الذي بدأ مع الحرب العظمى من قيام المشكلة السياسية للفصل في مصير البلاد قاطبة وضع التعليم ومسائله في ركن ثانوي صغير من ميدان المشكلات القائمة فظلت وزارة المعارف تتخبط في حركات متقطعة قام بها بعض وزراء غيورين. وأخيراً استقرت الامور ونالت البلاد استقلالها المنشود بفضل نهضتها وثباتها. وها هي تتفرغ لسائر مشكلاتها الاجتماعية بعد ان فرغت من مشكلتها الرئيسية . وها هو معالي الوزير الحالي يهتم بالاصلاح

هذه قصة طبع النظام الفرنسي في مصر مع ما في نقل الانظمة من تجاهل لاسس التطور الاجتماعي مما يتمخض عن حصره في الشكل لا الجوهر ، في الهيكل لا الروح . وفعلا لم ينقل مع النظام الفرنسي العقلية الفرنسية التي تلائمها من تفكير جلي واضح ومنطق سليم رائق فالانظمة لا تنقل وانما تنمو مع الزمن وتتدرج في احضان الحوادث والمشكلات المحلية . ونابليون لم يضع في الواقع قانوناً فرنسياً جديداً كما يفهم الكثير من الناس حتى المثقفين . وانما الفقهاء والعلماء من مختلف انحاء فرنسا نظموا العرف والتقاليد والانظمة المحلية في اطار قوانين منظمة جلية . وكذلك فعل يوستنيانوس الامبراطور البيزنطي في القانون الروماني . لذلك كان هذا النقل الذي وقع في مصر تجاهلا للحقائق والصالح . وتجاهلا لمصريتنا التي تتباين عن الفرنسية في التاريخ والعادات ، في الثقافة واللغة والفن . وبذلك خلق من المشكلات اكثر مما اتى من فضائل، وباعد بين الامة والحكومة ، وبين التعليم والحياة . واليك ما عثرت عليه انفاتاً من طرائف هذا النقل الغاشم . وذلك انه بلغ من امعاننا فيه ان عدلنا نظام التعليم الثانوي عام ١٩٠٤ حينما انشيء التخصص الادبي والعلمي محاكاة لما فعلته فرنسا عام ١٨٥٢ اي بعد ٥٢ سنة ولم نعد له الا منذ عامين بالرجوع عن هذا التخصص في حين رجعت عنه فرنسا عام ١٨٦٣ اي قبل ادخال النظام المعدل في مصر باكثر من اربعين عاماً ونظراً لعجز هذا النظام الآلي الحكومي في التعليم عن اعداد شبان يليقون لحياة المال والتجارة خلقت الحاجة المدارس الاجنبية لتسد الفراغ في اعداد هؤلاء . فكانت هذه المدارس الاجنبية تدعمها الأمتيازات بجانب التعليم الديني والحكومي نوعاً آخر بسياسة خاصة وأسفيناً جديداً يزيد في تصدع القومية المصرية

[للبحث بقية]

السيلوتكس

خشب صناعي خفيف كالفلين

لعوض جندي

كتبت في مقتطف يناير سنة ١٩٢٣ مقالا على « صناعة الخشب من مصاصة القصب ». وفي اوائل نوفمبر سنة ١٩٢٦ أبلغ المرحوم محمود سامي باشا وزير مصر المفوض في واشنطون حينئذ ، نبأ صناعة السيلوتكس من مصاصة القصب ، الى المغفور له محمد فتح الله بركات باشا وزير الزراعة وقتئذ . ثم لبثت أصبو الى رؤية السيلوتكس في مصر ، فلم اوفق حتى ضمني بالامس حفل من كبار المقاولين والمهندسين وارباب الاملاك في العاصمة فسمعتهم يرددون اسم السيلوتكس . فاستوضحت احدهم ماذا تعني ؟؟ فقال « اني اقصد نوعاً جديداً من الخشب الطبيخ ، انتشر منذ بضع سنين في مصر ، فاستعمله بعض المهندسين ، فانتفع به أصحاب المباني انتفاعاً عظيما في منع الحرارة والرطوبة عن المنشآت التي أدخل فيها ». فسألت محدثي ايضاً : قائلا « أتدري مما يصنع ذلك الخشب الصناعي ؟ فأجاب ربما يصنع من التبن أو القش » فرددت عليه : — بل يصنع من مصاصة القصب ، وذكرت له بعض منافعه ، فدهش جداً لانه لم يكن قد اطلع على مقال المقتطف فيه منذ ١٤ سنة وهو الذي اشرت اليه آنفاً ولا قرأ كتابي « الصناعات والصناع » الذي أثبت فيه ذلك المقال

ثم طلبت الى ذلك المقاول الذي استعمل السيلوتكس في مبانيه ، ان يرشدني الى محل بيع ذلك الخشب الصناعي ، فهداني اليه ، فلم يسعني الا الذهاب من فوري الى الخواجا يوسف ابرام Joseph Abram وكيل شركة السيلوتكس الاميركية في القاهرة . فكاشفته بمهمتي فتبسط معي في الحديث وقدم الي نماذج من « السيلوتكس » وها هي ذي على منضدتي ، وأنا أكتب هذه العجالة التي ضمنتها ما وقفت عليه من المعلومات الحديثة عن ذلك الخشب العجيب الخفيف كالفلين . وما فحصت النماذج حتى تذكرت توًّا خشب البلزا Balsa wood وهو خشب استوائي مدهش أخف من الفلين ايضاً ويشبه السيلوتكس في خصائصه . وقد وصفته في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣١ واقترحت حينئذ على وزارة الزراعة ، زرعه في مصر

والسيلوتكس مادة عازلة من مواد البناء ، تمنع الحرارة والرطوبة . وتصنع من قشور القصب ومصاصته على شكل ألواح كبيرة صلبة ، متينة ، خفيفة . وقد فضلت مصاصة

القصب على غيرها من الفضالات الزراعية العاطلة لصناعة السيلوتكس ، لان ألياف قصب السكر من أطول الالياف وأمتنها ، ومتانتها تتجلى حينما تصاغ منها الالواح المانعة للحرارة والبرودة . وذلك لان الخلايا الهوائية الدقيقة التي تعد بالملايين في السيلوتكس سواء في الالياف الفردية ، أو فيما بين الالياف ، تكسب السيلوتكس خصائص منع الحرارة وهذه الخلايا هي التي تحدث المناعة ضد الحرارة والرطوبة وتجعل مادة السيلوتكس مسيكة اي لا يخترقها الماء . وتصنع من السيلوتكس ألواح متينة عازلة ، كل ١٠٠ قدم مربعة منها ، تزن ٦٠ رطلا . وقد علمنا ان السيلوتكس قد استعمل في قبة بهو الاحتفالات العامة الكبرى في الجامعة المصرية وفي كازينو ثغر السويس وغيرها من المباني الضخمة الحديثة في أحياء القاهرة وغيرها

وحصلت شركة السيلوتكس على امتياز من حكومة الولايات المتحدة باستعمال طريقة كيميائية ، اطلقت عليها اسم فيروكس Ferox تتمكن بها من صون السيلوتكس من عبث الحشرات والسوس . وتطبق هذه الطريقة على كل ما تصنعه من السيلوتكس . وهي نتيجة مباحث عشر سنين قام بها قسم المباحث والتحسينات التابع للشركة نفسها وتعد تقدماً محسوساً في فن المباني ووقايتها من الحرارة والرطوبة . ولما كانت مواد البناء ، تستهدف لعوامل البلى الطبيعية ، وكانت الخسائر المادية التي تنتج منها كل سنة ، فادحة ، فقد عنيت مختبرات الحكومة الاميركية ، ومعامل الكيمياء في الجامعات ودوائر الصناعات المختلفة ، زمناً طويلا بتوقي الخسائر المشار اليها ، اذا ظفرت بوقاية المباني والمواد البنائية ، من عوامل الفناء الطبيعية . فصار ميسوراً الحصول على مواد صناعية للبناء أو مواد معالجة علاجاً كيميائياً خاصاً ، وتحسب تلك المواد في مصاف مضادات التسوس أو الانحلال ، ومثال ذلك الفولاذ الذي لا يصدأ والخشب الطبيعي المعالج ببعض المحلولات الكيميائية المضادة لحشرة الحفار البحري ، والخشب المعالج بغير ذلك من وسائل العلاج التي تحول دون التسوس وتمنع هجوم الارضة وغيرها عليه. وثبت لشركة السيلوتكس نفع طريقتها التي أطلقت عليها اسم فيروكس . وقوامها تغشية الياف قصب السكر ، وهي مبللة ، قبل صوغها الواحاً ، بمحلول كيميائي مركب ناجع في تسميم الفطر والارضة ونحوهما من الحشرات المولعة بالتهام السلولوس وذلك المحلول الكيميائي ، غير قابل للذوبان في المياه وغير طيار ، ولا رائحة له ، وهو ثابت المفعول ، ولا يضر المخلوقات البشرية ولا الدواجن بل هو علاج واف لا سطحي فقط . ولا يحدث اي تغيير في خصائص السيلوتكس الطبيعية . ويمتاز السيلوتكس على الخشب الطبيعي بكونه يخفت الصوت الشديد . ويمكن نشره واستعماله كالخشب الطبيعي واذا استعمل لتلويح الحيطان ، يمكن تركه على لونه الطبيعي او دهنه باي دهان يروق ناظره ويستعمل لتسقيف المساكن والمتاجر وغيرها من المباني وذلك تحت الحديد المطلي بالكهربائية وتحت القرميد . ويتخذ بمثابة سقف داخلي لمنع الحرارة الشديدة . وتصنع منه الحواجز في مكاتب الاعمال ، وتبنى به مخازن التبغ والثكنات وبيوت العمال واكواخ الدواجن . ويجعل كوقاية لصها ريج النفط ، وتلوح به الكنائس والمدارس والاندية . وتصنع منه الواح اعتيادية للمباني مختلفة الاحجام

حيوانات مشهورة

وصحة أسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

اوردت في جزء ماضٍ من المقتطف بعض الحيوانات وصحة اسمائها وها انا مورد غيرها في ما يلي

الذكر والانثى Male & Femal

قالوا الذكر خلاف الانثى والانثى خلاف الذكر لكنهم ارادوا بالذكر احياناً ما عظم من الحيوان والانثى ما صغر منهُ ولو كانا من فصيلة او رتبة اخرى . فقالوا الجُرَذ ذكر الفار والكلمة شائعة في جزيرة العرب والشام والعراق بهذا المعنى اي ان الفار اسم جنس فما عظم منهُ سموهُ جرذاً وما صغر سموهُ فارة ذكراً كان ام انثى والتاء هنا للافراد والتصغير لا للتأنيث كما تقول بقرة اي الواحدة من جنس البقر من الذكور والاناث . فقولهم ان الجرذ ذكر الفار معناه انه العظيم من الفار لا انهُ الفحل منهُ . ومثلهُ القنفذ وهو حيوانٌ من رتبة آكلات الحشرات وفي المخصص ١٦ : ١١٢ قال : ومما يقع على المذكر والمؤنث القُنْفُذ والقُنْفَذ يقال قنفذ ذكر وقنفذ انثى فاما ابو عبيد فقال الذكر قنفذ والانثى قنفذة . ومما يختص بهِ المذكر الشيهم ويقال له ايضاً دُلدُل وابن أنقد وقبَّاع وكلهُ لا يؤنث ولا يسمى بهِ المؤنث انتهى . ولا يخفى ان العرب كانت تسمي كل حيوان شائك قنفذاً لكن بعضهم خص الذكر منها اي الكبير بالشيهم والدلدُل والنيص وهو من رتبة القضَّام كالفار لا من رتبة آكلات الحشرات كالقنفذ ويعرف بالنيص الى يومنا في جزيرة العرب والشام والعراق

ومثله القرد وقد ذكرت ذلك في مادة القرد في الصفحة ١٣ من هذا المعجم . ومنها قولهم الاروية انثى الوعول فالوعول عندهم بمنزلة الغنم اي المعز والضان فما كان جبليًّا منها سموه وعلاً وهو بمنزلة المعز . اما الضأن منها وهو اصغر فانهم سموه أُروية وهي لاتزال تعرف بهذا الاسم في ايامنا . ومثل ذلك الخُزَز وهو ذكر الارنب اي العظيم منها والخرنق وهو الانثى اي الصغير.

ومثله الضَّيْوَن اي السنور الذكر وفسره حمد الله القزويني بالسنور البري كما جاء في الصفحة ٥٣ من هذا المعجم . وامثلة ذلك كثيرة في اللغة يراها من يقرأ كلامهم في وصف الحيوانات . وهناك امثلة منها واني سأستعمل في بعضها الاسماء اللاتينية وفي البعض الآخر الاسماء الانجليزية وذلك لسهولة المقابلة

فأر Rats & Mice

مأخوذ من فأر التراب حفره فقول العامة في مصر الفار واطلاقه على العظيم منهُ والصغير صواب اما تسميته بادخال الجرذ فيهِ فليس صواباً فالافضل ان يقال الجرذ والعضل للعظيم منهُ والفارة للصغير. ولكن العامة في مصر لا تفرق بين النوعين فكله فار عندهم وهذا جائز لغة ولكنهُ غير جائز علميًّا

جرذ جمعهُ جرذان . عَضَل جمعهُ عِضلان هو الفار العظيم والجرذ اكثر شيوعاً Rat. Mus

فارة Mouse. Musculus

دويبة في البيوت تصطادها الهرة والشائع في الشام والعراق على الصغير منهُ فيقال فارة ذكر وفارة انثى ألا ترى ابن المقفع في كليلة ودمنة زوج الجرذ بالفارة فالجرذ هنا العظيم من جنس الفار والفارة هو الصغير منهُ

فالفأر كل ما يفأر من هذه الدويبات القارضة وهو يشمل الكبير منها اي الجرذ والصغير اي الفأرة . فالفأر اسم جنس فاذا اريد الكبير منهُ فهو جُرَذ وعضَل وزان صرد وسبب للذكر وللانثى على السواء فيقال جرذ ذكر وجرذ انثى واذا اريد الصغير الذي يألف البيوت فهو فأرة للذكر وللانثى فيقال فأرة ذكر وفأرة أنثى . وكلاهما فأر اي الجرذ والفارة فأر فان دخول التاء على الفأر يراد بهِ الافراد والتصغير وهذا لم ينص عليهِ اللغويون معاً في ما اعلم. فالفارة واحد الفار اي الواحد من جنس الفأر ولكن الكلمة غلبت على الصغير منهُ . اما استعمال الفار عند العامة في مصر لهذا الجنس كله فجائز في اللغة ولكن الاصلح تسمية الكبير منهُ بالجرذ او العَضَل والصغير بالفارة . فاطلاق الفأر على الجرذ والفارة كاطلاق الغراب على الزاغ والعقعق فكلاهما غراب اي من فصيلة الغربان لكن الزاغ خلاف العقعق . فالفارة والجرذ فأر لكن الواحد خلاف الآخر ومثله القمري والدُبسي فكلاهما من فصيلة الحمام لكن الواحد خلاف الآخر . ومما يحسن الاشارة اليهِ في هذا الباب تصغير Mus فاذا صَغَّر صار Musculus اي اذا صُغِر ما يقابل العضل او الفار باللاتينية صار معناه عضلة او فارة وهو الجزء من العَضَل او الفار اي اللحم المجتمع وهو فصيح بهذا المعنى . والكلمة الثانية اي الفارة شائعة على السنة العامة بمعنى العضلة في الشام والسودان وبتعبير آخر ان اللاتين صغروا الفار فصار معناه العضلة والعرب اتوه فصار

معناه العضلة والفار الصغير وهذا يؤيد ما قلتهُ قبلاً اي ان التأنيث قد يراد به التصغير

فصيلة الشياهم والواحد شَيهم Hystricidae. The porcupines

فصيلة من القضّام لها شوك كأنهُ المسالّ وليست هي القنافذ فهذه من فصيلة آكلات الحشرات وقصيرة الشوك

شَيهم . نَيص . شيظم . دُلدُل . مدجَّج . ضرب Porcupine

حيوان من فصيلة الشياهم وان أكثر هذه الأسماء شيوعاً هو النيص ولكنهُ لا يقال قنفذ فالقنفذ من آكلات الحشرات والشيهم والنيص من القضّام كالفأر وأهل لبنان يسمون هذا الحيوان بالقنفذ خطأً

فصيلة القنافذ حيوانات لبونة من آكلات الحشرات Erinaceeidae. The hedgehogs

قنفذ Hedgehog

حيوان من آكلات الحشرات اكبر من الجرذ قليلاً جسمه مغطى بشوك قصير اسمهُ عند بعض العامة في الشام كبابة الشوك . اما في مصر والعراق وجزيرة العرب فاسمهُ القنفذ ذكرته في ص ١٢٤ وذكرت لهُ اسماء أخرى

وفي معظم المعاجم خلط كثير بين هذين الحيوانين فالشيهم حيوان لبون من القضّام والقنفذ حيوان لبون من آكلات الحشرات فهذا من فصيلة وذاك من فصيلة أخرى ولكليهما شوك ولكن يجب التفريق بينهما

بنت وردان والجمع بنات وردان . فالية الافاعي Cockroach

لا تعرف العامة بنات وردان بهذا الاسم وهو الاسم الوحيد من فصيح الكلام والعامة تسمي الواحد من بنات وردان خِنفس وخنفساء وصرصور ولم يذكر أحد من اصحاب المعاجم بنت وردان الا معجمين هما للتجاري بك وللخليل بك سعد اما المعاجم الاخرى فقد خلطت بين بنات وردان والصراصير والخنافس . وبنات وردان شائعة في الحجاز

***

ولنذكر الآن بعض الطيور منها طائر مشهور عند الادباء وهو الشّحرور وطائر آخر مشهور في الشام وهو السُّمنة وطائر آخر مشهور عند الصيادين وهو السلوى او السُّماني وهذه الطيور اما متشابهة في جنسها او في لفظها وسأذكر هنا الاسم العلمي والاسم الفرنسي لبعضها حتى أتمكن من ايضاح ما أريد ايضاحه

شُحرور . شَحْرور Blackbird. Turdus merula. F. Merle

طائر اسود في عظم التُبشِّرة اي الصفارية حسن الصوت وهو مشهور يعرفهُ الادباء في مصر والعراق والشام بهذا الاسم اما في مصر فلا تعرفه العامة بهذا الاسم ويسمونه الدُّج ولم أرَ من ذكره من اصحاب المعاجم في مصر على صحتهِ الا التجاري بك فأنهُ كان عالماً واديباً مشهوراً اما الآخرون فقالوا شحرور فقط وقالوا تارةً الدج وتارةً السَّكَلة ولا يخفى ان الاسم الجنسي لهذا الطائر مثل اسم السُمنة او الدج او السَّكلة

سُمْنة والجمع سُمَّان وسُمنان Thrush. Turdus musicus & other species, F. Grive.

طائر أغبر لهُ ذنب طويل أكحل العينين أصفر المنقار يدخل في الشجرة والجمع السُمَّان والسُمنان وقيل هي الطويلة الذنب وقيل ديساء مثل التبشرة (المخصص ٨ : ١٦٢). هذا احسن وصف للسمنة على ما نعرفها في سواحل بيروت ولكنهم في بيروت يشددون الميم وابن سيده يخففها. ثم اني لم اعثر على السمنة في غير ابن سيده من كتب اللغة واسم السمنة في مصر الدُّج اوردها الدميري قال الدج طائر صغير في حد اليمام من طير الماء سمين طيب الطعم وهو كثير في ساحل الاسكندرية وما يشابهها من بلاد السواحل قاله ابن سيده. انتهى. فابن سيده ذكر الدج في ٨:٦٧ لكنه اراد بهِ الفروج كما هو واضح في كلامه قال ابن سيده «دجاجة مُفَرِّجة ذات فراريج قال ابو حاتم وانشد الاصمعي قول العماني : والديك والدجّ مع الدجاج . وقال انا وضعت الدج اعني بهِ الفروج» انتهى. اي ان ابن سيده قال الدج هو الفروج فاستعارها الدميري لهذا الطائر والكلمة شائعة كثيراً في الاسكندرية ولعلهم استعاروها لهذا الطائر اي السُمنة . وفي محيط المحيط للبستاني في مادة سمن « السماني والعامة تقول سُمْنَة وللجمع سُمُن وسمامن . قلت هذا صحيح وقد سمعتها بنفسي ولكن صاحب محيط المحيط وهم في هذه الكلمة كما وهم استاذي الدكتور بوست وهما يريدان السُمْنة وهي شائعة كثيراً

اما السكَلة وقد وردت بمعنى نوع من السُمَّان او السمنان فشائعة في مصر ويريدون بها ضرب من السُمَّان او السمنان جمع سُمْنة واظنها اعجمية يدل على ذلك اسمها النوعي اي سكساتيلس ومعناه واقف على الصخر . هذا وقد اوردت السمنة وانواعها في ص ٢٤٧ وص ٢٥٢ من معجم الحيوان ويتضح فيها ما يكفي لجلاء هذه الكلمة

سَلْوى Quail. F. Caille

للواحد وللجمع والواحدة سلواة . سماني للواحد وللجمع والواحدة سماناة وجمعها سمانيات .

طائر من رتبة الدجاج وفصيلة التدرج وهو من الطيور القواطع مشهور والسلوى افصح واردة في القرآن الكريم والتوراة والسمانى فارسية معربة اسمها عند العامة في مصر وبعض انحاء الشام سمّان وفي لبنان وانحاء اخرى من الشام فِرّي ولشدة الشبه بين السمان في اللفظ وقع الخطأ . وما ذكرته قبلاً عن هذه الطيور الثلاثة هو الصواب والفصيح من الكلام

اطيش Gannet. Syn. Booby

طائر قاله ابن سيده والطيش خفة العقل (الدميري) وهو طائر من طير الماء على قدر البطة اسود الرأس والعنق والظهر ابيض الصدر والبطن واسفل الذنب (عن طيور مصر) ذكرته في ص ١١١ وذكرت هناك السبب في تسميته بالاطيش

ابله Noddy

طائر مائي يقف على السفن حتى يكاد يقبض عليه قاله الدكتور بوست . ذكرته في ص ١٧٣ فاذا نقله احد من قبيل توارد الخواطر فارجو اصلاحه

بِطريق Penguin

طائر مائي قصير الجناحين قاله الدكتور زلزل وفي القاموس البطريق السمين من الطير فيجب نسبة هذا الطائر الى زلزل لا الى القاموس لان زلزل استعارها من القاموس

قِرِلّى . رَفراف . خاطف ظله . ملاعب ظله . قاوند . مازور Kingfisher

طائر مائي صغير طويل المنقار قصير الزمكّي والرجلين جميل المنظر اسمهُ عند العامة في مصر وفلسطين صياد السمك وابي الرقص وفي بيروت ديك البحر . ذكرته في ص ١٣٨ وذكرت ثلاثة انواع منهُ ولم يذكره احد على صحته وانما ذكروا شيئاً مما جاء في المقتطف والصواب ما ورد هنا

واق Bittern

والواحد واقة . طائر من فصيلة مالك الحزين طويل العنق والرجلين والاصابع والاظافير قصير الزمكي اصفر الريش مع رقشة وتوشيم يحب العزلة فيختفي في النهار بين الاسل ويكثر الصياح في الليل

ذكرت هذا الطائر في المقتطف وسميتهُ العجاج والانيس وكنت مخطئاً كما بينت في معجم الحيوان ص ٣٥ وقد نقل كثيرون عني هذا الخطأ فليصلحوه لان النقل كان من قبيل المصادفة

سُبَد والجمع سِبدان . ضُوَع والواحدة ضُوَعة Nightjar. Syn Goatsucker

طائر من طيور الغسق اصدأ او اغبر موشم بخطوط سود مسرول الساقين واسع الفم مفلطح

الرأس والمنقار وحول منقاره شعرات كالهلب يعرف في الشام بابي عُمَي وفي مصر بابي النوم وفي المغرب بطير الموت وفي السودان بالقيرة لكنهم يطلقون هذه الكلمة على نوع من الحجال ايضاً . ذكرت هذا الطائر في المقتطف وفي معجم الحيوان في ص ١٥١ وما يليها ولم يذكرها احد من اصحاب المعاجم الا في معجم واحد فعسى ان يذكرها مع وصفها لانهُ الصواب دون غيره ويصلح الخطأ المطبعي ويرفع الحاصرة عن الضوع لاني لم اسلم بهِ على ماورد في معجم الحيوان ص ١٥٣

زُمّج الماء Gull

طائر مائي انواعهُ كثيرة يعرف في الاسكندرية بالنَورس وفي بيروت باللورنس والرورنس وفي حلب بالدنكلة وفي بغداد بشعيج الماء وله اسماء اخرى ذكرتها في ص ١٢٠ من معجم الحيوان وجميعها اعجمية اما النورس واللورنس فتعريب اسمه اللاتيني وقد وردت بعض هذه الاسماء في معظم المعاجم وارى الاقتصار على زمج الماء لانهُ عربي

كَركَر Skua. Syn. Jaeger.

طائر مائي يشبهُ النورس اي زمج الماء يطارد الطيور الضعيفة وينازعها صيدها وان تحقيق هذا الطائر يرجع الى الدكتور زلزل ذكرته في معجم الحيوان ص ١٣٤ و ٢٣٠ و ٢٣٥

خَرشَنة Tern

خطاف البحر . طائر يشبهُ النورس زعموا ان الكركر يطارده وينازعهُ صيده وان تحقيق هذا الطائر يرجع الى الدكتور زلزل ذكرته في ص ٢٤٦

عجهوم Skimmer. Syn. Scissor-bill

طائر مائي كان منقاره جلم الخياط (ابن سيده) ذكر فون هوغلن ان اسمهُ ابو مقص في مصر وكان كثيراً في مصر لكنهُ انقرض ولا يزال في الجهات الاخرى في افريقية . ذكرته في ص ٢٣٠ وقلت انهُ يسمى ابا مقص في سواحل البحر الاحمر، وكنت مخطئاً فهو في النيل لا في البحر الاحمر

غمّاسة Diver. F. Plongeon

نوع من طير الماء غطاط يغتمس كثيراً (التاج) ذكرته في ص ١٩١

غطّاس.غواص Grebe

طائر من طيور الماء يعرف في مصر بالغطاس وفي البصرة بالغواص . ذكرته في ص ١١٨ ولم يذكر اصحاب المعاجم الاخرى الغواص فانني لم اذكره قبلاً وقد ورد في الدميري والقزويني

صيحة الشاعر

كلمة رئيس تحرير المقتطف

في حفلة ذكرى حافظ ابرهيم

في مثل هذا الحفل التذكاري ، تنقبض النفوس أسىً ، لان الكائن الذي كان يملأ المحافل بوجوده فيها، او يبعث القوة والحكمة في ساعة الضعف والتهور، أو يفري الظلامة ويجلو القتام بظرفه المشرق ، قد طوته الارض

أما انا فأشد حزني على نفسي ، لانه أتيح لي ان أمتح من نبع صاف فياض فاكتفيت بالوشل

تفجر لنا الطبيعة في أوقات هي تختارها ، ينبوعاً متدفقاً من ابداعها . فتبعث الى الناس بكون كامل في حيز هيكل انساني ، تنبثق قوته من العقل فكراً وعلماً ، ومن الشعور بالخير والجمال والحق ، شعراً وحكمة ، ومن الكمال الخلقي وقاراً وقدوة ومثلاً أعلى يبعث في النفس التي تتسع له ، ما يرفعها عن مستوى المعنى الترابي ، ويقربها من جوهر الارباب

ثم تسترد الطبيعة هبتها . فتجفف ينبوعاً في واد هنا لتفجره في وادهناك ، وتطفىء مصباحها في قوم لتبدد به غياهب قوم آخرين . وتسكت غريدها في أيك لتتجاوب باصداء صداحه افنان أيك مجاور . فننتدب عما فعلت ، حاسبين ان ذلك النبع الجاف ، والمصباح المنطفىء ، والصداح الصامت ، جديرون بحزننا وأسانا ، والحقيقة اننا نندب غفلتنا لاننا لم نعب من النبع، ولم نستضيء ، بالمصباح ، ولم نسكر على شدو الغريد

من منا ، من منكم ، يالذات حافظ وصحابه وتلاميذه ، لا يتمنى الآن ، وقد جف نبعه لو يعود بنا الزمن و يكر سيرته الاولى ، اذ كنا نجالس الى حافظ ونصلي معه نار الجدال ، لكي نفوز منه بهدرة كهدرة البحر ، او بنكتة كبسمة الربيع ؟ من منا من منكم ، لا يتوق الآن وقد انطفأ مصباحه ان يلتقي حافظاً كل يوم ، ليستشف في عينيه الحنونتين ، ألقة الشعر وقد استقرت له أبيات في الليل السابق ، على ما يريد ويرضى ؟ من منا ، من منكم، لا يتحسر الآن وقد سكت صداحه ، لانه لم يسمع حافظاً يلقي بيانه ، وكأن صوته وهو يلقي ظاهرة من ظاهرات الطبيعة ، لا حركة وتر ولهاة ، تملأ جوانحك روعة فتحاول ان تتبين سر الروعة فيأخذ عليك الافتتان والاعجاب كل سبيل الا سبيل الاعجاب والافتتان

قد يستطيع الفلكي ان يقيس اجرام الكواكب وابعادها ، على عظمتها ومداها ،

والطبيعي دقائق الذرات ، على دقتها وتناهيها في الصغر ، والنفسي خفايا العقل وحدود الذكاء ، ولكنني لا أعلم ، ان احداً يستطيع ان يقيس اثر المعلم الصالح في نفس تلميذه ، ولا اثر الصديق المرشد في نفس صديقه ، ولا اثر الشاعر المبدع ، في شعب بأسره ، اذ يوقظ فيه شعوراً كامناً بالعز ، وتوقاً مستكناً الى الكمال

***

قلبوا ديوان حافظ ، تجدوا انه على الرغم من نفحات ندية فيه لم يكن شاعر الطبيعة في مظاهرها الكونية ، يتخذ من شروق الشمس وغروبها ، وتغريد الاطيار وخرير الجداول وألوان السماء وتعاقب الفصول وانبساط الصحراء وموسيقى الاجرام ، أوتاراً يعزف عليها انغاماً علوية تتردد اصداؤها في درب التبان وعنقود الثريا ، ويكشف لنا في انغامه ، نحن اصحاب البصائر القاصرة والعقول المكدودة، عن رؤى جديدة من الخير والجمال

ومن حسنات حافظ ، انه لم يتصنع الكلف بالطبيعة ، فلم يجر قلمه في ميدانها ، الا في لمحات نادرة من لمحات الالهام ، لان ملكة الشاعر السليمة فيه نكبته جادة التقليد

الا انه كان شاعر طبيعة أخرى لها كالطبيعة الكونية وهاد وسهول وقنن ، وفيها ضياء وقتام ، وتغريد ووجوم ، هي في وهادها وسهولها كرم ولين ، وفي جبالها وقننها شمم وعزم ، وفي ضيائها وتغريدها طرب وظرف ، وفي قتامها ووجومها ألم على مضض وتحفز للوثوب

تلك هي طبيعة النفس المصرية

وقد تميز حافظ ، في جميع ادوار حياته ، بذلك الاحساس المرهف ، الذي يتغلغل في هذه النفس الكريمة ، فيستبطنها ويفنى فيها ، ولاسيما في حالات وجدها ولوعتها ، ثم ينبثق من اغوار الالم مولودا جديداً ، وقد ارتدى من كمال اللفظ ، وحلو النغم ، رداء الشعر العالي . ولذلك كان حافظ، لسان هذه النفس قرابة اربعين سنة من الزمان، طالما انشد فاطرب فكان مزماراً ، وطالما رثى فوفى ووفا فكان لحناً كئيباً وعبرة ماثلة ، وطالما ندد وزجر فأنذر وأثار ، فكان بوقاً مدوياً للكفاح

***

ايها المحفل الكريم ، تجيء على الامم ادوار تنطوي فيها على نفسها ، فتفقد ثقتها بالحياة وينحدر مناط أملها من مركب النجم ، الى مستوى التراب، وتسام جوراً وعدواناً تحس بهما ولكنها لا تستجيب ، ويتراءى لها الحق ملثماً فلا تمزق اللثام والعز محصناً فلا تستبق اليه الاسنة والرماح، ثم تدوي فيها صيحة الشاعر فتعصف بالقلب الهادىء كموجة طاغية وبالعقل المطمئن كفتنة مجتاحة وبالارادة الوادعة كاعصارعات . واذا الرماد في الموقد الخامد يتنثر شرراً. واذا الحق الذي كانت تراه ولا يحركها يزحف عليها وكأنه زوبعة من الرمل يدفعها الهبوب، واذا الامة تنتفض انتفاضة البعث

وقد كان صوت حافظ المدوي في ايام التراخي،الجريء في اوقات المجاملة والتهافت، المحرك ببلاغته المستمدة من توهج الشعور،أحد الاصوات التي احدثت هذه العجيبة في نفس الشعب المصري

هذا الاحساس الشعبي الصادق ، هو سر الامتياز في شعر حافظ ، وطد له في دولة الادب عرشاً ، وفي قلوب الشرقيين عامة ، والمصريين خاصة الف عرش وعرش وأيد زعامة مصر الادبية في اقطار الضاد بآيات بينات جرت على الألسن وحفظها الشباب في المدارس وانشدها على المنابر وتغنى بها في الحفلات وما زلت اذكر وقد انقضى ربع قرن من الزمان ان (غادة اليابان) كانت القصيدة العربية الاولى التي حفظتها كاملة مع اترابي ، في لبنان وانا في الحادية عشرة من العمر

***

أدمى قلب حافظ ان يرى أمته تتحكم فيها أيدي الاغراب ، وثارت نخوة الجندي في صدره ، فجعل من قلم الشاعر في يده ، بوقاً من أبواق الكفاح

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا فالشرق ريع له وضج المغرب

***

أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا
أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عادا

ان من يوجه الكلام على هذا النحو القوي المستفز ، الى قصر الدوبارة في مستهل هذا القرن لكأنه ينادي القوم الى النزال،فهو خليق على الاقل،بأن ينبه النفوس المتداوية على ألم من مصب النيل الى منبعه . ان احساسها الباطن جرى على لسان حافظ شعراً بليغاً وشعوراً صادقاً ، في عشرات القصائد التي نظمها في دنشواي وكرومر والاستاذ الامام ومصطفى كامل وسعد زغلول

أنا لا ألوم المستشار اذا تعلل او تصدى
فسبيله ان يستبد وشأننا ان نستعدا

ان شرر الثورة المصرية ، كامنة ومحتدمة،اتصل بنا وألهب نفوسنا أيها السادة ، اذ كنا نقرأ شعر حافظ الملتظي وطنية متألمة ، ونحن احداث في ربى لبنان

الا ان حافظاً أدرك ببصيرة الشاعر النافذة ، وبداهته الملهمة ، ان لا يكتفي بالنفخ في بوق الكفاح ، لان الشعب الذي يناجز خصمه ودهره ، وهو غير متقلد من العلم عدة ،

ومن الخلق العالي والرجولة سلاحاً ، مقضي عليه بالخيبة . فراح يجاهر قومه بعيوبهم ، باعثاً على أجنحة الشعر نداء المصلح ، فكان قلم الشاعر في يديه حافزاً من حوافز الكمال

فهو آناً يؤنب

رجائي في قومي ضعيف كأنه جنان وزير سودته مناصبه
ودائي كداء الدين عز دواؤه وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه
فياليت لي وجدان قومي فارتضي حياتي ولا اشقى بما انا طالبه
ينامون تحت الضيم والارض رحبة لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

وآنا يطالب بأخذ الاهبة للكفاح :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً الى آماله وتعلقا

وآناً يريد ان ينبه بلاذع السخر :

أروني نصف مكتشف أروني ربع مخترع

ومن العجيب في حافظ ، وهو الذي نشأ نشأة عسكرية وادبية انه كان في طليعة شعراء العربية المتأخرين الذين ادركوا ما للعلم من المقام في الحضارة الحديثة ، وان العلم والاختراع والصناعة ، سبيل الى القوة والسطوة اللتين يريدهما لقومه فأكثر من الاشارة الى ذلك في شعره المتأخر ، ولكنني أكاد أؤمن الآن ، بان من أوتي بصيرة الشاعر وبداهته ، تنجلي له الحقائق في لمحات الالهام ، من دون ان يكد العقل الواعي في دراستها واستيفائها

***

شهد العصر الذي نشأ فيه حافظ وترعرع وامتلأت اعطافه رجولة ووطنية وتفتحت في نفسه ازاهير الشعر الندية ، فريقاً من الرجال الرجال ، كانوا ملء العيون والنفوس ، علماً وفضلا وحكمة وقوة . .من الاستاذ الامام وجمال الدين والبارودي الى مصطفى كامل وسعد زغلول الى قاسم امين وعلي يوسف وشبلي الشميل واسماعيل صبري ويعقوب صروف والارض ابها السادة ، عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم . هم ينقونها من الأدران ، بل ان الحياة لا تعذب ، وقد لا تحتمل الا في صحبتهم او في كنفهم وقد خالط حافظ هذا الرهط الممتاز من الرجال وارتبط بهم بروابط الود والاحترام ثم رأى عقدهم ينتثر فريدة اثر فريدة ، حتى اصبح على قوله .

أو كلما ارسلت مرثية من أدمعي في اثر مرتحل
هاجت بي الاخرى دفين اسى فوصلت بين مدامع المقل

فكان قلم الشاعر في يديه ريشة طالما رسم بها صفحات متألقة متأرجة ، من تاريخ مصر الحديث ، في الدين والسياسة والعلم والادب . والغالب ان حافظاً كان اجود شعراً ، وأبلغ تصويراً في مراثي أولئك الذين كانت حياتهم ومآثرهم تمت الى الوطنية المصرية والاصلاح

الاجتماعي لان هاتين الناحيتين من حياة الشعب كانتا أعلى مكانة في نفسه ، واجمع لعنايته ، يثير حديثهما ، فيه تلك الهزة التي لا يكون الشعر بغيرها الا كلاماً موزوناً مقفى

وقد راجعت معظم ما قاله في الرثاء ، فالفيته اجاد ايما اجادة ، في رثائه البارودي ومصطفى كامل والاستاذ الامام وسعد زغلول ومن كان على طرازهم من اقطاب هذه البلاد

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

. . . . .

هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح فقد اسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي احيا الشعور وساقه الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

***

ليت سعداً أقام حتى يرانا كيف نعلي على الاساس القبابا
قد كشفنا بهديه كل خاف وحسبنا لكل شيء حسابا
حجج المبطلين تمضي سراعاً مثلما تطلع الكؤوس الحبابا
حين قال (انتهيت) قلنا بدأنا نحمل العبء وحدنا والصعابا

واتسعت وطنية حافظ الصادقة ، وترامت الى ما وراء الافق المصري ، مدركاً قبل ثلاثين سنة ما زلنا نرمقه بعين الامل ونسعى الى تحقيقه بالتبادل الادبي وتعزيزه بالرحلة والاجتماع

ان يختلف نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
(ابو تمام)

فكان قلم الشاعر في يده رابطة من روابط الجوار :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

***

ايها المحفل الكريم : اذا اجتمع لامة في قلم شاعر ، بوق للكفاح ، وحافز للكمال ، وصفحة متألقة من التاريخ ، ورابطة قوية من روابط الجوار ، كما اجتمع للامة المصرية الكريمة ، في قلم حافظ ، فقد فازت من الدهر باحدى فرائده ، اذ لا يتاح لكل امة في كل جيل مثل هذه الهبة العلوية

واذا وضعت الحرب اوزارها ، وامتد رواق السلام والطمأنينة ، نجب شاعر جديد ، يحول البوق مزماراً وينتقل من الميادين الى الخمائل . ويبدل بالحان الطرب والرقص انغام الزحف والقتال

ولكننا ايها السادة مع حاجتنا الى شعر الجمال والطمأنينة والطرب على انواعه ، يجب ان نذكر ان الحرب التي شهد حافظ مرحلتها الاولى ، قد انتقلت من ميدان الى ميادين

وانكم يا شعراء مصر لبالغون بأبيات من الشعر ، اذا صدق الشعور ، ما لا نبلغه بعشرات المقالات. فانهضوا لها اذا شئتم ان تكرموا حقاً هذا الراحل الكريم ولكم من ذكره العطر وأثره الحي وتقدير هذه الامة الوفية خير الجزاء

فؤاد صروف

غيو الشاعر : او

اشعار فيلسوف

١٨٥٤ — ١٨٨٨

[الخليل هنداوي]

لعل طبيعة هذا العبقري كانت جبلة غريبة في انتاجها وجهودها الجبارة ، اقترن فيها عمل الخيال والحقيقة والفلسفة والشعر ، ولعل هذا الاقتران سرٌّ تحييه العبقرية ليدل على ان الشعر والفلسفة هما مادتان تنحدران من مهوى واحد . وتسعيـان الى هدف واحد . ولقد اقام « غيو » على ذلك برهاناً واضحاً — برغم قصر عمره — وكأن جهوده الخفية كانت تلح عليه في اتمام رسالته قبل ان يداهمه الموت . وكذلك أدى رسالته الرائعة ، وكان كالقائد العلم الذي يناديه واجبه هنا وهناك وهنالك ، نزحف من مكان الى مكان ومن نظرية الى اختها ، ومن مبحث الى آخر . . . فله في الفن نصيب ، وله في دراسات الدين نصيب ، وله في الاجتماع والاخلاق نصيب ، وله في عالم الشعر والخيال نصيب

نظم ديوانه « اشعار فيلسوف » في الرابعة والعشرين من عمره ، في سن التهاب الشعور وتأجج العاطفة ،ولكن عقله كان المهيمن على ديوانه ، فيه جملة اهواء وعواطف يتصرف بها العقل بهدوء،ولكل قطعة فـكرتها السامية الفلسفية، ولهذا اراك تصد عن شعره اذا كنت تكره التفكير ، وهذا لا يمنعنا ان نقول : ان شعره وان كان ثقيل الاجنحة كثيف الخيال ، تعوزه تلك الرقة الخالصة ، فهو مثال لشعر المفكر الذي يأخذ الفكرة العميقة عارية مجردة ، ويكسوها جناحين لتحلق بهما في عالم الخيال

يمثل « غيو » في ديوانه هذا روح الفلسفة الهائمة القلقة التي تهبط حيناً وادي اليقين المطمئن ، وتهيم حيناً في شعاب الشك. وهذه الروح — برغم قلقها — تندفع بقوة لاتعرف التردد الى ارتشاف جمال الوجود والاندماج فيه ، وتراها في سبيل هذا الاندماج لا تبالي الاخطار ولا يثنيها عن بغيتها شيء . ومن ذا لا يشعر بذلك القلق الذي كان يدفع هذه النفس الى التنقيب في الجزر النائية والعوالم المجهولة . ومن ذا لا يحس حنان هذه الروح التائهة التي تعوذ العودة الى وجودها الاول كما تعود قطرة الندى الى الشمس . وراء كل هذا الطموح فكرة تدعو الى تضامن اجزاء

الكون واتحاد هذه الاجزاء حتى يصبح الوجود قيثارة واحدة تتجاوب أوتارها وتتلائم ألحانها

يقول غيو في مقدمة ديوانه محللا مدرسته الشعرية « هنالك مدرستان في الشعر احداهما تتحرى عن حقيقة الفكرة وصدق التأثير، وأمانة التعبير وبساطته، حتى ترى ان المؤلف قد استحال انساناً . وفي هذه المدرسة لا ترى شعراً يخلو من فكرة او عاطفة تظهر عليه . والمدرسة الثانية ترى عكس ذلك ، فقيمة الافكار وعمقها — عندها — مسألة تابعة للشعر ، وروعة أخيلته وأوهامه لا ترتبط بالفلسفة ولا بالعلم ، وانما الشعر عندها لعبة خيال وأسلوب ، وأكذوبة رقيقة لطيفة لا ينخدع بها أحد حتى الشاعر نفسه . ألا ترى الممثل — لكي يؤثر في الناظرين ويخدعهم بحقيقة ذلك — تراه يغير صوته ويبالغ في حركاته ، ويتجاوز الحد في التعبير عن عواطفه ، وكذلك الأمر في الفنان عند من يرون « ان الفطنة او المكيدة شرطاً ضروري للفن » وهم يريدون ان يكون الشاعر هو نفسه « يسمع قلبه »

ونحن لن نأخذ بهذا المذهب الثاني لانه يضحي بكل جد في الفن . ونرى على عكس ذلك ان الوسيلة الوحيدة لصيانة مقام الشعر ازاء العلم هي ان يطلب الحقيقة كما يطلبها العلم ، ولكن بغير وسيلته وأسبابه ، وعلى غير طرائقه . واذا كان من حقهم أن يقولوا ان الشعر هو أدنى الى الحقيقة من التاريخ أفلا يمكن ان يكون اكثر فلسفة من الفلسفة ذاتها ؟

قد يعترض علينا معترض بأن المسائل المجردة للفلسفة والعلم الحديث لم توضع بلغة شعرية ، فنجيبه : بأن الفلسفة — من نواح عديدة — تمس الاشياء الاكثر لمساً وأكثر ما هو أشد قبولا للتأثير . لانها تصبح اذ ذاك عقدة وجودنا نفسه ومسألة مقاديرنا وحظوظنا . والفلسفة في عصرنا هذا تريد ان تحل محل الدين الذي كان يمد الشعر بينابيع مختلفة ، على ان لغة الفلسفة لا تنوء في الحقيقة باحتمال الشعر الا حينما تغدو مجردة ضيقة . ولكنها اذ ذاك قد يكون خسارها اكثر من ربحها . فأعمق المعاني تحمله في الغالب ألفاظ بسيطة . وهذه الالفاظ ، في استطاعة الشاعر ان يستعملها فيتصرف بها كما يريد التأثير . وبدلا من ان ينفي العاطفة عن شعره يحيطها بالفكرة الفلسفية . وهذا النوع من التأثير الصادق الذي يرافق الفكرة الفلسفية هو ما نريد ان يهيمن على هذا الديوان . فياترى هل خدعنا ؟ ولكن هل يمكن ان يكون شيء اقوى من الحقيقة والصدق ؟ او اننا برغم كل ما تمنينا لم ندرك شيئاً ؟ القارىء وحده سيحكم ! »

وكذلك نشر « غيو » ديوانه سنة ١٨٨٠ وقامت له الاندية الادبية وقعدت، وكتب اليه « تين » بعد ان هنأه « ان رأيي في عمق الفكرة كرأيك » وكتب اليه «سبنسر» «وعلى الرغم من اني لا استطيع ان انظر الى اسلوبه الشعري واخيلته فاني استطيع ان اراه من حيث نتائجه الادبية والفلسفية ، انني معجب بتركيب افكارك وعواطفك » . ورأى فيه « ستارشميت » علامة من علامات الشعر الخالد انه لا يفقد قيمة افكاره بالنقل ، وناقشه « كفيلسوف مثالي » يقول بالمثل الاعلى ، على ان الفكرة ليست كما يزعم « غيو » بانها « زهرة صفاء ، وزبد خفيف من امواج صماء » وان الفكرة ذات قيمة خاصة وتأثير في الكون [1]

مختارات من شعر « غيو »

— ١ —

رحلة تنقضي !

لما كنت طفلاً كنت احلم بالاسفار
وبالرحلات عبر الابحار
وتحت ناظري الحالم كانت تخطر شواطىء جميلة
طافية على الاوقيانوس في ضباب الفضاء

اردت اذ ذاك ان امشي ، وان اعمل ، وان اغرس حياتي بكلتا يدي
وانا مرتاح الى النضال ، سعيد بالالم
باذلا بسخاء قواي المضطربة التي احسها في قلبي تجري مع دمي

وحينذاك تفتح يوماً لناظري أفق اكثر حلاوة واشد امعانا في الهرب .
من هذه المرافىء الخفية القائمة على ارض مجهولة ، حيث كانت تحملني اليها احلامي.

---

(١) هذه كلمة موجزة لااراها كافية في توضيح هذه الشخصية . وقد آثرت تلخيص مذهبه ونظرياته الفنية في المقالات التي انشرها تحت عنوان « النظريات الفنية »

خيل الي اني ارى الحقيقة البعيدة تلمع
واحسست ان رجاء لا نهاية له يعرو قلبي
فنسيت — به — كل فكرة انسانية ، لاقتني في الليل قبسها الالهي

مشيت طويلا ، والوعد الخالد يبسم لي دائماً في اعماق السماء الصافية
مشيت ، وعلى جبيني كانت فتوتي شاحبة ، ولكن املي كان ينمو مع الألم
فقلت : ان الالم يقيم قيمة الانسان . . .
فدعوت الألم دون وجل ليملك على جسدي المنهوك
ايتها الحقيقة ! اريد ان اكون جديراً بك !

مضت الايام وحييت في احلامي ،
والافق الذي كان منيراً قد اظلمت نواحيه
وفقدت حماستي ونشاطي والايمان الذي يرفعني ويسمو بي
اصبحت منهوك القوى ، والرجاء في قلبي ذوى

والآن ماذا بقي لي؟
هل احمل من التخوم المعبورة غصناً منتزعاً او حطاماً ، او زهرة تعلق بها عيني ، وافكاري تعود تجد شعاعاً من الايام الذاهبة ؟

لا ! أليس ثمة يقين تستريح اليه النفس،
فالسماوات باقية على صمتها القدسي ،
ولكني — من اللانهاية القائمة — احسست شيئاً يدخل في قلبي النشوان فيدميه !

— ٢ —

الفكرة

ايها الرسم النوراني الهائم
الذي يبسم ويدخل في نفسي ،
ايها الكائن المجنح ، الذي لا يستقر له جناح !
ايها الفكر المتحرك اهدأ !

ما أنت ؟ لا أدري ، وأراني انتظرك كالأمل ،
فالى أي مدى يستطيع نورك الفياض كشف الحقيقة ؟

ربما كنت تحمل عالماً ، وربما كنت الحقيقة !

اراني شاحب اللون ازاءك
من خوف ومن رجاء معاً
فما عسى ان يكون سرك ؟
بل ارتعش حين احاول أن أقبض عليك .
وجودي كله يحقق ويحيا لنظرتك العميقة
فلماذا تطير عني سريعاً ، وتتوارى عن قلبي ؟

لا تفر ! ايها الفكر الخالد ...
سعيد من يستطيع ان يستبقيك !
وسعيد من يطير على جناحيك ،
الى أعمق ما في الغد ...

— ٣ —

النضاس

وكانت اشجار السنديان الجسداء تمد اذرعها لريح الشمال
ولا نزال زعزع العاصفة يصفر في الجو
وفوق رؤوسنا تتوثب الغيوم المجنونة كطيور ضخمة تأسرها الريح
مشينا تعبين مقوسي الظهور ، حاملين بنصب رؤوسنا التي ناءت بأعباء الفكر
وامام اعيننا تبين الطريق وعرة كالحياة ، وهي مثلها لا تنتهي
وكنا نصعد دائماً
وفجأة لاح من الغمام المفتتح لنا من الاعالي شعاع انار لنا البرية القفراء كأنه سقط على قلبينا
وفي هذه اللحظة القصيرة كرعشة انسابت من الطبيعة الينا ، ومن الاشياء الى انفسنا
وازاء ناظرنا كل شيء قد اختلف وأنشد وتبسم ، وشعرنا بأنفسنا بأن رقة
غريبة تنسل فينا . وخيل الينا ان السأم والألم يفران من هذه الفجوة التي فتحها الشعاع
واحسست اني اصبحت اكثر قوة وأملا
فسألت نفسي « اية قوة غريبة تميض علينا بيدها » !

ان شعاعة شمس تستطيع اذاً ان تبدل قلباً ، والفكر الانساني الذي تقوده الصدف حيث العالم يقوده اصبح لا يملك نفسه أليس عقلنا شبيهاً بهذه الشجرات التي يهزها الريح ، ولا تدري من أمرها الا الانحناء للريح !

اني غير قادر — ما دام قلبي يخفق — على ان أدخل فيه في لحظة ما فرحا أو ألماً ، بل أراني لست حاكماً على دموعي !

بلى ! لكي تنفر دمعة من عيني ، او تتولد بسمة مني ، ينبغي ان ترضى عن ذلك هذه الرغبة المتقلبة . وينبغي لشقائي وفرحي ان يكون في جو العالم الفسيح دمعة خرساء وشعاعه تجيب ؟

كنت أتهر من شعوري بضآلتي في هذه الحياة .

وغير قادر على حبس نفسي في نفسي .

وحيداً مع فكرتي ، حراً كاله .

ثم قلت بنفسي « لماذا هذه الكبرياء ؟ ان قصيدة أبدية تمر وتحيا في الوجود . أنا مقطع من مقاطعها ، او كلمة ، ولم أصر بيتاً من أبياتها .

وما همي اذا وجدت رقة تسكرني في هذا النشيد الالهي الذي يحملني ؟

أرن مع هذا « الكل » وما عسى يجديني ان أتبع هذه الكلمة العذبة: الحرية !

اني أوثر عليها كلمة اخرى هي : التضامن !

انها مساعدة بعضنا بعضاً ولحن متحد . هكذا تتجلى الحياة في نفسي:

وجميل جداً الشعور بهذه الكائنات ترتعش معاً في هذه الوحدة الواسعة ،

كما يرى في الشعاع الواحد اضطراب الذرات الذهبية الساطعة في النور .

انا لاملك لي بنفسي ، وكل كائن لا شيء دون الكل ، ولا شيء لوحده .

ولكن الطبيعة كلها ترن له في كل كائن ، وعلى حضنها الفسيح تتحد جميع الكائنات متآلفة متساوية .

اني لاكاد احس الورد يتفتح في قلبي

واشعر مع الفراشة اني ألثم الزهرة

وليس هنالك جهود مفردة ، ولا لذائذ ذاتية

فالكل متآلف متماسك ، يركض الهم والسرور من كون الى كون

وكونك هو كوني ، وكوني كونك

واريد ان يكون كونكم جميعاً كوني !

وان تكون سعادتي مشيدة على سعادة الكل

وان احمل في قلبي المتمدد — ولو تمزق — كل الانسانية

على ان فرحاً اكثر عمقاً واكثر سعة يخيل الي انه آت
حيث لا يقدر احد ان يطرب او يتألم وحده.
حيث كل شيء يتآلف ويمتزج من طرب وشقاء وفكر.
حيث يتجاوب في النفس مغنياً صدى أبدي!
وهكذا يؤلف جميع الناس بأيديهم المتصالحة سلسلة طويلة، كل حلقة خافقة حية فيها لا تنتظر الى اختها اذا ضربت الا باهتزاز
لان الالم يكل حده — حين يجمع بين القلوب —
ويرفعها بخفقة واحدة، واذ ذاك يصبح رقيقاً كالرأفة، شفيقاً كالرحمة
لتتسع اذاً ولتتفتح قلوبنا لكل هزة من هذا الكون الفسيح،
ولننل نصيبنا من كل الآلام التي تهز اثقالها الكائنات المتمردة
ولنطلب نصيبنا من اللمعات البعيدة التي تنتشر عليها كالآمال.
هادمين اخيراً بأنفسنا هذا السد الابدي — سدّ الذاتية —
عاكسين في انفسنا كل شعاع يصعد من الارض، او ينحدر من السماء!
ولنكن من الطبيعة كلها عينها الصافية ..

— ٤ —

الموت الجميل

هنالك ورقة خلال رقادها في الليل، تحدرت عليها قطرة من ندى لبثت بمنجاة من الشمس
قالت: اما هنالك شعاع فان يحرقني، فأرى النهار اذ يتيقظ!
خرجت من بين الورق هاجرة الظل وقد سطعت الشمس لعينيها...
فماتت بنورها وصعدت قطرة بخار خفيفة على جناح شعاع الى السماء.
انا كهذه القطرة الخفيفة، اناديك ايها النور لتخرج من فضائك العميق...
لقد مللت الظل الابدي وجذبني لمعانك ايها النور، فليتوقد صفاؤك في قلبي المحب الهي واماني هما انت!
ايتها الحقيقة اريد ان أتيه تحت شعاعك الطافح!
الحقيقة — كما ادري — تؤلم. وشاهدة الحقيقة قد تكون هي الموت؟
ولكن ما هي؟ أيتها العين انظري!

من الشعر الروسي

النبي : لبوشكين

١٧٩٩ — ١٨٣٧

سرتُ والنفس ظامئة ، متعثراً في قفرٍ قاتمٍ ،
فرأيت ملكاً ذا ستة اجنحة حيث تلتقي الطريقان وتفترقان .
القى بأصابعهِ على عينيّ ، فكان لمسهُ رفيقاً كالنوم
فتفتحت عيناي ، وكأنهما عقاب هزّت الصخرة تحتها ،
والقى باصابعهِ على أذنيّ ، فارتفع الصوت فيهما صيحة بعد صيحة
فسمعت الاجرام تدور وتصدح ، والملائكة تجرُّ أذيالها في الفضاء
والوحوش تتحرك في الاغوار ، والكرمة تعرش في الوادي.

واستلَّ الملك لساني الخاطىء من فمي
وبيدهِ محا كلّ ما ثرثرت بهِ من الاقوال الفاسدة
ثم القى بيده الملطخة بالدم لسان الحية الحكيمة مكانهُ .
ثم شق صدري بسيف ونزع القلب الخافق لهُ .
ووضع محلّهُ في حشاي الدامي فحمة متأججة النار .
فاستلقيت في ذلك القفر كتلة من التراب لاحياة فيها
وسمعت صوت الله :
« انهض ايها النبيُّ ، راقب واصغ ، واحزم امرك بمشيئتي »
« طف بالبحار الغبر ، وجوّل في الطرقات المظلمة »
« واشعل النار في قلوب الناس ، بكلمتي » !

خريطة العالم

كيف تبدلت بعد الحرب الكبرى (١)

للاستاذ رمزي ميور

---

١ — خريطة اوربا الجديدة

يلذ لنا ان ننتقل من الكلام على الشروط التأديبية في المعاهدة — وهي الشروط التي لا بدَّ ان تكون لحسن الحظ موقوتة قصيرة الأجل — الى الكلام على التعديلات السياسية الكبرى التي يحتمل ان تكون أبقى من الاولى وأدوم

لقد كان على الدول التي تولت وضع التسوية أن ترسم خريطة جديدة لجزء كبير من أوربا، لأن ألمانيا وتركيا قد ذهبت ريحهما ، والامبراطورية النمساوية قد تضعضعت أركانها ، والدولة الروسية قد انفصلت عنها ولاياتها الغربية ، ولبثت تنتظر أن يوضع لها نظام حكم جديد . ولذلك كانت التغيرات التي حدثت وقتئذٍ أعظم من كل ما تمَّ في أية معاهدة أخرى في التاريخ الحديث ، لا نستثني من هذا التعميم ما أحدثتهُ حروب نابليون من تعديلات سياسية واسعة النطاق لكنها قصيرة الاجل . واتخذت الدول رائدها في رسم الخريطة الجديدة مبدأ القومية ، وحاولت محاولة شريفة ان تجعل حدود الدول منطبقة على حدود الأمم ، فتمّ ذلك التطوُّر الذي كان في خلال القرون السبعة الأخيرة يعمل بالتدريج ومن غير قصد واضح على تشكيل خريطة أوربا السياسية على أسس قومية . واتُّخذت اللغة في معظم الأحيان أساساً للقومية ، وان كان التاريخ قد دل في أحوال كثيرة على ان وحدة اللغة لا تقوم دليلاً على وحدة الشعور الذي هو أساس القومية . على ان هذا المبدأ لم يتبع في كل الاحوال

ففي شرق أوربا بقاع واسعة تختلط فيها اللغات اختلاطاً شديداً يظهر لكل من يطلع على خريطة للغات ، وقد بلغ من اختلاطها أن احتاطت الدول احتياطاً خاصًّا لحماية الأقليات في هذه البقاع ، فوضعت لذلك عدَّة معاهدات ضمنت تنفيذها عصبة الأمم . وكانت القرارات الخاصة بذلك الجزء من أوربا بصفة عامة مجحفة بدول الاعداء السابقين . فقد عينت الحدود بين

---

(١) هذا المقال جانب من فصل « التسوية التي اعقبت الحرب » في كتاب « النتائج السياسية للحرب الكبرى » تأليف رمزي ميور استاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقاً وترجمة محمد بدران ناظر مدرسة بنيا قادن الابتدائية ونشر لجنة التاليف والترجمة والنشر ننقله هنا ليكون لقرائنا بمثابة سند في كل ما يقال عن تنقيح الحدود الاوربية والمطالبة بالمستعمرات ونشير على قرائنا باقتناء هذا الكتاب لما يتقدم فصول سير الزمان

ألمانيا وپولندا بحيث ترك تحت حكم الدولة الأخيرة مليونان ونصف مليون من الألمان ، وفصلت ولاية بروسيا الشرقية الألمانية عن بقية ألمانيا وأحيطت من معظم نواحيها بأراضي پولندية ، وأخضع ثلث أهل المجر لحكم رومانيا ويوغسلافيا وتشكوسلوفاكيا ، وأصبح النمساويون الألمان محصورين في حدود ضيقة ، لا تفي بلادهم بحاجة عاصمتهم الكبيرة مدينة فينا . ومع ذلك فقد حرم عليهم بتاتاً ان ينضموا الى جيرانهم الالمان لكيلا تقوى ألمانيا باتحادهم معها ، وان كان انضمام الشعبين يطابق مبدأ القومية . وكذلك أخضع عدد كبير منهم في إقليم الترنت Trent لحكم ايطاليا ليعزّز مركزها في الشمال ، ولم توضع لحماية هؤلاء الرعايا الايطاليين الجدد معاهدة أقليات ، لان ايطاليا دولة كبرى ، مع ان الحوادث قد دلت على انهُ ليس في أوربا كلها طائفة هي أحوج منهم الى هذه الحماية

كذلك أغفل مبدأ القومية القائم على أساس اللغة في حالة الألزاس واللورين . فقد أعيدت هاتان الولايتان الى فرنسا بحجة قوية هي ان عواطفهما فرنسية وإن كانت اللغة السائدة فيهما هي الالمانية . وكان ذلك اعترافاً بأن اللغة وحدها ليست أساساً كافياً للقومية

ومدت حدود پولندا إلى ما وراء البلاد التي يتكلم اهلها اللغة البولندية ، وكانت حجة واضعي التسوية ان هذه الاراضي الزائدة كانت جزءاً من پولندا القديمة قبل تقسيمها في القرن الثامن عشر . لكن الرغبة في تقوية پولندا لتكون حصناً يقيهم شر المانيا من جهة وشر روسيا من جهة اخرى ، قد يكون لها أثر في هذا القرار . ومهما يكن سببهُ فقد سويت حدود پولندا من الشرق بنزول الروسيا عن بعض املاكها ، واكتفت معاهدة الصلح بتحديد التخوم الغربية

واخذت آراء السكان لتقرير مصيرهم في حالات قليلة ، منها اقليم شلزويج الذي يتكلم اهله اللغة الدنمركية ، وفي الجزء الجنوبي من بروسيا الشرقية وجزء من بروسيا الغربية ، وفي سيليزيا الجنوبية وإقليم تشن Teschen الصغير . وكانت نتيجة الاستفتاء في شلزويج أن قسمت المقاطعة التي هي موضوع النزاع تقسيماً معقولاً بين الدنمرك والمانيا . أما في بروسيا الشرقية فكانت الاغلبية الساحقة في جانب المانيا ، وأجري الاستفتاء في سيليزيا الجنوبية عام ١٩٢٠ تحت إشراف عصبة الامم ، فكانت النتيجة ان قسم بين پولندا والمانيا إقليم غني بالفحم ، يكون من الوجهة الاقتصادية وحدة متماسكة ، وإن اختلفت لغة اهله ، ولذلك وضعت قيود شديدة لمنع اضطراب الإنتاج في هذا الإقليم

وكانت نتيجة هذه التغيرات كلها ان اختفت وحدات سياسية قديمة من خريطة اوربا ، أو بقيت بصورة مصغرة ، وان ظهرت في عالم الوجود وحدات جديدة لتضطلع بدورها على مسرح السياسة في المستقبل



الاوقيانوس
الاتلنتيكى
ايسلندا
سيبيريا
روسيا
فنلندا
اسوج
نروج
البحر
الشمالى
ارلندا
لاتفيا
ليتوانيا
المانيا
بولونيا
اوقرانيا
فرنسا
النمسا
المجر
رومانيا
البحر الاسود
جورجيا
ازربيجان
بحر
قزوين
اسبانيا
يوغوسلافيا
بلغاريا
اشيا الصغرى
سوريا
العراق
البحر الابيض
تونس
الجزائر
افريقيه
مراكش

خسرت المانيا بذلك كثيراً من بلادها في الشرق والغرب ، ففي الغرب خسرت إقليمي الالزاس واللورين الغنيين ، وإقليمي يوپين وملميدي Eupen & Malmedy الصغيرين اللذين ضما إلى بلجيكا وجزءا من شلزويج ضم الى الدنمرك ، وفقدت في الشرق اقليم بروسيا الغربية الواسع الرقعة الخصب التربة ، وسلخت منها پوزن Posen وجزء من سيليزيا . لكن المانيا رغم ذلك بقيت امة يزيد عددها على ستين مليوناً من الانفس اي اكثر دول اوربا سكاناً اذا استثنينا الروسيا ، وأعظمها كلها نشاطاً وقوة بلا استثناء ، ولا يمكن ان تبقى هذه الامة الى الابد ذليلة مهيضة الجناح

واما امبراطورية النمسا والمجر ، التي ظلت دولة من دول اوربا العظمى منذ القرن السادس عشر ، فقد محيت من خريطة اوربا من حيث هي وحدة سياسية ، واصبحت النمسا والمجر كلتاها دولة صغرى داخلية لا منفذ لها على البحر ، وفي الدرجة الثالثة من خطر الشأن تحيط بها دول اكبر منها تحقد عليها وتسيطر على الجزء الاكبر من بلاد الامبراطورية القديمة . وفصلت الاقاليم الغنية المحيطة بفينا وبودابست عن هاتين العاصمتين العظيمتين اللتين كانتا مركزيهما المالي والتجاري فأصبحتا بعد هذا الانفصال مهددتين بالخراب

وأخرجت الامبراطورية التركية من اوربا او كادت ، اذ لم يبق لها إلاَّ إقليم صغير خلف الاستانة وشبه جزيرة غليبولي ، وذلك بعد ان بقيت هذه الامبراطورية في اوربا خمسة قرون ، كانت تعد فيها من كبريات الدول . ولو استطاع الذين وضعوا شروط الصلح ان ينالوا بغيتهم ، لأخرجوا تركيا من اوربا بقضها وقضيضها ، ولجعلوها دولة اسيوية صغرى . ولقد كان من شروط معاهدة سيفر التي قضى عليها في مهدها أن توضع الاستانة والمضيقان تحت إشراف عصبة الأمم ، وهو تدبير مرغوب فيه كل الرغبة . لكن الاتراك نهضوا نهضة جديدة واستردوا قوتهم الحربية في عامي ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، وقضوا على ما كان يراد بهم . وتركت معاهدة لوزان الاستانة والمضيقين تحت سيادتهم ، بشرط ان تجرد المنطقة من السلاح وان تضمن سلامتها عصبة الأمم . وخسرت تركيا ايضاً معظم املاكها في آسيا ، وسنتكلم عليها عند الكلام على التغييرات التي حدثت في خارج أوربا

وفقدت الروسيا كل ما كسبته في أوربا من أيام بطرس الأكبر ، وحال بينها وبين البحر البلطي (بلطيق) خروج ولايات هذا البحر وفنلندا من يدها ، ولم يبق لها اتصال بالبحار الاوربية الاَّ بالبحر الاسود الذي يكاد يكون بحراً داخليًّا مغلقاً . وكذلك أصبح اتصالها بأوربا الغربية متعذراً بعد انفصال پولندا عنها ، وأصبحت في أعين الدول الاوربية دولة منبوذة طريدة . وتكون من فنلندة Finland والدول البلطية الجديدة وپولندا ورومانيا سلسلة متصلة الحلقات تفصلها عن الحضارة الغربية . وكل هذه الدول تنظر الى الروسيا نظر الخوف والرعب

وأقيمت على انقاض هذه الامبراطوريات المتهدمة عدة دول جديدة وضمت بعض بلادها الى دول قديمة ، فاتسعت رقعتها وزاد عامرها وعلت كلمتها في الشؤون الدولية

وكان أهم الدول الجديدة بولندا وتشكوسلوفاكيا (بوهيميا)، وقد استمدت هاتان الدولتان قوتهما من تقاليد قومية تليدة ، فصارت بولندا لا تنقص كثيراً عن أقوى الدول الاوربية من حيث المساحة وعدد السكان ، وان لم تضارعها في مقدرتها الاقتصادية . بلغت مساحتها ٣٨٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع (اي أكبر من مساحة إيطاليا) . وبلغ عدد سكانها ٢٩ مليوناً من الأنفس . أما تشكوسلوفاكيا ، التي تبلغ مساحتها ١٤٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع والتي يبلغ سكانها ثلاثة عشر مليوناً ونصف مليون ، فكانت من أرقى الدول الصناعية ، وبقية الدول الجديدة هي فنلندا واستونيا ولتفيا ولتوانيا وكلها اقل شأناً من الدولتين الاولين

ومن اعظم الدول التي علا شأنها بعد الحرب رومانيا ويوغسلافيا Jugo-Slavia ، اللتان كانتا من قبل دولتين صغيرتين متأخرتين من دول البلقان ، لكن رومانيا بعد الحرب بلغت مساحتها ٣٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً (اي اكبر من مساحة بريطانيا العظمى) ، وبلغ سكانها سبعة عشر مليوناً ونصف مليون . وتكونت يوغوسلافيا (او مملكة الصرب والكروات والسلوفين كما هو اسمها الرسمي الصحيح) من بلاد الصقالبة (Slavonic) الجنوبية التي كانت تابعة للامبراطورية النمساوية ، ومن مملكة الصرب الصغيرة ، فصارت مساحتها ٢٥٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع (اي اكبر من مساحة بريطانيا العظمى) وبلغ سكانها اثنى عشر مليوناً ونصف مليون . وأخذت معظم البلاد التي ضمت الى هاتين الدولتين الجديدتين ، والتي زادت رقعتهما زيادة فجائية عظيمة ، من إمبراطورية النمسا والمجر ، وهي اعظم ثروة وأرقى مدنية من بلاد الدولتين الاصلية ، فكان هذا منشأ متاعب خطيرة لهما . ولذلك لم يكن من العبث ان تفرض على كلتا الدولتين معاهدة لحماية الاقليات . وكانت اليونان ثالثة الدول التي علا شأنها بعد الحرب فقد ضمت اليها بلاد واسعة اهمها جزائر بحر ايجه الشرقي الجميلة . وزاد سكانها زيادة كبرى حينما انتقل اليها آلاف من الاغريق اللاجئين من بلاد تركيا ، فأصبحت مساحتها ١٢٧٫٠٠٠ كيلو متر مربع وزاد سكانها الى ستة ملايين ونصف مليون

٢ — نتائج سياسية واقتصادية

تلك هي خريطة اوربا الجديدة بوجه عام . فماذا كان اثرها ؟ اول ماننذكره انها تمثل انتصار مبدأ القومية انتصاراً نهائياً ، فقد اصبحت جميع الدول الاوربية دولاً قومية . وقد دل التاريخ على ان حدود الدول القومية هي اثبت الحدود وأدومها ، ولذلك يحق لنا ان نأمل ان سبباً من اهم اسباب القلق والاضطراب في اوربا قد قضي عليه ، بصرف النظر عما ارتكب من اخطاء

لكن انتصار مبدأ القومية على هذا النحو قد خرج عن حد الاعتدال ، فقد تركت له السيطرة الكاملة على جميع الشؤون الاقتصادية والحربية ، وعد من البديهيات ان لكل دولة ذات سيادة الحرية المطلقة في تقدير رسومها الجمركية ، وارادت الدول الجديدة ان تحقق ذلك الغرض الخداع وهو الاكتفاء بالنفس ، فأخذت تعمل للوصول اليه باقامة الحواجز الجمركية العالية . ولما كانت الحدد السياسية الجديدة قد قطعت المسالك التجارية القديمة ، فإن هذه الحواجز ضاعفت العقبات القائمة في سبيل التجارة الدولية حينما كانت في اشد الحاجة الى الانتعاش ، واخذت هذه الحواجز تزداد وتشتد عما كانت عليه قبل الحرب ، حتى جعلت انتعاش اوربا وخروجها من الاضطراب الاقتصادي الذي سببته الحرب بطيئاً جداً

اما من الوجهة الحربية فان الآثار التي ترتبت على انتصار مبدأ القومية انتصاراً كاملاً كانت اكثر وبالاً من الآثار الاقتصادية ، ذلك بأن احداً لم يفكر حتى في تحديد قوات الدول الجديدة ، في الوقت الذي ارغمت فيه الدول المغلوبة على تخفيض قواتها الى اقصى حد ، وعلى الغاء نظام التجنيد الاجباري . ولذلك قررت الدول الجديدة نظام التجنيد الاجباري ، وأنشأت لها جيوشاً جرارة في الوقت الذي خفض فيه الجيش الالماني ، وبقيت جيوش الدول الاخرى بعد الحرب كما كانت قبلها ، اي كما كانت حينما بلغت المنافسة في التسليح غايتها وبذلك اصبح واجب نزع السلاح الذي بقي على عاتق عصبة الامم اشق مما كان يجب ان يكون

ومن اكبر دواعي القلق ما كان يبدو من رغبة الدول في العودة الى ذلك النظام الفاسد القديم نظام التحالف . ذلك بأن الحرب قد خلفت وراءها كثيراً من المخاوف والاحقاد ، فلم تكن الامم حينئذٍ مستعدة لان تعهد بسلامتها الى عصبة الامم ، لأنها كانت تخشى ان يعمد أعداؤها المنهزمون الى الانتقام لأنفسهم ، ولذلك عادت الى الاساليب الخطرة القديمة اساليب الأحلاف الدفاعية . كانت فرنسا تساورها المخاوف من انتقام المانيا (كما كانت المانيا تخشى انتقام فرنسا بعد عام ١٨٧٠) ، ولذلك اصرت على الاحتفاظ بجيش كبير يمكنها من ان تعبئ في ميدان القتال في وقت قصير مليونين من الجند كاملي العدة . ولم تكتف بذلك بل وثقت صلاتها ببولندا وتشكوسلوفاكيا جارتي المانيا من الشرق والجنوب ، وان لم ترتبط معهما بحلف رسمي ، وأعارتهما ضباطها ليساعدوهما على تنظيم جيوشهما . وكذلك فعلت الدول « الوارثة » وهي التي ورثت معظم املاك الامبراطورية النمساوية القديمة ، فانها لخوفها من انتعاش دولة المجر المحطمة كونت حلفاً دفاعياً قبل ان يجف المداد الذي كتبت به معاهدات الصلح وسمي هذا الحلف بالحلف الصغير ، وضم تشكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا . وفي هذا دليل كاف على ان لواء السلم الحقيقي لم يخفق على أوربا عندما وقعت معاهدات الصلح

وكان من اهم النتائج التي اسفر عنها التقسيم الجديد نتيجة لم يدرك كنهها حق الادراك وقتئذ ، وهي ان هذا التقسيم قد احدث تغيراً كبيراً في التوازن الدولي بين البلاد الاوربية ، وقلل كثيراً من تفوق الدول الكبرى . لقد كان في اوربا قبل الحرب ست دول عظمى يزيد سكان كل منها على ثلاثين مليوناً ، وهي بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، والمانيا ، والنمسا والمجر ، وايطاليا ، والروسيا ، اما غيرها من الدول فلم يكن يسكنها اكثر من عشرة ملايين إلا أسبانيا التي يبلغ اهلها عشرين مليوناً . وكان ثمة خمس دول سكانها بين مليون وخمسة ملايين وعشرة ، وست دول بين مليون وخمسة ملايين وثلاث سكانها اقل من مليون

لكن هذه الحال قد تغيرت كل التغير بعد التقسيم الجديد ، فنقص عدد الدول العظمى من ست الى اربع لان دولة النمسا والمجر محيت من خريطة اوربا ، ولان الروسيا أخرجت نفسها ولو الى حين من اسرة الدول الاوربية . اما الدول الثانوية التي يتراوح تعداد سكانها بين عشرة ملايين وثلاثين مليوناً ، فزادت من واحدة الى خمس ، وهي اسبانيا وبولندا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا. وزاد عدد الدول التي يتفاوت سكانها بين خمسة ملايين وعشرة من خمس الى ثمان ، والتي بين مليون وخمسة ملايين زادت من ست الى ثمان، وبلغ عدد الدول المستقلة في اوربا تسعاً وعشرين دولة بعد ان كانت اثنتين وعشرين ، ولم يعد هناك ذلك البون الشاسع بين كبار الدول وصغارها كما كانت الحال في القرن التاسع عشر. ومعنى هذا ان ما كان للدول العظمى في قديم الزمن من سيطرة وسلطان قد زال، وكان تكوين العصبة في حد ذاته دليلاً على هذا الزوال

واهم من ذلك ان معظم الدول المنظمة في خارج اوربا من الصين الى بيرو ايقنت ان مصيرها مرتبط بشؤون اوربا ، ولذلك بدأت تضطلع بدور هام في الشؤون العالمية ، بعد ان اشتركت في الحرب وفي مؤتمر الصلح . لم يكن في خارج اوربا دول كبرى قبل الحرب الا الولايات المتحدة واليابان ، اما بعدها فقد اخذت اكثر من عشرين دولة من غير دول اوربا تطالب بحقها في أن يكون لها رأي في الشؤون الدولية . ومن هذه الدول اثنتان (الهند والصين) تفوقان كثيراً اعظم الدول الكبرى اذا عددنا اساس التفوق ذلك الاساس العرفي السالف الذكر وهو تعداد السكان لكن هاتين الدولتين لاسباب عدة لا يقام لهما وزن كبير في الشؤون الدولية . وثمة دولة اخرى غير اوربية (البرازيل) اصبحت في المقام الثاني بين الدول «المقتطف: والارجنتين من هذا القبيل»، وتسع اصبحت في المرتبة الثالثة ، وثمان في الرابعة ، اما سائر الدول فدويلات عديمة الشأن

وهذه الحقائق تنبيء بافتتاح عهد جديد في العلاقات الدولية يدل عليه انشاء عصبة الامم . لقد كانت هناك دكتاتورية أوربية تسيطر على الجزء الأكبر من العالم ، وتمثلها طائفة من الدول الكبرى ترتاب كل منها في نيات الاخرى . هذا النظام اخذ يحل محله بالتدريج نظام عالمي ليس

لأوربا فيه ما كان لها من شأن في الاربعة القرون السابقة ، ولا بد فيه للدول العظمى في أوربا وخارجها ان توطن نفسها على الاشتراك والتشاور مع غيرها من الدول

٣ — التغيرات التي حدثت في خارج اوربا

لقد سببت الحرب الكبرى أو عجلت حدوث تغيرات هامة في خارج أوربا ، لكن اهم هذه التغيرات حدث بالتدريج وبطريقة غير مباشرة ،ولم ينص عليه في معاهدات الصلح ، وهذه سنحاول بحثها في فصل آخر . اما هنا فسنبحث النتائج التي اسفر عنها مؤتمر الصلح : أهم تلك النتائج ان المانيا انتزعت منها كل مستعمراتها واقتسمتها الدول المنتصرة ، وان تركيا فقدت معظم أملاكها الأسيوية التي ظلت خاضعة لسلطانها منذ القرن السادس عشر ، وان دولاً شبه قومية تحت حماية بريطانيا وفرنسا تكونت في الجنوب الغربي من آسيا

وانتقلت هذه البلاد الى الدول المنتصرة باتفاقها فيما بينها ، لكنهُ انتقال يختلف عما كان يحدث في الماضي عقب الفتوح والانتصارات . ذلك ان الدول الغالبة انتدبت لتدير هذه الاملاك الجديدة نيابة عن عصبة الامم ، وقبلت اشراف العصبة على هذه الادارة . وقُسمت الانتدابات ثلاثة اقسام مختلفة : اولها الانتداب الخاص بالبلاد التي يرجى أن تصبح دولاً مستقلة قائمة بنفسها على مرّ الزمان ، وهذه هي البلاد التي سلخت من تركيا . وثانيها الخاص بالاقاليم التي يسكنها اقوام معظمهم متأخرون في حاجة الى الوصاية الى أجل غير مسمى ، ومثلها أقاليم افريقية الاستوائية . والنوع الثالث هو الخاص بالاقاليم التي يرجى ان تنضم في يوم من الايام الى الدول المجاورة لها وان تكون مساوية لها في المنزلة ، ومثلها جنوب افريقية الغربي الذي يحتمل أن يصبح في آخر الامر جزءا من افريقية الجنوبية المتحدة

بهذه الطريقة قسمت المستعمرات الالمانية بين فرنسا وبريطانيا العظمى والاملاك البريطانية المستقلة واليابان ، على ان يراعى في حكمها هذه الانواع من الانتداب، فاستولت فرنسا على المستعمرتين الواقعتين في وسط أملاكها الافريقية وهما مستعمرة الكرون (Câmeroon) الواسعة، ومستعمرة توجولندا الصغيرة (Togoland) بعد ان ضمت منهما اجزاء الى مستعمرتي نيجريا (Nigeria) وساحل الذهب (Gold Coast) البريطانيتين

واستولت بريطانيا على اهم مستعمرات المانيا وهي بلاد تنجنيقا (Tanganika) التي يمكن ضمها الى المستعمرات القديمة — كينيا (Kénia) وأوغنده (Uganda) ونيسالند (Nyassaland) — ليتكون منها كلها مستعمرة كبرى في شرق افريقية .واعطيت بلجيكا جزءاً صغيراً من تنجنيقا لتعديل حدود املاكها الواسعة في بلاد الكونغو . وأعطيت استراليا غانة الجديدة (New Guinea) الالمانية وأرخبيل بسمارك (Bismarck) وضمت الجزائر الالمانية

في المحيط الهادي الجنوبي الى زيلندة الجديدة ، بعد ان نزلت لها بريطانيا عن معظم جزائر هذا المحيط . وأخذت اليابان الجزائر الالمانية في المحيط الهادي الشمالي كما اخذت ولاية كيوتشو (Kiao - Chao) الصينية . وكان استيلاء اليابان على كيوتشو مضافاً الى ما انتزعتهُ من الامتيازات في الصين اثناء الحرب نذيراً بجعل اليابان الدولة المسيطرة على تلك البلاد . لكن هذه السيطرة قد نشأ عنها متاعب جمة ادت الى تعديلها فيما بعد

ولم يكن تبديل السيادة على هذه الاملاك ليختلف في معناه عن المساومات الكثيرة التي كانت تحدث بين الدول الاوربية عند ما اقتسمت افريقية وجزائر المحيط الهادي في الجيل السابق للحرب . لكن التغيرات التي حدثت في الدولة التركية كانت اكبر دلالة وأعظم شأناً ، فلقد كانت هذه التغيرات كلها ترمي الى القضاء على السيادة التركية الخربة التي حالت دون تقدم الجزء الجنوبي الغربي من آسيا اربعة قرون كاملة ، والى تحرير الشعوب التي طال عهد خضوعها لنير الاتراك . ولو تمكن واضعو التسوية من نيل بغيتهم لجعلوا تركيا دويلة حقيرة في قلب آسيا الصغرى . ذلك بأن معاهدة سيفر التي قضي عليها في مهدها قررت ان يؤخذ من الترك الاستانة والمضيقان وان يخرج الاتراك من اوربا ، ويحرموا فوق ذلك اخصب بقاع آسيا الصغرى ، وهو جزؤها الغربي الذي كان في وقت ما اغنى ولايات الامبراطورية الرومانية . وقد اعطي هذا الجزء لليونان كما اعطي الطرف الجنوبي الغربي الى ايطاليا التي كانت تسيطر منذ عام ١٩١١ على جزيرة رودس وجزائر الدوديكانيز . ولو تم ذلك لاستحوذت ايطاليا على اقليم غني تستعمره وينزح اليه الزائدون عن سكانها . واريد ايضاً ان تسلخ ارمينيا Armenia الواقعة في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى من جسم الدولة التركية ، وان توضع تحت حماية إحدى الدول الغربية لكي تتاح للارمن فرصة للنهوض والحياة بعد ان كادت تقضي عليهم المذابح المتعددة . لكن اميركا التي عرضت عليها هذه الامانة الثقيلة الشاقة أبت أن تحملها . ثم نهض الاتراك نهضة قوية بقيادة مصطفى كمال باشا فألقوا باليونان في البحر ، وهددوا القوى البريطانية التي كانت مرابطة في جناق لحماية المضيقين ، ومزقوا معاهدة سيفر شر ممزق ، وانتزعوا من سادة اوربا الحاكمين بأمرهم فيها معاهدة اخرى في لوزان عام ١٩٢٣ أبقت لهم كل آسيا الصغرى وجزءاً صغيراً من اوربا

اما بقية البلاد التي كان يمتلكها الاتراك فقد خرجت من ايديهم خروجاً ابديًّا على ما يظهر فمصر التي كان للسلطان عليها سيادة اسمية حتى وقت اعلان الحرب أعلنت عليها الحماية البريطانية في عام ١٩١٤ ، واعترف مؤتمر الصلح بضم هذه البلاد الى الامبراطورية البريطانية مع أن المصريين كانوا يطالبون بالاستقلال الذي نالوه بعد ذلك بزمن قليل . وأما العرب سكان الجزيرة نفسها ، والبدو سكان بادية الشام ، فانهم لم يكونوا في يوم من الايام راضين بحكم الترك ، وكان

معظم أمرهم بيدهم . فلما قامت الحرب ثاروا على الأتراك بزعامة أمير الحجاز وتحريض الكولونل لورنس ذي الشخصية الروائية الغريبة ، وكان لهم شأن كبير في الحروب التي انتهت بطرد الأتراك من بلاد الشام في آخر ادوار الحرب العظمى . وفي الوقت نفسه اخرج الانجليز الترك من بلاد العراق اقدم بلاد العالم مدنية ، وبذلك كان لابد من تنظيم تلك البلاد الواسعة بلاد الشام والعراق وجزيرة العرب فأنشئت فيها خمس دول جديدة :

(١) شمال سوريا وكان من نصيب فرنسا تديره منتدبة عن عصبة الأمم ، وكانت تلك البلاد فيما مضى غنية ذات رخاء وفيها مدن انطاكية وحلب وصور القديمة وبيروت الحديثة ، وكان الغرض من الانتداب أن تعد هذه البلاد لحكم نفسها بنفسها

(٢) أرض فلسطين المقدسة الصغيرة وقد جعلت وطناً قومياً لليهود تحت حماية بريطانيا تديرها بالنيابة عن العصبة . وكانت مهمة التوفيق بين مطالب اليهود المهاجرين الى تلك البلاد المهملة ، ومطالب العرب سكانها الأصليين مهمة شاقة للغاية . لقد حاول مؤتمر الصلح فيما حاول أن يصلح أغلاط الماضي وأن يحيي الآمال والذكريات القديمة ، فأعاد الى الوجود مثلاً دولة بولندة ، وأحيا تقاليد بوهيميا القديمة ، ولكن أغرب ما حاوله وأقربهُ الى الروايات الخيالية مشروع اعادة اليهود الى وطنهم القديم، الذي كانوا يسكنونهُ منذ ألفي عام

(٣) وأنشئت في بلاد الجزيرة القديمة ، أرض أور وكلديا وبابل ونينوى ، مملكة العراق الجديدة تحت حماية بريطانيا منتدبة عن العصبة ، وأجلس على عرشها أحد أبناء ملك الحجاز . فهل يستطاع بعث حضارة حية في البلاد التي أشرقت منها شمس الحضارة على العالم في الزمن القديم والتي ظلت مهملة عدة قرون ؟ ذلك لا يكون الاَّ اذا قامت في تلك البلاد حكومة ثابتة قوية

(٤) وأنشئت حماية بريطانية أخرى في الاراضي الصحراوية الواقعة في شرق نهر الاردن وسميت بلاد « شرق الاردن » ، وأقيم حاكماً عليها أمير آخر من بيت الحجاز المالك

(٥) أما جزيرة العرب الواسعة التي يتكون معظمها من صحار قاحلة فقد تركت وشأنها تحت حكم ملك الحجاز ، ولكن ذلك الحكم كان قصير الاجل

وهكذا حاول مؤتمر الصلح ان ينشيء طائفة من الدول في بلاد الاسلام الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا ، وان يصلح ما افسدتهُ الفتوح التركية منذ عهد طويل . وتلك ناحية طريفة من نواحي التسوية التي قام بها مؤتمر الصلح ، لانها اتاحت للعالم الاسلامي ، فرصة تدعيم بنائه والاضطلاع بمهمته في العالم الحديث ، ولانها تناقض الخطة التي سارت عليها دول أوربا طوال القرن التاسع عشر ، خطة اخضاع الشعوب الاسلامية الى الامم المستعمرة الغربية، فهل تنجح هذه السياسة الجديدة ؟ ذلك امر في ذمة المستقبل

اوستن تشمبرلين

ان حياة السر اوستن تشمبرلين ، وحياة شقيقه من ابيه المستر نفيل تشمبرلين وزير المالية البريطانية الحالي ، وخلف المستر بولدوين المتوقع ، مثل آخر من امثلة متعددة في تاريخ بريطانيا السياسي ، على توارث العبقرية السياسية في أسر معينة . ولعل اشهر الامثلة على ذلك الوزيران بت الكبير وبت الصغير، ولورد راندولف تشرتشل وابنه ونستن تشرتشل، وجوزيف تشمبرلين وابناه اوستن ونفيل

نعم ان في البرلمان الحالي ، المستر لويد جورج وابنه وابنته ، وبولدوين وابنه ، ومكدونلد وابنه ولكن الابناء — ماعدا ابن مكدونلد وهو وزير الدومنيون الآن — لم يبلغوا من المقام بعد ما يبعث على القول بانهم ورثوا عبقرية آبائهم .

***

ولد اوستن تشمبرلين في سنة ١٨٦٣ فكان عند وفاته في الرابعة والسبعين من عمره ، وتلقى العلم في مدرسة رجبي ثم في كلية ترينتي بجامعة كمبردج وانتخب عضواً في البرلمان سنة ١٨٩٢ عن مقاطعة وسترشير الشرقية

كان الانتخاب العام في تلك السنة قد أسفر عن فوز غلادستون وحزبه ، ولكن اكثريته كانت يسيرة ومضعضعة ، فرأى المحافظون ان يجمعوا جموعهم ويعقدوا تحالفاً مع العناصر المؤيدة لهم في البلاد او في البرلمان . وجلس اوستن على المقاعد التي كان يجلس عليها والده ، اذ كان لايزال في عز نشاطه السياسي ، ويقال ان ذلك كان في غير مصلحة الابن الشاب ،لانه جلس في البرلمان ، وكأنه جالس في ظل مخيم عليه ، لان اسم ابيه كان ملء الأفواه والاسماع حينئذٍ

ثم اتيح للعضو الجديد — اي اوستن تشمبرلين — ان يلقي خطبته الاولى ، فكانت بارعة في مادتها واسلوبها ، فوجهت اليه الانظار ، فاثنى عليه غلادستون ، واغتبط به والده اي اغتباط

وفي سنة ١٨٩٥ عين اوستن لورد البحرية المدني ، ثم نقل سكرتيراً ماليًّا للخزانة . وفي سنة ١٩٠٢ عين وزيراً للبريد

وعندئذ وقع ما كان متوقعاً . ذلك ان جوزيف تشمبرلين ، والد اوستن ، انفصل عن الحكومة ، لانهُ كان يرغب في ان يكون مطلق اليدين في الدعاية الى التفضيل الامبراطوري — اي فرض ضرائب على الوارد الى بريطانيا ، وجعل الضرائب على الوارد اليها من الامبراطورية اقل من الضرائب المفروضة على الوارد اليها من سائر البلدان . وخرج كذلك المستر رتشي فعين اوستن تشمبرلين في وزارة المالية وهو يناهز الاربعين من العمر . وقيل حينئذ انهُ عين في هذا المنصب ، لكي يكون تعينهُ بمثابة قيد للدعاية التي يبثها والده والحملات التي يحملها على الحكومة لان البلاد الانكليزية حينئذ لم تكن مستعدة للاخذ بخطة التفضيل الامبراطوري

فكان تعينهُ في ذلك المنصب العالي ، وهو عادة سبيل الى رآسة الوزارة ، وكونه ابن أبيهِ ، من العراقيل التي انبثت في سبيله . ولكن أوستن تغلب عليها لانهُ كان قوي العقل والخلق ، فتعلم جميع الذين اتصلوا بهِ ان يحترموه ، حتى أصبح في عرف الجميع أحد قطبين أو ثلاثة اقطاب في حزب المحافظين ، تلوح لهم زعامة الحزب ورآسة الوزراء ، عن قرب ، اذا حدث ما أخلى لهم منصب الزعامة والرآسة

فلما أتيحت الفرصة ، فضل أوستن تشمبرلين وحدة الحزب ، على النزاع في صفوفه لانقسامه بينهُ وبين ولتر لونغ ، وتخلى عن منصب الزعامة والرآسة لآخر هو المستر بونارلو ، سلف المستر بولدوين

***

وكانت الحكومة البريطانية قبيل الحرب في أيدي الاحرار وفي بدايتها ، فلما استقال اسكويث في أثناء الحرب، وأراد لويد جورج ان يؤلف وزارة مؤتلفة ، ودعى المحافظون الى الاشتراك فيها ، عاد أوستن تشمبرلين الى الوزارة ، كوزير لا كزعيم لفريق المحافظين وتقلد وزارة الهند ، وهي وزارة دون وزارة المالية التي سبق لهُ تقلدها ، وقلما يكثر الراغبون فيها . ولكنهُ استقال في يوليو سنة ١٩١٧ لخطإٍ ارتكب بغير علمهِ في الجيش البريطاني بالعراق فكانت استقالته، ودفاعه عن رجال وزارته في البرلمان من بواعث الاعجاب والاجلال ، التي اتجه بهما مواطنوه اليهِ ، اذ رأوا في تصرفه تلك الصفة التي يقدسها الانكليز في رجال السياسة عندهم وهي قائمة على الإيثار واختيار الطريق الشريف وسلوكه

وأعيد الى الوزارة وجعل عضواً في المجلس الحربي سنة ١٩١٨ ثم في يناير سنة ١٩١٩ جعل ثانية وزيراً للمالية ، فلما انفصل المحافظون عن وزارة لويد جورج المؤتلفة سنة ١٩٢١ ، ومرض

بونارلو زعيم المحافظين حينئذ ، ظن جميع الكتاب السياسيين ان الزعامة والرآسة لهُ لا ينازعه فيها منازع

ولكن المستر بولدوين اختير خلفاً لبونار لو زعيماً للمحافظين لان تشمبرلين كان لا يزال مقتنعاً بوجوب الابقاء على الائتلاف . وتقلد بولدوين رآسة الوزارة فلم يكن تشمبرلين من اعضائها ولكن عند ما الف وزارتهُ الثانية في اواخر سنة ١٩٢٤ عين أوستن تشمبرلين وزيراً للخارجية

وفي اثناء تقلده لهذه الوزارة اشترك مع السياسي الفرنسي بريان والسياسي الالماني شترزمان في عقد معاهدة لوكارنو المشهورة ، واهم قواعدها ضمان ايطاليا وانكلترا للحدود الفاصلة بين المانيا من جهة وفرنسا وبلجيكا من جهة اخرى بحيث تتجد الدولتان الضامنتان الدولة المعتدى عليها على جانبي هذه الحدود

وقد كان من اثر هذه المعاهدة ان اوربا اخلدت الى فترة من الطأنينة والسلام ولولا الازمة الاقتصادية الدولية وما جرته في آثارها من الانقلابات السياسية لكانت اوربا جنت ثمار هذه الطأنينة

ولذلك منح اوستن تشمبرلين بالاشتراك مع بريان وشترزمان جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٢٥

وبعد تخليه عن وزارة الخارجية في آخر وزارة بولدوين الثانية ، لم يعد الى تقلد المناصب الوزارية ، الاّ وزارة البحرية فترة قصيرة من اغسطس الى اكتوبر سنة ١٩٣١ في الوزارة القومية الاولى ، ولكنهُ ظل عضواً في البرلمان ، ينظر اليه كشيخ من شيوخ السياسة ، الذين يسمع رأيهم في المشكلات الخارجية خاصة ، بما هو جدير به من الاجلال والاحترام وقد كان صوته الذي ارتفع في آخر سنة ١٩٣٥ ضد الاتفاق الذي وضعه السر صموئيل هور والمسيو لافال من البواعث القوية ، على امتعاض الامة الانكليزية من ذلك الاتفاق اشد امتعاض وافضى الى استقالة السر صموئيل هور

وقيل حينئذ ان السر اوستن تشمبرلين قد يعود الى وزارة الخارجية ، لان وجوده فيها ، يبعث على الاحترام والثقة ، ولكنهُ اراد ان يفسح المجال لمن كان اصغر منهُ سنًّا فعين المستر ايدن وزيراً للخارجية وهو الذي رباه اوستن تشمبرلين ، وتعهده عندما كان ايدن سكرتيراً خاصًّا فبرلمانيًّا له في وزارة الخارجية

***

فبوفاة السر اوستن تشمبرلين ، خسرت بريطانيا شيخاً من شيوخها السياسيين ، كانت حياته مثالاً بليغاً على اعلى التقاليد المتبعة في الحياة العامة فيها

باب الأخبار العلمية

الاقتصاد الموجه في مصر

خطبة الرآسة لعبد الوهاب باشا
في المجمع المصري للثقافة العلمية

اصبح المؤتمر السنوي الذي يعقده المجمع المصري للثقافة العلمية وقد بات محطًّا لانظار فريق كبير من رجالات مصر واهل العلم والفضل فيها لما تبينوه في مؤتمراته السابقة من محاضرات نفيسة النفاسة كلها في شتى العلوم ما كان منها خاصًّا بالقطر المصري وما كان عالميًّا لا يقتصر على بلاد دون اخرى

لذلك امَّ دار الجمعية الملكية للحشرات مساء ١٩ مارس الماضي جمهور مختار من المصريين والمصريات يتقدمهم الدكتور احمد ماهر رئيس مجلس النواب وكامل ابراهيم بك وزير الزراعة السابق ومحمود صدقي باشا محافظ العاصمة سابقاً واعضاء المجمع وكلهم صاحب منصب كبير علاوة على ما اشتهر به من الفضل والعلم

وفي الساعة السابعة ارتقى المنبر الدكتور فارس نمر باشا رئيس المجمع في دورته الماضية فالقى كلمة الافتتاح مقترحاً فيها السعي في سبيل الجمع بين جهود المجمع المصري للثقافة العلمية والمجمع الملكي للغة العربية جمعاً تفيد منهُ اللغة العربية العلمية سعة وليناً ونضارة ثم قدم خلفهُ في الرآسة حضرة صاحب السعادة احمد عبد الوهاب باشا رئيس المجمع المنتخب لدورتهِ الثامنة وكان الدكتور نمر باشا تذكر المثل الاميركي « ان صوت اعمالك يصم اذني فلا اسمع ما تقول » فقال ان اعمال عبد الوهاب باشا تغنيهِ عن كل تعريف

***

وارتقى عبد الوهاب باشا المنبر فاقترح في مستهل خطبتهِ وقف الجلسة بضع دقائق لذكرى المغفور له الدكتور شاهين باشا رئيس المجمع سابقاً ثم شرع بعد ذلك في القاء محاضرتهِ وكان موضوعها « بعض مظاهر الاقتصاد الموجه في مصر في السنين الاخيرة »

ويمكن ان تقسم محاضرة سعادتهِ الى اربعة اقسام بوجه عام . اما في قسمها الاول فقد عرف المحاضر الاقتصاد الحر او المرسل وهو القائم على نظريات الاقتصاد المتبعة في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين اي امتناع الحكومة عن التدخل في اعمال الافراد والجماعات الاقتصادية . والاقتصاد الموجه او المسيَّر وهو

الاقتصاد الذي تتدخل فيه الحكومات في اعمال الافراد والجماعات الاقتصادية فتفرض عليها قيوداً وتعين لها حدوداً تختلف باختلاف البلاد وما تحتاج اليه

اما القسم الثاني فكان ضرب المثل على هذا الاقتصاد الموجه بمصر في الاتفاق الذي عقد بين الحكومة وشركة السكر . وقد اسهب سعادة المحاضر في وصفه وتبيان قواعده ونتائجه ليغنيه عن الاسهاب في الامثلة الاخرى التي ضربها في القسم الثالث من محاضرته

ومما قاله في هذا الصدد ان هذا الاتفاق من الامثلة على نجاح الاقتصاد الموجه نجاحاً عظيماً في تحقيق الاغراض التي يتجه اليها . واتفاق السكر مثل على الاقتصاد الموجه في دولة بعينها ولكن بذلت مساع لتطبيق قواعد الاقتصاد الموجه على انتاج السكر وتجارته تطبيقاً يكون دوليًّا في شموله

وكان القسم الثالث تعديداً للمساعي التي بذلتها الحكومة في توجيه الاقتصاد في مصر في ما يتعلق بالحبوب والقطن والذهب وغيرها . وبين في كل منها بواعث النجاح اذا نجحت وبواعث الاخفاق كله او بعضه اذا اخفقت

وقد وقف القسم الاخير من محاضرته على موازنة بين الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجه في حالة العالم الحاضرة وهل في الامكان العودة الى الاقتصاد الحر ورأيهُ ان العودة الى الاقتصاد الحرّ اطلاقاً امر متعذر لان اعتماد الدول المختلفة على الاقتصاد الموجه وقيام حياتها الاقتصادية على قواعده يفضي ولا ريب الى تقلقل واضطراب في حياتها الاجتماعية والاقتصادية اذا عادت فجأة الى الاقتصاد الحر . ولكنهُ يرى ان العودة الى الاقتصاد الحر نسبيًّا ممكن بل ولازم لان القومية الاقتصادية كانت من اهم بواعث الجفاء السياسي فتخفيف سورتها في مصلحة امم العالم جميعاً

ومن محاسن الاتفاق ان مؤتمر لاهاي الذي عقدته دول كتلة اوسلو انفضّ من ايام بعد ما وصل الى قرار شبيه برأي عبد الوهاب باشا

ادورد نكولي

فجعت جامعة بيروت الاميركية في كبير من كبار اساتذتها بوفاة الدكتور ادورد نكولي عميد كلية الآداب فيها واستاذ علم الاقتصاد بعد ان قضى ما ينيف على ثلث قرن يعلم الشبان والشابات ويثقف عقولهم بالدروس التي كان يدرسها وبالمثل الذي كان يضربه

كان الاستاذ نكولي مشهوراً بين طلبة الجامعة الاميركية بانهُ بمثابة شقيق اكبر لطلبته يرجعون اليه في مشكلاتهم الخاصة فيعينهم على حلها بعطف الاب ولطف الصديق وخبرة الفيلسوف العملي وقد نشأت هذه الصلة بينهُ وبين طلبته من معاملتهم في الدروس التي كانوا يدرسونها عليه معاملة الرجال فيعين لهم الموضوعات التي يجب ان يعالجوها ويبين لهم

المراجع التي يصح الرجوع اليها معتمداً على ان من يبغي العلم يجب ان يكون لهُ من نفسه باعث يبعثه على التحصيل . فقد درَّس العميد الراحل كاتب هذه السطور «القانون الدولي» فكانت حصص الدراسة اشبه شيء بمنبر عام لشؤون الدول وما يطبق عليها من القواعد للسياسة فيهِ نصيب وللتاريخ نصيب ولفعال الاقطاب نصيب . فحبيت الينا جميعاً دراسة بث فيها الحياة بما أنشأه من الصلة بينها وبين حوادث الايام وكانت الحرب العالمية على اشدّها حينئذٍ. وكذلك كان في الاقتصاد وعلم السياسة المقابل

***

وكان اعتماده في التحصيل على الفهم لا على الحفظ . ومن مبتدعاته في هذا الباب انهُ كان يلصق أسئلة الامتحان في دفتر فيكتب الطلبة اجوبتهم في صفحاته فيصححها ويعيدها اليهم . ثم يأتي امتحان آخر فيضع اسئلة جديدة في الدفتر نفسه . ثم يجيء الامتحان النهائي فيضع اسئلة في الدفتر نفسه ، وقد تكون بعض اجوبتها مطوية في ثنايا اجوبة الامتحانات السابقة . والاجوبة المكتوبة في الدفتر متاحة للطالب ولكن ذلك لم يفزعه لانهُ اذا كان عقل الطالب قد فهم الموضوع فاستخراج الحقائق من اجوبة سابقة او من مراجع مطبوعة يجب ان يكون دليلاً على فهمهِ . ولم يكن بالنادر ان يعطينا الاسئلة في المكتبة ويبيح لنا الرجوع الى ما نريد من المراجع فيها

ولد الفقيد في سنة ١٨٧٣ وتخرج من جامعة ايلينوي عام ١٨٩٨ واحرز لقب استاذ في العلوم من الجامعة نفسها سنة ١٩١٥ ثم رتبة دكتور في الفلسفة سنة ١٩٣٢

ان رجلاً يبقى معنيًّا بالتحصيل ومتابعة الدرس المنظم بعد ان يبلغ منصب الاستاذ المكرم وبعد ان يناهز الستين من العمر فيتقدم لشهادة الدكتوراه وهو في التاسعة والخمسين لخليق بأن يكون مثلاً حيًّا لطلبته وجميع الذين يتصلون بهِ

جاء جامعة بيروت سنة ١٩٠٠ مدرساً ، ثم عين عميداً لكلية التجارة فظل في ذلك ١٨ سنة ثم تولى رآسة الجامعة بالنيابة ، بعد وفاة الرئيس هوارد بلس سنة ١٩١٩ وكان في مقدمة المرشحين ليكون رئيساً اصيلاً فلما انتخب الرئيس الحالي انضوى تحت لوائهِ وخدم الرئيس والجامعة بكل ما اوتيه من علم وخبرة

***

وكان الاستاذ نكولي من الرجال القلائل الذين جمعوا بين التحصيل العلمي العالي والقدرة الادارية الممتازة ، فكان في خلال قيامه باعباء الرآسة ، وعمادة كلية التجارة اولاً ثم عمادة الآداب والعلوم اخيراً ، يدرس الاقتصاد ويشترك في الالعاب الرياضية التي يمارسها الاساتذة والمدرسون ، فكانت حياته مثالاً يحتذى في النشاط المنظم رحمة الله عليهِ

نكبة الفيضان الاميركي

بواعثها وطرق اتقائها

نكبة الفيضان في اميركا التي اشتدت في فبراير الماضي من اكبر ما عرف من قبيلها في تاريخ اميركا الحديث والاصل في نكبة الفيضان هذه نهر أوهايو وهو احد روافد نهر المسيسبي المشهور

ان نهر اوهايو هذا ليس بالنهر الصغير فطوله يبلغ ١٢٠٠ ميل والحوض الذي تتجمع مياهه فيه يشمل منطقة من أغنى مناطق الولايات المتحدة الاميركية واكثرها ازدحاماً بالسكان ومساحتها تفوق مساحة انكلترا والمانيا معاً

وهو يفيض عادة كل ربيع فتتدافع امواهه في طريقها الى نهر المسيسبي عند ما يبدأ مطر الربيع في إذابة الثلوج المتكدسة على قنن جبال ابالاشيه واسنادها. في العهد القديم عندما كانت هذه المنطقة الواسعة قليلة السكان كان فيضان هذا النهر العادي لا يحدث ضرراً كبيراً ولا سيما بعد ما يبلغ اعلاه ويفرغ ماءه في المسيسبي. ولكن منذ ازدحمت هذه المنطقة بالسكان واقيمت على ضفات النهر المدن والمزارع اصبح الضرر الذي يحدثهُ عندما يفوق الفيضان مستواه السوي كبيراً جدًّا. وقد افضى السعي الى حصر مائه بالجسور الى زيادة مدى النكبة على ضفات المسيسبي

ويقدر المهندسون ان قدراً من الماء يبلغ مليون قدم مكعبة تفرغ كل ثانية من نهر الاوهايو في نهر المسيسبي. ويجب ألاَّ ننسى ان روافد اخرى تفرغ ماءها في المسيسبي. ولو كان فيضان هذه الروافد في فترات متفاوتة لسهل على المسيسبي ان يتلقى هذه المياه ويصرفها في مجراه من دون ان يفيض فيضاناً كبيراً. ولكن فيضانها في الغالب يجيء في وقت واحد تقريباً واكبرها فيضان نهر الاوهايو فيعجز مجرى المسيسبي عن الاتساع لها كلها فيفيض على جوانبه ويحطم الجسور ويطغى على المدن والقرى والمزارع

والظاهر ان فيضانات المسيسبي الكبيرة تحدث مرة كل ١٣ سنة. وآخر فيضان من قبيل الفيضان الحالي حدث من عشر سنوات

ان الطريقة الظاهرة للسيطرة على هذه الفيضانات هي بناء الجسور على ضفات هذه الانهر. ولكن المشكلة في ذلك ان العمل يجب ان يكون شاملاً تتولاه سلطة عالية موحدة لا سلطات مختلفة في ولايات متجاورة. وسبب ذلك ان بناء الجسور في اعلى النهر لحماية مدينة من المدن يزيد الخطر الذي تتعرض له المدن التي تأتي بعدها. فاذا اكتفي بجسر علوه ٢٠ قدماً وعرضهُ ٢٠ قدماً مثلاً امام مدينة تبعد الف ميل على مصب النهر فيجب ان تكون الجسور اعلى كثيراً واعرض كثيراً امام مدينة تبعد ٥٠٠ ميل فقط عن المصب

وقد كانت هذه الاعمال في الماضي تتم في

كل مدينة ومنطقة بمعزل عن غيرها فالمدينة البعيدة عن المصب كانت تبني ما تحتاج اليهِ من الجسور بصرف النظر عن زيادة الخطر الذي تتعرض لهُ المدينة التي تليها

وهناك اقتراح آخر للسيطرة على هذا النهر وهو بناء أحواض كبيرة أشبه بحيرات يجمع فيها جانب كبير من الماء الفائض ثم تستعمل في توليد الطاقة الكهربائية وأعمال أخرى وهذه هي الطريقة المثلى على ما يظهر ولكن نفقاتها كبيرة . واظهر مثال عليها خزانات « مصل شولس » التي بنيت على نهر التنيسي وهو أحد روافد نهر الاوهايو

ولذلك قيل ان حكومة الاتحاد الاميركي تطلب الف مليون جنيه لتنفقها في خلال السنوات الست القادمة على مثل هذه الاعمال اتقاء لمخاطر الفيضان واضراره

الكيمياء الزراعية

تمهد السبيل للفوز بمحصولات عجيبة

من الميادين الجديدة التي تشترك فيها علوم الكيمياء والزراعة زرع النباتات في الماء لا التربة اذ يضاف الى الماء العناصر الحيوية المختلفة التي تحتاج اليها النباتات في نموها

وقد زرعت نباتات الطماطم على هذا النحو فكان محصولها مما لا يصدق بالقياس الى محصولها عند زرعها في التراب . فنبات الطماطم أولاً علا في نموه عند زرعه في الماء الى اضعاف ما يبلغهُ من العلو عند زرعه في التراب حتى لقد اضطر قاطفو الثمر ان يستعملوا السلالم لقطف الثمر من أعاليهِ . وبلغ متوسط المحصول من نبات يزرع في حوض من الماء مساحة سطحه فدان ٢١٧ طناً ويقابل ذلك ان محصول النبات المزروع في ما مساحته فدان من الارض خمسة أطنان فقط

أما محصول نبات البطاطس في الاحوال عينها تقريباً فبلغ ٢٤٦٥ بشلاً في ما مساحتهُ فدان من الماء مقابل ١١٦ بشلاً في ما مساحته فدان من الارض

وقد بلغ نبات التبغ (الدخان) ٢٢ قدماً من الارتفاع

ومن هذا القبيل المحصولات التي جنيت من زراعة البنجر والجزر وغيرهما في الماء

***

وقد ابتدع هذه الطريقة وقواعدها الدكتور جريك الاستاذ المساعد لفسيولوجية النبات في جامعة كاليفورنيا بعد مباحث استغرقت السنوات السبع الاخيرة . وأساسها استعمال الماء الفاتر واضافة العناصر اللازمة لنمو النبات اليهِ ويحتفظ بحرارة الماء بواسطة سلك وهو الغالب او بطرق اخرى . وحرارة الماء على الاكثر تختلف من ٢٢ درجة بميزان سنتغراد الى نحو ٣٠ درجة بالميزان نفسه

البيتسكوب

آلة مبصرة جديدة عجيبة

البطاريات الكهرنورية تعرف بالكلام المألوف في اللغة الانكليزية باسم « العيون الكهربائية » هي على الغالب اجهزة يتحول فيها الضوء الى تيار كهربائي ويكون التيار خفيفاً او قوياً وفقاً لقوة الضوء الواقع عليها او قوته

وقد استعملت لاغراض متعددة متباينة . فوضعت في المعامل مثلاً بحيث اذا ضعف نور النهار سواء أكان ذلك عند الظهر ام قبيل الغروب حتى اصبح غير كاف لقيام العمال باعمالهم تأثرت بذلك هذه « العيون العجيبة » فتنير المصابيح الكهربائية من تلقاء نفسها بجهاز خاص متصل بها . ووضعت في بعض المدارس كذلك لهذا الغرض نفسهِ اي لانارة المصابيح عندما يضعف النور بسبب الغيم المتلبد اوقرب الغروب ويصبح من الضار بعيون التلاميذ المطالعة في ذلك الضوء الضعيف

* * *

وأحدث اختراع قائم على هذه « العين العجيبة » جهاز يدعى « بيتسكوب » اخترعهُ رجل اميركي يدعى آلان فتزجرالد . وهذا الاسم — اي اسم الجهاز — مركب من كلمتين يونانيتين معناها « مبصر الاجسام الطائرة » اي ان هذا الجهاز الجديد يستطيع ان يتبين حركة الاجسام عن بعد

تصور حيواناً جاثماً على غصن شجرة . انه يراك وانت لا تراه ما زال ساكناً لا يتحرك فاذا تحرك ادركت وجوده . كذلك البيتسكوب فانه لا يتبين جسماً من الاجسام ما زال ذلك الجسم ساكناً. فاذا تحرك وكانت حركته في مجال العين الكهربائية ادركت ذلك ودونتهُ اودلت عليهِ

خذ مثلاً على ذلك مافعله المستنبط في مطار. فانه اتفق مع فريق من الطيارين ان يحلقوا بطائراتهم لكي يمتحن المدى الذي يستطيع جهازه ان يتبين هذه الطائرات فظهر انه عند ما تبدو الطائرات في مجال النظر على علو الفي قدم او ثلاث آلاف قدم يتأثر هذا الجهاز بحركتها فيقرع جرساً

قال فتزجرالد : ولو كنا في حالة حرب لكان استعمال هذا الجهاز من افضل الوسائل للانذار بهجوم جوي

*

حرارة الشمس

تبلغ درجة الحرارة في مصباح غاز الاسيتيلين ستة آلاف درجة بمقياس سنتغراد . أما درجة الحرارة في قلب الشمس فتبلغ أربعين ألف درجة بمقياس سنتغراد . فاذا أخذ من قلب الشمس لهب حجمه كحجم اللهب في مصباح الاسيتيلين ووضع في مدينة شيكاغو كانت حرارته كافية لصهر كل بناية وحرق كل حرج وحقل وابادة الحياة في قارة أميركا الشمالية

هذا على الاقل هو تقدير الدكتور كلايد فيشر أمين القسم الفلكي في متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك

مكتبة المقتطف

تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

س . د . ف . جويتين S.D.F. Goitein — انساب الاشراف للبلاذري — طبع لاول مرة بهمة مدرسة العلوم الشرقية بالجامعة العبرية — أورشليم ١٩٣٦ — ٢٧ ص مقدمة باللغة العبرية و ٣٢ ص مقدمة باللغة الانكليزية و ٤٣٩ ص للنص العربي و ٩٤ ص تعليقات — ٢٧ ½ × ٢٠ ½

ان هذا لسفراً نفيساً كان مطوياً فنشر . والبلاذري غني عن التعريف فهو صاحب « فتوح البلدان » . والظاهر ان الرجل كان أبعد صيتاً بكتابه « انساب الاشراف » . ولفظة الاشراف هنا بالمعنى الجاهلي لا الاسلامي أي انها تفيد تلك الطائفة من العرب ذوي النسب الصحيح والجاه العريض الذين كان يجري عليهم من الديوان كذا وكذا من الدراهم . ويشتمل كتاب البلاذري — كما يقول الناشر (ص ٣) — « على تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم الى القرن العباسي الاول ولكنه لم يرتب على سني الهجرة بل اتبع ترتيبه انساب قبائل العرب فاذا عرض ذكر رجل نابه في قومه أتى بخبره ونكتته المستجادة وما قيل فيه من الشعر أو بطائفة من شعره ان كان شاعراً . واذا جاء ذكر خليفةٍ من الخلفاء لم يقتصر على وصف سيرته بل أحيط بحوادث وقته »

واقتصر الناشر على طبع السفر الخامس من هذا الكتاب . وفيه تاريخ الخليفة عثمان بن عفان ورهطه ومروان وأهله واخبار ابن الزبير ايام مروان وعبد الملك . ثم انه عمل لهذا السفر مقدمة علمية بحث فيها عن اختلاف جمهور العلماء في عنوان الكتاب ثم عن مضمونه ومدى مشموله ثم عن خاصيته بما انه كتاب أدب وعلم . وهنا بسط طريقة البلاذري في الرواية فرأى من آساسها الامانة والعدالة والدقة ثم استعمال « الاختصار » من ناحية وسرد الروايات المختلفة باسانيدها على أسلوب المحدثين من ناحية أخرى . ثم ذكر من أستند الى هذا الكتاب فذكر ممن ذكر ابن عساكر وابن خلكان والزبيدي والمسعودي وابن الاثير . ثم وصف المخطوطة التي اعتمد عليها .

وقد كان اعتماد الناشر على مخطوطة واحدة مخزونة في الاستانة مشحونة بالاخطاء على قوله فاضطر الى ان يرجع الى مصادر أخرى يعارضها بها ليظفر بالنص الصحيح . والحق ان النشر جاء على أتم وجه من حيث الطبع . واما ضبط الالفاظ واصطفاء الروايات ففي [illegible] بعد الحين نظر . مثال ذلك :

ص ٥، س ١٩، في النص «فجيء بهما فانهما لحماران فقال...» والوجه الاقرب « ... فانهما لماران . . . »

ص ١٠٤ ، س ١١، في النص

« الا تتوبوا الى الرحمن تعترفوا بغارةِ عصبٍ من خلفها عصبُ »

والصواب « ... عُصبٌ من خلفها عُصبُ »

ص ١١٥ ، س ١٧ « ... ودرَّ قرن الشارق » والصواب « وذَرَّ: . . »

ص ١١٥ ، س ١٨ « . . . ضخيم الوسائع » والصواب « ضخم . . . »

ص ١٣٧ ، س ١٨

«ولا تتركنّي بالحشاشة انني أكرُّ اذا ما الناس مثلك أحجما »

والوجه « ... اذا ما النكس ... » (راجع لسان العرب مادة ن وف . نبهني الى هذا الصديق الاستاذ محمود محمد شاكر)

ولم يفت الناشر ان يعمل لهذا السفر فهارس لاسماء الاعلام والقبائل والامكنة والامم . وعسى ان يمضي في طريقه فيحرج الينا بالاسفار الاخرى ولاسيما السفر الموقوف على الجاهلية لقلة ما بين ايدينا من النصوص الراجعة اليها

R. Blachère—Un poète Arabe au IVe Siècle de l'Hégire: Abou-t-Tayyib Al-Motanabbî (Essai d'histoire littéraire—Edit. Adrien—Maisonneuve, Paris 1935)

ر . بلاشير — شاعر عربي في القرن الرابع للهجرة : ابو الطيب المتنبي

(في النقد الادبي) ٣٦٦ ص ٢٥ × ١٦

قد كثرت التآليف في المتنبي هذه الأيام لمرور الف سنة على وفاته ولم يكن النهوض بذكر فضل المتنبي مقتصراً على أبناء العربية فهؤلاء علماء الفرنجة المستشرقون وفوا أبا الطيب حقه من العناية . ولعل أوفى بحث في ابي الطيب هذا الكتاب الذي انقده . فقد جمع صاحبه (وهو من اساتذة مدرسة اللغات الشرقية في باريس) ما تشتت من الاخبار واستقصى المسائل الأدبية والتاريخية ومحصها جميعاً تمحيص عالم بصير بأسلوب البحث المستقيم

أما سعة اطلاع المؤلف فيدل عليها تلك المراجع المثبتة في مستهل الكتاب وفي الهوامش . وأما دقة بحثه فيشف عنها طريقته في الفحص فمن مقدمات لاحقة بالحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية والدينية ومن تحفظ في قبول الاخبار ومن عناية بغربلة الاسانيد ومن بعد نظر في درس البيان الشعري

وما أظن المؤلف ترك شيئاً الا نشره ، فلقد تحدث عن الخلافة العباسية والكوفة خاصة أيام نشأة المتنبي ثم عن حياة الرجل على تقلباتها وعن آثاره بأنواعها ثم عن رواج ديوانه في الامم الناطقة باللغة العربية ومنزلته عند المستشرقين

ومما يذكر أن المؤلف جاء بآراء حديثة ودفع اخباراً متعارفة عن المتنبي . فالفضل راجع اليه في تقديم حكاية نبوة المتنبي بالاشارة الى هيجانه القرمطي وفي تعليل رواج ديوانه ببسط ما فيه من الخصائص مثل بدوية شعره وجزالته وايجازه وحكمته

وطرافة المؤلف انه نظر الى شعر المتنبي بعيني اوربي (انظر الخاتمة ص ٣٤٢ وما يليها) فلم يعتز بما يضطرب فيه من الوان البيان والبديع ولم يستسلم الى حلاوة اللفظ ولا جزالته فجرد شعر أبي الطيب مما يبسط على أعين قراء العربية غشاء او بعض غشاء

ومما يؤخذ على هذا الكتاب النفيس (١) ان صاحبه أخذ ينظر الى شعر المتنبي بعيني اوربي بطريقة انتظامية Systématiquement حتى انه اتى على احساسه . وما ادري هل يلزم العلم والباحث في الادب ان يرتد ناقداً مقعد الحس ؟ أما يظل الادب أدباً وان سلط عليه مسبر البحث

وهنالك مأخذ آخر: قصته ان المؤلف لما جعل يبسط آراء أدباء العربية في المتنبي ص ٣٠٥ وما يليها لم يحسن الانتقاء فتراه يجمع بين فؤاد افرام البستاني ومحمد كمال حلمي والعقاد والمازني والشيخ محمد الاسمر ، ذلك ان المؤلف انما يرى أدباءنا عن بعد

واني لأود ان اختم الكلام دون ان انبه الى بعض سقطات في ترجمة طائفة من ابيات المتنبي ومنها

١ — النص العربي:

نور تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

ترجمة البيت الاول En toi est une clarté dont rayonne l'être divin...

والصواب عندي Une clarté (أي ما تقدم) dont la divinité apparaît en toi

٢ — النص العربي :

يا ليت بي ضربة اتيح لها كما اتيحت له محمدها

اثر فيها وفي الحديد وما أثر في وجهه مهندها

ترجمة البيت الثاني Mohammad a honoré ce coup, ainsi que le fer qui le porta

والصواب عندي Mohammad a ébranlé la force du coup ainsi que la violence du fer, par sa majesté, son prestige etc.

(١) الذي انتفع به الدكتور طه حسين في تأليف كتابه «مع المتنبي» مصر ١٩٣٧

Louis Massignon et Paul Kraus—Akhbâr al-Hallâj—Editions Larose.
Imprimerie "Au Calame", Paris 1936

لويس ماسينيون وپول كراوس — اخبار الحلاج — ١٤١ ص(فرنسية) و ١١٢ص (عربية) . ٢٥×١٦

قد سبق لي ان تحدثت عن ذلك الكتاب الضخم الذي الفه الاستاذ ماسينيون في الحسين بن منصور الحلاج المتصوف فكشف به غطاء عريضاً عن تاريخ التصوف في الاســلام . وقد واصل الاستاذ ماسينيون دراسته للحلاج فما انفك ينشر نصوصا له أو عنه . وهـذا سفر جديد فيه طائفة من أخبار ذلك المتصوف المنكوب . وقد عاون الاستاذ ماسينيون على اخراج هذا السفر الاستاذ پول كراوس من المدرسين في كلية الآداب بالجامعة المصرية الآن

ولهذا السفر مقدمة طويلة على جانب عظيم من الدقة العلمية فيهـــا وصف مستفيض للمخطوطات المعول عليها ومحاولة لترتيبها ترتيبا زمنياً وفحص للروايات المختلفة وبحث في الاسناد

ويلي المقدمة ترجمة النصوص العربية باللغة الفرنسية . والترجمة صحيحة ما عدا هفوات لا يعتد بها أشير الى بعضها :

ص 78 — النص : نزول الجمع ورطة وغبطة (ص ٥)

الترجمة : L'accomplissement de l'union est abîme ou joie

والوجه عندي ou béatitude ....

ص 83 — النص : فقال للقوال : قل ما يختار الشيخ (ص ٥٩)

الترجمة Dit au chanteur : Chante sur le thème que le cheikh préférera

والوجه عندي Dit au récitateur : Récite le thème que le cheikh préférera

ص 88 — النص : ونظر اليَّ شزراً (ص ٧٠)

الترجمة Me lança une regard indigné

والوجه عندي Un regard courroucé

وما هذه الهفوات — ان صح انها هفوات — بشيء الى جنب الجهد الذي بذله المترجمان . فما لا شك فيه ان نقل نصوص فلاسفة الاسلام وبخاصة متصوفيهم ضرب من الاعجاز

ويلي الترجمة النصوص العربية نفسها . وليس على نشرها مأخذ يذكر لولا تغليب روايات على روايات . ومن ذلك :

ص ١٥ ، س ١ — رواية الهامش أفضل (فذلك الخ)

ص ٤٤ ، س ٢ — «أنت المأمول بكل خير والمسؤول عند كل مهم»

خير من هذا ما في الهامش من روايات . مثلا : «انت المأمول لكل خير والمسئول عن كل مهم »

Hilma Granqvist—Marriage conditions in a Palestinian village, II. Helsingfors 1935
Edit. Otto Harrassowitz, Leipzig

هلمي جرانكفست — احوال الزواج في قرية فلسطينية — الجزء الثاني — ٣٦٦ ص و٣٠ صورة فوتوغرافية . ٢٤ × ١٦

من العلوم المستحدثة في هذا العصر علم يقال له الاتنولوجية Ethnologie يبحث في عادات الامم التي ما تزال على فطرتها قليلا او كثيراً . وهذا العلم قائم على المشاهدة البحتة وقديماً كان بين أيدي الرحالين والمبشرين من القسيسين الذين كانوا يؤلفون الاسفار في اخلاق الامم التي ينزلون بها . واذا به اليوم ينتظم فيعالجه العلماء انفسهم على طريقة مستقيمة في الفحص والتنقيب

والسفر الذي بين يدي هو الجزء الثاني من كتاب يبحث عن الخطبة والزواج والحياة الزوجية والتأيم . وميزة هذا السفر انه يسوق لكل حال من الاحوال المبحوث فيها حكايات تجعلك تلمس الوقائع مفصلة في ساعتك . والتوفيق في هذا راجع الى ان الذي ألف الكتاب امرأة عاشت في قرية من قرى فلسطين زمناً واختلطت فيها بالنساء واستمالتهن فوقفت على اسرار عيشهن

ومما يؤخذ على هذا السفر النفيس ان صاحبته لم توفق في تعليل الوقائع توفيقها في بسطها ، ذلك ان التعليل يعلو على المشاهدة ليتصل بعلم النفس وعلم التاريخ . ومن أدلة ذلك ان المؤلفة لما تكلمت على تعدد الزوجات (ص ٢٠٨ — ٢١٣) وتفضيل العذراء على الايم (ص ٣١٠ — ٣١١) اتت بعلل عدة لا يساير بعضها بعضاً ، من دون تمحيص ولا مراجعة . وكأني بها وقفت عند الظواهر دون البواطن . وكان الاولى بها ان ترتد الى جماعة العرب الاولى في جاهليتها وصدر اسلامها فتستطلع العلل البعيدة . وقد كان يعينها على ذلك الكتب المؤلفة في العرب الاولين مثل كتب لامنس اليسوعي ومثل كتاب العرض عند عرب الجاهلية لبشر فارس (باريس ١٩٣٢)

ثم ان المؤلفة خطر لها ان توازن بين عادات القرية التي عاشت فيها وعادات قرى عربية المنزع في بلدان أخرى مثل المغرب ومصر والشام والجزيرة . ومن التآليف التي فاتها الاعتماد عليها في هذا الباب :

كتب باللغة الفرنسية : كاظم الدغستاني — بحث اجتماعي في الاسرة الاسلامية في الشام لهذا العصر (باريس ١٩٣٢) ، ا . م . جواشون (Goichon) — الحياة النسائية في المزاب جزءان (باريس ١٩٢٧ و ١٩٣١) . الدكتورة لوجيه (Legey) — محاولة في درس العادات الشعبية في مراكش (باريس ١٩٢٦) ، خالد شتيلة — الزواج عند مسلمي الشام (باريس ١٩٣٤)

كتب باللغة العربية : نعوم بك شقير — تاريخ سيناء (مصر ١٩١٦) ، بولس سلمان — خمسة اعوام في شرقي الاردن (حريصا ١٩٢٩)

Murad Kamil—Die abassinischen Handschriften Sammlung Littmann in Tuebingen, Leipzig 1936

مراد كامل — المخطوطات الحبشية من مجموعة لتمن في (مدينة) توبنجن ٤٦ ص ٢٣ × ١٥

ان صديقي الدكتور مراد كامل ممن اوفدته الجامعة المصرية لتحصيل العلوم الشرقية في المانية.وقد انقطع الدكتور كامل الى تعلم اللغات السامية خمس سنوات في توبنجن ثم في برلين هنا على الاستاذ متفوخ Mittwoch وهناك على الاستاذ لتمن Littmann من أعضاء مجمع اللغة العربية.والدكتور مراد كامل من اولئك المصريين القليلين الذين يرغبون فى العلم حقاً فلا يهجمون على التحصيل ابتغاء نيل شهادات انما يلتمسون بها الوظائف. ومصداق ذلك هذه الرسالة الصغيرة حجمها الكبيرة فائدتها وقد فطنت الجمعية الالمانية للاستشراق die deutsche morgenlaendishe Gesellschaft الى نفاستها فقامت بطبعها و نشرها

والحق اني لا استطيع ان احدث قراء هذا الباب عن الرسالة تفصيلاً لجهلي اللغة الحبشية كل الجهل.وجل ما يتأتى لي من الكلام عليها ان الدكتور كامل أخذ ينظر في المخطوطات الحبشية التي كان جمعها الاستاذ لتمن ايام كان يقيم باكسوم والتي بقيت بين يديه على تعاقب الايام. فجاء عمل الدكتور مراد وصفاً تاماً لهذه المخطوطات وصفاً قائماً على الطريقة العلمية السليمة في الفحص عن المؤلفات المجهولة . فذكر عند كل مخطوطة نوع ورقها ومقاسها وعدد صفحاتها وتتبع الموضوعات فيها باباً باباً ، واثبت الصور والرسوم التي تتخلل اوراقها ، ودون الاستهلالات والخاتمات ، ثم انه رتب المخطوطات على حسب مضموناتها كالدين فالتاريخ فالصلاة فالسحر ، وقد اضاف الى كل هذا فهرساً للالفاظ الفنية

F. Taeschner, Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals in "Der Islam" Band XXIV, Heft 1, Januar 1937.

ف . تيشنر — حظ الصوفية في تكوين المثل الاعلى للفتوة — رسالة منشورة في مجلة « در اسلام » (الاسلام) — ٣٠ ص . ٢٥ × ١٧

ان الاستاذ المستشرق الالماني تيشنر انصرف الى البحث في الفتوة في الاسلام فألف فيها عدة رسائل . وهذه الرسالة هي المحاضرة التي كان ألقاها في مؤتمر المستشرقين في رومة سنة ١٩٣٥ . ويعرض فيها الى التمييز بين كتب الفتوة التي وضعها المتصوفة والتي عملها الادباء فيدل كيف جذب المتصوفة الفتوة الى طريقتهم وجعلوا منها موضوعاً غزير المادة لمباحثهم و كيف سطا الادباء على معنى الفتوة بين أيدي المتصوفة وبدلوا منه

واستشهد المؤلف على هاتين الظاهرتين بنصين قديمين احدهما من كتاب « تحفة الوصاية » للخرتبرتي والآخر من « كتاب الجماهر في معرفة الجواهر » لعبد الريحان محمد بن احمد البيروني،فضلا عن تحليله لعدة مؤلفات منها « كتاب الفتوة » للسلمي من ناحية و « كتاب مرآة المروآت » لعلي بن الحسن بن جعدويه من ناحية اخرى

والرسالة على صغر حجمها نفيسة سليمة الطريقة في البحث

الامراض الجراحية

الجزء الاول — الامراض الجراحية العامة—لمؤلفه الدكتور مرشد خاطر

استاذ الامراض والسريريات الجراحية في معهد الطب وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق

طبع في مطبعة الجامعة السورية في السنة ١٩٣٦

لا شبهة عندي ان مؤلفات معهد الطب العربي خير المؤلفات التي تأْتينا من دمشق وخيرها مؤلفات الدكتور مرشد خاطر ولا سيما هذا الذي بين يدي الآن واني لا أدري كيف انقده فالمؤلف صديق قديم كنا معاً في معهد الطب في دمشق الى ان خرجت منها في حوادث ١٩٢٠ . فرأيت ان ابدأ النقد في ايراد مقدمته النفيسة ليعلم منها ما عاناه المؤلف وسائر الزملاء اساتذة المعهد الآخرين في تأليف الكتب العديدة التي يتحفوننا بها بين حين وآخر ايضاً . قال في المقدمة وقد أورد فيها فذلكة من تاريخ الطب في مصر وبيروت ما نصه :

عقدت النية منذ توليت شؤون السريريات والامراض الجراحية في معهد الطب العربي بدمشق على تأليف كتاب في هذا الفرع يغني طلبة الطب عن مؤلفات الغرب ويسهل عليهم اقتباس هذا العلم ويكون في يد الطبيب العربي الممارس نوراً يستنير بهِ في ظلمات الفن الجراحي الحالكة ، وفي خزائن الكتب العربية حجراً يسد بهِ جزء من تلك الثغرة الكبيرة التي خرقها الاهمال ومرور الزمن في جسم اللغة العربية

وغير نكير ان لغة الضاد نامت عن العلم في عهد الدولة العثمانية التي بسطت سلطانها على بلاد العرب قروناً ثم استيقظت بعض اليقظة في معهد القاهرة الطبي ففي جامعة بيروت الاميركية . ولم تطل يقظتها بل كانت يقظة مسبوت عاد اليهِ سباته العميق بعد ان منعت عنهُ المنعشات التي أسعف بها . فلا جامعة القاهرة ولا الجامعة الاميركية ثبتتا في انهاض اللغة العلمية وترقيتها بل رأت الواحدة بعد الاخرى ان تعليم الطب وفروعه بلغة الضاد ضرب من المستحيل ، واذا أقررنا بان تلقين الطب باللغة العربية ، بعد تلك الفترة الطويلة ، من المعجزات فلسنا نراه اليوم مستحيلاً . لا نجهل ان العرب بينا كانوا يغطون في نومهم كان الطب يسير في الغرب سيره المطرد ولما استيقظوا كانت بينهُ وبينهم هوة كبيرة لا تسدها الاّ الجبابرة واستحدثت فروع لم يكن لها في الطب العربي ذكر ووضعت لها الوف المصطلحات ، ومنها علم الجراثيم ، والتشريح المرضي ، وفن النسج ، وعلم الاحياء ، وكلها قطعت من درجات الرقي في الغرب شوطاً بعيداً وكانت في الطب العربي القديم اثراً بعد عين . فاذا ما رأت جامعة بيروت ان تعليم الطب باللغة العربية متعذر تغتفر لها دعواها لان اساتذتها الاعاجم في ذلك المعهد بعد ان اتقنوا العربية واستعانوا بعلماء العرب من آل البستاني واليازجي لم يستطيعوا متابعة هذا الجهاد حتى النهاية

اما الجامعة المصرية فلم تكن حالها حال الجامعة الاميركية ولا موقفها من لغة الضاد موقف تلك وكان في وسعها مواصلة جهادها ورفع علَم اللغة العربية على دورها غير مجيزة ان يرفرف عليها علم لغة غيرها وفيها من علماء العرب من يسحرون العقول بفيض بيانهم ومن انصار اللغة من يعدون حجة فيها . ولعل للسياسة ، قاتلها الله التي تستعبد اللغات كما تستعبد الشعوب ، الاثر الكبير في قلب لغة التدريس من العربية الى الانكليزية في معهد القاهرة على ما نظن . وبذلك اعلنت الجامعة المصرية عجزها عن تعليم الطب باللغة القحطانية

ثم جاء دور الجامعة السورية وكان الاحرى بها ان تسمَّى « الجامعة العربية » لانها الجامعة الوحدة التي تلقن الطب وفروعه بلغة العرب فلم تجارِ جامعة القاهرة شيخة الجامعات ولا الجامعة الاميركية البيروتية في هذا المعنى بل رأت ان اللغة العربية المرنة صالحة لتعليم الطب والعلوم وانها كانت لغة العلم المشعة في العصرين الاموي والعباسي فمنها اقتبس الغرب علومه وعليها بنى اسس حضارته العلمية الحاضرة . وان لغة هذا شأنها ترك ابناؤها في دور كتب العالم المؤلفات الناطقة بطول باعهم في مختلف العلوم لا تعجز اذا ما اعتراها داء عارض فأقعدها حقبة من الدهر ، عن استعادة صحتها وفيها كل عناصر الحياة والنمو . بيد ان اللغة لا تنهض الاَّ بابنائها ، وابناؤها قد اعرضوا عنها الى سواها ، بعد ان رأوا اثداءها التي كانت تدرُّ لبناً قد نضبت وكان الاحرى بهم ان يطعموها ويتعهدوها بما يصلحها ليعود درُّها . فاللغة العربية غنية بما في معاجمها من المصطلحات المنسية ، وبما في اوزانها واشتقاقاتها من السعة فاذا توفر ابناؤها على العناية بها يعيدونها الى سابق مجدها فتتبوأ مقامها العلمي الرفيع الماضي . وهذا ما فكرت فيه الجامعة السورية وما حققتهُ ، فانها اخذت منذ ست عشرة سنة تنفخ في اللغة روحاً جديداً ، هو روح العلم الذي لا تحيا اللغات الاَّ بهِ . فوضع اساتذتها في مختلف الفروع مؤلفات ثمينة أغنوا بها خزائن الكتب العربية وبرهنوا للعالم العربي ان ما كانت تدعوه الجامعات الاخرى حلماً قد تحقق

واذا كتب النجاح حتى الآن للجامعة السورية فما خلا طريقها من الاشواك والعلم يلقى فيه كل يوم شيئاً جديداً . فعلى الجامعة اذا شاءت بلوغ غاية النجاح ان تزيل هذه الاشواك وتعبد الطريق ليسهل على طلبة العلم سلوكه بنحت المصطلحات الجديدة المتواصل ووضع المؤلفات . والجامعة السورية جادة في عملها فهي تعرض في كل سنة ثمرات أساتذتها اليانعة بما تطبعهُ من المؤلفات

هذا معظم ما جاء في المقدمة . فهل وفق المؤلف في مصطلحاتهِ العربية واني سأورد هنا بعضاً على سبيل المثال . فأول ما وقع نظري عليه ما يأتي :

التفجير drainage

في القاموس فَجَرَ الماء فجراً حبسهُ وفتح لهُ طريقاً وجعله ينفجر والقناة شقها وفجَّر الماء

بمعنى فجر شدد للمبالغة . انتهى ما اريد نقله . ولا شبهة ان التفجير احسن كلمة لهذا المعنى والجراحون في ايامنا يعربون اللفظ الاعجمي ويقولون درنجة او درننة فأين هذا من ذاك .
واما الكلمة الثانية التي بعدها :

أحيائي biologiste

وكانوا قبلاً يقولون حيوي او عالم حيوي لكنهُ قال احيائي كما قال المجمع اللغوي وهي كلمة عربية لا غبار عليها . والكلمة التالية ما يأتي :

الحامض الفيني acide phénique

فانه لم يقل الحمض الفينيك او الحامض الفنيك ولكنهُ عربها تعريباً ولا بد من التعريب في هذا الموقف ولكنهُ عربها وجعلها في حلة عربية . ثم الكلمة الثالثة

المبضوع l'opéré

كانوا يقولون قبلاً من عملت له عملية . ثم الالفاظ التالية :

الاستلقاح والاستمصال vaccinothérapie, sérot hérapie,proteinothérapie

والاستهلاء . فالاستلقاح هو المعالجة باللقاح والاستمصال المعالجة بالمصل والاستهلاء المعالجة بالهيولى ومنها

الجمرة الحميدة anthrax

الجمرة الخبيثة charbon

فكلاهما جمرة وهما ترجمة الكلمتين ولا يخفى ان هذين المرضين مختلفان تمام الاختلاف وان الاستعمال الفرنسي مخالف للانكليزي في المرضين بعض المخالفة

الصمامة الشحمية embolie graisseuse

تشحم الدم lipemie

ولوكان المجمع اللغوي لقال في الاولى الصمامة الدهنية وفي الثانية دم دَهِن او دُهنة الدم وكل ذلك مخالف لما جاء في القرآن الكريم في الشحم والدهن كما بينت سابقاً

هذا شيء يسير جداً من هذه المصطلحات وهناك مصطلحات كثيرة جداً منها الوَهَط والتبويل والإبالة والتبويل خلاف الإبالة ومنها المقلوب والمكبود والمأروق والإرقاء والمتحولة وهي التي سماها المجمع اللغوي المتمورة والمعهد الطبي أسبق الى هذا الاصطلاح . فاننا لو سرنا على هذا المنوال ونحن في أول عهدنا في وضع المصطلحات وتوحيدها فانهُ لا يمضي زمن الا ويكون عندنا لغة أخرى وتزداد شقة الخلاف بيننا ونحن نريد التوحيد . ومن هذه المصطلحات الآح وقد وضع المجمع كلمة أخرى فيها خلاف الآح . والآح عربية فصيحة ولعلّ بعض أعضاء المجمع لم ترقهم الاح لأن فيها آخ فآح وإيح وأوح لغة عامة شائعة ليس في الشام ومصر وحدهما

بل جميع أنحاء المعمور . فهل نترك كلمة علمية فصيحة لأن أحد الاعضاء لم يستسغها . ومن هذه المصطلحات ملتهم الجراثيم والداخلية المنشأ والخارجية المنشأ والعُصاب الوَربي والتنحي العظمي والورم العظمي وأم الدم والزور والعقارب والحمشة والنزيف وهو خلاف النزف وغيرها وهي تعد بالمئات والألوف وجميعها مع الاصطلاح الفرنسي

وهنا مسألة يحسن بأعضاء المجمع اللغوي الانتباه لها والتروي فيها . فقبل ان ينتهي المجمع الموقر من وضع خمسة مصطلحات يكون المعهد الطبي قد وضع الوفاً . المعهد لهُ الحق في وضع هذه المصطلحات لأنهُ في قلب عاصمة من عواصم البلاد العربية ولانهُ يعلّمها ولان أساتذته من جهابذة اللغة والعلم فلا يسعني الاَّ القول هنا ان الزميل الفاضل وسائر الاساتذة قاموا بعمل تعجز عنهُ الجبابرة وهم جبابرة فليستمروا في عملهم ولا بدَّ ان عملهم يثمر والناس من حولهم يختصمون على كلمة ويتحذلقون في غيرها . ومن شاء البرهان على ذلك فهذا المجلد الأول امامنا وسيليه خمسة اخرى والجملة ستة وهذا المجلد عدد صفحاته تكاد تكون الف صفحة مكتوبة بلغة عربية فصيحة

وانهُ قبل الانتهاء من العمل يكون أتحفنا المؤلف وزملاؤه الافاضل بمعجم يكون اساساً لتوحيد المصطلحات العربية في الطب . وصدق الله العظيم في قولهِ تعالى « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » فعباده الصالحون في هذا العمل هم اهل دمشق امين المعلوف

دائرة معارف المنزل الحديث

للآنسة بسيمة زكي ابراهيم — من قطع المتوسط عدد صفحاته ٣٠٢

اتمت الآنسة بسيمة زكي ابراهيم وضع موسوعة كبيرة تتناول شؤون المنزل وادارته على احدث الطرق العلمية والعملية . واخرجت كتابها الاول « دائرة معارف المنزل الحديث » والكتاب مرتب ومبوب . فالفصل الاول في المنزل وطريقة بنائهِ كتبه مهندس مبانٍ هو الاستاذ الفريد تادرس . اما فصول الكتاب الاخر فكتبتها الآنسة بسيمة نفسها . فالباب الثاني من الكتاب في حديقة المنزل وتنسيقها وزراعة الازهار والباب الثالث في ادارة المنزل وعلاج الجانب المادي فيهِ ومعاملة الخدم ونظافة البيت والصناعات المنزلية والغسيل والكي والصباغة . والباب الرابع فيهِ مبادىء عن تربية الطفل وملابس الطفل وغذاء الطفل . والتغذية الطبيعية وفوائدها والرضاعة وفطام الطفل . وهذا الكتاب احوج ماتكون اليهِ المرأة المثقفة لكي يوجهها الى طريقة « فن ادارة المنزل » والواقع ان عائلاتنا المصرية محتاجة الى درس هذه الناحية من الحياة الاجتماعية . والبيت هو المكان الذي يأوي اليهِ الانسان عقب الانتهاء من عمله فيجب ان يكون مكاناً صالحاً للراحة والهدوء والشعور بالنعيم العائلي وهذا لا يتأتى الاَّ بما تبذله فيهِ ربة الدار . واننا لنهنىء الآنسة بسيمة بعملها الاجتماعي ونرجو لها اضطراد النجاح

اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي كرابيتس — ترجمة فؤاد صروف — صفحاته ٢٧٨ — ثمنه ٣٠ قرشاً مصرياً

كان عصر اسماعيل ، جد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، حافلاً بالحوادث الخطيرة ففي سنة ١٨٦٦ فاز من السلطان بحق توريث أبنائه العرش بدلاً من اتباع نظام التوريث العثماني القائم على قاعدة الأرشد فالارشد ، وفي سنة ١٨٦٧ اتخذ لقب خديو ، تمييزاً له عن سائر الولاة العثمانيين، وفي سنة ١٨٧٣ اعترفت الاستانة لمصر باستقلالها مع بقاء الجزية. ثم ان اسماعيل وجه عنايتهُ الى تنظيم الحكومة والادارة والجمارك ومد السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبنى المنائر ومرفأ السويس وحاجز الامواج في ميناء الاسكندرية وشق الترع للري وشيد الكباري وحارب النخاسة وبعث بحملة الى السودان لاستكشاف مجاهل القارة السوداء ، وفي عهده احتفل بافتتاح ترعة السويس وأنشئت المحاكم المختلطة

ولو ان ملكاً او أميراً ترك نصف هذه المآثر في بلاد أخرى لنعت بالعظيم . ولكن من نكد الدنيا ان الاغراض المالية والسياسية تألبت على اسماعيل ، فتحكمت في مصيره فأنزل عن العرش ثم لوثت سمعته بما وصف به

فهل يرضى التاريخ بهذا الحكم على اسماعيل ؟ وهل كان حقيقة مبذراً للمال لنقص في ملكات التدبير ؟ وهل كان حقيقة طالب لذة يقدمها على شؤون الدولة ؟ وكيف يمكن ان نوفق بين هذا القول الاخير وقول الصحافي البريطاني ماكوان إذ قال — « من المفاوضة على معاهدة الى الموافقة على عقد لشراء فحم او آلات ، انهُ كان يعرف كل تفصيل من تفصيلات الادارة ولا يفوتهُ من الاعمال الادارية الاَّ ما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه . . وبكلمة ، من الاسكندرية الى وادي حلفا . . لا يكتفي سموه بالجلوس على الاريكة بل يحكم كذلك »

وكذلك قول القنصل الاميركي في تقرير سري « لقد وقف نفسه ونشاطه الذي لا يفتر على تقدم مصر » وتاريخ هذا الكتاب ١٥ سبتمبر سنه ١٨٧٣

فهل يعقل ان اسماعيل كان كما وصفهُ خصومه السياسيون والمرابون الدوليون الذين ابتزوا ماله واستعانوا بالسياسة على قضاء اوطارهم ؟

هذه الاسئله تنزل في الصميم من تاريخ مصر الحديث . وقد اتاح الله للحقيقة نصيراً في شخص القاضي كرابيتس فقد فصل هذه المسائل وعشرات غيرها ، اوفى تفصيل مستنداً الى جميع المراجع المنشورة ، والى وثائق لا تزال مطوية ومحفوظة في سراى عابدين والمفوضية الاميركية بالقاهرة ووزارة الخارجية الاميركية بوشنطن

ان صدور كتاب من هذا القبيل بقلم قاض ومؤرخ اجنبي يجب ان يكون من الحوادث

ذات الشأن في حياة هذه البلاد العقلية والوطنية . فانهُ علاوة على كونه كتاباً في التاريخ يغري بالمطالعة ، هو كتاب في الوطنية تجب مطالعته

وقد عني باخراجهِ باللغة العربية الاستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير « المقتطف » بسماح من المؤلف وترخيص من دار النشر الانكليزية ، وطبعهُ طبعاً متقناً وجلده تجليداً فخماً في دار النشر الحديث . فعسى ان يستفاد بهِ في التربية الوطنية ، لان تبيان مآثر الملوك والامراء والاقطاب ونقض مطاعن الاجانب فيهم ، من خير الوسائل لاقامة التربية الوطنية على أساس صحيح من العزة والكرامة

« القصر المسحور »

تأليف الدكتور طه حسين — والاستاذ توفيق الحكيم — دار النشر الحديث بمصر

قصة ممتعة اشترك في وضعها علمان من اعلام الادب في هذا الجيل . وليس من المفروض ان اتحدث عن شخصيتهما في هذه العجالة . وان كنت حريصاً الحرص كله على ان اتحدث عن أثر ثقافتهما في ادب هذا العصر

تمتاز قصة « القصر المسحور » بما فيها من أخيلة قوية غشيتها استار من الفلسفة والنقد واي موضوع اثاره أي من الكاتبين خلا من الفلسفة او النقد ؟ ! تحدث الدكتور طه عن قرية « سالنش » الباريسية وعن جبالها وكأن تلك القرية بما ينعم فيها المصطاف من روعة وجمال وهدوء اتاحت لهما ان يجعلاها « مسرحاً » لقصتهما . ولقد تناول الدكتور في بدء حديثه بل في رسالته الاولى التي اسماها « سمير شهر زاد » الاستاذ توفيق الحكيم بشيء من النقد لا يخلو من لذة او فكاهة او علم . قال عن لسان شهر زاد وهو يسألها لم تقض الشتاء في مصر « فتجيب » « هو الذي ردني عن مصر بكتابه هذا الذي لم احبه ولا استطيع ان احبه . . . لانهُ كشهريار لم يفهمني وما اظنه سيفهمني » . وهي هنا تذكر قصة « شهر زاد » . ثم يتحدث الدكتور طه حسين فيقول « اني لم افهمك ولم احاول فهمك ولن احاوله لانك احب اليّ وآثر عندي وأجمل في نفسي من ان امسّك بهذا السوء الذي نسميه الفهم واستكشاف الحقائق . . ومن فهم شيئاً فقد قتله » . وليس من شك في ان « موضوع شهر زاد » او شخصيتها الخيالية قد كتب عنهُ طائفة كبيرة من الكتاب في اوربا . . وكل اديب عالج شخصية « شهر زاد » فهو بلا ريب اكسب تلك الشخصية الواناً من شخصيتهِ هو وأضفى عليها طابعاً فنيًّا لادبه وانا لست أنسى هذه الخصومة التي قامت بين الاستاذين عقب نقد الدكتور طه حسين « لشهر زاد » ورد الاستاذ توفيق الحكيم في هذا الصدد بقوله « ولقد قرأت مقالك عن شهر زاد وما احسبنا

تلاقينا فيه عند رأي» . ويشاء « الزمن » الاّ ان يسجل « الحكمَ » الدكتور طه حسين على لسان « شهر زاد » في اولى مقالات الكتاب. ولكنْ لعل ان يكون هذا التسجيل سبيلاً لخلود هذا الاثر الادبي للاستاذ توفيق الحكيم مما تفخر به نهضة « التأليف » عندنا ولست اقول الاقتباس او الترجمة ولا سيما في « قصة » اراد بها الاستاذ الحكيم « التمثيل ».وهكذا يمضي المؤلفان في رحلة طويلة تجمع الى اللذة هذا الشعور المعنوي الذي يعرضه الكاتبان لدرس الاغراض الادبية والاجتماعية في الحياة. فلقد حوى الكتاب احاديث خصبة عن طبيعة الاديب وعن ضميره وعن الحرية الفكرية التي عجزت عن مأوى لها في عالم الاشباح كما عجزت عن مكان تعيش فيه بين الاحياء . فاذا تقدمت في قراءة الكتاب فانت بين رسائل كلها ادب حي يتحدث عن نفسه وافكار تسوقها الاخيلة الرفيعة الى ذروة البلاغة . ومن امتع ما قرأت ذكر « آلات الزمن» و «فلسفة نسبيتها» ولعلها اذكرتني بقصة ولز المعروفة The Invisible Man الرجل «غير المنظور» وآلة الزمن Time Machine ».وقصة «شهر زاد» لا بل كتاب «القصر المسحور» عمل ادبي ينزع الى الدرس والتحليل في قالب غزلي خيالي ولعل طابع الكتاب يجمع بين طبيعة الحياة الفرنسية واختها الشرقية . ويثبت ان « النثر » العربي قد ارتقى بل تجدد في الوانه وفنونه واغراضه وهو ما لم يصل اليه الشعر بعد . فالكتاب يخلو من التزويق والهياكل والتراكيب القديمة التي يمتلىء بها النثر القديم الذي يقوم عليه مثلاً « الف ليلة وليلة » وغيره من كتب القصص العربي . وكذلك لم « يتقيد » الدكتور طه في رسائل هذا الكتاب — ولعل اسلوبه ينم على انه قد كتب اغلبها — في نظرته للحياة، ولم «يتقيد » في فنه فجاءت رسائله وحي الخاطر وكأنها تنبع من سجية نفسه. فأما «الحوار» وطبيعي ان يختص به « الاستاذ توفيق الحكيم » فقد بلغ حد الروعة والاعجاب . فقصة « القصر المسحور» اذن فتح جديد في بناء الادب المصري الذي يجب ان يكون قوامه المعاني لا الالفاظ والدرس والتحليل لا الخيال الاجوف القائم على الزينة

حليم متري

تاريخ الاستعمارين الفرنسوي والايطالي
في بلاد العرب
تأليف الاستاذ امين سعيد

منذ شهور تقلّ عن عام اخرج الاستاذ امين سعيد مؤلف الثورة العربية الكبرى وسلسلة تاريخ الاسلام السياسي كتاباً جديداً عن تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب ، ووعد المؤلف قراء هذا الكتاب ، بأنهم عند ما يفرغون من اتمام قراءته سيجدون جزءا ثانياً له هو تاريخ الاستعمارين الفرنسوي والايطالي في بلاد العرب . وقد بر المؤلف بوعده ، وها هو ذا الكتاب

يظهر، فيضيف الى مكتبة الدراسات العربية التاريخية الحديثة سفراً هامًّا يسد فراغاً كبيراً، ويتناول بالبحث موضوعاً ظهرت فيه بشتى اللغات الاوربية عشرات ان لم نقل مئات المؤلفات

تناول المؤلف بالبحث، في هذا الكتاب، اتصال فرنسا الاستعماري ببلاد العرب، وعد الحملة الفرنسية على مصر في عهد نابليون اولى مراحل هذا الاتصال . وسار في بحثه مع الفاتح الفرنسي الكبير من الاسكندرية حتى الوجه القبلي، ثم شهد معه ثورات المصريين المتصلة، وعودته الى بلاده، ثم مقتل كليبر، وتحالف انكلترا مع تركيا على اجلاء الحملة . وبعد ان اتم اخراجها من البلاد وقف وقفة غير قصيرة عند النتائج السياسية والعلمية التي انتهى اليه غزو الفرنسيين لمصر

وانتقل المؤلف بعد هذا الى الحديث عن فرنسا في الجزائر، ورسم صورة واضحة لجهاد شعب هذه البلاد، تحت قيادة الامير عبد القادر الحسني، وما انتهى اليه الصراع من غلبة الجيوش الفاتحة واستباحة حريات البلاد وتملك الفرنسيين لها

وفي الفصل الثالث من الكتاب تفصيل لاستيلاء فرنسا على تونس، مع التمهيد بذكر لمحة سريعة عن تاريخ البلاد . وفي الفصل الرابع وهو اطول فصول الكتاب تفصيل استيلاء فرنسا على المغرب الاقصى وما احاط استعمار هذه البلاد من تنافس دولي اشتركت فيه ايطاليا وفرنسا وانكلترا والمانيا، وما تمخض عنه التنافس من عقد مؤتمر الجزيرة الذي اطلقت فيه يد فرنسا، فأخذ تكيد للحكم الوطني، حتى اوقعت الشقاق في البيت المالك، ونفذت منه هي حتى استولت على الغنيمة الكبرى . . وهي المغرب الاقصى نفسه

وينتقل المؤلف بعد هذا من افريقيا الى آسيا، ليبحث في اسباب عن المعاهدات السرية التي مهدت لاحتلال الشام والعراق، وموقف اليهود، وما انتهى الامر من انتداب فرنسا في سوريا ثم يناقش المؤلف نتائج الحكم الفرنسي لسوريا، ويذكر في ايجاز ثورات السوريين الاستقلالية وآخر فصول الكتاب، هو القسم الخاص باستعمار ايطاليا لطرابلس الغرب وما سبق احتلالها من حروب اشترك فيها بعض قواد الدولة العثمانية، وختام هذه الحروب باستيلاء ايطاليا على شطوط طرابلس الشمالية، ثم قيام الشعب الطرابلسي للنضال عن حريته

هذا مجمل سريع لكتاب تاريخ الاستعمارين الفرنسي والايطالي في بلاد العرب، ولا يفوتنا ان نذكر ان هذه الكتاب — ككتب المؤلف جميعاً — حافل بمجموعة من اهم وانفس الوثائق التاريخية والخرائط والصور النادرة للحوادث والاشخاص، التي يتعذر جدًّا الوقوف عليها في غيره

ويقع الكتاب في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير، وقد تعهدت نشره دار احياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة

تاريخ التربية

تأليف عبد الله مشنوق — مطبعة الكشاف ببيروت — طبعة ثانية صفحاته ٢٢٥ قطع المقتطف

مما يثلج له الصدر ان يتاح لمؤلف هذا الكتاب طبعةٌ ثانية ، لان هذا الاقبال على كتاب في تاريخ التربية ، دليل على ان في العالم العربي طبقة من القراء تهتم بالاصول فتعرض عن الزبد وتعنى بما ينفع الناس . والكتاب جدير بهذه العناية . فهو كاحسن ما اطلعنا عليهِ من مؤلفات الغربيين في تاريخ التربية في عصورها المختلفة ، وتطورها وقواعدها وفلسفتها وسير اقطابها ، وان كانت السير في هذا الكتاب خاضعة بحكم الطبع ، لسياقهِ الخاص وهو يقتضي الايجاز فيها لتغليب المبادىء على التراجم . وحبذا الحال لو عني المؤلف باتحاف المقتطف ، أو بتأليف كتاب ، يكون غرضهُ الاول كتابة سير الاقطاب التربية ، او رسم صورٍ قلمية لهم في فصول خاصة ، بحيث تكون السيرة سبيلاً الى تشويق المطالع واغرائهِ بتتبع البحث. ومن بواعث اغتباطنا اننا ادركنا بعض هذا الغرض بكتاب « اساطين العلم الحديث » . واننا لا نتردد مطلقاً في القول بان هذا الكتاب خير كتاب عربي لتدريس تاريخ التربية في مدارس المعلمين في الشرق العربي ، على نحو ما اتيحت لنا دراستهُ في كتابي مونرو وسيلي باللغة الانكليزية في عهد الطلب

سميراميس

تأليف ارنستاستار — ترجمة سليم سعده — دار النشر الحديث

ان يكن قد أصاب الشرق ما أصابه من علل وأوصاب ، فتت في عضده ، ونالت من كيانه ، وعطلت من نشاطه ، وجعلتهُ تابعاً متعقباً بعد ان كان رأساً هادياً متبوعاً ، ان يكن قد أصاب الشرق من الوهن ما جعل شأنه من الهوان هذا الشأن ، وحاله من الزراية هذه الحال ، فليس ثمت شك في انهُ باق كما كان عظيماً بقوته الروحية ، ملحوظاً بسموه المعنوي ، ينفث من سره ومن سحره ما يحير الغرب ، وما يلجئه دائماً — حين يعجزه اكتشاف كنهه — الى ان يصفهُ بالغموض ، وان يُضفي على سيرتهِ اهاباً من الخفاء

مهما قيل اذن في الشرق فلا ينكر عليهِ انهُ مهد الانسان الاول ، ومشرق حضارة البشر ، ومهبط رسالات النبوة ، ومصدر القوى الانسانية المعجزة الخارقة ، تلك القوى التي علمت الانسانية العلم ، ولقنتها الحكمة ، وعرفتها الفنون والآداب. وهو وان غَني برجالهِ ، واعتزَّ بسيرهم ، فهو كذلك قد غنى بنسائهِ ، واعتزَّ بسيرهنَّ ، ولئن ذكر التاريخ أولئك النساء ، واحدة اثر واحدة ، فذكر مثلاً كيلوبترا ، وحتشبسوت ، وهيبيشيا ، وبلقيس ومن اليهنَّ فهو لا بدَّ ذاكر على رؤوسهنَّ تلك الملكة العظيمة الخالدة التي ان لم تكن ذهبت في أسلوب حكمها مذهب الاثرة

والاستبداد الفكري لـكان يمكن ان تكون قد أفلحت في ان تغير خريطة الدنيا، وتبدل من معالم الناس، وتبعث شيئاً جديداً في التاريخ

هذه سميراميس، ملـكة أشور وعاهلة نينوى، المرأة التي لم تكن الدنيا على رحبها لتتسع لما كان يجيش بصدرها من آمال، الملـكة التي وهبتها الطبيعة الى نعمة الجمال نعم القوة والرشاد والتوفيق.. توسعت في بناء ملكها، فكانت تقود جيشها الزاخر الـكبير وتوجهه يمنة ويسرة حيثما شاءت، غازية، فاتحة غانمة، رابحة، مصيبة ما تحلم به من اتساع ملـكها، وخفوق علمها فوق بلاد شتى وامصار، حتى لقد مست آمالها مصر وكادت ان تحدث فيها حدثاً جللا

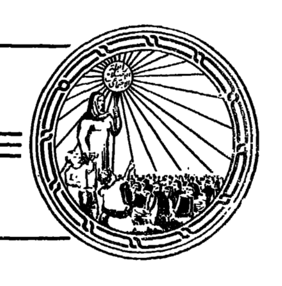
كانت ملـكة واسعة الجاه ولـكنها كانت كذلك امرأة، ذات جمال، وذات قلب، وذات هوى. لذلك لم يكن بد من ان يصطدم اسلوبها في تسيير دفة سفينة الدولة باسلوبها في الاستمتاع بحياتها الشخصية الخاصة.. اصطدم اذن السبيلان احدهما بالآخر، وكان لرجال الدين في هذا الاصطدام العنيف شأن ويد وكلمة، وكان مبعث هذا في كثير من الاحايين هوى عنيف تملك قلب رئيس ديني كبير نحو سيدته وملـكة بلاده، وصاحبة العرش العظيم سميراميس فاخذت الدسائس تعمل من جانب خفي لا علم لها به، ولا سلطان لها عليه، واخذ هواها الخاص يطرد في سبيله لا تسيغ ان يعترضه معترض أو يقف في طريقه واقف، وكان طبيعيًّا وقد انتهى الحال الى هذا الحد ان يتجرج، وان يطرد في محرجه، وان يكون له غاية، وان يكون منه نهاية — وقد كان — بعد جهاد شـاق عنيف — المصير المحتوم، فسقطت سميراميس

تبخرت الملـكة القوية النابهة، ذات الجمال والسحر والسلطان على جناح طائر صغير وفيّ كان يحتل مكانه اللين الوديع الآن من طيلة حياته على كتفها الحنون الدفيء —هكذا كانت نهاية سميراميس وهكذا اتاحت بهذه النهاية الموجعة، كما أتاحت بسيرتها الحافلة ان يفرد لها التاريخ من تاريخ النابهات صحيفة مشرقة باقية

وقد راق الاستاذ سليم سعده، قصة هذه الملـكة العظيمة التعسة، فأفرد لها من وقته الثمين المملوء بالمشاغل والمتاعب، فنقلها الى العربية في أسلوب شائق وبيان ساحر كأنه الغدير الهادىء الفياض، او النغم المسترسل الحلو الحنون. يذهب بك مأخوذاً بعيداً بعيداً، الى عصر غامض جميل من عصور التاريخ فيحييك بينهم، في ظل سميراميس، وصحبة عاشقيها، ورجالها الدينيين، حيناً من الدهر ويعرض عليك مشاهد حياتها المجيدة المجهدة اللذيذة عرضاً اخاذاً طريفاً لا تشعر له بآخر الا حين تقلب ورق الـكتاب فلا تقع عيناك الا على غلافه الازرق الجميل، فتعلم بذلك ان الحلم قد مضى، وان القصة قد تمت فصولاً

حامد عبد العزيز

فهرس الجزء الرابع من المجلد التسعين



الرجل الصغير

لمحمد صادق عنبر

بمجمع اللغة العربية الملكي

أهو طفلٌ وليدٌ . وضع لساعته ، أم ملك ؟ أم كوكب جديد ، طلع في هالته ، من فَلك ؟ فهذه غرَّتهُ على رسم هلال . وهذه طرَّته تبارك الله ذو الجلال .

وتلك بُشرى شعره ، كأن يد الله لوَّنتهُ من ألم أمه ليلةَ وضعتهُ . على جبينٍ كأنهُ من لون فرحتها ، ساعة استقبلتهُ .

وتان عيناه الجميلتان صنعهما الله كأنهما من المسك أجمل نقطتين،في أصغر سبيكتين ، بديعتين من أصفى لجين .

وذياك ثغره ما أبدع وما أجمل! إنهُ يعد ابتسامةً بل يوشك ان يرفَّ عليه طيفها فيذوب فيهِ هم قلبين ، ويشتريها بالعمر كل محرومين . وبالدنيا كل مملكين غير معقبين

وهاتان شفتاه . كلتاهما جل مصوّرها على اتمِّها.من وردة في كمِّها .

وذان خداه طُبعاً شبه وردتين . لا تقطف واحدة منهما إلاَّ بشفتين اثنتين .

وذاك انسانه الحبيب الى أبويه لأنهُ من بين صلب الأب وترائب الأم خلقهُ المبدع وقدَّرهُ . وفي الحشا كما أراد صورهُ .

***

هو لطف الله يخصُّ بهِ الأسرة المختارة. وتحسد عليهِ الجارة الجارة .

هو وصلة إنسانية بين سلف وخلفٍ وحاضر بين ماض غبر . ومستقبل منتظر .

وهو حلم الأم في نومها ، وشغلها في يومها ، وحبُّها الذي تفخر فيهِ بعذلها ولومها ، وهو قلب الأب وعنوان كتابه ، ورجاء شبابه ، وضنهِ من بين أحبابهِ . يقظته لمستقبل عمل ونومه في رجولته أمل .

وهو كونٌ ضعيف ضعيف ، ولكنهُ أقوى ما في الكون ، بل هو ضعف كمنت فيهِ القوة

كمون النار في الزناد ، واستسر فيه الصبا والفتوة ، كما يستسر النور من العين في سواد ، وعزائم الشباب المرجوة ، يوم الكريهة والجلاد .

وهو للأمومة عنوان مثالها ، وبيان رسالتها ، وما رسالتها إلا أن تتفرق نفسها لتجتمع في بنين وبنات ، يتساوقون في سنوات ، او يتعاقبون في فترات .

وهو بذاته أستاذ أبويه ، ومرشد كافليه ، لأنه ساعة تضعه أمه يضع على رأس أمه تاج الأمومة ، والأمومة معنى من السماء ، وبهذا المعنى تعتز الأم وتتخايل لأنها تبدأ به رسالتها في الحياة ، وما رسالتها الا ان تبني الفرد وهو وحدة الاسرة . وعذا يكون الاسرة وهي وحدة الجماعة ، وهذه تكون الامة وهي وحدة الانسانية ، ناهضة في سبيل ذلك بأثقل عبء من الواجب وتبعاته . صابرة على نوائب الحق ومقتضياته . وذلك لعمري معنى نبيل ينظر الى معنى جليل من الرسالة الالهية التي شرف بها الانبياء .

فهذا الطفل بل هذا الاستاذ الفنان الصناع يعلم أمه أول ما يعلمها الحنان ، وهو أنبل معاني الحب، ويغرس في قلبها الرحمة ، وهي خير خلال الخير، وينفث فيها الصبر، وهو أعقل العقل، ويطبعها على الايثار ، وهو أكرم مظهر من الكرم ، ويغريها بالشجاعة وهي من أداة البطولة ويزين لها انكار الذات، وهو أفضل ما في الفضيلة، ويحملها ان تعول على نفسها ، والتعويل على النفس رأس النجح في الحياة، ورأس مال الاحياء . وهذه لعمري سبع خلال . ينتهي اليها في الانسانية الكمال .

وهو ينشىء في حس أبيه طبقة من الرهافة والالهام لم تكن في حسه من قبل ان يكون أبا . وهو على الاجمال يجعله بالملك أشبه منه بالانسان ، بل يسمو بانسانيته الى مستوى يكاد يسمع فيه رفيف أجنحة الملائكة، يتفجر في نفسه بفضل طفله نبع سحري من السعادة لأسرته يفيض . ولا يغيض . ويتفجر . ولا يتغير .

ومن آية حنان الام أنها تدع اسمها الذي كانت تتسمى به وهي بعد فتاة ، فلا تعود تعرف الا بالاضافة اليه .

ومن آية حب الأب لابنه أنه يرى فيه أحب شخصيه اليه وعونه في غده ، وخليفته في أهله من بعده ، ولله در القائل :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الارض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

التربية الاستقلالية

للدكتور عبد العزيز القوصي
الاستاذ بمعهد التربية

سأحاول ان احدثكم عن التربية الاستقلالية لاننا مقبلون على عهد استقلالي . ولا يمكن للامة ان تعيش وتقوى فيه الا اذا اعددنا لها افرادها اعداداً خاصاً . فيلزمنا اذن ان نربي اطفالنا بحيث تصبح شخصياتهم حرة مستقلة . ولاجل ان تكون الشخصية كذلك يجب ان تتوافر فيها خصال ثلاث

الخصلة الاولى : هي ان يعتمد المرء على نفسه في اعماله وأفكاره . والخصلة الثانية : هي ان ينسجم مع بقية افراد المجتمع ويكون عضواً نافعاً فيه . وبعبارة اخرى لا يكون شاذاً عن المجتمع خارجاً عليه بل يتصل ببيئة افراده في الرغبات والافكار والمصالح . والخصلة الثالثة : هي ان يكون الشخص قادراً على مواجهة شدائد الحياة بشجاعة وقوة وصبر فيناجزها ان ناجزته ويتحداها ان تحدته

هذه هي الشخصية المستقلة تعتمد على نفسها وتنسجم مع افراد المجتمع بحيث لا تشذ عنهم ولا تتلاشى فيهم وتتصف بالشجاعة والاقدام ولكن كيف يمكننا أن نربي اطفالنا على كل هذا ؟

الطريقة سهلة وتدور من حول محور واحد وهو الثقة بالنفس . وهذه — اي الثقة بالنفس — لا يجوز أن يفهمها البعض على انها صفة الغرور فالشخص المغرور هو الذي لا يرى عيوب نفسه او يراها على انها محاسن . وزيادة على ذلك فهو لا يرى محاسنه الا بمنظار مكبر . وعلى عكس هذا تماماً الشخص المحتقر نفسهُ الذي يبخس نفسه حقوقها وينكر عليها حسناتها . وكلا هذين الشخصين المغرور والمحتقر نفسه لا يمكن اعتبارهما من الشخصيات الحرة المستقلة المتصفة بالثقة بالنفس . فالواثق من نفسه هو الذي يفهمها على حقيقتها ويدرك ما بها من نواحي الضعف ونواحي القوة

ولتربية الطفل تربية استقلالية مبنية كما قلنا على تعزيز الثقة بالنفس يلزمنا أولاً أن نلقي نظرة سريعة على الطفل في أدوار نموه المختلفة : الدور الاول هو السنتان الاوليان من الحياة ففيهما يظل الطفل معتمداً على امه في كل ما يحتاج اليه . بعد ذلك يكون قد تقدم في المشي والكلام وعلى ذلك تتسع دائرته الاجتماعية فبعد ان كانت مقتصرة على امه تمتد الى بقية افراد الاسرة . ويستمر هذا حتى السنة الخامسة حيث تمتد الحلقة الاجتماعية الى المدرسة . ويظل معتمداً على هذه في تعليمه وتهذيبه حتى يخرج الى الحياة . فالطفل اذن يستقل اولاً عن امه ليصبح عضواً في مجتمع الاسرة . ثم يستقل عن الاسرة ليكون عضواً في المدرسة . وبعد ذلك يستقل عن المدرسة ليعتمد على نفسه في الحياة . فيمر الطفل بالضرورة في مراحل استقلالية مختلفة ويلزمنا ان نسهل له الانتقال من مرحلة الى اخرى

لنأخذ الطفل في الدور الاول من الحياة حيث نجده يفوز بجميع رغباته معتمداً في ذلك على امه فهي تطعمهُ وتقضي حاجتهُ وتعمل على توفير راحته وتجري لاسعافه عند بكائه . وعلاوة على ذلك فهي لا تعاقبهُ ان أزعجها طول الليل بصياحه ولا تضربهُ اذا كسر أو اتلف شيئاً .

فحياة الطفل اذن في هذا السن حياة سعيدة هادئة محفوفة بالامن والطمأنينة. والشعور بالامن في هذا السن هو بادئة الثقة بالنفس. والانتقال من هذا الدور الى ما بعده يجب ان يكون تدريجيًّا ما امكن ولكن قد يحصل غير هذا فربما يضرب الطفل اذا بكى ويعاقب اذا اتلف وينهر اذا لعب أو تكلم امام الضيوف . وكثيراً ما يصيح الآباء في وجوه ابنائهم في هذا السن قائلين (دا عيب ودا ما يصحش ودي قلة حياء ..) الى غير ذلك مما لا معنى له في نفسه كطفل

وهذا التغير من حالة السعادة والراحة الى حالة الايلام والايذاء والمنع من شأنهِ ان يغير الشعور بالامن الى شعور بالقلق والاضطراب وهذا اول ما يهز في الطفل ثقته بنفسه

ومما يضعفها ايضاً كثرة النقد والتحقير والتثبيط فمن شأنها ان تشعر الطفل بانهُ لا يمكنهُ ولن يمكنهُ ان يأتي عملاً مرضياً . ونتيجة هذا الشعور المؤلم القاسي ان ينزوي عن الناس ويرغب عن مقابلتهم. وان قابلهم فانهُ يظل هادئاً صامتاً منكمشاً في نفسهِ وهذا هو الشخص الخجول الحساس الذي يخشى ان تكلم او تحرك امام الناس ان يسخروا منهُ

وعلى نقيض الطفل الذي نكثر من نقده نجد الطفل الذي نسرف في مدحه . فمن الخطأ ان يظن الآباء ان كثرة المدح مشجعة للطفل . بل الحقيقة ان الاسراف فيهِ يؤدي الى شدة الغرور والاسراف في كل من النقد والمدح يؤدي الى نتائج اخرى سيئة لا يتسع المقام لها الآن

ولننتقل الى غلطة اخرى يرتكبها الآباء مع ابنائهم وهي عدم اتاحة فرصة المخاطرة للابناء. يقوم بعض الآباء بحراسة ابنائهم ومنعهم من لمس هذا خوفاً من الايلام وهذا خوفاً من جرح ايديهم ولكنهم بهذه العناية يمنعونهم من التجريب واكتساب الخبرة . نعم انهم يحافظون عليهم من بعض الخطرات البسيطة ولكنهم يحرمونهم اكتساب خصلة المخاطرة التي هي أساس الاقدام والشجاعة

والخصلة الاخيرة التي نتطلع اليها هي الاستقلال في الرأي. وكثير من الآباء يفكرون لاولادهم ظنًّا منهم ان في هذا توفيراً للوقت فيشيرون على اولادهم في كل صغيرة وكبيرة وبعبارة اخرى يملون عليهم كل شيء املاءً . وبهذا يشل تفكير الطفل لان هناك من يفكر له فيعود لا يفعل شيئاً ما من تلقاء نفسه فتكون النتيجة ان ينشأ الولد تابعاً لغيره في تفكيره وليس له في نفسه ثقة ما

فليعلم الآباء والمدرسون اذن ان من يهزُّ في الطفل ثقته بنفسه فهو انما يصيبهُ في صميمه وقد يترك لديهِ عاهة نفسية مستديمة . وأما من اراد ان يربي طفله تربية استقلالية حقة فليحذر التغيرات الفجائية في معاملة الطفل وليحذر كثرة النقد والتثبيط والتحقير . وليكبح في نفسهِ رغبة الاسراف في المدح وليكتف باظهار علامات الرضا او الاستياء على بعض الاعمال وليعطهِ فرصة اداء اعماله بنفسهِ وكذلك فرصة المخاطرة وليدعهُ يفكر لنفسهِ وليكن موقف الآباء والمدرسين موقف الموجهين ليس الاَّ . بهذا كله تنمو في الطفل ثقته بنفسه ولكنها تنمو كاملة اذا كان لنا في الطفل ثقة يحسها بنفسه فينا. فاذا حافظنا اذن على ثقة الطفل بنفسهِ واظهرنا له ثقتنا بهِ نجحنا في تنشئتهِ كشخصية قوية مستقلة

أطفال الشوارع

للسيدة برنا كمال الدين فهمي

ان مشكلة الطفل الذي يعيش في الشوارع من أهم المشكلات الاجتماعية . والمعلومات والنتائج التي سأبني عليها كلتي هي نتيجة مباحث قمت بها بمساعدة بعض اصدقائي وتناولنا فيها خمسين طفلا كانوا يعيشون وينامون في الشوارع. من المستحيل ، ان ألم بالموضوع كله في الوقت القصير الذي عندي ولكن سأجتهد ان اذكر لكم بعض الوقائع والحالات الضرورية التي ظهرت لي وأملي اثارة اهتمام جميع المهتمين بمصلحة الطفل المصري وشعورهم

لما حضرت الى مصر وسألت بعض الناس عن سبب وجود اطفال كثيرين يعيشون وينامون في الشوارع كانوا دائماً يردون علي بأحد الاسباب الآتية :

(١) كل هؤلاء الاطفال يتامى (٢) هؤلاء الاطفال عاطلون ولا فائدة منهم

(٣) توجد ملاجيء كافية لهم ولكن لانهم عاطلون لا يريدون ان يذهبوا اليها

ولكن ابحاثي اظهرت انهُ ليس بين هذه الاسباب سبب صحيح. فأولاً من الخمسين طفلاً واحد فقط كان يتيماً . ثانياً ما كان يمكن ان يقال عنهم انهم عاطلون ولا فائدة منهم. ثالثاً بالرغم من مجهودات الحكومة وبعض الهيئات الخصوصية فانهُ لا توجد موارد كافية لسد حاجات هؤلاء الاطفال

الواقع ان وجود هؤلاء الاطفال في الشوارع ومعظمهم يعيشون فيها من اشهر وسنين يدل على وجود مشاكل اجتماعية خطيرة لا بد من حلها لان استمرارها يؤثر تأثيراً سيئاً في حياة الاطفال عموماً

يعيش الاطفال في الشوارع لاسباب كثيرة مختلفة متداخل بعضها في بعض . ولكن بين العوامل الكثيرة التي لاحظتها عاملين مهمين جداً ، العامل الاول كثرة الطلاق والزواج بالنسبة لاحد الزوجين او كليهما . ان اكثر من ٣٠٪ من الخمسين طفلاً الذين درستهم وزرت عائلاتهم كانوا ضحية هذا العامل لان نتيجة هذا الطلاق والزواج كانت اهمال الطفل وسوء معاملته وكراهية الزوج الجديد او الزوجة الجديدة له وعلى العموم عدم امكان الطفل ان يتمشى مع حياة عائلية منقسمة — على نفسها — مفرقة . أما العامل الثاني المهم فكان عدم استطاعة الوالدين او اولياء الامور ان يديروا شؤون الطفل ادارة جيدة . هذا العامل ظهر في ٣٠٪ من الاولاد الذين درستهم ويرجع الى اسباب كثيرة منها (١) موت الاب او الام (٢) ارسال الطفل للعمل وهو صغير السن جداً وتحت احوال صعبة (٣) الجهل العام بادارة الوالدين لشئون اطفالهم

وعلاوة على العاملين السابقين المهمين جداً هناك عوامل اخرى كان من نتيجتها وجود هؤلاء الاطفال في الشوارع. من هذه العوامل (١) الانتقال من الارياف الى المدينة (٢) عاهات عقلية او جسمية في الطفل (٣) فساد اخلاق الوالدين (٤) اهمال الطفل (٥) رغبة العائلة في زيادة دخلها . ولكن

من المفيد جداً هنا ان نلاحظ ان هذا العامل الاخير كان عاملاً ثانوياً في الحالات التي درستها

وعلاوة على العوامل الكثيرة المباشرة التي ذكرتها هناك عوامل عامة كان لها تأثير غير مباشر ولكنه مهم جداً في مشكلة اطفال الشوارع. هذه العوامل هي (١) سوء حالة العمل (اعني ساعات عمل طويلة ومعاملة خشنة واجر قليل) (٢) الفقر (٣) عدم وجود وسائل صحية للرياضة في المنطقة وطبعاً كان نتيجة ذلك ان حركة الشوارع وضوضاءها كانت مغرية جداً للطفل (٤) نقص التعليم والتدريب على صنعة . من الخمسين طفلاً سبعة فقط ذهبوا الى المدارس ومن هؤلاء السبعة واحد فقط قضى في المدرسة اكثر من خمسة اشهر

في هذه الكلمة الموجزة ليس لديّ من الوقت متسع لان اقدم لكم صورة شاملة لحاجة هؤلاء الاطفال وآلامهم وبؤسهم الذي يثير الشفقة . ولا لأن اطيل الكلام في التأثيرات المضرة جداً التي تنتج من حياة الشوارع التي سميت بحق « مدرسة تعليم الاجرام » . وانما يكفي ان اشير الى ان ٣٠٪ من الخمسين طفلاً الذين درستهم بدأوا فعلا يسرقون . اي انهم بدأوا فعلاً حياة الاجرام . من المحقق اذن سواء من وجهة نظر تخفيف وطأة العذاب والتعاسة او من وجهة نظر حماية المجتمع من الاجرام ان هؤلاء الاطفال يستحقون شيئاً من عنايتنا . ولكن كيف السبيل الى مساعدة هؤلاء الاطفال وكيف يمكننا ان نمنع اطفالاً آخرين من الالتجاء الى الشوارع ؟ . من المهم جداً ان نفهم من الاول ان بناية الملاجىء والاصلاحيات ليست حلاً كاملا للمشكلة على جليل فائدتها . بل يجب علينا أن نصل الى العوامل الاساسية التي تسبب هذه المشكلة فنستأصلها . فاذا اردنا ان نقوم بالاعمال الواقية المفيدة وجب وضع برنامج منسجم لخدمات اجتماعية جديدة واصلاح اجتماعي شامل

لذلك فان اي برنامج هدفهُ معالجة مشكلة اطفال الشوارع يجب ان يكون على اساس مبدئين

المبدأ الاول : يجب ان يكون العلاج شخصيًّا . لان كل طفل يمثل مشكلة شخصية مستقلة. فاية مساعدة تسدى الى الطفل يجب ان تسدى بحسب حاجته الشخصية . ولا يمكن معرفة هذه الحاجة من نواحيها المختلفة الاَّ بعد دراسة هذا الطفل دراسة دقيقة في بيئته الاجتماعية —

المبدأ الثاني : سياسة انشائية الوقاية ضرورية جداً . اذ يجب علينا ألاَّ ننتظر حتى يرتكب هؤلاء الاطفال الجرائم او يثوروا ضد البيئة الاجتماعية بل يجب علينا في اي وقت كان ان نساعد الطفل في بيئته الاجتماعية العادية وهو صغير السن . وسأعرض الآن مقترحات مختصرة للخطوات التي نحن في اشد الحاجة اليها والتي يجب ان تكون جزءًا من اي برنامج انشائي مفيد لمعالجة هذه المشكلة

فأولاً يجب انشاء مأوى بسيط لاطفال الشوارع يوليهم شيئاً من العناية وذلك على سبيل الشروع فقط والى ان يتاح القيام بعمل اوسع نطاقاً . فان هؤلاء الاطفال — وفي الشتاء خصوصاً — يتحملون

ألماً وعذاباً كثيراً وينكمشون معاً في الشوارع — وهم يرتجفون برداً — طلباً لشيء من الدفء والنوم

ثانياً . لعل أفضل عمل في سبيل اليتامى الذين ليس لهم اقارب او الاطفال الذين لا يصلح اهلهم للعناية بهم هو انشاء ملاجيء او مدارس صغيرة للتعليم الصناعي او الزراعي . ولكن من المهم جداً في هذه المعاهد ان تتيح للاطفال العناية الفردية الشخصية لانها ضرورية جداً لنمو اخلاق الطفل وشخصيته . واحسن طريقة للقيام بذلك هو تقسيم الاطفال الى جماعات صغيرة تشبه الاسر ويكون شخص واحد مسئول عن جميع حاجاتهم وكل اوجه الاصلاح الخاصة بهم ويعيش على اتصال وثيق بالطفل . . . وعلاوة على ذلك فانه من المهم جداً استمرار الاتصال بالطفل ومساعدته بعد خروجه من هذه المعاهد . . من ذلك نرى اننا في شدة الحاجة الى اشخاص اخصائيين عندهم دراية كافية بطبيعة الاطفال ومشكلاتهم للقيام بالاعمال المطلوبة في هذه المعاهد

ثالثاً : نحن في شدة الحاجة الى بحث القوانين الخاصة باستقرار الاسرة وتعديلها . فالطفل المصري في احتياج شديد الى قوانين عصرية لحمايته من القسوة وتأثير فساد الاخلاق والاستغلال والاهمال . والى هيئة لتنفيذ هذه القوانين . وكذلك نحن في احتياج الى هيئة عملها الوحيد هو العناية بالاطفال المهملين والذين تساء معاملتهم . ويكون لها السلطة لنقلهم من بيوتهم اذا اقتضى الامر ذلك . أليس من الغريب ان يكون في مصر جمعية للرفق بالحيوان ولا يكون فيها جمعية للرفق بالاطفال وحمايتهم من القسوة ؟

رابعاً : نحن في اشد الحاجة الى زيادة نشر التعليم الالزامي المبني على احتياجات هؤلاء الاطفال مع العناية بالتعليم الصناعي خاصة . اما الاطفال ذوو العاهات العقلية او الجسمية ففي احتياج شديد الى تربية وحماية خاصة

خامساً : نحن في شدة الحاجة الى معاونة اجتماعية ورياضية . مثال ذلك انشاء ميادين للعب واندية للاطفال ومنشآت كمحلة الرواد يجد فيها الاطفال لذة تشغلهم وتحل محل حياة الشوارع

سادساً : نحن في شدة الحاجة الى زيادة الموارد اللازمة لمساعدة الام التي تترك بلا معين مع صغارها بعد وفاة والدهم ولمساعدة الاسر التي تعاني شدة الفقر ولكن لكي تكون هذه المساعدة انفع ما يمكن ان تكون يجب ان يرافقها مساعدة اجتماعية فعالة مجدية للاسر

واخيراً علاوة على المتطوعين فاننا في شدة الحاجة الى اشخاص اخصائيين والى شخصيات قادرة لتخصص كل وقتها للقيام بهذا البرنامج من جميع وجوهه

ايها السادة : الغرض من هذه الكلمة هو المطالبة باتخاذ الاجراءات التي ذكرتها ، هو المطالبة بالقيام باعمال للوقاية من التشرد والاجرام . هو المطالبة بمد يد المساعدة والحماية للطفل المصري المحروم . هو المطالبة بتنمية تلك المواهب الفنية كالذكاء والنبوغ والشخصية التي توجد في هؤلاء الاطفال والتي اذا نميت تزيد كثيراً في ثروة الامة المصرية وهنائها وتساعد على رقيها وتقدمها

دكتاتور المنزل

لامين الغريب

سادتي : ليست الارض وحدها تدور . بل كل الحياةِ عليها دائرة تهبط اليوم بمن كان عالياً بالامس وتعلو بمن كان هابطاً . انظروا الى مركز الاب في الاسرة ولا نبعد الى العهد الهمجي اذ تربع في دست الرآسة جباراً عنيداً يأمر بالموت والحياة، يبيع بنيه ويئد بناته حين يشاء ، بل تنحدر الى عهدقريب اذ تلطف مع الايام فصار يكتفي بان يحتل رأس المائدة يلتهم اطيب الطعام بلا اعتراض من زوجة ولا حملقةمن ولد، يتكلم فيكلالعلوم والفنون، وامرأته وأولاده يصغون ويتساكتون ، وعلى كل كلمة يؤمنون، ولـكل اشارة يخضعون ، ذلك عهد ذهبي كان للآباء ولن يكون ، وباطلاً يتنهدون وعبثاً يتحسرون

وجاءَ عهد صارت فيهِ الام في المنزل كالملـكة في الخلية صاحبة السلطة المطلقة والقول الاخير. عهد تراجعت اصوله الى زمن بعيد ينتسب البنون فيهِ الى امهم لا الى ابيهم وامتدت ذيوله الى عصر قريب يجنى الاب فيهِ ويحلب كالبقرة الحلوب وزوجته وبناته كزنابق الحقل لا تتعب ولا تغزل ومع ذلك سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فهل من عجب ترى بعد نزول الاب عن كرسي الدكتاتورية وارتقاء الام ان يدور الزمان دورته الطبيعية وتنزل الام ايضاً ليحل محلها دكتاتور جديد

هذا العصر يا سادتي عصر الولد في الاسرة البشرية. يجلس على العرش الذي نحن لهُ أقمناه ومن حنايا ضلوعنا بنيناه ويحكم بالامر الذي ولیناه

***

لما كان البشر في اوائل عهدهم يعيشون في الآجام والـكهوف متقاتلين وفاتكين بعضهم ببعض كانت علاقاتهم العائلية ضعيفة يحمي الـكبار صغارهم الى أجل معين ثم يتركونهم ليتولى كل فرد مهمة الدفاع أمام الخطر عن نفسه وكلما أمعن البشر في الحضارة والترف ازداد اتكال الاولاد على والديهم ومال الوالدون الى اطالة عهد الطفولة فيهم حتى قال أحد كبار الاجتماعيين في اوربا آخراً ان المتمدنين صائرون الى عهد قريب لا يبلغ الانسان سن الرشد فيهِ حتى الاربعين

وفي الواقع يصل اليوم الى سن الرشد كثيرون وهي الحادية والعشرون لـكنهم لا يرشدون.

وهكذا نجد الحضارة الحديثة تبتدع العجائب في اختراعاتها وتم من العظائم ما يعي الجبابرة وفي الوقت عينه تتلطخ بآثام حقيرة يقترفها إشخاص بلغت اجسادهم سن الرشد وظلت عقولهم تدب على الركبتين . فهم كبار يرون آراء الصغار . وهم رجال يعملون كالاطفال

مع ان الغرض من وجود الاسرة هذه الجامعة التي بارك الله فيها واعتمد التمدن عليها انما هو تهذيب الطفل كي ينضج ويتمرن على واجب التعاون مع الناس . فاذا تناست الاسرة هذا الغرض وصيرت محض وجودها غرضاً لا وسيلة لادراك ذلك الغرض وجعلت من صغارها ألاعيب في أيدي كبارها ، اذا لم تمرن الأسرة أطفالها على طرق الاستغناء عنها والاندماج في أسرة العالم الكبرى شذت عن وظيفتها الحقيقية وأخفقت في مهمتها الطبيعية وهي اعداد بنيها لعضوية الهيئة الاجتماعية

***

اذا نظرنا الى الاحتياجات الجديدة في هذا العصر وجدنا النظام الذي نتمشى عليه في تربية أولادنا لا يسد هذه الأحتياجات . نحن في دور انتقال تريد التمسك بأساليب ألفناها في عصر سابق فنصطدم بمقتضيات حضارة جديدة غزتنا من كل جانب وتغلغلت في صفوفنا واجتاحت منازلنا رغم انوفنا مدفوعة بتيار شديد لا ينثني ولا يحيد . فصرنا نتكتم جهراً في ما نحافظ عليه سرًّا . ونستهجن التمدن الحديث وندعي على مضض أننا آخذون باهدابه لئلا تتهمنا الأكثرية العالمية بالتأخر والرجعية . فاذا اخلدنا الى نفوسنا او الى الاصفياء المتناقصين يوماً فيوماً من أصدقائنا استسلمنا الى التأوه والتبرم ونادينا بالويل والثبور وعظائم الامور

وكان مثلنا مع التيار الجارف مثل ذلك القروي الساذج الذي جاء القاهرة لاول مرة وسار على خط الترام . واقبل السواق من خلفه يقرع له الجرس ويناديه « حوّد يا راجل . حوّد يا راجل » وهو ماش مطمئن . لا يكترث ولا يهتم حتى اذا اقترب السواق منهُ صاح بهِ : « ماتحوّد يا راجل » فالتفت قليلاً واجاب « حوّد انتا »

هذا النزاع الداخلي الحالي في اعماق نفوسنا بين ما نحن وما يجب ان نكون طبيعي في كل انقلاب من حال الى حال وهو منشأ الفوضى الاجتماعية التي تروّعنا وتذهلنا في هذه الايام وتبدد امتنا طبقات متباعدة تكاد تنفي كونها أمة واحدة وتدفع اولادنا الى ما يسوءنا من خطط ويخيفنا من عراقب فلا تكاد ترى والداً يستصوب سلوك بنيه . ولا ولداً يؤمن بمعارف أبيهِ . واضمحل كالهباء المنثور قول الشاعر المأثور :

والابن ينشأ على ما كان والده ان الاصول عليها ينبت الشجر

لكن للمسألة وجهاً آخر ، ولكل مسألة في الدنيا وجه آخر . فكيف ننتظر يا سادة من ولد تفتحت عيناه في المهد على طيارات سابحة في الجو تبسط سلطة الانسان على مملكة النسور . وغواصات نازلة في اليم تنازع الاسماك أسرار البحور . وأذناه على هدير سيارات خاطفة كالبرق . وراديو ناقل الى غرفته أحاديث الارض بالطول والعرض — كيف ننتظر منهُ وقد تلقى هذه الغرائب مع فطرتهِ الاصلية مألوفة طبيعية ان يحترم آراء والده الجائرة وأفكاره الحائرة بين حقائق العصر الحالي وخيالات الزمان الخالي

على ان للوالدين حقاً مقدساً في توجيه خطى الاطفال الى الطرق القويمة وسبيلهم الى ذلك أن يبدأوا العمل في الوقت المناسب

عقدت نقابة الاطباء البريطانيين مؤتمراً في ملبورن خطب فيهِ الدكتور سطن أستاذ طب الوقاية في جامعة سدني فقال : « ان أهم السنوات في تكوين اخلاق الطفل هي بين الثانية والخامسة . في هذه الاعوام الثلاثة تذاب طباعه وتصهر ويصنع منها كيانه المقبل . فعاداته وميوله وأطواره ومخاوفه حتى أسباب صحته وأمراضه تنشأ كلها في ذلك العهد الباكر »

***

اجل وفي هذه الاعوام ايضاً يبالغ الاهل في تدليل الطفل والترفيه له حتى يصير بطبيعة الحال دكتاتوراً

جاءت امرأة فقيرة الى جيرانها الاغنياء تشكو لهم بلباقة ان ابنهم رشق نافذة بيتها بحجر فحطم الزجاج . فصاحت أمه متهللة : « تسلم عينه . وهل استطاع ذلك . بالله عليك هاتي الحجر لنحفظهُ مع مآثر طفولته كي يسر برؤيتها حينما يكبر »

وهكذا أيها السادة ، ما بين رخاوة الابوين وجهلهما الملقيين خطأً بالعطف والحنان ينشأ اليوم في كل منزل طاغية عنيد هو بالقياس الى محيطه والوسائل الميسورة له أشد تحكماً من تيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو . وهكذا كلما امعنا النظر في الاسباب التي تمهد للطفل سبيل الدكتاتورية وجدناها صادرة من اهله لامطبوعة فيهِ

تظهر في بعض الاطفال مزايا تسوء والديهم . فيتكل هؤلاء على الزمن في اصلاحهم . هذا يميل الى الكذب والاحتيال وذاك الى الضرب والتعدي وذلك الى السرقة او اشعال النار او تحقير الناس . فيقولون ان الزمان كفيل بتقويم هذا الاعوجاج . ياهذا ان الزمان يغير بعض المظاهر . لكن ولدك مريض في اخلاقهِ فداوه بالتعليم والارشاد . وان تشعر بعجزك عن ذلك فاستنصح واستشر ولا تتكل على الزمان لأنك بهذا الاهمال الجنائي تهيء لوطنك اعداء داخليين اشد خطراً عليهِ وفتكاً بهِ من أعدائهِ الخارجيين

في لندن معهد مخصوص لاصلاح الاولاد الشاذين . أسستهُ الدكتورة بهلر الاستاذة في جامعة فينا . وقضت وقتها من أجله متنقلة بين انكلترا والنمسا . فتقاطر الناس اليها من كل فج وصوب لنجاحها في وقف العلل قبل استفحالها . وقد نظمت سلسلة من الوف الحوادث التي عالجتها . واستنتجت من مجموع تلك الحوادث ان الآباء والامهات أولى بالاصلاح من الاطفال. جيئت يوماً بولد اخرس عمره ثلاثة أعوام . فقادها البحث في امره الى سبب غريب هو ان امه ذكية جدًّا تدرك ما يريد الطفل قبل ان يطلبهُ . وهو حبيب قلبها طبعاً فتلبيه دون ان يشعر بحاجة الى الكلام . قال الشاعر العربي : « ذكاء المرء محسوب عليهِ ». اما هذه المرأة فكان ذكاؤها محسوباً على طفلها . وقد عولج الولد في المعهد بمحض ابعاده عن امه الذكية . فصار الآن من فصحاء اللسان

كل ولد في الدنيا يتمنى لو يكون رجلاً . ويغتبط في ان يعامل كرجل . كانت احدى الامهات الفقيرات تعطي ولدها الصغير مكنسة كبيرة فيسر بها جدًّا ويكنس مدخل البيت . ويمر بهِ اولاد الاغنياء فيحتقرون مكانسهم الصغيرة ويقفون ناظرين اليهِ بين الحسد ويتمنون لو تثق بهم امهاتهم كما وثقت بهِ امه . اذاً لكانوا يكنسون البيت مثله بطيبة خاطر

ألولد يحب القوة ويميل الى كل شيء قوي . واذا كان يضج ويصخب ويضرب الصفيح في المنزل فلان الضجيج يمثل في رأيهِ القوة . هذا الميل فيهِ قابل للتعديل والتحويل الى مظاهر الشهامة والاباء والمروءة . ولكن بالايضاح والاقتراح لا بالاستبداد والتحكم . قال فنلون . « ما من قوة بشرية تستطيع نزع الحرية من صدور البشر. ان الضغط لا يعلّم الناس بل يحولهم الى مرائين » وقال لامرتين : « كل نفس بشرية في صباها تكون ديمقراطية والبرهان على ان الحرية هبة من الله هو انها اول حلم من احلام الشباب » وما اصدق امام العرب الكبير عمر بن الخطاب حيث يقول : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً »

لهذا السبب ايها السادة منعت الحكومات الراقية ضرب الاولاد لا في المدارس وحدها بل في البيوت ايضاً. ومنذ عهد قريب رأيت في جريدة اميركية صورة امرأة مسجونة وراء الحديد وتعلمون لماذا ؟ لمحض انها ضربت ابنتها الصغيرة بخيزرانة على اسفل ظهرها . رحم الله افلاطون الذي قال : « لا تقسروا اولادكم على آدابكم فانهم مولودون لزمان غير زمانكم »

***

وعلى ذكر البنات الاميركيات وتقلب الايام والتبدل الدكتاتوري في المنزل ، أروي لكم طرفة صغيرة من عهدي في نيويورك اعادها الى ذهني زواج الاميرة جوليانا ولية عهد هولندا منذ عشرين يوماً

فقدتزوجت امها الملكة ولهلمينا قبل ٣٦ عاماً . فانتدبت جريدة ايفنن جورنل كاتبة اميركية هي السيدة الاهويلر ولككس الشاعرة المشهورة للذهاب من نيويورك الى لاهاي وموافاتها بوصف الحفلات . واذكر من رسائلها مقابلتها الاولى للعروس . والروع الذي تملك لبها عند اقترابها في الموعد المعين من الغرفة الملكية . ثم قالت : « ترددت امام الباب خاشعة كيف اجالس انا المرأة العادية ملكة من ربات العروش ! ولكن بعد هنيهة تذكرت اني من بلاد كل امرأة فيها ملكة . ودخلت مطمئنة »

فهذه الطمأنينة الفكرية ، في المرأة الاميركية ، سرى مكروبها اليوم الى جميع فتيات الكرة الارضية . ذهب الحياء الذي كان اسلافنا يرونهُ زينة الزينات للنساء والبنات . وحل محله الاطمئنان المرسوم على وجوه ساطعة انيقة ، وقامات هيفاء رشيقة ، تمشي في المحافل كالسمهريات الذوابل لكن السيدة ولككس على حسن حالها لم يكن لها من المظاهر الخارجية ما تطاول به ذوات التيجان . ولهذا لم تتكل في راحتها النفسية على شعرها المعقوص المموج وثيابها الفاخرة بل على علمها الصحيح وذهنها المتوقد . لا بأس في ان يذهب من اولادنا الحياء السالف ليحل محله اقدام منبثق من العلوم والمعارف . لكن الخطر الخطير والشر المستطير في ان يذهب الحياء ولا يخلفهُ شيء من هذه الاشياء

ثم ان الولد يميل الى من يشعرون شعوره فلا تسخروا باولادكم ايها الوالدون ولا تتهكموا عليهم بل دلوهم على مكان الخطأ بلطافة وبمعذرة . بلطافة لان التهكم سهم حاد يجرح الولد في قلبه جرحاً لا يندمل . ويريه في اهله اعداء لا اصدقاء . وبمعذرة لان اجدادنا العرب كانوا اساتذة كباراً في الكرم وقد تركوا لنا فيه امثولة دقيقة . فلم يقولوا « الكريم من اعطى » بل قالوا « الكريم من عذر »

لقد ربيتم اولادكم واطعمتموهم واسقيتموهم لكن فيهم خلة اساسية اودعها الله في كل رأس وهي عزة النفس . فهلا حسبتم لهـا حساباً ؟ انت يا سيدي قد تطعم الجائع وتروي غلة العاطش وتحسب انك رفعت السماء عن نفسه . لكن كلمة واحدة منك جارحة لنفسه العزيزة تذهله عن كل فضلك وتنسيه جميل فعلك لأن عزة النفس ليست في معدة الجائع كي تظن ان اشباع جوفه يعفيك من احترام عزة نفسه

أحصت الولايات المتحدة اولادها آخراً . فعلمت أن بينهم عشرة ملايين ولد مرضى في جسومهم أو اخلاقهم او عقولهم فراع الحكومة مستقبل الدولة يبنى على مثل هذا الاساس ولم تقل « بعدي الطوفان » كما قال لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وكما يقول الموظفون المستهترون وهم في الدنيا كثيرون . كلاَّ بل انشأت فوراً مصلحة عامة للعناية بالاولاد . وانتدبت جيشاً من

الاطباء والممرضات والمعلمين والمعلمات يطوفون في طول البلاد وعرضها يعلمون الغافلين من الوالدين والجاهلات من الوالدات حسن تنشئة البنين والبنات ثم سمت لدى البرلمان فقرر معاشاً للامهات الفقيرات كي تتحسن حالة الاولاد على نفقة كل الوطن الذي سيكونون يوماً عماده

ولم تحرم عنايتها قرية ولا دسكرة لاعتقادها ان ساكن الريف بشر لا تقل قيمة نفسه عن نفس الغني المقيم في واشنطون او نيويورك . وان طفلاً صغيراً في قرية حقيرة قد ينبثق منهُ للعالم بستور او اديسون

موسى كليم الله ألقتهُ أمه الفقيرة على ضفة النيل كي تحنو عليهِ المثريات والسيد المسيح لم يولد في قصور الاغنياء بل في مغارة صغيرة. والنبي محمد الرسول الكريم لم ينشأ بين الحرير والديباج والقطيفة والاطالس . ومع ذلك أي رأس شامخ في الاجيال لا ينحني حتى الحضيض امام المهود الصغيرة التي احتضنت منذ عهد بعيد أولئك الاطفال الثلاثة !

احترموا جميع الاطفال أيها النساء والرجال . لان علم الغيب لم يعط لكم فتقولوا : ان هذا الطفل الحقير ابن ذلك الرجل الفقير ليس مهمًا ولن يصير . عولس غرانت رئيس الولايات المتحدة كان صعلوكاً زريًا مهملاً الى سن الاربعين وبعد ذلك برزت في نفسهِ العوامل الكامنة فخاض غمار الحرب الاهلية وكان أول من قاد في التاريخ مليون جندي الى ساحة القتال . ومن كان يدري سنة ١٧٦٩ ان ذلك الولد اللاعب في أزقة اجكسيو من جزيرة كورسكا سيسوق يوماً امبراطرة العالم بعصاه كالغنم ويدعى نابوليون بونابرت. ومن كان يدري في مدينة قوله البلقانية الصغيرة ان طفلاً من اطفالها اللاعبين في ازقتها اسمهُ ابراهيم سيقف عند بلوغه الخمسين امام اسوار قونية يهدد السلطنة العثمانية ويروع دول اوربا على رأس جيشه المصري الظافر . ومن كان يدري في حي بني مخزوم من بلاد العرب ان طفلاً ولدته لبابة الصغرى بنت الحارث وهو يلاعب قدميه بيديه ولا يعرف أله قدماه أم لسواه — من كان يدري ان ذلك الطفل الصغير سيخوض في سن الخمسين معركة ذات السلاسل وهو من أعظم قادة التاريخ يلقب بسيف الله ويدعى خالد بن الوليد

لو تراخى والدو هؤلاء الاطفال معهم وأباحوا لكل طفل ان يصير دكتاتوراً في منزله لانحصرت عظمتهم كلها ضمن جدران البيوت التي ترعرعوا فيها . وما هدموا ولاشادوا ممالك ولا عرفت عنهم الدنيا شيئاً بعد ذلك . فلا تسمح ايها الوالد بان يكون ابنك دكتاتوراً . ولكن لا تتحكم انت فيه ولا تجر في حكمك عليه . بل ابعد الروح الدكتاتورية عنك وعنهُ لانها مستنكرة منك ومنهُ . وقد يصير هذا الولد الصغير عظيماً عالميًا. بعد ما تصير انت نسياً منسيًا

القاهرة امين الغريب

اللعب فى حياة الاطفال

للدكتور علي فؤاد بنى
مدير قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة

سادتي : موضوع مقالي الليلة « اللعب في حياة الاطفال » وكان يجدر بي أن أجعل عنوانه « اللعب حياة للأطفال » لأكون أصدق تعبيراً وأدنى الى الواقع والحقيقة اذ ان الحركة واللعب هما روح الطفولة ودليل الصحة

حياة الطفل تطالبهُ بالحركة لينمو ويكبر — لذلك نراهُ يقضي نهاره يمرح ويلهو . ولكن يظهر مع الأسف ان كثيراً من الناس يجهلون أو يتجاهلون هذه الحقيقة . كم من أمٍّ شكت ضعف وليدها وهي لا تفتأ تربطهُ باللفائف وتمنع أعضاءه عن الحركة وهي ألزم اليه من الغذاء

يجب ان تدرك الأم أن من الضروري — اذا أرادت لطفلها جسماً نامياً — أن تترك لهُ الحرية التامة ليتحرك ويلعب بين الهواء النقي والشمس المشرقة . اذ ان الحركة تزيد سرعة الدورة الدموية فيزداد تبعاً لذلك الاكسجين والغذاء الذي يصل الى الأنسجة ، بالحركة والرياضة تقوي العضلات والأعصاب وأعضاء التنفس فيقل استعداد الطفل للمرض ويصفو دمه وينضر لون وجهه . الحركة تساعد عملية الهضم كما تساعد على افراز العرق وتزيد شهوة الطفل للطعام

بدأت بالكلام عن الحركة لأنها أسبق من اللعب ظهوراً عند الاطفال

يأتي الطفل أول عهده بالدنيا ببعض الحركات البسيطة كالبكاء وتحريك الاطراف فاذا وصل الى شهره الرابع أمكنهُ ان يرمي ما بيده ثم اجتهد في الحصول عليه وواجب الأم في هذه السن أن تقدم لهُ أشياء صغيرة غير مضرة بصحته . أو قابلة للكسر كالكرات المصنوعة من المطاط . فاذا حان للطفل ان يحبو لزم أن تسمح لهُ بذلك على ملاءة نظيفة مدة ساعتين كل يوم وأن تتركهُ ينهض على ركبته كلما عنّ لهُ ذلك ولا بأس من مساعدته بعض الشيء . فاذا أتقن الطفل تمرينه هذا فانهُ يتدرج منهُ الى نزول درجات السلم وهذا التمرين الأخير يقوي عضلاته ويبث فيه الشجاعة — يأتي بعد ذلك دور الوقوف ويليه دور المشي وعند ذلك يتسع المجال أمام الطفل للجري والوثب واللعب ويعرف في هذا الوقت كيف يرضي رغباته وغرائزه

سادتي : بعد سن الثالثة تزداد قدرة الطفل على الحركة فنراهُ لا يستطيع السكون ولذا يسمى هذا الدور بدور النشاط واللعب . وفي هذا الوقت تنمو حواس الطفل وتظهر غرائزه كلما تقدمت به السن . وفي هذا الدور تتأثر حياة الطفل الى حد بعيد وبالتالي يتوقف مستقبله على أمور ثلاثة أولها الوسط الصالح الذي يعيش فيه كالأهل والزملاء . ثانيها — الألعاب التي يميل

اليها — ثالثها — ملاحظتهُ وارشاده لتتجه ميوله في اللعب الى النافع المفيد من الوجهتين الجسمية والخلقية والعقلية . لذلك يزداد واجبنا نحوه عن ذي قبل

لا شكَّ في ان البيت هو أول مكان لأطوار اللعب والأبوان هما أول من يعنى بالأطفال ثم يأتي بعدهما المربون سواء في مدارس رياض الأطفال او المدارس الابتدائية ، وسيبقى دائماً أبداً لألعاب البيت شأنها الخاص في تعليم الأطفال وتعويدهم حسن الخلق وحميد الصفات .

عرفت الأسرة الأوربية مزايا ألعاب المنزل وما تجلبه من سعادة حقيقية . فخصصت للأطفال غرفة في المنزل للألعاب وسمحت لهم بالمرح والجري والوثب والصياح والغناء في فناء المنزل وحديقته ووضعت لهم في الحديقة أدوات اللعب وحددت مواقيت الالعاب مع تخصيص أيام الآحاد للنزهة في الحدائق العامة والحقول ولزيارة الأهل والجيران ليقضي الأطفال أطول وقت ممكن في الهواء الطلق والشمس المنعشة . بهذا العمل تنسى هذه الاسرة متاعبها وتتمتع بقسط وافر من السعادة والهناء وتعلم أولادها معنى العشرة وقيمة الصداقة وترضعهم منذ الصغر حب الفضيلة والاخلاص

سادتي : يتساءل الكثيرون — ألم يكف ما نتحمل في سبيل تعليم أطفالنا في المدارس حتى تفرض علينا واجبات جديدة نحو لعبهم . وجوابي لهؤلاءِ ان اللعب هو نوع العمل الذي يرتاح اليهِ الطفل . وان الطفل انما يفضل لعبة على أخرى طبقاً لميولهِ وغرائزه فواجبنا نحو لعبهِ لا يقل عن واجبنا نحو المدرسة . لا تقولوا اننا سنترك الحرية لأولادنا في اللعب ما دام ذلك من حقهم للاحتفاظ بالصحة وليتركونا في راحة من أمرهم — لا ياسادة ان عليكم واجبات أخرى لا تقل عن كل ما تقدَّم وسأجتهد ان ألخصها لكم في الأمور الآتية .

أولاً — عليكم بدرس ميول أطفالكم اثناء اللعب لتنميتها وتوجيه غرائزهم توجيهاً نافعاً ولنضرب مثلاً لذلك غريزة المحاكاة . فاذا لعب طفلك بعصاه الخشبية ممثلاً دور الفارس وجب ان تلفت نظره الى خلوها من اللجام ثم تتدرج معهُ من اللجام الى السرج ومن السرج الى العربة والاسطبل . انك بعملك هذا تكون خير مرشد وشريك لطفلك على فهم ما يحيط بهِ من الأشياء . اما الواجب على المربي في المدرسة فلا يقل عن الواجب عليك لأنه يشجع الأطفال على محاكاة الخطباء والممثلين والمغنين وتقليد الرسوم ومحاكاة بعض الأشغال اليدوية . وما يقال عن غريزة المحاكاة يمكن ان يطبق على باقي غرائز الطفل

ثانياً — عدم السماح للاطفال ببعض الالعاب الضارة كاللعب بعلب الثقاب والمفرقعات والسكاكين او الاشتراك في المراجيح او الاضرار بالغير بقصد الفكاهة والضحك او هدم اعشاش الطير او حضور حفلات السينما في سن مبكرة

ثالثاً — الحرص على اختيار الزملاء في اللعب وان تكون ألعاب الجماعات تحت مراقبتنا

وارشادنا ولا بأس بمشاركتنا لهم اذا اقتضى الامر ذلك ليتذوقوا جمال الالفة والمعاشرة وليعرفوا حقوق الزمالة . فالطفل وسط رفاقه يشعر بضرورة خضوعه لقانون الجماعة والا ابعد من بينهم فنراه دائماً يعمل لكسب مودتهم فيمتثل للنظام ويضحي برغباته الذاتية اذا تعارضت مع رغبة الجميع . ان ألعاب الجماعات النظامية مع ما فيها من فائدة جسمانية تغرس في نفوس الاطفال حب النظام واحترام السلطة والمنافسة الصادقة والتغلب على العقبات وضبط النفس عند النصر والصبر عند الهزيمة والاعتراف بغلبة الغير

رابعاً — تحديد ساعات اللعب واختيار الاماكن الصالحة للالعاب واللعب الموافقة للسن والميول وتخصيص حجرة بالمنزل اذا امكن لتمريناتهم واستصحابهم للنزهة وزيارة الاقارب والجيران

خامساً — علينا ان نملأ عطلتهم الصيفية بكل ما يبهجهم ويعود على صحتهم بالنفع فنصحبهم مثلاً الى بلاد السواحل ليقتسموا وقتهم بين لعب في الماء وجري على الرمال . وما ابهج ان نراهم اكثر النهار يبنون من الرمال بيوتاً ومدناً يلعبون ويمرحون بكامل حريتهم بين الهواء النقي والشمس الساطعة يلاطمون الموج ويملأون صدورهم بالهواء فاذا حان وقت عودتهم رجعوا وقد اكتست اجسامهم سمرة تنم على انتعاش وصحة

سادساً — تشجيع الاطفال على الاشتراك في الفرق الرياضية بالمدرسة (كالكشافة وكرة القدم وكرة السلة والسباق والسباحة) لتقوى أجسامهم فتقوى مداركهم تبعاً لذلك

سابعاً — السماح لهم بالاشتراك في الرحلات المدرسية لما في ذلك من مزايا عظيمة الاثر من الوجهتين الجسمية والخلقية او العقلية

ثامناً — الاستعانة بالموسيقى والأحاجي والقصص في وقت الفراغ في تنمية الحواس وتهذيب النفس ويجب ان تجمع القصص بين الفكاهة والعظة البالغة لتكون داعية للفضيلة ولا بأس من ادخال المعلومات في قالب قصصي مشوق جذاب كسير الابطال وحروب الامم ورحلات المستكشفين

سادتي : قبل ان اختم مقالي أرى لزاماً عليَّ أن أنوه بفضل (فروبل) الذي عرف طبيعة الطفل وميله للعب وتفوره من كل ما يقيد حركاته من مقاعد خشبية او نظام بغيض فأعد مدرسته التي أسماها (روضة الاطفال) ولم ينس ان يلبس العلوم ثوب الزخرف واساليب الالاعيب وبذلك كسب حب الاطفال ونجح في استدراجهم لقبول مايفرضهُ عليهم وراح يعطي دروسه في الهواء الطلق ممزوجة باللعب فتحاشى بذلك الوقوف امام ميلهم للحركة وطبيعتهم الطروب ووصل في الوقت نفسه الى غرضه من تقوية اجسامهم وتهذيب مداركهم فكللت اعماله بالفوز واصبحت رياض الاطفال في عهدنا تزرع الميل والرغبة في الدراسة وتسير بالنشء شوطاً بعيداً نحو الرقي والكمال

تأثير صحة الأم في صحة الطفل

للدكتورة كوكب حفني ناصف
مديرة مستشفى كتشنر

يهمل الكثيرات من نساء مصر الاعتناء بصحتهن ، فيسبب لهن ذلك أمراضاً قد تغدو مزمنة مستعصية العلاج . فالمرأة الفلاحة تضع طفلها عند الولادة ثم تبادر الى العمل بنشاط في أشغال المنزل أو الحقل فيسبب ذلك انتقال بعض أعضائها التناسلية الداخلية من مكانها داخل البطن وتظل المرأة معلولة الى الأبد . وليس الذنب في ذلك ذنبها هي قدر ما هو ذنبنا نحن الذين لم نفهمها في وضوح أن الربح الذي يعود عليها من مبادرتها الى العمل عقب الولادة ضئيل جداً إذا قيس الى الخسارة الفادحة التي تنالها من جرائه

وكذلك يشاهد فقر الدم في الفلاحات الفقيرات لسكناهن أكواخاً طينية لا تصح مقابلتها بعقار الطبقة الوسطى بله الغنية من أبناء هذا البلد ، وتشاهد بعض الأمراض الجلدية أيضاً كالبلاجرا نتيجة لسوء التغذية . وقد صارت مصلحة الصحة وزارة كبيرة ذات نفقات طائلة ونرجو أن تقوم بعمل سريع في سبيل إصلاح هذه الحالة . ومن المعروف أن جميع الامراض المتوطنة في مصر وفي الريف خاصة كالرمد والبلهارسيا والانكلستوما منتشرة بين الرجال والنساء على السواء ، وهناك امراض اخرى خاصة بالنساء كأمراض الجهاز التناسلي في المرأة . وعلينا أن لا ننسى البدانة ايضاً فانها مرض قبيح منتشر بصفة خاصة بين نسائنا المتزوجات اللواتي لا يقمن بأية حركة لحرق المقادير العظيمة التي يأكلنها من الاغذية الدسمة التي لا يكاد يعرف لها مثيل في البلدان الخارجية

ولا ريب أن سقم ربة البيت يجعلها تشعر بالبؤس — وإن لم تفطن هي الى ذلك — ويصرفها

عن العناية باطفالها ، ويجعلها ذات اخلاق غير رضية فتنشر في البيت جوًّا من التعس يحدث أثره السيءَ في هناءِ الاسرة وفي مزاج زوجها وأولادها

وهنالك امراضٌ — كمرض السل وبعض أمراض القلب — تُعرّض المصابة بها عند الوضع لخطر الموت ، وهنالك امراض يرثها الطفل فلا يبصر نور الشمس الاَّ وهو محكوم عليهِ مقدمًا بالشقاءِ المؤبد . ولو ان رجالنا شاهدوا بعض الاطفال المشوّهين الذين أصيبوا وهم في بطون أمهاتهم بمرض معدٍ كالزهري فخرجوا الى هذا العالم ضعيفي العقل بُلهاءَ مكسّحي الايدي عسري النطق، لادركوا وجوب العناية بالأم باعتبار ذلك جزءًا من العناية بالطفل . وقد قررت الحكومة المصرية ضرورة تقديم طالبي الزواج وطالباته شهادات طبية تقرر خلوّهم من الامراض المعدية ولكنَّ هذه الاجراءات تكاد تكون شكلية ليس لها قيمة حقيقية . أما في اوربا فالعناية بالفحص الطبي أتم ، بل إن بعض البلدان جرى على تعقيم النساءِ والرجال المصابين بأمراض وراثية سواءٌ أكانت عقلية ام جسمانية

وتحدث عدوى الأم لابنها ببعض الامراض كالزهري عن طريق الصبغيّات (الكروموسومات) التي في بويضتها، وهنالك امراض اخرى يرثها الجنين بعد تكونهِ. واذا كانت إحدى النساءِ مدمنة شرب الخمر فانها تصيب ابنها عن الطريقين معاً فيجيءُ ضعيف العقل فاقد العزيمة متعطل الاعصاب كارهاً للعمل ذا عينين مطفأتين لا يعبران عن اي نشاط ولا يستطيع تركيز فكره في شيء معين . ولحسن الحظ لا يكاد يوجد في مصر نساءٌ أدمنّ الخمر

وعدا ذلك فهناك أمراضٌ كثيرةٌ كالرمد الصديديّ والسل، تورثها الأمُّ لطفلها بعدولادته، وبذلك تكون قد جنتْ عليهِ اكبر جناية على الرغم من الحنان الزائد الذي تظهره نحوه بلا فائدة

واني لأقررُ بكل أسفٍ أن عدداً كبيراً من أبناءِ الريف عندنا ما زالوا ينظرون الى المرأة نظرهم الى شيء قليل القيمة حتى انهم يستحلون أن يحرموا بناتهم من ميراثهنَّ الشرعيّ ليزيدوا من نصيب اولادهم الذكور ، بل إن البعض منهم يعنون بمعالجة جاموسهم والمحافظة على صحته اكثر مما يعنون بمعالجة نسائهم . فمثلُ هؤلاءِ الرجال يجب افهامهم أن إهمالهم المرأة المسكينة لا يقتصر على الاضرار بها وحدها بل يُشرك في جحيمها اولادها الحاليين والمقبلين

الاطفال الخدم

لفتح الله محمد المرصفي

مفتش التعليم بمصلحة السجون المصرية

﴿ تمهيد ﴾ صاحب السعادة الرئيس ، سيداتي ، سادتي : يحيط بالامة المصرية كغيرها من امم العالم خاصة بعد الحرب الكبرى مشكلات سياسية وأخرى اقتصادية وأزمات مالية ومعضلات كبرى اجتماعية لا حد لها ولا نهاية، الى عدم استقرار في سياسة التعليم العام بين ابنائنا في المدن والقرى الى اصلاح القرية واسعاد الفلاح . تلك المعضلات مع اهمال الاخذ في اسباب علاجها والتغلب عليها وعلى ما يحيط بها من ظروف لا شك انها ستجعل حل كل مشكلة وما يتفرع عليها عسيراً الا اذا هبّ القوم عاملين ملبين صوت الرأي العام فتتعاون الجماعات وتتضافر الهيئات والحكومة متجهة الى الاصلاح الاجتماعي المنشود — وحينئذ يسهل حل كل ما استعصى من معضلات . ومن اهم معضلات اليوم مشكلة الخدم وأخصها « مشكلة اطفالنا صغار الخدم»

﴿ منازلنا والخدم ﴾ اصبحنا اليوم ولم يخل منزل من منازلنا منهم. وحتى من لم يزد دخله على ثلاثة جنيهات شهريًا لا بد وان يكون لديه او تابع لزوجته خادم او خادمة قد لا تزيد سنها على سبع سنوات ولا يمكن الاستغناء عنها ولا ترضى ان تعيش بغيرها او بدونها — هؤلاء الاطفال صغار الخدم هاجروا من الريف في طلب الرزق وفراراً من الفاقة والجوع . فهم على هذا يجهلون مهنتهم « الحديثة » لا يدرون من امرها شيئاً ولا من « التدبير المنزلي » كثيره ولا قليله بل انهم انفسهم احوج ما يكونون الى ان يتعرفوا ابسط قواعد النظافة الشخصية

فاذا جاز لنا ان نشير الى مجموع الخدم في انحاء المملكة المصرية من واقع احصاء الدولة لسنة ١٩٣٢ بما قدر ٢١٢ ٨٣٧ فما ذلك الا لنتبين نسبة صغار الخدم من هذا الاحصاء بما قدر ١٠٥٥٤ وممن لا تزيد اعمارهم على اربع عشرة سنة . وغير هؤلاء ممن نرى لزاماً علينا ان نخصهم بالذكر في هذا اليوم « من ايام عيد الطفل » ومن هم لا يزالون بين جدران السجون ودور الاصلاحيات يقضون مدد احكامهم جزاء ما اقترفوا من جرائم وآثام بين ظهرانينا وفي منازلنا

ومما هو جدير بالذكر تنبه القوم الى مهاجرة القرويين الى المدن والمحافظات فها هي شغلت الافكار فعالجها المفكرون من قادة الرأي العام وها هي ذي حكومتنا الرشيدة الدستورية ساهرة عاملة على تنفيذ برنامجها الاصلاحي لخير الفلاح والقرية المصرية مما سيكون له اثر ظاهر في حياة الاحداث الهمل وصغار المجرمين ومن وجدوا السبيل الى الخدمة المنزلية والتشرد والاجرام في المدن دون اي عناية او مشقة

﴿ جرائم صغار الخدم ﴾ لعلنا نتعظ بأغاليطنا وحوادث الخدم بيننا ونتعلم . فاذا لم نستطع سرد اقرب الحوادث واشهرها في هذه العجالة فلا اقل من اجمالها في جرائم السرقة والحريق والنصب والتزوير وهتك العرض وغيرها مما هو مألوف لنا . واغلب تلك الجرائم ارتكب في منازلنا وعلى مسمع منا وعلى حد ابصارنا ونقرأ كل يوم عن تلك الحوادث والجرائم الفادحة ما يشيب لها الولدان شيباً

ومن الغريب في الامر ان كثيرين من اطفالنا صغار الخدم لهم صلة وثيقة بكبار اللصوص والعصابات فهؤلاء يستخدمونهم « ككشافة » أو دليل لتفهم محتويات المنازل . ولافراد العصابات في استمالة هؤلاء الصبية شتى الحيل المختلفة وما اقدرهم على اختيار ما يتفق وعقلية الاطفال من طرق الاستهواء . . .

لست ممن يقولون ان معالجة مشكلة صغار الخدم من جهة هؤلاء الاطفال انفسهم فحسب . بل علينا ان نبحث عن الاسباب والدوافع التي كانت ولا تزال سبباً في تكوين افراد هذه الطوائف من ابناء الامة على ما هي عليه من جهل وافتقار الى الصحة وضعف في الاخلاق الى البطالة والفقر المدقع الى بحث وتحليل الحالة النفسية والعقلية بين هؤلاء الاطفال ما كان ولا يزال الاصل في مبعث الاجرام ونكبة الاسرة المصرية كما اننا بسوء معاملتنا لهم والتشديد عليهم وتعذيبنا اياهم الى حد ان نرهبهم فيملك الخوف مشاعرهم ويسكن الحقد والانتقام قلوبهم فلا مشاحة في اننا نسيء الى انفسنا بذلك قبل أن نسيء اليهم . . . فما أحوجنا الى الحزم والتبصر وما أحوجهم الى العطف والشفقة منا — ولعمري فان منازلنا من ناحية هؤلاء الاطفال اقرب الى دور الاصلاح منها الى المنازل الحقة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — « اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم اطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تكسبون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون » — وفي حديث آخر « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » — ورأى ابو هريرة رضي الله عنه رجلاً راكباً دابته وغلامه يسعى خلفه فقال « يا عبد الله احمله خلفك فانما هو اخوك روحه مثل روحك »

﴿ الحالة العقلية وصغار الخدم ﴾ ان الحوادث العديدة والجرائم الشائعة بين كثيرين من

اطفالنا صغار الخدم ما هي الا مرآة تظهر فيها بجلاء صور مختلفة من حياتهم العقلية فتجد منهم الابله وضعيف العقل او به مس من الجنون وما ذلك الا نتيجة لازمة لما هم مصابون به من امراض مزمنة او ما يحيط بهم من ظروف وعوامل نفسية متنوعة ينبغي تحليلها واقرارها هؤلاء الاطفال أحوج ما يكونون الى عطفنا وحناننا

﴿ سوء معاملتنا لصغار الخدم وحوادث التعذيب ﴾ ومن أروع تلك الحوادث التي لم تغب بعد عن الاذهان حادثة تعذيب خادم صغير بكيّه بالنار ووضعه تحت الرشّاش «الدش» البارد طوال ليلة من ليالي الشتاء القارص — وتلك الفتاة التي القت بنفسها من نافذة منزل عال تخلصاً مما كانت فيه من تعذيب وسوء معاملة على الرغم من انها حاولت الانتحار مرتين كما قررت . — وتلك الخادمة الصغيرة التي قذفت بنفسها من نافذة الحمام حيث كانت قد سجنت فيه — وغير هذا مما يضيق المقام عن سرده وفوق هذا ما لا يعد تحت الحصر من حوادث الانتحار والهرب والاختفاء — وان الشدة وسوء المعاملة لهم من جانبنا لا تقل عما تنتجه الحرية المطلقة من الجرائم وسوء العاقبة فمنازلنا في قبضة يدهم واولادنا تحت سيطرتهم واعراضنا في حمايتهم

ومما يجب الجهر به ان صغار الخدم على ما هم عليه من فوضى مطلقة من وسائل التخديم بواسطة سماسرة السوء ودون قيد ولا شرط فهم في عذاب دائم وبؤس من عمل لا طاقة لهم به ولا راحة تعوض عليهم متاعب اليوم وهم مفتقرون الى حسن معاملة تلطف من حدة ذلك الشقاء اذ يستيقظون في الصباح المبكر بغير شفقة ولا رحمة فمن الساعة الخامسة صباحاً الى الهزيع الاخير من الليل ولا ينامون الا بعد ان يهرع كبار الاسرة الى مضاجعهم وبعد عودتهم من سهراتهم المملة الشائنة وقد تجاهل القوم او تناسوا ان هؤلاء صغار الخدم ما هم الا اطفالنا لهم حق الطبيعة عليهم فهم على ما فطروا عليه من غرائز طبيعية حق علينا معاملتهم معاملة اطفالنا . ومما يؤسف له كثيراً ان هؤلاء صغار الخدم لا يعلمون من امر اجورهم اليسيرة شيئاً فكأنهم يعيشون في ظلام العصور الخالية وسوف يفيض الله عليهم رحمته وحنانه بما يقيهم شر الناس « في عصر حرية الطفل » المباركة

وانا سنجمل فيما يلي ما نستميحكم اليه فيما نراه من توجيه عام نحو طرائق العلاج ووسائل الاصلاح لهذه المشكلة التي نحن بصدد بحثها

اولا — سياسة التربية والتعليم

ا — من حيث تدريب الطلبة والطالبات بالمدارس والجامعات على الخدمة المنزلية بأنواعها فيشبون على القيام بخدمة انفسهم ولا يأنفون من اداء الواجبات المنزلية

ب — توجيه الفتاة واعدادها لان تكون ربة منزل رشيدة في ادارة شئون مملكتها

الصغيرة من دون كلفة او عناء وعن رغبة وحب طبيعي للاسرة والاطفال

ثانياً — نشر التعليم الاولي

ا — من حيث تنفيذ قانون التعليم الالزامي على ان تهيأ للاحداث وسائل التدريب على الحياة العملية الشريفة بحسب استعدادهم وميولهم

ب — ان يكون للتربية الدينية المقام الاول في تربية النشء وبث الفضيلة في نفوسهم فلا خير في امة نبذت امور دينها وراءها ظهرياً

ثالثاً — نشر المدارس الخصوصية في المدن والمحافظات لمختلف الطوائف من الشعب وحتى تشبع الرغبات المتباينة والميول الفطرية وليمكن اعداد الافراد منذ نعومة اظفارهم للحياة الصحية الشريفة .

والثاني التوجيه العام — وضع القوانين التي تحمي القرية المصرية وتقي الامة من شر الجريمة والمجرمين وتحفظ كيان الاسرة المصرية فمن هذه القوانين

١ — قانون يوقف تيار الهجرة من الريف ويحفظ ابنائه وفتياته للحياة الزراعية

٢ — قانون ينظم الاسرة ويحدد مسؤولية الآباء والامهات حفظاً لكيان الامة

٣ — قانون مكافحة الجريمة والوقاية منها ويشتمل على تنظيم النواحي المهجورة من الحياة الاجتماعية خاصة بين الاحداث الهمل وصغار المجرمين ومن هم دون الخامسة عشر سنة خصوصاً فيما يحول دون وجود الاطفال في البيئات الفاسدة ومن اماكن الخمور والميسر والبغاء

﴿ النهاية ﴾ وها نحن نرى اليوم في افق حياة الامة المصرية بوارق الامل والاصلاح القومي فالافراد والجماعات والهيئات تعمل متعاونة مع الحكومة في خدمة البلاد ورفعة شأنها

وإن مشكلة الخدم في مصر واخصها صغارهم لا تقل شأناً عن مشكلات الطوائف العاملة ولها شأنها وخطرها ان لم تفوقها لصلتها بالاسرة المصرية وكيانها

اما آن الوقت الذي يجب ان نصغي لصوت الحق ما يحرك فينا الاحساس بالخير فنعطي هؤلاء الاطفال حقهم الطبيعي وحريتهم الفطرية . . . . وسوف يأتي القريب الذي نرى فيه هؤلاء الاطفال جميعهم وابناؤنا جنباً الى جنب بين جدران « المدرسة الحديثة » يحميهم القانون ويرفع من شأنهم الحرية والمساواة والاخاء ويأخذ بناصرهم العلم والصناعة الشريفة في ظل مليك البلاد الديمقراطي ورجال الحكومة الدستورية وزعماء الاصلاح الاجتماعي من أبناء الامة العاملين المخلصين

والله تعالى ولي التوفيق . . . .

خاتمة

وجوه الاصلاح الاجتماعي

في مسائل الطفولة في مصر

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

عالجت البحوث التي القاها خطباء مؤتمر الطفل اهم المسائل المتعلقة بالطفولة في مصر واظهر ما يتبين منها ان هناك جملة وجوه للاصلاح الاجتماعي تحتاج اليها البلاد لانقاذ الطفل صحياً وعلمياً واخلاقياً بل انه يمكن القول بانه لما يطرق اي باب من ابواب الاصلاح العملي في هذا الشأن

﴿ الاصلاح الصحي ﴾ في الصحة لم نسر بعد في الطريق الصحيح فاطفال القرى لا يزالون في حالة من القذارة والاهمال تجعلهم اقرب الى ما كانوا فيه منذ العصور المظلمة — يكفي ان يلقي الانسان نظرة على اطفال الفلاحين في القرى واطفال الطبقات الفقيرة في المدن وهم اطفال اكثرية السكان ويرى الذباب يحوم حول اعينهم والامراض تنهش اجسامهم والجراثيم والحشرات والهوام تفتك بهم — تكفي نظرة واحدة ليتساءل المرء هل هذه حال أطفال يعيشون في عصر المدنية والتقدم والنور والعرفان ؟ والاطفال المصريون مع هذا الشقاء يتكاثرون ويزيد عددهم كل يوم فالاباء يقذفون بأطفالهم دون مبالاة في هوة من الشقاء لا قرار لها ولم تقم بأي عمل جاد لانقاذ هؤلاء الاطفال ولا بأية حركة لوقف تيار الاطفال الذين يولدون وما أجدرنا ان نبدأ بدرس نظام تحديد النسل في مصر وقد افتى فقهاء الشريعة الغراء بجوازه[1] بل بجواز التعقيم ايضا عند الضرورة ثم تتخذ الوسائل الفعالة لحفظ صحة الاطفال وصيانة عيونهم واجسامهم من العاهات والأمراض

﴿ اصلاح التعليم ﴾ والتعليم أيضاً لا يزال في حاجة الى اصلاح فجميع الاطفال يعلمون تعليما واحداً دون تمييز بين استعداد كل منهم فالاطفال الشواذ وضعفاء العقول يحشرون مع غيرهم في صعيد واحد ليتلقوا دروساً واحدة من معلم واحد فتجد الطفل الشاذ او الضعيف يتأخر ثم يتأخر الى ان يفصل من مدرسته ويوسم بالبلادة والكسل وما العيب الا عيب النظام اذ لو ان هذا الطفل ضم الى امثاله في فرقة تدرس حالتها دراسة خاصة حتى اذا ما عرفت أسباب النقص فيها عولجت علاجاً خاصاً — لو كان هذا لصلحت حال هؤلاء الاطفال ولخرج منهم رجال نافعون للامة . فدراسة شخصية كل طفل وتوجيهه التوجيه الذي يلائم شخصيته ووضع نظام خاص لتعليم الاطفال الشواذ يجب ان يكونا اول ما يعتني به القائمون بشؤون الاصلاح الاجتماعي للاطفال في مصر

---

(١) راجع في ذلك بحث حضرة صاحب العزة الاستاذ الجليل احمد ابراهيم بك استاذ الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق المنشور كمقدمة لكتاب الاستاذ الفاضل الدكتور السعيد مصطفى السعيد «مدى استعمال حقوق الزوجية»

كذلك يجب ان يعاد بين آن وآخر بحث تعليم الاطفال حتى لا يبقى على وتيرة واحدة على مر السنين فهناك طرق حديثة انتجتها التجارب والدراسات الحديثة التي قام بها امثال مدام ماريا مونتيسوري Mme. Maria Montessori التي اخذت منذ سنة ١٩١٤ تلقي في مختلف البلدان الاوروبية والاميركية محاضرات في الطرق الحديثة لتعليم الاطفال على اساس التدرج وعدم الارهاق مع ترغيب الطفل في النظام واعداد معلمين صالحين لهذا العمل الكبير وأنشأت بعض مدارس لتطبيق طريقتها تطبيقاً عملياً . وأمثال الآنسة اليزابت أروين التي نادت بترك الفرصة للاطفال ليكسبوا تجربة بأنفسهم دون ضغط . والاستاذ ألورث كولنجز الذي خرج من تجاربه بضرورة ترك التعليم وفقاً لمنهج دراسي معين حتى لا يقيد المدرس بل يكون حراً في اختيار المنهج الملائم لحالة تلميذه (١)

ويجب ان يعلم القائمون بتعليم الاطفال ان من اول واجباتهم ان يكسبوا ثقة اولادهم وتلاميذهم فيأتي الولد لوالديه او لمعلمه هادئاً ليفضي بما لديه او ليقدم ما عمله . وهنا دور نفساني كبير يجب ان لا يغفله الوالد او المعلم اذ يجب ان لا يفوته تشجيع الطفل اذا احسن وتنبيهه اذا أساء ولا يخفى ان للتشجيع أثراً كبيراً في نفوس الاطفال . كذلك يجب ان يشعر المعلم كل تلميذ بأنه خبير بحاجته وانه بجانبه يعاونه اذا كان في حاجة الى مساعدة او معونة وان يتم كل ذلك في هوادة وبدون اسراف وان لا يتوانى المعلم في علاج اي انحراف يجده في الطفل . فكما يبادر الطبيب عند ظهور اول اعراض المرض باعطاء دواء يلائم الحالة يجب ان ينتبه المعلم عند ظهور مبادىء نقيصة من النقائص كالكسل او الكذب او عدم الطاعة او اتباع الاهواء وان يعنى بالامر عناية سريعة لان هذه المبادىء قد تكون مظاهر لحالة نفسية تجب المبادرة الى علاجها — واهمال شأنها كترك الحمى تفعل في الجسم افاعيلها بعد ان ظهرت اعراضها او كترك المريض لتصاريف القدر دون علاج . على ان عمل المعلم لا يقتصر على العلاج بل يجب ان يلجأ كالطبيب الى اسباب الوقاية فيلاحظ بقاء الطفل محوطاً بالنظام وفي جو يتفق مع حالته ونشاطه وابتعاده عن كل ما يؤثر في تكوين اخلاقه . فالمحافظة على اخلاق النشء في مصر هي الاساس الذي يجب ان يبنى عليه مستقبل البلاد . لهذا تجب العناية باختيار القائمين بأمور تربية الاطفال ولا يمكن اصلاح الاحداث الا اذا اصلح الكبار من الاباء والامهات والمعلمين الذين يقومون بتربية الاطفال وتهذيبهم — وليس في هذا قلب للاوضاع بل ان الوضع الصحيح هو ان يكون المعلم الكامل مثالا يحتذيه الطفل وينسج على منواله فمثل هذا المعلم الكامل يستطيع ان يربي الطفل تربية صحيحة وان يقوم ما يجده معوجاً في خلقه بل يتشدد في تقويمه فاذا وجده كذوباً او شرساً او غير مطيع او كسولا تنبه لهذه العيوب لانه يشعر بانه هو براء منها

﴿ نزع السلطة الابوية السيئة ﴾ فاذا كان والد الطفل ووالدته او القائمون بتربيته بلغوا

(١) راجع كتاب « ضحايانا الاطفال » تأليف أجنس دي ليما وتعريب الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

من الفساد مبلغاً لاسبيل الى تقويمه فيجب ابعاد الطفل عن هذه البيئة قبل ان يفوت الاوان — لهذا يوجد في اكثر القوانين الحديثة احكام تقضي بامكان نزع السلطة الابوية في الاحوال التي يتبين منها ان الآباء او أولياء الامور غير أهل لتولي تربية الطفل لقسوتهم او سوء خلقهم او استغلال الطفل لمنفعتهم الشخصية كتحريضه على التسول او الدعارة ومما تجدر ذكره هنا ايضا ان مبادىء الشريعة الاسلامية لا تعارض هذه الاحكام، بل تساعد عليها — ومن الاسف ان القانون المصري لا يزال خلواً منها

﴿اصلاح المجرمين والمتشردين الاحداث﴾ ويتصل بالاصلاح الخلقي بحث اجرام الاحداث ومنع اسبابه وابعاد المجرمين والمتشردين عنهم واعادتهم الى الطريق القويم وقد بذل المصلحون في اكثر البلاد جهوداً موفقة في هذا السبيل فنظمت محاكم الاحداث بشكل يجعلها تلبس صبغة عائلية تبغي التهذيب لا العقاب وجعلت الاصلاحيات دوراً للتعليم والتربية واوجد بجانب كل محكمة عدد من الرجال والسيدات مهمتهم الاشراف على الاحداث ورعايتهم ومساعدة القاضي الى الوصول الى المعلومات الصحيحة عن الطفل وعن بيئته ومعالجة حالة كل طفل يوكل اليهم، وهم يختارون من المشتغلين بالمسائل الاجتماعية (١) Social Workers، وهذا عمل تستطيع السيدة ان تقوم به وآن تتقنه اكثر من الرجل، ويا حبذا لو وجدت في مصر هيئة للقيام بالتدريب على هذا العمل ويمكن على الاقل ان يخصص من الآن قسم من معهد التربية للتخصص على أعمال الخدمة الاجتماعية

هذه هي بعض وجوه الاصلاح التي رمى اليها مؤتمر الطفل وقد آن الوقت لمصر ان تنتبه لاطفالها فان في اصلاحهم صلاح الجيل القادم الذي سيتعهد شئون الوطن في المستقبل ونحن في حاجة كبرى — لا الى مؤتمر واحد — بل الى عدة مؤتمرات تبحث فيها مثل هذه الشئون الاجتماعية الهامة . وقد فطن كثير من البلاد الغربية الى خطورة دراسة المسائل الاجتماعية وانشئت لذلك هيئات ومعاهد خاصة . وتلك هي باكورة الاقتداء بتلك الاعمال الصالحة قد ظهرت في مؤتمر الطفل وقد احسنت رابطة الاصلاح الاجتماعي صنعاً بهذه البداية فالطفل اهم ما يوجه اليه الاصلاح الاجتماعي حتى انه يسمى بحق صاحب الجلالة الطفل

---

(١) في مصر عدد من القائمين بالخدمة الاجتماعية ولهم اتحاد يسمى اتحاد القائمين بالخدمة الاجتماعية Alliance of Social Workers

جائزة اسعد باسيلي باشا

الذكرى

الدكتور يعقوب صروف

مائة جنيه مصري

يقدمها اسعد باسيلي باشا عن طريق

المقتطف

لافضل ثلاث رسائل

في الموضوع التالي وهو :

« العشرة المقدَّمون »

« في تاريخ الفكر العربي »

الجائزة الاولى — خمسون جنيهاً

الجائزة الثانية — ثلاثون جنيهاً

الجائزة الثالثة — عشرون جنيهاً

يجد القارىء بياناً عن موضوع الجائزة في الصفحة الرابعة

الدكتور يعقوب صروف

في شهر يونيو القادم يحتفل بازاحة الستار عن تمثال الدكتور يعقوب صروف في بهو المطالعة بمكتبة جامعة بيروت الاميركية

وانّا ننتهز هذه الفرصة لتقديم وافر شكرنا الى حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا والدكتور شخاشيري لما بذلا من همة وعناية في سبيل اخراج هذا التمثال من صورة جالت في أذهان اصدقاءِ الدكتور صرّوف وتلاميذهِ الى حقيقة واقعة ، وسيقف قريباً تمثالهُ في بهو المطالعة المذكور جنباً الى جنب مع تماثيل رئيس جامعة بيروت الاميركية الاول الدكتور دانيال بلس ، واستاذي الدكتور صروف الكبيرين نعني العلاّمتين الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور يوحنا ورتبات

ونقدم شكرنا كذلك الى حضرة السيدة الفاضلة والمثّالة البارعة مدام توفيق بحري ، فقد افرغت التمثال في قالب تعهدتهُ بأناملها المفتنة وذوقها العالي وقدمتهُ الى لجنة التمثال هدية منها ومع هذا الكلام صورة التمثال .

وقد تولى عملية سباكتهِ الاستاذ محمد حسن ناظر مدرسة الفنون التطبيقية في مسبكهِ الخاص ووضع تصميم القاعدة فصنعها الاستاذ حسن رضوان ونرفع شكرنا أيضاً الى الدكتور بيارد ضدج رئيس جامعة بيروت وأعضاء مجلس ادارتها لتقبلهم هذا التمثال وتعيينهم موعد الاحتفاءِ بازاحة الستار عنهُ في خلال الحفلات السنوية التي توزع فيها الشهادات والرتب العلمية على المستحقين

وليس يخالجنا ريب في ان اصدقاء الدكتور صرّوف وتلاميذه وقراء المقتطف جميعاً يغتبطون بتجديد ذكراه بعد انقضاء عشر سنوات على وفاته، وذلك بنصب تمثاله في المعهد العلمي الكبير الذي تلقى فيهِ العلم ولقنهُ وحيث أنشأ مع صديقهِ وأخيهِ الروحي الدكتور فارس نمر باشا ، مجلة « المقتطف » سنة ١٨٧٦

أسعد باسيلي باشا

جمع حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا سراوة الأدب والفكر الى سراوة المال. فقد كان معلماً وكاتباً وأديباً قبل أن يخوض معمعة الحياة العملية ويسير فيها الى المقدمة. «كان أسعد باسيلي أول ظهوره في الحياة العملية أديباً سليم التفكير، وللأدب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل بهِ أن يتخلى عنهُ الى حرفة أخرى ولعلّ اشتغالهُ بالأدب كان نتيجة شعورهِ القوي بأنهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ أن يعرب عن آرائهِ وأن يرشد وأن يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من أحوال الناس وأحاديثهم، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة، وانما كانت ارادتهُ وشخصيتهُ وذكاؤه رأس نجاحه»

وأسعد باشا رجلٌ عصاميٌّ فيهِ من سجايا العصاميّ أجلها، مشيئة صلبة، وقدرة على الدأب، وذهن مرتب، واستقامة وايمان. وهذه كلها من اسباب النجاح ولكنها لا تكفي ان لم تؤاتها بداهة هي بمنزلة الالهام لرجل الاعمال تدلهُ على مواطن الاقدام والاحجام وتنير لهُ سبيل التوفيق سواء أأحجم ام أقدم

وُلد أسعد باشا في طرابلس الشام من نحو ستين سنةً او اكثر قليلاً، ولكنهُ منذ أقام في مصر شارك وطنهُ الثاني سرّاءهُ وضرّاءهُ، وما كاد يعود من أوربا في الخريف الماضي ويعلم بالاكتتاب لمشروع الدفاع الوطني، حتى أسرع الى القاهرة وقابل رفعة النحاس باشا وسلمهُ تحويلاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه، فقابلت الحكومة المصرية هذه العاطفة النبيلة وما احرزهُ صاحبها من مقام في حياة البلاد الاقتصادية بالانعام عليهِ برتبة الباشوية السامية.

***

ونحن اذ نشكر لاسعد باسيلي باشا أريحيتهُ وتبرعهُ بهذه الجائزة لذكرى الدكتور صرّوف نهنئهُ بما احرز من محبة واحترام بين جميع عارفيه

الموضوع المقترح

العشرة المقدمون

في تاريخ الفكر العربي

اذا وهب واهب سخي مبلغاً كبيراً من المال لتشيد به صرحاً فخماً يضمُّ بين جدرانه كلّ ما خلّفهُ عشرة من الرجال، كانوا مقدّمي رجال الفكر العربي في تاريخه المجيد، وتتصل به مدرسة لدراسة آثارهم خاصة، فمن نضع فيه؟

١ — الموضوع يقتصر على الادباء والفلاسفة والعلماء
٢ — لا يجوز ادخال رجال الدين ولا رجال السياسة والحرب
٣ — لا يجوز الاختيار من الذين على قيد الحياة

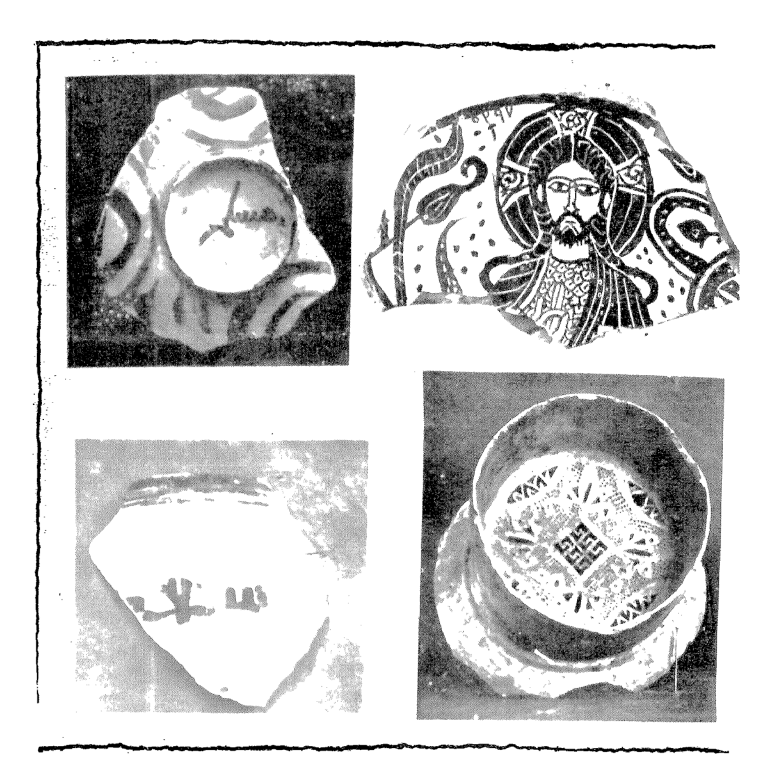
لقد اجمع كلّ من عني بدراسة الحضارة العربية على انها حفظت مصباح المعرفة منيراً في اشد العصور ظلمة، واضاف اقطابها الى كنوز المعرفة كنوزاً جديدة لا تقوم بمال، وقد ظلّ اثر بعضهم حيًّا في معاهد اوربا الى مطلع العصر الحديث تدرّس مؤلفاتهم فيها بعد نقلها الى لغات الافرنج، ولا يزال اثرهم موضوع مباحث مستفيضة يقف عليها اقطاب العلماء في الشرق والغرب جلّ وقتهم وجهدهم

فمن هم مقدّموهم إبداعاً واثراً؟ سواء منهم المسلمون والمسيحيون، والنساطرة واليهود، والفرس والعرب والمغاربة. فكل فيلسوف وكل عالم كتب باللغة العربية يجوز اختياره لهذا الصرح، وطبعاً كلّ اديب؟

والحكم يكون على إحسان الاختيار من جهة، وإحسان اقامة الدليل على وجوب هذا الاختيار من جهة أخرى. فاختيار عشرة من الرجال وسرد تاريخهم لا يكفي بل يكون الاعتماد على تبين الميزة في الرجل المختار، واثره في ناحية من نواحي ارتقاء الفكر العربي

وسننشر في العدد القادم من المقتطف مقالاً لكاتب اميركي، في «اعظم المفكرين في التاريخ» نحسبهُ نموذجاً صالحاً لما نقصد.

وفي الجزء القادم بيان وافٍ عن سائر الشروط



فوق الى اليمين — قطعة من الخزف ذي البريق الذهبي تمثل صورة السيد المسيح يحيط برأسه هالة من النور — فوق الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها امضاء صانعها مسلم
تحت الى اليمين — شباك اناء من الفخار به زخارف هندسية ونباتية دقيقة
تحت الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها أمضاء صانعها سعد



الجزء الخامس من المجلد التسعين

١ مايو سنة ١٩٣٧ — ٢٠ صفر سنة ١٣٥٦

العلم في خدمة الانسانية

الفيتامينات واثرها

في الصحة والمرض والنمو

يقال — والعهدة على الراوي — ان ادمند كين الممثل الانكليزي المشهور كان يتناول طعاماً خاصاً لكل دور يمثله ، فكان يتناول لحم الخنزير قبلما يمثل دور طاغٍ ولحم البقر قبل تمثيله دور سفاك ولحم الضأن قبل تمثيله دور عاشق ولهان . ومن الاقوال المأثورة في هذا الصدد : قل لي ما تأكل أُنبئك من انت

فما الصلة بين خمسين طناً من الطعام يتناولها المرء خلال حياته ، وبين صحته من ناحية وطباعه وخُلقه من ناحية اخرى ؟ لقد كشف العلم عن بعض الحقائق المتصلة بهذا الموضوع في حياة الحيوان وحياة الانسان حتى ان الاستاذ هنري شرمن احد علماء جامعة كولومبيا صرّح بعد تجارب دقيقة جربها في هذا الصدد في الجرذان انهُ في استطاعة الباحث ان يطيل متوسط عمرها ويجعلها اكبر واقوى بالاشراف على تغذيتها على نحو معيّن

فكيف وصل العلم الى هذه النتائج ؟

في سنة ١٨٩٧ تفشى في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة مرضٌ قديم عرف في الشرق الاقصى من نحو الفي سنة ويدعى بريبري او « كاك — كي » وهو مرضٌ غريب تتأثر في المصاب

بهِ اعصاب الحركة والحس تأثراً عظيماً . فيصاب صاحبهُ باعياء عام وانحطاط في قواه العقلية ، وبالاستسقاءِ وفقرفي الدم يصحبهُ شلل زاحف ، يبدأ عادةً في الساقيْن وينتشر صعوداً حتى يصل الى القلب فتحدث الوفاة

فعينت حكومة هولندة لجنة لبحث الموضوع عسى ان توفق الى معرفة سببهِ واستنباط علاج شافٍ لهُ

الرز المقشور وغير المقشور

وكان بين الرجال الذين عهد اليهم في مكافحة هـذا المرض رجل يدعى كرستيان أيكمان Eijkman . كانت «البكتيريولوجيا» في اوج شهرتها حينئذٍ بعد مكتشفات باستور وكوخ وغيرهما ، فعمد ايكمان منساقاً بروح البحث العلمي السائدة حينئذٍ الى البحث عن ميكروب يحدث هذا المرض . ولكنهُ شاهد مشاهدة استرعت عنايتهُ فانصرف بعض الانصراف عن البحث عن الميكروب الى النظر في تعليل ما رأى . ذلك انهُ شاهد طائفة من الدجاج كانت تعيش على مقربة من معمله ، وقد اصيبت بشلل يشبه الشلل الذي يحسب من اعراض البريبري . فلم يستغرب ذلك لانهُ كان يعلم ان بعض الحيوانات معرض للاصابة بامراض يصاب بها الناس . فقال لعل هذا الدجاج عدى بالمرض من اتصالهِ بمن يرعاهُ . واذ هو ماض في البحث عن الميكروب ، كان يقضي بعض الوقت في مراقبة الدجاج ليعلم كيف اتصلت بهِ العدوى

فلاحظ بعد قليل ان الدجاجات التي يسمح لها بأن تسرح في الحقل ، تنكث منهُ بمنقارها ما تتغذى بهِ ، وتقيل في الشمس ، لا تصاب بالبريبري (يعرف الضرب الخاص من البريبري الذي يصاب بهِ الدجاج باسم « بولينيورَيتس »). أما الدجاجات او أفراخها التي أصيبت بأعراض هذا المرض فكانت قد حفظت في حظائرها وغذيت ببقايا الرز الذي كان السجناء يغذون بهِ . فبحث في الغذاءِ الذي يغذى بهِ السجناء فلم يجد فيهِ ما يسترعي الانتباه الاَّ ان الرز وهو عماد غذائهم ، كان قد قشر بالآلات الحديثة لازالة قشرتهِ الصفراءِ . وكانت القشور تطرح جانباً لاعتقادهم أنها لا تصلح للغذاء . فخطر لايكمان ان يقابل بين انتشار مرض البريبري في السجون المختلفة بالمقابلة بين أنواع الرز الذي يغذى بهِ السجناء . فتجلت لهُ حقائق غريبة

وجد ان ١٥٠ ألفاً من السجناء كانوا يتغذون بالرز المقشر وان واحداً في كل ٣٩ منهم يصاب بالبريبري . وان ٣٥ الف مسجون غيرهم كانوا يتغذون برز غير تام التقشير وان واحداً منهم في كل ٤٠٠ كان يصاب بهـذا المرض . وان مائة ألف كانوا يتغذون بالرز غير المقشور فلم يصب منهم بالبريبري الاَّ واحد في كل ١٠٧٢٥ مسجوناً . فحدوث الاصابة بالبريبري بين

الذين يتغذون بالرز المقشور ٣٠٠ ضعف حدوثها بين الذين يتغذون بالرز الكامل اي غير المقشور

فلما تبين لهُ ذلك اتضحت امامهُ الخطوة التالية في البحث : اخذ طائفة من الافراخ (جمع فرخ وهو صغير الطير) وغذاها بالرز المقشور دون اي شيء آخر. فأصيبت جميعها «بالپولينيورَيتس» (بيريبري الدجاج) وماتت . واخذ طائفة اخرى وغذاها بالرز غير المقشور دون اي شيء آخر فلم يصب احدها بالمرض . ثم اخذ طائفة من الافراخ المصابة ، واضاف الى رزها المقشور قشور الرز التي كانت تطرح جانباً فلم تلبث حتى شفيت مما ألمّ بها . وكذلك تمكن أيكمان من اكتشاف سبب «بريبرى الدجاج» في غذاء ناقص، لا في ميكروب . واثبت بتجاربهِ انهُ يستطيع ان يحدث المرض بازالة العناصر اللازمة من الغذاء ثم يستطيع شفاءهُ باعادة هذه العناصر الى الغذاء الناقص . وبعيد ذلك دعي الى هولندة وتقلد منصب استاذ في جامعة اوترخت

الاَّ ان شيئاً من الخطإِ كان قد تطرَّق الى تعليل أيكمان لما رأى وكشف . كان قد اشار بوجوب اكل الرز كاملاً ولكنهُ لم يستطع ان يعلم سرَّ الفائدة المنطوية في قشرة الرز الخارجية . ولم توجه عناية ما الى بحثهِ ، فظل مرض البريبري متفشياً وظلَّ ألوف من الناس يموتون بهِ . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية في مطلع هذا القرن عُطّل سدس القوات اليابانية عن العمل لتفشي البريبري فيها

وبعد انقضاءِ ثلاث عشرة سنة على تجاربه، ذهب شاب بولوني يدعى كازيمير فونك Funk الى معهد لِستر بلندن فكشف عن رسالة الطبيب الهولندي وبعد ما طالعها وتملى معانيها قال ان قشور الرز تحتوي على مادة كيماوية لا ندحة عنها للصحة، وحاول ان يستخلص تلك المادة مستعملاً الحمام لامتحان فعل ما يستخلص . وبعد عمليات لا عداد لها من الحل والترسيب والتصفية فاز بمقدار يسير من مسحوق ابيض وزنهُ $\frac{1}{10}$ من الاوقية كان قد استخلصهُ من رطل من قشور الرز. ولما امتحنهُ وجد انهُ اذا اضيفت بضعة مليغرامات منهُ الى غذاءِ حمامٍ مصاب اصابةً قويةً «بالبولينيوريتس» شفاه منها فتشتد سيقانهُ وتستقيم عنقهُ الذابلة ويتحول حماماً سويًّا

اسم الفيتامين

ولما كان هذا المركب لازماً للحياة (Vita) ويحتوي على طائفة المركبات الامينية (Amine) دعا فونك هذه المادة المقاومة لمرض البريبري فيتامين Vit-amine الاَّ ان فونك كان على خطإٍ في ظنهِ انهُ استخلص الفيتامين النقي من كل شائبة . والاسم الذي اطلقهُ عليهِ كان في غير محله لانهُ ثبت بعد ذلك أن هذه المادة الحيوية لا تحتوي على المركبات الامينية . ولكن الاسم الذي اختاره استهوى الناس ، فذاع في الخافقين وابقي عليهِ في الكتب العلمية بعد حذف الحرف

الاخير منهُ سنة ١٩٢٠ فصار Vitamin . غير ان فونك كان اكثر توفيقاً في قوله ان المستقبل سيكشف عن امراض اخرى ترجع الى نقص هذه المواد الحيوية في الطعام او خلوّهِ منها

وكان العلماء في ذلك العهد شغفين بدراسة ما تحتوي عليه الاطعمة المختلفة من مقادير الحرارة وقياس ما يحتاج اليهِ الرجل والمرأة والطفل والحيوان من الحرارة في حالي اليقظة والنام. واستنبطوا لذلك اساليب منوعة واجهزة بسيطة ومعقدة. لكن الكيمياء كانت قد اصابت من الارتقاء ما مكن اصحابها من تحضير المواد المغذية في الاطعمة نقية من الشوائب، فعمد اليها الباحثون في الطعام والحرارة عساهم يستطيعون ان يتوصلوا عن طريق تجاربهم الى تركيب الغذاء الامثل لمختلف انواع الاحياء. ذلك ان جسم الانسان كان في نظرهم اكثر من اتون جلّ ما يحتاج اليهِ مواد تكون بمثابة الوقود. فقالوا: لعل في مواد الطعام اشياء يحتاج اليها الجسم ولا يستغني عنها بصرف النظر عما تولده من الحرارة

وكان قد سبق الى هذا الضرب من البحث رجل يدعى لونين Lunin بدأ يجرب تجاربهُ في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٨١ بستة فئران. فوجد انهُ اذا غذاها باللبن عاشت وهي على أتم ما يكون صحة ونشاطاً. ولكنهُ اذا احل محل اللبن سائلاً يحتوي على جميع مركبات اللبن المنقاة اي بروتين اللبن (كاسين) ودهنهُ وسكره (لاكتوس) واملاحه المعدنية محلولة في الماء ماتت بعد انقضاء شهر عليها وهي تتناول هذا الغذاء. فخلص لونين الى النتيجة التالية وهي ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير البروتين والدهن والسكر والاملاح وان هذه المادة لا غنى عنها للصحة. وانقضى عقد من السنين فاذا استاذ لونين يسأل نفسهُ: افي اللبن حقيقة مواد اخرى غير البروتين والدهن والسكر والاملاح المعدنية لا مندحة عنها للحياة. ام اخطأ لونين في تجاربهِ؟ وعلى كل حال قرّر الاستاذ بكلهارنج Pekelharing في جامعة اوترخت ان يمضي في المباحث التي بدأها لونين فاعاد تجاربهُ فخلص الى نفس نتيجتهِ وهي ان في اللبن مقادير يسيرة من مادة غير معروفة لها اكبر الشأن في التغذية

تجربة هبكنز الحاسمة

وفي سنة ١٩٠٦ شرع هبكنز (فردريك جولند هبكنز وهو رئيس الجمعية الملكية الآن) احد علماء جامعة لندن وهو لا يدري شيئاً عن مباحث لونين وبكلهارنج وايكمان في مباحث كانت حاسمة في هذا الموضوع. اخذ طائفتين من صغار ذكور الفئران كل منهما ثمانون فأراً وغذى احداها بغذاء مؤلف من كاسين ونشاء وسكّر القصب وشحم واملاح معدنية وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية. وغذّى الطائفة الاخرى بالغذاء نفسهِ ولكنهُ اضاف اليهِ مقدار ملعقة شاي

من اللبن الطازج كلّ يوم . فكانت النتيجة ان فئران الطائفة الاولى لم تنمُ .وان فئران الثانية نمت نموًّا سويًّا . ثم قلب الغذاء . فأضاف اللبن الى غذاء الطائفة الاولى وحرم الثانية منهُ فانعكست آية النمو . اذ اخذت الاولى في النماء وتوقفت الثانية عنهُ . وفي سنة ١٩١٢ اذاع رأيهُ الهائي اذ قال ، ليس في وسع اي حيوان ان يبقى حيًّا وهو يتغذى بمركب من بروتينات وادهان وكربوهدرات نقية من الناحية الكيمياوية . وقد منح هبكنز بالاشتراك مع أيكمان جائزة نوبل الطبية سنة ١٩٢٩ جزاء لهما على مباحثهما

في صيف السنة التي شرع فيها هبكنز يجرب تجاربهُ المشهورة ، كان شاب اميركي يدعى المر فرنر ماكولُم McCollum قد اتمّ بحثاً معيناً في الكيمياء العضوية بجامعة يايل . كان قبل عشر سنوات قد غادر حقول كنساس متلكئاً ليؤمّ جامعة طالباً للعلم . ولولا حث امهِ لهُ لكان على الاكثر فلاحاً الآن يغالب الرياح والسيول والآفات

كان في حداثتهِ فتىً خجولاً ضعيف البنية يكره دراسة القواعد اللغوية ويمقت الحساب وأخفق في اجتياز الامتحان لدخول المدرسة العالية ولكن سمح لهُ بدخولها تحت التجربة . هنا فقد ماكولم شيئاً من خجله فنبغ في دروسهِ وكان يكسب ما يوفي بهِ نفقات المدرسة باضاءة مصابيح الغاز في شوارع البلدة التي كان فيها وبنقل رزم الصحف من مكان الى مكان وبمساعدة مدرس الكيمياء التجريبية في معمل الكيمياء

وفاز بجائزة مكنتهُ من متابعة دروسهِ في جامعة يايل . ولم يكد يمضي فيها حتى أدرك ان البحث الكيمياوي يستهويهِ دون الطب وكان قد وطن النفس عليهِ . قال : « ولو عرض عليّ سنة ١٩٠٦ أن أكون مدرّساً للكيمياء لقبلت » ولكن أحد لم يعرض عليهِ ذلك فقضى سنة أخرى يشتغل باشراف باحث يدعى مندل في الكيمياء الفسيولوجية والفسيولوجيا التجريبية وهو ينتظر ان يتاح لهُ عمل يرتزق منهُ

وفي نهاية السنة وجّهت اليه دعوة من ثلاث محطات للتجارب الزراعية ، فأشار عليهِ مندل بالذهاب الى محطة التجارب الزراعية التابعة لجامعة وسكنصن حيث كانوا يجربون تجربة كبيرة الشأن في تغذية الحيوانات

وكانت المسألة التي تدور عليها التجربة هي هي ، تلك المسألة التي بحثها لونين وبكلهارنج وهبكنز — : هل ثمة فرق بين قيمة غذاء عند ما يعطى كما هو في الطبيعة وعند ما تعطى المركبات التي يحتوي عليها وقد جعلت نقية كل النقاء بأساليب الكيمياء ؟

من المجهول الى الضرائب

ولذلك قرّر الباحث بابكوك Babcock ان يجرّب عدّة تجارب ليمتحن النظريات المختلفة فقد كان يرى أن مقدار الحرارة في الطعام ليس كلّ شيءٍ فيهِ . والمسألة لم تكن علمية مجرّدة في

نظر بابكوك ، لأن جامعة وسكنصن في بلاد تكثر فيها المراعي والقطعان ، وأصحاب القطعان كثيراً ما يلجأون الى الجامعة يسألون أساطين العلم فيها عما يجب ان يغذوا بهِ قطعانهم . وفي أول مايو سنة ١٩٠٧ بدئ في هذه التجربة العظيمة الشأن ، وعهد الى رجل يدعى هارت Hart في الاشراف عليها

أُخذت أربع طوائف من العجول وغُذيت أغذيةً مختلفة . فواحدة منها غذيت بالحنطة ، وأخرى بالذرة ، وثالثة بالشوفان (الزمّير) ، والرابعة بغذاءٍ خليط من الحنطة والذرة والشوفان . وكان الباحثون يقيسون ما تأكلهُ العجول وما تتغوطهُ ويحللون هذا وذاك وكان من عمل ما كولم ان يحلل البراز . ولكنهُ كان غير راضٍ عن أسلوب التجربة لانهُ رأى انها لا يمكن ان تخضع لقواعد البحث العلمي الدقيقة ، وان الذين يجربون تجاربهم في الحيوانات الصغيرة كالفئران والحمام والارانب الرومية على الطريق القويم . فعزم ان يعيد تجربة هبكنز على ان يحدث فيها تعديلاً واحداً وهو ان لا يدخل في غذاء الحيوانات التي يجرب التجارب فيها اي مركب كيماوي الاّ اذا كان نقيًّا كلَّ النقاء وتركيبهُ معروفاً حق معرفة

وبدلاً من ان يغذي الحيوانات بحنطة ، كما فعل الباحثون في تجربة وسكنصن ، وهي حبوب فيها مركبات معقدة التركيب ، عزم ان يغذيها بنشاءٍ نقي اي مركب من (ك١٦ يد١٠ او٥ --- C16 H10 O5) وبدل اللبن يستعمل بروتين اللبن بعد تنقيتهِ ، وسكر اللبن بعد تنقيتهِ وهكذا

ولم تنقض عليهِ بضعة اشهر في وسكنصن حتى شرع في جمع الفئران ليجرب تجاربهُ فيها . فلقي معارضة من مدير المحطة وعميد الكلية ومنع عنهُ المال لشراء غذاءٍ للجرذان . اما غذاء العجول فقد كانت الجامعة مثالاً للسخاءِ في شرائهِ

ولكن بابكوك ذهب الى معمل ما كولم وجلس على كرسي فيهِ يبحث في الخطة التي ينوي الشاب ان يسير عليها ، وما خرج من هناك الاّ وهو يؤيدها . وكذلك استطاع ما كولم ان يمضي فيها

كان يعرف الفئران والجرذان من حداثتهِ وكثيراً ما نصب الشراك لها مع شقيقهِ في الحقول . ثم تعلم انها من خير الحيوانات لتجربة التجارب . فمدى حياتها نحو ثلاث سنوات ومدة حملها ثلاثة اسابيع . والانثى تستطيع ان تلد « بطنها الاول » وهي في نهاية الشهر الثالث من عمرها . ولا تبلغ الشهر الرابع عشر حتى تكون قد ولدت ستة بطون . ونفقات طائفة كبيرة من الجرذان يسيرة جداً

اكبَّ ما كولم على تجربتهِ الخاصة في اويقات فراغهِ من تجربة العجول ومن التدريس في الجامعة فاقام الفئران في صناديق صنعها بيديهِ من خشب وكانت نشأتهُ في مزرعة قد عودتهُ

الصبر على العمل الشاق ، فكان يشتغل ثماني عشرة ساعة كل يوم ولا يملُّ . وكان يجيد تفسير النتائج التي يصل اليها ، وفرض الفروض التي يقتضيها البحث ثم امتحانها . وتملكهُ من البدء طموح عجيب ، واقتناع بانهُ على الطريق الصواب . وراجع في ذهنهِ التجارب التي اشترك فيها في بابل ، لمعرفة ما في بعض الاغذية من القيمة والطاقة فضحك في نفسهِ ، لانهُ ادرك أنها كانت بعيدة كل البعد عن قواعد التدقيق العلمي . اما هنا فتجاربهُ دقيقة . وكل عامل فيها خاضع للقياس . فالجرذ في الصندوق هو انبوب اختبارهِ ، والاغذية التي يغذيه بها هي مواد كيمياوية معروفة مركباتها ومقاديرها

ألغاز النمو

كان ما كولم يغذي جرذانه بالمقادير الصحيحة من مركّب فصفات الكلسيوم غير العضوي وبروتينين نقيين احدهما مستخلص من بزر القنب والآخر من الذرة وبنشاءين احدهما من القمح والآخر من الذرة وبسكرين سكر اللبن وسكّر القصب وبمقدارٍ كافٍ من الادهان وجميعها نقية من الناحية الكيمياوية . ولكن ظهر لهُ ان الجرذان لا تستطيع ان تحتفظ بصحتها وحيويتها معتمدة على هذا الغذاء فقط فكانت تموت قبل اوان موتها . فظنَّ اولاً ان هذا الغذاء يعوزهُ شيء ليصبح سائغاً لا تتقزّز منهُ الشهية فحكم بان ما يجعل الطعام سائغاً عامل لا يستغنى عنهُ في أي غذاءٍ . ولكنهُ كان على خطإٍ في هذا الرأي إلاَّ انهُ لم يدرك ذلك حينئذٍ . فاضاف الى طعام الجرذان ما جعلهُ مقبولاً ومضى يبدّل في مقادير العناصر المختلفة الداخلة فيهِ فلما ثبت لهُ ان بعض الجرذان عاش وبلغ الوزن السويّ حسب انهُ اتمّ اولى التجارب في التغذية بمواد نقية من الناحية الكيمياوية وانهُ ادرك النجاح المرتقب

وفي خلال ذلك كان هناك باحثان آخران احدهما يدعى اوسبورن Osborne والآخر مندل Mendel يجربان التجارب بقصد معرفة القيمة الغذائية والفسيولوجية في اصناف مختلفة من البروتين النقي . وكانا يعلمان ان في البروتينات المختلفة احماضاً « أمينية » مختلفة Amino-acids وكان همّهما ان يعلما اي هذه الاحماض يجب ان يكون في البروتين الصالح للتغذية . وكانا يستعملان في تجاربهما مواد غذائية نقية كالمواد التي استعملها ما كولم إلاَّ أنها لم تفض الى النتائج التي افضت اليها تجاربه من حيث الجرذان التي نمت وبلغت الوزن السويّ . ولكنهما وجدا انهُ اذا اضافا الى هذه المواد لبناً خالياً من البروتين — وهو عادة في شكل مسحوق اصفر يحضر باستخراج البروتين والدهن من اللبن ثم يجفف — كانت الجرذان تنمو نموًّا طبيعيًّا . فحكم مندل بان الباعث على النمو ما بقي في اللبن من المواد المعدنية . وكان ايضاً على خطإٍ

وكذلك يتبين القارىء التيه الذي يسير فيه العلماء وهم يحاولون فهم سرّ من الاسرار ، ولولا الشغف والمثابرة وغيرها من الصفات التي يتصفون بها ، لما قادهم الخطأ الى الصواب

قرأ ما كولم ما كتبهُ مندل فكان باعثاً لهُ على المبالغة في التدقيق ، فوالى التجارب واضطر ان يتوقف عنها سنة كاملة لان وباً اكتسح جرذانهُ فاماتها جميعاً ، وفي سنة ١٩١٤ نشر في مجلة الكيمياءِ البيولوجية رسالة فتحت عهداً جديداً في بحث الغذاءِ . وكان موضوع الرسالة ، « استفراد مادة في الزبدة تؤثر تأثيراً قويًّا في النمو »

كشف فيتامين A

احتوت هذه الرسالة وصف تجربة كان موضوعها الجرذ رقم ١٤١ ومدتها ثمانون يوماً . ففي خلال هـذه الايام الثمانين كان هذا الجرذ يغذى بطعام مؤلف من كاسين (بروتين اللبن) ونشاء وسكر اللبن (لاكتوس) وأجار اجار (وهو المادة التي تستنبت فيها الميكروبات احياناً) ومزيج ملح وشحم . وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية . فنما الجرذ نموًّا طبيعيًّا ثم اخذ يهزل . فاضيف الى غذائهِ مقدار يسير من خلاصة الزبدة ، فاخذ وزنهُ يزيد زيادة سريعة . وبلغت الزيادة ٥٠ غراماً في ٣٥ يوماً . ثم ابدل ما كولم خلاصة الزبدة بخلاصة محّ (صفار) البيض فظلت الزيادة مستمرة . فلما استعمل زيت الزيتون محل الزبدة وصفار البيض توقف النمو . فخلص ما كولم من ذلك الى النتيجة التالية ، وهي ان الادهان (fats) والزيوت (oils) تختلف في قدرتها على الإنماءِ مع انها لا تختلف الا يسيراً في تركيبها الكيمياوي وذلك لان في الادهان عاملاً غذائيًّا لم يعرف بعد يذوب في الدهن ودعاهُ فيتامين A

وكذلك توصَّل ما كولم الى معرفة ذلك العامل الغذائي الذي ظن بكلهارنج وهبكنز انهُ في اللبن

واعاد مندل تجارب ما كولم مستوفياً في كل مرحلة منها اشدّ قواعد التحري ، فاسفرت عما يؤيد ما كولم كل التأييد

ولكن مندل ظل لا يفهم السبب في ان اللبن الخالي من البروتين يؤاتي النمو . ولا استطاع ان يحكم هل النقص في الغذاء الذي ركبهُ من مواد كيميائية يعود الى خطاٍ في مقادير عناصره المختلفة بقياس بعضها الى بعض او الى نقص عنصر اساسي غير معروف . ثم إن ما كولم نفسهُ كان محيراً . فخلاصة الزبدة او محّ البيض ، تجعل بعض الاغذية مؤاتية للنمو ، ولا تجعل اغذية اخرى كذلك . وقرأ فونك ما كتب ما كولم ومندل فقال ان العنصر الفعَّال في خلاصة الزبدة التي استعملها الاول . انما هو هو الفيتامين الذي يمنع البريبري

ومن الواضح ان جميع الباحثين كانوا لا يزالون حتى تلك الساعة يتلمسون الطريق في التيه

كشف فيتامين B

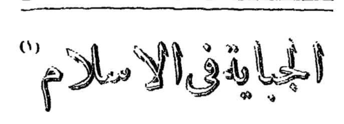
عاد ماكولم الى جرذانهِ عازماً على ان يجرب تجربة واسعة النطاق ، مع انهُ كان عليلاً توالت عليهِ الاصابة بالزكام والصداع والتهاب الحلق والشعب وهبط وزنهُ الى ١٢٢ رطلاً . ولكن هذا البحث كان قد استهواه وملك عليهِ لُبّهُ . فجرب سلسلة من التجارب منوعاً فيها مواد الغذاء ومراقباً نتيجة ذلك في نموّ الجرذان فخلص الى ان الحنطة كغذاءٍ يعوزها الاملاح وفيتامين A وبعض البروتين . والى ان الغذاء الوافي يجب ان يحتوي مقادير كافية من البروتين والسكربوهدرات والاملاح وفيتامين A . وكان الرز من الحبوب التي استعملها في تجاربهِ فوجد ان الرزغير المقشور يؤاتي النمو. ولكن اذا كان الرز مقشوراً واضيف اليهِ قليل من الزبدة اي فيتامين A والاملاح لم يسد النقص فيهِ اي لم تعوضهُ الزبدة مما فقد بفقد قشورهِ. فاضاف الى الرز المقشور قليلاً من سكر اللبن (لاكتوس) علاوة على المواد الاخرى فكان نموّ الجرذان طبيعيًّا. فقال ان في سكر اللبن عاملاً آخر خفيًّا من عوامل النموّ لا غنى منهُ . فخطر لهُ ان يمتحن نقاء السكر الذي استعملهُ فوجد انهُ لم يكن نقيًّا كل النقاءِ وان في السائل الذي يستخرج السكر منهُ مادة خفية تؤثر في النمو. ذلك انهُ عندما اضاف هذا المحلول الى غذاءِ حمام مصاب بمرض (البولينيوريتس) شفي من المرض فشأنهُ في ذلك نفس شأنهِ لو تغذى بالرز غير المقشور . فقال ماكولم ان هذا العامل الحيوي يدعى فيتامين B وانهُ يختلف عن فيتامين A في ان فيتامين A يذوب في الدهن وأما فيتامين B فيذوب في الماءِ وان كليهما لا غنى عنهُ للغذاءِ الكامل

وكان هذا الفيتامين اي فيتامين B هو هو فيتامين فونك الذي يشفي من مرض البريبري

أفضى اعلان ماكولم اكتشافهُ فيتامين B الذي يقي من «البولينيوريتس» الى فهم كثير من الالغاز . فكلا الفيتامينين لازم للنمو السوي . وهذا يفسر عدم نمو الجرذان التي اضيف الى غذائها النقي الزبدة النقية دون سكر اللبن . ذلك ان سكر اللبن كان يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر كذلك لماذا نمت الجرذان نموًّا طبيعيًّا في تجارب اوسبرن ومندل عند ما اضافا الى الغذاء لبناً استخرجت منهُ مادتهُ البروتينية . لان هذا اللبن يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر تجارب هبكنز الانكليزي وما اصابهُ من نمو في الجرذان عند ما اضاف الى غذائها قليلاً من اللبن الكامل

***

لقد اتضحت مشكلة الفيتامين وقاعدتها الاساسية ان هناك مواد لاغنى عنها للصحة والنموّ توجد منها مقادير يسيرة جدًّا في بعض الاطعمة ، وقد كشف ماكولم مادتين منها ، فهل ثمة اخرى؟ (وهذا موضوع البحث القادم)



الجباية في الاسلام (١)

لفارس بك الخوري

رئيس مجلس النواب السوري

في عصر الامويين

كانت دولة العرب على عهد بني أمية في أوج عزها وعنفوان مجدها فكان العرب يمتهنون الشعوب الاخرى ويستضعفونهم ويسمون غيرهم « الموالي » أو « العلوج » ويحسبون ديارهم بستان قريش « ما شئنا اخذنا منهُ وما شئنا تركنا » فخزينة الدولة العربية هي جيوب الرعية يتناولون منها ما شاؤا فكان العمال يقولون للناس « انما انتم خزانة لنا ان كثر علينا كثر عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » وبهذه العقيدة ابتزوا اموال الناس بحق وبغير حق وكان الخراج مفروضاً على الاراضي بمقدار ما يزيد من غلتها عن حاجة الزراع فقط بحيث لا يترك للعامل الا ما يسد بهِ عوزه الضروري ومع ذلك فان بعض العمال سولت لهم نفوسهم ان يستولوا على الغلة برمتها فكانت الشكاوى ترفع الى الخلفاء من جور العمال ونهمهم في الجباية فاذا كان الخليفة منصفاً أنصفهم والاَّ بقي الظلم سائداً والعسف مستفيضاً . من ذلك ما كتبهُ عبد الملك بن مروان الى الحجاج في امر اهل العراق ان «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »

وكان للحجاج امثال كثيرون بين عمال الامويين في الظلم والجور وابتزاز الاموال بغير حق فزادوا في الجزية عن الحد الذي اقره الخلفاء الراشدون وخرجوا في الخراج عن النصاب المشروع وفرضوا على الناس الهدايا في الاعياد والافراح وتناولوا النقود بأقل من سعرها الرائج وكانوا يخرصون الحاصلات اي يحزرون مقدارها ويخمنونها با كثر مما هي ويقوّمونها بالسعر الذي ينالون بهِ ربحاً جزيلاً . وكثيراً ما كان الخلفاء يغمضون العين عن امثال هذه الافاعيل لحاجتهم الى المال ليبذلوه في كمّ الافواه وغل الايدي وارضاء الناقمين والانفاق في وجوه التبذير والبذخ

(١) من فصل في كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق»

واتصلت هذه الاعمال بالدور العباسي ايضاً حتى كتب ابو يوسف الى الرشيد يستنفره على العمال والجباة ويحرضهُ على الاقتصاص منهم لانهم « لا يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونهُ وانما مذهبهم اخذ شيء من الخراج او من اموال الرعية. ثم انهم يأخذون ذلك كله بالعسف والظلم والتعدي . ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » . كان من اسلم توضع عنهُ الجزية وينضم الى فريق المجاهدين يتناول الاعطية والافياء فيتحول ما في يده من الارض الى الباقين من اهل قريته يحرثونهُ ويؤدون خراجه فرغب الناس في الاسلام ليخلصوا من عسف العمال والجباة حتى قلّ مكلفو الضرائب ولم يعد في حولهم تأدية الاموال المضروبة على قراهم فصار العمال يجبرون من أسلم ايضاً على العمل في الارض وتأدية خراجها ولم يعد الاسلام يعصم احداً فقلب الرغبة فيهِ وشكا الناس امرهم الى عمر بن عبد العزيز الذي استنّ بسنة عمر بن الخطاب فكتب الى عماله « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثهُ جابياً » وأعاد الامور الى مجراها السابق من جهة اعفاء المسلمين

ليس لدينا ارقام يوثق بها عما كان يرد الى خزينة الخلافة في عصر الامويين وانما يؤخذ من اقوال المؤرخين ان متوسط ارتفاع جباية الشام نحو مليوني دينار وجباية مصر ثلاثة ملايين وجباية العراق عشرة ملايين وجباية البلاد الاخرى اكثر من خمسة ملايين فيكون المجموع اكثر من عشرين مليون دينار اي نحو عشرة ملايين جنيه انكليزي وهو المبلغ الذي يدخل في خزينة الخلافة فقط ما عدا الاموال التي يحتفظ بها العمال والجباة لانفسهم او ينفقونها في الامور المحلية وهي اضعاف مضاعفة عن الارتفاع الذي يبعثون به الى مقر الخلافة. وقد كان أكثر العمال يحشدون الملايين من الدراهم والدنانير بعد ما يبذخون بهِ ويبذرونهُ من الاموال الطائلة حتى يهيجوا بسعة ثروتهم حسد الخلفاء ويغروهم بمحاسبتهم واستخراج المال المكنوز منهم جرياً على سنة عمر بن الخطاب الذي كان يمنع عماله من الحشد والتوفير واذا وجد عند أحدهم مالاً قاسمهُ إياه او استخلصهُ منهُ وشاعت هذه الطريقة في عهد الأمويين والعباسيين شيوعاً عظيماً

في العصر العباسي

ازدادت الجباية في عصر العباسيين بتوسع الفتوح وانتظام حال الدولة واشتراك الموالي في الحكم والادارة فان العرب لم يكونوا أهل جباية ودراية في الأصول المالية وتنظيم التكاليف والنفقات وانما كان الموالي من الفرس والروم أعرق منهم وأطول باعاً في هذه الامور فعند ما بلغ بنو العباس مبلغهم من تقويض الدولة الأموية وولاية الأمر بنجدة الاعاجم من أهل خراسان

امتدت أيدي هؤلاء الاعاجم الى السلطة والاشتراك في الاعمال العامة حتى كادت تقضي على سيادة العرب. وكانت أمور المال في جملة ما عني به هؤلاء الموالي لتكثير موارد الخزينة وتشديد شكيمة الدولة على النحو الذي كان جارياً في عهد كسرى

الخليفة العباسي الاول لم يتيسر لهُ جمع كثير من المال لقصر مدته وجدّة دولته ولكن المنصور بعده ضاقت خزائنه بالأموال الوافرة التي كانت تتسرّب اليهِ من الأداني والأقاصي فأنفق منها ما أنفق في سبل الصلاح والحاجة وترك بعد موته خزينة احتياطية فيها ما يربي على خمسين مليون دينار وأوصى ابنه قائلاً « قد جمعت لك من الاموال ما أن كسر عليك الخراج عشر سنين يكفيك لأرزاق الجند وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ». غير ان ابنه المهدي لم يأتمر بهذا الامر بل أسرف وبذخ فبدد ما جباه في زمانه وما خزنهُ لهُ أبوه ولم يخلف شيئاً للهادي الذي تولى الأمر بعده كما ان هذا ايضاً لم يخلف شيئاً للرشيد الذي بذل المال بسخاء عظيم وفضل عنهُ عند موته أكثر مما فضل عن المنصور وقد جرى ملوك الاسلام على اختزان الاموال خلافاً للسنة التي استنها عمر بن الخطاب وبالغ المؤرخون في تعداد ما اجتمع في خزائن الخلفاء والملوك في الشرق والغرب فقيل انهُ وجد في خزانة عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس المتوفى سنة ٣٥٠ هـ نحو عشرين مليون دينار مع ان جبايته السنوية لم تتجاوز ستة ملايين

منابع الجباية في العصر العباسي لم تختلف كثيراً عن منابعها في العصر الأموي وسنذكر شيئاً عن تفصيلها عند البحث في كتاب الخراج لابي يوسف . اما مقاديرها فقد حفظ التاريخ ثلاث قوائم في تواريخ مختلفة جاء فيها مقدار الجباية في كل اقليم من أقاليم الدولة العباسية بحسب الارتفاع الذي كان يقدم لخزينة الخلافة

القائمة الأولى نقلها ابن خلدون في تاريخه وزعم انهُ استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون اعتمد عليها في تدوين الدخل والخرج في عهد المأمون وليس ثمة مرجع رسمي الا قبل ذلك لاحتراق الديوان في عهد الأمين وضياع الوثائق وهذه القائمة تتضمن جباية احدى السنين بين سنة ٢٠٤ وسنة ٢١٠

والثانية قائمة قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة ويظهر انهُ كتب هذه القائمة في كتابه (الخراج) معتمداً فيها على ما وصلت يده اليهِ من الوثائق الرسمية عن جباية سنة ٢٢٥ في أيام المعتصم

والثالثة قائمة ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك الذي أدخل فيه هذه القائمة حوالي سنة ٢٥٠

ولا يخفى ان الدولة العباسية اشتملت على جزيرة العرب بكاملها وبلاد الشام ومصر وافريقيا الشمالية كلها الى بحر الاتلانتيك والعراق وبلاد فارس وما وراءها الى حدود الهند وأواسط آسيا الى الحدود الروسية وقسماً كبيراً من بلاد آسيا الصغرى فكانت الجباية في عهد المأمون من

هذه الدولة الواسعة على رواية ابن خلدون تناهز أربعمائة مليون درهم سنوياً وذلك يقارب ثلاثين مليون دينار ماعدا الحيوانات والعروض والسلع التي كانت تستوفى عيناً من الحلل النجرانية والسكر وماء الورد والزيت والعود الهندي والبراذين والارقاء والاهاليلج والعسل والبزاة والمناديل والاكسية والفرش وغيرها . اما مجموع الجباية في عهد المعتصم حوالي سنة ٢٢٥ بحسب قائمة قدامة بن جعفر فلم ينقص كثيراً عما كان في عهد المأمون وانما القائمة الثالثة التي احصت الارتفاعات حوالي سنة ٢٦٠ فقد نقص منها نحو ربعها ولم تبلغ ثلثمائة مليون درهم . وليس لدينا بعد هذا التاريخ احصاء موثوق به عن ارتفاعات الجباية في الدولة العباسية وانما جرت على هبوط مستمر مع ضعف الدولة وانقسام بلادها بين امراء الترو الديلم والاتراك وسائر المتغلبين من الغزاة

اذا قابلنا هذه الارقام بمعظم الجباية عند الدول الاخرى القديمة وجدنا ان خزائن الخلفاء من العباسيين بلغت شأواً من الثروة تحسدها عليه اعظم الدول قدراً واوسعها جاهاً فان ارتفاعات الدولة الرومية في عنفوان مجدها لم تتجاوز اربعمائة مليون درهم . ومجموع جباية الفرس في ايام كسرى رويز تجاوزت سبعمائة مليون درهم غير ان هذا الرقم يشمل ما كان يجبيه العمال وينفقونهُ في اعمالهم مع ما يرفعونهُ لخزينة الملك على قاعدة شمول الموازنة ولو تيسر لنا احصاء ذلك عند العرب لبلغت جبايتهم اضعاف جباية الفرس

في عهد الراشدين لم تكن قاعدة تقبيل الجباية (تلزيمها) جارية في دولة العرب بل كان العامل يجبي الخراج والجزية وينفق من حصائلها ما يلزم لادارة عمله ويرفع الفضلة الى خزينة الخليفة واذا لم تكفه جبايته طلب ما يلزمهُ من الخليفة . ثم بدأ التقبيل في عهد بني امية وازداد انتشاراً فكان وسيلة لاطلاق ايدي العمال بالعسف والارهاق وزادهم انبعاثاً في هذا الجور فقدان القوانين المالية الواجبة الاتباع في اصول الجباية فكان كل منهم مختاراً في استنباط الطرق ووضع التعاليم التي تضمن له جباية اوفر وحصيلة اكثر . ولم يكن هذا العنف والظلم الا معجلاً في تخريب البلاد وتقليل خراجها . خذ مثالاً على ذلك خراج مصر الذي جباه عمرو بن العاص على عهد ابن الخطاب اثني عشر مليون دينار وجباه عبد الله بن سعد في زمن عثمان اربعة عشر مليوناً فتدنى حتى وصل الى مليونين ونصف مليون في عهد المعتصم العباسي

ان اسماء الولايات التي اوردها قدامة بن جعفر في تقويمه لا تتفق تماماً مع الاسماء التي جاءت في تقويم ابن خلدون وتقويم ابن خرداذبه وذلك لانهُ لم يكن للولايات حدود ثابتة وعواصم مقررة بل كان يكثر اندماج عملين او اكثر لعامل واحد وانتقال العاصمة من مدينة الى اخرى فيسمى العمل باسم عاصمته ويتبدل اسمه بتبدلها فبينما نرى في التقويم الاول اسمين لعملين مختلفين نراها في التقويم الثاني اندغما في عمل واحد وظهرا باسم مدينة اخرى اتخذت

قاعدة للعمل الموحد . ومما يجدر بالذكر ان جدول قدامة خلا من ذكر برقة وافريقية مع ان ارتفاعهما في جدول ابن خلدون ورد باربعة عشر مليون درهم وكانت في عصر المعتصم باقية في طاعة العباسيين فاذا اضفنا هذا الرقم الى جدول قدامة تجاوز اربعمائة مليون درهم . وهذا يعدل بنقود هذه الايام ما يقرب من ثلاثة عشر مليون جنيه انكليزي . واذا اتخذنا قوة النقود الاشترائية مقياساً لقيمتها وعلمنا ان اجور العمال واسعار الغذاء كانت في عهد المنصور نحو ثلث ما وصلت اليه قبل الحرب العامة تكون هذه الواردات معادلة لـ ٣٩ مليون جنيه انكليزي . اما وقد تضاعفت ايضاً هذه الاسعار منذ قبل الحرب الى الزمن الحاضر فتكون واردات خزينة المأمون او المعتصم معادلة لمبلغ ٧٨ مليون جنيه انكليزي في هذا الزمان وهي جباية عظيمة جداً كانت ترد الى الخزينة العامة من صوافي الخراج والجزية والعشور على انها في هذا الزمان قد تناولت مطارح لا تحصى وصارت التكاليف الاميرية تجبى عن عروض وسلع واعمال مثل رسوم المسكرات والتبغ والطوابع على امور كثيرة مما لم يكن له أثر في عهد العباسيين . كما ان واردات الدول الحاضرة تنفق جميعها في مصالح الدولة العامة فلا يبقى شيء منها والواردات المذكورة في زمن العباسيين هي فضلات الجباية المرفوعة لخزينة الخليفة الخاصة

وجوه الانفاق

بقي علينا ان ننظر في وجوه إنفاق هذه الاموال والاساليب التي يخرج فيها المال من بيت المال بعد دخوله اليه . في الدول الحاضرة لا ينفق قليل او كثير من الاموال العامة من دون معاملة قانونية تقي أمر الاعطاء من التبعة . اما عند العرب وغيرهم من دول الاقدمين فلم يكن شيء من ذلك بل كان امر الاعطاء منحصراً بالخليفة في اموال خزينة الخلافة وبالعامل في اموال ولايته بغير ان يكون هذا الامر مقيداً بقانون او موازنة . فيبذل ويمنح ويكافىء ويجيز ويشتري ويبيع بحسب ما يملي عليه عقله وتقتضيه احواله ورغائبه . اللهم الا ما كان من قبيل الرواتب المقررة لاعوانه وحاشيته والنفقات المقدرة لجنده والاعطيات المعينة لعسكره . وهذا الشطر من النفقات لم يكن في ايام السلم يستغرق الا جانباً من الواردات . ولدينا جدول عن الرواتب والاعطية اليومية عن سنة ٢٧٩ في خلافة المعتضد العباسي عندما تولى الانفاق احمد ابن محمد الطائي فبلغ الخرج اليومي نحو سبعة آلاف دينار يدخل فيها ارزاق القواد وعلوفة الجند واجور الخدم والحشم ورواتب موظفي الدواوين وغيرها من النفقات المقررة فيكون الانفاق السنوي في هذا الباب نحو مليونين ونصف مليون دينار وتبقى اموال الجباية الاخرى مرصدة في بيت المال على اجتهاد الخليفة ورأيه . ولم تكن هذه الارقام والوظائف جارية على شيء مما

نعرفهُ في العصر الحاضر تابعةً لموازنة ثابتة وتشكيلات راسخة وانما كانت تتبدل بين سنة وسنة وبين خليفة وآخر بالغاء الوظائف واحداث غيرها وتخصيص رواتب وإبطال غيرها بلا قيد ولا شرط . فبينا نرى واحداً ينفق في هذه الوجوه عشرة ملايين دينار في السنة يجيء من بعده فلا ينفق مليوناً واحداً . وقد تقهقرت الجباية مع تقهقر الدولة العباسية فلم يعد الخلفاء يتمكنون من الانفاق بالسخاء الكثير. ولدينا قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي وضعها عن جباية الدولة ونفقاتها سنة ٣٠٦ ولم يكن وضعه اياها لاجل انشاء موازنة لمالية الدولة وانما جاء بها ليدفع عن نفسه التهمة التي ألصقها بهِ مزاحمه ابن الفرات بسبب العجز الذي ألم ببيت المال في وزارتهِ فبلغ الدخل في السنة المذكورة ١٤٥٠١٢٩٠٤ دنانير

ومن ذلك نرى ان الجباية نزلت في هذا العصر الى اقل من نصف ما كانت عليهِ في عصر المأمون والمعتصم وظهرت ابواب جديدة للانفاق وردت في جدول النفقات الذي اثبتهُ علي بن عيسى مثل نفقات الحرمين وطريقهما ورواتب القضاة في الممالك ورواتب ولاة الحسبة والمظالم ورواتب اصحاب البريد وزيادة رواتب الجند وعدده بحيث بلغ العجز في ميزانية تلك السنة اكثر من مليوني دينار . ومن جملة اسباب هذا العجز ترقي الرواتب من عصر الى عصر . فالخلفاء واهل بيوتهم والعمال والوزراء والقضاة والقواد والجنود كانوا في بادىء الامر يتناولون رواتب صغيرة جداً فازدادت مع الايام حتى صارت أرقاماً عالية . من ذلك رواتب الخلفاء التي بدأ أبو بكر بفرضها على مقدار الكفاية مع الاقتصاد التام وبلغ جميع ما تناولهُ عمر في مدة خلافته كلها لنفقات بيته ونفسه الضرورية ثمانين الف درهم حسبها سلفةً وأوصى بوفائها من أموال آل الخطاب . ثم صارت هذه الرواتب تنمو حتى بلغت حداً فاحشاً وصار الخلفاء يقتنون الاموال والضياع لانفسهم ولاعضاء اسرهم واقربائهم من الرجال والنساء من الاسرة المالكة التي بلغت في عهد المأمون نحو ثلاثة وثلاثين الف نفس يملكون الضياع والدساكر والاقطاعات والنقود والرياش وتجري عليهم الارزاق من بيت المال بسخاء لا مزيد عليهِ . ومن ذلك رواتب القضاة فقد كان راتب القاضي في عهد الراشدين مائة درهم في الشهر ثم ارتقى حتى صار راتب قاضي مصر في عهد الامويين الفاً ومائتي درهم . وجاءَ في جريدة المعتضد العباسي ان راتب القاضي خمسمائة دينار في الشهر ، وكانت دخول جبريل بن بختيشوع رئيس الاطباء في عهد الرشيد تناهز خمسة ملايين درهم في السنة يتناول منها من بيت مال العامة (١٨٠٠٠٠) ومن جيب الرشيد الخاصة (٤٢٠٠٠٠) ومن اصحاب الرشيد واهل بيته (٤٠٠٠٠٠) ومن البرامكة (٢٤٠٠٠٠٠) ومن غلة ضياعهِ (١٥٠٠٠٠٠) وعلى هذا المنوال ازدادت الرواتب والمخصصات وثقل عبؤها على بيت المال

الجغرافيا الحديثة

رسالتها وأغراضها

لمصطفى عامر
استاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية



﴿ رسالة الجغرافية الحديثة وأغراضها ﴾ للجغرافيا كما لكل علم من العلوم رسالة تؤديها ، وربما كانت رسالتها هذه اكثر اتصالاً بالانسان من رسالة اي علم آخر . فهي لا تدرس ، كما يحسب الكثيرون ، الظاهرات الطبيعية على سطح الارض فحسب ، بل هي تتناول كذلك دراسة الانسان ومظاهر نشاطه ، وتبحث في اثر البيئة في حياته ، وأثره هو في البيئة التي ينشأ فيها . ومن هاتين الناحيتين ، الناحية الطبيعية والناحية البشرية ، اي دراسة المكان ودراسة الانسان ، يتكوّن علم الجغرافيا الحديث

ولا يقتصر شأن دراسة الظاهرات الطبيعية على تفسير بعض أسرار هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، بل هي تتعدّى ذلك الى شرح طرق المعيشة وأساليب الحياة عند شعوب الارض وجماعاتها ، كل منها في بيئته الخاصة ، وتوضح لنا كيف ان المسائل التي تواجه كلاً منها ، سواء اقتصادية كانت أم سياسية ، هي الى حد كبير متصلة بالاحوال الطبيعية المحيطة بها . فاذا عرفت الامم المختلفة كل هذا ، امكنها ان تنظر بعين العطف الى مشكلات جيرانها ، وأن تتفاهم وتتعاون معهم على حل تلك المشكلات بما يلائم مصلحة الجميع . فيقل الاحتكاك بين الشعوب ويحل التفاهم محل الخصام ، وتتغلب المصلحة المشتركة على المصلحة الخاصة ، وتصبح الحياة على سطح الارض اسعد حالاً مما هي عليه الآن

هذه هي الروح التي تبعثها الجغرافيا الحديثة في نفس كل من يتعلمها . فهي تؤمن بالوطنية المعتدلة لا بالوطنية الطائشة ، وتدعو الى التعاون بين شعوب الارض لأنها اجزاء من الوحدة الارضية الكبرى التي لا تقبل تجزئة ، إذ لا يمكن لجزء منها ان يعيش عيشة مستقلة عن بقية أجزائها . وقد ساعد تطور وسائل النقل في العهد الاخير ، كما ساعد التقدم الاقتصادي ، على توثيق الرابطة بين الامم ، واصبح كل ما يمس عضواً من اعضاء الجماعة البشرية يمس العضو الآخر ، كما صار لكل حادث يحدث في ركن من اركان المعمورة صدى في بقية أركانها . فمسائل الانتاج والاستغلال ، ومسائل الاسواق والتوزيع ومسائل الهجرة والاستعمار ،

كلها اصبحت مسائل عالمية، ولا يمكن حلها إلا بتفاهم امم الارض اجمع والتوفيق بين مصالحها المشتبكة

من اجل هذا كانت دراسة الجغرافيا ضرورية لكل شخص مثقف يرغب في فهم ما يجري حوله من حوادث ووزن الامور بميزانها الصحيح ، ولاسيما من يتصدّى لمعالجة المسائل القومية والدولية . فاتجاهات الجغرافيا الحديثة ، كما يرى القارىء ، تختلف تماماً عن روح الجغرافيا القديمة ببياناتها المطوّلة عن الرؤوس والخلجان ، والبحار والأنهار ، والسهول والوديان ، والمسافات والأبعاد . على انهُ من الغريب ان تبقى تلك الصورة البالية لعلم الجغرافيا شائعة بين أغلب المثقفين، ومنهم من يُعد من قادة الرأي وأساطين المعرفة . ولطالما سألني كثيرون ، ومنهم بعض الزملاء الافاضل في الجامعة نفسها ، هل للجغرافيا شخصية مستقلة ، تسوّغ وجودها كعلم خاص . فالجغرافيا عندهم مزيج من علوم مختلفة ، اذ هي كما يقولون ، تستمد بعض الحقائق من علوم الجيولوجيا والمتيورولوجيا والنبات والحيوان ، كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلمي الأنثروبولوجيا والاجتماع . وليس هناك زعم أبعد عن الحقيقة من تلك الآراء . أولاً لان اتصال العلوم بعضها ببعض واعتماد كل منها على الآخر هو من الأمور المعترف بها في كل عصر وفي كل دراسة ، وثانياً لان الجغرافيا الحديثة وان كانت تعتمد على بعض النتائج التي وصل اليها الباحثون في شتى العلوم ، فان اعتمادها هذا لا يتعدّى الاستعانة بتلك النتائج في شرح وجهات النظر الجغرافية

ولقد سبق أن حدّدنا أغراض الجغرافيا في أنها تدرس الظاهرات المختلفة المتصلة بالبيئة التي يعيش فيها الانسان ، كما أنها تدرس مظاهر نشاط الانسان كنتيجة لتلك الظاهرات . وهذا البحث لا يعنى بهِ علم آخر غير علم الجغرافيا . فالانسان في هذا الكوكب يعيش في اقاليم متباينة أو متشابهة ، يتميز بعضها عن بعض في أحوال سطحها ومناخها ونباتها ، وهو موزّع على سطح الارض توزيعاً يتبع قواعد خاصة ، وهو في بعض الجهات يزرع الارض ويعيش على نتاجها ، وفي جهات أخرى يعيش على الصيد او الرعي ، أو يشتغل بالصناعة أو التجارة . والانسان عامل على تغيير وجه المعمورة بشتى الوسائل فهو يقطع الاحجار من محاجرها ويستخرج المعادن من باطنها ، وهو يحفر الترع والآبار ويسوق ماء الري الى جهات لم تكن تعرف غير الجفاف والجدب ، وهو يشق الطرق ويخرق الجبال ، ويقطع الاشجار من الغابات ، ويردم البرك والمستنقعات ، وهو يقوم بانشاء المدن والموانىء ، وإيجاد المواصلات السهلة السريعة بين بلاد الارض وساكنيها . كل هذا يمثل بعض نواحي نشاط الانسان على سطح الارض ، والجغرافيا تدرس كل تلك النواحي وتبحث في أسبابها ونتائجها ، وجميعها يدخل في ميدانها وضمن دائرة نفوذها ، ويسوّغ قيامها كعلم مستقل عن بقية العلوم

﴿ الدراسات الجغرافية في الجامعة المصرية ﴾ : أما وقد حدّدنا أغراض الجغرافيا وبيّنا رسالتها ، فيجب علينا ان ننتقل الى بحث مقام هذا العلم بين الدراسات المختلفة في الجامعة المصرية . نشأت الجغرافيا نشأة محدودة ، فكانت عند قيام الجامعة في عام ١٩٢٥ تكوّن هي والتاريخ قسماً واحداً من أقسام كلية الآداب . وكانت الدراسة في هذا القسم واحدة في السنتين الاوليين ، ثم تتفرع بعد ذلك الى فرعين ، أحدهما للتخصص في الجغرافيا والآخر في التاريخ . ولم يكن للجغرافيا في ذلك الوقت مكان خاص بها ، كما لم تكن لديها الادوات المختلفة التي يستعان بها عادةً في تدريسها . وكانت الدروس تلقن باللغة الفرنسية ، مما حوّل جهود الطلبة من التحصيل العلمي الى العناية باللغة . غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، ففي سنة ١٩٢٧ صارت اللغة العربية لغة التدريس ، وان كان قد بقي النظام السابق دون أن يلحقهُ تغيير أو تبديل . وفي سنة ١٩٣٠ نال قسم الجغرافيا استقلاله ، وأصبح قسماً قائماً بذاته ، وأخذ ينمو نموًّا سريعاً ويزداد نشاطه وتتسع دائرة اعماله ، واتخذ لهُ مكاناً فسيحاً يسمح بانشاء مكتبة جغرافية تحوي عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الحديثة ، كما يسمح بانشاء متحف دراسي صغير ، وأبهاء للمحاضرات والدراسة العملية . ويدرس الآن في هذا القسم سبعون طالباً ، منهم طالب يستعد لدرجة دكتور في الآداب ، وستة ينتسبون الى قسم «الماجستير» والباقون في دراسة «الليسانس» . وقد زاد عدد اعضاء هيئة التدريس فأصبح ستة اساتذة ومدرسين ، ثم مساعد يقوم بالاشراف على الناحية العملية من الدراسة كالمساحة والخرائط . اما التدريس فيتناول جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية (وتشمل الناحية البشرية ، الجغرافيا الجنسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاقليمية) ، ويعنى القسم عناية خاصة بالدراسات الجغرافية الخاصة بمصر وحوض النيل ، وذلك من جميع النواحي التي ذكرناها . ويقوم القسم بتعويد طلابه البحث والدراسة الشخصية ، فهو يختار في بدء كل عام موضوعاً جغرافيًّا ، توزع اجزاؤه على الطلبة ، وهم يحاضرون فيه زملاءهم واساتذتهم بعد اعداده ، ويناقشون فيه بعد الانتهاء من القائه . ودروس البحث هذه ولو أنها مقتصرة على طلبة الليسانس الممتازين ، الاّ أن الكثيرين من الطلبة العاديين يأتون اليها بمحض رغبتهم مستمعين ، وهي ظاهرة تدل على ميل واضح للتحصيل دون نظر الى اي اعتبار آخر . هذه كلمة موجزة عن النظام الحالي لقسم الجغرافيا ، وهو نظام لا نعتقد انهُ يقل شأناً عن نظم اقسام الجغرافيا ومعاهدها التي نعرفها في الكثير من الجامعات الاجنبية ، وانهُ ليحق لنا فعلاً أن نفخر بذلك كل الفخر . وللقسم صلات طيبة ببعض الجامعات الاوربية ، وقد نشأت تلك الصلات من العلاقات الشخصية بين الاساتذة المصريين واساتذة الجغرافية بتلك الجامعات . وقد ساعد هذا الجو في كثير من الاحيان على تسهيل مهمة بعثاتنا الجغرافية الى الخارج

وعلى الخصوص الى بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد سمحت جامعة لفربول كما سمحت جامعة مانشستر لخريجي قسم الجغرافيا بالتحضير للدرجات العالية مباشرة، وذلك بعد أن تحققوا من أن المستوى الذي بلغته دراسة الجغرافيا في الجامعة المصرية لايقل عن المستوى المعترف به في معاهدهم. وقد كانت النية عند ما نبتت فكرة ارسال بعثة جغرافية الى بلاد اليمن ان تشترك جامعة مانشستر مع الجامعة المصرية في هذا العمل العلمي الجليل ، ولكن حال دون تنفيذ هذا المشروع على الوجه السابق قيام ظروف سياسية خاصة نشأت عن الحرب الايطالية الحبشية . على اننا قد ذكرنا هذا المثل ليكون دليلاً آخر على ثقة الجامعات الاوربية بمعهدنا ورجاله

﴿ دائرة نشاط قسم الجغرافيا ﴾ : أما دائرة قسم الجغرافيا فتظهر في نواحٍ شتى . فهناك أولاً ناحية تعريف النشء ببلادهم ، وهي تتمثل في الرحلات التي ينظمها القسم بين حين وآخر لأغراض جغرافية بحتة . وقد قام الطلبة والاساتذة برحلات مختلفة الى منخفض الفيوم وخليج السويس وشبه جزيرة سيناء والواحات الخارجة ، وهذا فضلاً عن الزيارات القصيرة لبعض الجهات في منطقة القاهرة وهي زيارات لا تستغرق في العادة أكثر من يوم واحد . ويكاد يكون من المسلم بهِ أن من لا يعرف جغرافية بلاده ولا يعي تاريخها، لا يمكن ان يكون وطنيًّا نافعاً لوطنهِ مفيداً لقومهِ ، كما أن من يجهل الحقائق الاولية لجغرافية العالم يكون محدود المعرفة والثقافة . ويكون حكمه على الحوادث والشؤون العالمية حكماً ناقصاً

ثم هناك ناحية النشاط التي تظهر في المحاضرات العامة ونشر المقالات العلمية والكتب الجغرافية ، ومحصول القسم من تلك الناحية محصول طيب اذا قيس بمحصول غيره من الاقسام . وقد ظهرت بعض ابحاث اساتذة القسم في المجلات المصرية كمجلة الجمعية الجغرافية الملكية ومجلة كلية الآداب ، وفي بعض المجلات الانجليزية والفرنسية كمجلة « الجغرافيا » التي تصدر بمانشستر ومجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي بلوندرة ومجلة « الانثروبولوجيا » الفرنسية . وقد طبعت الجامعة المصرية على نفقتها مجلدين هامين يحويان نتائج البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ وهو البحث الذي يقوم بهِ قسم الجغرافيا في جهة المعادي

كذلك اشترك القسم في المؤتمرات الجغرافية الدولية المختلفة منذ عام ١٩٢٨ ، وقد ألقى ممثلوه في كل مؤتمر من تلك المؤتمرات ابحاثاً جغرافية عن مصر . وقد اشترك القسم كذلك في عدة مؤتمرات اخرى منها المؤتمر الدولي للسكان والمؤتمر الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والمؤتمر الدولي للعلوم الانثروبولوجية . ونجح قسم الجغرافيا في العام الماضي في تنظيم بعثة جغرافية لارتياد بلاد اليمن وحضرموت ودراسة احوالها الفزيوغرافية والبحث عن ادلة تثبت سكنى الانسان فيها في عصر ما قبل التاريخ . وقد اشترك في تلك البعثة قسم اللغة العربية لدراسة اللهجات والنقوش القديمة،

وقسما الجيولوجية والحشرات بكلية العلوم ، وكان المشرف على البعثة أحد أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافية ممن عرفوا بالجد والنشاط ، وقوة الملاحظة والولع بالبحث والدرس . وقد قضت البعثة في تلك البلاد زهاء ثمانية شهور ، جمعت في خلالها كثيراً من المعلومات القيمة ، وهي تشتغل الآن بدرسها وفحصها تمهيداً لنشر نتائج بحوثها في الاوساط العلمية . هذا ولا يخفى ما لموقع إقليم اليمن من شأن كبير في دراسة الكثير من مسائل الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، ولا سيما هجرات الشعوب القديمة وانتقالها ، إذ اليمن حلقة اتصال هامة بين شرق افريقية وشبه جزيرة العرب

وفي الناحية التعليمية ، يعنى قسم الجغرافيا عناية كبيرة بالسعي لتحسين تعليم الجغرافيا في المدارس المصرية . وقد اشركت وزارة المعارف بعض رجاله في وضع مناهج الجغرافيا الجديدة في مراحل التعليم المختلفة ، واتصل القسم في السنتين الاخيرتين بمدرسي الجغرافيا في مدارس القاهرة الثانوية ، ونظم لهم محاضرات خاصة في تلك المادة يحضرونها في اوقات فراغهم . والقسم على اتصال دائم بخريجيه الذين يشتغلون بالتدريس والذين أصبحوا منتشرين في كل ناحية من نواحي القطر المصري حتى الجهات النائية أمثال مرسى مطروح والواحات الخارجة . ونحن نرجو من وراء هذا الاتصال أن نصل بتدريس الجغرافيا إلى المستوى اللائق بهِ ، وإن نشجع بعض المدرسين الممتازين على مواصلة ابحاثهم الشخصية في الجهات التي يقومون فيها بأعمالهم الرسمية

﴿ حفاير قسم الجغرافيا في المعادي ﴾ : أما الحفاير التي يقوم بها قسم الجغرافيا للبحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ في المعادي فيرجع عهدها الى عام ١٩٣٠ حينما بدأ أول موسم للحفر وأسفر عن نتائج علمية خطيرة لم تكن في الحسبان . ولربما كان من الجدير بنا هنا ان نشرح الظروف التي حدت بالقسم الى القيام بتلك الابحاث علاوة على ما لديه من اعمال . فمن الدراسات الجغرافية التي نعني بها دراسة الجغرافيا التاريخية ، وهي دراسة جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل ، والغرض منها تتبع الادوار المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية منذ أن ظهر الانسان اول مرة في مصر ، وبحث الجنس او الاجناس البشرية التي تنتمي اليها ، والاحوال الجغرافية التي سادت في خلال كل دور من تلك الأدوار . فكما اننا ندرس الجغرافيا البشرية لمعرفة مظاهر نشاط الانسان الحالي وعلاقة ذلك بالبيئة الطبيعية التي يسكن فيها ، فاننا ندرس الجغرافيا التاريخية لمعرفة حياة الانسان واعماله منذ العصور الحجرية . وعلاقة ذلك بالظروف الفزيوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية في تلك العصور . من أجل هذا كانت دراسة عصر ما قبل التاريخ ، وان كانت متصلة بالناحية الاركيولوجية ، الا انها متصلة كذلك ، والى حد بعيد ، بالناحية الجغرافية . ومن هنا نشأ اهتمام الجغرافيين في كلية الآداب بدراسة عصر ما قبل التاريخ ، وبدأت رغبتهم تتجه الى فحص الجهات الأثرية القريبة من القاهرة والتي يرجع عهدها الى ذلك العصر حتى تسير الدراسة النظرية جنباً الى جنب مع التطبيق العملي

وقد وقع الاختيار فعلاً على الأكوام القائمة في الصحراء شرقي المعادي ، وحفرت الجامعة في تلك الجهة في خلال المواسم الستة السابقة (سنة ١٩٣٠ — سنة ١٩٣٦) ، وبلغت المساحة التي تمَّ حفرها حوالي ثمانية أفدنة . وقد أدى هذا البحث الى الكشف عن حضارة جديدة من حضارات مصر في العصر السابق للتاريخ ، وهي حضارة لم يكن يعرف عنها شيء من قبل ، سكن أصحابها اقليم المعادي قبل قيام الأسرات ببضعة قرون ، وعاشوا بالزراعة وتربية الحيوان . وقد حذقوا صناعة الاسلحة الصوانية والآنية الفخارية والحجرية ، وعرفوا النحاس وصناعة الغزل والنساجة ، وشيدوا أغلب مساكنهم من أغصان الاشجار والطين . وان كان البعض قد حفر كهوفاً عميقة في التربة الرملية ، واستخدم البعض الآخر الحجر والطوب في البناء ، وربما كان ذلك لاول مرة في شمال مصر . وقد جلبوا معدن النحاس والمانجنيز من سيناء ومادة القار (الاسفلت) وبعض السلع من فلسطين ، واتصلوا بالصعيد بوساطة النيل كما يتبين ذلك من دراسة بعض آثارهم

هذه هي اهم مظاهر الحضارة الجديدة التي كشف عنها قسم الجغرافيا في المعادي ، والتي أدى كشفها الى القاء ضوء كثير على حياة الانسان في الدلتا في عصر ما قبل التاريخ ، وعلى علاقاته بجيرانه سواء أكان ذلك في مصر أم في خارجها . وقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتي من الصعيد ، ونسب الكثير من العلماء نشأة الحضارة المصرية الى الوجه القبلي . والمباحث الجديدة في المعادي وفي غرب الدلتا (حيث تعمل بعثة نمسوية) أظهرت ان الدلتا كانت دون شك أعرق حضارة وأعظم تقدماً وأكثر عمراناً من الصعيد . وقد ساعد على تقدمها هذا ثروتها الزراعية ومراعيها الغنية وموقعها الجغرافي الذي سهل اتصالها بالاقاليم المحيطة بها . ونحن اليوم نؤمن بان الحضارة المصرية هي وليدة البيئة المصرية وليست حضارة غريبة وصلت مصر من الخارج ، كما نؤمن ان تطور تلك الحضارة استمر منذ العصور الحجرية الى اليوم ، وقد حافظت تلك الحضارة على صبغتها المصرية على الرغم من الغزوات التي انتابت هذا البلد في اوقات مختلفة

وقد كان من نتائج تلك الاعمال الموفقة في المعادي ان اخذت تتصل بقسم الجغرافيا بعض الهيئات الاوربية التي تعنى بدراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر ، وتستعين به في بحوثها . فقد قام احد اعضاء هيئة التدريس فيها بدراسة مجموعة الآلات الصوانية التي جمعتها البعثة البريطانية التي تقوم بالحفر في جهة أرمنت ، وكان لهُ شرف كتابة جزء كبير من تقرير هذه البعثة ، كما اشترك في الابحاث التي تقوم بها بعثة بريطانية اخرى في اقليم الفيوم . وقد قدمت تلك البعثات الى متحف القسم بعض ما وجدتهُ من آثار ، وفي هذا مكسب كبير للمجموعة الدراسية النفيسة لعصر ما قبل التاريخ في مصر ، وهي المجموعة التي يعمل القسم على إعدادها وتنظيمها لتضاف الى متحف كلية الآداب في المستقبل

أهذا دم بشري

اسلوب بديع في تفريق دم عن دم
يعتمد عليه في المحاكم

ذهب رجلان الى الصيد معاً ثم عاد احدهما ولقي الآخر حتفه في اثناء الصيد . فلما سئل رفيق الصيد في ذلك قال انه لقي جثة صديقه في حالة تدل على انه اصيب خطأً بقذف ناري. ودلت حوادث الفاجعة على ان روايته صحيحة . ولكن ارملة القتيل لم تقتنع بما قيل فطلبت اجراء البحث . وفي اثناء التحقيق سئل الرجل المشبوه ، عن بقع قاتمة على السترة التي كان يرتديها وهو في الصيد ، فقال انها بقع من دم إيَّل اصطاده وجره الى المضرب الذي اقامه. فدعا وكيل النيابة كيمياوياً حيوياً وطلب اليه ان يفحص هذه البقع وهل هي حقيقة بقايا من دم الايل

اخذ الكيمياوي السترة وعاد بها الى المعمل واقتطع منها القطع التي عليها بقع الدم وغمسها في محلول ملح . ذلك ان التحقيق المطلوب منه كان يقتضي منه معرفة امرين : اولهما هل هذه البقع بقع دم وثانياً هل هي بقع دم ايل ؟

فللاجابة عن السؤال الاول ، اي لمعرفة هل هذه البقع بقع دم اطلاقاً ، عمد الباحث الى المجهر باحثاً في التنقيب عن كريات الدم الحمر ، ولكن البقع كانت قديمة ، فانحلت الكريات وتلاشت ، اذا كان ثمة كريات . ثم نظر في المحلول بوساطة المطياف فتبين الخطوط السود التي يمتاز بها طيف الدم فاستوثق من ان هذه البقع بقع دم حقيقة

بعد ذلك تقدم الى البحث في هل هذا الدم دم إيل كما يقول صاحب السترة ام هو دم آخر . فكيف يفعل ذلك ؟

يعرف قراء المقتطف ما يراد بلفظي « الاجسام المضادة » فهي اجسام دقيقة يولدها الجسم عندما تدخله مادة غريبة تتهيج انسجه فتفرز مواد كيمياوية اطلق عليها اسم « اجسام مضادة » . فيصبح الجسم منيعاً لا تؤثر فيه تلك المادة زمناً يطول او يقصر. فالطبيب اذا شاء ان يحصن رجلاً ضد مرض الجدري حقنه بميكروبات المرض بعد اضعافها

فيثير وجودها انساجه فتنشط الى افراز المواد الكيمياوية المعروفة باسم الاجسام المضادة وبذلك يصبح هذا الرجل منيعاً او محصناً ضد هذا المرض

وعماد الباحث في دم هذا المشبوه ، أجسام مضادة كذلك ، بل أنواع مختلفة منها . ولكنها يجب ان تكون رهن اشارته في القناني والانابيب ليتمكن من تجربة التجارب بها . فعليه ان يصنعها أولاً في دم بعض الحيوانات ، ثم يستخلصها منها ويعدها للتجريب بها متى شاء

وهو يتوسل الى غرضه هذا بالارانب فيأخذ منها طائفة مؤلفة من ٢٥ الى خمسين أرنباً ويقيم كلاً منها في قفص ويرقم كل قفص برقم ، ثم يحقن كلاً منها بقدر يسير من دم حيوان آخر ، فيثير وجود هذا الدم في دم الارنب انساج الجسم فتفرز المواد الكيمياوية المعروفة باسم « أجسام مضادة » . فيحقن الارنب الاول بدم الفرس والثاني بدم الغزال والثالث بدم الحمار والرابع بدم الدجاج والخامس بدم الهر وهكذا

ثم عليه ان يستخرج هذه الاجسام المضادة المنوعة من دم الارنب ليحفظها في أنابيب خاصة فيستعملها حين يشاء . فيخز شرياناً في أذن كل أرنب عولج بالطريقة المتقدمة ، ويجمع مقداراً من الدم السائل منه ، فيتركه في وعاء نظيف حتى يتخثر ، فينفصل مصل الدم عن المواد الجامدة التي كانت معلقة فيه ، وتكون الاجسام المضادة في هذا المصل ، فيوضع كل مصل في زجاجة وترقم الزجاجة برقم الارنب الذي استخرج المصل من دمه . فاذا كان الارنب رقم ١ هو الارنب المحصن ضد دم الفرس كانت الاجسام المضادة التي في زجاجة رقم ١ هي الاجسام التي تستعمل في امتحان بقعة دم قيل فيها انها بقعة دم فرس

وعلى ذلك تكون هذه المصول معدة للعمل ، ولكن قبل استعمالها يجب ان يستوثق من انها تحتوي على الاجسام المضادة . وليس ثمة فارق ظاهر بين مصل يحتوي على أجسام مضادة وآخر لا يحتوي عليها . وللاستيثاق من ذلك أسلوب بديع

* * *

تؤخذ عشرة حمالات للانابيب وتوضع متوازية ويوضع في كل حمالة منها عشرة أنابيب ويوضع في أنابيب الحمالة الاول مصل دم أرنب محصن ضد دم الكلب . وفي أنابيب الثانية مصل دم أرنب محصن ضد دم الدجاج وهكذا . والغرض ان نعرف هل كل مصل من هذه المصول العشرة يحتوي على الاجسام المضادة الخاصة

ثم يأخذ قليلا من دم الكلب ، فيضع قطرة منه في الانبوب الاول من كل حمالة . وقليلاً من دم الدجاج ويضع منه قليلاً في الانبوب الثاني من كل حمالة . وهكذا . ثم يهز كل انبوب هزاً عنيفاً حتى تختلط محتوياتها بعضها ببعض ، ثم يغطسه مدى بضع دقائق في ماء حرارته ٣٧ درجة مئوية وهي الحرارة السوية في اجسام الحيوانات الدافئة الدم

وبعد ذلك يشرع الباحث في فحص هذه الانابيب . والفحص غاية في الدقة ، لان اقل

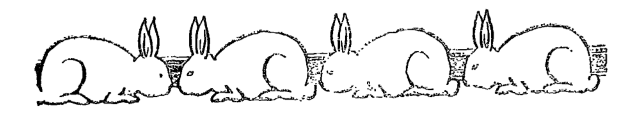
خطإٍ يرتكبه قد يفضي الى اعدام بريء . ولكن الكيمياويين المدربين لا يخطئون ، ولذلك لا تعتمد المحاكم في مثل هذه الشؤون الا على من استوثقت من كمال دربته ودقته فعندما يخرج الانابيب من المغطس الساخن ، يرى في بعضها تغيراً اذ يشاهد راسب ابيض في الانبوب الاول من الصف الاول والثاني من الثاني والثالث من الثالث

فعلى ما يدل ذلك ؟ قلنا ان المصل في الصف الاول كان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب . وقلنا اننا اضفنا الى الانابيب الاولى من الصفوف الثلاثة قطرات من دم الكلب . فلم يحدث الراسب الا في الانبوب الاول من الصف الاول

اي ان في مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب مواد اذا اجتمعت بدم الكلب احدثت راسباً . وهذه المواد هي الاجسام المضادة . فاذا لم يحدث ترسيب دل ذلك على ان الاجسام المضادة التي تحدث ترسيب مادة معينة غير موجودة وهذا يعني ان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب لا يحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم الكلب . وان مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري لا يحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم بشري . وجميع هذه المعدات تعد مقدماً وليس على الكيمياوي الا القيام بمراتب الامتحان الاخيرة عندما تطلب اليه المحكمة ذلك

***

لنعد الآن الى قصتنا وقضيتنا . عاد الكيمياوي الى معمله وقطع قطع النسيج الملطخة ببقع الدم وأثبت انها دم اولاً ثم حاول ان يعرف هل هي دم إيل كما يدعي صاحب السترة او لا . فأعد انبوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الايل واضاف اليه قليلاً من المحلول الملح الذي يحتوي على نقيع الدم الذي على السترة ، فلم يحدث اي ترسيب فكان ذلك قاطعاً بأن الدم الذي على السترة ليس دم إيل . ولعله دم ديك . فأخذ انبوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الديك واضاف اليه قليلاً من المحلول الملح المحتوي على نقيع دم السترة فلم يحدث ترسيب فكان ذلك قاطعاً بأن الدم على السترة ليس دم ديك . فلما وضع في انبوبه قليلاً من مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري وأضاف اليه قليلاً من المحلول الملح المحتوي على نقيع الدم الذي على السترة حصل الترسيب فثبت ان الدم على السترة كان دماً بشرياً



للحقيقة والتاريخ

الزهاوي

في ديوانه الاخير — تحية ذكراه الاولى

لاحمد محمد عبشى (١)

— ١ —

« الأوشال » هو أحدث دواوين الزهاوي وأوضحها مقصداً وأصدقها اتجاهاً وأفتنها وأكثرها معنىً وأظهرها على الاطلاق. أبان عن شخصيته أيما ابانة وكشف ما استتر منها بوضوح وجلاء، تغلب عليه لغة العلم الجافة التي لا تصلح كثيراً للشعر والتي فيها من التداني والتدلي ما يقربها من الارض — ووالله ما عرفت الشعر يوماً الا في السماء !!

وهو — الأوشال — كأخوته دواوين الزهاوي فيه من الايمان آيات بينات ومن التحرر ضلالات وترهات ومن اليقين حسنات طيبات ومن الشك شبهات ونزغات ومن الفرح نغمات وصدحات ومن البكاء عبرات وزفرات ومن الربيع ورود وباقات ومن الخريف زوابع ونسمات ومن المنطق غدوات وأمسيات ومن التمرد صرخات ووثبات. فيه من البحر أواذيّ مصطخبات ومن الأوشال حفنات قليلات ومن اللذة سرور ونشوات ومن الالم إعوال وحسرات. فيه من الشباب صبوات وجهالات ومن الشيخوخة كبوات وشهقات، فيه من الفجر أنوار وانبلاجات ومن الليل غشيات وظلمات. فيه ما يمنع الفنان وما يتعشقه من سحر وروعة وما ينشده العالم من قياس ومنطق وما يتطلبه الفيلسوف من استشفاف للغيب وارتياد لمجاهل قضايا الكون المجهول منها والمعلوم

— ٢ —

ليس لك يا صاحبي أن تقرأ ديواناً من دواوين الزهاوي الا بعد أن تقرأ رسائله العلمية التي أودعها خلاصة آرائه ومذاهبه في الكون والحياة. ذلك لأنها بمنزلة الشرح والتفسير لشعره في مختلف أطواره وجدير بك ان تتحرر كثيراً وتتحصن وراء ثقافة علمية ومعلومات رياضية عالية قبل البدء في قراءة ذلك الرجل ومذهبه في الشعر ذلك المذهب العجيب، حتى

(١) — أحد فصول كتابنا « جميل صدقي الزهاوي » الذي لم يطبع بعد

لا تغرّنك سهولة ذلك الشعر وسذاجة ألفاظهِ ووداعتها فان وراءَ الأكمة ما وراءها ووراء تلك الالفاظ السهلة معانٍ بعيدة الغور وفلسفة للكونِ من العجب بمكان مبنية على استنتاجات منطقية وقوانين رياضية محتومة لا مفرّ منها ، حتى لا تُظلم ولا تظلم وتكون في حكمك على هذا الرجل من الصائبين

افتتح الديوان بمقدمة أجمل فيها رأيه في الشعر وأبان عن وجهة نظره وأنهُ ذلك الطائر الغرد الذي يستوحي الطبيعة وجمالها ويغرد غير آبه بالقيود والاصفاد حاملاً رسالة التجديد والانشاء لابناء الرافدين . ولا يعترف في مقدمتهِ بالعاطفة التي هي قوام الشعر الصحيح ، وقد جرّه ذلك الى مشاكل جمة مع نقاده — وسنبينهُ كله في موضعه من الكتاب — ولا يحسب الشعر شعراً الاّ اذا كان لحمته وسداه مسائل العلم كشعراء الغرب في هذه الايام على حد قولهِ ، واروع الشعر عنده ما كان علميًّا فلسفيًّا « ولم يشتهر الخيام والمتنبي والمعري الاّ بشعرهم الفلسفي وهو الذي يجري على الالسنة كالامثال » . ولنا ردّ على ذلك في حينهِ لانَّا من مخالفي هذا المذهب ، وقد عرّف الشاعر وقال انهُ لايكون شاعراً الاّ اذا توفرت فيهِ ثلاث « الاول ان يكون لهُ استعداد ذاتي للشعر والثاني ان تغزر مادته في اللغة والعلم والثالث ان يكون قد مارسهُ طويلاً » الخ . . . .

وهذا كلام لا غبار عليهِ غير انهُ ينقصهُ شيء من التحديد والتعريف . فكل شعرور يقسم لك اغلظ الايمان انهُ اوتي ملكة الشعر وانهُ يرى في نفسهِ القدرة على صوغ قلائده الجميلة بله على ارتجال عيونهِ ! !... ولكن العبرة بروح الشعر روح الجمال والحب والحقيقة ذلك الروح المنطلق في الآفاق العالية والاغوار البعيدة النائية والاجواء العاطرة الساحرة المجهولة البقاع

لنترك هذا التعريف — تعريف الشعر والشاعر — فله مكانه من الكتاب ، ونعود الى المقدمة هذه فنجد انها لا تنقع غلة ولا تشفي علة ويا ليتها شرحت لنا معميات شعره وأبانت عن مذاهبه الفلسفية بعض الشيء واوضحتها كبلج الصبح ، كما يجب ان يكون الوضوح والبيان

— ٣ —

شعر هذا الديوان من الشعر الجديد لامشاحة غير انهُ يشوبهُ بعض قصائد من المديح والرثاء ولولا انها بريئة ولشخصيات تستحق التقدير لشننت الغارة عليهِ

وعلى ذكر هذا الشعر شعر المناسبات — نذكر حسناته — ان كانت لهُ حسنات احقاقاً للحق رغم تحاملنا عليهِ وازدرائنا لهُ ، فمن حسناتهِ عند القدامى تلك الحكم العامرة والاوصاف الباهرة التي زفها أمثال المتنبي والنواسي والبحتري بين ثنايا قصائدهم الى ممدوحيهم ووالله لاأدري متى تجرؤ مدارسنا الشعرية الحديثة على حذف المدح من تلك القصائد وهاته

المقطوعات كي نقبل على هذا الشعر بشغف لايقل عن اقبالنا وشغفنا بالشعر الغربي او الشعر الحديث في العالم العربي

ومن حسنات شعر الزهاوي — رثاء ومديحاً في ذلك الديوان وفي غيره ، رسمه صوراً مختلفة لصورته وشخصيته ونفسيته وأمانيه وآماله بجانب شخصياته ، وانها لحسنة فضلى نسطرها لهُ بمداد الاعجاب. وحسنة اخرى كبرى نسطرها لهُ بمداد الفخر والاشادة بذلك الشاعر الفحل، الذي لم يمتهن كرامة الشعر والشاعر ويتجر بشعره ويتزلف به الى اولي الامر او الملوك والامراء على الاقل ، الذي حقق ان الشاعر بمثابة ملك غير متوج وحقق أيضاً — عملياً — نظريتنا المتضمنة عدم الاعتراف بشعر الرثاء والمديح لعدم صدقه وروعته وانسانيته في معظم الاحايين. فقد آثر المغفور لهُ الملك فيصل عقب تتويجه ان يجعل من المرحوم الزهاوي شاعره الخاص مقابل مكافآت مالية لامقطوعة ولا ممنوعة لفقره وعوزه يومئذٍ. فرفض بأباء وشمم ان يكون — طيلة حياته — « العصفور السجين الذي تلقى اليه الحبات في قفصه الصغير ليعيش ويغرد مكرهاً وينوح مكرهاً » فألحّ عليه المغفور لهُ الملك فيصل ان لايخالفهُ في مسألة كهذي — وما اراد جلالته بهذا غير سد عوزه وفقره يومئذٍ لما يعلمهُ عن صلابته ومبلغ اعتداده بنفسه — فلم يتزحزح عن رأيه قيد أنملة قائلاً لهُ « ان مدحك يا مولاي فرضٌ عليّ اذا ما ومضت بارقة أمل للوطن العزيز في عهدك السعيد . اما الذهب يامولاي فلا حاجة للشعر به لانهُ لن يجمّل تاجه الجميل » !! . .

— ٤ —

يطالعك هذا الديوان بقصيدة فلسفية عنوانها « منك انا » ومطلعها

يا روح هـذه الدنى	شرارة منك أنـا
قد استطارت تبتغي	لنفسها انـ تعلنا
إن بصيصي كلـهُ	من بعض ذلك السنا
انك انت الـكون	والذي لهُ قد كوّنا

فيغرنك هذا المطلع وتحسب ان ذلك كلام لا شية فيه واذا بك تنحدر الى فلسفة غريبة فيها مندلق واضطراب وشك وايمان وتحرر من الايمان — الايمان الذي لا يسلم به العقل ويقف حجر عثرة في سبيل تحقيقه — وفيها تتراءى فلسفة الرجل وعقيدتهُ ، فهو هنا يؤمن بمذهب الدور التغيير ذلك المذهب القديم الذي انفرد به هو في العصر الحديث وكاد يضع اصوله والذي يقول فيه اننا سنموت هنا ونحيا هناك ، نموت هنا بصورة ونحيا هناك بصورة اخرى فلا فناء ولا عدم ونظل هكذا دواليك الى ما شاء الله ابد الآبدين . وهذا المذهب لا يقرب من

مذهب الحلول كما يفهم بعضهم اذ الاول مبني على قوانين علمية اما الثاني فمسائله افتراضية محضة قاله بعض المتصوفين في حالات غيبية بحتة شاهدوا في خلالها بصفاء ارواحهم كثيراً من غوامض الكون واسراره العجيبة فانطلقوا غير واعين لما يقولون . وقد فصل الزهاوي مذهب « الدور » هذا في رسالته العلمية الصغيرة « المجمل مما أرى » وسنفصلهُ ونرد عليهِ بدورنا في مكانه من الكتاب . انظر اليهِ يخاطب هذه الروح التي تمثلها في قصيدته مسيطرة آمرة

منك انبثقت بعدما فيك كنت أزمنا
فكنت طوراً خافياً وكنت طوراً بيّنا
وسوف ابقى بك من بعد الردى مرتهنا
وليس موتي غير تغيير يَ فيك السكنا
وليس في انتقالتي منك اليك من عنا
فلا انفصال عنك لي هناك كنت ام هنا

يقول ذلك في الوقت الذي لا يصدق فيهِ الاساطير والمعتقدات باسلوب تهكمي لاذع وبعقل متشكك جبار متحرر لا يعبأ الاّ بالمنطق والمادة وما يتبعها من قوانين واحكام

فهو لا يؤمن الاّ بتلك الومضات الكهربائية التي تنبثق من تفاعل المادة تلك التي يعزو اليها تنسيق الكون بما بعثتهُ من حياة في هذه الاحياء وانها ذلك الينبوع الذي يثرُّ عليهِ السحاب ماء فلا ينضب وسيظل باقياً ما بقي ذلك السحاب عند قوله

ان الحياة ومضة منك ابت ان تكمنا

الى ان يقول

الكون قد بنيته وانت خير من بنا
بك الوجود واجب فليس يقبل الفنا
وليس كون ماله من اول مكونا

وهو هنا على ما يلوح لي يخاطب المادة او بعبارة اخرى يخاطب الأثير وهذا هو الصحيح . فالاثير عنده هو كل شيء ، وهو هنا يفترض الاثير كأداة خالقة مسيطرة وان كان الاثير كما نعتقد ليست له تلك القوة الفعالة القادرة التي ينسب اليها الزهاوي كل شيء في حين انها هي بعض الشيء وعلى حد قول العلماء المعاصرين « ليس الأثير غير افتراض علمي لتفسير بعض مظاهر الكون العجيبة » وانه اي الاثير - بعد تجربة ميكلصن — مورلي وأضرابهما من العلماء المعاصرين فقد سحره القديم ومكانته التي كان عليها . . . . . ولنا كلام طويل عن الاثير للحيز الكبير الذي شغله في حياة الزهاوي العلميــة سنثبتهُ في مكانهِ من الكتاب . ونعود نحدثك عن ذلك الروح الذي عناه في ذلك القصيد فما هو الاّ الاثير وما الاثير عنده غير ما اثبتهُ

احدى مقطوعات ملحمته الخالدة « ثورة في الجحيم » التي سيأتيك ذكرها في هذه الابيات الاربعة عندما سأله الملك عن الذات الالهية

ما لكل الاكوان الا إله واحد لايزول وهو (الاثير)
منهُ هذا الوجود فاض عمياً واليهِ بعد البوار يصير
ليس بين « الاثير » « والله » فرق في سوى اللفظان هداك الشعور
وبحسبي اني صدعت بما اد ري على علمي انهُ سيضير

ومن تحقيقاتي العلمية مع المرحوم الزهاوي تجد انهُ في تعليلاتهِ لمظاهر الكون لا يخرج عن دائرة المذهب المادي الذي يؤمن بهِ ويتعصب لهُ ولا ضير عليهِ في ذلك لولا انهُ تبعاً لذلك يثير في هذا الموضع وفي غيره قضية من اكبر القضايا الفلسفية « اصل الحياة » و « غاية الحياة » ويعزو الى المادة كل شيء في حين ان الماديين انفسهم بعد النشاط العجيب الذي ابدوه طوال قرون عديدة قد تقهقر دعاتهم في مستهل هذا القرن واعترفوا بعجزهم المطلق عن تفسير بعض عجائب الكون ومظاهره وفي هذا ما يخذلهُ — ان لم يهدمهُ — غير أنهم لم ينسحبوا من الميدان بعد ولم يكفوا ايديهم الا ان دعواهم أصابها الفتور والعياء الى حد كبير . .

وسنرد عليهم ونبين هذا المذهب ومدى تأثيره عند الزهاوي فيما سأطالعك بهِ من فصول أثبتها في كتابي عنهُ ولا استطيع قولاً في هذا المجال اليوم، الا ان الفلاسفة والعلماء طوال هاتهِ القرون من عهد الانسانية الى اليوم سعاة في اماطة اللثام عن هاته الحقيقة الكبرى ولم تعلن الفاصلة بعد

كنا نريد ان نمر كراماً على هذه القصيدة وما يشابهها فان للرجل تفكيره ومنطقه الخاص وقد أودع خلاصة آرائهِ في رسائله العلمية وناقشناه فيها وفي معتقداتهِ وانتهينا من ذلك كله الا ان للحقيقة حرمة وللتاريخ حكماً، ونرى ان تلك الآراء رغم طابعها العلمي لم تحقق علميًا ولذا نناقشها في مكانها ونرد عليها رداً هادئاً يدحضها — في رأينا — من أساسها

ويجب أن لا يختلط عليك الأمر يا صاحبي فتعتقد أننا نرفض الشعر الفلسفي او الشعر العلمي كلاّ بل بالعكس نعتقد أننا في حاجة ماسة الى شعراء علماء فلاسفة ! ! . علماء يسبحون في أجواء الكون ويقصون علينا رحلاتهم ويخلقون لنا جوّاً عطراً عبق الشذى فوّاح العبير لا يقصون مشاهد العلم فحسب ، بل يقصون مشاهد الطبيعة ومشاهد الجمال ومشاهد الحب بعاطفة من الشعر الجميل ويغوصون الى الاعماق باحثين عن الدر والذهب غير متناسين جمال البحر وسحره الرائع العجيب ، ثم يعرجون الى معارج الأفلاك المتناثرة فيضعوا أصابعهم فوق الحقيقة المطلقة ويعلموا الناس معنى الحياة ومعنى الخلود . . . وعندي أن الشاعر الفحل هو الذي لا ينسى الحب والجمال والعاطفة في قصائده العلمية والفلسفية ، حتى اذا فقده العلم أو أغفلتهُ الفلسفة يوماً ما لا يضيع

هباء، وكذلك الشاعر الناشد الحب والخير والجمال يعوزه العلم الغزير والمعرفة الشاملة والثقافة الدسمة حتى لا تقف أفكاره وأخيلته بجانب أفكار السوقة وخيالاتهم

أما الشاعر الفرد فهو ذلك العالم الفيلسوف المتغني دائماً بأناشيد الحب وأهازيج الجمال

— ٥ —

ايمان الرجل بالمذهب المادي مما لا ريب فيه، وهذا المذهب من اعرق المذاهب الفلسفية القديمة—وسنرد عليهِ في حينه كما اسلفنا—غير اننا لا نرى مندوحة عن مناقشة بعض قصائده التي أودعها ناحية من ايمانهِ ونكتفي بمناقشة القصائد وتحليلها تاركين نقد معظم التراكيب والالفاظ لفرصة اخرى. ففي قصيدته (الشاكية) التي مطلعها

بعد ان اردى فأهبط رمسي يتساوى غدي ويومي وأمسي
جدث فيهِ كل دهري ليل ما لاضواء فجره من بجس
ظلمة فوق ظلمة انا فيها ابداً مصبح كما انا ممسي

تشم رائحة ايمان الرجل وسخره بالمعتقدات الفاشية في منطق عجيب ينكر ما اجتمع عليهِ الناس ويهدم آمال العامة جمعاء — ولا غرو فهذا هو لباب المذهب المادي — داعياً في الوقت نفسه الى الاستمتاع باطايب الحياة ومباهجها قبل ان تأزف ساعة الرحيل الذي ليس لهُ من بعده من نشور

انما الدنيا جنة لسعيد وجحيم لذي شقاء وبؤس
لك فيها الحياة ما طبت عيشاً كل شيء فلا تبعها ببخس

وكلها على هذا النسق الايبقوري وليس فيها من جديد غير قوله

ما نظمت القريض الا بإلها م جديد من السماء لنفسي
قبسوه من قول من سبقوهم ومن الشمس والكواكب قبسي

وقصيدته (نظرات ونزغات) التي مطلعها

نأى بي عن الاصحاب في سيره العمر ويرجع أحياناً اليهم بي الذكر

كشقيقتها — الشاكية — تبين ما استتر من عقيدة الرجل

ألا انما الارض التي نحن فوقها هي المهد للابناء ثم هي القبر
وان شئت فاحمدها وان شئت فاهجها فليس بذي بال عقوقك والبر

الى ان يقول: يقولون في الايمان كل نجاتنا ويا رب ايمانٍ قويٍ هو الكفر
وينتظرون الفجر في ليل قبرهم ولكن ليالي القبر ليس لها فجر

وثالثة الاثافي قصيدته (الموت) التي لولا الاستشهاد بها لما ذكرتها ذلك لانها فوق حملها الموت في طياتها مهلهلة الاسلوب مفككة الاوصال سقيمة المعنى ومطلعها

زاغت تزول الحياة فتنتهي الحركات
اهوى الحياة ولـكن ما للحياة ثبات

وانها حقـًا زاغت منها الحياة ففضت نحبها من غير دمعة رثاء او كلمة عزاء، انظر اليها في الديوان تجده فيها قد وصف الموت والاموات وخاف الموت خوف الشاة الذئب وقطع اننا بالموت نودع الآمال وننتهي وينتهي معنا كل شيء وفي القبور يتساوى الجميع لافرق بين احد

وهذا كلام لا غبار عليهِ ... ولـكن ... وما اقسى ولكن هذه... تلك الـكلمة التي يرد بها الناقد النزيه الحق الى نصابه ... اين منهُ قول المعري « غير مجدٍ في ملتي واعتقادي »

فالمعري قد تصوَّف وتأمل وفكر .. ونظر الى الـكون نظرة الفيلسوف الشاعر فأبدع في تصوير الحقائق الشعرية وفي تصوير الحقائق المادية وكانت قصيدته فتحاً جديداً في الشعر الفلسفي الممزوج بالعاطفة ذلك الذي نتوق اليه وننشده وكأننا ننشد العنفاء واخويها

اما (الموت) عند الرجل فخال من كل شيء خال من العاطفة التي حيكت حوله من ملايين السنين اي من مهد الانسانية الى اليوم، خال من الروح التي ليس لنا ان نتخلى عنها قيد شعرة مهما تخلت عنا، خالٍ من الحلم الجميل الحلم الذي يحبب لنا الحياة

ولا هم له غير تمجيد الحياة تمجيد عبادة في الوقت الذي ينكر فيه البقاء بعد الموت — الخلود — والبقاء بعد الموت حلم من احلام الانسانية العذاب، ونحن نتشبث بهِ لان الانسانية لو افتقدتهُ لشقيت طويلاً واختل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى ارجاء الارض قاطبة وما اغنت القوانين الوضعية فتيلاً في كبح جماح الغرائز البشرية التي تعتمد — في جميع اطوارها — على الهدم قبل البناء. وهذه في الواقع — انكار البقاء بعد الموت — اهم شعب المذهب المادي، ولنا كلام طويل للرد عليها سنثبتهُ في حينه وليس لنا في هذا المقام من عزاء نتعزى به غير قول الشاعر « ماأضيق العيش لولا فسحة الامل »

— ٦ —

أهم ظاهرة في شعر الرجل وفلسفتهِ — بل خير ظاهرة في فلسفته وشعره — التمرد والثورة، التمرد على الطغاة والظالمين والمنافقين والمتعسفين والجهلاء والمتكبرين، الثورة على الجمود والجهل، والضعف، ضعف الشرق واستكانته لما تحيّفهُ من ظلم وينزل بهِ من بلاء، الثورة التي تنشلنا من وهدتنا هذه الى الحق والحرية والنور. وخير شيء عند الرجل يمثل فلسفته ويطبعها بطابعها الخاص « القوة » التي لا تعبأ بالسدود ولا بالقوى مجتمعة، القوة التي تريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض بما وسعت وآفاق السماء بما اتسعت، فبقدر بساطة أسلوبه ووداعته تجد قوته في معانيه هذه المعتدة بنفسها الشامخة بأنفها تروعك بكبريائها وتحملك على أجنحتها الى طريق المجد الذي عبّدهُ لنا الاجداد

« البقية في مكتبة المقتطف »

أتدري ؟!

أتدري الطير هيمانا ؟	أتدري القلبَ ولهانا ؟
أتدري الغصن داعبهُ	نسيمٌ عابثٌ آنا ؟
أتدري الورد مختالاً	وبين الزهر نشوانا ؟
أتدري الحُسْن مؤتلقاً	بثوب السِّحر مزدانا ؟
أتدري البدر غفلانا ؟	أتدري البدر يقظانا ؟
وعين النجم ساهرةً	لتشكو منهُ هجرانا !
اتدري الكون في ليلٍ	عليهِ الصَّمْتُ قد رانا ؟
وتهمس فيهِ ارواحٌ	فما تستطيعُ تبيانا
اتدري الفجر اذ يسري	بجفن الروض وسنانا ؟
اتدري الفجر بسّاما ؟	اتدري الفجر فتانا ؟
اتدري ؟ كيف لم تدر ؟!	وصفتُ الآن...«فنّانا»...

القاهرة

محمد فهمي

أين تبدأ الحياة؟

سر «الفيروس»

وصلته بسر الحياة

تطلق كلمة « الفيروس » Virus في اللغات الاعجمية على كائن خفي تسند اليه بعض الامراض ولكن لا يعرف لهُ قوام معيَّن لانهُ من المواد الراشحة التي تجتاز أدق المرشحات مسامّ ، وقد انقضت أربعون سنة منذ عرف ، فاتجه النظر اليه لانهُ في رأي بعضهم من أبسط المواد الحية تركيباً

الدكتور وندل ستانلي ، كيمياوي حيوي . تخرَّج من جامعة ايلينوي وندب من قبل مجلس البحث القومي لدراسة المركبات الجذامية في المانيا . ثم عاد الى معهد ركفلر سنة ١٩٣١ وفي السنة التي تليها أنشأ المعهد فرعاً في نيوجرسي فذهب اليه ستانلي وجلُّ همه متجهٌ الى «الفيروس»

وطبيعة الفيروس من المشكلات الاساسية في علم الباتولوجية . فشلل الاطفال والانفلونزا وحمى البيغان والسعار والحمى الصفراء وبعض النوامي الخبيثة تحدثها على ما يظهر مواد ليست بالجراثيم اي الميكروبات هي ما يطلق عليه اسم فيروس . فالبحث في طبيعة هذه المواد ، ناحية كبيرة الشأن من نواحي البحث الطبي . وقد عني الباتولوجيون والبيولوجيون بدراسة الفيروس من وجوهه الباتولوجية والبيولوجية . ولكن عُهد الى ستانلي في دراسته من الناحية الكيمياوية ، اي عهد اليه في استطلاع طلع الفيروس وما هو بالقياس الى الجزيئات العضوية ، وما هي هذه الجزيئات وما خواصها وما الذرات التي تتألف منها

وقد اختار لبحثه اقدم المواد الفيروسية المعروفة وهي فيروس آفة تصيب ورق التبغ وتعرف باسم «آفة الفسيفساء» . ان زرّاع التبغ يخشون هذه الآفة ، لانهُ اذا اصيبت نبتة واحدة بها ، امتدت العدوى على الغالب الى جميع النباتات في الارض المزروعة ، فتذويها وتضعفها وتجعد اوراقها بعد ان تتبقع الاوراق تبقعاً يشبه الفسيفساء ومن هنا اسم الآفة

لما وصفت هذه الآفة اولاً في سنة ١٨٥٧ خلط بينها وبين آفة اخرى تشبهها في بعض مظاهرها بعض الشبه ، ولم يفرق النباتيون بين الآفتين الا سنة ١٨٩٢ ، ويعزى هذا التفريق

الى باحث روسيّ يدعى ايڤانوفسكي ، ادهش بكتريولوجيي ذلك العهد بقوله ان العصارة المستخلصة من نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء تبقى قادرة على احداث المرض حتى بعد ترشيحها بمرشح تشمبرلند ، وهو جهاز من خزف دقيق المسام جدًّا ، بحيث اذا وضعت فيه كوبتين من الماء المقطر ، يستغرق مرور هذا الماء من مسام المرشح اياماً . ولم يكن ثمة ميكروب واحد معروف للعلماء يستطيع ان يجتاز هذه المسام . ومع ذلك فالمادة الفعّالة التي تحدث «آفة الفسيفساء» تجتازها . فوالى العلماء التجارب فأسفرت عن تأييد النتائج التي خلص اليها ايڤانوفسكي . وفي سنة ١٨٩٩ اكتشفت اولى المواد الفعّالة الراشحة التي تحدث مرضاً في الحيوان ، وكان ذلك المرض الحمى القلاعية وقد تبين حتى الآن ان عشرات من الامراض التي تصيب الحيوان والنبات ترتد في نشأتها وسببها الى مواد (فيروسية) راشحة وفيروس آفة الفسيفساء التي تصيب التبغ هو من خيرها للبحث علاوة على انهُ يمثل هذه الطائفة من المواد خير تمثيل

فزرع الدكتور وندل ستانلي ، التبغ في مساحات واسعة قرب برنستن ، ونفث فيها المرض ثم جمع النبات المصاب ومرثهُ حتى صار بمثابة الرُبّ ، ثم استخلص منهُ عصارته . ان الفيروس في هذه العصارة ، ليس في وسعك ان تراهُ ، ولا ان تفصلهُ عن سائر العصارة بمرشح ، لانهُ يخترق مسام المرشح ، ولا ان تستنبتهُ في المستنبتات المألوفة التي تستنبت فيها الميكروبات ، ولا سبيل الى معرفة وجوده هناك الاّ باثره في احداث آفة الفسيفساء في تبغ سليم منها . خذ قطرة واحدة من هذه العصارة ومُسّ بها ورقة نبتة من نبات التبغ ، تبدُ خلال بضعة ايام اعراض الآفة عليها لا غشّ فيها ولا ريب . ان الفيروس هنا فما السبيل الى دراسته من الناحية الكيميائية

تقسم المواد التي تدخل في تركيب الجبلة الحية (البروتوبلاسمة) الى خمسة أقسام هي الاملاح المعدنية ، والكربوهيدرات ، والهيدروكربونات ، والادهان ، والبروتينات . والبروتينات هي أعقد هذه المواد تركيباً . وثمة مواد يطلق عليها اسم انزيمات وهي نوع من خمائر تحل المواد البروتينية ، فتوصف بانها هاضمة البروتينات . والببسين يفعل ذلك في المعدة في اثناء عملية الهضم . فاذا وضع الببسين في انبوب من انابيب التجارب ، ومعهُ مادة بروتينية ، حلها او هضمها

فسأل ستانلي نفسهُ : وما يفعل الببسين بمادة الفيروس هذه ؟ اخذ قليلاً من العصير المستخرج من نبات التبغ المصاب بالآفة المذكورة ، ووضعهُ في انبوب التجارب وصب عليه الببسين ، وحفظ الخليط على درجة من الحرارة تواتي عمل الببسين الهاضم . ثم بعد مدة معينة امتحن العصارة ، فلم يجد فيها اثراً للمادة المرضية . فمسح بقطرات منها اوراق التبغ السليم فلم تصب بالآفة . اذن يمكن القول ان الببسين قد اتى على فيروس الفسيفساء . ولكن الببسين لا يهضم الاّ المواد البروتينية ، وليس يؤثر تأثيراً ما في الادهان او النشويات او الاملاح فيصح القول بان الفيروس مادة بروتينية

في الكيمياء الحيوية تعرف مواد معينة ، ترسّب البروتينات . فلتجرب على عصارة نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء . فما كادت تضاف هذه الموادالمرسّبة الى العصارة حتى بدأت كتل صغيرة في الرسوب في قعر الاناء . فأخرجت منهُ وامتحن الباقي من العصارة فظهر انهُ لا يحوي المادة التي تحدث المرض . فلما اضيف قليل من الكتل الراسبة الى العصارة السليمة ، عادت اليها قدرتها على احداث العدوى . واذن يمكن القول ان عامل الآفة مستقرّ في هذا الراسب البروتيني

***

هنا توقف ستانلي قليلاً ، واعدّ عدّتهُ لتعقب عامل الداء الى عقر داره

حلّ الراسب البروتيني في سائل متعادل واضاف احد مركبات النشادر — ومن خواصه ترسيب مادة بروتينية من دون تغيير تركيبها — فتكوّنت بلورات دقيقة في قعر الانبوب. الاّ ان ستانلي خشي ان لا تكون هذه البلورات تلك المادة البروتينية نقية من الشوائب ، فاخذ يكررها ، باذابتها ثانية وثالثة الى العاشرة في مقدار كبير جدًّا من المحلول المتعادل وكان في كل مرة يبلورها باضافة مركب الامونيا الى المحلول ففاز في آخرها ببلورات يمكن ان يقال فيها انها خالية من اي الشوائب النباتية او الحيوانية. بعد ذلك أخذ ستانلي حفنة صغيرة من هذه البلورات بعد تنقيتها وحلّها في مقدار كبير جدًّا من سائل متعادل يبلغ مائة مليون مرة حجم البلورة نفسها ، ثم اخذ قطرات منهُ ومسح بها ورق تبغ سليم ، ولبث ينتظر النتيجة ، وفي الميعاد المتوقع ظهرت على النبات اعراض اصابة حادة بآفة الفسيفساء. اذن يمكن القول بأن هذه البلورات تحتوي على الڤيروس . ولما كانت البلورات قد نقيت من كل شائبة على قدر ما يستطيع علم الكيمياء ان ينقيها ، فمن المعقول ان يقال ان هذه البلورات هي الڤيروس نفسهُ

ان بلورة السكر مؤلفة من عدّة جزيئات من السكر . وكذلك يظن ان هذه البلورات الدقيقة كالابر مؤلفة من عدة جزيئات من البروتين وان كل جزيء « فيروس » واحد

ويؤخذ من تحليل ستانلي الكيمياوي ان جزيء هذا الفيروس مؤلف من كربون وايدروجين ونتروجين وكلور . وهو يختلف عن البروتينات الفعالة من الناحية الفسيولوجية في انهُ لا يحتوي على الكبريت ولا الفصفور . أما عدد الذرّات في الجزيء ، وطريقة ترتيبها فيه ، فلا تزال من الأغراض التي يتجه اليها البحث . وأما هناك ما يدلُّ على ان الجزيئات ضخمة جدًّا

وقد عني حديثاً العلامة سفدبرج بجامعة أُبسالا السويدية والدكتور ويكوف أحد علماء معهد ركفلر الطبي ، باستعمال طراز جديد من الآلات الطاردة عن المركز . وقد بلغ من قوة هذه الآلات وسرعتها ، انهُ اذا وضع داخلها قطعة نقد من ذوات القرشين ودارت الآلة بسرعة عظيمة ليست بأقصى سرعتها ، بلغ ضغط قطعة النقد على جدار الآلة الداخلي لصف طن .

ولكن الغرض من هذه الآلة ليس تجربة التجارب المستوقفة للانظار وانما فصل الدقائق الجامدة التي تكون في المحلولات الغروية (Colloidal) . وقد بلغ من دقة سفدبرج وسيطرته على جهازه انهُ يستطيع ان يضع فيهِ محلولاً غرويًّا فيفصل منهُ الدقائق المختلفة المعلقة فيهِ عند حدود معيّنة من سرعة دوران الآلة ، وبحسبان السرعة والوقت الذي ينقضي قبل انفصال الدقائق يتمكن من تعيين اوزانها الجزيئية

وقد بعث الدكتور ستانلي الى سفدبرج وويكوف بنماذج من بلوراتهِ ليمتحناها بآلتهما هذه لم تنشر تفصيلات التجارب التي قام بها سفدبرج وويكوف ، ولكن يمكن ان يقال ان اكبر الجزيئات البروتينية المعروفة هو جزيء « هيموسيانين » (المادة الملونة في دم الخراطين اي دود الارض) ووزنهُ الجزيئي خمسة ملايين . ولكن ظهر ان جزيء البروتين الذي يحسبهُ ستانلي فيروس الفسيفساء اكبر من ذلك

هل هذا الجزيء حيٌّ ؟ يقول ستانلي انهُ يمكن بلورتهُ . وهذه صفة كيماوية بحتة . ثم انهُ زرع في مستنبت بكتيريولوجي كما تزرع البكتيريا فلم ينمُ ولم يتكاثر . ولكن العجيب ما يقع لهُ عندما يتصل بنبات التبغ . فانهُ لا يكاد يتصل بهِ حتى يبدأ جزيئهُ يتكاثر . ان كسرة صغيرة جداً تكاد لا ترى لصغرها من بلورات هذه المادة كافية لبث العدوى في حقل خلال ايام معدودة ، اي انها تتصف في هذه الاحوال بقدرة عجيبة على التكاثر والانتشار . أوليست هذه الصفة من اخص صفات الاجسام الحيّة ؟ او لعل الفيروس ، كبعض الناس ، مزدوج الشخصية ، حيٌّ احياناً وغير حيٍّ احياناً اخرى فهو حيٌّ في نوعٍ معيّن من الوسط ، وغير حيّ في سائر الاوساط

بين جزيء بروتين الفسيفساء وجريثيمة [1] (gene) الخلية وجوه شبه كثيرة . فانهما يكادان يكونان من رتبة واحدة في الحجم . وكلاهما يتوقف مدداً متفاوتة عن التكاثر من دون ان يخسر القدرة عليهِ . فالجريثيمات تكمن في البويضات غير الملقحة او في البزور المخزونة ، وفيروس الفسيفساء يكمن كذلك في انبوب الباحث ، ثم يفيق كلاهما عندما تؤاتيهما الاحوال فيأخذان في التكاثر . ثم هناك وجه شبه آخر بينهما وهو انهما كلاهما غير مستقر التركيب . وقد اثبتنا ذلك فيما يخص الجريثيمة ، في مقتطف ابريل الماضي وبينا ان التغير في تركيب الجريثيمة ، يحدث التحوّلات الفجائية mutations . وقد لاحظ ستانلي ان فيروس الفسيفساء يصيبهُ التغير كذلك فيحدث ضروباً من آفة الفسيفساء تختلف في بعض مظاهرها وخواصها عن الآفة الاصلية

ويذهب الدكتور اوسكار ردل رئيس قسم الوراثة في معهد كارنيجي بوشنطن ان الجريثيمة اعلى مرتبة في عالم التنظيم العضوي من فيروس الفسيفساء . ويلحظ بين الاهتمام ان الجريثيمة

(١) راجع مقال « اين تبدأ الحياة » في مقتطف ابريل الماضي (١٩٣٧)

يجب ان تكون مقترنة بجريئيات أخرى لتقوم بعملها ورتاب اشد الريب في قدرة الجريثيمة ان تقوم بعملها وهي وحدها . بل يشك في امكان اطلاق صفة « الحيّ » على الجريثيمة الفردة وهو ما يقوله ستانلي في صدد جزيء الفيروس الذي يسبب آفة الفسيفساء

من البكتيريا ما يعرف باسم « ازوتو باكتر » azotobacter وهو كائن في حجم خلية الخميرة تقريباً . يعيش في التربة ويتنفس ويتناول الطعام من وسطه وينمو ويتكاثر — اي ان هذا الكائن حيّ في نظر جميع الثقات . بل انهُ يتصف بصفة يندر ما يتصف بها من الاحياء وهي صفة تثبيت النتروجين . فهو يتناول النتروجين الصرف من الهواء ويركّب منهُ ومن بعض المواد التي يأخذها من الارض الامونيا ومن الامونيا يصنع الاحماض الامينية ، ومن الاحماض يصنع بروتينات . وهذه القدرة لا ندحة عنها للحياة كما نعرفها لان الجبلة (البروتوبلاسمة) مستحيلة من دون بروتين . حتى لنكاد نغرى بالقول بان القدرة على صنع البروتين مقياس من اهم مقاييس الحياة . ومن عهد قريب جرَّبت طائفة من علماء الروس تجارب طريفة « بالازوتوباكتر » فانهم زرعوا طائفة نقية منهُ في وعاء زجاجي ، وغذوها بالسكر فتولد قليلٌ من الامونيا . ثم اخذوا البكتيريا ومرثوها مرثاً واستخلصوا عصارتها منها . ثم رشحوا هذه العصارة حتى لا يبقى فيها بقية من مادة الخلايا وامرّوا في هذه العصارة المرشحة فقاعات من غاز الاكسجين وغاز النتروجين فتولد غاز الامونيا . اي انهم وجدوا في هذه العصارة ما يصنع الامونيا كما كانت تصنعهُ البكتيريا الحية

ويفسّر هؤلاء العلماء ماشاهدوه بان تثبيت النتروجين في هذه البكتيريا يتمّ بواسطة « انزيم » (نوع من الخمائر) وان مرث خلايا البكتيريا يطلق هذا الانزيم او يحرّره ، فيبقى في العصارة يقوم بعمله ، بل هو في رأيهم يقوم بعمله في انبوب التجارب على وجه اتمّ من قيامهِ بهِ في جسم البكتيريا ، ولهم في ذلك جداول واحصاءات . ويعللون هذا الفرق بأن الاجسام الحية تستهلك جانباً كبيراً من السكر الذي تتناولهُ في أفعالها لا في توليد الامونيا فقط

وقد زار دين برك احد علماء وزارة الزراعة الاميركية روسيا في الشتاء الماضي وقضى ثلاثة اسابيع يحادث هؤلاء العلماء وهو الآن يعيد تجاربهم ليرى هل تسفر عن النتيجة نفسها

***

ولعل النتيجة التي يخرج بها الباحث من هذه التجارب هي ان الحياة مرتبةٌ من مراتب تنسيق المادة ، فالكهارب والبروتونات تنتظم ذرات والذرات تنتظم جزيئات ومن الجزيئات ما هو كبيرٌ معقد التركيب ، وفي كل مرتبة من مراتب الانتظام والتنسيق تبزغ صفة جديدة ، فالكهارب والبروتونات اذا انتظمت على نحو معين كانت حديداً وعلى نحو آخر كانت ذهباً والذرات تنتظم فتكون ماء او ملحاً او بروتيناً من نوع معين يدبُّ فيهِ دبيب الحياة

تبادل الاحساس

Reciprocal Feeling

لابرهيم مطر

ورث الانسان المتمدن عن الجماعة الانسانية الاولى احساساً نبيلاً وشعوراً سامياً حمله قديماً على مشاطرة الانسان في شتى مناحي الحياة فشعر بشعور غيره واشترك معهُ في احساسهِ سواء في الالم والفرح في الشدة والرخاء ، فساهمهُ اتعابه ومصاعبه وافراحه ومسراته . وقد نما هذا الاحساس في الاسرة الانسانية نماءً تمشى مع سنن التطور والارتقاء حتى تشبّعت بهِ النفس البشرية فأهابت بصاحبها لزيادة افراح الحياة وجلب الهناء للبائس ، وتخفيف آلام المنكوب

وتكاد تنحصر هذه الحالة في الانسان فهي تقوى فيهِ على مقياس رقي دماغه وانتظامه وهي من اسمى خصائص الدماغ واشرفها تزيد في صاحبها روح الشفقة والرحمة وتملأه بعناصر العدل والتعاون

وقد نشأ هذا الاحساس في احضان المجتمع ودرج في مهاد الحياة الاليفة الوادعة في حين انهُ تلاشى وانعدم عند الانسان المتوحش الذي آثر العزلة ولازم الانفراد واستسلم لغرائزه الحيوانية الاصلية . وظلَّ هذا الاحساس في قرارة المجتمع البشري طيلة الاجيال الغابرة يعمل عمله الصامت المستمر في صقل شخصيات جبارة هدفها الاعلى توثيق عرى المحبة وتوطيد اركان السلام وتمهيد سبل الخير والسعادة لابناء هذا العالم

والثابت ان هذا الاحساس مغروس في النفوس ، وهو من اقوى ما فطر عليهِ الانسان الاجتماعي ، واكثره تلويناً لسلوك الافراد والجماعات لانهُ يولد فينا انحيازاً في الشعور ورغبة في ادغام ذواتنا في الاشياء والاشخاص ، غير شاعرين بهذا الاشتراك حتى يفيق شعورنا من غفوتهِ وخيالنا من سباته ، فندرك معنى ذلك الاندفاع الشديد وتركز ذواتنا بعد ذلك الانحياز الجلي . ومصداق قولي ارتياحنا الى الخطيب الذي يندفع في كلامهِ ، واندماج نفوسنا في سحر بيانهِ وعذوبة الفاظهِ . ولن نصحو من سحرنا واندفاعنا الاَّ عندما تعتور الخطيبَ عقبة

لفظية او معنوية تقف سيل اندفاعه الخطابي عندئذ نشعر بالاخفاق ونغمض العين حياء وخجلاً ونخفض الرأس حزناً وغمًّا مشاطرينه حيرتهُ وارتباكه ، ومبادلينه عوامل الخيبة . وكذلك تظلُّ نفوسنا تلوّن شعورها بحسب اندفاعهِ متشبعة بحالاتهِ النفسانية فتسمو معهُ ساعات تتوهج بحالات من التجلي والوحي ، وتنخفض عند ما توقفهُ عقبات الحصر والارتباك

والظاهر ان هذا الاساس نوعان واقعي وتصوري وينشأ النوع الاول عن مشاهدة الحوادث والاحساس بالوقائع وهو اكثر شيوعاً بين طبقات البشر المؤتلفة في حين ان النوع الثاني ينشأ عن تصور الحالات التي لا تقع تحت الاحساس المباشر بل تقتصر على قوة التبصر وامتداد المخيلة الى الامور غير المنظورة ، كأن تهب الجماعات الى جمع الاعانات لقوم اصيبوا بقحط او مدينة دمرت بزلزال او مؤسسة التهمتها النيران . وقد تجلّت نتائج هذا الاحساس المتبادل في أعمال الرسل الكرام والانبياء العظام الذين أناروا سبيل البشرية بنورهم الساطع وأقوالهم الصائبة وأقالوها من كبوتها بتعاليمهم وبذلهم وشرائعهم المقدسة

نقف في حلبة السباق أو أمام فرقتين متباريتين فينحاز شعورنا تجاه فريق دون الآخر ونمضي في مشاطرة ذلك الفريق الاحساس عن طريق التشجيع والهتاف والاستفزاز كأنَّنا مأجورون لذلك ونشعر عند انتصاره بالغبطة والارتياح ، وتنكمش عند الانكسار وتبقى نفوسنا تتلوّن تبعاً لدرجات الانتصار والانكسار حتى ينتهي اللعب ، فنشعر ان لا علاقة لنا بالمنتصر سوى هذا الاحساس المتبادل الذي أشرك نفوسنا قهراً وقسراً في اللعب

واذا أشخصنا بنظرنا الى العلاء وشاهدنا الطيور تسبح في الفضاء بعضها ينشد والآخر يشقشق، وفريق يطارد فرائسه وآخر يعتني بصغاره نشعر في جميع هذه الحالات مع سابحات الجو ، فنفرح لدى سماعنا الأغاريد الجميلة ، ويتحرك فينا العطف وتتمثل أمامنا غرائز الأمومة لدى رؤيتنا الطير يعتني بصغاره ، وننفر من ذلك الجارح الذي يطارد العصفور الصغير ، ونشعر مع ذلك المخلوق الذي يطلب النجاة وينشدها بكل ما أوتي من قوةٍ اشتقها من حبهِ للبقاء والحياة. لست أشك يا صاح انك تُحمل الى الفضاء وتشاطر العصفور الشفقة والرحمة وتتمنى لو أُوتيت أجنحة توصلك اليهِ لتخلصهُ من مخالب عقاب الجو الفتاك . ولم يحرك مجال العطف في عروقك سوى هذا الاحساس المتبادل الذي استفزك لحماية صغير الطير وحقير الحيوان

وتندلع نيران في بلدتك تحرق الاخضر واليابس وتروع الكهل واليافع فتندفع من تلقاء نفسك الى تبادل الاحساس والتضحية السامية في تخفيف نتائج تلك الكوارث والمصائب والمآسي ويصيب فيضان احدى القرى المجاورة لمدينتك فتهرع بدافع الانسانية النبيل لتبادل الاحساس قوماً اكتسح السيل مأواهم وهدم مساكنهم وجرف ماشيتهم . وفي الاعياد العامة والمهرجانات

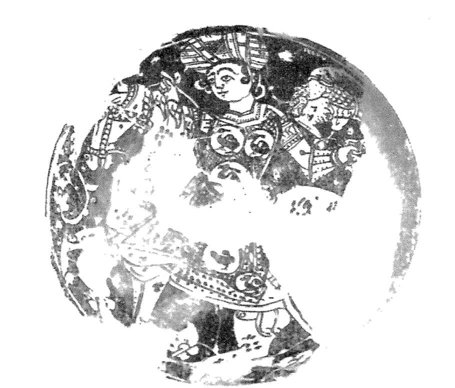
الشعبية تأخذك نشوة الفرح فتشاطر ابناء قومك مسرات العيد وافراح الوطن . ولا تعرف لهذا تعليلاً سوى هذا الاحساس المشترك للجماعة البشرية تعكسه في شتى ضروب الحياة

وقد يتعدى هذا الاحساس عالم الحياة الى الشعور مع الجماد وسرعان ما فطن لذلك رواد الفن وكبار الادباء فأودعوه قطعهم الخالدة اذ اشركوا الطبيعة حوادث قصصهم وتآ ليفهم فرسموها مشرقة زاهية عندما يجلي البطل ظافراً منصوراً وقرنوها بالاضطراب والظلمة ساعات الشدة والعنف . فالقمر يتلألأ بأشعته الفضية ساعة يناجي الحبيب معبودته ، والرعد يقصف والعاصفة تهب ساعة يتوقع البطل المغوار فاجعة أليمة او مأساة مفزعة

وقابلية تبادل الاحساس والانحياز بالشعور لا تقف عند حد العلائق الانسانية بل تتعداها الى الجماد ، وها نفوسنا تنكمش لدى مشاهدة صخرة شاهقة تنحدر على حصاة صغيرة او لدى رؤية عمود صغير يحمل عمارة كبيرة وقد نعجب بالبحر الواسع الذي يوحي الينا الاتساع والجبل العالي الذي يلهمنا العظمة والنهر الجاري الذي يدعونا الى الحركة فنحن في كل هذه الحالات نبادل الجماد الاحساس فنرثي للحصاة المتفتتة و نشفق على العمود الرازح تحت ثقل البناية وندهش لسعة البحر ونعجب بعظمة الجبل ونطفر مع حركة النهر وانسيابه البديع وتكون الطبيعة قد أنستنا ذواتنا فتقربنا من مظاهرها وارتبطنا بأوصافها ودغمنا نفوسنا فيها

ويختلف هذا الاحساس في الناس قوة وضعفاً فهو أظهر في الانبياء والمشترعين منهُ في السوقة والعامة وهو عامل اساسي في بناء الشخصية وعنصر فعال في نمائها . فهذه شخصية عاجزة لا تتبين احساسها وتلك اخرى تشع نبلاً وتشيع عاطفة بدفعها الى المثال الاعلى والكمال المنشود

اما الاحساس التصوري فقد شاع في نفوس هداة البشرية ومصلحيها فاستقروا آلامها في الماضي السحيق وتصوروا مصاعبها في المستقبل الغامض البعيد فعملوا على اصلاح اوضاعها واسكان اوجاعها وتجديد نظمها وسرعان ما سنوا الشرائع الحكيمة ليحولوا دون عسف الجماعات القوية وثراء اقليات معدودة . ومن ثمار هذا الاحساس ماتراه بين الآونة والاخرى من تحفز الجماعات النائية لطلب المساعدة وجمع التبرعات لقوم نكبوا في زلزال مدمر او فيض عميم او حريق شامل.وقد تبين ان لا رابطة تربطهم باولئك الاقوام عبر البحار الشاسعة والصحاري الواسعة سوى رباط الاحساس المشترك والشعور المتبادل الذي وقع على اوتار قلوبهم نغمات العطف والحنان وهزَّ اغشية نفوسهم بقدس المحبة والاخاء.وانا على مثل اليقين ان البشرية تصل مصاف الانبياء الاطهار وان ارضنا تصبح فردوس النعيم وجنة عدن، حالما تنظم البشرية علاقاتها وتسوّي مشكلاتها على ضوء هذا الاحساس المتبادل السامي وذاك الشعور المشترك الرفيع فنشعر اننا نعمل كافراد وجماعات لخير بلادنا واقوامنا ولاعادة امجاد اسلافنا ومرسلينا



جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من نباتات وأوراق شجر ورسم انسان وفي الجزء الأيمن كلمة قد تكون (جعفر) ومما يستوقف النظر ان غطاء الرأس يشبه ما كان معروفاً عند بعض الفرسان الاوربيين في القرون الوسطى



جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من رسم فارس يقصد الصيد كما يظن من صورة البازي الجاثم على يده اليسرى وعلى الفارس رداء من نسيج مزين بدوائر فيها صور طيور . ومما تجدر ملاحظته شكل العمامة التي يلبسها والذؤابتان المتدليتان على خديه

الخزف الفاطمي

للدكتور كارل جوهان لام
استاذ الفنون الاسلامية بمعهد الآثار

ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكي

وجدت نماذج مختلفة من الخزف الفاطمي في الفسطاط معظمها قطع مكسورة . والظاهر أنه ليس في الاستطاعة ان نصل الى معلومات أثرية تاريخية تعين على دراستها وتحديد تاريخها . أما الخزف الذي وجد في حفريات قلعة بني حماد فيمكن ان ينسب الى القرن الحادي عشر. ولم يعرف غير القليل عن الخزف السوري لذلك العصر وسنقصر دراستنا هنا على أهم أنواع الخزف المصري

١ — الفخار غير المطلي (Unglazed Pottery)

تتألف أهم مجموعات الفخار غير اللامع من شبابيك القلل المصنوعة من الصلصال (الطين) ذي المسام. وأقدمها على ما يظهر من صناعة العصر الطولوني . وأما القطع المصنوعة منها في العصر الفاطمي فكثير عددها . وأهم النماذج الخزفية تلك القطعة المحفوظة بدار الآثار العربية والمغطى سطحها الخارجي بطبقة مزخرفة ذات بريق معدني على أرض بيضاء من طراز القرن الحادي عشر . أما شباك القطعة فغير لامع

٢ — الفخار المطلي (Glazed Pottery)

ا — القسم الاول من هذا النوع عبارة عن فخار لامع عليه خطوط ظاهرة مفصولة بعضها عن بعض بمسافات من الطين المحروق

الطريقة الفنية لهذا الفخار على مثال الصناعة المراكشية المتأخرة Cuerda seca وفكرة الألوان التي تتألف من الابيض والاخضر والبنفسجي ذات شبه قريب بصناعة بعض القطع الخزفية الملونة البيزنطية التي عثر عليها في استانبول وباتلينا في بلغاريا. ويمكن مقابلتها بآنية من

صناعة القرن الثامن او التاسع وجدت في سوس [١] . وبالخزف الذي يطلق عليه اسم (خزف جابري) [٢] . وببعض الخزف المصنوع في الغرب الاسلامي . وعلى الرغم من ان هذا الفخار المطلي لا نعرفه الا بواسطة قطع وجدت في مصر فليس من المؤكد انه صنع على ضفات النيل . ويمكن ان ينسب هذا الفخار المطلي الى القرن العاشر الذي يشمل العصر الاخشيدي . وفي دار الآثار العربية نموذج رائع يتكون موضوعه الزخرفي من طيور على حافتي شجرة الحياة [٣]

ب — القسم الثاني : فخار مطلي في بعض أجزائه

أكثر هذا النوع من الفخار مستمد من الصناعة العراقية التي سارت على منوال النماذج الصينية وقد وجدت نماذج منه في سامرا [٤] . ومن هذا الفخار المصري لم نكن نعرف حتى الايام الاخيرة سوى أمثلة غير متقنة الصنع ولا عناية كبيرة بألوانها ثم اكتشفت حديثاً نماذج أدق صنعاً معظمها الآن معروض في دار الآثار العربية وفي متحف بناكي بأثينا . وأغلب النماذج المذكورة من صناعة القرن الحادي عشر والنصف الثاني من القرن العاشر وفي هذه المجموعة نجد من الصعب التمييز بين قطع العصرين الفاطمي والسابق له

جـ — القسم الثالث : فخار ذو زخارف محزوزة او محفورة (Champlivé) تحت طلاء ذي لون واحد

هذا النوع من الفخار المطلي مع النوع الآخر من الفخار ذي البريق المعدني يؤلفان أهم أمثلة صناعة الخزف الفاطمي . ومعظم تلك المجموعة ان لم يكن كلها من عمل فخاري الفسطاط . وقد عثر في سوريا على بعض نماذج من هذا الفخار قد تكون من أصل مصري

---

(١) مدينة قديمة في اقليم خوزستان بايران تبعد عن بغداد نحو ٢٥٠ ميلا الى الجنوب الشرقي . وقد ظلت زمناً طويلا مقر ملوك الفرس او دولة عيلام . وكان اول خراب اصاب المدينة عند ما قضى آشور بانيبال بين عامي ٦٤٢ و ٦٣٩ ق . م على دولة العيلاميين (تراث الاسلام — الجزء الثاني من الترجمة العربية للدكتور زكي محمد حسن . ص ٣٨)

(٢) خزف جابري هو نوع خزفي يظن انه من صنع عبدة الشمس الذين ظلوا في بعض جهات فارس وفي بعض جهات ايران متمسكين تمسكاً شديداً بدياناتهم القديمة حتى بعد الفتح العربي بمدة طويلة . وقد وجدت أمثلة من هذا الخزف عليها حروف كوفية من طراز القرنين الحادي عشر والثاني عشر (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٢ و ٤٣)

(٣) شجرة الحياة (Hom) — هذا الموضوع الزخرفي الذي نشاهده كثيراً في آثار الفنين الاشوري والفارسي عبارة عن حيوانين متقابلين او مولٍ أحدهما ظهره للآخر وقد تطرق من المنسوجات الشرقية الى فن النحت الروماني

(٤) أسست سامرا (سر من رأى) على يد اشناس أحد قواد الاتراك بأمر الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م . وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد مائة كيلو متر شمالي بغداد وترجع شهرتها في تاريخ الفنون الاسلامية الى القصور التي شيدها المعتصم وخلفاؤه قبل ان يهجرها المعتمد ويرجع مقر الحكومة الى بغداد سنة ٨٨٣ م

ثم عثر حديثاً في حفريات انطاكية (٥) على نوع من الفخار المحفور من صناعة ذلك العصر ولكن طرازه يختلف جداً عن ذلك . وهناك نماذج بطلاء ذي لون او لونين او ثلاثة من الخزف السوري المنقوش عليه بالحفر بالطريقة المعروفة باسم (graffiato) (٦) . وهذه النماذج تنسب في الغالب الى العصرين الأيوبي ، والمملوكي ، المتقدم . وتتصل تلك الصناعة بطبقات مختلفة من الفخار البيزنطي والقبرصي وبنوع من الفخار المملوكي . وكل هذه المجموعات التي ذكرناها أخيراً لها طلاء أصفر خفيف فاتح (buff) أو أخضر وبنفسجي

ونلاحظ في الصناعة الفاطمية وفي الاساليب المتأخرة في العصر الايوبي تنوعاً كبيراً في التلوين فان بعض انواع الطلاء ذات ألوان غاية في النقاوة . ونذكر من الالوان التي شاع استعمالها اللون الأخضر البحري (celadon) (٧) ذا الدرجات اللونية المختلفة على منوال الخزف والحجر الصيني . والالوان الخضراء والزرقاء والصفراء والبنفسجية والصفراء الفاتحة والبيضاء (وكان اللون الأبيض مظلماً غير شفاف بينما كانت أكثرية الالوان الاخرى المستعملة شفافة الى حد ما) . ونحن نعرف نموذجاً واحداً منها او نموذجين عليهما توقيع . كما ان الكتابات المنقوشة التي نقابلها عليها اما ذات صبغة زخرفية خالصة وإما تشتمل على بعض التمنيات الطيبة

ولكي نصطلح على وضع تاريخ نسبي لهذه الصناعة الخزفية والتي يندر ان نجد منها قطعاً كاملة يجب ان نقابل موضوعاتها الزخرفية بقطع من الفخار ذي البريق المعدني . فنجد على قليل من القطع التي تهمنا جداً في هذه المقابلة ان الزخارف المحفورة مختلطة ببريق معدني ذهبي منقوش على الطلاء

ويمكننا القول بطريقة عامة ان الامثلة ذات الزخارف المحفورة أقدم عهداً من تلك الامثلة ذات الموضوعات الزخرفية المكونة من خطوط محفورة حفراً بسيطاً . ونحن نلاحظ ان الاجزاء المحفورة أقتم لوناً من السطوح التي تجاورها ويرجع ذلك الى تجمع الطلاء فيها

ونظهر رسوم آدمية محلاة بموضوعات زخرفية نباتية جميلة على قطع كثيرة من الفخار يمكن ان ننسب الى أوائل العصر الفاطمي . ويشاهد على نوع من هذا الخزف اوراق نباتية

---

(٥) انطاكية احدى مدن سوريا وتقع على الضفة اليسرى من نهر العاصي وعلى بعد ستين ميلا غربي حلب . وقد أسسها سيليسوس نيقاتور في عام (٣٠٠ ق . م) احد ملوك سوريا لذكرى أبيه أنطيوخوس ولقد نافست انطاكية مدينة رومة في عظمتها ووصل عدد سكانها في عهد ما الى نصف مليون

(٦) Graffito كلمة ايطالية تستعمل غالباً في صيغة الجمع Graffiti والمقصود بها رسوم ترسم باليد على الجير او الجبس ثم تحفر بالحك او المكشط . وكانت هذه الطريقة شائعة في الصين وليس من الضروري ان تكون قد نشأت هناك اذ أنها وجدت في مصر قبل الفتح الاسلامي ثم نجح صناع الخزف الايطاليون ابان القرن الخامس عشر نجاحاً كبيراً في استخدام هذه الطريقة (تراث الاسلام — ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤)

(٧) أطلق هذا الاصطلاح celadon في بادىء الامر على اللون الاخضر البحري الذي امتاز به الخزف الشرقي وصارت القطع الملونة بهذا اللون نادرة جداً وذات قيمة أثرية عظيمة وتم اخيراً استعمال الاصطلاح

تختلط بخطوط مضرسة وعلى فرع آخر نرى أزهاراً صغيرة مخروطية ذات رؤوس مستديرة متجهة في استدارتها الى فوق

وكثيراً ما نرى على بعض نماذج الفخار من صناعة القرن الحادي عشر رسوم الحيوانات والطيور المنقوشة عليها قريبة الشبه جداً ببعض الرسوم التي تصادفنا على الخزف ذي البريق من صناعة الصانع الماهر « سعد » . وفي هذا النوع نشاهد ان الزخارف تكون داخل رسوم هندسية على شكل نجوم تتألف من عصابة مفردة او مزدوجة اما مستقيمة وإما منحنية ويمكن تمييز النماذج المتأخرة من هذا النوع بما نلاحظه في صناعتها من الاهمال أو بمشابهتها القريبة للخزف الصيني الذي كانت له منزلة سامية في الاسلام

د — الخزف ذا البريق المعدني Lustered Pottery [٨]

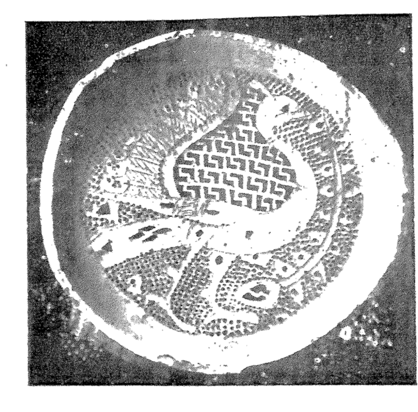
نرى ان البريق المعدني اختراع صناع الزجاج المصريين . ففي العراق كان هذا البريق المعدني اللامع يوضع على فخار مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الابيض غير الشفاف المحتوي على القصدير وكانت ترد الى مصر اثناء العصر الطولوني نماذج كثيرة من هذا الخزف ذي بريق متعدد الالوان . وأقدم الامثلة التي لا شك انها صنعت في مصر انما ترجع الى القرن العاشر وبعضها ينسب الى العصر الاخشيدي[٩]

وفي مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم بالقاهرة جام عليه رسم فيل وكتابة منقوشة يستدل منها انه من صناعة ابراهيم المصري . ومن المؤكد ان تكون هذه القطعة من صناعة القرن العاشر مع ان هنالك صانع آخر يعرف بهذا الاسم ايضاً ترك بعض القطع الخزفية في القرن الحادي عشر . وقد سبقهما صانعان آخران هما طيبب علي و «ساجي» شوهد اسماهما على قطعة من الخزف محفوظة في دار الآثار العربية مشغولة على الطراز القديم العهد الذي يذكر بالفخار العباسي . وهنالك قطعة في نفس المجموعة ذات زخرفة نباتية من الطراز الاخشيدي تحمل اسم الحاكم بأمر الله . ويمكن ان نقابل هذه الزخرفة بزميلتها المنقوشة على الباب الخشبي الذي امر بصناعته الخليفة الحاكم للجامع الازهر . وقد أشار الرحالة

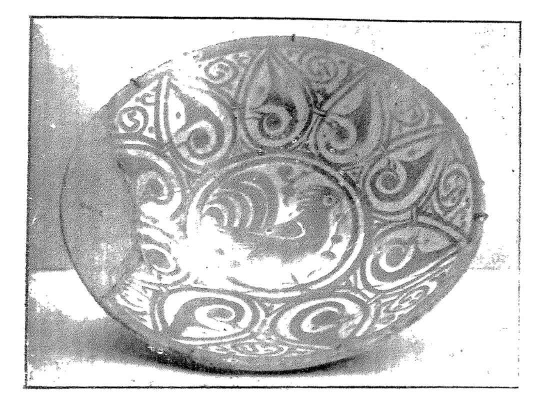
---

(٨) يقصد بكلمة Lustre طبقة الميناء الرقيقة اللامعة التي يكسى بها الخزف فتكسبه سطحاً لامعاً براقاً والعلماء غير متفقين في تعيين التاريخ والاقليم اللذين نشأت فيهما صناعة الخزف ذي البريق المعدني في الاسلام وفي هذا الخزف ترسم الزخرفة بملح معدني على سطح لامع ثم تثبت بتعريضها للنار بطريقة تكسبها بريقاً معدنياً (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٤)

(٩) لاشك ان الدكتور الفاضل الاستاذ لام يقصد الفترة القصيرة بين عامي ٩٣٥ و ٩٦٨ التي تتوسط العهدين الطولوني والفاطمي اذ من الصعب ان نوافق استاذنا على انه كانت هناك مميزات او مظاهر فنية لعصر لم يدم اكثر من ٣٣ عاماً . وكل ما يمكن ان ينسب الى هذه الاسرة الاسلامية في الواقع يتصل بالعهد الطولوني او ممهداً للعهد الفاطمي



شباك « نخارة » للماء
عليه زخرفة تمثل طاووساً
رافعاً ذيله



طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني الذهبي وفي قعره
دائرة رسم عليها طائر في منقاره غصن وحول
الدائرة شريط من زخارف نباتية

ناصري خسرو[١٠] في سفره المشهور عن رحلته الى صناعة الخزف ذي البريق التي شاهدها زاهرة في مصر

كان مسلم وسعد أمهر صناع الخزف ذي البريق المعدني . وفي متحف بناكي بأثينا قطعة زجاجية ملونة بنفس الطريقة من صناعة سعد . ويرى الاستاذ المرحوم علي بك بهجت مدير دار الاثار العربية الاسبق ان « سعد » عاش في عصر سابق لعصر زميله مسلم ولكننا لا نتفق معه في رأيه . ومن المعقول ان نخمن بان مسلم اشتغل في عصر الحاكم بينما عم نشاط سعد في عهد الحكم الطويل الذي تمتع به الخليفة المستنصر بالله (أواسط العصر الفاطمي) . ولا نعلم تماماً لماذا كانت بعض قطعهما ممهورة بأسميهما وأغلبها لم تكن ممهورة . ومن هذه الاخيرة أمثلة كثيرة ذات قيمة فنية عالية لا مجال للشك في انها من صناعة الصانعين المجيدين . ومع ذلك يجب ان لا نأخذ بسهولة بكل القطع الخزفية التي يظهر فيها اسلوبهما الصناعي على انها من عملهما او من اخراج مصنعيهما . ولكي نأمن الخطأ يجب ان نعتبرهما ممثلين لمدرستين ويجب ان نتكلم عن طراز سعد او مدرسة سعد وعن طراز مسلم او مدرسة مسلم وليس عن صناعة سعد او مسلم نفسيهما

وسنصف الآن بعض الميزات التي اتصفت بها كلتا المدرستين

مدرسة مسلم

في صناعة هذه المدرسة يغطي الطلاء أجزاء الآنية كلها بما فيها قاعدتها المحدودة بحرف قليل الارتفاع ويكون الطلاء دائماً ابيض اللون لكنه يندر ان يكون في نقاوة الطلاء الذي نجده على الخزف الأخشيدي . أما البريق المعدني فذو لون واحد غالباً هو اللون الذهبي الا في احوال نادرة جداً يميل الى الاحمر النحاسي . وفي هذا النوع من الخزف لا نرى الزخارف محفورة دائماً . أما توقيع مسلم فنجده منقوشاً بحروف كوفية بسيطة تقرب احياناً من الخط النسخ ونرى في الغالب على قاعدة الآنية . وفي بعض الاحيان نرى الامضاء بالقرب من الحافة موضوعاً بطريقة زخرفية بديعة وكانت معظم الزخارف المفضلة رسوم الحيوانات والطيور المختلفة والموضوعات الزخرفية النباتية والحروف الكوفية كما تظهر ايضاً بعض الصور الآدمية على قطع الخزف من صناعة مسلم (كالتي نشاهدها على خزف الصانعين ابراهيم وساجي)

(١٠) ناصري خسرو هو رحالة وشاعر فارسي ولد في مقاطعة خراسان ببلاد فارس سنة ٣٩٤ ه وانتظم في شبابه يعمل في الديوان بمدينة مرو ثم تركها وحج الى مكة واخذ يطوف بلاد العالم الاسلامي في منتصف القرن الخامس واعجب بما وجده في مصر من رخاء عظيم واسواق عامرة (١٠٤٧ — ١٠٤٩م) ووصفه للقاهرة المستنصرية يعد من اهم المراجع التي تساعد على معرفة احوال القاهرة وصناعاتها وحفلاتها السلطانية والشعبية . وقد ترجم رحلته الى اللغة الفرنسية ونشرها المستشرق شارل شيفر في باريس سنة ١٨١١
Sefer Nameh : Relation du Voyage de Nassiri Khosraw

مدرسة سعد

وفي هذه الصناعة نجد الجزء الاسفل للاواني محتوياً على حافة للقاعدة تشبه الشريط الا في احوال نادرة جداً عند ما تكون الاواني يغطيها الطلاء . وهذا قلما يكون أبيض اللون فهو اما أزرق وإما أحمر . وفي نوع خاص يصادف الانسان بريقاً أنيقاً ذا لون رمادي لامع محلاة به القاعدة على مثال الخزف الذي تقابله في الخزف القبطي والقاعدة لولبية الشكل أفقية صنعت بالأصابع أثناء عمل الآنية وادارتها على عجلة الخزاف

وقد عم استخدام اللون الازرق في تلك الصناعة كما أننا في كثير من الاحوال نجد البريق المعدني الاكثر استعمالا هو الزيتوني المائل الى الاصفرار

وفي مجموعة منسوبة الى مدرسة سعد وجدت نماذج ذات ألوان متعددة وبريقها المعدني مطبوع على زخارف بارزة في قوالب مصبوبة . والنقش الداخلي مكون في الغالب بواسطة الحفر في طبقة المادة ذات البريق بدون ان ينفذ الى المادة الطينية . وتقابل مثل هذه «الحزوز» في أعمال الخزف المنسوبة الى « ساجي » . اما توقيع سعد فنجده منقوشاً بالحروف الكوفية المزخرفة على جزء واضح من الآنية وفي الغالب على الوجه الخارجي للاناء . وهناك قطعة زخرفية في القسم الاسلامي من متحف برلين تحمل توقيع سعد والى جانبه توقيع لمصور (صانع) آخر اسمه (حسن) وهذا مما يدلنا على انه كان لسعد مساعدون في مصنعه . وفى متحف فكتوريا وألبرت بلندن آنية عليها توقيع سعد وعلى سطحها الداخلي نقش يمثل قسيساً في يده مبخرة تترجح . وبين الزخارف التي تملأ ارضية الآنية علامة الحياة المصرية او الصليب القبطي الذي كان يستعمله الاقباط كثيراً في اعمالهم الزخرفية

وفي دار الآثار العربية قطعة خزفية ليس عليها توقيع ولكن عليها صورة المسيح منسوبة الى مدرسة سعد . وهذا مما يجعلنا نعتقد انه من المحتمل ان سعد كان من سلالة الاقباط

وقد اقتبس سعد بعض موضوعاته الزخرفية من موضوعات قديمة . وفي كاتدرائية Sens قطعة قماش من الحرير تشبه القطعة التي عثر عليها في انطينو Antinoe [١١] عليها رسوم طيور متقابلة واشجار وسلال تحتوي على فواكه كثيرة الشبه بالرسوم التي تقابلها وننسبها بدون عناء الى مدرسة سعد . ومن الصعب تفسير وجوه الشبه لاشياء يرجع تاريخها الى عصور متفاوتة

---

(١١) انطينو بوليس او ادريانوبوليس مدينة مصرية قديمة على الحدود الجنوبية لمصر الوسطى التي عرفت قديماً باسم هيتونوميد ثم انضمت بعد ذلك الى اقليم طيبة . وكانت على الشاطىء الايمن للنيل على بعد ٩ كيلو مترات من هرمو بوليس — وقد شيدها الامبراطور ادريانوس على انقاض مدينة بيزا القديمة وذلك تخليداً لذكرى صديقه الشاب الجميل انطونيوس الذي مات غرقاً في النيل بالمكان الذي شيد عليه المدينة . وقد اطلق الاقباط على انقاض هذه المدينة الجميلة اسم Enseneh وهي اليوم بالقرب من قرية الشيخ عبادة انظر (t. IV p. 197) Description D'Egypt.

ومن الرسوم التي نشاهدها على فخار هذه المجموعة الاسماك التي نراها على آنية مشهورة في مجموعة كيليكيان المعروضة في متحف فكتوريا والبرت وكانت فيما قبل للدكتور فوكيه وطلاء هذه الآنية رمادي اللون ومشقق . وإنا لنرى على السطح الداخلي لبعض الاواني الخزفية التي تنسب بسهولة الى صناعة سعد زخرفة لاسماك ثلاثة تماس رؤوسها في هيئة رائعة كما نرى بعض الرسوم الآدمية ايضاً . وليس في طراز صناعة سعد تلك القوة والحرية التي نلاحظها في صناعة مسلم ومدرسته لكنها اكثر رشاقة وانسجاماً

ومن اراد الدرس استطاع ان يقابل اوجه الشبه والخلاف بين النقوش التي على لوح كنيسة سنت بربارا بمصر القديمة والنقوش التي خلفتها قصور الفاطميين الغربية

ولاشك ان بعضاً من الامثلة المتأخرة من هذه الطبقة صنع بعد وفاة سعد ونجدها غير متقنة وتندر فيها الرسوم . كما انا نلاحظ ان حروف قاعدة الاواني مثلثة القطاع وليست مستديرة

***

ومن مجموعات الخزف ذي البريق المعدني الذي ينسب الى العصر الفاطمي الأخير ما نرى زخرفته ذات لون بنفسجي تحت سطح مصقول وشفاف . ولا بد ان تكون هذه الطبقة والسابقة لها من عمل مصنع واحد

ومن بين الموضوعات الزخرفية التي استعملت جامات (medaillons) تحتوي على رؤوس من المحتمل انها تمثل الشمس . وموضوعات مثلثة ومستطيلة ذات جوانب منحنية وفروع اشجار مزهرة . . . الخ ونشاهد امثلة اخرى عليها رسم الصليب ومن المحقق ان تكون من صناعة القبط

وقد وجدت قطع كثيرة من الاواني وترابيع الحيطان ذات البريق المعدني في حفريات قلعة بني حماد . ومن المحتمل ان تكون في الاصل وردة من مصر . لكن مما يجعلنا نعارض هذه النظرية اننا لم نعثر على مثل تلك الترابيع في حفريات الفسطاط . ونعتقد انه كان لخراب الفسطاط الشامل عقب حريقها الكبير عام ١٠٦٩ ثم سقوط الدولة الفاطمية بعد ذلك باعوام قلائل . . القضاء الاخير على صناعة الخزف ذي البريق في مصر . وفي ذلك العصر نجد ان هذه الصناعة بدأت في الظهور في سوريا واسبانيا (وكان يورد اليهما الخزف ذو البريق في القرن العاشر) . ووجود بعض الأواني اللامعة في سوريا التي ترجع الى زمن لا يتجاوز عصر سقوط الدولة الفاطمية لا يمكن ان يتخذ حجة نستعين بها ضد النظرية القائلة بأن صناعة الخزف قد ادخلت الى سوريا على يد الصناع المصريين . والفخار السوري ذو البريق يكون احياناً مطلياً على سطح مصقول وشفاف يحتوي على مادة القصدير . وهذه الطريقة في الطلاء ادخلت الى سوريا عن طريق مصر حيث تقدمت

لقد ذكر لنا المؤرخون في مناسبات شتى اهتمام صلاح الدين للفن والترف . وهذا ما

يفسر لنا الى حد ما الانحطاط الوقتي الذي أصاب الفنون المصرية فيما عدا فن صناعة الخشب الذي تبع سقوط الدولة الفاطمية

كلمة عامة في دراسة الخزف الاسلامي

الآن وقد انتهينا من عرض آراء الدكتور لام في الخزف الفاطمي يجمل بنا ان نلخص بعض الآراء الأخرى . فقد تناول دراسة الخزف الاسلامي كثيرون من مؤرخي الفنون . وما زالت امامهم نقط كثيرة غامضة . وكان من الذين بحثوا موضوع الخزف الأسلامي العالم (Hobson) [١٢] فقال ان ليس ثمة اي دليل على وجود خزف ذي بريق معدني في الفسطاط قبل القرن التاسع ولاسيما قبل العصر الطولوني في نهاية هذا القرن وليست هناك أية قطعة اثرية تثبت يقيناً ان ذلك البريق المعدني كان معروفا قبل الاسلام

وكان من الباحثين الفنيين في الخزف الاسلامي المرحوم العالم علي بك بهجت والاستاذ فليكس ماسول[١٣] فقد نسبا الى العهد الطولوني نوعاً من الخزف ارق طينة من النوع الذي ينسبانه الى ما قبل العصر الطولوني يمتاز بزخارفه ذات البريق المعدني ذي اللون الاصفر او الزيتوني على ارضية بيضاء او عاجية

وبعض العلماء ومنهم ميجو Migeon ومرسيه Marcais وفييت Wiet وغيرهم اتفقوا على ان تلك المميزات نفسها هي مميزات خزف عثر عليه في سامرا وفي الري [١٤] وفي سوس وفي قلعة بني حماد وفي مدينة الزهراء (فرساي قرطبة) ولكن الدكتور Dr. Sarre وزميله الدكتور كونيل Dr. Kühnel امين القسم الاسلامي بمتحف برلين يريان ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني نشأت في العراق . ويثبت كونيل ذلك بأن المنقبين لم يعثروا في اطلال سامرا على بقايا افران لصناعة الخزف او قطعاً اصابها التالف في الافران اثناء العمل . ولذلك ذهب الى ان بغداد كانت موطن هذه الصناعة ولاسيما ان المصادر التاريخية كثيراً ما تتحدث عن مدينة المنصور كمركز هام لصناعة الخزف والفخار [١٥] . وهذا هو الرأي السائد

ومن المحتمل جداً ان نقل هذه الصناعة من العراق الى مصر جاء على يد ابن طولون . وليس بعيداً ان يكون قد اتى معه من العراق بنماذج من الخزف العراقي او بصناع عملوا على احياء صناعتهم في مصر [١٦]

---

(١٢) انظر كتاب Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East.

(١٣) انظر Ali Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de l'Egypte

(١٤) مدينة الري : Rhages or Ray وهي مدينة فرسية تقع على بعد بضعة اميال الى جنوبي طهران . وقد كانت في صدر الاسلام مدينة مشهورة ومركزاً كبيراً لصناعة الخزف وفيها نشأت نماذج عديدة خاصة بها وقد دمرها المغول سنة ١٢٢٠

(١٥) انظر كتاب « الفن الاسلامي في مصر » لمؤلفه الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية

(١٦) المصدر السابق



عمر بن عبد الله

ابن أبي ربيعة

— ٢ —

لجبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿الناحية الجدية في حياة عمر﴾ : لعلّ اخبار حب عمر للنساء وتغزله بهنّ ولهوه وعبثهِ طغت على سائر اخباره الاخرى بحيث كادت تستأثر بانتباه المؤرخين . ولهذا فالمشهور عند الادباء اليوم ان احداً من الناس لا يستطيع ان يذكر شيئاً عن الناحية الجدية في حياة عمر

ولعل بعضهم يزعم ان عمر لم يجدّ في حياتهِ وانما قضى عمره في عبث ومجون ، ولكن الاقدمين ذكروا ان عمر فتك نصف حياتهِ ونسك نصفها الآخر ، ومهما يكن من شأن هذه الرواية المضطربة فهي تدل على ان حياة عمر في زعم هؤلاء الرواة القدماء لم تنقض كلها في اللهو . ولقد حاولت ان التمس هذه الجوانب الجدية من حياة عمر فلم ار في ما بقي من كتب القدماء ما ينقع غلة ، والذي يؤيد امر ضياع بعض اخباره رواية اوردها السيوطي وهو من المؤرخين المتأخرين من رجال القرن العاشر للهجرة فيها نبأ ان صح فهو يفيد ان عمر جد كل الجد في بعض ظروف حياتهِ . ولعلك تستغرب اذا سمعت ان هذا النبأ هو ان عمر نقل الحديث النبوي عن امام مشهور هو سعيد بن المسيب ، وقد عرف إتصال عمر بهِ وبعبد الله بن عباس وهما من أعظم أئمة ذلك العصر ، وان هناك محدثين نقلا عنهُ الحديث هما مصعب بن شيبه وعطاف بن خالد . ولعلك لا تستغرب ان تسمع انهُ كان يعرف القراءة والكتابة فهذا بيّن من شعره وقد كان بالمدينة زمنئذٍ كتاتيب يتعلم بها الصبيان . وقد اتصل مع كثير من حبيباته بواسطة الكتب التي كان يبردها اليهن وكنّ يكتبنَ اليهِ ايضاً وقد قال:

انبئت انك اذ اتاك كتابنا　　اعرضت عند قرائك العنوانا

ومن الممتع ان تعلم انهم كانوا يختمون كتبهم بالوف السلامات كما تفعل العامة في هذا العصر

سلم الله الف ضعف عليكم　　مثل ما قلتم لنا في الكتاب

وقد ألمَّ بالقرآن واستعان بمعانيه في شعره الغزلي

وقد قال : والله قد انزل في وحيه مبيناً في آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ولم يقدها نفسه يظلم

وله : ان الوشاة كثير ان أطعتهم لا يرقبون بنا الاًّ ولا ذمما

وله : حدثونا انها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك العقد
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وليس غريباً على عمر وقد ولد في جيل كانت الحجاز فيه موسماً لحركة دينية كبرى هزت اقطار العالم وكان العرب فيه قد اخذوا بدهشة هذا الدين الجديد ، اقول ليس غريباً عليه ان يتصل باسباب هذه الحركة وان يلم بامورها . وقد كان اخوه الحارث رجلاً صالحاً نقل الحديث عن الامام علي

وكانت المدينة كما ذكرنا مركزاً عظيماً لهذه الحركة ولهذه النهضة الجديدة بما استتبعتهُ من امور الاجتماع والتجارة . وكانت جيوش النبي تعمل لهؤلاء العرب في سائر اعمالهم ، وكان عمر احد الورثة لبيت تجارة وثروة كما رأينا فلم يكن غريباً ان يقع عليه ، وقد مات والده وهو صبي ، عبء مسئوولية بعض الاعمال التجارية والصناعية . والرواة يذكرون لنا ان كان لهُ عبيد يتصرفون في بعض المهن منهم سبعون في الحوك وان أم والده كانت تتاجر في العطر . ولم تقتصر اعماله التجارية على الحجاز فقد سار (فيما يظهر من شعره) في رحلة تجارية الى اليمن طمس الرواة أخبارها فذكروا ان أخاه أرسله الى اليمن ليمنعهُ من قول الشعر ، وزعم آخرون ان رجلاً باسم مسعدة بن عمرو ارسله في أمر عرض لهُ ، والراجح انهُ ذهب في تجارته وقد ندم على عمله حين عاقتهُ هذه الرحلة عن حضور موسم الحج فقال قصيدته المشهورة :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن

وفيها يقول بلسان حبيبة تخاطب رفيقتها :

بالله قولي لهُ في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في يمن
ان كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويظهر من شعره أن لهُ اكثر من رحلة الى اليمن عاقهُ في احداها مرض ثلاث سنوات وقام برحلة الى البصرة لمعالجة أسنانه كما ذكرنا وقال في لهوه فيها شعراً لم يحفظ لنا منهُ سوى :

حبذا البصرة داراً في ليال مقمرات

وزار الكوفة ولا نعلم متى ولا لأي غرض . فقد يجوز انهُ قصدها وراء احدى الغانيات العائدات من الحج ، وهناك اخبار تشير الى تتبعه عراقية الى العراق . وقد يجوز انهُ كان يزور

أخاه الحارث والي الكوفة مدة لعبد الله بن الزبير وقد مكث فيها وأحب ليلها البارد وماءها وغناء مغنيتين فيها ، وقد قال في ذلك :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم الا ثلاث خلالِ
ماء الفرات وطيب ليل بارد وغناء مُسْمِعتين لابن هلالِ

ولهُ زيارة او اكثر لسوريا لم يذكر الرواة شيئاً عنها ولكنهُ ذكرها في شعره في غير قصيدة وبثّ في هذا الشعر شوقه لمحبوبة حجازية كان قد شق عليها فراقه ، وتراه يستحث نياقه ليصل الى حبيبته ولسنا نعلم غرضه في هذه الرحلة ولعله أحد امرين . إما في تجارة وإما في غزوة ولا سيما وهو يذكر في شعره ان فتاته حين ودعته دعت الى الله ان يعيده سالماً مأجوراً ونحن نستبعد جهاد عمر في غير الحب ولكننا لا ننكر انهُ قال :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقد نشأ في المدينة نشأة أدبية وكان أولاد بعض الاشراف يتأدبون على أيدي معلمين يروونهم الشعر ، فألم بشعر الكثيرين من سابقين ومعاصرين وتأثر ببعضهم . والذي يدرس شعره يرى انهُ قد أخذ عن امرىء القيس وحسان بن ثابت والاعشى وعنترة وزهير والنابغة وعلقمة وأبي القيس بن الصلت والخنساء والحطيئة والاسود بن يعفر والمثقب العبدي وعدي بن زيد وغيرهم وهذا يدل على سعة اطلاعه ولعله كان أميل الى تأثر امرىء القيس منهُ الى تأثر اي شاعر آخر . ومن يقرأ قصيدة عمر :

خليلي مرّا بي على رسم منزل

يتخيل انهُ يقرأ شعر امرىء القيس . وكان لعمر أثر كبير في الحياة الادبية في ذلك العصر فكان يعارض بعض الشعراء من معاصريه ، وكان يعارضه آخرون وكان يعنيه من هذه الخصومة قيمتها الادبية . والرواة يحدثوننا ان الحزين الكناني الشاعر لقي عمر وعارضه وهجاه وعيره باسوداد ثنيتيه او كسرها وقال :

ما بال سنيك أم ما بال كسرها أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكأس

ولكن عمر لم يرد عليه باكثر من اذهب ! اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ولسنا نعلم تماماً متى كان اول عهده بالشعر . وليس هناك اثر من الصحة للروايات التي تذهب الى ان اول قصيدة نظمها كانت :

أمن آل نعم انت غادٍ فمبكر   غداة غد ام رائح فمهجر

وانهُ انشدها لاول مرة امام ابن عباس عندما وفد عليهِ ابن الازرق . فقد كان وفود ابن الازرق حوالي عام ٦٠ هـ . وكان عمر عامئذٍ في السابعة والثلاثين من عمره . وقد نسب اليهِ شعر قيل في واقعة الجمل التي وقعت وهو في الثالثة عشرة من عمره ولم يكن هذا بغريب على شاعر مطبوع مثل عمر . ويظهر انهُ نظم في صباه وشبابهِ شعراً كثيراً غثًّا حتى اذا قويت ملكة الشعر فيهِ ونظم الشعر الجيد قال جرير ما زال يهذي هذا الشاب حتى قال شعراً

وهناك شطر من حياتهِ قضاه بغير هذا اللهو الذي عرف بهِ وقد غالى بعض الرواة فجعلوه نصف حياته بل اكثر من النصف ، ذلك ان عمر لم يجاوز السبعين من عمره . ولكن هؤلاء الرواة اطالوا عمره فجعلوه ثمانين ثم اشفقوا ان تنقضي هذه السنوات كلها في الاثم والمنكر فأتابوه بعد الاربعين وقالوا فتك (٤٠) ونسك (٤٠) وهو لذلك قد فاز بالدنيا والآخرة . والواقع انهُ لم يتب بعد الاربعين ولم يكن لهوه في سنواتهِ الاخيرة كلهو الشباب . وكل ما في الامر ان عمر لها ما امكنهُ ان يلهو حتى اذ فترت سورة اللهو بهِ بكى شبابه ثم كبر فاخذ ينصرف الى ما يقتضيه وقار الشيوخ من هدوء وسكون . ولعلهُ مال الى امور الدين فأثر ما اثر عنهُ من حديث

ولعل اخفى ما في تاريخ عمر موته . وهو شيء غريب فالرواة والمؤرخون قد عودونا ان يختلفوا في امر ولادة من يترجمون حياته لان احداً من الناس لم يؤت النبوة ليعلم ان هذا الصغير الذي يوضع سيكون له شأن . اما ان يختلفوا في ظروف موت شاعر طبق العالم العربي صيته فهو امر ذو بال . ولست ارى مجالاً لاسرد روايات موته المختلفة بالتفصيل فالبعض قد اماتهُ مجاهداً في دهلك (جزيرة في البحر الاحمر) وزعم ان عمر غزا في البحر مجاهداً فاحترقت سفينة وغرق شهيداً . ولعل صاحب هذه الرواية هو من هؤلاء الذين اشفقوا على عمر فاتابوه نصف حياته ودفعوه الى البحر غازياً ليستشهد وليفوز بالدنيا والآخرة

وزعم البعض الآخر ان عمر نظر الى امرأة جميلة شريفة في الطواف فذهب عقله فكلمها فلم تجبهُ فذكرها بشعره وقال فيها :

الريح تسحب اذيالاً وتنشرها   يا ليتني كنت ممن تسحب الريح

فبلغها شعره وجزعت منهُ وقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليهِ قوله فيك فقالت : كلاَّ والله لا اشكوه الاَّ الى الله ثم قالت اللهم ان كان نوَّه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح فضرب الدهر من ضرباته ، ثم ان عمر غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمي وورم به ومات من ذلك . ولعل اصحاب هذه الرواية هم من الذين شاؤوا ان ينتقم الله من عمر فاماتوه بدعاء امرأة شريفة حاول التعرض لها . ولو شئت ان اعدد اخبار من

ماتوا في التاريخ العربي بدعاء احد الناس عليهم لطال بي المقام

وهناك رواية لا تشير الى شيء صريح مفصل عن أمر موته ولعلها أقرب الروايات الى الصواب . قالوا لما مرض عمر مرضهُ الذي مات فيهِ جزع اخوه الحارث الخ . . . . . . وهذه الرواية ان صحت تشير الى ان عمر قد مات على البعيد في خلافة الوليد بن عبد الملك ويجب ان يكون قد مات من مرض لا من حادث مما ذكرنا . وهناك اخبار تشير الى انهُ كان آخر حياتهِ كالمقعد يتوكأ على مولى لهُ ولست ادري كيف يمكن لمثل هذا ان يغدو على فرسه او ان يغزو في البحر . ومهما يكن في الأمر فان عمر مات قبل السبعين

ولعلَّ للبرداء « الملاريا » أثراً في تهديم جسم هذا الشاعر الجميل ، فقد كانت تنتابهُ من حين الى حين وكانت أقوى نوباتها لهُ في رحلة ارتحلها الى اليمن بعيداً عن اهله فلم تفارقه ثلاث سنوات

ولعلهُ مات غريباً عن وطنهِ فاني لا أرى أعظم من هذا سبباً يدفع الرواة الى الاختلاف في أمر موتهِ . ذلك أهم ما في حياة عمر من جد الأمر وما كنت أظن ان الناس يلتفتون الى عمر لو اقتصرت حياته على هذا بل انا أعلم ان بعضهم لا يهمه من امر عمر سوى ما اشتهر بهِ عمر ألا وهو حبه وشعره

﴿ حبه ﴾: يزعم البعض ان عمر لم يحب بقلبه وانما أحب بعقله ولسانهِ . ويدللون على هذا بتعدد محبوباتهِ ويصرحون ان من أحب غير واحدة فقلبهُ لم يحب . وكنت اود لو كان المقام يتسع لي لأظهر فساد هذا المذهب ، ولكني أعلم ان كثيراً من الناس قد خفقت قلوبهم لأكثر من شخص . واذا كانت العوامل التي توقظ الحب وتحرك القلب وتوقد الحس وتلهب العاطفة قد وجدت في شخص فلست أرى ما يمنع ان يحب الواحد اكثر من شخص . ويتهمون عمر في حبه لأنهُ حضري لا بدوي ويدللون على ذلك في انهُ قلما صدق للحضريين حب او تبقى لهم صبابة وكل حضري يعلم فساد هذا القول

واذاً فرأيي انهُ ليس هناك من سبب يحملنا على اتهام عمر في حبه . فليس الحضريون مكذبين في عشقهم ولا المعددون خائنين في حبهم ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما ترك الحجاز وراء فتاة احبها الى العراق يشيعها ، ينزل بنزولها ويرحل برحيلها حتى ردا العراق فترجعه بالتي هي احسن ويعود وقلبه معها بعد ان وعدته الموسم القادم . ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما تزوجت الثريا وانتقلت الى بلد بعيد فانهُ لم يهجر حبها ولاسلا ذكرها بل سار وراءها يتلمس خطاها على اديم البيداء الفاصلة بين الشام والحجاز وكتب لها وقد بلغه فراقها متوجعاً :

كتبت اليك من بلدي ... كتاب موله كمد

كئيب وا كف العينين ... بالحسرات منفرد

يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد
فيمسك قلبـــه بيدٍ ويمسح عينـــه بيد

وارادت الثريا اختبار حبه فدست له من الطائف وهو بمكة من خدعه وانبأه انها ماتت فاعتلى صهوة جواده لساعته واستحثهُ الى الطائف وقد اقلقه النبأ وازعجهُ فرآها تنتظره وادركت انهُ المحب الامين

اما هذه العوامل التي كانت تدفع عمر الى الحب فتعددة شأنها اليوم وأهمها الجمال فقد كان مغرىً بهِ او على تعبيره الخاص موكلاً بهِ يتبعه انى رآه . وكان قلبه طوع هذا الشعور بالجمال فكان يخفق لهُ . ويظهر انهُ كان دقيق الحس في ادراك الجمال فلا يكاد يلمسه في وجه فتاة حتى يضطرب قلبه لهذا الشعور الذي غمره ولهذا النور الذي سطع لعينيه فيحاول في فنه ان يجلوه للناس كانما هو خاف عن اعينهم فهو والحالة هذه قد احب بحبهِ ثم بقلبهِ

ولم ار في كل اخبار عمر ذكراً لفتاة احبها الاّ وقد ذكر الرواة معه انها كانت من اجمل نساء دهرها . واذا كنت تريد معرفة عدد محبوبات عمر فليس عليك الاّ ان تعدد الجميلات في ذلك العصر ممن كان يمكن ان تقع عينه عليهنّ او يتصل به علمهنّ . واذا كنت تريد ان تعرف الجميلات في ذلك العصر فليس عليك الاّ ان ترجع الى شعر عمر فقد خلد ذكرهنّ بل لقد كان بعضهنّ يرينَ دليلاً على الجمال ان يذكرن في شعر عمر . ولقد اعترضت الثريا ذات يوم على شعر بلغها قاله عمر في امرأة يظهر انها لم تكن جميلة الوجه او الثريا كانت تغار منها فقالت : افٍّ لهُ ما أكذبهُ او ترتفع حسناء بصفته لها بعد اليوم !

ولقد شهر في تقديره للجمال الى درجة ان احتكمت اليهِ ذات يوم سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في أيهما اجمل فقال لعائشة أنتِ أجمل وقال لسكينة أنتِ أملح وأرضى كلتيهما

ويطول بي المقام لو فصلت لكم حوادث عمر مع من زعم ان لهُ علاقة بهنّ ، فهنّ كثر. وقد ذكر في شعره اسماء صريحة لاكثر من عشرين امرأة بعضهنّ من اشهر نساء الاسلام على الاطلاق . ويكفي ان اذكر منهنّ الثريا بنت علي بن عبد الله وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكنى باكثر من خمسين اسماً عن فتيات حيل بيننا وبين معرفتهنّ ولعل اصدق حب عرف عن عمر واقواه قد قسم بين ثلاث هنّ الثريا وعائشة وزينب بنت موسى الجمحية ، وقد افلتنَ من يده جميعاً فزوجنَ واعقبهُ زواجهنّ لوعة وحسرة . وقد كنى عن فتاة باسم نعم وكنى عن اخرى باسم هند وهما ان لم تكونا من النساء الثلاث اللواتي ذكرنا فقد شاطرتاهنّ قلب عمر . وقصص عمر مع حبيباتهِ من اجمل القصص وقد انتشرت في اكثر كتب الادب العربي وارجو ان يكون في كلمتي هذه حافز للقارىء الكريم ان يطالع هذه القصص الشيقة الممتعة

العقلي والمادي

في الفلسفة الحديثة

لفليمون خوري

من اهم القضايا التي اشتغل بها اهل الفلسفة منذ القديم ولعلها اهم تلك المسائل وأبعدها تأثيراً مسألة العقل والمادة . وان الفلسفة لا تزعم انها توصلت فيها الى حقيقة راهنة او رأي حاسم . الآ ان الفلاسفة في غضون معالجتهم هذه المشكلة الفلسفية تمكنوا من كشف النقاب عن حقائق هامة جدير بكل مثقف الاطلاع عليها والاستنارة بها اذ انهُ على معرفتها يترتب كثير من شؤون المرء ومعتقداته الخاصة

ان كثيرين ممن خاضوا عباب هذا البحث حتى من فريق الفلاسفة انفسهم توصلوا للاسف الى نتائج خبيثة كان لها الاثر السيء في حياة الذين أخذوا بتلك الآراء واعتصموا بتلك المبادىء ويعلم الكثيرون من اهل الاطلاع انهُ طغت على العالم الغربي في اواسط القرن الماضي موجة عظيمة من امواج المادية فاكتسحت ممالك الغرب من اقصاها الى اقصاها واغرقت كثيرين في عبابها واتصلت اطرافها بعد ذلك بقليل بالبلدان الشرقية فهوى كثيرون ايضاً في لججها ومن يعلم ما يكون من اخطارها المقبلة وعواقبها الوخيمة في مستقبل الايام

ولا غرو ان يكون الامر كذلك فان البشر كما يقول العلامة الفيلسوف الاميركي جِبْسن « لا يزالون تحت تأثير المنظور اكثر من غير المنظور وانهم ليأخذون بالمحسوس اكثر بما لا يقاس مما يأخذون بالمعقول »

لذلك لا يلام البعض من غير طلاب الحقائق اذا اقتصروا على القدر اليسير من المعرفة . ولكن يلام فريق المتنورين وطلاب الحقائق الكلية اذا وقفوا عند حد المادة ولم يتجاوزوه الى الامام بما اقرهُ اقطاب الفلسفة ورجال العلم بهذا الصدد بعد جهود القرون وتفكير الدهور . وان المراد بهذا البحث الاشارة الى كيفية تطور هذه الفكرة فكرة المادة والعقل والأدوار التي مرّت عليها منذ القديم الى يومنا هذا

معلوم ان فلاسفة اليونان وبنوع خاص الفيلسوف أريسطاطاليس كانوا قد قسموا عناصر الوجود الى قسمين عظيمين المادة والعقل . وهذا هو مذهب التثنية الذي لا يزال يقول بهِ الفريق الاكبر من الفلاسفة الى يومنا هذا . وهو يناقض مبدأ ديمقريطوس في الوحدة المادية . وديمقريطوس هو أبو الماديين وزعيم الفكرة التي لايزال عليها الماديون حتى اليوم . الاّ ان فلاسفة اليونان لم يحددوا المادة والعقل تحديداً جليًّا ولا فصلوا بينهما على النحو الذي قام بهِ الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ولهذا بقي الرأي القديم في المادة والعقل على شيء من الابهام الى ان قام ديكارت فحدّد كلاًّ منهما وميّز بينهما تمييزاً تامًّا اذ قال ان العقل يختلف اختلافاً كليًّا عن المادة بل هو نقيض المادة وليس ثمة اي مماثلة او تشابه بينهما — ان خاصة الجسم المادي الامتداد وخاصة العقل التفكير وكلاهما مستقل بدائرتهِ الخاصة ولا يمكن ان يكون بينهما شيء من التفاعل او العلاقة السببية . هذا هو رأي ديكارت على سبيل الايجاز الاّ انهُ لا ينطبق في بعض وجوههِ على الحقيقة الواقعة فالانسان اذا أراد تحريك يده مثلاً فانهُ يحركها في الوقت الذي يشاء وعلى الصورة التي يريدها . فهنا واضح ان شيئاً عقليًّا هو الارادة يفعل او يؤثر في جسم مادي هو اليد . اذاً كيف يمكن وقوع مثل هذا الامر والعقلي والمادي شيئان متناقضان حتماً وليس من علاقة سببية بينهما بوجه من الوجوه . ان هذا الامر أوقع ديكارت في حيرة عظيمة وكان مشكلة فلسفية زمناً طويلاً . وهي الحيرة التي جعلت فولتير يلقب نفسهُ احياناً بالفيلسوف الجاهل وكان يطربهُ ان يلقب نفسهُ كذلك . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة ويراسل بها بعض اصدقائهِ من اهل الفلسفة مثل ديدرو وغيره وهي « ما قيمة هذه الفلسفة التي لا تستطيع ان تعلمني كيف او لماذا احرك يدي »

***

وقد حلل الفلاسفة من اتباع ديكارت مثل مالبرانش وغالنكس وغيرهما هذا الامر بطرق مختلفة أشهرها الطريقة المعروفة بنظرية التقابل Parallelism ومؤدّى هذه النظرية ان المادي والعقلي كلاًّ منهما في دائرتهِ الخاصة مستقلٌّ عن الآخر . غير انهُ عند حدوث اي حركة في الدائرة الواحدة يحدث التأثير الذي يشاكلها في الدائرة الاخرى على سبيل التقابل . ولكن لا على سبيل ان حركات الواحدة هي علة الاحساس او التأثير في الاخرى بل ان كليهما يحصلان معاً باتفاق لا نستطيع ادراكهُ

ويمكن تمثيل ذلك بايقاع عدد من الاصوات المتتابعة والمتوافقة معاً فانهُ يقوم لكل صوت عند الايقاع معنىً خاص في الذهن . فلا يعلل ذلك بان الاصوات هي التي احدثت المعاني اذ

لا يوجد اي شبه بين الحركة الصوتية والمعاني العقلية . بل ان الاصوات والمعاني قامت في ذهن السامع معاً وذلك باتفاق غريب لا ندرك كنههُ وهذا هو المراد بنظرية التقابل هذه

بيد ان اهل الفلسفة لم يستطيعوا الوقوف عند حدود هذه النظرية اذ انهُ مع الاعتراف والتسليم بنظرية ديكارت من انهُ لا يمكن وجود اي تشابه في الماهية او في العمل بين المحرك او المؤثر المادي والعمل العقلي الاّ ان الصلة بينهما اكيدة وتأثير احدهما في الآخر لا يمكن نكرانهُ فالفكر يؤثر في حالة الجسم واحوال الجسم تؤثر كثيراً في الحالات الفكرية . اذاً لا بد ان يكون هنالك علاقة متينة لا مندوحة من التسليم بها او مخرج مشترك بين الاثنين يفسر هذا التفاعل بينهما وهذه الصلة القوية التي تربط احدهما بالآخر . وهذا ما ادى الى نظرية سبينوزا[1] الفيلسوف الهولندي صاحب المذهب الحلولي (Pantheism) وهي ان المادي والعقلي هما وجهان او مظهران للمادة الواحدة الاصلية العامة والتي ليست في ذاتها لا مادة ولا عقلا . ومؤدى نظرية سبينوزا هذه ان العقلي والمادي شيئان متلازمان ملتحمان . حيث توجد مادة فهناك عقل ايضاً فلا مادة بلا عقل ولا عقل بلا مادة . وان هذه النظرية هي ذات شأن خطير في عالم الفلسفة . وكثير من فلاسفة هذا العصر يرجعون اليها في معظم ابحاثهم . وكانت هذه النظرية في العصر الاخير بنوع خاص مذهب الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر والفيلسوف الالماني نخنر

اما الفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيرى ان جواهر المادة ليست الاّ مراكز قوة او مجموع قوى متعددة انما اذا اردنا تعريف هذه القوى فيقال انها روحية اكثر منها مادية لهذا فان ليبنتز يغلب العنصر الروحي كثيراً على المادي وقد كانت نظريتهُ هذه دعامة قوية لاصحاب المبدأ الروحي في الفلسفة

***

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نعدد آراء كل من اهل الفلسفة بهذا الصدد ولكن نقول بوجه الاجمال ان الاتجاه الفلسفي بعد عصر ديكارت وليبنتز وسبينوزا قد كان في جهة المبدأ الروحي وكان قد اخذ هذا المبدأ بالتقدم على المادي منذ وضعت نظرية التقابل المذكورة آنفاً فلم يعد ممكناً اعتبار القوة العقلية نتيجة من نتائج الحركة المادية او اثراً من آثارها كما يزعم اصحاب

(١) هو الفيلسوف الهولندي الشهير (١٦٣٢—١٦٧٧) صاحب مذهب الحلول المعروف باسمه Spinonizm

الرأي المادي . واستمرت هذه الفكرة في نمو وازدياد الى ان بلغ المذهب اوج سيادتهِ في النصف الاول من القرن الماضي في فلسفة الفلاسفة الالمان من كانت الى هيجل وفختي وشوبنهور . وكانت فلسفة هيجل وشلنغ بنوع خاص فلسفة عقلية محضة (Absolute Idealism) أي القول بوجود العنصر الروحي فقط دون المادي في الوجود

***

واذ نثبت هنا نظرية الفيلسوف الفرنسي فوّيه (A. Fouillée) ١٨٣٨ — ١٩١٢ وهو يريد بها التوفيق او الجمع بين الرأيين المادي والعقلي فاننا نعبر عن رأي الكثيرين من اهل الفلسفة في هذا العصر الاخير

يقول فوّيه ان الماديين يخطئون بزعمهم أن كل السرّ في الحركة المادية بصرف النظر عن العوامل الاخرى . كما يخطيء العقليون بجعلهم العقل الكل في الكل بقطع النظر عن العنصر المادي . ان العقل والمادة او الحياة والوجدان يعملان معاً في الطبيعة كمبدإٍ واحد شامل وما هما الاّ وجهان او طريقتان لادراك الشيء الواحد كالمعنى المفرد يدل عليهِ لفظان مترادفان . وما التأثيرات او الانفعالات العقلية الاّ مظاهر او نتائج لعوامل حسية مادية فنيًّا . اما الوجود العقلي فهو الحقيقة الواحدة التي اعطي لنا ان ندركها مباشرة . لهذا يحق لنا ان نفسر هذا الوجود على هذا النحو اي انهُ مظهر الحركة او النشاط العقلي او بانهُ قوًى فكرية فقط — Idées-forces

اما فريق الماديين فاذ كانوا لا يستطيعون التحول عن وحدتهم المادية لئلاّ ينتقض مذهبهم من اساسهِ فقد زعموا أن العقل ليس سوى نتيجة الحركة المادية في الدماغ وهي اهتزاز دقائقه وما الفكر الاّ وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة . بيد ان جمهور الفلاسفة لا يعيرون هذا القول التفاتاً ولا يحسبون لهُ قيمة فلسفية لانهم يرون ان زعماء هذا الرأي يعكسون الآية فيجعلون العقلي تابعاً للمادي بينا الامر على العكس من ذلك تماماً

***

أقول وليت أدباء هذه البلاد وأعني منهم الغارقين في لجج المادية يقتدون على الاقل بفلاسفة العالم فلا يحتمون ويجزمون بأمور هي فوق طاقة العقل البشري ان يبتّ فيها حكماً جازماً . ولا أخالهم ينكرون ان هذا الاغراق في المادية لهُ عواقبهُ السيئة في الآداب والمبادىء والاخلاق ولعلهم يذّكرون

أثر نيتشه

في العصر الحاضر

لابراهيم ابراهيم يوسف

ما كاد يبلغ نيتشه سن الرابعة والاربعين عام ١٨٨٩ حتى انتابهُ خبل عجز الطب عن علاجه ولم يمهله الله بعد ذلك الا قليلاً ليتوفاه . وهكذا لم يتيسر لنيتشه ان يرى بنفسه مبلغ ما أحدثتهُ كتاباته من أثر شامل في التفكير الانساني ، الا انهُ ما كان ليشك لحظة مدى حياته الخصبة في ان اليوم الذي تروج فيه تعاليمه آت لا شك فيه ، على الرغم من ان معاصريه أساءوا فهمه ونفروا منهُ ، فضنى لذلك . وقد عبر في مقطوعة من الشعر عن مرهف احساسه قال فيها :

« انقضى عشرون عاماً — »

« ولما تصلني نقطة ماء ، »

« أو نسيم بليل، أو ندى حب، »

« — بلد لا مطر فيها . . . »

وكتب في شهر فبراير ١٨٨٨ : «على الرغم من اني بلغت الخامسة والاربعين من العمر ولي نحو خمسة عشر مؤلفاً ، بينها كتاب لا مثيل لهُ هو «زرادشت» (Zarathustra) لم يتقدم شخص في المانيا لنقدها نقداً لهُ أي اعتبار ، بل ولا لنقد كتاب واحد من كتبي »

وكابد نيتشه صعوبات جمة ليجد ناشراً يطبع لهُ الجزئين الثاني والثالث من كتاب «زرادشت» واضطر لان يطبع أعداداً محدودة من الجزء الرابع على نفقته الخاصة ، بعد ان أحجم الناشرون عن قبوله . اما اليوم فالمطابع في المانيا تخرج مئات الآلاف النسخ من مؤلفاته في كل عام ، علاوة عن خطاباته التي نشرتها في ستة اجزاء . وكتبت شقيقته تاريخ حياته مفصلاً أروع تفصيل . وظهرت مئات الكتب تبحث في شخصيته وماهية تعاليمه ، ونشرت الجرائد والمجلات مئات الآلاف المقالات عنهُ . ذلك في المانيا وحدها التي تنكرت لهُ من قبل

هذا ما لقيهُ نيتشه من بعد وفاته عن طريق الكتابة والكتب ، اما عن طريق الخطابة فقد كان جورج براندس (Georg Brandes) الناقد الدنماركي العظيم ومؤرخ الادب العالي اول من حاضر عن نيتشه محاضرات عامة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ . وما اقبل عام ١٨٩٥ حتى بدأت المحاضرات العامة عنهُ تتعدد في مختلف البلاد . الاَّ ان المحاضرات الجامعية عنهُ لم تلق في المدارس العالية في المانيا الاَّ سنة ١٨٩٥ ، حيث بدأها الاستاذ اليوس ريل (Aloys Riehl) في جامعة فرايبورج (Freiburg) . وسرعان ما نحت الجامعات الالمانية هذا النحو ، حتى اصبحت المحاضرات عن نيتشه من المقررات الجامعية منذ ثلاثين سنة او يزيد . ولم يقف تيار هذه المحاضرات عند هذا الحد بل سرى في المانيا الى المدارس الشعبية العليا (Volkshochshulen) والمدارس الاهلية العليا (Freien Hochschulen)

كذلك ترجمت جميع اعماله لعدة سنين خلت بمختلف لغات فرنسا وانكلترا وبولونيا وايطاليا واسبانيا واليونان والسويد والدنمارك وهولاندا وروسيا وتشكوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليابان وغيرها. كما ظهرت في تلك البلاد كتب ومقالات لا حصر لها عن نيتشه . كذلك اصبحت المحاضرات الجامعية عنهُ في تلك البلاد امراً مألوفاً

***

اما مدى تطور الحركة التي اوجدها نيتشه فالرأي فيها منقسم الى وجهتين . فاصحاب المذهب الاول يرون ان الحركة قد بلغت عنفوانها في حياة نيتشه وهؤلاء ينظرون الى الحركة في شخص زعيمها . واصحاب المذهب الآخر يؤمنون بان الحركة لم تبلغ بعد منتهاها، اذ الاثر العميق لتعاليم نيتشه الصحيحة لم يبدأ بالظهور في التفكير الانساني الاَّ حديثاً . وما من احد توفر على درس ومتابعة اثر نيتشه في الاتجاهات الروحانية والفنية والثقافية والاجتماعية لعصرنا الحاضر الاَّ ويقر بان الحركة النيتشية ما زالت سائرة في طريق التقدم المضطرد . ونظرة واحدة الى عدد الدراسات العلمية الخاصة بابحاث في تعاليم نيتشه ، تلك الدراسات التي تتزايد عاماً بعد عام في كل بلد من البلدان المتحضرة ، لدليل على تغلغل آرائهِ في المجتمع الانساني. ولحسن الحظ آخذ في النقصان على توالي الزمن عدد الذين اساءوا فهم نيتشه فشوهوا تعاليمه ورموه بالغلظة والفظاظة . ومن ثم تجلى الفيلسوف نيتشه كافضل مدافع ضد الاستهتار وجموح النفس التي لا تعرف لها رابطاً ولهذا كانت حملته ضد الانانية والذاتية والاثرة شديدة قاسية قسوة لاهوادة فيها الى حد انهُ كان صارماً مريراً في نذيره ، اذ يقول :

« اتمنى للذين يرتاحون لدعوتي ان تنتابهم الآلام والامراض والمحن ويصابون بسوء المعاملة

والتحقير والانتباذ من الناس — امنى لهم احتقاراً يصيبهم في انفسهم ، وعذاباً يتولاهم لعدم الثقة بهم ، وان لا يحرموا من بؤس حالات طور الانتقال : لهؤلاء لا أحمل عطفاً ، لأني اريد لهم شيئاً واحداً يثبت ان كان للشخص منهم قيمة او لا — هنا تتبين القوة . قوة الصمد »

ولمثل هذا أسيء فهم نيتشه ، بل وانتهى سوء الفهم الى دوائر العلماء انفسهم فلم يفقهوا اذ ذاك نيتشه كناقد اخلاقي ، وداعية لمكارم الاخلاق ، اصيل في نبل تفكيره الا ان افراداً قلائل ملكت دعوات نيتشه الروحية الحارة عليهم كل مشاعرهم ، فراحوا يعملون لها

***

وكان نيتشه قد رأى ان الاسس الروحية للمجتمع قد اصابها التشقق وحل بها الانهيار وطرأ عليها التعفن ، فتنافت هذه الاسس البالية وطبيعة الحياة ومن ثم بدأ بالاستعداد لبناء ثقافة انسانية شامخة ، جديدة في كل نواحيها ، اساسها الاول كبح النفس دون هوادة ، وترويضها على اقسى حالات الحياة ، والخروج بها من ذاتيتها الى التسامي . واساسها الثاني الاستعداد المطلق للتضحية من دون شرط لبلوغ الغاية — اي البطولة في أقوى مظاهرها . وبقي ذلك كله شعار الذين يعتقدون فيما بينهم وبين انفسهم انهم المطالبون باقامة هذا البناء الجديد ، مقتدين في ذلك بامامهم نيتشه ، الذي تمكن بحياة البطولة الفذة التي عاشها ، ان يشق طريقه الى صفوف القلائل الذين أتوا للعالم بديانات جديدة . ومهما يكن مركزنا من تعاليم نيتشه فهي على اي حال تحوي عوامل غاية في القوة لتربية خلقية جديدة

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما انتجهُ سوء الفهم لتعاليم نيتشه من افكار تختلف بين الخطورة وعدمها . الا ان تفسير « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » (Der Wille zur Macht) تفسيراً خاطئاً جرّ كثيراً من الويلات على الناس . فقد فسرها مثلاً اعداء المانيا خلال الحرب العالمية بانها دعوة صريحة الى الحرب وغزو العالم . واشركوا الفيلسوف نيتشه مع المستعمر السياسي ريتشكة (Treitschke) والقائد العسكري فون برناردي (von Bernard) كدليل على ان الالمان بفلاسفتهم وساستهم وقوادهم الحربيين يبغون الحرب لامتلاك العالم . والغريب ان المانيا الهتلرية اخذت اليوم بما اخذ به اعداء المانيا خلال الحرب العالمية ولم تتورع في الاساءة الى نيتشه باظهار تعاليمه على غير حقيقتها . ولعل نيتشه لم يوصم بما هو اخطر من هذه الدعوى . واذاً « فالحاجة حقاً ماسة » — كما يقول الدكتور ماكس بران Dr. Max Brahn في مقدمة وضعها لكتاب « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » لمؤلفه نيتشه — « لكي نشير الى انهُ ليس من المقصود هنا القوة الظاهرية التي تتجلى في ادوات الحرب ، بل هي القوة الباطنية للنفس

البشرية ، تلك القوة الهائلة التي تأبى الاّ ان تتزايد ، ومن ثم تتوسع في سيطرتها ولا تمل في تنحية شجاعتها التي تتشعب قوية ثم تندفع بعظمة فتجد قوتها في سيطرتها على نفسها وفي اداء واجباتها نحو الآخرين »

ولنطرح تلك الدعاوى السخيفة التي ارادوا ان يلصقوها بنيتشه جانباً لنفقد اثره في التفكير الانساني ، سواء كانت ميادين هذا التفكير تشمل المسائل الفلسفية او الثقافية او الفنية او المسائل العلمية العامة . وسواء كانت المشكلة هي مشكلة التعليم او التربية أو الحركة النسائية او قانون الاقتصاص او المشكلة الاشتراكية — فكل هذه وغيرها من الامور يجدها العاكفون على دراسة نيتشه واضحة في كتاباته . ولعل الاستاذ دكتور فرنر ييجر (Prof. Dr. Werner Jaeger) قد افصح غاية الافصاح عن معالم تفكير نيتشه في محاضرة له تكلم فيها عن « عمل الجامعة وموقفها من العصر الحاضر » فذكر فيها : « اما فيما يختص بنشأة تاريخ العلوم العقلية وتطورها اللغوي فان شأنها يزداد على توالي الايام »

ولا حاجة لمعالجة كل مسألة على حدة ، اذ يكفي ذكر اسم نيتشه الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المدرسي القديم ، بل كان يفيض بالحكمة لما كان عليهِ من قوة التنبؤ ، نظراً لالمامهِ بكل نواحي التفكير العقلي لتاريخ العالم ، وخاصة المامه بكنوز الثقافات الاوروبية

ومع ان نيتشه نشأ خلال العصر اللغوي الكلاسيكي ، فانهُ ارجع اول تهدم عظيم اصيب به العصر اللغوي والعصر التاريخي الى الفلسفة المدرسية ، التي كانت لا تعرف قيم الاشياء الاّ عن طريق التعاريف الصماء ، لا عن طريق التفسير والايضاح لاساليب الحياة الواقعية اثناء تطورها التاريخي وقواها . فلما ان تبدل الرأي وتبدلت طريقة النظر الى الامور قضى الحال بتغيير مقاييس الاشياء وموازينها ، فتبدل تبعاً لذلك الحكم على الاشياء وتقدير قيمتها . ومن ثم بدىء بالنظر الى حوادث التاريخ والى الفن والادب من زاوية جديدة . ويكفي ذكر اسم الفيلسوف « اسفالد اشبنجلر (Oswald Spengler) صاحب كتاب « سقوط الغرب » (Untergang des Abendlandes) لنعرف مبلغ أثر نيتشه في العصر الحاضر . وما كان التفكير ليقود اشبنجلر الى مؤلفه الذي اثار بهِ ضجيجاً في عالم الفكر لو لم يحرص على اقتفاء خطوات استاذه وامامه نيتشه

ولعل احصاء ما لنيتشه من آثار في مختلف نواحي الفكر الانساني يستلزم استيفائها في مجلد ضخم . ولهذا يجمل بنا ان نكتفي هنا بالاشارة الى بعضها . فمن المشاهد ان العالم اليوم يتجه رأساً نحو المسائل الاجتماعية ، حتى اصبحت « مشكلة حياة الجماعة » لدى كل الشعوب المتحضرة رأس المسائل . ولا عجب ان تكون هذه اكثر المسائل تناولاً بالبحث ، واغناها بوفرة الذين

يتنافسون في دراستها ويتهافتون على استيعابها ، كيما يتمكنوا من تفسيرها ، وحلها ، والادلاء برأي في تكوينها ، وتصويب منهجها او تخطيئه ، وحصر عوامل نشأتها ، وشروط تطورها . وبالاختصار تحديد اصول الحياة الاجتماعية والتطورات الاجتماعية عامة واغراضها . ولقد نجد فيما اصدره ناشر اعمال نيتشه تحت عنوان « كلمات نيتشه عن الدول والشعوب » (Wietzsche-Woerten ueber Staaten und) كل الآراء التي بسطها نيتشه في مؤلفاته في هذا الموضوع الخطير . ويرجع فضل جمعها الى شقيقة الفيلسوف التي بقيت زهاء ثلاثين عاماً توالي درس نيتشه من جميع نواحيه . ولم يعد الامر مقتصراً اليوم على الاختصاصيين في معرفتهم ان الفضل في تقدم علم النفس (البسيكولوجيا Psycolohgie) وعلى الاخص « علم التحليل » النفساني على طريقة فرويد Freud Psychoanalyse راجع الى نيتشه ، الذي تمكن من العثور على نفائس هذا العلم اثناء بحثه عن الروح دون ملل ، وأثناء ارتياده « العالم السفلي للارواح . وانصافاً للعلم لا بدَّ من القول بأن فرويد (Freud) يعد وريث نيتشه الأوحد، وان الفرد آدلر (Alfred Adler) ، وهو صاحب مذهب في علم النفس احد تلاميذه النجباء . فقد رأى نيتشه في كتابه « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » صوراً خالدة في عالم الارواح

والى جانب هذا يزداد في كل يوم الدليل قوةً على ان حركات الشباب بما فيها من طموح الى تكوين الشخصية العملية ، أخذت تعترف بنيتشه كداعية لهذه الحركات ان لم يكن بطلها وقائدها . فهو الذي وجه منذ انتقاده مذ نصف قرن او يزيد الى طرق التربية . ورأى ان الحاجة تدعو الى ضم الشباب وحشدهم في أتون واحد بدلاً من تشتتهم في هيئات مختلفة . ولقد أخذ بهذا الرأي اخيراً في بلاد مختلفة ذات نزعات فكرية متباينة . ولسنا هنا في صدد بحث اختلاف اتجاه الشباب في مختلف الشعوب فذلك موضوع آخر .

***

واخيراً يصح لنا ان نتساءل كيف تمكن عقل شخص فرد من الاحاطة بكل هذه الافكار الخصبة خلال وقت قصير ؟

قد يكون هذا السؤال من صميم علم النفس في فصل التحدث عن العبقرية والعباقرة ، الاَّ انهُ لايضيرنا الاجمال في الاجابة بانهُ ليس كل الفضل في انتاجه هذا بقاصر على قوة التفكير الحاد الذي يسر لنيتشه الانتاج القيم في نواحي عدة من التفكير ، بل تعدو هذه القوة قوة اخرى هي قوة حيويته الروحانية الباطنية ، التي جعلتهُ يتشبث بالحياة ليطوي في ثنايا نفسه كل احتمالات الفكر والاحساس البشري ، ليبعث بها من جديد في حرارة وقوة ايمان تأخذ بالعقول والابصار

من الادب الروسي

المعطف ...!

للكاتب الشهير ن . ف جوجل
١٨٠٩—١٨٥٢

نقلها كامل محمود حبيب

هو كاتب مغمور في احد دواوين الحكومة لم يحبُهُ الله بميزة خاصة ، فهو قصير ، احمر الشعر ، ضعيف البصر ، أصلع ، مغضن الوجنات ، ممتقع اللون . . . ذلك هو أكاكي أكاكيفتش الذي لا يعلم أحد متى عيّن في وظيفتهِ ولا كيف كان ذلك . لقد كان ذلك منذ زمان حتى ليخيّل الى الناس ان هذا الرجل قد خلق — منذ ان كان — في هيئتهِ وجلستهِ وعمله . وكان الحُجّاب والخدم ينظرون اليهِ كما ينظرون الى ذبابة تتخبط في الهواء فلا يعبأون بهِ ، وكان الرؤساء يصبون عليه كثيراً من الظلم الهادىء في غير رفق وهو راضٍ ، والمساعدون يلقون أمامهُ حزم الاوراق قائلين « حبّر هذه من فضلك ! » أو « هاك عملاً مسلياً ! » او . . . فينشر هو هذه الاوراق أمامهُ صامتاً لا يرفع عنها بصره ، ثم يندفع في عمله . وكان الشبان من زملائهِ يهزأون بهِ ويتندّرون عليهِ ، ثم هم يتناولونه بالاقاصيص المضحكة ، يقصونها أمامه ومن خلفه في تبجّح ، فيقولون « ان صاحبة الدار العجوز تضربهُ ، وهو يحبها وسيتزوج منها . . . » ثم يسألونهُ عن يوم الزفاف ، ويقذفونهُ بقطع من الورق أو ببعض حبات الأرز وهو في مكانهِ صامت لا يتألم ولا يتململ ولا يغضب كأن الحديث لا يمسهُ . لم يكن هذا ولا غير هذا ليحول بين أكاكي وبين أن يندفع في عمله لا يتبلّد ولا يخطىء . وحين يجذبهُ أحد الماجنين من ذراعهِ لا يزيد على ان يقول « دعني وحيداً ! لماذا تريد ان تزعجني ؟ » يقولها في رنات تبعث في النفس الالم والشفقة ، والعطف في وقت معاً

لم يكن أكاكي أكاكيفتش مثلاً أعلى من أمثلة الجد في العمل والدأب والنشاط فحسب ، بل كان عاشقاً لما يعمل . فهذه الأوراق التي تنفث في روح الكاتب السأم والملل كانت تفتح أمام عينيهِ دنيا . . . دنيا جميلة مفعمة باللذاذات . وكان حين يجلس الى عمله ، يرتسم على وجههِ أثر السرور والغبطة ، فهو يبسم حيناً ، وحيناً يغمض عينيهِ ويحرّك شفتيهِ حتى يستطيع الناظر اليهِ أن ينبىء ببعض

ما يكتب . . . وقضى أكاكي عمره مغموراً بين أوراقه لا يتحول ولا يترقى ولا يكافأ وأراد أحد رؤسائه — ذات مرة — ان يرفعهُ فوق مرتبتهِ ، فبعث اليهِ بوثائق يحيل فيها قلمه ، فارتبك وأجهده العمل ، فردّها قائلاً « ألا تعطني بعض الوثائق لأحبرها . . . ؟ » فما كان له ان يحسن عملاً غير هذا . وهكذا كُتب عليهِ ان يظل في عمله الاول ما عاش

وسيطر على أكاكي حبهُ لما يعمل فشغله عما عداه . فأهمل ملابسه : فلقد حال لون بذلتهِ الخضراء الى آخر أربد زريّ ، و (زيقهُ) الضيق المنخفض تبدو خلالهُ رقبته طويلة رفيعة مضحكة ، وسترته قد تناثرت عليها أعواد القش وقطع الخيط هنا وهنا ، ثم هو لكثرة ما يضرب في الارض على غير هدى تسقط عليهِ الفضلات الملقاة من النوافذ فلا يزيلها، فتلصق بقبعته وملابسهِ . وكان هو على غير ما انطبع عليهِ زملاؤه ، فهم كانوا يحدّقون فيما يرون يلتمسون فيهِ لذة ومتعة ، أما هو فكان شارد البصر لا يثبتهُ على شيء . وأمام عينيهِ — وهو في طريقه — ورقة من اوراقه ما تبرح منشورة يريد ان يحبّرها فلا يحس انهُ في عرض الطريق الا حين يشعر بأنفاس حصان قوية تداعب وجههُ . وحين يخلو الى نفسهِ في حجرتهِ ، يجلس الى طعامهِ فيلتهم الحساء وقطعة اللحم واخرى من البصل لا يذب عنها الذباب او البعوض او .. مما يتهافت على مثل هذا الطعام القذر ، ثم هو لا يشغلهُ نوع الطعام ولا جودة الطهي ، ثم يقوم الى بعض وثائق يكتبها ، فان لم يجد فهو يكتب لنفسهِ وثيقة من نوع ما كتب في نهاره

وحين تنقشع غيوم سانت بطرسبرج وتبدو السماء زرقاء جميلة ، يخرج كل موظف يتناول عشاءه كلٌّ ينفق من سَعته ، ويطالب كل عامل الاستجمام ، فينطلق الجميع ينهبون اللذات يزجون بها فراغهم : فهذا الى ملهى ، وهذا الى الطرقات ، وهذا الى جماعة من صحابه يغازلون الفتيات أو يلعبون الورق او يملأون الدنيا ضجيجاً ، حين ينطلق كل هؤلاء الى التسلية والمرح تجد اكاكي اكاكيفتش جالساً في حجرته يحبّر ورقة ثم...ثم يذهب الى فراشه وهو يقول « ترى ماذا اكتب غداً ؟ » . تلك حياة رجل قنع بدريهمات ضئيلة تسد رمقه ثم هو لا يملك غيرها

***

وفي سانت بطرسبرج عدوٌّ لدود لكل رجل لا يبلغ دخله اربعمائة روبل في السنة ، ذلك هو الجليد المتساقط من الشمال . هذا ولو ان كثيراً من الشبان يقولون انهُ صحّي . وفي الساعة الثامنة صباحاً حين يهرع كل موظف الى عمله يكون البرد قارساً فينطلقون الى دواوينهم مهرولين وقد تلففوا في معاطفهم ، ثم هم يدفئون أرجلهم في حجرة البواب . أحسّ اكاكي اكاكيفتش — هذا الصباح — ان البرد ينصب انصباباً على كتفيه وظهره وهو يسرع الى عمله، فتراءى لهُ ان يد البلى قد عملت في معطفه، فراح يفحصهُ فوجد بهِ ثقوباً عند الكتفين والظهر . لقد كان معطفه

هذا مادة سخرية وهزء بين رفاقه، فهذه ازيقهُ ينقص رويداً رويداً الا انهُ يجتزىء منهُ ليرقع ثقوباً هنا وهنا ترقيعاً مهملاً وفي غير دقة . وحين رأى اكاكي من معطفه ما رأى بدا لهُ ان يعطيه الى بيتروفتش الخياط وهو أعور ذميم الخلق يدر عليهِ عمله ارباحاً ضئيلة لانهُ يصلح سراويل كثير من فقراء الموظفين وصغارهم ، وهو سكير عربيد، يفرط في السكر في ايام الآحاد والاعياد حتى يذهل عن نفسهِ

وانطلق اكاكي الى بيتروفتش وهو يحدث نفسه « ترى كم يريد مني بيتروفتش ؟ لن ادفع اكثر من روبلين . . . ! » لقد كان الباب مفتوحاً وزوجة بيتروفتش تطهي سمكاً وقد انبعث الدخان فانعقد سحباً كثيفة في نواحي المطبخ،فأظلم المكان ، ومرّ اكاكي في صمت فما شعرت بهِ المرأة ، وأزعج الرجل ان يرى بيتروفتش مضطرباً حزيناً وهو كان يأمل ان يراه هادئاً منتشياً لينال منهُ مأرباً . انهُ حين يكون كذلك يمعن في السهولة والتسامح فلا يطلب ثمناً ، ثم هو ينحني امام زبائنه ثم يشكرهم رغم ما يبدو على وجه زوجتهِ من غضب ، ان كانت هناك . وأراد اكاكي ان ينكص على عقبيهِ غير ان بيتروفتش كان قد سدد اليهِ نظره ، فقال « عم مساءً يا بيتروفتش ؟ » قال « عم مساء ، سيدي ! » قال « لقد أتيتُ . . . » واضطرب لسانه فما استطاع ان يتم حديثه ، فقال بيتروفتش « لنرى . . . » وأخذ يقلب المعطف بين يديه في امعان وأكاكي يقول « لقد أتيتُ ، يا بيتروفتش . . . المعطف . . . القماش — كما ترى — متين . . . ان الاقذار التي تراكمت عليهِ تركتهُ يبدو بالياً . . . ولكنهُ متين . . . هو ممزق عند الكتفين والظهر . . . » ما زال بيتروفتش يفحص المعطف ويهزّ رأسه ، ثم تناول حقة السعوط ينشق بعض ما فيها وقد القى المعطف جانباً . ونشر الخياط المعطف على عينيه مرة اخرى ثم القاه لينشق ثانية قليلاً من السعوط وهو يقول « لقد بلي القماش تماماً . . . » واستشعر أكاكي شدة الصفعة في قلبه « بيترفتش ، لماذا ؟ . . . انه ثقب صغير عند الكتف . . . لا إخالك تعجز عن ان تجد قطعة » . . . قال الآخر في هدوء « عندي قطع كثيرة غير ان القماش لا يحتمل الترقيع » قال « ولكنك تستطيع . . . ! » وأصرّ بيتروفتش « ان هذا القماش تعصف بهِ الريح الضعيفة اذا هبت عليهِ »

واستعطفهُ أكاكي « انك تستطيع ، يا بيتروفتش . . . » قال « مستحيل ، لا يمكن . . . واذا جاء الشتاء فزّقهُ قطعاً تغطي بها رجليك فأن الجوارب التي جاء بها الالمان الى بلادنا ليستلبونا من كثير من مالنا لا تدفىء ، اما المعطف فلا بد ان تشتري آخر جديداً »

وظلت الكلمة الاخيرة « جديداً » تضطرب في عيني أكاكي وقد امحى كل ما أمامهُ سوى حق السعوط وقد رسمت على غطائهِ صورة قائد عظيم ، الصقت الى جانبها قطعة من الورق . . . وانطلق يهذي « جديد ؟ انا لا أملك شيئاً ، واذا كان لا بد ، فكم . . . » قال بيتروفتش « مائة وخمسون . . . » ثم ضغط على شفتهِ وحدد الى الرجل الذاهل امامهُ بصره ليستشف

اثر هذه الكلمات في نفسه . فصاح اكاكي في فزع « مائة روبل وخمسون ثمناً لمعطف ! » لقد صاح . . . صاح اكاكي المسكين لاول مرة في حياته، لقد خرج عن هدوئه حين افزعته الصدمة . فأجاب بيتروفتش « نعم ، ولا اقل من ذلك ، ونوع أرقى يكلفك مائتي روبل » قال الرجل « بيتروفتش ، ارجو ان تبذل جهدك فأعيش بمعطفي هذا زمناً . . . » قال « لافائدة اعمل وادخر ! » خرج اكاكي حزيناً وبيتروفتش جالس يبتسم لانه استطاع ان لاينزل عن رأيه

***

سار اكاكي مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، ممتلخ العقل ، يحدث نفسه « هذا جميل ، حقاً ، انا لم افكر في انهُ يكلفني . . . كيف ؟ أهذه هي النهاية ؟ عجباً ! » ثم صمت برهة واندفع « عجباً ! من يستطيع ان يفكر . . . ؟ اي حادث هذا ؟ » واختلط عليهِ الامر فما سار الى داره . وبينا هو يضرب في الارض ذاهلاً انحط عليهِ دخان مدخنة ، ثم قذف عليهِ مكتل من الجص من منزل يتهدم ، وماكان هو ليشعر بهذا لولا ان الشرطي تهجم عليهِ بالفاظ قاسية ردت اليهِ بعض عقله ، فرأى ما حل بهِ، فانطلق مسرعاً الى داره . هنا . . . هنا في هذه الحجرة المظلمة استطاع ان ينشر على عينيه جملة حاله في هدوء ومنطق، فراح يحدث نفسه « انا لااستطيع ان اقنع بيتروفتش اليوم بما يجب ان يكون . انهُ . . . . لعل زوجته قد قست عليهِ . وسأذهب اليهِ يوم الاحد ، بعد مساء السبت العابث ، سيكون ثملاً ، لا هو بالنائم ولا هو بالمستيقظ ، ثم هو يكون في حاجة الى دريهمات يشتري بها قدحاً من خمر ، وزوجتهُ تأبى عليهِ ذلك ... » وفي يوم الاحد التالي انطلق اكاكي يرقب دار بيتروفتش عن كثب، وحين رأى زوجتهُ تغادر الدار ، دلف هو الى بيتروفتش ليراه ثملاً غير انهُ استطاع ان يذكر ما يريد صاحبهُ « ألا تستطيع ؟ يجب ان تشتري آخر جديداً ... » فوضع اكاكي في يد صاحبه بعض دريهمات ، فقال هذا « شكراً لك ياسيدي سأشرب نخب صحتك ، لا يزعجك امر المعطف . سأصنع لك معطفاً جديداً ، انت تستطيع ان تطمئن الى ذلك ، سأبذل جهدي . سيكون معطفك الجديد من أحدث طراز . . . »

وطرب اكاكي لما سمع ، ولكن أنى له المال ؟ لقد ادخر اربعين روبلاً في سنوات ، فكيف يدفع ثمن المعطف وهو يحتاج الى سراويل جديدة وثلاثة قمصان ، والحذاء من ورائهِ يتبعهُ يريد منه ديناً قديماً . ماذا تفيد الدريهمات القليلة التي ادخرها ؟ وانتهى بعد حين الى امر : سيخفض من نفقاته مدى سنة. فألغى شاي المساء ، واستغنى عن الشمع، فاذا اضطر الى عمل في الليل انطلق الى صاحبة الدار يعمل ما يريد على ضوء مصباحها ، وهو يسير على اطراف اصابعه خشية ان يبلى الحذاء ؟ ثم هو يخلع ملابسهُ الداخلية عند النوم لتظل نظيفة فيدخر ما كان ينفقهُ في غسيلها وشق هذا على نفس الرجل — بادىء الامر — ثم خف رويداً رويداً ، واستطاع ان

يقضي بعض الليالي طاوياً ، ثم هو يبدو ميسراً طروباً كأن صديقاً يرافقهُ يسرّي عنهُ بعض ما يؤلمهُ ... ذلك هو خيال المعطف الجديد . وترقرق ماء الحياة في وجهه لأنهُ اصبح يرمي الى غرض جميل في الحياة . . . ذلك هو المعطف الجديد وتوارى الشك والاضطراب من دنياه لتطوف برأسهِ الافكار السارة ، تبعث في نفسهِ النشوة والطرب ، وتلمع بهما عيناه . وشغلتهُ الفكرة فأخطأ بعض مرة فيما يكتب، ولكنهُ كان يرتدالى خطئهِ يصلحهُ وهو يقول« اوه ...!» ثم هو يختلف الى بيتروفتش كل شهرمرة يحدثهُ حديث المعطف ... ومرت الايام سراعاً تحمل له على جناحيها بشرى . . . بشرى جميلة : لقد زاد راتبهُ عشرين روبلاً . أكان ما عمل الرئيس عن علم بما هو فيهِ ، أم هي المصادفة الجميلة ؟ ومهما يكن الامر من شيء ، فهو الآن يستطيع ان يستحث الخياط حين يدفع له شيئاً . . . وبعد اسبوعين احضر بيتروفيتش المعطف الجديد . ما أجمل ذلك الصباح الذي رأى فيهِ أكاكي معطفهُ الجديد ! لقد كان البرد لاذعاً ، والسحب تتكاثف تنبيء بانقلاب عظيم . وأثبت بيتروفتش — بما صنع — انهُ خياط ماهر يستطيع ان يحيك فيجيد كما انهُ يستطيع ان يرتق فيحسن، ثم ألقى المعطف على كتفي أكاكي وهو يبسم ابتسام الظافر ويقول «ما أجمل ، ما أجمل ! » وحين استقر المعطف على كتفي أكاكي دفع عشرين روبلاً وانطلق الى عمله يردد بصره في المعطف بين كل خطوتين وهو يبسم في قناعة ورضا لانهُ احس بالدفء والغبطة في وقت معاً ، اما بيتروفتش فقد تبعهُ عن كثب يستمتع بلذة النظر الى صنعتهِ التي رفعتهُ من راتق مهين الى حائك ماهر . وبلغ أكاكي ديوانه فخلع المعطف وأعطاه للبواب وهو يوصيه ويحذره . وما لبث الخبر ان دوى بين زملائه فاندفعوا يهنئونهُ وهو يشكرهم ويبسم لما يقولون ، وتقاطروا عليهِ فبدت عليهِ الحيرة فما استطاع ان يقول شيئاً . وانتشلهُ زميل قائلاً لا بأس ، انني ادعوكم الليلة الى منزلي احتفاءً بمعطف أكاكي الجديد ، وعجيب ان يكون هذا اليوم هو عيد ميلادي

***

وحاول أكاكي الامتناع فأراده اصحابه على ان يذعن ، وسُرّ هو حين وجد الفرصة تسنح فيستطيع ان يرفل في معطفهِ الجديد هذا المساء بين زملائهِ . وحين احتوتهُ حجرته أخذ يلتهم طعامه وهو يقلب بصره بين معطفه الجديد ومعطفه القديم ويبسم . . . لم يجلس — بعدهذا — الى اوراقه يحبرها ، ولكنهُ استلقى على فراشه ينتظر المساء . . . وحان الموعد فانطلق يقطع طرق الناحية التي يسكن فيها وهي ضيقة مظلمة قذرة ، وحين اقترب من دار صاحبهِ رأى الحياة تدب في العالم : فالطرقات واسعة تسطع في نواحيها الانوار ، والناس يجيئون ويذهبون في نشاط ، والعربات تنطلق هنا وهنا ، فراح يحدّق في كل شيء في دهشة ، فهو لم يرَ شيئاً من

هذا منذ سنوات . والفى دار صاحبه جميلة تنبعث منها الاضواء ، وولج الردهة الواسعة المزدانة فاختلطت الاصوات في مسمعيه ، ورأى الخادم ينطلق من الحجرة المجاورة يحمل الاقداح الفارغة ، فعلم ان رفاقه قد تناولوا اول اقداح الشاي . واستطاع اكاكي — وقد اذهله ما رأى — ان يخلع معطفه ويضعه بهدوء على المشجب ، ثم هو يدلف الى الحجرة ليرى صحابه في ضجيجهم ومرحهم ، وليرى الشموع متناثرة حول نضدلعب الورق فيقف مضطرباً ... وأحس صاحب الدار بالزائر يدلف الى الحجرة فانطلق اليه يحييه ويلتمس له مكاناً فالتفت الجميع يرحبون به ، ثم ما لبثوا ان عكفوا على ورقهم وهو يتأمل فيما يصنعون . ومرت الساعات فسرى التعب في مفاصله ليتركه نائماً او كالنائم . وأراد ان يخرج فاضطره رفاقه ان ينتظر ليتناول قدحاً او قدحين من (الشمبانيا) فأذعن والزمن يمر . . . وخشي أن تغلظ عليه صاحبة الدار في اللوم فانسل من بين صحابه يطلب المعطف ، ثم انطلق . . .

لقد ابتدأت الحياة تغمض اجفانها في هذا الحي الصاخب وهو يسير وئيد الخطو نشوان ثم ما لبث ان هبط ناحية ماتت فيها الحياة فلا هو يرى ضوءاً ، ولا هو يرى انساناً . وبدا الظلام في عينيه اسود مظلماً وقد نشر الضباب جناحيه ليزيد الظلام حلوكة . ورأى — وهو يعبر ميداناً هناك — بصيص نور مصباح الشرطي كأنهُ في اقصى الارض وهو على بضع خطوات منهُ . وتراءى له — وقد اضطربت اعصابه وزلزلهُ الرعب — ان يغمض عينيه وهو يعبر الميدان ، وحين فتحهما ليرى مكانه من نهاية الميدان وجد امامه رجالاً مقنعين يقتربون منهُ ففزع ، غير ان واحداً منهم انقض عليه وهو يقول « هذا معطفي ! » واراد ان يستصرخ الشرطي فكممه آخر باحدى يديه وهو يقول « افتستطيع ان تفعل ؟ » وأحس اكاكي بالمعطف يستلب منهُ ، وشعر بركلة تدحرجهُ على الثلج في قسوة فتفقده صوابه وحين افاق استشعر لذع البرد في جسمه فأيقن انهُ قد فقد معطفهُ الى الابد فصاح ولكن صوتهُ المبحوح ما كان ليصل الى اذني الشرطي الواقف هناك ، فانطلق هو اليه مغيظاً يغلظ لهُ في القول على ان يسلب معطفه وهو نائم على بضع خطوات منهُ . واجابهُ الشرطي في هدوء « انا لم ارَ غير اثنين يمران قريباً منك ظننتهما بعض اصدقائك . وانا لا استطيع ان اساعدك فلتذهب في صباح الغد الى الضابط لعلهُ يستطيع ان يجد لك معطفك ! »

وبلغ اكاكي منزله مهموماً يضطرب وقد تشعث واغبرّ . ووقع نظر صاحبة الدار عليه ففزعت مما رأت ثم راحت تسألهُ فانطلق هو يحدثها حديث المعطف المفقود ، فنصحتهُ بأن يلجأ الى مفتش عرفتهُ نشيطاً يقظاً وهو يستطيع ما لا يستطيعه الشرطي والضابط معاً ، ووجد هو فيما قالت حلاً لما اضطرب في خياله ، ولكنهُ قضى ليلته قلقاً يتقلب في فراشه ما يهدأ ولا يستقر . . . ثم بكّر الى المفتش فألفاه ما يزال نائماً ، وعند الحادية عشرة وجده قد غادر المنزل ، وعند الغداء

اراد ان يرى المفتش فمنع ، وكان صبره قد نفذ فاندفع هائجاً يقول انهُ قد جاء من لدن أحد الدواوين الاميرية في امر خاص ولا بد ان يرى المفتش . . . هناك جلس يقص قصة المعطف المسلوب . وبدل ان يعنى المفتش بأمره راح يسأله « لماذا تأخرت في الرجوع الى دارك ؟ هل كان المنزل الذي قضيت فيهِ ليلتك سيء السمعة ؟ . . . » واضطرب اكاكي لما رأى من اهمال امره فخرج من لدن المفتش لايدري ماذا . . . ؟ لقد غاب عن عمله لأول مرة في حياتهِ . وفي اليوم التالي بدا في معطفهِ القديم حزيناً ممتقع اللون ، زريّ الهيئة

ولمست قصة المعطف المسلوب قلب كل زميل له في شدة وعنف ، وان كان بعضهم قد خرج عن انسانيته حيناً فتندر عليهِ ثم اجمعوا امرهم على ان يخرجوا جميعاً لاكاكي عن بعض مالهم وهزّت الشفقة واحداً منهم فراح ينصح له ألاَّ يركن الى الشرطة والاّ يطمئن الى وعودهم فهم لا يستطيعون شيئاً ، غير انهُ يستطيع أن يلتمس المعونة عند رجل عظيم سماه له ... عظيم من عظماء المدينة لا نستطيع ان نقول باسمه او ان نشير الى مركزه ، وكل ما نستطيع ان نقوله إنهُ عظيم درج في مناصب الدولة .إنهُ يستطيع ان يساعد المسكين غير ان منصبه ...

قد يظن الرجل ان مظهر العظمة هو العظمة ، فيريد الناس على احترامه ويضطر مرؤوسيه ان يحيوه في خضوع وذلة ثم هو لا يسمح لمظلوم ان يلج حجرته او ان يرفع اليهِ شكاته دون واسطة ليبدو في الاعين عظيماً وتسري العدوى فيمن هو أقل منهُ فيقلده فيصبح العمل صورة من عمل ، ويذهب الضعيف ضحية العظمة الكاذبة ... وهكذا اراد صاحبنا ان يبدو عظيماً فقسا وقسا ... القسوة الجامحة العمياء ، فساد عمله جوٌّ من القسوة لتلد النفاق والخداع في رؤوس مرؤوسيه وعملهم حين سكن الرعب في قلوبهم ، فهم اذا رأوه يدلف اليهم قاموا اليهِ في ذلة وخضوع يحيونهُ ويتملقونهُ ، فاذا غادرهم سلقوه بألسنة حداد . وهو . . . هو العظيم ما كان ليبدأ محدثه الاّ بالفاظ جافة نابية « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً من هو الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » لقد كان طيب القلب رقيقاً يعطف على اصحابه ويحسن اليهم غير ان منصبه (العظيم) قد عصف بانسانيتهِ وأريحيتهِ . وهو بين زملائهِ رجل لا يعدو عن ان يكون رجلاً ، وهو بين رؤسائهِ ومن يرتفعون عنهُ درجة واحدة ذليل خاضع لا يستطيع ان ينطق حرفاً . هنا وهنا فقط هو رجل ضعيف خامل يستثير الشفقة . والرحمة في القلوب الصلبة . لقد كانت نفسهُ تحدثهُ بأن يندفع في الحديث وان يغشى المجتمعات يرفهُ عنها بعض ما ينالها من عناء العمل ، ولكنهُ كان يخشى ان يغض من هيبته فيصمت ويستكين وينزوي في داره . لهذا ولهذا وحده بدا فيهِ الرجل الصعب الشديد

هذا هو الرجل العظيم في بلادنا ،ولمثل هذا الرجل المطلق اكاكي يطلب الانصاف والعدل.

لقد وجده في حجرته يجلس الى صديق قديم يحدثهُ ، فطلب الاذن بالمثول بين يديهِ لينفض امامه جملة حاله ، وحين علم العظيم طرفاً من امره، قال « من يكون هذا ؟ » قال الحاجب « هو موظف في احد دواوين الحكومة يا سيدي . » قال القائد العظيم « فلينتظر ، فانا لا أقابل احداً الآن » لقد كذب الرجل العظيم . فهذه هي الساعة التي يستطيع ان يقابل فيها هذا الرجل المسكين وغيره . ولبث المسكين طويلاً ينتظر . ودخل كاتم سر القائد العظيم يتأبط حزماً من الورق ، فقال لهُ « ان كاتباً ينتظر هناك ، فدعهُ يدخل » وحين وقع بصره على أكاكي قال له في قسوة « ماذا تريد ؟ » وبدا اكاكي الجبان ، جباناً يرتعد فما استطاع ان ينشر القصة الا في صعوبة . . . وتمثلت الاهانة والاستهتار في عيني القائد العظيم تحملان اليهِ على لسان رجل ضعيف جاء يحمل شكاته ويستعينهُ على امر اهمهُ ، فقال في غلظة وجفاء « سيدي ، ألا تعلم الطريق الذي يجب ان تسلكهُ لتبلغ ما تريد ؟ لماذا جئت تنشر قصتك امامي مباشرة ؟ الا تعلم ان شكايتك لا بد ان تقدم اولاً الى رئيس الكتبة ، ومنهُ الى رئيس العمل ، ومنهُ الى كاتم سري ، وفي النهاية تصل اليّ ؟ » واستطاع اكاكي ان يتماسك « لقد آثرت ياسيدي — ان اعرض عليك امري دونهم لأنك وحدك تستطيع ان تعطف عليّ ، اما هؤلاء جميعاً فهم . . . هم اناس لا غناء فيهم ... ! » قال العظيم في غيظ وحدة « ما ذا ؟ ما ذا تقول ؟ ألمثل هذا أتيت؟ أنى لك هذه الخواطر ؟ أبهذه ، العين تنظرون ، انتم صغار الناس ، الى رؤسائكم » واستمر في ثورته « أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت أمامه ؟ »ثم دق الارض برجله في شدة وكانت كلمات الرجل كأنما تصفعهُ هنا وهنا فذهل فترنح يكاد يهوي الى الارض لولا ان حملهُ البواب في ذهوله الى خارج الحجرة . وابتسم القائد العظيم لما احدثتهُ كلماته القاسية من أثر في نفس المسكين ، وابتسم مرة اخرى حين رأى سمات الرعب تبدو على وجه صاحبه الجالس الى جانبهِ . . . هذه هي العظمة في رأس العظيم الأحمق . . .

لقد سقطت كلمات العظيم على اكاكي المسكين رجوماً رجوماً تفقده رشده ، ولكنهُ استطاع ، بعد لأي ، ان يتكفأ في طريقه الى الدار مستنداً الى جدار والرياح تتناوحهُ ... رياح سانت بطرسبرج الباردة ، فما بلغ الدار الا وقد اصابهُ النصب وآذاه البرد فانطرح على فراشهِ لا يعي . . . واشتدت وطأة المرض فانقلب حمى راجفة تعرك الرجل عركاً ، وجوّ سانت بطرسبرج القارس المتقلب يقويها ، والذين الى جانبه يفقدون الأمل رويداً رويداً . وأسرع المريض المسكين الى نهايتهِ وهو يهذي « المعطف . . . سيدي القائد . . . بيتروفتش . . . المعطف . . . ! » ثم تنفس النفس الاخير . مات الرجل لا يملك شيئاً ولا يجد من يحنو عليهِ سوى صاحبة الدار العجوز ...

لقد انطوت صفحة أكاكي أكاكيفتش دون ان يشعر بهِ انسان في سانت بطرسبرج

ومضت اربعة ايام وجاء الحاجب يريد أكاكي لأن الرئيس قد أصرّ على عودتهِ ، ولكنهُ ارتد الى رئيسهِ يحمل خبر موت الرجل . . . هكذا علم زملاؤه إن واحداً منهم قد مات . . .

***

من ذا يستطيع ان يصدق أن هذه لم تكن نهاية أكاكي أكاكيفتش ، وانهُ قد قدّر لهُ ان يبلغ أوج الشهرة بعد موتهِ ؟ لقد برزت روحه الوادعة هائجة تريد ان تنتقم ، وطار الخبر : ان شبحاً يتربص بالناس عند قنطرة كالنكن ، ينتزع منهم معاطفهم ، لا يفرق بين كبير وصغير . لقد رأى احد زملاء أكاكي في هذا الشبح أكاكي نفسه ، فاضطرب وذعر وفرّ هارباً والشبح يتهدده . واضطربت المدينة جميعاً ، فأصر الشرطة على أن يقبضوا على الشبح ويعاقبوه ليكون مُثلة وعظة و . . . واستطاع شرطي أن يلبّب الشبح وهو يستلب معطفاً من صاحبهِ ، وهو حين فعل صاح ينادي بعض رفاقهِ ، فأدركه شرطيان ليعاونانه ، وحين أمسكا بهِ أطلقهُ الاول لينشق بعض السعوط . ولكن الشبح استطاع ان ينثر ما في حق السعوط ، في أعين الثلاثة وانطلق هو . . . انطلق ليبعث الرعب في قلوب الناس . . .

أما الرجل العظيم . . العظيم الذي قسا على أكاكي فقد أحسّ بالشفقة تستيقظ في قلبه بعد ان خرج أكاكي من لدنه ، ولكن منصبه أراده على ان يكتم بعض ما يختلج في فؤاده ثم شعر بالندم يحز في قلبه فأرسل الى أكاكي ، وارتد الرسول ينبئهُ بموت الرجل فساورته الافكار السوداء وأراد هو ان يدفعها عن نفسهِ فانطلق الى دار صديق ليخرج عن رزانتهِ عمراً من عمره . لقد كانت ليلة جميلة وأصدقاء ظرفاء ، ذاق فيها حلاوة السمر ، ونعم بلذة الشراب والطعام . . . ثم خرج في نشوتهِ يريد صديقته ايفان ايفانوفا ليستمتع منها بلذة اخرى ، وليتذوق حلاوة ثانية ، فهو كان يحبوها بكثير من فراغه ومن قلبهِ رغم انهُ كان أباً وزوجاً كأحسن ما يكون الاب والزوج . وحين اطمأن العظيم في مركبتهِ تدثر بمعطفهِ الثمين وجلس منتشياً طروباً والمركبة تسير . . . ومضت فترة احسّ بعدها الرجل ان يداً تجذبهُ في عنف ، فنظر فرأى الكاتب المسكين في معطفه البالي . . . انهُ هو ، هو اكاكي اكاكيفتش . . . ! فزلزل الرجل العظيم وامتقع لونه ، ورنّ في اذنيه صوت مرعب «هاها ، لقد استطعت ان اعثر عليك في النهاية ، انه معطفك الذي اريد ! لقد ابيت ان تساعدني ، فالآن تخرج لي عن معطفك عن يد » لقد كان القائد صعباً قاسياً يعتز بقوتهِ وصلابة عضلاتهِ ، اما الآن فقد ارتجف وسيطر عليهِ العجز والخور فخلع معطفه وهو يقول للسائق ، « الى الدار ، الى الدار ، اسرع ! » . وذهل القائد العظيم عن نفسه فراح يهذي « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » واهله يعجبون مما يسمعون . اما الشبح فقد اختفى فما عاد يستلب الناس من معاطفهم

فوست العصرية

او يوم في صحبة الشيطان

لرسلان عبد الغني البغني

شخصية فوست من الشخصيات الخصبة التي عالجها المفكرون في غير عصر واحد فالشاعر الانجليزي مارلو Marlowe منافس شكسبير كتب في القرن السادس عشر مأساة فوست فلبثت حيناً من الدهر تتلى على الناس حتى أنشأ الشاعر الالماني العظيم (جيتى) مأساتهُ فجرّت عليها ذيل النسيان. وليست شخصية فوست وليدة الخيال من خلق شاعر بذاته ولكنها شخصية انسان ولد وعاش في القرن السادس عشر وما هو الاّ جان فوست الذي تلقى دروسهُ في جامعة هيدلبرج ثم ولع بعلوم السحر فتعلمها وعمل بها (ومع اعترافي بأن المأساة التي وضعها جيتى الفيلسوف قد كفل لها الخلود وان اليد التي اسداها المترجم الفاضل الدكتور محمد عوض محمد للناطقين بالضاد تذكر فتشكر وتغبط ولا تغمط الاّ ان فيها تعقيداً وابهاماً وتفككاً وانقساماً وأدباً جافاً ينفر القارىء ولا يستهويه) ولكن الصورة الجديدة التي يقدمها في لباقة الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتينجنان في ثوب قصصي أخاذ مع تصوير قوي خلاب وأدب عذب مساغ يجعل في القصة — بله ما حوت من موضوع فلسفي جدير بالدرس قصصاً عذباً محبباً الى النفس وجمالا فنيًّا يستهوي الحس ويكفل للقارىء لذة ليس وراءها لذة ومتاعاً ليس يشبههُ متاع

وليس فوست الاّ الانسان الذي يجد ويبحث في ظلمات هذا الكون يؤمهُ الشك ويعشي في أثره القلق لانهُ عاجز عن ان يكشف الغطاء عن سرّ حظهِ المقسوم ، والذي ان حاولتْ ان تضله الانانية أو يضنيه الكبرياء عصمهُ الحب وحماه الايمان

يوم في صحبة الشيطان (١)

— ١ —

انتصف الليل او كاد . والفيلسوف (فاوست) لم يزل يتلو في اسفاره على نور مصباح ضئيل وكان من دأبه ألاّ يجنح الى النوم قبلما ينصرم من عمر الليل نصفهُ . وبغتة طرق الباب طارق . فكف الفيلسوف عن القراءة ولبث برهة ينظر ناحية الباب .... ثم نهض واقفاً ، ومشى متثاقلاً ولما فتح الباب صاح صيحة دَهَش (اليزابت ! ماذا حدث يا ابنتي حتى طرقت مسكني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟)

أجابت الفتاة بصوت منطوٍء (آه أيها السيد . أمي . ملاذي الوحيد تحتضر . ليس لنا أمل الاّ فيك . اذهب معي بربك ورد اليها الحياة) . وبكت الفتاة في حرقة فأخذت الشيخ عليها رقة ورحمة ... لقد حصد الطاعون الانفس كما تحصد المناجل سنابل القمح أسر الفيلسوف الى نفسه (مسكينة اليزابت . انها كبيرة الايمان بعلمي . فأنّى لي ان اصارحها بأن رأس مالي العلمي وهمي مزعوم وأنني كأجهل مخلوق لفظتهُ الغابة

(عاجز وابن عاجز وذو نسب في العاجزين عريق)

وألحت الفتاة على الشيخ وقد تباطأ وهوت على يديهِ فقبلتهما .. (لسنا ذوي سعة أيها السيد ولكننا نستطيع ان ندفع لك ثمن الدواء)

ومدت اليهِ يدها بدراهم معدودات كانت الصبابة الباقية من مال أمها النزر

فقال لها الشيخ (بل احفظي عليها دراهمك فليس لدوائي ثمن وما أنا بمتخذ عليهِ أجراً)

وعاد فاوست المريضة في كوخها وقد حمل معهُ قنينة دواء ... وتقدم منها فرفع رأسها بيد ترعشها الشيخوخة والخوف . وأدنى من شفتيها كأس الدواء ، وفتحت المسكينة عينيها في شق ولما أبصرت الفيلسوف تجرعت الكأس التي قدمها اليها في ثقة وأمل

ومضت دقائق . وفاوست يرمق المرأة في صمت وقلب اليزابت يعلو ويهبط وبغتة استوت الام في فراشها الاّ قليلاً وارسلت أنة عالية تمزق لها قلب ابنتها ودل اتساع عينها والتواء ثغرها على ما كانت تعانيه من ألم . ومشت الرعدة في جسمها فسكنت لحظة .ثم هوت رأسها على وسادتها في عنف . وأسلمت الروح ! . وطفقت الفتاة اليتيمة تصرخ كأن أفعى لدغتها . وتراجع فاوست في ذعر . ورمى بالقنينة وانسلّ من المكان عجلاً ، كمن أتى أمراً إدّاً !

ولما آب الى كنه ارتمى على مقعده يلهث من النصب .. وتمتم قائلاً

(لو رد دوائي اليها الحياة لما استطعت أن اقول لماذا ... وقد قضى عليها وما أدري السبب.

(١) مقتبسة عن رواية فوست التي وضعها الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيتجنان Petithuguenin

وهكذا ظهر لي أن ما كُنتُ ادعيه من علم باطل لا محالة. فيالي من أحمق! لقد أضعت شبابي بين دفات هذه الكتب وكان في مقدوري ان اتذوّق لذائذ الحياة ومتعها. وضحك الفيلسوف ضحكة مرة

(أهذه دنياي؟ تل من ورق! وحزمة من أقلام! وقنان من حبر! وقنان من سم!

بدلاً من ان انشد الحقيقة في الطبيعة نفسها. في مروج خضراء الجلباب، ورياض مزدهرات رحاب، وجنات من نخيل واعناب، وأشهد الجبال في الشتاء مشتعلات الرؤوس، وأنعم بالشموس وليدات يدللهن الفجر، وعذراوات يغازلهن الضحى، وبالاطيار غريدات على افنان الشجر، واخطار في هدأة الليل على شطآن النهر، أشهدها راقصات على انغام القمر، وأنعم في طلاقة ورُحب بنسائم الربيع العلائل، محملات بأريج متضوّع، انفاساً زكية تصاعدت من القلوب الشاعرة العاشقة فامتصتها الأزاهير واختزنتها زماناً، حتى اذا تفتحت أكمامها نشرتها في الربى عطراً. . . . وبدلاً من أن أنشدها في الانسان. في صداقة الرجل. في حب المرأة. أخدع نفسي فأضللها بين هذه الأسفار التي كتبها أناس حمقى ليقرأها أناس أشد حمقاً

فإلى النار! إلى النار! قد كنتُ أبحث في سطورك لعلي أكشف سراً وها هو ذا السر

(لا يدفىء المقرور الا نار مستعرة ولا يطفىء غلة القلب الا كأس حب)

— ٢ —

ملأ الطاعون المقابر بضحاياه. وفي الليل الغامض كنتَ ترى شيئاً غامضاً كالليل. يروح ويغدو. ويقبل ويدبر. كان طويلاً أقرب شيء الى التحول. محدودباً قليلاً. ولكن أكان هذا طيفاً؟ أم كان هذا بشراً؟. سمع وقتئذٍ يقول:

(إليّ. إليّ أيتها الأنفس المتمردة التي لم يخامرك الندم ولا استهواك المتاب، قبل أن تجنح شمس الحياة الى الإياب.. سيكون الليلة عيد في الجحيم). ومال الى جدث مفتوح وقال:

(هو تذا يا هانز أيها الشيخ البخيل. لقد عشت حريصاً على درهمك حرص الجبان على دمه. فهل عصمتك كنوزك من الفناء. ألم تمت كأحقر شحاذ؟) أجابتهُ صيحة وسمع أنيناً يتصاعد من قبل الجدث. واتجه الشيطان شطر قبر آخر

(وأنت أيها العالم (شويلز) ما الذي جنيتهُ من خدمة الحق والفضيلة والنور؟ حاولت نصف قرن أن تنجو من الخطيئة وأن تعيش وفق نصوص الكتاب ولكنني باغتك على حين غرة منك فلحقك الاثم فمنذ ما فتك الطاعون بامرأتك وفلذات كبدك شككت في عدل الله. ها.. ها.. ها! فرصة ذهبية لم أدعها تفلت مني. خدعتك. أثرتك وملأتك غيظاً ويأساً. لا تجادل... والى الجحيم!»

وتسمّع الشيطان فلم يسمع شيئاً ولكنهُ رفع رأسه قلقاً إذ خيّل اليه أنهُ يرى طاووس

الملائكة يصوّب اليه سهماً من نور وان الريح تحمل اليه صوتاً يقول (ليست هذه النفس لك يا إبليس ولا أنفس كثيرة مثلها وليس في طوقك يا غرور ان تحكم عليها فلقد قضى الله بينها بالقسط فنجت من السعير) . قال إبليس :(إنك تحاول إساءة سلطتك ،وتحاول مغالبتي ببلاغتك لقد مات الاستاذ (شويلز) دون توبة فهو لي)

— لا . بل لك الارواح التي تراحى أصحابها في احضانك ، واستمرأوا ضلالك رضاة غير مقتسرين وليست تلك التي باغتّها سكرى من اليأس فأسقطتها في حبائلك —

— لا تذد عمن أغويت من البشر . فما كانوا بناجين لولا فضولك

— كلاّ . فما لك من حق على رجل لم تلوث روحه أدران الشرك ، ولا شابت ايمانه ذبذبة الافك لئن استحوذت على نفسه الامارة بالسوء . فلقد ظل قلبه في اعتصامه بالله يسبح لهُ

— ذرني أفعل وسترى

— لك هذا ما دمت حيا . هل تعرف الدكتور فاوست ؟

— الشيخ المتهدم الذي أضاع زهرة شبابه بين القرطاس والقلم ، باحثاً عن الحقيقة ؟ أكبر ظني أنهُ قد هيّأ نفسه لطاعتي ! لكن اسمع فعند ما يستمرىء فاوست الحياة التي اصطفيها لهُ تكون روحه ملكاً لي

— ليكن . اذهب وغامر !

— ٣ —

لقي إبليس فاوست فحياه وتحدث اليه حديثاً كلهُ منطق وكلهُ إغراء وفاوست بين هازىء مرةً وغاضب أخرى . ولما رأى إعراض الفيلسوف عنهُ وتبرمه بحديثه لجأ الى وسيلة اخرى فأخرج من جيبه مرآة سحرية وقدمها لهُ وهو يقول انظر ! وانحنى فاوست وكم كانت دهشته حين رأى نفسه شابًا في سن العشرين يفيض صحة وجمالاً ورأى خلف المرآة فتاة شقراء تبتسم لهُ في سذاجة وطُهر فرفع بصره عن المرآة وصاح ساخطاً

— كفى أخيلة وأباطيل . اما ان تريني حقائق ملموسة واما ان تدعني استريح

— اتدعوني رجل الاخيلة والاباطيل . اني امنحك كل ما في الحياة من لذة ومتاع

— حذار ! فأنا لا أنشد اللذة وحدها . اريد ان اشعر بكل شيء وان اجمع العالم كله في صدري مسراته واحزانهُ ، اريد اللذة يمازجها العمل، والالم يصاحبهُ الامل ، ولكنني لا اطيق الضجر والملل !

— فلسفة خاطئة . تزعم انك تمقت الخيال وها أنتذا تنشده . فأينا رجل اخيلة ؟ مالك والعالم . فكّر في نفسك . الشباب . الجمال . الغنى . المجد . اني أهبك هذا كله

— يخيّل اليّ انك تبيعني هذا كسلعة فكم تبغي ثمناً لها ؟

— تعويض عادل لا أُغبنك فيه ولا تغبنني . اكون خادمك وعذيرك في الحياة الأُولى وتكون انت خادمي وعذري في الحياة الاخرى

وأخرج ابليس عقداً مسطوراً ودعا فاوست لإمضائه وتردد الفيلسوف اول الامر فقال لهُ الشيطان وهو باسم

— لاشيء . سأرد اليك شبابك النفيس دون شرط ولتكون هذه تجربة تبدأ الساعة وتنتهي في مثل هذه الساعة من غدٍ فاذا انقضت فترة العقد عُدْتَ كما انت

واذا راقتك التجربة ورغبت في شباب مقيم حق عليك ان تمضي هنا بدمك

وسقاه شراباً سرى في جسمه مشتعلاً كالنار وفي لمحة انمحت من حياة الفيلسوف اربعون حجة فعاد ابن عشرين ربيعاً

— ٤ —

رأى فاوست وهو عن كثب من الكنيسة فتاة عذراء في جمال البدر . وسذاجة الطفل فأحبها . كانت تشبه البزابت وكانت تشبه في الوقت نفسه ذلك الطيف الذي رآه خلف مرآة الشيطان غير ان الفتاة الحيية لم تأبه لهُ ولم تكترث وكانت تمشي في طريقها على استحياء . لا تكلم الناس ولا ترنو اليهم . وشكا فاوست امره الى ابليس فاصطنع لهُ امرأة عجوزاً تعبث بعقل الفتاة فالتقت بها عن قصد . وتملقتها وتحدثت اليها عن آمال الشباب واحلامه . وعن فاوست الفاتن الجميل . ووصفت لها قامته ، ورشاقته ، ورخامة صوته ، وصفاء ابتسامته ، ودعتها لصداقته وهيأت لهما لقاء في مكان شاغر خلف الجبل . واستسلمت مرغريت لفتانا روحاً وجسداً فعبث بها ، وحضرها الشيطان في ليلة مقمرة فاستشهد عفافها . . .

وارتاب فالنتين في سلوك اخته فبات يحرسها بعين لاتغمض ، وخشيت مرغريت مغبة عملها فلبثت في الدار ثمانية ايام وسبع ليال . وتحرّق فاوست شوقاً اليها وكاشف الشيطان بشوقه فاصطحبهُ الى دارها . ومرا بالدار فتواريا خلف دوحة مورقة وطفق الشيطان يغني في لغمة مغرية مسموعة . وسمعهُ فالنتين فلم يطق صبراً فخرج الى الخلاء شاهراً سيفه يلعن ويسب ويهدد ويتوعد ولمحهُ ابليس فاختفى ووجد فاوست نفسه امام خصيم لاقبل لهُ على اتقائه ولاطوق لهُ على الفرار منهُ . فصمد لهُ وأخذ يذود عن نفسه . وباغت الشيطان فالنتين بطعنة في ظهره سقط على أثرها يتخبط في دمه وذعر فاوست وجمد في مكانه جمود الصنم في هيكله وابليس يسيح في السُنْبُل . القاتل ! القاتل ! وافاق فاوست من ذهوله فأطلق لساقيه الريح واستتر في بُرْدة الليل ! . وقضت مرغريت ليلة مشئومة لم يشاركها في حزنها احد

لقد ماتت امها وقتل اخوها وعائلها واختفى عشيقها ولا أمل لها في مآبه وتبرأت منها عمتها

لانها عدتها مسئولة عن مقتل اخيها . وخبا نور الحب في قلبها فهوت بهِ في ظلمة النوم ولم يبق لها بعد نجوى الليل ، وقبلات الحب ، سوى الاثم والفزع ، والزراية

وكانت الفتاة قد حملت من عاشقها سفاحاً وليس لها بعد موت فالنتين عائل . فاضطرت ان تترك البيت الذي تربت فيهِ ، ونعمت بالحياة في ظلال الشرف ، وراحت تلتمس قوتها من عرق الجبين ، ولكن الناس كانوا في مرية منها فلم يمدوا اليها يدَ برٍّ ، ولا مسحوا عن عينها دمعة ذل

وليلة باتت طاوية وطفلها ، خوت احشاؤها وجف ثدياها . والليل مقرور ، والسماء مكفهرة وليس لها مأوى تلوذ بهِ ، ولا غطاء . حاولت ان تلج الدور فأوصدت دونها الابواب التي لم توصد في وجوه الهررة والكلاب ، ولم يقبل احد منها متاباً . . . حتى الكنيسة طردت منها ولم تجد فيها عاصماً . . . . !

حملت طفلها وانتبذت بهِ حقل قمح حسباناً منها ان سنابله قد تعصمها من القرة . . ولكن الرياح عصفت بشدة فلم تجد بدًّا من التحول الى المدينة وماكادت تبعد بضع خطى عن الحقل حتى شعرت بيد تضغط على كتفها في عُنف فرفعت طرفها في فرق فاذا بعض العسس ينظرون اليها في شزر وحنق ولما قلبوا الطفل الذي تحمله ذاهلة صاحوا بها يا قاتلة !

صرخت رباه ! لقد قتله البرد

واخذت تبكي وتصيح والعسس ممسكون بخناقها يجذبونها الى المخفر

ووجهت اليها تهمة قتل طفلها بتعريضه للبرد القارص . فلم تشأ دفاعاً عن نفسها لانها كانت زاهدة في الحياة وثبتت ادانتها فحكم عليها بالموت حرقاً

وتجمعت أمة من الناس يشهدون مصرع هذه الام المنبوذة التي قتلت طفلها بلا رحمة

وأخذوا يهددونها ويلعنونها ويودون لو تعجلوا الحكم فمزقوها بأيديهم قبل ان تأكلها النار

وكان فاوست قد هبط المدينة بعد ان اختفى زماناً ونما اليه ان مرغريت ستحرق . فطار لبه واقسم ان ينقذها او يكون معها من الهالكين — وأسرع فاوست فألفى الناس قد خطوا الارض كان اليوم يوم حشر ، ورأى النار تحدق بعشيقته فاندفع يشق طريقه اليها غير عابىء ولا وجل وصاح (مرغريت !) ونظر اليهِ الناس ساخرين (شيخ مجنون !) وصاحت بهِ مرغريت (مكانك يا أبتاه !)وردد فاوست قولها في عجب(مكانك يا ابتاه ؟) كيف ألم تعرفيني ؟

ونظر الى نفسه فراعتهُ لحيته البيضاء المتدلية ويداه اللتان توارى منهما الدم

فصرخ كالمجنون وقد فضحهُ الجزع

— إبليس ! إبليس ! أين ذهبت بشبابي ؟ وابتسم اللعين في خبث وكان منهُ عن امم

— كانت مدة العقد يوماً وقد انتهى

على ذكر التعداد الاخير :

سكان مصر

من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي[1]

لعلّ المصريين أقدم الشعوب عهداً بالاحصاء او التعداد . ففي فجر التاريخ ، كان الملك مينا يقوم باحصاء السكان في مملكتهِ مرة كل سنتين ثم مرة كلّ سنة (برستد) وهو عمل كان يقتضيهِ تنظيم مصر السياسي الدقيق حينئذٍ . وفي ايام امنمحت الاول في سنة ٢٠٠٠ ق . م نجد اشارات الى الاحصاء وكذلك في القرن السادس قبل الميلاد . وكان الرومان يقومون بعمل التعداد مرة كل اربع عشرة سنة في اثناء حكمهم . وفي ايام الرومان ثم العرب ثم العثمانيين كانت هناك قوائم للمكلفين يمكن ان تعتبر بمثابة احصاء

ولكن من المتعذر معرفة عدد السكان في مصر في تلك العصور لان ما وصل الينا من وثائق التعداد لا ينقع غلة ، ولكننا نجد في آثار بعض الكتاب الفراعنة واليونان والرومان والعرب ، ارقاماً يمكن ان تحسب قريبة من الحقيقة

كان عددالمصريين في سنة ١٥٠٠ ق . م يقدر بثلاثة ملايين . ولكن الاستاذ مصطفى عامر يذهب في رسالة لهُ عن مشكلة السكان في مصر الى ان القطر المصري كان يقيم اود ١٨ مليوناً من السكان في الالف الاولى ق . م وقد بنى رأيهُ هذا على زيادة خصب الارض حينئذٍ في الدلتا ، التي كانت مساحتها الصالحة للزراعة اكبر جدًّا مما هي الآن قبل تكوُّن البحيرات المالحة والبطائح والصحاري فيها

ولكن ليس عندنا في الاسانيد القديمة ما يؤيد هذا الرقم . وقد كتب المؤرخ ديودورس سيكولوس في القرن الاول قبل المسيح فقال ان سكان مصر في عهد الفراعنة كانوا سبعة ملايين وفي العصر البطليموسي (وهو عصره) ثلاثة ملايين

وفي سنة ١٨٨٦ ظهر كتاب ليوليوس بيلوخ Beloch وذهب فيهِ الى ان عدد سكان

---

(١) ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليلند "The Population Problem in Egypt" راجع وصفه في مكتبة المقتطف

مصر عند وفاة اغسطس قيصر في سنة ١٤ ب . م. كان خمسة ملايين وان مساحتها كانت ٢٨ الف كيلو متر مربع ومتوسط عدد السكان في الكيلو متر المربع ١٧٩ نفساً او ٤٦٥ في الميل المربع . وقدر المؤرخ بدنج عدد سكان مصر في عهد فسبسيانوس (٦٩ ب.م .) بثمانية ملايين وذلك اعتماداً على قوائم المكلفين (اي دافعي الضرائب) واورد المؤرخ يوسيفوس قولاً للملك اجريبا في القرن الاول الميلادي يستفاد منهُ ان سكان مصر كانوا سبعة ملايين ونصف مليون ماعدا سكان الاسكندرية وان حدود مصر كانت تمتدُّ الى الاحباش وبلاد العرب السعيدة ومتاخمة للهند

وفي القرن السابع الميلادي فتح العرب مصر وقد ذكر المؤرخ لاين پول في كتابهِ « تاريخ مصر في القرون المتوسطة » ان مؤرخي العرب اوردوا ان عمرو بن العاص جمع في سنة ٦٤٤م مال جزية قدرهُ ثمانية ملايين دينار من الذكور البالغين من اهل الذمة . فاذا حسبنا انهُ جمع دينارين من كل ذكر وهو المبلغ المألوف في تلك الايام كان عدد الذكور الذين يزيد عمرهم على ١٠ سنوات اربعة ملايين واذا فرضنا ان هذا العدد كان ٣٠ في المائة من عدد السكان — وهذه هي النسبة التي تستخلص من تعداد سنة ١٩٢٧ — كان عدد سكان مصر غير المسلمين في سنة ٦٤٤م ثلاثة عشر مليوناً وثلاثمائة الف وهو قريب من عدد السكان في هذا العصر . ولكن شيئاً من الريب يتطرق الى هذا التقدير . لان المؤرخ الذي اورد ما تقدّم اورد كذلك ان مال الخراج كان ثلاثة ملايين دينار ، بواقع دينارين للفدان الواحد . اي ان عدد الفدادين المزروعة ما عدا المدن الكبيرة والاراضي التي يملكها عدد يسير من المسلمين كان ١٥٠٠٠٠٠ فدان. واذا قطن عدد كبير من الناس يزيد على ١٣ مليوناً مساحة من الارض لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ فدان كان ازدحامهم اربعة اضعاف او خمسة اضعاف ما هو الآن في مصر وهو ما لا يعقل

وفي القرن التاسع الميلادي جاء في كتابات بعض المؤرخين العرب ذكر خراج يبلغ ٤،٨٥٧،٠٠٠ دينار أي ان عدد الافدنة التي كانت مزروعة بلغ ٢،٤٢٨،٠٠٠ فدان . فاذا فرضنا ان ازدحام السكان في هذه الاراضي كان كمتوسط ازدحامهم الآن في المناطق الزراعية كان عدد سكان مصر غير المسلمين في القرن التاسع الميلادي ٥،٣٩٠،٠٠٠ ويجب ان يضاف الى هذا الرقم عدد سكان الاسكندرية والفسطاط وكان معظم السكان المسلمين يقطنونهما حينئذ . أما الاسكندرية فكان عدد سكانها في القرن الثامن خمسمائة الف على ما روي وأما الفسطاط التي أسست في القرن السابع فأصبحت بحسب قول المؤرخ ملن في مقدمة المدن الاسلامية . واذن يصحُّ القول بأن سكان مصر في القرن التاسع كانوا يتفاوتون بين خمسة ملايين وستة ملايين وهو رقم يتفق مع تقدير يلوح لعدد السكان فيها في القرن الأول الميلادي . ومما يرتاب فيهِ الباحثون المعاصرون ان سكان مصر أربوا في العصور القديمة والمتوسطة على سبعة ملايين او ثمانية

بيير لوتي
و
وناحية من ذكرياته

في أوائل الجيل الماضي نشطتْ في فرنسا نزعةٌ الى الاصلاح والتجديد ، فكان لها أثرٌ متين لا يمحوهُ الدهر ولا يأتي عليهِ النسيان . ومن نتائج ذلك الأثرِ البليغ ظهورُ المذهب الوجداني الذي طوّقَ جيدَ الادبِ العالمي بقلائدِ الفنِّ والنبوغ والعبقرية

ولم تكدْ شمسُ ذاك الجيل تدرجُ من خدرها الأزلي وتغمرُ الحياة والأنظمة والقوانين بفيضٍ من التطوّر والتجديد ، حتى استيقظ نفرٌ من هؤلاءِ المجدّدين واتجه نحو الشرق منقّباً عن الجمال الكامن وراءَ أكمتهِ وجبالهِ ، والسحرِ المهوّم بين أوديتهِ ووهادهِ

وكان بين هؤلاءِ المجدّدين رجلٌ حسّاس تغلّبت عليهِ سآمته وإحساساته ، فجاءَ الشرق ليعالج تحتَ ظلالهِ الظليلة تلك السآمة الخرساء . . هذا الرجل هو — بيير لوتي — الكاتبُ الفرنسي الأنيق الذي عشق الشرق وأفسح لهُ مجالاً رحباً في كتاباتهِ وأقوالهِ

وقف — لوتي — في ظلال الشرق فكشف له خيالهُ النامي الخصيب عن ذلك الجمال المتجسّم في كلّ مرتبة من مراتب الطبيعة . ولذلك أكثر من وصف السماء الزرقاء ، ومطلعِ الفجر ، ومغيبِ الشمس ، ومن البلابل الشاردة بين الحقول والبطاح ، والجداول الهائمة في الأودية والوهاد ، والانهر الجارية الى أعماق البحار ، والانين الشجيّ الموجع الموقّع على أوتار الرياح والعواصف

إنّ في الشرقِ جمالاً علويّاً كجمال المآسي الخالدة . . ومن الروعة والجلال ان يتمشّى ذلك الجمال في روح — لوتي — فيجعلهُ يتمتم اسم الشرق في الحياة وعند الممات !!

***

وبعد . . . لقد عرفَ الشرق نفرٌ من أدباء الغرب وكتّابه ، ولكن هؤلاء

الكتّاب ما عتموا ان صوّروا أخلاقهُ وعاداتهِ ومشاربهُ صورةً متعاظلة لا أثر للفن والحقيقة فيها . فمسخوا من جماله ما استطاعوا إما عن تعصُّبٍ شائن ، وإما عن تجاهل لهم منهُ فائدة معنويّة . أما — بير لوتي — فقد خالف هؤلاء جميعهم اذ تغلغل في روح الشرق ودرس شعوره وعواطفه ثم تحدّث عنهُ حديثاً مترعاً بخمرة الحبّ والصدق والاخلاص

ولأجل ذلك أعدّوا لوتي صديقاً مخلصاً للشرق . .

والذي نعجب لهُ كثيراً هو درسهُ للحياة الشرقية . حتى لقد يُخيَّل إلينا ان الرجل أمعن في الاستيلاء على عناصر تلك الحياة بما في هذا من جهدٍ وعناء قبل أن يُقدم على تصويرها ذاك التصوير الساحر الذي يخلبُ القلوب

فان من يقرأ كتابه (موت أنس الوجود) يشعر بحقيقة ما أكتب قال في فصلٍ من فصول الكتاب :

« بين الفتيان المصريين من يفتُنكَ بذكائهِ ونبوغهِ ، عرفت ذلك بعد ما وطأت قدمايَ تربة مصر الفوّاحة بالشذا والعبير . ولأجل هذا أريدُ أن أخاطب هؤلاء الفتيان بعطفٍ متناهٍ فاهتف بهم قائلاً : أيها الفتيان ، ان المدنيّة ستتمشى في عاداتكم عمّا قريب ولكنَّ حذارِ أن يعبث بأخلاقكم عابثٌ ، تلك الاخلاق التي اذكرها بتهيب وافتخار »

على إنّ السرّ المعنوي في عبقريةِ هذا الكاتب العليل المفلّي قلبهُ بأنامل اليأس العميق والألم المحرق المذيب ، هو حبّهُ لتركيا حبًّا قارب العبادة والتأليه

لقد تساءل نفرٌ من الكتّاب الغربيين هل كان هذا الكاتب الرسام قد وقف على اسرار الحياة التركية التي لم يقف عليها اديبٌ من الادباء . اما الحقيقة فهي انهُ توفّق الى رسم تلك الحياة التي تجري في القصور التركية رسماً لا شكّ حياله بتدخله في شؤون هذه القصور المسربلة بضباب الاحلام

في تركيا ، عشيقة البوسفور وموحية اسرار الحبّ والغرام للقلوب التوّاقة الى نور الخلود ، جمال يترك في النفوس نشوةً علوية كنشوة الوردة الحمراء الغافية على سرير من ضياء الفجر . والفرنسيون بارعون في الاستيلاء على كلّ ما يمتُّ الى الفنّ بقرابة جميلة . ولكن الاجمل من هذا ومن ذاك هو تلك الذكريات التي تركها —

لوتي - انتبق مثالاً صادقاً للحياة التركية بما فيها من آلام ومسرات ، وسعادة وكآبة ، وابتسامات ودموع !!

لقد نثر -- بيير لوتي - عقوداً جمة من حياته على شواطىء البوسفور التركي ، ومتّع عينيه بمنظر الخليج الجميل ، وبمرأى البدر يصبُّ انواره الفضية فوق موجهِ الثمل الريان ، وأمرع كثيراً بغمرة تلك الليالي البيضاء التي تنبّهُ في النفوس رواقد الخشوع والروعة والتعبد . . . فلا عجب اذا اغرق — لوتي — بحبِّ المرأة التركية وبوصف اخلاقها وعاداتها وبكيفية معيشتها بين جدران القصور التركية ، واذا اكبرت عليهِ جمال فنهِ وأنيق الوانه ، فاعلم انهُ طلى فنهُ بكل ما في الحياة من أدهنة سحرية ورموز واسرار ... وما اعظم الاديب الذي يجمع بين الفن والجمال !

***

وهنا يلوح لي ان فريقاً من القراء يطالبني بذكر ناحية من ذكرياته .. اما ذلك فحسبي ان اتناول روايته (اليائسات) واقرأ فيها هذه الجمل الحزينة اللابسة ثوب الحداد على ماضٍ حنون توطّن مقبرة الذكرى وترك في قلب الكاتب اللطيف هذه الغمغمة المؤثرة الموجعة

« . . . في ناحية منفردة على شواطىء البوسفور ، وعلى نحو فرسخين من استانبول المدينة الشعرية المتعالية مآذنها في الفضاء معلنة لروع اللانهاية كل ما للدين الاسلامي من روعة واسرار ، كنت اصرف اكثر اوقاتي مع « جنان » فلا يعلم بنا احد ، ولا يسمع نبضات قلبينا غير الامواج والطيور

« أنا لم يؤثر فيَّ مشهد من مشاهد الشرق الغريب مثل ان اتأمل البوسفور في ساعة المغيب وقد تلوّنت شواطئهُ بأشعة شمس الخريف الواهية ...فكانت تبدو لعينيَّ كأنها وجنات العاشقين ممتقعةً بصفرة الفراق !

« وما البوسفور - يعثر امواجه على صخور الشاطىء غير مشهد يروعك فيهِ انين المياه وحفيف شيرها البلبل يداعبهُ نسيم المساء ثم يرخيهِ فوق الحصى والاعشاب . . ولكنهُ مشهد خفاق تمشى في روحهِ الروح والحياة ، فهو جميعهُ خفقات ألبة تعرب عما تعاني من صبابة . . . وكل موجةٍ لها للفؤاد إشارات خفية مجهولة ، هي اشبه بيد العاشقة تمتدّ مودّعةً بعد ان تقاصرت عن عناق الحبيب !

« اما الطيور المتهادية ثملة ريّانة في تلك الامكنة اللطيفة الساحرة ، فكنتُ اخصّها بكثيرٍ من تأملاتي واحلامي . وكانت — جنان — تحسبها ارواح اليائسات التركيّات اللواتي انعتقنَ من قصور ازواجهنّ البشوات الظالمين

« وفي اواخر — جمادى الاول — عند حلول الخريف ، كان يحزنني ان ارى تلك الاماكن الشاهدة عليَّ وعلى « جنان » بما بيننا من احايين شيقة خيّمتْ فوقها اشباحُ الغرام . . . نعم كان يمضّني ان اراها عاريةً جرداء فينبئني منظرها الشاحب بنكبة قريبة تتمكّن من نياط فؤادي فتسحقها بالالم سحقاً ، وتفصدُها بنزوات دامية تمازجُ فيها نبرات الحزن واصداء الموت

« وأحستْ — جنان — ذات يوم بما يخالجني من ألم مبرح يُستَمم عواطفي فأخبرتها ان طيفاً خفيًا ينصب في اعماق نفسي منذراً بمجيء ساعة الفراق ، فارتمت — جنان — يتكّب الانين فؤادها ، وتستشفُ عينيها الدموع ! !

« وشئتُ ان أساعدها على احتمال هذه الصدمة العنيفة فوعدتها ان اعود اليها وامضي باقي الحياة قريباً منها . ولكني عندما شاهدتُ ارتعاشها المفجع لم أتمالك عن ذرف دموعي فعانقت جنان وبكينا معاً امام الامواج المحتضرة والبلابل المرتحلة الى الجنوب هرباً من عواصف الشتاء المتأهبة للخروج من سجن الابدية

« وعدنا الى اسطنبول مساء . . . ولأول مرة رأيتُ — جنان — تتأملُ القمر بعينين منهوكتين ، فعلمتُ انها تريد التعبير عما في نظرات القمر من سهدٍ ووجوم ، فضممتها الى صدري المعذّب وأشبعتها بقبلات الوداع ! !

* * *

بعد ان مضى زمنٌ طويل على هذا الافتراق جمع — بيير لوتي تذكاراته الماضية ودوّنها كلها في روايته المساة (اليائسات) والغريب انهُ اعلن موتَ جنان في آخر الرواية بصورة شعرية مؤثرة . ولكن الحقيقة — كما تقول مجلة الايلستراسيون — ان جنان ظلتْ حيّة ومقيمة طول ايامها على غرام الكاتب العبقري الجميل

وقد وجدوا بين اوراقه بعد موته تذكاراتٍ جمة عن — البوسفور — مرسومة بدم قلبه ودموع عينيهِ ، وكلها تعبر عن نواحي حياته : فاليك هذه الكلمة المختصرة :

« لست أنسى ما حييت تلك الليالي البيضاء التي صرفتها على ضفاف بحر مرمرا » والبدر يحدّق بالامواج كأنهُ يبثها سرًا من الاسرار او لاعجة من لواعج الهوى .

وكثيراً ما حركت هذه المناظر بواعث الحزن والكآبة في اطواء نفسي ، فكنتُ اسمع انغام الماضي توقعها الذكرى على أوتار الليل

«آه، ما أعذب الذكرى تعاودني من خلال خمائل الماضي . . . ولكن وا أسفاه انّ عينيّ يكاد يغشاها ظلامُ الموت . أني اراك يا — فروق — تموجين بثوبك الخفاق كانك في ساعة عرسك . فسلامٌ عليك من رجل أحبك حتى العبادة والتأليه »

يقول — كلود فارير — الكاتب العبقري الكبير ان — بير لوتي — ارسل هذه الالفاظ النارية وهو ممدد على سريره في باريس يعالج برجاء الألم ويتلمس مهاوي الابدية . وكأنّ الاقدار شاءتْ ان تضرم لوعته وتشمله بالكآبة التي لازمتهُ طول حياته ، فقد أطفأت حياة حبيبته (جنان) في ليلةٍ من تلك الليالي السوداء التي كانتْ تمرّ بالكاتب الملول الحزين

ولكن جنان المسكينة لم تكن تحلم وهي تنثر احلامها في ظلام أجنحة المنيّة الاّ بذلك الفرنسي الجميل الذي أحبتهُ كما احبّها حبّاً وفيّاً . فتناولت القلم ورسمت هذه الرسالة

«ايها الحبيب ها انذا في مخدعي مسهّدة تولولُ اشباح الماضي في اودية الفؤاد وبينما الناس نيامٌ يرتشفون خمرة الرقاد ، أبيتُ باكيةً تلك الاوقات الحبيبة التي مضتْ وتركتْ في مقبرة قلبي تذكاراً حنوناً مندّى بالدموع ! نعم . . . لقد تلاشتْ تلك الاوقات وتوارت وراء نقابِ الموت لتُبلى على مهلٍ تحت اقدام الدهور . . . ولكن نور النجوم ، وحفيف الاوراق ، وخرير الجداول . . . وكل ما في الطبيعة من حسن وجمال . . . لا يزالُ ينغّمُ على أوتار صدري توجيعة الصمت والسكينة

«انّ ضباب المنيّة يكفنني الآن بردائهِ الناعم الشفاف . وعندما تخمدُ فيّ شعلةُ الحياة ويسبلُ الموت اجفانهِ فوق نعشي ، ثم يدنو حفار القبور ليهيل على صدري التراب . . . ستحومُ حولك روحي ايها الحبيب وتتلو على مسامعك كلّ نزعات القلب وأمانيه .

«زهرة البنفسج التي كنا نستنشق عبيرها ونضفر اوراقها على ضفة — البوسفور — أغرسها ايها الحبيب فوق قبري لتعطر جسدي الناضر في سكينة الليل . . وعلى اضواء النجوم ! ! — جنان —

مسكينة جنان . . . كانت أمنيتها الوحيدة ان ترى — بير لوتي — وتعانقهُ العناق الاخير في تلك الساعات الاليمة التي تكابد حزازتها في ظلام ليل تذكاراتها . وفيما هي

تستشف كأس المنية تركت هذه الرسالة المخددة بالدموع (وهي ترجمة عن اليائسات)

« أندري ! : الآن وقدمرّ الهزيع الثاني من الليل ، اصغي الى حفيف اجنحة الموت فلا اسمع سوى زفرات متقطعة ترسلها روحي المفارقة في فضاء مخدعي . فليتك كنتَ هنا ياأندري ! لأهمس في اذنك كلمة الوداع فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب لابوحَ لك بسرٍ من اسراري الدفينة ... اريد ان اعترف لك بحبي الذي لاشائبة به. إنَّ مَنْ تفارقُ الحياة لأجل حبيبها تستطيع الاعتراف بخفاياها

« آهٍ يا أندري . . اتذكرُ يومَ كنتَ في هذا المكان حيث أنا الآن ؟ يومَ ذاك خفق قلبي بحبك ، الاّ اني أطبقت عينيَّ لأحلم وهكذا مرتْ احلامٌ لذيذة ... وكانت يدي تمسح عن عينيك تلك العبرات المتناسلة . حبذا لو قضيتُ في تلك الساعة اذاً ما كنتُ تسكبتُ اشباحَ الحزنِ الظالمة ، وكأسَ الغرام المريرة !

«كل شيء يتغير في نظري...قالوا لي ان انام ، ولكني لا اشعر بالنعاس يراود أجفاني . . . غير اني اشاهد كل ما في مخدعي يهتز ويرتعش مثلَ شمعةِ روحي الذائبة ... إن الزهور البيضاء التي تنثرها حول رأسي أخيلها تنمو وتتكاثر متحولة الى مرجةٍ كبرى مكتسية بالورود والبراعم

«والآن اراك تلهو بين الورود والبراعم فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب ؟ ألا تعلم انّ شفتي تحبان ان تلثما شفتيك ؟ وهنا حيث احتضر اودُّ كثيراً لو شاهدتك لاقرأ في عينيك دمعةً تذيبُها لاجلي... تعالَ يا ملكَ الجمال وموقظ الحبّ والغرام لأسند رأسي الى ذراعك واعترف لك بحبي قبل ان يطفىء الموت شمعة حياتي

« آهٍ يا اندري ! ! إن الاموات يجذبونني نحوهم بعنف وقسوة . فاعطني يدك لأتساند عليها في المصرع الاخير !

ومثل الزهرة الرطيبة التي تنتعش صباحاً ثم تذوى في المساء بعد ان تلفحها الشمس بنورها الكاوي هكذا ذوت مباهج الحياة في قلب (أندري) وهو بيير لوتي نفسه . وظلت هذه الذكرى حائمة حول الكاتب الحسّاس حتى لفظ أنفاسه الاخيرة

فالى بيير لوتي والى روحه العذبة التي ابتسمت في ثناياها كواكبُ الفن والنبوغ سلامُ الشرق العظيم الذي ضمّهُ اليهِ وسكب في عروقهِ كل ما في الحياة من تشوّق وحرارة وايمان

البرازيل

يوسف البعيني

لمن ؟

« مهداة من الشاعر الى الاستاذ
ميشال ابوشهلا صاحب مجلة الجمهور»

لمن تعصر الروحَ يا شاعرُ أما لضلال المنى زاجرُ ؟ !
أللحب ؟ أين أكفُّ الفتو ن لتبدع ما يرتجي الخاطرُ ؟
أللهو ؟ كم دميةٍ صُغْتَها ومزّقها ظفرك الكاسرُ
أللمجد ؟ هلاّ لحت الذئا ب، وقد عضّها جوعها الكافرُ
أللخلد ؟ ماذا يفيد القتيل إذا ناح أو هلل العابرُ

***

رويدك لا تسفحنّ الخيال ببيداء ليس لها آخرُ
سيرقصك الكون في صمته كما يرقص الحية الساحرُ
دع الحلم يخفق في ناظريك فوعده غدك الساخرُ !

عمر ابو ريشة

من « الجمهور : بيروت »

العرس الاسود

الله ...! مات الحلم في البرعم ـ وكان حلم الليل والانجم ـ
حكاية الورد لجاراته ... حكاية المغرم للمغرم ـ
تقصّها الانسام في سكرة في الغاب للغريدة الحوّم ـ
فترقص الضحكة في مبسم ـ وتجمد الضحكة في مبسم ـ
ويصبح الحلم حديث الرّبى فاهمــة تروى لمستفهم ـ
الله .. ! لم يطلع عليه الضحى الاّ صريع الناب والمنسم ـ

***

يا حلمي الاشقر ، يا رفة طافت بقلب أخرس معتم ـ
يا ضحكة في خاطر المنحنى يا نغمة في الوتر الملهم ـ
لم يبق من عرسك الاّ الرؤى مخضوبة بالدمع في مرقمي
تموت في قلبي وفي مقلتي على صراخ مفزع مؤلم ـ
يضج ماضيها على نعشها بجرح الذكرى دميّ الفم ـ

***

يا قلب ما تبغي وما ترتجي من مأتم تمشي الى مأتم
يا جائعاً اطعمتهُ مهجتي يا ظامئاً روّيتهُ من دمي
يا أحمقاً يمشي الى قبره هدمت أضلاعي ولم ترحم ـ
اسكت ! احس الموت في مضجعي وفي زوايا المخدع المظلم ـ
احس في صدري ديب الردى ينسل في صدري كالارقم
ليتك لم تخفق على ساعد ليتك لم ترقد على معصم
يا كافراً ضيّع احلامه ليتك لم تعشق ولم تحلم

***

يا قلب ! مات الحلم في موسم فاغنمهُ يا قلبي في موسم

عن « الجمهور » فؤاد سليمان

سُيَرُ الزمان

الامتيازات الاجنبية

في مؤتمر مونترو

خطبة النحاس باشا

في مؤتمر مونترو

امتيازات الملوك

لأمين الغريب

الامتيازات الاجنبية

ومؤتمر مونترو

الامتيازات اسم يطلق على معاهدات تمنح بها دولة من الدول حقوقاً خاصة لرعايا دولة أخرى مقيمين في بلادها . في القرن التاسع عقد هارون الرشيد معاهدة من هذا القبيل مع «الفرنك» منحهم بها ضمانات معيّنة وسهّل عليهم سبل الاتجار . ثم منحت امتيازات من هذا القبيل لابناء بعض من المدن الايطالية . فأمير انطاكية منح أبناء جنوى مثل هذه الحقوق في سنة ١٠٩٨ وجاراهُ ملك أورشليم في منح أبناء البندقية سنة ١١٢٣ وأبناء مرسيليا سنة ١١٣٦ وتبعهُ صلاح الدين فمنحها أبناء مدينة بيزا سنة ١١٧٣ . وقد جرى امبراطرة بيزنطة على هذه القاعدة فمنحوا جنوى وبيزا والبندقية هذه الامتيازات . وفُسِّر هذا العمل أولاً بأن سيادة الدولة تشمل أبناءها فقط وأن ميزة الانتماء الى حكومة معيّنة كانت أثمن من أن يوسع نطاقها حتى تشمل الأجانب . فلما كثر عدد الاجانب القاطنين بعض البلدان ، قيل انهُ من الفطنة أن يخضعوا لقانون من القوانين ، وان خير قانون يخضعون لهُ هو قانون بلادهم الأصلية

فلما قامت الدولة العثمانية ، كان نظام الامتيازات قد رسخ فحافظت عليهِ . فعقدت الحكومة العثمانية معاهدة الامتيازات الأولى سنة ١٥٣٦ مع الفرنسيين . فكانت معاهدة تجارية ومعاهدة إقامة تخول الفرنسيين الاقامة في تركيا وتعين نوع القضاء الذي يخضعون لهُ . وضمنت المعاهدة لهم الحرية الفردية والدينية ، وخوّلت حكومة فرنسا حق تعيين قناصل لها في تركيا يكون من اختصاصهم الحكم في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالفرنسيين المقيمين في تركيا وذلك وفقاً للقانون الفرنسي ، وأن يطلبوا من رجال السلطان مساعدتهم في تنفيذ الاحكام

وقد جرت جميع معاهدات الامتيازات التالية على هذه الوتيرة . ففي سنة ١٥٦٩ جدّد السلطان سليم الثاني الامتيازات الفرنسية التي منحها سلفهُ . وفي سنة ١٥٨٣ فازت انكلترا بامتيازاتها الاولى وقد كانت فرنسا حتى تلك السنة حامية جميع الاوربيين المقيمين في تركيا . ثم حاولت بريطانيا بعد ذلك ان تدعي لنفسها حق حماية الاجانب في تركيا فأُبي ذلك عليها في الامتيازات الفرنسية المجددة سنة ١٥٩٧ و ١٦٠٤ و ١٦٠٧ اذ نصت نصًّا واضحاً على ان فرنسا هي حامية جميع الاوربيين الذين ليس لدولتهم سفير في الاستانة

وفازت هولندا بامتيازاتها في سنة ١٦١٣ والنمسا سنة ١٧١٨ وروسيا سنة ١٧٨٤ واقتفت آثارها اكثر الدول الاوربية في خلال القرن الثامن عشر وتبعتها الولايات المتحدة الاميركية والباجيك واليونان في القرن التاسع عشر

وكان من شأن نظام الامتيازات الاجنبية ان اصبحت كل جالية اجنبية في تركيا بمنزلة «دولة داخل دولة» يتمتع افرادها بحرية الاقامة وحصانة المنزل وحرية السفر في بلاد الدولة العثمانية وحرية التجارة وحرية الدين والخضوع لقانون دولتهم لا لقانون تركيا

الامتيازات في مصر

طبق نظام الامتيازات على القطر المصري عند ما كان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، ولكنهُ عُدّل قليلاً في عهد الخديو اسماعيل عند ما أُنشئت المحاكم المختلطة . وبمقتضى هذا النظام كان للاجنبي المقيم في هذه البلاد حقوق تميزه عن اهلها يمكن ان تلخص في ما يلي :

اولاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفرض على الاجانب المقيمين في مصر ضريبة على الدخل من دون موافقة الدول صاحبة الامتيازات . ثانياً — جميع القضايا المدنية والتجارية بين الاجانب والمصريين او بين الاجانب من رعايا مختلفة تعرض على المحاكم المختلطة . ثالثاً — جميع القضايا الجنائية التي يتهم فيها اجانب تعرض على المحاكم القنصلية الخاصة بالدول التي ينتمي اليها المتهمون . رابعاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفتش مقرّ اجنبي الاّ بسماح من قنصله ، ولا يجوز لرجال البوليس المصري ان يدخلوا دارهُ او مكان عمله من دون هذا السماح الاّ في احوال استثنائية وهي حالة التلبّس بالجريمة

ولا يخفى ان هذه الامتيازات واسعة النطاق تفضي الى عقد كثيرة في اقامة العدل وكثيراً ما كانت باعثاً على الجور علاوة على ما تقيد بهِ سيادة مصر في نواحٍ مختلفة من حياتها القومية

ففي المقام الاول لا يسع الحكومة المصرية ان تبسط نظام الضرائب الذي لا قيام من دونهِ لأية حكومة عصرية ، ما زالت الدول صاحبة الامتيازات تستطيع ان تأبى فرض ضريبة جديدة على دخل رعاياها ، ورعاياها قابضون في الغالب على ازمة التجارة والصناعة في البلاد . واذا خطر للحكومة المصرية ان تفرض ضريبة من هذا القبيل وجب ان تفاوض كل دولة من هذه الدول — وعددها اربع عشرة دولة — على حدة ، وهو سبيل وعر طويل يعرف لهُ اول ولا يعرف لهُ آخر. وقد يُظن ان المسألة شكلية فقط وما على الحكومة المصرية الاّ اعداد مذكرة تطلب فيها من الدول صاحبة الامتيازات الموافقة على الضريبة المقترحة فيأتيها الردُّ بالقبول برجوع البريد . ولكن الواقع ان المذكرة المصرية تفضي الى ردود عليها فيها مقترحات معدّلة ومناقشات في امور لها صلة بالموضوع الاصلي وقد لا يكون لها بهِ صلة ، وقد لا تفضي المفاوضات الى نتيجة مقبولة الاّ بعد اشهر او بعد سنين اذا افضت اليها على الاطلاق

وفي المقام الثاني ، لا ينكر منكر ان المحاكم المختلطة قد رفعت عن كاهل مصر جانباً كبيراً من

عبء مفاسد الامتيازات كما كانت تمارس فيها قديماً او في السلطنة العثمانية بوجهٍ عام ، ولكنها أصبحت وسيلة فعّالة تستعملها الحكومات صاحبة الامتيازات للضغط السياسي على الحكومة المصرية ، وللتدخل في التشريع المصري ، لان هذه المحاكم غير ملزمة بتطبيق أي تشريع جديد تصدره الحكومة المصرية ، الا اذا وافقت عليه الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . فكأن هذه الجمعية اصبحت في مصر وفي عصر الدستور خاصة ، مجلساً تشريعيًّا ثالثاً في دائرة معيّنة

ومما قالهُ لورد كرومر في هذا الصدد في كتابهِ مصر الحديثة انهُ من المفارقات ان تطلب موافقة رئيس الولايات المتحدة الاميركية وملك السويد على قانون يطبق على رعايا امبراطور النمسا او ملك البلجيك . ثم انها علاوة على ما تقدم قيد من قيود السيادة المصرية لأنها تعني ان الحكومة المصرية لا حق لها في تعيين جميع قضاتها

ونتيجة التشريع بالمفاوضة الدبلوماسية قيام عقبات في سبيل التقدم وفتح الباب للمساومة

وفي المقام الثالث ، ان نظر القضايا الجنائية التي توجه فيها التهمة الى الاجانب ، في المحاكم القنصلية المختلفة ، افضى الى اختلاف بيّن في اقامة ميزان العدل في مصر . ذلك ان كل محكمة قنصلية تطبق في نظرهذه القضايا القوانين المتبعة في بلادها ، والاساليب المقبولة في اقامة الدليل ، فكان من أثر ذلك ، ان اجنبيين تابعين لدولتين مختلفتين ولكن متهمين بتهمة واحدة يقدّمان كل الى محكمة بلاده القنصلية ، فتثبت التهمة عليهما فيعاقبان عقابين مختلفين . او قد تكفي الادلة نفسها لادانة الواحد وعدم ادانة الآخر ، واذا كان لهما شريك ثالث وكان مصريًّا فقد يكون الحكم عليه ، من حيث الادانة ومدى العقاب ، مختلفاً عن حكم القنصليتين

وفي المقام الرابع ان المفاسد التي نشأت عن حصانة الاجنبي من تفتيش البوليس المصري ، من دون سماح السلطات القنصلية ، كثرت وتعددت وجوهها ، بحيث اسبغت على الامتيازات الاجنبية صورة بشعة يخجل منها الاجانب ويتبرّم بها اهل البلاد

ففي الجاليات الاجنبية في الاسكندرية والقاهرة وغيرهما ، عناصر من هذه الجاليات اصلاً او تنتمي اليها بالتجنّس وهو الاكثر ، تحسب من اشدّ العناصر اقلاقاً للأمن وارتكاباً للمفاسد وكثيراً ما تعمد الى التحصّن وراء هذا الحقّ — اي الحصانة من تفتيش البوليس المصري — للتفلّت من العقاب الذي تستحقهُ . ثم ان هؤلاء كثيراً ما يشتركون مع بعض المصريين ليسبغوا على الاعمال المشتركة حقوق الامتيازات ، ويغلب ان تكون هذه الاعمال المشتركة اماكن للميسر او تعاطي المخدرات او الاتجار بالرقيق الابيض . فاذا قرّر البوليس المصري ان يفتش هذه الاماكن اضطرتهُ المعاملات الرسمية التي لا مندحة عنها بحسب نظام الامتيازات الى التأخر فتتاح للمتهمين فرصة التهرّب والنجاة . والامثلة على ذلك كثيرة

خطبة رفعة النحاس باشا
في مؤتمر الامتيازات

[وجهت الحكومة المصرية دعوة الى الدول صاحبات الامتيازات في مصر لتوفد مندوبيها الى مؤتمر يعقد للبحث في الغائها . وقد بدأ المؤتمر عمله يوم ١٢ ابريل في بلدة مونترو بسويسرا فانتخب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية ورئيس الوفد الرسمي المصري رئيساً للمؤتمر فألقى رفعته خطبة جامعة بين فيها حقوق مصر وموقفها أبلغ بيان فنشرنا نص الخطبة كما نشرت في جريدة « المصري » مترجمة عن النصوص الفرنسية التي نقلتها بالتلغراف ، وقد اضطرنا ضيق المقام الى الاستغناء عن كلمة الشكر التي وجهها النحاس باشا في مستهل الكلام الى حكومة سويسرا ورئيس اتحادها وسكرتير عصبة الامم]

ايها السادة : اني واثق كل الثقة وأنا التي هذه الكلمة في مستهل المفاوضات التي نبدأها اليوم انهُ من المتجلي لكم ان حسن نية الحكومة المصرية متوفر لكم جميعاً كما اني واثق بان هذه النية الحسنة من جانبنا تقابلها نية حسنة ايضاً من لدن الدول ذات الامتيازات

واننا ونحن اقوياء بحقنا واقوياء باعتدال المقترحات التي نقدمها واقوياء كذلك بروح التفاهم الذي يخالجكم قد دعوناكم الى هذا المؤتمر الذي سيوثق على قاعدة اكثر مرونة وانسجاماً العلاقات بين مصر والاجانب ويسم صلاتنا المقبلة بروح حيوية جديدة

ان المشكلة التي سنبحث حلها معاً هي بالاختصار من أبسط المشكلات ومن اكثرها وضوحاً ونحن نعرضها للبحث بصراحة تامة اذ نطلب الغاء الامتيازات حالاً واننا اذ نفعل ذلك لا نطالب بشيء من شأنهِ ان يثير المخاوف او الظنون وحسبنا لاقامة الدليل على عدالة قضيتنا ان نذكر ان جميع الدول تعمل على تحقيق المساواة في المعاملة لرعاياها وكل ما تطلبهُ مصر هو ان تعيد مساواة ابنائها الوطنيين بالاجانب المقيمين في أرضها

ايها السادة : ان الامتيازات تؤلف نظاماً يتعارض تعارضاً استثنائياً مع روح العصر ولا ينسجم مع حالة مصر الحاضرة ومع حياتنا الوطنية بل هي اعتداء فاضح على كرامة البلاد وعلى تطبيق مبدأ سيادتها فضلاً عن انها تشل حركتها بين الدول المتحضرة

ثم ان هذا النظام قد زال تقريباً من جميع البلدان التي كان قائماً فيها ولاسيما في تركيا حيث كان منشأه وقد ورثناه عنها ، افلا يكون من العجيب ان يظل قائماً في مصر في هذه الساعة

ولا يسع المرء ان يتصور ذلك عندما يذكر التقدم الذي تقدمتهُ مصر في جميع الميادين وفيه دليل على نموها وتطورها الى اعظم درجة . وفي الواقع ان مصر قد بنت على احدث القواعد نظم التشريع وادارة القضاء وتنظيم المالية في الداخل وفي ادارتها وفي البوليس. وعلاوة على ذلك فان مصر

محكومة بدستور مستمد من اكثر المبادىء الدستورية تحولاً وتقدماً وحياتها البرلمانية حرة وثابتة ومصر بلاده سالمة الى اقصى حد وهي تحترم المصالح الشرعية وحسن ضيافتها مضرب المثل . فنحن اذن نتقدم الى هنا ولنا ثقة بان دوام الامتيازات سيبدو لكم امراً لا يمكن التسليم به كما يبدو لنا تماماً

لقد قلت ان الامتيازات اعتداء صارخ على سيادة مصر واقول هنا انها انشئت في الاصل لضمان الاجانب من كل حيف او غلو في المعاملة في الضرائب والرسوم وقد تحولت شروط اقامتهم في مصر على مرّ الزمان وتباعاً تحولاً اضاف الى هذا الضمان ما سمي ضمانات مالية جعلت الاجنبي غير خاضع لدفع ضريبة الا" اذا وافقت الدولة التي ينتمي اليها على ذلك

وسيكون من رأي حضراتكم حتماً ان حالة كهذه لا يمكن السماح بها وستقدرون ما لقيود كهذه من نتائج في عالم اقتصادي معقد وازاء مقتضيات مالية تزداد زيادة مطردة فانها — اي تلك القيود — لا تمكن من تحقيق اي تقدم مستمر كما انها تحول دون تحقيق اي عمل اجتماعي واسع النطاق بعيد الاثر . وبين المساوىء التي ولدتها الامتيازات بتفسيرها تفسيراً خاطئاً وبتطبيقها تطبيقاً سيئاً فاسداً يجيء في الطليعة الامتياز المالي فهو من أثقل تلك الامتيازات وطأة على حرية العمل في الدولة المصرية اذ لا يسع الدولة ان تفرض ضرائب على الوطنيين بدون ان تفرض الضرائب ذاتها على الاجانب وذلك تطبيقاً لمبادىء الانصاف الاولية ولتجنب المداورات والهرب من الضرائب

ويقال مثل ذلك عن الضمانات التشريعية والقضائية التي نشأت عن الاغلاط عينها وعن التفسيرات ذاتها فقد نشأت سلطة القناصل القضائية في بادىء الامر نشأة متواضعة جداً في مستهل عهدها وكانت مقتصرة على الخلافات والمنازعات التي تقع بين اجانب من جنسية واحدة فانتهى الامر بواسطة سلسلة من الافتئاتات الفاسدة الى خلق حالة شبيهة بالفوضى وكان يكفي ان تمنح احدى الدول نفسها امتيازاً ما لا حق لها فيه لكي تسلك الدول الاخرى مسلكها مع اعترافها بعدم شرعية ذلك الامتياز ، وقد صحب هذا التوسع في الامتيازات تعمق في تطبيقها ، فانهُ منذ سنة ١٨٥٠ لم تزدد الامتيازات فقط بل انها اصبحت تنطبق على عدد اكبر من الناس ، ومن هنا غدت العلاقات بين المصريين والاجانب اكثر تعقيداً مما اوجد حالات جديدة للنزاع كانت تسويتها ذريعة جديدة لافتئات جديد

وافضى تراكم المخالفات والاساءات الى ان اصبح الامر سيئاً الى الاجانب انفسهم وهذا ما أدى في الواقع الى انشاء المحاكم المختلطة وبينما خطر للدول ان تكون هذه المحاكم بمثابة هيئة تحت التجربة قررت حكومة الخديو ان تكون المحاكم المختلطة نظاماً مؤقتاً ريثما تؤلف هيئة من القضاة المصريين مدربين على النظم الاوربية وتنظم السلطات القضائية الاهلية ، وفي تحديد مدة المحاكم المختلطة بخمس سنوات في بادىء الامر ثم ادخال نص حق الغائها بعد اعلان الدول

بسنة من الزمان — حقق في نظر هؤلاءِ واولئك هذه الصفة الوقتية بوجه خاص

ان الغرض الذي اتجه اليهِ الخديو اسماعيل ونوبار باشا رئيس وزرائهِ اي انشاء قضاء يطابق روح العصر والعمل على انشاءِ هيئة قضائية وطنية منسجمة قد تحقق من زمان طويل . فأنشئت قوانين مستوحاة من الارتقاء الحديث في التشريع لكي تطبقها المحاكم الاهلية

وقد بدا في هذه القوانين وتنظيم المحاكم الجديدة تحسينات جمة بالقياس الى القوانين التي وضعت قبلاً . فالمحاكم الاهلية التي انشئت منذ نصف قرن قد اجتازت دور التجربة ودلّت على كفايتها . والحكومة المصرية لم تكفّ مطلقاً من ناحيتها عن ادخال جميع وجوه الاصلاح التي دلت التجارب على وجوبها

واذن يحق لنا ان نقول ان مدة المحاكم المختلطة قد انتهت

ولكن لما كانت مصر ترغب في ان تقيم الدليل على اعتدالها وعلى محافظتها في نطاق امكانها على مصالح الافراد المرتبطين بطبيعة اعمالهم بهذه المحاكم لم تشأ ان تفكر في الغائها الغاء عاجلاً وقبلت الاحتفاظ بها خلال مدة معقولة على ان لا تطول اكثر مما يجب

ولكن ذلك لا يمكن ان يطبق على وظيفتها التشريعية . ولا يسع المرء الاّ ان يدهش من ان محكمة للعدل مكلفة تطبيق القوانين يكون لها اختصاص تشريعي . والواقع ان من نتائج الامتيازات غير المتوقعة والتي لا يمكن تفسيرها انهُ بينما كانت الدول غير معنية الاّ بالضمانات القضائية حملت مصر على طلب موافقة الدول على كل تعديل في القضاء المختلط . وقد قبلت هذه الدول بعدئذٍ ان تعهد في سلطتها الى الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . ولكن في ذلك حالة لا تتفق مع مقتضيات حكومة عصرية

ان هذه الحالة حالة القاضي المشرع مناقضة بداهة لمبدأ فصل السلطات . ومن ناحية أخرى لا يسمح الوقت للقاضي ولا مؤهلاته ولا عدم حمله المسؤولية التشريعية بالنهوض بهذا العمل

وعلاوة على ذلك وبوجهٍ خاص ان هذا تحديد خطر للسيادة ليس أقل نتائجه انهُ يجعل من المتعذر التفسير التشريعي للقوانين وهذا تخالف لروح التشريع اذ كيف يستطيع البرلمان وهو الاداة الطبيعية للتشريع ان يوفق بين عمله وبين حالة كهذه تنتقص من حقهِ العام

وان مصر التي في وسعها ان تضمن لسكانها الاجانب والوطنيين قوانين هي من أرقى القوانين ولها مجلسان تشريعيان ودستور هو من اكثر الدساتير حرية لا تستطيع ان تقبل الاحتفاظ بامتياز مرهق كهذا الامتياز . فمن الطبيعي ان يشتمل برنامجنا على الغاء الامتيازات من جميع وجوهها ومنها الغاء عاجل لكل حصانة تشريعية بما فيها الحصانة المالية

أما المحاكم المختلطة فلا يمكن ان تبقى كما هي خلال فترة الانتقال لان هذه الفترة لم تقترح

الا" لتفضي الى الغاء المحاكم المختلطة بتحولها تحولاً تدريجيًّا . ولولا ذلك لم يكن ثمة مانع من ان تلغى حالاً . ولكن الرغبة في ان تجعل هذه الفترة فترة انتقال حقيقية ولكي نصل تدريجاً الى الغرض المقصود نبغي ان نسير بطريقة تجعل هذا الانتقال يتم من غير رجة

وهذه الطريقة تشتمل على اجراءين : أولاً — نقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة . ثانياً — انشاء نظام للمحاكم المختلطة تقل فيه العناصر الاجنبية تدريجاً فتمهد السبيل لقيام المحاكم الاهلية بعملها

أما ما يتعلق بنقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة فيفسر بضرورة توحيد ادارة القضاء . وليس ثمة ما هو أعظم خطراً من تعدد القضاء الجنائي في بلاد واحدة لان القانون الجنائي يجب ان يكون وحدة متماسكة تبين الاجراءات الضرورية لحفظ الامن والنظام في بلاد ما في وقت معين واذن لا يمكن للعقل ان يتصور الاعتماد على قوانين أجنبية ومحاكم أجنبية لحفظ النظام بمصر

وعندنا في هذا الصدد أمثلة تبعث على القلق تدل على عدم المساواة في الاحكام في قضايا حكم على أصحابها او المشتركين معهم أحكاماً مختلفة في جرائم واحدة او جنح واحدة

أما في ما يتعلق بنقل قانون الاحوال الشخصية الى المحاكم المختلطة فليس هناك أي صعوبة فعدا كون هذه المحاكم كانت تنظر الخلافات التي من نوع شخصي علاوة على غيرها من الخلافات المدنية التي من اختصاصها فانها لن تكون أقل قدرة على تطبيق القوانين الاجنبية من تطبيق القوانين المختلطة . ثم ان مجموعة قواعد القانون الدولي الخاص تكفي لطمأنة الجميع وتبديد كل المخاوف

أما الاجراء الثاني اي انشاء فترة انتقال فغني عن البيان ان الخطوة الاولى هي الغاء مبدأ اكثرية القضاة الاجانب . ان هذا المبدأ لا يمكن ان يتفق وفكرة الانتقال نفسها . فاذا بدأنا بفكرة ابقاء القضاة الاجانب القائمين بالعمل الآن كان القول بالغاء مبدأ الاكثرية الاجنبية هو الصيغة الوحيدة التي تضمن الانتقال الحقيقي . فالقوانين الخاصة بالقضاة في ما يتعلق بعدم نقلهم او عزلهم والضمانات الضرورية لصون استقلالها تبقى من دون تغيير تقريباً . ولكن أهم التعديلات تتعلق بمادة الاختصاص وهي من نوعين مختلفين

فتعديلات النوع الاول تقصد الى توسيع نطاق القضاء والاخرى الى تحديده في بعض النقاط وهذه الاخيرة مرتبطة بمستحدثات قضائية في المحاكم المختلطة وهي تحديد معنى « الاجنبي » ومعنى « المصلحة المختلطة » وغيرها وان القاعدة الجديدة في التنظيم القضائي انما تعود الى الفكرة الاصلية التي توخاها واضعو لائحة ١٨٧٥ بابقائهم المساواة التامة بين القضاء الاهلي والقضاء المختلط وبالنص على انهُ من حق الاجنبي اذا شاء ان يخضع للمحاكم الاهلية

اما في القانون الجنائي فسيحتفظ بالقوانين القائمة في المحاكم الاهلية ويضاف اليها الاختصاص في الجرائم والجنح التي يرتكبها الاجانب

أيها السادة: هذه هي القواعد الاساسية للمشروع الذي سيتشرف الوفد المصري بايداعه مكتب المؤتمر

فليطمئن الأجانب الذين لا يعرفوننا . ففي أي بلاد من بلدان العالم يرون انسجاماً بين الاجانب والوطنيين أتم مما يرونه في بلادنا ؟ أين يجدون حسن ضيافة وتساهلاً ولطفاً في العلاقات وظرفاً في المعاملات ومودة حقيقية بلغ من تغلغلها في القلوب من زمن بعيد ان أصبحت تقليدية وكأنها طبيعية . والى شعور الصداقة هذا ينضم عامل آخر هو عامل مصلحتنا في المحافظة على تعاون يؤذن في المستقبل بخير الثمار . ومن الواجب عليَّ في هذا المقام ان اذكر بالاحترام العلماء والمعلمين والماليين والتجار وجميع اجيال الاجانب من اصحاب المواهب العالية والنية الحسنة الذين ما زالوا منذ قرن من الزمان ينقلون الى بلادنا كنوز معرفتهم وخبرتهم ونشاطهم. ان ذكراهم ستهيمن دائماً على العلاقات الودية المتوثقة لحسن الحظ بين جميع سكان بلادنا وتبدو خاصة في الاحتفاء الطيب الذي تعده مصر لضيوفها الاجانب . ان تقاليد التساهل والتسامح التي اقامت مصر عليها الدليل دائماً في الماضي تسمح للمصالح الاجنبية المادية بل للمصالح الذهنية والمعنوية كذلك بأن تنمو نمواً حراً في ظل القانون

ايها السادة : بعد معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدناها مع بريطانيا العظمى تنوي مصر ان تنتظم قريباً في جامعة الامم لكي تنهض بحرية بنصيبها من التبعات الدولية في خدمة السلام والانسانية على اساس من المساواة مع الدول الاخرى. وان مصر لتشعر بتبعاتها الحقيقية ولكنها لا تكون خليقة بمكانتها الا اذا عنيت دائماً بالعمل والتعاون مع الجميع لتضمن العدل والسلام

وعلى كل حال فان مواطنيكم الذين يقطنون بلادنا قد ادركوا ذلك من زمن بعيد ولذلك اشتركوا بنصيب فعال في افراحنا القومية التي صحبت توقيع المعاهدة البريطانية المصرية

واذا كانوا وقد عاشوا في وادي النيل المطمئن ورأوا حتى في أشد الساعات حرجاً أشخاصهم وممتلكاتهم مصونة فكيف لا يستطيعون الاستيثاق من ان هذا الصون سيكون أتم في المستقبل في ظل حكم طبيعي سوي ؟

ومن بواعث سرورنا العظيم ان نرى مواطنيكم محتفظين بصلاتهم العاطفية والعقلية بأوطانهم لا يترددون مطلقاً في الدخول في نطاق الوطن المصري الذي ينوي ان يبسط من دون تمييز على جميع دوائر النشاط نعمة القوانين العادلة المعتدلة الحرة . اننا نريد ان نصل الى نتيجة ولا بد ان نصل

ومهما تكن المصالح التي يتناولها هذا المؤتمر كبيرة فان نجاح المؤتمر مصلحة اكبر لانهُ يفسر في مصر بانهُ البرهان القاطع على روابط الصداقة القديمة التي تربط المصريين والاجانب

امتيازات الملوك

بقلم امين الغريب

مما يستحق الذكر ان الملوك لا يدفعون رسوماً ولا ضرائب لمحض ان هذه الفرائض قد ضربت على الناس لاجل تأييد العرش وتأمين معاش كافٍ وافٍ للجالس عليهِ سعيداً . فلا يعقل ان يؤخذ من جيب الملك نفسهِ بعض المال ليوضع في الجيب الآخر

على أن هذا المبدأ قد تغير الآن . وصار الملك يتناول مرتباً مخصصاً لهُ من الخزانة . اما باقي الواردات فبدلاً من ان يكون اليوم كما كان في الماضي مطلق التصرف بها يأخذ منها ما يشاء ويعطي ما يشاء — صارت الآن محرمة عليهِ تنفق بمعرفة المجالس النيابية على مصالح الامة

او — كما هي الحالة في بعض الاماكن البائسة — على مصالح الموظفين دون سواهم من الامة

فاليوم جورج السادس ملك الانكليز لا يستطيع ان يكافىء شاعراً مدحهُ بقصيدة مثلاً — بعشرة آلاف دينار كما كان الملوك يفعلون في صدر الدولة العربية . او عند ما يسمع نكتةً لطيفة من زائر غريب أن يصيح بأعوانهِ : « زهْ . زه . املأوا فمهُ ذهباً » كما كان يفعل كسرى انوشروان. ولئن اعطى احد ملوك اليوم شيئاً زهيداً فذلك من مخصصاته المعينة المسجلة

على ان ملك الانكليز الاسبق جورج الخامس لما تبوأ العرش البريطاني سنة ١٩١٠ سئل هل يريد ان يقتفي اثر والده ادوارد السابع وجدتهِ فكتوريا في عدم التمتع بحقهِ القانوني الذي يعفيه من دفع الضرائب فأجاب : « كلاّ . بل اريد ان اتمتع بهذا الحق واعفى من جميع الضرائب والرسوم »

وقد قال ذلك بناء على رأي مستشاريهِ طبعاً . اما الملكة فكتوريا فكانت قد تنزلت عن ذلك الحق ودفعت الضرائب لان الاحوال في بداية عهدها (سنة ١٨٤٢) اقتضت انشاء (بل اعادة) الضريبة على الدخل . وهي ضريبة عادلة اشدّ انطباقاً على العقل والمنطق من سائر الضرائب المفروضة على الشعوب . فالذي يربح مالاً من اي وجهٍ كان يدفع الى الحكومة رسماً على ما يربح . والذي لا يربح يعفى بطبيعة الحال . وهكذا لا يبقى الفقير مظلوماً والغني غير ممسوس بشيء كما هي الحال في البلدان المتأخرة . لكن الانكليز ولاسيما اغنياءهم لم يرتاحوا طبعاً الى القانون الجديد . وكانت فكتوريا العاقلة الرصينة مقتنعة بصوابهِ. فأعلنت انها تتنزل عن حقها في عدم دفع الضرائب وتخضع من تلقاء نفسها له قاصدة بذلك ان يخجل المتذمرون وتزول العقبات كلها من امام الجباة

ولما خلفها ادوارد السابع تابع العمل العظيم الذي بدأتهُ والدتهُ العظيمة . وزاد على ذلك بعد عامين من جلوسهِ على العرش انهُ تنزل عن حقهِ في اعفاء ما يرد باسمهِ من الخمر والمشروبات الروحية والدخان من المكوس الجمركية. وكان هذا المبلغ جسيماً لان هذه المكوس باهظة وما يرد من تلك الاصناف على البلاط الملكي مقادير كبيرة وقد استحسن الملك ادورد السابع ان يخسر من مخصصاتهِ ذلك المبلغ وهو نحو خمسين الف جنيه في السنة لكي يربحهُ صندوق واردات الحكومة

فلما جاء الملك جورج الخامس ودرس حسابات القصر ودقق في سجلات النفقات والواردات رأى الأمور بغير العين التي كانت لوالده . لان جورج كان يتناول في عهده الراتب عينه الذي قرره القانون لجدتهِ فكتوريا عام ١٨٣٧ ووالده ادوارد السابع سنة ١٩٠١ ومعلوم ان الجنيه في عهد فكتوريا كان يشتري أكثر كثيراً من الجنيه في عهد جورج . ولهذا أبى الحفيد ان يتابع الخطة التي درجت عليها جدتهُ . وأقرته الحكومة على عمله بكل طيبة خاطر

على ان الملك جورج الخامس تخلص في هذه الخطوة من كل ملامة وعتب من جانب رعاياه باتفاقهِ مع الحكومة على ان تدير هي الأملاك المخصوصة بهِ من أراض زراعية ومسقفات كثيرة لحسابها لقاء ثلثمائة الف جنيه تدفعها لهُ نقداً كل سنة . وهي مازالت تدير هذه الاملاك وتربح لخزانة الدولة مبلغاً جسيماً بعد حسم المال المتفق على تخصيصه لهُ

وقد سببت هذه الأعمال في البلاط البريطاني مشكلات عديدة لملوك آخرين . لأن صحافة ايطاليا وبلجيكا وهولندا وأسوج ونروج والدانمارك وفي العهد السابق المانيا والنمسا حملت حملات صادقة على ملوكها كي يقتدوا بملك الانكليز ويتنزلوا عن حقهم القديم في عدم دفع الضرائب . لكن ملوكهم لم يقتنعوا . ولما جاء الملك جورج الخامس الانكليزي أيدهم هو أيضاً في عدم الاقتناع

على ان الشعوب أحياناً اذا أطعمت الكراع طمعت بالذراع . فان الملكة فكتوريا الانكليزية نوقشت في صحف بلادها حسابات مرةً ، مرةً بعد مرةً ، لانها لما تنزلت عن حقها في عدم دفع الضرائب استثنت الرسوم البلدية خصوصاً وتمنعت عن دفعها . وقد بلغ الحقد من بعض المجالس البلدية انها أقامت قضية على فكتوريا لدى المحاكم بطلب تلك الرسوم منها أسوة بسواها . لكن المحاكم أسرعت الى رد هذه القضية ضاربة بها عرض الحائط

وهذه الامتيازات الملكية في انكلترا تتجاوز شخص الملك وتشمل أبعد أنسبائه . من ذلك ان والدة ماري الملكة الوالدة الحالية ، وهي الدوقة تك ، استطاعت قبيل موتها بقليل تعطيل قضية مقامة على زوجها الالماني في محكمة رتشموند البريطانية بطلب رسم بلدي على كلابهِ . وقد سقطت هذه القضية بمحض ان الدوق تك حمو جلالة الملك ، وبالتالي من السلالة المالكة . أما ادوارد السابع فكان ، وهو ولي عهد ، يدفع للمجالس البلدية التي لهُ أملاك في مناطقها تقدمة مالية سنوية .

لكنهُ امتنع بعد تبوإ العرش عن ذلك لكثرة ما آل الى عهدته من الاملاك في مناطق عديدة

أما في ألمانيا فكان الامبراطور والملوك والصغار جميعهم يدفعون المكوس على وارداتهم الاجنبية عند وصولها الى الحدود الخارجة عن حدود ممالكهم الخاصة . فالامبراطور لم يكن يدفع شيئاً لجمرك برلين لأنها في أملاكه . لكنهُ كان يدفع مثل رعاياه لجمارك البلدان الخارجة عن نطاق بروسيا . وقد مازحتهُ الجرائد الالمانية كثيراً عند ما سنت حكومتهُ سنة ١٩١٠ قانوناً يرفع كثيراً المكوس المفروضة على الخمور الفرنسية . فأمر الامبراطور بالتعجيل في استجلاب ملء شاحنات حديدية ثلاث من اجود أنواع الخمور الفرنسية وأطيبها حتى تقطع افريكور بعد ظهر ٣٠ يونيه من تلك السنة . وذلك لانقاذها من دفع الزيادة على المكوس التي كان مقرراً تنفيذها في الغد ، اي من أول يوليه فصاعداً

وقد اهتمت صحف المانيا بذلك لما كان الامبراطور غليوم الثاني يتبجح بهِ من الكره لكل خمر غير الماني ولا سيما الشمبانيا الفرنسية . وهو كرهٌ لفظي لم يصدقه في وقتهِ احد . وما كان بسمرك عالماً باحتيال مولاه في ابدال الورق الملصق على القناني الفرنسية بورق الماني تمويهاً وتضليلاً للجالسين على مائدتهِ الامبراطورية . لان ذلك السياسي الداهية كان يؤكد ان الشمبانيا الالمانية تفسد لهُ معدته . وانهُ مع استعداده الدائم للتضحية بنفسهِ كلها في في سبيل وطنهِ لم يكن مستعداً على الاطلاق للتضحية بمعدتهِ وحدها

والشيء بالشيء يذكر . فنقول ان تمنع الملوك الالمانيين عن دفع الرسوم في بلدانهم كان مع قانونيتهِ يثير عليهم صخب الرأي العام احياناً . فان دوق سكس ماتنجن كان واسع الثروة جداً وقد ادى اعفاء املاكه من الضرائب الى فقر الخزانة غالباً حتى اخذت الحكومة تبث روح المقت لهُ ، وصار كل موظف يتأخر عنهُ مرتبهُ يضع الحق في ذلك على الدوق ويدعو لهُ باشياء كثيرة غير طول العمر

ومعلوم ان بعض الملوك كانوا ولا يزالون يتاجرون نظير رعاياهم لا رأساً وصراحةً بل بالواسطة وفي الخفاء. فليوبولد الثاني جد ملك بلجيكا الحالي كان يدير اشغالاً عظيمة في ولاية الكونغو الحرة . والامبراطور غليوم الثاني الالماني وملوك اسوج وبافاريا وورتمبرج وهس كانت لهم علاقات مالية كبيرة ببعض الفنادق الكبرى وسكك الحديد والمصارف . فلا غرو في ان ينكر الناس عليهم حق التمادي في التمنع عن تأدية الضرائب نظير سواهم من العباد

ولا بدَّ من الاشارة الى ان ليس بين ملوك الارض الذين تقوضت ارائكهم اوسلمت في هذا العصر من يساوي ملك الانكليز في التخفيف عن عواتق رعاياهُ لاجل القيام بأوده . ولا نستثني ملك موناكو وملك لتشنشتين الصغيرتين

ان جمهوريات فرنسا والولايات المتحدة حتى سويسرا نفسها التي رتبت لرئيسها خمسين جنيهاً في الشهر فقط تنفق على رؤسائها اكثر من انكلترا على ملكها واسرته. اما المستعمرات البريطانية والدومنيون فلا تدفع فلساً قط لاعاشة الملك. بينما املاكهُ الخاصة التي تديرها الحكومة لقاء ثلثمئة الف جنيه في السنة تدرُّ لها فوق ذلك نصف مليون جنيه. والملك يعلم ذلك كما كان والده وجده وجدة ابيهِ يعلمون من قبله. لكنهم رأوا ما يصيبهم من هذه الصفقة كافياً فلم يشاءوا الزيادة. وبدلاً من ان تكون الاسرة المالكة في انكلترا عبئاً ثقيلاً على عاتق الامة بلغ الربح الذي اصاب الامة من ادارة الاملاك الملكية من بدء هذه الصفقة اي منذ مائة سنة نحو سبعة وسبعين مليون جنيه. وهذا طبعاً في عداد الاسباب التي لاجلها يحب الانكليز ملكهم كثيراً ويدعون في نشيدهم الوطني: « الله يحفظ الملك »

ومعلوم ان ملك انكلترا لا يزال بمقتضى القانون مطلق السلطة كما كان سلفهُ القديم وليم الفاتح. فهو رئيس الاشتراع في البلاد. وما المجلس النيابي الاّ من اعوانهِ. ولا يصير القانون قانوناً بدون تصديقه. ومفروضٌ حضوره في كل محكمة. وهو قادر على العفو عن جميع المجرمين. ولا سبيل الى مقاضاتهِ او محاكمتهِ على ذنب. لكن هذه الامتيازات كلها صورية فقط لم يسبق لملك أن استعان بها او أمر بامتحان قوتها. لان الملوك في كل مكان رضوا بالتخلي عن كثير من امتيازاتهم الداخلية، ورضوا بالتجويف التام لمركزهم العالي كي يحتفظوا بالسلطة الظاهرة واللمعان الخارجي

على ان الملك الانكليزي مع افتراض حضوره قانوناً في كل محكمة لا يستطيع طبعاً ان يحضر بنفسهِ. وقد امتنع الملوك من عهد فكتوريا عن حضور المناقشات في مجلس النواب. وهم لا يشهدون المجلس الاّ يوم افتتاحه فقط عند تلاوة خطاب العرش. وفي نهايتهِ ينصرفون

ولكن لا يجوز لاحد الوزراء والنواب ان يشير ولو من طرف خفي اثناء المناقشات الى ما هي رغبة الملك او رأيه في موضوع البحث. ففي اجتماع ١٧ ديسمبر ١٧٨٣ قرر مجلس الامة البريطاني: « ان اذاعة رأي حقيقي او مزعوم لجلالة الملك في اية مناقشة كانت من مناقشات المجلسين الاعلى والادنى بقصد التأثير في الاقتراع يعد جرماً كبيراً مضرّاً بشرف التاج ومخالفاً لاساس الامتيازات النيابية ومزعزعاً للقانون الاساسي »

ولما قال النائب تيرني في احدى الجلسات سنة ١٨٠٨ ان احد زملائهِ كان « قد خالف رأي البلاد في خطابه ورأي المجلس وفي اعتقادي رأي الملك » انتهره الرئيس ونبههُ الى ان لا حق لهُ في ادخال رأي الملك الشخصي في المناقشة

في عهد الملك جورج الثالث كان مفروضاً رسم خاص على كل من يعبر جسر همتن. وكان

الملك يصطاد الغزلان مع رفاقٍ لهُ . فانقسموا شطرين وطارد احدهما غزالاً الى ضفة النهر . فسبح الغزال الى الضفة الثانية . واسرع مطاردوه الى الجسر . ولما خشوا من التوقف لدفع رسم المرور ان ينجو الغزال بنفسهِ في الجهة الاخرى صاحوا بحارس الجسر : « الملك . الملك » . ففتح الحارس الباب على مصراعيه . ودخلوا كلهم بدون رسم . ولكن بعد هنيهةٍ جاء الملك نفسهُ ورهطهُ وقالوا للحارس : « افتح للملك » . فرفض الرجل قائلاً ان الملك سبقهم ومرَّ وبعد اللتيا والتي أفهموه انهُ مخدوع ففتح الباب متكدراً وقال : « ان مرَّ من هنا ملك فرنسا فلن أفتح لهُ » . على ان الغزال الذي كان الملك ورهطهُ يطاردونهُ نجا بحياتهِ اثناء الجدال . فغضب الملك واستدعى حارس الجسر ليوبخهُ . لكنهُ عاد فاقتنع بصحة كلامهِ ودفع لهُ الرسم المعين عن اربعين من رفاقهِ

وبعد يومين مرَّ جورج الثالث من هناك وعبر الجسر صائحاً من مركبتهِ بالحارس « ان ملك فرنسا لن يمرَّ اليوم من هنا »

وملك انكلترا يعد صاحب مهود الانهر كلها . وصاحب الجزر التي تتكون على شواطىء بلاده . ولهُ الحق الخاص دون غيره في طبع التوراة وكتاب الصلوات الانكليكانية . وكل سمكة « سلطان ابرهيم » (بوربوني) يصطادها الصيادون تكون لهُ . وكل حوت يكون رأسهُ لهُ وذنبهُ للملكة بمقتضى القانون البريطاني

ثم ان الملك ادوارد السابع وحده كان كاهناً بحسب طقس الكنيسة التابع لها . يأخذ جنيهاً واحداً في السنة من كنيسة القديس داود في وايلس لقاء حقهِ في القاء عظة واحدة كل سنة من فوق منبرها . وكان محامياً قانونيًّا . ودكتوراً في الطب . على انهُ لم يرافع بتاتاً في قضية لعجزه بمقتضى القانون عن الحضور الذاتي في المحاكم . ولم يطبب احداً لان احدى الجامعات اهدت اليهِ لقب دكتور طب ، وهو اسلس من هذا العلم

ومما يستحق الذكر ايضاً ان لملك انكلترا حقًّا قانونيًّا في ان يمنع ايًّا كان من رعاياه من مغادرة البلاد . وان يستدعي ايًّا كان منهم اليها . لان الدفاع عن الملك حقٌّ له على جميع رعاياه ولكن ليس له ان يخرج انكليزيًّا من انكلترا رغم انفه لهذا الغرض . فحق الدفاع عن ملك انكلترا يتناول انكلترا وحدها لا خارجها

وبالتالي كل انكليزي يخرج من بلاده للدفاع عن حقوق العرش والتاج يفعل ذلك من لطفه وكرم اخلاقهِ بمقتضى القانون الاساسي اذ لا حق في ذلك للملك عليهِ

ويعلم الله ان الانكليز قد تلطفوا كثيراً مع ملكهم بخروجهم المتواتر حتى جعلوا الشمس لا تغيب عن املاكه

باب المراسلة والمناظرة

نظرات لغوية في

مختار الصحاح

للأب أنستاس ماري الكرملي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ – تمهيد

ألف الجوهري معجمه (الصحاح) ، فذاع بين الناس ذيوعاً عجيباً وأصبح حجة ، يستشهد به كل من أراد ان يدعم كلامه بدعامة متينة ، او يصحح ، او ينزّه قوله عن كل شائبة أو شائنة . ولما شاع في أندية الأدب ، ومجالس العلم ، حسده عليه جماعة ، وحاولوا ان يحطوا من منزلة صاحبه ، لكن ذلك التنقص زاده علاء وسلطة على من ساوره وعاداه . فكان كل ما أخذوه عليه : « قذيفة شيطان رجيم رمى بها »

وأخذت طائفة أخرى تصنف المعاجم ، ومن وقت الى وقت تشير فيها الى ما في الصحاح من المغامز والاوهام ، فلم يؤثر ذلكم النقد الى ما في بحار الجوهري من الدرر واللآلىء ، بل الفرائد الغوالي ، وبقي تصنيفه عالي المقام ، كما ان القمر ، لا يناله الضرر ، اذا ما عابه الاطفال ، أو شتمه الانذال

هذه هي منزلة ابي نصر اسماعيل من البصراء وفقهاء اللغة . ثم جاء الامام زين الدين بن محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي في المائة السابعة للهجرة ، (وهي المائة الثالثة عشرة للميلاد) واختصره اختصاراً حسناً سماه : (مختار الصحاح) ، فاتخذه كل متفقه أو أديب يجتزىء بالوشل عن الفيض ، وبالقل عن الكثر ، فتخلل الطلبة والمنتمين الى المدارس ، وتناولته أيدي الكبار والصغار ، لأن صاحبه وضعه على طرف الثمام

وقد نسخ هذا السفر مراراً لا تحصى ، وترى منه أمثلة في البلدان العربية اللسان ، لا بل في الديار الاعجمية ، كايران والهند وربوع الترك ، وارجاء الافرنج ، ومطارحهم . وكذا يقال عن طبعه ، فانه نشر في اصقاع شتى ، وأفاد مطالعيه الفوائد الجلى . وأحسن طبعاته ما برز بحلة قشيبة في المطبعة الاميرية العامرة من وادي النيل المبارك ، على ما رتبه صاحب العزة محمود خاطر بك ، وقيده بالشكل الكامل صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية سابقاً ، وعني بتصحيحه وتنقيحه وتعليق بعض حواشيه حضرة الزميل الصديق صاحب العزة الشيخ احمد بك العوامري ، من أعضاء

مجمع اللغة العربية الملكي . ولهذا السبب قررت وزارة المعارف العمومية المصرية طبعه على نفقتها ، واستعماله في المدارس الاميرية ، فجاء تحفة من التحف يتفاخر بها أرباب فن الطباعة ، وأبناء المدارس

ولما كان هذا المعجم في منتهى النفاسة ، مع ما عليه من صغر الحجم ، كان من الحق ان يخلو من كل شائبة ، او وصمة ، او عيب أيًّا كان . وقد رأينا في طبعته هذه ، بعض المغامز نود ان لا تكون فيها في الطبعة الجديدة الآتية ، ونفضل نشرها في المقتطف لما نالت هذه المجلة من الانتشار في الآفاق ، والذيوع بين ظهراني المنتمين الى الأدب الصحيح وعشاق اللغة المضرية

ونحن لا نتكلم هنا الا عن اخلاص نية ، بغية الانتفاع بهذه الفريدة الخريدة صادق الانتفاع ، وسعياً لان يكون آية من آيات التحقيق والامعان في التدقيق

٢ — ملاحظات عامة

قال مرتب الديوان في المقدمة التي صدره بها ما هذا بعضه بحروفه : « هذا وقد أتى على (المختار) من تحريف النسخ والطبع ، ما تنكرت معه صورته ، ورثى له من أجله صاحب العطوفة الهمام ، « حسين فخري باشا » ، ناظر المعارف العمومية ، وصاحب السعادة « يعقوب ارتين باشا » وكيلها المفضال ، فاستقر رأيهما على اعادة طبعه بنفقة المعارف ، وعهدا في تصحيحه وضبطه الى حضرة فضيلة الاستاذ الثقة اللغوي « الشيخ حمزة فتح الله » المفتش الاول للغة العربية في النظارة ، ورغب سعادة الوكيل المشار اليه ان يستتم الفائدة من الكتاب ، وان يسهل على الطلبة تناوله ، فرأى ان يكون على اعتبار الحرف الاول والثاني كما هو ترتيب المصباح ، للامام الفيومي ، وان ترد الى كل مادة مشتقاتها التي يصعب على الطالب ردها اليها ، مع حذف ما لا ينبغي ان يطرق مسامع النشء ، بشرط المحافظة على أصل الكتاب وقد تمّ بحمد الله تعالى وفق المرام » اه

فهذا كلام يدل على ان في (المختار) تحريفاً كثيراً ، منه ما وقع من قلم النساخ ، ومنه ما جاء من الطبع . ولهذا عني العلماء المذكورون فويق هذا بتصحيحه ، واعادة نصه الى نصابه بما في الامكان — الا ان هذا العمل او هذا المسعى الحميد لا يقفنا على ان التهذيب موافق للاصل ، او مقارب له ، اذ لم يذكر لنا ان المصلحين عثروا على نسخة الاصل ، او على نسخة منقولة عن الأم . وكان يحسن بالناشرين او الطابعين ، ان يبحثوا عن مخطوط ، تكون احدى مزاياه ، هذه الحلة الكبرى ، اي ان يكون من نسخة هي ابنة الأم

وقد حصلنا نحن على مخطوط محلى بهذه المزية . ولهذا نرى من المستحسن ان ننشر بعض فصول تفيد متولي بثه بين الأدباء ليستفيدوا منها اذا ما حاولوا اعادة طبعه . وقبل ان نشرع في الكلام ونتصدى للغاية التي نرمي اليها ، يحسن بنا ان نقول كلمات ، توطئة للبحث فنقول :

كان يجدر بالناشر او الناشرين ، ان يقولوا كلمة على النسخة التي اعتمدوها لطبع الكتاب ، ويذكروا اسم ناسخه والسنة التي كتبه فيها . وإلاَّ فمجرد اخراجه للقوم بهذه الصورة ، لا يوحي الثقة في صدر المطالع فيه

وكان يستحسن ايضاً ان يصدر السفر بترجمة المؤلف ، ترجمة مختصرة ، يذكر فيها ايضاً ولادته ومسقط رأسه ويوم وفاته ومنزلته من اللغة وبعد هذا انتقل الى تدوين بعض النظرات

٣ — نظرة عامة في النسخة المطبوعة

١ — نظرة اولى في رسم الحروف

حروف المطبعة الاميرية المصرية « الحالية » مشهورة بانها من ابدع الحروف ، ومن اجمل الخط فهي لآلىء تزري بدر البحار — ان صغارها وان كبارها — الاَّ ان فيها عيباً ، هو انها لا تنقط الياء التي تختم بعض الكلم ، وهي تفعل ذلك « قصداً وعن عمد » لا عن محض اتفاق . وكذلك تفعل اغلب مطابع الديار المصرية ، واغلب طلبة المدارس والعلماء في ربوع وادي النيل ، زاعمين ان سبب اهمال النقط شهرة الالفاظ ولاسيما لان التنقيط وضع للذين لا يحسنون القراءة او انه يهين القارىء كأن الكاتب يحاول ان يبين جهل القارىء . فلو كان الامر كما يدعون فليهملوا تنقيط جميع احرف الكلمة ، او لا اقل من ان تهمل الكلمة التي فيها ياء في رأس اللفظة او في قلبها او حشوها

وقد كتبنا مرة في (المقتطف) الاغر ، وفي رسالة خاصة ، ان اعظم علماء العربية وأمعنهم في اسرارها لا يتمكن من قراءة بعض العبارات ، ان لم يقرأها مرتين او ثلاثاً ، بل ربما لا يمكنه ان يقرأها البتة ، ان لم ينقط آخرها ، ان كان فيها ياءات . وقد عرضنا عبارة واحدة على عدة متبحرين في احكام اللغة واصولها فما اهتدوا اليها ولن يهتدوا ، ان لم يؤخذ بالاصلاح الذي نشير اليه ، ولا بد منه يوماً ، ولو طال الامد

زد على ذلك ان هذا الاهمال سبب اغلاطاً جمة في اللغة ، ووسع مدى التصحيف والتحريف فلا نعود الى هذا الموضوع ، وقد قتلناه بحثاً في ما كتبناه سابقاً ونتمنى ان تجاري مطابع ربوع ديار الفراعنة ، مطابع سائر البلاد العربية اللسان ، كسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، الى غيرها ، فيسهل على المطالعين ، قراءة تلك الكلمات ، من غير ان ينعموا النظر فيها ثناء وثلاث ورباع ، ليهتدوا الى القراءة الصحيحة التي ارادها الكاتب

وليأذن لنا ناشروا هذه النسخة ايراد مثل واحد من هذا المعجم المفيد . فقد جاء في مادة (د م ا) ما هذا نصابه : « ... وتصغير الدم (دمى) وجمعه (دماء) » وضبطت (دمى) بضم الدال وفتح الميم . والذي يعهده القارىء ان (دمى) جمع دمية وزان غرفة وغرف . وتصغير دم : دمي ، بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء المنقوطة فلو كانت الياء الخاتمة الكلمة منقوطة ، لكانت تقرأ (دُمَيّ) ولو لم تضبط اللفظة باي حركة كانت ، لكن اهمل تنقيطها ،

لحار النظر في امرها . وكذلك الفكر . فانظر بعد هذا الى ضرورة وضع التنقيط

وقائل يقول : لو كانت الكلمة تقرأ (دمى) جمع دمية ، لوضع التنوين على الميم ، فوضع الفتحة وحدها عليها ، يدل دلالة صريحة على ان الياء التي تليها تقرأ (دميّ) اي بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء . — قلنا : ولماذا ضبط الكلمة بالضم والفتح « ورشّ الكلمة بابازير الكزبرة والحبة السوداء » في حين اننا نختصر كل ذلك ، بتنقيط الياء فقط ، فنخفف على الطابع تشكيل حرفين ، ونقتصد في الوقت ، وندفع عن منقح مسودة الطبع (كما يقول العراقيون او التجربة كما يقول المترجمون في مصر ، اوالبروفة ، كما ينطق بها عمال المطابع) اذ كثيراً ما يقع المنضد في الوهم حين يكثر بين يديه تقييد الالفاظ . افليس الاحسن ان نختصر كل ذلك بتنقيط الياء — هذا الحرف المسكين المظلوم الذي يبخس حقه بعض الادباء على غير اثم اجترحه — زد على ذلك ان تشكيل اللفظة بالصورة المعهودة ينشىء سطراً جديداً هو سطر الحركات والضبط ، فوق السطر الاصلي الذي هو سطر الاحرف . اوليس الاحسن ان ننقط الياء — وتكون هذه الياء المنقوطة متيسرة لنا في منازل سائر الحروف التي في صندوق الطبع — فنخفف على القارىء ايضاً عناء اشغال النظر والفكر ونحن في مندوحة عنه

هذا مثال واحد لا غير من آلاف امثلة لا تحصى . ونحن نشفق من الاسترسال في هذا البحث ، حرصاً على الوقت وامتناعاً من ان نعل ماء مشرعةٍ كنا نهلناه في ما تقدم من العهد

ب — نظرة ثانية في رؤوس مواد المعجم

وامنيتنا الثانية او نظرتنا الثانية ان يكون اصل الكلمة ، او رأس ترجمتها بحرف ممتاز ريان ، او ضخم ، حتى يسقط طائر الناظر او الباحث عن المادة ، سقوطاً قاصداً ، من غير ان يتصيدها في مطاويها او مثانيها . انظر الى المطبعة الاميركية في بيروت ، فانها جارت المطابع الافرنجية جميعها التي تتخذ الحرف الضخم الممتاز في رأس كل مادة من مواد المعاجم التي تتولى نشرها . (فالبستان) مطبوع على هذا الغرار ، وهو آية في الطبع ، لا في التحقيق . وما يتلو اصل المادة مطبوع بحرف ادق . وهكذا يفعل جميع اهل الغرب في طبع معاجمهم من صغيرة او كبيرة ، فاذا راجعتها على اختلاف قوميات اصحابها ، فانك تلفيها جميعها على هذا الاسلوب البديع الذي اصبح ضرورياً في هذا العصر الذي يرمي دائماً الى التسهيلات والمرجحات وحسن الذوق وجمال المرئيات ، بل اصبح مثل هذا الطبع من اهم ضرائر المطبوعات في عهدنا هذا . والمعجم المنشور بهذه الحلة البديعة يرغب الناس في شرائه ولو لم يكن الشاري من القراء ولا من المحققين وقد تنفق سوقه — ولو كان الكتاب مشحوناً اغلاطاً — وتكسد سوق الكتاب الصحيح التأليف ، او القليل الاوهام لانه لم يتحل بهذه الحلية العصرية . والاختبار احسن دليل على ذلك ، او احسن داع لنشره . فعسى ان لا نبقى في آخر الرعيل في هذا الامر وان نجاري الافرنج فيه كما جاريناهم في شؤون لا تحصى

ج — النظرة الثالثة في الحروف المكسرة

يشوه بعض المطبوعات — ولا سيما المصرية منها ، كأن هذه المزية لحقتها دون سواها — الحروف المكسورة . وهذا امر يجب ان نتلافاه ولا نبقي له اثراً . خذ اي معجم كان من معاجم اللغة الانكليزية او الفرنسية او الايطالية او الالمانية ، وفيها مئات الصفحات ، بل الوفها ، ولا تصيب فيها حرفاً واحداً مكسوراً او ممحواً او مقلوباً رأساً على عقب ، او معيباً باي صورة كانت ، بل ترى العكس ، اذ تجد جميع السطور كثغور الحسان ، بينة التناسق صحيحة ، سالمة من كل علة ولو طفيفة ، بل لاعوج فيها ولا امت . زد على ذلك ان حروف دواوينهم اللغوية ادق بكثير من حروف اسفارنا . وكنا نتوقع ان نشهد هذا العيب في مطبوعاتهم لا في منشوراتنا ، والسبب واضح لان حروفهم دقيقة وتختل مما يكاد يسمى « لاشيء » ومع ذلك فالامر بخلاف المنتظر

هذا (مختار الصحاح) فليس فيه إلا ٧٤٥ صفحة ، وقد وقعنا فيه على حروف مسحوقة او مهشمة تنيف على المائة . افليس هـذا مما يعاب عليه ويشين محاسنه . ومصداقاً لقولنا نذكر هنا بعض هذه المشوهات ، مشيرين هنا الى صحته ويبقى على القارىء مراجعة الاصل لاصلاحه ونشير بالرقم الاول الى الصفحة وبالثاني الى السطر ، ولا نعنى بذكر العمود لان السطور متوازية بعضها لبعض . وكل املنا ان لا يعود الى هذا السفر الجليل مثل هـذا التشويه . ودونك شيئاً من تلك الامثلة :

سُمّي الاسير ١٦ : ٣ — وسمي البدر بدراً ٤٣ : ١ — عليها ٦٤ : ٩ — تأخرت ٧٣ : ٢٠ — استطرادي ٩٠ : ٢٠ — ام زوجها ١٥٨ : ١١ — سمي ١٦٥ : ١٤ — تضربان ١٧٩ : ١ والحلفة ١٨٥ : ١٧ — والجنة ٢٠٣ : ١٩ — الموالاة ٢٤١ : ١٠ — فرضي ٢٤٦ : ٢ — الجدي — ٣١٣ : ١٩ — مازلنا ٣١٦ : ٢ — عذاب ٣٢١ : ١٣ — المروي ٣٢٤ : ١٩ — وترنم ٣٣٢ : ١٧ — والمصوبة ٣٧٢ : ١٥ فقل ٣٧٢ : ١٦ — الحطب ٣٨٠ : ٧ — نبياً ٤١٠ : ٥ — تشبه ٤٢١ : ١٠ — بنات ٤٢٣ : ١٩ — الشيء ٤٢٥ : ١٧ الظلام ٤٤٨ : ١٣ — زيداً (مكررة في) ٤٥٣ — الشيء ٤٥٩ : ٧ — عيال ٤٦٦ : ١١ — معي ٤٦٧ : ٨ — وقضي ٤٨٤ : ١٣ — كناية ٥١٢ : ١٩ — يمين ٥١٣ : ١٢ — والجهلة ٥١٣ : ١٥ — مفيص ٥١٦ : ١٥ — وزيد ٥١٧ : ١٥ — الشيء ٥٢٤ : ٥ والادلة ٥٤٩ : ٥ — قوام ٥٥١ : ٧ — اتجمع ٥٨٥ : ١٧ — زيداً ٦١٠ : ١١ — ثمن ٦٣٠ : ٢٠ — التؤدة ٦٣٨ : ١٥ — والمحدثون ٦٤٤ : ٧ وندّ ٦٥٢ : ٥ — وهجيتها ٦٩١ : ٤ — معناه ٤٠٢ : ١١ — من ادیم ٧٢٣ : ٧ الكسائي ٧٣٩ : ١٩ — وايقظه ٧٤٣ : ٥ — تحالفوا ٧٤٥ : ٣

فهذه خمسون كلمة مكسورة الحرف فنجتزىء بهذا القدر عن ايراد الكل ، اذ به ما يؤيد ملاحظتنا . وكفى

د — النظرة الرابعة في رسم الهمزة

لم نر كتاباً اختلف كاتبه في رسم همزة كلمه مثلما الفيناه في هذا السفر الجليل ، فان طابعه صور الهمزات بخلاف القواعد المتعارفة عند الاقدمين من البصراء بالكتابة وتجويد الرسم . والغريب في هذا الامر ان الناشر لم يخالف السلف وحسب في هذا الاسلوب ، بل ناقض نفسه بنفسه ، ولم يجر ابداً على اصول متبعة ، وربما انحاز الى مذهب طائفة لم يتفق عليه اغلب الصرفيين ، بل سار وراء بعض المتفردين في آرائهم ليشار اليهم بالبنان ، لمخالفتهم « اغلب » ارباب رسم الهمزة

فاما ما اختلف الناشر في تصويرها مع نفسه فكرسمه لاسرائيل واسرائين (في اسر) وجبرائيل (في مادة روح) بالوجه الذي ذكرناه هنا وهو الوجه الشائع عند اغلب الصرفيين وقد خالفه في تصوير ميكاءيل وميكاءين في مادة (م ك ا) بهذا الرسم الغريب المنقول عنه . وكذلك فعل في اسرائيل فانه من بعد ان صوره بهذا الشكل خالفه في ص ١٦ : ٤ — وص ٢٨٣ : ١ — و٢٩٨ — و٢٩٨ : ٣ — و٦٣١ : ٢ و٣ — الى غيرها ولم نفهم سبب هذا الاختلاف في الكلمة الواحدة — والمشهور ماذكرناه اي ان الهمزة ترسم على صورة الياء وهكذا وجدناها في النسخة المنقولة عن الام

واما رسم الهمزة الذي خالف به القاعدة المطردة عند ارباب اصول اللغة فيرى في كثير من الالفاظ ونحن نذكر بعضها مشيرين الى ان الناشر رسم الهمزة الواردة في حشو الكلمة « على خط صغير مستقيم كالسين غير المسننة بل المبسوطة بسطاً . هذا اذا كان ما قبلها مفتوحاً . اما اذا كان ما قبلها ساكناً او مضموماً فيخالف طريقته هذه فمرة يكتبها بلا قائمة تقوم عليها بل وحدها بين حرفي الكلمة ومرة يرسمها على خُطَيط مستقيم واحياناً على صورة الياء . فالقارىء يحار في هذه التيه الذي دونه تيه بني اسرائيل . ونحن نسرد هنا بعض هذه الحروف على ما جاءت بالصورة الواردة في هذا الكتاب :

مئود (ص ٣٢) — يئول . مئوف (٣٣) — توءمان (٧٤) كئوداً (وردت مراراً بهذه الصورة كما في ص ١٨٢، ٣٦٣، ٥٦٠ — رءوسهم في ١٨٣ و٢٦٨ و٢٩٢ و٦٠٩ و٦٨٠ الى غيرها — تئول ١٩٨ — مذءوم ٢١٨ — مراءون ٢٢٧ — ظؤور ٤٠٣ — أظئار ٤٠٣ — ملجؤه ٤٦١ — كؤوس ٥٦٠ — مسؤوته ٥٧٥ كتبت مرتين اخريين في ص ٦١٢ ومرتين في ٦٤٠ و ٦٣٧ — الامئاق ٦١٢ — ابئار ٦١٢ — مريئاً ٢٦٠ — تمالئوا ٦٣١ — المشئوم ٦٧٩ — نئوم ٦٨٦ ومن الغريب انه كتب هؤوراً في ص ٧٠١ ولم يكتبها على مألوف عادته هئوراً . وكتب

موءودة ٧٠٥ — النؤور ٧٢٣ — تواطئوا . وطئاً ٧٢٧ — ومئاً ومرفؤها ٧٣٧ — يؤوس ٧٣٠ الى غيرها مما يطول تعداده

***

اما القاعدة العامة التي قررها الواقفون على احكام العربية وأصولها المتينة فتستخلص في ما يأتي . قبل ان ترسم الهمزة حاول ان تلينها — اذا كانت في الوسط ، الى أحد احرف العلة ثم اكتبها على صورة الحرف العليل الذي أملتها اليه . وان لم تمل أكتبها بلا عماد ، اي وحدها بلا حرف علة . اما اذا كانت في الاول فارسمها على الالف بلا شاذ. واما اذا كانت في الآخر ، فان سبقها حرف متحرك فاكتبها على صورة حرف علة يجانس حركة ماقبلها . واما اذا كان ماقبلها ساكناً ، فارسمها قائمة بنفسها اي بلا حرف عليل . ودونك الشواهد على ذلك

(الهمزة في الأول) : أَخَذ وأُخِذ وإخاذة

(الهمزة في الوسط) — الساكنة مثل يُؤْمِن ويأمَن ، وبئر

(الهمزة المتحركة وهي في الوسط) : موءود ، ومؤونة وفِئة — وتوأم وتيأس وتأمن . وأظآر — سؤول مِئين ، مِئات . سُؤال وذئاب . وسآمة — جبرائيل ، روائِم ، راؤول

الهمزة في الآخر : شنُؤ وبرِئ وأبرأ — شيء وسُوء وراءٌ وخبء

فرسم هذه الهمزات بالرسوم التي خططناها هنا منقولة عن مختار الصحاح وعن الصحاح نفسه . ونسخة هذا الكتاب ايضاً منقولة عن الأم للجوهري

ولهذا لا تكتب شؤون الاّ بواوين وعلى الاولى همزة. ومن صورها على الياء فقد اخطأ وابتعد عن رسم الاقدمين لها وهو الرسم الصحيح الذي لا غبار عليه

***

ولا ننس ان تصوير الهمز على مابيناه هنا هو الذي انشأ لنا كثيراً من الالفاظ التي نقلت الينا بحروفها العليلة اي غير مهموزة بسبب تليينها مثل الخطيئة فانها تركت لنا الخطية غير مهموزة،والذؤنون : الذونون بواو ممدودة ساكنة ، والقانيء : القاني ، والدؤلي : الدولي ، ومساوئه : مساويه . ومن مضارع يؤكد ويؤرخ ونحوهما جاءتنا التواريخ والتواكيد . الى آخر ماجاء من هذه الاشياء المسهلة الكثيرة العدد

(الباقي للآتي) الاب انستاس ماري الكرملي

باب الأخبار العلمية

السيلوتكس

Celotex

خشب يصنع من مصاصة القصب وخواصهُ العجيبة

ما انتشر مقتطف ابريل الماضي بين مشتركيه وقرائه حتى جاءتنا استيضاحات شتّى بشأن مقال السيلوتكس اي الخشب الصناعيّ الذي نشرناهُ فيهِ بقلم عوض جندي الكاتب المعروف لقرائنا فرأينا لزاماً علينا استجابةً لاستعلاماتهم أن نتقصى الموضوع من سائر نواحيه فنقول : —

قد شاهدنا الواح السيلوتكس فاذا بها مختلفة طولاً وعرضاً وثخانة ولا يزيد ثمن المتر المربع منها على ١٢ قرشاً صاغاً ومقاييسها كالآتي : — العرض ٣ و ٤ اقدام والطول ٧ و ٨ و ٨½ و٩ و١٠ و١٢ قدماً والثخانة نصف بوصة وكل ١٠٠ قدم مربعة منهُ تزن نحو ٦٠ رطلاً انكليزيًّا . ودرجة توصيل السيلوتكس للحرارة تكاد تساويها في الفلين الصرف . والسيلوتكس لا يحتوي على غراء . ويكتسب السيلوتكس قوته من تماسك اليافهِ . وفي أثناء صنعه تجعل تلك الالياف مسيكة لكي يصير اللوح كله المصنوع منها مقاوماً للمياه في جميع ثخانتهِ . فاذا مادهن اول (وجه) دهنة من البوية ، صلح جدًّا لواجهات المباني . ويمكن تبييض السيلوتكس بالجبس والمصيص او بتغشيتهِ بطبقة تؤلف من جزء واحد من المصيص وجزءين من الجير . وعلمنا ان مصنوعات السيلوتكس عرضت نماذج منها وبعض صورها الفوتوغرافية في المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٣١ بالجزيرة بضواحي القاهرة حيث نصب كشك كلّهُ من السيلوتكس وزخرف زخرفة انيقة أُعجب بها زائروه أجمعون ولا سيما حينما علموا انهُ يقاوم الحريق اكثر من الخشب الطبيعي مائة مرة لخلوه من المواد الراتينجية التي تساعد على سرعة التهاب الخشب الطبيعي وانهُ لا يتعرض للتسوس ولا لغيره من عوامل الفناء ، فضلاً عن رخص ثمنه . والواح السيلوتكس الكبيرة تلصق بالقار أو الزفت على مباني الخرسانة المسلحة لوقاية السقف من أُوار الشمس والطريقة المثلى المستعملة الآن لذلك :

ان ينظف السقف المراد وقايته من الحرارة الشديدة ومياه الامطار الغزيرة ، تنظيفاً جيداً من التراب وغيره من الانقاض ، وتبسط فوقه طبقة من الزفت السائل

الساخن وتلصق بها الواح السيلوتكس بحيث يترك بين كل لوح والآخر فراغ دقيق لا يجاوز اربعة مليمترات ،على ان يملأ هذا الفراغ ايضاً بالزفت ويلصق فوقهُ شرطٌ من البفتة السمراء المعروفة باسم الدمّور او من الكتان عرضها عشرة سنتيمترات . ثم تغطى الواح السيلوتكس بطبقة من الزفت ايضاً يلصق فوقها نوع من الورق المشمع يسمى سيزالكرافت Sisalcraft وهو ورق متين جداً لا يمكن تمزيقه ولا يخترقهُ الماء ولا الهواء ومعالج بطريقة كيميائية تحول دون استهدافه للتسوس والتعفن والفطر ويساوي المتر المربع منهُ ٢٥ مليماً . وهو مؤلف من طبقتين ملصقتين بالقار . ويغطي السيزالكرافت بطبقة من الرمل يوضع فوقها بلاط السقف المعتاد. وبهذه الوسيلة تصبح درجة حرارة البيوت المسقفة بالسيلوتكس أقل من غيرها نحو ست درجات سنتيغراد . وقد استعمل السيلوتكس في الاسكندرية لوقاية سقوف عدّة مباني ومنها عمارة المؤاساة وفندق سيسل وكلية فكتوريا والمستشفى الايطالي وثكنات مصطفى باشا وغيرها واستعمل في القاهرة في كابينات التليفونات وقايةً لها من ضجة الشوارع وفي مستشفى رعاية الاطفال والولادة وعمارات وسينماتوغرافات جمة ومنها أولمبيا ورويال ودوللي بلاس . وذلك إما للتسقيف وإما للزخرفة وإما للحشو وإما لاخفات الضوضاء الخارجية وتحسين سمع الاصوات الداخلية . وقد بني بالسيلوتكس بيت في الصحراء للمهندسين المقيمين بمنجم السكري لاستخراج الذهب، فوقاهم وهج الشمس المحرقة هنالك . فعسى ان تهتم الحكومة المصرية او يعنى كبار رجال المال والاعمال في هذه البلاد باقامة مصنع للسيلوتكس من مصاصة القصب وعيدانه المصورة ، فنستغنى عن استيراده من الخواجه يوسف أبرام وكيل الشركة الاميركية بشارع الكنيسة الجديدة رقم ٦ بالقاهرة والخواجه مكس ريبو ٣٨ شارع سعد زغلول بالاسكندرية

البصاصة الكهربائية
تحرس السجون بدلاً من حراسها

جاء في احدث الانباء من اميركا ان البصاصة الكهربائية قد جربت لتحل محل الحراس الذين يغدون ويروحون تجاه اسوار السجون . وذلك انهُ متى حاول مجرم الهرب بتسلق حائط السجن تطلق البصاصة عليهِ نوّاً مدفعاً فيجدلهُ في مكانهِ . وفي الوقت عينه تعلن البصاصة الكهربائية ضباط السجن بالحادث . وذلك بأن تسلط عليها شعاعة من الضوء تمتد فوق سور السجن فاذا اعترض ظلُّ السجين الفار تلك الشعاعة تأثرت توّاً البصاصة الكهربائية فتتم الدائرة الكهربائية في باطنها ومنها ينبعث التيار الكهربائي المتصل بالمدفع فيسدده على قمة السور ويدق جرس التنبيه في الحال والبصّاصة هي البطرية الكهرنورية

هل تفعل الاعصاب فعل الغدد

الجهاز العصبي يفعل فعل الغدد كذلك والخلايا العصبية تفرز مواد لها فعل فسيولوجي قوي كما تفرز الخلايا التي في الغدد النخامية والدرقية والكظرين وغيرها

هذه حقائق كانت معروفة عند العلماء في حياة الحيوانات الفقرية ولكن بحث الدكتورة برتا شارر وهي عالمة المانية يدل على انها تنطبق كذلك على الحيوانات غير الفقرية

كان العالم الالماني كرول في مقدمة من وجه النظر الى وجود مفرزات شبيهة بالمفرزات الغددية في داخل الدماغ ثم جاء العالم الاميركي الدكتور باركر احد علماء جامعة هارفرد فأثبت وجود مفرزات في اطراف الاعصاب دعاها المائيات العصبية (نوروهومر)

وتلا ذلك بحث واسع النطاق عن الخلايا والانساج المفرزة في المراكز العصبية نفسها. وقد امتد نطاق هذه البحوث حتى شمل بلداناً كاسبانيا واليابان

وكان في مقدمة الباحثين هذه العالمة الالمانية الدكتورة شارر. فكشفت عن خلايا اطلق عليها اسم الخلايا العصبية الغددية وثبت انها كثيرة الانتشار في الجهاز العصبي في الحيوانات الفقرية

وفي السنوات الثلاث الاخيرة عنيت الدكتورة شارر ببحث هذا الموضوع من حيث علاقته بالحيوانات غير الفقرية كالديدان والحشرات والمحار وغيرها وكانت هذه الحيوانات تلتقط من اماكن متباعدة على سطح الكرة الارضية

وقد وجدت الخلايا العصبية المفرزة في الانساج العصبية في جميع هذه الحيوانات

هذه الخلايا لا تختلف على شريحة المكرسكوب عن سائر الخلايا العصبية ولكن عندما تعالج بالمواد الكيمياوية يظهر حول نواها ما اطلقت عليه الدكتورة شارر «قطيرات الافراز»

وهذا باب جديد في تركيب المادة الحية لا نعلم مدى ما يفضي اليه في المستقبل

البصاصة الكهربائية

معوان لدرس الخمائر

توسل عالم من علماء جامعة بايل بطائفة من الآلات الكهربائية الى اثبات نظرية كون المواد العضوية المعروفة باسم الخمائر ذات تأثير كيمياوي مباشر في حل المواد التي تستعمل غذاء، وفي احداث تخميرها. وكانت البصاصة الكهربائية من هاتيك الآلات فبينت التفاعلات الكيميائية الناشئة من ذلك التضخيم ويقوم بتسجيلها من تلقاء نفسه جهاز الالكتروكارديوغراف، وهو الرسام الكهربائي الذي يرسم حركات القلب البشري

اكتشاف قعر اليم بالراديو المبصر

اخترع عالم في ولاية آيوى بأميركا عيناً لاسلكية تكشف مكنونات قعر البحر، من سفن محطمة وكنوز غريقة ثم تُنقل صورها الى آلة لاقطة توضع على ظهر باخرة الاستكشاف فتسهل أعمال مستكشفي أعماق البحار حيث يقوم المركب الرائد بسبر اللجج . وتركب العين اللاسلكية في وعاء كشاف لا يدخله الماء وهو شبيه بشكل الناقوس « الجرس » ويتسنى توجيهه الى اية جهة وذلك بتحريك الاسلاك الاربعة الحاملة له . ويضاء قعر البحر بفوانيس كهربائية قوية ذات نوافذ كثيفة من البلور الصخري ينبعث نورها فيبين الاشياء جيداً بوساطة طائفتي العدسات الكشافة المثبتة في الوعاء الحديدي الشبيه بالناقوس، ومن ثم تستحيل صور الاشياء التي في قعر اليم الملتقطة بالآلات الكشافة، نبضات كهربائية فتضخم وتجدد بسلك موصل الى جهاز من اجهزة الراديو المبصر المستقبل يوضع في حجرة « قمرة » من الحجر التي على ظهر المركب حيث تؤلف الصور تأليفاً جديداً وتعرض من عدسة على ستار نصف شفاف للمشاهدة . وذلك بمساعدة مجموعة من المرايا المائلة . ثم يطبع من المشاهد المنقولة بالراديو المبصر شريط ثابت مسجل وذلك بتصوير ستار المشاهدة بآلة تصوير السينما

ويتوقع الخبيرون بأن هذا الجهاز سيمنع اخطار الغوص ويقلل نفقات استكشاف الاعماق

كيف اخترعت شبكيات المصابيح الغازية

كان الحظ والمصادفة حليفين عظيمين ومعوانين كبيرين في اختراع شبكيات مصابيح غاز الاستصباح . وذلك ان الغاز كان اولاً يشعل من طرف انبوبهِ المفتوح على ان تسد الفتحة متى اريد اطفاء ضوئهِ بسدادة خاصة فاتفق ذات يوم ان ضاعت السدادة حينما وجب اطفاء الضياء فجاء امرؤ بمدعس مخرم فسد بهِ فتحة أنبوب الغاز المشار اليهِ . فكان ذلك الحدث منشأ اختراع الترمسة القديمة التي كانت تسبب انبساط لهيب الغاز عند اشتعاله . ثم نبغ العالم بنسن فاخترع مشعله المشهور الذي يجمع بين الغاز والهواء ليولد لهيباً ساخناً يكاد يكون عديم اللون وهو في حد ذاتهِ غير صالح للاضاءة. ثم عقبهُ كارل فون فلزباخ فكان ذات مرة يجرب بعض التجارب الكيميائية في معمله فترك محلولاً من الثوريوم والسيريوم وهما معدنان نادران يغليان بنار مشعلة بنسن على خشبة من حجر الفتيلة (اسبستوس او الكتان الحجري) فشاهد اطرافها البالية تبيض بياضاً ناصعاً . فضم فلزباخ مبدأ مشعلة بنسن الى تلك المعلومات التي اقتبسها اتفاقاً فكانت مصدراً لاختراعهِ رتاين المصابيح الغازية التي انتشر استعمالها في الآفاق من ذينك الفلزين النادري الوجود

الغذاء وصحة الاسنان

انذار طبيب

ان مكافحة حفر الاسنان عمل يستغرق الحياة كلها . ولا يقصد بالحياة مداها من ساعة الولادة الى ساعة الوفاة بل يمتد هذا المدى الى ماقبل الولادة عندما يكون الجنين في رحم الام

وقد القى الدكتور كوجلماس — وهو متخصص في امراض الاطفال — محاضرة في أكاديمية نيويورك الطبية قال فيها ان الغذاء الموافق الذي يقي من حفر الاسنان يجب اولاً ان يعطى للحامل . ثم يجب ان توجه عناية عظيمة الى الجانب الاول من حياة الوليد اي من ساعة ولادته الى سن البلوغ لتعزيز قوته على مقاومة حفر الاسنان

ومما قاله ان نحو ٨ في المائة من الاطفال يرثون اسناناً جيدة او ضعيفة او فيها ميل الى هذا او ذاك . وان ٨ في المائة ايضاً لا يتعلمون العناية الوافية بالاسنان

وان ٩ في المائة تنخر اسنانهم او تبقى سايمة لان عددهم سوية او مضطربة وان ١٠ في المائة تؤثر حالة التمثيل الغذائي في اسنانهم

ولكن الاكثرية الكبرى وهي نحو ٦٤ في المائة من الذين يصابون بضعف الاسنان ونخرها ترجع اصابتهم الى سوء التغذية

الصفير يبدد الضباب

تجربة عجيبة

رأينا على لوحة الصور المتحركة من اسابيع صورة عالم اميركي يدعى سانت كلير وقد صنع في انبوب ضخم من انابيب التجارب ضباباً ثم جعل صفارة تصفر في زاوية بعيدة من الحجرة التي جربت فيها التجربة فاذا بالضباب في الانبوب يتبدد رويداً رويداً بتكون كتل صغيرة تهبط الى قعره ثم يصفو فضاؤه مما يشوبهُ

وهذه التجربة على اقتصارها الآن على انبوب البحث العلمي قد تكون سبيلاً في المستقبل الى تطبيقها تطبيقاً واسع النطاق في المدن الصناعية التي يكثر الضباب في جوها

وتفسيرها العلمي يرجع الى اكتشاف تم من عهد غير قريب وهو انهُ اذا رشت برادة الحديد على لوح مسطح وأحدث في جوارها صوت من نغم معين اهتزت دقائق البرادة وتجمعت اشكالاً وانماطاً معينة على سطح اللوح والغالب ان يكون تجمعها حول نقط تصطدم فيها أمواج الصوت بعضها ببعض فيلاشي بعضها بعضاً فتكون تلك النقط خالية من تأثير الامواج الذي يهز الدقائق

وعلى مثال ذلك تهتز الدقائق التي يتألف منها الضباب فتتجمع كما تتجمع دقائق البرادة ولكنها لا تجد سطحاً تستقر عليها فتسقط الى قعر الاناء

عصير الباباز في القوارير
وشيوع هذا الثمر في مصر

الباباز شجر شبيه بالنخل ، ينمو في امريكا الجنوبية . وهو ذو ثمر وسيقان وأوراق تحتوي على عصارة لبنية تُـلَـيِّـن اللحوم الناوزة اذا ما دُهنت بها قبيل طهوها

وقد جاءنا في احدث الانباء من امريكا أنهُ سيعمُّ استعمال تلك العصارة في الولايات المتحدة وغيرها . وذلك أن احدى الشركات في مدينة سينسيناتي بولاية أوهيو قد شرعت في خزن عصير الباباز في زجاجات معتدلة الاحجام لتوزيعها على ربات البيوت ليستعملنها في تحضير شرائح اللحوم القاسية تسهيلاً لنضجها ومضغها وهضمها

والمشهور عن عصارة الباباز أن أهالي جزائر المحيط الهادي مابرحوا من قدم يتوسلون بها لتليين اللحم القصيد قبل طبخه وهم لا يفقهون خصائص تلك العصارة المدهشة اذ تحتوي على مادة البابائين وهي عنصر نباتي معادل للبيسين pepsin الهاضم للبروتين . والبابائين معروف عند الصيادلة بأنهُ من العناصر الاصلية لتركيب الادوية الشافية للتخمة

وقد زرعت أشجار الباباز في ولايتي فلوريدا وكليفورنيا منذ بضع سنين من اجل ثمارها اللذيذة ، وهي رائجة في اسواق الولايات الشمالية

ويزرع الباباز في مملكتنا المصرية وقد بحثنا في شؤونهِ ثم نشرنا نتيجة بحثنا في المقطم (وذلك بمناسبة عطلة المقتطف الصيفية في السنة الماضية) فآثرنا اعادة نشر المقال المشار اليهِ اتماماً لفائدة قراء المقتطف واليك البيان : —

ما كنت ادري حينما كتبت مقالي على الباباز في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٥ ان ذلك الشجر العجيب يزرع في بعض بلادنا المصرية العريقة في الزراعة . بيد ان زارعي الباباز وآكليه قلما يعرفون جميع مزاياه الرائعة التي افضنا في سردها في ذلك الجزء من المقتطف حتى اقيم معرضنا الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة بأرباض القاهرة ، فرأيت لزاماً عليّ ان اطوف بأرجائهِ باحثاً في معروضات بلادنا الزراعية لعلي اعثر على ثمر الباباز ، وهو ضالتي المنشودة ، اذ تذكرت اني كنت قد شاهدت الثمر نفسهُ في المعرض السابق ، بين معروضات السودان التي عرضها حينئذٍ المرحوم الشاهد باشا

فتحقق ظني اذ وجدت الفاكهة المبتغاة بين معروضات مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة فقط ، حيث رأيت ثلاث ثمرات من الباباز معروضة في طبق . فكانت مفاجأة لطيفة قوّت عزيمتي على مواصلة البحث والاستقراء افادة لقرائي الاعزاء . فسألت مندوب المدرسة الزراعية المذكورة آنفاً ، وهو احد المستخدمين في حقولها : ما اسم هذا الثمر ؟ فقال « باباز » وهو يؤكل ناضجاً كالقاوون

والشمام. فاستدركت عليهِ قائلاً « بل هو قاوون الشجر » ثم استزدته ايضاحاً فأجاب « عليك يا سيدي بزيارة مشتل المدرسة في دمنهور فتظفر ببغيتك »

فاكتفيت بذلك وانصرفت، عاقداً النية على السفر الى دمنهور متى حانت الفرصة. ومضت اسابيع بعد ذلك قصدت في خلالها، بحراً، ذات يوم، الى متنزهات القناطر الخيرية، فالفيت في اثناء الرحلة بالدرجة الاولى بباخرة سكة الحديد، التي أقلتنا الى تلك الضاحية الجميلة، راكباً فلسطينياً كهلاً، توسمت فيهِ الفضل والنبل فتعرفت بهِ، فاذا هو (علي افندي المستقيم) من كبار اصحاب البساتين وتجار الفاكهة بثغر يافا. وساقنا الحديث، وهو ذو شجون، الى ذكر الباباز، فسألته رأيه فيه، فقال: زرعته في بستاني بيافا ولم أجنِ منهُ ربحاً يذكر لان اهل فلسطين لا يقدرونهُ حق قدره. وهو يزرع بكثرة في (ريحا) فلاحظت عليهِ قائلاً — لعلك تقصد مدينة أريحا المشهورة. فقال: نعم — لان أريحا بلد رملي حارٌّ يصلح لزرع الباباز، فشجعته على الاكثار من زراعته ذاكراً لهُ منافعه التي اسهبت في ايضاحها في المقتطف، فأثنى على مجهودات هذا الكاتب الضعيف واستبشر خيراً

***

وأتيحت لي فرصة فاغتنمتها وسافرت الى دمنهور ابتغاء زيارة مشتل مدرستها الزراعية، حيث تشرفت بلقاءِ بعض حضرات الاساتذة وكاشفتهم بأمنيتي، فاحتفوا بي وتفضلوا فسمحوا لي بزيارة مشتل مدرستهم الذي يزرع فيهِ الباباز فيممت شطره مع مندوب من قبل حضرة الفاضل ضابط المدرسة

ولقيت في المشتل حضرة ابرهيم افندي صالح، رئيسه، فصارحتهُ بمهمتي، فأحسن استقبالي وزوَّدني بالمعلومات الآتية فاذكرها اتماماً لفائدة القراءِ: —

يثمر الباباز على مدار السنة متى بلغت شجرته ثلاث سنين من عمرها. وتنبت أشجاره من البذور الناضجة النضة وهي سوداء، وتكون ملتصقة بلب الثمر وتكاد تشبه حب الفلفل الاسود، غير انها ذات غشاء زلالي. وتبذر البذور في مكان ظليل بذراً خفيفاً في الاصص أو في مواجير البذرة. وذلك في تربة مؤلفة من رمل أبيض ناعم بمقدار الثلث، ويجعل ثلثاها الباقيان من طمي النيل، مخلوطاً بقليل من روث الخيل، المتعفن (السبلة القديمة) وتغطى البذور بالمخلوط السمادي نفسه بطبقة تواري حجم البذور أي بثخانة نصف سنتيمتر. وتتعهد بالريّ طبقاً للاحوال الجوية. وتزرع البذور ابتداءً من شهر مارس الى آخر شهر اكتوبر ويمكن استفراد النباتات بعد بلوغ طولها من ١٠ سنتيمترات الى ١٥ سنتيمتراً. ومتى نمت في الأصص، وضاقت بها، تنقل الى مكانها الدائم. وتصلح لها الاراضي الرملية فتزكو فيها. وينجم من البذور ذكور وإناث

من الاشجار . ويمكن تمييز بعضها من بعض عند بدء الاثمار . ومنفعة الذكور انها تقوم بتلقيح إناثها ، على ان تكون قريبة منها بحيث لا تبعد ، عنها أكثر من ثلاثة أمتار

***

والباباز يحمل ثماره تحت آباط الاوراق . وبعضها يحمل ثمرة واحدة في حامل زهري ومنها ما يحمل ثمرتين او ثلاث ثمرات . وهذه الحوامل لا تزيد طولها في الاناث على خمسة سنتيمترات . اما في الذكور فتبلغ احياناً متراً او متراً ونصف متر . واعناق الاوراق جوفاء . ومتى نضجت الثمرة جفت الاوراق التي تحتها ، فتذبل وتسقط بنفسها . والذكور لا تحمل ثماراً الا نادراً . وتكون ثمارها خالية من البذور . وطعم لبها شحمي ، وهو أقل جودة من ثمر الاناث وأصغر منها حجماً

ويزرع الباباز بكثرة في بلدة فاقوس بمديرية الشرقية « واول من زرعهُ هناك المرحوم امام بك محمد اسماعيل ، جد حضرة الاستاذ ابرهيم افندي صالح » الذي اقتبسنا منهُ هذه المعلومات

***

ويباع الباباز في تلك البلدة بسعر نصف قرش للثمرة الواحدة . واذا قطفت البابازة من شجرتها خضراء قبيل نضجها وجب عليك حفظها في النخالة اسبوعاً حتى يتم نضجها . واما اذا تركت على شجرتها حتى تستوي ، اصفرَّ لونها وصارت الذَّ طعماً . ويوجد الباباز في قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة . وقد اخبرني حضرة مرشدي ايضاً انهُ هو اول من زرع الباباز في مشتل دمنهور فزرع منه ثلاث شجرات فأثمرت وهي التي شاهدتها انا وتناولت منها ثمرة

والاشجار التي رأيتها في مشتل دمنهور لا تزيد طولها على ثلاثة امتار . واذا خدشتها هي او ثمارها ، سال لبنها وهو كلبن الجميز اللزج ، النافع لعلاج الاكزيما ، كما ذكرنا في مقالنا السابق بالمقتطف

وعلمت ان الباباز يزرع في جزيرة المنانية ببستان السيدة الفاضلة هدى هانم شعراوي ، وفي جهات أخرى من المملكة المصرية . ويزرع أيضاً في بستان المنشاوي باشا في القرشية

وقد اشرت على حضرة محمد افندي امين فؤاد (الفلاح المصري) تاجر البذور المعروف (بشارع طاهر بميدان ابراهيم باشا بالقاهرة) بزراعة الباباز فزرعه في بستانهِ في نوى بمركز قليوب

***

ولا يسعني قبل ختم هذه العجالة الا الثناء المستطاب على حضرات معلمي مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة الذين تشرفت بلقائهم في المشتل ولاسيما حضرة ابرهيم افندي صالح الذي رحب بي كثيراً واسدى اليَّ المساعدة الواجبة خدمة للعلم

عوض جندي

مكتبة المقتطف

في عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد — ٢١٩ صفحة من ورق مصقول حجم وسط
ملتزمة نشره مكتبة النهضة بمصر

أصدر هذا المؤلف النفيس الكاتب الشاعر الاستاذ العقاد فأتحف العربية بذخر من انفس الذخائر الأدبية الحديثة ، كما اظهرنا على ناحية جديدة من أدبه الرائع وصورة من تفكيره العالي المتسم بنفاذ النظرة وصدق التعبير ، وقد تناول العقاد في كتابه هذا فترة شاجية من الفترات الخالدة في الحياة التي مر أشباهها قديماً ببعض الفلاسفة والعلماء والشعراء فأنطقتهم بالنغمات الفريدة ، وأطلعتهم على أبعد أسرار النفس وأطلقت خواطرهم بأسمى المعاني واجرت ألسنتهم بآيات الحكمة . وانك لتلمس في سطور الكتاب روحاً مبدعاً من التهكم الرفيق وتقرأ في فصوله تحليلاً عميقاً للنفس البشرية ، ونوازعها ، واستقراء واسع الاحاطة بالجريمة ودوافعها ، كل هذا في استطراد بديع ممتع واسلوب رائق شائق تشيع فيه الطلاقة والعذوبة والجمال والبساطة . وتلك خصائص يمتاز بها أدب العقاد ، ولكنها في كتابه هذا ممثلة أجمل تمثيل من بدئه الى منتهاه . وأحب ان أقول انه قلما يتاح لمن عبر عالم السدود والقيود من الكتاب والشعراء ان يوفقوا توفيق المؤلف في استكناه اسراره وطلاسمه وأعاجيبه ، في فترة مداها أيام او شهور ، من مرض غير رفيق ، وضيق نفس شاعرة تضيق بنظرتها آفاق الدنيا الرحبة المترامية . ولكن الومضات الخاطفة التي تنطلق من العقول المتألقة تغني عن إدمان النظر في الضحوة الساطعة ، للوصول الى حقائق الحياة وطبائع النفوس . والاستاذ العقاد هو القائل

أنا المفرد الزاري على الكون كله تبسم حال أو تجهم كالح

فهو على ما وصف به نفسه ، وما هو منبث في تضاعيف كتبه واشعاره ، رجل متمرد متوفز الشعور مرهف الحس ، لا يطيق الحدود ولا يأبه للقيود ، فاذا اضطربت روحه بالألم والنقمة على هذا العالم الذي قدر له ان يعبره فلاغرابة في ذلك ولا عجب ، والمفكرون الجديرون بهذا الاسم متمردون بطبائعهم على الحياة يرون النقص والفساد شائعاً في أشكالها وأوضاعها حيث لا يرى الآخرون غير الصواب والتمام فيها . ولكن الجانب الانساني المركب في نفس العقاد كشاعر قضى على هذه الحواجز ، التي تقوم دائماً بين البيئات البعيدة التنافر والتناقض ووصل ما بينه وبين هؤلاء الذين يعيشون في عالم القيود والسدود فآنس فيهم مراداً لتأملاته وأفقاً جديداً لخطرات نفسه، فعاد المتمرد الزاري على الاشباح الهائمة في عالم الحرية والطلاقة ، حانياً عطوفاً على هذه المخلوقات الجاثمة في عالم القيود والسدود ، يستروح متعة العقل والنفس في أحاديثهم وسمرهم وغنائهم ومجونهم وطيبتهم وخبثهم . وفي الكتاب شواهد على ما اسلفنا تطالعك في كل فصل بل في كل صفحة من صفحات الكتاب

علي محمود طه

اسماعيل المفترى عليه

لا شك في ان الخديو اسماعيل هو أول بان لمصر الحديثة ، مصر الاوربية في مظاهرها . فلقد كان طموحاً كل الطموح الى ان يجعل مقر سلطانه بعيداً البعد كله عن أن يعتبر جزءاً من القارة المظلمة افريقيا ، ولم يقصر في هذا السبيل ، ولم يضن على اخراج فكرته بالثمين

ولقد اجتمعت في هذا الرجل العظيم صفات بارزة من الشخصية القوية والعزم المتين والفكر السديد مما ضمن له السير بحكمة بين تيارات مختلفة من رغبات متباينة تثيرها فرنسا من ناحية وانجلترا من ناحية ثانية وتركيا من ناحية ثالثة

مني اسماعيل عند توليه العرش بتركة ثقيلة أورثها اياه سلفه فوجد من الحكمة أن يقف حيال اطماع فرنسا التي رسمتها لنفسها عند التفكير في حفر قناة السويس فيحولها عن وجهتها وبذلك حفظ لمصر سيادتها على أراضيها وأبعد عنها الاستعمار الاجنبي — وقتذاك — وحافظ لها على مرافقها العامة بحرمانه شركة ترعة السويس امتيازاً يعتبر الآن من حق الدولة وهو ترعة المياه العذبة

ولقد كانت بصيرته النافذة الى صميم السياسة الاستعمارية سبباً فيما لقي من عنت أوربا ومحاولتها الاساءة اليه والتشهير به فاندفع كثير من رجال السياسة الى تشويه وجه التاريخ في صفحات هذا الرجل ، ولصقوا به تهمة الاسراف والتبذير على ملاذه وتحميل بلاده الدين الفادح في هذا السبيل

ارتدت مصر بعد اليقظة الاولى التي تنبهت فيها في عهد محمد علي الى رقدة طويلة وخمول عميق حتى آخر عهد سعيد فأراد اسماعيل أن يوقظها على فجر جديد . وطبيعي ان مثل هذه اليقظة تحتاج الى البذل في نواح شتى لبعث الحركة والنهوض في كيان هذا البلد . ونحن الآن في الوقت الذي اتصلت مصر بالعالم الأوربي أوثق اتصال لا نزال نبذل آلاف الجنيهات في الدعاية كل عام بين طبع النشرات واستضافة الصحفيين الاجانب وعقد المؤتمرات الى غير ذلك من ضروب الاعلان عن مكانة مصر الادبية والاجتماعية ورفعها الى المستوى اللائق بها بين أمم العالم . اذا كانت هذه حالنا الآن فما بالنا بمصر منذ سبعين عاماً ، ألم تكن وقتذاك بأشد حاجة منها في وقتنا الحاضر الى الدعاية الطويلة والعريضة معاً وهي في دور التكوين والخلق في كل نواحيها ؟! لقد أراد اسماعيل إيقاظ مصر ولكن تلك اليقظة غالية الثمن فهل يضن عليها بذلك ؟ ان نفسه العظيمة الفياضة بالطموح لتستصغر كل شيء وتسترخص كل غال . غير ان الحاجة الى المال ألجأته الى معاملة شر المرابين الدوليين فكانت النتيجة القاسية ، ولكنها اذا قيست بما أسدى للبلد من ضروب الاصلاح في مرافقها العامة مع مقابلة ذلك بما تفعله دول العالم في هذا السبيل لهانت تلك النتيجة شيئاً ما

تاريخ اسماعيل صفحة شوهتها الاغاليط حتى أصبح صاحبها في نظر المصريين قبل الاجانب المبذر المتلاف الشهواني ذا الرغبات الذاتية . وأصبح كل مؤرخ لعصره يستجمع أقوال كرومر وملنر وكولفن واضرابهم ويستعرضها في بحثه ويرجع اليها كقضايا مسلم بها على فساد التدبير في حكم هذا العاهل

ولكن الحق هو الحق ، وان طال على جحوده الزمن ، فلقد أتيح بعد نصف قرن لهذا الرجل

العظيم مؤرخ قانوني نافذ البصيرة نقادها ، يتبع الحجة بالحجة حتى تتكشف له من بين ثنايا السطور التي خطها هؤلاء الساسة عن حجج قوية في مصلحة قضية اسماعيل المفترى عليه

ذلك هو القاضي الاميركي بير كرابيتيس الذي تصدى لانقاذ سمعة الحاكم المصري فاستطاع ان يخرج لنا صفحة نقية بدّلت وجه التاريخ المصري في ذلك العهد. من ذلك انه اضعف الدعوى الشائعة عن اسماعيل الشهواني الغارق في لذاته فأثبت ان اللذة والاستمتاع وليدتا الكسل ، وكان الكسل أبعد الصفات عن هذا الرجل الذي كان يقضي كل يوم من اثنتي عشرة الى اربع عشرة ساعة في القيام بأعمال الدولة ، ولو فرض انه استطاع ان يترك العنان لنفسه في اللذات لأثر ذلك بمرور الأيام على ذاكرته التي شهد موبرلي بل بقوتها

ومن ذلك ايضاً انه رفع عن عاتق اسماعيل تبعة عدم ملكية مصر اليوم حصتها في أسهم القناة بفقرة من دائرة المعارف البريطانية تثبت ان حصته في ارباح الشركة التي بيعت بعد نزول اسماعيل عن عرشه تمت صفقتها حين كان لورد كرومر صاحب السلطان المطلق في الرقابة الثنائية ،وكان في وسعه ان يعقد بكل سهولة قرضاً بضمان تلك الحصة لو انه ادرك ما في بيعها من الخطر العظيم .وعرض المؤلف امامنا بعضاً من محامد اسماعيل في مقدمتها استنقاذه من الشركة الفرنسية ستين الف هكتار من الارض تساوي الآن اضعاف قيمتها التي قدرها نبوليون الثالث في سنة ١٨٦٤ بمليون ومائتي الف من الجنيهات وكذلك استعادته لامتياز ترعة المياه العذبة

وأطلعنا بالبيانات والارقام الثابتة ما لاقته مصر من ضروب الاصلاح في المرافق العامة في عصر اسماعيل كحفر الترع ومد السكك الحديدية والاكثار من دور التعليم الى غير ذلك مع مقابلتها بمثيلاتها حتى آخر عهد سعيد . وهذا غير ما قام به من مساعدات جمة لبيكر وامثاله من رجال الاستكشاف العلمي في مجاهل افريقيا ومحاربته للنخاسة في السودان وبذله في هذه السبل ما اثقل ديونه فأسدى الى العلم يداً جليلة

وصوّر لنا المؤلف في فصول مختلفة كتبها بروح قصصية جذابة ما كان يتبعه رسل السلطان العثماني مع اسماعيل مما دعاه الى تقديم هدايا ورشاو كلفته اموالا طائلة ، كانت سبباً في اتهامه بالتبذير فيما لا يجدي . وقد دلل المؤلف على ان هذه الهدايا والرشاوى وان بلغت قيمتها ما بلغت يومذاك فانها لا تساوي ما كان يصرفه اسماعيل لو انه حارب تركيا ، فكانت هذه الهدايا والرشاوى سبباً في خطب ود السلطان وحقن الدماء وايقاف خطر مالي جسيم والفوز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي. وقد أورد المؤلف ما كان يعمد اليه بعض الوكلاء الديبلوماسيين الاجانب في استعمال نفوذهم لينتزعوا مالا لتوفية اوقح المطالب واستشهد على ذلك بما ورد في كتاب لورد ملنر « انجلترا في مصر » من حوادث هؤلاء الوكلاء مما يبعث الدهشة ويدعو الى الضحك والسخرية . وهذا قليل بالقياس الى ما انفق على اشياع السلطان

هذه لمحة سريعة الى هذا الكتاب النفيس الذي غير صفحات التاريخ المصري الحديث لحياة عاهل مصر المفترى عليه وكشف عن نواح خفية جديرة بالاطلاع وجديرة بالدرس على ضوء الحجج التي انار بها كرابيتيس السبل على الباحثين ومهّدها لهم حسن كامل الصيرفي

مشكلة السكان في مصر

The Population Problem in Egypt, by Wendell Cleland, 1936

يجد القارىء في مكان آخر من هذا الجزء من المقتطف مقالاً في عدد سكان مصر من العصور القديمة الى ما بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي. وهذا المقال ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليلند « مشكلة السكان في مصر ». ولا يظنن القارىء ان هذا الكتاب يعنى بالموضوع من ناحيته التاريخية فقط، لأن جميع فصوله ما عدا الفصل الأول وقف على دراسة مشكلة السكان من نواحيها المختلفة في مصر الحديثة. فهو يعالج مسائل حيوية، بدأنا ندرك شيئاً من خطرها منذ شرعنا نعالج بشيء من الصراحة موضوع تحديد النسل في الشهور الأخيرة. ومن محاسن الصدف ان يصدر هذا الكتاب والعقول متنبهة للموضوع الذي يعالجهُ بوقوع الاحصاء العام في بدء هذه السنة واهتمام الصحف والجمعية الطبية وعلماء الاجتماع ببحث مشكلة تحديد النسل التي صدر في صددها فتوى شرعية ·

والدكتور كليلند، أهلٌ لمعالجة الموضوع. فقد تدرَّب على اساليب هذا البحث الاجتماعي البيولوجي الاحصائي، في خيرة معاهد اميركا. وهو يقيم في مصر من عشرين سنة استاذاً في جامعة القاهرة الاميركية فدرياً لقسم الخدمة العامة فيها وقد اتصل في خلالها بممثلي جميع طبقات الشعب المصري من كبار رجال الحكومة والتربية الى صغار الفلاحين واولاد الفقراء والمعوزين في مراكز رعاية الطفل. فاتجهت عنايتهُ الى دراسة موضوع السكان دراسة علمية عملية منظمة، كان حاديهُ عليها ما شعر بهِ من العطف على الفقراء واولادهم وما يعانونهُ من الفاقة والمرض، وغرضهُ فهم هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة بغية الوصول الى ما قد ينير الطريق الى حلها

ان عدد سكان مصر قد زاد زيادة سريعة في نصف القرن الماضي حتى بلغت الزيادة بين سنتي ١٨٩٧ و١٩٢٧—٤٧ في المائة والازدحام في سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٤٥ في الميل المربع من الاراضي المزروعة، ومع ان مساحة الاراضي المزروعة لم تزد في المدة عينها الا ٨ في المائة فان تحسين وسائل الريّ جعلت الزيادة في مقدار المحاصيل ٢٨ في المائة. ولذلك زاد ازدحام السكان في ١٢٩ في سنة ١٨٩٧ الى ٢٦٦ في سنة ١٩٢٧ اي ان زيادة الازدحام بلغت ٢٧ في المائة. فمن الواضح ان الزيادة في مقدار الحاصلات الزراعية كان اقلّ من الزيادة في نموّ السكان وازدحامهم

ولما كان ثمانون في المائة من اهل البلاد يشتغلون بالزراعة، والحاصلات الزراعية هي مورد الثروة الاول، فمن الواضح ان زيادة نموّ السكان على نموّ ما يجنى من الارض، لا بدَّ ان تفضي الى خفض مستوى المعيشة، وهو ليس بالمستوى العالي على كل حال. ثم ان توسيع نطاق الاساليب الحديثة في الري، افضى الى زيادة انتشار البلهارسيا والانكلستوما فأضعف انتشارها من حيوية

الفلاحين . ونشاطهم . فالزيادة في عدد السكان قد قابلها هبوط في مستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والصحية

هذا هو قلب مشكلة السكان التي تعانيها مصر ، ولما يبتكر لها حل" . وغرض هذا الكتاب توجيه النظر اليها ، وبحث العوامل الاساسية فيها

لخصنا في غير هذا المكان بعض ما جاءَ في الفصل الاول وهو عرض تاريخي" . ولكن الفصول الباقية وهي ثمانية تقسم بوجهٍ عام الى قسمين . فالقسم الاول يعالج مشكلة السكان من الناحية العددية أو الاحصائية ، وهو يشتمل على الفصل الثاني وفيهِ بحث في المصادر التي يصح الاعتماد عليها ونقدها والفصل الثالث وهو يتناول ازدحام السكان والرابع وهو يتناول المواليد والخامس وهو يتناول الوفيات . اما القسم الثاني فيعالج مستوى المعيشة من حيث الملبس والمأوى والغذاء والثقافة العامة (الفصل ٦) والصحة العامة وصلتها بنظام الري (الفصل ٧) وهل سكان مصر اكثر مما تتسع لهم اراضيها (الفصل ٨)

وقد وقف الفصل التاسع على الاحكام العامة التي خلص اليها من بحثهِ

مصطفى النحاس أو الزعامة والزعيم

درس بحث وتحليل

صفحاته ٥٤٣ من القطع الكبير طبع في مطبعة مصر

هذا كتاب نفيس أصدره الاستاذ عباس حافظ من اشهر كتاب العربية واطولهم باعاً في ضروب البلاغة والفصاحة تناول فيهِ زعامة حضرة صاحب المقام الرفيع دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ذي الرآسات الكثيرة بالتحليل والشرح فوضع بكتابهِ دروساً في الوطنية اقتبست من سيرة زعيم البلاد الكبير وأوحت بها فعاله الغر الميامين . ولقد اتى المؤلف الفاضل على تاريخ نهضة مصر في عهدها الاخيرة باسهاب وشرح ما استلزمهُ البحث من سير النهضات المجاورة لمصر فتكلم عن نهضة ايطاليا بزعامة السنيور موسوليني ونهضة الهند بزعامة مهاتما غاندي وغيرهما

شرح المؤلف كثيراً من خصائص صاحب المقام الرفيع عند ما كان جندياً في ميدان الجهاد الوطني وهو قاضٍ وكيف كان يحمل المنشورات الوطنية ويوزعها على نقابة المحامين ويزوّد المحامين بالاوامر واسهب في فضل نشأتهِ الدينية وطهارته الخلقية والنفسية وقوة ارادتهِ وعملهِ الجليل في رفعة شأن البلاد وظفره بمحاربة خصمه القوي الشديد وحسب القارىء الكريم أن يطلع على بعض الموضوعات التي درسها الكتاب ليعلم ما وراءها وها نحن نذكر منها شيئاً :—

«سر الزعامة والعوامل والمؤثرات في نشأتها والصفات والخواص المشاهدة في الزعامة والزعماء والشخصية البارزة وصفاتها ومختلف مظاهرها وقوة الارادة وضبط النفس واللباقة والروح المرحة والاسلوب والتنظيم وحاجة الزعامة اليهما واخطار الزعامة والعوامل السيئة التي تتأثر بها والزعامة والزعماء في النظام الديموقراطي والمروءة والزعامة في الشرق وظهور غاندي والثورة المصرية في أدوارها الاولى وسعد زغلول في دور التكوين وزعامة سعد وظهور مصطفى النحاس ونشأته . تكوينه وحياته العملية وفي عهد الثورة وسعد ومصطفى يبنيان الديمقراطية والدستور ومصطفى النحاس زعيم الامة وقائد الشعب وفي الكفاح للدستور والاستقلال وتوافر صفات الزعامة فيه » . فمن هذه الموضوعات يتبين القارىء النواحي التي درسها المؤلف الفاضل بأسلوبه الشامل وعقله المفكر وسعة معلوماته ودقيق اطلاعه فجاء كتابه درساً مفيداً للجيل الحاضر والاجيال القادمة

وقد حلل المؤلف نفسية دولة الرئيس الجليل فبين ما فطرت عليه من فضائل وحب الخير وبين قوتها وعزتها وصلتها بالله العلي العظيم واثر الزعيم الديني وفوزه في معترك الحياة لانهُ يستمد ايمانه وثقته من الله وطهارة ذمته وقوة ارادته وحصافة رأيه وكيف اذعن الجميع لزعامته ونختم كلمتنا بهذه الجملة نقتبسها من قول المؤلف قال حضرته في صفحة ٥٤٠ مايلي :

« ولقد اتاح الله لنا في مصطفى النحاس زعيماً مؤمناً ورئيساً وطنياً به دائماً . وفي ذلك قوة اخرى بجانب قوات جهادنا ومناعة من اليأس والوهن تجتمع الى مناعتنا كامة شابة مستبسلة وحصانتنا . . . وبفضل ايمان زعيمنا نجونا من تجربة اعدائنا وظللنا نكافح الى الآن بثباتنا وثقتنا بالله وقوة صبرنا ومراسنا . وما دمنا مع مصطفى النحاس ، ومادام هو المستلهم السماء من اجله ومن اجلنا فلن يقهرنا خصومنا ، ولن نغلب على امرنا مهما تألبت علينا جموع الاعداء والمحاربين

« ولقد تقدم بنا في الجهاد على لحن ايمانه ، وساق بنا الى النصر على حداء وجدانه ففاز في كل خطوة خطاها بمعنى جديد من معانيه ، كلما اشتدت الحلكة على طريقه لتغريهُ بالعدول عن مسيره والرجوع عن وجهه ، انبثق الضياء فبدد الظلام ودياجيه ، وكشف عن جديد من فضائح خصمه ومخازيه وكلما وسوس الامل في صدر اعدائه انهم قد تمكنوا منهُ او كادوا يتغلبون عليه ، دهمتهم داهمة من القدر ، وفاجأتهم مفاجأة جديدة من السماء فانقلبوا من بعد الامل يائسين »

***

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة مصر ومزدان بصور الزعماء فهو درس مفيد في باب الوطنية العصرية

شوقي او صداقة اربعين سنة

تأليف الامير شكيب ارسلان — صفحاته ٣٠٤ قطع المقتطف — مطبعة عيسى البابي الحلبي

كلُّ ما يكتبهُ الامير شكيب ارسلان جدير بالاهتمام وانعام النظر لان فيه متعة للخاطر وغذاء للذهن ، ولا بدع في ذلك فالامير شكيب سريُّ النسب سريُّ الفكر سريُّ القلم وقد اتصل برجالات الشرق العربي وسائر العالم الاسلامي بصلات ودٍّ واحترام متبادلة ، واشترك في اعمال النهضة الادبية والحركة السياسية خلال الاربعين السنة الماضية اشتراكاً فعّالاً ، هيأ لهُ معرفة كثير مما انطوى بانطواء صحف الاقطاب الذين لازمهم وصاحبهم وراسلهم . ففي جعبته سواء اعتمد على الذاكرة ام رجع الى اوراقه ، حوادث ونوادر هي في الطبقة الاولى متعةً ومقاماً عند ما يحين الوقت لكتابة تاريخ هذه النهضة

وحبذا الحال لو اتيح للامير ان يتفرغ لكتابة ذكرياته الادبية والسياسية ، فان اقطاب الغرب جروا على كتابتها في مجلدات هي من انفس ما ينشر على الناس

وهذا الكتاب الذي نحن في صدده اليوم خاص في قسمه الاول بما لايزال عالقاً بذهنه عن صداقته لشوقي ، وقد بدأت من نحو اربعين سنة ، واتصلت خلالها اوثق اتصال ، ويحتوي في قسمه الثاني ، على دراسات ادبية بيانية في امهات قصائد شوقي ومميزاتها

***

يروي الامير انهُ جاء مصر اولاً سنة ١٨٩٠ وكان حينئذٍ بين العشرين والواحدة والعشرين فمكث شهراً في الاسكندرية ثم جاء القاهرة وانضمَّ الى الرهط الملتفّ حول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولم يكن احد قد سمع حينئذٍ « بشخصٍ يقال لهُ شوقي ولا احسسنا لهُ ركزاً »

ثم غادر مصر في تلك السنة ولم يسمع بشوقي ، وكان حينئذٍ راسل الاهرام ، فكانت تصلهُ اعدادها فوقع في احد الايام على ابيات لامية في مدح الخديو توفيق من نظم « احمد افندي شوقي » . قال الامير « ولما كان الناظم مجهولاً عندي لم اشأ ان اضيع وقتي بقراءة الابيات » ولكنهُ لم يطل الامر حتى رأى ابياتاً اخرى لاحمد افندي شوقي فجرّب ان يطالعها فلم يمجها ووضعهُ حينئذٍ في طبقة الشعراء الذين يقال فيهم « من حقه ان تسمعهُ » . وبعد قليل قرأ لهُ قصيدة ثالثة وهي التي مطلعها

ان الوشاة وان لم أُحصهم عدداً تعلموا الكيد من عينيك والفندا

فطرب لها وأعاد قراءتها وعلم ان هناك شاعراً مطبوعاً وأصبح كلما رأى شعراً لأحمد شوقي

يهافت عليه «تهافت الظمآن على نمير الماء لاني رأيت الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين والاسلوب الرشيق الرصين ، اللغة العربية الفصحى التي لا تؤتى من جهة ، والمعنى المتناهي في الدقة اللابس من اللفظ أجمل حلة والانسجام المطرد من الاول الى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد »

ولكن الأمير وشوقي لم يجتمعا الا سنة ١٨٩٢ في باريس وكان الامير قد ذهب اليها مستشفياً ، وشوقي جاءها من مونبلييه حيث كان يتلقى علم الحقوق . وتمّ الاجتماع في الحي اللاتيني ولكن الامير نسي كيف تعارفا «ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين» وكان ملتقاهما مقهى دار كور « وفي أثناء لقائنا الاول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو حديث الشعر وكان مع شوقي ديوان المتنبي . . . » ويروي الامير أنهُ الذي أشار على شوقي حينئذٍ بأن يجمع قصائدهُ ويجعل منها ديواناً فلما سألهُ وأي اسمٍ أعطيه قال الامير : سمه الشوقيات فنسبة هذا الشعر اليك هي عندي كافية . وقد ذكر شوقي هذه القصة في ديوانه الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨ .

***

ومن النوادر اللطيفة التي جرت لهما ان شوقي ذهب الى لبنان ووصل عاليه وكان الامير مصطافاً في صوفر فقيل لهُ ان شوقي في عاليه وانهُ يريد مشاهدتهُ . وكان الامير متوعكاً فبعث الى شوقي ان ينتظرهُ وانهُ يكون في الغد عنده . وبكر اليه في اليوم الثاني وذكر لهُ سبب تأخره فقال شوقي على الفور : رجوت ان تكون كاذباً ولا تكون مريضاً . فقال الامير : المرض احب اليّ من الكذب

وكان آخر اجتماع لهما عند عودة الامير شكيب من الحج ، سنة ١٣٤٧ هـ ، فذهب شوقي الى مقابلته فيها ، وكانت قصيدة شوقي في دمشق ذاعت على الالسن ومن ابياتها في بني معروف واليهم ينسب الامير

لكل لبوءة ولكل شبل   نضال دون غابته ورشق

قال الامير وقد جرّنا الحديث الى هذه القرية فقلت لهُ : عندما بدأت بقولك (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت ان يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارته ورشق) فقال لي (وهي ايه) قلت لهُ هي : (نضال دون غابته ورشق) والغابة هي والمغارة كلاهما مأوى للاسد ولكن الغابة اخف وقعاً على السمع واقرب الى الالسن

رحم الله شوقي ومدّ في عمر الامير ونفعنا بعلمه وفضله

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف يوسف كرم — مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية — صفحاته ٣٠١ قطع المقتطف
اصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر وقد طبع بمطبعتها

هذا كتاب مدرسي متقن في تاريخ الفلسفة اليونانية . ومقام الفلسفة اليونانية في تاريخ الفكر لا يحتاج الى شرح او بيان . ويكفي ان يذكر القراء اسماء اعلام كهرقليطس وفيثاغوراس وانكساغوراس ولوقيبوس وزينون الايلي وسقراط وانبادقليس وديموقريطس وأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطبس القوريني وديوجنوس وزينون الكلي ليعلم اي ذرى بلغتها الفلسفة اليونانية ، في تعاليم هؤلاء الرجال وأحكامهم. والفلسفة اليونانية هي على ما قال المؤلف «فلسفة الشرق الادنى منذ فتوح الاسكندر ، وفلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . . . . اصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ثم اصطنعها المفكرون المسلمون ، ودخلت المدارس في الشرق والغرب فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم»

ليس ثمة مسألة من مسائل الفلسفة لم يعالجها اليونان ، ولم يتحدر اثر ما قالوه فيها الى العصر الحديث . «فقد نظروا في اسمى المسائل مثل الوجود والتغيُّر والخير والشر والاصل والمصير» فكانوا «اساتذة الانسانية»

« وقد اجتازت الفلسفة اليونانية ثلاثة ادوار هي دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول

«والدور الاول فيه وقتان : الوقت المسمى بما قبل سقراط وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة . ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر الى مسائل المعرفة والاخلاق

« والدور الثاني يملأه افلاطون وارسطو . اشتغل افلاطون بالمسائل الفلسفية كلها وجهد نفسهُ في تمحيصها ولكنهُ مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة ، حتى اذا ما جاء ارسطو عالجها بالعقل الصرف ووفق الى وضعها الوضع النهائي

« الدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود الى الاخلاق والتأثر بالشرق والميل الى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية »

وهذا الكتاب من أوَّله الى آخره شرح لهذا الايجاز

هنا اقطاب الفلسفة اليونانية ، في ابواب وفصول وفقرات مرتبة منسّقة على خير ما تروم من ترتيب وتنسيق ، نبذ موجزة في سيرهم متى ولدوا واين نشأوا وعلى من تلقوا العلم والفلسفة

هنا آراؤهم الفلسفية مبسوطة في دقة ، يسيغها قارئ لم يدخل صروح الفلسفة من أبوابها، ويرضى عنها الاستاذ ، وهذا عمل شاقٌ لا يتاح النجاح فيه الاَّ لمن كان كمؤلف هذا الكتاب

أخذ الفلسفة عن أساطينها ثم قضى العمر بعد الاجازة في درسها وتدريسها

معظم الفلاسفة يجتمع طوائف طوائف في هذا الكتاب وفقاً للرأي الفلسفي الذي يؤلف بينهم . فالطبيعيون الاولون ثم طاليس وانكسيمندريس وانكسيمانس وهرقليطس . الاول يقول ان الماء اصل الاشياء، والثاني يفسر تكوين الاشياء تكويناً آليًّا اي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتأثير الحركة ، والثالث ان الهواء اصل الاشياء والرابع ان النار اصل الاشياء

وكذلك فعل المؤلف بسائر الفلاسفة . اما افلاطون وارسطوطاليس فقد افرد لكل منهما باباً خاصًّا به وفصّل آراءها الفلسفية وحلل اشهر مؤلفاتهما

ولعل القارىء يطلب من بعد وصف الكتاب وتبويبه مثالاً على اسلوب المؤلف وهو اسلوب جمع بين القصد والابانة ، فاليه نسوق الفقرة التالية وقد فتحنا الكتاب اتفاقاً لنقل شيء منه فاذا هي امامنا وموضوعها «الفضيلة» وهي في سياق الكلام على افلاطون صفحة ١١٨

ا — الفضائل ثلاث تدبر قوى النفس الثلاث : الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق والعفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء فتترك النفس هادئة والعقل حراً — ويتوسط هذين الطرفين الشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على الشهوانية فتقاوم إغراء اللذة ومخافة الألم . والحكمة أولى الفضائل ومبدؤها فلولا الحكمة لجرت الشهوانية على خليقتها وانقادت لها الغضبية ولو لم تكن العفة والشجاعة شرطين للحكمة تمهدان لها السبيل وتتشرفان بخدمتها لما خرجتا من دائرة المنفعة الى دائرة الفضيلة اذ « ما الهرب من لذة لنيل لذة اعظم سوى عفة مصدرها الشره ، وما خوض الخطر لاجتناب خطر آخر سوى شجاعة مصدرها الخوف . ليست الفضيلة هذه الحسبة النفعية التي تستبدل لذات بلذات وأحزاناً بأحزان ومخاوف بمخاوف كما تستبدل قطعة من النقد بأخرى فان النقد الجيد الوحيد الذي يجب ان يستبدل بسائر الأشياء هو الحكمة بها نشتري كل شيء ونحصل على كل الفضائل ، اما الفضيلة الخالية من الحكمة والناشئة عن التوفيق بين الشهوات فهي فضيلة عبدة » . فالفضيلة اذن من جزئي العقل والنفس ولا يسوغ ان نذكرها الا بالاضافة اليهما ، والحياة الفاضلة لا تستمد تيمتها من لذتها او منفعتها بل من هذه الاضافة ، ويستحيل على من ينكر النفس والعقل ان يبلغ الى معنى الفضيلة

ب — واذا ما سادت هذه الفضائل الثلاث النفس فخضعت الشهوانية للغضبية والغضبية للعقل تحقق في النفس النظام والتناسب . ويسمي افلاطون حالة التناسب هذه بالعدالة باعتبار ان العدالة بوجه عام اعطاء كل شيء حقه . فليست العدالة عنده فضيلة خاصة ولكنها حال الصلاح والبر الناشئة عن اجتماع الحكمة والشجاعة والعفة . اما العدالة الاجتماعية فهي تحقيق مثل هذا النظام في علاقات الافراد ....

الزهاوي

[تابع المنشور على الصفحة ٥٥٧]

وهو في الشرق بحق — في هذا العصر — كنيتشه في الغرب تماماً الا ان الثاني أي نيتشه رام المجد عن طريق الهجوم فحض على الحرب والكفاح والقوة فكان من مفاخر شعره الحرب الكبرى بالامس ، واليوم نظرية الاجناس الشائعة في المانيا ودعوة النازية المتعصبة وطرد اليهود واضطهادهم والقوة السارية في شرايين الامة كالكهربائية والتحفز للوثوب بغية المجد والامل والنضال . أما الاول — اي الزهاوي — فقد رام المجد عن طريق الدفاع . الدفاع عن الشرق المهيض الجناح ، الشرق الذي يترصد له الغرب ويسد عليه السبل ويبغي أن يجعله لقمة سائغة في جرفه الوسيع الذي لا يشبع . ولم يغفل الزهاوي في يوم ما احياء الهمم الراكدة واذكاء روح القوة في النفوس الخامدة وتذكيرنا بماضينا المجيد غير ان ضعف اسلوبه لم يجعل لاناشيده تلك العذوبة التي يستسيغها كل لسان وتشيع بين الناس كالامثال . اما تمرده فقد كان في بعض الاحايين ينصب على رجال الدين ، وذلك يرجع لتأثره بتعاليم استاذه المعري ولان كلا الرجلين لاقى الامرين من تعصب رجال الدين الذين لا يتبعون خطوات العلم ويوفقون بينه وبين الدين

وعلى الرغم من ان بعض المدارس الادبية تظن تمرده هذا انما هو تمرد على الدين نفسه ، فان اناشيده الثورية التي نادى بها يستفز الهمم ويوقد نار الوطنية في الصدور ويشعرنا بكرامتنا المهدورة وحقنا المضاع ووحدتنا المتفرقة مستبسلاً في دعواته الاصلاحية التجديدية قمينة بترددها ألسنة الشباب ، شباب الشرق العربي اولئك الدعاة الجدد الذين يحملون اليوم عبء المجد الثقيل

انظر الى قصيدته «حتى على الاقدار» التي وجهها الى الطلبة الشرقيين والتي بدأها بقوله :

بثوا بألسنة لكم من نار ... ما في جماجمكم من الافكار
سيروا الى غاياتكم في جرأة ... كالسيل هداراً وكالإعصار
ثوروا على العادات ثورة حانق ... وتمردوا حتى على الاقدار !
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم ... فالعصر هذا سيد الاعصار

الى ان يقول وهذا ما لا نقره عليه بعض الشيء :

لا تقبلوا في الدين ما يروونهُ ... الا اذا ما صح في الانظار

الى ان يقول : وتحرروا من قيد كل عقيدة ... سوداء ما فيها هدى للساري
أمن اكتفى بخرافة هو مؤمن ... ومن امترى فيها من الكفار ؟

وهذا دستورنا نحن الشباب ، لكنهُ عند قوله :

انضوا القديم وبالجديد توشحوا ... حتام تختالون في الاطمار

حكم خاطىء ، وان كان يهتدي بهدى المنطق العلمي المنطلق من عقاله — على حد زعمه — فما كل جديد بصحيح وما كل قديم بزائف كما اسلفنا القول من قبل

« للحديث بقية »

فهرس الجزء الخامس من المجلد التسعين

